

قدیم و اشرف
ساجد الشیخ الذی
الشیخ ناصر مکارم الشیرازی رحمہ اللہ

مَنْحَ الْإِكْلَامِ مَنْحَ الْجَمْعِ الْأَنْفَرِ

کتاب التوحید

بمساعدة
جماعة من الفضلاء

تقديم واسراف
سماحة الشيخ المرحوم الشيخ
الشيخ فاضل بن مبارك الشيرازي رحمه الله

مَنْحِلُ الْكَلَامِ

مَنْحِلُ الْجَمْعِ وَالْأَنْفَرِ

كتاب التَّوْحِيدِ

بمُساعدة
جماعة من الفضلاء

سرشناسه: مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵.

عنوان قراردادی: بحار الأنوار، برگزیده

عنوان و نام پدیدآور: منتخب الآثار من بحار الأنوار / ناصر مکارم شیرازی؛ بمساعدة جماعة من الفضلاء

مشخصات نشر: قم: دار الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام للنشر، ۱۴۳۵ ق = ۱۳۹۳.

مشخصات ظاهری:

شابک: (ج. ۲) 978-964-533-206-6

وضعیت فهرست نویسی: فیا

یادداشت: کتابنامه به صورت زیر نویس

موضوع: احادیث شیعه - قرن ۱۲ ق.

شناسه افزوده (شخص): محمد باقر بن محمد تقی، ۱۳۰۷-۱۱۱۰ ق. بحار الأنوار. برگزیده.

رده بندی کنگره: ۴۰۱۸ ب ۳ / م ۱۳۵ BP

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۲۱۲

الناشر الأفضل

لمعرض الدولي التاسع عشر - طهران

منتخب الآثار من بحار الأنوار / ج ۲

سماحة المرجع الديني الشيخ ناصر مكارم الشيرازي (مدّ ظله)

بمساعدة جماعة من الفضلاء

الطبعة: الأولى

تاريخ النشر: ۱۴۳۵ هـ. ق، ۱۳۹۳ هـ. ش

الكمية: ۱۰۰۰ نسخة

رقم الصفحات: ۶۴۰ صفحة

حجم الغلاف: رحلي

المطبعة: سليمانزاده - قم

الناشر: دار الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام للنشر

ردمك: ۶-۲۰۶-۵۳۳-۹۶۴-۹۷۸



عنوان الناشر: إيران - قم - شارع الشهداء - فرع ۲۲

تلفون: ۳۷۷۳۲۴۷۸-۲۵-۹۸++

فكس: ۳۷۸۴۰۰۹۹-۲۵-۹۸++

www.imamalipub.ir

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة المشرف العام

سماحة المرجع الديني الشيخ ناصر مكارم الشيرازي
(دامت بركاته)

منتخب الآثار من بحار الأنوار

«بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام»، كما يظهر من اسمه، فهو بحر من أنوار أحاديث أئمة أهل البيت «صلوات الله عليهم أجمعين» وقد جمعها غواص هذا البحر، العلم التحرير في عالم الإسلام والتشيع، المغفور له العلامة المجلسي «رحمة الله عليه».

عندما شاهد ذلك العلم أن أحاديث آل البيت عليهم السلام متناثرة في كتب مختلفة ومتفرقة في هذه المدينة وتلك، أو في هذا البلد أو ذاك من البلدان والمدن الإسلامية، ويصعب غالباً الحصول على هذه الكتب وتوفرها للجميع، مضافاً إلى أن هذه الكتب تكون بمضي الزمن عرضة للتلف والاندثار مما يؤدي إلى خسارة كبرى للإسلام والتشيع كما حدث مثل ذلك لبعض الكتب قبل هذا؛ من هنا عقد العلامة المجلسي العزم على جمع هذه الأحاديث؛ اعتماداً ومتوكلاً على الله تعالى، فدعى فريقاً من علماء عصره لكي يجلبوا له كل كتاب يجوده من مآثور آل البيت عليهم السلام في أي بقعة من بقاع الأرض لكي يوضع هذا التراث الروائي الضخم في موسوعة عظيمة، بعد ترتيب موضوعي دقيق ومنتظم، من خلال فصول شتى؛ لحمايتها من تطاول الأعداء وعبث الزمان، وقد حالفه التوفيق في هذا العمل المبارك، وبهذه الخطوة الجبارة المدروسة قد ساهم في منع ضياع أخبار آل البيت عليهم السلام. وقد كتب له النجاح بعناية ربانية ولطف إلهي في أن يستخلص الروايات مما يقارب ثلاثمائة وسبعين مصدراً شيعياً وواحداً وأربعين كتاباً شياً في موسوعته المباركة.



وهنا يلزم التنبيه على نقاط:

١. شمولية بحار الأنوار: صحيح أن اسم الكتاب وهو «بحار الأنوار» مع وصف «الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام» يوحي في الوهلة الأولى أن هذه الروايات تقتصر على روايات الأئمة عليهم السلام، إلا أن الواقع ليس كذلك، فإن جانباً هاماً من أخبار رسول الله صلى الله عليه وآله قد رواها أئمة أهل البيت عليهم السلام من النبي الأكرم نفسه صلى الله عليه وآله، بل طبقاً لروايات عدة منهم عليهم السلام قالوا: إن كل ما نأتي به هو مما نطق به جدنا رسول الله صلى الله عليه وآله ^(١).

١. ولمزيد من الاطلاع على هذه الروايات يمكنكم الرجوع إلى كتاب «جامع أحاديث الشيعة»، ج ١، ص ١٨٠.

والأهم من ذلك أنّ قسماً ملحوظاً من بحار الأنوار تضمّن آيات من الكتاب العزيز وتفسيرها، لأنّ العلامة المجلسي بما يملك من ذوق رفيع وقريحة سليمة، قد جمع في أوّل كلّ فصل من فصول الكتاب آيات قرآنية ترتبط بذلك الفصل بشكل وثيق ثمّ قام بتفسيرها، وفي الواقع كان يهدف بذلك، العمل بحديث الثقلين الشريف في الجمع بين «كتاب الله» و«العترة»، وينبغي الالتفات إلى أنّ عمله هذا قد أنجز في زمان لم يكن الحاسوب موجوداً ولا معجم مفهرس متوفّر، تغمّده الله برحمته وأسكنه فسيح جنّته.



٢. غاية العلامة المجلسي القصوى: يبدو من قرائن مختلفة في موسوعة البحار أنّ العلامة المجلسي «طاب ثراه» كان يسعى إلى لملمة جميع الروايات، سواءً المعتبرة منها التي ثبتت صحّتها أو التي لم تثبت، وعلي هذا الأساس فإنّ ورود أحاديث شاذّة في هذه الموسوعة الكبيرة ليس بالأمر الغريب. فينبغي عدم الاكتفاء بما يتفوّه به البعض من وجود أخبار معيّنة في البحار؛ لتحقيق أغراضهم الخاصّة، بل يجب الالتزام بالضوابط المقرّرة عند علماء المذهب في تقييم الأخبار من أنّها مسندة أو مرسلّة، وإن كانت مسندة فهل هي صحيحة سنداً أو موثّقة أو ضعيفة لكي يصحّ العمل بها وهو ما نمارسه حتّى في تقييم أخبار الكافي البالغ الأهميّة والمصادر الأخرى من الكتب الأربعة. واللافت أنّ العلامة المجلسي رحمه الله ذاته عمل في كتاب «مرآة العقول» وهو شرح لأصول الكافي، على نقد كثير من أحاديث كتاب الكافي مع ما يحظى به هذا الكتاب من أهميّة واعتبار. ونحن الشيعة الإماميّة بدورنا لا ندّعي، كما يدّعي الكثير من علماء الجمهور أنّ كتبهم «صاح» وأنّ الأخبار الواردة فيها غير قابلة للنقد، فمنهجنا في نقد الأخبار والروايات يختلف كثيراً عن منهجهم، نحن نعتمد دائماً على الكتب الرجاليّة لتقييم الأخبار من دون استثناء.



٣. ترك المكرّرات والروايات التي ليست موضع ابتلاء: بما أنّ كتاب بحار الأنوار كتاب واسع وضخم، وقد تتكرّر رواية معيّنة مرّتين أو عدّة مرّات وبمناسبات مختلفة في فصول متعدّدة، حاولنا في هذا التلخيص إلغاء المكرّرات من كلّ باب فقط، مضافاً إلى ذلك فإنّ العلامة المجلسي رحمه الله قد نقل بعض الروايات التي تتضمّن مفهوماً واحداً من كتب مختلفة وبشكل واسع، وهذا ينسجم مع الغرض الذي رسمه لمشروعه، ولكن بما أنّ غايتنا التقليل من حجم الكتاب؛ لتيسير الاستفادة منه لكافة الباحثين، فقد صرفنا النظر عن ذكر جميع الروايات التي تتحدّ مضموناً، واكتفينا فقط بذكر رواية واحدة أو أكثر في هذا الشأن. وكذلك نظراً إلى أنّ أساس عملنا يقوم على تلخيص الكتاب، فقد تجنّبنا ذكر بعض الأخبار والروايات الخارجة عن محلّ ابتلاء الجميع في عصرنا الراهن.



٤. نظم الكتاب: برغم ما يتمتع به كتاب البحار من نظم فإنّه بحاجة إلى نظام أكثر تطوّراً بالاعتماد على أساليب عصريّة؛ ولذلك حاولنا في هذا التلخيص أن يكون أكثر تنظيماً وأكثر دقّة كما سنوضحه فيما يأتي. وبالنسبة لطريقة طبع الكتاب فلم يطبع سابقاً بصورة لائقة وأنيقة، فإنّه قد طبع في مجلّدتان صغيرتان جداً ولعلّه كان الغرض من وراء ذلك هو أن تبلغ الأجزاء أكثر من مائة مجلّد؛ وهذا أدّى إلى أن يراجع أكثر من مجلّد عند البحث عن مسألة معيّنة، ولا يخفى ما في ذلك من صعوبة للباحثين. وقد حاولنا أن نضع خطة معقولة لتقسيم أجزاء الكتاب وإدماج بعضها في بعض، في قطع لائق هو القطع الرحلي!



٥. إيضاح الغوامض: يكتنف بعض روايات البحار غموضٌ خاصٌّ؛ ولذلك أوضح العلامة المجلسي في مواضع عديدة من خلال شرح أخذٍ وجامع، وقد عنون شرحه بكلمة: «بيان» إلا أنّه «قدّس سرّه» في مواضع أخرى - ولأسباب غير معلومة - قد غصّ الطرف عن ذلك! وقد حاولنا إيضاح مثل هذه الموارد؛ اعتماداً على هوامش جماعة من المحقّقين في الطبعة المتداولة أحياناً، وأحياناً أخرى قمنا بإيضاحها نحن بعنوان: «نقول»؛ سعياً منّا لإزالة الغموض عن الرواية.



٦. الفريق المساعد للعلامة في مشروعه: قد صرّح العلامة - بوضوح - في مقدّمة المجلّد الأوّل من البحار: بأنّه بعث طائفة من إخوانه في الله لمختلف المدن والبلدان؛ ليحملوا إليه المصادر الروائيّة الشيعيّة من المكتبات والأشخاص، إلا أنّه لم يُعرف بعد هل آزره أحد من كبار علماء زمانه في ترتيب وإيضاح وكتابة هذا السفر العظيم أو لا بأن قام بمفرده بأعباء هذه المهمّة الشاقّة؟ البعض أصرّ على أنّه لم يستعن بأحد، وأنّه بمفرده قد قام بإنجاز هذه المهمّة، هذا في حين أنّ كثرة الأشغال الاجتماعيّة والسياسيّة لهذه الشخصيّة المرموقة في عالم التشييع إلى جانب تولّيه منصب شيخوخة الإسلام يقرب فرضية استعانتّه «قدّس سرّه» بأصحاب له في مؤازرته للقيام بهذه المهمّة الصعبة، ولا سيّما أنّ العمل الجماعي لا يعدّ ضعفاً، بل هو مصدر قوّة وثبات في كلّ مشروع علمي ناجح، وقد جرّبنا نحن لأكثر من مرّة ووجدنا أنّ ذلك سببٌ لا يتقن البحوث ورصانة الكتابات ونضوجها، كما أنّه سبب لجلب ثقة جمهور القراء أيضاً! على أنّ العلامة المجلسي «قدّس سرّه» كان يشرف على جميع الموضوعات والمطالب، وفي الغالب كانت تكتب بخطّه الشريف، وقد يبدو من بعض النسخ أنّ بعض المقاطع قد كتبت بخطّ مساعديه وأنّ المجلسي «طاب ثراه» كان قد همش عليها.



٧. التلخيص والانتقاء: إنَّ النقطة الأخرى الجديرة بالتنبيه هو أنَّ تلخيص البحار أو تلخيص بعضه ليس بالأمر الجديد، فإنَّه - كما ورد في المجلد «صفر» من الكتاب - أنَّ تسعة من العلماء السابقين قد قاموا بمثل ذلك، منهم العالم الربّاني الكبير سماحة الشيخ محمّد رضا التبريزي، حيث لخصّ الكتاب بعنوان: «الجامع بين البحار والوافي» في سبعة أجزاء، ولكنّه وللأسف قد أسقط بيانات العلامة في شرح غوامض الروايات! وكثيراً من الروايات نفسها.

إلّا أنَّ القارئ الكريم يجد - إن شاء الله تعالى - في هذا الكتاب فارقاً ملحوظاً بينه وبين ما تقدّم عليه من هذه الكتب؛ لأنَّه تميّز عنها باهتمامه على العمدة من أحاديث البحار، ولكن في سياق جديد مع إضافة ما يحتاج إليه الباحث من تشكيل وإعراب الكلمات، وتفسير للغات، والتنبيه على اختلاف المصادر، وإيضاح ما في الأحاديث من غموض وتعقيد، والأهمّ من ذلك كلّهُ هو بذل غاية المجهود في حفظ أصالة مطالب البحار، وإبقاء نسقه ونظامه، هذا زائداً على ما سيأتي ذكره من مميّزات وخصوصيّات! نرجو أن يكون ذلك خدمة لرواد بحار الأنوار، وأن يكون في خاتمة المطاف خدمة متواضعة للتراث الروائي الجليل لآل البيت (عليهم السلام)!

وينبغي أن نشكر فريق العمل وهم لجنة من الفضلاء التالية أسماؤهم، حيث بذلوا جهوداً مضيئة؛ ليخرج العمل على أحسن وجه، فلهم الشكر والتقدير على عونهم في هذا السبيل، وندعو لهم بمزيد التوفيق وحُسن الختام وهم الأساتذة الكرام حفظهم الله تعالى:

١. «رصد المكرّرات»: مهدي الدرباني (ومراقب لجنة التحقيق)، السيّد رضا الموسوي.
٢. «المصادر»: السيّد حسين العبادي، أحد المحمّدي، السيّد عبّاس النوري، رضا الكهنوئي.
٣. «اللغات»: أحمد الأفخمي، حجة الله صفي زاده، هاشم المحمّدي، السيّد حميد الموسوي.
٤. «الدراية»: عبّاس الزينلي، سعيد يزدان برست، قادر الأميني.
٥. «التصحيح و التنقيح»: عيسى الأناري، عبد الأمير المحمّدي، السيّد علي النوري، حامد المحقّق.
٦. «التدقيق»: محمّد المجلسي، السيّد حسن الموسوي.
٧. «ديتا»: علي الدهقاني، مقصود أفشار، السيّد حسين العقيلي.

مراحل تأليف هذا الكتاب

قد مرّ هذا الكتاب في تأليفه بمراحل متعدّدة، ولوحظت فيه نقاط ملفتة ومسائل جديرة بالاهتمام، نشير إليها بما يلي:

هذا الأثر النفيس، هو نتاج عمل بحثي جماعي، تمّ انجازه بإشراف من سماحة المرجع الدينيّ الشيخ مكارم الشيرازي «مدّ ظله» وقد كان من خصائصه الهامة التي لا بدّ من الإشارة لها، أنّ الكادر الذي أنجز هذا العمل كان يضمّ عدّة مجموعات وأقسام، وكلّ مجموعة لها تخصّصها المعين، وهي تمثّل مرحلة من مراحل إنجاز هذا الأثر، فكانت تعمل وفقاً لاختصاصها وبرنامجها المحدّد لها، وكان لهذا التنوّع التخصّصي مزايا ومرجّحات قد أدّت إلى نتائج إيجابيّة وطيّبة للغاية، وفيما يلي نستعرض طبيعة العمل والمراحل التي طواها: الأولي: مرحلة «رصد المكرّرات»: نظراً إلى أنّ كتاب بحار الأنوار قد اشتمل على روايات كثيرة ذات مضمون واحد، فمن خلال رصد المكرّرات ومن أجل الاختصار، قد أعرضنا عن ذكر الروايات المتكرّرة الواردة في كلّ باب، آخذين بأسناد ومضامين الروايات مع ما ورد من شروح وتوضيحات للعلامة المجلسي «رحمه الله»، وحاولنا أن نبقي من بين هذه الروايات المكرّرة ما كان يتضمّن سنداً قوياً ومضموناً جامعاً، كي لا يفوت القارئ الكريم شئاً مهمّ من محتويات هذه الموسوعة.

الثانية: مرحلة «المصادر»: بعد الانتهاء من مرحلة رصد المكرّرات، حاول المحقّقون في قسم المصادر والمنابع تطبيق متن كلّ رواية علي ما ورد منها في المصادر الأصليّة التي استند إليها العلامة المجلسي «رحمه الله»، زائداً إلى ذلك قد أضافوا مصدرين علي الأقلّ علي مصدر الرواية وحاولوا حدّ الإمكان أن يكونوا من المصادر الرئيّسة، ثمّ قاموا بمقارنة جميع كلمات الرواية بما ورد في ثلاثة من المصادر المذكورة علي أقلّ تقدير، وعلي فرض وجود اختلاف مؤثّر في المعنى فقد أشاروا إليه في الهامش، ومضافاً إلى ذلك يوثق ما ورد من توضيحات وبيانات للعلامة المجلسي «رحمه الله» من الكتب المختلفة بذكر المصدر بدقّة.

الثالثة: مرحلة «إيضاح المفردات»: إنّ إيضاح بعض المفردات والجمل المستعصية له دور فاعل في فهم الروايات، ولذلك قام قسم دراسة المفردات بتبيين ذلك مع ذكر المصادر اللغويّة المعروفة، كي لا يخفى شيء على القارئ الكريم.

الرابعة: مرحلة «الدراية»: بعد اجتياز المراحل المذكورة يقوم القسم المختص، بدراسة جادة لمضامين ومحتويات كل واحدة من الروايات، وإذا كانت هذه المضامين فيها غموض أو كانت مخالفة لآليات وللروايات الأخرى، أو كانت هناك حاجة لذكر نقطة علمية مفيدة لم ترد في كلام العلامة المجلسي «رحمه الله»، يتم توضيح ذلك كله من قبل سماحة المرجع الديني الشيخ مكارم الشيرازي «مدّ ظله» في الهامش وذلك تحت عنوان «نقول»، وكذلك يتم استخراج المسائل العلمية المرتبطة بالآيات التي وردت في بداية فصول وأبواب موسوعة البحار بأسلوب التفسير الموضوعي، أو الآيات التي ذكرت في كل باب علي انفراد فتفسر حسب ما ورد في «التفسير الأمثل» لسماحة المشرف «مدّ ظله».

الخامسة: مرحلة «التصحيح والتنقيح»: في هذه المرحلة يتم تصحيح إعراب المتون بدقة فائقة، وتنزيين الكلمات بعلائم التصحيح، لكي يسهل للقارئ قراءة الروايات، كما أنّها تساهم بنحو أفضل في فهم ودرك المفاهيم.

السادسة: مرحلة «التدقيق»: وفي ختام هذه المراحل يتم التدقيق النصوص الجاهزة من قبل قسم المراقبة، لرفع الأخطاء المحتملة الواردة فيها.

السابعة: مرحلة الأعمال الحاسوبية: في هذا القسم يعدّ النصّ من خلال الحاسوب لتعمل عليها الأقسام المختلفة، بعد أن تنتهي هذه الأقسام ممّا بعهدتها من أعمال يعاد النصّ إلي هذا القسم ليُدْرَج ما قامت به الأقسام فيه، ثمّ يعاد لإجراء عملية التشكيل والإعراب، وعقيب الملاحظة النهائية للنصّ يكون الكتاب جاهزاً للطبع.



وقد اعتمدنا في عملنا هذا على طبعة «دار إحياء التراث العربي - لبنان» من بحار الأنوار بوصفه مرجعاً للعمل، كما اعتمدنا على «الطبعة الحجرية» المطبوعة في خمسة وعشرين مجلداً في موارد كثيرة، واعتمدنا كذلك في تشكيل وإعراب جميع الأحاديث علي أقراص مركز التحقيقات الحاسوبية للعلوم الإسلامية «نور» بعد إمعان النظر فيها ثانية.

لجنة تحقيق بحار الأنوار

رمضان المبارك / ١٤٣٥

﴿باب ١﴾

«ثواب الموحّدين والعارفين، وبيان وجوب المعرفة وعلّته وبيان ما هو حقّ معرفته تعالى»

١١٤٨. التوحيد، الأماي للصدوق^(١): حمزة بن محمد بن أحمد بن جعفر العلوي، عن علي بن إبراهيم، عن إبراهيم بن إسحاق النهاوندي، عن عبد الله بن حماد الأنصاري، عن الحسين بن يحيى بن الحسين، عن عمرو بن طلحة، عن أسباط بن نصر، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: والذي بعثني بالحق بشيراً لا يعذب الله بالنار موحداً أبداً، وإن أهل التوحيد ليشفعون فيشفعون، ثم قال ﷺ: إنه إذا كان يوم القيامة أمر الله تبارك وتعالى بقوم ساءت أعمالهم في دار الدنيا إلى النار، فيقولون: يا ربنا كيف تدخلنا النار، وقد كنّا نوحّدك في دار الدنيا؟ وكيف تحرق بالنار ألسنتنا وقد نطقت بتوحيدك في دار الدنيا؟ وكيف تحرق قلوبنا وقد عقدت على أن لا إله إلا أنت؟ أم كيف تحرق وجوهنا وقد عرفناها لك في التراب^(٢)؟ أم كيف تحرق أيدينا وقد رفعناها بالدعاء إليك؟ فيقول الله جلّ جلاله: عبّادي ساءت أعمالكم في دار الدنيا فجراؤكم نار جهنم. فيقولون: يا ربنا عفوك أعظم أم خطيئتنا؟ فيقول تبارك وتعالى: بل عفوي. فيقولون: رحمتك أوسع أم ذنوبنا؟ فيقول عز وجل: بل رحمتي. فيقولون: إقرارنا بتوحيدك أعظم أم ذنوبنا؟ فيقول تعالى: بل إقراركم بتوحيدي أعظم. فيقولون: يا ربنا فليسعنا عفوك ورحمتك التي وسعت كل شيء، فيقول الله جلّ جلاله: ملائكتي، وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب إليّ من المقيّرين بتوحيدي، وأن لا إله غيري، وحقّ عليّ أن لا أصلي^(٣) أهل توحيد، أدخلوا عبّادي الجنة.

بيان:

قوله [تعالى]: «وحقّ عليّ» الظاهر أنّه اسم، أي واجب ولازم عليّ، ويمكن أن يقرأ على صيغة الماضي

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٩، ح ٣١؛ الأماي (للصدوق)، ص ٢٩٦، ح ١٠؛ روضة الواعظين، ج ١، ص ٤٢.

٢. عفره في التراب: مرّغه فيه أو دسّه، راجع لسان العرب.

٣. في المصدرين والروضة: «لا أصلي بالنار».

المعلوم والمجهول. قال الجوهرى: قال الكسائي: يقال: حق لك أن تفعل هذا وحقت أن تفعل هذا بمعنى، وحق له أن يفعل كذا وهو حقيق به ومحقوق به أي خليق له، وحق الشيء يحق بالكسر أي وجب. وقال: يقال: صليت الرجل ناراً إذا أدخلته النار، وجعلته يصلها، فإن ألقيته فيها إلقاء كأنك تريد الإحراق، قلت: أصليته «بالألف» وصلّيته تصلية، وقال: صلى فلان النار يصلى صلياً احترق.

١١٤٩. التوحيد، الأمالي للصدوق^(١): الْحَسَنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ حَمْدَانَ الْقَشِيرِيِّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عيسى الْكَلَابِيِّ، عَنْ مُوسَى بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِيهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ آبَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَنْ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾^(٢) قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: مَا جَزَاءُ مَنْ أَنْعَمْتُ عَلَيْهِ بِالتَّوْحِيدِ إِلَّا الْجَنَّةُ.

١١٥٠. علل الشرائع، الخصال^(٣): فِي خَبَرِ أَسْمَاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَوْصَافِهِ: وَجَعَلَ اسْمِي فِي التَّوَرَةِ أَحَدَ^(٤)، فَبِالتَّوْحِيدِ حُرِّمَ أَجْسَادُ أُمَّتِي عَلَى النَّارِ.

١١٥١. ثواب الأعمال، التوحيد^(٥): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ هِلَالٍ، عَنْ ابْنِ فَضَّالٍ، عَنْ أَبِي حَمْرَةَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٦) قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا مِنْ شَيْءٍ أَعْظَمَ ثَوَاباً^(٧) مِنْ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَغْدِلُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَشْرِكُهُ فِي الْأَمْرِ^(٨) أَحَدٌ.

بيان:

لعلّ التعليل مبني على أنه إذا لم يعدله تعالى شيء لا يعدل ما يتعلّق بألوهيته وكماله ووحدانيته شيء، إذ هذه الكلمة الطيبة أدلّ الأذكار على وجوده ووحدانيته، واتّصافه بالكمالات، وتنزّهه عن النقائص. ويحتمل أن يكون المراد أنها لما كانت أصدق الأقوال فكانت أعظمها ثواباً.

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٨، ح ٢٩؛ الأمالي (للصدوق)، ص ٣٨٧، ح ٧؛ الجعفریات (الأشعثيات)، ص ١٧٦.

٢. الرحمن / ٦٠.

٣. علل الشرائع، ج ١، ص ١٢٨، ح ٣؛ الخصال، ج ٢، ص ٤٢٥، ح ١؛ معاني الأخبار، ص ٥١، ح ١.

٤. في الخصال مع زيادة: «وهو من التوحيد».

٥. ثواب الأعمال، ص ٣؛ التوحيد (للصدوق)، ص ١٩، ح ٣؛ الكافي، ج ٢، باب من قال لا إله إلا الله، ص ٥١٦، ح ١.

٦. في الكافي بهذا الإسناد: «عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن محمد بن علي، عن محمد بن الفضيل، عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام».

٧. **فقول:** التعبير بأعظم ورد في روايات مختلفة بالنسبة إلى أمور متفاوتة كلّ ناظر إلى جهة من الجهات، مثل أن يقال: هذا المسجد أعظم المساجد في البلد (أي من ناحية الأرض)، ثم يقال: وذاك المسجد أعظم (أي من ناحية البناء)، ثم يقال ثالثاً: والمسجد الآخر أعظم (أي من ناحية الجماعة والحاضرين فيه) وهكذا في أشباهه.

٨. في الكافي: «في الأمور».

١١٥٢. التوحيد^(١): ابْنُ الْمُتَوَكِّلِ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ النَّخَعِيِّ، عَنِ التَّوْفَلِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَنَانٍ، عَنِ الْمُفَضَّلِ قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ضَمِنَ لِلْمُؤْمِنِ ضَمَانًا. قَالَ: قُلْتُ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: ضَمِنَ لَهُ أَنْ هُوَ أَقَرُّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَلِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالنُّبُوَّةِ، وَلِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْإِمَامَةِ، وَأَدَّى مَا افْتَرَضَهُ عَلَيْهِ أَنْ يُسَكِّنَهُ فِي جَوَارِهِ^(٢). قَالَ: قُلْتُ: فَهَذِهِ وَاللَّهِ هِيَ الْكَرَامَةُ الَّتِي لَا يُشَبِّهُهَا كَرَامَةُ الْإِدْمِيَّيْنِ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اعْمَلُوا قَلِيلًا تَتَّعَمُوا كَثِيرًا.

١١٥٣. التوحيد^(٣): الهمداني، عَنْ عَلِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ زِيَادٍ الْكَرْخِيِّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ مَاتَ وَلَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا أَحْسَنَ أَوْ أَسَاءَ^(٤) دَخَلَ الْجَنَّةَ^(٥).

١١٥٤. التوحيد^(٦): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّقَّارِ، عَنِ ابْنِ أَبِي الْخَطَّابِ، عَنِ ابْنِ أَسْبَاطٍ، عَنِ الْبُطَّائِيِّ، عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾^(٧) قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَهْلٌ أَنْ أُتَقَى، وَلَا يُشْرِكُ بِي عَبْدِي شَيْئًا، وَأَنَا أَهْلٌ أَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِي عَبْدِي شَيْئًا أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَقْسَمَ بِعِزَّتِهِ وَجَلَالِهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ أَهْلَ تَوْحِيدِهِ بِالنَّارِ أَبَدًا.

١١٥٥. التوحيد^(٨): السَّنَانِيُّ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ النَّخَعِيِّ، عَنِ التَّوْفَلِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ سَالِمٍ، عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَرَّمَ أَجْسَادَ الْمُوحِّدِينَ عَلَى النَّارِ.

١١٥٦. ثواب الأعمال، التوحيد^(٩): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ عِيسَى، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ سَيْفٍ، عَنْ أَخِيهِ عَلِيِّ^(١٠)، عَنْ أَبِيهِ سَيْفِ بْنِ عَمِيرَةَ، عَنِ الْحَجَّاجِ بْنِ أَرْطَاةَ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: الْمُوجِبَتَانِ: مَنْ مَاتَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا^(١١) يَدْخُلُ النَّارَ.

١١٥٧. ثواب الأعمال، الأمالي للصدوق، التوحيد^(١٢): بِالسَّنَادِ الْمُتَقَدِّمِ، عَنْ سَيْفٍ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ الصَّبَّاحِ، عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ مَنْ أَبِي أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٩، ح ٤؛ ثواب الأعمال، ص ١٥؛ الأمالي (للطوسي)، ص ١٥٨، ح ٢٢٦.

٢. في ثواب الأعمال مع زيادة: «ولم يحتجب عنه».

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ١٩، ح ٥؛ مشكاة الأنوار، ص ٩؛ منية المريد، ص ٣٦٦.

٤. لم يرد في المنية: «أحسن أو أساء».

٥. **نقول:** هؤلاء وإن كانوا مشتركين في الدخول في الجنة ولكن درجاتهم مختلفة بلا ريب.

٦. التوحيد (للصدوق)، ص ١٩، ح ٦؛ تفسير البرهان، ج ٥، ص ٥٣٢، ح ١١٢٢١.

٧. المدثر/٥٦.

٨. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٠، ح ٧.

٩. ثواب الأعمال، ص ٢؛ التوحيد (للصدوق)، ص ٢٠، ح ١٤؛ جامع الأخبار (للشعيري)، ص ٥٠.

١٠. ثواب الأعمال: «عن أخيه الحسن، عن أخيه علي».

١١. لم يرد في المصدرين وجامع الأخبار: «شيئا».

١٢. ثواب الأعمال، ص ٦؛ الأمالي (للصدوق)، ص ١٩٨؛ التوحيد (للصدوق)، ص ٢٠، ح ٩.

بيان:

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَوَخَّابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾^(١).

١١٥٨. التوحيد^(٢): أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الْخُزَيْيُّ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ مَرْوَانَ الْخُزَيْيِّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْجَوَيْبَارِيِّ^(٣) - وَيُقَالُ لَهُ الْهَرَوِيُّ وَالتَّهْرَوَانِيُّ وَالشَّيْبَانِيُّ - عَنِ الرُّضَا عَلِيِّ بْنِ مُوسَى، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ آبَائِهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(٤) كَلِمَةٌ عَظِيمَةٌ كَرِيمَةٌ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، مَنْ قَالَهَا مُخْلِصًا اسْتَوْجَبَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قَالَهَا كَاذِبًا عَصَمَتْ مَالَهُ وَدَمَهُ، وَكَانَ مَصِيرُهُ إِلَى النَّارِ.

بيان:

قوله عليه السلام «ومن قالها كاذباً» أي في الإخبار عن الإذعان لها والتصديق بها.

١١٥٩. ثواب الأعمال، معاني الأخبار، عيون أخبار الرضا عليه السلام، التوحيد^(٥): ابْنُ الْمُتَوَكِّلِ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ الصُّوفِيِّ^(٦)، عَنْ يُوسُفَ بْنِ عَقِيلٍ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ رَاهُوِيَه قَالَ: لَمَّا وَافَى أَبُو الْحَسَنِ الرُّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ نَيْسَابُورَ، وَأَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا إِلَى الْمَأْمُونِ، اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ، فَقَالُوا لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ تَزْحَلُ عَنَّا، وَلَا تُحَدِّثُنَا بِحَدِيثٍ فَتَسْتَفِيدَهُ مِنْكَ - وَكَانَ قَدْ قَعَدَ فِي الْعَمَّارِيَّةِ^(٧) - فَأَطْلَعَ رَأْسَهُ، وَقَالَ: سَمِعْتُ أَبِي مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي جَعْفَرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي مُحَمَّدٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي الْحُسَيْنِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي طَالِبٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَبْرِئِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: سَمِعْتُ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ يَقُولُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حِصْنِي، فَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ عَذَابِي^(٨)، قَالَ: فَلَمَّا مَرَّتِ الرَّاحِلَةُ نَادَانَا: بِشُرُوطِهَا، وَأَنَا مِنْ شُرُوطِهَا.

قال الصدوق «رحمه الله»: «من شروطها» الإقرار للرضا عليه السلام بأنه إمام من قبل الله عز وجل على العباد، مفترض الطاعة عليهم.

١. إبراهيم/١٥.

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٣، ح ١٨؛ وسائل الشيعة، ج ٧، ص ٢١٣، ح ٩١٤٣.

٣. في المصدر: «إبراهيم بن محمد بن هارون الخوري، عن جعفر بن محمد بن زياد، عن الجوابياري...».

٤. في الوسائل: «أَنْ أَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

٥. ثواب الأعمال، ص ٦؛ معاني الأخبار، ص ٣٧٠، ح ١؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ١٣٥، ح ٤؛ التوحيد (للصدوق)، ص ٢٥، ح ٢٣.

٦. في العيون: «محمد بن الحسين الصولي».

٧. العمَّارِيَّة: الكجَاوة، راجع المصباح المنير.

٨. في الثواب والمعاني والعيون والتوحيد: «أمن من عذابي».

١١٦٠. التوحيد^(١): أَبُو نَصْرِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ تَمِيمٍ السَّرْحُسِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ الشَّامِيِّ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ إِسْرَائِيلَ، عَنْ جَرِيرٍ^(٢)، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ «رَحِمَهُ اللَّهُ» قَالَ: خَرَجْتُ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَمْشِي وَحْدَهُ لَيْسَ مَعَهُ إِنْسَانٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَهُ أَحَدٌ، قَالَ: فَجَعَلْتُ أَمْشِي فِي ظِلِّ الْقَمَرِ، فَالْتَمَعْتُ فَرَأَيْتُ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قُلْتُ: أَبُو ذَرٍّ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ تَعَالَ، فَمَشَيْتُ مَعَهُ سَاعَةً، فَقَالَ: إِنَّ الْمُكْثَرِينَ^(٣) هُمُ الْأَقْلُونَ^(٤) يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ خَيْرًا، فَتَفَخَّ فِيهِ^(٥) يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ وَيَبْنَ يَدَيْهِ وَوَرَأَتُهُ، وَعَمِلَ فِيهِ خَيْرًا. قَالَ: فَمَشَيْتُ مَعَهُ سَاعَةً، فَقَالَ: اجْلِسْ هَاهُنَا - وَأَجْلَسَنِي فِي قَاعٍ^(٦) حَوْلَهُ حِجَارَةٌ - فَقَالَ لِي: اجْلِسْ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَيْكَ، قَالَ: وَأَنْطَلَقَ فِي الْحَرَّةِ حَتَّى لَمْ أَرَهُ، وَتَوَارَى عَنِّي، فَأَطَالَ اللَّبْثَ، ثُمَّ إِنِّي سَمِعْتُهُ ﷺ وَهُوَ مُقْبِلٌ وَهُوَ يَقُولُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، قَالَ: فَلَمَّا جَاءَ لَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ مَنْ تَكَلَّمُهُ فِي جَانِبِ الْحَرَّةِ؟ فَإِنِّي مَا سَمِعْتُ أَحَدًا يَرُدُّ عَلَيْكَ شَيْئًا، قَالَ: ذَلِكَ جَبْرِئِيلُ عَرَضَ لِي فِي جَانِبِ الْحَرَّةِ، فَقَالَ: بَشِّرْ أُمَّتَكَ أَنَّهُ مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، قَالَ: قُلْتُ يَا جَبْرِئِيلُ وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، قَالَ: نَعَمْ وَإِنْ شَرِبَ الْخَمْرَ. قال الصدوق «رحمه الله»: يعني بذلك أنه يوفق للتوبة حتى يدخل الجنة^(٧).

بيان:

قال الجزري: فيه: المكثرون هم المقلون إلا من نفخ فيه يمينه وشماله أي ضرب يديه فيه بالعطاء، النفخ: الضرب والرمي.

أقول:

يظهر من الأخبار أن الإخلال بكل ما يجب الاعتقاد به وإنكاره يوجب الخروج عن الإسلام، داخل في الشرك، والتوحيد الموجب لدخول الجنة مشروط بعدمه^(٨)، فلا يلزم من ذلك دخول المخالفين الجنة، وأمّا أصحاب الكبائر من الشيعة فلا استبعاد في عدم دخولهم النار وإن عذبوا في البرزخ وفي القيامة مع أنه ليس في الخبر أنهم لا يدخلون النار، وقد ورد في بعض الأخبار^(٩) أن ارتكاب بعض الكبائر وترك بعض

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٥، ح ٢٤؛ وقد ورد في مشكاة الأنوار، ص ٨، مع اختلاف يسير.

٢. وفي نسخة: عن حريز. (هامش المطبوع)

٣. رجلٌ مُكثِر: ذو مال كثير، راجع تاج العروس.

٤. رجلٌ مُقِلٌّ وأقل: فقير، راجع لسان العرب.

٥. في المصدر: «نفخ منه»، والظاهر هو الأصح.

٦. القاع: المستوي من الأرض، راجع الصحاح.

٧. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٥ و٢٦.

٨. وفي نسخة: والتوحيد مشروط بعدمه. (هامش المطبوع)

٩. الكافي، ج ٢، باب البغي، ص ٣٢٧، ح ٢.

الفرائض^(١) أيضاً داخلان في الشرك، فلا ينبغي الاغترار بتلك الأخبار، والاجترأ بها على المعاصي، وعلى ما عرفت لا حاجة إلى ما تكلفه الصدوق «قدس سرّه»^(٢).

١١٦١. الأماي للشيخ الطوسي^(٣): مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ شاذَانَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ، عَنْ سَعْدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَيْسَى، عَنْ عَلِيِّ بْنِ بِلَالٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ بَشِيرٍ الدَّهَّانِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَمَاعَةَ قَالَ: سَأَلَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا الصَّادِقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ: أَخْبِرْنِي أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟^(٤) قَالَ: تَوْحِيدُكَ لِرَبِّكَ، قَالَ: فَمَا أَكْبَرُ الذُّنُوبِ؟ قَالَ: تَشْبِيهُكَ لِخَالِقِكَ.

١١٦٢. التوحيد^(٥): أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ غَالِبِ الْأَنْطَاطِي، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ غَزْوَانَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَحْمَدَ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَتِمَّا رَجُلٌ مُسْتَلَقٌ عَلَى ظَهْرِهِ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ وَإِلَى النَّجْمِ، وَيَقُولُ: وَاللَّهِ إِنَّ لَكَ لَرَبًّا هُوَ خَالِقُكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، قَالَ: فَتَنَظَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ فَغَفَرَ لَهُ.

قال الصدوق «رحمه الله»: «وقد قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٦) يعني بذلك، أولم يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض، وفي عجائب صنعها، ولم ينظروا في ذلك نظر مستدلّ معتبر فيعرفوا بما يرون ما أقامه الله عز وجل من السماوات والأرض^(٧) مع عظم أجسامها وثقلها على غير عمد، وتسكينه إياها بغير آلة، فيستدلّوا بذلك على خالقها ومالكها ومقيمها أنه لا يشبه الأجسام ولا ما يتخذ الكافرون إلهاً من دون الله عز وجل، إذ كانت الأجسام لا تقدر على إقامة الصغير من الأجسام في الهواء بغير عمد وبغير آلة، فيعرفوا بذلك خالق السماوات والأرض وسائر الأجسام، ويعرفوا أنه لا يشبهها، ولا تشبهه في قدرة الله ومملكه، وأمّا ملكوت السماوات والأرض فهو ملك الله لها واقتداره عليها، وأراد بذلك: أَلَمْ يَنْظُرُوا وَيَتَفَكَّرُوا فِي السَّمَاوَاتِ^(٨) والأرض في

١. وسائل الشيعة، ج ١، باب ثبوت الكفر والارتداد بجحود بعض الضروريات، ص ٣٧، ح ٥٦.

٢. **فَقَوْلُ:** من المعلوم أنه لا تكون المعاصي بلا عقاب إلا إذا وفقه الله للتوبه، أو دخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود/١١٤) أو شملته شفاعة الشافعين بسبب بعض أعمال الخير الموجب لاستحقاق الشفاعة.

٣. الأماي (للطوسي)، ص ٦٨٧، ح ١٤٥٨؛ مجموعة ورام، ج ٢، ص ٩١.

٤. **فَقَوْلُ:** التعبير بالأفضليّة ورد في عدة أعمال مختلفة والوجه فيها أن كل واحد من هذه الأعمال أفضل من جهة من الجهات كما مرّ نظير ما في التعبير بالأعظم.

٥. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٦، ح ٢٥.

٦. الأعراف/١٨٥.

٧. وفي نسخة: والأرضين. (هامش المطبوع)

٨. وفي نسخة: في ملكوت السماوات. (هامش المطبوع)

خلق الله عز وجل إياهما على ما يشاهدونهما عليه، فيعلموا أن الله عز وجل هو مالکها، والمقتدر عليها، لأنهما مملوكة مخلوقة، وهي في قدرته وسلطانه ومملكه، فجعل نظرهم في السماوات والأرض وفي خلق الله لها نظراً في ملكوتها وفي ملك الله لها، لأن الله عز وجل لا يخلق إلا ما يملكه، ويقدر عليه، وعنى بقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني من أصناف خلقه، فيستدلوا به على أن الله خالقها، وأنه أولى بالالهية من الأجسام المحدثثة المخلوقة»^(١).

١١٦٣. التوحيد^(٢): الحسن بن علي بن محمد العطار، عن محمد بن محمود، عن حمزان، عن مالك بن إبراهيم، عن حصين^(٣)، عن الأسود بن هلال^(٤)، عن معاذ بن جبل قال: كنت ردفت النبي ﷺ، قال: يا معاذ هل تدري ما حق الله عز وجل على العباد؟ - يقولها ثلاثاً - قال: قلت: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: حق الله عز وجل على العباد أن لا يشركوا به شيئاً، ثم قال ﷺ: هل تدري ما حق العباد على الله عز وجل إذا فعلوا ذلك؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: أن لا يعذبهم، أو قال: أن لا يدخلهم النار^(٥).

١١٦٤. عيون أخبار الرضا ﷺ، علل الشرائع^(٦): في علل الفضل عن الرضا ﷺ: فإن قال قائل: لم أمر الله الخلق بالإقرار بالله وبرسوله وحججه وبما جاء من عند الله عز وجل؟ قيل: لعل كثيرة، منها: أن من لم يقر بالله عز وجل لم يجتنب معاصيه، ولم ينته عن ارتكاب الكبائر، ولم يراقب أحداً فيما يشتهي، ويستلذ من الفساد والظلم، فإذا فعل الناس هذه الأشياء، وارتكب كل إنسان ما يشتهي ويهواه من غير مراقبة لأحد كان في ذلك فساد الخلق أجمعين، وثوب^(٧) بعضهم على بعض، فغصبوا القروج والأموال، وأباحوا الدماء والنساء^(٨)، وقتل بعضهم بعضاً من غير حق ولا جرم، فيكون في ذلك خراب الدنيا، وهلاك الخلق، وفساد الحرث والنسل.

ومنها: أن الله عز وجل حكيم، ولا يكون الحكيم ولا يوصف بالحكمة إلا الذي يحظر الفساد، ويأمر بالصالح، ويحذر عن الظلم، وينهى عن الفواحش، ولا يكون حظر الفساد، والأمر بالصالح، والنهي عن الفواحش إلا بعد الإقرار

١. التوحيد (للمصدق)، ص ٢٧.

٢. التوحيد (للمصدق)، ص ٢٨، ح ٢٨؛ عوالي اللئالي، ج ٢، ص ٣١١، ح ٢.

٣. في التوحيد: «عن أبي حصين».

٤. وفي نسخة: عن الأسود بن بلال. (هامش المطبوع)

٥. قد ورد في العوالي بهذه العبارة: «روى عباد بن الصامت، قلت: يا رسول الله ما حق الله على عباده؟ فقال ﷺ: ألا يشركوا به شيئاً، ويعبدوه ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة» فحسب.

٦. عيون أخبار الرضا ﷺ، ج ٢، ص ٩٩، ح ١؛ علل الشرائع، ج ١، ص ٢٥١، ح ٩؛ وقد ورد فيهما ضمن رواية مع اختلاف يسير.

٧. الثوب: الطفر؛ راجع لسان العرب.

٨. في اللعل: «الدماء والسبي».

بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَعْرِفَةِ الْآمِرِ وَالنَّاهِي، فَلَوْ تَرَكَ النَّاسُ بَغْيَ إِفْرَارٍ بِاللَّهِ وَلَا مَعْرِفَتِهِ لَمْ يَثْبُتْ أَمْرٌ بِصَلَاحٍ، وَلَا نَهْيٌ عَنْ فُسَادٍ، إِذْ لَا آمِرَ وَلَا نَاهِي.

وَمِنْهَا: أَنَّا وَجَدْنَا الْخَلْقَ قَدْ يُفْسِدُونَ بِأُمُورٍ بَاطِنِيَّةٍ^(١)، مَسْتُورَةٍ عَنِ الْخَلْقِ، فَلَوْ لَا الْإِفْرَارُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَخَشْيَتُهُ بِالْغَيْبِ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ إِذَا خَلَا بِشَهْوَتِهِ وَإِرَادَتِهِ يُرَاقِبُ أَحَدًا فِي تَرْكِ مَعْصِيَةٍ، وَانْتِهَاكِ حُرْمَةٍ، وَازْتِكَابِ كَبِيرَةٍ إِذَا كَانَ فِعْلُهُ ذَلِكَ مَسْتُورًا عَنِ الْخَلْقِ غَيْرِ مُرَاقِبٍ لِأَحَدٍ، وَكَانَ يَكُونُ فِي ذَلِكَ هَلَاكُ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، فَلَمْ يَكُنْ قِوَامُ الْخَلْقِ وَصَلَاحُهُمْ إِلَّا بِالْإِفْرَارِ مِنْهُمْ بِعِلْمٍ خَبِيرٍ، يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، أَمِيرٍ بِالصَّلَاحِ، نَاهٍ عَنِ الْفُسَادِ، وَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ، لِيَكُونَ فِي ذَلِكَ انْزِجَارٌ لَهُمْ عَمَّا يَخْلُونَ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْفُسَادِ.

فَإِنْ قَالَ: فَلِمَ وَجَبَ عَلَيْهِمُ الْإِفْرَارُ وَالْمَعْرِفَةُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَاحِدٌ أَحَدٌ؟ قِيلَ: لِإِعْلَالٍ مِنْهَا: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِمُ الْإِفْرَارُ وَالْمَعْرِفَةُ لَجَارَ أَنْ يَتَوَهَّمُوا مُدْبِرِينَ، أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَإِذَا جَارَ ذَلِكَ لَمْ يَهْتَدُوا إِلَى الصَّانِعِ لَهُمْ مِنْ غَيْرِهِ، لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ كَانَ لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ إِنَّمَا يَعْبُدُ غَيْرَ الَّذِي خَلَقَهُ، وَيُطِيعُ غَيْرَ الَّذِي أَمَرَهُ، فَلَا يَكُونُونَ عَلَى حَقِيقَةِ مَنْ صَانِعِهِمْ وَخَالِقِهِمْ، وَلَا يَثْبُتُ عَنْدهُمْ أَمْرٌ آمِرٍ، وَلَا نَهْيٌ نَاهٍ، إِذْ لَا يَعْرِفُ الْآمِرَ بِعَيْنِهِ، وَلَا النَّاهِي مِنْ غَيْرِهِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ لَوْ جَارَ أَنْ يَكُونَ اثْنَيْنِ لَمْ يَكُنْ أَحَدُ الشَّرِيكَيْنِ أَوْلَى بِأَنْ يُعْبَدَ وَيُطَاعَ مِنَ الْآخَرِ، وَفِي إِجَازَةِ أَنْ يُطَاعَ ذَلِكَ الشَّرِيكَ إِجَازَةٌ أَنْ لَا يُطَاعَ اللَّهُ، وَفِي أَنْ لَا يُطَاعَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْكُفْرُ بِاللَّهِ وَبِجَمِيعِ كُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَاثْبَاتُ كُلِّ بَاطِلٍ، وَتَرْكُ كُلِّ حَقٍّ، وَتَحْلِيلُ كُلِّ حَرَامٍ، وَتَحْرِيمُ كُلِّ حَلَالٍ، وَالدُّخُولُ فِي كُلِّ مَعْصِيَةٍ، وَالْخُرُوجُ مِنْ كُلِّ طَاعَةٍ، وَإِبَاحَةُ كُلِّ فُسَادٍ، وَإِبْطَالُ كُلِّ حَقٍّ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَوْ جَارَ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ لَجَارَ لِإِبْلِيسَ أَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ ذَلِكَ الْآخَرُ، حَتَّى يُضَادَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي جَمِيعِ حُكْمِهِ، وَيَصْرِفَ الْعِبَادَةَ إِلَى نَفْسِهِ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ أَعْظَمُ الْكُفْرِ وَأَشَدُّ النِّفَاقِ.

فَإِنْ قَالَ: فَلِمَ وَجَبَ عَلَيْهِمُ الْإِفْرَارُ بِاللَّهِ بِأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ؟ قِيلَ: لِإِعْلَالٍ مِنْهَا: أَنْ يَكُونُوا قَاصِدِينَ نَحْوَهُ بِالْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ دُونَ غَيْرِهِ، غَيْرَ مُشْتَبِهَةٍ عَلَيْهِمْ أَمْرُ رَبِّهِمْ^(٢) وَصَانِعِهِمْ وَرَازِقِهِمْ.

وَمِنْهَا: أَنَّهُمْ لَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، لَمْ يَدْرُوا لَعَلَّ رَبَّهُمْ وَصَانِعَهُمْ هَذِهِ الْأَصْنَامُ الَّتِي نَصَبَتْهَا لَهُمْ آبَاؤُهُمْ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّيِّرَانُ إِذَا كَانَ جَائِزًا أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِمْ مُشْتَبِهَةٌ^(٣)، وَكَانَ يَكُونُ فِي ذَلِكَ الْفُسَادُ، وَتَرْكُ طَاعَاتِهِ كُلِّهَا، وَازْتِكَابُ مَعَاصِيهِ كُلِّهَا، عَلَى قَدَرِ مَا يَتَنَاهَى إِلَيْهِمْ مِنْ أَخْبَارِ هَذِهِ الْأَرْبَابِ، وَأَمْرَهَا وَنَهْيُهَا.

وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْرِفُوا أَنْ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَجَارَ عَنْدهُمْ أَنْ يَجْرِيَ عَلَيْهِ مَا يَجْرِي عَلَى

١. وفي نسخة: قد يفسدون بأُمُورٍ باطنة. (هامش المطبوع)

٢. في اللعل: «غير مشبه عليهم ربهم».

٣. في نسخة: مشبهها. (هامش المطبوع)

الْمَخْلُوقِينَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْجَهْلِ وَالتَّغْيِيرِ وَالزَّوَالِ وَالْفَنَاءِ وَالْكَذِبِ وَالْإِعْتِدَاءِ، وَمَنْ جَازَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ لَمْ يُؤْمَنْ فَنَاقُوهُ، وَلَمْ يُوثَقْ بِعَذْلِهِ، وَلَمْ يُحَقَّقْ قَوْلُهُ وَأَمْرُهُ وَنَهْيُهُ وَوَعْدُهُ وَوَعِيدُهُ وَثَوَابُهُ وَعِقَابُهُ، وَفِي ذَلِكَ فَسَادُ الْخَلْقِ وَإِبْطَالُ الرُّبُوبِيَّةِ.

١١٦٥. ثواب الأعمال^(١): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ عِيسَى وَابْنِ هَاشِمٍ وَالْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْكُوفِيِّ جَمِيعاً، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ سَيْفٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ الْمَدِينِيِّ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ^(٢) عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾^(٣) قَالَ: كَتَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كِتَاباً قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ بِأَلْفِي عَامٍ فِي وَرَقٍ آسٍ^(٤)، ثُمَّ وَضَعَهَا عَلَى الْعَرْشِ، ثُمَّ نَادَى يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، أُعْطِيتُكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُونِي، وَغَفَرْتُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْتَغْفِرُونِي، فَمَنْ لَقِينِي مِنْكُمْ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدِي وَرَسُولِي أَدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي^(٥).

١١٦٦. المحاسن^(٦): الْوَشَاءُ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَائِدٍ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ السَّوَّاقِ، عَنْ أَبَانَ بْنِ تَغْلِبٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: يَا أَبَانُ إِذَا قَدِمْتَ الْكُوفَةَ فَارَوْ هَذَا الْحَدِيثَ: مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصاً وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ. قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ يَأْتِينِي كُلُّ صِنْفٍ مِنَ الْأَصْنَافِ فَارَوْي لَهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَا أَبَانُ إِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَجَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَيَسْلُبُ مِنْهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ إِلَّا مَنْ كَانَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ.

١١٦٧. المحاسن^(٨): صَالِحُ بْنُ السُّنْدِيِّ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ بَشِيرٍ، عَنِ الصَّبَّاحِ الْحِذَاءِ، عَنْ أَبَانَ بْنِ تَغْلِبٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ. قَالَ: قُلْتُ: فَعَلَامَ^(٩) تَخَاصُمُ

١. ثواب الأعمال، ص ١٠؛ تفسير فرات الكوفي، ص ٣١٦، ح ٤٢٦؛ الإختصاص، ص ١١١، وقد ورد في الأخيرين مع اختلاف يسير.

٢. في تفسير الفرات بهذا الإسناد: «فرات، عن جعفر بن محمد الفزاري، عن الحسين بن علي بن مروان، عن ظاهر بن مدرار، عن أخيه، عن أبي سعيد المدائني، عن أبي عبد الله ﷺ»، وفي الإختصاص: «سهل بن زياد، عن عروة بن يحيى، عن أبي سعيد المدائني، عن أبي عبد الله ﷺ».

٣. القصص/٤٦.

٤. الآس: شجرة ورقها عطر، راجع لسان العرب.

٥. في المصدر: «ورق آس أنبته».

٦. في تفسير الفرات: «تستغفروني ومن آتاني منكم بولاية محمد وآل محمد ﷺ أسكنته جنتي برحمتي»، وكذا في الإختصاص إلا أنه فيه: «بولاية آل محمد ﷺ».

٧. المحاسن، ج ١، ص ٣٢، ح ٢٣؛ الكافي، ج ٢، باب من قال لا إله إلا الله مخلصاً، ص ٥٢٠، ح ١.

٨. المحاسن، ج ١، ص ١٨١، ح ١٧٣.

٩. مخفف «فعلى ما» و«ما» إستفهامية جرّرت بحرف جارّ وحذفت ألفها وتبقى الفتحة على ما قبل المحذوف لتكون دليلاً عليها، راجع تاج العروس.

النَّاسِ إِذَا كَانَ مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَسُوهَا.
 ١١٦٨. صحيفة الرضا عليه السلام^(١): عَنْ الرِّضَا، عَنْ آبَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حِصْنِي فَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي آمِنٌ مِنْ عَذَابِي^(٢).

١١٦٩. الأُمالي، للشيخ الطوسي^(٣): جَمَاعَةٌ، عَنْ أَبِي الْمُفَضَّلِ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عِيسَى بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ، عَنْ مُعْتَبِ بْنِ مَوْلى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، عَنْهُ، عَنْ أَبِيهِ عليه السلام قَالَ^(٤): جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ لِلْجَنَّةِ مِنْ ثَمَنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: مَا ثَمَنُهَا؟ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَقُولُهَا الْعَبْدُ مُخْلِصًا بِهَا. قَالَ: وَمَا إِخْلَاصُهَا؟ قَالَ: الْعَمَلُ بِمَا بُعِثْتُ بِهِ فِي حَقِّهِ وَحُبُّ أَهْلِ بَيْتِي^(٥). قَالَ: فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي وَإِنْ حُبُّ أَهْلِ الْبَيْتِ لَمِنْ حَقِّهَا؟ قَالَ: إِنَّ حُبَّهُمْ لَأَعْظَمُ حَقًّا.

١١٧٠. كنز الكراجكي^(٦): رُوِيَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ رَفَعَ دَرَجَةَ اللِّسَانِ فَاَنْطَقَهُ بِتَوْحِيدِهِ مِنْ بَيْنِ الْجَوَارِحِ.

١١٧١. فقه الرضا عليه السلام^(٧): إِنَّ أَوَّلَ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ وَأَوْجَبَ عَلَى خَلْقِهِ مَعْرِفَةَ الْوَحْدَانِيَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(٨) يَقُولُ: مَا عَرَفُوا اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ.

١١٧٢. وَأُرْوَى^(٩): أَنَّ الْمَعْرِفَةَ التَّصْدِيقُ وَالتَّسْلِيمُ وَالْإِخْلَاصُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ. وَأُرْوَى: أَنَّ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ أَنْ تُطِيعَ وَلَا تَعْصِي، وَتَشْكُرَ وَلَا تَكْفُرَ.

١١٧٣. مصباح الشريعة^(١٠): قَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: الْعَارِفُ شَخْصُهُ مَعَ الْخَلْقِ، وَقَلْبُهُ مَعَ اللَّهِ، لَوْ سَهَا قَلْبُهُ عَنِ اللَّهِ طَرَفَةً عَيْنٍ لَمَاتَ شَوْقًا إِلَيْهِ، وَالْعَارِفُ أَمِينٌ وَدَائِعِ اللَّهِ، وَكَنَزُ أَسْرَارِهِ، وَمَعْدِنُ نُورِهِ^(١١)، وَدَلِيلُ رَحْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَمَطِيَّةُ^(١٢)

١. صحيفة الإمام الرضا عليه السلام، ص ٣٩، ح ١؛ الأُمالي (للمصدق)، ص ٢٣٥، ح ٨؛ روضة الواعظين، ج ١، ص ٤٢.

٢. في الأُمالي مع زيادة: «فَلَمَّا مَرَّتِ الرَّاحِلَةُ نَادَانَا: بِشُرُوطِهَا وَأَنَا مِنْ شُرُوطِهَا»، وفي الروضة: «بشروطها وأنا من شروطها».

٣. الأُمالي (للتوسي)، ص ٥٨٣، ح ١٢٠٧.

٤. في المصدر: «...مُعْتَبِ مَوْلى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ عليه السلام، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ».

٥. **نقول:** المراد منه أَنَّ الْعَمَلُ بِأَحْكَامِ الشَّرْعِ وَحُبُّ أَهْلِ الْبَيْتِ عليه السلام دَلِيلٌ عَلَى الْإِخْلَاصِ وَآيَةٌ مِنْ آيَاتِهِ.

٦. كنز الفوائد، ص ١٨٤. (طبع مكتبة المصطفوي / قم - إيران / ١٣٦٩ ش / ط: الثانية).

٧. الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام، ص ٦٥.

٨. الأنعام/ ٩١.

٩. الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام، ص ٦٦، وقد ورد فيه: «أَنْ يُطِيعَ وَلَا يَعْصِيَ وَيَشْكُرَ وَلَا يَكْفُرَ».

١٠. مصباح الشريعة، ص ١٩١.

١١. في المصدر: «مَعْدِنُ أَنْوَارِهِ».

١٢. المطيئة: الناقة التي يركب مطاها أي ظهرها، راجع لسان العرب.

عُلُومِهِ، وَمِيزَانُ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ، قَدْ غَنَى عَنِ الْخَلْقِ وَالْمُرَادِ وَالذُّنْيَا، فَلَا مُونِسَ لَهُ سِوَى اللَّهِ، وَلَا نُطْقَ وَلَا إِشَارَةَ وَلَا نَفْسَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلِلَّهِ وَمِنَ اللَّهِ وَمَعَ اللَّهِ، فَهُوَ فِي رِيَاضِ قُدْسِهِ مُتَرَدِّدٌ، وَمِنْ لَطَائِفِ فَضْلِهِ إِلَيْهِ مُتَزَوِّدٌ، وَالْمَعْرِفَةُ أَصْلُ فَرْعِهِ الْإِيمَانُ.

١١٧٤. جامع الأخبار^(١): جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَا رَأْسُ الْعِلْمِ؟^(٢) قَالَ: مَعْرِفَةُ اللَّهِ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ. قَالَ: وَمَا حَقُّ مَعْرِفَتِهِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْرِفَهُ بِلَا مِثَالٍ وَلَا شَبَهٍ^(٣)، وَتَعْرِفَهُ إِلَهًا وَاحِدًا، خَالِقًا قَادِرًا، أَوَّلًا وَآخِرًا، وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا، لَا كُفُوَ لَهُ وَلَا مِثْلَ لَهُ، فَذَلِكَ مَعْرِفَةُ اللَّهِ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ.

١١٧٥. جامع الأخبار^(٤): قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: أَفْضَلُكُمْ إِيْمَانًا أَفْضَلُكُمْ مَعْرِفَةً.

١١٧٦. أقول: روى الصَّدُوق «رحمه الله» في كتاب صفات الشيعة^(٥): عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ إِدْرِيسَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ رَفَعَهُ إِلَى أَحَدِهِمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: بَعْضُكُمْ أَكْثَرُ صَلَاةً مِنْ بَعْضٍ، وَبَعْضُكُمْ أَكْثَرُ حَجًّا مِنْ بَعْضٍ، وَبَعْضُكُمْ أَكْثَرُ صَدَقَةً مِنْ بَعْضٍ، وَبَعْضُكُمْ أَكْثَرُ صِيَامًا مِنْ بَعْضٍ، وَأَفْضَلُكُمْ أَفْضَلُكُمْ مَعْرِفَةً.

١١٧٧. الأُمَالِي لِلشَّيْخِ الطُّوسِيِّ^(٦): جَمَاعَةٌ عَنْ أَبِي الْمُفَضَّلِ، عَنِ اللَّيْثِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْعَنْبَرِيِّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الصَّمَدِ، عَنْ خَالِهِ أَبِي الصَّلْتِ الْهَرَوِيِّ قَالَ: كُنْتُ مَعَ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا دَخَلَ نَيْسَابُورَ، وَهُوَ رَاكِبٌ بَعْلَةً شَهْبَاءَ، وَقَدْ خَرَجَ عُلَمَاءُ نَيْسَابُورَ فِي اسْتِقْبَالِهِ، فَلَمَّا صَارَ إِلَى الْمَرْبَعَةِ تَعَلَّقُوا بِلِجَامِ بَعْلَتِهِ وَقَالُوا: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ حَدِّثْنَا بِحَقِّ آبَائِكَ الطَّاهِرِينَ حَدِيثًا عَنْ آبَائِكَ «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ»، فَأَخْرَجَ رَأْسَهُ مِنَ الْهُودَجِ وَعَلَيْهِ مِطْرَفٌ خَزٌّ، فَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ سَيِّدِ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: أَخْبَرَنِي جَبْرِئِيلُ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَنِ اللَّهِ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، وَجَلَّ وَجْهُهُ قَالَ: إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَخُدِي، عِبَادِي فَاعْبُدُونِي، وَلْيَعْلَمْ مَنْ لَقِيتَنِي مِنْكُمْ بِشَهَادَةٍ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصًا بِهَا أَنَّهُ قَدْ دَخَلَ حِصْنِي، وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ عَذَابِي. قَالُوا: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ وَمَا إِخْلَاصُ الشَّهَادَةِ لِلَّهِ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: طَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ وَوَلَايَةُ أَهْلِ بَيْتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

١. جامع الأخبار (للشيعري)، ص ٥؛ التوحيد (للسدوق)، ص ٢٨٥، ح ٥؛ مشكاة الأنوار، ص ١٠؛ وفي الأخيرين رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ مع اختلاف يسير، معرفي هذه المصادر ذيل رواية.

٢. **فقول:** التعبير برأس العلم كالتعبير بأفضل الأعمال ورد في أمور مختلفة ولا تضاد بينها كما ذكرنا سابقاً في أمثاله فكل واحد من هذه الأمور رأس العلم من جهة.

٣. في المصدر: «ولا شبيه».

٤. جامع الأخبار (للشيعري)، ص ٥.

٥. صفات الشيعة، ص ١٥، ح ٢٨.

٦. الأُمَالِي (للتوسلي)، ص ٥٨٨، ح ١٢٢٠؛ وقد ورد في التوحيد (للسدوق)، ص ٢٤، ح ٢٢ مع اختلاف يسير؛ مجموعة ورام، ج ٢، ص ٧٤.

بيان:

قال الجوهري: الشُّهبة في الألوان: البياض الذي غلب على السواد. وقال: المَرْبِع: موضع القوم في الربيع خاصّة. أقول: يحتمل أن يكون المراد بالمربعة الموضع المتّسع الذي كانوا يخرجون إليه في الربيع للتنزّه، أو الموضع الذي كانوا يجتمعون فيه للعب، من قولهم: ربع الحجر: إذا أشاله ورفعاه لإظهار القوّة، وسمعت جماعة من أفاضل نيسابور أنّ المربعة اسم للموضع الذي عليه الآن نيسابور، إذ كانت البلدة في زمانه ^(١) في مكان آخر قريب من هذا الموضع وآثارها الآن معلومة، وكان هذا الموضع من أعمالها وقراها ^(٢)، وإنّما كان يسمّى بالمربعة لأنّهم كانوا يفتسمونه بالرباع الأربعة، فكانوا يقولون: ربع كذا وربع كذا، وقالوا: هذا الاصطلاح الآن أيضاً دائر بيننا، معروف في دفاتر السلطان وغيرها. وقال الجوهري: «المُطَرَف» والمُطَرَف واحد المطارف وهي أردية ^(٣) من خزّ مربّعة، لها أعلام. قال الفراء: وأصله الضمّ لأنّه في المعنى مأخوذ من أطرف أي جعل في طرفيه العلمان ولكنّهم استثقلوا الضمّة فكسروه.

١. القرى: جمع القرية، راجع لسان العرب.

٢. الرداء: الذي يلبس فوق الثياب كالجبّة والعباءة، والجمع أردية، راجع لسان العرب.

﴿باب ٢﴾

«علّة احتجاب الله عزّ وجلّ عن خلقه»

١١٧٨. علل الشرائع^(١): الْحُسَيْنُ بْنُ أَحْمَدَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ بُنْدَارٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْخُرَاسَانِيِّ - خَادِمِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ: قَالَ بَعْضُ الزَّنَادِقَةِ لِأَبِي الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لِمَ احْتَجَبَ اللَّهُ؟ فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ الْحِجَابَ عَنِ الْخَلْقِ لِكثَرَةِ ذُنُوبِهِمْ^(٢)، فَأَمَّا هُوَ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فِي آتَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. قَالَ: فَلِمَ لَا تُدْرِكُهُ حَاسَةُ الْبَصَرِ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لِلْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ الَّذِينَ تُدْرِكُهُمْ حَاسَةُ الْأَبْصَارِ، ثُمَّ هُوَ أَجَلٌ مِنْ أَنْ تُدْرِكَهُ الْأَبْصَارُ، أَوْ يُحِيطَ بِهِ وَهُمْ، أَوْ يَضْبِطَهُ عَقْلٌ. قَالَ: فَحَدِّثْ لِي؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهُ لَا يُحَدِّثُ. قَالَ: لِمَ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لِأَنَّ كُلَّ مَحْدُودٍ مُتَنَاهٍ إِلَى حَدٍّ، فَإِذَا اخْتَمَلَ التَّحْدِيدُ اخْتَمَلَ الزِّيَادَةُ، وَإِذَا اخْتَمَلَ الزِّيَادَةُ اخْتَمَلَ النُّقْصَانُ، فَهُوَ غَيْرُ مَحْدُودٍ وَلَا مُتَزَائِدٍ وَلَا مُتَجَزِّئٍ^(٣) وَلَا مُتَوَهِّمٍ.

١١٧٩. علل الشرائع^(٤): عَلِيُّ بْنُ حَاتِمٍ، عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ حَمْدَانَ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْوَلِيدِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سِنَانٍ، عَنْ أَبِي حَمْرَةَ الثُّمَالِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لِأَيِّ عِلَّةٍ حَجَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْخَلْقَ عَنْ نَفْسِهِ؟ قَالَ: لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَنَاهُمْ بُنْيَةً عَلَى الْجَهْلِ، فَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَمَا كَانُوا بِالَّذِينَ يَهَابُونَهُ وَلَا يُعْظَمُونَهُ، نَظِيرُ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ إِذَا نَظَرَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ أَوَّلَ مَرَّةٍ عَظَّمَهُ، فَإِذَا أَتَتْ عَلَيْهِ أَيَّامٌ وَهُوَ يَرَاهُ لَا يَكَادُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ إِذَا مَرَّ بِهِ، وَلَا يُعْظَمُهُ ذَلِكَ التَّعْظِيمَ.

بيان:

لعلّ المراد بالنظر الألفاظ الخاصة التي تستلزم غاية العرفان والوصول، أي لو كانت مبذولة لعامة الناس

١. علل الشرائع، ج ١، ص ١١٩، ح ١؛ وقد ورد في الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٩٦، ضمن رواية مع نقصان.

٢. لعل السؤال كان عن احتجابه تعالى عن القلوب، أو حمل عَلَيْهِ السَّلَامُ السؤال على ذلك، وربما يؤيد الأول سؤاله ثانياً بقوله: فلم لا تدركه حاسة البصر؟ (هامش المطبوع)

٣. في المصدر: «ولا متجزئ».

٤. علل الشرائع، ج ١، ص ١١٩، ح ٢.

لكانت لعدم استحقاقهم ذلك مورثاً لنهاونهم برّبهم، أو النظر إلى آثار عظمته التي لا تظهر إلاّ للأنبياء والأوصياء عليهم السلام، كنزول الملائكة وعروجهم ومواقفهم ومنازلهم، والعرش والكرسي واللوحي والقلم وغيرها؛ على أنّه يحتمل أن يكون دليلاً آخر مع التنزيل عن استحالة إدراكه بالبصر على وفق الأفهام العامّة.

﴿باب ٣﴾

«إثبات الصانع والاستدلال بعجائب صنعه على وجوده وعلمه وقدرته وسائر صفاته»

الآيات:

البقرة/٢٢: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١).

١. **نقول:** هذه الآية استعرضت قسما من النعم الإلهية التي تستحق الشكر ذكرت أولا خلق الأرض ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ فهذه الكرة السائرة بسرعة مذهلة في الفضاء، قد سخرت للإنسان كي يمتطيها ويستقر عليها دون أن تؤثر عليه حركتها. وتتجلى عظمة نعمة الأرض أكثر حين نلاحظ خاصية الجاذبية التي تؤمن لنا إمكانية الاستقرار وإنشاء الأبنية والمزارع، وسائر مستلزمات الحياة على هذه الأرض. فلو انعدمت هذه الخاصية لحظة واحدة لتناثر كل ما على هذه الأرض من إنسان وحيوان ونبات في الفضاء! تعبير «فراش» يصور بشكل رائع مفهوم الاستقرار والاستراحة، كما يصور إضافة إلى ذلك مفهوم الاعتدال والتناسب في الحرارة. ثم تتعرض الآية إلى نعمة السماء فتقول: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾. كلمة «سما» وردت في القرآن بمعان مختلفة، وكلها تشير إلى العلو، واقتران كلمة «سما» مع «بناء» يوحي بوجود سقف يعلو البشر على ظهر هذه الأرض. بل إن القرآن صرح بكلمة «سقف» في بيان حال السماء إذ قال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ (الأنبياء/٣٢).

لعل هذا التعبير القرآني يشير استغراب أولئك الذين يفهمون موقع الأرض في الفضاء، فيتساءلون عن هذا السقف، عن مكانه وكيفيته. ولعل هذا التعبير يعيد - بادئ الرأي - إلى الأذهان فرضية بطليموس التي تصور الكون على أنه طبقات من الأفلاك متراكمة بعضها فوق بعض مثل طبقات قشور البصل!! من هنا لا بد من توضيح لمفهوم السماء والبناء والسقف في التعبيرات القرآنية. ذكرنا أن سماء كل شيء أعلاه، وأحد معاني السماء «جو الأرض»، وهو المقصود في الآية الكريمة. وجو الأرض هو الطبقة الهوائية الكثيفة المحيطة بالكرة الأرضية، ويبلغ سمكها عدة مئات من الكيلومترات. لو أمعنا النظر في الدور الحياتي الأساس الذي تؤديه هذه الطبقة الهوائية لفهمنا مدى استحكام هذا السقف وأهميته لصيانة البشر. هذه الطبقة الهوائية مثل سقف شفاف يحيط بكرتنا الأرضية من كل جانب، وقدرة استحكامه تفوق قدرة أضخم السدود الفولاذية، على الرغم من أنه لا يمنع وصول أشعة الشمس الحيوية الحياتية إلى الأرض. لو لم يكن هذا السقف لتعرضت الأرض دوما لرشق الشهب والنيازك السماوية المتناثرة، ولما كان للبشر أمان ولا استقرار على ظهر هذا الكوكب،

البقرة/١٦٤: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١).

يونس/٦: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾.
يونس/١٠١: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الرعد/٢-٤: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَخَيْلٌ صِنُوفٌ وَغَيْرُ صِنُوفٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٢).
إبراهيم/٣٢-٣٤: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

→ وهذه الطبقة الهوائية التي يبلغ سمكها عدّة مئات من الكيومترات تعمل على إبادة كل الصخور المتجهة إلى الكرة الأرضية، وقليل جدا من هذه الصخور تستطيع أن تخترق هذا الحاجز وتصل الأرض لتندثر أهل الأرض دون أن تعكّر صفو حياتهم. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١، ص ١١٥)

١. **نقول:** ﴿اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ من الدلائل على ذات الله المقدسة وصفاته المباركة تعاقب الليل والنهار، والظلمة والنور بنظام خاص، فينقص أحدهما بالتدريج ليزيد في الآخر، وما يتبع ذلك من تعاقب الفصول الأربعة، وتكامل النباتات وسائر الأحياء في ظل هذا التكامل. لو انعدم هذا التغيير التدريجي، أو انعدم النظام في هذا التدريج، أو انعدم تعاقب الليل والنهار لانمحت الحياة من وجه الكرة الأرضية، ولو بقيت واستمرت - فرضا - لأصابها الفوضى والخط. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١، ص ٤٦)

٢. **نقول:** إن هذه الآية تكشف عن حقيقة علمية لم تكن معروفة عند نزول الآيات الكريمة، لأنّه في ذلك الوقت كانت نظرية «بطليموس» في الهيئة تتحكّم بكلّ قواها في المحافل العلمية في العالم وعلى أفكار الناس، وطبقا لهذه النظرية فإنّ السماوات عبارة عن اجرام متداخلة تشبه قشور البصل، وإنّها لم تكن معلّقة وبدون عمد، بل كلّ واحدة منها تستند إلى الأخرى.

ولكن بعد نزول هذه الآيات بألف سنة تقريبا توصل علم الإنسان إلى أنّ هذه الفكرة غير صحيحة، فالحقيقة أنّ الأجرام السماوية لها مقرّر ومدار ثابت، ولا تستند إلى شيء، فالشيء الوحيد الذي يجعلها مستقرّة وثابتة في مكانها هو تعادل قوّة التجاذب والتنافر، فالأولى تربط الأجرام فيما بينها، والأخرى لها علاقة بحركتها. هذا التعادل للقوتين الذي يشكّل أعمدة غير مرئية يحفظ الأجرام السماوية ويجعلها مستقرّة في مكانها. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٧، ص ٣٢٩)

دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ
الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿١٦-٢٣﴾.

الحجر / ١٦-٢٣: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ
رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا
مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا
خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاحِقَ فَإَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ
بِخَازِنِينَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾^(١).

النحل / ٤-٨: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا
بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا
لَا تَعْلَمُونَ﴾.

النحل / ١٠-١٦: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ
لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ
لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ
لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا
طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِرَ فِيهِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *
وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ
هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

النحل / ٦٥-٧٠: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا

١. **نقول:** البروج السماوية هي منازل الشمس والقمر. وبعبارة أقرب إلى الذهن: لو نظرنا إلى الشمس والقمر بإمعان فسنراها في كل فصل من فصول السنة ولفترة زمنية معينة يقابلان أحد الصور الفلكية (الصور الفلكية: مجموعة نجوم على هيئة خاصة) فنقول: إن الشمس في برج الحمل -مثلاً- أو الثور أو الميزان أو العقرب أو القوس. ويعتبر وجود الأبراج السماوية، وكذلك النظام الدقيق في حركة منازل الشمس والقمر ضمن هذه البروج (وهو التقويم المجسّم لعالم وجودنا)، يعتبر من الأدلة الواضحة على علم وقدرة الخالق جل وعلا. إن هذا النظام العجيب بما يحمل من دقة في حساب تشكيله يكشف لنا وجود هدف لخلق هذا العالم، وكلما أمعنا النظر في خلق الله إزدادنا مقربة من معرفة الخالق الجليل. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٨، ص ٣٨)

لِلشَّارِبِينَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَقَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ *.

النحل / ٧٢: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِالنِّعْمَةِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ *.

النحل / ٧٨-٨١: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ * (١).

الإسراء / ١٢: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِنَبْتَغُوا فَضْلًا

١. **فقول:** إننا لا نشعر بأهمية الكثير من عجائب عالم الوجود لاعتيادنا على كثرة مشاهدتها، ولعدم انشغالنا بالتدقيق العلمي عند المشاهدة، حتى باتت هذه العادة كحجاب يغطي تلك العظمة، ولو استطاع أي منا رفع ذلك الحجاب عن ذهنه لرأى العجائب الكثيرة من حوله. وتحليق الطيور في السماء لا تبتعد عن هذه الحقيقة، فحركة جسم ثقيل بخلاف قانون الجاذبية من دون أية صعوبة، وارتفاعه بسرعة حتى ليغيب عن أعيننا في لحظات لأمر يدعو إلى التأمل والدراسة.

ولو دققنا النظر في بناء جسم الطائر لوجدنا ذلك الترابط الدقيق بين كل صفاته وحالاته التي تساعد على الطيران، فهيكله العام مدبب ليقفل من مقاومة الهواء على بدنه لأقصى حد ممكن، وريشه خفيف مجوف، وصدرة مسطح يمكنه من ركوب أمواج الهواء، وطبيعته أجنحته الخاصة تمنحه القوة الرافعة التي تساعد على الارتفاع، وكذلك الطبيعة الخاصة لذيل الطائر التي تعينه على تغيير اتجاه طيرانه وسرعة التحوّل يمينا وشمالا، وأعلى وأسفل - كذيل الطائرة - وذلك التناسق الموجود بين النظر وبقية الحواس التي تشترك جميعا في عملية الطيران ... وكل ذلك يعطي للطائر إمكانية الطيران السريع. وأما «القوة الرافعة» اصطلاح فيزيائي حديث يستعمل في حقل الطائرات، وخلاصته: أنّ الجسم إذا كان له سطحين متفاوتين بالاستواء - كجناح الطائرة حيث سطحه الأسفل مستويا والأعلى محدبا - تحرك أفقيا فستولد فيه قوة خاصة ترفعه إلى الأعلى، تنشأ من ضغط الهواء على سطحه الأسفل والذي يكون أكثر منه على السطح الأعلى، لأنّ الأسفل مساحته أصغر، والسطح العلوى أوسع مساحة، وهذا ما تعتمد عليه حركة الطائرات، وإذا ما دققنا النظر في أجنحة الطيور فسنرى هذه الظاهرة بوضوح؛ فنأمل. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٨، ص ٢٧)

مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا^(١).

الإسراء ٦٦ و ٦٧: ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُكُمْ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا * طه ٥٣-٥٥: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى *﴾.

الأنبياء / ٣٠-٣٣: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ^(٢)﴾.

١. **نقول:** واعلم، كل عالم الوجود يدور حول محور العدد والحساب، ولا نظام في هذا العالم بدون حساب، وطبيعي أن الإنسان الذي هو جزء من هذه المجموعة لا يستطيع العيش من دون حساب وكتاب. لهذا السبب تعتبر الآيات القرآنية وجود الشمس والقمر أو الليل والنهار واحدة من نعم الله تعالى، لأنها الأساس في تنظيم الحساب في حياة الإنسان، إن شيوخ الفوضى وفقدان الحياة للاتساق والنظم يؤدي إلى دمار الحياة وفنائها. والظريف أن الآية تتحدث عن فائدتين لنعمة الليل والنهار، الأولى: ابتغاء فضل الله والتي تعني التكسب والعمل المفيد المثمر. والثانية: معرفة عدد السنين والحساب. وقد يكون الهدف من ذكر الاثنين إلى جنب بعضهما البعض يعود إلى أن (ابتغاء فضل الله) لا يتم بدون الاستفادة من (الحساب والكتاب). وقد لا يكون هذا المعنى واضحاً في العصور الماضية، أمّا في عصرنا فهو واضح كالشمس. إن عالمنا اليوم، هو عالم الأرقام والأعداد والإحصاء، فإلى جانب كل مؤسسة ومنظمة اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو عسكرية أو عملية أو ثقافية، ثمة مؤسسة إحصائية. وهكذا نستفيد من الإشارة القرآنية أن القرآن لا يبلى بالزمان، بل كلما مرّ عليه الزمان تجددت معانيه وتجلّت آفاقه. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٨، ص ١٦٤)

٢. **نقول:** لقد ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة فيما هو المراد من «الرتق» و«الفتق» المذكورين هنا في شأن السماوات والأرض. ويبدو أن الأقرب من بينها ثلاثة تفاسير، ويحتمل أن تكون جميعاً داخلية في مفهوم الآية. ١- إن رتق السماء والأرض إشارة إلى بداية الخلق، حيث يرى العلماء أن كل هذا العالم كان كتلة واحدة عظيمة من البخار المحترق، وتجزأ تدريجياً نتيجة الانفجارات الداخلية والحركة، فتولدت الكواكب والنجوم، ومن جملتها المنظومة الشمسية والكرة الأرضية، ولا يزال العالم في توسع دائم. ٢- المراد من الرتق هو كون مواد العالم متحدة، بحيث تداخلت فيما بينها وكانت تبدو وكأنها مادة واحدة، إلا أنها انفصلت عن بعضها بمرور الزمان، فأوجدت تركيبات جديدة، وظهرت أنواع مختلفة من النباتات والحيوانات والموجودات الأخرى في السماء والأرض، موجودات كل منها لها نظام خاص وآثار وخواص تختص بها، وكل منها آية على عظمة الله وعلمه وقدرته غير المتناهية. ٣- إن المراد من رتق السماء هو أنها لم تكن تمطر في البداية، والمراد من رتق الأرض أنها لم تكن تنبت النبات في ذلك الزمان، إلا أن الله سبحانه فتق الاثنين، فأنزل من السماء المطر، وأخرج من

المؤمنون / ١٨-٢٢: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ * فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْكَالِينِ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾^(١).

→ الأرض أنواع النباتات. ونحن نعتقد أنه لا مانع من أن تجتمع لآلية التفاسير الثلاثة، فكل في محله كامل وصحيح وقد قلنا مرارا: إن استعمال لفظ واحد في أكثر من معنى ليس جائزا فحسب، بل قد يكون أحيانا دليلا على كمال الفصاحة، وإن ما نقرؤه في الروايات من أن للقرآن بطونا مختلفة يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى.

وأما فيما يتعلق بإيجاد كل الكائنات الحية من الماء الذي أشير إليه في ذيل الآية ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ فهناك تفسيران مشهوران: أحدهما: إن حياة كل الكائنات الحية - سواء كانت النباتات أم الحيوانات - ترتبط بالماء، هذا الماء الذي كان مبدؤه المطر الذي نزل من السماء؛ والآخر: إن الماء هنا إشارة إلى النطفة التي تتولد منها الكائنات الحية عادة. وما يلفت النظر أن علماء عصرنا الحديث يعتقدون أن أول انبثاق للحياة وجدت في أعماق البحار، وذلك يرون أن بداية الحياة من الماء. وإذا كان القرآن يعتبر خلق الإنسان من التراب، فيجب أن لا ننسى أن المراد من التراب هو الطين المركب من الماء والتراب. والجدير بالذكر أيضا أنه طبقا لتحقيقات العلماء، فإن الماء يشكل الجزء الأكبر من بدن الإنسان وكثير من الحيوانات، وهو في حدود ٧٠% وما يورده البعض من أن خلق الملائكة والجن ليس من الماء، مع أنها كائنات حية، فجوابه واضح، لأن المراد هو الموجودات الحية المحسوسة بالنسبة لنا.

وأما في تفسير هذه الآية ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أيضا اختلاف بين المفسرين؛ أما ما يناسب تحقيقات علماء الفلك الثابتة، فهو أن المراد من حركة الشمس في الآية إما الدوران حول نفسها، أو حركتها ضمن المنظومة الشمسية. ولا بد من الإشارة إلى أن كلمة (كل) يمكن أن تكون إشارة إلى الشمس والقمر، وكذلك النجوم، والتي تستفيد من كلمة «الليل»، واحتمل بعض المفسرين أن تكون إشارة إلى كل من الليل والنهار والشمس والقمر، لأن «الليل» - والذي هو الظل المخروطي للأرض - له مدار خاص، فإذا نظر إنسان - خارج الكرة الأرضية - من بعيد إليه، فسيرى أن هذا الظل المخروطي في حركة مستمرة حول الأرض، وسيرى نور الشمس الذي يشع على الأرض ويشكل في النهار كالأسطوانة التي تنتقل دائما حول هذه الكرة، وبناء على هذا فإن لكل من الليل والنهار مدارا ومكانا خاصا به. ويحتمل أيضا أن يكون المراد من حركة الشمس حركتها في إحساسنا، لأن كلنا من الشمس والقمر في دوران مستمر في نظر الناظرين من أهل الأرض. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص ١٥٤-١٥٩)

١. **نقول:** هنا يواجهنا سؤال: لماذا أكد على ثلاث فواكه هي: التمر والعنب والزيتون؟ في الجواب على ذلك لا بد من الاهتمام بمسألة علمية، هي أن علماء التغذية أكدوا أنه من النادر أن نجد فاكهة مفيدة لجسم الإنسان بقدر فائدة هذه الفواكه الثلاثة، فلزيت الزيتون أهمية فائقة في إنتاج الطاقة وبناء الجسم، لأن الحرارة الناتجة عن تناوله كبيرة، وهو صديق حميم للكبد، ويزيل أمراض الكلية ويحميها، يقوي الأعصاب، وأخيرا يعتبر إكسير السلامة. أما التمر فقد وصف بدرجة لا يسعها هذا الموجز، فسكرها من أفضل أنواع السكر وأسلمها، ويرى عدد كبير من خبراء التغذية أن التمر من الأسباب التي تحول دون الإصابة بالأمراض السرطانية، حيث كشف العلماء في التمر ثلاث عشرة مادة حيوية، وخمسة أنواع من الفيتامينات، وبهذا تعتبر مصدرا غنيا بالمواد الغذائية. أما الأعناب فتعبر - كما يراه بعض العلماء - صيدلية طبيعية، فخواصها تشبه حليب الأم، وتولد طاقة حرارية في الجسم تعادل ضعف ما تولده اللحوم، وتصفّي الدم، وتدفع السموم عن البدن، وتمنح فيتاميناته الإنسان قوة وطاقة مثلي. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص ٤٣٩)

المؤمنون / ٧٩ و ٨٠: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

المؤمنون / ٨٤-٨٩: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾.

النور / ٤١-٤٥: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ * يَقُلُّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ * وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١).

١. **فقول:** إن العلماء يرون في كيفية تكوّن البرد في السماء أن قطرات المطر تنفصل من السحاب، وإذا مرت بطبقة باردة من الهواء أصبحت ثلجا، ثم تدفعها أحيانا العواصف الموجودة هناك إلى الأعلى، فتدخل قطع الثلج هذه إلى داخل السحب، ويكتسب بعضها مياها جديدة ثم تهبط، فتجمد ثانية عند مرورها بطبقة من الهواء البارد جدا. وكلما تكرر وقوع هذا العمل نمت هذه القطع من الثلج وازداد وزنها، إلى أن تقع على الأرض بعد أن تعجز الأعاصير عن دفعها إلى الأعلى مرة أخرى. أو أن الإعصار يهدأ فيسقط البرد على الأرض. وبهذا الشرح العلمي يتّضح لنا المراد من كلمة «الجبّال» التي وردت في هذه الآية، لأن تكوّن البرد بقطع كبيرة وثقيلة ممكن في حال تراكم السحب، حتى يقذف الإعصار حبّات البرد وسطها، لتكسب هذه الحبّات قدرا أكبر من مياه السحب. وذلك ممكن في حالة وجود جبّال مرتفعة من السحب، لتكون مصدرا جيدا لتكوين البرد. ونقرأ هنا تحليلا آخر ذكره بعض الكتّاب، وخلاصته كالآتي: «أشارت الآيات موضع البحث بصراحة إلى الجبّال الثلج، أي الجبال التي فيها نوع من الثلوج. وهذا يشير الانتباه كثيرا، لأن اختراع الطائرات والتمكن من التحليق بها في مستوى مرتفع زاد من آفاق علم البشر، فقد تمكّن العلماء من الوصول إلى سحب مستورة ومتكونة من تراكبات ثلجية، وحقّا ممكن أن تسمى بجبّال الثلج. ومما يشير الدهشة أن أحد علماء السوفيت استخدم - لعدة مرات - اسم «جبّال السحب» و«جبّال الثلج» خلال شرحه موضوع سحب العواصف الثلجية، وبهذا يتّضح لنا وجود جبّال من الثلج في السماء. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١١، ص ١٣٠)

وما حصل من جميع هذه الآيات ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ... إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أنه لا شك أن الحياة تعتبر أعجب ظاهرة في العالم، ذلك السر الذي لم يقدر العلماء على فك رموزه حتّى الآن، فالجميع يقول: إن الأحياء خلقت من مادّة لا حياة فيها، إلا أنه لا أحد يعلم كيف حدثت هذه الظفرة وفي أي ظرف، إذ لم يشهد أي مختبر تبدّل موجود عديم الحياة إلى آخر حي، على الرغم من انشغال الآلاف من العلماء طوال سنين عديدة في التفكير بذلك، وإجراء تجارب مختبرية يخطئها الحصر. وهناك خيال من بعيد يتراءى للعلماء في هذا المجال، ولكنه مجرد

الفرقان ٤٥-٤٩: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا * وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُخْضِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْ آسَى كَثِيرًا﴾.

الفرقان ٥٣ و ٥٤: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

الفرقان ٦١ و ٦٢: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

الشعراء ٧ و ٨: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

القصص ٧١-٧٣: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ فَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ فَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١).

→ خيال وشيح، فإن العلم البشري عاجز عن كشف أسرار الحياة مع تقدّمه الهائل، وذلك لتعقد هذه الأسرار بدرجة كبيرة. وفي الظروف السائدة تولّد الأحياء من أحياء أخرى، ولا يولد أي حي من غير حي. ولكن المؤكّد أن هذا الحال لم يكن كذلك في الماضي البعيد، أو بعبارة أخرى: أنّ الحياة تملك تاريخاً لظهورها. ولكن كيف وتحت أية شروط؟ إنّ ذلك لغز لم تنتضح حقيقته بعد، والأعجب من ذلك تنوع الحياة في هذه الصور الكاملة، تبدأ من الأحياء المجهرية وحيدة الخلية حتى تصل إلى الحيتان العظيمة التي يتجاوز طول الواحدة منها الثلاثين متراً، وتبدو إحداها كأنها جبل من لحم طائف في المحيط. ومن مئات الآلاف من الحشرات المختلفة إلى آلاف من الطيور الجميلة، كلّ له عالمه الخاص به وأسراره الذاتية. وتشغل كتب علم الحيوان اليوم حيّزاً كبيراً من مكتبات العالم، ويستعرض مؤلفوها جوانب من أسرار هذه الأحياء، خاصّة الأحياء البحرية. والبحر دوماً تكمن فيه الأسرار التي ما تزال معلوماتنا قاصرة عن استكناها، على الرغم من سعة تطوّرها العلمي وعمقه، حقاً الله أكبر، خلق كلّ هذه الأحياء، ومنحها ما تحتاج إليه، فما أعظم قدرته وعلمه! سبحانه! كيف وضع كلّ واحد منها في ظروف مناسبة له، ووَفَّرَ غذاءه وما يحتاج إليه، والأعجب من ذلك خلقه سبحانه وتعالى جميع هذه الكائنات، من ماء وقليل من تراب. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١١، ص ١٣٤)

١. **فقول:** إنّ سعة رحمة الله تستوجب أن تضمن جميع عوامل حياتكم، فأنتم -من جانب- بحاجة إلى السعي والحركة، وكل ذلك لابدّ لهما من الليل! لقد ثبت -في هذا العصر- علمياً أن جميع أجهزة البدن تكون فعالة ونشطة مع وجود النور، إذ تنشط الحركة الدموية والجهاز التنفسي

العنكبوت/٤٤: ﴿حَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

العنكبوت/٦٣: ﴿وَلَيْتُنَّ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

العنكبوت/٦٥: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

الروم/٢٠-٢٦: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالتَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ * وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ﴾^(١).

→ وحركة القلب وسائر الأجهزة، وإذا استمر النور أكثر من المعتاد تعبت خلايا الجسم وتحول النشاط إلى خمول! وبالعكس فإن الخلايا تهدأ في الليل وتستريح استراحة عميقة تستعيد نشاطها وقواها. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٢، ص ٢٨٤)

١. **نقول:** إن من عجائب صنع الله تعالى «عالم النوم» وبالرغم من جميع الأبحاث التي كتبها العلماء حول النوم وخصائصه، يبدو أن زوايا هذا العالم لم تنكشف جميعها، ولم يرفع النقاب عن أسرارهِ وحقائقهِ الغامضة! فما زال البحث يدور بين العلماء: أي فعل وانفعال يكون في البدن بحيث يتوقف - خلال لحظة مفاجئة - قسم من نشاطات المخ والبدن، ويظهر تحول في عامّة الروح والجسد؟! قال بعضهم: إن العامل الأصلي للنوم هو «عامل فيزيائي» ويعتقدون أن انتقال الدم من المخ إلى أجزاء البدن الأخرى، يوجد هذه الظاهرة، ولأجل إثبات معتقدهم عمدوا إلى صنع سرير للنوم على شكل خاص يدعى «سرير النوم المعياري» يبيّن كيفية انتقال الدم من المخ إلى سائر أعضاء البدن! وقال جماعة: إن العامل الأصلي للنوم هو «عامل كيميائي» ويعتقدون أن الإنسان في حالة السعي والعمل تزداد فيه السموم بحيث تؤدي إلى تعطيل قسم من المخ عن عمله، فينام الإنسان على أثر ذلك، وحين تتلاشى السموم وتسيطر عليها كريات الدم يتيقظ الإنسان مرة أخرى! وقال جماعة آخرون: إن العامل الأصلي للنوم هو «عامل عصبي» ويعتقدون أن للنشاط العصبي خصوصية في المخ لها حكم وقود السيارة، فعند ما تتعب ينطفئ المخ ويتوقف عن العمل مؤقتا. ولكن هناك أسئلة ونقاط مبهمة حول جميع هذه النظريات، لم نحصل إلى الآن على جواب واضح لها، وما يزال النوم محتفظا بوجهه المليء بالأسرار. من عجائب عالم النوم ما أمارط العلماء النقاب عنه أخيرا، وهو حين يتعطل قسم كبير من المخ عن العمل تبقى بعض خلاياه التي ينبغي أن تسمى بـ «الخلايا الحارسة» متيقظة ولا تنسى الوصايا التي يوصيها الإنسان قبل النوم عند ساعة التيقظ، وعند الحاجة توقظ هذه الخلايا جميع المخ ويتحرك نحو العمل مرة أخرى! فمثلا: الأم المرضعة المتعبة حين تنام الليل وإلى جنبها رضيعها في المهد، يوصي عقلها الباطني الخلايا الحارسة التي تربط بين الروح والجسم، أنه متى ما سمعت أقل صوت لطفلي فأيقظني،

الروم ٤٦: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١).

الروم ٤٨-٥٠: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيُبْسِطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَافاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لُمُبْلِسِينَ * فَاَنْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الروم ٥٤: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

لقمان ١٠/ ١١: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

لقمان ٢٩-٣٢: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

→ ولكن لا يهمني أي صوت آخر، فقد لا تنبثق المرأة من صوت الرعد الموهول، ولكنها تنبثق لأقل صوت من ولدها الرضيع، فهذه المهمة هي وظيفة الخلايا الحارسة. ونحن أيضاً جربنا هذا الموضوع كثيراً، فمتى ما كان لدينا تصميم أن نستيقظ مبكرين أو في منتصف الليل لنسافر أو لأداء مهمة، ونحدث أنفسنا بذلك، فإننا غالباً ما نستيقظ في الوقت المطلوب، في حين أن من الممكن أن نغرق في النوم لساعات طوال في غير هذه الحالة! والخلاصة، حيث أن النوم هو من الظواهر الروحية، وللروح عالم مليء بالأسرار، فليس عجباً أن تبقى كثير من زوايا هذه المسألة غامضة، ولكن كلما سبرنا غور هذا العالم نتعرف على عظمة خالق هذه الظاهرة. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٢، ص ٥٠٧)

١. **بقول:** بالرغم من أن آيات القرآن تستند إلى البشارة في نزول الغيث أكثر من غيرها، إلا أنه لا يمكن تحديد كلمة «مبشرات» في هذا المضمون فحسب، لأن الرياح تصحب بشائر أخرى أيضاً. فالرياح تبدل حرارة الجو وبرودته الشديدة إلى «الاعتدال»، والرياح تستهلك العفونة في الفضاء الكبير وتصفى الهواء. والرياح تخفف من وطء حرارة الشمس على الأوراق والنباتات، وتمنع من احتراقها بحرارة الشمس. كما أن الرياح تنقل غاز الأوكسجين المتولد من النباتات وأوراق الشجر إلى الإنسان، وتهب غاز ثاني أوكسيد الكربون الخارج مع زفير الإنسان وتنفسه إلى النباتات أيضاً. وهي كذلك تؤدي وظيفة أخرى، فقد أرسلها الله لواقع تنقل معها لقاح الأزهار الذكور للإناث. والرياح تحرك الطواحين الهوائية وتصفى البيادر. والرياح تنقل البذور من المناطق التي قد تجمعت فيها وتنثرها وتبسطها على الصحراء، كأنها فلاح مشفق، فتغدو ممرعة بعد أن كانت يباباً. والرياح تنقل السفن مع مسافريها وأثقالهم إلى نقاط مختلفة. وحتى في هذا العصر الذي حلت الوسائل الحديثة «الماكنات» مكان الرياح، فما تزال الرياح ذات أثر بالنسبة للسفن في اتجاهاتها المخالفة لها أو الموافقة لها سرعة وبطأ! أجل، أن الرياح مبشرات من جهات شتى. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٢، ص ٥٥٧)

كُلُّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ.

السجدة ٢٧: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

فاطر ١ و ٢: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثَلَاثَ وَرُبَاعٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

فاطر ١١: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا...﴾.

فاطر ٢٧ و ٢٨: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...﴾.

يس ٣٣-٤٤: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ * وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ * وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ * وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ * إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾^(١).

١. **فقول:** «الدوران» لغة يطلق على الحركة المغزلية، في حال أن «الجريان» يطلق على الحركة الطولية، والملفت للنظر أن الآيات أعلاه، نسبت الحركتين إلى الشمس، فقالت: «وَالشَّمْسُ تَجْرِي ... وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ». كانت المحافل العلمية أيام نزول الآية متمسكة بنظرية «بطليموس» التي كانت تقول بأن الأجرام السماوية ليس فيها حركة دورانية، بل إن باطن الأفلاك التي تتكون من أجسام بلورية متراكمة على بعضها البعض كترام طبقات البصلة وثابتة، وحركتها تتبع حركة أفلاكها، وعليه فلم يكن في تلك الأيام معنى لا لجريان الشمس ولا غيره. أما بعد أن تداعت الأسس التي تقوم عليها فرضية بطليموس في ضوء الاكتشافات الجديدة في القرون الأخيرة، وتحزرت الأجرام السماوية

يس ٧١-٧٣: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

يس ٧٧: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾.

الصفات ١١: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾.

الزمر ٥ و ٦: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُوِّرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْتَصِرُوا﴾.

الزمر ٢١: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مُضْغَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

غافر ١٣: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾.

غافر ٦١-٦٨: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانَّى تُؤْفَكُونَ *

→ من قيد الأفلاك البلورية، فقد قويت نظرية كون الشمس هي مركز المنظومة الشمسية، وهي ثابتة وجميع المنظومة الشمسية تدور حولها. هنا أيضا لم تكن تعبيرات الآيات أعلاه مفهومة فيما يتعلق بحركة الشمس الطولية والدورانية حتى أثبت العلم بتطوره عدة حركات للشمس في العقود الأخيرة. وهي: حركة الشمس الموضعية حول نفسها. حركة الشمس الطولية مع المنظومة الشمسية باتجاه نقطة محددة في السماء. وحركتها الدورانية مع المجرة التي تتبعها وبذا ثبتت معجزة علمية أخرى للقرآن. ولتوضيح هذه المسألة نورد ما ورد في إحدى دوائر المعارف حول حركة الشمس: للشمس حركة ظاهرية وأخرى واقعية، وتشترك الشمس في الحركة الظاهرية - اليومية - فهي تشرق من مشرق نصف الكرة الأرضي الذي نعيش فيه، وتمر في طرف الجنوب من نصف النهار ثم تغرب من المغرب، وعبورها من نصف النهار يشخص الظهر الحقيقي - الزوال -. وللشمس أيضا حركة ظاهرية أخرى - سنوية - حول الأرض بحيث أنها تقترب من المشرق درجة واحدة كل يوم، وفي هذه الحركة تمر الشمس مقابل الأبراج مرة واحدة كل عام، ومدار هذه الحركة يقع على صفحة «دائرة البروج» ولهذه الحركة أهمية عظيمة في علم الفلك، فظاهرة «الاعتدالين» و«الانقلاب» و«الميل الكلي» كلها مرتبطة بهذا العلم، وعلى أساس ذلك يحسب العام الشمسي. علاوة على هذه الحركات الظاهرية فإن للشمس حركة دورانية في المجرة، الشمس تنطلق بسرعة دورانية في الفضاء تعادل مليون ومائة وثلاثين ألف كيلومتر في الساعة!! وفي داخل المجرة فهي ليست ثابتة أيضا، بل إنها أيضا تدور بسرعة تقارب اثنين وسبعين ألف كيلومتر في الساعة ضمن المجموعة النجمية المسماة «الجاثي على ركبتيه». وعدم علمنا بتلك الحركة السريعة للشمس هو بعد الأجرام السماوية، والذي هو المانع من تشخيص تلك الحركة الموضعية أيضا. دورة الحركة الوضعية للشمس على محورها تستغرق حدود الخمسة وعشرين يوما بلياليها. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٤، ص ١٨٩)

كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً
وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الْحَيُّ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ
مِنْ نُطْقَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ
وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ
كُنْ فَيَكُونُ ﴿١﴾.

غافر ٧٩-٨١: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ
وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ
تُنْكِرُونَ ﴿٢﴾.﴾

فصلت ٩-١٢: ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ
الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ
ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ
سَبْعَ سَمَواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ
الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣﴾.﴾

فصلت ٥٣ و ٥٤: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ
أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٤﴾.﴾
الشورى ١١: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ
فِيهِ ... ﴿٥﴾.﴾

١. **نقول:** لو أُتيح للإنسان أن ينكر كل ما يستطيع، فهو لا يستطيع أن ينكر وجود نظام دقيق قائم يعم بنسقه عالم الوجود، فأحياناً يقضي عالم معين كل عمره بالدرس والمطالعة حول تركيب العين وأسرارها أو المخ أو القلب، ويقرأ الكتب الكثيرة مما كتب حول الموضوع، إلا أنه أخيراً يعترف بأن هناك أسراراً كثيرة حول موضوعه لا تزال مجهولة. وهنا يجب أن لا يغيب عن بالنا أن علوم علماء اليوم، ليست هي سوى نتيجة متراكمة لجهود ودراسات آلاف العلماء عبر تاريخ البشر. إن العالم اليوم ينطق في كل جزء من أجزائه بوجود قدرة أزلية تمكن وراءه، فكل شيء يدل على الصانع المدبر، وأي نبات ينبت على الأرض يهتف «وحده لا شريك له». نستطيع هنا أن نترك الحديث عن القضايا العلمية المعقدة، ونتجه إلى ظواهر عادية مما ينتشر حولنا، لتلمس فيها أدلة واضحة على إثبات الصانع العظيم. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٥، ص ٤٥٠)

الشورى ٢٩: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾.

الشورى ٣٢-٣٥: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِنَّ يَشَاءُ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوقِظُهنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ * وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾.

الزخرف ٩-١٤: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لَيْسْتُمْ عَلَى ظُهُورِهِ تُمْ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾.

الجاثية ٣-٥: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الجاثية ١٢ و ١٣: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَسْتَبْعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

الجاثية ٢٤: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾^(١).

الذاريات ٢٠ و ٢١: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

الذاريات ٤٧-٤٩: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

١. **نقول:** إن جماعة من الماديين في العصور الخالية كانوا يعتقدون أن الدهر هو الفاعل أو الزمان في هذا العالم، أو بتعبير جماعة آخرين: إنَّ الفاعل هو دوران الأفلاك وأوضاع الكواكب، وكانوا ينهون سلسلة الحوادث إلى الأفلاك، ويعتقدون أن كل ما يقع في هذا العالم بسببها، حتى أن جماعة من فلاسفة الدهريين وأمثالهم كانوا يقولون بوجود عقل للأفلاك، ويعتقدون أن تدبير هذا العالم بيدها. إن هذه العقائد الخرافية انقرضت بمرور الزمان، خاصة وقد ثبت بتقدم علم الهيئة عدم وجود شيء باسم الأفلاك - الكرات المتداخلة الصافية - في الوجود الخارجي أصلاً، وأن لنجوم العالم العلوى بناء كبناء الكرة الأرضية بتفاوت، غاية ما في الأمر أن بعضها مظلم ويكتسب نوره من الكرات الأخرى، وبعضها الآخر مشتعل ومنير. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٦، ص ٢٢٠)

الطور/ ٣٥ و ٣٦: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾^(١).

الرحمن ١/ ٧٨-: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ. الواقعة/ ٥٧-٧٤: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْ لَا تَصَدَّقُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْ لَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَرْزَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُعْرِضُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْ لَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.

الطلاق/ ١٢: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

الملك/ ٣-٥: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ رَئَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ...﴾.

١. **نقول:** ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ هذه العبارة الموجزة والمقتضبة في الحقيقة هي إشارة إلى «برهان العلية» المعروف الوارد في الفلسفة وعلم الكلام لإثبات وجود الله، وهو أن العالم الذي نعيش فيه ممّا لا شك فيه حادث، لأنّه في تغيير دائم، وكلّ ما هو متغيّر فهو في معرض الحوادث، وكلّ ما هو في معرض الحوادث محال أن يكون قديماً وأزلياً. والآن ينقدح هذا السؤال، وهو إذا كان العالم حادثاً فلا يخرج عن الحالات الخمس التالية: ١- وجد من دون علّة! ٢- هو نفسه علّة لنفسه. ٣- معلولات العالم علّة لوجوده. ٤- إنّ هذا العالم معلول لعلّة أخرى وهي معلولة لعلّة أخرى إلى ما لا نهاية. ٥- إنّ هذا العالم مخلوق لواجب الوجود الذي يكون وجوده ذاتياً له. وبطلان الاحتمالات الأربع المتقدمة واضح، لأنّ وجود المعلول من دون علّة محال، وإلاّ فينبغي أن يكون كلّ شيء موجوداً في أي ظرف كان، والأمر ليس كذلك! والاحتمال الثاني وهو أن يوجد الشيء من نفسه محال أيضاً، لأنّ مفهومه أن يكون موجوداً قبل وجوده، ويلزم منه اجتماع النقيضين (فلاحظوا بدقّة). وكذلك الاحتمال الثالث وهو أنّ مخلوقات الإنسان خلقته، وهو واضح البطلان إذ يلزم منه الدور! وكذلك الاحتمال الرابع وهو تسلسل العلل وترتّب العلل والمعلول إلى ما لا نهاية أيضاً محال، لأنّ سلسلة المعلولات اللامحدودة مخلوقة، والمخلوق مخلوق ويحتاج إلى خالق أوجده، ترى هل تتحوّل الأصفار التي لا نهاية لها إلى عدد؟! أو ينفلق النور من ما لا نهاية الظلمة؟! وهل يولد الغنى من ما لا نهاية له في الفقر والفاقة؟ فبناءً على ذلك لا طريق إلّا القبول بالاحتمال الخامس، أي خالقية واجب الوجود (فلاحظوا بدقّة أيضاً). وحيث أنّ الركن الأصلي لهذا البرهان هو نفي الاحتمال الأوّل والثاني فإنّ القرآن اقتنع به فحسب. والآن ندرك جيّداً وجه الاستدلال في هذه العبارات الموجزة. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٧، ص ١٨٧)

الملك / ١٩: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾.

الملك / ٢١: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾.

الملك / ٢٣ و ٢٤: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ * قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

الملك / ٢٩ و ٣٠: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾.

المرسلات / ٢٠-٢٨: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

النبا / ٦-١٦: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾.

النازعات / ٢٧-٣٣: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمُكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾.

عبس / ٢٤-٣٢: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَيْنًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾.

الغاشية / ١٧-٢٠: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾^(١).

١. نقول: إنَّ ما هو الواضح أنَّ الآيات في أول نزولها كانت تتخاطب أهل مكة قبل غيرهم، والإبل أهم شيء في حياة أهل مكة في ذلك الزمان، فهي معهم ليلاً ونهاراً، وتنجز لهم ضرور الأعمال، وتدر عليهم الفوائد الكثيرة. أضف إلى ذلك أنَّ لهذا الحيوان خصائص عجيبة قد تفرَّد بها عن بقية الحيوانات، ويعتبر بحق آية من آيات خلق الله الباهرة. ومن خصائص الإبل: ١- لو نظرنا إلى موارد الاستفادة من الحيوانات الأليفة، فنسرى أنَّ قسماً منها لا يستفاد إلا من لحومها، والقسم الآخر يستفاد من ألبانها على الأغلب، وقسم لا يستفاد منه إلا في الركوب،

الروايات:

١١٨٠. الإحتجاج^(١): عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ»: وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَجَسِيمِ النُّعْمَةِ لَرَجَعُوا إِلَى الطَّرِيقِ، وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، وَلَكِنَّ الْقُلُوبَ عَلِيلَةٌ، وَالْأَبْصَارُ مَدْخُولَةٌ^(٢)، أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى صَغِيرِ مَا خَلَقَ؟ كَيْفَ أَخْكَمَ خَلْقَهُ، وَأَتَقَنَ تَرْكِيبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وَسَوَّى لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ، أَنْظَرُوا إِلَى النَّمْلَةِ فِي صِعَرِ جُتَّتِهَا وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لَا تَكَادُ تَنَالُ بِلَحْظِ^(٣) الْبَصَرِ، وَلَا بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكْرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِهَا، وَضَنَّتْ عَلَى رِزْقِهَا^(٤)، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جُحْرِهَا وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا، تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِزِدِّهَا، وَفِي وَرُودِهَا لِصُدُورِهَا^(٥)، مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِهَا^(٦)، لَا يَغْفُلُهَا الْمَنَانُ، وَلَا يَحْرِمُهَا الدِّيَانُ، وَلَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ، لَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا، وَفِي عُلوِّهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَبًا، وَلَقَيْتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَبًا، فَتَعَالَى الَّذِي أَقَامَهَا عَلَى قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَى دَعَائِمِهَا، لَمْ يَشْرُكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعْنَهُ عَلَى خَلْقِهَا قَادِرٌ. وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لَتَبَلَّغَ غَايَاتِهِ مَا دَلَّتْكَ الدَّلَالَةُ إِلَّا عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ^(٧)، لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ اخْتِلَافِ كُلِّ حَيٍّ، وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ وَالشَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ فِي خَلْقِهِ إِلَّا سَوَاءٌ، كَذَلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ وَالرَّيْحُ وَالْمَاءُ، فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ، وَاخْتِلَافِ هَذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ هَذِهِ الْبَحَارِ^(٨)، وَكَثْرَةِ هَذِهِ الْجِبَالِ، وَطُولِ هَذِهِ الْقِلَالِ، وَتَفَرُّقِ هَذِهِ اللُّغَاتِ

→ وقسم قد تخصص في حمل ونقل الأثقال، ولكن الإبل تقدم كل هذه الخدمات (اللحم، اللبن، الركوب والحمل). ٢- قدرة حمل وتحمل الإبل أكثر بكثير من بقية الحيوانات الأهلية، حتى أنها لتبرك على الأرض فتوضع الأثقال عليها ثم تنهض بها، وهذا ما لا تستطيع فعله بقية الحيوانات الأهلية. ٣- تتحمل العطش لأيام متتالية (بين السبعة إلى عشرة أيام)، وقابليتها على تحمل الجوع مذهلة. ٤- يطلق عليها اسم (سفينة الصحراء)، لما لها من قابلية فائقة على طي مسافات طويلة في اليوم الواحد، رغم الظروف الصحراوية الصعبة، فلا يعرقل حركتها صعوبة الأرض أو كثرة المنخفضات الرملية، وهذا ما لا نجده في أي حيوان آخر وبهذه المواصفات. ٥- مع إنها تتغذى على أي شوك وأي نبات، فهي تشبع بالقليل أيضا. ٦- لعينها وأذنها وأنفها قدرة كبيرة على مقاومة الظروف الجوية الصعبة في الصحراء، وحتى العواصف الرملية لا تقف حائلا أمام مسيرها. ٧- والإبل مطيعة وسهلة الانقياد، لدرجة أن بإمكان طفل صغير أن يأخذ بزمام مجموعة كبيرة من الإبل وتتحرك معه حيث يريد. والخلاصة: إن ما يتمتع به هذا الحيوان من خصائص تدفع الإنسان لأن يلتفت إلى قدرة الخالق سبحانه وتعالى. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢٠، ص ١٥٨)

١. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ١، ص ٢٠٤؛ نهج البلاغة (لصحي الصالح)، ص ٢٦٩، ح ١٨٥؛ قد ورد فيهما ضمن خطبة.

٢. وفي نسخة: والبصائر مدخولة. (هامش المطبوع)

٣. اللحظ: النظر، راجع جمهرة اللغة.

٤. في المصدر: «كيف صبت على رزقها».

٥. في النهج: «في وردها لصدرها».

٦. الوفق: من الموافقة بين الشيئين، يقال: حُلُوْبَتُهُ وفق عباله أي لها لبن قدر كفايتهم، راجع الصحاح.

٧. في النهج: «النخلة».

٨. في المصدر: «البحار والأنهار».

وَالْأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ، فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدَّرَ، وَجَحَدَ الْمُدَبِّرَ، زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلَا لِاخْتِلَافِ صُورِهِمْ صَانِعٌ، لَمْ يَلْجَأُوا إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا، وَلَا تَحْقِيقٍ لِمَا وَعَوْا^(١)، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جَنَائَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ؟! وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: فِي الْجَرَادَةِ إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وَأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ^(٢)، وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ، وَفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ، وَجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِيَّ، وَنَابِئِينَ بِهِمَا تَفْرِضُ، وَمُنْجَلِينَ بِهِمَا تَقْبِضُ، تَرْهَبُهَا الرُّزَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُونَ دَبَّهَا وَلَوْ أَجْلَبُوا^(٣) بِجَمْعِهِمْ، حَتَّى تَرِدَ الْحَرُثُ فِي نَزَوَاتِهَا، وَتَقْضِيَ مِنْهُ شَهَوَاتِهَا، وَخَلَقَهَا كُلَّهُ لَا يَكُونُ إِصْبَعًا مُسْتَدِقَّةً^(٤)، فَتَبَارَكَ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا، وَيَعْفُو لَهُ خَدًّا وَوَجْهًا، وَيُلْقِي بِالطَّاعَةِ إِلَيْهِ سَلْمًا وَضَعْفًا، وَيُعْطِي لَهُ الْقِيَادَةَ رَهْبَةً وَخَوْفًا، فَالطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لِأَمْرِهِ، أَحْصَى عَدَدَ الرَّيشِ مِنْهَا وَالنَّفْسِ، وَأَرْسَى قَوَائِمَهَا عَلَى النَّدَى وَالْيَبْسِ، قَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَأَحْصَى أَجْنَاسَهَا، فَهَذَا غُرَابٌ، وَهَذَا عُقَابٌ، وَهَذَا حَمَامٌ، وَهَذَا نَعَامٌ، دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِاسْمِهِ، وَكَفَّلَ لَهُ بَرَزُقَهُ، وَأَنْشَأَ السَّحَابَ الثَّقَالَ، فَأَهْطَلَ دِيمَهَا، وَعَدَدَ قِسَمَهَا، فَبَلَّ الْأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا، وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا.

إيضاح:

«مدخولة» أي معيوبة من الدخل بالتحريك، وهو العيب والغش والفساد. و«فلق» أي شق. و«البشر»: ظاهر جلد الإنسان. و«لا بمستدرك الفكر» إما مصدر ميمي أي بإدراك الفكر، أو اسم مفعول من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف^(٥) أي بإدراك الفكر الذي يدركه الإنسان بغاية سعيه، أو اسم مكان و«الباء» بمعنى «في» أي في محل إدراكه، والغرض المبالغة في صغرها بحيث لا يمكن إدراك تفاصيل أعضائه لا بالنظر ولا بالفكر. «كيف دبّت» أي مشّت. و«ضنّت» بالضاد المعجمة والنون أي بخلت، وفي بعض النسخ: صبّت بالصاد المهملة والباء الموحدة على بناء المجهول، إما على القلب أي صبّ عليها الرزق، أو كناية عن هجومها واجتماعها على رزقها بإلهامه تعالى، فكأنها صبّت على الرزق، ويمكن أن يقرأ على بناء المعلوم من الصبابة وهي حرارة الشوق، «لصدورها» الصدر بالتحريك رجوع المسافر من مقصده، والشاربة من الورد، أي تجمع في أيام التمكن من الحركة لأيام العجز عنها، فإنّها تخفي في شدة الشتاء لعجزها عن البرد. و«المنان»: هو كثير المنّ والعطاء. و«الديان»: الفهّار والقاضي والحاكم والسائس والمُجازي. و«الصفاء» مقصوراً جمع الصفاة، وهي الحجر الصلد الضخم الذي لا ينبت. و«الجامس»: اليابس الجامد، قال الخليل

١. في النهج: «أوعوا».

٢. لم يرد في المصدر: «وأسرج لها حدقتين قمراتين».

٣. في المصدر: «أجمعوا».

٤. الدقُّ: تقيض الجِلّ [ما قلّ أو صغر من الأشياء]، راجع لسان العرب.

٥. في بعض النسخ: إلى الموصوف الخاص، والمراد بالفكر الذي يدركه الإنسان بغاية سعيه. (هامش المطبوع)

في كتاب العين: جَمَسَ الماء: جمد، وصخرة جامسة لزمت مكاناً. انتهى. والضمير «في علوها وسفلها» إمّا راجع إلى المجاري، أو إلى النملة أي ارتفاع أجزاء بدنّها وانخفاضها على وجه تقتضيه الحكمة. وقال الجوهري: «الشراسيف»: مَقَاطُ الأَضلاع وهي أطرافها التي تُشرف على البطن، ويقال: الشُّرسوف: غُضروف معلق بكلّ ضلع، مثل غُضروف الكتف. «لَقِضت من خلقها عجباً»: القضاء بمعنى الأداء أي لأدّيت عجباً، ويحتمل أن يكون بمعنى الموت، أي لَقِضت نحبك من شدّة تعجّبك، ويكون «عجباً» مفعولاً لأجله. و«لو ضربت» أي سرت، كما قال تعالى: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾^(١). «غاياته» أي غايات فكرك. «إلاّ سواء» أي في دقّة الصنعة وغموض الخلقة، أو في الدلالة على الفاطر وكمال قدرته وعلمه. و«القال» بالكسر جمع قلّة بالضمّ وهي أعلى الجبل. «زعموا أنّهم كالنبات» أي كما زعموا في النبات، أو كنبات لا زارع له حيث لا ينسب إلى الزارع وإن نسب إلى ربّه تعالى. «لما وعوا» أي جمعوا وحفظوا. «وأسرج لها حدقتين» أي جعلهما مضيئتين كالسراج، ويقال: حدقة قمراء أي منيرة، كما يقال: ليلة قمراء أي نيرة بضوء القمر. «بهما تفرّض» بكسر الراء أي تقطع. و«المنجل» كمنبر: حديدة يقضب بها الزرع، شبّهت بها يداها. و«الذبّ»: الدفع والمنع. «في نزواتها» أي وثباتها. «وخلقها كلّ» الواو حالّة. «سلماً» بالكسر وبالتحريك أي استسلاماً وانقياداً. و«أرسي» أي أثبت، أي جعل لها رجلين يمكنها الاستقرار بهما على الأرضي اليابسة والندية. و«الهطل»: تتابع المطر. و«الديم» بكسر الدال وفتح الياء جمع الديمة بالكسر: وهي المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق. و«الجدوب»: قلّة النبات والزرع.

١١٨١. الإحتجاج^(٢): عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾^(٣) قَالَ: فَمَنْ لَمْ يَدُلَّهُ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَدَوْرَانُ الْفَلَكَ بِالشَّمْسِ^(٤) وَالْقَمَرِ، وَالْآيَاتُ الْعَجِيبَاتُ عَلَى أَنْ وَرَاءَ ذَلِكَ أَمْرًا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى. قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَهُوَ عَمَّا لَمْ يُعَايِنْ^(٥) أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا.

بيان:

لعلّ المراد على هذا التفسير: فهو في أمر الآخرة التي لم ير آثارها أشدّ عمى وضلالة.

١. النساء/ ١٠١.

٢. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٢١؛ وفي التوحيد (للصدوق)، ص ٤٥٥، ح ٦، مع اختلاف يسير.

٣. الإسراء/ ٧٢.

٤. في التوحيد: «والشمس».

٥. في المصدر: «فهو عالم يعاين» والظاهر أنّه سقطت الميم منه، والملائم للمعنى ما في المتن.

١١٨٢. الإحتجاج^(١): رُوِيَ عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ مِنْ سُؤَالِ الزُّنْدِيقِ الَّذِي أَتَى أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى صَانِعِ الْعَالَمِ؟ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَجُودُ الْأَفَاعِيلِ الَّتِي دَكَتْ عَلَى أَنَّ صَانِعَهَا صَنَعَهَا، أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى بِنَاءِ مَشِيدٍ مَبْنِيٍّ عَلِمْتَ أَنَّ لَهُ بَانِيًّا وَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَرَ الْبَانِيَّ وَلَمْ تُشَاهِدْهُ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هُوَ شَيْءٌ بِخِلَافِ الْأَشْيَاءِ، أَرْجِعْ يَقُولِي: شَيْءٌ إِلَى اثْبَاتِهِ وَأَنَّهُ شَيْءٌ بِحَقِيقَةِ الشَّيْئِيَّةِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا جِسْمٌ وَلَا صُورَةٌ، وَلَا يُحَسُّ وَلَا يُجَسُّ، وَلَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ الْخَمْسِ، لَا تُدْرِكُهُ الْأَوْهَامُ، وَلَا تَنْفُصُهُ الدُّهُورُ، وَلَا يُغَيِّرُهُ الزَّمَانُ.

قَالَ السَّائِلُ: فَإِنَّا لَمْ نَجِدْ مَوْهُومًا إِلَّا مَخْلُوقًا، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَوْ كَانَ ذَلِكَ كَمَا تَقُولُ لَكَانَ التَّوْحِيدُ مِنَّا مُرْتَفَعًا^(٢)، فَإِنَّا لَمْ نُكَلِّفْ أَنْ نَعْتَقِدَ غَيْرَ مَوْهُومٍ، لَكِنَّا نَقُولُ: كُلُّ مَوْهُومٍ بِالْحَوَاسِّ مُدْرِكٌ بِهَا تَحْدُدهُ الْحَوَاسُّ مُمَثِّلًا فَهُوَ مَخْلُوقٌ، وَلَا بُدَّ مِنْ اثْبَاتِ صَانِعِ الْأَشْيَاءِ خَارِجًا مِنَ الْجِهَتَيْنِ الْمَذْمُومَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا: النَّفْيُ إِذْ كَانَ النَّفْيُ هُوَ الْإِبْطَالُ وَالْعَدَمُ. وَالْجِهَةُ الثَّانِيَّةُ: التَّشْبِيهُ بِصِفَةِ الْمَخْلُوقِ الظَّاهِرِ التَّرْكِيْبِ وَالتَّأْلِيفِ، فَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ اثْبَاتِ الصَّانِعِ لَوْجُودِ الْمَصْنُوعِينَ، وَالِاضْطِرَارِ مِنْهُمْ إِلَيْهِ أَنَّهُمْ مَصْنُوعُونَ، وَأَنَّ صَانِعَهُمْ غَيْرُهُمْ وَلَيْسَ مِثْلُهُمْ، إِذْ كَانَ مِثْلُهُمْ شَبِيهًا بِهِمْ^(٣) فِي ظَاهِرِ التَّرْكِيْبِ وَالتَّأْلِيفِ، وَفِيمَا يَجْرِي عَلَيْهِمْ مِنْ حُدُوثِهِمْ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُونُوا، وَتَنَقُّلِهِمْ مِنْ صَغَرٍ إِلَى كِبَرٍ، وَسَوَادٍ إِلَى بَيَاضٍ، وَقُوَّةٍ إِلَى ضَعْفٍ، وَأَحْوَالٍ مَوْجُودَةٍ لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى تَفْسِيرِهَا لِثَبَاتِهَا^(٤) وَوُجُودِهَا.

قَالَ السَّائِلُ: فَأَنْتَ قَدْ حَدَدْتَهُ إِذْ أَثْبَتَ وَجُودَهُ، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَمْ أُحَدِّدْهُ وَلَكِنْ أَثْبَتُهُ، إِذْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْإِثْبَاتِ وَالنَّفْيِ مَزَلَّةٌ.

قَالَ السَّائِلُ: فَقَوْلُهُ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٥)، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: بِذَلِكَ وَصَفَ نَفْسَهُ، وَكَذَلِكَ هُوَ مُسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ، بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ حَامِلًا لَهُ، وَلَا أَنَّ الْعَرْشَ مَحَلٌّ لَهُ^(٦)، لَكِنَّا نَقُولُ: هُوَ حَامِلٌ لِلْعَرْشِ، وَمُمْسِكٌ لِلْعَرْشِ، وَنَقُولُ فِي ذَلِكَ: مَا قَالَ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(٧) فَتَبَيَّنَا مِنَ الْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ مَا تَبَيَّنَ، وَتَفَيَّنَا أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ وَالْكُرْسِيُّ حَاوِيًا لَهُ، وَأَنْ يَكُونَ عَزَّ وَجَلَّ مُحْتَاجًا إِلَى مَكَانٍ، أَوْ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا خَلَقَ، بَلْ خَلَقَهُ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ.

١. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٣١، وفي الكافي، ج ١، باب حدوث العالم، ص ٨٠، ح ٥، وباب إطلاق القول بأنه شيء، ص ٨٣، ح ٦، مقطوعاً مع نقصان؛ وفي التوحيد (للصدوق)، ص ٢٤٣، ح ١، ضمن رواية.

٢. وفي نسخة: لكان التوحيد عتاً مرتفعاً، (هامش المطبوع)

٣. وفي نسخة: إذ كان مثلهم شبيهاً لهم، (هامش المطبوع)

٤. في الكافي: «لييانها».

٥. طه/٥.

٦. في المصدر: «من غير أن يكون العرش محلاً له»، وفي التوحيد: «من غير أن يكون العرش حاملاً ولا أن يكون العرش حاوياً له، ولا أن العرش محتاج له».

٧. البقرة/٢٥٥.

قَالَ السَّائِلُ: فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ أَنْ تَرْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ إِلَى السَّمَاءِ وَبَيْنَ أَنْ تَخْفِضُوهَا نَحْوَ الْأَرْضِ؟ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ذَلِكَ فِي عِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ وَقُدْرَتِهِ سَوَاءٌ، وَلَكِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ أَوْلِيَاءَهُ وَعِبَادَهُ بِرَفْعِ أَيْدِيهِمْ إِلَى السَّمَاءِ نَحْوَ الْعَرْشِ، لِأَنَّهُ جَعَلَهُ مَعْدِنَ الرِّزْقِ، فَتَبَيَّنَا مَا ثَبَتَهُ الْقُرْآنُ وَالْأَخْبَارُ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ حِينَ قَالَ: ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا تُجْمَعُ عَلَيْهِ فِرْقُ الْأُمَّةِ كُلِّهَا.

بيان:

قوله عليه السلام: «وأنه شيء بحقيقة الشيئية» المراد بالشيئية إما الوجود، أو معنى مساوق له، وعلى التقديرين فالمراد إما بيان عينية الوجود، أو قطع طمع السائل عن تعقل كنهه تعالى، بل بأنه شيء وأنه بخلاف الأشياء. و«الجس» بالجمع: المس. قوله: «فإننا لم نجد موهوماً إلا مخلوقاً» أي يلزم مما ذكرت أنه «لا تدركه الأوهام» أن كل ما يحصل في الوهم يكون مخلوقاً، فأجاب عليه السلام بما حاصله: أن مرادنا أنه تعالى لا يدرك كنه حقيقته العقول والأوهام، ولا يتمثل أيضاً في الحواس، إذ هو مستلزم للتشبيه بالمخلوقين، ولو كان كما توهمت من أنه لا يمكن تصوّره تعالى بوجه من الوجوه لكان تكليفنا بالتصديق بوجوده وتوحيده وسائر صفاته تكليفاً بالمحال، إذ لا يمكن التصديق بثبوت شيء لشيء بدون تصوّر ذلك الشيء، فهذا القول مستلزم لنفي وجوده وسائر صفاته عنه تعالى، بل لا بدّ في التوحيد من إخراجهِ عن حدّ النفي والتعطيل وعن حدّ التشبيه بالمخلوقين، ثم استدلل عليه السلام بتركيبهم وحدوثهم وتغيّر أحوالهم وتبدّل أوضاعهم على احتياجهم إلى صانع منزّه عن جميع ذلك، غير مشابه لهم في الصفات الإمكانية، وإلا لكان هو أيضاً مفتقراً إلى صانع لا شريك علّة الافتقار.

قوله: «فقد حدّدته إذ أثبت وجوده» أي إثبات الوجود له يوجب التحديد، إمّا بناء على توهم أن كلّ موجود لا بدّ أن يكون محدوداً بحدود جسمانية أو بحدود عقلانية، أو باعتبار التحدّد بصفة هو الوجود، أو باعتبار كونه محكوماً عليه فيكون موجوداً في الذهن محاطاً به، فأجاب عليه السلام بأنه لا يلزم أن يكون كلّ موجود جسمائياً أو جسمانياً حتّى يكون محدوداً بحدود جسمانية، ولا أن يكون مركّباً حتّى يكون محدوداً بحدود عقلانية، أو لا يلزم كون حقيقته حاصلة في الذهن أو محدودة بصفة، فإنّ الحكم لا يستدعي حصول الحقيقة في الذهن، والوجود ليس من الصفات الموجودة المغايرة التي تحدّ بها الأشياء.

١١٨٣. الإحتجاج^(١): عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ: دَخَلَ ابْنُ أَبِي الْعُجَّاءِ عَلَى الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ لَهُ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا ابْنَ أَبِي الْعُجَّاءِ أَمْ مَصْنُوعٌ أَنْتَ أَمْ غَيْرُ مَصْنُوعٍ؟ قَالَ: لَسْتُ بِمَصْنُوعٍ، فَقَالَ لَهُ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَلَوْ كُنْتَ مَصْنُوعاً كَيْفَ

١. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٣٣؛ التوحيد (للصدوق)، ص ٢٩٣، ح ٢.

كُنْتُ تَكُونُ^(١)؟ فَلَمْ يُجِرْ^(٢) ابْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ جَوَاباً وَقَامَ وَخَرَجَ.

بيان:

لَمَّا كَانَ التَّصْدِيقُ بِوُجُودِ الصَّانِعِ تَعَالَى ضَرُورِيًّا نَبَّهَهُ عَلَيْهِ بِأَنَّ الْعَقْلَ يَحْكُمُ بِدِيَهَةِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْمَصْنُوعِ وَغَيْرِهِ، وَفِيكَ جَمِيعُ صِفَاتِ الْمَصْنُوعِينَ، فَكَيْفَ لَمْ تَكُنْ مَصْنُوعاً؟^(٣)

١١٨٤. الإحتجاج^(٤): دَخَلَ أَبُو شَاكِرٍ الدِّيصَانِيُّ^(٥) وَهُوَ زَنْدِيقٌ^(٦) عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ: يَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ دُنِّي عَلَى مَعْبُودِي^(٧)، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اجْلِسْ - فَإِذَا غُلَامٌ صَغِيرٌ^(٨) فِي كَفِّهِ بَيْضَةٌ يَلْعَبُ بِهَا - فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: نَاوِلْنِي يَا غُلَامُ الْبَيْضَةَ، فَتَنَاوَلَهُ إِيَّاهَا، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا دِيسَانِيُّ هَذَا حِصْنٌ مَكُونٌ لَهُ جِلْدٌ غَلِيظٌ، وَتَحْتَ الْجِلْدِ الْغَلِيظِ جِلْدٌ رَقِيقٌ، وَتَحْتَ الْجِلْدِ الرَّقِيقِ ذَهَبَةٌ مَائِعَةٌ وَفِصَّةٌ ذَاتِيَّةٌ، فَلَا الذَّهَبَةُ الْمَائِعَةُ تَحْتَلِطُ بِالْفِصَّةِ الذَّاتِيَّةِ، وَلَا الْفِصَّةُ الذَّاتِيَّةُ تَحْتَلِطُ بِالذَّهَبَةِ الْمَائِعَةِ، فَهِيَ عَلَى حَالِهَا لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا خَارِجٌ مُصْلِحٌ فَيُخْبِرَ عَنْ إِصْلَاحِهَا^(٩)، وَلَمْ يَدْخُلْ فِيهَا دَاخِلٌ مُفْسِدٌ فَيُخْبِرَ عَنْ إِفْسَادِهَا^(١٠)، لَا يُدْرِي لِلذَّكَرِ خُلِقَتْ أَمْ لِلْأُنْثَى، تَنْفَلِقُ عَنْ مِثْلِ أَلْوَانِ الطَّوَائِسِ، أَتَرَى لَهَا مُدَبَّرًا؟ قَالَ: فَاطْرُقْ مِلِّيًّا، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّكَ إِمَامٌ وَحُجَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَأَنَا تَائِبٌ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ.

١. لم يرد في المصدر: «تكون».
٢. فلم يُجِر: لم يرجع ولم يرد، راجع لسان العرب، مادة «حور».
٣. لا يخفى أنَّ الرواية غير مسوقة للتنبيه على ما ذكره، بل إلزام له بالترجيح بلا مرجح فإن اختياره عدم المصنوعية مع جواز مصنوعيته قول بلا دليل. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)
٤. الإحتجاج (للتبرسي)، ج ٢، ص ٣٣٣؛ الكافي، ج ١، باب حدوث العالم وإثبات المحدث، ص ٨٠، ح ٤؛ التوحيد (للصدوق)، ص ١٢٤، ح ١، وقد ورد في الأخيرين ضمن رواية.
٥. **نقول:** هذه الرواية من أجمل الروايات وأدقها في باب التوحيد ويستفاد من ذيلها أنَّ أبا شاكراً اقتنع بها وآمن بالله وبرسوله ﷺ وبالأئمة عليهم السلام.
٦. الزنديق بالكسر من الشنوية، أو القائل بالنور والظلمة، أو من لا يؤمن بالآخرة والربوبية، أو من يبطن الكفر ويظهر الإيمان، أو هو معرّب زن دين، أي دين المرأة، قاله في القاموس. وفي المصباح: المشهور على ألسنة الناس أنَّ الزنديق هو الذي لا يتمسك بشريعة، ويقول بدوام الدهر، والعرب تعبر عن هذا بقولهم: ملحد أي طاعن في الأديان. انتهى. ونقل عن مفتاح العلوم: أنَّ الزنادقة هم المانوية وكانت المزدكية يسمّون بذلك. أقول: والظاهر أنَّ الزنديق معرّب لزنددين والزند اسم لكتاب المجوس جاء زردشت الذي يزعم المجوس أنه نبي، أو معرّب زندي أي المنسوب إلى زند فأخذ كلمة واحدة وزيد عليه القاف وله نظائر. (هامش المطبوع)
٧. في الكافي والتوحيد مع زيادة: «ولا تسألني عن اسمي».
٨. في الكافي والتوحيد: «غلام له صغير».
٩. في الكافي: «صلاحها».
١٠. في الكافي والتوحيد: «فسادها».

١١٨٥. التوحيد^(١): ابْنُ الْمُتَوَكِّلِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي إِسْحَاقَ الْخَفَّافِ، عَنْ عِدَّةٍ مِنْ أَصْحَابِنَا أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ الدِّيصَانِيَّ أَتَى بَابَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لَهُ، فَلَمَّا قَعَدَ قَالَ لَهُ: يَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ دُلَّنِي عَلَى مَعْبُودِي، فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا اسْمُكَ؟ فَخَرَجَ عَنْهُ وَلَمْ يُخْبِرْهُ بِاسْمِهِ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: كَيْفَ لَمْ تُخْبِرْهُ بِاسْمِكَ؟ قَالَ: لَوْ كُنْتُ قُلْتُ لَهُ: عَبْدُ اللَّهِ كَانَ يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَنْ هَذَا الَّذِي أَنْتَ لَهُ عَبْدٌ؟ فَقَالُوا لَهُ: عُدْ إِلَيْهِ فَقُلْ: يَدُلُّكَ عَلَى مَعْبُودِكَ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ اسْمِكَ، فَارْجِعْ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: يَا جَعْفَرُ دُلَّنِي عَلَى مَعْبُودِي وَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ اسْمِي، فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اجْلِسْ، وَإِذَا غُلَامٌ صَغِيرٌ^(٢)؛ إِلَى آخِرِ الْخَبَرِ.

بيان:

قد أوردنا الخبر بتمامه في باب القدرة^(٣). وتقرير استدلاله عليه السلام أن ما في البيضة من الأحكام والإتقان والاشتمال على ما به صلاحها، وعدم اختلاط ما فيها من الجسمين السّياليين - والحال أنه ليس فيها حافظ لها من الأجسام فيخرج مخبراً عن صلاحها، ولا يدخلها جسماني من خارج فيفسدها، وهي تنفلق عن مثل ألوان الطواويس - يدل على أن له مبدءاً غير جسم ولا جسماني ولا يخفى لطف نسبة الإصلاح إلى ما يخرج منها، والإفساد إلى ما يدخل فيها، لأن هذا شأن أهل الحصن الحافظين له وحال الداخل فيه بالقهر والغلبة.

١١٨٦. الإحتجاج^(٤): عَنْ عِيسَى بْنِ يُونُسَ قَالَ: كَانَ ابْنُ أَبِي الْعُجَّاءِ^(٥) مِنْ تَلَامِذَةِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، فَانْحَرَفَ عَنِ التَّوْحِيدِ، فَقِيلَ لَهُ: تَرَكْتَ مَذْهَبَ صَاحِبِكَ، وَدَخَلْتَ فِيْمَا لَا أَصْلَ لَهُ وَلَا حَقِيقَةَ، قَالَ: إِنَّ صَاحِبِي كَانَ مِخْلُطاً^(٦) يَقُولُ: طَوْرًا^(٧) بِالْقَدَرِ وَطَوْرًا بِالْجَبْرِ فَمَا أَعْلَمُهُ اعْتَقَدَ مَذْهَباً دَامَ عَلَيْهِ، فَقَدِمَ مَكَّةَ تَمَرُّدًا وَإِنْكَارًا عَلَى مَنْ يَحُجُّ، وَكَانَ يَكْرَهُ الْعُلَمَاءَ مُجَالَسَتَهُ وَمُسَاءَلَتَهُ^(٨) لِحُبِّهِ لِسَانِهِ وَفَسَادِ ضَمِيرِهِ، فَاتَى أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَجَلَسَ إِلَيْهِ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ

١. التوحيد (للمصدق)، ص ١٢٣، ح ١؛ الكافي، ج ١، باب حدوث العالم وإثبات المحدث، ص ٧٩، ح ٤؛ وقد ورد فيهما ضمن رواية.

٢. في المصدر والكافي: «غلام له صغير».

٣. باب القدرة والإرادة من أبواب الصفات من تنمّة كتاب التوحيد.

٤. الإحتجاج (للمطهرسي)، ج ٢، ص ٣٣٥؛ وقد ورد في الكافي، ج ٤، باب ابتلاء الخلق، ص ١٩٧، ح ١ و ج ١، باب الحركة، ص ١٢٥، ح ٣، مقطّعا؛ وجاء في الإرشاد (للمفيد)، ج ٢، ص ١٩٩، مع نقصان واختلاف يسير.

٥. عدّه السيّد المرتضى «رحمه الله» في كتابه الأمالي ممن كان يتستّر بإظهار الإسلام ويحقن بإظهار شعائره والدخول في جملة أهله دمه وماله، وكان في الباطن زنديقا ملحداً، وكافراً مشركاً، وقال: حكى أن عبد الكريم بن أبي العوجاء قال - لما قبض عليه محمد بن سليمان وهو والي الكوفة من قبل المنصور، وأحضره للقتل، وأيقن بمفارقة الحياة -: لأن قتلتموني لقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة. (أمالي المرتضى، ج ١، ص ١٢٧)

٦. رجل مِخْلُط: يخالط الأمور، راجع الصحاح.

٧. الطور: التارة، راجع لسان العرب.

٨. لم يرد في المصدر: «مسألته».

نُظَرَاتِهِ^(١)، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِنَّ الْمَجَالِسَ بِالْأَمَانَاتِ^(٢)، وَلَا بُدَّ لِكُلِّ مَنْ بِهِ سُعَالٌ أَنْ يَسْغَلَ أَفْتَادُنْ لِي فِي الْكَلَامِ؟ فَقَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: تَكَلَّمْ بِمَا شِئْتَ، فَقَالَ: إِلَى كَمْ تَدُوسُونَ هَذَا الْبَيْدَرَ^(٣)، وَتَلُودُونَ بِهَذَا الْحَجَرِ، وَتَعْبُدُونَ هَذَا الْبَيْتَ الْمَرْفُوعَ^(٤)، بِالطُّوبِ وَالْمَدَرِ^(٥)، وَتُهْزِلُونَ حَوْلَهُ كَهَزْوَلَةِ الْبُعِيرِ إِذَا نَفَرَ؟ إِنَّ مَنْ فَكَّرَ فِي هَذَا وَقَدَّرَ عِلْمَ أَنَّ هَذَا فِعْلٌ أَسَّسَهُ غَيْرُ حَكِيمٍ وَلَا ذِي نَظَرٍ، فَقُلْ فَإِنَّكَ رَأْسُ هَذَا الْأَمْرِ وَسَنَامُهُ^(٦)، وَأَبُوكَ أَشْهُ وَنِظَامُهُ^(٧). فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَأَعَمَّى قَلْبَهُ اسْتَوْحَمَ الْحَقَّ وَلَمْ يَسْتَغْذِبه، وَصَارَ الشَّيْطَانُ وَلِيَّهُ^(٨)، يُورِدُهُ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ، ثُمَّ لَا يُصْدِرُهُ، وَهَذَا بَيْتٌ اسْتَعْبَدَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ^(٩) لِيُخْتَبَرَ طَاعَتُهُمْ فِي إِيْتَانِهِ، فَحَثَّهُمْ عَلَى تَعْظِيمِهِ وَزِيَارَتِهِ، وَجَعَلَهُ مَحَلَّ أَنْبِيَائِهِ، وَقِبْلَةً لِلْمُصَلِّينَ لَهُ، فَهُوَ شُعْبَةٌ مِنْ رِضْوَانِهِ، وَطَرِيقٌ يُؤَدِّي إِلَى غُفْرَانِهِ، مَنْصُوبٌ عَلَى اسْتِوَاءِ الْكَمَالِ، وَمُجْتَمَعُ الْعِظَمَةِ وَالْجَلَالِ، خَلَقَهُ اللَّهُ قَبْلَ دُخُولِ الْأَرْضِ بِالْقَفِيِّ عَامٍ، فَأَحَقُّ مَنْ أُطِيعَ فِيهَا أَمْرٌ، وَأَنْتَهِيَ عَمَّا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، اللَّهُ الْمُنْشِئُ لِلْأَرْوَاحِ وَالصُّوَرِ.

فَقَالَ ابْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ: ذَكَرْتُ اللَّهَ^(١٠)، فَأَحَلَّتْ عَلَيَّ غَائِبٍ. فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَيْلَكَ كَيْفَ يَكُونُ غَائِبًا مَنْ هُوَ مَعَ خَلْقِهِ شَاهِدٌ، وَإِلَيْهِمْ أَقْرَبُ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، يَسْمَعُ كَلَامَهُمْ، وَيَرَى أَشْخَاصَهُمْ، وَيَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ. فَقَالَ ابْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ: فَهُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَلَيْسَ إِذَا كَانَ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَكُونُ فِي الْأَرْضِ؟ وَإِذَا كَانَ فِي الْأَرْضِ كَيْفَ يَكُونُ فِي السَّمَاءِ؟ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّمَا وَصَفْتَ الْمَخْلُوقَ الَّذِي إِذَا انْتَقَلَ مِنْ مَكَانٍ اشْتَغَلَ بِهِ مَكَانٌ وَخَلَا مِنْهُ مَكَانٌ، فَلَا يَذَرِي فِي الْمَكَانِ الَّذِي صَارَ إِلَيْهِ مَا حَدَثَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ، فَأَمَّا اللَّهُ الْعَظِيمُ الشَّانِ، الْمَلِكُ الدَّيَّانُ فَلَا يَخْلُو مِنْهُ مَكَانٌ، وَلَا يَشْتَغِلُ بِهِ مَكَانٌ، وَلَا يَكُونُ إِلَى مَكَانٍ أَقْرَبَ مِنْهُ إِلَى مَكَانٍ.

الْأَمَالِي لِلصَّدُوقِ^(١١): ابْنُ مَسْرُورٍ، عَنْ ابْنِ عَامِرٍ، عَنْ عَمِّهِ، عَنْ أَبِي أَحْمَدَ مُحَمَّدَ بْنِ زِيَادِ الْأَزْدِيِّ، عَنْ الْفَضْلِ بْنِ يُونُسَ مِثْلَهُ.

١. نُظَرَاء: جمع نظير، راجع لسان العرب.

٢. في الكافي: «إِنَّ الْمَجَالِسَ أَمَانَاتٌ».

٣. داسه برجله: وطنه، والبيدر: الموضع الذي تداس فيه الحبوب، وقصد بذلك الكعبة المشرفة والطائفين بها استهزاء وإنكاراً فشبههم بالحيوانات التي لا تعقل تدور بيدد الطعام؛ راجع تاج العروس، والمصباح المنير، ومجمع البحرين.

٤. في الكافي: «البيت المعمور».

٥. المدر: قِطْعُ الطِّينِ الْيَابِسِ، وَقِيلَ: الطِّينُ الْعِلْكُ الَّذِي لَا رَمْلَ فِيهِ، راجع لسان العرب.

٦. سَنَامٌ كُلُّ شَيْءٍ: أَعْلَاهُ، راجع لسان العرب.

٧. في الكافي: «أَبُوكَ أَشْهُ وَتَمَامُهُ».

٨. في الكافي: «صار الشيطان وليه وربّه وقربينه».

٩. في الكافي والتوحيد: «خلقه».

١٠. في التوحيد: «ذكرت يا أبا عبد الله».

١١. الْأَمَالِي (لِلصَّدُوقِ)، ص ٦١٦، ح ٤.

١١٨٧. التوحيد^(١): الدَّقَاقُ، عَنْ حَمْرَةَ بْنِ الْقَاسِمِ الْعُلَوِيِّ، عَنْ الْبَرْمَكِيِّ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ عِيسَى بْنِ يُونُسَ^(٢) مِثْلَهُ، وَزَادَ فِي آخِرِهِ: وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْآيَاتِ الْمُحْكَمَةِ وَالْبَرَاهِينِ الْوَاضِحَةِ، وَأَيَّدَهُ بِنَصْرِهِ، وَاخْتَارَهُ لِتَنْبِيْغِ رِسَالَتِهِ صَدَقْنَا قَوْلَهُ: بِأَنَّ رَبَّهُ بَعَثَهُ وَكَلَّمَهُ. فَقَامَ عَنْهُ ابْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: مَنْ الْقَانِي فِي بَحْرِ هَذَا؟ وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ الْوَلِيدِ مِنَ الْقَانِي فِي بَحْرِ هَذَا؟ سَأَلْتُكُمْ أَنْ تَلْتَمِسُوا لِي حُمْرَةً فَالْقَيْتُمُونِي عَلَى جُمْرَةٍ. قَالُوا: مَا كُنْتَ فِي مَجْلِسِهِ إِلَّا حَقِيرًا. قَالَ: إِنَّهُ ابْنُ مَنْ حَلَقَ رُؤُوسَ مَنْ تَرَوْنَ.

بيان:

«الطوب» بالضم: الآجر. وطعام وخيم: غير موافق، و«استوخمه» أي لم يستمرئه. «ولم يستعذبه» أي لم يدرك عذوبته وحاصل ما ذكره عليه السلام: أَنَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا اسْتَعْبَدَهُمْ بِذَلِكَ لِيَخْتَبِرَهُمْ فِي إِطَاعَتِهِمْ لَهُ، وَالِاخْتِبَارُ فِيمَا خَفِيَ وَجْهَ الْحِكْمَةِ فِيهِ عَلَى أَكْثَرِ الْعُقُولِ أَكْثَرُ، مَعَ أَنَّ لَخْصُوصَ هَذَا الْمَكَانِ الشَّرِيفِ مَزَايَا وَشَرَائِفَ لِكُونِهِ مَحَلَّ الْأَنْبِيَاءِ، وَقِبْلَةَ الْمَصْلِيِّينَ، وَسَابِقًا فِي الْخَلْقِ عَلَى جَمِيعِ الْأَرْضِ، وَقَدْ أَشَارَ عليه السلام بقوله: «فهو شعبة» مع الفقرات التي بعدها إلى ما جعل الله فيه من الكمالات المعنوية، والأسرار الخفية حيث جعله محلاً لقربه ورضوانه، ومهبطاً لرحماته وغفرانه، وما أفاض عليه من أنوار جبروته، وأخفى فيه من أسرار ملكوته. و«الاستواء»: الاعتدال. و«الوريد»: هو العرق الذي في صفحة العنق، وبقطعه تزول الحياة، ففي التشبيه به دون سائر الأعضاء إشعار بكيفية قربه بأن قربته قرب بالعلية والتأثير، وفيما بعدها من الفقر إشارة إلى جهة أخرى من قربته وهي الإحاطة العلمية. و«الخمرة»: بالضم: حصيرة صغيرة من السعف أي طلبت منكم أن تطلبوا لي خصماً ألعب به كالخمرة فالقَيْتُمُونِي على جمرة ملتهبة.

١١٨٨. الإحتجاج^(٣): وَرَوِيَ أَنَّ الصَّادِقَ عليه السلام قَالَ لِابْنِ أَبِي الْعَوْجَاءِ: إِنْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ - وَلَيْسَ كَمَا تَقُولُ - نَجَوْنَا وَنَجَوْتَ، وَإِنْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا نَقُولُ^(٤) نَجَوْنَا وَهَلَكْتَ.

١١٨٩. عيون أخبار الرضا عليه السلام، تفسير الإمام عليه السلام، الإحتجاج^(٥): وَبِالْإِسْنَادِ عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾^(٦): جَعَلَهَا مَلَأَمَةً لَطِبَائِعَكُمْ، مُوَافَقَةً لِأَجْسَادِكُمْ، لَمْ يَجْعَلْهَا

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٥٣، ح ٤؛ كنز الفوائد، ج ٢، ص ٧٦؛ إعلام الوری، ج ١، ص ٥٤٣، وقد ورد في الأخيرين مع اختلاف يسير.

٢. في كنز الفوائد والإعلام بهذا الإسناد: «الكليني، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن العباس الفقيمي».

٣. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٣٦؛ الكافي، ج ١، باب حدوث العالم وإثبات المحدث، ص ٧٨، ح ٢؛ التوحيد (للصدوق)، ص ٢٩٨، ح ٦، وقد ورد في الأخيرين ذيل رواية.

٤. في الإحتجاج والكافي والتوحيد: «كما نقول وهو كما نقول».

٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٣٧، ح ٣٦؛ التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، ص ١٤٢، ح ٧٢؛ الإحتجاج (للطبرسي)،

ج ٢، ص ٥٦٤.

٦. البقرة/٢٢.

شَدِيدَةَ الْحِمَى وَالْحَرَارَةَ فَتُحْرِقُكُمْ، وَلَا شَدِيدَةَ الْبُرُودَةِ فَتُجَمِّدُكُمْ، وَلَا شَدِيدَةَ طَيْبِ الرِّيحِ فَتُصَدِّعُ^(١) هَامَاتُكُمْ^(٢)، وَلَا شَدِيدَةَ النَّشَنِ فَتُغَطِّبُكُمْ^(٣)، وَلَا شَدِيدَةَ اللَّيْنِ كَالْمَاءِ فَتُغْرِقُكُمْ، وَلَا شَدِيدَةَ الصَّلَابَةِ فَتَمْتَنِعَ عَلَيْكُمْ فِي حَزْنِكُمْ وَأَبْنَيْتِكُمْ وَدَفْنِ مَوْتَاكُمْ^(٤)، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْمَتَانَةِ مَا تَنْتَفِعُونَ بِهِ، وَتَتَمَاسَكُونَ وَتَتَمَاسِكُ عَلَيْهَا أَبْدَانُكُمْ^(٥)، وَجَعَلَ فِيهَا مِنَ اللَّيْنِ مَا تَنْقَادُ بِهِ لِحَزْنِكُمْ^(٦) وَقُبُورُكُمْ وَكَثِيرٌ مِنْ مَنَافِعِكُمْ، فَلِذَلِكَ جَعَلَ الْأَرْضَ فِرَاشًا لَكُمْ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ يَعْنِي سَقْفًا مِنْ فَوْقِكُمْ مَحْفُوظًا، يُدِيرُ فِيهَا شَمْسَهَا وَقَمَرَهَا وَتُجُومَهَا لِمَنَافِعِكُمْ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يَعْنِي الْمَطَرَ يُنْزِلُهُ مِنْ عَلَا^(٧) لِيَبْلُغَ قُلُلَ جِبَالِكُمْ وَتِلَالِكُمْ وَهَضَابِكُمْ وَأَوْهَادِكُمْ^(٨)، ثُمَّ فَرَّقَهُ رَدَاذًا وَوَابِلًا وَهَطْلًا وَطَلًّا لِنَشْثِفُهُ^(٩) أَرْضَكُمْ، وَلَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ الْمَطَرَ نَازِلًا عَلَيْكُمْ قِطْعَةً وَاحِدَةً فَتَفْسُدَ أَرْضُكُمْ وَأَشْجَارُكُمْ وَزُرُوعُكُمْ وَثِمَارُكُمْ. ثُمَّ قَالَ: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ يَعْنِي مِمَّا يُخْرِجُهُ مِنَ الْأَرْضِ رِزْقًا لَكُمْ. ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أَيَّ أَشْبَاهًا وَأَمْثَالًا مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَعْقِلُ وَلَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ وَلَا تَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ. ﴿وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهَا لَا تَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ النِّعَمِ الْجَلِيلَةِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْكُمْ رَبُّكُمْ.

بيان:

«الهضاب»: جمع الهضبة وهي الجبل المنبسط على الأرض، أو جبل خلق من صخرة واحدة. «والرذاذ»: كسحاب: المطر الضعيف، أو الساكن الدائم الصغار القطر. و«الوابل»: المطر الشديد الضخم القطر. و«الهطل»: المطر الضعيف الدائم، وتتابع المطر المتفرق العظيم القطر. و«الطل»: المطر الضعيف، أو أخف المطر وأضعفه، أو الندى، أو فوّه ودون المطر، كلّ ذلك ذكرها الفيروزآبادي.

١١٩٠. التوحيد، الأمالي للصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام^(١٠): الْعَطَّارُ، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ هَاشِمٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ مَعْبُدٍ، عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا عليه السلام أَنَّهُ دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ مَا

١. الصُّدَاع: وجع الرأس، راجع لسان العرب.

٢. الهامة: الرأس، والجمع هامات، راجع معجم مقاييس اللغة.

٣. الْعَطَب: الهلاك، راجع لسان العرب.

٤. في العيون: «في دوركم وأبنيتكم وقبور موتاكم».

٥. في العيون والإحتجاج: «أبدانكم وبنيانكم».

٦. في العيون: «لدوركم».

٧. في الإحتجاج: «من علو».

٨. الوُهد والوُهدة: الأرض المنخفضة، راجع تاج العروس.

٩. نشِثت الأرضُ الماءَ: شربته، راجع لسان العرب.

١٠. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٩٣، ح ٣؛ الأمالي (للصدوق)، ص ٣٥٢، ح ٦؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٣٤، ح ٣٢.

الدَّلِيلُ عَلَى حُدُوثِ الْعَالَمِ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْتَ لَمْ تَكُنْ ثُمَّ كُنْتَ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ لَمْ تُكُنْ نَفْسَكَ، وَلَا كَوْنَكَ مِنْ هُوَ مِثْلَكَ.

١١٩١. التوحيد، عيون أخبار الرضا عليه السلام^(١): مَا جِئَ بِهِ، عَنْ عَمِّهِ، عَنْ أَبِي سَمِينَةَ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْكُوفِيِّ الصَّيْرَفِيِّ^(٢)، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْخُرَّاسَانِيِّ - خَادِمِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَالَ: دَخَلَ رَجُلٌ مِنَ الرِّثَادِقَةِ عَلَى الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ، فَقَالَ لَهُ أَبُو الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ الْقَوْلُ قَوْلَكُمْ - وَلَيْسَ هُوَ كَمَا تَقُولُونَ - أَلَسْنَا وَإِيَّاكُمْ شَرعاً سَوَاءً، وَلَا يَضُرُّنَا مَا صَلَّيْنَا وَصُمْنَا وَزَكَّيْنَا وَأَفْرَزْنَا؟ فَسَكَتَ. فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنْ يَكُنِ الْقَوْلُ قَوْلَنَا - وَهُوَ كَمَا نَقُولُ^(٣) - أَلَسْتُمْ قَدْ هَلَكْتُمْ وَنَجَوْنَا؟ قَالَ: رَحِمَكَ اللَّهُ فَأَوْجِدْنِي كَيْفَ هُوَ وَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَيْلَكَ إِنْ الَّذِي ذَهَبَتْ إِلَيْهِ غَلَطُ، هُوَ أَتَيْنَ الْأَيْنَ وَكَانَ وَلَا أَتَيْنَ، وَهُوَ كَيْفَ الْكَيْفَ وَكَانَ وَلَا كَيْفَ، فَلَا يَعْرِفُ بِكَيْفُوْفِيَّةٍ وَلَا بِأَيْنُوْفِيَّةٍ وَلَا بِحَاسَّةٍ، وَلَا يَقَاسُ بِشَيْءٍ. قَالَ الرَّجُلُ: فَأَذِنَ إِنَّهُ لَا شَيْءَ إِذَا لَمْ يُدْرَكَ بِحَاسَّةٍ مِنَ الْحَوَاسِّ، فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَيْلَكَ لَمَّا عَجَزْتَ حَوَاسُّكَ عَنْ إِدْرَاكِهِ أَنْكَزْتَ رُبُوبِيَّتَهُ، وَنَحْنُ إِذَا عَجَزَتْ حَوَاسُّنَا عَنْ إِدْرَاكِهِ أَتَقَنَّا أَنَّهُ رَبُّنَا، وَأَنَّهُ شَيْءٌ يَخْلَافُ الْأَشْيَاءَ.

قَالَ الرَّجُلُ: فَأَخْبِرْنِي مَتَى كَانَ؟ قَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَخْبِرْنِي مَتَى لَمْ يَكُنْ فَأَخْبِرَكَ مَتَى كَانَ. قَالَ الرَّجُلُ: فَمَا الدَّلِيلُ عَلَيْهِ؟ قَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنِّي لَمَّا نَظَرْتُ إِلَى جَسَدِي فَلَمْ يُمْكِنِّي فِيهِ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ فِي الْعَرْضِ وَالطُّولِ، وَدَفَعُ الْمَكَارِهِ عَنْهُ، وَجَرَّ الْمَنْفَعَةِ إِلَيْهِ عَلِمْتُ أَنَّ لِهَذَا الْبُيُوتَانِ بَانِيًا، فَأَفْرَزْتُ بِهِ، مَعَ مَا أَرَى مِنْ دَوْرَانِ الْفَلَكَ بِقُدْرَتِهِ، وَإِنْشَاءِ السَّحَابِ، وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ، وَمَجْرَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْعَجِيبَاتِ الْمُتَقَنَاتِ، عَلِمْتُ أَنَّ لِهَذَا مَقْدَرًا وَمُنْشِئًا.

قَالَ الرَّجُلُ: فَلِمَ اخْتَجَبَ؟ فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ الْحِجَابَ عَلَى الْخَلْقِ^(٤) لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ، فَأَمَّا هُوَ فَلَا تَحْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فِي آنَاءِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. قَالَ: فَلِمَ لَا تُدْرِكُهُ حَاسَّةُ الْبَصَرِ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لِلْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْفِهِ الَّذِينَ تُدْرِكُهُمْ حَاسَّةُ الْأَبْصَارِ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ، ثُمَّ هُوَ أَجَلٌ مِنْ أَنْ يُدْرِكَهُ بَصَرٌ، أَوْ يُحِيطَ بِهِ وَهُمْ، أَوْ يَضْبِطَهُ عَقْلٌ. قَالَ: فَحَدِّدْ لِي، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا حَدَّ لَهُ. قَالَ: وَلِمَ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لِأَنَّ كُلَّ مَحْدُودٍ مُتَنَاهٍ إِلَى حَدٍّ، وَإِذَا احْتَمَلَ التَّحْدِيدَ احْتَمَلَ الزِّيَادَةَ، وَإِذَا احْتَمَلَ الزِّيَادَةَ احْتَمَلَ النُّقْصَانَ، فَهُوَ غَيْرُ مَحْدُودٍ وَلَا مُتَرَانِدٍ وَلَا مُتَنَاقِصٍ وَلَا مُتَجَزِّئٍ وَلَا مُتَوَهِّمٍ.

قَالَ الرَّجُلُ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِكُمْ: إِنَّهُ لَطِيفٌ وَسَمِيعٌ وَبَصِيرٌ وَعَلِيمٌ وَحَكِيمٌ، أَيْ يَكُونُ السَّمِيعُ إِلَّا بِالْأُذُنِ، وَالْبَصِيرُ إِلَّا بِالْعَيْنِ، وَاللَّطِيفُ إِلَّا بِعَمَلِ الْيَدَيْنِ، وَالْحَكِيمُ إِلَّا بِالصَّنْعَةِ؟ فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ اللَّطِيفَ مِنَّا عَلَى حَدِّ اتِّخَاذِ الصَّنْعَةِ،

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٥٠، ح ٣؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٣١، ح ٢٨؛ وفي الكافي، ج ١، باب حدوث العالم، ص ٧٨، ح ٣، مع نقصان.

٢. في الكافي: «محمد بن جعفر الأسدي، عن محمد بن إسماعيل الرازي، عن الحسين بن الحسن، عن محمد بن علي، ...».

٣. وفي نسخة: وهو قولنا وكما نقول. (هامش المطبوع)

٤. في التوحيد: «إِنَّ الاحتجاب عن الخلق».

أَوْ مَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَتَّخِذُ شَيْئًا فَيَلْطَفُ فِي اتِّخَاذِهِ فَيَقَالَ: مَا أَلْطَفَ فَلَنَا! فَكَيْفَ لَا يَقَالُ لِلْخَالِقِ الْجَلِيلِ: لَطِيفٌ إِذْ خَلَقَ خَلْقًا لَطِيفًا وَجَلِيلًا، وَرَكَبَ فِي الْحَيَوَانِ مِنْهُ أَرْوَاحَهَا، وَخَلَقَ كُلَّ جِنْسٍ مُتَبَايِنًا مِنْ جِنْسِهِ فِي الصُّورَةِ، وَلَا يُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا؟ فَكُلُّ لَهُ لُطْفٌ مِنَ الْخَالِقِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ فِي تَرْكِيبِ صُورَتِهِ، ثُمَّ نَظَرْنَا إِلَى الْأَشْجَارِ وَحَمْلِهَا أَطَابِهَا الْمَأْكُولَةَ مِنْهَا وَغَيْرِ الْمَأْكُولَةِ فَقُلْنَا عِنْدَ ذَلِكَ: إِنَّ خَالِقَنَا لَطِيفٌ، لَا كُلُّطِفٌ خَلَقَهُ فِي صُنْعَتِهِمْ، وَقُلْنَا: إِنَّهُ سَمِيعٌ لِأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ أَصْوَاتُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ الْعَرْشِ إِلَى الْفَرَى، مِنَ الذَّرَّةِ إِلَى أَكْبَرِ مِنْهَا، فِي بَرِّهَا وَبَحْرِهَا، وَلَا تَشْتَبِهُ عَلَيْهِ لُغَاتُهَا، فَقُلْنَا عِنْدَ ذَلِكَ: إِنَّهُ سَمِيعٌ لَا يَأْذُنُ، وَقُلْنَا: إِنَّهُ بَصِيرٌ لَا يَبْصُرُ، لِأَنَّهُ يَرَى أَثَرَ الذَّرَّةِ السَّحْمَاءِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ عَلَى الصَّخْرَةِ السُّودَاءِ، وَيَرَى دَيْبَبَ التَّمَلِّ فِي اللَّيْلَةِ الدُّجْنَةِ^(١)، وَيَرَى مَضَارَّهَا وَمَنَافِعَهَا وَأَثَرَ سِفَادِهَا^(٢) وَفِرَاحَهَا وَنَسْلَهَا، فَقُلْنَا عِنْدَ ذَلِكَ: إِنَّهُ بَصِيرٌ لَا كَبَصَرٍ خَلَقَهُ، قَالَ: فَمَا بَرَحَ حَتَّى أَسْلَمَ، وَفِيهِ كَلَامٌ غَيْرُ هَذَا.

بيان:

«أوجدني» أي أفدني كيفيته ومكانه، وأظفري بمطلبي الذي هو العلم بهما. «هو أين الأين» أي جعل الأين أيناً بناءً على مجعوليّة الماهيّات، أو أوجد حقيقة الأين وكذا الكيف. و«الكيفيّة» و«الأينويّة»: الاتّصاف بالكيف والأين. قوله: «فإذن إنّه لا شيء» هذا السائل لما كان وهمه غالباً على عقله زعم أن الموجود ما يمكن إحساسه فنفي الوجود عنه تعالى بناءً على أنّه عَالِيٌّ نفى عنه أن يحسّ، فأجاب عَالِيًّا: بأنك جعلت تعاليه عن أن يدرك بالحواسّ دليلاً على عدمه، ونحن إذا عرفناه بتعاليه عن أن يدرك بالحواسّ أيقنا أنّه ربّنا، بخلاف شيء من الأشياء، إذا المحسوسيّة تستلزم أموراً كلّ منها مناف للربوبيّة على ما برهن عليه في محلّه. قوله: «فأخبرني متى كان» الظاهر أنّه سأل عن ابتداء كونه ووجوده، ويحتمل أن يكون السؤال عن أصل زمان وجوده تعالى، فعلى الأوّل: حاصل جوابه عَالِيًّا: أن ابتداء الزمان إنّما يكون لحادث كان معدوماً ثم صار موجوداً، وهو تعالى يستحيل عليه العدم، وعلى الثاني: فالمراد أن الكائن في الزمان إنّما يكون فيه بتغيّر وتبدّل في ذاته وصفاته، لأنّ الزمان نسبة المتغيّر إلى المتغيّر، فيكون بحال في زمان لا يكون كذلك في زمان آخر، وهو متعال عن التغيّر في الذات والصفات. قوله: «فلم احتجب» توهم السائل أن احتجابه تعالى عبارة عن كونه وراء حجاب، فأجاب عَالِيًّا: بأنّا غير محجوبين عنه لإحاطة علمه بنا وكنه ذاته وصفاته محجوبة عنّا لعجزنا وقصورنا عن إدراكه، بأن يكون المراد بالذنوب الحجب الظلمانيّة الإمكانية، ويحتمل أن يكون المراد أن عدم ظهوره تعالى على عامّة الخلق كظهوره على أوليائه لغاية المعرفة إنّما هو لذنوبهم التي حالت بينهم وبين تلك المعرفة، وإلاّ فهو تعالى قد تجلّى لأوليائه فظهر لهم ظهوراً فوق الإحساس، والجواب عن الإحساس ظاهر، إذ الفرق بينه وبين خلقه وهو كونه غير جسم ولا جسماني ولا حاصلًا في

١. في التوحيد: «الدجية».

٢. السفاد: نزو الذكر على الأنثى، راجع لسان العرب.

جهة ومكان هو الذي صار سبباً لعدم إمكان رؤيته. قوله: «فحدّه» يحتتمل أن يكون المراد التحديد بالحدود الجسمانية، فحاصل جوابه عليه السلام: أن الحدّ نهاية لشيء ذي مقدار يمكن أن ينتهي إلى نهاية أخرى بعد تلك النهاية فيزيد مقداره، ومثل هذا يمكن نقصانه لكون المقادير قابلة للانقسام فيكون ذا أجزاء فيكون محتاجاً إلى أجزائه فيكون ممكناً فلا يكون صانعاً بل يكون مصنوعاً، أو احتمال النقص ينافي الكمال الذي يحكم الوجدان بالتصاف الصانع به. و«السحماء»: السوداء. و«الدجنة» بكسر الجيم أي المتغيمة المظلمة، وسيأتي تفسير آخر الخبر في باب معاني الأسماء^(١). قوله: «وفيه كلام غير هذا» أي قيل: إنه لم يسلم، أو في الخبر تتمّة تركناها.

١١٩٢. الأماشي للصدوق^(٢): أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَاشِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ أَبِي عَمِيرٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ^(٣) قَالَ: دَخَلَ أَبُو شَاكِرٍ الدِّيصَانِيُّ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ أَحَدُ النُّجُومِ الزَّوَاهِرِ، وَكَانَ آبَاؤُكَ بُدُوراً بَوَاهِرَ، وَأُمَمَاتُكَ عَقِيلَاتٍ عِبَاهِرَ، وَعُنُصْرُكَ مِنْ أَكْرَمِ الْعَنَاصِرِ، وَإِذَا ذُكِرَ الْعُلَمَاءُ فِيكَ تُثْنَى الْخَنَاصِرُ^(٤)، فَخَبَّرَنِي أَيُّهَا الْبَحْرُ الْخَضَمُ الزَّاحِرُ، مَا الدَّلِيلُ عَلَى حُدُوثِ الْعَالَمِ؟ فَقَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ بِأَقْرَبِ الْأَشْيَاءِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: فَدَعَا الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِيَيْضَةٍ فَوَضَعَهَا عَلَى رَاحَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: هَذَا حِصْنٌ مَلُومٌ، دَاخِلُهُ غِرَقِيٌّ رَقِيقٌ، تُطِيفُ^(٥) بِهِ فِضَّةٌ سَائِلَةٌ وَذَهَبَةٌ مَائِعَةٌ، ثُمَّ تَنْفَلِقُ عَنْ مِثْلِ الطَّائِفِ أَدْخَلَهَا شَيْءٌ؟ قَالَ: لَا، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَهَذَا الدَّلِيلُ عَلَى حَدَثِ الْعَالَمِ. قَالَ: أَخْبَرْتُ فَأَوْجَزْتَ، وَقُلْتَ فَأَحْسَنْتَ، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَا لَا نَقْبَلُ إِلَّا مَا أَدْرَكْنَاهُ بِأَبْصَارِنَا، أَوْ سَمِعْنَاهُ بِأَذَانِنَا، أَوْ لَمَسْنَاهُ بِأَكْفَانَا، أَوْ شَمِمْنَاهُ بِمَنَازِرِنَا، أَوْ دُقْنَاهُ بِأَفْوَاهِنَا، أَوْ تُصَوِّرَ فِي الْقُلُوبِ بَيَانًا، وَاسْتَنْبَطْنَاهُ الرُّوَايَاتُ إِيقَانًا، فَقَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ذَكَرْتَ الْخَوَاصَّ الْخَمْسَ، وَهِيَ لَا تَنْفَعُ شَيْئاً بَغَيْرِ دَلِيلٍ كَمَا لَا تُقْطَعُ الظُّلْمَةُ بِغَيْرِ مُصْبَحٍ.

بيان:

قال الجوهرية: «العقيلة»: كريمة الحي، والدرّة: عقيلة البحر. وقال الفيروز آبادي: «العَبْهَر»: الممتملي الجسم والعظيم الناعم الطويل من كلّ شيء كالعباهر فيهما، وبهاء الجامعة للحسن والجسم والخلق. انتهى. و«العنصر»: الأصل. قوله: «فبك تثنى الخناصر» أي أنت تعدّ أولاً قبلهم لكونك أفضل وأشهر منهم، وإنما يبدأ

١. تتمّة كتاب التوحيد، أبواب أسمائه تعالى و...، باب ٢ معاني الأسماء و...

٢. الأماشي (للصدوق)، ص ٣٥١، ح ٥؛ التوحيد (للصدوق)، ص ٢٩٢، ح ١؛ وجاء في الإرشاد (للمفيد)، ج ٢، ص ٢٠١، مع اختلاف العبارات.

٣. في المصدر: «أحمد بن علي بن إبراهيم قال: حدّثني أبي، عن أبيه إبراهيم بن هاشم، عن محمد بن أبي عمير...»، وفي التوحيد: «ابن الوليد، عن الصفار، عن ابن عيسى، عن الحسين بن سعيد، عن علي بن منصور، عن هشام بن الحكم».

٤. الخنصر: الإصبع الصغرى، والجمع الخناصر، راجع الصحاح.

٥. في التوحيد: «لطيف».

في العدّ بالخنصر، والثني: العطف. و«الخنضم» بكسر الخاء وفتح الضاد المشددة^(١): الكثير العطاء. وقال الجوهري: زخر الوادي: إذا امتدّ جداً وارتفع، يقال: بحر زاخر. وقال: كتيبة ملمومة، مضمومة بعضها إلى بعض. وقال: «الغرقى»: قشر البيض التي تحت القيض. والقيض: ما تفلق من قشور البيض. قوله عليه السلام: «وهي لا تنفع شيئاً بغير دليل» أي هي عاجزة تتوقّف إدراكها على شرائط، فكيف تنفي ما لم تدركه بحسك؟^(٢) كما أنّ البصر لا يبصر الأشياء بغير مصباح، ويحتمل أن يكون المراد بالدليل العقل، أي لا تنفع الحواسّ بدون دلالة العقل فهو كالسراج لإحساس الحواسّ، وأنت قد عزلت العقل وحكمه، واقتصرت على حكم الحواسّ^(٣).

١١٩٣. تفسير الإمام عليه السلام، عيون أخبار الرضا عليه السلام^(٤): مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ الْمَفَسَّرُ، عَنْ يُوسُفَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ زِيَادٍ وَعَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ سَيَّارٍ^(٥)، عَنْ أَبِيهِمَا، عَنْ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ الرِّضَا عَلِيِّ بْنِ مُوسَى، عَنْ أَبِيهِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ جَعْفَرٍ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ، عَنْ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٦) قَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ لِنَعْتَبِرُوا بِهِ وَتَتَوَقَّوْا بِهِ إِلَى رِضْوَانِهِ، وَتَتَوَقَّوْا بِهِ مِنْ عَذَابِ نِيرَانِهِ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ أَخَذَ فِي خَلْقِهَا وَإِتْقَانِهَا ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وَلِعَلِمِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمُ الْمَصَالِحِ فَخَلَقَ لَكُمْ كُلَّ مَا فِي الْأَرْضِ لِمَصَالِحِكُمْ يَا بَنِي آدَمَ.

١١٩٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام^(٧): الطَّالِقَانِيُّ، عَنْ ابْنِ عُقْدَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ فَضَّالٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: لِمَ خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْخَلْقَ عَلَى أَنْوَاعٍ شَتَّى، وَلَمْ يَخْلُقْهُمْ نَوْعاً وَاحِداً؟ فَقَالَ: لئَلَّا يَقَعَ فِي الْأَوْهَامِ أَنَّهُ عَاجِزٌ، فَلَا تَقَعُ صُورَةٌ فِي وَهْمٍ مُلْحِدٍ إِلَّا وَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا خَلْقاً، وَلَا يَقُولُ قَائِلٌ: هَلْ يَقْدِرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ عَلَى صُورَةٍ كَذَا وَكَذَا إِلَّا وَجَدَ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَيَعْلَمُ بِالنَّظَرِ إِلَى أَنْوَاعِ خَلْقِهِ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

١. الخضمّ بالميم المشددة وهو الصحيح؛ ولعلّ، ما في البيان أيضاً كان هكذا: «وفتح الضاد والميم المشددة» بقرينة ما أتى به في معناه.
٢. بل المراد أنّ الحواس إنّما لها الإدراك تصوّري، وأمّا التصديق والحكم فللعقل. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

٣. نقول: نعم ما قال الإمام عليه السلام في جوابه، فإنّ الحواس كلها أسباب وعوامل للإدراك العقلي والإدراك العقلي ليس مما يرى بالحسّ.

٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، ص ٢١٥، ح ٩٩؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ١٢، ح ٢٩.

٥. في العيون: «محمد بن صبيد».

٦. البقرة/٢٩.

٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٧٥، ح ١؛ علل الشرائع، ج ١، ص ١٤، ح ١٣.

١١٩٥. تفسير الإمام عليه السلام، معاني الأخبار^(١): مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ الْمُفَسِّرُ، عَنْ يُوسُفَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ زِيَادٍ وَعَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ سَيَّارٍ - وَكَانَا مِنَ الشَّيْعَةِ الْإِمَامِيَّةِ - عَنْ أَبِيهِمَا، عَنْ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٢) فَقَالَ: اللَّهُ، هُوَ الَّذِي يَتَّالَهُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْحَوَائِجِ وَالشَّدَائِدِ كُلُّ مَخْلُوقٍ عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَاءِ مِنْ كُلِّ مَنْ دُونَهُ، وَتَقَطُّعِ الْأَسْبَابِ مِنْ جَمِيعٍ مَنْ سِوَاهُ، تَقُولُ: بِسْمِ اللَّهِ أَيُّ أَشْتَعِينُ عَلَى أُمُورِي كُلِّهَا بِاللَّهِ الَّذِي لَا تَحِقُّ الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ، الْمَغِيثُ إِذَا اسْتُعِثَ، وَالْمُجِيبُ إِذَا دُعِيَ، وَهُوَ مَا قَالَ رَجُلٌ لِلصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى اللَّهِ مَا هُوَ؟ فَقَدْ أَكْثَرَ عَلَيَّ الْمُجَادِلُونَ وَحَيَّرُونِي، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَلْ رَكِبْتَ سَفِينَةً قَطُّ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَهَلْ كُسِرَ بِكَ^(٣) حَيْثُ لَا سَفِينَةٌ تُنْجِيكَ، وَلَا سَبَاحَةٌ تُغْنِيكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَهَلْ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ هُنَالِكَ أَنَّ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ وَرْطَتِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ اللَّهُ الْقَادِرُ عَلَى الْإِنْجَاءِ حَيْثُ لَا مُنْجِيَ، وَعَلَى الْإِغَاثَةِ حَيْثُ لَا مُغِيثَ.

بيان:

قال الفيروزآبادي: أله إليه كفرح: فرع ولاد، وألهه: أجاره وآمنه.

١١٩٦. الخصال^(٤): الْقَاسِمِيُّ^(٥) وَابْنُ مَسْرُورٍ، عَنْ مُحَمَّدٍ بْنِ جَعْفَرٍ بْنِ بُطَّةَ، عَنِ الْبَرْقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ أَبِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ رَجُلًا قَامَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا عَرَفْتُ رَبَّكَ؟ قَالَ: بِفَسْخِ الْعَزْمِ^(٦) وَنَقْضِ الْهَمَمِ، لَمَّا أَنْ هَمَمْتُ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ هَمِّي، وَعَزَمْتُ فَخَالَفَ الْقَضَاءُ عَزْمِي، فَعَلِمْتُ أَنَّ الْمُدَبَّرَ غَيْرِي^(٧)، قَالَ: فَبِمَاذَا شَكَرْتَ نِعْمَاءَهُ؟ قَالَ: نَظَرْتُ إِلَى بَلَاءٍ قَدْ صَرَفَهُ عَنِّي وَأَبْلَى بِهِ غَيْرِي^(٨)، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيَّ فَشَكَرْتُهُ قَالَ: فَبِمَاذَا أَحْبَبْتَ لِقَاءَهُ؟ قَالَ: لَمَّا رَأَيْتُهُ قَدْ اخْتَارَ لِي دِينَ مَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ عَلِمْتُ أَنَّ الَّذِي أَكْرَمَنِي بِهَذَا لَيْسَ يَنْسَانِي فَأَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ.

١١٩٧. التوحيد^(٩): مَا جِيلَوِيهِ، عَنْ عَمِّهِ، عَنِ الْبَرْقِيِّ، عَنْ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ الْكُوفِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، ص ٢١، ح ٥ و ٦؛ معاني الأخبار، ص ٤، ح ٢؛ وقد ورد في إرشاد القلوب (للديلمى)، ج ١، ص ١٦٨، مع نقصان.

٢. الفاتحة / ١.

٣. في المصدر: «هل كسرت بك».

٤. الخصال، ج ١، ص ٣٣، ح ١؛ مختصر البصائر، ص ٣٤٧، ح ٣٧٦؛ أعلام الدين، ص ٦٦.

٥. في المختصر: «القاضي».

٦. وفي نسخة: بفسخ العزائم. (هامش المطبوع)

٧. إلى هنا تمت الرواية في المختصر.

٨. في الأعلام مع زيادة: «وإحسان شملني به».

٩. التوحيد (للمصدق)، ص ١٢٥، ح ٤؛ وقد ورد في الكافي ج ١، باب حدوث العالم، ص ٧٤، ح ٢، مع زيادة.

هَاشِمٍ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَسِّنٍ الْمِثَمِيِّ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي مَنْصُورٍ الْمُطَّيَّبِ، فَقَالَ: أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَابْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُقَفَّعِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ: تَرَوْنَ هَذَا الْخَلْقَ؟ - وَأَوْمَى بِيَدِهِ إِلَى مَوْضِعِ الطَّوَافِ - مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ أَوْجِبَ لَهُ اسْمُ الْإِنْسَانِيَّةِ ^(١) إِلَّا ذَلِكَ الشَّيْخُ الْجَالِسُ - يَعْنِي جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عليه السلام - فَأَمَّا الْبَاقُونَ فَرَعَاغٌ وَبَهَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ: وَكَيْفَ أُوجِبَتْ هَذَا الْإِسْمَ لِهَذَا الشَّيْخِ دُونَ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: لِأَنِّي رَأَيْتُ عِنْدَهُ مَا لَمْ أَرْ عِنْدَهُمْ، فَقَالَ ابْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ: مَا بُدِّ مِنْ اخْتِيَارٍ مَا قُلْتَ فِيهِ مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ الْمُقَفَّعِ: لَا تَفْعَلْ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُسَيِّدَ عَلَيْكَ مَا فِي يَدِكَ، فَقَالَ: لَيْسَ ذَا رَأْيِكَ، وَلَكِنَّكَ تَخَافُ أَنْ يَضْعَفَ رَأْيُكَ عِنْدِي فِي إِخْلَالِكِ إِيَّاهُ الْمَحَلَّ الَّذِي وَصَفْتَ، فَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ: أَمَّا إِذَا تَوَهَّمْتَ عَلَيَّ هَذَا فَقُمْ إِلَيْهِ، وَتَحَفَّظْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الزَّلَلِ، وَلَا تَتَّخِذْ عِزَانَكَ إِلَى اسْتِزْسَالٍ يُسْلِمُكَ إِلَى عِقَالٍ، وَسِمَهُ مَا لَكَ أَوْ عَلَيْكَ. قَالَ: فَقَامَ ابْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ وَبَقِيْتُ وَابْنُ الْمُقَفَّعِ، فَرَجَعَ إِلَيْنَا وَقَالَ: يَا ابْنَ الْمُقَفَّعِ مَا هَذَا بِبَشَرٍ، وَإِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا رُوحَانِي يَتَجَسَّدُ إِذَا شَاءَ ظَاهِرًا، وَيَتَرَوَّحُ إِذَا شَاءَ بَاطِنًا فَهُوَ هَذَا، فَقَالَ لَهُ: وَكَيْفَ ذَاكَ؟ قَالَ: جَلَسْتُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا لَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ غَيْرِي ابْتَدَأَنِي، فَقَالَ عليه السلام: إِنْ يَكُنِ الْأَمْرُ عَلَى مَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ وَهُوَ عَلَى مَا يَقُولُونَ - يَعْنِي أَهْلَ الطَّوَافِ - فَقَدْ سَلِمُوا وَعَظِمْتُمْ، وَإِنْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ - وَلَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ - فَقَدْ اسْتَوَيْتُمْ وَهُمْ، فَقُلْتُ لَهُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ وَأَيُّ شَيْءٍ تَقُولُ؟ وَأَيُّ شَيْءٍ يَقُولُونَ؟ مَا قَوْلِي وَقَوْلُهُمْ إِلَّا وَاحِدٌ، فَقَالَ عليه السلام: كَيْفَ يَكُونُ قَوْلُكَ وَقَوْلُهُمْ وَاحِدًا وَهُمْ يَقُولُونَ: إِنْ لَهُمْ مَعَادًا وَقَوَابًا وَعِقَابًا، وَيَدِينُونَ بِأَنَّ لِلْسَّمَاءِ ^(٢) إِلَهًا وَأَنَّهَا عُمَرَانُ، وَأَنْتُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ السَّمَاءَ خَرَابٌ لَيْسَ فِيهَا أَحَدٌ. قَالَ: فَاعْتَمَتُمُهَا مِنْهُ فَقُلْتُ لَهُ: مَا مَنَعَهُ إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ أَنْ يَظْهَرَ لِحَلْقِهِ، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ حَتَّى لَا يَحْتَلِفَ مِنْهُمْ اثْنَانِ، وَلِمَا احْتَجَبَ عَنْهُمْ وَأَرْسَلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ؟ وَلَوْ بَاشَرَهُمْ بِنَفْسِهِ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، فَقَالَ لِي: وَبِئْسَ وَكَيْفَ احْتَجَبَ عَنْكَ مَنْ أَرَاكَ قُدْرَتَهُ فِي نَفْسِكَ؟ نُشُوءُكَ وَلَمْ تَكُنْ، وَكِبَرُكَ بَعْدَ صِغَرِكَ، وَقُوَّتُكَ بَعْدَ ضَعْفِكَ، وَضَعْفُكَ بَعْدَ قُوَّتِكَ، وَسُقْمُكَ بَعْدَ صِحَّتِكَ، وَصِحَّتُكَ بَعْدَ سُقْمِكَ، وَرِضَاكَ بَعْدَ غَضَبِكَ، وَغَضَبُكَ بَعْدَ رِضَاكَ، وَحُزْنُكَ بَعْدَ فَرَحِكَ، وَفَرَحُكَ بَعْدَ حُزْنِكَ، وَحُبُّكَ بَعْدَ بُغْضِكَ، وَبُغْضُكَ بَعْدَ حُبِّكَ، وَعَزْمُكَ بَعْدَ إِبَائِكَ، وَإِبَائُكَ بَعْدَ عَزْمِكَ ^(٣)، وَشَهْوَتُكَ بَعْدَ كَرَاهَتِكَ، وَكَرَاهَتُكَ بَعْدَ شَهْوَتِكَ، وَرَغْبَتُكَ بَعْدَ رَهْبَتِكَ، وَرَهْبَتُكَ بَعْدَ رَغْبَتِكَ، وَرَجَاءُكَ بَعْدَ يَأْسِكَ، وَيَأْسُكَ بَعْدَ رَجَائِكَ، وَخَاطِرُكَ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي وَهْمِكَ، وَعَزُوبٌ مَا أَنْتَ مُعْتَقِدُهُ مِنْ ذَهْنِكَ، وَمَا زَالَ يَعُدُّ عَلَيَّ قُدْرَتَهُ الَّتِي فِي نَفْسِي الَّتِي لَا أَدْفَعُهَا حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَظْهَرُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ.

بيان:

قال الجزري: رعا ع الناس أي غوغاؤهم وسقاطهم وأخلاقهم، الواحد: رعاة. قوله: «ولا تشن»: من

١. في نسخة: وجب له اسم الإنسانية. (هامش المطبوع)

٢. في الكافي: «في السماء».

٣. في الكافي: «وعزمك بعد أناتك وأناتك بعد عزمك».

الثني وهو العطف والميل، أي لا ترخ عنانك إليه بأن تميل إلى الرفق والاسترسال والتساهل، فتقبل منه بعض ما يلقي إليك. «فيسلمك»: من التسليم، أو الإسلام. «إلى عقل» أي يعقلك بتلك المقدمات التي تسلّمت منه، بحيث لا يبقى لك مفرّ كالبعير المعقول. قوله: «وسمّه ما لك أو عليك» نقل عن الشيخ البهائي «قدّس الله روحه» أنّه من السوم، من سام البائع السلعة يسوم سوماً، إذا عرضها على المشتري وسامها المشتري بمعنى استامها، والضمير راجع إلى الشيخ على طريق الحذف والإيصال، والموصول مفعوله. ويروى عن الفاضل التستري «نور ضريحه» أنّه كان يقرأ «سمّه» بضم السين وفتح الميم المشدّدة، أمراً من سمّ الأمر يسمّه إذا سبره ونظر إلى غوره، والضمير راجع إلى ما يجري بينهما، والموصول بدل عنه؛ وقيل: هو من سممت سمك أي قصدت قصدك، والهاء للسكت أي أقصد ما لك وما عليك^(١)، والأظهر أنّه من وسم يسم سمة بمعنى الكي، والضمير راجع إلى ما يريد أن يتكلّم به أي اجعل على ما تريد أن تتكلّم به علامة لتعلم أي شيء لك وأي شيء عليك، فالموصول بدل من الضمير.

قوله **عَلَيْهِ**: «وهو على ما يقولون»: اعترض **عَلَيْهِ** الجملة الحالية بين الشرط والجزاء للإشارة إلى ما هو الحقّ، ولئلا يتوهّم أنّه **عَلَيْهِ** في شكّ من ذلك. و«العطب»: الهلاك. قوله **عَلَيْهِ**: «ليس فيها أحد» أي لها، أو عليها، أو بالظرفيّة المجازيّة لجريان حكمه وحصول تقديره تعالى فيها، وحاصل استدلاله **عَلَيْهِ**: أنّك لمّا وجدت في نفسك آثار القدرة التي ليست من مقدوراتك ضرورة علمت أنّ لها بارئاً قادراً، وكيف يكون غائباً عن الشخص من لا يخلو الشخص ساعة عن آثار كثيرة يصل منه إليه.

١١٩٨. التوحيد^(٢): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّفَّارِ، عَنِ ابْنِ عَيْسَى، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَنَاحٍ، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِنَا، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ **عَلَيْهِ** قَالَ: مَا خَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا أَصْغَرَ مِنَ الْبُعُوضِ، وَالْجَرَجِسِ أَصْغَرَ مِنَ الْبُعُوضِ، وَالَّذِي يُسَمُّونَهُ الْوَلَعُ أَصْغَرَ مِنَ الْجَرَجِسِ، وَمَا فِي الْفِيلِ شَيْءٌ إِلَّا وَفِيهِ مِثْلُهُ، وَفُضِّلَ عَلَى الْفِيلِ بِالْجَنَاحَيْنِ.

بيان:

قال الفيروزآبادي: «الجرجس» بالكسر: البعوض الصّغار. انتهى. فالمراد أنّ الجرجس أصغر من سائر أصناف البعوض ليوافق أوّل الكلام وكلام أهل اللغة، على أنّه يحتمل أن يكون الحصر في الأوّل إضافياً، كما أنّ الظاهر أنّه لا بدّ من تخصيصه بالطيور إذ قد يحسّ من الحيوانات ما هو أصغر من البعوض إلا أن يقال: يمكن أن يكون للبعوض أنواع صغار لا يكون شيء من الحيوانات أصغر منها. و«الولع» هنا بالغين المعجمة وفي الكافي بالمهملة وهما غير مذكورين فيما عندنا من كتب اللغة، والظاهر أنّه أيضاً صنف من البعوض،

١. شرح الكافي (للمولى صالح المازندراني)، ج ٣، ٢٥.

٢. التوحيد (للمصدق)، ص ٢٨٣، ح ١؛ والكافي، ج ٨، حديث القباب، ص ٢٤٨، ح ٣٤٨.

والغرض بيان كمال قدرته تعالى، فإن القدرة في خلق الأشياء الصغار أكثر وأظهر منها في الكبار، كما هو المعروف بين الصنّاع من المخلوقين^(١)، فتبارك الله أحسن الخالقين.

١١٩٩. التوحيد^(٢): الدَّقَاقُ، عَنِ الْكُلَيْبِيِّ بِإِسْنَادِهِ رَفَعَ الْحَدِيثَ: أَنَّ ابْنَ أَبِي الْعُجَّاءِ حِينَ كَلَّمَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي، فَجَلَسَ وَهُوَ سَاكِتٌ لَا يَنْطِقُ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَأَنَّكَ جِئْتَ تُعِيدُ بَعْضَ مَا كُنَّا فِيهِ؟ فَقَالَ: أَرَدْتُ ذَلِكَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا أَعْجَبَ هَذَا تُتَكَبَّرُ اللَّهُ، وَتَشْهَدُ أَنِّي ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ! فَقَالَ: الْعَادَةُ تَحْمِلُنِي عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ الْعَالِمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَمَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْكَلَامِ؟ قَالَ: إِجْلَالًا لَكَ^(٣) وَمَهَابَةً مَا يَنْطِقُ^(٤) لِسَانِي بَيْنَ يَدَيْكَ، فَإِنِّي شَاهَدْتُ الْعُلَمَاءَ وَنَاطَرْتُ الْمُتَكَلِّمِينَ فَمَا تَدَاخَلَنِي هَيْبَةٌ قَطُّ مِثْلُ مَا تَدَاخَلَنِي مِنْ هَيْبَتِكَ.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَكُونُ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَفْتَحْ عَلَيْكَ بِسْوَالٍ، وَأَقْبَلْ عَلَيْهِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ: أَمْصُوعُ أَنْتَ أَوْ غَيْرُ مَصْنُوعٍ؟ فَقَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ أَبِي الْعُجَّاءِ: بَلْ أَنَا غَيْرُ مَصْنُوعٍ، فَقَالَ لَهُ الْعَالِمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَصِفْ لِي لَوْ كُنْتَ مَصْنُوعًا كَيْفَ كُنْتَ تَكُونُ؟ فَبَيَّنَّ عَبْدُ الْكَرِيمِ مَلِيًّا لَا يُحِيرُ جَوَابًا، وَوَلَعَ بِخَشَبَةٍ كَانَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: طَوِيلُ عَرِيضٍ عَمِيقٌ قَصِيرٌ مُتَحَرِّكٌ سَاكِتٌ، كُلُّ ذَلِكَ صِفَةُ خَلْقِهِ^(٥)، فَقَالَ لَهُ الْعَالِمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَعْلَمْ صِفَةَ الصَّنْعَةِ غَيْرَهَا فَاجْعَلْ نَفْسَكَ مَصْنُوعًا لِمَا تَجِدُ فِي نَفْسِكَ مِمَّا يَحْدُثُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْكَرِيمِ: سَأَلْتَنِي عَنْ مَسْأَلَةٍ لَمْ يَسْأَلْنِي عَنْهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ، وَلَا يَسْأَلْنِي أَحَدٌ بَعْدَكَ عَنْ مِثْلِهَا، فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هَبْكَ عَلِمْتَ أَنَّكَ لَمْ تُسْأَلْ فِيمَا مَضَى فَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَا تُسْأَلُ فِيمَا بَعْدُ؟ عَلَى أَنَّكَ يَا عَبْدُ الْكَرِيمِ تَقْضَتْ قَوْلَكَ لِأَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ الْأَشْيَاءَ مِنَ الْأَوَّلِ سَوَاءٌ، فَكَيْفَ قَدَّمْتَ وَآخَرْتَ؟ ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا عَبْدُ الْكَرِيمِ أَرَيْدُكَ وَضُوحًا، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ مَعَكَ كَيْسٌ فِيهِ جَوَاهِرٌ، فَقَالَ لَكَ قَائِلٌ: هَلْ فِي الْكَيْسِ دِينَارٌ؟ فَتَقَيَّتْ كَوْنُ الدِّينَارِ فِي الْكَيْسِ، فَقَالَ لَكَ قَائِلٌ: صِفْ لِي الدِّينَارَ وَكُنْتَ غَيْرَ عَالِمٍ بِصِفَتِهِ، هَلْ كَانَ لَكَ أَنْ تَنْفِي كَوْنُ الدِّينَارِ عَنِ الْكَيْسِ وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ؟ قَالَ: لَا، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَالْعَالِمُ أَكْبَرُ وَأَطْوَلُ وَأَعْرَضُ مِنَ الْكَيْسِ، فَلَعَلَّ فِي الْعَالَمِ صَنْعَةً مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُ صِفَةَ الصَّنْعَةِ مِنْ غَيْرِ الصَّنْعَةِ.

فَانْقَطَعَ عَبْدُ الْكَرِيمِ، وَأَجَابَ إِلَى الْإِسْلَامِ بَعْضُ أَصْحَابِهِ، وَبَقِيَ مَعَهُ بَعْضٌ، فَعَادَ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ فَقَالَ: أَقْلِبْ السُّؤَالَ؟ فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اسْأَلْ عَمَّا شِئْتَ، فَقَالَ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى حُدُوثِ الْأَجْسَامِ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنِّي مَا وَجَدْتُ

١. هذا بحسب الدقة واللفظ، وكأنه عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المقام، وأما بحسب القدرة فالأمر بالعكس من جهة توفيق الذرات وتوديع القوى العظيمة الهائلة، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، غافر/٥٧. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٩٦، ح ٦؛ وفي الكافي، ج ١، باب حدوث العالم، ص ٧٦، ذيل ح ٢.

٣. في نسخة: إجلال لك. (هامش المطبوع)

٤. في المصدر والكافي: «ينطلق».

٥. وفي نسخة: كل ذلك صنعة خلقه. (هامش المطبوع)

شَيْئاً صَغِيراً وَلَا كَبِيراً إِلَّا وَإِذَا ضَمَّ إِلَيْهِ مِثْلُهُ صَارَ أَكْبَرَ، وَفِي ذَلِكَ زَوَالٌ وَانْتِقَالٌ عَنِ الْحَالَةِ الْأُولَى، وَلَوْ كَانَ قَدِماً مَا زَالَ وَلَا حَالٌ، لِأَنَّ الَّذِي يَزُولُ وَيَحُولُ يَجُوزُ أَنْ يُوجَدَ وَيُطْلَقَ فَيَكُونُ بِوُجُودِهِ بَعْدَ عَدَمِهِ دُخُولٌ فِي الْحَدَثِ، وَفِي كَوْنِهِ فِي الْأَزَلِ دُخُولُهُ فِي الْقَدَمِ^(١)، وَلَنْ تَجْتَمِعَ صِفَةُ الْأَزَلِ وَالْحَدُوثِ، وَالْقَدَمِ^(٢) وَالْعَدَمِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ. فَقَالَ عَبْدُ الْكَرِيمِ: هَبْكَ عَلِمْتَ فِي جَزَيِ الْحَالَتَيْنِ وَالزَّمَانَيْنِ عَلَى مَا ذَكَرْتَ وَاسْتَدْلَلْتَ عَلَى حُدُوثِهَا، فَلَوْ بَقِيَتِ الْأَشْيَاءُ عَلَى صِغَرِهَا مِنْ أَيْنَ كَانَ لَكَ أَنْ تَسْتَدِلَّ عَلَى حَدِيثِهَا؟ فَقَالَ الْعَالِمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ عَلَى هَذَا الْعَالَمِ الْمَوْضُوعِ، فَلَوْ رَفَعْنَاهُ وَوَضَعْنَاهُ عَالِماً آخَرَ كَانَ لَا شَيْءَ أَدَلَّ عَلَى الْحُدُوثِ مِنْ رَفَعْنَاهُ إِيَّاهُ وَوَضَعْنَاهُ غَيْرَهُ، وَلَكِنْ أَجَبْتُكَ^(٣) مِنْ حَيْثُ قَدَرْتَ أَنْ تُلْزِمَنَا، وَتَقُولَ^(٤): إِنَّ الْأَشْيَاءَ لَوْ دَامَتْ عَلَى صِغَرِهَا لَكَانَ فِي الْوَهْمِ أَنَّهُ مَتَى مَا ضَمَّ شَيْءٌ^(٥) إِلَى مِثْلِهِ كَانَ أَكْبَرَ، وَفِي جَوَازِ التَّغْيِيرِ عَلَيْهِ خُرُوجُهُ مِنَ الْقَدَمِ كَمَا بَانَ فِي تَغْيِيرِهِ دُخُولُهُ فِي الْحَدَثِ^(٦)، لَيْسَ لَكَ وَرَاءَهُ شَيْءٌ يَا عَبْدَ الْكَرِيمِ. فَانْقَطَعَ وَخَزِي، فَلَمَّا أَنْ كَانَ مِنَ الْعَامِ الْقَابِلِ اتَّفَقَ مَعَهُ فِي الْحَرَمِ، فَقَالَ لَهُ: بَعْضُ شَيْعَتِهِ: إِنَّ ابْنَ أَبِي الْعَوْجَاءِ قَدْ أَسْلَمَ، فَقَالَ الْعَالِمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هُوَ أَعْمَى مِنْ ذَلِكَ لَا يُسْلِمُ، فَلَمَّا بَصُرَ بِالْعَالِمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ، فَقَالَ لَهُ الْعَالِمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا جَاءَ بِكَ عَلَى هَذَا الْمَوْضِعِ؟ فَقَالَ: عَادَةُ الْجَسَدِ، وَسُنَّةُ الْبَلَدِ، وَلِبْنَصِرٌ^(٧) مَا النَّاسُ فِيهِ مِنَ الْجُنُونِ وَالْحَلَقِ وَرَمِي الْحِجَارَةِ، فَقَالَ لَهُ الْعَالِمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْتَ بَعْدُ عَلَى عَتُوكَ وَضَلَالِكَ يَا عَبْدَ الْكَرِيمِ، فَذَهَبَ يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ الْعَالِمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ: لَا جِدَالَ فِي الْحُجِّ، وَنَفَضَ رِذَاءَهُ مِنْ يَدِهِ، وَقَالَ الْعَالِمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ - وَلَيْسَ كَمَا تَقُولُ - نَجَوْنَا وَنَجَوْتَ، وَإِنْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ - وَهُوَ كَمَا نَقُولُ - نَجَوْنَا وَهَلَكْتَ، فَأَقْبَلَ عَبْدَ الْكَرِيمِ عَلَى مَنْ مَعَهُ، فَقَالَ: وَجَدْتُ فِي قَلْبِي حَرَارَةً^(٨) فَرُدُّونِي، فَرُدُّوهُ وَمَاتَ، لَا رَحِمَهُ اللَّهُ.

تنوير:

«لا يحير جواباً» بالمهملة أي لا يقدر عليه. والولوع بالشيء: الحرص عليه والمبالغة في تناوله. قوله: «كل ذلك صفة خلقه» أي خلق الخالق والصانع، ويمكن أن يقرأ «بالتاء» أي صفة المخلوقية، والحاصل أنه لما سأل الإمام عليه السلام عنه: أنك لو كنت مصنوعاً هل كنت على غير تلك الأحوال والصفات التي أنت عليها الآن

١. في المصدر: «في كونه في الأولى دخوله في العدم»، وفي الكافي: «دخوله في العدم».

٢. لم يرد في المصدر: «الحدوث والقدم».

٣. وفي نسخة: أجيبك (هامش المطبوع)، وكذا في المصدر والكافي.

٤. وفي نسخة: فنقول. (هامش المطبوع)

٥. وفي نسخة: ما ضمَّ شيء منه إلى شيء منه. (هامش المطبوع)

٦. وفي نسخة: كما أنَّ في تغييره دخوله في الحدث. (هامش المطبوع)

٧. في الكافي: «ولنظره».

٨. في المصدر والكافي: «حزازة».

أم لا؟ أقبل يتفكر في ذلك، فتنبه أن صفاته كلها صفات المخلوقين، وكانت معاندته مانعة عن الإذعان بالصانع تعالى فبقي متحيراً، فقال عليه السلام: إذا رجعت إلى نفسك، ووجدت في نفسك صفة المخلوقين فلم لا تدعن بالصانع؟ فاعترف بالعجز عن الجواب، وقال: سألتني عن مسألة لم يسألني عنها أحد قبلك، ولا يسألني أحد بعدك. قوله عليه السلام «هيك» أي افرض نفسك أنك علمت ما مضى، وسلمنا ذلك لك، قال الفيروزآبادي: هبني فعلت أي احسبني فعلت واعددني، كلمة للأمر فقط، وحاصل جوابه عليه السلام: أولاً أنك بنيت أمورك كلها على الظن والوهم، لأنك تقطع بأنك لا تسأل بعد ذلك عن مثلها، مع أنه لا سبيل لك إلى القطع به.

وأما قوله عليه السلام: «على أنك يا عبد الكريم نقضت قولك» يحتمل وجوهاً: الأول: أن يكون المراد أن نفيك للصانع مبني على أنك تزعم أن لا عليّة بين الأشياء، ونسبة الوجود والعدم إليها على السواء، والاستدلال على الأشياء الغير المحسوسة إنما يكون بالعلية والمعلولية، فكيف حكمت بعدم حصول الشيء في المستقبل؟ فيكون المراد بالتقدم والتأخر العلية والمعلولية أو ما يساوقهما.

الثاني: أن يكون مبنيّاً على ما لعلمهم كانوا قائلين به، وربما أمكن إلزامهم بذلك، بناء على نفي الصانع من أن الأشياء متساوية غير متفاوتة في الكمال والنقص، فالمراد: أنك كيف حكمت بتفضيلي على غيري؟ وهو مناف للمقدمة المذكورة، فالمراد بالتقدم والتأخر ما هو بحسب الشرف.

الثالث: أن يكون مبنيّاً على ما ينسب إلى أكثر الملاحدة من القول بالكمون والبروز أي مع قولك: بكون كلّ حقيقة حاصلة في كلّ شيء كيف يمكنك الحكم بتقدم بعض الأشياء على بعض في الفضل والشرف. قوله عليه السلام: «وفي ذلك زوال وانتقال» حاصل استدلاله عليه السلام: إنّما راجع إلى دليل المتكلمين من أن عدم الانفكاك عن الحوادث يستلزم الحدود، أو إلى أنه لا يخلو إنّما أن يكون بعض تلك الأحوال الزائلة المتغيرة قديماً، أم لا، بل يكون كلها حوادث، وكلّ منهما محال، أمّا الأول: فلما تقرّر عند الحكماء من أن ما ثبت قدمه امتنع عدمه، وأمّا الثاني: فللزوم التسلسل بناء على جريان دلائل إبطاله في الأمور المتعاقبة، ويمكن أن يكون مبنيّاً على ما يظهر من الأخبار الكثيرة من أن كلّ قديم يكون واجباً بالذات، ولا يكون المعلول إلاّ حادثاً، ووجوب الوجود ينافي التغير، ولا يكون الواجب محلاً للحوادث كما برهن عليه، ثمّ قال ابن أبي العوجاء: لو فرضنا بقاء الأشياء على صغرها لم يمكنك الاستدلال على حدوثها بالتغير، فأجاب عليه السلام: «أولاً» على سبيل الجدل، بأنّ كلامنا كان في هذا العالم الذي نشاهد فيه التغيرات، فلو فرضت رفع هذا العالم ووضع عالم آخر مكانه لا يعتريه التغير فزوال هذا العالم دلّ على كونه حادثاً، وإلاّ لما زال؟ وحدوث العالم الثاني أظهر. ثمّ قال عليه السلام: «ولكن أجيبك من حيث قدّرت» بتشديد الدالّ أي فرضت لأنّ تلزماً، أو بالتخفيف

أي زعمت أنك تقدر أن تلزمننا، وهو بأن تفرض في الأول مكان هذا العالم عالماً لا يكون فيه التغير فنقول: يحكم العقل بأن الأجسام يجوز عليها ضم شيء إليها وقطع شيء منها، وجواز التغير عليه يكفي لحدوثها بنحو ما مر من التقرير.

١٢٠٠. التوحيد^(١): ابن إدريس، عن أبيه، عن ابن هشام، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام: «قال علي: بفسخ العزم ونقض الهم، عزمت ففسخ عزمي، وهممت فنقض همي».

١٢٠١. التوحيد^(٣): المكتب، عن الأسدي، عن البرمكي، عن محمد بن عبد الرحمن الخزاز، عن سليمان بن جعفر، عن علي بن الحكم، عن هشام بن سالم قال: حضرت محمد بن النعمان الأحول، فقام إليه رجل فقال له: بم عرفت ربك؟ قال: بتوفيقه وإرشاده وتعريفه وهدايته، قال: فخرجت من عنده فلقيت هشام بن الحكم، فقلت له: ما أقول لمن يسألني فيقول لي: بم عرفت ربك؟ فقال: إن سألت سائل فقال: بم عرفت ربك؟ قلت: عرفت الله جل جلاله بنفسه، لأنها أقرب الأشياء إلي، وذلك أنني أجدها أبعاضاً مجتمعة، وأجزاء مؤتلفة، ظاهرة التركيب، متينة^(٤) الصنعة، مبنية على ضروب من التخطيط والتصوير، زائدة من بعد نقصان، وناقصة من بعد زيادة، قد أنشئ لها حواس مختلفة، وجوارح متباعدة، من بصر وسمع وشام وذائق ولا مس، مجبولة^(٥) على الضعف والنقص والمهانة، لا تدرك واحدة منها مدرك صاحبها، ولا تقوى على ذلك عاجزة عن اجتلاب المنافع إليها، ودفع المضار عنها، واستحال في العقول وجود تأليف لا مؤلف له، وثبات صورة لا مصور لها، فعلمت أن لها خالقاً خلقها، ومصوراً صورها، مخالفاً لها في جميع جهاتها^(٦)، قال الله جل جلاله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٧).

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٨٩، ح ٨ وص ٢٨٨، ح ٦؛ الخصال، ج ١، ص ٣٣، ح ١؛ أعلام الدين، ص ٦٨، وقد ورد في الأخيرين بهذا المضمون.

٢. في التوحيد، ح ٦ بهذا الإسناد: «أحمد الهمداني، عن علي بن إبراهيم بن هاشم، عن أبيه، عن محمد بن سنان، عن زياد بن منذر، عن أبي جعفر عليه السلام، عن أبيه، عن جده، عن أمير المؤمنين عليه السلام»، وفي الخصال: «الفامي و جعفر بن محمد بن مسرور قالاً: حدثنا محمد بن جعفر بن بطة، عن البرقي، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن هاشم بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام، عن أبيه، عن جده، عن أمير المؤمنين عليه السلام».

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٨٩، ح ٩؛ مجموعة ورام، ج ١، ص ٢٢٤، تبدأ الرواية فيه من قول هشام بن الحكم، مع اختلاف يسير.

٤. في المصدر: «متينة»، وفي مجموعة ورام: «متباينة».

٥. جيله الله على الكرام: خلقه، وهو مجبول عليه، راجع أساس البلاغة.

٦. وفي نسخة: مخالفاً لها في جميع صفاتها. (هامش المطبوع)

٧. الذاريات/ ٢١.

١٢٠٢. التوحيد^(١): الدَّقَاقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْمَأْمُونِ الْقُرَشِيِّ، عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ: قَالَ لِي أَبُو شَاكِرٍ الدَّيَّانِيُّ: إِنَّ لِي مَسْأَلَةً تَسْتَأْذِنُ لِي عَلَى صَاحِبِكَ، فَإِنِّي قَدْ سَأَلْتُ عَنْهَا جَمَاعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ فَمَا أَجَابُونِي بِجَوَابٍ مُشْبِعٍ، فَقُلْتُ: هَلْ لَكَ أَنْ تُخْبِرَنِي بِهَا فَلَعَلَّ عِنْدِي جَوَاباً تَرْضَاهُ؟ فَقَالَ: إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَلْقَى بِهَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، فَاسْتَأْذَنْتُ لَهُ، فَدَخَلَ فَقَالَ لَهُ: أَتَأْذَنُ لِي فِي السُّؤَالِ؟ فَقَالَ لَهُ: سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ، فَقَالَ لَهُ^(٢): مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ لَكَ صَانِعاً؟ فَقَالَ: وَجَدْتُ نَفْسِي لَا تَخْلُو مِنْ إِحْدَى جِهَتَيْنِ: إِمَّا أَنْ أَكُونَ صَنَعْتُهَا أَنَا^(٣) فَلَا أَخْلُو مِنْ أَحَدٍ مَعْنَيْنِ: إِمَّا أَنْ أَكُونَ صَنَعْتُهَا وَكَانَتْ مَوْجُودَةً، أَوْ صَنَعْتُهَا وَكَانَتْ مَعْدُومَةً، فَإِنْ كُنْتُ صَنَعْتُهَا وَكَانَتْ مَوْجُودَةً فَقَدْ اسْتَعْنَيْتُ بِوُجُودِهَا عَنْ صَنَعَتِهَا، وَإِنْ كَانَتْ مَعْدُومَةً فَإِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ الْمَعْدُومَ لَا يُحْدِثُ شَيْئاً، فَقَدْ ثَبَتَ الْمَعْنَى الثَّلَاثُ أَنَّ لِي صَانِعاً وَهُوَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَقَامَ وَمَا أَجَابَ^(٤) جَوَاباً.

بيان:

هذا برهان متين مبني على توقف التأثير، والإيجاد على وجود الموجد والمؤثر، والضرورة الوجدانية حاكمة بحقيقتها، ولا مجال للعقل في إنكارها.

١٢٠٣. التوحيد^(٥): أَبِي وَابْنُ الْوَلِيدِ مَعاً، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ إِدْرِيسَ وَمُحَمَّدِ الْعَطَّارِ، عَنِ الْأَشْعَرِيِّ، عَنْ سَهْلٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ يَعْقُوبَ الْهَاشِمِيِّ، عَنْ مَرْوَانَ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ: دَخَلَ ابْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَقَالَ: أَلَيْسَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ؟ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: بَلَى. فَقَالَ لَهُ: أَنَا أَخْلُقُ، فَقَالَ عليه السلام لَهُ: كَيْفَ تَخْلُقُ؟ قَالَ: أَخْدِثُ فِي الْمَوْضِعِ ثُمَّ أَلْبِثُ عَنْهُ فَيَصِيرُ دَوَابًّا، فَأَكُونُ أَنَا الَّذِي خَلَقْتُهَا، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: أَلَيْسَ خَالِقُ الشَّيْءِ يَعْرِفُ كَمْ خَلَقَهُ؟ قَالَ لَهُ: بَلَى، قَالَ عليه السلام: فَتَعْرِفُ الذِّكْرَ مِنْهَا مِنَ الْأُنْثَى وَتَعْرِفُ كَمْ عُمُرُهَا؟ فَسَكَتَ.^(٦)

١٢٠٤. التوحيد^(٧): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّقَّارِ، عَنِ ابْنِ هَاشِمٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حَمَّادٍ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ يُونُسَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ يُونُسَ بْنِ يَعْقُوبَ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ مَنصُورٍ: قَالَ لِي هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ: كَانَ زَنْدِيقٌ بِمَصْرَ يَبْلُغُهُ عَنْ

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٩٠، ح ١٠؛ الذريعة إلى حافظ الشريعة، ج ١، ص ٢٨٠.

٢. في الذريعة تبدأ الرواية من هنا.

٣. في المصدر: «صنعتها أنا أو صنعها غيري فإن كنت صنعتها أنا فلا أخلو...».

٤. في المصدر: «ما أحرار».

٥. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٩٥، ح ٥.

٦. **فقول:** صبر الإمام عليه السلام وحلمه في مقابل هؤلاء، عجب جداً واللازم على العلماء والخطباء، التأسي به عليه السلام لا سيما أنه غالباً يكون من أسباب الغلبة على الخصم.

٧. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٩٣، ح ٤؛ الكافي، ج ١، باب حدوث العالم، ص ٧٢، ح ١؛ وقد ورد في الاحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٣٤ مع اختلاف العبارات.

أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام ^(١) فَخَرَجَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُنَاطِرَهُ، فَلَمْ يُصَادِفْهُ بِهَا، فَقِيلَ لَهُ: هُوَ بِمَكَّةَ فَخَرَجَ الزُّنْدِيقُ إِلَى مَكَّةَ، وَنَحْنُ مَعَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام، فَقَارَبَنَا الزُّنْدِيقُ ^(٢) - وَنَحْنُ مَعَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فِي الطَّوَافِ - فَضَرَبَ كَتِفَهُ كَتِفَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ عليه السلام: مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: اسْمِي عَبْدُ الْمَلِكِ، قَالَ: فَمَا كُنْيَتُكَ؟ قَالَ: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: فَمَنِ الْمَلِكُ الَّذِي أَنْتَ لَهُ عَبْدٌ، أَمْ مِنْ مُلُوكِ السَّمَاءِ أَمْ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ، وَأَخْبِرْنِي عَنِ ابْنِكَ، أَعَبْدُ إِلَهَ السَّمَاءِ أَمْ عَبْدُ إِلَهِ الْأَرْضِ؟ فَسَكَتَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: قُلْ مَا شِئْتَ تُخْصِمَ. قَالَ هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ: قُلْتُ لِلزُّنْدِيقِ: أَمَا تَرُدُّ عَلَيْهِ؟ فَقَبَّحَ قَوْلِي، فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: إِذَا فَرَعْتُ مِنَ الطَّوَافِ فَأُتِنَا، فَلَمَّا فَرَعَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام أَتَاهُ الزُّنْدِيقُ فَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَنَحْنُ مُجْتَمِعُونَ عِنْدَهُ، فَقَالَ لِلزُّنْدِيقِ: أَتَعْلَمُ أَنَّ لِلْأَرْضِ تَحْتًا وَفَوْقًا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَدَخَلْتَ تَحْتَهَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَا يُدْرِيكَ بِمَا تَحْتَهَا؟ قَالَ: لَا أَدْرِي إِلَّا أَنِّي أَظُنُّ أَنَّ لَيْسَ تَحْتَهَا شَيْءٌ، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: فَالظَّنُّ عَجْزٌ مَا لَمْ تَسْتَيْقِنْ. قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: فَصَعِدْتَ إِلَى السَّمَاءِ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَتَدْرِي مَا فِيهَا؟ قَالَ: لَا ^(٣)، قَالَ: فَعَجَبًا لَكَ لَمْ تَبْلُغِ الْمَشْرِقَ، وَلَمْ تَبْلُغِ الْمَغْرِبَ، وَلَمْ تَنْزِلْ تَحْتَ الْأَرْضِ، وَلَمْ تَصْعَدْ إِلَى السَّمَاءِ، وَلَمْ تَجْزُ هُنَاكَ فَتَعْرِفَ مَا خَلَقَهُنَّ وَأَنْتَ جَاوِدٌ مَا فِيهِنَّ، وَهَلْ يَجْحَدُ الْعَاقِلُ مَا لَا يَعْرِفُ، فَقَالَ الزُّنْدِيقُ: مَا كَلَّمَنِي بِهَذَا أَحَدٌ غَيْرُكَ، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: فَأَنْتَ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ فَاعْلَمْ هُوَ، أَوْ لَعَلَّ لَيْسَ هُوَ، قَالَ الزُّنْدِيقُ: وَلَعَلَّ ذَلِكَ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: أَيُّهَا الرَّجُلُ لَيْسَ لِمَنْ لَا يَعْلَمُ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ يَعْلَمُ، فَلَا حُجَّةَ لِلْجَاهِلِ ^(٤)، يَا أَخَا أَهْلِ مِصْرَ تَفْهَمُ عَنِّي فَإِنَّا لَا نَشْكُ فِي اللَّهِ أَبَدًا، أَمَا تَرَى الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَاللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَلْجَانِ ^(٥) لَيْسَ لَهُمَا مَكَانٌ إِلَّا مَكَانُهُمَا، فَإِنْ كَانَا يَقْدِرَانِ عَلَى أَنْ يَذْهَبَا وَلَا يَرْجِعَا فَلِمَ يَرْجِعَانِ؟ وَإِنْ لَمْ يَكُونَا مُضْطَرَّيْنِ فَلِمَ لَا يَصِيرُ اللَّيْلُ نَهَارًا وَالنَّهَارُ لَيْلًا؟ اضْطُرَّا وَاللَّهِ يَا أَخَا أَهْلِ مِصْرَ إِلَى دَوَامِهِمَا، وَالَّذِي اضْطَرَّهُمَا أَحْكَمَ مِنْهُمَا وَأَكْبَرُ مِنْهُمَا، قَالَ الزُّنْدِيقُ: صَدَقْتَ. ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: يَا أَخَا أَهْلِ مِصْرَ، الَّذِي تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ وَتَظُنُّونَهُ بِالْوَهْمِ، فَإِنْ كَانَ الدَّهْرُ يَذْهَبُ بِهِمْ لِمَ لَا يَرُدُّهُمْ؟ وَإِنْ كَانَ يَرُدُّهُمْ لِمَ لَا يَذْهَبُ بِهِمْ؟ الْقَوْمُ مُضْطَرُونَ يَا أَخَا أَهْلِ مِصْرَ، السَّمَاءُ مَرْفُوعَةٌ، وَالْأَرْضُ مَوْضُوعَةٌ، لِمَ لَا تَسْقُطُ السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ؟ وَلِمَ لَا تَنْحَدِرُ

١. في المصدر: «عن أبي عبد الله عليه السلام علم».

٢. **فقول:** قد يقال: لماذا لم يمنع الإمام عليه السلام دخوله في المسجد مع أنه كان زنديقاً وهذا لا يوافق ما ذكره الفقهاء في الكتب الفقهية، ولكن ذكرنا في محله أنه إذا كان دخول الكفار لدعوتهم إلى الإسلام ويرجى قبولهم ولا أقل تخفيف مخالفتهم، فلا بأس به وقد كان مثله في عصر رسول الله ﷺ.

٣. في التوحيد والإحتجاج مع زيادة: «قال عليه السلام: فأُتيت المشرق والمغرب فنظرت ما خلفهما؟ قال: لا».

٤. في التوحيد والإحتجاج: «للجاهل على العالم».

٥. في التوحيد والكافي مع زيادة: «لا يشتبهان يذهبان ويرجعان قد اضطرا»، وفي الإحتجاج مع زيادة: «لا يسبقان يذهبان ويرجعان قد اضطرا».

الأَرْضُ فَوْقَ طَبَاقِهَا^(١) فَلَا يَتَمَاسَكُ وَلَا يَتَمَاسِكُ مِنْ عَلَيْهِمَا؟ فَقَالَ الزُّنْدِيقُ: أَمْسَكُهُمَا وَاللَّهِ رُبُّهُمَا وَسَيِّدُهُمَا، فَأَمَنَ الزُّنْدِيقُ عَلَى يَدَيَّ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَقَالَ لَهُ حُمْرَانُ بْنُ أَعْيَنَ: جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنْ آمَنْتَ الزَّنَادِقَةَ عَلَى يَدَيْكَ فَقَدْ آمَنْتَ الْكُفَّارَ عَلَى يَدَيَّ أَبِيكَ. فَقَالَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي آمَنَ عَلَى يَدَيَّ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اجْعَلْنِي مِنْ تَلَامِيذِكَ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لِهَشَامِ بْنِ الْحَكَمِ خُذْهُ إِلَيْكَ فَعَلَّمَهُ. فَعَلَّمَهُ هَشَامٌ فَكَانَ مُعَلِّمَ أَهْلِ مِصْرَ وَأَهْلِ الشَّامِ، وَحَسُنَتْ طَهَارَتُهُ حَتَّى رَضِيَ بِهَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إيضاح:

قوله عليه السلام: «فمن الملك» لعله عليه السلام سلك أولاً في الاحتجاج عليه مسلك الجدول، لبنائه على الأمر المشهور عند الناس أن الاسم مطابق لمعناه، ويحتمل أن يكون على سبيل المطابقة والمزاح لبيان عجزه عن فهم الواضحات، وردّ الجواب عن أمثال تلك المطابقات، أو يكون منبهاً على ما ارتكز في العقول من الإذعان بوجود الصانع وإن أنكروه ظاهراً لكفرهم وعنادهم، ثم ابتداءً عليه السلام بإزالة إنكار الخصم وإخراجه منه إلى الشك لتستعدّ نفسه لقبول الحقّ، فأزال إنكاره بأنه غير عالم بما تحت الأرض، وليس له سبيل إلى الجزم بأن ليس تحتها شيء، ثم زاده بياناً بأن السماء التي لم يصعدها كيف يكون له الجزم والمعرفة بما فيها وما ليس فيها؟ وكذا المشرق والمغرب، فلمّا عرف قبح إنكاره وتنزّل عنه وأقرّ بالشكّ بقوله: «ولعلّ ذاك»، أخذ عليه السلام في هدايته، وقال عليه السلام: ليس للشاكّ دليل وللجاهل حجة، فليس لك إلّا طلب الدليل فاستمع وتفهم، فإنّ لا نشكّ فيه أبداً، والمراد بولوج الشمس والقمر غروبهما، أو دخولهما بالحركات الخاصّة في بروجهما، وبولوج الليل والنهار دخول تمام كلّ منهما في الآخر، أو دخول بعض من كلّ منهما في الآخر بحسب الفصول.

وحاصل الاستدلال أن لهذه الحركات انضباطاً واتّساقاً^(٢) واختلافاً وتركيباً، فالانضباط يدلّ على عدم كونها إرادية، كما هو المشاهد من أحوال ذوي الإرادات من الممكنات، والاختلاف يدلّ على عدم كونها طبيعياً، فإنّ الطبيعة العادمة للشعور لا تختلف مقتضياتها كما نشاهد من حركات العناصر، كما قالوا: إنّ الطبيعة الواحدة لا تقتضي التوجّه إلى جهة والانصراف عنه، ويمكن أن يقال: حاصل الدليل راجع إلى ما يحكم به الوجدان، من أن مثل تلك الأفعال المحكمة المتقنة الجارية على قانون الحكمة، لا يصدر عن الدهر والطبائع العادمة للشعور والإرادة، وإلى هذا يرجع قوله عليه السلام: «إن كان الدهر يذهب بهم» أي الدهر العديم الشعور كيف يصدر عنه الذهاب الموافق للحكمة، ولا يصدر عنه بدله الرجوع؟ أو المراد أنّه لم يقتضي طبعه ذهاب شيء، ولا يقتضي ردّه وبالعكس، بناء على أن مقتضيات الطبائع تابعة لتأثير الفاعل القادر القاهر،

١. في المصدر: «فوق طاقتها».

٢. الاتّساق: الانتظام، راجع لسان العرب.

ويمكن أن يكون المراد بالذهاب بهم إعدامهم، وبردهم إيجادهم، والمراد بالدهر الطبيعة، كما هو ظاهر كلام أكثر الدهرية، أي نسبة الوجود والعدم إلى الطبائع الإمكانية على السواء، فإن كان الشيء يوجد بطبعه فلم لا يعدم؟ فترجح أحدهما ترجح بلا مرجح يحكم العقل باستحالته، ويجري جميع تلك الاحتمالات في قوله عليه السلام: «السما مرفوعة» إلى آخر كلامه. وقوله عليه السلام: «لم لا تسقط السماء على الأرض؟» أي لا تتحرك بالحركة المستقيمة حتى تقع على الأرض. وقوله عليه السلام: «ولم لا تنحدر الأرض؟» أي تتحرك إلى جهة التحت حتى تقع على أطباق السماء، أو المراد الحركة الدورانية فيغرق الناس في الماء، فيكون ضمير طباقها راجعاً إلى الأرض، وطباق الأرض أعلاها أي تنحدر الأرض: بحيث تصير فوق ما علا منها الآن. قوله عليه السلام: «فلا يتماسكان» أي في صورة السقوط والانحدار، أو المراد فظهر أنه لا يمكنهما التمسك بأنفسهما بل لا بد من ماسك يمسكهما.

أقول:

تفصيل القول في شرح تلك الأخبار الغامضة يقتضي مقاماً آخر، وإنما نشير في هذا الكتاب إلى ما لعله يتبصر به أولوا الأذهان الثاقبة من أولي الأبواب، وسنبسط الكلام فيها في كتاب مرآة العقول^(١) إن شاء الله تعالى.

١٢٠٥. تفسير الإمام عليه السلام^(٢): قَالَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَمَّا تَوَعَّدَ^(٣) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْيَهُودَ وَالنَّوَاصِبَ فِي جَحْدِ الثُّبُوتِ وَالْخِلَافَةِ، قَالَ مَرْدَةُ^(٤) الْيَهُودِ وَعَتَاةُ^(٥) النَّوَاصِبِ: مَنْ هَذَا الَّذِي يَنْصُرُ مُحَمَّدًا وَعَلِيًّا عَلَى أَعْدَائِهِمَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بِلا عَمَدٍ مِنْ تَحْتِهَا^(٦) وَلَا عِلَاقَةٍ مِنْ فَوْقِهَا، تَخْبِسُهَا مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْكُمْ، وَأَنْتُمْ يَا أَيُّهَا الْعِبَادُ وَالْإِمَاءُ أَسْرَائِي وَفِي قَبْضِي، الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِكُمْ لَا مَنْجَى لَكُمْ مِنْهَا إِنْ هَرَبْتُمْ^(٧) وَالسَّمَاءُ مِنْ فَوْقِكُمْ، وَلَا مَحِيصَ لَكُمْ عَنْهَا إِنْ ذَهَبْتُمْ^(٨)، فَإِنْ شِئْتُ أَهْلَكْتُكُمْ بِهِدْهِ، وَإِنْ شِئْتُ أَهْلَكْتُكُمْ بِتِلْكَ، ثُمَّ مَا فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ

١. مرآة العقول، ج ١، ص ٢٣٥، ح ١.

٢. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، ص ٥٧٥، ح ٣٣٨؛ تفسير الصافي، ج ١، ص ٢٠٨.

٣. توعده: تهدده، راجع الطراز الأول.

٤. المارد: العاتي الشديد، وجمع المارد: مردة، راجع لسان العرب.

٥. العاتي: هو الجبار الذي جاوز الحد في الاستكبار، وجمعه عتاة، راجع المغرب ولسان العرب.

٦. في المصدر وتفسير الصافي مع زيادة: «تمنعها من السقوط».

٧. في المصدر وتفسير الصافي: «أين هربتم».

٨. في المصدر وتفسير الصافي: «أين ذهبتم».

الشَّمْسِ الْمُبِيرَةِ فِي نَهَارِكُمْ لِتَتَشَرُّوا فِي مَعَايِشِكُمْ، وَمِنَ الْقَمَرِ الْمُضِيِّ لَكُمْ فِي لَيْلِكُمْ لِتُنْصِرُوا فِي ظُلُمَاتِهِ، وَإِلْجَائِكُمْ بِالْأَسْتِرَاحَةِ بِالظُّلْمَةِ إِلَى تَرْكِ مُوَاصَلَةِ الْكَدِّ الَّذِي يَنْهَكُ^(١) أَبْدَانَكُمْ ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ الْمُتَتَابِعِينَ الْكَادِّينَ عَلَيْكُمْ بِالْعَجَائِبِ الَّتِي يُخْدِتُهَا رَبُّكُمْ فِي عَالَمِهِ مِنْ إِسْعَادٍ وَإِشْقَاءٍ، وَإِعْزَازٍ وَإِذْلَالٍ، وَإِغْنَاءٍ وَإِفْقَارٍ، وَصَيْفٍ وَشِتَاءٍ، وَخَرِيفٍ وَرَبِيعٍ، وَخَصْبٍ وَقَحْطٍ، وَخَوْفٍ وَأَمْنٍ. ﴿وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ مَطَايَاكُمْ^(٢) لَا تَهْدَأُ^(٣) لَيْلًا وَلَا نَهَارًا، وَلَا تَقْتَضِيكُمْ عِلْفًا وَلَا مَاءً، وَكَفَاكُمْ بِالرِّيَّاحِ مَوْوَنَةً تُسَيِّرُهَا بِقُوَّائِكُمْ الَّتِي كَانَتْ لَا تَقُومُ بِهَا لَوْ رَكَدَتْ عَنْهَا الرِّيَّاحُ لِتَمَامِ مَصَالِحِكُمْ وَمَنَافِعِكُمْ وَبُلُوغِ الْحَوَائِجِ لَأَنْفُسِكُمْ. ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ﴾ وَابِلًا وَهَطْلًا وَرَدَاذًا، لَا يُنْزَلُ عَلَيْكُمْ دَفْعَةً وَاحِدَةً فَيَغْرِقَكُمْ، وَيُهْلِكَ مَعَايِشَكُمْ، لَكِنَّهُ يُنْزَلُ مُتَفَرِّقًا مِنْ عَلَاءٍ حَتَّى يَغْمُ الْأَوْهَادُ^(٤) وَالتَّلَالُ^(٥) وَالتَّلَاعُ^(٦). ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فَيُخْرِجُ نَبَاتَهَا وَثِمَارَهَا وَحُبُوبَهَا. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ مِنْهَا مَا هُوَ لِأَكْلِكُمْ^(٧) وَمَعَايِشِكُمْ، وَمِنْهَا سِبَاعٌ ضَارِيَةٌ^(٨) حَافِظَةٌ عَلَيْكُمْ لِأَنْعَامِكُمْ، لِنَلَّا تَشْدُ^(٩) عَلَيْكُمْ خَوْفًا مِنْ افْتِرَاسِهَا^(١٠) لَهَا، ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ﴾ الْمُرَبِّيَةِ لِحُبُوبِكُمْ، الْمُبَلِّغَةِ لِثِمَارِكُمْ، النَّافِيَةِ لِرُكُودِ الْهَوَاءِ وَالْإِفْتَارِ عَنْكُمْ ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(١١) يَحْمِلُ أَمْطَارَهَا، وَيَجْرِي بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَصُبُّهَا مِنْ حَيْثُ يُؤْمَرُ ﴿لَايَاتٍ﴾ دَلَالٍ وَاضِحَاتٍ ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١٢) يَتَفَكَّرُونَ بِعُقُولِهِمْ أَنَّ مَنْ هَذِهِ الْعَجَائِبُ مِنْ آثَارِ قُدْرَتِهِ قَادِرٌ عَلَى نُصْرَةِ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ وَآلِهِمَا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ^(١٣).

١. النهك: التَنَقُّصُ: [وينهك أبدانكم أي يتعبها وينقص لحمها] راجع لسان العرب.

٢. المطية: الناقة التي يُرْكَبُ مَطَاها أي ظهرها، راجع لسان العرب.

٣. هَدَأَ: سَكَنَ، راجع لسان العرب.

٤. الوهدة: الأرض المنخفضة، راجع تاج العروس.

٥. في المصدر: «القلاع».

٦. التلاع جمع للتلعة: ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها، من الأضداد. ولعل المراد في الخبر المعني الثاني. (هامش المطبوع)

٧. في تفسير الصافي: «ما هو لأهلكم».

٨. السباع الضارية أي المولعة بالافتراس المعتادة له، راجع أساس البلاغة.

٩. في المصدر: «لنلا تشد».

١٠. فرس الذئب الشاة وافترسها: إذا قتلها، راجع لسان العرب.

١١. في المصدر: «والسحاب الواقف المسخر المذل بين السماء والأرض».

١٢. البقرة/١٦٤.

١٣. في المصدر: «على مَنْ تَأَذَّاهما وجعل العاقبة الحميدة لمن يُؤَالِيه، فَإِنَّ الْمَجَازَاةَ لَيْسَتْ عَلَى الدُّنْيَا وَإِنَّمَا هِيَ الْآخِرَةُ الَّتِي يَدُومُ نَعِيمُهَا وَلَا يَبِيدُ عَذَابُهَا».

بيان:

«الكادّين»: من الكدّ بمعنى الشدّة والإلحاح في الطلب، كناية عن عدم تخلّفهما، و«الباء» في قوله ﷺ: «بالعجائب» بمعنى «مع». وقوله ﷺ: «والأقتار» كأنّه جمع القترّة بمعنى الغبرة، أي يذهب الأغبرة والأبخرة المجتمعة في الهواء الموجبة لكثافتها وتعفّنها. والضمير في قوله ﷺ: «أمطارها» إمّا راجع إلى الأرض، أو إلى السحاب للجمعية.

١٢٠٦. جامع الأخبار^(١): سئل أمير المؤمنين «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ» عَنْ إِثْبَاتِ الصَّانِعِ، فَقَالَ: الْبُعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ، وَالرَّوْتَةُ تَدُلُّ عَلَى الْحَمِيرِ، وَأَثَارُ الْقَدَمِ تَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ، فَهَيْكَلُ عُلُوِّيْ بِهَذِهِ اللَّطَافَةِ، وَمَرْكَزُ سُفْلِيْ بِهَذِهِ الْكَثَافَةِ، كَيْفَ لَا يَدُلَّانِ عَلَى اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ؟

١٢٠٧. وَقَالَ ﷺ^(٢): بِصُنْعِ اللَّهِ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ، وَبِالْعُقُولِ تُعْتَقَدُ مَعْرِفَتُهُ، وَبِالتَّفَكُّرِ^(٣) تَثْبُتُ حُجَّتُهُ، مَعْرُوفٌ بِالذَّلَالَاتِ، مَشْهُورٌ بِالْبَيِّنَاتِ^(٤).

١٢٠٨. جامع الأخبار^(٥): سئل أمير المؤمنين «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ»: مَا الدَّلِيلُ عَلَى إِثْبَاتِ الصَّانِعِ؟ قَالَ: ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ: تَحْوِيلُ الْحَالِ، وَضَعْفُ الْأَرْكَانِ، وَتَقْضُ الْهِمَّةِ.

أقول:

سيأتي ما يناسب هذا الباب في أبواب الاحتجاجات، وأبواب المواعظ والخطب والحكم إن شاء الله تعالى، ولنذكر بعد ذلك توحيد المفضل بن عمر، ورسالة الإهليلجة المرويّتين عن الصادق ﷺ لاشتغالهما على دلائل وبراهين على إثبات الصانع تعالى، ولا يضرّ إرسالهما لاشتغالهما إلى المفضل، وقد شهد بذلك السيّد بن طاووس^(٦) وغيره^(٧). ولا ضعف محمّد بن سنان والمفضل لأنّه في محلّ المنع، بل يظهر من الأخبار الكثيرة علوّ قدرهما وجلالتهما، مع أنّ متن الخبرين

١. جامع الأخبار (للشعيري)، ص ٤؛ وقد ورد في روضة الواعظين، ج ١، ص ٣١، مع اختلاف يسير.

٢. جامع الأخبار (للشعيري)، ص ٤؛ وقد ورد في التوحيد (للصدوق)، ص ٣٥، ضمن ح ٢، عن أبي الحسن الرضا ﷺ؛ روضة الواعظين، ج ١، ص ٢٠.

٣. في التوحيد: «بالفطرة».

٤. لم يرد في التوحيد: «معروف بالذلالات، مشهور بالبيّنات».

٥. جامع الأخبار (للشعيري)، ص ٦؛ نوادر الأخبار (للفيض)، ص ٦٦، ح ٥.

٦. راجع كشف المحجة لثمرة المهجة، ص ٥٠.

٧. راجع رجال النجاشي، رقم ١١١٢.

شاهدا صدق على صحتهما^(١) وأيضاً هما يشتملان على براهين لا تتوقف إفادتها العلم على صحة الخبر^(٢).

١. أما متن الخبر الأول المشتهر بتوحيد المفضل فهو مطابق لجُلّ الأخبار المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام المطابقة لمعارف الكتاب العزيز وما يشتمل عليه من الأدلة براهين تامة لا غبار عليها. وأما خبر الإهليلجة فمحصل ما فيه إثبات حجية حكم العقل وعدم كفاية الحواس في الأحكام، وإثبات وجود الصانع من طريق السببية، وإثبات وحدته من طريق اتصال التدبير، وهذا لا شك فيه من جهة العقل ولا من جهة مطابقته لسائر النقل، غير أنه مشتمل على تفاصيل لا شاهد عليها من النقل والعقل بل الأمر بالعكس، كاشتماله على كون علوم الهيئة وأحكام النجوم مستندا إلى الوحي، وكذا كون علم الطبّ والقرايين مستندين إلى الوحي، مستنداً بأن إنساناً واحداً لا يقدر على هذا التتبع العظيم والتجارب الواسع، مع أن ذلك مستند إلى أرواح كثيرة ومحاسبات علمية وتجارب ممتدة من أُمم مختلفة في أعصار وقرون طويلة تراكت حتى تكوّنت في صورة، فمن أنتجه مجموع تلك المجاهدات العظيمة، والدليل عليه أن النهضة الأخيرة سبكت علمي الهيئة والطبّ في قالب جديد أوسع من قالبهما القديم بما لا يقدر من الوسعة، ولا مستند له إلا الإرصاء والتجارب والمحاسبات العلمية، وكذا ما هو مثلهما في الوسعة كالكيمياء والطبيعات وعلم النبات والحيوان وغير ذلك، نعم من الممكن استناد أصلهما إلى الوحي وبيان النبي صلى الله عليه وآله.

ومما يشتمل عليه الخبر كون البحار باقية على حال واحدة دائماً من غير زيادة ونقص مع أن التغيرات الكلية فيها ممّا هو اليوم من الواضحات. على أن الكتاب والسنة يساعده أيضاً.

والذي أظنه - والله أعلم - أن أصل الخبر ممّا صدر عنه عليه السلام، لكنه لم يخل عن تصرف المتصرفين فزادوا ونقصوا بما أخرجه عن استقامته الأصلية، ويشهد على ذلك النسخ المختلفة العجيبة التي سينقلها المصنّف «رحمه الله» فإن النسخ يمكن أن تختلف بالكلمة والكلمتين والجملة والجمليتين لسهو من الراوي في ضبطه، أو من الكاتب في استنساخه، وأما بنحو الورقة والورقتين وخمسين سطراً ومائة سطر فمن المستبعد جداً، إلا أن يستند إلى تصرف عمدي، ومما يشهد على ذلك أيضاً الاندماج وعسر البيان الذي يشاهد في أوائل الخبر وأواسطه، والله أعلم. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

٢. **نقول:** ولنعم ما قال العلامة المجلسي «رحمه الله» هنا، وقد ذكرنا في مباحث حجية خبر الواحد أن المدار فيها على الوثوق بالرواية وقد يحصل ذلك من علو المضمون والمتمن.

﴿باب ٤﴾

«الخبر المشتهر بتوحيد المفضل بن عمر^(١)»

١٢٠٩. رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانٍ: قَالَ حَدَّثَنَا الْمُفَضَّلُ بْنُ عُمَرَ قَالَ: كُنْتُ ذَاتَ يَوْمٍ بَعْدَ الْعَصْرِ جَالِسًا فِي الرَّوْضَةِ بَيْنَ الْقَبْرِ وَالْمِنْبَرِ، وَأَنَا مُفَكِّرٌ فِيمَا خَصَّ اللَّهُ بِهِ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا ﷺ مِنَ الشَّرَفِ وَالْفَضَائِلِ، وَمَا مَنَحَهُ وَأَعْطَاهُ وَشَرَّفَهُ بِهِ، وَحَبَاهُ^(٢) مِمَّا لَا يَعْرِفُهُ الْجُمْهُورُ مِنَ الْأُمَّةِ، وَمَا جَهَلُوهُ مِنْ فَضْلِهِ وَعَظِيمِ مَنَزَلَتِهِ وَخَطَرِ^(٣) مَرْتَبَتِهِ، فَأَنِّي لَكَذَلِكَ إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ أَبِي الْعَوَّجَاءِ فَجَلَسَ بِحَيْثُ أَسْمَعُ كَلَامَهُ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَجْلِسُ إِذَا رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ قَدْ جَاءَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ، فَتَكَلَّمَ ابْنُ أَبِي الْعَوَّجَاءِ فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ صَاحِبُ هَذَا الْقَبْرِ الْعِزَّ بِكَمَالِهِ، وَحَازَ الشَّرَفَ بِجَمِيعِ خِصَالِهِ، وَنَالَ الْحُظُوءَةَ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنَّهُ كَانَ فَيَلْسُوفًا ادَّعَى الْمَرْتَبَةَ الْعُظْمَى وَالْمَنْزِلَةَ الْكُبْرَى، وَأَتَى عَلَى ذَلِكَ بِمُعْجَزَاتٍ بَهَرَتْ^(٤) الْعُقُولَ، وَضَلَّتْ فِيهَا الْأَحْلَامُ، وَغَاصَتْ الْأَلْبَابُ عَلَى طَلَبِ عِلْمِهَا فِي بَحَارِ الْفِكْرِ، فَوَجَعَتْ خَاسِمَاتٌ وَهِيَ حَسِيرٌ^(٥)، فَلَمَّا اسْتَجَابَ لِدَعْوَتِهِ الْعُقَلَاءُ وَالْفُصَحَاءُ وَالْخُطَبَاءُ دَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِهِ أَفْوَاجًا، فَقَرَنَ اسْمُهُ بِاسْمِ نَامُوسِهِ، فَصَارَ يَهْتَفُ بِهِ^(٦)

١. هذه الرواية في بدء الخلق والحث على الاعتبار، قد رواها المفضل بن عمر الجعفي وقد ذكرها النجاشي في الفهرست وأقا بزرك الطهراني في الذريعة، وقد طبعت بعنوانين مختلفة منها: «التوحيد والأدلة والتنديير» في دار السعادة - استانبول، وفي الآستانة سنة ١٣٣٠ بعنوان «التوحيد للإمام جعفر الصادق عليه السلام»، وأيضاً في بيروت والنجف والهند.

والنسخة التي اعتمدناها من منشورات مكتبة العلامة المجلسي رحمه الله بقم المقدسة؛ وقد قولت النسخة المعتمدة على نسخ مختلفة، نشير إليها في الهامش بعنوان المصدر.

٢. حباه: أعطاه، راجع الصحاح.

٣. الخطر: ارتفاع القدر والشرف والمنزلة، راجع لسان العرب.

٤. بهره: قهره وعلاه وغلبه، راجع لسان العرب.

٥. حسر يحسر، فهو حسير: إذا اشتدت ندامته على أمر فاته، راجع لسان العرب.

٦. هتف به: صاح به، راجع لسان العرب.

عَلَى رُؤُوسِ الصَّوَامِعِ فِي جَمِيعِ الْبُلْدَانِ وَالْمَوَاضِعِ الَّتِي انْتَهَتْ إِلَيْهَا دَعْوَتُهُ، وَعَلَتْ بِهَا^(١) كَلِمَتُهُ، وَظَهَرَتْ فِيهَا حُجَّتُهُ بَرًّا وَبَحْرًا وَسَهْلًا وَجَبَلًا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسُ مَرَّاتٍ، مُرَدِّدًا فِي الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ لِيَتَجَدَّدَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ ذِكْرُهُ، لِنَلَّا يُحْمَلَ أَمْرُهُ، فَقَالَ ابْنُ أَبِي الْعَوَّاجِ: دَعِ ذِكْرَ مُحَمَّدٍ، فَقَدْ تَحَيَّرَ فِيهِ عَقْلِي، وَضَلَّ فِي أَمْرِهِ فِكْرِي، وَحَدَّثْنَا فِي ذِكْرِ الْأَصْلِ الَّذِي يَمْشِي بِهِ^(٢). ثُمَّ ذَكَرَ ابْتِدَاءَ الْأَشْيَاءِ، وَزَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ بِإِهْمَالٍ لَا صَنْعَةَ فِيهِ وَلَا تَقْدِيرَ، وَلَا صَانِعَ لَهُ وَلَا مُدَبِّرَ، بَلِ الْأَشْيَاءُ تَتَكَوَّنُ مِنْ ذَاتِهَا بِلَا مُدَبِّرٍ، وَعَلَى هَذَا كَانَتِ الدُّنْيَا لَمْ تَزَلْ وَلَا تَزَالُ.

بيان:

«الحوز»: الجمع وكل من ضم إلى نفسه شيئاً فقد حازه. و«الخطوة» بالضم والكسر والحاء المهملة والظاء المعجمة: المكانة والمنزلة. و«الفيلسوف»: العالم. وخساء البصر أي كل. و«الناموس»: صاحب السرّ المطّلع على باطن أمرك، أو صاحب سرّ الخير، وجبرئيل عليه السلام، والحاذاق، ومن يلفظ مدخله، ذكرها الفيروزآبادي، ومراده هنا الربّ تعالى شأنه. وخمل ذكره: خفي، والخامل: الساقط الذي لانباهة له. وقوله: «الذي يمشي به» أي يذهب إلى دين محمد ﷺ وغيره بسببه، أو يهتدي به كقوله تعالى: ﴿نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾^(٣)، وفي بعض النسخ «يسمى» إمّا بالتشديد، أي يذكر اسمه، أو بالتخفيف أي يرتفع الناس به ويدعون الانتساب إليه. قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَلَمْ أَمْلِكْ نَفْسِي غَضَبًا وَغَيْظًا وَحَقًّا^(٤)، فَقُلْتُ: يَا عَدُوَّ اللَّهِ أَلْحَدْتَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَأَنْكَرْتَ الْبَارِيَّ جَلَّ قُدْسُهُ الَّذِي خَلَقَكَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَصَوَّرَكَ فِي أَتْمِّ صُورَةٍ، وَتَقَلَّكَ فِي أَحْوَالِكَ حَتَّى بَلَغَ بِكَ إِلَى حَيْثُ انْتَهَيْتَ، فَلَوْ تَفَكَّرْتَ فِي نَفْسِكَ وَصَدَقَكَ لَطِيفُ حِسِّكَ^(٥) لَوَجَدْتَ دَلَائِلَ الرُّبُوبِيَّةِ وَأَثَارَ الصَّنْعَةِ فِيكَ قَائِمَةً، وَشَوَاهِدَهُ - جَلَّ وَتَقَدَّسَ - فِي خَلْقِكَ وَاضِحَةً، وَبَرَاهِينَهُ لَكَ لَاحِظَةً، فَقَالَ: يَا هَذَا إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ كَلَّمْنَاكَ، فَإِنْ ثَبَتَ لَكَ حُجَّةٌ تَبِغْنَاكَ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْهُمْ فَلَا كَلَامَ لَكَ، وَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَصْحَابِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ فَمَا هَكَذَا يُخَاطِبُنَا، وَلَا بِمِثْلِ دَلِيلِكَ يُجَادِلُنَا، وَلَقَدْ سَمِعَ مِنْ كَلَامِنَا أَكْثَرَ مِمَّا سَمِعْتَ، فَمَا أَفْحَشَ فِي خِطَابِنَا، وَلَا تَعَدَّى فِي جَوَابِنَا، وَإِنَّهُ لِلْحَلِيمِ الرَّزِينِ الْعَاقِلِ الرَّصِينِ، لَا يَغْتَرِبُهُ خُرْقٌ وَلَا طَيْشٌ وَلَا نَزَقٌ، وَيَسْمَعُ كَلَامَنَا، وَيُصْغِي إِلَيْنَا، وَيَسْتَعْرِفُ^(٦) حُجَّتَنَا حَتَّى اسْتَفْرَغْنَا مَا عِنْدَنَا، وَظَنَّنَا أَنَّا قَدْ قَطَعْنَاهُ أَذْخَصَ^(٧) حُجَّتَنَا بِكَلَامٍ يَسِيرٍ وَخِطَابٍ قَصِيرٍ يُلْزِمُنَا بِهِ الْحُجَّةَ، وَيَقْطَعُ الْعُدْرَ، وَلَا نَسْتَطِيعُ لِحُجَابِهِ رَدًّا، فَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَصْحَابِهِ فَخَاطِبُنَا بِمِثْلِ خِطَابِهِ.

١. في هامش المصدر ذكر من نسخة: وعلتها.

٢. في هامش المصدر ذكر من نسخة: «نمشي له»، وفي نسخة أخرى: يسمي به.

٣. الأنعام/١٢٢.

٤. الحنق: الغيظ، راجع لسان العرب.

٥. وفي نسخة: جسيمك. (هامش المصدر)

٦. وفي نسخة: ويتعرف، وفي نسخة أخرى: ويستفرغ. (هامش المصدر)

٧. في المصدر: «دحض».

بيان:

«وصدقك» بالتخفيف أي قال لك صدقاً. «لطيف حسك» أي حسك اللطيف أي لم يلتبس على حسك غرائب صنع الله فيك لمعاندتك للحق، وفي بعض النسخ «حسنك» فالمراد بصدق الحسن ظهور ما أخفى الله فيه منه على الناظر، وعلى الوجهين يمكن أن يقرأ صدقك بالتشديد، بتكلف لا يخفى على المتأمل. و«الرزين»: الوقور. و«الرصين» بالصاد المهملة: المحكم الثابت. و«الخرق» بالضم: ضد الرفق. و«النزق»: الطيش والخفة عند الغضب. وقوله: «استفرغنا» لعله من الإفراغ بمعنى الصب، قال الفيروزآبادي: استفرغ مجهوده: بذل طاقته، والإدحاض: الإبطال.

قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَخَرَجْتُ مِنَ الْمَسْجِدِ، مَحْزُونًا مُفَكِّرًا، فِيمَا بُلِيَ بِهِ الْإِسْلَامُ وَأَهْلُهُ مِنْ كُفْرِ هَذِهِ الْعِصَابَةِ^(١) وَتَعْطِيلِهَا^(٢)، فَدَخَلْتُ عَلَى مَوْلَايَ «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ»، فَرَأَيْتُ مُنْكَسِرًا، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا لَكَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا سَمِعْتُ مِنَ الدَّهْرِيِّينَ^(٣)، وَبِمَا رَدَدْتُ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ: لَا تُقَيِّنَنَّ إِلَيْكَ^(٤) مِنْ حِكْمَةِ الْبَارِي - جَلَّ وَعَلَا وَتَقَدَّسَ اسْمُهُ - فِي خَلْقِ الْعَالَمِ وَالسَّبَاعِ وَالْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ وَالْهَوَامِّ، وَكُلِّ ذِي رُوحٍ مِنَ الْأَنْعَامِ، وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرَةِ الْمُثْمِرَةِ وَغَيْرِ ذَاتِ الثَّمَرِ وَالْحُبُوبِ وَالْبُقُولِ، الْمَأْكُولِ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِ الْمَأْكُولِ مَا يَعْتَبِرُ بِهِ الْمُعْتَبِرُونَ، وَيَسْكُنُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ الْمُؤْمِنُونَ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ الْمُلْحِدُونَ، فَبَكَرُ عَلَيَّ^(٥) غَدًا.

قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَأَنْصَرَفْتُ مِنْ عِنْدِهِ فَرَحًا مَسْرُورًا، وَطَلَّتْ عَلَيَّ تِلْكَ اللَّيْلَةُ أَنْتَظَارًا لِمَا وَعَدَنِي بِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ فَاسْتَوْدَنْتُ لِي، فَدَخَلْتُ وَقُمْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَمَرَنِي بِالْجُلُوسِ فَجَلَسْتُ، ثُمَّ نَهَضَ إِلَى حُجْرَةٍ كَانَ يَخْلُو فِيهَا، فَهَضُّتُ بِنُحُوضِهِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اتَّبِعْنِي فَتَبِعْتُهُ فَدَخَلَ وَدَخَلْتُ خَلْفَهُ، فَجَلَسَ وَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا مُفَضَّلُ كَانِي بِكَ وَقَدْ طَلَّتْ عَلَيْكَ هَذِهِ اللَّيْلَةُ أَنْتَظَارًا لِمَا وَعَدْتُكَ؟ فَقُلْتُ: أَجَلُ يَا مَوْلَايَ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا مُفَضَّلُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ وَلَا شَيْءَ قَبْلَهُ، وَهُوَ بَاقٍ وَلَا نِهَايَةَ لَهُ، فَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَلْهَمَنَا، وَلَهُ الشُّكْرُ عَلَى مَا مَنَحَنَا، وَقَدْ خَصَّنَا مِنَ الْعُلُومِ بِأَعْلَاهَا، وَمِنَ الْمَعَالِي^(٦) بِأَسْنَاهَا، وَاصْطَفَانَا عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ بِعِلْمِهِ، وَجَعَلَنَا مُهَيِّمِينَ عَلَيْهِمْ بِحِكْمِهِ، فَقُلْتُ: يَا مَوْلَايَ أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أَكْتُبَ مَا تَشْرَحُهُ؟ - وَكُنْتُ أَعْدَدْتُ مَعِيَ مَا أَكْتُبُ فِيهِ - فَقَالَ لِي: افْعَلْ.

١. العصابة: الجماعة من الناس، راجع الصحاح.

٢. المعطلون: هم الذين لا يشبتون الصانع عز وجل، راجع شمس العلوم.

٣. الدهري: الملحد والدهرية قوم يقولون لا رب ولا جنّة ولا نار؛ راجع مجمع البحرين.

٤. وفي نسخة: عليك. (هامش المصدر)

٥. بكر: أناه بكرة (وهي أول النهار إلى طلوع الشمس)، راجع لسان العرب والإفصاح.

٦. وفي بعض النسخ: المعاني. (هامش المصدر)

بيان:

«أسناها» أي أرفعها، أو أضوأها. والمهيمن: الأمين والمؤتمن والشاهد.

يَا مُفْصِّلُ: إِنَّ الشُّكَّاكَ جَهْلُوا الْأَسْبَابَ وَالْمَعَانِي فِي الْخَلْقَةِ، وَقَصُرَتْ أَفْهَامُهُمْ عَنْ تَأَمُّلِ الصَّوَابِ وَالْحِكْمَةِ، فِيمَا ذَرَأَ^(١) الْبَارِي جَلَّ قُدْسُهُ وَبَرَأ^(٢) مِنْ صُنُوفِ خَلْقِهِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَالسَّهْلِ وَالْوَعْرِ^(٣) فَخَرَجُوا بِقَصْرِ عُلُومِهِمْ إِلَى الْجُحُودِ، وَبِضَعْفِ بَصَائِرِهِمْ إِلَى التَّكْذِيبِ وَالْعُتُودِ، حَتَّى أَنْكَرُوا خَلْقَ الْأَشْيَاءِ، وَادَّعَوْا أَنَّ كَوْنَهَا^(٤) بِالْإِهْمَالِ لَا صَنْعَةَ فِيهَا وَلَا تَقْدِيرَ، وَلَا حِكْمَةَ مِنْ مُدَبِّرٍ وَلَا صَانِعٍ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَصِفُونَ، وَقَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْتَى يُؤْفَكُونَ. فَهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ وَعَمَاهُمْ وَتَحِيرِهِمْ^(٥) بِمَنْزِلَةِ عُثْمَانَ دَخَلُوا دَاراً قَدْ بُيِّنَتْ أَتَقَنَ بِنَاءٍ وَأَحْسَنَهُ، وَفُرِشَتْ بِأَحْسَنِ الْفُرُشِ وَأَفْرَحَهُ، وَأُعِدَّ فِيهَا ضُرُوبُ الْأَطْعِمَةِ وَالْأَشْرِبَةِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَارِبِ^(٦) الَّتِي يُحْتَاجُ إِلَيْهَا لَا يُسْتَغْنَى عَنْهَا، وَوُضِعَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مَوْضِعَهُ عَلَى صَوَابٍ مِنَ التَّقْدِيرِ، وَحِكْمَةٍ مِنَ التَّذْيِيرِ، فَجَعَلُوا يَتَرَدَّدُونَ فِيهَا يَمِيناً وَشِمَالاً، وَيَطُوفُونَ بُيُوتَهَا إِذْ بَارِئاً وَإِقْبَالاً، مَخْجُوبَةً أَبْصَارُهُمْ عَنْهَا، لَا يُبْصِرُونَ بُنْيَةَ الدَّارِ^(٧) وَمَا أُعِدَّ فِيهَا، وَرُبَّمَا عَثَرَ بَعْضُهُمْ بِالشَّيْءِ الَّذِي قَدْ وُضِعَ مَوْضِعُهُ، وَأُعِدَّ لِلْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَهُوَ جَاهِلٌ بِالْمَعْنَى فِيهِ وَلِمَا أُعِدَّ وَ لِمَاذَا جُعِلَ كَذَلِكَ فَتَذَمَّرَ وَتَسَخَّطَ وَذَمَّ الدَّارَ وَبَانِيَهَا، فَهَذِهِ حَالُ هَذَا الصَّنِفِ فِي انْكَارِهِمْ مَا أَنْكَرُوا مِنْ أَمْرِ الْخَلْقَةِ وَثَبَاتِ الصَّنْعَةِ^(٨)، فَإِنَّهُمْ لَمَّا غَرَبَتْ^(٩) أَذْهَانُهُمْ عَنْ مَعْرِفَةِ الْأَسْبَابِ وَالْعِلَلِ فِي الْأَشْيَاءِ صَارُوا يَجُولُونَ^(١٠) فِي هَذَا الْعَالَمِ حَيَارَى^(١١)، وَلَا يَفْهَمُونَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ إِثْقَانِ خَلْقَتِهِ، وَحُسْنِ صَنْعَتِهِ، وَصَوَابِ تَهْيِئَتِهِ^(١٢)، وَرُبَّمَا وَقَفَ بَعْضُهُمْ عَلَى الشَّيْءِ لِجَهْلِ سَبَبِهِ^(١٣) وَالْإِزْبِ فِيهِ، فَيُسْرِعُ إِلَى ذَمِّهِ

١. ذَرَأَ اللَّهُ الخلق: خلقهم، راجع لسان العرب.

٢. برأ الله الخلق: خلقهم، راجع لسان العرب.

٣. الوعر: المكان الصُّلْب، راجع لسان العرب.

٤. في المصدر: «أَنَّ تَكُونَهَا».

٥. وفي نسخة: في ضلالهم وغييبهم وتجييرهم. (هامش المصدر)

٦. المأربة بفتح الراء وضمها: الحاجة، والجمع المأرب، راجع المصباح المنير.

٧. وفي نسخة: هيئة الدار. (هامش المصدر)

٨. وفي نسخة: إثبات الصنعة. (هامش المصدر)

٩. في المصدر: «عزبت»، وفيه ذكر من نسخة: «غيبت»، وفي نسخة أخرى: «وعرت».

١٠. جال في البلاد: طاف، راجع المصباح المنير.

١١. الحيران: المتحير، وجمع حيران: حيارى، راجع شمس العلوم.

١٢. وفي نسخة: هيئته. (هامش المصدر)

١٣. في المصدر: «يجهل سببه».

وَوَصَفِهِ^(١) بِالْإِحَالَةِ وَالْخَطِ، كَالَّذِي أَقْدَمَتْ عَلَيْهِ الْمَانَوِيَّةُ^(٢) الْكُفْرَةَ، وَجَاهَرَتْ بِهِ الْمُلْحِدَةُ الْمَارِقَةُ الْفَجَرَةُ، وَأَشْبَاهُهُمْ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ، الْمُعَلِّلِينَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمُحَالِ، فَيَحِقُّ عَلَى مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِمَعْرِفَتِهِ وَهَدَاهُ لِدِينِهِ، وَوَقَّعَهُ لِتَأْمُلِ التَّدْبِيرِ فِي صَنْعَةِ الْخَلَائِقِ، وَالْوُقُوفِ عَلَى مَا خُلِقُوا لَهُ مِنْ لَطِيفِ التَّدْبِيرِ، وَصَوَابِ التَّعْيِيرِ^(٣) بِالِدَّلَالَةِ الْقَائِمَةِ الدَّالَّةِ عَلَى صَانِعِهَا، أَنْ يُكْثَرَ حَنْدَ اللَّهِ مَوْلَاهُ عَلَى ذَلِكَ، وَيَرْغَبَ إِلَيْهِ فِي الثَّبَاتِ^(٤) عَلَيْهِ وَالزِّيَادَةَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ يَقُولُ: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(٥).

بيان:

«قاتلهم الله» أي قتلهم، أو لعنهم. «أني يؤفكون» كيف يصرفون عن الحق؟ وقال الجوهري: ظلّ يتدمر على فلان إذا تنكّر له وأوعده. انتهى. و«غربت» بمعنى غابت. و«الإرب» بالفتح والكسر: الحاجة. «ووصفه بالإحالة» أي بأنه يستحيل أن يكون له خالق مدبر، أو يستحيل أن يكون من فعله تعالى. و«المانوية»: فرقة من الثنوية، أصحاب ماني الذي ظهر في زمان سابور بن أردشير، وأحدث ديناً بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة المسيح «على نبينا وآله وعليه السلام» ولا يقول بنبوة موسى «على نبينا وآله وعليه السلام»، وزعم أن العالم مصنوع مركّب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة، وهؤلاء ينسبون الخيرات إلى النور، والشّرور إلى الظلمة، وينسبون خلق السباع والموزيات والعقارب والحيات إلى الظلمة، فأشاروا إلى فساد وهمهم بأنّ هذا لجهلهم بمصالح هذه السباع والعقارب والحيات التي يزعمون أنّها من الشرور التي لا يليق بالحكيم خلقها. قوله «المعللين»: أي الشاغلين أنفسهم عن طاعة ربّهم بأمر يحكم العقل السليم باستحالته، قال الفيروزآبادي: علّله بطعام وغيره تعليلاً: شغله به.

يَا مُفَضِّلُ: أَوَّلُ الْعِبَرِ وَالْأَدِلَّةِ عَلَى الْبَارِي جَلَّ قُدْسُهُ، تَهَيَّئْ هَذَا الْعَالَمَ وَتَأَلِّفْ أَجْزَائِهِ وَنَظِّمِهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، فَإِنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ الْعَالَمَ بِفِكَرِكَ وَمَيَّزْتَهُ بِعَقْلِكَ^(٦) وَجَدْتَهُ كَأَلْبَيْتِ الْمُبْنِيِّ الْمَعْدِّ فِيهِ جَمِيعُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ عِبَادُهُ، فَالسَّمَاءُ مَرْفُوعَةٌ كَالسَّقْفِ، وَالْأَرْضُ مَمْدُودَةٌ كَالْبَسَاطِ، وَالتَّجُومُ مَنُضُودَةٌ^(٧) كَالْمَصَابِيحِ، وَالْجَوَاهِرُ مَخْزُونَةٌ كَالذَّخَائِرِ، وَكُلُّ

١. في المصدر: «إلى ذمّه وعيبه ووصفه».

٢. في المصدر: «المانوية».

٣. وفي نسخة: وصواب التقدير. (هامش المصدر)

٤. وفي نسخة: في الثناء. (هامش المصدر)

٥. إبراهيم/٧.

٦. في المصدر: «وخبيرته بعقلك».

٧. وفي نسخة: مضيئة، وفي نسخة أخرى: مضوءة. (هامش المصدر)

شَيْءٍ فِيهَا لِشَأْنِهِ مُعَدُّ، وَالْإِنْسَانُ كَالْمَمْلُوكِ^(١) ذَلِكَ الْبَيْتُ، وَالْمُخَوَّلُ^(٢) جَمِيعَ مَا فِيهِ، وَضُرُوبُ النَّبَاتِ مُهَيَّأَةٌ لِمَآرِبِهِ، وَصُنُوفُ الْحَيَوَانِ مَصْرُوفَةٌ فِي مَصَالِحِهِ وَمَنَافِعِهِ، فَفِي هَذَا دَلَالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ مَخْلُوقٌ بِتَقْدِيرٍ وَحِكْمَةٍ، وَنِظَامٍ وَمُلَاطَمَةٍ، وَأَنَّ الْخَالِقَ لَهُ وَاحِدٌ وَهُوَ الَّذِي أَلْفَهُ وَنَظَّمَهُ بَعْضًا إِلَى بَعْضٍ، جَلَّ قُدْسُهُ، وَتَعَالَى جَدُّهُ، وَكَرَّمَ وَجْهُهُ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ، تَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الْجَا حِدُونَ، وَجَلَّ وَعَظَّمَ عَمَّا يَنْتَحِلُهُ الْمُجْحِدُونَ^(٣).

بيان:

قال الفيروز آبادي: نضد متاعه ينضده: جعل بعضه فوق بعض فهو منضود. انتهى. والتخويل: الإعطاء والتملك. قوله عليه السلام «وَأَنَّ الْخَالِقَ لَهُ وَاحِدٌ» أقول: أشار عليه السلام بذلك إلى أقوى براهين التوحيد^(٤) وهو أَنَّ إيتلاف أجزاء العالم واحتياج بعضها إلى بعض وانتظام بعضها ببعض يدل على وحدة مدبرها، كما أَنَّ ارتباط أجزاء الشخص ببعضها وبعض أعضائه مع بعض يدل على وحدة مدبره؛ وقد قيل في تطبيق العالم الكبير على العالم الصغير لطائف لا يسع المقام ذكرها، وربما يستدل عليه أيضاً بما قد تقرر من أَنَّ المتلازمين إما أن يكون أحدهما علّة للآخر، أو هما معلولان لعلّة ثالثة، وسيأتي الكلام فيه في باب التوحيد.

نَبْدِي يَا مُفَضَّلُ بِذِكْرِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ فَاعْتَبِرْ بِهِ، فَأَوَّلُ ذَلِكَ مَا يُدَبِّرُ بِهِ الْجَنِينَ فِي الرَّحِمِ، وَهُوَ مَحْجُوبٌ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ: ظُلْمَةِ الْبَطْنِ، وَظُلْمَةِ الرَّحِمِ، وَظُلْمَةِ الْمَشِيمَةِ، حَيْثُ لَا حِيلَةَ عِنْدَهُ فِي طَلَبِ غِذَاءٍ وَلَا دَفْعِ أَدَى، وَلَا اسْتِجْلَابِ مَنَفَعَةٍ وَلَا دَفْعِ مَضَرَّةٍ، فَإِنَّهُ يَجْرِي إِلَيْهِ مِنْ دَمِ الْحَيْضِ مَا يَغْذُوهُ كَمَا يَغْذُو الْمَاءُ النَّبَاتَ^(٥)، فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ غِذَاؤُهُ حَتَّى إِذَا كَمَلَ خَلْقُهُ وَاسْتَحْكَمَ بَدَنُهُ، وَقَوِيَ أَدِيمُهُ عَلَى مُبَاشَرَةِ الْهَوَاءِ، وَبَصَرُهُ عَلَى مُلَاقَاةِ الضِّيَاءِ، هَاجَ الطَّلَقُ بِأُمِّهِ فَأَزَعَجَهُ أَشَدَّ إِزْعَاجٍ، وَأَعْنَفَهُ حَتَّى يُوَلَدَ، وَإِذَا وَلَدَ صَرَفَ ذَلِكَ الدَّمُ الَّذِي كَانَ يَغْذُوهُ مِنْ دَمِ أُمِّهِ إِلَى ثَدْيَيْهَا، فَانْقَلَبَ الطَّعْمُ وَاللَّوْنُ إِلَى ضَرْبٍ آخَرَ مِنَ الْغِذَاءِ، وَهُوَ أَشَدُّ مُوَافَقَةً لِلْمَوْلُودِ مِنَ الدَّمِ، فَيُؤَافِيهِ فِي وَقْتِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ، فَحِينَ يُوَلَدُ قَدْ تَلَمَّظَ وَحَرَكَ شَفَقَتَيْهِ طَلَباً لِلرَّضَاعِ، فَهُوَ يَجِدُ ثَدْيِي أُمِّهِ كَالْأَدَاوَتَيْنِ الْمُعْلَقَتَيْنِ لِحَاجَتِهِ إِلَيْهِ، فَلَا يَزَالُ يَغْنَذِي بِاللَّبَنِ مَا دَامَ رَطْبُ الْبَدَنِ، رَقِيقَ الْأُمْعَاءِ، لَيِّنَ الْأَعْضَاءِ، حَتَّى إِذَا تَحَرَّكَ وَاحْتَاجَ إِلَى غِذَاءٍ فِيهِ صَلَابَةٌ لِيُسْتَدَّ وَيَقْوِيَ بَدَنُهُ طَلَعَتْ لَهُ الطَّوَاحِنُ مِنَ الْأَسْنَانِ وَالْأَضْرَاسِ، لِيَمَضَّغَ بِهِ الطَّعَامَ فَيَلِينَ عَلَيْهِ، وَيَسْهَلَ لَهُ إِسَاعَتُهُ^(٦). فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُدْرِكَ، فَإِذَا أَدْرَكَ

١. وفي نسخة: كالملك. (هامش المصدر)

٢. وفي نسخة: المخوّل. (هامش المصدر)

٣. وفي نسخة مع زيادة: «كَذَلِكَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا، فَفِي كُلِّ شَيْءٍ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ». (هامش المصدر)

٤. الذي وصف عليه السلام به هذا الدليل هو أَنَّهُ أَوَّلُ الْأَدَلَّةِ، أَيْ أَقْرَبُ الْأَدَلَّةِ مِمَّا إِذَا أَرَدْنَا التَّفَهُّمَ بِالِاسْتِدْلَالِ، وَأَمَّا كَوْنُهُ أَقْوَاهَا كَمَا ذَكَرَهُ «رَحِمَهُ اللَّهُ»، فَلَعَلَّ هُنَاكَ مَا هُوَ أَقْوَى مِنْهُ وَإِنْ كَانَ أَبْعَدَ مِنْ أَفْهَامِنَا كَمَا بَيَّنَّ فِي مَحَلِّهِ. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

٥. وفي نسخة: ما يغذوه الماء والنبت. (هامش المصدر)

٦. وفي نسخة مع زيادة: فتبارك الله أحسن الخالقين. (هامش المصدر)

وَكَانَ ذَكَرًا طَلَعَ الشَّعْرُ فِي وَجْهِهِ، فَكَانَ ذَلِكَ عَلَامَةً الذَّكَرِ وَعِزَّ الرَّجُلِ الَّذِي يَخْرُجُ بِهِ مِنْ حَدِّ الصَّبَا وَشِبْهِ النِّسَاءِ، وَإِنْ كَانَتْ أُثْنَى يَبْقَى وَجْهَهَا نَقِيًّا مِنَ الشَّعْرِ، لَتَبْقَى لَهَا الْبَهْجَةُ وَالنَّضَارَةُ^(١) الَّتِي تُحَرِّكُ الرَّجَالَ لِمَا فِيهِ دَوَامُ النَّسْلِ وَبَقَاؤُهُ.

بيان:

«الأديم»: الجلد. و«الطلق»: وجع الولادة؛ ويقال: أزعجه أي قلعه عن مكانه؛ ويقال: تلمظ إذا أخرج لسانه فمسح به شفتيه، وتلمظت الحية إذا أخرجت لسانها كتلمظت الأكل. و«الإداوة» بالكسر: إناء صغير من جلد يتخذ للماء. و«الطواحن»: الأضراس، ويطلق الأضراس غالباً على المآخير، والأسنان على المقادير كما هو الظاهر هنا، وإن لم يفرق اللغويون بينهما، والمراد بالطواحن هنا جميع الأسنان. و«الإساعة»: الأكل والشرب بسهولة.

اعْتَبِرْ يَا مُفْضَلُ فِيمَا يُدَبِّرُ بِهِ الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ، هَلْ تَرَى^(٢) يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ بِالْإِهْمَالِ؟ أَمْ فَرَأَيْتَ لَوْ لَمْ يَجْرُ إِتْيَهُ ذَلِكَ الدَّمُ وَهُوَ فِي الرَّحِمِ أَلَمْ يَكُنْ سَيَذْوِي وَيَجِفُّ كَمَا يَجِفُّ النَّبَاتُ إِذَا فَقَدَ الْمَاءَ؟ وَلَوْ لَمْ يُزْعِجْهُ الْمَخَاضُ^(٣) عِنْدَ اسْتِحْكَامِهِ أَلَمْ يَكُنْ سَيَبْقَى فِي الرَّحِمِ كَالْمَوْوَدِّ فِي الْأَرْضِ؟ وَلَوْ لَمْ يُوَافِقْهُ اللَّبَنُ مَعَ وَلَادَتِهِ أَلَمْ يَكُنْ سَيَمُوتُ جُوعاً، أَوْ يَغْتَذِي بِغِذَاءٍ لَا يَلَائِمُهُ وَلَا يَصْلُحُ عَلَيْهِ بَدَنُهُ؟ وَلَوْ لَمْ تَطْلُعْ عَلَيْهِ^(٤) الْأَسْنَانُ فِي وَقْتِهَا أَلَمْ يَكُنْ سَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مَضْغُ الطَّعَامِ وَإِسَاعَتُهُ، أَوْ يَقِيمُهُ عَلَى الرَّضَاعِ فَلَا يَشُدُّ بَدَنُهُ وَلَا يَصْلُحُ لِعَمَلٍ؟ ثُمَّ كَانَ تَشْتَغِلُ أُمُّهُ^(٥) بِنَفْسِهِ عَنْ تَرْبِيَةِ غَيْرِهِ مِنَ الْأَوْلَادِ، وَلَوْ لَمْ يَخْرُجِ الشَّعْرُ فِي وَجْهِهِ فِي وَقْتِهِ، أَلَمْ يَكُنْ سَيَبْقَى فِي هَيْئَةِ الصَّبِيَّانِ وَالنِّسَاءِ فَلَا تَرَى لَهُ جَلَالَتهُ وَلَا وَقَاراً؟

فَقَالَ الْمُفْضَلُ: قُلْتُ: يَا مَوْلَايَ فَقَدْ رَأَيْتُ مَنْ يَبْقَى عَلَى حَالَتِهِ وَلَا يَنْبُتُ الشَّعْرُ فِي وَجْهِهِ وَإِنْ بَلَغَ حَالَ الْكِبَرِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ^(٦) وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ، فَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْصُدُهُ حَتَّى يُوَافِقَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْمَارِبِ إِلَّا الَّذِي أَنْشَأَهُ خَلْقاً بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، ثُمَّ تَوَكَّلَ لَهُ بِمَصْلَحَتِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَ، فَإِنْ كَانَ الْإِهْمَالُ يَأْتِي بِمِثْلِ هَذَا التَّدْبِيرِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْعَمْدُ وَالتَّقْدِيرُ يَأْتِيَانِ بِالْخَطِ وَالْمُحَالِ لِأَنَّهُمَا ضِدَّا الْإِهْمَالِ، وَهَذَا فَطِيعٌ^(٧) مِنَ الْقَوْلِ وَجَهْلٌ مِنْ قَائِلِهِ، لِأَنَّ الْإِهْمَالَ لَا يَأْتِي بِالصَّوَابِ، وَالتَّضَادُّ لَا يَأْتِي بِالنِّظَامِ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الْمُلْحِدُونَ عُلوًّا كَبِيرًا، وَلَوْ كَانَ

١. النضارة: هي في الأصل حسن الوجه، راجع لسان العرب.

٢. في المصدر: «هل ترى مثله».

٣. المخاض: وجع الولادة وهو الطلق، راجع لسان العرب.

٤. في المصدر: «له».

٥. في المصدر: «يشغل أمه».

٦. في المصدر: «أيديكم».

٧. فطع الأمر: اشتدت شناعته، وجاوز المقدار في ذلك، راجع القاموس المحيط.

الْمَوْلُودُ يُؤَلَّدُ فِيهِمَا عَاقِلًا لَأَنْتَكَرَ الْعَالَمَ عِنْدَ وَلَادَتِهِ، وَلَبَقِيَ حَيْرَانٌ تَائِهَ الْعَقْلُ إِذَا رَأَى مَا لَمْ يَعْرِفْ، وَوَرَدَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يَرِ
مِثْلُهُ مِنْ اخْتِلَافِ صُورِ الْعَالَمِ مِنَ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ^(١) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُشَاهِدُهُ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ وَيَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَاعْتَبِرْ
ذَلِكَ بِأَنَّ مَنْ سُبِيَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَهُوَ عَاقِلٌ يَكُونُ كَالْوَالِدِ الْحَيْرَانِ، فَلَا يُسْرِعُ فِي تَعَلُّمِ الْكَلَامِ وَقَبُولِ الْأَدَبِ كَمَا
يُسْرِعُ الَّذِي يُسَبَى صَغِيرًا غَيْرَ عَاقِلٍ، ثُمَّ لَوْ وُلِدَ عَاقِلًا كَانَ يَجِدُ غَضَاضَةً إِذَا رَأَى نَفْسَهُ مَحْمُولًا مُرْضَعًا مُعْصَبًا بِالْخَرْقِ،
مُسَجَّى فِي الْمَهْدِ، لِأَنَّهُ لَا يَسْتَغْنِي عَنْ هَذَا كُلِّهِ لِرِقَّةِ بَدَنِهِ وَرُطُوبَتِهِ حِينَ يُؤَلَّدُ، ثُمَّ كَانَ لَا يُوْجَدُ لَهُ مِنَ الْحَلَاوَةِ
وَالْوَقْعِ^(٢) مِنَ الْقُلُوبِ مَا يُوجَدُ لِلطُّفْلِ، فَصَارَ يَخْرُجُ إِلَى الدُّنْيَا غَبِيًّا غَافِلًا عَمَّا فِيهِ أَهْلُهُ فَيَلْقَى الْأَشْيَاءَ بِذَهْنٍ ضَعِيفٍ
وَمَعْرِفَةٍ نَاقِصَةٍ، ثُمَّ لَا يَزَالُ يَتَزَايَدُ فِي الْمَعْرِفَةِ قَلِيلًا قَلِيلًا وَشَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وَحَالًا بَعْدَ حَالٍ، حَتَّى يَأْلَفَ الْأَشْيَاءَ وَيَتَمَرَّنَ
وَيَسْتَمِرَّ عَلَيْهَا، فَيَخْرُجُ مِنْ حَدِّ التَّأَمُّلِ لَهَا وَالْحَيْرَةِ فِيهَا إِلَى التَّصَرُّفِ وَالِإِضْطِرَابِ^(٣) إِلَى الْمَعَاشِ بِعَقْلِهِ وَحِيلَتِهِ، وَإِلَى
الِإِعْتِبَارِ وَالطَّاعَةِ وَالسَّهْوِ وَالْعَفْلَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَفِي هَذَا أَيْضًا وَجْهُ آخَرٌ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ يُؤَلَّدُ تَامَّ الْعَقْلِ، مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ
لَدَهَبَ مَوْضِعُ حَلَاوَةِ تَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ، وَمَا قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ لِلْوَالِدَيْنِ فِي الْإِشْتِعَالِ بِالْوَلَدِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ، وَمَا يُوجِبُ تَرْبِيَةَ
لِلْآبَاءِ عَلَى الْأَنْبَاءِ مِنَ الْمُكَلَّفَاتِ^(٤) بِالْبَرِّ وَالْعُظْفِ عَلَيْهِمْ عِنْدَ حَاجَتِهِمْ إِلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ، ثُمَّ كَانَ الْأَوْلَادُ لَا يَأْلَفُونَ آبَاءَهُمْ،
وَلَا يَأْلَفُ الْآبَاءُ أَبْنَاءَهُمْ، لِأَنَّ الْأَوْلَادَ كَانُوا يَسْتَغْنُونَ عَنْ تَرْبِيَةِ الْآبَاءِ وَحِبَاطَتِهِمْ^(٥)، فَيَسْتَفْرِقُونَ عَنْهُمْ حِينَ يُؤَلَّدُونَ، فَلَا
يَعْرِفُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ، وَلَا يَمْتَنِعُ مِنْ نِكَاحِ أُمِّهِ وَأُخْتِهِ وَذَوَاتِ الْمَحَارِمِ مِنْهُ إِذَا كَانَ لَا يَعْرِفُهُنَّ، وَأَقْلُ مَا فِي ذَلِكَ مِنَ
الْقَبَاحَةِ - بَلْ هُوَ أَشْنَعُ وَأَعْظَمُ وَأَفْظَعُ وَأَقْبَحُ وَأَبْشَعُ - لَوْ خَرَجَ الْمَوْلُودُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ وَهُوَ يَعْقِلُ أَنْ يَرَى مِنْهَا مَا لَا يَحِلُّ
لَهُ، وَلَا يُحْسِنُ بِهِ أَنْ يَرَاهُ. أَفَلَا تَرَى كَيْفَ أَقِيمَ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْخَلْقَةِ عَلَى غَايَةِ الصَّوَابِ، وَخَلَا مِنَ الْخَطَا دَقِيقُهُ وَجَلِيلُهُ؟

بيان:

«أُفْرَأَيْتَ» أَيِ أَخْبَرْنِي، قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: لَمَّا كَانَتْ مَشَاهِدَةُ الْأَشْيَاءِ وَرُؤْيُهَا طَرِيقًا إِلَى الْإِحَاطَةِ بِهَا عِلْمًا
وَصَحَّةَ الْخَبَرِ عَنْهَا اسْتَعْمَلُوا أُرَأَيْتَ بِمَعْنَى أَخْبِرْ. انْتَهَى^(٦). وَيُقَالُ: ذُو الْعُودِ أَيِ يَبْسُ. وَ«الْمَوْوُودُ»: الَّذِي
دَفِنَ فِي الْأَرْضِ حَيًّا، كَمَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَفْعَلُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِنَبَاتِهِمْ. قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَوْ يَقِيمُهُ» أَيِ عَدَمِ طُلُوعِ
الْأَسْنَانِ. قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ذَلِكَ بِمَا قَدِّمْتَ أَيْدِيَهُمْ»، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا لَتَعْذِيبِ الْآبَاءِ وَإِنْ كَانَ الْأَوْلَادُ يُوجِرُونَ
لِقَبَاحَةِ مَنْظَرِهِمْ، أَوْ لِلأَوْلَادِ لَمَّا كَانَ فِي عِلْمِهِ تَعَالَى صَدُورُهُ عَنْهُمْ بِاخْتِيَارِهِمْ. «وَيُرْصَدُهُ» أَيِ يَرْقُبُهُ.

١. في المصدر: «والطير والبهائم»، وفيه ذكر من نسخة: «والطير من البهائم».

٢. وفي نسخة: «والموقع». (هامش المصدر)

٣. وفي نسخة: «الاضطراب». (هامش المصدر)

٤. وفي نسخة: «من المكافاة». (هامش المصدر)

٥. حاطه: حفظه وتعهده، راجع لسان العرب.

٦. تفسير الكشاف، ج ٣، ص ٤٠.

قوله عليه السلام: «فإن كان الإهمال» أي إذا لم يكن الأشياء منوطة بأسبابها، ولم ترتبط الأمور بعلاها، فكما جاز أن يحصل هذا الترتيب والنظام التام بلا سبب فجاز أن يصير التدبير في الأمور سبباً لاختلالها، وهذا خلاف ما يحكم به عقول كافة الخلق لما نرى من سعيهم في تدبير الأمور وذمهم من يأتي بها على غير تأمل وروية، ويحتمل أن يكون المراد أن الوجدان يحكم بتضاد آثار الأمور المتضادة، وربما أمكن إقامة البرهان عليه أيضاً، فإذا أتى الإهمال بالصواب يجب أن يأتي ضده وهو التدبير بالخطأ، وهذا أفطع وأشنع، والمراد «بالمحال» الأمر الباطل الذي لم يأت على وجهه الذي ينبغي أن يكون عليه، قال الفيروزآبادي: المحال من الكلام بالضم: ما عدل عن وجهه. انتهى. و«التيه»: الضلال والحيرة. و«الغضاضة»: بالفتح: الذلة والمنقصة. وقوله عليه السلام: «معصباً» أي مشدوداً. و«التسجية»: التغطية بثوب يمدّ عليه. و«الغبي»: على فعيل: قليل الفطنة. و«الاعتبار» من العبرة، وذكر في مقابلة السهو والغفلة. وقوله عليه السلام: «ما قدر» و«ما يوجب» كلاهما معطوفان على موضع. وقوله عليه السلام: «من المكلفات» بيان لما يوجب، أي لذهب التكليف المتعلقة بالأولاد بأن يبرّوا آباءهم، ويعطفوا عليهم عند حاجة الآباء إلى تربيتهم، وإعانتهم لكبرهم وضعفهم، جزاء لما قاسوا^(١) من الشدائد في تربيتهم. قوله عليه السلام: «أن يرى» خبر لقوله: «أقل ما في ذلك».

اعرف يا مفضل ما للأطفال في البكاء من المنفعة، واعلم أن في أدمة^(٢) الأطفال رطوبة إن بقيت فيها أحدثت عليهم أحداثاً جليلة، وعلاً عظيمة من ذهاب البصر وغيره، فالبكاء يسيل تلك الرطوبة من رؤوسهم، فيعقبهم ذلك الصحة في أبدانهم، والسلامة في أبصارهم، أليس قد جاز أن يكون الطفل ينتفع بالبكاء؟ والداه لا يعرفان ذلك، فهما دائبان ليسكتاه، ويتوحيان في الأمور مراضاته لئلا يبكى، وهما لا يعلمان أن البكاء أصلح له وأجمل عاقبة^(٣)، فهكذا يجوز أن يكون في كثير من الأشياء منافع لا يعرفها القائلون بالإهمال، ولو عرفوا ذلك لم يفضوا على الشيء أنه لا منفعة فيه من أجل أنهم لا يعرفونه، ولا يعلمون السبب فيه، فإن كل ما لا يعرفه المنكرون يعلمه العارفون^(٤)، وكثير مما يقصر عنه علم المخلوقين محيط به علم الخالق جلّ قدسه وعلت كلمته، فأما ما يسيل من أفواه الأطفال من الريق ففي ذلك خروج الرطوبة التي لو بقيت في أبدانهم لأحدثت عليهم الأمور العظيمة، كمن تراه قد غلبت عليه الرطوبة فأخرجته إلى حدّ البله^(٥) والجنون والتخليط^{(٦)(٧)}، إلى غير ذلك من الأمراض

١. قاسيت الأمر: عالجته شدته، راجع أساس البلاغة.

٢. الدماغ: حشو الرأس، والجمع أدمة، راجع لسان العرب.

٣. وفي نسخة: عافية. (هامش المصدر)

٤. وفي نسخة: يعرفه العارفون. (هامش المصدر)

٥. البله: ضعف العقل، راجع معجم مقاييس اللغة.

٦. خولط في عقله خلطاً: إذا اختل عقله، راجع معجم البحرين.

٧. وفي نسخة: والتخبط. (هامش المصدر)

الْمُخْتَلَفَةِ^(١) كَالْفَالَجِ وَاللَّقْوَةِ^(٢) وَمَا أَشَبَّهُهُمَا، فَجَعَلَ اللَّهُ تِلْكَ الرُّطُوبَةَ تَسِيلُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ فِي صَعْرِهِمْ لِمَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الصَّحَّةِ فِي كِبَرِهِمْ، فَتَفْضَلَ عَلَى خَلْقِهِ بِمَا جَهِلُوهُ، وَنَظَرَ لَهُمْ بِمَا لَمْ يَعْرِفُوهُ، وَلَوْ عَرَفُوا نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ لَشَغَلَهُمْ ذَلِكَ عَنِ التَّمَادِي فِي مَعْصِيَتِهِ، فَسُبْحَانَهُ مَا أَجَلَ نِعَمَتَهُ، وَأَسْبَغَهَا عَلَى الْمُسْتَحِقِّينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ خَلْقِهِ، وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الْمُبْطِلُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

بيان:

«الدَّوُّوبُ»: الجدُّ والتعب. و«التَّوْحِيُّ»: التحرِّي والقصد. وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كُلُّ مَا لَا يَعْرِفُهُ» أي مما لا يقصر عنه علم المخلوقين؛ ويقال: أبطل، أي جاء بالباطل.

انْظُرِ الْآنَ يَا مُفَضَّلُ كَيْفَ جُعِلَتْ آيَاتُ الْجَمَاعِ فِي الذِّكْرِ وَالْإِنْتَى جَمِيعًا عَلَى مَا يُشَاكِلُ ذَلِكَ، فَجُعِلَ لِلذِّكْرِ آيَةٌ نَاشِئَةٌ^(٣) حَتَّى تَصِلَ النُّطْفَةُ إِلَى الرَّحِمِ إِذَا كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى أَنْ يَقْذِفَ مَاءَهُ فِي غَيْرِهِ، وَخُلِقَ لِلْإِنْتَى وَعَاءٌ قَعِرٌ لِيَشْتَمِلَ عَلَى الْمَاءِ بَيْنَ جَمِيعًا، وَيَحْتَمِلَ الْوَلَدَ، وَيَتَّسِعَ لَهُ وَيَصُونَهُ حَتَّى يَسْتَحْكِمَ، أَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ تَدْبِيرِ حَكِيمٍ لَطِيفٍ؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ.

بيان:

«المشاكلة»: المشابهة والمناسبة، واسم الإشارة راجع إلى ما مضى من التدبير في الخلق، ويحتمل إرجاعه إلى الجماع.

فَكَرَّ يَا مُفَضَّلُ فِي أَعْضَاءِ الْبَدَنِ أَجْمَعِ، وَتَدْبِيرِ كُلِّ مِنْهَا لِلْأَرْبِ^(٤)، فَالْيَدَانِ لِلْعِلَاجِ، وَالرَّجُلَانِ لِلْسَّعْيِ، وَالْعَيْنَانِ لِلْإِهْتِدَاءِ، وَالْأُفْمُ لِلْإِغْتِزَاءِ، وَالْمَعِدَةُ لِلْهَضْمِ، وَالْكَبِدُ لِلتَّخْلِيصِ^(٥)، وَالْمَنَافِدُ لِتَنْفِيذِ الْفُضُولِ^(٦)، وَالْأَوْعِيَةُ لِحَمْلِهَا، وَالْفَرْجُ لِإِقَامَةِ النَّسْلِ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْأَعْضَاءِ إِذَا تَأَمَّلْتَهَا، وَأَعْمَلْتَ فِكْرَكَ فِيهَا وَنَظَرَكَ وَجَدْتَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهَا قَدْ قَدَّرَ لِشَيْءٍ عَلَى صَوَابٍ وَحِكْمَةٍ.

قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَقُلْتُ: يَا مَوْلَايَ إِنَّ قَوْمًا يَزْعُمُونَ أَنَّ هَذَا مِنْ فِعْلِ الطَّبِيعَةِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: سَلُّهُمْ عَنْ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ، أَهِيَ شَيْءٌ لَهُ عِلْمٌ وَقُدْرَةٌ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ، أَمْ لَيْسَتْ كَذَلِكَ؟ فَإِنْ أَوْجَبُوا لَهَا الْعِلْمَ وَالْقُدْرَةَ، فَمَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ إِثْبَاتِ

١. في المصدر: «المتلفة».

٢. اللقوة: مرض يعرض للوجه فيميله إلى أحد جانبيه، راجع لسان العرب.

٣. أي رافعة. وفي المصدر: «ناشرة».

٤. الإرب: الحاجة، راجع لسان العرب.

٥. التنخليس: التصفية والتمييز عن غيره، وذلك لأن الكبد يحيل الكيلوس إلى الخلط، ويصفى الأخلط كل واحد عن الآخر، وينفذها إلى

البدن كلها في مجارى مهياة له. (هامش المطبوع)

٦. النفذ بالتحريك: المخرج والمخلص، راجع لسان العرب.

الْخَالِقِ؟ فَإِنَّ هَذِهِ صَنَعَتُهُ^(١)، وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّهَا تَفْعَلُ هَذِهِ الْأَفْعَالِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا عَمْدٍ، وَكَانَ فِي أَفْعَالِهَا مَا قَدْ تَرَاهُ مِنْ الصَّوَابِ وَالْحِكْمَةِ عِلْمٌ أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ لِلْخَالِقِ الْحَكِيمِ، وَأَنَّ الَّذِي سَمَوَهُ طَبِيعَةً هُوَ سُنَّةٌ فِي خَلْقِهِ^(٢) الْجَارِيَةُ عَلَى مَا أَجْرَاهَا عَلَيْهِ.

إيضاح:

قوله عليه السلام: «فما يمنعهم» لعل المراد أنهم إذا قالوا بذلك فقد أثبتوا الصانع، فلم يسمونه بالطبيعة وهي ليست بذات علم وإرادة وقدرة؟ قوله عليه السلام: «علم أن هذا الفعل» أي ظاهر بطلان هذا الزعم، والذي صار سبباً لذهولهم^(٣) أن الله تعالى أجرى عادته بأن يخلق الأشياء بأسبابها فذهبوا إلى استقلال تلك الأسباب في ذلك، وبعبارة أخرى: إن سنة الله وعادته قد جرت لحكم كثيرة أن تكون الأشياء بحسب بادئ النظر مستندة إلى غيره تعالى، ثم يعلم بعد الاعتبار والتفكير أن الكل مستند إلى قدرته وتأثيره تعالى، وإنما هذه الأشياء وسائل وشرائط لذلك، فلذا تحيروا في الصانع تعالى، فالضمير المنصوب في قوله عليه السلام: «أجراها» راجع إلى السنة وضمير «عليه» راجع إلى الموصول.

فَكَرَّ يَا مُفَضَّلُ فِي وُصُولِ الْغِذَاءِ إِلَى الْبَدَنِ وَمَا فِيهِ مِنَ التَّدْيِيرِ، فَإِنَّ الطَّعَامَ يَصِيرُ إِلَى الْمَعِدَةِ فَتَطْبُخُهُ، وَتَبْعَثُ بِصَفْوِهِ إِلَى الْكَبِدِ فِي عُرُوقٍ رِقَاقٍ وَاشْجَعَةٍ بَيْنَهَا^(٤)، قَدْ جُعِلَتْ كَالْمَصْفَى لِلْغِذَاءِ لِكَيْلَا يَصِلَ إِلَى الْكَبِدِ مِنْهُ شَيْءٌ فَيَنْكَأَهَا، وَذَلِكَ أَنَّ الْكَبِدَ رَقِيقَةٌ لَا تَحْتَمِلُ الْعُنْفَ^(٥)، ثُمَّ إِنَّ الْكَبِدَ تَقْبَلُهُ فَيَسْتَحِيلُ^(٦)، يَلْطَفُ التَّدْيِيرُ دَمًا، وَيَنْفُذُ إِلَى الْبَدَنِ كُلِّهِ فِي مَجَارِي مُهَيَّاتٍ لَذَلِكَ، بِمَنْزِلَةِ الْمَجَارِي الَّتِي تَهَيَّأُ لِلْمَاءِ حَتَّى يَطْرُدَ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا، وَيَنْفُذُ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ مِنَ الْخَبَثِ وَالْفُضُولِ إِلَى مَفَاضٍ^(٧)، قَدْ أُعِدَّتْ لَذَلِكَ، فَمَا كَانَ مِنْهُ مِنْ جَنْسِ الْمِرَّةِ الصَّفْرَاءِ^(٨) جَرَى إِلَى الْمَرَارَةِ، وَمَا كَانَ مِنْ جَنْسِ السَّوْدَاءِ جَرَى إِلَى الطَّحَالِ^(٩)، وَمَا كَانَ مِنَ الْبِلَّةِ وَالرُّطُوبَةِ جَرَى إِلَى الْمَثَانَةِ، فَتَأْمَلُ حِكْمَةَ التَّدْيِيرِ فِي تَرْكِيبِ الْبَدَنِ، وَوَضْعِ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ مِنْهُ مَوَاضِعَهَا، وَإِعْدَادِ هَذِهِ الْأَوْعِيَةِ فِيهِ لِتَحْمِلِ تِلْكَ الْفُضُولَ، لئَلَّا تَنْتَشِرَ فِي الْبَدَنِ فَتُسْقِمَهُ وَتَنْهَكَهُ، فَتَبَارَكَ مَنْ أَحْسَنَ التَّقْدِيرَ وَأَحْكَمَ التَّدْيِيرَ، وَلَهُ الْحَمْدُ كَمَا هُوَ أَهْلُهُ وَمُسْتَحَقُّهُ.

١. في المصدر: «صفته».

٢. في المصدر: «هو سنته في خلقه»، وفيه ذكر من نسخة: هو عادة الله من خلقه.

٣. ذهلت عن الشيء: غفلت عنه، راجع الصحاح.

٤. في المصدر: «دقاق واشجعة بينهما»، وفيه ذكر من نسخة: راسخة.

٥. العنْف: الشدة والمشقة، راجع مجمع البحرين.

٦. استحال الشيء: تغير عن طبعه ووصفه، راجع المصباح المنير.

٧. وفي نسخة: مغائص، وفي نسخة أخرى: مغائص. (هامش المصدر)

٨. المِرَّة: خلط من أخلاط البدن غير الدم، والجمع مِرَار، راجع مجمع البحرين.

٩. الطِّحَال: لحمة سوداء عريضة في بطن الإنسان وغيره عن اليسار لازقة بالجانب، راجع لسان العرب.

قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَقُلْتُ: صِفْ نُشُوءَ الْأَبْدَانِ وَنُمُوَهَا، حَالًا بَعْدَ حَالٍ حَتَّى تَبْلُغَ التَّامَّ وَالْكَمَالَ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَوَّلُ ذَلِكَ تَصْوِيرُ الْجَنِينِ فِي الرَّحِمِ حَيْثُ لَا تَرَاهُ عَيْنٌ وَلَا تَنَالُهُ يَدٌ، وَيُدَبِّرُهُ حَتَّى يَخْرُجَ سَوِيًّا مُسْتَوْفِيًّا جَمِيعَ مَا فِيهِ قِوَامُهُ وَصَلَاحُهُ مِنَ الْأَحْشَاءِ وَالْجَوَارِحِ وَالْعَوَامِلِ إِلَى مَا فِي تَرْكِيبِ أَعْضَائِهِ مِنَ الْعِظَامِ وَاللَّحْمِ وَالشَّحْمِ وَالْمُخِّ وَالْعَصَبِ وَالْعُرُوقِ وَالْعَضَارِيفِ، فَإِذَا خَرَجَ إِلَى الْعَالَمِ تَرَاهُ كَيْفَ يَنْمُو^(١) بِجَمِيعِ أَعْضَائِهِ، وَهُوَ ثَابِتٌ عَلَى شَكْلِ وَهَيْئَةٍ لَا تَتَزَايَدُ وَلَا تَنْقُصُ^(٢) إِلَى أَنْ يَبْلُغَ أَشَدَّهُ، إِنْ مَدَّ فِي عُمُرِهِ أَوْ يَسْتَوْفِي مَدَّتَهُ قَبْلَ ذَلِكَ، هَلْ هَذَا إِلَّا مِنْ لَطِيفِ التَّدْبِيرِ وَالْحِكْمَةِ؟ يَا مُفَضَّلُ انْظُرْ إِلَى مَا خُصَّ بِهِ الْإِنْسَانُ فِي خَلْقِهِ تَشْرِيفًا وَتَفْضِيلًا عَلَى الْبَهَائِمِ، فَإِنَّهُ خُلِقَ يَنْتَصِبُ قَائِمًا وَيَسْتَوِي جَالِسًا، لِيَسْتَقْبَلَ الْأَشْيَاءَ بِيَدَيْهِ^(٣) وَجَوَارِحِهِ، وَيُمْكِنَهُ الْعِلَاجُ وَالْعَمَلُ بِهِمَا^(٤)، فَلَوْ كَانَ مَكْتُوبًا عَلَى وَجْهِهِ كَذَاتِ^(٥) الْأَرْبَعِ لَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَعْمَلَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ.

بيان:

قال الفيروزآبادي: وشجت العروق والأغصان: اشتبكت. وقال: نكأ القرحة كمنع: قشرها قبل أن تبرأ فنديت. انتهى. و«المفايض» في بعض النسخ بالفاء أي مجاري، من فاض الماء، وفي بعضها بالغين من غاض الماء غيضاً أي نضب وذهب في الأرض، والمغيض: المكان الذي يغيض فيه. و«إلى» في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إلى ما في تركيب» بمعنى «مع». وقال الفيروزآبادي: الغضروف: كل عظم رخو يؤكل، وهو مارن الأنف^(٦)، وبعض الكتف، ورؤوس الأضلاع، ورهابة الصدر^(٧)، وداخل فوق الأذن. انتهى. وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا تتزايد ولا تنقص» أي النسبة بين الأعضاء. وبلوغ الأشد، وهو القوة أن يكتهل ويستوفي السن الذي يستحكم فيها قوته وعقله وتميزه.

انْظُرِ الْآنَ يَا مُفَضَّلُ إِلَى هَذِهِ الْحَوَاسِّ الَّتِي خُصَّ بِهَا الْإِنْسَانُ فِي خَلْقِهِ، وَشُرِّفَ بِهَا عَلَى غَيْرِهِ، كَيْفَ جَعَلَتْ الْعَيْنَانِ فِي الرَّأْسِ كَالْمَصَابِيحِ فَوْقَ الْمَنَارَةِ، لِيَتِمَّكَنَ مِنْ مُطَالَعَةِ الْأَشْيَاءِ، وَلَمْ تُجْعَلْ فِي الْأَعْضَاءِ الَّتِي تَحْتَهِنَّ كَالْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ فَتَعْرِضَهَا الْآفَاتُ، وَتُصِيبَهَا مِنْ مُبَاشَرَةِ الْعَمَلِ وَالْحَرَكَةِ مَا يُعْلِلُهَا وَيُؤَثِّرُ فِيهَا وَيَنْقُصُ مِنْهَا، وَلَا فِي الْأَعْضَاءِ الَّتِي وَسَطَ الْبَدَنِ كَالْبَطْنِ وَالظَّهْرِ، فَيَعْسُرَ ثَقْلُهَا وَاطَّلَاعُهَا نَحْوَ الْأَشْيَاءِ، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهَا فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ مَوْضِعٌ كَانَ

١. في المصدر: «ينمو».

٢. وفي بعض النسخ: لا يتزايد ولا يتبعص. (هامش المصدر)

٣. وفي نسخة: ببدنه. (هامش المصدر)

٤. وفي نسخة: بها. (هامش المصدر)

٥. وفي نسخة: كذوات. (هامش المصدر)

٦. المارن: ما لان من الأنف منحدرًا عن العظم، راجع لسان العرب.

٧. الرّهابة على وزن السّحابة: غضروف كاللسان، معلق في أسفل الصدر، مشرف على البطن، راجع لسان العرب.

الرَّأْسِ أَسْنَى ^(١) الْمَوَاضِعِ لِلْحَوَاسِّ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الصَّوْمَعَةِ ^(٢) لَهَا؛ فَجُعِلَ الْحَوَاسُّ حُمْسًا تَلْقَى حُمْسًا لِكَيْ لَا يَفُوتَهَا شَيْءٌ مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ، فَخُلِقَ الْبَصَرُ لِيُذْرِكَ الْأَلْوَانَ، فَلَوْ كَانَتْ الْأَلْوَانُ وَلَمْ يَكُنْ بَصَرٌ يُذْرِكُهَا لَمْ يَكُنْ مَنَفْعَةٌ فِيهَا، وَخُلِقَ السَّمْعُ لِيُذْرِكَ الْأَصْوَاتَ، فَلَوْ كَانَتْ الْأَصْوَاتُ وَلَمْ يَكُنْ سَمْعٌ يُذْرِكُهَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا إِذْبٌ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْحَوَاسِّ، ثُمَّ هَذَا يَرْجِعُ مُتَكَافِئًا، فَلَوْ كَانَ بَصَرٌ وَلَمْ يَكُنْ أَلْوَانٌ لَمَا كَانَ لِلْبَصَرِ مَعْنَى، وَلَوْ كَانَ سَمْعٌ وَلَمْ يَكُنْ أَصْوَاتٌ لَمْ يَكُنْ لِلْسَّمْعِ مَوْضِعٌ، فَانْظُرْ كَيْفَ قَدَّرَ بَعْضُهَا يَلْقَى بَعْضًا، فَجَعَلَ لِكُلِّ حَاسَّةٍ ^(٣) مَحْسُوسًا يَعْمَلُ فِيهِ، وَلِكُلِّ مَحْسُوسٍ حَاسَّةً تُذْرِكُهُ، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ جُعِلَتْ أَشْيَاءٌ مُتَوَسِّطَةٌ بَيْنَ الْحَوَاسِّ وَالْمَحْسُوسَاتِ، لَا يَتِمُّ الْحَوَاسُّ إِلَّا بِهَا، كَمَثَلِ الضِّيَاءِ وَالْهَوَاءِ، فَإِنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ ضِيَاءٌ يُظْهِرُ اللَّوْنَ لِلْبَصَرِ لَمْ يَكُنِ الْبَصَرُ يُذْرِكُ اللَّوْنَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هَوَاءٌ يُؤَدِّي الصَّوْتِ إِلَى السَّمْعِ لَمْ يَكُنِ السَّمْعُ يُذْرِكُ الصَّوْتِ ^(٤)، فَهَلْ يَخْفَى عَلَى مَنْ صَحَّ نَظَرُهُ وَأَعْمَلُ فِكْرُهُ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الَّذِي وَصَفْتُ مِنْ تَهْيِئَةِ الْحَوَاسِّ وَالْمَحْسُوسَاتِ بَعْضُهَا يَلْقَى بَعْضًا، وَتَهْيِئَةُ أَشْيَاءٍ أُخَرُ بِهَا تَتِمُّ الْحَوَاسُّ، لَا يَكُونُ إِلَّا بِعَمْدٍ ^(٥) وَتَقْدِيرٍ مِنْ لَطِيفِ خَبِيرٍ؟

بيان:

قوله عليه السلام: «بعضها يلقي بعضاً» حال أو صفة بتأويل أو تقدير.

فَكَرَّرَ يَا مُفَضَّلُ فِيمَنْ عَدِمَ الْبَصَرَ مِنَ النَّاسِ وَمَا يَنَالُهُ مِنَ الْخَلَلِ فِي أُمُورِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ مَوْضِعَ قَدَمِهِ، وَلَا يُبْصِرُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَا يَفْقَهُ بَيْنَ الْأَلْوَانِ، وَبَيْنَ الْمَنْظَرِ الْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ، وَلَا يَرَى حُفْرَةً إِنْ هَجَمَ عَلَيْهَا ^(٦)، وَلَا عَدُوًّا إِنْ أَهْوَى إِلَيْهِ بِسَيْفٍ، وَلَا يَكُونُ لَهُ سَبِيلٌ إِلَى أَنْ يَعْمَلَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الصَّنَاعَاتِ مِثْلِ الْكِتَابَةِ وَالتَّجَارَةِ ^(٧) وَالصِّبَاغَةِ، حَتَّى أَنَّهُ لَوْ لَا نَفَادُ ذَهَبِهِ ^(٨) لَكَانَ بِمَنْزِلَةِ الْحَجَرِ الْمُلْقَى؛ وَكَذَلِكَ مَنْ عَدِمَ السَّمْعَ يَخْتَلُّ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ فَإِنَّهُ يَفْقِدُ رَوْحَ الْمُخَاطَبَةِ وَالْمُحَاوَرَةِ، وَيَعْدُمُ لَذَّةَ الْأَصْوَاتِ وَاللُّحُونِ الشَّجِيَّةِ الْمُطْرِبَةِ، وَيُعْظِمُ الْمُؤُونَةَ عَلَى النَّاسِ فِي مُحَاوَرَتِهِ، حَتَّى يَتَبَرَّمُوا بِهِ ^(٩)، وَلَا يَسْمَعُ شَيْئًا مِنْ أَحْبَارِ النَّاسِ وَأَحَادِيثِهِمْ، حَتَّى يَكُونَ كَالْغَائِبِ وَهُوَ شَاهِدٌ، أَوْ كَالْمَيِّتِ وَهُوَ حَيٌّ؛ فَأَمَّا مَنْ عَدِمَ الْعَقْلَ فَإِنَّهُ يُلْحَقُ بِمَنْزِلَةِ الْبَهَائِمِ، بَلْ يَجْهَلُ كَثِيرًا مِمَّا يَهْتَدِي إِلَيْهِ الْبَهَائِمُ، أَفَلَا تَرَى كَيْفَ صَارَتْ الْجَوَارِحُ وَالْعَقْلُ

١. السني: الرفيع، راجع لسان العرب.

٢. الصومعة: منار الراهب، راجع لسان العرب.

٣. وفي بعض النسخ: جارجة. (هامش المصدر)

٤. في المصدر مع زيادة: «فتبارك الله من جعل الأشياء وسائط، وقدّر لانتظام العالم ضوابط».

٥. وفي نسخة: بعمل. (هامش المصدر)

٦. أي انتهى إليها بغتة على غفلة منه. (هامش المطبوع)

٧. في المصدر: «والنجارة».

٨. **نقول:** لا يبعد أن يكون هذا دليلاً على قوة ذهن الأعمى كما هو المعروف بين الناس.

٩. قد أبرمه فلان إیراما: أمله وأضجره فَبَرَّمَ وَتَبَرَّمَ به، راجع لسان العرب.

وَسَائِرُ الْخِلَالِ^(١) الَّتِي بِهَا صَلَاحُ الْإِنْسَانِ وَالَّتِي لَوْ فَقَدَ مِنْهَا شَيْئًا لَعَظُمَ مَا يَنَالُهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْخَلَلِ يُؤَافِي خَلْقَةً عَلَى التَّمَامِ حَتَّى لَا يَفْقِدَ شَيْئًا مِنْهَا؟ فَلِمَ كَانَ كَذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُ خُلِقَ بِعِلْمٍ وَتَقْدِيرٍ^(٢)؟

بيان:

«روح المخاطبة» بالفتح أي راحتها ولذتها. والشجو: الحزن. ولا يتوهم جواز الاستدلال به على عدم حرمة الغناء مطلقاً لاحتمال أن يكون المراد الأفراد المحللة منها كما ذكرها الأصحاب، وسيأتي ذكرها في بابه^(٣)، أو يكون فائدة إدراك تلك اللذة عظم الثواب في تركها لوجهه تعالى. وقوله عَلَيْهِ السَّلَام: «يؤافي خلقه» خبر صارت. قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَقُلْتُ: فَلِمَ صَارَ بَعْضُ النَّاسِ يَفْقِدُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْجَوَارِحِ فَيَنَالُهُ فِي ذَلِكَ مِثْلُ مَا وَصَفْتَهُ يَا مَوْلَايَ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام: ذَلِكَ لِلتَّأْدِيبِ وَالْمَوْعِظَةِ لِمَنْ يَحِلُّ ذَلِكَ بِهِ وَلِغَيْرِهِ بِسَبَبِهِ، كَمَا قَدْ يُودَّبُ الْمُلُوكُ النَّاسُ لِلتَّنْكِيلِ^(٤) وَالْمَوْعِظَةِ، فَلَا يُنْكَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بَلْ يُحْمَدُ مِنْ رَأْيِهِمْ، وَيَصَوَّبُ مِنْ تَذْيِيرِهِمْ، ثُمَّ لِلَّذِينَ يَنْزِلُ بِهِمْ هَذِهِ الْبَلَايَا مِنَ الثَّوَابِ بَعْدَ الْمَوْتِ إِنْ شَكَرُوا وَأَتَابُوا مَا يَسْتَصْغِرُونَ مَعَهُ مَا يَنَالُهُمْ مِنْهَا، حَتَّى إِنَّهُمْ لَوْ خَيَّرُوا بَعْدَ الْمَوْتِ لَاخْتَارُوا أَنْ يَرُدُّوا إِلَى الْبَلَايَا لَيَزِدَّادُوا مِنَ الثَّوَابِ.

فَكَرَّ يَا مُفَضَّلُ فِي الْأَعْضَاءِ الَّتِي خُلِقَتْ أَفْرَادًا وَأَزْوَاجًا، وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالتَّقْدِيرِ، وَالصَّوَابِ فِي التَّذْيِيرِ، فَالرَّأْسُ مِمَّا خُلِقَ فَرْدًا وَلَمْ يَكُنْ لِلْإِنْسَانِ صَلَاحٌ فِي أَنْ يَكُونَ^(٥) أَكْثَرُ مِنْ وَاحِدٍ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ أُضِيفَ إِلَى رَأْسِ الْإِنْسَانِ رَأْسٌ آخَرُ لَكَانَ ثِقَلًا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَيْهِ، لِأَنَّ الْحَوَاسَّ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا مُجْتَمِعَةً فِي رَأْسٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ كَانَ الْإِنْسَانُ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ لَوْ كَانَ لَهُ رَأْسَانِ، فَإِنْ تَكَلَّمَ مِنْ أَحَدِهِمَا كَانَ الْآخَرُ مُعْطَلًا لَا إِزْبَ فِيهِ وَحَاجَةً إِلَيْهِ، وَإِنْ تَكَلَّمَ مِنْهُمَا جَمِيعًا بِكَلَامٍ وَاحِدٍ كَانَ أَحَدُهُمَا فَضْلًا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَإِنْ تَكَلَّمَ بِأَحَدِهِمَا بِغَيْرِ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ مِنَ الْآخِرِ لَمْ يَذَرِ السَّمَاعُ بَأْيَ ذَلِكَ يَأْخُذُ، وَأَشْبَاهُ هَذَا مِنَ الْأَخْلَاطِ^(٦)، وَالْيَدَانِ مِمَّا خُلِقَ أَرْوَاجًا، وَلَمْ يَكُنْ لِلْإِنْسَانِ خَيْرٌ فِي أَنْ يَكُونَ لَهُ يَدٌ وَاحِدَةٌ، لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَخْلُجُ بِهِ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَى مُعَالَجَتِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ، أَلَا تَرَى أَنَّ النَّجَّارَ وَالْبَنَّاءَ لَوْ شَلَّتْ^(٧) إِحْدَى يَدَيْهِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعَالَجَ صِنَاعَتَهُ، وَإِنْ تَكَلَّفَ ذَلِكَ لَمْ يُحْكَمْهُ، وَلَمْ يَبْلُغْ مِنْهُ مَا يَبْلُغُهُ إِذَا كَانَتْ لَهُ يَدَانِ يَتَعَاوَنَانِ عَلَى الْعَمَلِ؟

١. الخَلَّة: الخصلة، والجمع خِلَال، راجع لسان العرب.

٢. وفي نسخة: إِلَّا لِأَنَّهُ خُلِقَ بِعِلْمٍ وَتَقْدِيرٍ. (هامش المصدر)

٣. تنمة كتاب الروضة، باب ٩٩، الغناء.

٤. نكل به: صنع به صنيعاً يحذر غيره عن ارتكاب مثله، راجع تاج العروس.

٥. في المصدر: «أَنْ يَكُونَ لَهُ».

٦. في المصدر: «الْإِخْلَاطُ».

٧. وفي نسخة: لَوْ شَلَّتْ. (هامش المصدر)

أَطْلَ الْفِكَرِ يَا مُفَضَّلُ فِي الصَّوْتِ وَالْكَلَامِ وَتَهْيِئَةِ آلَاتِهِ فِي الْإِنْسَانِ، فَالْحَنْجَرَةُ كَالْأُنْبُوبَةِ^(١) لِخُرُوجِ الصَّوْتِ، وَاللِّسَانُ وَالشَّفَتَانِ وَالْأَسْنَانُ لِصِيَاغَةِ الْحُرُوفِ وَالنَّعْمِ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ سَقَطَتْ أَسْنَانُهُ لَمْ يَقُمْ السَّيْنُ؟ وَمَنْ سَقَطَتْ شَفَتُهُ لَمْ يَصَحِّحْ^(٢) الْفَاءَ؟ وَمَنْ ثَقُلَ لِسَانُهُ لَمْ يُفْصِحِ الرَّاءَ؟ وَأَشْبَهُ شَيْءٍ بِذَلِكَ الْمِزْمَارُ^(٣) الْأَعْظَمُ، فَالْحَنْجَرَةُ يُشَبِّهُ قَصَبَةَ الْمِزْمَارِ، وَالرِّئَةُ يُشَبِّهُ الرِّقَّ^(٤) الَّذِي يُنْفَخُ فِيهِ لِتَدْخُلَ الرِّيحُ، وَالْعَضَلَاتُ الَّتِي تَقْبِضُ عَلَى الرِّئَةِ لِخُرُوجِ الصَّوْتِ كَالْأَصَابِعِ الَّتِي تَقْبِضُ عَلَى الرِّقِّ حَتَّى تَجْرِيَ الرِّيحُ فِي الْمِزْمَارِ، وَالشَّفَتَانِ وَالْأَسْنَانُ الَّتِي تَصُوعُ الصَّوْتَ حُرُوفًا وَنَعْمًا كَالْأَصَابِعِ الَّتِي يَخْتَلِفُ فِي فَمِ الْمِزْمَارِ فَتَصُوعُ صَفِيرَهُ^(٥) أَلْحَانًا، غَيْرَ أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ مَخْرَجُ الصَّوْتِ يُشَبِّهُ الْمِزْمَارَ بِالذَّلَالَةِ^(٦) وَالتَّعْرِيفِ، فَإِنَّ الْمِزْمَارَ بِالْحَقِيقَةِ هُوَ الْمُشَبَّهُ بِمَخْرَجِ الصَّوْتِ.

قَدْ أَنْبَأْتُكَ بِمَا فِي الْأَعْضَاءِ مِنَ الْغِنَاءِ فِي صُنْعَةِ الْكَلَامِ وَإِقَامَةِ الْحُرُوفِ، وَفِيهَا مَعَ الَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ مَارِبٌ أُخْرَى، فَالْحَنْجَرَةُ يُسَلِّكُ فِيهَا هَذَا النَّسِيمُ إِلَى الرِّئَةِ فَتَرَوُحَ عَلَى الْفُؤَادِ بِالنَّفْسِ الدَّائِمِ الْمُتَتَابِعِ الَّذِي لَوْ اخْتَسَسَ شَيْئًا يَسِيرًا لَهَلَكَ الْإِنْسَانُ، وَبِاللِّسَانِ تَذَاقُ الطُّعُومُ، فَيُمَيِّزُ بَيْنَهَا وَيَعْرِفُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا حُلُولَهَا مِنْ مَرَّهَا، وَحَامِضَهَا مِنْ مُزَّهَا^(٧)، وَمَالِحَهَا مِنْ عَذْبِهَا، وَطَيِّبَهَا مِنْ خَبِيثِهَا، وَفِيهِ مَعَ ذَلِكَ مَعُونَةٌ عَلَى إِسَاغَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَالْأَسْنَانُ تَمَضُّعُ الطَّعَامِ حَتَّى تُلَيْنَ وَيَسْهَلَ إِسَاغَتُهُ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ كَالسِّنْدِ لِلشَّفَتَيْنِ تُمْسِكُهُمَا وَتَدْعُمُهُمَا مِنْ دَاخِلِ الْفَمِ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِأَنَّكَ تَرَى مَنْ سَقَطَتْ أَسْنَانُهُ مُسْتَرْخَى الشَّقَّةِ وَمُضْطَرِبَهَا، وَبِالشَّفَتَيْنِ يَتَرَشَّفُ^(٨) الشَّرَابَ حَتَّى يَكُونَ الَّذِي يَصِلُ إِلَى الْجَوْفِ مِنْهُ بِقَصْدٍ وَقَدَرٍ لَا يُتَّجُّ تَجًّا، فَيَعَصَّ بِهِ الشَّارِبُ أَوْ يَنْكَأُ فِي الْجَوْفِ، ثُمَّ هُمَا بَعْدَ ذَلِكَ كَالْبَابِ الْمُطْبَقِ عَلَى الْفَمِ يَفْتَحُهُمَا الْإِنْسَانُ إِذَا شَاءَ، وَيُطْبِقُهُمَا إِذَا شَاءَ، ففِيمَا وَصَفْنَا مِنْ هَذَا بَيَانٌ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ يَتَصَرَّفُ وَيَنْقَسِمُ إِلَى وُجُوهِ مِنَ الْمَنَافِعِ، كَمَا تَتَصَرَّفُ الْأَدَاةُ الْوَاحِدَةُ فِي أَعْمَالٍ شَتَّى، وَذَلِكَ كَالْفَأْسِ^(٩) يُسْتَعْمَلُ فِي النَّجَارَةِ وَالْحَفْرِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَعْمَالِ، وَلَوْ رَأَيْتَ الدَّمَاعَ إِذَا كُشِفَ عَنْهُ لَرَأَيْتَهُ قَدْ لُفَّ بِحُجُبٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ، لِتَصُونَهُ مِنَ الْأَعْرَاضِ، وَتُمْسِكَهُ فَلَا يَضْطَرِبُ، وَلَرَأَيْتَ عَلَيْهِ الْجُمُجُمَةَ بِمَنْزِلَةِ الْبَيْضَةِ كَيْمَا يَفْتَهُ^(١٠) هَذِهِ الصَّدْمَةَ وَالصَّكَّةَ^(١١) الَّتِي رُبَّمَا وَقَعَتْ فِي

١. الأُنْبُوبَةُ: ما بين العقدتين في القصب والفناة، راجع لسان العرب.

٢. وفي نسخة: لم يفصح. (هامش المصدر)

٣. المِزْمَار: الآلة التي يزمر بها، راجع لسان العرب.

٤. الرِّقُّ: الجلد يجزَّ شعره، راجع لسان العرب.

٥. الصفير: الصوت بالفم والشفتين، راجع لسان العرب.

٦. وفي نسخة: بالآلة. (هامش المصدر)

٧. وفي نسخة: مَرَّهَا. (هامش المصدر)

٨. الرشف: المصّ، ويطرشف الشراب: يمصّه ويتناولُه قليلاً قليلاً، راجع لسان العرب.

٩. الفأس: آلة من آلات الحديد يحفر بها ويقطع، راجع لسان العرب.

١٠. في المصدر: «كيما تقيّه حدّ الصدمة»، وفيه ذكر من نسخة: «كيما يفتّه حدّ الصدمة»، وفي نسخة أخرى: «تقيّه حدّ الصدمة».

١١. الصكّ: الضرب الشديد، راجع لسان العرب.

الرَّأْسِ، ثُمَّ قَدْ جُلِّلَتْ الْجُمُجُمَةُ بِالشَّعْرِ حَتَّى صَارَ بِمَنْزِلَةِ الْفَرْوِ^(١) لِلرَّأْسِ يَسْتُرُهُ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ، فَمَنْ حَصَّنَ الدِّمَاغَ هَذَا التَّخْصِينَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُ، وَجَعَلَهُ يَنْبُوعَ الْحِسِّ وَالْمُسْتَحَقَّ لِلْحَيْطَةِ وَالصِّيَانَةِ بِعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ مِنَ الْبَدَنِ وَارْتِفَاعِ دَرَجَتِهِ وَخَطَرِ مَرْتَبَتِهِ؟

بيان:

«المز»: بين الحلو والحامض. و«الثج»: السيلان. و«الغصص»: أن يقف الشيء في الحلق فلم يكد يسيغه. و«الجمجمة»: عظم الرأس المشتغل على الدماغ. و«البيضة»: هي التي توضع على الرأس في الحرب. و«الفت»: الكسر. وهدد البناء: كسره وضغضعه، وهدته المصيبة أي أوهنت ركنه. و«الحيطة»: بالكسر: الحياطة والرعاية.

تَأْمَلْ يَا مُفْضِلُ الْجَفْنِ عَلَى الْعَيْنِ، كَيْفَ جُعِلَ كَالْعِشَاءِ، وَالْأَشْفَارَ كَالْأَشْرَاجِ^(٢)، وَأَوَّلَجَهَا فِي هَذَا الْغَارِ، وَأَظْلَمَهَا بِالْحِجَابِ وَمَا عَلَيْهِ مِنَ الشَّعْرِ.

بيان:

«الجفن»: غطاء العين من أعلى وأسفل. و«الأشفار»: هي حروف الأجفان التي عليها الشعر. و«الأشراج»: العرى، وكأنه طائر شابه الأشفار بالعرى والخيط المشدود بها، فإن بهما ترفع الأستار، وتسدل^(٣) عند الحاجة إليهما، أو بالعرى التي تكون في العيبة^(٤) من الأدم^(٥) وغيره، يكون فيها خيط إذا شدت به يكون ما في العيبة محفوظاً مستوراً، وكلاهما مناسب، والأول أنسب بالغشاء. قال الجزري: في حديث الأحنف: فأدخلت ثياب صوني العيبة فأشرجتها. يقال: أشرجت العيبة وشرجتها: إذا شدتها بالشرج وهي العرى. انتهى. و«أولجها» يعني أدخلها.

يَا مُفْضِلُ مَنْ غَيَّبَ^(٦) الْفَوَادَ فِي جَوْفِ الصَّدْرِ، وَكَسَاهُ الْمِدْرَعَةَ^(٧) الَّتِي هِيَ غِشَاوُهُ، وَحَصَّنَهُ بِالْجَوَانِحِ وَمَا عَلَيْهَا مِنَ اللَّحْمِ وَالْعَصَبِ لِنَلَا يَصِلَ إِلَيْهِ مَا يَنْكُوهُ^(٨)؟ مَنْ جَعَلَ فِي الْحَلْقِ مَقْدَينِ، أَحَدُهُمَا لِمَخْرَجِ الصَّوْتِ وَهُوَ الْحَلْقُومُ الْمُتَّصِلُ

١. الفرو: الذي يلبس من الجلود التي صوفها معها، راجع مجمع البحرين.

٢. وفي بعض النسخ: كالأشراج. (هامش المصدر)

٣. سدل الستر: أرخاه وأرسله، راجع لسان العرب.

٤. العيبة: وعاء من آدم، يكون فيها المتاع، راجع لسان العرب.

٥. الأديم: الجلد، والجمع أدم، راجع لسان العرب.

٦. وفي نسخة: عيَّب. (هامش المصدر)

٧. المدرعة: ثوب من صوف يتدرع به، راجع مجمع البحرين.

٨. نَكَأَ الْقَرْحَةَ يَنْكُوها: قشرها قبل أن تَبْرَأَ فَنَدَيْتْ، راجع لسان العرب.

بِالرَّئَةِ، وَالْآخَرُ مَنْقُذُ الْغِذَاءِ وَهُوَ الْمَرِيءُ الْمُتَّصِلُ بِالْمَعِدَةِ الْمُوَصَّلُ الْغِذَاءِ إِلَيْهَا، وَجَعَلَ عَلَى الْحُلُقُومِ طَبَقًا يَمْنَعُ الطَّعَامَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الرَّئَةِ فَيَقْتُلَ؟ مَنْ جَعَلَ الرَّئَةَ مُرَوِّحَةً^(١) الْفُؤَادِ، لَا تَفْتَرُّ وَلَا تُخَلُّ لِكَيْلَا تَتَحَيَّرَ^(٢) الْحَرَارَةُ فِي الْفُؤَادِ فَتَوْدِي إِلَى التَّلَفِّ؟ مَنْ جَعَلَ لِمَنَافِذِ الْبُولِ وَالْعَائِطِ أَشْرَاجًا^(٣) تَضْبِطُهَا، لِئَلَّا يَجْرِيَا جَرِيَانًا دَائِمًا فَيَفْسُدَ عَلَى الْإِنْسَانِ عَيْشُهُ؟ فَكَمْ عَسَى أَنْ يُخْصِيَ الْمُخْصِي مِنْ هَذَا؟ بَلِ الَّذِي لَا يُخْصِي مِنْهُ وَلَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ أَكْثَرُ. مَنْ جَعَلَ الْمَعِدَةَ عَصَبَانِيَّةً شَدِيدَةً وَقَدَّرَهَا لِهَضْمِ الطَّعَامِ الْعَلِيطِ؟ وَمَنْ جَعَلَ الْكَبِدَ رَقِيقَةً نَاعِمَةً لِقَبُولِ الصَّفْوِ اللَّطِيفِ مِنَ الْغِذَاءِ، وَلِتَهْضِمَ وَتَعْمَلَ مَا هُوَ أَلْطَفُ مِنْ عَمَلِ الْمَعِدَةِ إِلَّا اللَّهُ الْقَادِرُ؟ أَتَرَى الْإِهْمَالَ يَأْتِي بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ^(٤)؟ كَلَّا، بَلْ هُوَ تَدَبُّيرٌ مِنْ مُدَبِّرٍ حَكِيمٍ، قَادِرٍ عَلِيمٍ بِأَلْشَيْءٍ قَبْلَ خَلْقِهِ إِيَّاهَا، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

تبيان:

«الجوانح»: الأضلاع التي ممّا يلي الصدر. وقوله **طَبَقًا**: «لا تخل» من الإخلال بالشيء بمعنى تركه. وقوله **طَبَقًا**: «تتحير» إمّا من الحيز أي تسكن، أو من قولهم تحيرت الحية أي تلوت. فَكَرَّ يَا مُفَضَّلُ لِمَ صَارَتْ الْمُخُّ الرَّقِيقُ مُحْصَنًا فِي أَنْأَبِ^(٥) الْعِظَامِ؟ هَلْ ذَلِكَ إِلَّا لِيَحْفَظَهُ وَيَصُونَهُ؟ لِمَ صَارَ الدَّمُ السَّائِلُ مَحْضُورًا فِي الْعُرُوقِ بِمَنْزِلَةِ الْمَاءِ فِي الظُّرُوفِ إِلَّا لِيَتَضَبَّطَهُ فَلَا يَفِيضَ؟ لِمَ صَارَتْ الْأَطْفَارُ عَلَى أَطْرَافِ الْأَصَابِعِ إِلَّا وَقَايَةً لَهَا وَمَعُونَةً عَلَى الْعَمَلِ؟ لِمَ صَارَ دَاخِلُ الْأُذُنِ مُلْتَوِيًا كَهَيْئَةِ الْكُوكَبِ^(٦) إِلَّا لِيَطَّرِدَ فِيهِ الصَّوْتُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى السَّمْعِ، وَلِيَتَكَسَّرَ حُمَةُ الرِّيحِ فَلَا يَنْكَأَ فِي السَّمْعِ؟ لِمَ حَمَلَ الْإِنْسَانُ عَلَى فَخْذَيْهِ وَالْيَتِيَّةِ هَذَا اللَّحْمَ إِلَّا لِيَقْبِيَهُ مِنَ الْأَرْضِ فَلَا يَتَأَلَّمَ مِنَ الْجُلُوسِ عَلَيْهَا، كَمَا يَأَلَمُ مَنْ نَحَلَ جِسْمَهُ وَقَلَّ لَحْمُهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَرْضِ حَائِلٌ يَقْبِيهِ صَلَابَتُهَا؟ مَنْ جَعَلَ الْإِنْسَانَ ذَكَرًا وَأُنْثَى إِلَّا مَنْ خَلَقَهُ مُتَنَاسِلًا؟ وَمَنْ خَلَقَهُ مُوَمَّلًا؟ وَمَنْ خَلَقَهُ مُوَمَّلًا^(٧)، وَمَنْ أَعْطَاهُ آلَاتِ الْعَمَلِ إِلَّا مَنْ خَلَقَهُ عَامِلًا؟ وَمَنْ خَلَقَهُ عَامِلًا إِلَّا مَنْ جَعَلَهُ مُحْتَاجًا؟ وَمَنْ جَعَلَهُ مُحْتَاجًا إِلَّا مَنْ ضَرَبَهُ بِالْحَاجَةِ؟ وَمَنْ ضَرَبَهُ بِالْحَاجَةِ إِلَّا مَنْ تَوَكَّلَ بِتَقْوِيمِهِ؟ مَنْ خَصَّهُ بِالْفَهْمِ إِلَّا مَنْ أَوْجَبَ لَهُ الْجَزَاءَ؟ وَمَنْ وَهَبَ لَهُ الْحِيلَةَ إِلَّا مَنْ مَلَكَهُ الْحَوْلَ؟ وَمَنْ مَلَكَهُ الْحَوْلَ إِلَّا مَنْ أَلَزَمَهُ الْحُجَّةَ؟ مَنْ يَكْفِيهِ مَا لَا تَبْلُغُهُ حِيلَتُهُ إِلَّا مَنْ لَمْ يَبْلُغْ مَدَى شُكْرِهِ؟ فَكَرَّرْ وَتَدَبَّرْ مَا وَصَفْتُهُ، هَلْ تَجِدُ الْإِهْمَالَ عَلَى هَذَا النِّظَامِ وَالتَّرْتِيبِ؟ تَبَارَكَ اللَّهُ عَمَّا يَصِفُونَ.

١. المِزْوَحَةُ: آلة يجلب بها الريح [و مِزْوَحُ الْفُؤَادِ: مُدْخِلُ الرُّوحِ وَ النِّسِيمِ عَلَيْهِ]، راجع الطراز الأول.

٢. وفي نسخة: تتحير. (هامش المصدر)

٣. وفي نسخة: أشراجاً. (هامش المصدر)

٤. في نسخة: أترى من الإهمال يأتي بشيء من ذلك. (هامش المطبوع)

٥. الأنايب: جمع أنوب، راجع مجمع البحرين.

٦. في المصدر: «اللوب».

٧. لم يرد في المصدر: «ومن خلقه مؤملاً».

بيان:

«الكوكب»: المحبس. واطرد الشيء تبع بعضه بعضاً وجرى. وقال الجوهري: حمة الحر معظمه. وقوله **عَلَيْهِ**: «إلا من خلقه مؤملاً» إشارة إلى أن الأمل والرجاء في البقاء هو السبب لتحصيل النسل، ولذا جعل الإنسان ذا أمل لبقاء نوعه. قوله **عَلَيْهِ**: «إلا من ضربه بالحاجة» أي سبب له أسباب الاحتياج وخلق به بحيث يحتاج. قوله **عَلَيْهِ**: «إلا من توكل بتقويمه» أي تكفل برفع حاجته وتقويم أوده^(١). و«الحول»: القوة. أَصِفْ لَكَ الْآنَ يَا مَفْضَلُ الْفُؤَادِ، اعْلَمْ أَنَّ فِيهِ ثُقْباً مُوجَّهَةً نَحْوَ الثُّقْبِ الَّتِي فِي الرِّئَةِ تَرْوِّحُ عَنِ الْفُؤَادِ، حَتَّى لَوْ اخْتَلَفَتْ تِلْكَ الثُّقْبُ وَتَزَايَلَتْ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ لَمَا وَصَلَ الرُّوحُ إِلَى الْفُؤَادِ، وَلَهْلَكَ الْإِنْسَانُ، أَفَيَسْتَجِيزُ دُو فِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ أَنْ يَزْعُمَ أَنَّ مِثْلَ هَذَا يَكُونُ بِالْإِهْمَالِ، وَلَا يَجِدُ شَاهِداً مِنْ نَفْسِهِ يَنْزِعُهُ^(٢) عَنْ هَذَا الْقَوْلِ؟ لَوْ رَأَيْتَ فَرْدًا مِنْ مِصْرَاعَيْنِ فِيهِ كَلُوبٌ^(٣) أَكُنْتُ تَتَوَهَّمُ أَنَّهُ جَعَلَ كَذَلِكَ بِلا مَعْنَى؟ بَلْ كُنْتُ تَعْلَمُ صَرُورَةَ أَنَّهُ مَصْنُوعٌ يَلْقَى فَرْدًا آخَرَ فَتُبْرَرُهُ^(٤) لِيَكُونَ فِي اجْتِمَاعِهِمَا ضَرْبٌ مِنَ الْمُصْلَحَةِ، وَهَكَذَا تَجِدُ الذَّكَرَ مِنَ الْحَيَوَانِ، كَأَنَّهُ فَرْدٌ مِنْ زَوْجٍ مُهَيَّأً^(٥) مِنْ فَرْدٍ أُنْثَى، فَيَلْتَقِيَانِ لِمَا فِيهِ مِنْ دَوَامِ النَّسْلِ وَبَقَائِهِ، فَتَبّاً وَخَيْبَةً وَتَعْساً لِمُنْتَحِلِي الْفَلَسَفَةِ، كَيْفَ عَمِيَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ هَذِهِ الْخِلْقَةِ الْعَجِيبَةِ حَتَّى أَنْكَرُوا التَّدْبِيرَ وَالْعَمَدَ فِيهَا؟ لَوْ كَانَ فَرَجُ الرَّجُلِ مُسْتَرْخِياً كَيْفَ كَانَ يَصِلُ إِلَى قَعْرِ الرَّحِمِ حَتَّى يُفْرِغَ النُّطْفَةَ فِيهِ؟ وَلَوْ كَانَ مُعْظَا أَبَدٍ كَيْفَ كَانَ الرَّجُلُ يَتَقَلَّبُ فِي الْفِرَاشِ، أَوْ يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ وَشَيْءٍ شَاخِصٍ أَمَامَهُ؟ ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مَعَ قُبْحِ الْمُنْظَرِ تَحْرِيكُ الشَّهْوَةِ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ جَمِيعاً، فَقَدَّرَ اللَّهُ جَلَّ اسْمُهُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ ذَلِكَ لَا يَبْدُو لِلْبَصَرِ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَلَا يَكُونُ عَلَى الرِّجَالِ مِنْهُ مَوْؤَنَةٌ، بَلْ جَعَلَ فِيهِ الْقُوَّةَ عَلَى الْإِنْتِصَابِ وَقَتَّ الْحَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ لِمَا قَدَّرَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ دَوَامُ النَّسْلِ وَبَقَاؤُهُ.

توضيح:

قال الجوهري: وزعته أزعه وزعاً: كففته. انتهى. و«الكلوب» بالتشديد: حديدة معوجة الرأس، وفي بعض النسخ «كلون» وهو فارسي. قوله **عَلَيْهِ**: «مهيأة» في بعض النسخ بالياء، فلفظة «من» تعليلية، وفي بعضها بالنون ف«من» تعليلية أو ابتدائية، أي إنما يتم عيشه بأنثى، وعلى التقديرين يحتمل أن يكون بمعنى «مع» إن جَوَّز استعماله فيه. وقال الجوهري: تَبّاً لفلان، تنصبه على المصدر بإضمار فعل أي ألزمه الله هلاكاً وخسراناً، وقال: التمس: الهلاك، يقال: تمساً لفلان، أي ألزمه الله هلاكاً.

١. الأود: العوج، راجع لسان العرب.

٢. في المصدر: «يزعه»، ويؤيده ما في توضيح العلامة «رحمه الله» من قول الجوهري.

٣. وفي نسخة: كلون. (هامش المصدر)

٤. وفي نسخة: فيقرّره. (هامش المصدر)

٥. وفي نسختي بدل: كأنه فرد من زوج مهناً. (هامش المصدر)

اعْتَبِرِ الْآنَ يَا مُفَضَّلُ بِعَظِيمِ النِّعْمَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ وَتَسْهِيلِ خُرُوجِ الْأَذَى، أَلَيْسَ مِنْ حُسْنِ التَّقْدِيرِ فِي بِنَاءِ الدَّارِ أَنْ يَكُونَ الْخَلَاءُ فِي أَسْتَرٍ مَوْضِعٍ فِيهَا^(١)؟ فَكَذَا جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمَنْفَذَ الْمُهِيبَ لِلْخَلَاءِ مِنَ الْإِنْسَانِ فِي أَسْتَرٍ مَوْضِعٍ مِنْهُ، فَلَمْ يَجْعَلْهُ بَارِزاً مِنْ خَلْفِهِ، وَلَا نَاشِراً^(٢) مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، بَلْ هُوَ مُغَيَّبٌ فِي مَوْضِعٍ غَامِضٍ مِنَ الْبَدَنِ، مَسْتُورٌ مَحْجُوبٌ يَلْتَقِي عَلَيْهِ الْفَخْدَانِ، وَتَحْجُبُهُ الْأَلْيَتَانِ بِمَا عَلَيْهِمَا مِنَ اللَّحْمِ فَيُورِيَانِهِ، فَإِذَا احتَاجَ الْإِنْسَانُ إِلَى الْخَلَاءِ وَجَلَسَ تِلْكَ الْجِلْسَةَ أَلْفَى ذَلِكَ الْمَنْفَذَ مِنْهُ مُنْصَباً مُهِيباً لِإِنْجَادِ الثُّفْلِ^(٣)، فَتَبَارَكَ اللَّهُ مَنْ تَظَاهَرَتْ آلاؤُهُ، وَلَا تُحْصَى نِعَمَاؤُهُ.

بيان:

«ألفى» أي وجد. وقوله طائلاً: «منصباً» إما من الانصباب، كناية عن التدلي^(٤)، أو من باب التفعيل من النصب، قال الفيروزآبادي: نصب الشيء وضعه ورفع ضده، كنصبه فانتصب وتنصب. فكَرَّ يَا مُفَضَّلُ فِي هَذِهِ الطَّوَاخِنِ^(٥) الَّتِي جُعِلَتْ لِلْإِنْسَانِ، فَبَعْضُهَا حُدَادٌ لِقَطْعِ الطَّعَامِ وَقَرْضِهِ، وَبَعْضُهَا عُرَاضٌ لِمَضْغِهِ وَرَضِهِ^(٦)، فَلَمْ يَنْقُصْ وَاحِدٌ مِنَ الصَّنَعَتَيْنِ^(٧) إِذْ كَانَ مُحْتَاجاً إِلَيْهِمَا جَمِيعاً. تَأَمَّلْ وَاعْتَبِرْ بِحُسْنِ التَّدْبِيرِ فِي خَلْقِ^(٨) الشَّعْرِ وَالْأَظْفَارِ، فَإِنَّهُمَا لَمَّا كَانَا مِمَّا يَطُولُ وَيَكْثُرُ حَتَّى يُحْتَاجَ إِلَى تَخْفِيفِهِ أَوَّلًا فَأَوَّلًا جِعَلَا عَدِيمِي الْحِسِّ، لِنَّالَا يُؤْلِمَ الْإِنْسَانُ الْأَخْذُ مِنْهُمَا، وَلَوْ كَانَ قَصُّ الشَّعْرِ وَتَقْلِيمُ الْأَظْفَارِ مِمَّا يُوجَدُ لَهُ مَسٌّ مِنْ ذَلِكَ لَكَانَ الْإِنْسَانُ مِنْ ذَلِكَ^(٩) بَيْنَ مَكْرُوهَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَدَعَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَتَّى يَطُولَ فَيَثْقُلَ عَلَيْهِ، وَإِمَّا أَنْ يَخَفِّقَهُ بِوَجَعٍ وَالْمِ يَتَأَلَّمُ مِنْهُ.

قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَقُلْتُ: فَلِمَ لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ خِلْفَةً لَا تَزِيدُ فَيَحْتَاجُ الْإِنْسَانُ إِلَى التَّنْصَانِ مِنْهُ؟ فَقَالَ طائلاً: إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ اسْمُهُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْعَبْدِ نِعْمًا لَا يَعْرِفُهَا فَيَحْمَدُ عَلَيْهَا، اعْلَمْ أَنَّ آلامَ الْبَدَنِ وَأَدْوَاءَهُ تَخْرُجُ بِخُرُوجِ الشَّعْرِ فِي مَسَامِهِ^(١٠)

١. في المصدر: «في أستر موضع منها».

٢. في المصدر: «ولا ناشراً».

٣. الثفل: ما استقر تحت الشيء من كُدرة، راجع القاموس المحيط.

٤. التدلي: النزول من العلو، راجع لسان العرب.

٥. الطواحين: الأضراس، راجع لسان العرب.

٦. رَضَهُ: كسره، راجع مقدمة الأدب.

٧. وفي نسخة: الصنعتين. (هامش المصدر)

٨. وفي بعض النسخ: خلق. (هامش المصدر)

٩. وفي نسخة: ممَّا يوجد له ألم وقع من ذلك؛ وفي نسخة بدل: ممَّا يوجب له مس ذلك لمكان الإنسان من ذلك. (هامش المصدر)

١٠. المسام: هي المنافذ في جسم الإنسان يخرج منها العرق والبخار، راجع فقه اللغة.

وَبَخْرُوجِ الْأَظْفَارِ مِنْ أَنَامِلِهَا، وَلِذَلِكَ أُمِرَ الْإِنْسَانُ بِالثُّورَةِ وَحَلَقِ الرَّأْسِ وَقَصِّ الْأَظْفَارِ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ لِيُسْرَعَ الشَّعْرُ وَالْأَظْفَارُ فِي النَّبَاتِ، فَتَخْرُجَ الْأَلَامُ وَالْأَذْوَاءُ بِخُرُوجِهَا، وَإِذَا طَالَ تَحَيَّرًا^(١) وَقَلَّ خُرُوجُهُمَا، فَاخْتَبَسَتْ الْأَلَامُ وَالْأَذْوَاءُ فِي الْبَدَنِ، فَأَحْدَثَتْ عِلَلًا وَأَوْجَاعًا^(٢) وَمَنَعَ مَعَ ذَلِكَ الشَّعْرَ مِنَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي يُضَرُّ بِالْإِنْسَانِ، وَيُحْدِثُ عَلَيْهِ الْفَسَادَ وَالضَّرَرَ، لَوْ نَبَتَ الشَّعْرُ فِي الْعَيْنِ أَلَمْ يَكُنْ سَيَعْمَى الْبَصَرُ؟ وَلَوْ نَبَتَ فِي الْفَمِ أَلَمْ يَكُنْ سَيَغْصُّ عَلَى الْإِنْسَانِ طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ؟ وَلَوْ نَبَتَ فِي بَاطِنِ الْكَفِّ أَلَمْ يَكُنْ سَيَعُوقُهُ^(٣) عَنْ صِحَّةِ اللَّحْسِ وَبَعْضِ الْأَعْمَالِ؟ فَلَوْ نَبَتَ فِي فَرْجِ الْمَرْأَةِ أَوْ عَلَى ذَكَرِ الرَّجُلِ أَلَمْ يَكُنْ سَيُفْسِدُ عَلَيْهِمَا لَذَّةَ الْجِمَاعِ؟ فَانْظُرْ كَيْفَ تَتَكَبَّبُ^(٤) الشَّعْرُ هَذِهِ الْمَوَاضِعَ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ، ثُمَّ لَيْسَ هَذَا فِي الْإِنْسَانِ فَقَطْ، بَلْ تَجِدُهُ فِي الْبَهَائِمِ وَالسَّبَاعِ وَسَائِرِ الْمُتَنَاسِلَاتِ، فَإِنَّكَ تَرَى أَجْسَامَهُنَّ مُجَلَّلَةً بِالشَّعْرِ، وَتَرَى هَذِهِ الْمَوَاضِعَ خَالِيَةً مِنْهُ لِهَذَا السَّبَبِ بَعِيْنِهِ، فَتَأْمَلِ الْخَلْقَةَ كَيْفَ تَتَحَرَّرُ وَجُوهَ الْخَطَا وَالْمُضَرَّةِ، وَتَأْتِي بِالصَّوَابِ وَ الْمُنْفَعَةِ، إِنَّ الْمَنَاقِبَ^(٥) وَأَشْبَاهَهُمْ حِينَ اجْتَهَدُوا فِي عَيْبِ الْخَلْقَةِ وَالْعَمْدِ عَابُوا الشَّعْرَ الثَّابِتَ عَلَى الرِّكَبِ وَالْإِبْطَيْنِ^(٦)، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ رُطُوبَةٍ تَنْصَبُ إِلَى هَذِهِ الْمَوَاضِعِ فَيَنْبُتُ فِيهَا الشَّعْرُ، كَمَا يَنْبُتُ الْعُشْبُ فِي مُسْتَنْقَعِ الْمِيَاهِ، أَفَلَا تَرَى إِلَى هَذِهِ الْمَوَاضِعِ أَشْتَرَ وَأَهْيَأَ لِقَبُولِ تِلْكَ الْفَضْلَةِ مِنْ غَيْرِهَا؟ ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ تُعَدُّ^(٧) مِمَّا يَحْمِلُ الْإِنْسَانُ مِنْ مَوْنَةِ هَذَا الْبَدَنِ وَتَكَالُفِهِ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ، فَإِنَّ اهْتِمَامَهُ بِتَنْظِيفِ بَدَنِهِ وَأَخْذَ مَا يَعْلُوهُ مِنَ الشَّعْرِ مِمَّا يَكْسِرُ بِهِ شَرَّتَهُ^(٨)، وَيَكْفُ عَادِيَّتَهُ، وَيَشْغَلُهُ عَنْ بَعْضِ مَا يُخْرِجُهُ إِلَيْهِ الْفَرَاغُ مِنَ الْأَشْرِ وَالْبِطَالَةِ^(٩). تَأْمَلِ الرِّيقَ وَمَا فِيهِ

١. في المصدر: «تَحَيَّرًا».

٢. الوجع: المرض، والجمع أوجاع، راجع الصحاح.

٣. عاقه عن الأمر: منعه، راجع مقدمة الأدب.

٤. تتكَبَّبَ عنه: تجنَّبه، راجع شمس العلوم.

٥. وفي نسخة: المانوية. (هامش المصدر)

٦. الإبط، باطن المنكب، راجع لسان العرب.

٧. وفي نسخة: بعد. (هامش المصدر)

٨. وفي نسخة: شرهه. (هامش المصدر)

٩. **نقول:** وهذا مثل ما ورد في كتاب الله المنزل: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ (الشرح/٧) أي إذا انتهيت من أداء أمر مهم فابدأ بمهمة أخرى، فلا مجال للبطالة والعطل. كن دائماً في سعي مستمر ومجاهدة دائمة، واجعل نهاية أية مهمة بداية لمهمة أخرى. موضوع «الفراغ» في الآية لم يذكر، وكلمة «فانصب» من النصب أي التعب والمشقة، ولذلك فالآية تبين أصلاً عاماً شاملاً، وهدفها أن تحتل النبي باعتباره القدوة على عدم الخلود إلى الراحة بعد انتهائه من أمر هام، وتدعوه إلى السعي المستمر. انطلاقاً من هذا المعنى يتضح أن التفاسير المذكورة للآية كلها صحيحة، ولكن كل واحد منها يقتصر على مصداق معين من هذا المعنى العام. وما أعظم العطاء التربوي لهذا الحث، وكم فيه من معاني التكامل والانتصار! البطالة والفراغ من عوامل الملل والخمول والتقاعس والاضمحلال، بل من عوامل الفساد والسقوط في أنواع الذنوب غالباً. وحسب الإحصائيات، مستوى الفساد عند عطلة المؤسسات التعليمية يرتفع إلى شعبة أضعاف أحياناً.

مِنَ الْمُنْفَعَةِ، فَإِنَّهُ جُعِلَ يَجْرِي جَرَيَانًا دَائِمًا إِلَى الْقَمِّ لِيُبَلِّغَ الْحَلْقَ وَاللَّهُوَاتِ فَلَا يَجِفُّ، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَوَاضِعَ لَوْ جُعِلَتْ كَذَلِكَ كَانَ فِيهِ هَلَاكُ الْإِنْسَانِ^(١)، ثُمَّ كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُسَيِّغَ^(٢) طَعَامًا إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْقَمِّ بِلَّةٌ تُنْفِذُهُ، تَشْهَدُ بِذَلِكَ الْمُسَاهَدَةُ. وَاعْلَمْ أَنَّ الرُّطُوبَةَ مَطِيَّةُ الْغِذَاءِ، وَقَدْ تَجْرِي مِنْ هَذِهِ الْبِلَّةِ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ مِنَ الْمِرَّةِ^(٣) فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ صَلَاحٌ تَامٌ لِلْإِنْسَانِ^(٤)، وَلَوْ بَيَسَتْ الْمِرَّةُ لَهَلَكَ الْإِنْسَانُ وَلَقَدْ قَالَ قَوْمٌ مِنْ جَهْلَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ وَضَعَفَةِ الْمُتَفَلِّسِينَ بِقِلَّةِ التَّمَيُّزِ وَقُصُورِ الْعِلْمِ: لَوْ كَانَ بَطْنُ الْإِنْسَانِ كَهَيْئَةِ الْقَبَاءِ يَفْتَحُهُ الطَّبِيبُ إِذَا شَاءَ، فَيَعَايِنُ مَا فِيهِ، وَيُدْخِلُ يَدَهُ فَيَعَالِجُ مَا أَرَادَ عِلَاجَهُ، أَلَمْ يَكُنْ أَصْلَحَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُصَمَّتًا مَحْجُوبًا عَنِ الْبَصَرِ وَالْيَدِ، لَا يَعْرِفُ مَا فِيهِ إِلَّا بِدَلَالَاتٍ غَامِضَةٍ، كَمَثَلِ النَّظَرِ إِلَى الْبُولِ وَحَسَّ^(٥) الْعِرْقُ وَمَا أَشَبَّهُ ذَلِكَ مِمَّا يَكْثُرُ فِيهِ الْغَلَطُ وَالشُّبْهَةُ حَتَّى رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِلْمَوْتِ، فَلَوْ عَلِمَ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةُ أَنَّ هَذَا لَوْ كَانَ هَكَذَا كَانَ أَوَّلَ مَا فِيهِ أَنَّهُ كَانَ يَسْقُطُ عَنِ الْإِنْسَانِ الْوَجَلُ^(٦) مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْمَوْتِ، وَكَانَ يَسْتَشْعِرُ الْبَقَاءَ وَيَعْتَرِ بِالسَّلَامَةِ، فَيُخْرِجُهُ ذَلِكَ إِلَى الْعُتُوِّ وَالْأَشْرِ، ثُمَّ كَانَتْ الرُّطُوبَاتُ الَّتِي فِي الْبَطْنِ تَتَرَشَّعُ وَتَتَحَلَّبُ فَيُفْسِدُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَقْعَدَهُ وَمَرْفَدَهُ وَثِيَابَ بَدَنِهِ^(٧) وَزِينَتَهُ، بَلْ كَانَ يُفْسِدُ عَلَيْهِ عَيْشَهُ، ثُمَّ إِنَّ الْمَعِدَةَ وَالْكَبِدَ وَالْقَوَادِ إِنَّمَا تَفْعَلُ أَفْعَالَهَا بِالْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ مُحْتَبَسَةً فِي الْجَوْفِ، فَلَوْ كَانَ فِي الْبَطْنِ فَرْجٌ يَنْفَتَحُ حَتَّى يَصِلَ الْبَصَرُ إِلَى رُؤْيَيْهِ وَالْيَدُ إِلَى عِلَاجِهِ لَوَصَلَ بَرْدُ الْهَوَاءِ إِلَى الْجَوْفِ، فَمَارَجَ الْحَرَارَةُ الْغَرِيزِيَّةَ، وَبَطَلَ عَمَلُ الْأَحْشَاءِ، فَكَانَ فِي ذَلِكَ هَلَاكُ الْإِنْسَانِ. أَفَلَا تَرَى أَنَّ كُلَّ مَا تَذْهَبُ إِلَيْهِ الْأَوْهَامُ سِوَى مَا جَاءَتْ بِهِ الْخِلْقَةُ خَطَأً وَخَطَلٌ؟

إيضاح:

«الركب» بالتحريك: منبت العانة. ومستنقع الماء بالفتح: مجتمعه. وشرّة الشّباب بالكسر: حرصه ونشاطه. «والعادية» الظلم والشرّ. و«الأشر» بالتحريك: البطر وشدة الفرح. و«اللّهوات» جمع لهات وهي اللحمية في سقف أقصى الفم. وقوله ^{عليه السلام}: «من المِرَّة» بيان لموضع آخر. وعتا عتوا: استكبر وجاوز الحد. ويقال تحلب العرق، أي سال. و«الخطل»: المنطق الفاسد المضطرب.

فَكَزَّ يَا مُفْضَلُ فِي الْأَفْعَالِ الَّتِي جُعِلَتْ فِي الْإِنْسَانِ مِنَ الطُّعْمِ وَالنَّوْمِ وَالْجِمَاعِ وَمَا دُبِّرَ فِيهَا، فَإِنَّهُ جُعِلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ

١. وفي نسخة: الأسنان. (هامش المصدر)

٢. وفي نسخة: يشبع. (هامش المصدر)

٣. المِرَّة: خلط من أخلاط البدن، وقال العلامة المجلسي: «هي بالكسر تطلق على الصفراء والسوداء»، راجع المصباح المنير، ومرة العقول،

ج ١٦، ص ٢٨٧.

٤. وفي نسخة: للأسنان. (هامش المصدر)

٥. في المصدر: «وجس».

٦. الوجل: الفزع والخوف، راجع لسان العرب.

٧. وفي نسخة: بدلته. (هامش المصدر)

مِنْهَا فِي الطَّبَاعِ نَفْسِهِ مُحَرَّكَ يُقْتَضِيهِ، وَيَسْتَحِثُّ بِهِ، فَالْجُوعُ يَقْتَضِي الطَّعْمَ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الْبَدَنِ وَقَوَامُهُ^(١)، وَالْكَرَى تَقْتَضِي النَّوْمَ الَّذِي فِيهِ رَاحَةُ الْبَدَنِ وَإِجْمَامُ قُوَاهُ، وَالشَّبَقُ يَقْتَضِي الْجَمَاعَ الَّذِي فِيهِ دَوَامُ النَّسْلِ وَبَقَاؤُهُ، وَلَوْ كَانَ الْإِنْسَانُ إِنَّمَا يَصِيرُ إِلَى أَكْلِ الطَّعَامِ لَمَعْرِفَتِهِ بِحَاجَةِ بَدَنِهِ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَجِدْ مِنْ طِبَاعِهِ شَيْئًا يَضْطَرُّهُ إِلَى ذَلِكَ، كَانَ خَلِيقًا أَنْ يَتَوَانَى عَنْهُ أَخْيَانًا بِالثَّقَلِ وَالْكَسَلِ حَتَّى يَنْحَلَّ بَدَنُهُ فِيهِلِكَ، كَمَا يَحْتَاجُ الْوَاحِدُ إِلَى الدَّوَاءِ بِشَيْءٍ مِمَّا يَصْلُحُ بِسَدَنِهِ فَيَدَافِعُ بِهِ حَتَّى يُؤَدِّيَهُ ذَلِكَ إِلَى الْمَرَضِ وَالْمَوْتِ، وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ إِنَّمَا يَصِيرُ إِلَى النَّوْمِ بِالتَّفَكُّرِ فِي حَاجَتِهِ إِلَى رَاحَةِ الْبَدَنِ وَإِجْمَامِ قُوَاهُ كَانَ عَسَى أَنْ يَتَنَاقَلَ عَنْ ذَلِكَ فَيَدْمَعُهُ^(٢) حَتَّى يَنْهَكَ بَدَنَهُ، وَلَوْ كَانَ إِنَّمَا يَتَحَرَّكُ لِلْجَمَاعِ بِالرَّغْبَةِ فِي الْوَلَدِ كَانَ غَيْرَ بَعِيدٍ أَنْ يَفْتَرَّ عَنْهُ حَتَّى يَقِلَّ^(٣) النَّسْلُ أَوْ يَنْقَطِعَ، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَزْغَبُ فِي الْوَلَدِ وَلَا يَحْفَلُ بِهِ، فَانْظُرْ كَيْفَ جُعِلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَفْعَالِ الَّتِي بِهَا قَوَامُ الْإِنْسَانِ وَصَلَاحُهُ مُحَرَّكَ مِنْ نَفْسِ الطَّبْعِ يُحَرِّكُهُ لِذَلِكَ وَيَحْدُوهُ عَلَيْهِ^(٤)، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الْإِنْسَانِ قُوَى أَرْبَعًا: قُوَّةٌ جاذِبَةٌ تَقْبَلُ الْغِذَاءَ وَتُورِدُهُ عَلَى الْمِعْدَةِ، وَقُوَّةٌ مُمَسِّكَةٌ تَحْبِسُ الطَّعَامَ حَتَّى تَفْعَلَ فِيهِ الطَّبِيعَةُ فِعْلَهَا، وَقُوَّةٌ هَاضِمَةٌ وَهِيَ الَّتِي تَطْبُخُهُ^(٥) وَتَسْتَخْرِجُ صَفْوَهُ، وَتَبْيُثُهُ^(٦) فِي الْبَدَنِ، وَقُوَّةٌ دَافِعَةٌ تَدْفَعُهُ وَتَحْدُرُ الثُّغْلَ الْفَاضِلَ بَعْدَ اخْتِاخِذِ الْهَاضِمَةِ حَاجَتَهَا، تَفَكَّرْ فِي تَقْدِيرِ هَذِهِ الْقُوَى الْأَرْبَعَةِ الَّتِي فِي الْبَدَنِ وَأَفْعَالِهَا وَتَقْدِيرِهَا لِلْحَاجَةِ إِلَيْهَا، وَالْإِزْبِ فِيهَا، وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالْحِكْمَةِ، وَلَوْ لَا الْجاذِبَةُ كَيْفَ يَتَحَرَّكُ الْإِنْسَانُ لَطَلَبِ الْغِذَاءِ الَّتِي بِهَا قَوَامُ الْبَدَنِ؟ وَلَوْ لَا الْمَاسِكَةُ كَيْفَ كَانَ يَلْبَثُ الطَّعَامُ فِي الْجَوْفِ حَتَّى تَهْضِمَهُ الْمِعْدَةُ؟ وَلَوْ لَا الْهَاضِمَةُ كَيْفَ كَانَ يَنْطَبِخُ حَتَّى يَخْلُصَ مِنْهُ الصَّفْوُ الَّذِي يَغْدُو الْبَدَنَ وَيَسُدُّ خُلُقَهُ؟ وَلَوْ لَا الدَّافِعَةُ كَيْفَ كَانَ الثُّغْلُ الَّذِي تُخَلِّفُهُ الْهَاضِمَةُ يَنْدَفِعُ وَيَخْرُجُ أَوَّلًا فَأَوَّلًا؟ أَفَلَا تَرَى كَيْفَ وَكَّلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِلطيفِ^(٧) صُنْعِهِ وَحُسْنِ تَقْدِيرِهِ هَذِهِ الْقُوَى بِالْبَدَنِ وَالْقِيَامِ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُ؟ وَسَامِثُ لَكَ فِي ذَلِكَ مِثَالًا: إِنَّ الْبَدَنَ بِمَنْزِلَةِ دَارِ الْمَلِكِ، وَلَهُ فِيهَا حَشَمٌ وَصَبِيَّةٌ^(٨) (٩) وَقَوَامٌ^(١٠) مُوَكَّلُونَ بِالْأَمْرِ، فَوَاحِدٌ لِإِفْضَاءِ^(١١) حَوَائِجِ الْحَشَمِ وَإِبْرَادِهَا عَلَيْهِمْ، وَآخَرُ لِقَبْضِ مَا يَرِدُ

١. وفي نسخة: الذي فيه راحة البدن وقوامه. (هامش المصدر)

٢. في المصدر: «فيدفعه».

٣. وفي نسخة بدل: يهلك. (هامش المصدر)

٤. حدوته على كذا: سقته وبعثته عليه، راجع معجم مقاييس اللغة.

٥. وفي نسختي بدل: وهي التي تطحنه. (هامش المصدر)

٦. وفي نسخة: تبثه. (هامش المصدر)

٧. في المصدر: «بلطف».

٨. الصبي: الغلام، والجمع صبيّة وصبيان، راجع لسان العرب.

٩. في المصدر: «وضبته».

١٠. القوام: جمع قائم، وهو من قام بالأمر، راجع المغرب والمصباح المنير.

١١. في المصدر: «لإفضاء»، وفيه ذكر من بعض النسخ: لإفضاء.

وَحَزَنِهِ^(١) إِلَى أَنْ يُعَالَجَ وَيُهَيَّأَ، وَآخِرُ لِعِلَاجِ ذَلِكَ وَتَهْيِئَتِهِ وَتَفْرِيقِهِ، وَآخِرُ لِنَتْنِيفِ مَا فِي الدَّارِ مِنَ الْأَقْدَارِ وَإِخْرَاجِهِ مِنْهَا، فَالْمَلِكُ فِي هَذَا هُوَ الْخَلَّاقُ الْحَكِيمُ مَلِكُ الْعَالَمِينَ، وَالدَّارُ هِيَ الْبَدَنُ، وَالْحَشَمُ هِيَ الْأَعْضَاءُ، وَالْقَوَامُ هِيَ هَذِهِ الْقَوَى الْأَرْبَعُ، وَلَعَلَّكَ تَرَى ذِكْرَنَا هَذِهِ الْقَوَى الْأَرْبَعُ وَأَفْعَالَهَا بَعْدَ الَّذِي وَصِفَتْ فَضْلاً وَتَزْدَاداً^(٢)، وَلَيْسَ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ هَذِهِ الْقَوَى عَلَى الْجِهَةِ الَّتِي ذَكَرْتُ فِي كُتُبِ الْأَطْبَاءِ، وَلَا قَوْلُنَا فِيهِ كَقَوْلِهِمْ، لِأَنَّهُمْ ذَكَرُوهَا عَلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي صِنَاعَةِ الطَّبِّ وَتَصْحِيحِ الْأُبْدَانِ، وَذَكَرْنَاَهَا عَلَى مَا يَحْتَاجُ فِي صَلَاحِ الدِّينِ وَشِفَاءِ النَّفْسِ مِنَ الْغَيِّ^(٣)، كَالَّذِي أَوْضَحْتُهُ بِالْوَصْفِ الشَّافِي وَالْمَثَلِ الْمَضْرُوبِ مِنَ التَّذْيِيرِ وَالْحِكْمَةِ فِيهَا.

تبيان:

«الطعم» بالضم: الأكل. و«الكرى»: السهر. و«الجمام» بالفتح: الراحة، يقال: جمّ الفرس جمّاً وجماماً إذا ذهب إعياءه. و«الشبق» بالتحريك: شدة شهوة الجماع. وتوانى في حاجته أي قصر. و«لا يحفل به» أي لا يبالي به. و«تحدّر الثفل» كتصغر أي ترسل. وقوله عليه السلام: «ولو لا الجاذبة» يدلّ على أنّ لها مدخلاً في شهوة الطعام. وقوله عليه السلام: «خلله» كأنه بالضم جمع الخلّة وهي الحاجة، أو بالكسر أي الخلال والفرج التي حصلت في البدن بتحلل الرطوبات. قوله عليه السلام: و«لعلّك ترى» يحتمل أن يكون الغرض دفع توهم السائل كون ذكر التمثيل بعد ذكر القوى ومنافعها على الوجه الذي ذكره الأطباء، واكتفوا به إطناباً وتكراراً، وحاصله أنّ الأطباء إنّما ذكروها على ما يحتاجون إليه في صناعتهم من ذكر أفعال تلك القوى وسبب تعطلها، ولذا لم يحتاجوا إلى ذكر ما أوردنا من التمثيل، ونحن إنّما ذكرنا هذا التمثيل لتتضح دلالتها على صانعها ومدبرها، إذ هذه مقصودنا من ذكرها. ويحتمل أن يكون الغرض رفع توهم أنّ ذكره هذه القوى بعد كونها مذكورة في كتب الأطباء فضل لا حاجة إليه بأنّ الغرض مختلف في بياننا وبيانهم، وبذلك يختلف التقرير أيضاً فلذا ذكرنا هاهنا بهذا التقرير الشافي، فالضمير في قوله عليه السلام: «وصفت» على بناء المجهول راجع إلى القوى والعائد محذوف، أي وصفت به لكنّه بعيد.

تَأَمَّلْ يَا مُفَضَّلُ هَذِهِ الْقَوَى الَّتِي فِي النَّفْسِ وَمَوْقِعَهَا مِنَ الْإِنْسَانِ، أَعْنِي الْفِكْرَ وَالْوَهْمَ وَالْعَقْلَ وَالْحِفْظَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، أَفَرَأَيْتَ لَوْ نَقَصَ الْإِنْسَانُ مِنْ هَذِهِ الْخِلَالِ الْحِفْظَ وَحَدَهُ كَيْفَ كَانَتْ تَكُونُ حَالُهُ؟ وَكَمْ مِنْ خَلَلٍ كَانَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ فِي أُمُورِهِ وَمَعَاشِهِ وَتَجَارِبِهِ^(٤) إِذَا لَمْ يَحْفَظْ مَا لَهُ وَعَلَيْهِ، وَمَا أَخَذَهُ وَمَا أُعْطِيَ، وَمَا رَأَى وَمَا سَمِعَ، وَمَا قَالَ وَمَا قِيلَ لَهُ،

١. حَزَنَ الشَّيْءَ يَحْزُنُهُ حَزْناً: أَحْزَرَهُ وَجَعَلَهُ فِي حِزَانَةٍ، رَاجِعَ لِسَانَ الْعَرَبِ.

٢. فِي الْمَصْدَرِ: «تَرْدَاداً».

٣. وَفِي نَسْخَةِ الْعِيّ. (هَامِشُ الْمَصْدَرِ)

٤. فِي الْمَصْدَرِ: «تَجَارَتُهُ».

وَلَمْ يَذْكُرْ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ مِمَّنْ أَسَاءَ بِهِ، وَمَا نَفَعَهُ مِمَّا ضَرَّهُ؟ ثُمَّ كَانَ لَا يَهْتَدِي لِطَرِيقِ لَوْ سَلَكَهُ مَا لَا يُحْصَى، وَلَا يَحْفَظُ عِلْمًا وَلَوْ دَرَسَهُ عُمُرُهُ، وَلَا يَعْتَقِدُ دِينًا، وَلَا يَنْتَفِعُ بِتَجْرِبَةٍ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْتَبِرَ شَيْئًا عَلَى مَا مَضَى، بَلْ كَانَ حَقِيقًا^(١) أَنْ يَنْسَلِخَ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ أَصْلًا^(٢)، فَاَنْظُرْ إِلَى النُّعْمَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْخِلَالِ، وَكَيْفَ مَوْقِعُ الْوَاحِدَةِ مِنْهَا دُونَ الْجَمِيعِ؟ وَأَعْظَمُ مِنَ النُّعْمَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي الْحِفْظِ النُّعْمَةُ فِي النِّسْيَانِ، فَإِنَّهُ لَوْ لَا النِّسْيَانُ لَمَا سَلَاحَدٌ عَنْ مُصِيبَةٍ، وَلَا انْقَضَتْ لَهُ حَسْرَةٌ، وَلَا مَاتَ لَهُ حِقْدٌ، وَلَا اسْتَمْتَعَ بِشَيْءٍ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا مَعَ تَذَكُّرِ الْآفَاتِ، وَلَا رَجَا غَفْلَةً مِنْ سُلْطَانٍ، وَلَا فِتْرَةً مِنْ حَاسِدٍ؛ أَفَلَا تَرَى كَيْفَ جُعِلَ فِي الْإِنْسَانِ الْحِفْظُ وَالنِّسْيَانُ، وَهُمَا مُخْتَلِفَانِ مُضَادَّانِ، وَجُعِلَ لَهُ فِي كُلِّ مِنْهُمَا ضَرْبٌ مِنَ الْمَصْلَحَةِ؟ وَمَا عَسَى أَنْ يَقُولَ الَّذِينَ قَسَمُوا الْأَشْيَاءَ بَيْنَ خَالِقَيْنِ مُضَادَّيْنِ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُضَادَّةِ الْمُتَبَايِنَةِ وَقَدْ تَرَاهَا تَجْتَمِعُ عَلَى مَا فِيهِ الصَّلَاحُ وَالْمَنْفَعَةُ.

بيان:

«دون الجميع» أي فضلاً عن الجميع. ويقال: سلا عنه أي نسيه. وقد مضى منّا ما يمكن أن يستعمل في فهم آخر الكلام في موضعين، فتذكر.

انظر يا مُفْضِلُ إِلَى مَا خُصَّ بِهِ الْإِنْسَانُ دُونَ جَمِيعِ الْحَيَوَانِ مِنْ هَذَا الْخَلْقِ، الْجَلِيلُ قَدْرُهُ، الْعَظِيمُ غَنَاؤُهُ، أَغْنَى الْحَيَاءَ فَلَوْلَاهُ لَمْ يَفْرَ ضَيْفٌ، وَلَمْ يُوفَ بِالْعِدَاتِ، وَلَمْ تُقْضَ الْحَوَائِجُ، وَلَمْ يُتَحَرَّ^(٣) الْجَمِيلُ، وَلَمْ يَتَنَكَّبِ الْقَبِيحُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ، حَتَّى إِنْ كَثُرَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُفْتَرَضَةِ أَيْضًا إِنَّمَا يُفْعَلُ لِلْحَيَاءِ، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَوْ لَا الْحَيَاءُ لَمْ يَزَعْ حَقٌّ وَالِدِيهِ، وَلَمْ يَصِلْ ذَا رَحِمٍ، وَلَمْ يُؤَدِّ أَمَانَةً، وَلَمْ يَعِفَّ عَنْ فَاحِشَةٍ؛ أَفَلَا تَرَى كَيْفَ وَفَّى لِلْإِنْسَانِ جَمِيعُ الْخِلَالِ الَّتِي فِيهَا صَلَاحُهُ وَتَمَامُ أَمْرِهِ؟

بيان:

إقراء الضيف: ضيافتهم وإكرامهم. والتنكب: التجنب. و«وفي» على بناء المجهول من التوفية وهي إعطاء الشيء وافياً.

تأمل يا مُفْضِلُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ بِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ هَذَا النُّطْقِ^(٤) الَّذِي يُعَبِّرُ بِهِ عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ، وَمَا يَخْطُرُ بِقَلْبِهِ، وَنَتِيجَةِ فِكْرِهِ، وَبِهِ يَفْهَمُ عَنْ غَيْرِهِ مَا فِي نَفْسِهِ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ كَانَ بِمَنْزِلَةِ الْبَهَائِمِ الْمُهْمَلَةِ الَّتِي لَا تُخْبِرُ عَنْ نَفْسِهَا بِشَيْءٍ، وَلَا تَفْهَمُ عَنْ مُحِبِّ شَيْئًا، وَكَذَلِكَ الْكِتَابَةُ الَّتِي بِهَا تُقَيَّدُ أَخْبَارُ الْمَاضِينَ لِلْبَاقِينَ، وَأَخْبَارُ الْبَاقِينَ لِلْآتِيَيْنِ،

١. وفي نسخة: حقيقاً خليفاً، وفي نسخة أخرى: «خليفاً» بدلاً من «حقيقاً». (هامش المصدر)

٢. لم يرد في نسخة: أصلاً. (هامش المصدر)

٣. فلان يَتَحَرَّى الأمر أي يَتَوَخَّاهُ وَيَقْصِدُهُ، راجع لسان العرب.

٤. في المصدر: «المنطق».

وَبِهَا تُخَلَّدُ الْكُتُبُ فِي الْعُلُومِ وَالْآدَابِ وَغَيْرِهَا، وَبِهَا يَحْفَظُ الْإِنْسَانُ ذِكْرَ مَا يَجْرِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ الْمُعَامَلَاتِ وَالْحِسَابِ، وَلَوْلَا هُ لَانْقَطَعَ أَخْبَارُ بَعْضِ الْأَزْمِنَةِ^(١) عَنْ بَعْضٍ، وَأَخْبَارُ الْغَائِبِينَ عَنْ أَوْطَانِهِمْ، وَدَرَسَتْ^(٢) الْعُلُومُ، وَضَاعَتْ الْآدَابُ، وَعَظُمَ مَا يَدْخُلُ عَلَى النَّاسِ مِنَ الْخَلَلِ فِي أُمُورِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ، وَمَا يَحْتَاجُونَ إِلَى النَّظَرِ فِيهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ، وَمَا رُويَ لَهُمْ مِمَّا لَا يَسَعُهُمْ جَهْلُهُ، وَلَعَلَّكَ تَظُنُّ أَنَّهَا مِمَّا يُخْلَصُ إِلَيْهِ بِالْحِيلَةِ وَالْفِطْنَةِ، وَلَيْسَتْ مِمَّا أُعْطِيَهِ الْإِنْسَانُ مِنْ خَلْقِهِ وَطَبَاعِهِ؛ وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ يَصْطَلِحُ عَلَيْهِ النَّاسُ فَيَجْرِي بَيْنَهُمْ، وَلِهَذَا صَارَ يَخْتَلِفُ فِي الْأُمَمِ الْمُخْتَلِفَةِ بِالنُّسَنِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَكَذَلِكَ الْكِتَابَةُ ككِتَابَةِ الْعَرَبِيِّ^(٣) وَالسَّرْيَانِيِّ وَالْعَبْرَانِيِّ وَالرُّومِيِّ وَغَيْرِهَا مِنْ سَائِرِ الْكِتَابَةِ الَّتِي هِيَ مُتَّفَقَةٌ فِي الْأُمَمِ إِنَّمَا اضْطَلَحُوا عَلَيْهَا كَمَا اضْطَلَحُوا عَلَى الْكَلَامِ، فَيَقَالُ لِمَنْ ادَّعَى ذَلِكَ: إِنَّ الْإِنْسَانَ وَإِنْ كَانَ لَهُ فِي الْأُمُورِ جَمِيعًا فَعَلَّ أَوْ حِيلَةً فَإِنَّ الشَّيْءَ الَّذِي يَبْلُغُ بِهِ ذَلِكَ الْفِعْلَ وَالْحِيلَةَ عَطِيَّةٌ وَهَبَتْهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي خَلْقِهِ^(٤)، فَإِنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ لِسَانٌ مُهَيَّأٌ لِلْكَلامِ وَذَهْنٌ يَهْتَدِي بِهِ لِلْأُمُورِ لَمْ يَكُنْ لِيَتَكَلَّمَ أَبَدًا، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ كَفٌّ مُهَيَّأٌ وَأَصَابِعٌ لِلْكِتَابَةِ لَمْ يَكُنْ لِيَكْتُبَ أَبَدًا، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ مِنَ الْبَهَائِمِ الَّتِي لَا كَلَامَ لَهَا وَلَا كِتَابَةَ، فَأَصْلُ ذَلِكَ فِطْرَةُ الْبَارِي جَلَّ وَعَزَّ وَمَا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَى خَلْقِهِ، فَمَنْ شَكَرَ أَثِيبَ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.

بيان:

كلامه هاهنا مشعر بأن واضع اللغات البشر، فتدبر^(٥).

ذَكَرَ يَا مُفَضَّلُ^(٦) فِيمَا أُعْطِيَ الْإِنْسَانُ عِلْمُهُ وَمَا مُنِعَ، فَإِنَّهُ أُعْطِيَ عِلْمَ جَمِيعِ مَا فِيهِ صَلَاحٌ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، فَمِمَّا فِيهِ صَلَاحٌ دِينِهِ مَعْرِفَةُ الْخَالِقِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالذَّلَائِلِ وَالشَّوَاهِدِ الْقَائِمَةِ فِي الْخَلْقِ، وَمَعْرِفَةُ الْوَاجِبِ عَلَيْهِ مِنَ الْعَدْلِ عَلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَآدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَمُوَسَّاسَةُ أَهْلِ الْخَلَّةِ، وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ تَوَجَّدَ مَعْرِفَتُهُ وَالْإِقْرَارُ وَالِاعْتِرَافُ بِهِ فِي الطَّبَعِ وَالْفِطْرَةِ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ مُوَافَقَةً أَوْ مُخَالَفَةً، وَكَذَلِكَ أُعْطِيَ عِلْمَ مَا فِيهِ صَلَاحٌ دُنْيَاهُ كَالزَّرَاعَةِ وَالْغِرَاسِ، وَاسْتِخْرَاجِ الْأَرْضِينَ، وَاقْتِنَاءِ الْأَعْنَامِ وَالْأَنْعَامِ، وَاسْتِنْبَاطِ^(٧) الْمِيَاهِ، وَمَعْرِفَةِ الْعَقَاقِيرِ^(٨) الَّتِي يُسْتَشْفَى بِهَا مِنْ ضُرُوبِ

١. وفي نسخة: لانقطع بعض أخبار الأزمنة. (هامش المصدر)

٢. درست: محت، راجع شمس العلوم.

٣. وفي نسخة: وكذلك لكتابة العربي. (هامش المصدر)

٤. وفي بعض النسخ: في خلقته. (هامش المصدر)

٥. وأهم منه دلالاته على كون الأوضاع تعيينية لا تعيينية، وكذا إشعاره بأن هذه وأمثالها اصطلاحات واعتبارات تضرّ إليها البشر. (هامش

المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

٦. في المصدر: «فكر يا مفضل».

٧. الاستنباط: الاستخراج، راجع لسان العرب.

٨. العقاقير: ما يتداوى به من النبات والشجر، واحدها عقار، راجع الطراز الأول.

الْأَسْقَامِ، وَالْمَعَادِنِ الَّتِي يُسْتَخْرَجُ مِنْهَا أَنْوَاعُ الْجَوَاهِرِ، وَرُكُوبِ السُّفُنِ، وَالْعَوَصِ فِي الْبَحْرِ، وَضُرُوبِ الْحَيْلِ فِي صَيْدِ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ وَالْحَيْتَانِ، وَالتَّصَرُّفِ فِي الصَّنَاعَاتِ، وَوُجُوهِ الْمَتَاجِرِ وَالْمَكَاسِبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَطُولُ شَرْحُهُ وَيَكْثُرُ تَعْدَادُهُ مِمَّا فِيهِ صَلَاحٌ أَمْرِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَأَعْطِيَ عِلْمَ مَا يُصْلِحُ بِهِ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ، وَمُنَعَ مَا سَوَى ذَلِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي شَأْنِهِ وَلَا طَاقَتِهِ أَنْ يَعْلَمَ، كَعِلْمِ الْغَيْبِ وَمَا هُوَ كَائِنٌ، وَبَعْضُ مَا قَدْ كَانَ أَيْضاً كَعِلْمِ مَا فَوْقَ السَّمَاءِ وَمَا تَحْتَ الْأَرْضِ وَمَا فِي لَجَجِ الْبَحَارِ وَأَقْطَارِ الْعَالَمِ وَمَا فِي قُلُوبِ النَّاسِ وَمَا فِي الْأَرْحَامِ وَأَشْبَاهِ هَذَا مِمَّا حُجِبَ عَلَى النَّاسِ عِلْمُهُ، وَقَدْ ادَّعَتْ طَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ هَذِهِ الْأُمُورَ فَأَبْطَلَ دَعْوَاهُمْ مَا بَيَّنَّ مِنْ خَطَائِهِمْ فِيمَا يَتَفَضَّلُونَ عَلَيْهِ، وَيَحْكُمُونَ بِهِ فِيمَا ادَّعَوْا عِلْمَهُ^(١)، فَانْظُرْ كَيْفَ أُعْطِيَ الْإِنْسَانُ عِلْمَ جَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِدِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَحُجِبَ عَنْهُ مَا سَوَى ذَلِكَ لِيَعْرِفَ قُدْرَهُ وَتَقْصَصَهُ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ فِيهِمَا صَلَاحُهُ.

تَأَمَّلِ الْآنَ يَا مُفَضَّلُ مَا سَتَرَ عَنِ الْإِنْسَانِ عِلْمُهُ مِنْ مُدَّةِ حَيَاتِهِ، فَإِنَّهُ لَوْ عَرَفَ مِقْدَارَ عُمُرِهِ وَكَانَ قَصِيرَ الْعُمُرِ لَمْ يَتَهَنَّ بِالْعَيْشِ مَعَ تَرَقُّبِ الْمَوْتِ وَتَوَقُّعِهِ لَوْفَتِ قَدْ عَرَفَهُ، بَلْ كَانَ يَكُونُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ قَدْ فَتَى مَالُهُ أَوْ قَارَبَ الْفَنَاءَ فَقَدْ اسْتَشْعَرَ الْفَقْرَ وَالْوَجَلَ مِنْ فَنَاءِ مَالِهِ وَخَوْفَ الْفَقْرِ، عَلَى أَنَّ الَّذِي يَدْخُلُ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ فَنَاءِ الْعُمُرِ أَعْظَمُ مِمَّا يَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ فَنَاءِ الْمَالِ، لِأَنَّ مَنْ يَقِلُّ مَالُهُ يَأْمُلُ أَنْ يَسْتَخْلِفَ مِنْهُ فَيَسْكُنَ إِلَى ذَلِكَ، وَمَنْ أَتَقَنَ بِفَنَاءِ الْعُمُرِ اسْتَحْكَمَ عَلَيْهِ الْيَأْسُ، وَإِنْ كَانَ طَوِيلَ الْعُمُرِ ثُمَّ عَرَفَ ذَلِكَ وَثِقَ بِالْبَقَاءِ، وَانْهَمَكَ فِي اللَّذَاتِ وَالْمَعَاصِي، وَعَمِلَ عَلَى أَنَّهُ يَبْلُغُ مِنْ ذَلِكَ شَهْوَتَهُ ثُمَّ يَتُوبُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ، وَهَذَا مَذْهَبُ لَا يَرْضَاهُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَا يَقْبَلُهُ. أَلَا تَرَى لَوْ أَنَّ عَبْدًا لَكَ عَمِلَ عَلَى أَنَّهُ يُسَخِّطُكَ سَنَةً وَيُزِيحُكَ يَوْمًا أَوْ شَهْرًا لَمْ تَقْبَلْ ذَلِكَ مِنْهُ، وَلَمْ يَحِلَّ عِنْدَكَ مَحَلَّ الْعَبْدِ الصَّالِحِ دُونَ أَنْ يُضْمِرَ طَاعَتَكَ وَتُصْحَكَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ وَفِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ عَلَى تَصَرُّفِ الْحَالَاتِ^(٢).

فَإِنْ قُلْتَ: أَوَلَيْسَ قَدْ يُقِيمُ الْإِنْسَانُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ حِينَئِذٍ ثُمَّ يَتُوبُ فَتَقْبَلُ تَوْبَتَهُ؟ قُلْنَا: إِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ يَكُونُ مِنَ الْإِنْسَانِ لِعِلَّةِ الشَّهَوَاتِ، وَتَرْكِهِ مُحَالَفَتَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يُقَدِّرَهَا فِي نَفْسِهِ وَيَبْنِي عَلَيْهِ أَمْرَهُ، فَيَضْفَحُ اللَّهُ عَنْهُ، وَيَتَفَضَّلُ عَلَيْهِ بِالْمَغْفِرَةِ، فَأَمَّا مَنْ قَدَّرَ أَمْرَهُ عَلَى أَنْ يَعْصِيَ مَا بَدَأَ لَهُ ثُمَّ يَتُوبُ آخِرَ ذَلِكَ فَإِنَّمَا يَحَاوِلُ خَدِيعَةً مَنْ لَا يَخَادَعُ بِأَنْ يَتَسَلَّفَ التَّلَذُّدُ فِي الْعَاجِلِ، وَيَعِدَّ وَيُمْنِّي نَفْسَهُ التَّوْبَةَ فِي الْآجِلِ، وَلِأَنَّهُ لَا يَفِي بِمَا يَعِدُ مِنْ ذَلِكَ^(٣)، فَإِنَّ النُّزُوعَ مِنَ الشَّرِّهِ وَالتَّلَذُّدِ وَمُعَانَاةِ التَّوْبَةِ وَلَا سِيمَا عِنْدَ الْكِبَرِ وَضَعْفِ الْبَدَنِ أَمْرٌ صَعْبٌ، وَلَا يُؤْمِنُ عَلَى الْإِنْسَانِ مَعَ مَدَافَعَتِهِ بِالتَّوْبَةِ أَنْ يُرْهِقَهُ الْمَوْتُ فَيَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا غَيْرَ تَائِبٍ؛ كَمَا قَدْ يَكُونُ عَلَى الْوَاحِدِ دَيْنٌ إِلَى أَجَلٍ وَقَدْ يَقْدِرُ عَلَى قَضَائِهِ فَلَا يَزَالُ يُدَافِعُ بِذَلِكَ حَتَّى يَحِلَّ الْأَجَلُ وَقَدْ نَفَذَ الْمَالُ فَيَبْقَى الدَّيْنُ قَائِمًا عَلَيْهِ، فَكَانَ خَيْرَ الْأَشْيَاءِ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُسْتَرَّ عَنْهُ مَبْلَغُ

١. وفي نسخة: فيما ادَّعوا عليه. (هامش المصدر)

٢. وفي نسخة: على تَصَرُّفِ الْآلَاتِ. (هامش المصدر)

٣. في المصدر: «ولعله لا يفي بما يعد ويبتغي من ذلك».

عُمُرِهِ، فَيَكُونُ طَوْلَ عُمُرِهِ يَتَرَقَّبُ الْمَوْتَ فَيُتْرَكَ الْمَعَاصِي وَيُؤْتَرِ الْعَمَلَ الصَّالِحَ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَهَذَا هُوَ الْآنَ قَدْ سَتَرَ عَنْهُ مِقْدَارُ حَيَاتِهِ وَصَارَ يَتَرَقَّبُ الْمَوْتَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ يَقَارِفُ الْفَوَاحِشَ ^(١) وَيَتَنَهَكُ الْمَحَارِمَ، قُلْنَا: إِنَّ وَجْهَ التَّدْبِيرِ فِي هَذَا الْبَابِ هُوَ الَّذِي جَرَى عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِيهِ، فَإِنْ كَانَ الْإِنْسَانُ مَعَ ذَلِكَ لَا يَرْعَوِي وَلَا يَنْصَرِفُ عَنِ الْمَسَاوِي، فَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ مَرَحِهِ وَمِنْ قَسَاوَةِ قَلْبِهِ لَا مِنْ خَطَا فِي التَّدْبِيرِ، كَمَا أَنَّ الطَّيِّبَ قَدْ يَصِفُ لِلْمَرِيضِ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ، فَإِنْ كَانَ الْمَرِيضُ مُخَالَفاً لِقَوْلِ الطَّيِّبِ لَا يَعْمَلُ بِمَا يَأْمُرُهُ وَلَا يَنْتَهِي عَمَّا يَنْهَاهُ عَنْهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِصِفَتِهِ، وَلَمْ يَكُنِ الْإِسَاءَةُ فِي ذَلِكَ لِلطَّيِّبِ، بَلْ لِلْمَرِيضِ حَيْثُ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ، وَلَكِنْ كَانَ الْإِنْسَانُ مَعَ تَرَقُّبِهِ لِلْمَوْتِ كُلِّ سَاعَةٍ لَا يَمْتَنِعُ عَنِ الْمَعَاصِي فَإِنَّهُ لَوْ وَثِقَ بِطَوْلِ الْبَقَاءِ كَانَ أُخْرَى بِأَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْكِبَائِرِ الْفُظْيَعَةِ، فَتَرَقَّبُ الْمَوْتَ عَلَى كُلِّ حَالٍ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الثَّقَةِ بِالْبَقَاءِ، ثُمَّ إِنَّ تَرَقُّبَ الْمَوْتِ وَإِنْ كَانَ صِنْفٌ مِنَ النَّاسِ يَلْهُونَ عَنْهُ وَلَا يَتَعِظُونَ بِهِ فَقَدْ يَتَعِظُ بِهِ صِنْفٌ آخَرُ مِنْهُمْ، وَيَنْزِعُونَ عَنِ الْمَعَاصِي، وَيُؤْتِرُونَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، وَيَجُودُونَ بِالْأَمْوَالِ وَالْعَقَائِلِ النَّفِيسَةِ فِي الصَّدَقَةِ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، فَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ يُحْرَمَ هَؤُلَاءِ الْإِنْتِفَاعَ بِهَذِهِ الْخَصْلَةِ لِتَضْيِيعِ أَوْلِيكَ حَظَّهُمْ مِنْهَا.

بيان:

«انهمك» الرجل في الأمر أي جدّ ولجّ. والتسلف: الاقتراض، كأنه يجري معاملة مع ربّه بأن يتصرف في اللذات عاجلاً، ويعد ربّه في عوضها التوبة ليوذّي إليه آجلاً، وفي بعض النسخ: «يستسلف» وهو طلب بيع الشيء سلفاً. و«المعانة»: مقاساة العناء والمشقة. و«يرهقه» أي يغشاه ويلحقه. وانتهاك المحارم: المبالغة في خرقها وإتيانها. والارعواء: الكفّ عن الشيء؛ وقيل: الندم على الشيء والانصراف عنه وتركه. و«المرح»: شدة الفرح. وقال الفيروزآبادي: العقيلة من كل شيء: أكرمه، وكريمة الإبل. وقال: العقال ككتاب: زكاة عام من الإبل.

فَكَرَّ يَا مُفَضَّلُ فِي الْأَحْلَامِ كَيْفَ دَبَّرَ الْأَمْرَ فِيهَا فَمَزَجَ صَادِقَهَا بِكَاذِبِهَا، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ كُلُّهَا تَصْدُقُ لَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَنْبِيَاءَ، وَلَوْ كَانَتْ كُلُّهَا تَكْذِبُ لَمْ يَكُنْ فِيهَا مَنَفَعَةٌ بَلْ كَانَتْ فَضْلاً لَا مَعْنَى لَهُ، فَصَارَتْ تَصْدُقُ أحياناً فَيَنْتَفِعُ بِهَا النَّاسُ فِي مَصْلَحَةٍ يَهْتَدِي لَهَا، أَوْ مَضَرَّةٍ يَتَحَذَّرُ مِنْهَا ^(٢)، وَتَكْذِبُ كَثِيراً لئَلَّا يَعْتَمِدَ عَلَيْهَا كُلُّ الْإِعْتِمَادِ.

فَكَرَّ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَرَاهَا مَوْجُودَةً مُعَدَّةً فِي الْعَالَمِ مِنْ مَارِبِهِمْ، فَالْتِرَابُ لِلْبِنَاءِ، وَالْحَدِيدُ لِلصَّنَاعَاتِ، وَالْخَشَبُ لِلشُّفَنِ وَغَيْرِهَا، وَالْحِجَارَةُ لِلْأَرْحَاءِ ^(٣) وَغَيْرِهَا، وَالنَّحَاسُ لِلْأَوَانِي، وَالذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ لِلْمَعَامِلَةِ، وَالْجَوْهَرُ لِلذَّخِيرَةِ، وَالْحُبُوبُ لِلْغَذَاءِ، وَالثَّمَارُ لِلتَّكْهِ، وَاللَّحْمُ لِلْمَأْكَلِ، وَالطَّيِّبُ لِلتَّلَذُّذِ، وَالْأَدْوِيَةُ لِلتَّصْحِيحِ، وَالذَّوَابُّ لِلْحُمُولَةِ، وَالْحَطَبُ

١. قارفه: قاربه وخاطفه، راجع المغرب.

٢. في المصدر: «يتحزّز منها».

٣. الرحي: التي يطحن بها والجمع أرحاء، راجع لسان العرب.

لِلتَّوَقُّدِ وَالرَّمَادِ لِلْكُلْسِ، وَالرَّمْلُ^(١) لِلأَرْضِ، وَكَمْ عَسَى أَنْ يُحْصِيَ الْمُحْصِي مِنْ هَذَا وَشَبِهِهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ دَاخِلًا دَخَلَ دَارًا فَتَنَظَرَ إِلَى خَزَائِنِ مَمْلُوءَةٍ مِنْ كُلِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ، وَرَأَى كُلَّ مَا فِيهَا مَجْمُوعاً مُعَدَّاً لِأَسْبَابِ مَعْرُوفَةٍ لَكَانَ^(٢) يَتَوَهَّمُ أَنَّ مِثْلَ هَذَا يَكُونُ بِالْإِهْمَالِ وَمِنْ غَيْرِ عَمْدٍ؟ فَكَيْفَ يَسْتَجِيزُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ هَذَا فِي الْعَالَمِ^(٣) وَمَا أُعِدَّ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ.

بيان:

«التفكّه»: التنعم. «الكلس» بالكسر: الصاروج. قوله عليه السلام: «لِلأَرْضِ» أي لفرشها. اعْتَبِرْ يَا مُفَضَّلُ بِأَشْيَاءِ خُلِقَتْ لِمَارِبِ الْإِنْسَانِ وَمَا فِيهَا مِنَ التَّدْبِيرِ، فَإِنَّهُ خُلِقَ لَهُ الْحَبُّ لِطَعَامِهِ، وَكُلُّ طَحْنَةٍ وَعَجْنَةٍ وَخَبْرَةٍ، وَخُلِقَ لَهُ الْوَبْرُ لِكِسْوَتِهِ فَكُلُّ نَدْفَةٍ وَغَزْلَةٍ وَنَسْجَةٍ، وَخُلِقَ لَهُ الشَّجَرُ فَكُلُّ غَرْسٍ وَسَقْفِيهَا وَالْقِيَامَ عَلَيْهَا، وَخُلِقَتْ لَهُ الْعَقَاقِيرُ لِأَدْوِيَّتِهِ فَكُلُّ نَفْطَةٍ^(٤)، وَخُلِطَتْ وَصُنِعَتْهَا^(٥)، وَكَذَلِكَ تَجِدُ سَائِرَ الْأَشْيَاءِ عَلَى هَذَا الْمِثَالِ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَفَّى الْخَلْقَةَ الَّتِي لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ فِيهَا حِيلَةٌ، وَتَرِكَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَوْضِعَ عَمَلٍ وَحَرَكَةٍ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الصَّلَاحِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَفَّى هَذَا كُلَّهُ حَتَّى لَا يَكُونَ لَهُ فِي الْأَشْيَاءِ مَوْضِعُ شُغْلٍ وَعَمَلٍ لَمَا حَمَلَتْهُ الْأَرْضُ أَشْراً وَبَطْراً، وَلَبَلَغَ بِهِ كَذَلِكَ^(٦) إِلَى أَنْ يَتَعَاطَى أُمُوراً فِيهَا تَلَفَ نَفْسِهِ، وَلَوْ كَفَّى النَّاسَ كُلُّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ لَمَا تَهَنَّتُوا بِالْعَيْشِ، وَلَا وَجَدُوا لَهُ لَذَّةً. أَلَا تَرَى لَوْ أَنَّ امْرَأَةً نَزَلَ بِقَوْمٍ فَأَقَامَ حِيناً بَلَغَ جَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَطْعَمٍ وَمَشْرَبٍ وَخِدْمَةٍ لَتَبَرَّمَ^(٧) بِالْفَرَاغِ، وَنَارَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى التَّشَاغُلِ بِشَيْءٍ؟ فَكَيْفَ لَوْ كَانَ طُولُ عُمُرِهِ مَكْفِيّاً لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ؟ وَكَانَ مِنْ صَوَابِ التَّدْبِيرِ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي خُلِقَتْ لِلْإِنْسَانِ أَنْ جُعِلَ لَهُ فِيهَا مَوْضِعُ شُغْلٍ، لِكَيْلَا تَبَرَّمَهُ الْبَطَالَةُ، وَلِتَكْفَهُ^(٨) عَنْ تَعَاطِي مَا لَا يَنَالُهُ، وَلَا خَيْرَ فِيهِ إِنْ نَالَهُ.

وَاعْلَمْ يَا مُفَضَّلُ أَنَّ رَأْسَ مَعَاشِ الْإِنْسَانِ وَحَيَاتِهِ الْخُبْزُ وَالْمَاءُ، فَانْظُرْ كَيْفَ دُبِّرَ الْأَمْرُ فِيهِمَا، فَإِنَّ حَاجَةَ الْإِنْسَانِ إِلَى الْمَاءِ أَشَدُّ مِنْ حَاجَتِهِ إِلَى الْخُبْزِ، وَذَلِكَ أَنَّ صَبْرَهُ عَلَى الْجُوعِ أَكْثَرُ مِنْ صَبْرِهِ عَلَى الْعَطَشِ، وَالَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَاءِ أَكْثَرُ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْخُبْزِ، لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِشُرْبِهِ وَوُضُوئِهِ وَغَسْلِهِ وَغَسْلِ ثِيَابِهِ وَسَقْيِ أَنْعَامِهِ وَزَرْعِهِ، فَجُعِلَ الْمَاءُ

١. وفي نسخة: والزبل. (هامش المصدر)

٢. في المصدر: «أكان».

٣. وفي نسخة: هذا من صنع الطبيعة في العالم. (هامش المصدر)

٤. اللفظ: أخذ الشيء من الأرض، راجع لسان العرب.

٥. وفي نسخة: وصنعتها. (هامش المصدر)

٦. في المصدر: «ذلك».

٧. تبرّم به: ضجر، راجع شمس العلوم.

٨. في المصدر: «وليكفّه الشغل».

مَبْدُولًا لَا يُشْتَرَى لِتَسْقُطَ عَنِ الْإِنْسَانِ الْمُؤُونَةُ فِي طَلَبِهِ وَتَكَلُّفِهِ، وَجُعِلَ الْخُبْرُ مُتَعَدِّرًا لَا يُنَالُ إِلَّا بِالْحِيلَةِ وَالْحَرَكَةِ لِيَكُونَ لِلْإِنْسَانِ فِي ذَلِكَ شُغْلٌ يَكْفُهُ عَمَّا يُخْرِجُهُ إِلَيْهِ الْفَرَاغُ مِنَ الْأَشْرِ وَالْعَيْثِ. أَلَا تَرَى أَنَّ الصَّبِيَّ يَدْفَعُ إِلَى الْمُؤَدِّبِ وَهُوَ طِفْلٌ لَمْ يَكْمُلْ ذَاتُهُ^(١) لِلتَّعْلِيمِ كُلُّ ذَلِكَ لِيَشْتَغَلَ عَنِ اللَّعِبِ وَالْعَبَثِ الَّذِينَ رُبَّمَا جَنِبَا عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِهِ الْمَكْرُوهَ الْعَظِيمَ، وَهَكَذَا الْإِنْسَانُ لَوْ خَلَا مِنَ الشُّغْلِ لَخَرَجَ مِنَ الْأَشْرِ وَالْعَبَثِ وَالْبَطْرِ إِلَى مَا يَعْظُمُ ضَرَرُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ قَرُبَ مِنْهُ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِمَنْ نَشَأَ فِي الْجِدَةِ وَرَفَاهِيَةِ الْعَيْشِ وَالتَّرَفِّهِ وَالْكَفَايَةِ وَمَا يُخْرِجُهُ ذَلِكَ إِلَيْهِ.

اعْتَبِرْ لِمَ لَا يَنْشَابُهُ النَّاسُ وَاحِدٌ بِالْآخِرِ كَمَا يَنْشَابُهُ الْوُحُوشُ وَالطَّيْرُ وَغَيْرُ ذَلِكَ^(٢)؟ فَإِنَّكَ تَرَى السَّرْبَ^(٤) مِنَ الطُّبَّاءِ^(٥) وَالْقَطَا^(٦) تَنْشَابُهُ حَتَّى لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ وَاحِدٍ مِنْهَا وَبَيْنَ الْآخَرِ، وَتَرَى النَّاسَ مُخْتَلِفَةً صُورُهُمْ وَخَلْقُهُمْ حَتَّى لَا يَكَادُ اثْنَانِ مِنْهُمْ يَجْتَمِعَانِ فِي صِفَةٍ وَاحِدَةٍ، وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ مُحْتَاجُونَ إِلَى أَنْ يَتَعَارَفُوا بِأَعْيَانِهِمْ وَحُلَاهُمْ^(٧) لِمَا يَجْرِي بَيْنَهُمْ مِنَ الْمَعَامَلَاتِ، وَلَيْسَ يَجْرِي بَيْنَ الْبَهَائِمِ مِثْلُ ذَلِكَ فَيَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةٍ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِعَيْنِهِ وَحِلْيَتِهِ، أَلَا تَرَى أَنَّ التَّشَابُهَ فِي الطَّيْرِ وَالْوُحُوشِ لَا يَضُرُّهُمَا شَيْئًا، وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْإِنْسَانُ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا تَشَابَهَ التَّوَامَانِ تَشَابُهًا شَدِيدًا فَتَعَظُمَ الْمُؤُونَةُ عَلَى النَّاسِ فِي مَعَامِلَتِهِمَا حَتَّى يُعْطَى أَحَدُهُمَا بِالْآخِرِ وَيُؤْخَذُ أَحَدُهُمَا بِذَنْبِ الْآخِرِ وَقَدْ يُحْدِثُ مِثْلُ هَذَا فِي تَشَابُهِ الْأَشْيَاءِ^(٨) فَضْلًا عَنْ تَشَابُهِ الصُّورَةِ، فَمَنْ لَطَفَ لِعِبَادِهِ بِهِذِهِ الدَّقَائِقِ الَّتِي لَا تَكَادُ تَخْطُرُ بِالْبَالِ حَتَّى وَقَفَ بِهَا عَلَى الصَّوَابِ إِلَّا مَنْ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ؟ لَوْ رَأَيْتَ تِمْنَالَ الْإِنْسَانِ مُصَوَّرًا عَلَى حَائِطٍ فَقَالَ لَكَ قَائِلٌ: إِنَّ هَذَا ظَهَرَ هَاهُنَا مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ لَمْ يَصْنَعْهُ صَانِعٌ، أَكُنْتَ تَقْبَلُ ذَلِكَ؟ بَلْ كُنْتَ تَسْتَهْزِئُ بِهِ؟ فَكَيْفَ تُنْكِرُ هَذَا فِي تِمْنَالٍ مُصَوَّرٍ جَمَادٍ وَلَا تُنْكِرُ فِي الْإِنْسَانِ الْحَيِّ النَّاطِقِ؟ لِمَ صَارَتْ أَبْدَانُ الْحَيَوَانِ وَهِيَ تَغْتَذِي أَبَدًا لَا تَنْمِي، بَلْ تَنْتَهِي إِلَى غَايَةٍ مِنَ النُّمُو، ثُمَّ تَقِفُ وَلَا تَتَجَاوَزُهَا لَوْ لَا التَّدْبِيرُ فِي ذَلِكَ؟ فَإِنَّ مِنْ تَدْبِيرِ الْحَكِيمِ فِيهَا أَنْ يَكُونَ أَبْدَانُ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهَا عَلَى مِقْدَارٍ مَعْلُومٍ غَيْرِ مُتَمَاوٍ فِي الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ^(٩)، وَصَارَتْ تَنْمِي حَتَّى تَصِلَ إِلَى غَايَتِهَا ثُمَّ يَقِفُ ثُمَّ لَا يَزِيدُ، وَالْغَدَاءُ مَعَ ذَلِكَ

١. في المصدر: «لم يكمل ذهنه».

٢. وفي نسخة بدل: والطير والطيبي. (هامش المصدر)

٣. المراد بالتشابه التشابه العرفي كما يدل عليه بيانه الآتي، وأمّا التشابه الحقيقي فليس منه أثر لا في الإنسان ولا في غيره وقد قام عليه البرهان وساعده التجارب العلمي. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

٤. السرب: الجماعة من البقر والقطا والوحش، راجع المصباح المنير.

٥. الطيبي: الغزال والجمع طيباء، راجع لسان العرب.

٦. القطا: ضرب من الحمام، راجع المصباح المنير.

٧. الجلية: الصفة والصورة، راجع لسان العرب.

٨. في المصدر: «تشابه الأسماء».

٩. وفي نسختي بدل: في الكبير والصغير. (هامش المصدر)

دَائِمٌ لَا يَنْقَطِعُ، وَلَوْ كَانَتْ تَنْمِي نُمُوًّا دَائِمًا لَعَظُمَتْ أَبْدَانُهَا، وَاشْتَبَهَتْ مَقَادِيرُهَا حَتَّى لَا يَكُونَ لَشَيْءٍ مِنْهَا حَدٌّ يُعْرَفُ. لِمَ صَارَتْ أَجْسَامُ الْإِنْسِ خَاصَّةً تُثْقِلُ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالْمَشْيِ، وَيَجْفَوُ عَنِ الصَّنَاعَاتِ اللَّطِيفَةِ إِلَّا لَتَعْظِيمِ الْمُؤْنَةِ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ لِلْمَلْبَسِ وَالْمُضْجَعِ وَالتَّكْفِينِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، لَوْ كَانَ الْإِنْسَانُ لَا يُصِيبُهُ أَلَمٌ وَلَا وَجَعٌ بِمِ كَانِ يَزْدَعُ عَنِ الْفَوَاحِشِ وَيَتَوَاضَعُ لِلَّهِ وَيَتَعَطَّفُ عَلَى النَّاسِ؟ أَمَا تَرَى الْإِنْسَانَ إِذَا عَرَضَ لَهُ وَجَعٌ خَضَعَ وَاسْتَكَانَ، وَرَغِبَ إِلَى رَبِّهِ فِي الْعَافِيَةِ، وَبَسَطَ يَدَيْهِ بِالصَّدَقَةِ؟ وَلَوْ كَانَ لَا يَأْلُمُ مِنَ الضَّرْبِ بِمِ كَانَ السُّلْطَانُ يُعَاقِبُ الدُّعَارَ^(١)، وَيُذِلُّ الْعُصَاةَ الْمَرْدَةَ؟ وَبِمِ كَانَ الصَّبِيَّانِ يَتَعَلَّمُونَ الْعُلُومَ وَالصَّنَاعَاتِ؟^(٢) وَبِمِ كَانَ الْعَبِيدُ يَذُبُّونَ لِأَرْبَابِهِمْ وَيُذْعِنُونَ لِطَاعَتِهِمْ؟ أَمْ فَلَيْسَ هَذَا تَوْبِيخٌ لِابْنِ أَبِي الْعَوْجَاءِ وَذَوِيهِ الَّذِينَ جَحَدُوا التَّذْيِيرَ، وَالْمَانَوِيَّةَ^(٣) الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْأَلَمَ وَالْوَجَعَ؟ لَوْ لَمْ يُولَدْ مِنَ الْحَيَوَانِ إِلَّا ذَكَرٌ فَقَطْ أَوْ إِنَاثٌ فَقَطْ أَلَمْ يَكُنِ النَّسْلُ مُنْقَطِعًا، وَبَادَ^(٤) مَعَ ذَلِكَ أَجْنَاسُ الْحَيَوَانِ؟ فَصَارَ بَعْضُ الْأَوْلَادِ يَأْتِي ذُكُورًا وَبَعْضُهَا يَأْتِي إِنَاثًا لِيَدُومَ النَّتَاسُلُ وَلَا يَنْقَطِعُ. لِمَ صَارَ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ إِذَا أَذْرَكَا نَبَتَتْ لَهُمَا الْعَانَةُ، ثُمَّ نَبَتَتْ لِلْحَيَةِ لِلرَّجُلِ، وَتَحَلَّلَتْ عَنِ الْمَرْأَةِ لَوْ لَا التَّذْيِيرُ فِي ذَلِكَ؟ فَإِنَّهُ لَمَّا جَعَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الرَّجُلَ قِيمًا وَرَقِيبًا عَلَى الْمَرْأَةِ، وَجَعَلَ الْمَرْأَةَ عَرْسًا وَحَوْلًا لِلرَّجُلِ، أَعْطَى الرَّجُلَ اللَّحْيَةَ لِمَا لَهُ مِنَ الْعِزَّةِ وَالْجَلَالَةِ وَالْهَيْبَةِ، وَمَنَعَهَا الْمَرْأَةَ لِنَبْقَى لَهَا نِصَارَةُ الْوُجْهِ وَالْبَهْجَةِ الَّتِي تُشَاكِلُ الْمُفَاكَهَةَ وَالْمُضَاجَعَةَ. أَمْ فَلَا تَرَى الْخِلْقَةَ كَيْفَ يَأْتِي بِالصَّوَابِ فِي الْأَشْيَاءِ، وَتَتَحَلَّلُ مَوَاضِعَ الْخَطَا فُتُعْطَى وَتَمْنَعُ عَلَى قَدْرِ الْإِزْبِ^(٥) وَالْمُصْلَحَةِ بِتَذْيِيرِ الْحَكِيمِ عَزَّ وَجَلَّ.

بيان:

جنى الذنب عليه يجنيه جنابة: جرّه إليه. و«الجدّة» بالتخفيف: الغناء. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «في تشابه الأشياء» أي قد يشبه مال شخص بمال شخص آخر، كثوب أو نعل أو دينار أو درهم، فيصير سبباً للاشتباه والتشاجر والتنازع، فضلاً عن تشابه الصورة، فإنه أعظم فساداً، والمراد أنّ الناس كثيراً ما يشتهيه عليهم أمر رجلين، لتشابه لباسهما ومركوبهما وغير ذلك، فيؤخذ أحدهما بالآخر فكيف مع تشابه الصورة؟ قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «واشتبهت مقاديرها» أي لم يعرف غاية ما ينتهي إليه مقداره، فيشتهيه الأمر عليه فيما يريد أن يهيئه لنفسه من دار ودابة وثياب وزوجة. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ويجفو» أي يبعد ويجتنب ولا يداوم على الصناعات اللطيفة، أي التي فيها دقة ولطافة. قال الجزري: وفي الحديث: «اقرأوا القرآن ولا تجفوا عنه» أي تعاودوه ولا تبعدوا عن تلاوته. انتهى.

١. وفي نسخة: الدغار، وفي نسخة أخرى: الدغار. (هامش المصدر)

٢. **فقول:** وهذا دليل على أنه قد يضطرّ المربي إلى ضرب خفيف لتربية الطفل ولا مانع عند الضرورة.

٣. وفي بعض النسخ: والمنائية. (هامش المصدر)

٤. باد الشيء: انقطع وهلك، راجع لسان العرب.

٥. وفي بعض النسخ: الأدب. (هامش المصدر)

والحاصل أنَّ الله تعالى جعل الإنسان بحيث تثقل عن الحركة والمشى قبل سائر الحيوانات، وتكلُّ عن الأعمال الدقيقة لتعظُّم عليه مؤونة تحصيل ما يحتاج إليه، فلا يبطر ولا يطغى أو ليكون لهذه الأعمال أجر، فيصير سبباً لمعايش أقوام يزاولونها. و«الدَّعَار» في بعض النسخ بالمهمله من الدعر محرّكة الفساد والفسق والخبث، وفي بعضها بالمعجمة من الدغرة وهي أخذ الشيء اختلاساً. و«العرس» بالكسر: امرأة الرجل. و«الخول» محرّكة ما أعطاك الله من النعم والعبيد والإماء. و«المفاكهة»: الممازحة والمضاحكة. قوله طائلاً: و«تتخلَّل مواضع الخطأ» يحتمل أن تكون الجملة حالية أي تأتي بالصواب مع أنها تدخل مواضع هي مظنة الخطأ، من قولهم: تخلَّلت القوم أي دخلت خلالهم، ويحتمل أن يكون المراد بالتخلَّل التخلُّف أو الخروج من خلالها، لكن تطبيقهما على المعاني اللغوية يحتاج إلى تكلف.

قَالَ الْمُفَضَّلُ: ثُمَّ حَانَ وَقْتُ الزَّوَالِ فَقَامَ مَوْلَايَ إِلَى الصَّلَاةِ، وَقَالَ طائلاً: بَكَرْتُ إِلَيَّ عَدَاً إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَانْصَرَفْتُ مِنْ عِنْدِهِ مَسْرُوراً بِمَا عَرَفْتُهُ، مُبْتَهِجاً بِمَا أُوتِيْتُهُ، حَامِداً لِلَّهِ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيَّ، شَاكِراً لِأَنْعَمِهِ عَلَى مَا مَنَحَنِي بِمَا عَرَفْتِيهِ مَوْلَايَ وَتَفَضَّلَ بِهِ عَلَيَّ، فَبِتُّ فِي لَيْلَتِي مَسْرُوراً بِمَا مَنَحَنِيهِ، مَخْبُوراً^(١) بِمَا عَلَّمَنِيهِ.

تمَّ المجلس الأول ويتلوه المجلس الثاني من كتاب الأدلة على الخلق والتدبير والرد على القائلين بالإهمال ومنكري العمد برواية المفضل عن الصادق «صلوات الله عليه وعلى آباءه».

المجلس الثاني

قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّانِي بَكَرْتُ إِلَى مَوْلَايَ فَاسْتَوْدَنْ لِي، فَدَخَلْتُ فَأَمَرَنِي بِالْجُلُوسِ فَجَلَسْتُ، فَقَالَ طائلاً: الْحَمْدُ لِلَّهِ مُدِيرِ الْأَدْوَارِ وَمُعِيدِ الْأَكْوَارِ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ، وَعَالِماً بَعْدَ عَالَمٍ، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾^(٢) عَدَلاً مِنْهُ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ وَجَلَّتْ آلَاؤُهُ ﴿لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٣) يَشْهَدُ بِذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ قُدْسُهُ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ^(٤) فِي نَظَائِرِ لَهَا فِي كِتَابِهِ الَّذِي فِيهِ تَبَيَّنَ كُلُّ شَيْءٍ ﴿وَلَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٥)، وَلِذَلِكَ قَالَ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ» إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ

١. الخبر: السور، راجع لسان العرب.

٢. النجم / ٣١.

٣. يونس / ٤٤.

٤. الزلزلة / ٧ و ٨.

٥. فصلت / ٤٢.

تُرَدُّ إِلَيْكُمْ. ثُمَّ أَطْرَقَ هُنَيْئَةً^(١) ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا مُفَضَّلُ الْخَلْقِ حَيَارَى عَمَهُونَ، سُكَارَى فِي طُعْيَانِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، وَبَشَيَاتِيهِمْ وَطَوَاعِيَّتِهِمْ يَتَقْتَدُونَ، بُصْرَاءُ عُمَى لَا يُبْصِرُونَ، نَطَقَاءُ بُكْمٍ لَا يَعْقِلُونَ، سُمَعَاءُ صُمٌّ لَا يَسْمَعُونَ، رَضُوا بِالْأَدْنِ وَحَسِبُوا أَنََّّهُمْ مُهْتَدُونَ، حَادُوا عَنْ مَدْرَجَةِ الْأَكْيَاسِ، وَرَتَعُوا فِي مَرْعَى الْأَرْجَاسِ الْأَنْجَاسِ، كَانَتْهُمْ مِنْ مُفَاجَأَةِ الْمَوْتِ آمِنُونَ، وَعَنِ الْمَجَازَاتِ مُرَحِّحُونَ، يَا وَيْلَهُمْ مَا أَشْقَاهُمْ وَأَطُولَ عَنَاءِهِمْ^(٢) وَأَشَدَّ بَلَاءِهِمْ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ^(٣).

قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَبَكَيْتُ لِمَا سَمِعْتُ مِنْهُ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا تَبْكِ تَخَلَّصْتَ إِذْ قَبِلْتَ، وَنَجَوْتَ إِذْ عَرَفْتَ، ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ابْتَدِئْ لَكَ بِذِكْرِ الْحَيَوَانِ لِيَتَّضِحَ لَكَ مِنْ أَمْرِهِ مَا وَضَحَ لَكَ مِنْ غَيْرِهِ.

فَكَرَّ فِي أُبْنِيَةِ أَبْدَانِ الْحَيَوَانِ وَتَهَيَّيَّتِهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، فَلَا هِيَ صَلَابٌ كَالْحِجَارَةِ وَلَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ لَا تَنْتَنِي وَلَا تَتَصَرَّفُ فِي الْأَعْمَالِ، وَلَا هِيَ عَلَى غَايَةِ اللَّيْنِ وَالرَّخَاوَةِ، فَكَانَتْ لَا تَتَحَامَلُ وَلَا تَسْتَقِلُّ بِأَنْفُسِهَا، فَجَعَلَتْ مِنْ لَحْمٍ رَخْوٍ تَنْتَنِي، تَتَدَاخِلُهُ عِظَامُ صَلَابٍ، يُمَسِّكُهُ عَصَبٌ وَعُرُوقٌ تَشْدُهُ وَيُضَمُّ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ، وَغُلِفَتْ^(٤) فَوْقَ ذَلِكَ بِجِلْدٍ يَشْتَمِلُ عَلَى الْبَدَنِ كُلِّهِ، وَمِنْ أَشْبَاهِ ذَلِكَ هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي تُعْمَلُ مِنَ الْعِيدَانِ^(٥)، وَتُلَفُّ بِالْخِرْقِ، وَتُشَدُّ بِالْخِيُوطِ، وَيُطْلَى^(٦) فَوْقَ ذَلِكَ بِالصَّمْغِ فَيَكُونُ الْعِيدَانُ بِمَنْزِلَةِ الْعِظَامِ، وَالْخِرْقُ بِمَنْزِلَةِ الْعَصَبِ وَالْعُرُوقِ، وَالطَّلَا بِمَنْزِلَةِ الْجِلْدِ، فَإِنْ جَارَ أَنْ يَكُونَ الْحَيَوَانُ الْمُتَحَرِّكُ حَدَثَ بِالْإِهْمَالِ مِنْ غَيْرِ صَانِعٍ جَارَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ التَّمَاثِيلِ الْمُمِيتَةِ، فَإِنْ كَانَ هَذَا غَيْرَ جَائِزٍ فِي التَّمَاثِيلِ فَبِالْحَرِيِّ أَنْ لَا يَجُوزَ فِي الْحَيَوَانِ.

وَفَكَرَّ بَعْدَ هَذَا فِي أَجْسَادِ الْأَنْعَامِ؛ فَإِنَّهَا حِينَ خُلِقَتْ عَلَى أَبْدَانِ الْإِنْسِ مِنَ اللَّحْمِ وَالْعِظَمِ وَالْعَصَبِ أُعْطِيَتْ أَيْضاً السَّمْعَ وَالْبَصَرَ لِيُتْلَعَ الْإِنْسَانُ حَاجَتَهُ، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ عُمِيّاً صُمّاً لَمَا انْتَفَعَ بِهَا الْإِنْسَانُ، وَلَا تَصَرَّفَتْ فِي شَيْءٍ مِنْ مَآرِبِهِ، ثُمَّ مُنِعَتِ الذُّهْنَ وَالْعَقْلَ لِتَذِلَّ لِلْإِنْسَانِ، فَلَا تَمْتَنِعَ عَلَيْهِ إِذَا كَدَّهَا الْكَدَّ الشَّدِيدَ وَحَمَلَهَا الْحِمْلَ الثَّقِيلَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّهُ قَدْ يَكُونُ لِلْإِنْسَانِ عَبِيدٌ مِنَ الْإِنْسِ، يَذُلُّونَ وَيُذْعِنُونَ بِالْكَدِّ الشَّدِيدِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُ عَدِيمِي الْعَقْلِ وَالذُّهْنِ، فَيَقَالُ فِي جَوَابِ ذَلِكَ: إِنَّ هَذَا الصَّنْفَ مِنَ النَّاسِ قَلِيلٌ، فَأَمَّا أَكْثَرُ النَّاسِ فَلَا يُذْعِنُونَ بِمَا تُدْعِنُ بِهِ الدَّوَابُّ مِنَ الْحِمْلِ وَالطَّحْنِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَلَا يُعْرُونَ بِمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْهُ، ثُمَّ لَوْ كَانَ النَّاسُ يُزَاوِلُونَ مِثْلَ هَذِهِ الْأَعْمَالِ

١. هُنَيْئَةً: قليلاً من الزمان، راجع لسان العرب.

٢. العناء: التعب والمشقة، راجع مجمع البحرين.

٣. الدخان ١/ ٤٢ و ٤٣.

٤. وفي المصدر: «وعليت».

٥. العيدان: جمع عُود وهو الخشب، راجع المغرب.

٦. طلى الشيء: لطفه، راجع لسان العرب.

بَأَبْدَانِهِمْ لَشُعْلُوا بِذَلِكَ عَنْ سَائِرِ الْأَعْمَالِ، لِأَنَّهُ كَانَ يُحْتَاجُ مَكَانَ الْجَمَلِ الْوَاحِدِ وَالْبُغْلِ الْوَاحِدِ إِلَى عِدَّةِ أَنْاسِيٍّ، فَكَانَ هَذَا الْعَمَلُ يَسْتَفْرِغُ النَّاسَ حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِمْ عَنْهُ فَضْلٌ لِّشَيْءٍ مِنَ الصَّنَاعَاتِ، مَعَ مَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ التَّعَبِ الْقَادِحِ فِي أَبْدَانِهِمْ، وَالضَّيْقِ وَالْكَدِّ فِي مَعَاشِهِمْ.

إيضاح:

«مدير الأدوار» لعل فيه مضافاً محذوفاً، أي ذوي الأدوار، أو الإسناد مجازي، وفي بعض النسخ بالباء الموحدة وهو أظهر. و«الأكوار» جمع كور بالفتح: وهو الجماعة الكثيرة من الإبل والقطيع من الغنم، ويقال: كل دور كور. والمراد إما استئناف قرن بعد قرن، وزمان بعد زمان، أو إعادة أهل الأكوار والأدوار جميعاً في القيامة، والأوّل أظهر. وقال الجزري: قيل: للقرن طبق، لأنهم طبق للأرض ثم ينقرون فيأتي طبق آخر. قوله عليه السلام: «(في نظائر) أي قالها في ضمن نظائر لها أو مع نظائرها. قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما هي» أي المثوبات والعقوبات أعمالكم أي جزاؤها. والعمّة: التحير والتردد. والحيد: الميل. و«المدرجة»: المذهب والمسلوك. وزحزحه: أبعده. والانشاء: الانعطاف والميل. قوله عليه السلام: «ولا يغرون» في بعض النسخ بالغين المعجمة والراء المهملة على بناء المفعول من قولهم: أغريت الكلب بالصيد أي لا يؤثر فيهم الإغراء والتحريض على جميع الأعمال التي يحتاج إليها الخلق من ذلك العمل الذي تأتي به الدواب، وفي بعضها بالعين المهملة والزاي المعجمة من عزي من باب تعب، أي صبر على ما نابه، والأوّل أظهر. والفادح من قولهم: فدحه الدين أثقله. ثم اعلم أنه ينبغي حمل السؤال على أنه كان يمكن أن يكتفى بخلق الحيوانات، لأن بعضهم ينقادون ويطيعون بعضاً، فالجواب منطبق من غير تكلف.

فَكَرَّ يَا مُفَضَّلُ فِي هَذِهِ الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْحَيَوَانِ، وَفِي خَلْقِهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ بِمَا فِيهِ صَلَاحٌ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا، فَلَا نُسُ لَمَّا قُدِّرُوا أَنْ يَكُونُوا ذَوِي ذِهْنٍ وَفِطْنَةٍ وَعِلَاجٍ لِمِثْلِ هَذِهِ الصَّنَاعَاتِ، مِنَ الْبِنَاءِ وَالتَّجَارَةِ وَالصِّيَاغَةِ^(١) وَغَيْرِ ذَلِكَ خُلِقَتْ لَهُمْ أَكْفُ كِبَارُ ذَوَاتُ أَصَابِعٍ غِلَاطٍ لِيَتَمَكَّنُوا مِنَ الْقَبْضِ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَأَوْكُدَهَا هَذِهِ الصَّنَاعَاتُ؛ وَآكِلَاتُ اللَّحْمِ لَمَّا قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ مَعَاشِهَا مِنَ الصَّيْدِ خُلِقَتْ لَهُمْ أَكْفُ لُطَافٍ مُدْمَجَةٍ^(٢) ذَوَاتُ بَرَاثِنٍ وَمَخَالِبٍ تَصْلُحُ لِأَخْذِ الصَّيْدِ، وَلَا تَصْلُحُ لِلصَّنَاعَاتِ؛ وَآكِلَاتُ النَّبَاتِ لَمَّا قُدِّرَ أَنْ يَكُونُوا لَا ذَاتَ صَنْعَةٍ وَلَا ذَاتَ صَيْدٍ خُلِقَتْ لِبَعْضِهَا أَظْلَافٌ^(٣) تَقِيهَا حُسُونَةُ الْأَرْضِ، إِذَا حَاوَلَ طَلَبَ الرِّعْيِ^(٤)، وَلِبَعْضِهَا حَوَافِرُ مُلَمَّمَةٍ ذَوَاتُ قَعْرِ كَأَحْمَصِ الْقَدَمِ تَنْطَبِقُ عَلَى الْأَرْضِ لِيَتَهَيَّأَ لِلرُّكُوبِ وَالْحُمُولَةِ.

١. في المصدر: «التجارة والصياغة والخياطة».

٢. وفي نسخة: مذبحة. (هامش المصدر)

٣. الظلف: من الشاة والبقر ونحوه كالظفر من الإنسان، والجمع أظلاف، راجع المصباح المنير.

٤. وفي نسخة: المرعى. (هامش المصدر)

تَأْمَلِ التَّدْبِيرَ فِي خَلْقِ آكِلَاتِ اللَّحْمِ مِنَ الْحَيَوَانِ حِينَ خُلِقَتْ ذَوَاتُ أَشْنَانٍ حَدَادٍ، وَبَرَّائِنَ شِدَادٍ، وَأَشْدَاقٍ وَأَفْوَاحٍ
وَإِسْعَةٍ، فَإِنَّهُ لَمَّا قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ طُعْمُهَا اللَّحْمُ خُلِقَتْ خَلْقَةً تُشَاكِلُ ذَلِكَ، وَأُعِينَتْ^(١) بِسِلَاحٍ وَأَدَوَاتٍ تَصْلُحُ لِلصَّيْدِ،
وَكَذَلِكَ تَجِدُ سِبَاعَ الطَّيْرِ ذَوَاتِ مَنَاقِيرَ وَمَخَالِبَ مُهَيَّاتٍ لِفِعْلِهَا، وَلَوْ كَانَتْ الْوُحُوشُ ذَوَاتِ مَخَالِبَ كَانَتْ قَدْ أُعْطِيَتْ مَا لَا
يُحْتَاجُ إِلَيْهِ لِأَنَّهَا لَا تَصِيدُ وَلَا تَأْكُلُ اللَّحْمَ، وَلَوْ كَانَتْ السَّبَاعُ ذَوَاتِ أَظْلَافٍ كَانَتْ قَدْ مُنِعَتْ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، أَعْنِي السِّلَاحَ
الَّذِي بِهِ تَصِيدُ وَتَتَعَيَّشُ. أَفَلَا تَرَى كَيْفَ أُعْطِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّنَفَيْنِ مَا يُشَاكِلُ صِنْفَهُ وَطَبَقَتَهُ بَلْ مَا فِيهِ بَقَاؤُهُ وَصَلَاحُهُ؟
انْظُرِ الْآنَ إِلَى ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ؛ كَيْفَ تَرَاهَا تَتَّبِعُ أُمَمَاتِهَا^(٢) مُسْتَقِلَّةً بِنَفْسِهَا لَا تَحْتَاجُ إِلَى الْحَمْلِ وَالتَّرْبِيَةِ كَمَا تَحْتَاجُ
أَوْلَادُ الْإِنْسِ، فَمِنْ أَجْلِ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَ أُمَمَاتِهَا^(٣) مَا عِنْدَ أُمَمَاتِ الْبَشَرِ مِنَ الرَّفْقِ وَالْعِلْمِ بِالتَّرْبِيَةِ وَالْقُوَّةِ عَلَيْهَا بِالْأَكْفِ
وَالْأَصَابِعِ الْمُهَيَّاتَةِ لِذَلِكَ أُعْطِيَتْ النُّهُوضَ وَالِاسْتِقْلَالَ بِنَفْسِهَا، وَكَذَلِكَ تَرَى كَثِيرًا مِنَ الطَّيْرِ كَمِثْلِ الدَّجَاجِ وَالدُّرَّاجِ
وَالْقَبِجِ^(٤) تَدْرُجُ وَتَلْقُطُ حِينَ يَنْقَابُ عَنْهَا الْبَيْضُ. فَأَمَّا مَا كَانَ مِنْهَا ضَعِيفًا لَا نُهُوضَ فِيهِ كَمِثْلِ فِرَاحِ الْحَمَامِ وَالسِّمَامِ
وَالْحُمْرِ فَقَدْ جُعِلَ فِي الْأُمَمَاتِ فَضْلٌ عَطْفٌ عَلَيْهَا، فَصَارَتْ تَمُجُّ الطَّعَامَ فِي أَفْوَاهِهَا بَعْدَ مَا تُوْعِيهِ حَوَاصِلُهَا^(٥)، فَلَا تَزَالُ
تَعْدُوها حَتَّى تَسْتَقِلَّ بِنَفْسِهَا، وَلِذَلِكَ لَمْ تُزَرَ الْحَمَامُ فِرَاحًا كَثِيرَةً مِثْلَ مَا تُزَرَقُ الدَّجَاجُ، لِتَقْوَى الْأُمُّ عَلَى تَرْبِيَةِ
فِرَاحِهَا، فَلَا تُفْسِدُ وَلَا تَمُوتُ، فَكُلُّ أُعْطِيَ بِقِسْطٍ مِنْ تَدْبِيرِ الْحَكِيمِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ.

انْظُرِ إِلَى قَوَائِمِ الْحَيَوَانِ كَيْفَ تَأْتِي أَرْوَاجًا لِسَهْيًا لِلْمَشْيِ، وَلَوْ كَانَتْ أَفْرَادًا لَمْ تَصْلُحْ لِذَلِكَ لِأَنَّ الْمَاشِيَ يَنْثَقِلُ
قَوَائِمَهُ^(٦) وَيَعْتَمِدُ عَلَى بَعْضٍ، فَذُو الْقَائِمَتَيْنِ يَنْثَقِلُ وَاحِدَةً وَيَعْتَمِدُ عَلَى وَاحِدَةٍ، وَذُو الْأَرْبَعِ يَنْثَقِلُ اثْنَيْنِ وَيَعْتَمِدُ عَلَى
اثْنَيْنِ، وَذَلِكَ مِنْ خِلَافٍ، لِأَنَّ ذَا الْأَرْبَعِ لَوْ كَانَ يَنْثَقِلُ قَائِمَيْنِ مِنْ أَحَدِ جَانِبَيْهِ وَيَعْتَمِدُ عَلَى قَائِمَيْنِ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ لَمَا
يَثْبُتُ^(٧) عَلَى الْأَرْضِ كَمَا لَا يَثْبُتُ^(٨) السَّرِيرُ وَمَا أَشَبَّهُهُ، فَصَارَ يَنْثَقِلُ الْيُمْنَى مِنْ مَقَادِيمِهِ مَعَ الْيُسْرَى مِنْ مَآخِرِهِ، وَيَنْثَقِلُ
الْأُخْرَيْنِ أَيْضًا مِنْ خِلَافٍ فَيَثْبُتُ عَلَى الْأَرْضِ وَلَا يَسْقُطُ إِذَا مَشَى.

أَمَّا مَا تَرَى الْحِمَارَ كَيْفَ يَذِلُّ لِلطَّحْنِ وَالْحُمُولَةِ وَهُوَ يَرَى الْفَرَسَ مُودَعًا مُنْعَمًا، وَالْبَعِيرَ لَا يُطِيقُهُ عِدَّةُ رِجَالٍ لَوْ
اسْتَعَصَى، كَيْفَ كَانَ يَنْقَادُ لِلصَّبِيِّ؟ وَالثَّوْرَ الشَّدِيدَ كَيْفَ كَانَ يُدْعَنُ لِصَاحِبِهِ حَتَّى يَضَعَ النَّيْرَ عَلَى عُنُقِهِ وَيَحْرِثَ بِهِ؟
وَالْفَرَسَ الْكَرِيمَ يَرْكَبُ السُّيُوفَ وَالْأَسِنَّةَ بِالْمُؤَاتَاةِ^(٩) لِفَارِسِهِ، وَالْقَطِيعَ مِنَ الْغَنَمِ يَرْعَاهُ رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَلَوْ تَفَرَّقَتِ الْغَنَمُ

١. وفي نسخة بدل: وأعطيت. (هامش المصدر)

٢. في المصدر: «أُمَمَاتُهَا»، وفي بعض النسخ: أُمَمَاتُهَا. (هامش المصدر)

٣. في المصدر: «أُمَمَاتُهَا».

٤. القبيح: الحجل (طير معروف على قدر الحمام أحمر المنقار يسمى دجاج البر)، راجع مجمع البحرين.

٥. الحوصلة من الطائر: بمنزلة المعدة من الإنسان، راجع لسان العرب.

٦. في المصدر: «ينقل بعض قوائمه».

٧. في المصدر: «لم يثبت».

٨. وفي بعض النسخ: كما يثبت. (هامش المصدر)

٩. وفي نسخة: بالموافاة، وفي بعض النسخ: بالمواساة. (هامش المصدر)

فَأَخَذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي نَاحِيَةٍ لَمْ يَلْحَقْهَا، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْأَصْنَافِ مُسَخَّرَةٌ لِلْإِنْسَانِ، فِيمَ^(١) كَانَتْ كَذَلِكَ؟ إِلَّا بِأَنَّهَا عُدِمَتِ الْعَقْلُ وَالرَّوِيَّةُ فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ تَعْقِلُ وَتُرَوِّي فِي الْأُمُورِ^(٢) كَانَتْ خَلِيقَةً أَنْ تَلْتَوِي^(٣) عَلَى الْإِنْسَانِ فِي كَثِيرٍ مِنْ مَآرِبِهِ^(٤)، حَتَّى يَمْتَنِعَ الْجَمَلُ عَلَى قَائِدِهِ، وَالثَّورُ عَلَى صَاحِبِهِ، وَتَتَفَرَّقُ الْغَنَمُ عَنْ رَاعِيهَا، وَأَشْبَاهُ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ، وَكَذَلِكَ هَذِهِ السَّبَاعُ لَوْ كَانَتْ ذَاتَ عَقْلٍ وَرَوِيَّةٍ فَتَوَازَرَتْ^(٥) عَلَى النَّاسِ كَانَتْ خَلِيقَةً أَنْ تَجْتَاحَهُمْ^(٦)، فَمَنْ كَانَ يَقُومُ لِلْأُسْدِ وَالذَّنَابِ وَالثُّمُورَةِ وَالذَّبِيَّةِ لَوْ تَعَاوَنَتْ وَتَظَاهَرَتْ عَلَى النَّاسِ؟ أَمْ فَلَا تَرَى كَيْفَ حُجِرَ^(٧) ذَلِكَ عَلَيْهَا، وَصَارَتْ مَكَانَ مَا كَانَ يُخَافُ مِنْ إِقْدَامِهَا وَنِكَايَتِهَا^(٨) تَهَابُ^(٩) مَسَاكِينَ النَّاسِ، وَتُحْجِمُ عَنْهَا ثُمَّ لَا تَظْهَرُ وَلَا تَنْشُرُ لَطَلَبِ قُوَّتِهَا إِلَّا بِاللَّيْلِ؟ فَهِيَ مَعَ صَوْلَتِهَا كَالْخَائِفِ لِلْإِنْسِ، بَلْ مَقْمُوعَةٍ^(١٠) (١١) مَمْنُوعَةٍ مِنْهُمْ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ^(١٢) لَسَاوَرَتْهُمْ فِي مَسَاكِينِهِمْ وَضَيَّعَتْ عَلَيْهِمْ^(١٣)، ثُمَّ جُعِلَ فِي الْكَلْبِ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ السَّبَاعِ عَطْفٌ عَلَى مَالِكِهِ وَمُحَامَاةٌ عَنْهُ وَحِفَاطٌ لَهُ، فَهُوَ يَنْتَقِلُ عَلَى الْحِيطَانِ وَالسُّطُوحِ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ لِحِرَاسَةِ مَنْزِلِ صَاحِبِهِ، وَذَبُّ الدُّغَارِ عَنْهُ^(١٤) وَيَبْلُغُ مِنْ مَحَبَّتِهِ لِمَالِكِهِ أَنْ يَبْذُلَ نَفْسَهُ لِلْمَوْتِ دُونَهُ وَدُونَ مَا شِئْتَهُ وَمَالِهِ، وَيَأْلُفُهُ غَايَةَ الْإِلْفِ حَتَّى يَصْبِرَ مَعَهُ عَلَى الْجُوعِ وَالْجَفْوَةِ، فَلَمْ طَبِيعَ الْكَلْبِ عَلَى هَذَا الْإِلْفِ إِلَّا لِيَكُونَ حَارِسًا لِلْإِنْسَانِ، لَهُ عَيْنٌ بِأَنْيَابٍ^(١٥) وَمَخَالِبٌ وَنُبَاحٌ^(١٦) هَائِلٌ لِيُدْعَرَ^(١٧) مِنْهُ السَّارِقُ وَيَسْتَجَنَّبَ الْمَوَاضِعَ الَّتِي يَحْمِيهَا وَيَخْفِرُهَا^(١٨).

١. لم يرد في نسخة: فيم. (هامش المصدر)

٢. روى في الأمر: تفكر، راجع لسان العرب.

٣. التوى: تشاقل، راجع لسان العرب.

٤. المأربة: الحاجة، والجمع المآرب، راجع المصباح المنير.

٥. وازره على الأمر: أعانه وقواه، راجع لسان العرب.

٦. الجوح: الإهلاك والاستئصال، راجع القاموس المحيط.

٧. حجر عليه: منعه التصرف، راجع المصباح المنير.

٨. نكى العدو نكايَةً: إذا قتله وجرحه، راجع الطراز الأول.

٩. هاب الشيء يهابه: إذا خافه، راجع لسان العرب.

١٠. المقموع: المقهور الذليل، راجع تاج العروس.

١١. وفي بعض النسخ: بلا مقموعة، وفي نسخة: غير مقموعة. (هامش المصدر)

١٢. وفي نسخة: ولو كان ذلك. (هامش المصدر)

١٣. وفي المصدر: «وضيقت عليهم».

١٤. في المصدر: «ذبّ الدغار» وفي بعض النسخ: وذبّ الدغار عنه. (هامش المصدر)

١٥. الناب: هي السن التي خلف الرباعية، والجمع أنياب، راجع لسان العرب.

١٦. نباح الكلب: صياحه، راجع لسان العرب.

١٧. دُعر فلان: أخيف، راجع لسان العرب.

١٨. وفي نسخة: ويحضرها. (هامش المصدر)

بيان:

«وأوكدها» أي أوكد الأشياء وأحوجها إلى هذا النوع من الخلق هذه الصناعات، ويحتمل إرجاع الضمير إلى جنس البشر فيكون فعلاً أي ألزمها أو ألهمها هذه الصناعات، ولا يبعد إرجاعه إلى الأكف أيضاً. قوله عائلاً: «مدمجة» أي انضم بعضها إلى بعض. قال الجوهري: دمج الشيء دمجاً إذا دخل في الشيء واستحكم فيه، وأدمجت الشيء إذا لففته في ثوب، وفي بعض النسخ «مدبجة» بالباء والحاء المهملة، ولعل المراد معوجة من قولهم: دبج تديحاً أي بسط ظهره وطأطأ رأسه، وهو تصحيف. والبرائن من السباع والطير بمنزلة الأصابع من الإنسان. والمخلب: ظفر البرثن. والململم بفتح اللامين: المجتمع المدور المضموم، والأخص من باطن القدم ما لا يصيب الأرض. والشدق: جانب الفم. و«الطعم» بالضم: الطعام. والأُمات جمع الأم؛ وقيل: إنما تستعمل في البهائم، وأما في الناس فيقال: أمهات. ويقال: قاب الطير بيضته فلحقها فانقابت. و«اليمام»: حمام الوحش. و«الحر» بضم الحاء وفتح الميم: طائر، وقد يشدد الميم. ويقال: مج الرجل الطعام من فيه إذا رمى به. والمودع من الخيل بفتح الدال: المستريح. ونير الفدان بالكسر: الخشبة المعترضة في عنق الثورين. قوله عائلاً: «يركب السيوف» أي يستقبلها بجرأة كأنه يركبها، أو بمعنى يرتكب مواجهتها. و«المواتاة»: الموافقة. و«الدبة»: كعنبه جمع الدب. ويقال: أحجم القوم عنه أي نكصوا وتأخروا وتهيبوا أخذه. وساوره: واثبه. ويقال: حاميت عنه أي منعت منه. و«العين» بالفتح: الغلظ في الجسم والخشونة^(١). والخفر: المنع.

يَا مُفْضَلُ تَأَمَّلْ وَجْهَ الدَّابَّةِ كَيْفَ هُوَ، فَإِنَّكَ تَرَى الْعَيْنَيْنِ شَاخِصَتَيْنِ أَمَامَهَا لِتُبْصِرَ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا، لئَلَّا تَصْدِمَ حَائِطاً أَوْ تَتَرَدَّى فِي حُفْرَةٍ، وَتَرَى النِّمَّ مَشْقُوقاً شَقّاً فِي أَسْفَلِ الْخَطْمِ، وَلَوْ شِقٌّ^(٢) كَمَا كَانَ النِّمُّ مِنَ الْإِنْسَانِ فِي مُقَدِّمِ الذَّقَنِ لَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَنَاوَلَ بِهِ شَيْئاً مِنَ الْأَرْضِ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَتَنَاوَلُ الطَّعَامَ بِنَفْسِهِ، وَلَكِنْ بِيَدِهِ تَكْرَمَةً لَهُ عَلَى سَائِرِ الْإِكْلَاتِ؟ فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لِلدَّابَّةِ يَدٌ تَتَنَاوَلُ بِهَا الْعَلْفَ، جُعِلَ خَطْمُهَا^(٣) مَشْقُوقاً مِنْ أَسْفَلِهِ لِتَقْبِضَ بِهِ عَلَى الْعَلْفِ ثُمَّ تَقْضُمَهُ، وَأُعْيِنَتْ بِالْجَحْفَلَةِ تَتَنَاوَلُ بِهَا مَا قَرَبَ وَمَا بَعُدَ.

اعْتَبِرْ بِذَنبِهَا وَالْمَنْفَعَةَ لَهَا فِيهِ، فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ الطَّبَقِ عَلَى الدُّبْرِ وَالْحَيَاءِ جَمِيعاً يُوَارِيهِمَا وَيَسْتُرُهُمَا، وَمِنْ مَنَافِعِهَا فِيهِ أَنَّ مَا بَيْنَ الدُّبْرِ وَمَرَاقِي الْبُطْنِ مِنْهَا وَضَرٌّ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ الذُّبَابُ وَالْبُعُوضُ، فَجُعِلَ لَهَا الذَّنْبُ كَالْمِدْبَةِ تَذُبُّ بِهَا عَنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ، وَمِنْهَا أَنَّ الدَّابَّةَ تَسْتَرِيحُ إِلَى تَحْرِيكِهِ وَتَصْرِيفِهِ يَمَنَةً وَيَسْرَةً، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ قِيَامُهَا عَلَى الْأَرْبَعِ بِأَسْرِهَا وَشُغْلَتِ

١. المعنا لا يناسب اللفظ والصحيح هو العين بالباء الموحدة؛ قال الفيروز آبادي: العين: الغلظ في الجسم والخشونة.

٢. في المصدر: «لنتمكن من العض على العلف، ولو كان فوها في مقدم الخطم» بدلاً من «ولو شق».

٣. وفي نسخة: خرطومها. (هامش المصدر)

الْمُقَدَّمَتَانِ بِحَمْلِ الْبَدَنِ عَنِ التَّصَرُّفِ وَالتَّقَلُّبِ كَانَ لَهَا فِي تَحْرِيكِ الذَّنْبِ رَاحَةٌ، وَفِيهِ مَنَافِعُ أُخْرَى يَقْصُرُ عَنْهَا الْوَهْمُ، يُعْرِفُ مَوَاقِعَهَا فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّ الدَّابَّةَ تَرْتَبِمُ^(١) فِي الْوَحْلِ^(٢) فَلَا يَكُونُ شَيْءٌ أَعُونَ عَلَى نُهْوضِهَا مِنْ الْأَخْذِ بِذَنبِهَا، وَفِي شَعْرِ الذَّنْبِ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ كَثِيرَةٌ يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي مَآرِبِهِمْ، ثُمَّ جُعِلَ ظَهْرُهَا مُسَطَّحًا مَبْطُوحًا عَلَى قَوَائِمِ أَرْبَعٍ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ رُكُوبِهَا، وَجُعِلَ حَيَاهَا بَارِزًا مِنْ وَرَائِهَا لِيَتَمَكَّنَ الْفَحْلُ مِنْ ضَرْبِهَا، وَلَوْ كَانَ أَسْفَلَ الْبَطْنِ كَمَا كَانَ^(٣) الْفَرْجُ مِنَ الْمَرْأَةِ لَمْ يَتَمَكَّنِ الْفَحْلُ مِنْهَا. أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَهَا كِفَاحًا كَمَا يَأْتِي الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ؟

تَأْمَلْ مُشْفَرَّ الْفِيلِ وَمَا فِيهِ مِنْ لَطِيفِ التَّدْبِيرِ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مَقَامَ الْيَدِ فِي تَنَاوُلِ الْعَلْفِ وَالْمَاءِ وَازْدِرَادِهِمَا^(٤) إِلَى جَوْفِهِ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَنَاوَلَ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ، لِأَنَّهُ لَيْسَتْ لَهُ رَقَبَةٌ يَمُدُّهَا كَسَائِرِ الْأَنْعَامِ، فَلَمَّا عَدِمَ الْعُنُقُ أُعِينَ مَكَانَ ذَلِكَ بِالْخُرْطُومِ الطَّوِيلِ لِيَسُدُّهُ^(٥) فَيَتَنَاوَلَ بِهِ حَاجَتَهُ، فَمَنْ ذَا الَّذِي عَوَّضَهُ مَكَانَ الْعُضْوِ الَّذِي عَدِمَهُ مَا يَقُومُ مَقَامَهُ إِلَّا الرُّؤُوفُ بِخَلْقِهِ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا بِالْإِهْمَالِ كَمَا قَالَتِ الظَّلَمَةُ؟

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَمَا بَالُهُ لَمْ يَخْلُقْ ذَا عُنُقٍ كَسَائِرِ الْأَنْعَامِ؟ قِيلَ لَهُ: إِنَّ رَأْسَ الْفِيلِ وَأَذُنَيْهِ أَمْرٌ عَظِيمٌ وَثِقَلٌ ثَقِيلٌ، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ عَلَى عُنُقٍ عَظِيمَةٍ لَهَدَّهَا وَأَوْهَنَهَا، فَجَعَلَ رَأْسَهُ مُلَصَّقًا بِجِسْمِهِ لِكَيْلَا يَنَالَ مِنْهُ مَا وَصَفْنَا، وَخَلَقَ لَهُ مَكَانَ الْعُنُقِ هَذَا الْمِشْفَرَ لِيَتَنَاوَلَ بِهِ غِذَاءَهُ فَصَارَ مَعَ عَدَمِهِ الْعُنُقِ مُسْتَوْفِيًا مَا فِيهِ بُلُوغٌ حَاجَتِهِ.

انْظُرِ الْآنَ كَيْفَ جُعِلَ حَيَاءُ الْأُنْثَى مِنَ الْفِيلَةِ فِي أَسْفَلِ بَطْنِهَا فَإِذَا هَاجَتْ لِلضَّرَابِ ارْتَفَعَ وَبَرَزَ حَتَّى يَتَمَكَّنَ الْفَحْلُ مِنْ ضَرْبِهَا، فَاعْتَبِرْ كَيْفَ جُعِلَ حَيَاءُ الْأُنْثَى مِنَ الْفِيلَةِ عَلَى خِلَافِ مَا عَلَيْهِ فِي غَيْرِهَا مِنَ الْأَنْعَامِ، ثُمَّ جُعِلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْحَلَّةُ لِيَتَهَيَّأَ لِلْأَمْرِ الَّذِي فِيهِ قَوَامُ النِّسْلِ وَدَوَامُهُ.

فَكَرَّ فِي خَلْقِ الزَّرَافَةِ وَاخْتِلَافِ أَعْضَائِهَا وَشَبَهِهَا بِأَعْضَاءِ أَصْنَافٍ مِنَ الْحَيَوَانِ؛ فَرَأْسُهَا رَأْسُ فَرَسٍ، وَعُنُقُهَا عُنُقُ جَمَلٍ، وَأُظْلَافُهَا أَظْلَافُ بَقَرَةٍ، وَجِلْدُهَا جِلْدُ نَمْرٍ، وَزَعَمَ نَاسٌ مِنَ الْجُهَالِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ نِتَاجَهَا مِنْ فُحُولٍ شَتَّى! قَالُوا: وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ أَصْنَافًا مِنَ حَيَوَانِ الْبَرِّ، إِذَا وَرَدَتِ الْمَاءُ تَنَزَّوْا عَلَى بَعْضِ السَّائِمَةِ وَيَتَنَجَّجُ مِثْلُ هَذَا الشَّخْصِ الَّذِي هُوَ كَالْمُلْتَقِطِ مِنْ أَصْنَافٍ شَتَّى، وَهَذَا جَهْلٌ مِنْ قَائِلِهِ وَقِلَّةٌ مَعْرِفَتِهِ بِالْبَارِي جَلَّ قُدْسُهُ، وَلَيْسَ كُلُّ صِنْفٍ مِنَ الْحَيَوَانِ يُلْقِحُ كُلَّ صِنْفٍ، فَلَا الْفَرَسُ يُلْقِحُ الْجَمَلَ، وَلَا الْجَمَلُ يُلْقِحُ الْبَقَرَةَ، وَإِنَّمَا يَكُونُ التَّلْقِيحُ مِنْ بَعْضِ الْحَيَوَانِ فِيمَا يُشَاكِلُهُ وَيَقْرُبُ مِنْ خَلْقِهِ، كَمَا يُلْقِحُ الْفَرَسُ الْحِمَارَةَ فَيَخْرُجُ بَيْنَهُمَا الْبُعْلُ، وَيُلْقِحُ الذَّنْبُ الصَّبْعَ فَيَخْرُجُ بَيْنَهُمَا السَّمْعُ، عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ يَكُونُ فِي الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِهِمَا عُضْوٌ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا، كَمَا فِي الزَّرَافَةِ عُضْوٌ مِنَ الْفَرَسِ، وَعُضْوٌ مِنَ الْجَمَلِ،

١. ارتطم في الوحل: وقع فيه، راجع أساس البلاغة.

٢. الوحل: الطين الرقيق، راجع الصحاح.

٣. وفي نسخة: كما كان. (هامش المصدر)

٤. الازدراء: الابتلاع، راجع لسان العرب، مادة «زرد».

٥. أسدله: أركاه وأرسله، راجع لسان العرب.

وَأُظْلِفَ مِنَ الْبَقَرَةِ، بَلْ يَكُونُ كَالْمَتَوَسِّطِ بَيْنَهُمَا الْمُتَمَرِّجُ مِنْهُمَا كَالَّذِي تَرَاهُ فِي الْبُغْلِ، فَإِنَّكَ تَرَى رَأْسَهُ وَأُذُنَيْهِ وَكَفْلَهُ وَذَنْبَهُ وَحَوَافِرَهُ وَسَطَائِبَيْنَ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ مِنَ الْفَرَسِ وَالْحِمَارِ، وَشَحِيجَهُ كَالْمُتَمَرِّجِ مِنْ صَهِيلِ الْفَرَسِ وَنَهْيِقِ الْحِمَارِ، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَتْ الزَّرَافَةُ مِنْ لِقَاحِ أَصْنَافِ شَيْءٍ مِنَ الْحَيَوَانِ كَمَا زَعَمَ الْجَاهِلُونَ، بَلْ هِيَ خَلْقٌ عَجِيبٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُدْرَتِهِ الَّتِي لَا يُعْجِزُهَا شَيْءٌ، وَلِيُعْلَمَ أَنَّهُ خَالِقُ أَصْنَافِ الْحَيَوَانِ كُلِّهَا، يَجْمَعُ بَيْنَ مَا يَشَاءُ مِنْ أَعْضَائِهَا فِي آيَّهَا شَاءَ، وَيَفَرِّقُ مَا شَاءَ مِنْهَا فِي آيَّهَا شَاءَ، وَيَزِيدُ فِي الْخَلْقَةِ مَا شَاءَ، وَيَنْقُصُ مِنْهَا مَا شَاءَ، دَلَالَةٌ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ، وَأَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ أَرَادَهُ جَلَّ وَتَعَالَى، فَأَمَّا طُولُ عُنُقِهَا وَالْمَنْفَعَةُ لَهَا فِي ذَلِكَ فَإِنَّ مَنْشَأَهَا وَمَرْعَاهَا فِي غِيَاظِ ذَوَاتِ أَشْجَارٍ شَاهِقَةٍ ذَاهِبَةٍ طَوْلًا فِي الْهَوَاءِ فَهِيَ تَحْتَاجُ إِلَى طُولِ الْعُنُقِ لِتَتَوَلَّى بِفِيهَا أَطْرَافَ تِلْكَ الْأَشْجَارِ فَتَقْتَوِيَ مِنْ ثِمَارِهَا. تَأَمَّلْ خَلْقَ الْفَرْدِ وَشَبْهَهُ بِالْإِنْسَانِ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَعْضَائِهِ أَعْيَى الرَّأْسِ وَالْوَجْهَ وَالْمَنْكَبَيْنِ وَالصَّدْرَ، وَكَذَلِكَ أَحْشَاؤُهُ شَبِيبُهُ أَيْضًا بِأَحْشَاءِ الْإِنْسَانِ، وَحُصَّ مِنْ ذَلِكَ بِالذَّهْنِ وَالْفُطْنَةِ الَّتِي بَهَا يَفْهَمُ عَنْ سَائِسِهِ مَا يَوْمِي إِلَيْهِ، وَيَخْجِي كَثِيرًا مِمَّا يَرَى الْإِنْسَانُ يَفْعَلُهُ حَتَّى إِنَّهُ يَقْرُبُ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَشَمَائِلِهِ فِي التَّدْبِيرِ فِي خَلْقَتِهِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ عِبْرَةً لِلْإِنْسَانِ فِي نَفْسِهِ، فَيَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ طِينَةِ الْبَهَائِمِ وَسِنْخِهَا إِذْ كَانَ يَقْرُبُ مِنْ خَلْقِهَا هَذَا الْقُرْبَ، وَأَنَّهُ لَوْ لَا فَضِيلَةُ فَضْلِهِ اللَّهُ بِهَا فِي الذَّهْنِ وَالْعُقْلِ وَالنُّطْقِ كَانَ كَبْعُضِ الْبَهَائِمِ، عَلَى أَنَّ فِي جِسْمِ الْفَرْدِ فُضُولًا^(١) أُخْرَى يُفَرِّقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ، كَالْخَطْمِ وَالذَّنْبِ الْمُسَدِّلِ^(٢) وَالشَّعْرِ الْمَجْلَلِ لِلْجِسْمِ كُلِّهِ، وَهَذَا لَمْ يَكُنْ مَانِعًا لِلْفَرْدِ أَنْ يُلْحَقَ بِالْإِنْسَانِ لَوْ أُعْطِيَ مِثْلَ ذِهْنِ الْإِنْسَانِ وَعَقْلِهِ وَنُطْقِهِ، وَالْفُضْلُ الْفَاصِلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ بِالصَّحَّةِ^(٣) هُوَ النِّقْصُ فِي الْعُقْلِ وَالذَّهْنِ وَالنُّطْقِ.

بيان:

شخص البصر: ارتفع، وشخص الرجل بصره: إذا فتح عينيه. و«الخطم» بالفتح: من كل طائر منقاره، ومن كل دابةً مقدّم أنفه وفمه. وقضم كسمع: أكل بأطراف أسنانه. و«الجحفلة»: بمنزلة الشفة للبالغ والحمير والخيول، وهي بتقديم الجيم على الحاء المهملة. و«الطبق» محرّكة: غطاء كل شيء. و«الحياء»: الفرج. والمراد ب«مراقى البطن» ما ارتفع منه من وسط أو قرب منه. و«الوضر»: الدّرن. و«المذبة» بكسر الميم: ما يذبّ به الذباب. وبطحه: ألّقه على وجهه. وكفحته كفحاً وكفاحاً: إذا استقبلته. و«المشفر» من البعير كالجحفلة من الفرس. وقال الجوهري: الزرافة والزرافة بفتح الزاي وضمّها مخففة الفاء: دابة يقال لها بالفارسية: أشتريكاو بلنگ. وقال الفيروزآبادي: «السمع» بكسر السين وسكون الميم: ولد الذئب من الضبع لا يموت حتف أنفه كالحية، وعدوه أسرع من الطير، ووُثِبته تزيد على ثلاثين ذراعاً^(٤). وقال: شحيج البغل

١. وفي نسخة: فضولاً. (هامش المصدر)

٢. المسدّل: الطويل، راجع لسان العرب.

٣. وفي نسخة: وبين الإنسان في الحقيقة. (هامش المصدر)

٤. نقول: لا يبعد أن يكون ما ذكره الفيروزآبادي من الأساطير الموهومة مثل ما ذكره في عدم موت الحية.

والحمار: صوته. و«الغياطل» جمع الغيطل وهو الشجر الكثير الملتف. قوله **عَلَيْهِ** «أن يكون» أي خلق كذلك لأن يكون عبرة للإنسان. و«النسخ» بالكسر: الأصل. قوله **عَلَيْهِ**: «بالصحة هو النقص في العقل»، أي الفصل الصحيح الذي يصلح واقعاً أن يكون فاصلاً. وفي أكثر النسخ: «وهو»، وعلى هذا لا يبعد أن تكون تصحيف القحة أي قلة الحياء.

انْظُرْ يَا مُفَضَّلُ إِلَى لُطْفِ اللَّهِ جَلَّ اسْمُهُ بِالْبَهَائِمِ كَيْفَ كَسَيْتَ أَجْسَامَهُمْ هَذِهِ الْكِسْوَةُ مِنَ الشَّعْرِ وَالْوَبَرِ وَالصُّوفِ لِيَقِيَهَا مِنَ الْبَرْدِ وَكَثْرَةِ الْأَقَاتِ، وَالْبِسْتَ قَوَائِمَهَا الْأَطْلَافَ وَالْحَوَافِرَ وَالْأَخْفَافَ لِيَقِيَهَا مِنَ الْحَرِّ، إِذْ كَانَتْ لَا أَيْدِيَ لَهَا وَلَا أَكْفَ وَلَا أَصَابِعَ مُهَيَّأَةً لِلْعَزْلِ وَالنَّسْجِ، فَكُفُّوا بِأَنْ جُعِلَ كِسْوَتُهُمْ فِي خَلْقَتِهِمْ بَاقِيَةً عَلَيْهِمْ مَا بَقُوا لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى تَجْدِيدِهَا وَالِاسْتِدَالِ بِهَا، فَأَمَّا الْإِنْسَانُ فَإِنَّهُ دُو حِيلَةٍ وَكَفِّ مُهَيَّأَةٍ لِلْعَمَلِ فَهُوَ يَنْسِجُ وَيَغْزِلُ وَيَتَّخِذُ لِنَفْسِهِ الْكِسْوَةَ، وَيَسْتَبْدِلُ بِهَا حَالاً بَعْدَ حَالٍ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ صَلَاحٌ مِنْ جِهَاتٍ؛ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ يَشْتَغِلُ بِصَنْعَةِ اللَّبَاسِ عَنِ الْعَبَثِ وَمَا يُخْرِجُهُ إِلَيْهِ الْكَفَايَةُ؛ وَمِنْهَا: أَنَّهُ يَسْتَرِيحُ إِلَى خَلْعِ كِسْوَتِهِ إِذَا شَاءَ وَلُبْسِهَا إِذَا شَاءَ؛ وَمِنْهَا: أَنْ يَتَّخِذَ لِنَفْسِهِ مِنَ الْكِسْوَةِ ضَرْوباً لَهَا جَمَالٌ وَرَوْعَةٌ فَيَتَلَذَّذُ بِلُبْسِهَا وَتَبْدِيلِهَا. وَكَذَلِكَ يَتَّخِذُ بِالرُّفُقِ مِنَ الصَّنْعَةِ ضَرْوباً مِنَ الْخِفَافِ وَالنَّعَالِ يَبْقَى بِهَا قَدَمَيْهِ، وَفِي ذَلِكَ مَعَاشٍ لِمَنْ يَعْمَلُهُ مِنَ النَّاسِ وَمَكَاسِبٌ يَكُونُ فِيهَا مَعَاشُهُمْ؛ وَمِنْهَا: أَقْوَاتُهُمْ وَأَقْوَاتُ عِيَالِهِمْ، فَصَارَ الشَّعْرُ وَالْوَبَرُ وَالصُّوفُ يَقُومُ لِلْبَهَائِمِ مَقَامَ الْكِسْوَةِ، وَالْأَطْلَافُ وَالْحَوَافِرُ وَالْأَخْفَافُ مَقَامَ الْحِذَاءِ.

بيان:

قال الجوهرى: قال الكسائي: رجل حاف بين الحفوة والحفاء بالمد، وهو الذي يمشي بلا خُفٍّ ولا نعل، وقال: وأما الذي حفي من كثرة المشي أي رقت قدمه أو حافره فإنه حَفٌّ بين الحفا مقصوراً، وأحفاه غيره. انتهى. قوله **عَلَيْهِ**: «وروعة» من قولهم راعني الشيء: أعجبني.

فَكَرَّ يَا مُفَضَّلُ فِي خَلْقَةٍ عَجِيبَةٍ جُعِلَتْ فِي الْبَهَائِمِ، فَإِنَّهُمْ يُوَارُونَ أَنْفُسَهُمْ إِذَا مَاتُوا كَمَا يُوَارِي النَّاسُ مَوْتَاهُمْ، وَإِلَّا فَأَيْنَ جِيفَ هَذِهِ الْوُحُوشِ وَالسَّبَاعِ وَغَيْرِهَا لَا يَرَى مِنْهَا شَيْءٌ؟ وَلَيْسَتْ قَلِيلَةً فَتَخْفَى لِقَلَّتِهَا، بَلْ لَوْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّهَا أَكْثَرُ مِنَ النَّاسِ لَصَدَقَ، فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِمَا تَرَاهُ فِي الصَّحَارِي وَالْجِبَالِ مِنْ أَسْرَابِ الطُّبَّاءِ وَالْمَهَا وَالْحَمِيرِ وَالْوُعُولِ وَالْأَيَّالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْوُحُوشِ، وَأَصْنَافِ السَّبَاعِ مِنَ الْأُسْدِ وَالضَّبَاعِ وَالذَّبَابِ وَالنُّمُورِ وَغَيْرِهَا، وَضُرُوبِ الْهُوَامِّ وَالْحَشَرَاتِ وَدَوَابِّ الْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ أَسْرَابُ الطَّيْرِ مِنَ الْغُرَبَانِ^(١) وَالْقَطَا^(٢) وَالْأَوْزِ^(٣) وَالْكَرَاكِ^(٤) وَالْحَمَامِ وَسَبَاعِ الطَّيْرِ جَمِيعاً

١. الغُرَاب من الطير: معروف، وجمعه غُرَبَان، راجع شمس العلوم.

٢. القطا: ضرب من الحمام، الواحدة قطاة، راجع المصباح المنير.

٣. الأَوْز: طير الماء، الواحدة إوزة، راجع لسان العرب.

٤. الكركي: طائر كبير طويل العنق والرجلين، راجع كتاب الماء.

وَكُلُّهَا لَا يَرَى مِنْهَا شَيْءٌ إِذَا مَاتَتْ إِلَّا الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ يَصِيدُهُ قَانِصٌ أَوْ يَقْتَرِسُهُ سَبْعٌ، فَإِذَا أَحْسُوا بِالْمَوْتِ كَمَنُوا^(١) فِي مَوَاضِعَ خَفِيَّةٍ فَيَمُوتُونَ فِيهَا، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَأَمْتَلَأَتِ الصَّحَارِي مِنْهَا حَتَّى تَفْسُدَ رَائِحَةُ الْهَوَاءِ، وَيُخْذَثُ الْأَمْرَاضُ وَالْوَبَاءُ، فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الَّذِي يَخْلُصُ إِلَيْهِ النَّاسُ، وَعَمَلُوهُ^(٢) بِالتَّمَثِيلِ الْأَوَّلِ الَّذِي مُثِّلَ لَهُمْ كَيْفَ جُعِلَ طَبْعاً وَادِّكَاراً فِي الْبَهَائِمِ وَغَيْرِهَا لِيَسْلَمَ النَّاسُ مِنْ مَعَرَّةٍ مَا يُحْدَثُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْفَسَادِ.

توضيح:

«السرب» بالكسر والسربة: القطيع من الظباء والقطا والخيول ونحوها، والجمع أسراب. والمهابة: البقرة الوحشية، والجمع مها. والوعل بالفتح وككتف: تيس الجبل، والجمع وعال ووعل. و«الأيل» بضم الهمزة وكسرهما وفتح الياء المشددة وكسيّد: الذكر من الأوعال، ويقال: هو الذي يسمّى بالفارسيّة: گوزن، والجمع أياييل. و«القانص»: الصائد. وخلص إليه: وصل. والمراد بـ«التمثيل» ما ذكره الله تعالى في قصّة قابيل^(٣). و«المعرّة»: الأذى.

فَكَرَّ يَا مُفَضَّلُ فِي الْفَطَنِ الَّتِي جُعِلَتْ فِي الْبَهَائِمِ لِمَصْلَحَتِهَا بِالطَّبْعِ وَالْخَلْقَةِ لُطْفًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ، لِئَلَّا يَخْلُوَ مِنْ نَعَمِهِ جَلٌّ وَعَزَّ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ لَا يَعْقِلُ وَرَوِيَّةٌ، فَإِنَّ الْأَيْلَ يَأْكُلُ الْحَيَّاتِ^(٤)، فَيَعْطِشُ عَطَشًا شَدِيدًا، فَيَمْتَنِعُ مِنْ شُرْبِ الْمَاءِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَدَبَّ^(٥) السَّمُّ فِي جِسْمِهِ فَيَقْتُلَهُ، وَيَقِفُ عَلَى الْعَدِيرِ وَهُوَ مَجْهُودٌ عَطَشًا، فَيَبْعُجُ عَجِيجًا عَالِيًا وَلَا يَشْرَبُ مِنْهُ، وَلَوْ شَرِبَ لَمَاتَ مِنْ سَاعَتِهِ، فَانْظُرْ إِلَى مَا جُعِلَ مِنْ طَبَاعِ هَذِهِ الْبَهِيمَةِ مِنْ تَحْمُلِ الظَّمَاءِ^(٦) الْغَالِبِ^(٧) خَوْفًا مِنَ الْمَضَرَّةِ فِي الشُّرْبِ، وَذَلِكَ مِمَّا لَا يَكَادُ الْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ الْمُمَيَّرُ يَضْبِطُهُ مِنْ نَفْسِهِ.

وَالثَّغْلَبُ إِذَا أَعْوَزَهُ الطَّعْمُ تَمَاوَتَ وَنَفَخَ بَطْنُهُ حَتَّى يَحْسِبَهُ الطَّيْرُ مَيِّتًا، فَإِذَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ لِسْتَنْهَشُهُ^(٨) وَتَبَّ عَلَيْهَا فَأَخَذَهَا، فَمَنْ أَعَانَ الثَّغْلَبَ الْعَدِيمَ النَّطْقِ وَالرَّوِيَّةَ بِهَذِهِ الْحِيلَةِ إِلَّا مَنْ تَوَكَّلَ بِتَوَجُّهِهِ الرُّزْقَ لَهُ مِنْ هَذَا وَشَبَّهَهُ؟ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ الثَّغْلَبُ يَضْعَفُ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَقْوَى عَلَيْهِ السَّبَاعُ مِنْ مُسَاوَرَةِ الصَّيْدِ أَعْيَنَ بِالذَّهَاءِ وَالْفِطْنَةِ وَالِاخْتِيَالِ لِمَعَاشِهِ.

١. كمن: اختفى، راجع لسان العرب.

٢. في المصدر: «علموه».

٣. سورة المائدة، آية ٣١.

٤. **فقول:** لا يبعد وجود هذه الحالة في بعض أنواع الأيّل لا سيّما مع تصريح جماعة من أرباب اللغة بوجوده ويحتمل انقراض نسل هذا النوع، وعلى كل حال وجود الفطن في كثير من أنواع الحيوانات فوق هذا مما لا ريب فيه ويشهد به العلم الحديث.

٥. دبّ السقم في الجسم: سرى، راجع تاج العروس.

٦. وفي نسخة: من تحمل الوعل الظّما. (هامش المصدر)

٧. في المصدر: «الغالب الشديد».

٨. نهش: تناول الشيء بفمه ليعضّه، راجع لسان العرب.

وَالدُّلْفَيْنِ يَلْتَمِسُ صَيْدَ الطَّيْرِ فَيَكُونُ حِيلَتُهُ فِي ذَلِكَ أَنْ يَأْخُذَ السَّمَكَ فَيَقْتُلَهُ وَيَشْرَحَهُ^(١) حَتَّى يَطْفُو عَلَى الْمَاءِ، يَكْمُنُ تَحْتَهُ وَيَتَوَرَّ الْمَاءَ الَّذِي عَلَيْهِ^(٢) حَتَّى لَا يَتَبَيَّنَ شَخْصُهُ، فَإِذَا وَقَعَ الطَّيْرُ عَلَى السَّمَكِ الطَّافِي وَثَبَ إِلَيْهَا فَاصْطَادَهَا، فَنَظَرُ إِلَى هَذِهِ الْحِيلَةِ كَيْفَ جُعِلَتْ طَبْعاً فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ لِبَعْضِ الْمَصْلَحَةِ؟

قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَقُلْتُ: خَبَّرَنِي يَا مَوْلَايَ عَنِ التَّنِينِ وَالسَّحَابِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ السَّحَابَ كَالْمَوْكَلِ بِهِ يَخْتَطِفُهُ حَيْثُمَا تَقَفَهُ^(٣)، كَمَا يَخْتَطِفُ حَجَرُ الْمِغْنَاتِيسِ الْحَدِيدَ، فَهُوَ لَا يَطْلُعُ رَأْسُهُ فِي الْأَرْضِ خَوْفاً مِنَ السَّحَابِ وَلَا يَخْرُجُ إِلَّا فِي الْقَيْظِ مَرَّةً إِذَا صَحَتْ^(٤) السَّمَاءُ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهَا نُكْتَةٌ مِنْ غَيْمَةٍ. قُلْتُ: فَلِمَ وَكَلَّ السَّحَابُ بِالتَّنِينِ يَرْصُدُهُ وَيَخْتَطِفُهُ إِذَا وَجَدَهُ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لِيَذْفَعَ عَنِ النَّاسِ مَضَرَّتَهُ.

بيان:

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا بعقل وروية» لعل المراد أن هذه الأمور من محض لطفه تعالى حيث يلهمهم ذلك لا بعقل وروية. وفي أكثر النسخ: «لا يعقل ومروته» وهو تصحيف والمراد معلوم. والجهد: الطاقة والمشقة أي أصابته مشقة عظيمة من العطش. و«العجيج»: الصياح ورفع الصوت. وأعوزه الشيء أي احتاج إليه. و«التماوت»: إظهار الموت حيلة. و«المساورة»: هي الوثوب على وجه الصيد. وقال الفيروزآبادي: «الدلفين» بالضم: دابة بحرية تنجي الغريق. وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يثور الماء» أي يهيج وجه ويحركه. و«التنين»: حية عظيمة معروفة. و«ثقفه» أي وجده. و«القيظ»: صميم الصيف من طلوع الثريا إلى طلوع سهيل. والصحو: ذهاب الغيم.

قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَقُلْتُ: قَدْ وَصَفْتَ لِي يَا مَوْلَايَ مِنْ أَمْرِ الْبَهَائِمِ مَا فِيهِ مُعْتَبَرٌ لِمَنْ اعْتَبَرَ، فَصِفْ لِي الذَّرَّةَ^(٥) وَالنَّمْلَ وَالطَّيْرَ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا مُفَضَّلُ تَأَمَّلْ وَجْهَ الذَّرَّةِ الْحَقِيرَةِ الصَّغِيرَةِ هَلْ تَجِدُ فِيهَا تَقْصاً عَمَّا فِيهِ صَلاَحُهَا؟ فَمِنْ أَيْنَ هَذَا التَّقْدِيرِ وَالصَّوَابِ فِي خَلْقِ الذَّرَّةِ إِلَّا مِنَ التَّدْبِيرِ الْقَائِمِ فِي صَغِيرِ الْخَلْقِ وَكَبِيرِهِ؟

انْظُرْ إِلَى النَّمْلِ وَاحْتِشَادِهَا فِي جَمْعِ الْقُوْتِ وَإِعْدَادِهِ، فَإِنَّكَ تَرَى الْجَمَاعَةَ مِنْهَا إِذَا نَقَلَتْ الْحَبَّ إِلَى زُبَيْتِهَا^(٦) بِمَنْزِلَةِ جَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ يَنْقُلُونَ الطَّعَامَ أَوْ غَيْرَهُ، بَلْ لِلنَّمْلِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْجِدِّ وَالتَّشْمِيرِ^(٧) مَا لَيْسَ لِلنَّاسِ مِثْلُهُ. أَمَا تَرَاهُمْ

١. في المصدر: «يسرحه».

٢. وفي نسخة بدل: الذي تحته حوله، وفي نسخة: الذي حوله. (هامش المصدر)

٣. **فقول:** ويمكن أن يكون الاختطاف بمعنى تأثير قوى فيه، فإن كثيراً من السحاب لها المغناطيس المثبت ولذا إذا قربت من الأرض تنجت الصواعق لما في الأرض من المغناطيس المنفي، ويمكن أن يكون في وجود التنين مثله.

٤. وفي نسخة: أصحت. وهما لغتان. (هامش المصدر)

٥. الذر: النمل الأحمر الصغير، واحدها ذرة، راجع لسان العرب.

٦. الزبية: حفرة النمل، راجع لسان العرب.

٧. التشمير في الأمر: الجد فيه والاجتهاد، راجع تاج العروس.

يَتَعَاوَنُونَ عَلَى النَّفْلِ كَمَا يَتَعَاوَنُ النَّاسُ عَلَى الْعَمَلِ؟ ثُمَّ يَعْمِدُونَ^(١) إِلَى الْحَبِّ فَيَقْطَعُونَهُ قِطْعًا لِكَيْلَا يَنْبُتَ فَيَفْسُدَ عَلَيْهِمْ، فَإِنْ أَصَابَهُ نَدَى أَخْرَجُوهُ فَنَشَرُوهُ حَتَّى يَجِفَّ، ثُمَّ لَا يَتَّخِذُ النَّمْلُ الزُّبْيَةَ إِلَّا فِي نَشْرِ^(٢) مِنَ الْأَرْضِ كَيْ لَا يُفِيضَ السَّيْلُ فَيَغْرِقَهَا^(٣)، فَكُلُّ هَذَا مِنْهُ بِلَا عَقْلِ وَلَا رَوِيَّةٍ بَلْ خَلَقَهُ خُلِقَ عَلَيْهَا لِمَصْلَحَةٍ لُطْفًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

انْظُرْ إِلَى هَذَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ: اللَّيْثُ، وَتُسَمِّيهِ الْعَامَّةُ أَسَدَ الذُّبَابِ، وَمَا أُعْطِيَ مِنَ الْحِيلَةِ وَالرُّفْقِ فِي مَعَاشِهِ، فَإِنَّكَ تَرَاهُ حِينَ يُحْسُ بِالذُّبَابِ قَدْ وَقَعَ قَرِيبًا مِنْهُ تَرَكَهُ مَلِيًّا حَتَّى كَانَتْهُ مَوَاتٌ لَا حَرَكَ بِه، فَإِذَا رَأَى الذُّبَابَ قَدْ اطمأنَّ وَعَقَلَ عَنْهُ دَبَّ دَيْبِيًّا دَقِيقًا^(٤) حَتَّى يَكُونَ مِنْهُ بِحَيْثُ يَنَالُهُ وَثْبُهُ، ثُمَّ يَتَبُّ عَلَيْهِ فَيَأْخُذُهُ، فَإِذَا أَخَذَهُ اشْتَمَلَ عَلَيْهِ بِجَسَمِهِ كُلَّهُ مَخَافَةَ أَنْ يَنْجُو مِنْهُ، فَلَا يَزَالُ قَابِضًا عَلَيْهِ حَتَّى يُحْسَ بِأَنَّهُ قَدْ ضَعُفَ وَاسْتَرْخَى، ثُمَّ يَقْبِلُ عَلَيْهِ فَيَقْتَرِسُهُ وَيَحْيَا بِذَلِكَ مِنْهُ.

فَأَمَّا الْعُنْكَبُوتُ فَإِنَّهُ يَنْسُجُ ذَلِكَ النَّسْجَ فَيَتَّخِذُهُ شَرَكًا وَمَصِيدَةً لِلذُّبَابِ ثُمَّ يَكْمُنُ فِي جَوْفِهِ، فَإِذَا نَشَبَ فِيهِ^(٥) الذُّبَابُ أَحَالَ عَلَيْهِ^(٦) يَلْدَغُهُ^(٧) سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ فَيَعِيشُ بِذَلِكَ مِنْهُ، فَكَذَلِكَ يُحْكِي صَيْدُ الْكِلَابِ وَالْفُهُودِ^(٨)، وَهَكَذَا يُحْكِي صَيْدُ الْأَشْرَاكِ وَالْحَبَائِلِ.

فَانْظُرْ إِلَى هَذِهِ الدَّوِيَّةِ الضَّعِيفَةِ كَيْفَ جُعِلَ فِي طَبْعِهَا مَا لَا يَنْبُلُغُهُ الْإِنْسَانُ إِلَّا بِالْحِيلَةِ وَاسْتِعْمَالِ آلَاتٍ فِيهَا؟ فَلَا تَزْدَرِ بِالشَّيْءِ إِذَا كَانَتْ الْعِبْرَةُ فِيهِ وَاضِحَةً كَالذَّرَّةِ وَالنَّمْلَةِ وَمَا أَشَبَّهُ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْمَعْنَى النَّفِيسَ قَدْ يُمَثِّلُ بِالشَّيْءِ الْحَقِيرِ، فَلَا يَضَعُ^(٩) مِنْهُ ذَلِكَ كَمَا لَا يَضَعُ مِنَ الدِّينَارِ وَهُوَ مِنْ ذَهَبٍ أَنْ يُوَزَنَ بِمِثْقَالٍ مِنْ حَدِيدٍ.

بيان:

«الاحتشاد»: الاجتماع. و«الزببة»: بالضم: الحفرة. و«النشر»: بالفتح وبالتحريك: المكان المرتفع. وقال الجوهرى: «الليث» الأسد وضرب من العناكب، يصطاد الذباب بالوثب. انتهى. و«الموات»: بالفتح: ما لا روح فيه؛ ويقال: ما به حراك كسحاب أي حركة. و«الشرك»: بالتحريك: حباله الصائد؛ ويقال: أحال عليه بالسوط

١. عمد إليه: قصده، راجع لسان العرب.

٢. في المصدر والطبع الحجري: «نشر» وهو المكان المرتفع، راجع مجمع البحرين.

٣. قال الدميري: يحفر قريته بقوائمه وهي ست، فإذا حفرها جعل فيها تعاريج، ثلثا يجري إليها ماء المطر، وربما اتخذ قرية فوق قرية بسبب ذلك، وإنما يفعل ذلك خوفا على ما يدخره من البلل، ومن عجائبه اتخذ القرية تحت الأرض، وفيها منازل ودهاليز وغرف وطبقات معلقة، يملؤها حيوبا وذخائر للشتاء. (حياة الحيوان الكبرى، ج ٢، ص ٤٩٨)

٤. وفي نسخة: دب ديبيا رقيقا. (هامش المصدر)

٥. نشب في الشيء: إذا وقع فيما لا مخلص له منه، راجع لسان العرب.

٦. أحال عليه: أقبل، راجع لسان العرب.

٧. يلدغه: يعضه، راجع المصباح المنير.

٨. الفهد: معروف سئع يصاد به، والجمع فُهود، راجع لسان العرب.

٩. وفي نسخة: يضيع، وكذا في المورد الآتي. (هامش المصدر)

يضره أي أقبل. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فكذلك» أي كفعل الليث. وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «هكذا» أي كالعنكبوت. والازدراء: الاحتقار. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فلا يضع منه» أي لا ينقص من قدر المعنى النفيس تمثيله بالشيء الحقير، قال الفيروزآبادي: وضع عنه: حط من قدره.

تَأْمَلْ يَا مُفَضِّلُ جِسْمَ الطَّائِرِ وَخَلْقَتَهُ فَإِنَّهُ حِينَ قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ طَائِرًا فِي الْجَوِّ حُفَّتْ جِسْمُهُ وَأُدْمِجَ^(١) خَلْقُهُ، فَاقْتَصَرَ بِهِ مِنَ الْقَوَائِمِ الْأَرْبَعِ عَلَى اثْنَتَيْنِ، وَمِنَ الْأَصَابِعِ الْخَمْسِ عَلَى أَرْبَعٍ، وَمِنْ مُنْقَذَيْنِ لِلزَّبْلِ^(٢) وَالْبَوْلِ عَلَى وَاحِدٍ يَجْمَعُهُمَا، ثُمَّ خُلِقَ ذَا جَوْجُو^(٣) مُحَدَّدٍ لِيَسْهَلَ عَلَيْهِ أَنْ يَخْرُقَ الْهَوَاءَ كَيْفَ مَا أَخَذَ فِيهِ، كَمَا جُعِلَ السَّفِينَةُ بِهَذِهِ الْهَيْئَةِ لِتَشُقَّ الْمَاءَ وَتَنْقُذَ فِيهِ، وَجُعِلَ فِي جَنَاحَيْهِ وَذَنَبِهِ رِيشَاتٌ طَوَالُ مِتَانٍ لِيَنْهَضَ بِهَا لِلطَّيْرَانِ، وَكُسِيَ كُلُّهُ الرِّيشَ لِيُدَاخِلَهُ الْهَوَاءَ فَيَقْلَهُ، وَلَمَّا قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ طَعْمُهُ الْحَبَّ وَاللَّحْمَ يَبْلَعُهُ بُلْعًا بَلَا مَضْغٍ نُقِصَ مِنْ خَلْقِهِ الْأَسْنَانُ، وَخُلِقَ لَهُ مِنْقَارٌ صُلْبٌ جَاسٍ^(٤) يَتَنَاوَلُ بِهِ طَعْمَهُ فَلَا يَنْسَجِحُ^(٥) مِنْ لَقْطِ^(٦) الْحَبِّ، وَلَا يَتَصَفَّفُ مِنْ نَهَشِ اللَّحْمِ، وَلَمَّا عَدِمَ الْأَسْنَانُ وَصَارَ يَزْدَرِدُ الْحَبَّ صَحِيحًا وَاللَّحْمَ غَرِيضًا أُعِينَ بِفَضْلِ حَرَارَةٍ فِي الْجَوْفِ تَطْحَنُ لَهُ الطَّعْمَ طَحْنًا يَسْتَعِينُ بِهِ عَنِ الْمَضْغِ.

واعتبر ذلك بأنَّ عَجَمَ الْعَبِّ وَغَيْرِهِ يَخْرُجُ مِنْ أَجْوَافِ الْإِنْسِ صَحِيحًا، وَيُطْحَنُ فِي أَجْوَافِ الطَّيْرِ لَا يُرَى لَهُ أَثَرٌ، ثُمَّ جُعِلَ مِمَّا يَبْيَضُ بَيَاضًا وَلَا يَلِدُ وَلَادَةً لِكَيْلَا يَنْقُلَ عَنِ الطَّيْرَانِ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَتْ الْفِرَاحُ فِي جَوْفِهِ تَمَكُّثٌ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ لَأَثَقَلَتْهُ وَعَاقَتْهُ عَنِ النَّهْوِصِ وَالطَّيْرَانِ، فَجُعِلَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ مُشَاكِلاً لِلْأَمْرِ الَّذِي قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ، ثُمَّ صَارَ الطَّائِرُ السَّائِحُ^(٧) فِي هَذَا الْجَوِّ يَقْعُدُ عَلَى بَيْضِهِ فَيَحْضُنُهُ أُسْبُوعًا، وَبَعْضُهَا أُسْبُوعَيْنِ، وَبَعْضُهَا ثَلَاثَةَ أَسَابِيحَ حَتَّى يَخْرُجَ الْفَرْخُ مِنَ الْبَيْضَةِ، ثُمَّ يُقْبَلُ عَلَيْهِ فَيَرْفُقُهُ الرِّيحُ لِتَتَسَّعَ حَوَصَلَتُهُ لِلْغِذَاءِ ثُمَّ يُرَبِّيهِ وَيُعَذِّبُهُ بِمَا يَعِيشُ بِهِ. فَمَنْ كَلَّفَهُ أَنْ يَلْقُطَ الطَّعْمَ وَيَسْتَخْرِجَهُ^(٨) بَعْدَ أَنْ يَسْتَقَرَّ فِي حَوَصَلَتِهِ وَيَعْذُو بِهِ فِرَاحَهُ؟ وَلَا يَيَّ مَعْنَى يَحْتَمِلُ هَذِهِ الْمَشَقَّةَ وَلَيْسَ بِذِي رَوِيَّةٍ وَلَا تَفَكُّرٍ، وَلَا يَأْمُلُ^(٩) فِي فِرَاحِهِ مَا يَأْمُلُ^(١٠) الْإِنْسَانُ فِي وَلَدِهِ مِنَ الْعَزِّ وَالرَّفْدِ^(١١) وَبَقَاءِ الذَّكَرِ؟ فَهَذَا هُوَ فِعْلٌ يَشْهَدُ

١. أدمج: أحكم، راجع لسان العرب.

٢. الزبل: السرجين، راجع لسان العرب.

٣. جَوْجُو السَّفِينَةُ والطائر: صدرهما، راجع لسان العرب.

٤. وفي بعض النسخ: جاسئ؛ وهما لغتان. (هامش المصدر)

٥. في المصدر: «ينسجح».

٦. اللقط: أخذ الشيء من الأرض، راجع لسان العرب.

٧. في المصدر: «السايح».

٨. وفي نسخة: الطعم والحب يستخرجه. (هامش المصدر)

٩. وفي بعض النسخ: يؤمل. (هامش المصدر)

١٠. في المصدر: «يؤمل».

١١. الرِّفْد: العطاء والصلة، راجع لسان العرب.

بأنه مغطوف على فراخه، لعل لا يعرفها ويفكر فيها وهي دوام النسل وبقاؤه لطفاً من الله تعالى ذكره.
 انظر إلى الدجاجة كيف تهيج لحضن البيض والتفريخ وليس لها بيض مجتمع ولا وكر^(١) موطاً^(٢)، بل تنبعث وتنتفج^(٤) وتقوي^(٥) وتمتنع من الطعام حتى يجمع لها البيض فتحضنه وتفرخ فلم كان ذلك منها إلا لإقامة النسل؟
 ومن أخذها بإقامة النسل ولا روية ولا تفكر لو لا أنها مجبولة على ذلك؟
 اعتبر بخلق البيضة وما فيها من المح الأصفر الخاثر، والماء الأبيض الرقيق، فبعضه ليتشتر^(٦) منه الفرخ، وبعضه ليغذى به، إلى أن تنقَاب عنه البيضة، وما في ذلك من التدبير، فإنه لو كان نشوء الفرخ في تلك القشرة المستحصنة^(٧) التي لا مساعٍ لشيء إليها لجعل معه في جوفها من الغذاء ما يكتفي به إلى وقت خروجه منها، كمن يحبس في حبس حصين لا يوصل إلى من فيه فيجعل معه من القوت ما يكتفي به إلى وقت خروجه منه.
 فكر في حوصلة الطائر وما قدر له، فإن مسلك الطعام إلى القانصة ضيق لا ينقذ فيه الطعام إلا قليلاً قليلاً، فلو كان الطائر لا يلقط حبة ثانية حتى تصل الأولى إلى القانصة لطال عليه، ومتى كان يستوفي طعامه؟ فإنما يختلسه اختلاساً لشدّة الحذر، فجعلت الحوصلة كالمخلّاة المعلقة أمامه ليوعي فيها ما أدرك من الطعام بسرعة ثم تنفذه إلى القانصة على مهل، وفي الحوصلة أيضاً خلّة^(٨) أخرى، فإن من الطائر ما يحتاج إلى أن يزق فراخه فيكون رده للطعام من قرب أسهل عليه.

توضيح:

أقله أي حمله ورفع. وجسا كدعا: صلب وبيس. ويقال: سحجت جلده فانسحج أي قشرته فانقشر.
 والتقصّف: التكسّر. والغريض الطري أي غير مطبوخ. و«العجم» بالتحريك: النوى. وحضن الطائر بيضته يحضنه: إذا ضمّه إلى نفسه تحت جناحه. وزق الطائر فرخه يزقه أي أطعمه بفيه. و«تقوي» أي تصيح.
 و«المح» بضم الميم والحاء المهملة: صفرة البيض، وفي بعض النسخ بالخاء المعجمة. وقال الأصمعي: أشرت الزبد: تركته خائراً، وذلك إذا لم تذهبه، و«تنقَاب» أي تنفلق.

١. الوكر: عش الطائر، راجع لسان العرب.

٢. وطاً الشيء: هيأه، راجع لسان العرب.

٣. وفي نسخة: موطن. (هامش المصدر)

٤. وفي نسخة بدل: تنتفج. (هامش المصدر)

٥. وفي نسخة: تقوى. (هامش المصدر)

٦. في المصدر: لينشأ. (هامش المصدر)

٧. في المصدر: «المستحصنة»، وفيه ذكر من بعض النسخ: المستحفظة، وفي نسخة أخرى: المستحضنة.

٨. وفي نسخة: حيلة. (هامش المصدر)

قَالَ الْمُفَضَّلُ: قُلْتُ: يَا مَوْلَايَ إِنَّ قَوْمًا مِنَ الْمُعْطَلَةِ يَزْعُمُونَ أَنَّ اخْتِلَافَ الْأَلْوَانِ وَالْأَشْكَالِ فِي الطَّيْرِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ قَبْلِ امْتِزَاجِ الْأَخْلَاطِ وَاخْتِلَافِ مَقَادِيرِهَا بِالْمَرَجِ وَالْإِهْمَالِ.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا مُفَضَّلُ هَذَا الْوُشْيُ الَّذِي تَرَاهُ فِي الطَّوَائِيسِ وَالْدَّرَاجِ وَالتَّدَارِجِ^(١) عَلَى اسْتِوَاءٍ وَمُقَابَلَةٍ كَنَحْوِ مَا يَخْطُ بِالْأَقْلَامِ، كَيْفَ يَأْتِي بِهِ الْإِمْتِزَاجُ الْمُهِمَلُ عَلَى شَكْلِ وَاحِدٍ لَا يَخْتَلِفُ؟ وَلَوْ كَانَ بِالْإِهْمَالِ لَعَدِمَ الْإِسْتِوَاءُ وَلَكَانَ مُخْتَلِفًا. تَأَمَّلْ رِيشَ الطَّيْرِ كَيْفَ هُوَ؟ فَإِنَّكَ تَرَاهُ مَنْسُوجًا كَنَسْجِ الثَّوبِ مِنْ سُلُوكِ دِقَاقٍ قَدْ أُلِّفَ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ كَتَأْلِيفِ الْخَيْطِ إِلَى الْخَيْطِ وَالشَّعْرَةِ إِلَى الشَّعْرَةِ، ثُمَّ تَرَى ذَلِكَ النَّسْجَ إِذَا مَدَدْتَهُ يَنْفَتَحُ قَلِيلًا وَلَا يَنْشَقُّ لِتَدْخُلَهُ الرِّيحُ فَيَقِلُّ الطَّائِرُ^(٢) إِذَا طَارَ، وَتَرَى فِي وَسَطِ الرِّيشَةِ عُمُودًا غَلِيظًا مَتِينًا قَدْ نُسِجَ عَلَيْهِ الَّذِي هُوَ مِثْلُ الشَّعْرِ لِيُمْسِكَه بِصَلَابَتِهِ، وَهُوَ الْقُصْبَةُ الَّتِي هُوَ فِي وَسَطِ الرِّيشَةِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ أَجُوفٌ لِيَخِفَّ عَلَى الطَّائِرِ وَلَا يَعُوقَهُ عَنِ الطَّيْرِانِ.

بيان:

«المرج» بالتحريك: الفساد والاضطراب والاختلاط، وفي بعض النسخ بالزاي المعجمة، والأول أظهر. و«الوشى»: نقش الثوب ويكون من كل لون و«السلوك» جمع السلك وهو جمع السلكة بالكسر: الخيط يخاط بها.

هَلْ رَأَيْتَ يَا مُفَضَّلُ هَذَا الطَّائِرَ الطَّوِيلَ السَّاقَيْنِ؟ وَعَرَفْتَ مَا لَهُ مِنَ الْمَنْفَعَةِ فِي طُولِ سَاقَيْهِ؟ فَإِنَّهُ أَكْثَرُ ذَلِكَ فِي ضَخْصَاحٍ مِنَ الْمَاءِ، فَتَرَاهُ بِسَاقَيْنِ طَوِيلَيْنِ كَأَنَّهُ رِيئَةٌ فَوْقَ مَرْقَبٍ وَهُوَ يَتَأَمَّلُ مَا يَدِبُّ فِي الْمَاءِ، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا مِمَّا يَتَقَوَّطُ بِهِ خَطَا خُطُوتٍ رَقِيقًا حَتَّى يَتَنَاوَلَهُ، وَلَوْ كَانَ قَصِيرَ السَّاقَيْنِ وَكَانَ يَخْطُو نَحْوَ الصَّيْدِ لِيَأْخُذَهُ يُصِيبُ^(٣) بَطْنُهُ الْمَاءَ فَيَتَوَرَّ^(٤) وَيُدْعُرُ مِنْهُ فَيَتَفَرَّقُ عَنْهُ، فَخَلَقَ لَهُ ذَلِكَ الْعُمُودَانِ لِيُذَرِكَ بِهِمَا حَاجَتَهُ، وَلَا يَفْسُدَ عَلَيْهِ مَطْلَبُهُ.

تَأَمَّلْ ضُرُوبَ التَّدْبِيرِ فِي خَلْقِ الطَّائِرِ فَإِنَّكَ تَجِدُ كُلَّ طَائِرٍ طَوِيلَ السَّاقَيْنِ طَوِيلَ الْعُنُقِ، وَذَلِكَ لِيَسْتَمَكَّنَ مِنْ تَنَاوُلِ طَعْمِهِ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَوْ كَانَ طَوِيلَ السَّاقَيْنِ قَصِيرَ الْعُنُقِ لَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَنَاوَلَ شَيْئًا مِنَ الْأَرْضِ، وَرُبَّمَا أُعِينَ مَعَ طُولِ الْعُنُقِ بِطُولِ الْمَنَاقِبِ لِيَزْدَادَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ سَهُولَةً لَهُ وَإِمْكَانًا^(٥) أَفَلَا تَرَى أَنَّكَ لَا تُفْتَشُّ شَيْئًا مِنَ الْخِلْقَةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ عَلَى غَايَةِ الصَّوَابِ وَالْحِكْمَةِ؟

١. قال الدميري: التدرج كحبرج: طائر كالدرّاج يغرد في البساتين بأصوات طيبة، يسمن عند صفاء الهواء وهبوب الشمال، ويهزل عند كدوره وهبوب الجنوب، يتخذ داره في التراب اللين، ويضع البيض فيها لئلا يتعرض للآفات. وقال ابن زهر: هو طائر مليح يكون بأرض خراسان وغيرها من بلاد فارس. (حياة الحيوان الكبرى، ج ١، ص ٢٣٥)

٢. وفي نسخة بدل: الطيران. (هامش المصدر)

٣. وفي نسخة بدل: يضب، وفي نسخة بدل أخرى: يصب. (هامش المصدر)

٤. ثار الشيء: هاج، راجع لسان العرب.

٥. في المصدر: «سهولة وله إمكاناً».

توضيح:

ماء ضحضاح أي قريب القعر. و«الريئة» بالهمز: العين والطليلة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم عدو، ولا يكون إلا على جبل أو شرف. و«المرقب»: الموضع المشرف يرتفع عليه الرقيب. والذعر: الخوف. انظر إلى العَصَافِرِ كَيْفَ تَطْلُبُ أَكْلَهَا بِالنَّهَارِ؟ فَهِيَ لَا تَفْقِدُهُ وَلَا هِيَ تَجِدُهُ مَجْمُوعاً مُعَدّاً بَلْ تَنَالُهُ بِالْحَرَكََةِ وَالطَّلَبِ، وَكَذَلِكَ الْخُلُقُ كُلُّهُ، فَسُبْحَانَ مَنْ قَدَّرَ الرِّزْقَ كَيْفَ قَوَّتَهُ^(١)، فَلَمْ يَجْعَلْ مِمَّا لَا يُقَدَّرُ عَلَيْهِ إِذْ جَعَلَ لِلْخَلْقِ حَاجَةً إِلَيْهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ مَبْذُولاً وَيُنَالُ بِالْهُوَيْنَا^(٢) إِذْ كَانَ لَا صَلَاحَ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ يُوجَدُ مَجْمُوعاً مُعَدّاً كَانَتْ الْبُهَائِمُ تَتَقَلَّبُ^(٣) عَلَيْهِ وَتَنْقَلِعُ حَتَّى تَبْشِمَ فَتَهْلِكَ، وَكَانَ النَّاسُ أَيْضاً يَصِيرُونَ بِالْفَرَاغِ إِلَى غَايَةِ الْأَشْرِ وَالْبَطَرِ حَتَّى يَكْثُرَ الْفَسَادُ وَيَطْهَرُ الْفَوَاحِشُ. أَعْلِمْتَ مَا طَعْمُ هَذِهِ الْأَصْنَافِ مِنَ الطَّيْرِ الَّتِي لَا تَخْرُجُ إِلَّا بِاللَّيْلِ كِمِثْلِ الْبُومِ وَالْهَامِ^(٤) وَالْخُفَّاشِ؟ قُلْتُ: لَا يَا مَوْلَايَ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ مَعَاشَهَا مِنْ ضُرُوبٍ تَنْتَشِرُ فِي هَذَا الْجَوِّ مِنَ الْبُعُوضِ وَالْفَرَاشِ وَأَشْبَاهِ الْجَرَادِ وَالْيَعَاسِبِ، وَذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الضُّرُوبَ مَبْنُوتَةٌ فِي الْجَوِّ لَا يَخْلُو مِنْهَا مَوْضِعٌ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِأَنَّكَ إِذَا وَضَعْتَ سِرَاجاً بِاللَّيْلِ فِي سَطْحٍ أَوْ عَرَصَةٍ دَارٍ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ مِنْ هَذَا^(٥) شَيْءٌ كَثِيرٌ، فَمِنْ أَيْنَ يَأْتِي ذَلِكَ كُلُّهُ إِلَّا مِنَ الْقُرْبِ؟

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّهُ يَأْتِي مِنَ الصَّحَارِيِّ وَالْبَرَارِيِّ، قِيلَ لَهُ: كَيْفَ يُوَافِي تِلْكَ السَّاعَةَ مِنْ مَوْضِعٍ بَعِيدٍ؟ وَكَيْفَ يُبْصِرُ مِنْ ذَلِكَ الْبُعْدِ سِرَاجاً فِي دَارٍ مَخْشُوفَةٍ بِالْذُّورِ فَيَقْصِدُ إِلَيْهِ؟ مَعَ أَنَّ هَذِهِ عَيْنَانِ تَتَهَافَتُ^(٦) عَلَى السَّرَاجِ مِنْ قُرْبٍ، فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهَا مُنْتَشِرَةٌ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنَ الْجَوِّ، فَهَذِهِ الْأَصْنَافُ مِنَ الطَّيْرِ تَلْتَمِسُهَا إِذَا خَرَجَتْ فَتَنْقَوْتُ بِهَا.

فَانْظُرْ كَيْفَ وَجَّهَ الرِّزْقُ لِهَذِهِ الطُّيُورِ الَّتِي لَا تَخْرُجُ إِلَّا بِاللَّيْلِ مِنْ هَذِهِ الضُّرُوبِ الْمُنْتَشِرَةِ فِي الْجَوِّ، وَاعْرِفْ مَعَ ذَلِكَ الْمَعْنَى فِي خَلْقِ هَذِهِ الضُّرُوبِ الْمُنْتَشِرَةِ الَّتِي عَسَى أَنْ يَظُنَّ ظَانٌّ أَنَّهَا فَضْلٌ لَا مَعْنَى لَهُ؛ خَلَقَ الْخُفَّاشُ خِلْقَةً عَجِيبَةً بَيْنَ خِلْقَةِ الطَّيْرِ وَذَوَاتِ الْأَرْبَعِ^(٧) أَقْرَبُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ ذُو أذْنَيْنِ نَاشِرَتَيْنِ وَأَسْنَانٍ وَوَرٍ وَهُوَ يَلِدُ وَلَداً وَيَرْضِعُ وَيَبُولُ وَيَمْشِي إِذَا مَشَى عَلَى أَرْبَعٍ^(٨)، وَكُلُّ هَذَا خِلَافُ صِفَةِ^(٩) الطَّيْرِ، ثُمَّ هُوَ أَيْضاً مِمَّا يَخْرُجُ بِاللَّيْلِ وَيَنْقَوْتُ مِمَّا

١. وفي نسخة: قَدَّرَ. (هامش المصدر)

٢. الهويناء: التُّودَةُ والرفق والسكينة والوقار، راجع لسان العرب.

٣. في المصدر: «تتقلب».

٤. الهامة من طير الليل: طائر صغير يألف المقابر، والجمع هام، راجع لسان العرب.

٥. في المصدر: «من هذا الضرب»، وفيه ذكر من نسخة: من هذه الضروب. (هامش المصدر)

٦. تتهافت: تتساقط، راجع المغرب.

٧. في المصدر مع زيادة: «بل هو إلى ذوات الأربع».

٨. أضاف الدميري له خصيصتين، وقال: يحيض ويظهر، ويضحك كما يضحك الإنسان. (حياة الحيوان الكبرى، ج ١، ص ١٥٤)

٩. وفي نسخة: صنعة. (هامش المصدر)

يَسْرِي^(١) فِي الْجَوِّ مِنَ الْفَرَّاشِ وَمَا أَشْبَهَهُ؛ وَقَدْ قَالَ قَائِلُونَ: إِنَّهُ لَا طُعْمَ لِلْخَفَّاشِ، وَإِنَّ غِذَاءَهُ مِنَ السَّسِيمِ وَحْدَهُ؛ وَذَلِكَ يَفْسُدُ وَيَبْطُلُ مِنْ جِهَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا خُرُوجُ مَا يَخْرُجُ مِنْهُ مِنَ الثَّقَلِ وَالْبَوْلِ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَكُونُ مِنْ غَيْرِ طُعْمٍ، وَالْأُخْرَى أَنَّهُ ذُو أَسْنَانٍ وَلَوْ كَانَ لَا يَطْعَمُ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ لِلْأَسْنَانِ فِيهِ مَعْنَى، وَلَيْسَ فِي الْخِلْقَةِ شَيْءٌ لَا مَعْنَى لَهُ؛ وَأَمَّا الْمَارِبُ فِيهِ فَمَعْرُوفَةٌ حَتَّى إِنَّ زَيْلَهُ يَدْخُلُ فِي بَعْضِ الْأَعْمَالِ^(٢)، وَمِنْ أَكْثَرِ الْأَرْبِ فِيهِ خِلْقَتُهُ الْعَجِيبَةُ الدَّالَّةُ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ جَلِّ شَأْنُهُ، وَتَصَرُّفِهَا فِيَمَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ لِضَرْبٍ مِنَ الْمَصْلَحَةِ.

فَأَمَّا الطَّائِرُ الصَّغِيرُ الَّذِي يَقَالُ لَهُ: «ابْنُ ثَمَرَةٍ» فَقَدْ عَشَّشَ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ فِي بَعْضِ الشَّجَرِ فَنَظَرَ إِلَى حَيَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ أَقْبَلَتْ نَحْوَ عَشِيهِ فَأَعْرَضَتْ فَهَا لَتَبْلَعَهُ^(٣) فَبَيْنَمَا هُوَ يَتَقَلَّبُ وَيَضْطَرِبُ فِي طَلَبِ حِيلَةٍ مِنْهَا إِذَا وَجَدَ حَسَكَةً فَحَمَلَهَا فَالْتَقَاهَا فِي فَمِ الْحَيَّةِ، فَلَمْ تَزَلِ الْحَيَّةُ تَلْتَوِي وَتَتَقَلَّبُ حَتَّى مَاتَتْ. أَفَرَأَيْتَ لَوْ لَمْ أُخْبِرْكَ بِذَلِكَ كَانَ يَخْطُرُ بِبَالِكَ أَوْ بِبَالِ غَيْرِكَ أَنَّهُ يَكُونُ مِنْ حَسَكَةٍ مِثْلُ هَذِهِ الْمَنْفَعَةِ الْعَظِيمَةِ، أَوْ يَكُونُ مِنْ طَائِرٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ مِثْلُ هَذِهِ الْحِيلَةِ؟ اعْتَبِرْ بِهِذَا وَكَثِيرٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ تَكُونُ فِيهَا مَنَافِعٌ لَا تُعْرَفُ إِلَّا بِحَادِثٍ يُحْدِثُ بِهِ أَوْ خَبَرٍ يُسْمَعُ بِهِ.

انْظُرْ إِلَى النَّحْلِ وَاحْتِشَادِهِ فِي صَنْعَةِ الْعَسَلِ، وَتَهَيُّئَةِ الْبُيُوتِ الْمُسَدَّسَةِ، وَمَا تَرَى فِي ذَلِكَ اجْتِمَاعَهُ مِنْ دَقَائِقِ الْفِطْنَةِ، فَإِنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ الْعَمَلَ رَأَيْتَهُ عَجِيبًا لَطِيفًا، وَإِذَا رَأَيْتَ الْمَعْمُولَ وَجَدْتَهُ عَظِيمًا شَرِيفًا مَوْفِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَإِذَا رَجَعْتَ إِلَى الْفَاعِلِ أَفْقَيْتَهُ غَيْبًا جَاهِلًا بِنَفْسِهِ فَضْلًا عَمَّا سِوَى ذَلِكَ، فَبَيْنَ هَذَا أَوْضَحُ الدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الصَّوَابَ وَالْحِكْمَةَ فِي هَذِهِ الصَّنْعَةِ لَيْسَ لِلنَّحْلِ بَلْ هِيَ لِلَّذِي طَبَعَهُ عَلَيْهَا وَسَخَّرَهُ فِيهَا لِمَصْلَحَةِ النَّاسِ.

انْظُرْ إِلَى هَذَا الْجَرَادِ مَا أَضْعَفَهُ وَأَقْوَاهُ، فَإِنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ خَلْقَهُ رَأَيْتَهُ كَأَضْعَفِ الْأَشْيَاءِ، وَإِنْ دَلَّكَ عَسَاكِرُهُ نَحْوَ بَلَدٍ مِنَ الْبُلْدَانِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ أَنْ يَحْمِيَهُ مِنْهُ. أَلَا تَرَى أَنَّ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ لَوْ جَمَعَ خَيْلَهُ وَرَجَلَهُ لِيَحْمِيَ بِلَادَهُ مِنَ الْجَرَادِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ؟ أَلَيْسَ مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ أَنْ يَبْعَثَ أَضْعَفَ خَلْقِهِ إِلَى أَقْوَى خَلْقِهِ فَلَا يَسْتَطِيعُ دَفْعُهُ؟ انْظُرْ إِلَيْهِ كَيْفَ يَنْسَابُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِثْلَ السَّيْلِ فَيُعْشِي السَّهْلَ وَالْجَبَلَ وَالْبَدْوَ وَالْحَضَرَ، حَتَّى يَسْتُرَ نُورَ الشَّمْسِ بِكَثْرَتِهِ فَلَوْ كَانَ هَذَا مِمَّا يُصْنَعُ بِالْأَيْدِي مَتَى كَانَ يَجْتَمِعُ مِنْهُ هَذِهِ الْكَثْرَةُ، وَفِي كَمٍّ مِنْ سَنَةٍ كَانَ يَرْتَفِعُ، فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى الْقُدْرَةِ الَّتِي لَا يُوَوِّدُهَا شَيْءٌ وَيُكْثِرُ عَلَيْهَا.

تَأَمَّلْ خَلْقَ السَّمَكِ وَمُشَاكَلَتَهُ لِلْأَمْرِ الَّذِي قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ خُلِقَ غَيْرَ ذِي قَوَائِمٍ لِأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْمَشْيِ إِذَا

١. وفي نسخة: يرى. (هامش المصدر)

٢. قد ذكر الدميري لأجزائه خواصا كثيرة: منها أن طبع رأسه في إناء نحاس أو حديد بدهن زنبق ويغمر فيه مرارا حتى يتهرى ويصفى ذلك الدهن عنه، ويدهن به صاحب النقرس والفالج القديم والارتعاش، والتورم في الجسد فإنه ينفعه ذلك ويبرئه، ومنها أن زيله إذا طلى به على القوابي قلعه. (حياة الحيوان الكبرى، ج ١، ص ٤١٦)

٣. في المصدر: «تبعيه لتبلعه».

كَانَ مَسْكَنُهُ الْمَاءَ، وَخَلِقَ غَيْرَ ذِي رِيَّةٍ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْتَفِسَ وَهُوَ مُنْعَمَسٌ فِي اللَّجَّةِ، وَجُعِلَتْ لَهُ مَكَانَ الْقَوَائِمِ أَجْنَحَةٌ شِدَادُ يَضْرِبُ بِهَا فِي جَانِبَيْهِ كَمَا يَضْرِبُ الْمَلَّاحُ بِالْمَجَادِيفِ^(١) مِنْ جَانِبَيْ السَّفِينَةِ، وَكُسِيَ جِسْمُهُ قُشُوراً مِتَاناً مُتَدَاخِلَةً كَتَدَاخِلِ الدُّرُوعِ وَالْجَوَاشِنِ لِتَقِيَهُ مِنَ الْآفَاتِ، فَأُعِينَ بِفَضْلِ حَسٍّ فِي الشَّمِّ لِأَنَّهُ بَصَرُهُ ضَعِيفٌ وَالْمَاءُ يَحْبُبُهُ، فَصَارَ يَشُمُّ الطَّعْمَ مِنَ الْبُعْدِ الْبَعِيدِ فَيَنْتَجِعُهُ^(٢)، وَإِلَّا فَكَيْفَ يَعْلَمُ بِهِ وَيَمُوضِعُهُ؟ وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ فِيهِ إِلَى صِمَاخِيهِ^(٣) مَنَافِذَ فَهُوَ يَعْجَبُ^(٤) الْمَاءَ فِيهِ، وَيُرْسِلُهُ مِنْ صِمَاخِيهِ، فَتَرْوَحُ إِلَى ذَلِكَ كَمَا يَتَرَوَّحُ غَيْرُهُ مِنَ الْحَيَوَانِ إِلَى تَنَسُّمِ هَذَا النَّسِيمِ.

فَكَرَّ الْآنَ فِي كَثْرَةِ نَسْلِهِ وَمَا خُصَّ بِهِ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّكَ تَرَى فِي جَوْفِ السَّمَكَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ الْبَيْضِ مَا لَا يُحْصَى كَثْرَةً، وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ يَتَسَّعَ لِمَا يَعْتَذِي بِهِ مِنْ أَصْنَافِ الْحَيَوَانِ، فَإِنَّ أَكْثَرَهَا يَأْكُلُ السَّمَكَ حَتَّى أَنَّ السَّبَاعَ أَيْضاً فِي حَافَاتِ الْأَجَامِ^(٥) عَاكِفَةٌ عَلَى الْمَاءِ أَيْضاً كَيْ تَرْصِدَ السَّمَكَ، فَإِذَا مَرَّ بِهَا خَطَفَتْهُ، فَلَمَّا كَانَتْ السَّبَاعُ تَأْكُلُ السَّمَكَ وَالطَّيْرُ يَأْكُلُ السَّمَكَ وَالنَّاسُ يَأْكُلُونَ السَّمَكَ وَالسَّمَكُ يَأْكُلُ السَّمَكَ كَانَ مِنَ التَّدْبِيرِ فِيهِ أَنْ يَكُونَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْكَثْرَةِ.

فَإِذَا أَرَدْتُ أَنْ تُعْرِفَ سَعَةَ حِكْمَةِ الْخَالِقِ وَقِصَرَ عِلْمِ الْمَخْلُوقِينَ فَانْظُرْ إِلَى مَا فِي الْبَحَارِ مِنْ ضُرُوبِ السَّمَكِ، وَدَوَابِّ الْمَاءِ وَالْأَصْدَافِ، وَالْأَصْنَافِ الَّتِي لَا تُحْصَى وَلَا تُعْرِفُ مَنَافِعُهَا إِلَّا الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ يُدْرِكُهُ النَّاسُ بِأَسْبَابِ تَحْدُثُ، مِثْلُ الْقَرْمِزِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَ النَّاسُ صِبْغَهُ بِأَنَّ كَلْبَةً تَجُولُ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فَوَجَدَتْ شَيْئاً مِنَ الصَّنْفِ الَّذِي يُسَمَّى الْحَلَزُونِ فَأَكَلَتْهُ فَاحْتَضَبَ خَطْمُهَا بِدَمِهِ، فَنَظَرَ النَّاسُ إِلَى حُسْنِهِ فَاتَّخَذُوهُ صِبْغاً، وَأَشْبَاهُ هَذَا مِمَّا يَقِفُ النَّاسُ عَلَيْهِ حَالاً بَعْدَ حَالٍ وَزَمَاناً بَعْدَ زَمَانٍ.

قَالَ الْمُفَضَّلُ: حَانَ وَقْتُ الزَّوَالِ فَقَامَ مَوْلَايَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الصَّلَاةِ، وَقَالَ: بَكَرٌ إِلَيَّ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. فَانْصَرَفْتُ وَقَدْ تَضَاعَفَ سُرُورِي بِمَا عَرَفْتَنِيهِ، مُبْتَهِجاً بِمَا مَنَحَنِيهِ، حَامِداً لِلَّهِ عَلَى مَا آتَانِيهِ، فَبِتُّ لَيْلَتِي مَسْرُوراً مُبْتَهِجاً.

بيان:

البشم محرّكة: التخمّة والسامة، بشم كفرح، وأبشمه الطعام. و«الفراش»: هي التي تقع في السراج. واليعسوب: أمير النحل وطائر أصغر من الجرادّة أو أعظم. وقوله عليه السلام: «ناشزتين» بالمعجمة أي مرتفعين، وفي بعض النسخ بالمهملة أي مبسوطتين. والشري: السير بالليل. وقال الفيروز آبادي: والتمرة كقبرة، و«ابن ثمرة»: طائر أصغر من العصفور. انتهى. وفغر فاه أي فتحه. و«الحسك» محرّكة: نبات تعلّق ثمرته بصوف

١. وفي نسخة: بالمجاديف. (هامش المصدر)

٢. وفي نسخة: فينتجعه فيتبعه. (هامش المصدر)

٣. الصماخ: ثقب الأذن، راجع لسان العرب.

٤. عبّ الرجل الماء: شربه من غير تنفّس، راجع المصباح المنير.

٥. الأجمة: الشجر الكثير الملتفّ، وجمعه الآجام، راجع لسان العرب.

الغنم. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ «غيباً جاهلاً» أي ليس له عقل يتصرف في سائر الأشياء على نحو تصرفه في ذلك الأمر المخصوص، فظهر أن خصوص هذا الأمر إلهام من مدبر حكيم، أو خلقة وطبيعة جبله عليها، ليصدر عنه خصوص هذا الأمر لما فيه من المصلحة مع كونه غافلاً عن المصلحة أيضاً، ولعل هذا يؤيد ما يقال: إن الحيوانات العجم غير مدركة للكلّيات. ويقال: دلفت الكتيبة في الحرب أي تقدمت، ويقال: دلفناهم؛ فـ«العساكر» تحتل الرفع والنصب. «والرجل» بالفتح جمع راجل: خلاف الفارس. وانساب: جرى ومشى مُسرِعاً. و«لا يؤودها» أي لا يثقلها. ولُجّة الماء: معظمه. والمجذاف: ما تجري به السفينة. وانتجع: طلب الكلاء في موضعه. و«حافات الآجام»: جوانبها. وعكف على الشيء: أقبل عليه مواظباً. وقال الفيروزآبادي: «القرمز»: صبغ أرمني يكون من عصارة دود في آجامهم. وقال: «الحلزون» محرّكة دابة تكون في الرمث أي بعض مراعي الإبل، ويظهر من كلامه عَلَيْهِ السَّلَامُ اتحادهما، ويحتمل أن يكون المراد أن من صبغ الحلزون تفتنوا بإعمال القرمز للصبغ لتشابههما. تمّ المجلس الثاني.

المجلس الثالث

قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ بَكَرْتُ إِلَى مَوْلَايَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَاسْتُوذِنَ لِي فَدَخَلْتُ، فَأَذِنَ لِي بِالْجُلُوسِ فَجَلَسْتُ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اصْطَفَانَا وَلَمْ يَصْطَفِ عَلَيْنَا، اصْطَفَانَا بِعِلْمِهِ، وَأَيَّدَنَا بِحِلْمِهِ^(١)، مَنْ شَدَّ عَنَا^(٢)، فَالنَّارُ مَأْوَاهُ، وَمَنْ تَفَقَّأَ بِظُلٍّ دَوْحَتَنَا فَالْجَنَّةُ مَثْوَاهُ، قَدْ شَرَحْتَ لَكَ يَا مُفَضَّلُ خَلْقَ الْإِنْسَانِ وَمَا دُبَّرَ بِهِ وَتَنَقَّلَهُ فِي أَحْوَالِهِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْإِعْتِبَارِ، وَشَرَحْتَ لَكَ أَمْرَ الْحَيَوَانِ، وَأَنَا أَبْتَدِئُ الْآنَ بِذِكْرِ السَّمَاءِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَالْفَلَكَ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالرِّيَّاحِ وَالْجَوَاهِرِ الْأَرْبَعَةِ: الْأَرْضِ وَالْمَاءِ وَالْهَوَاءِ وَالنَّارِ، وَالْمَطَرِ وَالصَّخْرِ^(٣) وَالْجِبَالِ وَالطِّينِ وَالْحِجَارَةِ وَالْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتِ وَالنَّخْلِ وَالشَّجَرِ وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَدْلَةِ وَالْعَبَرِ.

فَكَرَّرْتُ فِي لَوْحِ السَّمَاءِ وَمَا فِيهِ مِنْ صَوَابِ التَّدْبِيرِ، فَإِنَّ هَذَا اللَّوْنَ أَشَدُّ الْأَلْوَانِ مُوَافَقَةً لِلْبَصَرِ وَتَقْوِيَةً، حَتَّى أَنْ مِنْ صِفَاتِ الْأَطْيَاءِ لِمَنْ أَصَابَهُ شَيْءٌ أَضَرَّ بِبَصَرِهِ إِذْمَانٌ^(٤) النَّظَرِ إِلَى الْخَضِرَةِ وَمَا قَرُبَ مِنْهَا إِلَى السَّوَادِ، وَقَدْ وَصَفَ الْحَذَّاقُ مِنْهُمْ لِمَنْ كُلَّ بَصَرُهُ الْإِطْلَاعَ فِي إِجَانَةٍ^(٥) خَضَرَاءَ مَمْلُوءَةٍ مَاءً، فَانْظُرْ كَيْفَ جَعَلَ اللَّهُ جَلَّ وَتَعَالَى أَدِيمَ السَّمَاءِ

١. وفي نسخة: بحكمه. (هامش المصدر)

٢. شَدَّ عَنْهُ: انفرد عنه، راجع مجمع البحرين.

٣. في المصدر: «الصحو».

٤. أَدَمْنِ الشَّيْءِ: أدامه ولزمه ولم ينفك عنه، راجع تاج العروس.

٥. الْإِجَانَةُ: إناة يغسل فيه الثياب، راجع المصباح المنير.

بِهَذَا اللَّوْنِ الْأَخْضَرِ^(١) إِلَى السَّوَادِ لِيُؤْمِسَكَ الْأَبْصَارَ الْمُتَقَلِّبَةَ^(٢) عَلَيْهِ، فَلَا يَنْكِي فِيهَا بِطُولِ مُبَاشَرَتِهَا لَهُ، فَصَارَ هَذَا الَّذِي أَدْرَكَهُ النَّاسُ بِالْفِكْرِ وَالرَّوْيَةِ وَالتَّجَارِبِ يُوجَدُ مَفْرُوعاً مِنْهُ فِي الْخِلْقَةِ حِكْمَةٌ بِالْغَةِ لِيَعْتَبِرَ بِهَا الْمُعْتَبِرُونَ، وَيُفَكِّرَ فِيهَا الْمُلْحِدُونَ، قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ.

بيان:

«اصطفانا بعلمه» أي اختارنا وفضلنا على الخلق بأن أعطانا من علمه ما لم يعط أحداً. و«أيدنا بحلمه» أي قوّانا على تبليغ الرسالة بما حلّانا^(٣) به من حلمه، لنصبر على ما يلقّانا من أذى الناس وتكذيبهم. والدوحة: الشجرة العظيمة. و«الصخر»: الحجر العظام. و«أديم السماء»: وجهها، كما يطلق أديم الأرض على وجهها، ويمكن أن يكون ^{طائلاً} شبهها بالأديم^(٤). وقوله ^{طائلاً}: «حكمة بالغة» بالرفع خبر مبتدأ محذوف أو بالنصب بالحالية أو بكونه مفعولاً لأجله.

فَكَرَّ يَا مُفَضَّلُ فِي طُلُوعِ الشَّمْسِ وَغُرُوبِهَا لِإِقَامَةِ دَوْلَتِي النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، فَلَوْ لَا طُلُوعُهَا لَبَطَلَ أَمْرُ الْعَالَمِ كُلِّهِ، فَلَمْ يَكُنِ النَّاسُ يَسْعَوْنَ فِي مَعَاشِهِمْ، وَيَتَصَرَّفُونَ فِي أُمُورِهِمْ، وَالدُّنْيَا مُظْلِمَةٌ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَكُونُوا يَتَهَنَّتُونَ بِالْعَيْشِ مَعَ فَقْدِهِمْ لَذَّةَ الثَّوْرِ وَرَوْحَهُ، وَالْإِرْبُ فِي طُلُوعِهَا ظَاهِرٌ مُسْتَعْنٍ بِظُهُورِهِ عَنِ الْإِطْنَابِ فِي ذِكْرِهِ وَالزِّيَادَةِ فِي شَرِّحِهِ، بَلْ تَأْمَلِ الْمُنْفَعَةَ فِي غُرُوبِهَا، فَلَوْ لَا غُرُوبُهَا لَمْ يَكُنِ لِلنَّاسِ هَدًى وَلَا قَرَارٌ مَعَ عِظَمِ حَاجَتِهِمْ إِلَى الْهَدْيِ وَالرَّاحَةِ لِسُكُونِ أَيْدَانِهِمْ وَجُمُومِ^(٥) حَوَاسِهِمْ وَانْبِعَاطِ الْقُوَّةِ الْهَاضِمَةِ لِهَضْمِ الطَّعَامِ وَتَنْفِيدِ الْغِذَاءِ إِلَى الْأَعْضَاءِ، ثُمَّ كَانَ الْحِرْصُ يَسْتَحْمِلُهُمْ مِنْ مُدَاوِمَةِ الْعَمَلِ وَمُطَاوَلَتِهِ عَلَى مَا يَعْظُمُ نِكَائَتُهُ^(٦) فِي أَيْدَانِهِمْ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَوْ لَا جُتُومُ هَذَا اللَّيْلِ لِظُلْمَتِهِ عَلَيْهِمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ هَدًى وَلَا قَرَارٌ، حِرْصاً عَلَى الْكَسْبِ وَالْجَمْعِ وَالْإِدْخَارِ،

١. **نقول:** يظهر من كتب اللغة أن الخضرة ليست بمعنى اللون الموجود في أوراق الأشجار دائماً بل تطلق على الرزقة الخفيفة أو الشديدة، ففي معجم مقاييس اللغة: فالخضرة من الألوان معروفة. والخضراء: السماء، للونها، كما سميت الأرض الغبراء. وكتيبة خضراء، إذا كانت عليها سواد الحديد، وذلك أن كل ما خالف البياض فهو في حيز السواد؛ فلذلك تداخلت هذه الصفات، فيسمى الأسود أخضر. وفي مفردات ألفاظ القرآن: والخضرة: أحد الألوان بين البياض والسواد، وهو إلى السواد أقرب، ولهذا سمي الأسود أخضر، والأخضر أسود. وقيل: سواد العراق للموضع الذي يكثر فيه الخضرة، وسميت الخضرة بالدهمة في قوله سبحانه: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ (الرحمن / ٦٤) أي خضراوان. ويتفاوت لون السماء في أول النهار ووسطه وآخره وفي الليل.

٢. في المصدر: «المتقلبة».

٣. حلّى الرجل: زَيَّنَه، راجع مقدمة الأدب.

٤. الأديم: الجلد، راجع لسان العرب.

٥. الجموم: الاجتماع، راجع النهاية.

٦. وفي نسخة: نكابتة. (هامش المصدر)

ثُمَّ كَانَتْ الْأَرْضُ تَسْتَحْمِي بِدَوَامِ الشَّمْسِ بِضِيَائِهَا، وَتُحْمِي^(١) كُلَّ مَا عَلَيْهَا مِنْ حَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ، فَقَدَّرَهَا اللَّهُ بِحِكْمَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ تَطْلُعُ وَقْتًا وَتَغْرُبُ وَقْتًا بِمَنْزِلَةِ سِرَاجٍ يُرْفَعُ لِأَهْلِ الْبَيْتِ تَارَةً لِيَقْضُوا حَوَائِجَهُمْ ثُمَّ يَغِيبُ عَنْهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ لِيَهْدُوهُمَا وَيَعْرِوْا، فَصَارَ النُّورُ وَالظُّلْمَةُ مَعَ تَضَادِّهِمَا مُتَقَادِبَيْنِ مُتَظَاهِرَيْنِ عَلَى مَا فِيهِ صَلَاحُ الْعَالَمِ وَقَوَامُهُ.

ثُمَّ فَكَّرَ بَعْدَ هَذَا فِي اِزْتِفَاعِ الشَّمْسِ وَانْحِطَاطِهَا لِإِقَامَةِ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ الْأَرْبَعَةِ مِنَ السَّنَةِ وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالْمَصْلَحَةِ؛ فَبِالْشِّتَاءِ^(٢) تَعُودُ الْحَرَارَةُ فِي الشَّجَرِ وَالنَّبَاتِ فَيَتَوَلَّدُ فِيهِمَا مَوَادُّ الثَّمَارِ، وَيَسْتَكْنِفُ^(٣) الْهَوَاءُ، فَيَنْشَأُ مِنْهُ السَّحَابُ وَالْمَطَرُ، وَتَشُدُّ أَبْدَانُ الْحَيَوَانِ وَتَقْوَى، وَفِي الرَّبِيعِ تَتَحَرَّكُ وَتَظْهَرُ الْمَوَادُّ الْمُتَوَلِّدَةُ فِي الشِّتَاءِ فَيَطْلُعُ النَّبَاتُ، وَتَنْوَرُ^(٤) الْأَشْجَارُ، وَيَهْبِجُ الْحَيَوَانُ لِلْسَّفَادِ، وَفِي الصَّيْفِ يَخْتَدِمُ الْهَوَاءُ فَتَنْضِجُ^(٥) الثَّمَارُ، وَتَتَحَلَّلُ فُضُولُ الْأَبْدَانِ، وَيَجِفُّ وَجْهُ الْأَرْضِ فَتَهَيَّأُ لِلْبِنَاءِ وَالْأَعْمَالِ، وَفِي الْخَرِيفِ يَصْفُو الْهَوَاءُ، وَيَرْتَفِعُ الْأَمْرَاضُ، وَيَصِحُّ الْأَبْدَانُ وَيَمْتَدُّ اللَّيْلُ فَيُمْكِنُ فِيهِ بَعْضُ الْأَعْمَالِ لِطُولِهِ، وَيَطْيِبُ الْهَوَاءُ فِيهِ إِلَى مَصَالِحٍ أُخْرَى لَوْ تَقَصَّيْتُ لَذِكْرَهَا لَطَالَ فِيهَا الْكَلَامُ.

فَكَرَّرَ الْآنَ فِي تَنْقُلِ الشَّمْسِ فِي الْبُرُوجِ الْإِثْنَيْ عَشَرَ لِإِقَامَةِ دَوْرِ السَّنَةِ، وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّدْبِيرِ، فَهُوَ الدَّوْرُ الَّذِي تَصِحُّ بِهِ الْأَرْبَعَةُ الْأَرْبَعَةُ مِنَ السَّنَةِ: الشِّتَاءُ، وَالرَّبِيعُ، وَالصَّيْفُ، وَالْخَرِيفُ؛ وَيَسْتَوْفِيهَا عَلَى التَّمَامِ، وَفِي هَذَا الْمِقْدَارِ مِنْ دَوْرَانِ الشَّمْسِ تَذَرِكُ الْغَلَاتِ وَالثَّمَارُ، وَتَنْتَهِي إِلَى غَايَاتِهَا، ثُمَّ تَعُودُ فَيَسْتَأْنِفُ النُّشُوءُ وَالتَّمُوءُ. أَلَا تَرَى أَنَّ السَّنَةَ مِقْدَارُ مَسِيرِ الشَّمْسِ مِنَ الْحَمَلِ إِلَى الْحَمَلِ؟ فَبِالسَّنَةِ وَأَخَوَاتِهَا يُكَالُ الزَّمَانُ مِنْ لَدُنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى الْعَالَمَ إِلَى كُلِّ وَقْتٍ وَعَصْرِ مِنْ غَايِرِ الْأَيَّامِ، وَبِهَا يَحْسُبُ النَّاسُ الْأَعْمَالُ^(٦) وَالْأَوْقَاتُ الْمُوقَّتَةَ لِلدُّيُونِ وَالْإِجَارَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِهِمْ، وَيَمَسِيرِ الشَّمْسِ يَكْمُلُ السَّنَةُ وَيَقُومُ حِسَابُ الزَّمَانِ عَلَى الصَّحَّةِ.

انْظُرْ إِلَى شُرُوفِهَا^(٧) عَلَى الْعَالَمِ كَيْفَ دَبَّرَ أَنْ يَكُونَ فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ تَبْرُغُ فِي مَوْضِعٍ مِنَ السَّمَاءِ فَتَقِفُ لَا تَعْدُوهُ لَمَّا وَصَلَ شُعَاعُهَا وَمَنْفَعَتُهَا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْجِهَاتِ، لِأَنَّ الْجِبَالَ وَالْجُدُرَانَ كَانَتْ تَحْجُبُهَا عَنْهَا، فَجُعِلَتْ تَطْلُعُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَتَشْرِقُ عَلَى مَا قَابَلَهَا مِنْ وَجْهِ الْمَغْرِبِ، ثُمَّ لَا تَزَالُ تَدُورُ وَتَمْشِي جِهَةً بَعْدَ جِهَةٍ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْمَغْرِبِ، فَتَشْرِقَ عَلَى مَا اسْتَرَّتْ عَنْهَا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، فَلَا يَبْقَى مَوْضِعٌ مِنَ الْمَوَاضِعِ إِلَّا أَخَذَ بِقِسْطِهِ^(٨) مِنَ الْمَنْفَعَةِ مِنْهَا،

١. في المصدر: «يحمي».

٢. **فقول:** لعل الشروع من الشتاء كالشروع في خلقه الإنسان من الموت إلى الحياة فكانت الأرض مبيتة في فصل الشتاء وأحيائها الله بعده.

٣. الكثافة: الغلظ، راجع لسان العرب.

٤. وفي نسخة بدل: تنور. (هامش المصدر)

٥. نضج التمر: أدرك وطاب أكله، راجع الطراز الأول.

٦. في المصدر: الأعمار.

٧. وفي بعض النسخ: بزوغها. (هامش المصدر)

٨. القسط: الحصّة والنصيب، راجع لسان العرب.

وَالْإِزْبِ^(١) الَّتِي قُدِّرَتْ لَهُ^(٢)، وَلَوْ تَخَلَّفَتْ مِقْدَارَ عَامٍ أَوْ بَعْضِ عَامٍ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ حَالُهُمْ؟ بَلْ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ لَهُمْ مَعَ ذَلِكَ بَقَاءٌ؟ أَمْ فَلَا يَرَى النَّاسُ كَيْفَ هَذِهِ الْأُمُورُ الْجَلِيلَةُ^(٣) الَّتِي لَمْ تَكُنْ عَنْدهُمْ فِيهَا حِيلَةٌ؟ فَصَارَ تَجْرِي عَلَى مَجَارِيهَا لَا تَعْتَلُّ^(٤) وَلَا تَتَخَلَّفُ عَنْ مَوَاقِفِهَا لِصَلَاحِ الْعَالَمِ وَمَا فِيهِ بَقَاؤُهُ.

اسْتَدِلَّ بِالْقَمَرِ فِيهِ دَلَالَةٌ جَلِيلَةٌ تَسْتَعْمِلُهَا الْعَامَّةُ فِي مَعْرِفَةِ الشُّهُورِ، وَلَا يَقُومُ عَلَيْهِ حِسَابُ السَّنَةِ، لِأَنَّ دَوْرَهُ لَا يَسْتَوِي فِي الْأَزْمِنَةِ الْأَرْبَعَةِ وَنُشُوءِ الثَّمَارِ وَتَصَرُّمِهَا^(٥)، وَلِذَلِكَ صَارَتْ شُهُورُ الْقَمَرِ وَسِنُوهُ تَتَخَلَّفُ عَنْ شُهُورِ الشَّمْسِ وَسِنِيهَا^(٦)، وَصَارَ الشَّهْرُ مِنْ شُهُورِ الْقَمَرِ يَنْتَقِلُ فَيَكُونُ مَرَّةً بِالشَّتَاءِ وَمَرَّةً بِالصَّيْفِ.

فَكَرَّ فِي إِتَارَتِهِ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَالْإِزْبِ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ مَعَ الْحَاجَةِ إِلَى الظُّلْمَةِ لِهَذِهِ الْحَيَوَانِ وَبَرْدِ الْهَوَاءِ عَلَى النَّبَاتِ لَمْ يَكُنْ صَلَاحٌ فِي أَنْ يَكُونَ اللَّيْلُ ظُلْمَةً دَاجِيَةً لَا ضِيَاءَ فِيهَا، فَلَا يُمَكِّنُ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْعَمَلِ، لِأَنَّهُ رُبَّمَا احتَاجَ النَّاسُ إِلَى الْعَمَلِ بِاللَّيْلِ لِضِيْقِ الْوَقْتِ عَلَيْهِمْ فِي تَقْضِي الْأَعْمَالِ بِالنَّهَارِ^(٧)، أَوْ لِشِدَّةِ الْحَرِّ وَإِفْرَاطِهِ فَيَعْمَلُ فِي ضَوْءِ الْقَمَرِ أَعْمَالًا شَتَّى كَحَرْثِ الْأَرْضِ، وَضَرْبِ اللَّبَنِ، وَقَطْعِ الْخَشَبِ، وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ، فَجُعِلَ ضَوْءُ الْقَمَرِ مَعُونَةً لِلنَّاسِ عَلَى مَعَاشِهِمْ إِذَا احتَاجُوا إِلَى ذَلِكَ، وَأُنْسًا لِلسَّائِرِينَ، وَجُعِلَ طُلُوعُهُ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ دُونَ بَعْضٍ، وَتَقْصُصَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ نُورِ الشَّمْسِ وَضِيَائِهَا لِكَيْلَا تَتَبَسَّطَ النَّاسُ فِي الْعَمَلِ أَنْبَسَاطَهُمْ بِالنَّهَارِ، وَيَمْتَنِعُوا مِنَ الْهَدَاءِ وَالْقَرَارِ فِيهِلِكَهُمْ ذَلِكَ. وَفِي تَصَرُّفِ الْقَمَرِ خَاصَّةً فِي مُهَلِّهِ^{(٨)(٩)} وَمُحَاقِهِ وَزِيَادَتِهِ وَتَقْصَانِهِ وَكُسُوفِهِ^(١٠) مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ خَالِقِهِ الْمُصَرِّفِ لَهُ هَذَا التَّصْرِيفَ لِصَلَاحِ الْعَالَمِ مَا يَعْتَبِرُ بِهِ الْمُعْتَبِرُونَ.

إيضاح:

الدولة بالفتح والضم: انقلاب الزمان، ودالت الأيام: دارت، والله يداولها بين الناس. و«هدأ» كمنع هداءً وهُدوءاً: سكن. ويقال: نكيت في العدو نكاية إذا قتلت فيهم وجرحته. وجثم الإنسان والطائر والنعام، يجثم جثماً جثوماً: لزم مكانه لم يبرح، والمراد جثومهم في الليل. والتظاهر: التعاون. ونور الشجر أي أخرج نوره.

١. الإزب: الحاجة، راجع لسان العرب.

٢. نقول: ظاهر هذه العبارة حركة الشمس حول الأرض وهذا إنما يكون بحسب ما يرى في الظاهر لا بحسب الواقع.

٣. في المصدر: «أفلا ترى كيف كفي الناس هذه الأمور الجليلة»، وفيه ذكر من نسخة: «كيف كان يكون للناس هذه الأمور الجليلة».

٤. وفي نسخة: لا تفتل. (هامش المصدر)

٥. تصرَّم الأمر والشيء: انقضى فذهب، راجع المحيط في اللغة.

٦. وفي نسخة: وسينها. (هامش المصدر)

٧. في المصدر: «في بعض الأعمال في النهار»، وفيه ذكر من نسخة: «في تقضي الأعمال بالنهار».

٨. في المصدر: «خاصة في تهله».

٩. المهَّل: موضع الإهلال، راجع لسان العرب.

١٠. في المصدر: «وخسوفه».

وَحَدُمُ النَّارِ: شِدَّةُ احْتِرَاقِهَا. و«التَّقْصِي»: بَلُوغُ أَقْصَى الشَّيْءِ وَنَهَايَتِهِ. و«الغَابِر»: الْبَاقِي وَالْمَاضِي، وَالْمَرَادُ هُنَا الثَّانِي. وَبَزَغَتِ الشَّمْسُ بَزَوْغًا: شَرِقَتْ، أَوْ الْبَزَوْغُ: ابْتِدَاءُ الطُّلُوعِ. وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: اعْتَلَّ عَلَيْهِ وَاعْتَلَّهُ: إِذَا اعْتَاقَهُ عَنْ أَمْرٍ. انْتَهَى. و«ليلة داجية» أَيِ مَظْلَمَةٍ.

فَكَثُرَ يَا مُفَضَّلُ فِي النُّجُومِ وَاخْتِلَافِ مَسِيرِهَا فَبَعْضُهَا لَا تَفَارِقُ مَرَكَزَهَا مِنَ الْفَلَكَ وَلَا تَسِيرُ إِلَّا مُجْتَمِعَةً، وَبَعْضُهَا مُطْلَقَةٌ تَنْتَقِلُ فِي الْبُرُوجِ وَتَفْتَرِقُ فِي مَسِيرِهَا، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَسِيرُ سَيْرَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ: أَحَدُهُمَا عَامٌ مَعَ الْفَلَكَ نَحْوَ الْمَغْرِبِ، وَالْآخَرُ خَاصٌّ لِنَفْسِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ، كَالنَّمْلَةِ الَّتِي تَدُورُ عَلَى الرَّحَى، فَالرَّحَى تَدُورُ ذَاتَ الْيَمِينِ وَالنَّمْلَةُ تَدُورُ ذَاتَ الشَّمَالِ، وَالنَّمْلَةُ فِي تِلْكَ تَتَحَرَّكُ حَرَكَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا بِنَفْسِهَا فَتَتَوَجَّهَ أَمَامَهَا، وَالْأُخْرَى مُسْتَكْرَهَةً مَعَ الرَّحَى تَجْذِبُهَا إِلَى خَلْفِهَا. فَاسْأَلِ الرَّاعِمِينَ أَنَّ النُّجُومَ صَارَتْ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ بِالْإِهْمَالِ مِنْ غَيْرِ عَمْدٍ وَلَا صَانِعٍ لَهَا، مَا مَعَهَا أَنْ تَكُونَ كُلُّهَا رَاتِبَةً؟ أَوْ تَكُونَ كُلُّهَا مُنْتَقِلَةً؟ فَإِنَّ الْإِهْمَالَ مَعْنَى وَاحِدٍ، فَكَيْفَ صَارَ يَأْتِي بِحَرَكَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ عَلَى وَزْنٍ وَتَقْدِيرٍ؟ فِي هَذَا بَيَانٌ أَنَّ مَسِيرَ الْفَرِيقَيْنِ عَلَى مَا يَسِيرَانِ عَلَيْهِ بِعَمْدٍ وَتَذْيِيرٍ وَحِكْمَةٍ وَتَقْدِيرٍ، وَلَيْسَ بِالْإِهْمَالِ كَمَا تَزْعُمُ الْمُعْطَلَّةُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَلَمْ صَارَ بَعْضُ النُّجُومِ رَاتِبًا وَبَعْضُهَا مُنْتَقِلًا؟ قُلْنَا: إِنَّهَا لَوْ كَانَتْ كُلُّهَا رَاتِبَةً لَبَطَلَتْ الدَّلَالَةُ الَّتِي يُسْتَدَلُّ بِهَا مِنْ تَنَقُّلِ الْمُنْتَقِلَةِ وَمَسِيرِهَا فِي كُلِّ بُرْجٍ مِنَ الْبُرُوجِ؛ كَمَا قَدْ يُسْتَدَلُّ عَلَى أَشْيَاءٍ مِمَّا يُحْدِثُ فِي الْعَالَمِ بِتَنَقُّلِ الشَّمْسِ وَالنُّجُومِ فِي مَنَازِلِهَا، وَلَوْ كَانَتْ كُلُّهَا مُنْتَقِلَةً لَمْ يَكُنْ لِمَسِيرِهَا مَنَازِلُ تُعْرَفُ، وَلَا رَسْمٌ يُوقَفُ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ إِنْمَا يُوقَفُ بِمَسِيرِ الْمُنْتَقِلَةِ مِنْهَا بِتَنَقُّلِهَا فِي الْبُرُوجِ الرَّاتِبَةِ، كَمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى سَيْرِ السَّائِرِ عَلَى الْأَرْضِ بِالْمَنَازِلِ الَّتِي يَجْتَازُ عَلَيْهَا، وَلَوْ كَانَ تَنَقُّلُهَا بِحَالٍ وَاحِدَةٍ لَأَخْتَلَطَ نِظَامُهَا وَبَطَلَتْ الْمَارِبُ فِيهَا، وَلَسَاغَ لِقَائِلُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ كَيْنُونَتَهَا عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ تَوْجِبُ عَلَيْهَا الْإِهْمَالَ مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي وَصَفْنَا. فَبَيْنَ اخْتِلَافِ سَيْرِهَا وَتَصَرُّفِهَا وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَارِبِ وَالْمُصْلَحَةِ أَبْيَنُ دَلِيلٌ عَلَى الْعَمْدِ وَالتَّذْيِيرِ فِيهَا.

فَكَثُرَ فِي هَذِهِ النُّجُومِ الَّتِي تَظْهَرُ فِي بَعْضِ السَّنَةِ وَتَخْتَجِبُ فِي بَعْضِهَا كَمِثْلِ الثُّرَيَّا وَالْجُوزَاءِ وَالشُّعْرَيْنِ وَسُهَيْلٍ، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ بِأَسْرِهَا تَظْهَرُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ لَمْ تَكُنْ لَوَاحِدٍ فِيهَا عَلَى حِيَالِهِ دَلَالَةٌ يَعْرِفُهَا النَّاسُ وَيَهْتَدُونَ بِهَا لِبَعْضِ أُمُورِهِمْ، كَمَعْرِفَتِهِمُ الْآنَ بِمَا يَكُونُ مِنْ طُلُوعِ الثَّوَرِ وَالْجُوزَاءِ إِذَا طَلَعَتْ، وَاجْتِبَابِهَا إِذَا اجْتَبَتْ فَصَارَ ظُهُورُ كُلِّ وَاحِدٍ وَاجْتِبَابُهُ فِي وَقْتٍ غَيْرِ وَقْتِ الْآخَرِ لِيَسْتَفِيعَ النَّاسُ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى حَدِّتِهِ، وَكَمَا جُعِلَتِ الثُّرَيَّا وَأَشْبَاهُهَا تَظْهَرُ حِينًا وَتَخْجِبُ حِينًا لِضَرْبِ^(١) مِنَ الْمُصْلَحَةِ، كَذَلِكَ جُعِلَتْ بَنَاتُ النَّعْشِ^(٢) ظَاهِرَةً لَا تَغِيبُ لِضَرْبٍ آخَرَ مِنَ الْمُصْلَحَةِ. فَإِنَّهَا بِمَنْزِلَةِ الْأَعْلَامِ الَّتِي يَهْتَدِي بِهَا النَّاسُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ لِلطَّرْقِ الْمَجْهُولَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهَا لَا تَغِيبُ وَلَا

١. وفي نسخة: حيناً إلا لضرب. (هامش المصدر)

٢. بنات نعش: نجوم سبعة معروفة لا تغيب بل ينحط بعضها إلى جانب المغيب انحطاطاً، راجع مجمع البحرين، مادة «نecش».

تَوَارَى، فَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا مَتَى أَرَادُوا أَنْ يَهْتَدُوا بِهَا إِلَى حَيْثُ شَاؤُوا، وَصَارَ الْأُمْرَانِ جَمِيعاً عَلَى اخْتِلَافِهِمَا مُوجَّهَيْنِ نَحْوَ الْأَرْبِ وَالْمَصْلَحَةِ، وَفِيهِمَا مَارَبٌ أُخْرَى: عَلَامَاتٌ وَدَلَالَاتٌ عَلَى أَوْقَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْأَعْمَالِ كَالزَّرَاعَةِ وَالْغِرَاسِ وَالسَّفَرِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ؛ وَأَشْيَاءٌ مِمَّا يَحْدُثُ فِي الْأَزْمِنَةِ مِنَ الْأَمْطَارِ وَالرِّيَّاحِ وَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَبِهَا يَهْتَدِي السَّائِرُونَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ لِقَطْعِ الْفَقَارِ الْمُوحِشَةِ، وَاللُّجَجِ الْهَائِلَةِ^(١)، مَعَ مَا فِي تَرَدُّدِهَا فِي كِبِدِ السَّمَاءِ^(٢) مُقْبِلَةً وَمُذْبِرَةً وَمُشْرِقَةً وَمُعْرَبَةً مِنَ الْعَبْرِ فَإِنَّهَا تَسِيرُ أَسْرَعَ السَّيْرِ وَأَحْتَهُ.

أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ بِالْقُرْبِ مِنَّا حَتَّى يَبْيَنَ لَنَا سُرْعَةُ سَيْرِهَا بِكُنْهِ مَا هِيَ عَلَيْهِ أَلَمْ تَكُنْ سَتَحْطِفُ الْأَبْصَارَ بِوَهْجِهَا وَشُعَاعِهَا كَالَّذِي يَحْدُثُ أحياناً مِنَ الْبُرُوقِ إِذَا تَوَالَتْ وَاضْطَرَمَتْ^(٣) فِي الْجَوْ؟ وَكَذَلِكَ أَيْضاً لَوْ أَنَّ أَنْاساً كَانُوا فِي قُبَّةٍ مُكَلَّلَةٍ^(٤) بِمَصَابِيحَ تَدُورُ حَوْلَهُمْ دَوْرَاناً حَيْثُ لَحَارَتْ أَبْصَارُهُمْ^(٥) حَتَّى يَخْرُوا لِوُجُوهِهِمْ، فَانْظُرْ كَيْفَ قَدَّرَ أَنْ يَكُونَ مَسِيرُهَا فِي الْبُعْدِ الْبَعِيدِ لِكَيْلَا تَضُرَّ فِي الْأَبْصَارِ وَتُنْكَأَ فِيهَا، وَيَأْسِرَ السُّرْعَةُ لِكَيْلَا تَتَخَلَّفَ عَنِ مِقْدَارِ الْحَاجَةِ فِي مَسِيرِهَا، وَجُعِلَ فِيهَا جُزْءٌ يَسِيرُ مِنَ الضَّوِّ لِيَسُدَّ مَسَدَّ الْأَضْوَاءِ إِذَا لَمْ يَكُنْ قَمَرٌ، وَيُمْكِنُ فِيهِ الْحَرَكَةُ إِذَا حَدَثَتْ ضَرُورَةٌ كَمَا قَدْ يَحْدُثُ الْحَادِثُ عَلَى الْمَرْءِ فَيَحْتَاجُ إِلَى التَّجَافِي فِي جَوْفِ^(٦) اللَّيْلِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنَ الضَّوِّ يَهْتَدِي بِهِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَبْرَحَ مَكَانَهُ، فَتَأَمَّلِ اللَّطْفَ وَالْحِكْمَةَ فِي هَذَا التَّقْدِيرِ حِينَ جُعِلَ لِلظُّلْمَةِ دَوْلَةٌ وَمُدَّةٌ لِحَاجَةِ إِيَّاهَا، وَجُعِلَ خِلَالُهَا شَيْءٌ مِنَ الضَّوِّ لِلْمَارِبِ الَّتِي وَصَفْنَا.

فَكَّرْ فِي هَذَا الْفَلَكَ بِشَمْسِهِ وَقَمَرِهِ وَنُجُومِهِ وَبُرُوجِهِ تَدُورُ عَلَى الْعَالَمِ فِي هَذَا الدَّوْرَانِ الدَّائِمِ بِهِذَا التَّقْدِيرِ وَالْوُزْنِ لِمَا^(٧) فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَهَذِهِ الْأَزْمَانِ الْأَرْبَعَةُ الْمُتَوَالِيَةِ عَلَى الْأَرْضِ^(٨)، وَمَا عَلَيْهَا مِنْ أَصْنَافِ الْحَيَوَانِ وَالنبَاتِ مِنْ ضُرُوبِ الْمَصْلَحَةِ كَالَّذِي بَيَّنْتُ وَشَخَّصْتُ^(٩) لَكَ آفِئاً، وَهَلْ يَخْفَى عَلَى ذِي لُبٍّ أَنَّ هَذَا تَقْدِيرٌ مُقَدَّرٌ، وَصَوَابٌ وَحِكْمَةٌ مِنْ مُقَدِّرٍ حَكِيمٍ؟

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّ هَذَا شَيْءٌ اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ هَكَذَا فَمَا مَنَعَهُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ هَذَا فِي دُولَابٍ^(١٠) تَرَاهُ يَدُورُ وَيَسْقِي

١. الهول: الفرع والمخافة، راجع شمس العلوم.

٢. كبد السماء: وسطها، راجع لسان العرب.

٣. اضطرمت: اشتعلت والتهبت، راجع لسان العرب.

٤. روضة مكَلَّلَة: محفوفة بالنور، راجع لسان العرب.

٥. حار بصره: إذا نظر إلى الشيء فعشي [ضعف] بصره، راجع لسان العرب.

٦. في المصدر: «إلى النجاء في جوف»، وفيه ذكر من نسخة: «إلى النجاء في جوف».

٧. وفي نسخة: والوزن إلّا لما. (هامش المصدر)

٨. في المصدر مع زيادة: «من التنبيه على الأرض».

٩. وفي نسخة بدل: ولخصت. (هامش المصدر)

١٠. الدولاب: الذي يستقى به كالناعورة، والفرق بينهما أن الدولاب يديره الماء والناعورة تديرها الدابة، راجع الطراز الأول.

حَدِيثُهُ فِيهَا شَجَرٌ وَنَبَاتٌ؟ فَتَرَى كُلَّ شَيْءٍ مِنْ آلَتِهِ مُقَدَّرًا بَعْضُهُ يَلْقَى بَعْضًا عَلَى مَا فِيهِ صَلَاحٌ تِلْكَ الْحَدِيثَةُ وَمَا فِيهَا، وَبِمِ كَانِ يَثْبُتُ هَذَا الْقَوْلَ لَوْ قَالَ، وَمَا تَرَى النَّاسَ كَانُوا قَائِلِينَ لَهُ لَوْ سَمِعُوهُ مِنْهُ، أَفَيُنْكَرُ أَنْ يَقُولَ فِي دُولَابٍ خَشَبٍ^(١) مَصْنُوعٍ بِحِيلَةٍ قَصِيرَةٍ لِمَصْلَحَةٍ قِطْعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ: أَنَّهُ كَانَ بِلَا صَانِعٍ وَمُقَدَّرٍ، وَيَقْدِرُ أَنْ يَقُولَ فِي هَذَا الدُّوَلَابِ الْأَعْظَمِ الْمَخْلُوقِ بِحِكْمَةٍ يَقْصُرُ عَنْهَا أَذْهَانُ الْبَشَرِ لِصَلَاحِ جَمِيعِ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا: أَنَّهُ شَيْءٌ اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ بِلَا صَنْعَةٍ وَلَا تَدْبِيرٍ^(٢)؛ لَوْ اعْتَلَّ هَذَا الْفَلَكُ كَمَا تَعْتَلُّ الْأَلَاتُ الَّتِي تُتَّخَذُ لِلصَّنَاعَاتِ وَغَيْرِهَا أَيُّ شَيْءٍ كَانَ عِنْدَ النَّاسِ مِنَ الْحِيلَةِ فِي إِصْلَاحِهِ؟

بيان:

قوله عليه السلام: «لا تفارق مراكزها» لعلّ المراد أنّه ليس لها حركة بينة ظاهرة كما في السيّارات، أو لا تختلف نسب بعضها إلى بعض بالقرب والبعد بأن تكون الجملة التالية مفسّرة لها، ويحتمل أن يكون المراد بمراكزها البروج التي تنسب إليها على ما هو المصطلح بين العرب من اعتبار محاذاة تلك الأشكال في الانتقال إلى البروج وإن انتقلت عن مواضعها، وعليه ينبغي أن يحمل قوله عليه السلام: «وبعضها مطلقة تنتقل في البروج» أو على ما ذكرنا سابقاً من كون انتقالها في البروج ظاهرة بينة يعرفه كلّ أحد، والأوّل أظهر كما سيظهر من كلامه عليه السلام. قوله: «فإن الإهمال معنى واحد» يحتمل أن يكون المراد أنّ الطبيعة أو الدهر اللذين يجعلونهما أصحاب الإهمال مؤثّرين كلّ منهما أمر واحد غير ذي شعور وإرادة، ولا يمكن صدور الأمرين المختلفين عن مثل ذلك كما مرّ، أو المراد أنّ العقل يحكم بأنّ مثل هذين الأمرين المتّسقين الجارين على قانون الحكمة لا يكون إلّا من حكيم راعى فيهما دقائق الحكم، أو المراد أنّ الإهمال أي عدم الحاجة إلى العلّة وترجيح الأمر الممكن من غير مرجّح كما تزعمون أمر واحد حاصل فيهما، فلم صارت إحداهما راتبة والأخرى منتقلة؟ ولم لم يعكس الأمر؟ والأوّل أظهر كما لا يخفى. قوله عليه السلام: «لبطلت الدلالات» ظاهره كون الأوضاع النجومية علامات للحوادث. قوله عليه السلام: «في البروج الراتبة» يدلّ ظاهراً على ما أشرنا إليه من أنّه عليه السلام راعى في انتقال البروج محاذاة نفس الأشكال، وإن أمكن أن يكون المراد بيان حكمة بطؤ الحركة ليصلح كون تلك الأشكال علامات للبروج ولو بقربها منها لكنّه بعيد. قوله عليه السلام: «والشعريين» قال الجوهري: الشعري: الكوكب الذي يطلع بعد الجوزاء وطلوعه في شدّة الحرّ وهما الشريان والشعري العبور التي في الجوزاء، والشعري: القميصاء التي في الذراع، تزعم العرب أنّهما أختا سهيل. انتهى. و«القفار» جمع قفر، وهو الخلاء من الأرض. وخطف البرق البصر: ذهب به. ووهج النار بالتسكين توقّدها. وقوله عليه السلام: «حشيشاً» أي

١. وفي نسخة: في دولاب خسيس. (هامش المصدر)

٢. في المصدر: «ولا تقدير».

مسرعاً. و«تجافى» أي لم يلزم مكانه. وبرح مكانه: زال عنه.

فَكُرِّ يَا مُفْضَلُ فِي مَقَادِيرِ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ كَيْفَ وَقَعْتَ عَلَى مَا فِيهِ صَلَاحُ هَذَا الْخَلْقِ، فَصَارَ مُنْتَهَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِذَا امْتَدَّ إِلَى خَمْسِ عَشْرَةَ سَاعَةً لَا يُجَاوِزُ ذَلِكَ، أَفَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ النَّهَارُ يَكُونُ مِقْدَارُهُ مِائَةً سَاعَةً أَوْ مِائَتَيْ سَاعَةٍ أَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ بَوَارُ^(١) كُلِّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ حَيَوَانٍ وَنَبَاتٍ؟

أَمَّا الْحَيَوَانُ فَكَانَ لَا يَهْدَأُ وَلَا يَقَرُّ طُولَ هَذِهِ الْمُدَّةِ، وَلَا الْبَهَائِمُ كَانَتْ تُمَسِّكُ عَنِ الرَّعْيِ لَوْ دَامَ لَهَا ضَوْءُ النَّهَارِ، وَلَا الْإِنْسَانُ كَانَ يَغْتَرُّ عَنِ الْعَمَلِ^(٢) وَالْحَرَكَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ سَيُهْلِكُهَا أَجْمَعٌ وَيُودِّيَهَا إِلَى التَّلَفِ؛ وَأَمَّا النَّبَاتُ فَكَانَ يَطُولُ عَلَيْهِ حَرُّ النَّهَارِ وَوُجُحُ الشَّمْسِ حَتَّى يَجِفَّ وَيَحْتَرِقَ، وَكَذَلِكَ اللَّيْلُ لَوْ امْتَدَّ مِقْدَارُ هَذِهِ الْمُدَّةِ كَانَ يَعْوقُ^(٣) أَصْنَافَ الْحَيَوَانِ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالتَّصَرُّفِ فِي طَلَبِ الْمَعَاشِ حَتَّى تَمُوتَ جُوعاً، وَتَخْمَدُ^(٤) الْحَرَارَةُ الطَّبِيعِيَّةُ مِنَ النَّبَاتِ حَتَّى يَفْعَنَ وَيَفْسُدَ، كَالَّذِي تَرَاهُ يَحْدُثُ عَلَى النَّبَاتِ إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعٍ لَا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ.

اعْتَبِرْ بِهَذِهِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ كَيْفَ يَتَعَاوَرَانِ^(٥) الْعَالَمَ، وَيَتَصَرَّفَانِ هَذَا التَّصَرُّفَ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ وَالِاعْتِدَالِ لِإِقَامَةِ هَذِهِ الْأَرْمَنِ الْأَرْبَعَةِ مِنَ السَّنَةِ وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْمَصَالِحِ، ثُمَّ هُمَا بَعْدَ دِبَاغِ الْأَبْدَانِ الَّتِي عَلَيْهَا بَقَاؤُهَا وَفِيهَا صَلَاحُهَا، فَإِنَّهُ لَوْ لَا الْحَرُّ وَالْبَرْدُ وَتَدَاوُلُهُمَا الْأَبْدَانِ لَفَسَدَتْ وَأُخُوْتُ وَانْتَكَسَتْ.

فَكُرِّ فِي دُخُولِ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ بِهَذَا التَّدْرِيجِ^(٦) وَالتَّرْسُلِ، فَإِنَّكَ تَرَى أَحَدَهُمَا يَنْقُصُ شَيْئاً بَعْدَ شَيْءٍ، وَالْآخَرُ يَزِيدُ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى يَنْتَهِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُنْتَهَاهُ فِي الزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ، وَلَوْ كَانَ دُخُولُ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى مُفَاجَأَةً لَأَضَرَّ ذَلِكَ بِالْأَبْدَانِ وَأَسْقَمَهَا، كَمَا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ خَرَجَ مِنْ حَمَامٍ حَارٍّ إِلَى مَوْضِعِ الْبُرُودَةِ^(٧) لَضَرَّهُ ذَلِكَ وَأَسْقَمَ بَدَنَهُ، فَلِمَ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا التَّرْسُلَ فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ إِلَّا لِلْسَّلَامَةِ مِنْ ضَرَرِ الْمُفَاجَأَةِ؟ وَلِمَ جَرَى الْأَمْرُ عَلَى مَا فِيهِ السَّلَامَةُ مِنْ ضَرَرٍ^(٨) الْمُفَاجَأَةِ لَوْ لَا التَّدْيِيرُ فِي ذَلِكَ؟ فَإِنْ زَعَمَ زَاعِمٌ أَنَّ هَذَا التَّرْسُلَ فِي دُخُولِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ إِنَّمَا يَكُونُ لِإِبْطَاءِ مَسِيرِ الشَّمْسِ فِي الِازْتِفَاعِ وَالْإِنْحِطَاطِ، سُئِلَ عَنِ الْعِلَّةِ فِي إِبْطَاءِ مَسِيرِ الشَّمْسِ فِي اِزْتِفَاعِهَا وَإِنْحِطَاطِهَا، فَإِنْ اعْتَلَّ فِي الْإِبْطَاءِ بِبُعْدِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقَيْنِ سُئِلَ عَنِ الْعِلَّةِ فِي ذَلِكَ، فَلَا تَزَالُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ تَرْقَى مَعَهُ إِلَى حَيْثُ رَقِيَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ

١. البوار: الهلاك، راجع لسان العرب.

٢. فتر عن العمل: انكسرت حدته ولان بعد شدته، راجع المصباح المنير.

٣. عاقه عن الأمر: منعه، راجع مقدمة الأدب.

٤. خمدت النار: سكن لهبها، راجع لسان العرب.

٥. تعاورا الشيء: تداولوه، راجع المغرب.

٦. وفي نسخة: الترويح، (هامش المصدر).

٧. في المصدر: «إلى موضع مفرط البرودة».

٨. في المصدر: «ضرر»، وفيه ذكر من نسخة: «ضرورة».

حَتَّى اسْتَقَرَّ عَلَى الْعُمْدِ وَالتَّدْبِيرِ؛ لَوْ لَا الْحَرُّ لَمَا كَانَتْ الثَّمَارُ الْجَاسِيَّةُ الْمُرَّةُ تَنْضَجُ فَتَلِينُ وَتَعْدُبُ حَتَّى يُتَفَكَّهَ بِهَا رَطْبَةٌ وَيَابِسَةٌ، وَلَوْ لَا الْبَرْدُ لَمَا كَانَ الزَّرْعُ يُغْرِخُ هَكَذَا، وَيَرِيحُ الرِّيحُ الْكَثِيرَ الَّذِي يَتَسَّعُ لِلْقَوْتِ، وَمَا يَرْدُ فِي الْأَرْضِ لِلْبَذْرِ. أَفَلَا تَرَى مَا فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ مِنْ عَظِيمِ الْغِنَاءِ^(١) وَالْمَنْفَعَةِ وَكِلَاهُمَا مَعَ غِنَائِهِ^(٢) وَالْمَنْفَعَةِ فِيهِ يُؤْلِمُ الْأَبْدَانَ وَيُحْصِنُهَا؟ وَفِي ذَلِكَ عِبْرَةٌ لِمَنْ فَكَّرَ، وَدَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ مِنْ تَدْبِيرِ الْحَكِيمِ فِي مَصْلَحَةِ الْعَالَمِ وَمَا فِيهِ؟

بيان:

قوله **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: «لا يجاوز ذلك» أي في معظم المعمورة. وقال الفيروزآبادي: حَوَتْ الدار: تهدمت، والنجوم خيًّا: أمحلت فلم تمطر كأخوت. وقال: المُنْتَكث: المهزول. وقال: «الترسل»: الرفق والتؤدة. انتهى. قوله **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: «بعد ما بين المشرقين» أي المشرق والمغرب، كناية عن عظم الدائرة التي يقطع عليها البروج، أو مشرق الصيف والشتاء، والأول أظهر. قوله **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: «الجاسية» أي الصلبة. و«يتفكه بها» أي يتمتع بها. و«الريح»: النماء والزيادة. وقال الجوهري: أَمْضَى الجرح إمضاضاً: إذا أوجعك، وفيه لغة أخرى: مَضَى الجرح؛ ولم يعرفها الأصمعي.

وَأُنَبِّهْكَ يَا مُفَضَّلُ عَلَى الرِّيحِ وَمَا فِيهَا، أَلَسْتَ تَرَى رُكُودَهَا إِذَا رَكَدَتْ كَيْفَ يُحْدِثُ الْكَرْبُ الَّذِي يَكَادُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَى الثُّفُوسِ، وَيُخْرِضُ^(٣) الْأَصْحَاءَ، وَيَنْهَكَ الْمَرْضَى، وَيُقْسِدُ الثَّمَارَ، وَيُعَفِّنُ الْبُقُولَ، وَيُعَقِّبُ الْوَبَاءَ فِي الْأَبْدَانِ، وَالْآفَةَ فِي الْغَلَّاتِ؟ فَبَيَّنَ أَنَّ هُبُوبَ الرِّيحِ مِنْ تَدْبِيرِ الْحَكِيمِ فِي صَلَاحِ الْخَلْقِ. وَأُنَبِّهْكَ عَنِ الْهَوَاءِ بِخَلَّةٍ أُخْرَى، فَإِنَّ الصَّوْتَ أَثَرُ يُؤَثِّرُهُ اصْطِكَاكُ الْأَجْسَامِ فِي الْهَوَاءِ، وَالْهَوَاءُ يُؤَدِّيهِ إِلَى الْمَسَامِعِ، وَالنَّاسُ يَتَكَلَّمُونَ فِي حَوَائِجِهِمْ وَمُعَامَلَاتِهِمْ طُولَ نَهَارِهِمْ وَبَعْضَ لَيْلِهِمْ، فَلَوْ كَانَ أَثَرُ هَذَا الْكَلَامِ يَبْقَى فِي الْهَوَاءِ كَمَا يَبْقَى الْكِتَابُ فِي الْقُرْطَاسِ لَأَمْتَلَأَ الْعَالَمُ مِنْهُ، فَكَانَ يَكْرَهُهُمْ وَيَقْدَحُهُمْ^(٤)، وَكَانُوا يَحْتَاجُونَ فِي تَجْدِيدِهِ وَالِاسْتِئْذَالَ بِهِ إِلَى أَكْثَرِ مِمَّا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي تَجْدِيدِ الْقَرَاطِيسِ، لِأَنَّ مَا يُلْقَى مِنَ الْكَلَامِ أَكْثَرُ مِمَّا يُكْتَبُ، فَجَعَلَ الْخَلْقُ الْحَكِيمُ جَلَّ قُدْسُهُ هَذَا الْهَوَاءَ قُرْطَاسًا خَفِيًّا يَحْمِلُ الْكَلَامَ رَيْثَمَا يَبْلُغُ الْعَالَمَ حَاجَتَهُمْ ثُمَّ يَمْحَى فَيَعُودُ جَدِيدًا نَقِيًّا، وَيَحْمِلُ مَا حَمَلَ أَبَدًا بِلا انْقِطَاعٍ^(٥)، وَحَسْبُكَ بِهَذَا النَّسِيمِ الْمُسَمَّى هَوَاءً عِبْرَةٌ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَصَالِحِ، فَإِنَّهُ حَيَاةُ هَذِهِ الْأَبْدَانِ وَالْمُمْسِكُ لَهَا مِنْ دَاخِلٍ بِمَا تَسْتَنْشِقُ مِنْهُ، وَمِنْ خَارِجٍ بِمَا تُبَاشِرُ مِنْ رَوْحِهِ، وَفِيهِ تَطَرُّدُ هَذِهِ الْأَصْوَاتِ فَيُؤَدِّي بِهَا مِنَ الْبُعْدِ الْبَعِيدِ، وَهُوَ الْحَامِلُ لِهَذِهِ الْأَرَابِيحِ يَنْقُلُهَا مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ.

١. وفي بعض النسخ: الغناء. (هامش المصدر)

٢. وفي نسخة: عنائه. (هامش المصدر)

٣. في المصدر: «يمرض».

٤. وفي نسخة: يقدهم. (هامش المصدر)

٥. وفي نسخة بدل: بالانقطاع. (هامش المصدر)

أَلَا تَرَى كَيْفَ تَأْتِيكَ الرَّائِحَةُ مِنْ حَيْثُ تَهْبُ الرِّيحُ فَكَذَلِكَ الصَّوْتُ، وَهُوَ الْقَابِلُ لِهَذَا الْحَرِّ وَالْبَرْدِ اللَّذَيْنِ يَتَعَاقَبَانِ عَلَى الْعَالَمِ لِصَلَاحِهِ، وَمِنْهُ هَذِهِ الرِّيحُ الْهَابَّةُ فَالرِّيحُ تَرْوَحُ عَنِ الْأَجْسَامِ وَتُرْجِي السَّحَابَ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ لِيُعْمَ نَفْعُهُ حَتَّى يَسْتَكْتِفَ فَيَمُطَّرَ، وَتَفُضُّهُ حَتَّى يَسْتَخِفَّ فَيَتَفَشَّى، وَتُلْقِحُ الشَّجَرَ، وَتُسِيرُ السُّفْنَ، وَتُرْخِي الْأَطْعِمَةَ وَتُبْرِدُ الْمَاءَ، وَتَشْبُ النَّارَ، وَتُجَفِّفُ الْأَشْيَاءَ النَّدِيَّةَ، وَبِالْجُمْلَةِ إِنَّهَا تُحْيِي كُلَّ مَا فِي الْأَرْضِ، فَلَوْ لَا الرِّيحُ لَذَوَى^(١) النَّبَاتُ وَمَاتَ الْحَيَوَانُ وَحُمَّتِ الْأَشْيَاءُ وَفَسَدَتْ.

توضيح:

ركود الريح: سكونها. والحرص: فساد البدن. ويقال: نهكته الحمى أي أضنته وهزلته. وقوله ^(١) لاذوى: «والهواء يؤدّيه» يدلّ على ما هو المنصور من تكيف الهواء بكيفية الصوت على ما فصل في محله. ويقال: كربه الأمر أي شقّ عليه. وفدحه الدين أي أثقله. وریشما فعل كذا أي قدر ما فعله. و«يبلغ» إمّا على بناء المجرد ف«العالم» فاعله، أو على التفعيل ف«الهواء» فاعله. و«الروح» بالفتح: الراحة ونسيم الريح. واطّرد الشيء: تبع بعضه بعضاً وجرى. و«الأرايح» جمع للريح. و«ترجي السحاب» على بناء الإفعال أي تسوقه. و«تفضّه» أي تفرّقه. والتفشّي: الانتشار. و«ترخي الأطعمة» على التفعيل أو الإفعال أي تصيرها رخوة لطيفة. و«تشبّ النار» أي توقّدها.

فَكَّرَ يَا مُفَضِّلُ فِيمَا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ هَذِهِ الْجَوَاهِرَ الْأَرْبَعَةَ لِيَتَسَّعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْهَا، فَمِنْ ذَلِكَ سَعَةُ هَذِهِ الْأَرْضِ وَامْتِدَادُهَا، فَلَوْ لَا ذَلِكَ كَيْفَ كَانَتْ تَتَسَّعُ لِمَسَاكِينِ النَّاسِ وَمَزَارِعِهِمْ وَمَرَاعِيهِمْ وَمَنَابِتِ أَخْشَابِهِمْ^(٢) وَأَخْطَابِهِمْ وَالْعَقَائِرِ الْعَظِيمَةِ وَالْمَعَادِنِ الْجَسِيمَةِ عَنَّاوُهَا؟ وَلَعَلَّ مَنْ يُنْكِرُ هَذِهِ الْفُلُوتِ الْخَاوِيَةِ وَالْقَفَارِ الْمُوحِشَةِ يَقُولُ: مَا الْمَنْفَعَةُ فِيهَا؟ فَيَهِيَ مَأْوَى هَذِهِ الْوُحُوشِ وَمَحَالُّهَا وَمَرْعَاهَا، ثُمَّ فِيهَا بَعْدُ مُتَنَفِّسٌ^(٣) وَمُضْطَرَبٌ لِلنَّاسِ إِذَا احْتَاجُوا إِلَى الْإِسْتِنْدَالِ بِأَوْطَانِهِمْ؛ فَكَمْ بَيْدَاءٌ^(٤) وَكَمْ قَدْ قَدِّدَ حَالَتْ قُصُوراً وَجَنَاناً^(٥) بِانْتِقَالِ النَّاسِ إِلَيْهَا وَحُلُولِهِمْ فِيهَا، وَلَوْ لَا سَعَةُ الْأَرْضِ وَفُسْحَتُهَا لَكَانَ النَّاسُ كَمَنْ هُوَ فِي حِصَارٍ ضَيِّقٍ لَا يَجِدُ مَدْوَحَةً عَنْ وَطْنِهِ إِذَا حَزَبَهُ^(٦) أَمْرٌ يَضْطَرُّهُ إِلَى الْإِنْتِقَالِ عَنْهُ. ثُمَّ فَكَّرَ فِي خَلْقِ هَذِهِ الْأَرْضِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ حِينَ خُلِقَتْ رَاتِبَةً رَاكِئَةً، فَتَكُونُ مَوْطِئاً^(٧) مُسْتَقَرّاً لِلْأَشْيَاءِ فَيَتِمَّ كُنْ

١. ذوى: ييس، راجع لسان العرب.

٢. وفي نسخة: أعشابهم. (هامش المصدر)

٣. وفي نسخة بدل: منتشر. (هامش المصدر)

٤. البيداء: الفلاة، راجع لسان العرب.

٥. وفي نسخة: وخبايا. (هامش المصدر)

٦. وفي نسخة: أحزنه، وفي نسخة أخرى: أحزبه. (هامش المصدر)

٧. وفي نسخة: موطئاً. (هامش المصدر)

النَّاسِ مِنَ السَّعْيِ عَلَيْهَا فِي مَآرِبِهِمْ، وَالْجُلُوسِ عَلَيْهَا لِزَاحَتِهِمْ، وَالتَّوَمِّ لِهَدْيِهِمْ، وَالْإِثْقَانِ لِأَعْمَالِهِمْ، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ رَجْرَاجَةً مُتَكَفِّفَةً لَمْ يَكُونُوا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُثَبِّتُوا الْبِنَاءَ وَالتَّجَارَةَ^(١) وَالصَّنَاعَةَ^(٢) وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، بَلْ كَانُوا لَا يَسْتَهْزِئُونَ بِالْعَيْشِ وَالْأَرْضِ تَزْتَجُّ مِنْ تَحْتِهِمْ. وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِمَا يُصِيبُ النَّاسَ حِينَ الزَّلَازِلِ عَلَى قَلَّةٍ مَكْنِهَا حَتَّى يَصِيرُوا إِلَى تَرْكِ مَنَازِلِهِمْ وَالْهَرَبِ^(٣) عَنْهَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَلِمَ صَارَتْ هَذِهِ الْأَرْضُ تُزَلُّ؟ قِيلَ لَهُ: إِنَّ الزَّلْزَلَةَ وَمَا أَشْبَهَهَا مَوْعِظَةٌ وَتَرْهيبٌ يُرْهَبُ بِهَا النَّاسُ لِيُرْغَوْا وَيَنْزِعُوا عَنِ الْمَعَاصِي، وَكَذَلِكَ مَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ الْبَلَاءِ فِي أَيْدَانِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَجْرِي فِي التَّدْبِيرِ عَلَى مَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ وَاسْتِقَامَتُهُمْ، وَيُدْخِرُ لَهُمْ إِنْ صَلَحُوا مِنَ الثَّوَابِ وَالْعَوْصِ فِي الْآخِرَةِ مَا لَا يَعْدِلُهُ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا، وَرُبَّمَا عَجَّلَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا إِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا صَلَاحًا لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ.

ثُمَّ إِنَّ الْأَرْضَ فِي طِبَاعِهَا الَّذِي طَبَعَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ بَارِدَةٌ يَابِسَةٌ وَكَذَلِكَ الْحِجَارَةُ، وَإِنَّمَا الْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحِجَارَةِ فَضْلُ يُبْسٍ فِي الْحِجَارَةِ، أَفَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ الْيُبْسَ أَفْرَطَ عَلَى الْأَرْضِ قَلِيلًا حَتَّى تَكُونَ حَجَرًا صَلْدًا، أَكَانَتْ تُنْبِتُ هَذَا النَّبَاتَ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الْحَيَوَانِ؟ وَكَانَ يُمَكِّنُ بِهَا حَرْثُ أَوْ بِنَاءٌ؟ أَفَلَا تَرَى كَيْفَ تُنْصَبُ^(٤) مِنْ يُبْسِ الْحِجَارَةِ وَجُعِلَتْ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّيْنِ وَالرَّخَاوَةِ لَتَهَيَّأَ لِلْإِعْتِمَادِ؟

وَمِنْ تَدْبِيرِ الْحَكِيمِ جَلٍّ وَعَلَا فِي خِلْقَةِ الْأَرْضِ أَنَّ مَهَبَّ الشَّمَالِ أَرْفَعَ مِنْ مَهَبِّ الْجَنُوبِ، فَلِمَ جَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كَذَلِكَ إِلَّا لِيُنْحَدِرَ الْمِيَاهُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَتَسْقِيَهَا وَتَرْوِيَهَا؟ ثُمَّ تَفِيضُ^(٥) آخِرَ ذَلِكَ إِلَى الْبَحْرِ، فَكَانَتْ^(٦) يَرْفَعُ أَحَدُ جَانِبَيْ السَّطْحِ وَيَخْفِضُ الْآخَرَ لِيُنْحَدِرَ الْمَاءُ عَنْهُ وَلَا يَقُومَ عَلَيْهِ، كَذَلِكَ جُعِلَ مَهَبُّ الشَّمَالِ أَرْفَعَ مِنْ مَهَبِّ الْجَنُوبِ لِهَذِهِ الْعِلَّةِ بَعِيْنَهَا، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَبَقِيَ الْمَاءُ مُتَحَيِّرًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَكَانَ يَمْنَعُ النَّاسَ مِنْ إِعْمَالِهَا^(٧) وَيَقْطَعُ الطُّرُقَ وَالْمَسَالِكَ، ثُمَّ الْمَاءُ لَوْ لَا كَثْرَتُهُ وَتَدَفُّقُهُ فِي الْعُيُونِ وَالْأَدْوِيَةِ وَالْأَنْهَارِ لَصَاقَ عَمَّا يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَيْهِ لِشُرْبِهِمْ وَشُرْبِ أَنْعَامِهِمْ وَمَوَاشِيهِمْ، وَسَقَى زُرُوعِهِمْ وَأَشْجَارِهِمْ وَأَصْنَافِ غَلَّتِهِمْ، وَشَرِبَ مَا يَرُدُّهُ مِنَ الْوُحُوشِ وَالطَّيْرِ وَالسَّبَاعِ وَتَتَقَلَّبُ فِيهِ الْحَيْتَانُ وَدَوَابُّ الْمَاءِ. وَفِيهِ مَنَافِعُ أُخْرُ أَنْتَ بِهَا عَارِفٌ وَعَنْ عِظَمِ مَوْقِعِهَا غَافِلٌ، فَإِنَّهُ سِوَى الْأَمْرِ الْجَلِيلِ

١. في المصدر: «النجارة».

٢. وفي بعض النسخ: والصياغة. (هامش المصدر)

٣. وفي بعض النسخ: والمهرب. (هامش المصدر)

٤. في المصدر: «نقصت».

٥. وفي نسخة: يفيض. (هامش المصدر)

٦. وفي نسخة: وكما، وفي نسخة بدل: فكلما. (هامش المصدر)

٧. في المصدر: «من اعتمالها».

الْمَعْرُوفِ مِنْ غَنَائِهِ^(١) فِي إِحْيَاءِ جَمِيعِ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ يَمْزُجُ بِالْأَشْرِبَةِ فَتَلِينُ^(٢) وَتَطْيِبُ لِسَارِبِهَا، وَبِهِ تُنْظَفُ الْأَبْدَانُ وَالْأَمْتَعَةُ مِنَ الدَّرَنِ^(٣) الَّذِي يَعْشَاهَا، وَبِهِ يُبَلُّ التُّرَابُ فَيَصْلُحُ لِلْإِعْتِمَالِ^(٤) وَبِهِ يُكَفُّ عَادِيَةُ النَّارِ إِذَا اضْطَرَمَّتْ وَأَشْرَفَ النَّاسُ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَبِهِ يُسَبِّغُ^(٥) الْغَصْنَ مَا غَصَّ بِهِ^(٦)، وَبِهِ يَسْتَحِمُّ الْمُتَعَبُ الْكَالُ^(٧) فَيَجِدُ الرَّاحَةَ مِنْ أَوْصَائِهِ، إِلَى أَشْبَاهِ هَذَا مِنَ الْمَارِبِ الَّتِي تَعْرِفُ عِظَمَ مَوْقِعِهَا فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا.

فَإِنْ شَكَّكَتْ فِي مَنَفْعَةِ هَذَا الْمَاءِ الْكَثِيرِ الْمُتَرَاكِمِ فِي الْبَحَارِ وَقُلْتَ: مَا الْإِزْبُ فِيهِ؟ فَأَعْلَمْ أَنَّهُ مُكْتَنَفٌ وَمُضْطَرَبٌ^(٨) مَا لَا يُحْصَى: مِنْ أَصْنَافِ السَّمَكِ وَدَوَابِّ الْبَحْرِ، وَمَعْدِنِ اللَّوْلُؤِ وَالْيَاقُوتِ وَالْعَبْرِ، وَأَصْنَافِ شَتَّى تُسْتَخْرَجُ مِنَ الْبَحْرِ، وَفِي سَوَاحِلِهِ مَنَابِتُ الْعُودِ وَالْيَلَنْجُوجِ، وَضُرُوبٍ مِنَ الطَّيِّبِ وَالْعَقَاقِيرِ، ثُمَّ هُوَ بَعْدُ مَرْكَبُ النَّاسِ وَمَحْمِلُ لِهَذِهِ التَّجَارَاتِ الَّتِي تُجْلَبُ مِنَ الْبُلْدَانِ الْبَعِيدَةِ، كَمَثَلِ مَا يُجْلَبُ مِنَ الصِّينِ إِلَى الْعِرَاقِ، وَمِنَ الْعِرَاقِ إِلَى الْعِرَاقِ^(٩)، فَإِنَّ هَذِهِ التَّجَارَاتِ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهَا مَحْمِلٌ إِلَّا عَلَى الظَّهْرِ لَبَارَتْ^(١٠) وَبَقِيَتْ فِي بُلْدَانِهَا وَأَيْدِي أَهْلِهَا، لِأَنَّ أَجَرَ حَمْلِهَا كَانَ يُجَاوِزُ أَثْمَانَهَا فَلَا يَتَعَرَّضُ أَحَدٌ لِحَمْلِهَا، وَكَانَ يَجْتَمِعُ فِي ذَلِكَ أُمْرَانِ: أَحَدُهُمَا فَقْدُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ تَعْظُمُ الْحَاجَةُ إِلَيْهَا، وَالْآخَرُ انْقِطَاعُ مَعَاشٍ مَنْ يَحْمِلُهَا وَيَتَعَيَّشُ بِفَضْلِهَا.

وَهَكَذَا الْهَوَاءُ لَوْ لَا كَثْرَتُهُ وَسَعَتُهُ لَأَخْتَنَقَ هَذَا الْأَنْثَامُ مِنَ الدُّخَانِ وَالْبُخَارِ الَّتِي يَتَحَيَّرُ^(١١) فِيهِ، وَيَعْجِزُ عَمَّا يُحَوَّلُ إِلَى السَّحَابِ وَالضَّبَابِ أَوَّلًا أَوَّلًا، وَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْ صِفَتِهِ مَا فِيهِ كِفَايَةٌ. وَالنَّارُ أَيْضًا كَذَلِكَ فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ مِثْبُوتَةً كَالنَّسِيمِ وَالْمَاءِ كَانَتْ تُحْرِقُ الْعَالَمَ وَمَا فِيهِ، وَلَمْ يَكُنْ^(١٢) بُدٌّ مِنْ ظُهُورِهَا

١. في المصدر: «من عظيم غنائه».

٢. وفي نسخة: فتلد. (هامش المصدر)

٣. الدرن: الوسخ، راجع لسان العرب.

٤. وفي نسخة: للأعمال. (هامش المصدر)

٥. الاعتمال: افتعال من العمل أي أنهم يقومون بما يحتاج إليه من عمارة وزراعة وتلقيح وحراسة ونحو ذلك، راجع لسان العرب.

٦. يسبيغه: يبتلعه، راجع المصباح المنير.

٧. غصّ بالماء: إذا شرب به أو وقف في حلقه فلم يكده يسبيغه، راجع تاج العروس.

٨. في المصدر مع زيادة: «فينجو به من الموت»، وفيه ذكر من نسخة: «ما غصّ به من الغصات».

٩. كلّ الرجل: إذا تعب، راجع لسان العرب.

١٠. وفي نسخة: مكشوف مضطرب. (هامش المصدر)

١١. في المصدر: «إلى الصين».

١٢. بارت السوق: إذا كسدت، راجع لسان العرب.

١٣. وفي نسخة: يتحيز. (هامش المصدر)

١٤. في المصدر: «ولمّا لم يكن».

فِي الْأَحْيَانِ لِعَنَائِهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْمَصَالِحِ، فَجُعِلَتْ كَالْمَخْرُونَةِ فِي الْأَخْشَابِ^(١)، تُلْتَمَسُ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا وَتُؤْمَسُ بِالْمَادَّةِ وَالْحَطَبِ مَا احْتِيجَ إِلَى بَقَائِهَا لِئَلَّا تَحْبُو^(٢)، فَلَا هِيَ تُؤْمَسُ بِالْمَادَّةِ وَالْحَطَبِ فَتَعْظُمَ الْمُؤْنَةُ فِي ذَلِكَ، وَلَا هِيَ تَظْهَرُ مَبْنُوتَةً فَتُخْرَقَ كُلُّ مَا هِيَ فِيهِ، بَلْ هِيَ عَلَى تَهَيُّئَةٍ وَتَقْدِيرٍ اجْتَمَعَ فِيهَا الْإِسْتِمْنَاعُ بِمَنَافِعِهَا وَالسَّلَامَةُ مِنْ ضَرَرِهَا. ثُمَّ فِيهِ خَلَّةٌ أُخْرَى وَهِيَ أَنَّهَا مِمَّا خُصَّ بِهِ الْإِنْسَانُ دُونَ جَمِيعِ الْحَيَوَانِ لِمَا لَهُ فِيهَا مِنَ الْمَصْلَحَةِ، فَإِنَّهُ لَوْ فَقَدَ النَّارَ لَعَظُمَ مَا يَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنَ الضَّرَرِّ فِي مَعَاشِهِ، فَأَمَّا الْبَهَائِمُ فَلَا تَسْتَعْمِلُ النَّارَ وَلَا تَسْتَمْتِعُ بِهَا، وَلَمَّا قَدَّرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا هَكَذَا خَلَقَ لِلْإِنْسَانِ كَفًّا وَأَصَابِعَ مُهَيَّاتَةً لِقَدْحِ النَّارِ وَاسْتِعْمَالِهَا، وَلَمْ يُعْطِ الْبَهَائِمَ مِثْلَ ذَلِكَ لِكِنَّهَا أُعِينَتْ بِالصَّبْرِ عَلَى الْجَفَاءِ وَالْخَلَلِ فِي الْمَعَاشِ لِكَيْلَا يَنَالَهَا فِي فَقْدِ النَّارِ مَا يَنَالُ الْإِنْسَانُ^(٣).

وَأُنْبِتَكَ مِنْ مَنَافِعِ النَّارِ عَلَى خِلْقَةٍ^(٤) صَغِيرَةٍ عَظِيمٍ مَوْقِعِهَا، وَهِيَ هَذَا الْمَصْبَاحُ الَّذِي يَتَّخِذُهُ النَّاسُ فَيَقْضُونَ بِهِ حَوَائِجَهُمْ مَا شَاءُوا مِنْ لِيْلِهِمْ، وَلَوْ لَا هَذِهِ الْخِلَّةُ^(٥) لَكَانَ النَّاسُ تُصَرَّفُ أَعْمَارُهُمْ بِمَنْزِلَةٍ مِنْ فِي الْقُبُورِ، فَمَنْ كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكْتُبَ^(٦) أَوْ يَحْفَظَ^(٧) أَوْ يَنْسِجَ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ؟ وَكَيْفَ كَانَتْ حَالُ مَنْ عَرَضَ لَهُ وَجَعٌ فِي وَقْتٍ مِنْ أَوْقَاتِ اللَّيْلِ فَاحْتَاجَ أَنْ يُعَالِجَ ضِمَادًا^(٨) أَوْ سَفُوفًا^(٩)، أَوْ شَيْئًا يَسْتَشْفِي بِهِ؟ فَأَمَّا مَنَافِعُهَا فِي نَضِجِ الْأَطْعِمَةِ، وَدَفْءِ الْأَبْدَانِ، وَتَجْفِيفِ أَشْيَاءَ، وَتَحْلِيلِ أَشْيَاءَ، وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى، وَأَظْهَرُ مِنْ أَنْ تَحْفَى.

تبيان:

«العقاقير»: أصول الأدوية. و«الغناء» بالفتح: المنفعة و«الخواوية»: الخالية. و«الفدقد»: الفلاة، والمكان الصلب الغليظ والمرتفع، والأرض المستوية. والفُسْحَةُ بالضم: السعة. ويقال: لي عن هذا الأمر مندوحة ومنتدح أي سعة. و«حزبه أمر» أي أصابه. والراتبة: الثابتة. والراكنة: الساكنة. وهذا هداءً وهدوءاً: سكن. وقوله ^(١٠) «جراحة»: أي متزلزلة متحركة. والتكفَّى: الانقلاب والتمايل والتحرك. والارتجاج: الاضطراب. والارعواء: الرجوع عن الجهل والكف عن القبيح. والصلد ويكسر: الصلب الأملس. قوله ^(١١) «كيف تنصب»: كذا في أكثر النسخ، والنصب يكون بمعنى الرفع والوضع، ولعل المراد هنا الثاني، والظاهر أنه

١. وفي نسخة: في الأجسام. (هامش المصدر)

٢. خبت النار: طفت، راجع الصحاح.

٣. في المصدر مع زيادة: «عند فقدها».

٤. في المصدر: «خلة».

٥. وفي نسخة: الحيلة. (هامش المصدر)

٦. وفي نسخة: يكسب. (هامش المصدر)

٧. وفي نسخة: يخييط. (هامش المصدر)

٨. الضماد: الخرقعة التي تلف على الجرح وفيها الدواء، راجع شمس العلوم.

٩. السفوف: الأدوية اليابسة المسحوقة، راجع كتاب الماء.

تصحييف نقصت أو نحوه. قوله عليه السلام: «إنَّ مَهَبَّ الشَّامِ أَرْفَعُ» أي بعد ما خرجت الأرض من الكروية الحقيقية صار ما يلي الشمال منها في أكثر المعمورة أرفع ممَّا يلي الجنوب، ولذا ترى أكثر الأنهار كدجلة والفرات وغيرهما تجري من الشمال إلى الجنوب، ولمَّا كان الماء الساكن في جوف الأرض تابعاً للأرض في ارتفاعه وانخفاضه، فلذا صارت العيون المتفجرة تجري هكذا من الشمال إلى الجنوب حتَّى تجري على وجه الأرض، ولذا حكموا بفوقية الشمال على الجنوب في حكم اجتماع البئر والبالوعة، وإذا تأملت فيما ذكرنا يظهر لك ما بيَّنه عليه السلام من الحكم في ذلك، وأنَّه لا ينافي كروية الأرض.

والتدقُّق: التصبُّب. قوله عليه السلام: «فإنَّه سوى الأمر الجليل» الضمير راجع إلى الماء، وهو اسم «إنَّ»، و«يمزج» خبره أي للماء سوى النفع الجليل المعروف - وهو كونه سبباً لحياة كلِّ شيء - منافع أُخرى؛ منها: أنَّه يمزج مع الأشربة. وقال الجوهرى: الحميم: الماء الحار، وقد استحمت إذا اغتسلت به؛ ثم صار كلَّ اغتسال استحماماً بأيِّ ماء كان. انتهى. والوصب محرَّكة: المرض. والمكتنف بفتح النون من الكنف بمعنى الحفظ والإحاطة، واكتنفه أي أحاط به، ويظهر منه أنَّ نوعاً من الياقوت يتكوَّن في البحر؛ وقيل: أُطلق على المرجان مجازاً، ويحتمل أن يكون المراد ما يستخرج منه بالغوص وإن لم يتكوَّن فيه. و«اليلنجوج»: عود البخور. و«من العراق» أي البصرة. و«إلى العراق» أي الكوفة، أو بالعكس. قوله عليه السلام: «ويعجز» أي لو لا كثرة الهواء لعجز الهواء عمَّا يستحيل الهواء إليه من السحاب والضباب التي تتكوَّن من الهواء. «أولاً أولاً» أي تدريجاً، أي كان الهواء لا يفي بذلك أو لا يتسع لذلك. الضباب بالفتح: ندى كالغيم، أو سحاب رقيق كالدخان. و«الأحيين» جمع أحيان، وهو جمع حين بمعنى الدهر والزمان. قوله عليه السلام: «فلا هي تمسك بالمادة والحطب» أي دائماً بحيث إذا انطفأت لم يمكن إعادتها. والمادة: الزيادة المتصلة، والمراد هنا الدهن ومثله. و«دفاء الأبدان» بالكسر: دفع البرد عنها.

فَكَرَّ يَا مُفَضِّلُ فِي الصَّحْوِ (١) وَالْمَطَرِ (٢) كَيْفَ يَغْتَبِيانِ عَلَى هَذَا الْعَالَمِ لِمَا فِيهِ صَلَاحُهُ، وَلَوْ دَامَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا عَلَيْهِ كَانَ فِي ذَلِكَ فَسَادُهُ. أَلَا تَرَى أَنَّ الْأَمْطَارَ إِذَا تَوَالَتْ (٣) عَفِنَتِ الْبُتُورُ وَالْخَضِرُ، وَاسْتَرْخَتْ أَبْدَانُ الْحَيَوَانِ، وَخَصِرَ الْهَوَاءُ فَأَحْدَثَ ضُرُوباً مِنَ الْأَمْرَاضِ، وَفَسَدَتِ الطُّرُقُ وَالْمَسَالِكُ؟ وَأَنَّ الصَّحْوَ إِذَا دَامَ جَفَّتِ الْأَرْضُ، وَاحْتَرَقَ النَّبَاتُ، وَغِيضَ مَاءُ (٤) الْعُيُونِ وَالْأَوْدِيَةِ (٥) فَأَصْرَّ ذَلِكَ بِالنَّاسِ، وَغَلَبَ الْيُبْسُ عَلَى الْهَوَاءِ فَأَحْدَثَ ضُرُوباً أُخْرَى مِنَ الْأَمْرَاضِ، فَإِذَا

١. الصحو: ذهاب الغيم، راجع لسان العرب.

٢. وفي نسخة: والغيم. (هامش المصدر)

٣. توالى: تتابعت: راجع مقدمة الأدب.

٤. غاض الماء: نقص أو غار فذهب، راجع لسان العرب.

٥. الوادي: كل مفرج بين الجبال والتلال يكون مسلكاً للسَّيل ومنفذاً، والجمع الأودية، راجع لسان العرب.

تَعَاقَبًا عَلَى الْعَالَمِ هَذَا التَّعَاقُبَ اعْتَدَلَ الْهَوَاءُ، وَدَفَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَادِيَةَ الْآخَرِ^(١)، فَصَلَحَتِ الْأَشْيَاءُ وَاسْتَقَامَتْ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: وَلَمْ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مَضَرَّةٌ الْبَتَّةَ؟ قِيلَ لَهُ: لِيَمُضَّ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ وَيُؤْلِمَهُ بَعْضُ الْأَلَمِ فَيَرْعَوِي عَنِ الْمَعَاصِي، فَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا سَقَمَ بَدَنُهُ احتَاجَ إِلَى الْأَذْوِيَةِ الْمُرَّةِ الْبَشِيعَةِ لِيُقَوِّمَ طِبَاعَهُ وَيَصْلَحَ مَا فَسَدَ مِنْهُ، كَذَلِكَ إِذَا طَعَى وَأَشْرَ^(٢) احتَاجَ إِلَى مَا يَعْصُهُ^(٣) وَيُؤْلِمُهُ لِيَرْعَوِي وَيَقْصُرَ عَنْ مَسَاوِيهِ وَيُثَبِّتَهُ^(٤) عَلَى مَا فِيهِ حَظُّهُ وَرُشْدُهُ، وَلَوْ أَنَّ مَلِكًا مِنَ الْمُلُوكِ قَسَمَ فِي أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ قَنَاطِيرَ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ أَلَمْ يَكُنْ سَبْعُطُمْ عِنْدَهُمْ وَيَذْهَبُ لَهُ بِهِ الصَّوْتُ؟ فَأَيْنَ هَذَا مِنْ مَطَرَةٍ رَوَاءٍ^(٥)؟ إِذْ يُعْمَرُ بِهِ الْبِلَادُ^(٦) وَيَزِيدُ فِي الْغَلَّتِ أَكْثَرَ مِنْ قَنَاطِيرِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ فِي أَقَالِيمِ الْأَرْضِ كُلِّهَا.

أَفَلَا تَرَى الْمَطَرَةَ الْوَاحِدَةَ مَا أَكْبَرَ^(٧) قَدْرَهَا وَأَعْظَمَ النِّعْمَةَ عَلَى النَّاسِ فِيهَا وَهُمْ عَنْهَا سَاهُونَ؟ وَرُبَّمَا عَاقَتْ عَنْ أَحَدِهِمْ حَاجَةٌ لَا قَدْرَ لَهَا فَيَذْمُرُ وَيَسْخَطُ إِيثَارًا لِلْخَسِيسِ قَدْرُهُ عَلَى الْعَظِيمِ نَفْعُهُ، جَهْلًا بِمَحْمُودِ الْعَاقِبَةِ وَقِلَّةَ مَعْرِفَةِ لِعَظِيمِ الْغِنَاءِ وَالْمَنْفَعَةِ فِيهَا^(٨). تَأَمَّلْ نُزُولَهُ عَلَى الْأَرْضِ وَالتَّدْبِيرَ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُ جُعِلَ يَنْحَدِرُ عَلَيْهَا مِنْ عُلوِّ لِيَتَفَشَّى مَا غُلِظَ وَارْتَفَعَ مِنْهَا فَيَرْوِيَهُ، وَلَوْ كَانَ إِنَّمَا يَأْتِيهَا مِنْ بَعْضِ نَوَاحِيهَا لَمَا عَلَا عَلَى الْمَوَاضِعِ الْمُشْرِفَةِ مِنْهَا وَيَقِلُّ مَا يُزْرَعُ فِي الْأَرْضِ. أَلَا تَرَى أَنَّ الَّذِي يُزْرَعُ سَيْحًا^(٩) أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ؟ فَلَا مُطَارٌ هِيَ الَّتِي تُطَبَّقُ الْأَرْضَ، وَرُبَّمَا تَزْرَعُ هَذِهِ الْبَرَارِي الْوَاسِعَةَ وَسُفُوحَ^(١٠) الْجِبَالِ وَذُرَاهَا^(١١)، فَتُغْلَى الْغَلَّةُ الْكَثِيرَةُ، وَبِهَا يَسْقُطُ عَنِ النَّاسِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْبُلْدَانِ مَوْنَةٌ سَيَاقِ الْمَاءِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ، وَمَا يَجْرِي فِي ذَلِكَ بَيْنَهُمْ مِنَ التَّشَاوُجِ وَالتَّظَالُمِ حَتَّى يَسْتَأْثِرَ بِأَلْمَاءِ ذَوُو الْعِرَّةِ وَالْقُوَّةِ وَيُحْرَمَهُ الضَّعْفَاءُ.

١. العادية: الشر والأذى، راجع المحيط في اللغة.

٢. وفي نسخة: واشتدَّ. (هامش المصدر)

٣. في المصدر: «ما يعضُّه».

٤. وفي نسخة بدل: وينبئه، وفي نسخة بدل أخرى: ويشبهه. (هامش المصدر)

٥. الرواء من الغيم: التي فيها ماء كثير، راجع المحيط في اللغة.

٦. في المصدر: «هذا من مطرة رواء تعمُّ بها البلاد»، وفيه ذكر من نسخة: «مطره إذ» بدل «مطرة رواء».

٧. وفي نسخة: ما أكثر. (هامش المصدر)

٨. في بعض النسخ: «يتذمر ويسخط إيثاراً للخسيس قدره على العظيم نفعه، جميلاً محمود العاقبة، وقلة معرفته لعظيم الغناء والمنفعة فيها». (هامش المطبوع)

٩. السيج: الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض، راجع شمس العلوم.

١٠. سفح الجبل: أسفله حيث يسفح (يصب) فيه الماء، وهو مضطجعه، راجع الصحاح.

١١. ذروة كل شيء: أعلاه، والجمع الذرى، راجع لسان العرب.

ثُمَّ إِنَّهُ حِينَ قُدِّرَ أَنْ يَنْحَدِرَ عَلَى الْأَرْضِ انْحِدَاراً جُعِلَ ذَلِكَ قَطْراً شَبِيهاً بِالرَّشِّ^(١) لِيَغُورَ^(٢) فِي قُطْرِ^(٣) الْأَرْضِ^(٤) فَيُزَوِّيهَا، وَلَوْ كَانَ يَسْكُبُهُ انْسِكاباً^(٥) كَانَ يَنْزِلُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَلَا يَغُورُ فِيهَا، ثُمَّ كَانَ يَحْطِمُ الزَّرْعَ الْقَائِمَةَ إِذَا انْدَفَقَ عَلَيْهَا، فَصَارَ يَنْزِلُ نَزْولاً رَقِيقاً^(٦)، فَيُنْبِتُ الْحَبَّ الْمَرْزُوعَ، وَيُحْيِي الْأَرْضَ وَالزَّرْعَ الْقَائِمَ، وَفِي نَزْولِهِ أَيْضاً مَصَالِحٌ أُخْرَى: فَإِنَّهُ يُكَيِّنُ الْأَبْدَانَ، وَيَجْلُو كَدَرَ الْهَوَاءِ فَيَرْتَقِعُ الْوَبَاءُ الْحَادِثُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَغْسِلُ مَا يَسْقُطُ عَلَى الشَّجَرِ وَالزَّرْعِ مِنَ الدَّاءِ الْمُسَمَّى بِالْيَرْقَانِ، إِلَى أَشْبَاهِ هَذَا مِنَ الْمَنَافِعِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَوَلَيْسَ قَدْ يَكُونُ مِنْهُ فِي بَعْضِ السَّنِينَ الضَّرَرُ الْعَظِيمُ الْكَثِيرُ لِشِدَّةِ مَا يَقَعُ مِنْهُ، أَوْ بَرْدٍ يَكُونُ فِيهِ تَحْطُمُ الْغَلَّتِ وَبَخُورَةٌ يُحْدِثُهَا فِي الْهَوَاءِ فَيَوَلَّدُ كَثِيراً مِنَ الْأَمْرَاضِ فِي الْأَبْدَانِ وَالْآفَاتِ فِي الْغَلَّتِ؟ قِيلَ: بَلَى، قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ الْفَرْطُ لِمَا فِيهِ مِنْ صَلَاحِ الْإِنْسَانِ وَكَفِّهِ عَنْ رُكُوبِ الْمَعَاصِي وَالتَّمَادِي فِيهَا، فَيَكُونُ الْمُنْفَعَةُ فِيمَا يَصْلُحُ لَهُ مِنْ دِينِهِ أَرْجَحَ مِمَّا عَسَى أَنْ يُرْزَأَ فِي مَالِهِ.

بيان:

«يعتقبان» أي يأتي كل منهما عقيب صاحبه. و«خسر الهواء» بكسر الصاد المهملة يقال: خسر يوماً أي اشتدَّ برده، وماء خاصر: بارد، وفي أكثر النسخ بالحاء المهملة والسين من خسر أي كل، وهو لا يستقيم إلا بتكلف وتجاوز، وفي بعضها بالحاء المعجمة والطاء المثناة من قولهم: خثر اللبن خثراً إذا غلظ. والبشع: كربه الطعم الذي يأخذ بالحلوق. والقنطار: معيار، ويروى أنه ألف ومائتا أوقية، ويقال: هو مائة وعشرون رطلاً، ويقال: هو ملء مسك الثور ذهباً. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ويذهب له به الصوت» أي يملأ صيت^(٧) كرمه وجوده الآفاق. والذمر: الملامة والتهدد. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ليتفشي» التفشي: الاتساع، والأظهر «ليغشي» بالغين المعجمة كما في بعض النسخ. والحطم: الكسر. والاندفاق: الانصباب. و«اليرقان»: آفة للزرع. وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مما عسى أن يرزأ» من الرزء: المصيبة.

انْظُرْ يَا مُفَضَّلُ إِلَى هَذِهِ الْجِبَالِ الْمَرْكُومَةِ^(٨) مِنَ الطِّينِ وَالْحِجَارَةِ الَّتِي يَحْسِبُهَا الْغَافِلُونَ فَضْلاً لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا،

١. رش الماء: صبّه قليلاً قليلاً، راجع مجمع البحرين.

٢. غار الماء: ذهب في الأرض وسفل فيها، راجع لسان العرب.

٣. القطر: الناحية والجانب، راجع لسان العرب.

٤. في المصدر: «في قعر الأرض».

٥. السكب: صب الماء، راجع لسان العرب.

٦. في المصدر: «رقيقاً».

٧. الصيت: الذكر الحسن، راجع لسان العرب.

٨. ركم الشيء: إذا جمعه وألقى بعضه على بعض، راجع لسان العرب.

وَالْمَنَافِعُ فِيهَا كَثِيرَةٌ، فَمِنْ ذَلِكَ: أَنْ يَسْقُطَ عَلَيْهَا الثَّلُوجُ فَيَبْقَى فِي قَلَالِهَا^(١) لِمَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَيَذُوبُ مَا ذَابَ مِنْهُ فَتَجْرِي مِنْهُ الْعُيُونُ الْغَزِيرَةُ الَّتِي تَجْتَمِعُ مِنْهَا الْأَنْهَارُ الْعِظَامُ، وَيَنْبُتُ فِيهَا ضُرُوبٌ مِنَ النَّبَاتِ وَالْعَقَاقِيرِ الَّتِي لَا يَنْبُتُ مِثْلُهَا فِي السَّهْلِ^(٢)، وَيَكُونُ فِيهَا كُهُوفٌ^(٣) وَمَقَائِلُ لِلْوُحُوشِ مِنَ السَّبَاعِ الْعَادِيَةِ^(٤) وَيَتَّخَذُ مِنْهَا الْحُصُونُ وَالْقِلَاعُ الْمُنْبَعَةُ لِلتَّحَرُّزِ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَيُنَحَّتْ مِنْهَا الْحِجَارَةُ لِلْبِنَاءِ وَالْأَرْحَاءِ^(٥) وَيُوجَدُ فِيهَا مَعَادِنُ لِضُرُوبٍ مِنَ الْجَوَاهِرِ، وَفِيهَا خِلَالٌ أُخْرَى لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا الْمُقَدِّرُ لَهَا فِي سَابِقِ عِلْمِهِ.

تفسير:

«المقاييل»: في بعض النسخ بالقاف وكأنه من القيلولة، وفي بعضها بالغين ولعله من الغيل: الشجر الملتف، وفي بعض كتب اللغة: المغالة: العُش، وفي بعض النسخ معاقل جمع المعقل وهو الملجأ.

فَكَرَّ يَا مُفَضَّلُ فِي هَذِهِ الْمَعَادِنِ وَمَا يُخْرَجُ مِنْهَا مِنَ الْجَوَاهِرِ الْمُخْتَلِفَةِ مِثْلَ الْبَصِّ وَالْكِلْسِ وَالْجَنَسِ وَالزَّرَانِيخِ وَالْمَرْتَكِ وَالْقُونِيَا وَالزُّبَيْتِي وَالنُّحَاسِ وَالرَّصَاصِ وَالْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ وَالزَّبَرْجَدِ وَالْيَاقُوتِ وَالزُّمُرُّدِ وَضُرُوبِ الْحِجَارَةِ، وَكَذَلِكَ مَا يُخْرَجُ مِنْهَا مِنَ الْقَارِ وَالْمُومِيَا وَالْكِبْرِيَّتِ وَالنُّفْطِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَسْتَعْمِلُهُ النَّاسُ فِي مَآرِبِهِمْ، فَهَلْ يَخْفَى عَلَى ذِي عَقْلٍ أَنَّ هَذِهِ كُلَّهَا دَخَائِرُ دُخْرَتْ لِلْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ لِيَسْتَخْرِجَهَا فَيَسْتَعْمِلَهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا؟ ثُمَّ قَصُرَتْ حِيلَةُ النَّاسِ عَمَّا حَاوَلُوا مِنْ صَنْعَتِهَا عَلَى حِرْصِهِمْ وَاجْتِهَادِهِمْ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ لَوْ ظَفَرُوا بِمَا حَاوَلُوا مِنْ هَذَا الْعِلْمِ كَانَ لَا مَحَالَةَ سَيَظْهَرُ وَيَسْتَفِيضُ فِي الْعَالَمِ حَتَّى تَكْثُرَ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَيَسْقُطَا عِنْدَ النَّاسِ، فَلَا يَكُونُ لَهُمَا قِيَمَةٌ وَيَبْطُلَ الْإِثْتِفَاعُ بِهِمَا فِي الشَّرَاءِ وَالْبَيْعِ وَالْمُعَامَلَاتِ، وَلَا كَانَ يَجْبِي السُّلْطَانُ الْأَمْوَالَ، وَلَا يَدَّخِرُهَا أَحَدٌ لِلْأَعْقَابِ، وَقَدْ أُعْطِيَ النَّاسُ مَعَ هَذَا صَنْعَةُ الشَّبَبِ مِنَ النُّحَاسِ وَالزُّجَاجِ مِنَ الرَّمْلِ، وَالْفِضَّةِ مِنَ الرَّصَاصِ، وَالذَّهَبِ مِنَ الْفِضَّةِ، وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ مِمَّا لَا مَضَرَّةَ فِيهِ.

فَانْظُرْ كَيْفَ أُعْطُوا إِرَادَتَهُمْ فِيمَا لَا ضَرَرَ فِيهِ، وَمِيعُوا ذَلِكَ فِيمَا كَانَ ضَارًّا لَهُمْ لَوْ نَالُوهُ، وَمَنْ أَوْغَلَ فِي الْمَعَادِنِ انْتَهَى إِلَى وَادٍ عَظِيمٍ يَجْرِي مُنْصَلِتًا بِمَاءٍ غَزِيرٍ، لَا يَدْرِكُ غَوْرَهُ وَلَا حِيلَةَ فِي عُبُورِهِ وَمِنْ وَرَائِهِ أُمُثَالُ الْجِبَالِ مِنَ الْفِضَّةِ^(٦).

تَفَكَّرِ الْآنَ فِي هَذَا مِنْ تَدْبِيرِ الْخَالِقِ الْحَكِيمِ فَإِنَّهُ أَرَادَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنْ يَرِيَ الْعِبَادَ قُدْرَتَهُ وَسَعَةَ خَزَائِنِهِ، لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ لَوْ

١. قلة الجبل: أعلاه، والجمع قلال، راجع المصباح المنير.

٢. السهل: تقيض الجبل، راجع الصحاح.

٣. الكهف: الغار في الجبل، وجمعه كهوف، راجع شمس العلوم.

٤. وفي نسخة: العاوية، وفي نسخة بدل: الغاوية. (هامش المصدر)

٥. الرحي: التي يطحن بها والجمع أرحاء، راجع لسان العرب.

٦. نقول: بمعنى وجود معادن كثيرة من الفضة فيها.

شَاءَ أَنْ يَمْنَحَهُمْ كَالْجِبَالِ مِنَ الْفِضَّةِ لَفَعَلَ، لَكِنْ لَا صَلَاحَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ فَيَكُونُ فِيهَا كَمَا ذَكَرْنَا سُقُوطُ هَذَا الْجَوْهَرِ عِنْدَ النَّاسِ وَقَلَّةُ انْتِفَاعِهِمْ بِهِ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِأَنَّهُ قَدْ يَظْهَرُ الشَّيْءُ الطَّرِيفُ^(١) (٢) مِمَّا يُخْدِثُهُ النَّاسُ مِنَ الْأَوَانِي وَالْأُمْتِنَةِ، فَمَا دَامَ عَزِيزًا قَلِيلًا فَهُوَ نَفِيسٌ جَلِيلٌ آخِذُ الثَّمَنِ، فَإِذَا فَشَا وَكَثُرَ فِي أَيْدِي النَّاسِ سَقَطَ عَنْهُمْ وَخَسَتْ قِيَمَتُهُ، وَنَفَاسَةُ الْأَشْيَاءِ مِنْ عِزَّتِهَا.

بيان:

«الكلس» بالكسر: الصاروج. و«الجبس» بالكسر: الجص، وفي أكثر النسخ «الجبيين» ولم أجده فيما عندنا من كتب اللغة، لكن في كتب الطب كما في أكثر النسخ. و«المرتك» كمقعد: المراد اسنج^(٣). و«القونيا» بالباء الموحدة أو الياء المثناة من تحت ولم أجدهما في كتب اللغة، لكن في القاموس: القونة: القطعة من الحديد أو الصفر يُرْقَعُ بها الإناء، وفي بعض النسخ «والتوتياء»، وفي كتب اللغة: أنه حجر يكتحل به^(٤). و«القار»: القير. وجبى الخراج جباية: جمعه. و«الإيغال»: المبالغة في الدخول والذهاب. وانصلت: مضى وسبق.

فَكَرَّ يَا مُفَضَّلُ فِي هَذَا النَّبَاتِ وَمَا فِيهِ مِنْ ضُرُوبِ الْمَارِبِ، فَالْتِمَارُ لِلْغِذَاءِ، وَالْأَثْبَانُ^(٥) لِلْعَلْفِ، وَالْحَطَبُ لِلْوُقُودِ، وَالْخَشَبُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ التِّجَارَةِ وَغَيْرِهَا، وَاللِّحَاءُ وَالْوَرَقُ وَالْأُصُولُ وَالْعُرُوقُ وَالصُّمُوعُ^(٦) لِضُرُوبٍ مِنَ الْمَنَافِعِ. أَرَأَيْتَ لَوْ كُنَّا نَجِدُ الثَّمَارَ الَّتِي نَعْتَذِي بِهَا مَجْمُوعَةً عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَلَمْ تَكُنْ تَنْبُتُ عَلَى هَذِهِ الْأَغْصَانِ الْحَامِلَةِ لَهَا كَمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَيْنَا مِنَ الْخَلَلِ فِي مَعَاشِنَا، وَإِنْ كَانَ الْغِذَاءُ مَوْجُودًا؟ فَإِنَّ الْمَنَافِعَ بِالْخَشَبِ وَالْحَطَبِ وَالْأَثْبَانِ وَسَائِرِ مَا عَدَدْنَاهُ كَثِيرَةً عَظِيمَةً قَدَرُهَا، جَلِيلٌ مَوْقِعُهَا؛ هَذَا مَعَ مَا فِي النَّبَاتِ مِنَ التَّلَذُّدِ بِحُسْنِ مَنْظَرِهِ وَنَضَارَتِهِ الَّتِي لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ مِنْ مَنَاطِرِ الْعَالَمِ وَمَلَاهِيهِ.

بيان:

لحاء الشجرة بالكسر: قشرها.

١. في بعض النسخ: الطريف. (هامش المصدر)

٢. الطريف: الشيء المعجب، راجع شمس العلوم.

٣. المراد اسنج: الرصاص المحرق، وقد يتخذ من سائر المعادن المطبوعة إلا الحديد، وهو معرّب «مُردار سَنَگ» ومعناه الحجر الميت، راجع الطراز الأول.

٤. نقل في كتب الطب عن الشيخ أنه قال: أصل التوتيا دخان يرتفع حيث يخلص النحاس من الحجارة التي تخالطه، والآتاك الذي يخالطه، وربما سعد الإقليميا فكان مصعده توتيا جيدا، ورسوبه قليميا. (هامش المطبوع)

٥. التين: عصفية الزرع [هو ما على حب الحنطة ونحوها]، راجع لسان العرب.

٦. الصمغ: هو شيء ينضحه الشجر ويسيل منها، راجع لسان العرب.

فَكُرِّ يَا مُفَضَّلُ فِي هَذَا الرَّيْعِ ^(١) الَّذِي جُعِلَ فِي الزَّرْعِ، فَصَارَتْ الْحَبَّةُ الْوَاحِدَةُ تُخْلَفُ ^(٢) مِائَةَ حَبَّةٍ وَأَكْثَرَ وَأَقْلَ، وَكَانَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْحَبَّةُ تَأْتِي بِمِثْلِهَا، فَلِمَ صَارَتْ تَرِيْعُ هَذَا الرَّيْعِ إِلَّا لِيَكُونَ فِي الْعَلَّةِ مَتَسَعٌ لِمَا يَرُدُّ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْبَذْرِ، وَمَا يَنْقَوْتُ الزَّرْعُ إِلَى إِدْرَاكِ زَرْعِهَا الْمُسْتَقْبَلِ؟

أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَلِكَ لَوْ أَرَادَ عِمَارَةَ بَلَدٍ مِنَ الْبُلْدَانِ كَانَ السَّبِيلُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُعْطِيَ أَهْلَهُ مَا يَنْدُرُونَهُ فِي أَرْضِهِمْ، وَمَا يَقْوَتْهُمْ إِلَى إِدْرَاكِ زَرْعِهِمْ؟ فَانْظُرْ كَيْفَ تَجِدُ هَذَا الْمِثَالَ قَدْ تَقَدَّمَ فِي تَدْبِيرِ الْحَكِيمِ، فَصَارَ الزَّرْعُ يَرِيْعُ هَذَا الرَّيْعَ لِيَنْفِي بِمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ لِلْقَوْتِ وَالزَّرَاعَةِ، وَكَذَلِكَ الشَّجَرُ وَالنَّبْتُ وَالنَّخْلُ يَرِيْعُ الرَّيْعَ الْكَثِيرَ، فَإِنَّكَ تَرَى الْأَصْلَ الْوَاحِدَ حَوْلَهُ مِنْ فِرَاحِهِ أَمْرًا عَظِيمًا، فَلِمَ كَانَ كَذَلِكَ إِلَّا لِيَكُونَ فِيهِ مَا يَقْطَعُهُ النَّاسُ وَيَسْتَعْمِلُونَهُ فِي مَآرِبِهِمْ وَمَا يَرُدُّ قَيْعَرُسُ فِي الْأَرْضِ؟ وَلَوْ كَانَ الْأَصْلُ مِنْهُ يَبْقَى مُنْقَرِدًا لَا يَفْرِحُ وَلَا يَرِيْعُ لِمَا أُمِكنَ أَنْ يَقْطَعَ مِنْهُ شَيْءٌ لِعَمَلٍ وَلَا لِعَرْسٍ، ثُمَّ كَانَ إِنْ أَصَابَتْهُ آفَةٌ انْقَطَعَ أَصْلُهُ فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ خَلْفٌ.

تَأْمَلْ نَبَاتَ هَذِهِ الْحُبُوبِ مِنَ الْعَدَسِ وَالْمَاشِ وَالْبَاقِلَاءِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَإِنَّهَا تَخْرُجُ فِي أَوْعِيَةٍ مِثْلِ الْخَرَائِطِ ^(٣) لِتَصُونَهَا وَتَحْجُبَهَا مِنَ الْآفَاتِ إِلَى أَنْ تَشُدَّ وَتَسْتَحْكِمَ، كَمَا قَدْ تَكُونُ الْمَشِيمَةُ عَلَى الْجَنِينِ لِهَذَا الْمَعْنَى بِعَيْنِهِ؛ فَأَمَّا الْبُرُّ ^(٤) وَمَا أَشْبَهَهُ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مُدْرَجًا فِي قُشُورِ صِلَابٍ عَلَى رُؤُوسِهَا مِثَالُ الْأَسِنَّةِ مِنَ السُّبُلِ لِيَنْفَعِ الطَّيْرَ مِنْهُ لِيَتَوَفَّرَ عَلَى الزَّرْعِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَوَلَيْسَ قَدْ يَنَالُ الطَّيْرُ مِنَ الْبُرِّ وَالْحُبُوبِ؟ قِيلَ لَهُ: بَلَى، عَلَى هَذَا قُدِّرَ الْأَمْرُ فِيهَا لِأَنَّ الطَّيْرَ خَلَقَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ فِيهَا تَخْرُجَ الْأَرْضُ حَطًّا، وَلَكِنْ حُضِنَتْ ^(٥) الْحُبُوبُ بِهَذِهِ الْحُجُبِ لئَلَّا يَتِمَكَّنَ الطَّيْرُ مِنْهَا كُلَّ التَّمَكُّنِ، فَيَعْبَثَ فِيهَا وَيُفْسِدَ الْفَسَادَ الْفَاحِشَ، فَإِنَّ الطَّيْرَ لَوْ صَادَفَ الْحَبَّ بَارِزًا لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ يَحُولُ دُونَهُ لَاكْبَبَ عَلَيْهِ حَتَّى يَنْسِفَهُ أَصْلًا، فَكَانَ يَغْرِضُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَنْشَمَ الطَّيْرُ فَيَمُوتَ، وَيَخْرُجَ الزَّرْعُ مِنْ زَرْعِهِ صِفْرًا ^(٦) فَجُعِلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْوَقَابَاتُ لِتَصُونَهُ، فَيَنَالُ الطَّائِرُ مِنْهُ شَيْئًا يَسِيرًا يَنْقَوْتُ بِهِ، وَيَبْقَى أَكْثَرُهُ لِلْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ أُولَى بِهِ إِذَا كَانَ هُوَ الَّذِي كَدَحَ فِيهِ وَشَقِيَ بِهِ، وَكَانَ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الطَّيْرُ.

تَأْمَلِ الْحِكْمَةَ فِي خَلْقِ الشَّجَرِ وَأَصْنَافِ النَّبَاتِ، فَإِنَّهَا لَمَّا كَانَتْ تَحْتَاجُ إِلَى الْغِذَاءِ الدَّائِمِ كَحَاجَةِ الْحَيَوَانِ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا أَفْوَاهُ كَأَفْوَاهِ الْحَيَوَانِ وَلَا حَرَكَةٌ تَنْبَعِثُ بِهَا لِتَتَاوَلَ الْغِذَاءُ، جُعِلَتْ أَصُولُهَا مَرْكُوزَةً فِي الْأَرْضِ ^(٧) لِتَنْزِعَ مِنْهَا الْغِذَاءَ،

١. الريع: النماء والزيادة، راجع لسان العرب.

٢. وفي نسخة: تخلق. (هامش المصدر)

٣. الخريطة: مثل الكيس تكون من الخرق والأدم، راجع لسان العرب.

٤. البر: الحنطة، راجع لسان العرب.

٥. في المصدر: «حصنت».

٦. الصفر: الشيء الخالي، راجع لسان العرب.

٧. مركزوز في الأرض: ثابت، راجع لسان العرب.

فَتَوَدَّيْهِ إِلَى الْأَعْصَانِ وَمَا عَلَيْهَا مِنَ الْوَرَقِ وَالشَّمْرِ، فَصَارَتْ الْأَرْضُ كَالْأَمِّ الْمُرَبَّيَّةِ لَهَا، وَصَارَتْ أَصُولُهَا الَّتِي هِيَ كَالْأَفْوَاهِ مُلْتَقِمَةً لِلْأَرْضِ^(١) لَتَنْزِعَ مِنْهَا الْغِذَاءَ، كَمَا يُرْضِعُ أَصْنَافَ الْحَيَوَانِ أُمَّهَاتُهَا.

أَلَا تَرَى إِلَى عَمَدِ الْفَسَاطِيطِ^(٢) وَالْخِيَمِ كَيْفَ تَمُدُّ بِالْأَطْنَابِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، لِتَثْبُتَ مُنْتَصِبَةً فَلَا تَسْقُطَ وَلَا تَمِيلَ؟ فَهَكَذَا تَجِدُ النَّبَاتَ كُلَّهُ لَهُ عُرُوقٌ مُنْتَشِرَةٌ فِي الْأَرْضِ مُمْتَدَّةٌ إِلَى كُلِّ جَانِبٍ لِتُمْسِكَهُ وَتُقِيمَهُ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ كَيْفَ كَانَ يَثْبُتُ هَذَا النَّحْلُ الطَّوَالُ وَالِدَّوْحُ الْعِظَامُ فِي الرِّيحِ الْعَاصِفِ؟ فَانْظُرْ إِلَى حِكْمَةِ الْخَلْقَةِ^(٣) كَيْفَ سَبَقَتْ حِكْمَةَ الصَّنَاعَةِ^(٤)، فَصَارَتْ الْحِيلَةُ الَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا الصَّنَاعُ فِي ثَبَاتِ الْفَسَاطِيطِ وَالْخِيَمِ مُتَقَدِّمَةً فِي خَلْقِ الشَّجَرِ، لِأَنَّ خَلْقَ الشَّجَرِ قَبْلَ صَنْعَةِ الْفَسَاطِيطِ وَالْخِيَمِ. أَلَا تَرَى عَمَدَهَا وَعِيدَانَهَا^(٥) مِنَ الشَّجَرِ؟ فَالصَّنَاعَةُ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْخَلْقَةِ.

بيان:

«ينسفه» بالكسر أي يقلعه. وبشم الحيوان بشماً من باب تعب: أُنْخِمَ من كثرة الأكل. والكدح: العمل والسعي. والشقا: الشدة والعسر، «شقي» كرضي. و«الدوح» بفتح الدال وسكون الواو جمع الدوحة: وهي الشجرة العظيمة.

تَأَمَّلْ يَا مُفْضِلُ خَلْقَ الْوَرَقِ، فَإِنَّكَ تَرَى فِي الْوَرَقَةِ شِبْهَ الْعُرُوقِ مَبْنُوتَةً فِيهَا أَجْمَعُ، فَمِنْهَا غِلَاطٌ مُمْتَدَّةٌ فِي طُولِهَا وَعَرْضِهَا، وَمِنْهَا دِقَاقٌ تَتَخَلَّلُ الْغِلَاطُ مَسْجُوجَةً نَسْجاً دَقِيقاً مُعْجَماً، لَوْ كَانَ مِمَّا يُصْنَعُ بِالْأَيْدِي كَصَنْعَةِ الْبَشَرِ لَمَا فُرِغَ مِنْ وَرَقِ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ فِي عَامٍ كَامِلٍ، وَلَا حَتِيحَ إِلَى آلَاتٍ وَحَرَكَاتٍ وَعِلَاجٍ وَكَلَامٍ، فَصَارَ يَأْتِي مِنْهُ فِي أَيَّامٍ قَلِيلٍ مِنَ الرَّبِيعِ مَا يَمَلَأُ الْجِبَالَ وَالسَّهْلَ وَيَقَاعَ الْأَرْضِ كُلَّهَا بِلَا حَرَكَاتٍ وَلَا كَلَامٍ إِلَّا بِالْإِزَادَةِ النَّافِذَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَالْأَمْرِ الْمُطَاعِ. وَاعْرِفْ مَعَ ذَلِكَ الْعِلَّةَ فِي تِلْكَ الْعُرُوقِ الدَّقَاقِ، فَإِنَّهَا جُعِلَتْ تَتَخَلَّلُ الْوَرَقَةَ بِأَسْرِهَا لِتَسْقِيَهَا وَتُوصِلَ الْمَاءَ^(٦) إِلَيْهَا بِمَنْزِلَةِ الْعُرُوقِ الْمَبْنُوتَةِ فِي الْبَدَنِ لِتُوصِلَ الْغِذَاءَ إِلَى كُلِّ جُزْءٍ مِنْهَا، وَفِي الْغِلَاطِ مِنْهَا مَعْنَى آخَرُ؛ فَإِنَّهَا تُمْسِكُ الْوَرَقَةَ بِصَلَابَتِهَا وَمِتَانَتِهَا لئَلَّا تَنْهَتِكَ وَتَتَمَرَّقَ، فَتَرَى الْوَرَقَةَ شَبِيهَةً بِوَرَقَةِ مَعْمُولَةٍ بِالصَّنْعَةِ مِنْ خَرَقٍ قَدْ جُعِلَتْ فِيهَا عِيدَانٌ مَمْدُودَةٌ فِي طُولِهَا وَعَرْضِهَا لِتَتَمَاسَكَ فَلَا تَضْطَرِبَ، فَالصَّنَاعَةُ تَحْكِي الْخَلْقَةَ وَإِنْ كَانَتْ لَا تُدْرِكُهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ. فَكَّرْ فِي هَذَا الْعَجَمِ^(٧) وَالنَّوَى وَالْعِلَّةِ فِيهِ، فَإِنَّهُ جُعِلَ فِي جَوْفِ الثَّمَرَةِ^(٨) لِيَقُومَ مَقَامَ الْغَرَسِ إِنْ عَاقَ دُونَ الْغَرَسِ

١. التفقت اللقمة: إذا ابتلعته، راجع لسان العرب.

٢. الفسقاط: الخيمة العظيمة، راجع المغرب.

٣. وفي نسخة: حكمة الخالق. (هامش المصدر)

٤. وفي نسخة: الصانع. (هامش المصدر)

٥. العود: الخشب، وجمعه عيدان، راجع المصباح المنير.

٦. وفي بعض النسخ: المادّة. (هامش المصدر)

٧. العجم: النوى وكل ما كان في جوف مأكول من الفواكه، راجع شمس العلوم.

٨. وفي بعض النسخ: الثمرة. (هامش المصدر)

عَائِقُ، كَمَا يُحْزَرُ الشَّيْءُ النَّفِيسُ الَّذِي تَعْظُمُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ، فَإِنْ حَدَثَ عَلَى الَّذِي فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ مِنْهُ حَادِثٌ وَجَدَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، ثُمَّ بَعْدُ يُمَسِّكُ بِصَلَاتِهِ رَحَاوَةَ الثَّمَارِ وَرِقَّتَهَا، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَتَشَدَّخَتْ وَتَفَسَّخَتْ وَأَسْرَعَ إِلَيْهِ الْفَسَادُ، وَبَعْضُهُ^(١) يُؤْكَلُ وَيُسْتَخْرَجُ دُهْنُهُ فَيُسْتَعْمَلُ مِنْهُ ضُرُوبٌ مِنَ الْمَصَالِحِ، وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مَوْضِعُ الْإِرْبِ فِي الْعَجَمِ وَالنَّوَى.

فَكَرِ الْآنَ فِي هَذَا الَّذِي تَجِدُهُ فَوْقَ النَّوَاةِ مِنَ الرِّطْبَةِ وَفَوْقَ الْعَجَمِ مِنَ الْعِنَبَةِ، فَمَا الْعِلَّةُ فِيهِ؟ وَلِمَاذَا يَخْرُجُ فِي هَذِهِ الْهَيْئَةِ؟ وَقَدْ كَانَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مَكَانَ ذَلِكَ مَا لَيْسَ فِيهِ مَا كُلُّ كَمَثَلِ مَا يَكُونُ فِي السَّرْوِ^(٢) وَالذَّلْبِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَلِمَ صَارَ يَخْرُجُ فَوْقَهُ هَذِهِ الْمَطَاعِمُ اللَّذِيذَةُ إِلَّا لِيَسْتَمْتَعَ بِهَا الْإِنْسَانُ؟

فَكَرِ فِي ضُرُوبٍ مِنَ التَّدْبِيرِ فِي الشَّجَرِ فَإِنَّكَ تَرَاهُ يَمُوتُ فِي كُلِّ سَنَةٍ مَوْتَةً، فَيَحْتَسِسُ الْحَرَارَةُ الْغَرِيزِيَّةَ فِي عُوْدِهِ وَيَتَوَلَّدُ فِيهِ مَوَادُّ الثَّمَارِ، ثُمَّ تَحْيَى وَتَنْتَشِرُ فَتَأْتِيكَ بِهِذِهِ الْفَوَاكِهُ نَوْعًا بَعْدَ نَوْعٍ كَمَا تَقْدَمُ إِلَيْكَ أَنْوَاعُ الْأَطْبَخَةِ^(٣) الَّتِي تُعَالَجُ بِالْأَيْدِي وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، فَتَرَى الْأَعْصَانَ فِي الشَّجَرِ تَتَلَقَّأُ بِثَمَارِهَا حَتَّى كَانَتْهَا تُنَاوِلُكَهَا عَنْ يَدٍ، وَتَرَى الرِّيَّاحِينَ تَلَقَّأُكَ فِي أَفْئَانِهَا^(٤) كَانَتْهَا تَجِيئُكَ^(٥) بِأَنْفُسِهَا، فَلِمَنْ هَذَا التَّقْدِيرُ إِلَّا لِمُقَدَّرٍ حَكِيمٍ؟ وَمَا الْعِلَّةُ فِيهِ إِلَّا تَفْكِيهِ^(٦) الْإِنْسَانَ بِهَذِهِ الثَّمَارِ وَالْأَنْوَارِ؟ وَالْعَجَبُ مِنْ أَنَاكِ جَعَلُوا مَكَانَ الشُّكْرِ عَلَى النِّعْمَةِ جُحُودَ الْمُنْعَمِ بِهَا!

اعْتَبِرْ بِخَلْقِ الرُّمَّانَةِ وَمَا تَرَى فِيهَا مِنْ أَثَرِ الْعَمَدِ وَالتَّدْبِيرِ، فَإِنَّكَ تَرَى فِيهَا كَأَمْثَالِ التَّلَالِ مِنْ شَحْمٍ مَرْكُومٍ فِي نَوَاحِيهَا، وَحَبًّا مَرْصُوفًا رَصْفًا^(٧) كَنَحْوِ مَا يُنْضَدُ^(٨) بِالْأَيْدِي وَتَرَى الْحَبَّ مَقْسُومًا أَقْسَامًا، وَكُلَّ قِسْمٍ مِنْهَا مَلْفُوفًا بِلَفَائِفٍ مِنْ حُجْبٍ مَسْجُوجَةٍ أَعْجَبَ النَّسْجِ وَالطَّفَفَةِ، وَقِشْرُهُ يَضُمُّ ذَلِكَ كُلَّهُ، فَمِنْ التَّدْبِيرِ فِي هَذِهِ الصَّنِيعَةِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَشْوُ الرُّمَّانَةِ مِنَ الْحَبِّ وَحْدَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ الْحَبَّ لَا يَمُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَجُعِلَ ذَلِكَ الشَّحْمُ خِلَالَ الْحَبِّ لِيَمُدَّهُ بِالْعِذَاءِ. أَلَا تَرَى أَنَّ أَصُولَ الْحَبِّ مَرْكُوزَةٌ فِي ذَلِكَ الشَّحْمِ؟ ثُمَّ لَفَّ بِتِلْكَ اللَّفَائِفِ لِتَضُمَّهُ وَتُمَسِّكَهُ فَلَا يَضْطَرِبَ، وَغَشِيَ فَوْقَ ذَلِكَ بِالْقِشْرَةِ الْمُسْتَحْصِنَةَ لِيَصُونَهُ وَيُحْصِنَهُ مِنَ الْآفَاتِ، فَهَذَا قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ وَهِيَ وَصْفُ الرُّمَّانَةِ، وَفِيهِ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا لِمَنْ أَرَادَ الْإِطْنَابَ وَالتَّذَرُّعَ فِي الْكَلَامِ، وَلَكِنْ فِيمَا ذَكَرْتُ لَكَ كِفَايَةً فِي الدَّلَالَةِ وَالِاعْتِبَارِ.

١. لم يرد في بعض النسخ: بعضه. (هامش المصدر)

٢. وفي نسخة: السِّدْر. (هامش المصدر)

٣. في المصدر: «أنواع الأخبصة».

٤. الفن: الغُصْن، وجمعه أفنان، راجع لسان العرب.

٥. وفي نسخة: تهْيِيك. (هامش المصدر)

٦. وفي نسخة بدل: تفكّه. (هامش المصدر)

٧. وفي نسخة: وحبّ مرصوف صفا. (هامش المصدر)

٨. نضد الشيء: جعل بعضه على بعض متسقًا، راجع لسان العرب.

بيان:

قوله عليه السلام: «معجماً» لعل المراد شدة ارتباطها، قال الفيروزآبادي: باب معجم كمكرم: مُقفل. انتهى. ويحتمل أن يكون كناية عن خفائها كقوله صلى الله عليه وسلم: «صلاة النهار عجماء». وقوله عليه السلام: «إن عاق دون الغرس» أي غرس الأغصان «عائق» تغرس النوى بدلها. والشدخ: الكسر والغمز، والمُشدخ هو يُسر يُغمز ويُيبس للشتاء. والدلب بالضم: الصنار. قوله عليه السلام: «فيحتبس الحرارة الغريزية» يدل على أن الحرارة الغريزية لا يختص بالحيوان، بل يوجد في النبات أيضاً كما صرح به جماعة من المحققين. ويقال: رصفت الحجارة في البناء رصفاً أي ضمنت بعضها إلى بعض. واستحصف: استحكم. و«التذرّع»: كثرة الكلام والإفراط فيه. فَكَّرَ يَا مُفَضِّلُ فِي حَنْلِ الْيَقْطِينِ الضَّعِيفِ مِثْلَ هَذِهِ الثَّمَارِ الثَّقِيلَةِ مِنَ الدُّبَاءِ ^(١) وَالْقَثَاءِ ^(٢) وَالْبَطِيخِ، وَمَا فِي ذَلِكَ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالْحِكْمَةِ، فَإِنَّهُ حِينَ قُدِّرَ أَنْ يَحْتَمِلَ مِثْلَ هَذِهِ الثَّمَارِ جُعِلَ نَبَاتُهُ مُنْبَسِطاً عَلَى الْأَرْضِ، وَلَوْ كَانَ يَنْتَصِبُ قَائِماً كَمَا يَنْتَصِبُ الزَّرْعُ وَالشَّجَرُ لَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْمِلَ مِثْلَ هَذِهِ الثَّمَارِ الثَّقِيلَةِ، وَلَيَنْقُصَ قَبْلَ إِذْرَاكِهَا وَانْتِهَائِهَا إِلَى غَايَتِهَا. فَانْظُرْ كَيْفَ صَارَ يَمْتَدُّ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لِيُلْقِيَ عَلَيْهَا ثِمَارَهَا فَتَحْمِلَهَا عَنْهُ فَتَرَى الْأَصْلَ مِنَ الْقَرْعِ وَالْبَطِيخِ مُقْتَرِشاً لِلْأَرْضِ، ثِمَارَهُ مَبْنُوثةً عَلَيْهَا وَحَوَالِيهِ كَأَنَّهُ هَرَّةٌ مُمْتَدَّةٌ وَقَدْ اكْتَنَفَتْهَا أَجْرَاؤُهَا ^(٣) لَتَرْضَعَ مِنْهَا.

وَانْظُرْ كَيْفَ صَارَتْ الْأَصْنَافُ تُوَافِي فِي الْوَقْتِ الْمُشَاكِلِ ^(٤) لَهَا مِنْ حَمَارَةِ الصَّيْفِ وَوَقْدَةِ الْحَرِّ فَتَلْقَاهَا النَّفُوسُ بِإِنْشِرَاحٍ وَتَشْوِيقٍ إِلَيْهَا، وَلَوْ كَانَتْ تُوَافِي فِي الشِّتَاءِ لَوَافَقَتْ مِنَ النَّاسِ كَرَاهَةً لَهَا وَافْشِعْزَاراً مِنْهَا مَعَ مَا يَكُونُ فِيهَا مِنَ الْمَضَرَّةِ لِلْأَبْدَانِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ رُبَّمَا أَدْرَكَ شَيْءٌ مِنَ الْخِيَارِ فِي الشِّتَاءِ فَيَمْتَنِعُ النَّاسُ مِنْ أَكْلِهِ إِلَّا الشَّرَّهَ الَّذِي لَا يَمْتَنِعُ مِنْ أَكْلٍ مَا يَصْرُهُ وَلَيْسَتْوَخِمُ مَعْبَتُهُ ^(٥)؟

توضيح:

قال الفيروزآبادي: اليقطين: ما لا ساق له من النبات ونحوه. والقصف: الكسر. وقال الجوهري: الجرو والجُرو والجرو: ولد الكلب والسباع، والجمع أجُرٌّ، وأصله أجرو على أفعْل، وجراء، وجمع الجراء أجرية والجُرو والجرو الصغير من القثاء. انتهى. و«الحمارة» بتخفيف الميم وتشديد الراء وقد يخفف في الشعر: شدة الحر. وفي الأساس: ما لي أراك تشرح إلى كل رتبة، وهو إظهار الرغبة إليها، وفيه: هو شره العين يطمع في كل ما يراه يرمي نفسه عليه ويتمناه. انتهى. واستوخمه: لم يجده مريئاً موافقاً. و«المغبّة»: العاقبة.

١. الدباء: القَرْع (حمل اليقطين)، راجع القاموس المحيط.

٢. القثاء: الخيار، راجع لسان العرب.

٣. في المصدر: «جراؤها».

٤. المُشَاكِل من الأمور: ما وافق فاعله ونظيره، راجع لسان العرب.

٥. وفي نسخة: «يستوخم مغيبه، وفي نسخة بدل: يستوخم معدته، وفي نسخة أخرى: ويسقم معدته. (هامش المصدر)

فَكَرَّ يَا مُفَضَّلُ فِي النَّحْلِ فَإِنَّهُ لَمَّا صَارَ فِيهِ إِبَاطٌ يَخْتِاجُ إِلَى التَّلْقِيحِ، جُعِلَتْ فِيهِ ذُكُورَةٌ لِلْقَاحِ مِنْ غَيْرِ غِرَاسٍ، فَصَارَ الذَّكَرُ مِنَ النَّحْلِ بِمَنْزِلَةِ الذَّكَرِ مِنَ الْحَيَوَانِ الَّذِي يُلْقِحُ الْإِنَاثَ لِتَحْمِلَ وَهُوَ لَا يَحْمِلُ.
تَأَمَّلْ خِلْقَةَ الْجَدْعِ^(١) كَيْفَ هُوَ، فَإِنَّكَ تَرَاهُ كَالْمُنْسُوجِ نَسْجاً مِنْ غَيْرِ خِيوطٍ^(٢) مَمْدُودَةٍ كَالسَّدى^(٣)، وَأُخْرَى مَعَهُ مُعَرَّضَةٌ كَاللَّحْمَةِ^(٤) كَنَحْوِ مَا يُنْسَجُ بِالْأَيْدِي، وَذَلِكَ لِتَشَدِّدٍ وَيَصْلُبٍ وَلَا يَنْقُصُ^(٥) مِنْ حَمْلِ الْقُنُونِ^(٦) الثَّقِيلَةِ، وَهَرَزَ الرِّيَّاحِ الْعَوَاصِبِ^(٧) إِذَا صَارَ نَحْلَةً، وَلِيَتَهَيَّأَ لِلشَّقُوفِ وَالْجُسُورِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَّخِذُ مِنْهُ إِذَا صَارَ جَدْعاً؛ وَكَذَلِكَ تَرَى الْخَشَبَ مِثْلَ النَّسِجِ فَإِنَّكَ تَرَى بَعْضَهُ مَدَاخِلًا بَعْضاً طَوَّلاً وَعَرَضاً كَتَدَاخِلِ أَجْزَاءِ اللَّحْمِ، وَفِيهِ مَعَ ذَلِكَ مَتَانَةٌ لِيَصْلَحَ لِمَا يَتَّخِذُ مِنْهُ مِنَ الْأَلَاتِ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُسْتَحْصِفاً^(٨) كَالْحِجَارَةِ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي الشَّقُوفِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ الْخَشَبَةُ كَالْأَبْوَابِ وَالْأَسْرَةِ^(٩) وَالتَّوَابِيَتِ وَمَا أَشَبَّهُ ذَلِكَ، وَمِنْ جَسِيمِ الْمَصَالِحِ فِي الْخَشَبِ أَنَّهُ يَطْفُو عَلَى الْمَاءِ فَكُلُّ النَّاسِ يَعْرِفُ هَذَا مِنْهُ وَلَيْسَ كُلُّهُمْ يَعْرِفُ جَلَالَتهِ الْأَمْرِ فِيهِ. فَلَوْ لَا هَذِهِ الْخَلَّةُ كَيْفَ كَانَتْ هَذِهِ السُّفُنُ وَالْأَطْرَافُ^(١٠) تَحْمِلُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ مِنَ الْحَمُولَةِ، وَأَنَّى كَانَ يَنَالُ النَّاسُ هَذَا الْوَفْقَ^(١١) وَخَفَّةَ الْمُؤُونَةِ فِي حَمْلِ التَّجَارَاتِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ؟ وَكَانَتْ تَعْظُمُ الْمُؤُونَةُ عَلَيْهِمْ فِي حَمْلِهَا حَتَّى يُلْقَى كَثِيرٌ مِمَّا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ مَفْقُوداً أَصْلاً أَوْ عُسْراً وَجُودَهُ. فَكَرَّرَ فِي هَذِهِ الْعَقَاقِيرِ وَمَا خُصَّ بِهَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ الْعَمَلِ فِي بَعْضِ الْأَدْوَاءِ، فَهَذَا يَغُورُ فِي الْمَفَاصِلِ فَيَسْتَخْرِجُ الْفُضُولَ الْعَلِيظَةَ مِثْلَ الشَّيْطَرَجِ^(١٢)، وَهَذَا يَنْزِفُ الْمِرَّةَ السَّودَاءَ مِثْلَ الْأَفْتِيمُونِ^(١٣)، وَهَذَا يَنْفِي الرِّيَّاحَ مِثْلَ السَّكِينِجِ^(١٤).

١. الجدع: ساق النحلة، راجع المصباح المنير.

٢. في المصدر: «من خيوط».

٣. السدى من الثوب: خلاف اللحمه وهو ما يمدد طولاً في النسج، راجع المصباح المنير.

٤. لحمه الثوب: ما يُنسج عرضاً، راجع المصباح المنير.

٥. إنقص: انكسر، راجع لسان العرب.

٦. القنن: العذق (العنقود من النحلة والعنب)، وجمعه قنن، راجع شمس العلوم.

٧. في المصدر: «العواصف».

٨. استحصف الشيء: استحكم، راجع لسان العرب.

٩. السريير: المضطجع، والجمع أسرة، راجع لسان العرب.

١٠. في المصدر: «الأطواف»، وفيه ذكر من نسخة: «الأطراف».

١١. في المصدر: «هذا الرفق».

١٢. وفي كتب الطب أَنَّهُ يزيل الطحال أكلاً وضماً أيضاً، وتعليقه على الأذن الوجعة يسكن وجعها. (هامش المطبوع)

١٣. وله منافع أخرى معدودة في كتب الطب كإسهاله البلغم والصفراء، ونفعه من الصرع والتشنج الامتلائي، والنفخ وأصحاب السرطان والجرب وغير ذلك، كما أَنَّ للسكِينِجِ منافع أخرى مبيّنة في محله. (هامش المطبوع)

١٤. السكِينِجِ: ينفع من الفالج ومن هتك العضل وأوجاع المفاصل الباردة، ويسهل المادة التي في الوركين والأعضاء ويحلل الصّداع البارد والريح، راجع بحر الجواهر.

وَهَذَا يُحْلِلُ الْأَوْزَامَ وَأَشْبَاهَ هَذَا مِنْ أفعالِهَا، فَمَنْ جَعَلَ هَذِهِ الْقُوَى فِيهَا إِلَّا مَنْ خَلَقَهَا لِلْمَنْفَعَةِ؟ وَمَنْ فَطَنَ النَّاسَ بِهَا إِلَّا مَنْ جَعَلَ هَذَا فِيهَا؟ وَمَتَى كَانَ يُوقَفُ عَلَى هَذَا مِنْهَا بِالْعَرَضِ وَالِاتِّفَاقِ كَمَا قَالَ قَائِلُونَ؟ وَهَبِ الْإِنْسَانَ فَطَنَ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ بِذِهْنِهِ وَلَطِيفِ رَوْيَتِهِ^(١) وَتَجَارِبِهِ فَالْبَهَائِمُ كَيْفَ فَطَنَتْ لَهَا؟ حَتَّى صَارَ بَعْضُ السَّبَاعِ يَنْدَاوِي مِنْ جِرَاحَةٍ إِنْ أَصَابَتْهُ بِبَعْضِ الْعَقَاقِيرِ فَيَبْرَأُ، وَبَعْضُ الطَّيْرِ يَحْتَقِنُ مِنَ الْحُصْرِ يُصِيبُهُ بِمَاءِ الْبَحْرِ فَيَسْلَمُ، وَأَشْبَاهُ هَذَا كَثِيرٌ. وَلَعَلَّكَ تُشْكُّ^(٢) فِي هَذَا النَّبَاتِ النَّائِبِ فِي الصَّحَارِي وَالْبَرَارِي حَيْثُ لَا أَنْسَ وَلَا أَنْيسَ فَتَظُنُّ أَنَّهُ فَضْلٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ هُوَ طَعْمٌ لِهَذِهِ الْوُحُوشِ، وَحَبُّهُ عَلْفٌ لِلطَّيْرِ، وَعُودُهُ وَأَفْنَانُهُ حَطَبٌ فَيَسْتَعْمِلُهُ النَّاسُ، وَفِيهِ بَعْدُ أَشْيَاءٌ تُعَالَجُ بِهِ الْأَبْدَانُ، وَأُخْرَى تُدْبَعُ بِهِ الْجُلُودُ، وَأُخْرَى تُصْبَغُ بِهِ الْأُمْتِعَةُ، وَأَشْبَاهُ هَذَا مِنَ الْمَصَالِحِ. أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ أَحْسَنَ النَّبَاتِ وَأَحْقَرَهُ هَذَا الْبُرْدِي^(٣) وَمَا أَشَبَّهَهَا؟ فَفِيهَا مَعَ هَذَا مِنْ ضُرُوبِ الْمَنَافِعِ فَقَدْ يَتَّخِذُ مِنَ الْبُرْدِيِّ الْقَرَّاطِيسُ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْمُلُوكُ وَالسُّوْقَةُ، وَالْحُصْرُ^(٤) الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا كُلُّ صِنْفٍ مِنَ النَّاسِ، وَلَيَعْمَلُ مِنْهُ الْعُلْفُ الَّتِي يُوقَى بِهَا الْأَوَانِي، وَيُجْعَلُ حَشَوًّا بَيْنَ الظُّرُوفِ فِي الْأَسْفَاطِ^{(٥)(٦)} لِكَيْلَا تَعِيبَ وَتَنْكَسِرَ، وَأَشْبَاهُ هَذَا مِنَ الْمَنَافِعِ.

فَاعْتَبِرْ بِمَا تَرَى مِنْ ضُرُوبِ الْمَارِبِ فِي صَغِيرِ الْخَلْقِ وَكَبِيرِهِ وَبِمَا لَهُ قِيَمَةٌ وَمَا لَا قِيَمَةَ لَهُ، وَأَخْسُ مِنْ هَذَا وَأَحْقَرُهُ الزُّبْلُ وَالْعَذَرَةُ الَّتِي اجْتَمَعَتْ فِيهَا الْخَسَاسَةُ وَالنَّجَاسَةُ مَعًا، وَمَوْقِعُهَا مِنَ الزُّرُوعِ وَالْبُقُولِ وَالْخَضِرِ أَجْمَعَ الْمَوْقِعِ الَّذِي لَا يَغْدُلُهُ شَيْءٌ حَتَّى أَنْ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْخَضِرِ لَا يَصْلُحُ وَلَا يَزُكُو إِلَّا بِالزُّبْلِ وَالسَّمَادِ الَّذِي يَسْتَفْذِرُهُ النَّاسُ وَيَكْرَهُونَ الدُّنُوءَ مِنْهُ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ مَنْزِلَةُ الشَّيْءِ عَلَى حَسَبِ قِيَمَتِهِ، بَلْ هُمَا قِيَمَتَانِ مُخْتَلِفَتَانِ بِسُوقَيْنِ، وَرُبَّمَا كَانَ الْخَسِيسُ فِي سَوْقِ الْمُكْتَسَبِ نَفِيسًا فِي سَوْقِ الْعِلْمِ فَلَا تَسْتَصْغِرُ الْعِبْرَةُ فِي الشَّيْءِ لِصِغَرِ قِيَمَتِهِ، فَلَوْ فَطَنُوا طَالِبُوا الْكِيمِيَاءِ لِمَا فِي الْعَذَرَةِ لَاشْتَرَوْهَا بِأَنْفَسِ الْأَنْثَمَانِ وَغَالَوْا بِهَا^(٧).

قَالَ الْمُفَضَّلُ: وَحَانَ وَقْتُ الزَّوَالِ فَقَامَ مَوْلَايَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الصَّلَاةِ وَقَالَ: بَكَرْتُ إِلَيَّ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ فَأَنْصَرَفْتُ وَقَدْ تَضَاعَفَ سُرُورِي بِمَا عَرَفْتِيهِ مُبْتَهَجًا بِمَا آتَانِيهِ، حَامِدًا لِلَّهِ عَلَى مَا مَنَحَنِيهِ، فَبِتُّ لَيْلَتِي مَسْرُورًا.

١. وفي نسخة: رويته. (هامش المصدر)

٢. وفي نسخة بدل: تشكى. (هامش المصدر)

٣. البردي: نبت رخو ينبت في ديار مصر كثيراً، يمضغ أصله كقصب السكر ويتخذ منه القرطاس؛ وقيل: له ورق كخوص النخل، راجع بحر الجواهر.

٤. الحصر: جمع حصير الذي يبسط في البيوت، راجع لسان العرب.

٥. السفط: الذي يعبى فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء، والجمع أسفاط، راجع لسان العرب.

٦. وفي بعض النسخ: الأسباط. (هامش المصدر)

٧. نقول: لا يبعد كشف فوائد مهمة في المستقبل في هذه المواد كما ثبت الفوائد المهمة في الدم الموجود في بعض ما يرتبط بالجنين وأمثاله مما لم تكن قيمة فيه بل كان من الخبائث.

بيان:

قوله عليه السلام: «ليصلح» بيان لما يتحصل مما مرّ لا للمتانة فقط. والنزف: النزح. قوله عليه السلام: «هب الإنسان» أي سلّمنا أنه كذلك. و«الحصر» بالضم: اعتقال البطن. و«السوقة» بالضم: الرعية للواحد والجمع والمذكر والمؤنث. و«الغلف» بضمّة وبضمّتين وكرّك: جمع غلاف. و«الزبل» بالكسر: السرّيق. وقال الفيروز آبادي: السّماذ: السرّيقين برّماذ. وقال الجزري: هو ما يطرح في أصول الزرع والخضر من العذرة والزبل ليجود نباته. أقول: يدلّ ظاهراً على جواز استعمال العذرات النجسة في ذلك، وربما يستدلّ به على تطهير الاستحالة.

المجلس الرابع

قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الرَّابِعُ بَكَرْتُ إِلَى مَوْلَايَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاسْتُوذِنَ لِي فَأَمَرَنِي بِالْجُلُوسِ فَجَلَسْتُ، فَقَالَ: مِمَّا التَّحْمِيدُ وَالتَّسْبِيحُ وَالتَّعْظِيمُ وَالتَّقْدِيسُ لِلَّاسْمِ الْأَقْدَمِ^(١)، وَالتُّورِ الْأَعْظَمِ الْعَلِيِّ الْعَلَامِ، ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَمُنْشِئِ الْأَنْتَامِ، وَمُفْتِي^(٢) الْعَوَالِمِ وَالذُّهُورِ، وَصَاحِبِ السِّرِّ الْمَسْتُورِ، وَالْغَيْبِ الْمَحْظُورِ، وَالِاسْمِ الْمَحْزُونِ، وَالْعِلْمِ الْمَكْنُونِ. وَصَلَوَاتُهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَى مُبَلِّغِ وَحْيِهِ، وَمُوَدِّي رِسَالَتِهِ، الَّذِي ابْتَعَثَهُ بِشِيرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ، فَعَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ مِنْ بَارِيهِ الصَّلَوَاتُ الطَّيِّبَاتُ وَالتَّحِيَّاتُ الزَّاكِيَاتُ النَّامِيَّاتُ، وَعَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالرَّحْمَةُ وَالْبَرَكَاتُ فِي الْمَاضِيْنَ وَالْعَاكِرِينَ أَبَدَ الْأَبَدِينَ وَدَهْرَ الدَّاهِرِينَ وَهُمْ أَهْلُهُ وَمُسْتَحَقُّهُ.

قَدْ شَرَحْتُ لَكَ يَا مُفَضَّلُ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى الْخَلْقِ وَالشَّوَاهِدِ عَلَى صَوَابِ التَّدْبِيرِ وَالْعَمْدِ فِي الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا فِيهِ عِبْرَةٌ لِمَنْ اعْتَبَرَ. وَأَنَا أَشْرَحُ لَكَ الْآنَ الْأَقَاتِ الْحَادِثَةَ فِي بَعْضِ الْأَزْمَانِ الَّتِي اتَّخَذَهَا أَنْاسُ مِنَ الْجَهَالِ ذَرِيعَةً^(٣) إِلَى جُحُودِ الْخَالِقِ وَالْخَلْقِ وَالْعَمْدِ^(٤) وَالتَّدْبِيرِ، وَمَا أَنْكَرَتِ الْمُعْطَلَّةُ وَالْمَنَانِيَّةُ^(٥) مِنَ الْمَكَارِهِ وَالْمَصَائِبِ وَمَا أَنْكَرُوهُ مِنَ الْمَوْتِ وَالْفَنَاءِ، وَمَا قَالَهُ أَصْحَابُ الطَّبَائِعِ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ كَوْنَ الْأَشْيَاءِ بِالْعَرَضِ وَالِاتِّفَاقِ لَيَتَسَعَّ ذَلِكَ الْقَوْلُ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ.

اتَّخَذَ أَنْاسُ مِنَ الْجَهَالِ هَذِهِ الْأَقَاتِ الْحَادِثَةَ فِي بَعْضِ الْأَزْمَانِ كَمَثَلِ الْوَبَاءِ وَالْيَرَقَانِ وَالْبَرْدِ وَالْجَرَادِ ذَرِيعَةً إِلَى

١. وفي نسخة بدل: الأقدس. (هامش المصدر)

٢. في المصدر: «و مفني».

٣. الذريعة: الوسيلة، راجع لسان العرب.

٤. وفي نسخة بدل: والعمل. (هامش المصدر)

٥. الظاهر: المانوية. (هامش المطبوع)

جُودِ الْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ وَالْخَالِقِ؛ فَيَقَالُ فِي جَوَابِ ذَلِكَ: إِنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ خَالِقٌ وَمُدَبِّرٌ فَلِمَ لَا يَكُونُ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا وَأَفْظَعُ؟ فَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يَسْقُطَ السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ، وَتَهْوِيَ الْأَرْضُ فَتَذْهَبَ سُفْلًا، وَتَتَخَلَّفَ الشَّمْسُ عَنِ الطُّلُوعِ أَصْلًا، وَتَجِفَّ الْأَنْهَارُ وَالْعُيُونُ حَتَّى لَا يَوْجَدَ مَاءٌ لِلشَّفَةِ، وَتَرْكُدَ الرِّيحُ حَتَّى تُحَمَّ^(١) الْأَشْيَاءُ وَتَفْسُدَ، وَيَفِيضَ مَاءُ الْبَحْرِ عَلَى الْأَرْضِ فَيَغْرِقَهَا. ثُمَّ هَذِهِ الْأَقَاتُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا مِنَ الْوَبَاءِ وَالْجَرَادِ وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ، مَا بِهَا لَا تَدُومُ وَتَمْتَدُّ حَتَّى تَجْتَاحَ كُلَّ مَا فِي الْعَالَمِ؟ بَلْ تَحْدُثُ فِي الْأَحْيَانِ، ثُمَّ لَا تَلْبِثُ أَنْ تُرْفَعَ؟ أَفَلَا تَرَى أَنَّ الْعَالَمَ يُصَانُ وَيُحْفَظُ مِنْ تِلْكَ الْأَحْدَاثِ الْجَلِيلَةِ الَّتِي لَوْ حَدَّثَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا كَانَ فِيهِ بَوَارُهُ^(٢)، وَيُلْدَعُ أحيانًا بِهَذِهِ الْأَقَاتِ الْيَسِيرَةِ لِتَأْدِيبِ النَّاسِ وَتَقْوِيمِهِمْ، ثُمَّ لَا تَدُومُ هَذِهِ الْأَقَاتُ بَلْ تَكْشِفُ عَنْهُمْ عِنْدَ الْقُنُوطِ مِنْهُمْ فَتَكُونُ وَفُوعُهَا بِهِمْ مُوَغِظَةً وَكَشْفُهَا عَنْهُمْ رَحْمَةً.

وَقَدْ أَنْكَرَتِ الْمُعْظَلَةُ مَا أَنْكَرَتِ الْمَنَابِيَةُ مِنَ الْمَكَارِهِ وَالْمَصَائِبِ الَّتِي تُصِيبُ النَّاسَ، فَكِلَاهُمَا يَقُولُ: إِنْ كَانَ لِلْعَالَمِ خَالِقٌ رَوْفٌ رَحِيمٌ فَلِمَ يُحْدِثُ فِيهِ هَذِهِ الْأُمُورَ الْمَكْرُوهَةَ؟ وَالْقَائِلُ بِهَذَا الْقَوْلِ يَذْهَبُ بِهِ إِلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَيْشُ الْإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا صَافِيًا مِنْ كُلِّ كَدَرٍ، وَلَوْ كَانَ هَكَذَا كَانَ الْإِنْسَانُ سَيَخْرُجُ مِنَ الْأَشْرِ وَالْعُتُوِّ إِلَى مَا لَا يَصْلُحُ فِي دِينٍ وَدُنْيَا، كَالَّذِي تَرَى كَثِيرًا مِنَ الْمُتَرَفِينَ وَمَنْ نَشَأَ فِي الْجِدَةِ وَالْأَمْنِ يَخْرُجُونَ إِلَيْهِ، حَتَّى أَنْ أَحَدَهُمْ يَنْسَى أَنَّهُ بَشَرٌ، أَوْ أَنَّهُ مَرْبُوبٌ، أَوْ أَنَّ ضَرَرًا يَمْسُهُ، أَوْ أَنَّ مَكْرُوهًا يَنْزِلُ بِهِ، أَوْ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَرْحَمَ ضَعِيفًا، أَوْ يُؤَسِّيَ فَقِيرًا، أَوْ يَرْثِيَ لِمُبْتَلًى، أَوْ يَتَحَنَّنَ^(٣) عَلَى ضَعِيفٍ، أَوْ يَتَعَطَّفَ عَلَى مَكْرُوبٍ، فَإِذَا عَضَّتْهُ الْمَكَارِهُ وَوَجَدَ مَضَضَهَا اتَّعَظَ وَأَبْصَرَ كَثِيرًا مِمَّا كَانَ جَهْلَهُ وَغَفَلَ عَنْهُ، وَرَجَعَ إِلَى كَثِيرٍ مِمَّا كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ، وَالْمُنْكَرُونَ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الْمُؤْذِيَةِ بِمَنْزِلَةِ الصَّبِيَّانِ الَّذِينَ يَذْمُونَ الْأَدْوِيَةَ الْمَرَّةَ الْبَشِعَةَ؛ وَيَتَسَخَّطُونَ مِنَ الْمَنَعِ مِنَ الْأَطْعِمَةِ الضَّارَّةِ، وَيَتَكْرَهُونَ الْأَدَبَ وَالْعَمَلَ؛ وَيُحِبُّونَ أَنْ يَتَفَرَّغُوا لِللَّهِوِّ وَالْبَطَالَةِ، وَيَتَالُوا كُلَّ مَطْعَمٍ وَمَشْرَبٍ؛ وَلَا يَعْرِفُونَ مَا تَوَدِّيهِمْ إِلَيْهِ الْبَطَالَةُ مِنْ سُوءِ النُّشُوءِ وَالْعَادَةِ، وَمَا تُعْقِبُهُمُ الْأَطْعِمَةُ اللَّذِيذَةُ الضَّارَّةُ مِنَ الْأَذْوَاءِ وَالْأَسْقَامِ، وَمَا لَهُمْ فِي الْأَدَبِ^(٤) مِنَ الصَّلَاحِ، وَفِي الْأَدْوِيَةِ مِنَ الْمُنْفَعَةِ وَإِنْ شَابَ^(٥) ذَلِكَ بَعْضُ الْكَرَاهَةِ.

فَإِنْ قَالُوا: وَلِمَ لَمْ يَكُنِ الْإِنْسَانُ مَعْصُومًا مِنَ الْمَسَاوِي حَتَّى لَا يَخْتَاجَ إِلَى أَنْ يُلْدَعَهُ بِهَذِهِ الْمَكَارِهِ؟ قِيلَ: إِذَا كَانَ يَكُونُ غَيْرَ مَحْمُودٍ عَلَى حَسَنَةِ يَأْتِيهَا وَلَا مُسْتَحِقٍّ لِلثَّوَابِ عَلَيْهَا.

فَإِنْ قَالُوا: وَمَا كَانَ يَضُرُّهُ أَنْ لَا يَكُونَ مَحْمُودًا عَلَى الْحَسَنَاتِ مُسْتَحِقًّا لِلثَّوَابِ بَعْدَ أَنْ يَصِيرَ إِلَى غَايَةِ النِّعَمِ وَاللَّذَّةِ؟ قِيلَ لَهُمْ: اعْرِضُوا عَلَى امْرِئٍ صَحِيحِ الْجِسْمِ وَالْعَقْلِ أَنْ يَجْلِسَ مُنْعَمًا وَيُكْفَى كُلَّ مَا يَخْتَاجُ إِلَيْهِ بِلَا سَعْيٍ وَلَا اسْتِحْقَاقٍ،

١. في المصدر: «تخم».

٢. البوار: الهلاك، راجع لسان العرب.

٣. تحنن عليه: ترحم، راجع لسان العرب.

٤. وفي نسخة بدل: الأرب. (هامش المصدر)

٥. شابه: خلطه، راجع المصباح المنير.

فَانْظُرُوا هَلْ تَقْبَلُ نَفْسُهُ ذَلِكَ؟ بَلْ سَتَجِدُونَهُ بِالْقَلِيلِ مِمَّا يَنَالُهُ بِالسَّعْيِ وَالْحَرَكَةِ أَشَدَّ اغْتِبَاطًا^(١) وَسُرُورًا مِنْهُ بِالْكَثِيرِ مِمَّا يَنَالُهُ بِغَيْرِ الْإِسْتِحْقَاقِ، وَكَذَلِكَ نَعِيمُ الْآخِرَةِ أَيْضًا يَكْمُلُ لِأَهْلِهِ بِأَنْ يَنَالُوهُ بِالسَّعْيِ فِيهِ وَالْإِسْتِحْقَاقِ لَهُ، فَالْنَّعْمَةُ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي هَذَا الْبَابِ مُضَاعَفَةٌ، بِأَنْ أُعِدَّ لَهُ الثَّوَابُ الْجَزِيلُ عَلَى سَعْيِهِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَجُعِلَ لَهُ السَّبِيلُ إِلَى أَنْ يَنَالَ بِسَعْيِهِ وَاسْتِحْقَاقٍ فَيَكْمُلَ لَهُ السُّرُورُ وَالْإِغْتِبَاطُ بِمَا يَنَالُهُ مِنْهُ.

فَإِنْ قَالُوا: أَوَلَيْسَ قَدْ يَكُونُ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَرْكَنُ إِلَى مَا نَالَ مِنْ خَيْرٍ وَإِنْ كَانَ لَا يَسْتَحِقُّهُ؟ فَمَا الْحُجَّةُ فِي مَنَعِ مَنْ رَضِيَ أَنْ يَنَالَ نَعِيمَ الْآخِرَةِ عَلَى هَذِهِ الْجُمْلَةِ^(٢)؟ قِيلَ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا بَابٌ لَوْ صَحَّ لِلنَّاسِ لَخَرَجُوا إِلَى غَايَةِ الْكَلْبِ وَالضَّرَاوَةِ عَلَى الْفَوَاحِشِ وَاتِّهَاكَ الْمَحَارِمِ. فَمَنْ كَانَ يَكْفُفُ نَفْسَهُ عَنْ فَاحِشَةٍ أَوْ يَتَحَمَّلُ الْمَشَقَّةَ فِي بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْبِرِّ لَوْ وَثِقَ بِأَنَّهُ صَاحِبٌ إِلَى النَّعِيمِ لَا مَحَالَةَ؟ أَوْ مَنْ كَانَ يَأْمُنُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ مِنَ النَّاسِ لَوْ لَمْ يَخَافُوا الْحِسَابَ وَالْعِقَابَ؟ فَكَانَ ضَرَرُ هَذَا الْبَابِ سَيِّئًا لِلنَّاسِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ تَعْطِيلُ الْعَدْلِ وَالْحِكْمَةِ مَعًا، وَمَوْضِعٌ لِلطَّغْنِ عَلَى التَّذْيِيرِ بِخِلَافِ الصَّوَابِ وَوَضْعُ الْأُمُورِ غَيْرَ مَوَاضِعِهَا.

وَقَدْ يَتَعَلَّقُ هَؤُلَاءِ بِالْآفَاتِ الَّتِي تُصِيبُ النَّاسَ فَتَعْمُ الْبُرِّ وَالْفَاجِرِ، أَوْ يُبْتَلَى بِهَا الْبِرُّ وَيَسْلَمُ الْفَاجِرُ مِنْهَا، فَقَالُوا: كَيْفَ يَجُوزُ هَذَا فِي تَذْيِيرِ الْحَكِيمِ وَمَا الْحُجَّةُ فِيهِ؟ فَيَقَالُ لَهُمْ: إِنَّ هَذِهِ الْآفَاتِ وَإِنْ كَانَتْ تَنَالُ الصَّالِحَ وَالطَّالِحَ^(٣) جَمِيعًا، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ ذَلِكَ صَلاَحًا لِلصَّنْفَيْنِ كِلَيْهِمَا: أَمَّا الصَّالِحُونَ فَإِنَّ الَّذِي يُصِيبُهُمْ مِنْ هَذَا يَرُدُّهُمْ^(٤) نِعَمَ رَبِّهِمْ عَنْهُمْ فِي سَالِفِ أَيَّامِهِمْ فَيُخَدِّوهُمْ^(٥) ذَلِكَ عَلَى الشُّكْرِ وَالصَّبْرِ؛ وَأَمَّا الطَّالِحُونَ فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا إِذَا نَالَهُمْ كَسَرَ شَرَّتَهُمْ، وَرَدَّعَهُمْ عَنِ الْمَعَاصِي وَالْفَوَاحِشِ، وَكَذَلِكَ يَجْعَلُ لِمَنْ سَلِمَ مِنْهُمْ مِنَ الصَّنْفَيْنِ صَلاَحًا فِي ذَلِكَ: أَمَّا الْأَبْرَارُ فَإِنَّهُمْ يَغْتَبِطُونَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْبِرِّ وَالصَّالِحِ وَيَزْدَادُونَ فِيهِ رَغْبَةً وَبَصِيرَةً؛ وَأَمَّا الْفَجَّارُ فَإِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ رَافَةَ رَبِّهِمْ^(٦) وَتَطَوُّلَهُ عَلَيْهِمْ بِالسَّلَامَةِ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقِهِمْ^(٧) فَيَحْضَهُمْ ذَلِكَ عَلَى الرَّافَةِ بِالنَّاسِ وَالصَّفْحِ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ.

وَلَعَلَّ قَائِلًا يَقُولُ: إِنَّ هَذِهِ الْآفَاتِ الَّتِي تُصِيبُ النَّاسَ فِي أَمْوَالِهِمْ، فَمَا قَوْلُكَ فِيمَا يُبْتَلُونَ بِهِ فِي أَيْدَانِهِمْ فَيَكُونُ فِيهِ تَلَفُهُمْ كَمِثْلِ الْحَرَقِ وَالْعَرَقِ وَالسَّبِيلِ وَالْخَسْفِ؟ فَيَقَالُ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ فِي هَذَا أَيْضًا صَلاَحًا لِلصَّنْفَيْنِ جَمِيعًا: أَمَّا الْأَبْرَارُ فَلَمَّا لَهُمْ فِي مُفَارَقَةِ هَذِهِ الدُّنْيَا مِنَ الرَّاحَةِ مِنْ تَكَالُفِهَا وَالنَّجَاةِ مِنْ مَكَارِهَا؛ وَأَمَّا الْفَجَّارُ فَلَمَّا لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ

١. الاغْتِبَاطُ: الفرح بالنعمة، راجع لسان العرب.

٢. وفي نسخة: على هذه الخلّة. (هامش المصدر)

٣. رجل طالح: فاسد، راجع لسان العرب.

٤. في المصدر: «يذكرهم»، وفيه ذكر من بعض النسخ: «يزدهم».

٥. حداه: بعثه وساقه، راجع تاج العروس.

٦. وفي نسخة بدل: رحمة ربهم. (هامش المصدر)

٧. في المصدر: «من غير استحقاق».

تَمَحِيصِ أَوْزَارِهِمْ وَحَسْبِهِمْ عَنِ الْإِزْدِيَادِ مِنْهَا. وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ الْخَالِقَ تَعَالَى ذَكَرَهُ بِحِكْمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ قَدْ يَصْرِفُ هَذِهِ الْأُمُورَ كُلَّهَا إِلَى الْخَيْرَةِ وَالْمَنْفَعَةِ، فَكَمَا أَنَّهُ إِذَا قَطَعَتِ الرِّيحُ شَجَرَةً أَوْ قَطَعَتْ نَخْلَةً أَخَذَهَا الصَّانِعُ الرَّفِيقُ^(١) وَاسْتَعْمَلَهَا فِي ضُرُوبٍ مِنَ الْمَنَافِعِ، فَكَذَلِكَ يَفْعَلُ الْمُدَبِّرُ الْحَكِيمُ فِي الْأَقَاتِ الَّتِي تَنْزِلُ بِالنَّاسِ فِي أَبْدَانِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فَيُصَيِّرُهَا جَمِيعاً إِلَى الْخَيْرَةِ وَالْمَنْفَعَةِ.

فَإِنْ قَالَ: وَلِمَ يَحْدُثُ^(٢) عَلَى النَّاسِ؟ قِيلَ لَهُ: لِكَيْلَا يَرْكَنُوا إِلَى الْمَعَاصِي مِنْ طُولِ السَّلَامَةِ، فَيُبَالِغَ الْفَاجِرُ فِي رُكُوبِ الْمَعَاصِي، وَيَقْتَرِ الصَّالِحُ عَنِ الْاجْتِهَادِ فِي الْبِرِّ، فَإِنَّ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعاً يَغْلِبَانِ عَلَى النَّاسِ فِي حَالِ الْخَفْضِ^(٣) وَالدَّعَةِ^(٤)، وَهَذِهِ الْحَوَادِثُ الَّتِي تَحْدُثُ عَلَيْهِمْ تَرُدُّعُهُمْ^(٥) وَتُنَبِّهُهُمْ عَلَى مَا فِيهِ رُشْدُهُمْ، فَلَوْ أَخْلَوْا^(٦) مِنْهُمَا لَغَلَوْا فِي الطُّغْيَانِ وَالْمَعْصِيَةِ كَمَا عَلَى النَّاسِ^(٧) فِي أَوَّلِ الزَّمَانِ حَتَّى وَجَبَ عَلَيْهِمُ الْبَوَارُ بِالطُّوفَانِ وَتَطْهِيرِ الْأَرْضِ مِنْهُمْ. وَمِمَّا يَنْتَقِدُهُ^(٨) الْجَاهِدُونَ لِلْعَمْدِ وَالتَّقْدِيرِ الْمَوْتُ وَالْفَنَاءُ، فَإِنَّهُمْ يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ النَّاسُ مُخَلَّدِينَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، مُبَرِّئِينَ مِنَ الْأَقَاتِ. فَيَنْبَغِي أَنْ يُسَاقَ هَذَا الْأَمْرُ إِلَى غَايَتِهِ فَيَنْظَرُ مَا مَحْصُولُهُ. أَفَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ كُلُّ مَنْ دَخَلَ الْعَالَمَ وَيَدْخُلُهُ يَبْقَى وَلَا يَمُوتُ أَحَدٌ مِنْهُمْ؟ أَلَمْ تَكُنِ الْأَرْضُ تَضِيقُ بِهِمْ حَتَّى تُغَوِّزَهُمُ الْمَسَاكِينُ وَالْمَزَارِعُ وَالْمَعَاشُ؟ فَإِنَّهُمْ وَالْمَوْتَ يَفْنِيهِمْ أَوَّلًا أَوْ لَا^(٩)، يَتَنَافَسُونَ^(١٠) فِي الْمَسَاكِينِ وَالْمَزَارِعِ حَتَّى يَنْشَبَ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ الْحُرُوبُ وَيُسْفَكَ فِيهِمُ الدِّمَاءُ، فَكَيْفَ كَانَتْ تَكُونُ حَالُهُمْ لَوْ كَانُوا يُوَلَّدُونَ وَلَا يَمُوتُونَ؟ وَكَانَ يَغْلِبُ عَلَيْهِمُ الْحِرْصُ وَالشَّرُّ وَقَسَاوَةُ الْقُلُوبِ، فَلَوْ وَثِقُوا بِأَنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ لَمَا قَنَعَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ يَنَالُ، وَلَا أَفْرَجَ لِأَحَدٍ عَنْ شَيْءٍ يَسْأَلُهُ، وَلَا سَلَاحٍ عَنْ شَيْءٍ مِمَّا يَحْدُثُ عَلَيْهِ، ثُمَّ كَانُوا يَمْلُؤُونَ الْحَيَاةَ وَكُلَّ شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا كَمَا قَدْ يَمَلُّ الْحَيَاةَ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ حَتَّى يَتَمَتَّى الْمَوْتُ وَالرَّاحَةُ مِنَ الدُّنْيَا.

فَإِنْ قَالُوا: إِنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ عَنْهُمْ الْمَكَارِهِ وَالْأَوْصَابُ حَتَّى لَا يَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ وَلَا يَشْتَاقُوا إِلَيْهِ، فَقَدْ وَصَفْنَا مَا

١. وفي بعض النسخ: الرقيق، وفي نسخة بدل: الدقيق. (هامش المصدر)

٢. وفي بعض النسخ: لم لا يحدث. (هامش المصدر)

٣. الخفض: لين العيش وسعته، راجع لسان العرب.

٤. الدعة: الخفض في العيش والراحة، راجع لسان العرب.

٥. وفي نسخة: تروّعهم. (هامش المصدر)

٦. وفي نسخة: فلو خلّوا. (هامش المصدر)

٧. في المصدر: «غلا الناس».

٨. وفي نسخة: يعتقده. (هامش المصدر)

٩. في المصدر: «أولاً فأولاً».

١٠. تنافسوا فيه: رغبوا فيه، راجع لسان العرب.

كَانَ يُخْرِجُهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْعُتُوِّ وَالْأَشْرِ الْحَامِلِ لَهُمْ عَلَى مَا فِيهِ فَسَادُ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا. وَإِنْ قَالُوا: إِنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ لَا يَتَوَالَدُوا كَيْلًا تَضِيقَ عَنْهُمْ الْمَسَاكِينُ وَالْمَعَاشُ، قِيلَ لَهُمْ: إِذَا كَانَ يَحْرُمُ أَكْثَرُ هَذَا الْخَلْقِ دُخُولَ الْعَالَمِ وَالِاسْتِمْتَاعَ بِنِعَمِ اللَّهِ وَمَوَاهِبِهِ فِي الدَّارَيْنِ جَمِيعاً إِذَا لَمْ يَدْخُلِ الْعَالَمُ إِلَّا قَرْنٌ وَاحِدٌ لَا يَتَوَالَدُونَ وَلَا يَتَنَاسَلُونَ.

فَإِنْ قَالُوا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَخْلُقَ فِي ذَلِكَ الْقَرْنِ الْوَاحِدِ مِنَ النَّاسِ مِثْلَ مَا خَلَقَ وَيَخْلُقَ إِلَى انْقِضَاءِ الْعَالَمِ، يُقَالُ لَهُمْ: رَجَعَ الْأَمْرُ إِلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ ضِيقِ الْمَسَاكِينِ وَالْمَعَاشِ عَنْهُمْ، ثُمَّ لَوْ كَانُوا لَا يَتَوَالَدُونَ وَلَا يَتَنَاسَلُونَ لَذَهَبَ مَوْضِعُ الْأَنْسِ بِالْقَرَابَاتِ وَذَوِي الْأَرْحَامِ وَالِانْتِصَارِ بِهِمْ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، وَمَوْضِعُ تَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ وَالشُّرُورِ بِهِمْ. فَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا تَذَهَبُ إِلَيْهِ الْأَوْهَامُ سِوَى مَا جَرَى بِهِ التَّدْبِيرُ خَطَأً وَسَفَاهَةً مِنَ الرَّأْيِ وَالْقَوْلِ.

وَلَعَلَّ طَاعِنًا يَطْعُنُ عَلَى التَّدْبِيرِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَيَقُولُ: كَيْفَ يَكُونُ هَاهُنَا تَدْبِيرٌ وَتَحُنُّ نَرَى النَّاسَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ عَزَّ بَرٍّ^(١)؟ فَأَلْفَوِي يَظْلِمُ وَيَعْصِبُ^(٢)، وَالضَّعِيفُ يُظْلَمُ وَيَسَامُ الْخَسْفَ^(٣)، وَالصَّالِحُ فَقِيرٌ مُبْتَلًى، وَالْفَاسِقُ مُعَافًى مُوسَّعٌ عَلَيْهِ، وَمَنْ رَكِبَ فَاحِشَةً أَوْ انْتَهَكَ مُحَرَّمًا لَمْ يُعَاجَلْ بِالْعُقُوبَةِ. فَلَوْ كَانَ فِي الْعَالَمِ تَدْبِيرٌ لَجَرَتْ الْأُمُورُ عَلَى الْقِيَاسِ الْقَائِمِ، فَكَانَ الصَّالِحُ هُوَ الْمَرْزُوقَ، وَالطَّالِعُ هُوَ الْمَحْرُومَ، وَكَانَ الْقَوِيُّ يُمْنَعُ مِنَ ظُلْمِ الضَّعِيفِ، وَالْمُتَهَتِّكُ^(٤) لِلْمَحَارِمِ يُعَاجَلُ بِالْعُقُوبَةِ، فَيُقَالُ فِي جَوَابِ ذَلِكَ: إِنَّ هَذَا لَوْ كَانَ هَكَذَا لَذَهَبَ مَوْضِعُ الْإِحْسَانِ الَّذِي فَضَّلَ بِهِ الْإِنْسَانُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْخَلْقِ، وَحُلِلَ النَّفْسُ عَلَى الْبِرِّ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ احْتِسَاباً لِلثَّوَابِ، وَثَقَّةً بِمَا وَعَدَ اللَّهُ مِنْهُ، وَلَصَارَ النَّاسُ بِمَنْزِلَةِ الدَّوَابِّ الَّتِي تُسَاسُ^(٥) بِالْعَصَا وَالْعَلْفِ، وَيُلْمَعُ لَهَا بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا سَاعَةٌ فَسَاعَةٌ فَتَسْتَقِيمُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَعْمَلُ عَلَى يَقِينٍ بِثَوَابٍ أَوْ عِقَابٍ حَتَّى كَانَ هَذَا يُخْرِجُهُمْ عَنْ حَدِّ الْإِنْسِيَّةِ إِلَى حَدِّ الْبَهَائِمِ، ثُمَّ لَا يَعْرِفُ مَا غَابَ، وَلَا يَعْمَلُ إِلَّا عَلَى الْحَاضِرِ^(٦)، وَكَانَ يَحْدُثُ مِنْ هَذَا أَيْضاً أَنْ يَكُونَ الصَّالِحُ إِنَّمَا يَعْمَلُ الصَّالِحَاتِ لِلرِّزْقِ وَالسَّعَةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَيَكُونُ الْمُمْتَنِعُ مِنَ الظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِنَّمَا يَعِفُّ^(٧) عَنْ ذَلِكَ لِتَرْقُبِ عُقُوبَةٍ تَنْزِلُ بِهِ مِنْ سَاعَتِهِ حَتَّى يَكُونَ أَفْعَالُ النَّاسِ كُلُّهَا تَجْرِي عَلَى الْحَاضِرِ لَا يَشُوبُهَا^(٨) شَيْءٌ مِنَ الْيَقِينِ بِمَا عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا يَسْتَحِقُّونَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَالنَّعِيمِ الدَّائِمِ فِيهَا، مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ الَّتِي ذَكَرَهَا الطَّاعِنُ مِنَ الْغِنَى وَالْفَقْرِ وَالْعَافِيَةِ وَالْبَلَاءِ لَيْسَتْ بِجَارِيَةٍ عَلَى خِلَافِ قِيَاسِهِ،

١. وفي نسخة بدل: من عزيز وذليل، وفي نسخة بدل أخرى: من غير برٍّ. (هامش المصدر)

٢. وفي نسخة: يعصب. (هامش المصدر)

٣. وفي نسخة: يسالم الخسف. (هامش المصدر)

٤. في المصدر: «المتهتك».

٥. يسوس الدواب: إذا قام عليها وراضها (ذللها)، راجع لسان العرب.

٦. في المصدر: «على الحاضر من نعيم الدنيا».

٧. وفي نسخة: يكف. (هامش المصدر)

٨. وفي نسخة: وإلا يشوبها. (هامش المصدر)

بَلْ قَدْ تَجَرَّيَ عَلَى ذَلِكَ أَحْيَانًا، وَالْأَمْرُ الْمَفْهُومُ، فَقَدْ تَرَى كَثِيرًا مِنَ الصَّالِحِينَ يُرْزَقُونَ الْمَالَ لِضُرُوبٍ مِنَ التَّدْبِيرِ، وَكَيْلًا يَسْبِقُ إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ أَنَّ الْكُفَّارَ هُمُ الْمَرْزُوقُونَ، وَالْأَبْرَارَ هُمُ الْمَحْرُومُونَ، فَيُؤْثِرُونَ الْفِسْقَ عَلَى الصَّلَاحِ. وَتَرَى كَثِيرًا مِنَ الْفُسَّاقِ يُعَاجِلُونَ بِالْعُقُوبَةِ إِذَا تَفَاقَمَ طُغْيَانُهُمْ وَعَظُمَ ضَرَرُهُمْ عَلَى النَّاسِ وَعَلَى أَنْفُسِهِمْ، كَمَا عُوِجِلَ فِرْعَوْنُ بِالْعَرَقِ، وَبُحْتُ نَصْرُ بِالْتِّيهِ^(١)، وَبُلْبُيْسُ بِالْقَتْلِ، وَإِنْ أُمِهُلَ بَعْضُ الْأَشْرَارِ بِالْعُقُوبَةِ وَأُخِّرَ بَعْضُ الْأَخْيَارِ بِالنَّوَابِ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ لِأَسْبَابٍ تَخْفَى عَلَى الْعِبَادِ لَمْ يَكُنْ هَذَا مِمَّا يُبْطِلُ التَّدْبِيرَ، فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا قَدْ يَكُونُ مِنْ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَلَا يُبْطِلُ تَدْبِيرَهُمْ، بَلْ يَكُونُ تَأْخِيرُهُمْ مَا أَخْرَوْهُ أَوْ تَعْجِيلُهُمْ مَا عَجَّلُوهُ دَاخِلًا فِي صَوَابِ الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ؛ وَإِذَا كَانَتِ الشُّوَاهِدُ تَشْهَدُ وَقِيَّاسُهُمْ يُوجِبُ أَنْ لِلْأَشْيَاءِ خَالِقًا حَكِيمًا قَادِرًا فَمَا يَمْنَعُهُ أَنْ يُدَبِّرَ خَلْقَهُ؟ فَإِنَّهُ لَا يَصِحُّ فِي قِيَاسِهِمْ أَنْ يَكُونَ الصَّانِعُ يُهْمِلُ صَنْعَتَهُ إِلَّا بِأَخْذِ ثَلَاثِ خِلَالٍ: إِمَّا عَجْزٍ، وَإِمَّا جَهْلٍ، وَإِمَّا شَرَارَةٍ، وَكُلُّ هَذِهِ مُحَالٌ فِي صَنْعَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَعَالَى ذِكْرُهُ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَاجِزَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ بِهِذِهِ الْخَلَائِقِ الْجَلِيلَةِ الْعَجِيبَةِ، وَالْجَاهِلَ لَا يَهْتَدِي لِمَا فِيهَا مِنَ الصَّوَابِ وَالْحِكْمَةِ، وَالشَّرِيرَ لَا يَتَطَاوَلُ لِخَلْقِهَا وَإِنْشَائِهَا، وَإِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْخَالِقُ لِهَذِهِ الْخَلَائِقِ يُدَبِّرُهَا لَا مُحَالَةً وَإِنْ كَانَ لَا تُدْرِكُ كُنْهَ ذَلِكَ التَّدْبِيرِ وَمَخَارِجُهُ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ تَدْبِيرِ الْمُلُوكِ لَا تَفْهَمُهُ الْعَامَّةُ، وَلَا تَعْرِفُ أَسْبَابَهُ، لِأَنَّهَا لَا تَعْرِفُ دُخْلَهُ^(٢) أَمْرَ الْمُلُوكِ وَأَسْرَارَهُمْ فَإِذَا عَرَفَ سَبَبَهُ وَجَدَ قَائِمًا عَلَى الصَّوَابِ وَالشَّاهِدِ الْمِحْنَةِ. وَلَوْ شَكَكْتَ فِي بَعْضِ الْأَدْوِيَةِ وَالْأَطْعِمَةِ فَيَسْتَبِينَ لَكَ مِنْ جِهَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ أَنَّهُ حَارٌّ أَوْ بَارِدٌ، أَلَمْ تَكُنْ سَتَقْضِي عَلَيْهِ بِذَلِكَ وَتَنْفِي الشَّكَّ فِيهِ عَنْ نَفْسِكَ؟ فَمَا بَالُ هَؤُلَاءِ الْجَهْلَةِ لَا يَقْضُونَ عَلَى الْعَالَمِ بِالْخَالِقِ^(٣) التَّدْبِيرِ مَعَ هَذِهِ الشُّوَاهِدِ الْكَثِيرَةِ؟ وَأَكْثَرُ مِنْهَا مَا لَا يُحْصَى كَثَرَةً، لَوْ كَانَ نِصْفُ الْعَالَمِ وَمَا فِيهِ مُشْكِلًا صَوَابُهُ لَمَا كَانَ مِنْ حَزْمِ الرَّأْيِ وَسَمْتِ^(٤) الْأَدَبِ أَنْ يُقْضَى عَلَى الْعَالَمِ بِالْإِهْمَالِ، لِأَنَّهُ كَانَ فِي النِّصْفِ الْآخَرِ وَمَا يَظْهَرُ فِيهِ مِنَ الصَّوَابِ وَالْإِثْقَانِ مَا يَزِدُّعُ الْوَهْمَ عَنِ التَّسَرُّعِ إِلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ^(٥)، فَكَيْفَ وَكُلُّ مَا كَانَ فِيهِ إِذَا قُتِّسَ وَجِدَ عَلَى غَايَةِ الصَّوَابِ حَتَّى لَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ شَيْءٌ إِلَّا وَجَدَ مَا عَلَيْهِ الْخَلْقُ أَصَحَّ وَأَصُوبَ مِنْهُ؟

بيان:

قوله **عَلَيْهِ**: «للاسم الأقدم» لعل المراد بالاسم المسمى^(٦)، أو المراد الاسم الذي أظهره وأثبتته في اللوح

١. التيه: المفازة، يتاه فيها، راجع لسان العرب.

٢. وفي نسخة: دخيلة. (هامش المصدر)

٣. في المصدر: «بالخلق».

٤. وفي بعض النسخ: وسمة. (هامش المصدر)

٥. وفي نسخة: عن الشروع في هذه القضية. (هامش المصدر)

٦. المراد بالاسم هو المسمى لكن لا كما ذكره «رحمه الله» وأراد بالمسمى الذات، بل كما تدل عليه الأخبار الآتية في أبواب الأسماء الحسنى

قبل سائر الأسماء، أو المراد الاسم الذي يخص الذات، فهو أسبق الأسماء في الاعتبار وأشرفها كما يظهر من الآثار. قوله عليه السلام: «والغيب المحذور» أي الممنوع عن غيره تعالى إلا من ارتضاه لذلك. قوله عليه السلام: «بالعرض» قال الفيروز آبادي: عرض الشيء: ظهر، والعرض: أن يموت الإنسان من غير علة. و«الاجتياح»: الاستيصال. قوله عليه السلام: «ويلذع» يقال لذعته النار أي أحرقت، ولذعه بلسانه أي أوجعه بكلام، وفي بعض النسخ بإهمال الأول وإعجام الثاني من لدغ العقرب. ويقال: رثيت لفلان أي رقت له. والمضض محرّكة: وجع المصيبة. قوله عليه السلام: «إذا كان يكون غير محمود» يمكن أن يقرأ إذا بالتونين وبدونها وعلى الثاني: يكون خبر كان محذوفاً أي إذا كان الإنسان كذلك.

ثم اعلم أنه ينبغي أن تحمل العصمة المأخوذة في السؤال على غير المعنى المشهور الذي سيأتي تحقيقه في باب عصمة الأئمة عليهم السلام، بل المراد العصمة بمعنى الإلجاء الذي لم يبق معه اختيار، ولذا فرّع عليه عدم استحقاق الثواب، وإلا فالعصمة التي اتصفت بها الأنبياء والأئمة عليهم السلام لا ينافي ذلك كما سنحققه في مقامه إن شاء الله تعالى. ويمكن أن يقال - على تقدير أن يكون المراد هذا المعنى أيضاً - بأنه إذا صار هذا عامّاً في جميع البشر لا يتأتى في بعض المواد التي لا تستحق ذلك من نفوس الأشرار والفجار إلا بالإلجاء الرافع للاستحقاق. قوله عليه السلام: «إلى غاية الكلب والضراوة» قال الجوهرى: دفعت عنك كلب فلان أي شره وأذاه، والكلب أيضاً شبيه بالجنون. وقال: ضري الكلب بالصيد ضراوة أي تعود.

أقول:

لما كان السؤال مبنياً على فرض العصمة ظاهراً فتصحيح هذا الجواب في غاية الإشكال وخطر بالبال وجوه:

الأول: أن لا يكون السؤال مبنياً على فرض العصمة بل يكون المراد أنه لما ذكرت أن العصمة تنافي الاستحقاق فنقول: لم لم يبذل لهم الثواب على أي حال بأن يكلفهم العمل ليستحقوا الثواب إن أرادوا استحقاقه وإلا أعطاهم من غير استحقاق؟ إذ كثير من الناس يطلبون النعيم بغير استحقاق فلا يكون عليهم في الدنيا والآخرة سخط على المخالفة، وعلى هذا الجواب ظاهر الانطباق على السؤال كما لا يخفى.

الثاني: أن يكون السؤال مبنياً على فرض العصمة في بعضهم وهم الذين يطلبون الثواب ولا يريدون

→ تحكى عن المصداق المناسب لها ونفس المصداق اسم للذات عزّت أسماؤه وأنّ الأسماء الملفوظة في الحقيقة أسماء الأسماء، لكنه «رحمه الله» عدّه هذه الأخبار من المتشابهات ولذلك تكلف في أمثال هذه الموارد بما تكلف؛ وأمّا المعنيان الآخران فواضح الفساد كيف والإمام عليه السلام يوصف هذا الاسم بقوله عليه السلام: «ذي الجلال والإكرام...» بعد عطف قوله: «والنور الأعظم» عليه؛ فتأمل فيه. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

استحقاقه كما هو ظاهر السياق، ويكون حاصل الجواب أنه لو كان المجهور على الخيرات مثاباً فمقتضى العدل أن يكون غير المجهور الطالب للخير والاستحقاق غير معاقب على حال، وإلا لكان له الحجة على ربه بأنك لم تعصمني كما عصمت غيري، ومنعت عني اللطف بالبلايا والصوارف عن المعاصي في الدنيا ثم تعذّبتني على المعاصي، فعلى هذا فلو علم غير المعصومين ذلك لدعتهم الدواعي النفسانية إلى غاية الفساد، وهذا وجه وجيه لكن يحتاج إلى طيّ بعض المقدمات.

الثالث: أن يكون السؤال مبنياً على ذلك الفرض أيضاً لكن يكون الجواب مبنياً على أنه قد يستلزم المحالّ نقيضه، إذ الكلام في هذا النوع من الخلق المسمّى بالإنسان الذي اقتضت الحكمة أن يكون قد ركبت فيه أنواع الشهوات والدواعي، فلو فرضته على غير تلك الحالة لكان من قبيل فرض الشيء إنساناً وملكاً وهما لا يجتمعان، فعلى هذا يلزمه أيضاً لفرض كونه إنساناً أن يدعوه عدم خوف العقاب والفراغ إلى الأشر والبطر وأنواع المعاصي، وحاصله يرجع إلى تغيير الجواب الأوّل إلى جواب آخر لا يردّ عليه السؤال على غاية اللطف والدقة.

و«الردع»: الكفّ والمنع. وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يغتبطون» على البناء للفاعل من الاغتباط وهو حسن الحال بحيث يتمني غيره حاله. و«الحضّ»: الحثّ والتحريض. و«تمحيص الأوزار»: تنقيصها أو إزالتها. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فإن قال: ولم يحدث على الناس؟» أقول: لما كان آخر الكلام موهماً لأنّ هذه الأمور بعد حدوثها يصيرها الله تعالى إلى الحكمة والصلاح سأل ثانياً: ما السبب في أصل الحدوث حتّى يحتاج إلى أن يجعله الله صلاحاً؟ ويحتمل أن يكون مراده أنا علمنا أنّ في وجودها صلاحاً فهل في عدمها فساد؟ والجواب على التقديرين ظاهر. وقال الفيروزآبادي: «عوز الشيء» كفرح: لم يوجد، وأعوزه الشيء: احتاج إليه، والدهر أحوجه. وقال: تناشوا: تضاؤوا وتعلّق بعضهم ببعض، ونشبه الأمر كلزم زنة ومعنى. وقال: افرجوا عن الطريق والقتيل: انكشفوا، وعن المكان: تركوه. انتهى. والمراد هنا عدم التخلية بين أحد وبين ما يريد. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولا سلا عن شيء» أي لا ينسى ويتسلّى عن شيء من المصائب إذ بتذكر الموت تزول شدة المحن، من قولهم سلا عن الشيء أي نسيه. وقال الجوهري: بزّه يبرّه بزّاً: سلبه، وفي المثل من عزّ بزّ أي من غلب أخذ السلب. وقال: سامه خسفاً وخسفاً بالضم أي أولاه ذلاً. وقال الفيروزآبادي: لمع بيده: أشار. وقال: تفاقم الأمر: عظم. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وبُخت نصر بالتيه» أقول: لعلّ إشارة إلى ما ذكره جماعة من المؤرّخين أن ملكاً من الملائكة لطم بخت نصر لطمه ومسّخه وصار في الوحش في صورة أسد، وهو مع ذلك يعقل ما يفعله الإنسان، ثم ردّه الله تعالى إلى صورة الإنس وأعاد إليه ملكه فلمّا عاد إلى ملكه أراد قتل دانيال، فقتله الله على يد واحد من غلمانه؛ وقيل في سبب قتله: أن الله أرسل عليه بعوضة فدخلت في منخره وصعدت إلى

رأسه فكان لا يقر ولا يسكن حتى يدق رأسه فمات من ذلك^(١). و«بُلْبِيس» غير معروف عند المؤرخين. والتطاول هنا مبالغة في الطول بمعنى الفضل والإحسان. ودخلة الرجل مثلثة: نيته ومذهبه وجمع أمره وبطانته. قوله عليه السلام: «والشاهد المحنة» أي بالشاهد يمكن امتحان الغائب.

وَاعْلَمْ يَا مُفَضَّلُ أَنَّ اسْمَ هَذَا الْعَالَمِ بِلِسَانِ الْيُونَانِيَّةِ الْجَارِي الْمَعْرُوفِ عِنْدَهُمْ «قوسموس»^(٢)، وَتَفْسِيرُهُ الرِّبْنَةُ وَكَذَلِكَ سَمَّيْتُهُ الْفَلَاسِفَةُ وَمِنْ ادَّعَى الْحِكْمَةَ، أَفَكَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَذَا الْاسْمِ إِلَّا لِمَا رَأَوْا فِيهِ مِنَ التَّقْدِيرِ وَالنِّظَامِ؟ فَلَمْ يَرَوْا أَنْ يُسَمُّوهُ تَقْدِيرًا وَنِظَامًا حَتَّى سَمَّوهُ زِينَةً لِيُخْبِرُوا أَنَّهُ مَعَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّوَابِ وَالْإِتْقَانِ عَلَى غَايَةِ الْحُسْنِ وَالْبَهَاءِ.

أَعْجَبَ يَا مُفَضَّلُ مِنْ قَوْمٍ لَا يَقْضُونَ صِنَاعَةَ الطَّبِّ بِالْخَطِّ وَهُمْ يَرَوْنَ الطَّبِيبَ يُخْطِي، وَيَقْضُونَ عَلَى الْعَالَمِ بِالْإِهْمَالِ وَلَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنْهُ مُهْمَلًا. بَلْ أَعْجَبَ مِنْ أَخْلَاقٍ مَنِ ادَّعَى الْحِكْمَةَ حَتَّى جَهَلُوا مَوَاضِعَهَا فِي الْخَلْقِ فَأَرْسَلُوا أَلْسِنَتَهُمْ بِالذَّمِّ لِلْخَالِقِ جَلٍّ وَعَلَا. بَلِ الْعَجَبُ مِنَ الْمَخْذُولِ «مَانِي» حِينَ ادَّعَى عِلْمَ الْأَسْرَارِ وَعَمِيَ عَنِ دَلَائِلِ الْحِكْمَةِ فِي الْخَلْقِ حَتَّى نَسَبَهُ إِلَى الْخَطِّ وَنَسَبَ خَالِقَهُ إِلَى الْجَهْلِ تَبَارَكَ الْحَلِيمُ^(٣) الْكَرِيمُ. وَأَعْجَبَ مِنْهُمْ جَمِيعًا الْمُعْطَلَةُ الَّذِينَ رَامُوا أَنْ يُدْرِكَ بِالْحِسِّ مَا لَا يُدْرِكُ بِالْعَقْلِ، فَلَمَّا أَعْوَزَهُمْ ذَلِكَ خَرَجُوا إِلَى الْجُحُودِ وَالتَّكْذِيبِ فَقَالُوا: وَلِمَ لَا يُدْرِكُ بِالْعَقْلِ؟ قِيلَ: لِأَنَّهُ فَوْقَ مَرْتَبَةِ الْعَقْلِ كَمَا لَا يُدْرِكُ الْبَصَرُ مَا هُوَ فَوْقَ مَرْتَبَتِهِ، فَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ حَجَرًا يَرْتَفِعُ فِي السَّمَاءِ عَلِمْتَ أَنَّ رَامِيًا رَمَى بِهِ، فَلَيْسَ هَذَا الْعِلْمُ مِنْ قِبَلِ الْبَصَرِ بَلْ مِنْ قِبَلِ الْعَقْلِ، لِأَنَّ الْعَقْلَ هُوَ الَّذِي يُمَيِّزُهُ فَيَعْلَمُ أَنَّ الْحَجَرَ لَا يَذْهَبُ عَلَوًّا مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ. أَفَلَا تَرَى كَيْفَ وَقَفَ الْبَصَرُ عَلَى حَدِّهِ فَلَمْ يَتَجَاوِزْهُ؟ فَكَذَلِكَ يَقِفُ الْعَقْلُ عَلَى حَدِّهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الْخَالِقِ فَلَا يَعْدُوهُ، وَلَكِنْ يَعْقِلُهُ بِعَقْلِ أَقَرَّ أَنْ فِيهِ نَفْسًا وَلَمْ يُعَايِنَهَا وَلَمْ يُدْرِكْهَا بِحَاسَّةٍ مِنَ الْحَوَاسِّ، وَعَلَى حَسَبِ هَذَا أَيْضًا نَقُولُ: إِنَّ الْعَقْلَ يَعْرِفُ الْخَالِقَ مِنْ جِهَةٍ تَوْجِبُ عَلَيْهِ الْإِقْرَارَ وَلَا يَعْرِفُهُ بِمَا يُوْجِبُ لَهُ الْإِحَاطَةَ بِصِفَتِهِ.

فَإِنْ قَالُوا: فَكَيْفَ يُكَلِّفُ الْعَبْدُ الضَّعِيفُ مَعْرِفَتَهُ بِالْعَقْلِ اللَّطِيفِ وَلَا يُحِيطُ بِهِ؟ قِيلَ لَهُمْ: إِنَّمَا كَلَّفَ الْعِبَادُ مِنْ ذَلِكَ مَا فِي طَاقَتِهِمْ أَنْ يَبْلُغُوهُ، وَهُوَ أَنْ يُوقِنُوا بِهِ وَيَقْنُوا عِنْدَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَلَمْ يُكَلَّفُوا الْإِحَاطَةَ بِصِفَتِهِ، كَمَا أَنَّ الْمَلِكَ لَا يُكَلَّفُ رَعِيَّتَهُ أَنْ يَعْلَمُوا أَوْ طَوِيلُ هُوَ أَمْ قَصِيرُ، أَوْ بَيَضُ هُوَ أَمْ أَسْمَرُ^(٤)، وَإِنَّمَا يُكَلَّفُهُمُ الْإِدْعَانُ بِسُلْطَانِهِ وَالْإِنْتِهَاءُ إِلَى أَمْرِهِ. أَلَا تَرَى أَنَّ رَجُلًا لَوْ أَتَى بَابَ الْمَلِكِ فَقَالَ: اغْرِضْ عَلَيَّ نَفْسَكَ حَتَّى أَتَقَصَّى^(٥) مَعْرِفَتَكَ^(٦) وَإِلَّا لَمْ أَسْمَعْ لَكَ كَانَ قَدْ أَحَلَّ نَفْسَهُ

١. الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٢٦٨، وأشار المؤلف «رحمه الله» إلى قصة بخت نصر في تَمَتَّة كتاب النبوة، أبواب قصص عيسى وأمه وأبويها.

٢. وفي نسخة بدل: فرسموس، وفي نسخة بدل أخرى: ققموس. (هامش المصدر)

٣. في المصدر: «الحكيم».

٤. السمرة: أحد الألوان المركبة بين البياض والسواد، راجع مفردات ألفاظ القرآن.

٥. وفي نسخة: اتقضى. (هامش المصدر)

٦. تَقَصَّيْتُ الْأَمْرَ: بَلَغْتَ أَقْصَاهُ، رَاجِعُ لِسَانِ الْعَرَبِ.

الْعُقُوبَةُ؟ فَكَذَا الْقَائِلُ أَنَّهُ لَا يُقَرُّ بِالْخَالِقِ سُبْحَانَهُ حَتَّى يُحِيطَ بِكُنْهِهِ مُتَعَرِّضٌ لِسَخَطِهِ.

فَإِنْ قَالُوا: أَوَلَيْسَ قَدْ نَصَفَهُ فَنَقُولُ: هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ؟ قِيلَ لَهُمْ: كُلُّ هَذِهِ صِفَاتُ إِقْرَارٍ، وَلَيْسَتْ صِفَاتُ إِحَاطَةٍ، فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ حَكِيمٌ وَلَا نَعْلَمُ بِكُنْهِ ذَلِكَ مِنْهُ^(١)، وَكَذَلِكَ قَدِيرٌ وَجَوَادٌ وَسَائِرُ صِفَاتِهِ كَمَا قَدْ نَرَى السَّمَاءَ وَلَا نَدْرِي مَا جَوْهَرُهَا، وَنَرَى الْبَحْرَ وَلَا نَدْرِي أَيْنَ مُنْتَهَاهُ، بَلْ فَوْقَ هَذَا الْمِثَالِ بِمَا لَا نِهَآيَةَ لَهُ لِأَنَّ الْأَمْثَالَ كُلَّهَا تَقْصُرُ عَنْهُ وَلَكِنَّهَا تَقُودُ الْعَقْلَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ.

فَإِنْ قَالُوا: وَلِمَ يُخْتَلَفُ فِيهِ؟ قِيلَ لَهُمْ: لِقَصْرِ الْأَوْهَامِ عَنْ مَدَى عَظَمَتِهِ وَتَعَدِّيهِمَا أَقْدَارَهَا فِي طَلَبِ مَعْرِفَتِهِ، وَأَنَّهَا تَرُومُ^(٢) الْإِحَاطَةَ بِهِ وَهِيَ تَعْجُزُ عَنْ ذَلِكَ وَمَا دُونَهُ، فَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي تَرَاهَا تَطْلُعُ عَلَى الْعَالَمِ وَلَا يُوَقَّفُ عَلَى حَقِيقَةِ أَمْرِهَا، وَلِذَلِكَ كَثُرَتِ الْأَقَاوِيلُ فِيهَا وَاخْتَلَفَتِ الْفَلَاسِفَةُ الْمَذْكُورُونَ فِي وَصْفِهَا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ فَلَكَ أَجُوفٌ مَمْلُوءٌ نَارًا، لَهُ فَمٌ يَحْيِسُ بِهَذَا الْوَهَجِ^(٣) وَالشُّعَاعِ؛ وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ سَحَابَةٌ؛ وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ جِسْمٌ زُجَاجِيٌّ يَقْبَلُ نَارِيَّةً فِي الْعَالَمِ وَيُرْسِلُ عَلَيْهِ شُعَاعَهَا؛ وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ صَفْوٌ لَطِيفٌ يَنْعَقِدُ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ؛ وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ أَجْزَاءُ كَثِيرَةٌ مُجْتَمِعَةٌ مِنَ النَّارِ؛ وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ مِنْ جَوْهَرٍ خَامِسٍ سِوَى الْجَوَاهِرِ الْأَرْبَعِ. ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي شَكْلِهَا فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ بِمَنْزِلَةِ صَفِيحَةٍ عَرِيضَةٍ؛ وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ كَالْكُرَةِ^(٤) الْمُدْحَرَجَةِ^(٥). وَكَذَلِكَ اخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِهَا فَرَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّهَا مِثْلُ الْأَرْضِ سِوَاءٍ؛ وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هِيَ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ؛ وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ أَعْظَمُ مِنَ الْجَزِيرَةِ الْعَظِيمَةِ؛ وَقَالَ أَصْحَابُ الْهِنْدَسَةِ: هِيَ أَضْعَافُ الْأَرْضِ مِائَةً وَسَبْعُونَ مَرَّةً. فَفِي اخْتِلَافِ هَذِهِ الْأَقَاوِيلِ مِنْهُمْ فِي الشَّمْسِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يَفْقَهُوا عَلَى الْحَقِيقَةِ مِنْ أَمْرِهَا، وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي يَقَعُ عَلَيْهَا الْبَصَرُ وَ يُدْرِكُهَا الْحِسُّ قَدْ عَجَزَتْ الْعُقُولُ عَنِ الْوُقُوفِ عَلَى حَقِيقَتِهَا فَكَيْفَ مَا لَطَفَ عَنِ الْحِسِّ وَاسْتَرَعَ عَنِ الْوَهْمِ؟

فَإِنْ قَالُوا: وَلِمَ اسْتَرَعَ؟ قِيلَ لَهُمْ: لَمْ يَسْتَرِ بِحِيلَةٍ يَخْلُصُ إِلَيْهَا كَمَنْ يَخْتَجِبُ عَنِ النَّاسِ بِالْأَبْوَابِ وَالسُّتُورِ، وَإِنَّمَا مَعْنَى قَوْلِنَا: اسْتَرَعَ أَنَّهُ لَطَفَ عَنْ مَدَى مَا تَبْلُغُهُ الْأَوْهَامُ، كَمَا لَطَفَتِ النَّفْسُ وَهِيَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ وَارْتَفَعَتْ عَنْ إدْرَاكِهَا بِالنَّظَرِ.

فَإِنْ قَالُوا: وَلِمَ لَطَفَ؟ - وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا - كَانَ ذَلِكَ خَطَأً مِنَ الْقَوْلِ لِأَنَّهُ لَا يَلِيقُ بِالَّذِي هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُبَايِنًا لِكُلِّ شَيْءٍ، مُتَعَالِيًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

١. في المصدر: «ولا نحيط بكنه ذلك منه».

٢. رام الشيء يرومه: طلبه، راجع لسان العرب.

٣. الوهج: حرارة الشمس، راجع لسان العرب.

٤. في المصدر: «بل هي أعظم كالكرة».

٥. المدحرج: المدور، راجع لسان العرب.

فَإِنْ قَالُوا: كَيْفَ يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ مُبَايِنًا لِكُلِّ شَيْءٍ مُتَعَالِيًا^(١)؟ قِيلَ لَهُمْ: الْحَقُّ الَّذِي تُطَلِّبُ مَعْرِفَتَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ هُوَ أَرْبَعَةٌ أَوْجُهُ: فَأَوَّلُهَا: أَنْ يُنْظَرَ أَوْجُودُهُ هُوَ أَمْ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ، وَالثَّانِي: أَنْ يُعْرِفَ مَا هُوَ فِي ذَاتِهِ وَجْهَهُ، وَالثَّلَاثُ: أَنْ يُعْرِفَ كَيْفَ هُوَ وَمَا صِفَتُهُ، وَالرَّابِعُ: أَنْ يُعْلَمَ لِمَاذَا هُوَ وَلِأَيَّةِ عِلَّةٍ. فَلَيْسَ مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ شَيْءٌ يُمَكِّنُ الْمَخْلُوقَ أَنْ يَعْرِفَهُ مِنَ الْخَالِقِ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ غَيْرُ أَنَّهُ مَوْجُودٌ فَقَطُّ. فَإِذَا قُلْنَا: كَيْفَ وَمَا هُوَ؟ فَمُمْتَنِعٌ عِلْمُ كُنْهِهِ وَكَمَالُ الْمَعْرِفَةِ بِهِ؛ وَأَمَّا لِمَاذَا هُوَ فَسَاقِطٌ فِي صِفَةِ الْخَالِقِ لِأَنَّهُ جَلٌّ تَنَاوَاهُ عِلَّةُ كُلِّ شَيْءٍ وَلَيْسَ شَيْءٌ بِعِلَّةٍ لَهُ. ثُمَّ لَيْسَ عِلْمُ الْإِنْسَانِ بِأَنَّهُ مَوْجُودٌ يُوجِبُ لَهُ أَنْ يَعْلَمَ مَا هُوَ^(٢)، كَمَا أَنَّ عِلْمَهُ بِوُجُودِ النَّفْسِ لَا يُوجِبُ أَنْ يَعْلَمَ مَا هِيَ، وَكَيْفَ هِيَ، وَكَذَلِكَ الْأُمُورُ الرُّوحَانِيَّةُ اللَّطِيفَةُ. فَإِنْ قَالُوا: فَانْتُمْ الْآنَ تَصِفُونَ مِنْ قُصُورِ الْعِلْمِ عَنْهُ وَصِفًا حَتَّى كَأَنَّهُ غَيْرُ مَعْلُومٍ! قِيلَ لَهُمْ: هُوَ كَذَلِكَ مِنْ جِهَةٍ إِذَا رَامَ الْعَقْلُ مَعْرِفَةَ كُنْهِهِ وَالْإِحَاطَةَ بِهِ، وَهُوَ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى أَقْرَبُ مِنْ كُلِّ قَرِيبٍ إِذَا اسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِالذَّلَائِلِ الشَّافِيَةِ^(٣)، فَهُوَ مِنْ جِهَةٍ كَالْوَاضِحِ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ، وَهُوَ مِنْ جِهَةٍ كَالْغَامِضِ لَا يُدْرِكُهُ أَحَدٌ، وَكَذَلِكَ الْعَقْلُ أَيْضًا ظَاهِرٌ بِشَوَاهِدٍ^(٤) وَمُسْتَوْرٍ بِذَاتِهِ.

فَأَمَّا أَصْحَابُ الطَّبَائِعِ فَقَالُوا: إِنَّ الطَّبِيعَةَ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا لَغَيْرِ مَعْنَى وَلَا تَتَجَاوَزُ عَمَّا فِيهِ تَمَامُ الشَّيْءِ فِي طَبِيعَتِهِ^(٥)، وَزَعَمُوا أَنَّ الْحِكْمَةَ تَشْهَدُ بِذَلِكَ^(٦)، فَقِيلَ لَهُمْ: فَمَنْ أَعْطَى الطَّبِيعَةَ هَذِهِ الْحِكْمَةَ وَالْوُقُوفَ عَلَى حُدُودِ الْأَشْيَاءِ بِلَا مُجَاوِزَةٍ لَهَا، وَهَذَا قَدْ تَعَجَّزَ عَنْهُ الْعُقُولُ بَعْدَ طَوْلِ التَّجَارِبِ؟ فَإِنْ أَوْجَبُوا لِلطَّبِيعَةِ الْحِكْمَةَ وَالْقُدْرَةَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْأَفْعَالِ فَقَدْ أَقْرَأُوا بِمَا أَنْكَرُوا لِأَنَّ هَذِهِ هِيَ صِفَاتُ الْخَالِقِ، وَإِنْ أَنْكَرُوا أَنْ يَكُونَ هَذَا لِلطَّبِيعَةِ فَهَذَا وَجْهٌ الْخَلْقِ يَهْتَفُ بِأَنَّ الْفِعْلَ لِلْخَالِقِ الْحَكِيمِ.

وَقَدْ كَانَ مِنَ الْقَدَمَاءِ طَائِفَةٌ أَنْكَرُوا الْعَمْدَ وَالتَّدْبِيرَ فِي الْأَشْيَاءِ وَزَعَمُوا أَنَّ كَوْنَهَا بِالْعَرَضِ وَالِاتِّفَاقِ، وَكَانَ مِمَّا اخْتَبَجُوا بِهِ هَذِهِ الْأَقَاتُ^(٧) الَّتِي تَلِدُ غَيْرَ مَجْرَى^(٨) الْعُرْفِ وَالْعَادَةِ كَالْإِنْسَانِ يُولَدُ نَاقِصًا أَوْ زَائِدًا أَصْبَعًا، أَوْ يَكُونُ الْمَوْلُودُ مُشَوَّهًا^(٩) مُبَدَّلَ الْخَلْقِ، فَجَعَلُوا هَذَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّ كَوْنَ الْأَشْيَاءِ لَيْسَ بِعَمْدٍ وَتَقْدِيرٍ، بَلْ بِالْعَرَضِ كَيْفَ مَا اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ.

١. في المصدر: «مبايناً لكل شيء متعالياً عن كل شيء».

٢. في المصدر: «ما هو وكيف هو».

٣. وفي نسخة بدل: الشاهدة. (هامش المصدر)

٤. في المصدر: «بشواهد».

٥. وفي نسخة: طبقته. (هامش المصدر)

٦. في المصدر: «وزعموا أن المحنة تشهد بذلك».

٧. وفي نسخة بدل: هذه الإناءات. (هامش المصدر)

٨. في المصدر: «هذه الآيات التي تكون على غير مجرى».

٩. المشوّه: القبيح الشكل الذي لا يوافق بعضه بعضاً، راجع تاج العروس.

وَقَدْ كَانَ أَرْسَاطًا لَيْسَ رَدٌّ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي يَكُونُ بِالْعَرَضِ وَالِاتِّفَاقِ إِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ يَأْتِي فِي الْفَرْطِ مَرَّةً لِأَعْرَاضٍ تَعْرِضُ لِلطَّبِيعَةِ فَتَزِيلُهَا عَنْ سَبِيلِهَا، وَلَيْسَ بِمَنْزِلَةِ الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ الْجَارِيَةِ عَلَى شَكْلِ وَاحِدٍ جَزِيئاً دَائِماً مُتَتَابِعاً. وَأَنْتَ يَا مُفَضَّلُ تَرَى أَصْنَافَ الْحَيَوَانِ أَنْ يَجْرِيَ أَكْثَرُ ذَلِكَ عَلَى مِثَالٍ وَمِنْهَا جَاحِدٌ، كَالْإِنْسَانِ يُوَلَّدُ وَلَهُ يَدَانِ وَرِجْلَانِ وَخَمْسُ أَصَابِعَ كَمَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنَ النَّاسِ، فَأَمَّا مَا يُوَلَّدُ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لِعِلَّةٍ تَكُونُ فِي الرَّحِمِ أَوْ فِي الْمَادَّةِ الَّتِي يَنْشَأُ مِنْهَا الْجَنِينُ، كَمَا يَعْرِضُ فِي الصَّنَاعَاتِ حِينَ يَتَعَمَّدُ الصَّانِعُ الصَّوَابَ فِي صُنْعِهِ فَيَعُوقُ دُونَ ذَلِكَ عَائِقُ فِي الْأَدَاةِ، أَوْ فِي آلَةِ الَّتِي يَعْمَلُ فِيهَا الشَّيْءُ، فَقَدْ يَحْدُثُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي أَوْلَادِ الْحَيَوَانِ لِلْأَسْبَابِ الَّتِي وَصَفْنَا، فَيَأْتِي الْوَلَدُ زَائِداً أَوْ نَاقِصاً أَوْ مُشَوَّهاً وَيَسْلَمُ أَكْثَرُهَا فَيَأْتِي سَوِيّاً لَا عِلَّةَ فِيهِ، فَكَمَا أَنَّ الَّذِي يُحْدِثُ فِي بَعْضِ الْأَعْمَالِ الْأَعْرَاضَ لِعِلَّةٍ فِيهِ لَا تُوجِبُ عَلَيْهَا جَمِيعاً الْإِهْمَالَ وَعَدَمَ الصَّانِعِ، كَذَلِكَ مَا يَحْدُثُ عَلَى بَعْضِ الْأَفْعَالِ الطَّبِيعِيَّةِ لِعَائِقٍ يَدْخُلُ عَلَيْهَا لَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُهَا بِالْعَرَضِ وَالِاتِّفَاقِ، فَقَوْلُ مَنْ قَالَ فِي الْأَشْيَاءِ: إِنَّ كَوْنَهَا بِالْعَرَضِ وَالِاتِّفَاقِ مِنْ قَبْلِ^(١) أَنْ شَيْئاً مِنْهَا يَأْتِي عَلَى خِلَافِ الطَّبِيعَةِ يَعْرِضُ لَهُ خَطَأٌ وَخَطْلٌ^(٢).

فَإِنْ قَالُوا: وَلِمَ صَارَ مِثْلُ هَذَا يَحْدُثُ فِي الْأَشْيَاءِ؟ قِيلَ لَهُمْ: لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ كَوْنُ الْأَشْيَاءِ بِاضْطِرَارٍ مِنَ الطَّبِيعَةِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ سِوَاهُ كَمَا قَالَ قَائِلُونَ، بَلْ هُوَ تَقْدِيرٌ وَعَمْدٌ مِنْ خَالِقٍ حَكِيمٍ، إِذْ جَعَلَ الطَّبِيعَةَ تَجْرِي أَكْثَرَ ذَلِكَ عَلَى مَجْرَى وَمِنْهَا جَاحِدٌ مَعْرُوفٍ، وَيَزُولُ أحياناً عَنْ ذَلِكَ لِأَعْرَاضٍ تَعْرِضُ لَهَا فَيُسْتَدَلُّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهَا مُصَرَّفَةٌ مُدَبَّرَةٌ فَقِيرَةٌ إِلَى إِبْدَاءِ الْخَالِقِ وَقُدْرَتِهِ فِي بُلُوغِ غَايَتِهَا وَإِتِمَامِ عَمَلِهَا، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.

يَا مُفَضَّلُ خُذْ مَا آتَيْتَكَ وَاحْفَظْ مَا مَنَحْتُكَ، وَكُنْ لِرَبِّكَ مِنَ الشَّاكِرِينَ، وَلَا لَآئِهِ مِنَ الْحَامِدِينَ، وَلَا وَلِيَّائِهِ مِنَ الْمُطِيعِينَ، فَقَدْ شَرَحْتُ لَكَ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَى الْخَلْقِ وَالشَّوَاهِدِ عَلَى صَوَابِ التَّدْبِيرِ وَالْعَمْدِ قَلِيلاً مِنْ كَثِيرٍ، وَجُزْءاً مِنْ كُلِّ تَدَبُّرٍ وَفَكْرٍ^(٣) فِيهِ وَاعْتَبِرْ بِهِ. فَقُلْتُ: بِمَعُونَتِكَ يَا مَوْلَايَ أَقْوَى^(٤) عَلَى ذَلِكَ وَأُبْلَغُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِي فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: احْفَظْ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَلَا تَتَسَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ^(٥).

فَخَرَزْتُ مَعْشِيَةً عَلَيَّ، فَلَمَّا أَفَقْتُ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَيْفَ تَرَى نَفْسَكَ يَا مُفَضَّلُ؟ قُلْتُ: قَدْ اسْتَعْنَيْتُ بِمَعُونَةِ مَوْلَايَ وَتَأْيِيدِهِ عَنِ الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبْتُهُ، وَصَارَ ذَلِكَ بَيْنَ يَدَيَّ كَأَنَّمَا أَقْرُوهُ مِنْ كَفِّي، وَلِمَوْلَايَ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ كَمَا هُوَ أَهْلُهُ وَمُسْتَحَقُّهُ. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا مُفَضَّلُ فَرَّغْ قَلْبَكَ وَاجْمَعْ إِلَيْكَ ذِهْنَكَ وَعَقْلَكَ وَطُمَأْنِينَتَكَ فَسَأَلْتَنِي إِلَيْكَ مِنْ عِلْمِ مَلَكَوَتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا خَلَقَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا، وَفِيهِمَا مِنْ عَجَائِبِ خَلْقِهِ وَأَصْنَافِ الْمَلَائِكَةِ وَصُفُوفِهِمْ وَمَقَامَاتِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ إِلَى سِدْرَةِ

١. وفي نسخة: من قبيل. (هامش المصدر)

٢. الخطل: المنطق الفاسد المضطرب، راجع الصحاح.

٣. في بعض النسخ: وذكر. (هامش المصدر)

٤. وفي نسخة: أقتر. (هامش المصدر)

٥. وفي نسخة: ولا تنس بمشيئة الله. (هامش المصدر)

الْمُتَنَهَى، وَسَائِرِ الْخَلْقِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِلَى الْأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَى وَمَا تَحْتَ الثَّرَى حَتَّى يَكُونَ مَا وَعَيْتُهُ جُزْءًا مِنْ أَجْزَاءِ. انْصَرَفَ إِذَا شِئْتَ مُصَاحِبًا مَكْلُوءًا^(١) فَأَنْتَ مِنَّا بِالْمَكَانِ الرَّفِيعِ، وَمَوْضِعِكَ مِنْ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مَوْضِعُ الْمَاءِ مِنَ الصَّدى، وَلَا تَسْأَلَنَّ عَمَّا وَعَدْتُكَ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا.
قَالَ الْمُفَضَّلُ: فَأَنْصَرَفْتُ مِنْ عِنْدِ مَوْلَايَ بِمَا لَمْ يَنْصَرِفِ أَحَدٌ بِمِثْلِهِ.

بيان:

جاش البحر والقدر وغيرهما يجيش جيشاً: غلا. قوله عليه السلام: «قال أصحاب الهندسة» أقول: المشهور بين متأخريهم أن جرم الشمس مائة وستة وستون مثلاً وربيع وثمان لجرم الأرض، وما ذكره عليه السلام لعله كان مذهب قدمائهم مع أنه قريب من المشهور، والاختلاف بين قدمائهم ومتأخريهم في أمثال ذلك كثير. قوله عليه السلام: «الحقّ الذي» أي الأمور الحقّة الثابتة التي تطلب معرفتها من بين الأشياء. وفي بعض النسخ «لحق» أي ما يحقّ وينبغي أن تطلب معرفته من أحوال الأشياء هو أربعة أوجه. وقال الجوهري: قولهم لقيته في الفرط بعد الفرط أي الحين بعد الحين. و«الصدى» بالفتح: العطش.
ثم أعلم أن بعض تلك الفقرات تومئ إلى تجرّد النفس، واللّه يعلم وحججه «صلوات اللّه عليهم أجمعين»^(٢).

١. كلاك الله: حفظك وحرسك، والمفعول منه مكلوء، راجع لسان العرب.

٢. بل إلى وجود أمور أخرى غير النفس مجردة كما يشعر به قوله عليه السلام: «وكذلك الأمور الروحانية اللطيفة» ومنه يظهر أن وصف شيء بأنه روحاني أو لطيف في الأخبار يشعر بتجرّده. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

﴿باب ٥﴾

«الخبر المروي عن المفضل بن عمر في التوحيد المشتهر بالإهليلجة»^(١)»^(٢)

١٢١٠. حَدَّثَنِي مُخَرِّزُ بْنُ سَعِيدٍ النَّخَوِيُّ بِدِمَشْقَ قَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مُسَهَّرٍ^(٣) بِالرَّمْلَةِ^(٤)، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: كَتَبَ الْمُفَضَّلُ بْنُ عُمَرَ الْجَعْفِيُّ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُعَلِّمُهُ أَنْ أَقْوَاماً ظَهَرُوا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْمِلَّةِ يَجْحَدُونَ الرُّبُوبِيَّةَ، وَيَجَادِلُونَ عَلَى ذَلِكَ، وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ، وَيَحْتَجَّ عَلَيْهِمْ فِيمَا ادَّعَوْا بِحَسَبِ مَا اخْتَجَّ بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَكَتَبَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَمَّا بَعْدُ وَفَقْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكَ لِبَطَاعَتِهِ، وَأَوْجَبَ لَنَا بِذَلِكَ رِضْوَانَهُ بِرَحْمَتِهِ، وَصَلَّ كِتَابَكَ تَذَكُّرُ فِيهِ مَا ظَهَرَ فِي مِلَّتِنَا، وَذَلِكَ مِنْ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْأَلْحَادِ بِالرُّبُوبِيَّةِ قَدْ كَثُرَتْ عِدَّتُهُمْ وَاشْتَدَّتْ خُصُومَتُهُمْ، وَتَسَالَى أَنْ أَصْنَعَ لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ وَالنَّقْضِ لِمَا فِي أَيْدِيهِمْ كِتَاباً عَلَى نَحْوِ مَا رَدَدْتُ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْإِخْتِلَافِ، وَنَحْنُ نَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى النِّعَمِ السَّابِقَةِ وَالْحُجَجِ الْبَالِغَةِ وَالْبَلَاءِ الْمَحْمُودِ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ، فَكَانَ مِنْ نِعَمِهِ الْعِظَامِ وَالْآيَةِ الْجَسَامِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا تَقْرِيرُهُ قُلُوبَهُمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَأَخَذَهُ مِيثَاقَهُمْ بِمَعْرِفَتِهِ، وَإِنْزَالُهُ عَلَيْهِمْ كِتَاباً فِيهِ شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ مِنْ أَمْرَاضِ الْخَوَاطِرِ وَمُسْتَبْهَاتِ الْأُمُورِ، وَلَمْ يَدَعْ لَهُمْ وَلِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ حَاجَةً إِلَى مَنْ سِوَاهُ، وَاسْتَغْنَى عَنْهُمْ، وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً.

١. الإهليلج: وقد تكسر اللام الثانية والواحدة بهاء، ثمر منه أصفر، ومنه أسود ومنه كابلبي، له نفع ويحفظ العقل ويزيل الصداع، وهو في المعدة كالعاقلة المدبرة في البيت، راجع مجمع البحرين.

٢. كتاب الإهليلجة في التوحيد: رسالة من الإمام الصادق أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام، كتبها في جواب ما كتب إليه المفضل بن عمر الجعفي، يسأله فيه أن يكتب رداً على الملحدين المنكرين للرؤوبية واحتجاجاً عليهم، كما صرح به ابن شهر آشوب في المعالم، وذكر السيد بن الطائوس بعض الخبر في كتاب النجوم.

وطبع أخيراً هذه الرسالة مكتبة العلامة المجلسي «رحمه الله» بقم المقدسة، وقابلوها بالنسخ الخطية من هذه الرسالة، و أثبتوا ما بينها من اختلافات؛ وهي التي اعتمدنا عليها ونشير إليها في الهامش بعنوان المصدر.

٣. وفي نسخة: محمد بن أبي مشتهر. (هامش المطبوع)

٤. رملة: مدينة بالشام، راجع لسان العرب.

وَلَعَمْرِي مَا أَتَى الْجَهَّالُ مِنْ قَبْلِ رَبِّهِمْ، وَإِنَّهُمْ لَيَرَوْنَ الدَّلَالَاتِ الْوَاضِحَاتِ وَالْعَلَامَاتِ الْبَيِّنَاتِ فِي خَلْقِهِمْ، وَمَا يَعَايُنُونَ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالصُّنْعِ الْعَجِيبِ الْمُتَقَنَّ الدَّالَّ عَلَى الصَّانِعِ، وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ فَتَحُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَبْوَابَ الْمَعَاصِي، وَسَهَّلُوا لَهَا سَبِيلَ الشَّهَوَاتِ، فَعَلَبَتِ الْأَهْوَاءُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَاسْتَحْوَذَ الشَّيْطَانُ بِظُلْمِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَكَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْمُتَعَدِّينَ. وَالْعَجَبُ مِنْ مَخْلُوقٍ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ يَخْفَى عَلَى عِبَادِهِ، وَهُوَ يَرَى أَثَرَ الصُّنْعِ فِي نَفْسِهِ بِتَرْكِيبِ بَيِّنِهِ^(١) عَقْلَهُ، وَتَأْلِيفِ يُبْطِلُ حُجَّتَهُ^(٢)، وَلَعَمْرِي لَوْ تَفَكَّرُوا فِي هَذِهِ الْأُمُورِ الْعِظَامِ^(٣) لَعَايَنُوا مِنْ أَمْرِ التَّرْكِيبِ الْبَيِّنِ، وَلَطَفَ التَّنْدِيرِ الظَّاهِرِ^(٤)، وَوُجُودِ الْأَشْيَاءِ مَخْلُوقَةً بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ، ثُمَّ تَحَوَّلَهَا مِنْ طَبِيعَةٍ إِلَى طَبِيعَةٍ، وَصَنِيعَةٍ بَعْدَ صَنِيعَةٍ، مَا يَدُلُّهُمْ ذَلِكَ عَلَى الصَّانِعِ فَإِنَّهُ لَا يَخْلُو شَيْءٌ مِنْهَا مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ أَثَرُ تَدْيِيرٍ وَتَرْكِيبٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهُ خَالِقًا مُدَبِّرًا، وَتَأْلِيفُ تَدْيِيرٍ يَهْدِي إِلَى وَاحِدٍ حَكِيمٍ.

وَقَدْ وَافَانِي^(٥) كِتَابُكَ وَرَسَمْتُ لَكَ كِتَابًا كُنْتُ نَارَعْتُ فِيهِ بَعْضَ أَهْلِ الْأَذْيَانِ مِنْ أَهْلِ الْإِنْكَارِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَحْضُرُنِي طَبِيبٌ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ، وَكَانَ لَا يَزَالُ يُنَازِعُنِي فِي رَأْيِهِ، وَيُجَادِلُنِي عَلَى ضَلَالَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ يَوْمًا يَدُقُّ إِهْلِيلَجَةً لِيُخْلِطَهَا دَوَاءً احْتَجْتُ إِلَيْهِ^(٦) مِنْ أَدْوِيَّتِهِ، إِذْ عَرَضَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِهِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يُنَازِعُنِي فِيهِ مِنْ ادِّعَائِهِ أَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَزَلْ وَلَا تَزَالُ شَجَرَةً تَنْبُتُ وَأُخْرَى تَسْقُطُ، نَفْسٌ تُوَلَّدُ وَأُخْرَى تَتَلَفُ، وَزَعَمَ أَنَّ انْتِحَالِي^(٧) الْمَعْرِفَةَ لِلَّهِ تَعَالَى دَعْوَى لَا بَيِّنَةَ لِي عَلَيْهَا، وَلَا حُجَّةَ لِي فِيهَا، وَأَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ أَخَذَهُ الْآخِرُ عَنِ الْأَوَّلِ، وَالْأَصْغَرُ عَنِ الْأَكْبَرِ، وَأَنَّ الْأَشْيَاءَ الْمُخْتَلِفَةَ وَالْمُؤْتَلِفَةَ وَالْبَاطِنَةَ وَالظَّاهِرَةَ إِنَّمَا تُعْرَفُ بِالْحَوَاسِّ الْخَمْسِ: نَظَرِ الْعَيْنِ، وَسَمْعِ الْأُذُنِ، وَشَمِّ الْأَنْفِ، وَذَوْقِ الْفَمِ، وَلَمْسِ الْجَوَارِحِ، ثُمَّ قَادَ مِنْطَقَهُ عَلَى الْأَصْلِ الَّذِي وَضَعَهُ فَقَالَ: لَمْ يَقَعْ شَيْءٌ مِنْ حَوَاسِّي عَلَى خَالِقٍ يُودِّي إِلَى قَلْبِي، إِنْكَارًا لِلَّهِ تَعَالَى. ثُمَّ قَالَ: أَخْبِرْنِي بِمَ تَحْتَجُّ فِي مَعْرِفَةِ رَبِّكَ الَّذِي تَصِفُ قُدْرَتَهُ وَرُبُوبِيَّتَهُ، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ الْقَلْبُ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا بِالدَّلَالَاتِ الْخَمْسِ الَّتِي وَصَفْتُ لَكَ؟ قُلْتُ: بِالْعَقْلِ^(٨) الَّذِي فِي قَلْبِي، وَالدَّلِيلِ الَّذِي أَخْتَجُّ بِهِ فِي مَعْرِفَتِهِ. قَالَ: فَأَنَّى يَكُونُ مَا تَقُولُ وَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ الْقَلْبَ لَا يَعْرِفُ شَيْئًا بَغَيْرِ الْحَوَاسِّ الْخَمْسِ؟^(٩) فَهَلْ عَايَنْتَ رَبَّكَ بِبَصَرٍ، أَوْ سَمِعْتَ صَوْتَهُ بِأُذُنٍ، أَوْ

١. بهره: قهره، وعلاه وغلبه، راجع لسان العرب.

٢. وفي نسخة: وتأليف يبطل جوده. (هامش المصدر)

٣. في المصدر مع زيادة: «المحدودة في الأجسام».

٤. في المصدر مع زيادة: «وعجيب الصنع المتقن».

٥. وافاه: أتاها، راجع المغرب.

٦. وفي نسخة: إهليلجة لدواء أحتاج إليها. (هامش المصدر)

٧. الانتحال: ادعاء الشيء [والانتساب إليه]، راجع مفردات ألفاظ القرآن.

٨. في المصدر: «عرفته بالعقل...».

٩. **نقول:** المراد بالقلب هنا هو العقل وهو أحد معانيه في اللغة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ (ق/٣٧) وغيره من الآيات القرآنية.

شَمِئْتَهُ بِسَيِّمٍ، أَوْ دُقَّتْهُ بِقَمٍّ، أَوْ مَسِسْتَهُ بِيَدٍ فَأَدَّى ذَلِكَ الْمَعْرِفَةَ إِلَى قَلْبِكَ؟ قُلْتُ: أَرَأَيْتَ إِذَا^(١) أَنْكَرْتَ اللَّهَ وَجَحَدْتَهُ - لِأَنَّكَ زَعَمْتَ أَنَّكَ لَا تُحِسُّهُ بِحَوَاسِّكَ الَّتِي تَعْرِفُ بِهَا الْأَشْيَاءَ - وَأَقْرَبْتُ أَنَا بِهِ هَلْ بُدُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَحَدُنَا صَادِقًا وَالْآخَرُ كَاذِبًا؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ الْقَوْلُ قَوْلَكَ فَهَلْ يُخَافُ عَلَيَّ شَيْءٌ مِمَّا أَخَوْفُكَ بِهِ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ كَمَا أَقُولُ وَالْحَقُّ فِي يَدِي، أَلَسْتُ قَدْ أَخَذْتُ فِيمَا كُنْتُ أَخَذِرُ مِنْ عِقَابِ الْخَالِقِ بِالثَّقَةِ، وَأَنَّكَ قَدْ وَقَعْتَ بِجُحُودِكَ وَإِنْكَارِكَ فِي الْهَلَكَةِ؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: فَأَيُّنَا أَوْلَى بِالْحَزْمِ وَأَقْرَبُ مِنَ النَّجَاةِ؟ قَالَ: أَنْتَ، إِلَّا أَنَّكَ مِنْ أَمْرِكَ عَلَى ادِّعَاءٍ وَشُبْهَةٍ، وَأَنَا عَلَى يَقِينٍ وَثَقَةٍ، لِأَنِّي لَا أَرَى حَوَاسِّي الْخَمْسِ أَدْرَكْتُهُ، وَمَا لَمْ تُدْرِكْهُ حَوَاسِّي فَلَيْسَ عِنْدِي بِمَوْجُودٍ. قُلْتُ: إِنَّهُ لَمَّا عَجَزَتْ حَوَاسُّكَ عَنْ إِدْرَاكِ اللَّهِ أَنْكَرْتَهُ، وَأَنَا لَمَّا عَجَزَتْ حَوَاسِّي عَنْ إِدْرَاكِ اللَّهِ تَعَالَى صَدَّقْتُ بِهِ. قَالَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ جَرَى فِيهِ أَثَرُ تَرْكِيبٍ لِحِسْمٍ، أَوْ وَقَعَ عَلَيْهِ بَصَرٌ لَوْنٍ، فَمَا أَدْرَكْتُهُ الْأَبْصَارُ وَنَالَتهُ الْحَوَاسُّ فَهُوَ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِأَنَّهُ لَا يُشَبِّهُ الْخُلُقَ^(٢)، وَأَنَّ هَذَا الْخُلُقَ يَنْتَقِلُ بِتَغْيِيرٍ وَزَوَالٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ أَشْبَهَ التَّغْيِيرِ وَالزَّوَالِ فَهُوَ مِثْلُهُ، وَلَيْسَ الْمَخْلُوقُ كَالْخَالِقِ وَلَا الْمُحَدَّثُ كَالْمُحَدِّثِ.

شرح:

قوله عليه السلام: «والبلاء المحمود عند الخاصة والعامة» أي النعمة التي يحمدها ويقرّ بها الخاص والعام لنا وهو العلم، أو النعم التي شملت الخاص والعام كما سيفصله عليه السلام بعد ذلك. قوله عليه السلام: «ما أتي الجهال» أي ما أتاهم الضرر والهلاك إلا من قبلهم. قال الفيروزآبادي: أتي كعني: أشرف عليه العدو. وقال الجزري في حديث أبي هريرة في العدو: أني قلت أتيته أي دهيت وتغيّر عليك حسك فتوهّمت ما ليس بصحيح صحيحاً. قوله عليه السلام: «استحوذ الشيطان» أي غلب واستولى. قوله عليه السلام: «وصنوعة» أي إحسان، ويحتمل أن يراد بها هنا الخلقة المصنوعة. قوله عليه السلام: «لجسم» بفتح اللام أي البتة هو جسم. وكذا قوله: «للون». ويدلّ على أن التركيب الخارجي إنما يكون في الجسم وأن المبصر بالذات هو اللون. قوله عليه السلام: «أشبه التغير» أي المتغيّر، أو ذا التغير بتقدير مضاف.

متن:

قَالَ: إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ، وَلَكِنِّي لَمُنْكَرٌ مَا لَمْ تُدْرِكْهُ حَوَاسِّي فَتَوَدَّيْهِ إِلَى قَلْبِي. فَلَمَّا اعْتَصَمَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ وَلَزِمَ هَذِهِ الْحُجَّةَ، قُلْتُ: أَمَّا إِذَا أَبَيَّتَ إِلَّا أَنْ تَعْتَصِمَ بِالْجَهَالَةِ، وَتَجْعَلَ الْمُحَاجَزَةَ حُجَّةً فَقَدْ دَخَلْتَ فِي مِثْلِ مَا عِبْتُ^(٣) وَامْتَثَلْتَ مَا كَرِهْتَ، حَيْثُ قُلْتُ: إِنِّي اخْتَرْتُ الدَّعْوَى لِنَفْسِي لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ لَمْ تُدْرِكْهُ حَوَاسِّي عِنْدِي بِلا شَيْءٍ.

١. وفي نسخة: إذا. (هامش المصدر)

٢. في المصدر مع زيادة: «ولا يشبهه الخلق».

٣. عبته: جعلته معيباً، راجع مفردات ألفاظ القرآن.

قَالَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: لِأَنَّكَ نَقَمْتَ عَلَيَّ الْإِدْعَاءَ وَدَخَلْتَ فِيهِ فَادَّعَيْتَ أَمْرًا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا وَلَمْ تُقْلَهُ عِلْمًا، فَكَيْفَ اسْتَجَزْتَ لِنَفْسِكَ الدَّعْوَى فِي انْكَارِكَ اللَّهَ، وَدَفْعِكَ أَعْلَامَ النُّبُوَّةِ وَالْحُجَّةِ الْوَاضِحَةِ، وَعَيْتَهَا عَلَيَّ؟ أَخْبِرْنِي هَلْ أَحْطَتْ بِالْجِهَاتِ كُلِّهَا وَبَلَّغَتْ مُنْتَهَاهَا؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: فَهَلْ رَقِيتَ إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَرَى؟ أَوْ انْحَدَرْتَ إِلَى الْأَرْضِ السُّفْلَى فَجَلَّتْ^(١) فِي أَفْطَارِهَا^(٢)؟ أَوْ هَلْ خُضْتَ فِي غَمَرَاتِ الْبُحُورِ^(٣) وَاخْتَرَفْتَ نَوَاجِي الْهَوَاءِ فِيمَا فَوْقَ السَّمَاءِ وَتَحْتَهَا إِلَى الْأَرْضِ وَمَا أَسْفَلَ مِنْهَا فَوَجَدْتَ ذَلِكَ خَلَاءً مِنْ مُدَبِّرٍ حَكِيمٍ عَالِمٍ بِصِيرٍ؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: فَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ الَّذِي أَنْكَرَهُ قَلْبُكَ هُوَ فِي بَعْضِ مَا لَمْ تُدْرِكْهُ حَوَاشِكَ وَلَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمُكَ. قَالَ: لَا أَدْرِي لَعَلَّ فِي بَعْضِ مَا ذَكَرْتَ مُدَبِّرًا، وَمَا أَدْرِي لَعَلَّهُ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ!

قُلْتُ: أَمَّا إِذَا خَرَجْتَ مِنْ حَدِّ الْإِنْكَارِ إِلَى مَنْزِلَةِ الشَّكِّ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ تَخْرُجَ إِلَى الْمَعْرِفَةِ. قَالَ: فَإِنَّمَا دَخَلَ عَلَيَّ الشَّكُّ لِسُؤَالِكَ إِبَائِي عَمَّا لَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمِي، وَلَكِنْ مِنْ أَيْنَ يَدْخُلُ عَلَيَّ الْيَقِينُ بِمَا لَمْ تُدْرِكْهُ حَوَاسِي؟ قُلْتُ: مِنْ قِبَلِ إِهْلِيلَجَتِكَ هَذِهِ.

قَالَ: ذَاكَ إِذَا أَثْبِتُ لِلْحُجَّةِ، لِأَنَّهَا مِنْ آدَابِ الطَّبِّ الَّذِي أُدْعِنُ بِمَعْرِفَتِهِ^(٤)، قُلْتُ: إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ آتِيكَ بِهِ مِنْ قِبَلِهَا لِأَنَّهَا أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ إِلَيْكَ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مِنْهَا لَأَتَيْتُكَ مِنْ قِبَلِهِ^(٥)، لِأَنَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ أَثَرَ تَرْكِيبٍ وَحِكْمَةٍ، وَشَاهِدًا يَدُلُّ عَلَى الصَّنْعَةِ الدَّالَّةِ عَلَى مَنْ صَنَعَهَا وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا، وَيُهْلِكُهَا حَتَّى لَا تَكُونَ شَيْئًا.

قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي هَلْ تَرَى هَذِهِ إِهْلِيلَجَةً؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: أَفَتَرَى غَيْبَ مَا فِي جَوْفِهَا؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: أَفَتَشْهَدُ أَنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى نَوَاةٍ وَلَا تَرَاهَا؟ قَالَ: مَا يُدْرِيَنِي لَعَلَّ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ. قُلْتُ: أَفَتَرَى أَنَّ خَلْفَ هَذَا الْقِشْرِ مِنْ هَذِهِ الْإِهْلِيلَجَةِ غَائِبٌ لَمْ تَرَهُ مِنْ لَحْمٍ أَوْ ذِي لَوْنٍ؟ قَالَ: مَا أَدْرِي لَعَلَّ مَا تَمَّ غَيْرُ ذِي لَوْنٍ وَلَا لَحْمٍ. قُلْتُ: أَفَتَقَرُّ أَنَّ هَذِهِ الْإِهْلِيلَجَةَ الَّتِي تُسَمِّيهَا النَّاسُ بِالْهِنْدِ مَوْجُودَةٌ^(٦)؟ لَا جَمِيعَ أَهْلِ الْإِخْتِلَافِ مِنَ الْأُمَمِ عَلَى ذِكْرِهَا. قَالَ: مَا أَدْرِي لَعَلَّ مَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ بَاطِلٌ! قُلْتُ: أَفَتَقَرُّ أَنَّ الْإِهْلِيلَجَةَ فِي أَرْضٍ تَثْبُتُ؟ قَالَ: تِلْكَ الْأَرْضُ وَهَذِهِ وَاحِدَةٌ وَقَدْ رَأَيْتَهَا. قُلْتُ: أَفَمَا تَشْهَدُ بِحُضُورِ هَذِهِ الْإِهْلِيلَجَةِ عَلَى وُجُودِ مَا غَابَ مِنْ أَشْبَاهِهَا؟ قَالَ: مَا أَدْرِي لَعَلَّهُ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا إِهْلِيلَجَةً غَيْرُهَا. فَلَمَّا اعْتَصَمَ بِالْجَهَالَةِ قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ هَذِهِ الْإِهْلِيلَجَةِ أَتَقَرُّ أَنَّهَا خَرَجَتْ مِنْ شَجَرَةٍ، أَوْ تَقُولُ: إِنَّهَا هَكَذَا وَجَدْتُ؟ قَالَ: لَا، بَلْ مِنْ شَجَرَةٍ خَرَجَتْ. قُلْتُ: فَهَلْ أَدْرَكَتَ حَوَاشِكَ الْخَمْسَ مَا غَابَ عَنْكَ مِنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: فَمَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ

١. جال في البلاد: طاف غير مستقر فيها، راجع المصباح المنير.

٢. وفي نسخة: فذرت في أفطارها. (هامش المصدر)

٣. في المصدر: «هل غصت في غمرات البحور».

٤. وفي نسخة بدل: لأنها من أداة الطب الذي ادعى معرفته. (هامش المصدر)

٥. وفي نسخة: أنبتك من قبله. (هامش المصدر)

٦. في المصدر مع زيادة: «وإن لم ترها».

أَفَرَزْتَ بِوُجُودِ شَجَرَةٍ لَمْ تُدْرِكْهَا حَوَاسُكَ. قَالَ: أَجَلُ، وَلَكِنِّي أَقُولُ: إِنَّ الْأَهْلِيلَجَةَ وَالْأَشْيَاءَ الْمُخْتَلِفَةَ شَيْءٌ لَمْ تَزَلْ تُدْرِكُ^(١)، فَهَلْ عِنْدَكَ فِي هَذَا شَيْءٌ تَرُدُّ بِهِ قَوْلِي؟ قُلْتُ: نَعَمْ، أَخْبِرْنِي عَنْ هَذِهِ الْأَهْلِيلَجَةِ هَلْ كُنْتَ عَايَنْتَ شَجَرَتَهَا وَعَرَفْتَهَا قَبْلَ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَهْلِيلَجَةُ فِيهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: فَهَلْ كُنْتَ تَعَايُنُ هَذِهِ الْأَهْلِيلَجَةَ؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: أَفَمَا تَعْلَمُ أَنَّكَ كُنْتَ عَايَنْتَ الشَّجَرَةَ وَلَيْسَ فِيهَا الْأَهْلِيلَجَةُ، ثُمَّ عُدْتَ إِلَيْهَا فَوَجَدْتَ فِيهَا الْأَهْلِيلَجَةَ، أَفَمَا تَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ فِيهَا مَا لَمْ تَكُنْ؟ قَالَ: مَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَكَبَّرَ ذَلِكَ وَلَكِنِّي أَقُولُ: إِنَّهَا كَانَتْ فِيهَا مُتَفَرِّقَةً. قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي هَلْ رَأَيْتَ تِلْكَ الْأَهْلِيلَجَةَ الَّتِي تَنْبُتُ مِنْهَا شَجَرَةُ هَذِهِ الْأَهْلِيلَجَةِ قَبْلَ أَنْ تُغْرَسَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: فَهَلْ يَحْتَمِلُ عَقْلُكَ أَنَّ الشَّجَرَةَ الَّتِي تَنْبُغُ أَصْلُهَا وَعُرْوُهَا وَفُرُوعُهَا وَلِحَاوُهَا وَكُلُّ ثَمَرَةٍ جُنِيَتْ^(٢)، وَوَرَقَةٍ سَقَطَتْ أَلْفَ أَلْفِ رِطْلٍ كَانَتْ كَامِنَةً فِي هَذِهِ الْأَهْلِيلَجَةِ؟ قَالَ: مَا يَحْتَمِلُ هَذَا الْعَقْلُ وَلَا يَقْبَلُهُ الْقَلْبُ. قُلْتُ: أَفَرَزْتَ أَنَّهَا حَدَثَتْ فِي الشَّجَرَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَكِنِّي لَا أَعْرِفُ أَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ فَهَلْ تَقْدِرُ أَنْ تُفَرِّزَنِي بِذَلِكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، أَرَأَيْتَ أَنِّي إِنْ أَرَيْتُكَ تَذْيِيراً أَوْ تَغْيِيراً أَنْ لَهُ مُدَبَّراً، وَتَصَوِّيراً أَنْ لَهُ مَصَوِّراً؟ قَالَ: لَا بَدَّ مِنْ ذَلِكَ.

قُلْتُ: أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْأَهْلِيلَجَةَ لَحْمٌ رَكَبَ عَلَى عَظْمٍ فَوُضِعَ فِي جَوْفٍ مُتَّصِلٍ^(٣) بِبَعْضِ مُرَكَّبٍ عَلَى سَاقٍ يَقُومُ عَلَى أَصْلٍ فَيَقْوَى بِعُرْوٍ مِنْ تَحْتِهَا عَلَى جَرَمٍ مُتَّصِلٍ بِبَعْضٍ بِبَعْضٍ؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْأَهْلِيلَجَةَ مَصَوْرَةٌ بِتَقْدِيرٍ وَتَحْطِيطٍ وَتَأْلِيفٍ وَتَرْكِيبٍ وَتَفْصِيلٍ مُتَدَاخِلٍ بِتَأْلِيفٍ شَيْءٍ فِي بَعْضِ شَيْءٍ، بِهِ طَبَقٌ بَعْدَ طَبَقٍ وَجِسْمٌ عَلَى جِسْمٍ وَلَوْنٌ مَعَ لَوْنٍ، أَبْيَضُ فِي صُفْرَةٍ، وَلَيِّنٌ عَلَى شَدِيدٍ^(٤)، فِي طَبَائِعٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وَطَرَائِقٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَأَجْزَاءٍ مُؤْتَلِفَةٍ مَعَ لِحَاءٍ تَسْقِيهَا، وَعُرْوٍ يَجْرِي فِيهَا الْمَاءُ، وَوَرَقٍ يَسْتُرُهَا وَتَقِيهَا مِنَ الشَّمْسِ أَنْ تُحْرِقَهَا، وَمِنْ الْبَرْدِ أَنْ يَهْلِكَهَا، وَالرَّيْحَ أَنْ تَذْلِبَهَا^(٥)؟ قَالَ: أَفَلَيْسَ لَوْ كَانَ الْوَرَقُ مُطَبَّعاً عَلَيْهَا كَانَ خَيْراً لَهَا؟ قُلْتُ: اللَّهُ أَحْسَنُ تَقْدِيراً لَوْ كَانَ كَمَا تَقُولُ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا رِيحٌ يَرُوحُهَا، وَلَا بَرْدٌ يُشَدِّدُهَا، وَلَعَفِنَتْ عِنْدَ ذَلِكَ، وَلَوْ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا حَرُّ الشَّمْسِ لَمَا نَضِجَتْ^(٦)، وَلَكِنْ شَمْسٌ مَرَّةً وَرِيحٌ مَرَّةً وَبَرْدٌ مَرَّةً قَدَّرَ اللَّهُ ذَلِكَ بِقُوَّةٍ لَطِيفَةٍ وَدَبَّرَهُ بِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ.

قَالَ: حَسْبِي مِنَ التَّصَوُّيرِ فَسَّرَ لِي التَّذْيِيرَ الَّذِي زَعَمْتَ أَنَّكَ تَرَيْتَهُ. قُلْتُ: أَرَأَيْتَ الْأَهْلِيلَجَةَ قَبْلَ أَنْ تَعْفِدَ إِذْ هِيَ فِي قِمَعِهَا مَاءٌ بَغِيرِ نَوَاةٍ وَلَا لَحْمٍ وَلَا قِشْرٍ وَلَا لَوْنٍ وَلَا طَعْمٍ وَلَا شِدَّةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: أَرَأَيْتَ لَوْ لَمْ يَرْفُقِ الْخَالِقُ ذَلِكَ الْمَاءَ الضَّعِيفَ الَّذِي هُوَ مِثْلُ الْخَرْدَلَةِ فِي الْقِلَّةِ وَالذَّلَّةِ وَلَمْ يَقْوِهِ بِقُوَّتِهِ وَيَصَوِّرَهُ بِحِكْمَتِهِ وَيَقْدِرَهُ بِقُدْرَتِهِ، هَلْ كَانَ ذَلِكَ الْمَاءُ

١. وفي نسخة بدل: والأشياء المختلفة والمؤتلفة لم تزل تدرك. (هامش المصدر)

٢. جنى الثمرة: تناولها من شجرتها، راجع لسان العرب.

٣. وفي نسخة بدل: موضوع على جرم متصل. (هامش المصدر)

٤. وفي نسخة بدل: ولين على لين ولين على شدة. (هامش المصدر)

٥. ذبل البقل: إذا يبس، راجع شمس العلوم.

٦. وفي نسخة: ولو لم يصل إليها انضجت. (هامش المصدر)

يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَكُونَ فِي قِمَعِهِ غَيْرَ مَجْمُوعٍ بِجِسْمٍ وَقِمَعٍ وَتَفْصِيلٍ؟ فَإِنْ زَادَ زَادَ مَاءً مُتْرَاكِبًا غَيْرَ مُصَوَّرٍ وَلَا مُحْطَطٍ وَلَا مُدَبَّرٍ بِزِيَادَةِ أَجْزَاءٍ وَتَأْلِيفِ أَطْبَاقٍ. قَالَ: قَدْ أَرَيْتَنِي مِنْ تَصْوِيرِ شَجَرَتِهَا وَتَأْلِيفِ خَلْقَتِهَا وَحَمْلِ ثَمَرَتِهَا وَزِيَادَةِ أَجْزَائِهَا وَتَفْصِيلِ تَرْكِيبِهَا أَوْضَحَ الدَّلَالَاتِ، وَأَظْهَرَ الْبَيِّنَاتِ عَلَى مَعْرِفَةِ الصَّانِعِ، وَلَقَدْ صَدَّقْتَ بِأَنَّ الْأَشْيَاءَ مَصْنُوعَةٌ، وَلَكِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلَّ الْإِهْلِيلَجَةَ وَالْأَشْيَاءَ صَنَعَتْ أَنْفُسَهَا؟^(١) قُلْتُ: أَوَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ خَالِقَ الْأَشْيَاءِ وَالْإِهْلِيلَجَةَ حَكِيمٌ عَالِمٌ بِمَا عَايَنْتَ مِنْ قُوَّةِ تَدْبِيرِهِ؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: فَهَلْ يَنْبَغِي لِلَّذِي هُوَ كَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ حَدَثًا؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: أَفَلَسْتَ قَدْ رَأَيْتَ الْإِهْلِيلَجَةَ حِينَ حَدَثَتْ وَعَايَنْتَهَا بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا ثُمَّ هَلَكْتَ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا؟ قَالَ: بَلَى، وَإِنَّمَا أُعْطِيتُكَ أَنَّ الْإِهْلِيلَجَةَ حَدَثَتْ وَلَمْ أُعْطِكَ أَنَّ الصَّانِعَ لَا يَكُونُ حَدَثًا لَا يَخْلُقُ نَفْسَهُ. قُلْتُ: أَلَمْ تُعْطِنِي أَنَّ الْحَكِيمَ الْخَالِقَ لَا يَكُونُ حَدَثًا، وَرَعِمْتَ أَنَّ الْإِهْلِيلَجَةَ حَدَثَتْ؟ فَقَدْ أُعْطِيتَنِي أَنَّ الْإِهْلِيلَجَةَ مَصْنُوعَةٌ، فَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ صَانِعُ الْإِهْلِيلَجَةِ، وَإِنْ رَجَعْتَ إِلَى أَنْ تَقُولَ: إِنَّ الْإِهْلِيلَجَةَ صَنَعَتْ نَفْسَهَا وَدَبَّرَتْ خَلْقَهَا فَمَا زِدْتَ أَنْ أَقْرُرْتَ بِمَا أَنْكَرْتَ، وَوَصَفْتَ صَانِعًا مُدَبِّرًا أَصَبْتَ صِفَتَهُ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تَعْرِفْهُ فَسَمَّيْتَهُ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: كَيْفَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: لِأَنَّكَ أَقْرُرْتَ بِوُجُودِ حَكِيمٍ لَطِيفٍ مُدَبِّرٍ، فَلَمَّا سَأَلْتُكَ مَنْ هُوَ؟ قُلْتَ: الْإِهْلِيلَجَةُ قَدْ أَقْرُرْتَ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَلَكِنَّكَ سَمَّيْتَهُ بِغَيْرِ اسْمِهِ، وَلَوْ عَقَلْتَ وَفَكَّرْتَ لَعَلِمْتَ أَنَّ الْإِهْلِيلَجَةَ أَنْقَضَ قُوَّةً مِنْ أَنْ تَخْلُقَ نَفْسَهَا، وَأَضْعَفَ حِيلَةً مِنْ أَنْ تُدَبِّرَ خَلْقَهَا.

قَالَ: هَلْ عِنْدَكَ غَيْرُ هَذَا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، أَخْبَرَنِي عَنْ هَذِهِ الْإِهْلِيلَجَةِ الَّتِي رَعِمْتَ أَنَّهَا صَنَعَتْ نَفْسَهَا وَدَبَّرَتْ أَمْرَهَا كَيْفَ صَنَعَتْ نَفْسَهَا صَغِيرَةَ الْخَلْقَةِ، صَغِيرَةَ الْقُدْرَةِ، نَاقِصَةَ الْقُوَّةِ، لَا تَمْتَنِعُ أَنْ تُكْسَرَ وَتُعْصَرَ وَتُؤْكَلَ؟ وَكَيْفَ صَنَعَتْ نَفْسَهَا مَفْضُولَةً مَأْكُولَةً مَرَّةً قَبِيحَةً الْمُنْظَرِ لَا بَهَاءَ لَهَا وَلَا مَاءَ؟ قَالَ: لِأَنَّهَا لَمْ تَقُو إِلَّا عَلَى مَا صَنَعَتْ نَفْسَهَا^(٢) وَلَمْ تَصْنَعْ إِلَّا مَا هُوِيَ^(٣). قُلْتُ: أَمَّا إِذْ أُبَيِّنُ إِلَّا التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ فَأَعْلَمْنِي مَتَى خَلَقَتْ نَفْسَهَا وَدَبَّرَتْ خَلْقَهَا قَبْلَ أَنْ تَكُونَ أَوْ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ؟ فَإِنْ رَعِمْتَ أَنَّ الْإِهْلِيلَجَةَ خَلَقَتْ نَفْسَهَا بَعْدَ مَا كَانَتْ فَإِنَّ هَذَا لِمِنْ أُبَيِّنِ الْمَحَالَّ! كَيْفَ تَكُونُ مَوْجُودَةً مَصْنُوعَةً ثُمَّ تَصْنَعُ نَفْسَهَا مَرَّةً أُخْرَى؟ فَيَصِيرُ كَلَامُكَ إِلَى أَنَّهَا مَصْنُوعَةٌ مَرَّتَيْنِ، وَلَئِنْ قُلْتَ: إِنَّهَا خَلَقَتْ نَفْسَهَا وَدَبَّرَتْ خَلْقَهَا قَبْلَ أَنْ تَكُونَ إِنَّ هَذَا مِنْ أَوْضَحِ الْبَاطِلِ وَأُبَيِّنِ الْكُذْبَ! لِأَنَّهَا قَبْلَ أَنْ تَكُونَ لَيْسَ بِشَيْءٍ، فَكَيْفَ يَخْلُقُ لَا شَيْءَ شَيْئًا، وَكَيْفَ تَعِيبُ قَوْلِي: إِنَّ شَيْئًا يَصْنَعُ لَا شَيْئًا، وَلَا تَعِيبُ قَوْلَكَ: إِنَّ لَا شَيْءَ يَصْنَعُ لَا شَيْئًا؟ فَانْظُرْ أَيُّ الْقَوْلَيْنِ أَوْلَى بِالْحَقِّ؟ قَالَ: قَوْلُكَ. قُلْتُ: فَمَا يَمْنَعُكَ مِنْهُ؟ قَالَ: قَدْ قَبِلْتَهُ وَاسْتَبَانَ لِي حَقُّهُ وَصِدْقُهُ بِأَنَّ الْأَشْيَاءَ الْمُخْتَلَفَةَ وَالْإِهْلِيلَجَةَ لَمْ يَصْنَعَنَّ أَنْفُسَهُنَّ، وَلَمْ يُدَبِّرْنَ خَلْقَهُنَّ، وَلَكِنَّهُ تَعَرَّضَ لِي أَنَّ الشَّجَرَةَ هِيَ الَّتِي صَنَعَتْ الْإِهْلِيلَجَةَ لِأَنَّهَا خَرَجَتْ مِنْهَا، قُلْتُ: فَمَنْ

١. في المصدر مع زيادة: «قلت: فأخبرني قبل أن تبلغ حد المعرفة بالصانع هل عرفت الحكيم؟ قال: لا. قلت: فلمَّا بلغ حد المعرفة منك عرفت أنَّ الصانع حكيم؟ قال: بلى».

٢. لم يرد في المصدر: «نفسها».

٣. هوي: أحب، راجع مجمع البحرين.

صَنَعَ الشَّجَرَةَ؟ قَالَ: الْإِهْلِيلِجَةُ الْأُخْرَى! قُلْتُ: اجْعَلْ لِكَلَامِكَ غَايَةً أَنْتَهِيَ إِلَيْهَا فَمَا أَنْ تَقُولَ: هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فَيُقْبَلُ مِنْكَ، وَإِمَّا أَنْ تَقُولَ الْإِهْلِيلِجَةُ فَتَسْأَلُكَ. قَالَ: سَلْ، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِهْلِيلِجَةِ هَلْ تَنْبُتُ مِنْهَا الشَّجَرَةُ إِلَّا بَعْدَ مَا مَاتَتْ وَبَلِيَتْ وَبَادَتْ؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: إِنَّ الشَّجَرَةَ بَقِيَتْ بَعْدَ هَلَاكِ الْإِهْلِيلِجَةِ مِائَةَ سَنَةٍ، فَمَنْ كَانَ يَحْمِيهَا وَيَزِيدُ فِيهَا، وَيُدَبِّرُ خَلْقَهَا وَيُرَبِّيها، وَيُنْبِتُ وَرَقَهَا؟ مَا لَكَ بُدٌّ مِنْ أَنْ تَقُولَ: هُوَ الَّذِي خَلَقَهَا، وَلَنْ قُلْتُ: الْإِهْلِيلِجَةُ وَهِيَ حَيَّةٌ قَبْلَ أَنْ تَهْلِكَ وَتُبْلَى وَتَصِيرَ تُرَابًا، وَقَدْ رَبَّتِ الشَّجَرَةُ وَهِيَ مَيِّتَةٌ إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ مُخْتَلَفٌ. قَالَ: لَا أَقُولُ ذَلِكَ. قُلْتُ: أَفَتَقَرُّ بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ أَمْ قَدْ بَقِيَ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: إِنِّي مِنْ ذَلِكَ عَلَى حَدِّ وَقُوفٍ مَا أَتَخَلَّصُ إِلَى أَمْرٍ يَنْقُذُ لِي فِيهِ الْأَمْرُ. قُلْتُ: أَمَّا إِذْ أُبَيِّنُ إِلَّا الْجَهَالََةَ وَرَعَمْتُ أَنَّ الْأَشْيَاءَ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْحَوَاسِّ فَإِنِّي أَخْبِرُكَ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْحَوَاسِّ دَلَالَةٌ عَلَى الْأَشْيَاءِ، وَلَا فِيهَا مَعْرِفَةٌ إِلَّا بِالْقَلْبِ، فَإِنَّهُ دَلِيلُهَا وَمَعْرِفُهَا الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَدْعِي أَنَّ الْقَلْبَ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا بِهَا.

شرح:

قوله عليه السلام: «وامتثلت» قال الفيروزآبادي: امتثل طريقته: تبعها فلم يعدها. قوله عليه السلام: «نقمت علي» أي عبت وكرهت. قوله عليه السلام: «من لحم» قال الفيروزآبادي: لحم كل شيء: لبه. قوله عليه السلام: «تلك الأرض» أي أشار إلى الأرض، وقال عليه السلام: أقر بوجود هذه الأرض التي أرى، والإهليلجة الواحدة التي في يدي. قوله: «كانت فيها متفرقة» لعله اختار مذهب إنكساغورس ومن تبعه من الدهرية القائلين بالكمون والبروز وأن كل شيء كامن^(١)، ويومئ إليه جوابه. قوله عليه السلام: «في قمعها» قال الفيروزآبادي: القمع محرّكة: بثرة تخرج في أصول الأشفار، وقال: القمع بالفتح والكسر وكعنب: ما الترقق بأسفل التمرة والبسرة ونحوهما. انتهى. وعلى التقديرين استعير لما يبدو من الإهليلجة ابتداء في شجرها من القشرة الرقيقة الصغيرة التي فيها ماء، والأول أبلغ. قوله عليه السلام: «غير مجموع بجسم» أي هل كان يزيد بغير أن يضم إليه جسم آخر من خارج، أو قمع آخر مثله، أو بغير قمعه أي قلعه وتفصيله أي تفريقه ليدخل فيه شيء، أو يضم إلى شيء. قوله عليه السلام: «فإن زاد» أي فإن سلم أنه كان يمكن أن يزيد بطبيعته بغير ما ذكر كانت زيادته ماء متراكباً بعضه فوق بعض فقط كما كان أولاً، لا بتخطيط وتصوير وتدبير وتأليف، إذ يحكم العقل بديهته أن مثل تلك الأفاعيل المختلفة المنطبقة على قانون الحكمة لا تصدر عن طبيعة عادمة للشعور والإرادة. قوله عليه السلام: «فهل ينبغي» إشارة إلى ما يحكم به الوجدان من أن من كان على هذا المبلغ من العلم والحكمة والتدبير لا يكون ممكناً محدثاً محتاجاً في العلم وسائر الأمور إلى غيره، إلا أن يفيض عليه من العالم بالذات، وهو إقرار بالصانع. قوله عليه السلام: «ولم أعطك» غفل الهندي عما كان يلزم من اعترافه. قوله عليه السلام: «وإن رجعت» أي إن قلت: إن الصانع القديم الحكيم هو طبيعة الإهليلجة صنعت هذا الشخص منها فقد أقررت بالصانع وسميته الطبيعة، إذ هي غير حكيم ولا ذات

١. إن شئت التفصيل في رأيه وعقيدته، راجع الملل والنحل (للشهرستاني)، ج ٢، ص ٣٧٨.

إرادة فقد أقررت بالصانع وأخطأت في التسمية، أو المراد أنك بعد الاعتراف بالخالق الحكيم القديم لو قلت: إنَّه هذه الإهليلجة فقد أقررت بما أنكرت أي نقضت قولك الأول، وقلت بالنقيضين، ولا محمل لتصحيحه إلا أن تقول: سميت ما أقررت به بهذا الاسم، وهذا لا يضرنا بعد ما تيسر لنا من إقرارك؛ ويحتمل أن يكون هذا كلاماً على سبيل الاستظهار في المجادلة، أي إن تنزلنا عمّا أقررت به من قدم الحكيم وحدوث الإهليلجة يكفيننا إقرارك بكون الخالق حكيماً، إذ معلوم أنَّها ليست كذلك، فقد سميت الصانع الحكيم بهذا الاسم. قوله عليه السلام: «مفضولة» إذ ظاهر أنَّ كثيراً من المخلوقات أفضل وأشرف منها. قوله عليه السلام: «هو الذي خلقها» أي لا بدَّ أن يكون مربِّها هو خالقها، فإن قلت: إنَّ الخالق والمربِّي واحد وهي الإهليلجة خلقت عند كونها حيّة، وربّت بعد موتها فالقول مختلف إذ خلقها تدريجي، وعند خلق أي مقدار من الشجرة لا بدَّ من انقلاب بعضها شجرة فلم تكن الإهليلجة باقية بعد تمام خلق ذلك المقدار، والخلق والتربية ممزوجان لا يصلح القول بكونها حيّة عند أحدهما ميتة عند الآخر؛ ويحتمل أن يكون المراد أنَّ القول بأنَّ الخالق والمربِّي واحد والقول بأنَّ الإهليلجة بعد موتها ربّت متنافيان، لأنَّ موتها عبارة عن استحالتها بشيء آخر، فالمربِّي شيء آخر سوى الإهليلجة. وفي بعض النسخ: «وقد رأيت الشجرة». قوله: «ما أتخلص» أي ما أصل إلى أمر يجري فيه أمري أي حكمي، ويمكنني أن أحكم بصحته. ثم لما علم عليه السلام أنَّ سبب توقّفه اقتصاره على حكم الحواس بينَّ عليه السلام: أنَّ الحواس داخلة تحت حكم العقل، ولا بدَّ من الرجوع إلى العقل في معرفة الأشياء.

متن:

فَقَالَ: أَمَّا إِذْ نَطَقْتَ بِهَذَا فَمَا أَقْبَلُ مِنْكَ إِلَّا بِالتَّخْلِصِ وَالتَّفَحُّصِ مِنْهُ بِإِضَاحٍ وَبَيَانٍ وَحُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ، قُلْتُ: فَأَوَّلُ مَا أَبْدَأُ بِهِ أَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ رُبَّمَا ذَهَبَ الْحَوَاسُ، أَوْ بَعْضُهَا وَدَبَّرَ الْقَلْبُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي فِيهَا الْمَضَرَّةُ وَالْمَنْفَعَةُ مِنَ الْأُمُورِ الْعَلَانِيَةِ وَالْخَفِيَّةِ، فَأَمَرَ بِهَا وَنَهَى، فَفَعَلَ فِيهَا أَمْرُهُ وَصَحَّ فِيهَا قَضَاؤُهُ.

قَالَ: إِنَّكَ تَقُولُ فِي هَذَا قَوْلًا يُشْبِهُ الْحُجَّةَ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ تَوْضِحَهُ لِي غَيْرَ هَذَا الْإِضَاحِ. قُلْتُ: أَلَسْتُ تَعْلَمُ أَنَّ الْقَلْبَ يَتَقَى بَعْدَ ذَهَابِ الْحَوَاسِ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَكِنْ يَتَقَى بِغَيْرِ دَلِيلٍ عَلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا الْحَوَاسُ. قُلْتُ: أَلَسْتُ تَعْلَمُ أَنَّ الطِّفْلَ تَضَعُهُ أُمُّهُ مُضْغَةً لَيْسَ تَدُلُّهُ الْحَوَاسُ عَلَى شَيْءٍ يُسْمَعُ وَلَا يُبْصَرُ وَلَا يُذَاقُ وَلَا يُلْمَسُ وَلَا يُشَمُّ؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: فَأَيُّهُ الْحَوَاسُ دَلَّتْهُ عَلَى طَلَبِ اللَّبَنِ إِذَا جَاعَ، وَالضَّحِكِ بَعْدَ الْبُكَاءِ إِذَا رَوِيَ مِنَ اللَّبَنِ؟ وَأَيُّ حَوَاسٍ سَبَاعِ الطَّيْرِ وَلَا قِطِ الْحَبِّ مِنْهَا دَلَّتْهَا عَلَى أَنْ تُلْقَى بَيْنَ أَفْرَاحِهَا اللَّحْمَ وَالْحَبَّ، فَتَهْوَى سَبَاعُهَا إِلَى اللَّحْمِ، وَالْآخَرُونَ إِلَى الْحَبِّ؟ وَأَخْبِرْنِي عَنْ فِرَاحِ طَيْرِ الْمَاءِ أَلَسْتُ تَعْلَمُ أَنَّ فِرَاحَ طَيْرِ الْمَاءِ إِذَا طُرِحَتْ فِيهِ سَبَحَتْ، وَإِذَا طُرِحَتْ فِيهِ فِرَاحُ طَيْرِ الْبَرِّ غَرِقَتْ وَالْحَوَاسُ وَاحِدَةٌ، فَكَيْفَ انْتَفَعَ بِالْحَوَاسِ طَيْرُ الْمَاءِ وَأَعَانَتْهُ عَلَى السَّبَاحَةِ وَلَمْ تَنْتَفِعْ طَيْرُ الْبَرِّ فِي الْمَاءِ بِحَوَاسِهَا؟ وَمَا بِالْطَّيْرِ الْبَرِّ إِذَا غَمَسَتْهَا فِي الْمَاءِ سَاعَةً مَاتَتْ، وَإِذَا أَمْسَكَتْ طَيْرُ الْمَاءِ عَنِ الْمَاءِ سَاعَةً مَاتَتْ؟ فَلَا أَرَى الْحَوَاسَ فِي هَذَا إِلَّا مُنْكَسِرًا عَلَيْكَ، وَلَا يَنْبَغِي ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ إِلَّا مِنْ مُدَبِّرٍ حَكِيمٍ جَعَلَ لِلْمَاءِ خَلْقًا وَلِلْبَرِّ خَلْقًا.

أَمْ أَخْبِرْنِي مَا بَالُ الذَّرَّةِ الَّتِي لَا تُعَايِنُ الْمَاءَ قَطُّ تُطْرَحُ فِي الْمَاءِ فَتَسْبَحُ؛ وَتَلْقَى الْإِنْسَانَ ابْنَ خَمْسِينَ سَنَةً مِنْ أَقْوَى الرِّجَالِ وَأَعْقَلِهِمْ لَمْ يَتَعَلَّمِ السَّبَاحَةَ فَيَغْرُقُ؟ كَيْفَ لَمْ يَدُلَّهُ عَقْلُهُ وَلُبُّهُ وَتَجَارِبُهُ وَبَصَرُهُ بِالأَشْيَاءِ مَعَ اجْتِمَاعِ حَوَاسِّهِ وَصِحَّتِهَا أَنْ يُدْرِكَ ذَلِكَ بِحَوَاسِّهِ، كَمَا أَدْرَكَتْهُ الذَّرَّةُ إِنْ كَانَ ذَلِكَ إِنَّمَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ؟ أَمْ فَلَيْسَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْقَلْبَ الَّذِي هُوَ مَعْدِنُ الْعَقْلِ فِي الصَّبِيِّ الَّذِي وَصَفْتُ وَغَيْرِهِ مِمَّا سَمِعْتَ مِنَ الْحَيَوَانِ هُوَ الَّذِي يُهَيِّجُ الصَّبِيَّ إِلَى طَلَبِ الرِّضَاعِ، وَالطَّيْرَ اللَّاقِطَ عَلَى لَفْطِ الْحَبِّ، وَالسَّبَاعَ عَلَى ابْتِلَاعِ اللَّحْمِ؟

قَالَ: لَسْتُ أَجِدُ الْقَلْبَ يَعْلَمُ شَيْئاً إِلَّا بِالْحَوَاسِّ! قُلْتُ: أَمَّا إِذَا أُبَيِّنَ إِلَّا النَّزْوَعُ إِلَى الْحَوَاسِّ فَإِنَّا لَنَقْبَلُ نَزْوَعَكَ^(١) إِيَّاهَا بَعْدَ رَفْضِكَ لَهَا، وَنُجْبِيكَ فِي الْحَوَاسِّ حَتَّى يَنْفَرَّ عِنْدَكَ أَنَّهَا لَا تَعْرِفُ مِنْ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ إِلَّا الظَّاهِرَ مِمَّا هُوَ دُونَ الرَّبِّ الْأَعْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَأَمَّا مَا يَخْفَى وَلَا يَظْهَرُ فَلَيْسَتْ تَعْرِفُهُ، وَذَلِكَ أَنَّ خَالِقَ الْحَوَاسِّ جَعَلَ لَهَا قَلْباً احْتَجَّ بِهِ عَلَى الْعِبَادِ، وَجَعَلَ لِلْحَوَاسِّ الدَّلَالَاتِ عَلَى الظَّاهِرِ الَّذِي يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، فَظَرَّتِ الْعَيْنُ إِلَى خَلْقٍ مُتَّصِلٍ^(٢) بَفَضْلِهِ بِبَعْضِ فَدَلَّتِ الْقَلْبَ عَلَى مَا عَايَنَتْ، وَتَفَكَّرَ الْقَلْبُ حِينَ دَلَّتْهُ الْعَيْنُ عَلَى مَا عَايَنَتْ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَاءِ وَارْتِفَاعِهَا فِي الْهَوَاءِ بِغَيْرِ عَمَدٍ يُرَى، وَلَا دَعَائِمٍ^(٣) تُمْسِكُهَا لَا تُؤَخَّرُ مَرَّةً فَتَنْكَشِطُ، وَلَا تُقَدِّمُ أُخْرَى فَتَزُولَ، وَلَا تَهْبِطُ مَرَّةً فَتَدْنُو، وَلَا تَرْتَفِعُ أُخْرَى فَتَنْتَأَى^{(٤)(٥)} لَا تَتَغَيَّرُ لِطُولِ الْأَمَدِ وَلَا تَخْلُقُ^(٦) لِاخْتِلَافِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، وَلَا تَتَدَاعَى مِنْهَا نَاحِيَةٌ، وَلَا يَنْهَارُ مِنْهَا طَرَفٌ، مَعَ مَا عَايَنَتْ مِنَ النُّجُومِ الْجَارِيَةِ السَّبْعَةِ الْمُخْتَلِفَةِ بِمَسِيرِهَا لِذَوَرَانِ الْفَلَكَ، وَتَنْقُلُهَا فِي الْبُرُوجِ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، وَشَهْراً بَعْدَ شَهْرٍ، وَسَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ، مِنْهَا السَّرِيعُ، وَمِنْهَا الْبَاطِيءُ، وَمِنْهَا الْمُعْتَدِلُ السَّيْرِ، ثُمَّ رُجُوعُهَا وَاسْتِقَامَتُهَا، وَأَخْذُهَا عَرْضاً وَطَولاً، وَخُنُوسُهَا عِنْدَ الشَّمْسِ وَهِيَ مُشْرِقَةٌ، وَظُهُورُهَا إِذَا غَرَبَتْ، وَجَرَى الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ فِي الْبُرُوجِ ذَاتَيْنِ لَا يَتَغَيَّرَانِ فِي أَرْزَمَتَيْهِمَا وَأَوْقَاتَيْهِمَا، يَعْرِفُ ذَلِكَ مَنْ يَعْرِفُ بِحِسَابِ مَوْضُوعٍ وَأَمْرٍ مَعْلُومٍ بِحِكْمَةٍ يَعْرِفُ ذَوُو الْأَلْبَابِ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ حِكْمَةِ الْإِنْسِ، وَلَا تَفْتِيشِ الْأَوْهَامِ، وَلَا تَقْلِبِ التَّفَكُّرِ، فَعَرَفَ الْقَلْبُ حِينَ دَلَّتْهُ الْعَيْنُ عَلَى مَا عَايَنَتْ، أَنَّ لِدَلِّكَ الْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ وَالْأَمْرِ الْعَجِيبِ صَانِعاً يُمَسِّكُ السَّمَاءَ الْمُنْطَبِقَةَ أَنْ تَهْوِيَ إِلَى الْأَرْضِ، وَأَنَّ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ وَالنُّجُومَ فِيهَا خَالِقُ السَّمَاءِ، ثُمَّ نَظَرَتْ الْعَيْنُ إِلَى مَا اسْتَقْلَلَهَا^(٧) مِنَ الْأَرْضِ فَدَلَّتِ الْقَلْبَ عَلَى مَا

١. وفي نسخة: ردوعك. (هامش المصدر)

٢. في المصدر: «مختلف متصل».

٣. الدعامة بالكسر: عماد البيت الذي يقوم عليه واستعير لغير ذلك، والجمع دعائم، راجع مجمع البحرين.

٤. وفي نسخة: فتتأى فلا ترى. (هامش المطبوع)

٥. نأى بنأى: بُعد، راجع لسان العرب.

٦. خلق: بلي، راجع لسان العرب.

٧. في المصدر: «ما استقبلها»، وفي نسخة: ما هو أسفل. (هامش المصدر)

عَايَنْتَ، فَعَرَفَ الْقَلْبُ بِعَقْلِهِ أَنَّ مُمَسِكَ الْأَرْضِ الْمُتَمَتِّدَةُ^(١) أَنْ تَزُولَ، أَوْ تَهْوِيَ فِي الْهَوَاءِ - وَهُوَ يَرَى الرِّيشَةَ يُرْمَى بِهَا فَتَسْقُطُ مَكَانَهَا وَهِيَ فِي الْخِفَّةِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ - هُوَ الَّذِي يُمَسِّكُ السَّمَاءَ الَّتِي فَوْقَهَا، وَأَنَّهُ لَوْ لَا ذَلِكَ لَخَسَفَتْ بِمَا عَلَيْهَا مِنْ ثِقَلِهَا وَثِقَلِ الْجِبَالِ وَالْأَنْامِ وَالْأَشْجَارِ وَالْبُحُورِ وَالرَّمَالِ، فَعَرَفَ الْقَلْبُ بِدَلَالَةِ الْعَيْنِ أَنَّ مُدَبِّرَ الْأَرْضِ هُوَ مُدَبِّرُ السَّمَاءِ، ثُمَّ سَمِعَتِ الْأُذُنُ صَوْتَ الرِّيحِ الشَّدِيدَةِ الْعَاصِفَةِ وَاللَّيْنَةِ الطَّيِّبَةِ، وَعَايَنْتِ الْعَيْنُ مَا يُقْلَعُ مِنْ عِظَامِ الشَّجَرِ وَيُهْدَمُ مِنْ وَثِيقِ الْبُنْيَانِ، وَتُسْفَى^(٢) مِنْ ثِقَالِ الرَّمَالِ، تُحْلَى مِنْهَا نَاحِيَةً وَتَصْبُهَا فِي أُخْرَى، بَلَا سَائِقٍ تُبْصِرُهُ الْعَيْنُ، وَلَا تَسْمَعُهُ الْأُذُنُ، وَلَا يَدْرِكُ بِشَيْءٍ مِنَ الْحَوَاسِّ، وَلَيْسَتْ مُجَسَّدَةً تُلْمَسُ، وَلَا مَحْدُودَةً تُعَايَنُ، فَلَمْ تَرِدِ الْعَيْنُ وَالْأُذُنُ وَسَائِرَ الْحَوَاسِّ عَلَى أَنَّ دَلَّتِ الْقَلْبُ أَنَّ لَهَا صَانِعًا، وَذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ يُفَكِّرُ^(٣) بِالْعَقْلِ الَّذِي فِيهِ، فَيَعْرِفُ أَنَّ الرِّيحَ لَمْ تَتَحَرَّكَ مِنْ تَلْقَائِهَا وَأَنَّهَا لَوْ كَانَتْ هِيَ الْمُتَحَرِّكَةَ لَمْ تَكْنُفْ عَنِ التَّحَرُّكِ، وَلَمْ تَهْدِمِ طَائِفَةً وَتُعْطِيَ أُخْرَى، وَلَمْ تَقْلَعِ شَجَرَةً وَتَدْعُ أُخْرَى إِلَى جَنْبِهَا، وَلَمْ تَصُبَّ أَرْضًا وَتَنْصَرِفَ عَنْ أُخْرَى، فَلَمَّا تَفَكَّرَ الْقَلْبُ فِي أَمْرِ الرِّيحِ عَلِمَ أَنَّ لَهَا مُحَرِّكًَا هُوَ الَّذِي يَسُوقُهَا حَيْثُ يَشَاءُ، وَيُسَكِّنُهَا إِذَا شَاءَ، وَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ، وَيَصْرِفُهَا عَمَّنْ يَشَاءُ، فَلَمَّا نَظَرَ الْقَلْبُ إِلَى ذَلِكَ وَجَدَهَا مُتَّصِلَةً بِالسَّمَاءِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ، فَعَرَفَ أَنَّ الْمُدَبِّرَ الْقَادِرَ عَلَى أَنْ يُمَسِكَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاءَ هُوَ خَالِقُ الرِّيحِ وَمُحَرِّكُهَا إِذَا شَاءَ، وَمُوسِكُهَا كَيْفَ شَاءَ، وَمُسَلِّطُهَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَكَذَلِكَ دَلَّتِ الْعَيْنُ وَالْأُذُنُ الْقَلْبَ عَلَى هَذِهِ الزَّلْزَلَةِ، وَعَرَفَ ذَلِكَ بِغَيْرِهِمَا مِنْ حَوَاسِّهِ حِينَ حَرَكْتُهُ، فَلَمَّا دَلَّ الْحَوَاسُّ عَلَى تَحْرِيكِ هَذَا الْخَلْقِ الْعَظِيمِ مِنَ الْأَرْضِ فِي غَلْظِهَا وَثِقَلِهَا، وَطُولِهَا وَعَرْضِهَا، وَمَا عَلَيْهَا مِنْ ثِقَلِ الْجِبَالِ وَالْمِيَاهِ وَالْأَنْامِ^(٤)، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا تَتَحَرَّكُ فِي نَاحِيَةٍ وَلَمْ تَتَحَرَّكْ فِي نَاحِيَةٍ أُخْرَى^(٥) وَهِيَ مُلْتَحِمَةٌ جَسَدًا وَاحِدًا، وَخَلْقًا مُتَّصِلًا بَلَا فَضْلٍ وَلَا وَضَلٍ، تَهْدِمُ نَاحِيَةً وَتُخْسِفُ بِهَا وَتُسَلِّمُ أُخْرَى؛ فَعِنْدَهَا عَرَفَ الْقَلْبُ أَنَّ مُحَرِّكَ مَا حَرَّكَ مِنْهَا هُوَ مُمَسِّكُ مَا أُمْسِكَ مِنْهَا، وَهُوَ مُحَرِّكُ الرِّيحِ وَمُوسِكُهَا، وَهُوَ مُدَبِّرُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَأَنَّ الْأَرْضَ لَوْ كَانَتْ هِيَ الْمَزْلُزَّةَ لِنَفْسِهَا^(٦) لَمَا تَزَلْزَلَتْ وَلَمَا تَحَرَّكَتْ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي دَبَّرَهَا وَخَلَقَهَا حَرَّكَ مِنْهَا مَا شَاءَ. ثُمَّ نَظَرَتِ الْعَيْنُ إِلَى الْعَظِيمِ مِنَ الْآيَاتِ، مِنَ السَّحَابِ الْمُسَحَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِمَنْزِلَةِ الدُّخَانِ لَا جَسَدَ لَهُ يُلْمَسُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، يَتَخَلَّلُ الشَّجَرَةَ فَلَا يُحَرِّكُ مِنْهَا شَيْئًا، وَلَا يَهْصِرُ مِنْهَا غُصْنًا، وَلَا يَغْلِقُ مِنْهَا بِشَيْءٍ يَغْتَرِضُ الرُّكْبَانَ فَيَحُولُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ مِنْ ظُلْمَتِهِ وَكَثَافَتِهِ، وَيَخْتَمِلُ مِنْ ثِقَلِ الْمَاءِ وَكَثَرَتِهِ

١. وفي المصدر: «أَنَّ مُمْسِكَ الْأَرْضِ الْمُتَمَتِّدَةُ».

٢. سفت الريح التراب: ذرته، راجع لسان العرب.

٣. وفي نسخة: «دلالته العين على أن ليس لها معرفة أكثر من ذلك فيتفكر القلب» بدلاً من «أن دلت القلب أن لها صانعاً وذلك أن القلب يكفر».

(هامش المصدر)

٤. في المصدر مع زيادة: «والشجر».

٥. وفي نسخة بدل: «إنها تحرك ناحية وتمسك عن أخرى» (هامش المصدر)

٦. في المصدر مع زيادة: «لم تقلع زلزلتها ولم تسكن رجعتها، ولو كانت هي الممسكة».

مَا لَا يُقَدَّرُ عَلَى صِفَتِهِ، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الصَّوَاعِقِ الصَّادِعَةِ، وَالْبُرُوقِ اللَّامِعَةِ، وَالرَّعْدِ وَالتَّلَجِّ وَالْبَرْدِ وَالْجَلِيدِ مَا لَا تَبْلُغُ
 الْأَوْهَامُ صِفَتَهُ وَلَا تَهْتَدِي الْقُلُوبُ إِلَى كُنْهِ عَجَائِبِهِ، فَيَخْرُجُ مُسْتَقِلًّا فِي الْهَوَاءِ يَجْتَمِعُ بَعْدَ تَفَرُّقِهِ ^(١) وَيَلْتَحِمُ بَعْدَ تَرَايُلِهِ،
 تُفَرِّقُهُ الرِّيَّاحُ ^(٢) مِنَ الْجِهَاتِ كُلِّهَا إِلَى حَيْثُ تَسُوقُهُ بِإِذْنِ اللَّهِ رَبِّهَا، يَسْفُلُ مَرَّةً وَيَعْلُو أُخْرَى، مُتَمَسِّكٌ بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَاءِ
 الْكَثِيرِ ^(٣) الَّذِي إِذَا أَرْجَاهُ صَارَتْ مِنْهُ الْبُحُورُ، يَمُرُّ عَلَى الْأَرَاضِي الْكَثِيرَةِ وَالْبُلْدَانِ الْمُتَنَائِيَةِ لَا تَنْقُصُ مِنْهُ نُقْطَةٌ ^(٤) حَتَّى
 يَنْتَهِيَ إِلَى مَا لَا يُحْصَى مِنَ الْفَرَاسِخِ فَيُرْسِلَ مَا فِيهِ قَطْرَةً بَعْدَ قَطْرَةٍ، وَسَيْلًا بَعْدَ سَيْلٍ، مُتَتَابِعٌ عَلَى رِسْلِهِ حَتَّى يَنْفَعِ
 الْبَرَكُ ^(٥)، وَتَمْتَلِئَ الْفُجَاجُ، وَتَعْتَلِيَ الْأُودِيَةُ بِالسُّيُولِ كَأَمْثَالِ الْجِبَالِ غَاصَّةً بِسُيُولِهَا، مُصَمَّحَةً الْأَذَانِ ^(٦) لِدَوِيِّهَا ^(٧)
 وَهَدِيرِهَا ^(٨) فَتُحْيِي بِهَا الْأَرْضَ الْمَيِّتَةَ، فَتُصْبِحُ مُخْضَرَّةً بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُعْبَّرَةً، وَمُعْشِبَةً ^(٩) بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُجْدِبَةً ^(١٠)، قَدْ
 كُسِيتَ أَلْوَانًا مِنْ نَبَاتٍ عُشْبٍ نَاضِرَةٍ ^(١١) زَاهِرَةٍ مُزَيَّنَةٍ مَعَاشًا لِلنَّاسِ وَالْأَنْعَامِ، فَإِذَا أَفْرَغَ الْعَمَامُ مَاءَهُ أَقْلَعَ وَتَفَرَّقَ وَذَهَبَ
 حَيْثُ لَا يُعَايَنُ وَلَا يُدْرَى أَيْنَ تَوَارَى، فَادَّتِ الْعَيْنُ ذَلِكَ إِلَى الْقَلْبِ، فَعَرَفَ الْقَلْبُ أَنَّ ذَلِكَ السَّحَابَ لَوْ كَانَ بِغَيْرِ مُدَبِّرٍ
 وَكَانَ مَا وَصَفْتُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ مَا احْتَمَلَ نِصْفَ ذَلِكَ مِنَ الثَّقَلِ مِنَ الْمَاءِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُهُ لَمَا احْتَمَلَهُ أَلْفِي
 فَرَسِخٍ أَوْ أَكْثَرَ، وَلَا أَرْسَلَهُ فِيمَا هُوَ أَقْرَبُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَمَا أَرْسَلَهُ قَطْرَةً، بَعْدَ قَطْرَةٍ بَلْ كَانَ يُرْسِلُهُ إِرْسَالًا فَكَانَ يَهْدِمُ الْبُنْيَانَ
 وَيُفْسِدُ النَّبَاتَ، وَلَمَا جَازَ إِلَى بَلَدٍ وَتَرَكَ آخَرَ دُونَهُ؛ فَعَرَفَ الْقَلْبُ بِأَعْلَامِ الْمُنِيرَةِ الْوَاضِحَةِ أَنَّ مُدَبِّرَ الْأُمُورِ وَاحِدٌ، وَأَنَّهُ
 لَوْ كَانَ اثْنَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً لَكَانَ فِي طُولِ هَذِهِ الْأَرْزَمَةِ وَالْأَبَدِ وَالذَّهْرِ اخْتِلَافٌ فِي التَّدْبِيرِ، وَتَنَاقُضٌ فِي الْأُمُورِ، وَلَتَأَخَّرَ
 بَعْضٌ وَتَقَدَّمَ بَعْضٌ، وَلَكَانَ تَسْقُلُ بَعْضٌ مَا قَدْ عَلَا، وَلَعَلَّا بَعْضٌ مَا قَدْ سَفَلَ، وَلَطَلَعَ شَيْءٌ وَغَابَ فَتَأَخَّرَ عَنْ وَقْتِهِ أَوْ تَقَدَّمَ
 مَا قَبْلَهُ، فَعَرَفَ الْقَلْبُ بِذَلِكَ أَنَّ مُدَبِّرَ الْأَشْيَاءِ مَا غَابَ مِنْهَا وَمَا ظَهَرَ هُوَ اللَّهُ الْأَوَّلُ، خَالِقُ السَّمَاءِ وَمُؤَسِّكُهَا، وَفَارِشُ
 الْأَرْضِ وَدَاحِيهَا ^(١٢)، وَصَانِعُ مَا بَيْنَ ذَلِكَ مِمَّا عَدَدْنَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَمْ يُحْصَ.

١. وفي نسخة مع زيادة: وينفجر بعد تمسكه. (هامش المصدر)

٢. وفي نسخة بدل: تصفقه الرياح. (هامش المصدر)

٣. في المصدر: «الماء الكثير الثقيل».

٤. وفي نسخة بدل: لا تقطر منه قطرة. (هامش المصدر)

٥. في المصدر: «ينقع البر».

٦. وفي نسخة بدل: ومصممة الأذان. (هامش المصدر)

٧. الدوي: صوت ليس بالعالي كصوت النحل ونحوه، راجع لسان العرب.

٨. هدير الحمام: هو تواتر صوتها، راجع مجمع البحرين.

٩. العُشْب: الكلاً (النبات) مادام رطباً، وأرض معشبة: كثيرة العشب، راجع لسان العرب والنهاية.

١٠. الجذب: الأرض التي لا نبات بها، راجع النهاية.

١١. الناضر: الأخضر الشديد الخضرة، راجع لسان العرب.

١٢. الدحو: البسط، راجع لسان العرب.

وَكَذَلِكَ عَايَنَتِ الْعَيْنُ اخْتِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ دَائِبَيْنِ جَدِيدَيْنِ لَا يَنْلِيَانِ فِي طُولِ كَرِّهِمَا، وَلَا يَنْغَيِّرَانِ لِكَثْرَةِ اخْتِلَافِهِمَا، وَلَا يَنْقُصَانِ عَنْ حَالِهِمَا، النَّهَارُ فِي نُورِهِ وَضِيَائِهِ، وَاللَّيْلُ فِي سَوَادِهِ وَظُلُمَتِهِ، يَلْجُ أَحَدُهُمَا فِي الْآخَرِ^(١) حَتَّى يَنْتَهِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِلَى غَايَةِ مَخْدُودَةٍ مَعْرُوفَةٍ فِي الطُّوْلِ وَالْقَصْرِ عَلَى مَرْتَبَةِ وَاحِدَةٍ، وَمَجْرَى وَاحِدٍ مَعَ سُكُونٍ مَنْ يَسْكُنُ فِي اللَّيْلِ، وَانْتِشَارٍ مَنْ يَنْتَشِرُ فِي اللَّيْلِ، وَانْتِشَارٍ مَنْ يَنْتَشِرُ فِي النَّهَارِ، وَسُكُونٍ مَنْ يَسْكُنُ فِي النَّهَارِ، ثُمَّ الْحَرُّ وَالْبَرْدُ وَحُلُولُ أَحَدِهِمَا بِعَقِبِ الْآخَرِ حَتَّى يَكُونَ الْحَرُّ بَرْدًا، وَالْبَرْدُ حَرًّا فِي وَقْتِهِ وَإِبَانِهِ^(٢)، فَكُلُّ هَذَا مِمَّا يَسْتَدِلُّ بِهِ الْقَلْبُ عَلَى الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَعَرَفَ الْقَلْبُ بِعَقْلِهِ أَنَّ مَنْ دَبَّرَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ هُوَ الْوَاحِدُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ إِلَهَةٌ مَعَهُ سُبْحَانَهُ لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَفَسَدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى صَاحِبِهِ.

وَكَذَلِكَ سَمِعَتِ الْأُذُنُ مَا أُنْزِلَ الْمُدَبِّرُ مِنَ الْكِتَابِ تَصْدِيقًا لِمَا أَذْرَكَهُ الْقُلُوبُ بِعُقُولِهَا، وَتَوَفَّقَ اللَّهُ إِيَّاهَا وَمَا قَالَهُ مَنْ عَرَفَهُ كُنْهُ مَعْرِفَتِهِ بِلَا وَكَدٍ وَلَا صَاحِبَةٍ وَلَا شَرِيكِ فَادَّتِ الْأُذُنُ مَا سَمِعَتْ مِنَ اللِّسَانِ بِمَقَالَةِ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى الْقَلْبِ^(٣).

شرح:

قوله عليه السلام: «ربما ذهب الحواس» إما بالنوم كما سيأتي، أو بآفة، فإنَّ العقل لا محالة يدلُّه على أن يشير إلى بعض ما يصلحه ويطلب ما يقيمه بأيِّ وجه كان، على أن ذهاب الحواس الخمس لا ينافي بقاء النطق. قوله عليه السلام: «إلا النزوع إلى الحواس» أي الاشتياق إليها، والحاصل أننا نوافقك ونستدلُّ لك بما تدلُّ عليه الحواس، وإن كنت رفضتها وتركتها وسلَّمت فيما مضى كونها معزولة عن بعض الأشياء فنقول: إنَّ حكم العقل بوجود الصانع إنما هو من جهة ما دلَّته الحواس عليه ممَّا نشاهده من آثار صنعه تعالى. قوله عليه السلام: «فتنكشط» الانكشاف: الانكشاف. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾^(٤) أي قلعت كما يقلع السقف، ولعلَّ المراد بالتأخَّر تأخَّر ما يحاذي رؤوسنا بحيث يرى ما وراءه، وبالتقدُّم أن يتحرَّك جميعها حركة أينية حتى يخرج من بينها؛ ويحتمل أن يكون المراد فيهما معاً إما الأوَّل أو الثاني، ويكون التعبير عن أحدهما بالانكشاف وعن الآخر بالزوال لمحض تفتن العبارة، وعلى التقادير المراد بالزوال الزوال عنا وعن محاذاتنا. قوله عليه السلام: «ولا يتداعى» قال الجوهري: تداعت الحيطان للخراب أي تهدمت. وقال: انهار أي

١. في المصدر مع زيادة: «متكافئين في الأحيين والأزمنة، ما زاد من النهار نقص من الليل، وما زاد من الليل نقص من النهار».

٢. إتيان الشيء: وقته، راجع مجمع البحرين.

٣. في المصدر مع زيادة: «فعرَّف القلب ذلك ودعاه إلى قبول ما كان تفكَّر فيه فعرفه وإن كان لم يعرف المدبِّر سبحانه، فلمَّا عاين من الآيات تقبَّل من الأنبياء ذلك، ووحد مثل توحيدهم من كتاب الله وصدقهم بما جاءت به الكتب بما هو آت من القيامة والنار والجنة والحساب والعذاب».

٤. التكوير/ ١١.

انهدم. قوله عليه السلام: «ثم رجوعها» إشارة إلى ما يعرض للمتحيّرة^(١) من الرجعة والاستقامة والإقامة. وقوله عليه السلام: «وأخذها عرضاً وطولاً» إشارة إلى كونها تارة عن جنوب المعدّل، وتارة عن شمالها، وكون بعضها تارة عن جنوب منطقة البروج، وتارة عن شمالها، وإلى حركة المائل في السفليين وعرض الوراب والانحراف والاستواء فيهما^(٢)، وإلى ميل الذروة^(٣) والحضيض^(٤) في المتحيّرة. و«خنوسها» غيبيتها واستتارها تحت شعاع الشمس. قوله عليه السلام: «المنطقة» أي المحيطة بجميع الخلق، وفي بعض النسخ «المظلة». و«استقلّها» أي حملها ورفعها. قوله عليه السلام: «متّصلة بالسماء» أي داخله في ذلك النظام شبيهة بها فيه. قوله عليه السلام: «يلمس بشيء» لعلّ المراد الاصطكاك الذي يحصل منه صوت، وفي بعض النسخ «كشيء» ويحتمل أن يكون تصحيف يشبه بشيء. وقال الفيروزآبادي: الهصر: الجذب، والإمالة، والكسر، والدفع، والإدناء، وعطف شيء رطب كغصن ونحوه، وكسره من غير بينونة. وقال: الجليد: ما يسقط على الأرض من الندى فيجمد. انتهى. وقوله عليه السلام: «أزجاء» أي دفعه. والرسل بالكسر: التأنّي والرفق. و«ينقع» بالياء على المعلوم، أو بالتاء على المجهول. و«البرك» كعنب: جمع بركة وهي معروفة. و«الفجاج» بالضم: الطريق الواسع بين جبلين، وبالكسر جمع الفجّ بمعناه. والاعتلاء: الارتفاع. وقوله عليه السلام: «غاصّة» أي ممتلئة. والمصمّخة لعلّها مشتقة من الصماخ أي تؤدّي الصماخ، والأظهر مصمّمة. قوله عليه السلام: «من نبات» بالإضافة على أن يكون مصدراً، أو بالتثنية ليكون «عشب» بدل بعض له. والإقلاع عن الأمر: الكفّ عنه. والكسر: الرجوع. قوله عليه السلام: «مع سكون من يسكن في الليل» أي جعل في معظم المعمورة طول كلّ منهما وقصره على حدّ محدود لا يتجاوزه، لئلاّ تفوت مصلحة كلّ منهما من السكون في الليل والانتشار في النهار، ويحتمل أن يكون إشارة إلى أصل الحكمة في حصول الليل والنهار. قوله عليه السلام: «وانتشار من ينتشر في الليل» كالخفاش والبعوضة وسائر ما ينتشر في الليل من الهوام^(٥)، وكالخائف والمسافر الذي تصلحه حركة الليل. قوله عليه السلام: «إذا^(٦)» لذهب» أي لو كان معه آلهة كما يقولون لذهب كلّ إله منهم بما خلقه واستبدّ به وامتناز

١. المتحيّرة من الكواكب: السبعة السيّارة ما عدا النّيرين - وهي: زحل والمشتري والمريخ والزّهرة وعطارد - لأنّ لكل واحد منها استقامة ثم وقفا ثم رجوعاً ثم وقفاً ثانياً ثم عوداً إلى الاستقامة ولا يكون للنّيرين - وهما: الشمس والقمر - سوى الاستقامة، راجع الطراز الأوّل، مادة «حبر».

٢. في نسخة: وعرض الوراب والانحراف والالتواء فيهما. (هامش المطبوع)

٣. ذروة الشيء: أعلاه، راجع تاج العروس.

٤. الحضيض: قرار الأرض وأسفل الجبل [والمقصود منه هنا النقطة المقابلة للأوج]، راجع مجمع البحرين.

٥. الهوام: حشرات الأرض، راجع مفردات ألفاظ القرآن.

٦. قوله: «إذا» لم يرد في الحديث.

ملكه عن ملك الآخرين؛ ووقع بينهم التجاذب والتغالب كما هو حال ملوك الدنيا إذ يستحيل كونهما واجبين كاملين وهذا شأن الناقص؛ ويحتمل أن يكون الغرض نفي الآلهة الناقصة الممكنة التي جعلوها شريكاً للواجب تعالى شأنه؛ وسيأتي الكلام فيه في باب التوحيد. وفي بعض النسخ هكذا: «وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَا فُسَدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى صَاحِبِهِ، وَكَذَلِكَ سَمِعَتِ الْأُذُنُ مَا أُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كُتُبِهِ عَلَى أَلْسِنِ أَنْبِيَائِهِ تَصَدِيقاً لِمَا أَدْرَكَهُ الْعُقُولُ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ إِيَّاهَا وَعَوْنِهِ لَهَا، إِذَا أَرَادَتْ مَا عِنْدَهُ أَنَّهُ الْأَوَّلُ لَا شَبِيهَ لَهُ، وَلَا مِثْلَ لَهُ، وَلَا ضِدَّ لَهُ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْعُيُونُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَوْهَامُ كَيْفَ هُوَ لِأَنَّهُ لَا كَيْفَ لَهُ، وَإِنَّمَا الْكَيْفُ لِلْمُكَيَّفِ الْمَخْلُوقِ الْمَخْدُودِ الْمُحْدَثِ، غَيْرَ أَنَّا نُوقِنُ أَنَّهُ مَعْرُوفٌ بِخَلْقِهِ مَوْجُودٌ بِصُنْعِهِ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ وَتَعَالَى اسْمُهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَعَرَفَ الْقَلْبُ بِعَقْلِهِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ مَعَهُ شَرِيكَ كَانَ ضَعِيفاً نَاقِصاً، وَلَوْ كَانَ نَاقِصاً مَا خَلَقَ الْإِنْسَانُ وَلَا خُتِلَفَتِ السَّدَائِيرُ وَانْتَفَضَتِ الْأُمُورُ، مَعَ النَّفْصِ الَّذِي يُوصَفُ بِهِ الْأَرْبَابُ الْمُتَعَرِّدُونَ وَالشُّرَكَاءِ الْمُتَعَانِتُونَ^(١). قَالَ: قَدْ أَتَيْتَنِي».

متن:

فَقَالَ: قَدْ أَتَيْتَنِي مِنْ أَبْوَابٍ لَطِيفَةٍ بِمَا لَمْ يَأْتِنِي بِهِ أَحَدٌ غَيْرُكَ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَمْنَعُنِي مِنْ تَرْكِ مَا فِي يَدِي إِلَّا الْإِبْضَاحُ وَالْحُجَّةُ الْقَوِيَّةُ بِمَا وَصَفْتَ لِي وَفَسَّرْتَ، قُلْتُ: أَمَّا إِذَا حَجَبْتَ عَنِ الْجَوَابِ^(٢) وَاخْتَلَفَ مِنْكَ الْمَقَالُ، فَسَيَأْتِيكَ مِنَ الدَّلَالَةِ مِنْ قِبَلِ نَفْسِكَ خَاصَّةً مَا يَسْتَبِينُ لَكَ^(٣) أَنَّ الْحَوَاسَّ لَا تَعْرِفُ شَيْئاً إِلَّا بِالْقَلْبِ؛ فَهَلْ رَأَيْتَ فِي الْمَنَامِ أَنَّكَ تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ حَتَّى وَصَلْتَ لَذَّةَ ذَلِكَ إِلَى قَلْبِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: فَهَلْ رَأَيْتَ أَنَّكَ تَضْحَكُ وَتَبْكِي، وَتَجُولُ فِي الْبُلْدَانِ الَّتِي لَمْ تَرَهَا وَالَّتِي قَدْ رَأَيْتَهَا حَتَّى تَعْلَمَ مَعَالِمَ مَا رَأَيْتَ مِنْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، مَا لَا أُحْصِي. قُلْتُ: هَلْ رَأَيْتَ أَحَدًا مِنْ أَقَارِبِكَ مِنْ أَخٍ أَوْ أَبٍ أَوْ ذِي رَحِمٍ قَدْ مَاتَ قَبْلَ ذَلِكَ حَتَّى تَعْلَمَهُ وَتَعْرِفَهُ كَمَعْرِفَتِكَ إِيَّاهُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ؟ قَالَ: أَكْثَرَ مِنَ الْكَثِيرِ. قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي أَيُّ حَوَاسِّكَ أَدْرَكَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ فِي مَنَامِكَ حَتَّى دَلَّتْ قَلْبَكَ عَلَى مُعَايِنَةِ الْمَوْتَى وَكَلَامِهِمْ، وَأَكْلِ طَعَامِهِمْ، وَالْجَوْلَانِ فِي الْبُلْدَانِ، وَالصَّحْحِ وَالْبُكَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؟ قَالَ: مَا أَقْدِرُ أَنْ أَقُولَ لَكَ أَيُّ حَوَاسِّي أَدْرَكَ ذَلِكَ أَوْ شَيْئاً مِنْهُ، وَكَيْفَ تُدْرِكُ وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ الْمَيِّتِ لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ؟ قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي حَيْثُ اسْتَيْقَظْتَ أَلَسْتَ قَدْ ذَكَرْتَ الَّذِي رَأَيْتَ فِي مَنَامِكَ تَحْفَظُهُ، وَتَقْضُهُ بَعْدَ يَقْظَتِكَ عَلَى إِخْوَانِكَ لَا تَنْسَى مِنْهُ حَرْفًا؟ قَالَ: إِنَّهُ كَمَا تَقُولُ وَرُبَّمَا رَأَيْتَ الشَّيْءَ فِي مَنَامِي ثُمَّ لَا أُمْسِي حَتَّى أَرَاهُ فِي يَقْظَتِي كَمَا رَأَيْتُهُ فِي مَنَامِي. قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي أَيُّ حَوَاسِّكَ قَرَّرَتْ عِلْمَ ذَلِكَ فِي قَلْبِكَ حَتَّى ذَكَرْتَهُ بَعْدَ مَا اسْتَيْقَظْتَ؟ قَالَ: إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ مَا دَخَلَتْ فِيهِ الْحَوَاسُّ. قُلْتُ: أَفَلَيْسَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ حَيْثُ بَطَلَتْ الْحَوَاسُّ فِي هَذَا أَنْ الَّذِي عَايَنَ تِلْكَ الْأَشْيَاءَ وَحَفِظَهَا فِي مَنَامِكَ قَلْبَكَ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ الْعَقْلَ الَّذِي احْتَجَّ بِهِ عَلَى الْعِبَادِ؟ قَالَ: إِنَّ

١. جاءني فلان متعنتاً: إذا جاء يطلب زلتك، راجع لسان العرب.

٢. وفي نسخة: أما إذا احتججت عن الجواب، وفي نسخة أخرى: أما إذا حجبت عن الجواب. (هامش المصدر)

٣. في المصدر مع زيادة: «فيه إن شاء الله تعالى».

الَّذِي رَأَيْتُ فِي مَنَامِي لَيْسَ بِشَيْءٍ إِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ السَّرَابِ^(١) الَّذِي يُعَايِنُهُ صَاحِبُهُ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِ لَا يَشْكُ فِيهِ أَنَّهُ مَاءٌ، فَإِذَا انْتَهَى إِلَى مَكَانِهِ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا، فَمَا رَأَيْتُ فِي مَنَامِي فِيهِهِ الْمَنْزِلَةَ! قُلْتُ: كَيْفَ شَبَّهْتَ السَّرَابَ بِمَا رَأَيْتُ فِي مَنَامِكَ مِنْ أَكْلِكَ الطَّعَامَ الْحُلُوَّ وَالْحَامِضَ، وَمَا رَأَيْتُ مِنَ الْفَرْحِ وَالْحَزَنِ؟ قَالَ: لِأَنَّ السَّرَابَ حَيْثُ انْتَهَيْتُ إِلَى مَوْضِعِهِ صَارَ لَا شَيْءَ، وَكَذَلِكَ صَارَ مَا رَأَيْتُ فِي مَنَامِي حِينَ انْتَهَيْتُ! قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي إِنْ أَتَيْتُكَ بِأَمْرٍ وَجَدْتُ لَذَّتَهُ فِي مَنَامِكَ وَخَفَقَ لِدَلِّكَ قَلْبُكَ، أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ عَلَى مَا وَصَفْتُ لَكَ؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي هَلْ احْتَلَمْتُ قَطُّ حَتَّى قَضَيْتُ فِي امْرَأَةٍ نَهْمَتَكَ عَرَفْتُهَا أَمْ لَمْ تَعْرِفْهَا؟ قَالَ: بَلَى، مَا لَا أَحْصِيهِ. قُلْتُ: أَلَسْتُ وَجَدْتُ لِدَلِّكَ لَذَّةً عَلَى قَدْرِ لَذَّتِكَ فِي يَقْظَتِكَ فَتَنْتَبِهَ وَقَدْ أَنْزَلْتَ الشَّهْوَةَ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْكَ بِقَدْرِ مَا تَخْرُجُ مِنْكَ فِي الْيَقَظَةِ؟ هَذَا كَسْرُ لِحْجَتِكَ فِي السَّرَابِ. قَالَ: مَا يَرَى الْمُحْتَلِمُ فِي مَنَامِهِ شَيْئًا إِلَّا مَا كَانَتْ حَوَاشِيهِ دَلَّتْ عَلَيْهِ فِي الْيَقَظَةِ. قُلْتُ: مَا زِدْتَ عَلَى أَنْ قَوَّيْتُ مَقَالَتِي، وَزَعَمْتَ أَنَّ الْقَلْبَ يَعْقِلُ الْأَشْيَاءَ وَيَعْرِفُهَا بَعْدَ ذَهَابِ الْحَوَاسِّ وَمَوْتِهَا، فَكَيْفَ أَتَكْرَرُ أَنَّ الْقَلْبَ يَعْرِفُ الْأَشْيَاءَ وَهُوَ يَقْظَانُ مُجْتَمِعَةً لَهُ حَوَاشِيهِ، وَمَا الَّذِي عَرَفَهُ إِيَّاهَا بَعْدَ مَوْتِ الْحَوَاسِّ وَهُوَ لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ؟ وَلَكُنْتُ حَقِيقًا أَنْ لَا تُشْكِرَ لَهُ الْمَعْرِفَةَ وَحَوَاشِيهِ حَيَّةً مُجْتَمِعَةً إِذَا أَفْرَزْتَ أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى الْإِمْرَأَةِ بَعْدَ ذَهَابِ حَوَاشِيهِ حَتَّى نَكَحَهَا وَأَصَابَ لَذَّتَهُ مِنْهَا، فَيَنْبَغِي لِمَنْ يَعْقِلُ حَيْثُ وَصَفَ الْقَلْبَ بِمَا وَصَفَهُ بِهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِالْأَشْيَاءِ وَالْحَوَاسِّ ذَاهِبَةً، أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ الْقَلْبَ مُدَبِّرُ الْحَوَاسِّ وَمَالِكُهَا وَرَأْسُهَا وَالْقَاضِي عَلَيْهَا، فَإِنَّهُ مَا جَهَلَ الْإِنْسَانُ مِنْ شَيْءٍ، فَمَا يَجْهَلُ أَنَّ الْيَدَ لَا تَقْدِرُ عَلَى الْعَيْنِ أَنْ تَقْلَعَهَا، وَلَا عَلَى اللِّسَانِ أَنْ تَقْطَعَهُ، وَأَنَّهُ لَيْسَ يَقْدِرُ شَيْءٌ مِنَ الْحَوَاسِّ أَنْ يَفْعَلَ بِشَيْءٍ مِنَ الْجَسَدِ شَيْئًا بَعْدَ إِذْنِ الْقَلْبِ وَدَلَالَتِهِ وَتَذْيِيرِهِ لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ الْقَلْبَ مُدَبِّرًا لِلْجَسَدِ، بِهِ يَسْمَعُ وَبِهِ يُبْصِرُ وَهُوَ الْقَاضِي وَالْأَمِيرُ عَلَيْهِ، وَلَا يَتَقَدَّمُ الْجَسَدُ إِنْ هُوَ تَأَخَّرَ، وَلَا يَتَأَخَّرُ إِنْ هُوَ تَقَدَّمَ، وَبِهِ سَمِعَتِ الْحَوَاسِّ وَأُبْصِرَتْ، إِنْ أَمَرَهَا اتَّصَرَّتْ، وَإِنْ نَهَاها انْتَهَتْ، وَبِهِ يَنْزِلُ الْفَرْحُ وَالْحَزَنُ، وَبِهِ يَنْزِلُ الْأَلَمُ، إِنْ فَسَدَ شَيْءٌ مِنَ الْحَوَاسِّ بَقِيَ عَلَى حَالِهِ، وَإِنْ فَسَدَ الْقَلْبُ ذَهَبَ جَمِيعًا حَتَّى لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ. قَالَ: لَقَدْ كُنْتُ أَظُنُّكَ لَا تَتَخَلَّصُ مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَقَدْ جِئْتُ بِشَيْءٍ لَا أَقْدِرُ عَلَى رَدِّهِ، قُلْتُ: وَأَنَا أُعْطِيكَ تَصَادِيقَ مَا أَنْبَأْتُكَ بِهِ وَمَا رَأَيْتُ فِي مَنَامِكَ فِي مَجْلِسِكَ السَّاعَةِ. قَالَ: افْعَلْ فَإِنِّي قَدْ تَحَيَّرْتُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ. قُلْتُ: أَخْبِرْنِي هَلْ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْ تِجَارَةٍ أَوْ صِنَاعَةٍ أَوْ بِنَاءٍ أَوْ تَقْدِيرِ شَيْءٍ وَتَأْمُرُ بِهِ إِذَا أَحْكَمْتَ تَقْدِيرَهُ فِي ظَنِّكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: فَهَلْ أَشْرَكْتَ قَلْبَكَ فِي ذَلِكَ الْفِكْرِ شَيْئًا مِنْ حَوَاسِّكَ؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: أَفَلَا تَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي أَخْبَرَكَ بِهِ قَلْبُكَ حَقٌّ؟ قَالَ: الْيَقِينُ هُوَ؛ فَرَدَّنِي مَا يُذْهِبُ الشَّكَّ عَنِّي وَيُزِيلُ الشُّبُهَةَ مِنْ قَلْبِي.

شرح:

خفق القلب: اضطرابه. والنَّهْمَةُ: بلوغ الهمّة في الشيء، والنَّهْمُ بالتحريك: إفراط الشهوة في الطعام.

١. في المصدر: «احتجّ به على العباد؟ قال: فأخبرني ما حجّجتك في هذا؟ قلت: حجّتي فيه أن القلب لا تعرف الأشياء إلا به. قال: إن هذا لشيء مالك فيه الحجّة. قلت: وكيف ذلك؟ قال: وهل الذي رايت في منامي إلا بمنزلة السراب...».

أقول:

قد عرفت أن القلب يطلق في مصطلح الأخبار على النفس الناطقة، ولما كان السائل منكراً لإدراك ما سوى الحواس الظاهرة بنبهه عليه على خطائه بمدركات الحواس الباطنة التي هي آلات النفس.

أقول:

ذكر السيد ابن طاووس «قدس الله روحه» في كتاب النجوم^(١) من هذه الرسالة جملة ليست فيما عندنا من النسخ فلنذكرها:

«قُلْتُ: أَخْبِرْنِي هَلْ يَعْرِفُ أَهْلُ بِلَادِكَ عِلْمَ النُّجُومِ؟ قَالَ: إِنَّكَ لَغَافِلٌ عَنْ عِلْمِ أَهْلِ بِلَادِي بِالنُّجُومِ! قُلْتُ: وَمَا بَلَغَ مِنْ عِلْمِهِمْ بِهَا؟ فَقَالَ: إِنَّا نُخْبِرُكَ عَنْ عِلْمِهِمْ بِخَصْلَتَيْنِ تَكْتَفِي بِهِمَا عَمَّا سِوَاهُمَا. قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي وَلَا تُخْبِرْنِي إِلَّا بِحَقٍّ. قَالَ: بِدِينِي لَا أَخْبِرُكَ إِلَّا بِحَقٍّ وَبِمَا عَايَنْتُ، قُلْتُ: هَاتِ.

قَالَ: أَمَّا إِحْدَى الْخَصْلَتَيْنِ فَإِنَّ مُلُوكَ الْهِنْدِ لَا يَتَّخِذُونَ إِلَّا الْخُصْيَانَ^(٢). قُلْتُ: وَلِمَ ذَاكَ؟ قَالَ: لِأَنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مُنْجِماً حَاسِباً، فَإِذَا أَصْبَحَ أَتَى بَابَ الْمَلِكِ فَقَاسَ الشَّمْسَ وَحَسَبَ فَأَخْبَرَهُ بِمَا يَحْدُثُ فِي يَوْمِهِ ذَلِكَ، وَمَا حَدَثَ فِي لَيْلَتِهِ الَّتِي كَانَ فِيهَا، فَإِنْ كَانَتْ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَائِهِ قَارَفَتْ شَيْئاً يَكْرَهُهُ أَخْبَرَهُ، فَقَالَ: فُلَانٌ قَارَفَ كَذَا وَكَذَا مَعَ فُلَانَةٍ، وَيَحْدُثُ فِي هَذَا الْيَوْمِ كَذَا وَكَذَا.

قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْخَصْلَةِ الْآخَرَى، قَالَ: قَوْمٌ بِالْهِنْدِ بِمَنْزِلَةِ الْخَنَاقِينَ^(٣) عِنْدَكُمْ يَقْتُلُونَ النَّاسَ بِلَا سِلَاحٍ وَلَا خَنْقٍ وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَهُمْ. قُلْتُ: وَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا؟ قَالَ: يَخْرُجُونَ مَعَ الرَّفْقَةِ وَالتُّجَّارِ بِقَدَرٍ مَا فِيهَا مِنَ الرِّجَالَةِ فَيَمْشُونَ مَعَهُمْ أَيَّاماً لَيْسَ مَعَهُمْ سِلَاحٌ، وَيَحْدُثُونَ الرِّجَالَ وَيَحْسُبُونَ حِسَابَ كُلِّ رَجُلٍ مِنَ التُّجَّارِ، فَإِذَا عَرَفَ أَجْمَعُهُمْ مَوْضِعَ النَّفْسِ مِنْ صَاحِبِهِ وَكَزَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ صَاحِبَهُ الَّذِي حَسَبَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ فَيَقْعُ جَمِيعُ التُّجَّارِ مَوْتَى! قُلْتُ: إِنَّ هَذَا أَرْفَعُ مِنَ الْبَابِ الْأَوَّلِ إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا! قَالَ: أَخْلِفْ لَكَ بِدِينِي أَنَّهُ حَقٌّ، وَلَرُبَّمَا رَأَيْتُ بِبِلَادِ الْهِنْدِ قَدْ أَخَذَ بَعْضُهُمْ وَأَمَرَ بِقَتْلِهِ. قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي كَيْفَ كَانَ هَذَا حَتَّى اظْلَعُوا عَلَيْهِ؟ قَالَ: بِحِسَابِ النُّجُومِ. قُلْتُ: فَمَا سَمِعْتُ كَهَذَا عِلْماً قَطُّ، وَمَا أَشْكُ أَنَّ وَاضِعَهُ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ. فَأَخْبِرْنِي مَنْ وَضَعَ هَذَا الْعِلْمَ الدَّقِيقَ الَّذِي لَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ وَلَا بِالْعُقُولِ وَلَا بِالْفِكْرِ؟ قَالَ: حِسَابُ النُّجُومِ وَضَعَتْهُ الْحُكَمَاءُ وَتَوَارَثَهُ النَّاسُ».

متن:

قُلْتُ: أَخْبِرْنِي هَلْ يَعْلَمُ أَهْلُ بِلَادِكَ عِلْمَ النُّجُومِ؟ قَالَ: إِنَّكَ لَغَافِلٌ عَنْ عِلْمِ أَهْلِ بِلَادِي بِالنُّجُومِ فَلَيْسَ أَحَدٌ أَعْلَمَ بِذَلِكَ

١. فرج المهموم في معرفة نهج الحلال من علم النجوم، ص ١١.

٢. خصاه: سَلَّ خُصْيِيهِ (البيضتان) فهو خُصْيِي، والجمع خُصْيَان، راجع القاموس المحيط.

٣. خلقه: إذا عصر حَلْفَهُ حتى يموت فهو خُنَاق، راجع المصباح المنير.

مِنْهُمْ. قُلْتُ: أَخْبِرْنِي كَيْفَ وَقَعَ عِلْمُهُمْ بِالنُّجُومِ وَهِيَ مِمَّا لَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ وَلَا بِالْفِكَرِ؟ قَالَ: حِسَابٌ وَضَعْتُهُ الْحُكَمَاءُ وَتَوَارَثَتْهُ النَّاسُ^(١)، فَإِذَا سَأَلْتَ الرَّجُلَ مِنْهُمْ عَنْ شَيْءٍ قَاسَ الشَّمْسَ وَنَظَرَ فِي مَنَازِلِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَمَا لِلطَّالِعِ مِنَ النُّجُومِ^(٢)، وَمَا لِلْبَاطِنِ مِنَ السُّعُودِ، ثُمَّ يَحْسُبُ وَلَا يَخْطِئُ؛ وَيُحْمَلُ إِلَيْهِ الْمَوْلُودُ فَيَحْسُبُ لَهُ وَيُخْبِرُ بِكُلِّ عِلَامَةٍ فِيهِ بِغَيْرِ مُعَايَنَةٍ^(٣) وَمَا هُوَ مُصِيبُهُ إِلَى يَوْمٍ يَمُوتُ. قُلْتُ: كَيْفَ دَخَلَ الْحِسَابُ فِي مَوَالِيدِ النَّاسِ؟ قَالَ: لِأَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ إِنَّمَا يُولَدُونَ بِهَذِهِ النُّجُومِ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَسْتَقِمْ هَذَا الْحِسَابُ، فَمِنْ ثَمَّ لَا يَخْطِئُ إِذَا عَلِمَ السَّاعَةَ وَالْيَوْمَ وَالشَّهْرَ وَالسَّنَةَ الَّتِي يُولَدُ فِيهَا الْمَوْلُودُ. قُلْتُ: لَقَدْ تَوَصَّفْتَ عِلْمًا عَجِيبًا لَيْسَ فِي عِلْمِ الدُّنْيَا أَدَقُّ مِنْهُ وَلَا أَعْظَمُ إِنْ كَانَ حَقًّا كَمَا ذَكَرْتَ، يُعْرَفُ بِهِ الْمَوْلُودُ الصَّبِيُّ وَمَا فِيهِ مِنَ الْعَلَامَاتِ وَمُنْتَهَى أَجَلِهِ وَمَا يُصِيبُهُ فِي حَيَاتِهِ، أَوَلَيْسَ هَذَا حِسَابًا تُولَدُ بِهِ جَمِيعُ أَهْلِ الدُّنْيَا مَنْ كَانَ مِنَ النَّاسِ؟ قَالَ: لَا أَشْكُ فِيهِ. قُلْتُ: فَتَعَالَ نَنْظُرَ بِعُقُولِنَا كَيْفَ عَلِمَ النَّاسُ هَذَا الْعِلْمَ؟ وَهَلْ يَسْتَقِيمُ أَنْ يَكُونَ لِبَعْضِ النَّاسِ إِذَا كَانَ جَمِيعُ النَّاسِ يُولَدُونَ بِهَذِهِ النُّجُومِ، وَكَيْفَ عَرَفَهَا بِسُعُودِهَا وَنُحُوسِهَا، وَسَاعَاتِهَا وَأَوْقَاتِهَا، وَدَقَائِقِهَا وَدَرَجَاتِهَا، وَبَطْنِهَا وَسَرِيرِهَا، وَمَوَاضِعِهَا مِنَ السَّمَاءِ، وَمَوَاضِعِهَا تَحْتَ الْأَرْضِ، وَدَلَالَتِهَا عَلَى غَامِضِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي وَصَفْتَ فِي السَّمَاءِ وَمَا تَحْتَ الْأَرْضِ؟ فَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْبُرُوجِ فِي السَّمَاءِ، وَبَعْضُهَا تَحْتَ الْأَرْضِ، وَكَذَلِكَ النُّجُومُ السَّبْعَةُ مِنْهَا تَحْتَ الْأَرْضِ، وَمِنْهَا فِي السَّمَاءِ^(٤)، فَمَا يَقْبَلُ عَقْلِي أَنْ مَخْلُوقًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ قَدَرَ عَلَى هَذَا. قَالَ: وَمَا أَنْكَرْتَ مِنْ هَذَا؟ قُلْتُ^(٥): إِنَّكَ زَعَمْتَ أَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ الْأَرْضِ إِنَّمَا يَتَوَالَدُونَ بِهَذِهِ النُّجُومِ، فَارَى الْحَكِيمَ الَّذِي وَضَعَ هَذَا الْحِسَابَ بِزَعْمِكَ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَلَا شَكَّ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا أَنَّهُ^(٦) وَلِدَ بِنَعِضِ هَذِهِ النُّجُومِ وَالسَّاعَاتِ وَالْحِسَابِ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَزْعُمَ أَنَّ ذَلِكَ الْحَكِيمَ لَمْ يُولَدَ بِهَذِهِ النُّجُومِ كَمَا وَلِدَ سَائِرُ النَّاسِ. قَالَ: وَهَلْ هَذَا الْحَكِيمُ إِلَّا كَسَائِرِ النَّاسِ؟ قُلْتُ: أَوَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَدُلَّكَ عَقْلُكَ عَلَى أَنَّهَا قَدْ خُلِقَتْ قَبْلَ هَذَا الْحَكِيمِ الَّذِي زَعَمْتَ أَنَّهُ وَضَعَ هَذَا الْحِسَابَ، وَقَدْ زَعَمْتَ أَنَّهُ وَلِدَ بِنَعِضِ هَذِهِ النُّجُومِ؟ قَالَ: بَلَى.

قُلْتُ: فَكَيْفَ اهْتَدَى لَوْضِعِ هَذِهِ النُّجُومِ؟ وَهَلْ هَذَا الْعِلْمُ إِلَّا مِنْ مُعَلِّمٍ كَانَ قَبْلَهُمَا وَهُوَ الَّذِي أَسَّسَ هَذَا الْحِسَابَ الَّذِي زَعَمْتَ أَنَّهُ أَسَاسُ الْمَوْلُودِ^(٧)، وَالْأَسَاسُ أَقْدَمُ مِنَ الْمَوْلُودِ، وَالْحَكِيمُ الَّذِي زَعَمْتَ أَنَّهُ وَضَعَ هَذَا^(٨) إِنَّمَا يَتَّبِعُ أَمْرَ

١. لم يرد في فرج المهموم من: «قلت: أخبرني هل يعلم» إلى «وتوارثته الناس».

٢. في فرج المهموم: «وما الطالع من النجوم».

٣. لم يرد في المصدر: «بغير معاينة».

٤. لم يرد في فرج المهموم: «فقد عرفت أن بعض هذه البروج في السماء، وبعضها تحت الأرض، وكذلك النجوم السبعة منها تحت الأرض ومنها في السماء».

٥. في المصدر مع زيادة: «لم أبدأك به».

٦. وفي نسخة: «إلا أنه». (هامش المصدر)

٧. في المصدر وفرج المهموم: «زعمت أنه وضع علم النجوم وهي أساس المولود».

٨. في فرج المهموم: «وضع علم النجوم على هذا».

مُعَلِّمٌ هُوَ أَقْدَمُ مِنْهُ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَهُ مَوْلُوداً بِنِغْصِ هَذَا النُّجُومِ، وَهُوَ الَّذِي أَسَسَ هَذِهِ الْبُرُوجَ الَّتِي وُلِدَ بِهَا غَيْرُهُ مِنَ النَّاسِ، فَوَاضِعُ الْأَسَاسِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَقْدَمَ مِنْهَا، هَبْ أَنْ هَذَا الْحَكِيمَ عَمَّرَ مِذْ كَانَتْ الدُّنْيَا عَشْرَةَ أَضْعَافٍ، هَلْ كَانَ نَظَرُهُ فِي هَذِهِ النُّجُومِ إِلَّا كَنَظَرِكَ إِلَيْهَا مُعَلَّقَةً فِي السَّمَاءِ؟ أَوْتَرَاهُ كَانَ قَادِرًا عَلَى الدُّنْيَا مِنْهَا وَهِيَ فِي السَّمَاءِ حَتَّى يَعْرِفَ مَنَازِلَهَا، وَمَجَارِيَهَا، نُحُوسَهَا وَسُعُودَهَا، وَدَقَائِقَهَا، وَبَآئِيَتَهَا تَكْشِفُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَبَآئِيَتَهَا يُولَدُ كُلُّ مَوْلُودٍ، وَأَيُّهَا السَّعْدُ وَأَيُّهَا النَّحْسُ، وَأَيُّهَا الْبُطْيَاءُ وَأَيُّهَا السَّرِيعُ، ثُمَّ يَعْرِفَ بَعْدَ ذَلِكَ سُعُودَ سَاعَاتِ النَّهَارِ وَنُحُوسَهَا، وَأَيُّهَا السَّعْدُ وَأَيُّهَا النَّحْسُ، وَكَمْ سَاعَةٍ يَمُكُّ كُلُّ نَجْمٍ مِنْهَا تَحْتَ الْأَرْضِ، وَفِي أَيِّ سَاعَةٍ تَغِيبُ، وَأَيِّ سَاعَةٍ تَطْلُعُ، وَكَمْ سَاعَةٍ يَمُكُّ طَالِعًا، وَفِي أَيِّ سَاعَةٍ تَغِيبُ، وَكَمْ اسْتِقَامَ لِرَجُلٍ حَكِيمٍ كَمَا رَعَمَتْ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا أَنْ يَعْلَمَ عِلْمَ السَّمَاءِ مِمَّا لَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ، وَلَا يَقَعُ عَلَيْهِ الْفِكْرُ، وَلَا يَخْطُرُ عَلَى الْأَوْهَامِ؟ وَكَيْفَ اهْتَدَى أَنْ يَقِيسَ الشَّمْسُ حَتَّى يَعْرِفَ فِي أَيِّ بُرْجٍ، وَفِي أَيِّ بُرْجٍ الْقَمَرُ، وَفِي أَيِّ بُرْجٍ مِنَ السَّمَاءِ هَذِهِ السَّبْعَةُ السُّعُودُ وَالنُّحُوسُ، وَمَا الطَّالِعُ مِنْهَا وَمَا الْبَاطِنُ؟ وَهِيَ مُعَلَّقَةٌ فِي السَّمَاءِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ لَا يَرَاهَا إِذَا تَوَارَتْ^(١) بِضَوْءِ الشَّمْسِ، إِلَّا أَنْ تَزْعُمَ أَنَّ هَذَا الْحَكِيمَ الَّذِي وَضَعَ هَذَا الْعِلْمَ قَدْ رَقِيَ إِلَى السَّمَاءِ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ هَذَا الْعَالِمَ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى هَذَا الْعِلْمِ إِلَّا بِمَنْ فِي السَّمَاءِ، لِأَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ عِلْمِ أَهْلِ الْأَرْضِ.

قَالَ: مَا بَلَغَنِي أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ رَقِيَ إِلَى السَّمَاءِ. قُلْتُ: فَلَعَلَّ هَذَا الْحَكِيمَ فَعَلَ ذَلِكَ وَلَمْ يَتْلُغْكَ؟ قَالَ: وَلَوْ بَلَغَنِي مَا كُنْتُ مُصَدِّقًا. قُلْتُ: فَأَنَا أَقُولُ قَوْلَكَ، هَبْ رَقِيَ إِلَى السَّمَاءِ، هَلْ كَانَ لَهُ بُدٌّ مِنْ أَنْ يَجْرِيَ مَعَ كُلِّ بُرْجٍ مِنْ هَذِهِ الْبُرُوجِ، وَنَجْمٍ مِنْ هَذِهِ النُّجُومِ مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ إِلَى حَيْثُ يَغِيبُ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى الْآخِرِ حَتَّى يَفْعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى آخِرِهَا؟ فَإِنْ مِنْهَا مَا يَقْطَعُ السَّمَاءَ فِي ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَمِنْهَا مَا يَقْطَعُ دُونَ ذَلِكَ، وَهَلْ كَانَ لَهُ بُدٌّ مِنْ أَنْ يَجُولَ فِي أَفْطَارِ السَّمَاءِ حَتَّى يَعْرِفَ مَطَالِعَ السُّعُودِ مِنْهَا وَالنُّحُوسِ، وَالْبُطْيَاءِ وَالسَّرِيعِ، حَتَّى يُحْصِيَ ذَلِكَ؟ أَوْ هَبْهُ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى فَرَعَ مِمَّا فِي السَّمَاءِ، هَلْ كَانَ يَسْتَقِيمُ لَهُ حِسَابُ مَا فِي السَّمَاءِ حَتَّى يُحْكِمَ حِسَابَ مَا فِي الْأَرْضِ وَمَا تَحْتَهَا، وَأَنْ يَعْرِفَ ذَلِكَ مِثْلَ مَا قَدْ عَايَنَ فِي السَّمَاءِ؟ لِأَنَّ مَجَارِيَهَا تَحْتَ الْأَرْضِ عَلَى غَيْرِ مَجَارِيهَا فِي السَّمَاءِ^(٢)، فَلَمْ يَكُنْ يَقْدِرُ عَلَى إِحْكَامِ حِسَابِهَا وَدَقَائِقِهَا وَسَاعَاتِهَا إِلَّا بِمَعْرِفَةٍ مَا غَابَ عَنْهُ تَحْتَ الْأَرْضِ^(٣) مِنْهَا، لِأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ أَيِّ سَاعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ يَطْلُعُ طَالِعُهَا، وَكَمْ يَمُكُّ تَحْتَ الْأَرْضِ، وَأَيَّةَ سَاعَةٍ مِنَ النَّهَارِ يَغِيبُ غَائِبُهَا لِأَنَّهُ لَا يُعَايِنُهَا، وَلَا مَا طَلَعَ مِنْهَا وَلَا مَا غَابَ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْعَالِمُ بِهَا وَاحِدًا وَإِلَّا لَمْ يَنْتَفِعْ بِالْحِسَابِ، إِلَّا تَزْعُمُ أَنَّ ذَلِكَ الْحَكِيمَ قَدْ دَخَلَ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضَيْنِ وَالْبَحَارِ، فَسَارَ مَعَ النُّجُومِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فِي مَجَارِيهَا عَلَى قَدْرِ مَا سَارَ فِي السَّمَاءِ حَتَّى عِلِمَ

١. توارت: استتارت، راجع مجمع البحرين.

٢. لم يرد في فرج المهموم: «لأنَّ مجاريها تحت الأرض على غير مجاريها في السماء».

٣. في فرج المهموم: «إلا بمعرفة ساعات ما في الأرض».

الْغَيْبِ مِنْهَا، وَعَلِمَ مَا تَحْتَ الْأَرْضِ عَلَى قَدَرِ مَا عَايَنَ مِنْهَا فِي السَّمَاءِ^(١).

قَالَ: وَهَلْ أَرَيْتَنِي أَجَبْتُكَ إِلَى أَنْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ رَقِيَ إِلَى السَّمَاءِ وَقَدَرَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى أَقُولَ^(٢): إِنَّهُ دَخَلَ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِينَ وَالْبُحُورِ؟ قُلْتُ: فَكَيْفَ وَقَعَ هَذَا الْعِلْمُ الَّذِي زَعَمْتَ أَنَّ الْحُكَمَاءَ مِنَ النَّاسِ وَضَعُوهُ وَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ مُوَلَّدُونَ بِهِ وَكَيْفَ عَرَفُوا ذَلِكَ الْحِسَابَ وَهُوَ أَقْدَمُ مِنْهُمْ^(٣)؟

أقول:

في نسخة السيد ابن طاووس ها هنا زيادة:

«قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُلْتُ لَكَ: إِنَّ الْبُرُوجَ لَمْ تَزَلْ وَهِيَ الَّتِي خَلَقْتَ أَنْفُسَهَا عَلَى هَذَا الْحِسَابِ مَا الَّذِي تَرُدُّ عَلَيَّ؟ قُلْتُ: أَسْأَلُكَ كَيْفَ يَكُونُ بَعْضُهَا سَعْدًا وَبَعْضُهَا نَحْسًا، وَبَعْضُهَا مُضِيئًا وَبَعْضُهَا مُظْلِمًا، وَبَعْضُهَا صَغِيرًا وَبَعْضُهَا كَبِيرًا؟ قَالَ: كَذَلِكَ أَرَادْتَ أَنْ تَكُونَ بِمَنْزِلَةِ النَّاسِ^(٤)، فَإِنَّ بَعْضَهُمْ جَمِيلٌ، وَبَعْضُهُمْ قَبِيحٌ، وَبَعْضُهُمْ قَصِيرٌ، وَبَعْضُهُمْ طَوِيلٌ، وَبَعْضُهُمْ أَبْيَضٌ، وَبَعْضُهُمْ أَسْوَدٌ، وَبَعْضُهُمْ صَالِحٌ، وَبَعْضُهُمْ طَالِحٌ. قُلْتُ: فَالْعَجَبُ مِنْكَ إِنِّي أَرَاوَدُكَ مِنْذُ الْيَوْمِ عَلَى أَنْ تُقَرَّ بِصَانِعٍ فَلَمْ تُجِبْنِي إِلَى ذَلِكَ حَتَّى كَانَ الْآنَ أَفَرَزْتَ بِأَنَّ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ خَلَقْنَ أَنْفُسَهُنَّ!

قَالَ: لَقَدْ بَهَتْنِي^(٥) بِمَا لَمْ يَسْمَعْ النَّاسُ مِنِّي! قُلْتُ: أَفَمُنْكَرٌ أَنْتَ لِذَلِكَ؟ قَالَ: أَشَدُّ إِنْكَارًا. قُلْتُ: فَمَنْ خَلَقَ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ إِنْ كَانَ النَّاسُ وَالنُّجُومُ خَلَقْنَ أَنْفُسَهُنَّ؟ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَقُولَ: إِنَّهُنَّ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، أَوْ خَلَقْنَ أَنْفُسَهُنَّ، أَفَتَقُولُ: إِنَّهَا مِنْ خَلْقِ النَّاسِ؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهَا خَالِقٌ أَوْ هِيَ خَلَقَتْ أَنْفُسَهَا، فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّهَا مِنْ خَلْقِ النَّاسِ أَفَرَزْتَ أَنَّ لَهَا خَالِقًا، فَإِنْ قُلْتَ: لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهَا خَالِقٌ فَقَدْ صَدَقْتَ وَمَا أَعْرَفْنَا بِهِ، وَلَكِنْ قُلْتَ: إِنَّهُنَّ خَلَقْنَ أَنْفُسَهُنَّ^(٦) فَقَدْ أَعْطَيْتَنِي فَوْقَ مَا طَلَبْتُ مِنْكَ مِنَ الْإِفْرَارِ بِصَانِعٍ. ثُمَّ قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي بَعْضُهُنَّ قَبْلَ بَعْضٍ خَلَقْنَ أَنْفُسَهُنَّ أَمْ كَانَ ذَلِكَ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ؟ فَإِنْ قُلْتَ: بَعْضُهُنَّ قَبْلَ بَعْضٍ فَأَخْبِرْنِي السَّمَاوَاتُ وَمَا فِيهِنَّ وَالنُّجُومُ قَبْلَ الْأَرْضِ وَالْإِنْسِ وَالذَّرِّ

١. لم يرد في فرج المهموم: «حتى علم الغيب منها وعلم ما تحت الأرض على قدر ما عاين منها في السماء».

٢. في فرج المهموم: «أحدا من أهل الأرض قدر أن يطلع إلى السماء وقدر على ذلك فأخبرك».

٣. ورد في المصدر مع زيادة: «وكيف وضع هذا العلم الذي زعمت وحسب هذا الحساب الذي ذكرت أن الناس ولدوا به»، وفي فرج المهموم هذه العبارة بدلًا من عبارة: «فكيف وقع هذا العلم» إلى «وهو أقدم منهم».

٤. في فرج المهموم: «بمنزلة الناس وعلى حدّهم».

٥. في فرج المهموم: «لقد منيت منك».

٦. في فرج المهموم: «فلا بدّ أن تقول إنهنّ خلقن أنفسهنّ أو لهنّ خالق، فإن قلت: خلقت لها خالق صدقت وما أعرفنا به، وإن قلت: خلقن أنفسهنّ رجعت إليّ ما أنكرت، قال: ما أجد بدًّا من أقول: إنهنّ خلقن أنفسهنّ كما أقول: إن البروج والناس خلقوا أنفسهم. قلت: فكيف لا تجد بدًّا من أن تقول إن السماء والأرض والذّرّ خلقوا أنفسهم»، وفي المصدر هنا مع زيادة: «رجعت إليّ ما أنكرت. قال: ما أجد بدًّا من أن أقول: إنهنّ خلقن أنفسهنّ كما أقول: إن البروج والناس خلقوا أنفسهم. قلت: فكيف لا تجد بدًّا من أن تقول إن الأرض والسماء والذّرّ خلقوا أنفسهم».

خُلِقْنَ^(١) أَمْ بَعْدَ ذَلِكَ؟ فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّ الْأَرْضَ قَبْلُ^(٢) أَفَلَا تَرَى قَوْلَكَ: إِنَّ الْأَشْيَاءَ لَمْ تَزَلْ قَدْ بَطَلَ حَيْثُ كَانَتْ السَّمَاءُ بَعْدَ الْأَرْضِ؟

قَالَ: بَلَى وَلَكِنْ أَقُولُ: مَعًا جَمِيعًا خُلِقْنَ^(٣). قُلْتُ: أَفَلَا تَرَى أَنَّكَ قَدْ أَقْرَزْتَ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ خُلِقْنَ، وَقَدْ أَذْهَبْتَ حُجَّتَكَ فِي الْأَرِثَةِ؟ قَالَ: إِنِّي لَعَلَى حَدِّ وَقُوفٍ، مَا أَذْرِي مَا أُجِيبُكَ فِيهِ، لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ الصَّانِعَ إِنَّمَا سُمِّيَ صَانِعًا لِصِنَاعَتِهِ، وَالصَّنَاعَةُ غَيْرُ الصَّانِعِ، وَالصَّانِعُ غَيْرُ الصَّنَاعَةِ لِأَنَّهُ يُقَالُ لِلرَّجُلِ الْبَانِي لِصِنَاعَتِهِ: الْبَنَاءُ، وَالْبَنَاءُ غَيْرُ الْبَانِي وَالْبَانِي غَيْرُ الْبَنَاءِ، وَكَذَلِكَ الْحَارِثُ غَيْرُ الْحَرْثِ وَالْحَرْثُ غَيْرُ الْحَارِثِ. قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِكَ: إِنَّ النَّاسَ خَلَقُوا أَنْفُسَهُمْ فَبِكَمَالِهِمْ خَلَقُوا أَرْوَاحَهُمْ وَأَجْسَادَهُمْ وَصُورَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ أَمْ خَلَقَ بَعْضُ ذَلِكَ غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: بِكَمَالِهِمْ لَمْ يَخْلُقْ ذَلِكَ وَلَا شَيْئًا مِنْهُمْ غَيْرُهُمْ.

قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي الْحَيَاةَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ أَمْ الْمَوْتُ؟ قَالَ: أَوْ تَشْكُ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ، وَلَا أَبْغَضُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَوْتِ؟ قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي مَنْ خَلَقَ الْمَوْتَ الَّذِي يُخْرِجُ أَنْفُسَهُمُ الَّتِي رَعِمَتْ أَنَّهُمْ خَلَقُوهَا؟ فَإِنَّكَ لَا تُتَكَبَّرُ أَنَّ الْمَوْتَ غَيْرُ الْحَيَاةِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَذْهَبُ بِالْحَيَاةِ. فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ غَيْرُهُمْ، فَإِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْحَيَاةَ، وَلَكِنْ قُلْتَ: هُمُ الَّذِينَ خَلَقُوا الْمَوْتَ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّ هَذَا لِمَحَالٌّ مِنَ الْقَوْلِ! وَكَيْفَ خَلَقُوا لِأَنْفُسِهِمْ مَا يَكْرَهُونَ إِنْ كَانُوا كَمَا زَعَمْتَ خَلَقُوا أَنْفُسَهُمْ؟ هَذَا مَا يُسْتَنْكَرُ مِنْ ضَلَالِكَ إِنْ تَزَعَّمُ أَنَّ النَّاسَ قَدَرُوا عَلَى خَلْقِ أَنْفُسِهِمْ بِكَمَالِهِمْ، وَأَنَّ الْحَيَاةَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَوْتِ وَخَلَقُوا مَا يَكْرَهُونَ لِأَنْفُسِهِمْ^(٤)!

قَالَ: مَا أَجِدُ وَاحِدًا مِنَ الْقَوْلَيْنِ يَنْقَادُ لِي وَلَقَدْ قَطَعْتُهُ عَلَى قَبْلِ الْغَايَةِ الَّتِي كُنْتُ أُرِيدُهَا. قُلْتُ: دَعْنِي فَإِنَّ مِنَ الدُّخُولِ فِي أَبْوَابِ الْجَهَالَاتِ مَا لَا يَنْقَادُ مِنَ الْكَلَامِ، وَإِنَّمَا أَسْأَلُكَ عَنْ مُعَلِّمِ هَذَا الْحِسَابِ الَّذِي عَلَّمَ أَهْلَ الْأَرْضِ عِلْمَ هَذِهِ النُّجُومِ الْمُعَلَّقَةِ فِي السَّمَاءِ».

أقول:

رجعنا إلى ما في النسخ المشهورة:

قَالَ: مَا أَجِدُ يَسْتَقِيمُ أَنْ أَقُولَ: إِنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ وَضَعَ عِلْمَ هَذِهِ النُّجُومِ الْمُعَلَّقَةِ فِي السَّمَاءِ^(٥). قُلْتُ: فَلَا بُدَّ لَكَ أَنْ تَقُولَ: إِنَّمَا عَلَّمَهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ بِأَمْرِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمُدَبِّرُهُمَا، قَالَ: إِنْ قُلْتُ هَذَا فَقَدْ أَقْرَزْتُ لَكَ بِالْهَلَكِ الَّذِي

١. لم يرد في فرج المهموم: «والإنس والذر خلقن».

٢. في المصدر: «إِنَّ الْأَرْضَ قَبْلَ ذَلِكَ».

٣. في المصدر: «مَعًا جَمِيعًا خُلِقْنَ أَنْفُسَهُنَّ».

٤. في فرج المهموم: «الْحَيَاةُ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَوْتِ، وَإِنَّهُمْ خَافُوا مَا يَكْرَهُونَ لِأَنْفُسِهِمْ».

٥. لم يرد في فرج المهموم: «قَالَ: مَا أَجِدُ يَسْتَقِيمُ أَنْ أَقُولَ إِنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ وَضَعَ عِلْمَ هَذِهِ النُّجُومِ الْمُعَلَّقَةِ فِي السَّمَاءِ».

تَزْعُمُ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ. قُلْتُ: أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ أُعْطِيتَنِي أَنَّ حِسَابَ هَذِهِ النُّجُومِ حَقٌّ، وَأَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ وَلِدُوا بِهَا، قَالَ: الشُّكُّ فِي غَيْرِ هَذَا.

قُلْتُ: وَكَذَلِكَ أُعْطِيتَنِي أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى أَنْ يَغِيبَ^(١) مَعَ هَذِهِ النُّجُومِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ فِي الْمَغْرِبِ حَتَّى يَعْرِفَ مَجَارِيَهَا وَيَطْلُعَ مَعَهَا إِلَى الْمَشْرِقِ^(٢). قَالَ: الطُّلُوعُ إِلَى السَّمَاءِ دُونَ هَذَا. قُلْتُ: فَلَا أَرَاكَ تَجِدُ بُدًّا مِنْ أَنْ تَزْعُمَ أَنَّ الْمُعَلَّمَ لِهَذَا مِنَ السَّمَاءِ^(٣). قَالَ: لَيْنَ قُلْتُ أَنَّ لَيْسَ لِهَذَا الْحِسَابِ مُعَلِّمٌ لَقَدْ قُلْتُ إِذَا غَيَّرَ الْحَقُّ، وَلَيْنَ زَعَمْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ عِلْمَ مَا فِي السَّمَاءِ وَمَا تَحْتَ الْأَرْضِ لَقَدْ أَبْطَلْتُ، لِأَنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى عِلْمِ مَا وَصَفْتُ لَكَ مِنْ حَالِ هَذِهِ النُّجُومِ وَالْبُرُوجِ بِالْمُعَايَنَةِ وَالذُّنُوبِ مِنْهَا فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، لِأَنَّ عِلْمَ أَهْلِ الدُّنْيَا لَا يَكُونُ عِنْدَنَا إِلَّا بِالْحَوَاسِّ، وَمَا يُدْرِكُ عِلْمَ هَذِهِ النُّجُومِ الَّتِي وَصَفْتُ بِالْحَوَاسِّ لِأَنَّهَا مُعَلَّقَةٌ فِي السَّمَاءِ، وَمَا زَادَتِ الْحَوَاسُّ عَلَى النَّظَرِ إِيَّهَا حَيْثُ تَطْلُعُ وَحَيْثُ تَغِيبُ، فَأَمَّا حِسَابُهَا وَدَقَائِقُهَا وَنَحْوُسُهَا^(٤) وَسُغُودُهَا وَبَطِيئُهَا وَسَرِيعُهَا وَخُنُوسُهَا^(٥) وَرُجُوعُهَا فَأَنَّى تُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ أَوْ يُهْتَدَى إِلَيْهَا بِالْقِيَاسِ؟

قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي لَوْ كُنْتُ مُتَعَلِّمًا مُسْتَوْصِفًا لِهَذَا الْحِسَابِ^(٦) مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ تَسْتَوْصِفَهُ وَتَتَعَلَّمَهُ، أَمْ مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ؟ قَالَ: مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ، إِذْ كَانَتِ النُّجُومُ مُعَلَّقَةً فِيهَا حَيْثُ لَا يَعْلَمُهَا أَهْلُ الْأَرْضِ.

قُلْتُ: فَأَفْهَمَ وَأَدَقَّ النَّظَرَ وَنَاصَحَ نَفْسَكَ، أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ حَيْثُ كَانَ جَمِيعُ أَهْلِ الدُّنْيَا إِنَّمَا يُولَدُونَ بِهَذِهِ النُّجُومِ عَلَى مَا وَصَفْتُ فِي النُّحُوسِ وَالسُّغُودِ أَنَّهُمْ كُنَّ قَبْلَ النَّاسِ؟ قَالَ: مَا أَمْتَنَعُ أَنْ أَقُولَ هَذَا. قُلْتُ: أَفَلَيْسَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ قَوْلَكَ: إِنَّ النَّاسَ لَمْ يَزَالُوا وَلَا يَزَالُونَ قَدْ انْكَسَرَ عَلَيْكَ^(٧) حَيْثُ كَانَتِ النُّجُومُ قَبْلَ النَّاسِ؛ فَالنَّاسُ حَدَثُ بَعْدَهَا، وَلَيْنَ كَانَتِ النُّجُومُ خُلِقَتْ قَبْلَ النَّاسِ^(٨) مَا تَجِدُ بُدًّا مِنْ أَنْ تَزْعُمَ أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَهُمْ.

قَالَ: وَلِمَ تَزْعُمُ أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَهُمْ؟ قُلْتُ: أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّهَا لَوْ لَمْ تَكُنِ الْأَرْضُ جَعَلَ اللَّهُ لِخَلْقِهِ فِرَاشًا وَمِهَادًا مَا اسْتَقَامَ النَّاسُ وَلَا غَيْرُهُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ، وَلَا قَدَرُوا أَنْ يَكُونُوا فِي الْهَوَاءِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَجْنِحَةٌ؟ قَالَ: وَمَا ذَا يُغْنِي عَنْهُمْ

١. في فرج المهموم: «أحدًا من أهل الأرض لم يبق إلى السماء فيعرف مجاري هذه النجوم وحسابها، قال لو وجدت السبيل إلى أن لا أعطيك ذلك لفعلت، قلت: وكذلك أعطيني أن أحدًا من أهل الأرض لا يقدر أن يغيب».

٢. في فرج المهموم: «يطلع منها إلى المشرق».

٣. في فرج المهموم: «من أهل السماء».

٤. النحس: خلاف السعد، والجمع نحوس، راجع لسان العرب.

٥. خنوسها: استخفاؤها بالنهار، راجع لسان العرب.

٦. في المصدر: «لهذا الحساب وواضع هذه الأشياء»، وفي فرج المهموم: «لو كنت واصفًا معلمًا هذا الحساب وواضع هذه الأشياء».

٧. وفي نسخة: قد أنكر عليك. (هامش المطبوع) وكذا في فرج المهموم.

٨. لم يرد في فرج المهموم: «فالناس حدث بعدها ولئن كانت النجوم خلقت قبل الناس».

الْأَجْنَحَةُ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مَعِيشَةً؟ قُلْتُ: فَفِي شَكٍّ أَنْتَ مِنْ أَنَّ النَّاسَ حَدَثَ بَعْدَ الْأَرْضِ وَالْبُرُوجِ؟ قَالَ: لَا وَلَكِنْ عَلَى الْبَقِيَّةِ مِنْ ذَلِكَ.

قُلْتُ: آتِيكَ أَيْضاً بِمَا تُبَصِّرُهُ^(١). قَالَ: ذَلِكَ أَنْفَى^(٢) لِلشَّكِّ عَنِّي. قُلْتُ: أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ هَذِهِ النُّجُومُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ هَذَا الْفَلَكَ؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: أَفَلَيْسَ قَدْ كَانَ أَسَاساً لِهَذِهِ النُّجُومِ؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: فَمَا أَرَى هَذِهِ النُّجُومَ الَّتِي زَعَمْتَ أَنَّهَا مَوَالِيدُ النَّاسِ إِلَّا وَقَدْ وُضِعَتْ بَعْدَ هَذَا الْفَلَكَ، لِأَنَّهُ بِهِ تَدُورُ الْبُرُوجُ، وَتَسْفُلُ مَرَّةً وَتَصْعَدُ أُخْرَى.

قَالَ: قَدْ جُنْتُ بِأَمْرِ وَاضِحٍ لَا يُشْكِلُ عَلَى ذِي عَقْلٍ أَنَّ الْفَلَكَ الَّذِي تَدُورُ بِهِ النُّجُومُ هُوَ أَسَاسُهَا الَّذِي وُضِعَ لَهَا لِأَنَّهَا إِنَّمَا جَرَتْ بِهِ. قُلْتُ: أَفَرَرْتَ أَنَّ خَالِقَ النُّجُومِ الَّتِي يُولَدُ بِهَا النَّاسُ سُعُودُهُمْ وَنُحُوسُهُمْ هُوَ خَالِقُ الْأَرْضِ، لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ خَلَقَهَا لَمْ يَكُنْ ذَرَّةً. قَالَ: مَا أَجْدُ بُدّاً مِنْ إِبَابَتِكَ إِلَى ذَلِكَ. قُلْتُ: أَفَلَيْسَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ يَدُلَّكَ عَقْلُكَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى خَلْقِ السَّمَاءِ إِلَّا الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ وَالذَّرَّةَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ، وَأَنَّهُ لَوْ لَا السَّمَاءُ وَمَا فِيهَا لَهْلَكَ ذَرَّةُ الْأَرْضِ؟

شرح:

«أن يكون لبعض الناس» أي هذا العلم. اعلم أن كلامه واحتجاجه عليه السلام مبني على أحد أمرين: الأول: ما يحكم به الوجدان من أن العلم بدقائق حركات هذه الكواكب وخواص آثارها والمناسبة بينها وبين ما هي علامة لحدوثها لا يتأتى إلا لخالقها الذي جعلها كذلك، أو من ينتهي علمه إليه، ومعلوم أن ما هو الحق من هذه العلوم إنما وصل إلى الخلق من الأنبياء عليهم السلام كما اعترفوا به، ولما لم يحيطوا بجميع ذلك وضاع عنهم بعض ما استفادوا من الأنبياء عليهم السلام أيضاً، فلذا ترى الرياضيين يتحيرون في بعض الحركات التي لا تستقيم على أصولهم، ويسمونها ما لا ينحل وترى المنجمين يخطئون في كثير من أحكامهم لذلك. ثم ذكر عليه السلام على سبيل التنزيل أنه لو سلمنا أنه يمكن أن يتيسر ذلك لمخلوق من البشر فلا يتأتى ذلك إلا لمن كان معها في حركاتها ويعاشرها مدة طويلة، ليعلم كيفية حركاتها وجرب بكثرة المعاشرة خواصها وآثارها.

والثاني: أن يكون المراد أنك إذا اعترفت أن كل الخلق يولدون بهذه النجوم فلا يكون أحد منهم علّة لها ولا آثارها لتقدمها عليهم، ولا شك في أنه لا بد من حكيم عالم بجميع الأمور قادر عليها، أسس ذلك الأساس وبنى عليها تلك الآثار والأحكام التي أمكن للخلق بها استعمال ما لم يأت من الأمور، فقد أقررت بالصانع فهو أول عالم بهذا العلم لا الحكيم الذي تزعم أنه يولد بتلك النجوم^(٣). ويحتمل أن يكون المقصود من الكلام

١. في المصدر: «آتيك أيضاً بما تبصره وتبطل به أزلية النجوم أيضاً كآزلية الناس».

٢. وفي نسخة: قال: ذلك أنقى للشك عني. (هامش المطبوع)

٣. وبعبارة أخرى إنك بعد ما اعترفت بأن جميع الناس يولدون بهذه النجوم ولم يمكن أن يولد أحد من أهل الأرض إلا بهذه النجوم لأنّها علته، فقد اعترفت بأن واضع هذه النجوم غير أهل الدنيا لأنهم معلولون لها، وهذا تسليم وإذعان منك بالصانع تعالى. (هامش المطبوع)

الإشارة إلى كلا الدليلين كما لا يخفى بعد التأمل.

قوله عليه السلام: «مواضعها من السماء» أي عند كونها فوق الأرض، «ومواضعها تحت الأرض» أي بعد غروبها واستتارها عنا بالأرض. قوله عليه السلام: «إلا بمن في السماء» أي بمن أحاط علمه وقدرته وحكمه بالسماء وما فيها. قوله عليه السلام: «فأنا أقول قولك» أي أنا أعتقد ما قلت من أن الحكماء الذين تزعمهم عالمين به لم يرقوا إلى السماء، أو أعتقد أنه لا يمكنهم أن يرقوا إلى السماء بأنفسهم بدون تعلق إرادة الرب تعالى به، ومع ذلك فإن سلّمناه فلا يكفي محض الصعود للإحاطة بذلك. قوله عليه السلام: «مع كل برج» أي فيه أو بالحركة السريعة. قوله عليه السلام: «في ثلاثين سنة» وهو زحل، وهو أبطأ السيّارات، وإثما لم يتعرّض عليه السلام للشواهد مع كونها أبطأ لأنّ مبنى أحكامهم على السيّارات. قوله عليه السلام: «لأنّ مجاريها تحت الأرض» لمّا ذكر عليه السلام سابقاً سيره مع الكواكب من الطلوع إلى الغروب أشار عليه السلام هاهنا إلى أنّه لا يكفي ذلك للعلم بجميع الحركات حتّى يسير معها بعد الغروب، فيحاذي ما تحت الأرض من البحار والمواضع المظلمة بالبخارات، أو يسير مع سائر الكواكب عند كون الشمس فوق الأرض حتّى يحاذي ما تحتها الظلمة، ثمّ يبيّن عليه السلام الحاجة إلى ذلك بأنّه لا تكفي الإحاطة ببعض مسيرها للعلم بحركاتها، لأنّ حركاتها الخاصّة عندهم مختلفة بالنسبة إلى مركز العالم بسبب التدوير والأفلاك الخارجة المراكز وغيرها، فتارة تسرع وتارة تبطئ، فلا تتأتّى مقايسة بعض حركاتها ببعض.

قوله عليه السلام: «كيف يكون بعضها سعداً» أي يرجع قولك إلى أنّها مع صفاتها وجدت من غير صانع، فكيف صار بعضها هكذا وبعضها هكذا، فترجّح هذه الأحوال الممكنة وحصولها من غير علّة ممّا يحكم العقل باستحالته، أو المراد أنّها لو كانت خالقة لأنفسها لكان كلّ منها يختار لنفسه أفضل الأحوال وأشرفها، فكان جميعها على حالة واحدة هي أفضل الأحوال؛ وهذا أظهر. ثمّ لمّا لم يفهم السائل ذلك غير الكلام وصرفه إلى ما هو أوضح. وقوله عليه السلام: «قد أقررت أنّها لم تكن شيئاً» إمّا مبني على أنّ الصنع والخلق لا يتعلّقان إلاّ بالحدث، أو على ما كان ظاهر كلام السائل أنّ لوجودها مبدأ، ثمّ إنّ السائل لمّا تفتّن بفساد كون الشيء صانعاً لنفسه رجع وأقرّ بأنّ العقل يحكم بديهة بأنّ المصنوع غير الصانع، والبناني غير البناء؛ وما ذكره عليه السلام من أنّ خالق الحياة والموت لا بدّ أن يكون واحداً ممّا يحكم به الوجدان، مع أنّ الظاهر من خالق الحياة من يكون مستقلاًّ فيه، والموت ليس إلاّ رفع الحياة، فلو كان مستنداً إلى غيره لم يكن خالق الحياة مستقلاًّ فيه.

قوله عليه السلام: «دون هذا» أي أنا أنكر الصعود إلى السماء الذي هو أسهل ممّا ذكرت فكيف أقرّ به، أو المراد أنّ الصعود إلى السماء أسهل عليّ من الإقرار بما ذكرت. قوله عليه السلام: «إنّهنّ كنّ قبل الناس» أي بالعلّيّة والسببيّة كما ظنّ السائل، أو بالزمان أي تقدّمها على كلّ شخص، أو على الجميع بناء على لزوم التقدّم على كلّ من

الأشخاص التقدم على الجميع كما قيل، أو على أنه عليه السلام: كان يعلم أن السائل كان قائلاً بذلك فذكره عليه السلام إلزاماً عليه كما اعترف به؛ وعلى الأول يكون المراد بقوله: لم يزالوا ولا يزالون، عدم استنادهم إلى علة، وعلى الثاني فالمراد إما قدم مادتهم أو صورهم أيضاً بناء على القول بالكُمون^(١)، وعلى الثالث فالمراد قدم نوعهم. قوله عليه السلام: «بعد هذا الفلك» أي هي محتاجة إلى الفلك، والفلك متقدمة عليها بالعلة فلا يصح كون النجوم علة لها للزوم الدور. قوله عليه السلام: «لم يكن ذرء» أي مذروء ومخلوق من الإنس.

ثم اعلم أن حاصل استدلاله على ما ظهر لهذا القاصر هو أنه عليه السلام - لما قرّر السائل سالفاً على أن النجوم ليست خالقة لأنفسها، وأنفاً على أنها ليست مخلوقة للناس وغيرها ممّا يحدث بزعمه بتأثيرها لتأخرها عنها، وعلى أن الأرض أيضاً متقدمة على ما عليها من الخلق فلا تكون مخلوقة لما عليها، وعلى أن الفلك لتقدمه على النجوم المتقدمة على الناس لا يجوز كونه مخلوقاً لشيء منها - استدلالاً عليه السلام ها هنا على أنه لا بد أن يكون خالق السماء والأرض وما في السماء من الشمس والقمر والنجوم وما على الأرض من الخلق واحداً.

أما اتحاد خالق الأرض والنجوم فيمكن تقريره بوجهين: الأول: أن الناس محتاجون إلى الأرض كما عرفت، وظاهر أنها من أعظم مصالحهم، فالوجدان الصحيح يحكم بأن من خلق شيئاً يعدّ له ما يصلحه، ويهيئ له ما سيحتاج إليه فظهر أنه لا بد أن يكون خالق الناس وخالق الأرض واحداً، والناس بزعمك مخلوقون للنجوم ولزمك القول بوجود خالق للنجوم، فلا بد من القول بكون الأرض منسوبة إلى خالق النجوم إما بلا واسطة أو بواسطة النجوم أو غيرها فثبت المطلوب.

الثاني: أنا نرى التلازم بين الناس والأرض لحكم العقل بأن كلاً منهما يرتفع عند ارتفاع الآخر، إذ الظاهر أن غاية خلق الأرض هو الإنسان ونحوه وهم محتاجون في أمورهم إليها، وقد تقرّر أن المتلازمين إما أن يكون أحدهما علة للآخر، أو كل منهما معلول علة ثالثة، ولا يجوز أن يكون الناس عللاً للأرض لما عرفت، ولا معلولة لها لانتسابها عندك إلى النجوم، فلا بد من أن يكونا معلولي علة واحدة، وبأحد هذين التقريرين يثبت اتحاد خالق السماء وخالق هذه الأمور السابقة، لاحتياج ما على الأرض من الخلق إلى السماء وما فيها من النجوم؛ وإليه أشار عليه السلام بقوله: «وإنه لو لا السماء وما فيها لهلك ذرء الأرض» هذا ما أحاط به نظري

١. أنكساغورس هو أول من قال بالكُمون والظهور حيث قدر الأشياء كلها كامنة في الجسم الأول وإنما الوجود ظهورها من ذلك الجسم، كما تظهر السنبلة من الحبة الواحدة والنخلة الباسقة من النواة الصغيرة والإنسان الكامل الصورة من النطفة المهينة والطير من البيض فكل ذلك ظهور عن كمون، وفعل عن قوة، وصورة عن استعداد مادة وإنما الإبداع واحد ولم يكن بشيء آخر سوى ذلك الجسم الأول، راجع الملل والنحل (للشهرستاني)، ج ٢، ص ٣٧٩.

العاثر، وسيأتي في تضاعيف كلامه عليه السلام توضيح ما قلناه، والتصريح ببعض ما قرّرناه، والله يعلم وحججه عليه السلام حقائق كلامهم ودقائق مرامهم. ثم لا يتوهم متوهم من كلامه عليه السلام أن للنجوم تأثيراً فإنه ظاهر أنه عليه السلام إنما ذكرها إلزاماً عليه، ومما شاة معه لإتمام الحجّة عليه^(١)، بل لا يمكن الاستدلال على صعودها ونحوسها وكونها علامات للكائنات أيضاً بهذا الوجه، لكن ظاهره أن لها سعادة ونحوسة وأنها علامات، وسيأتي القول في ذلك مفصلاً في كتاب السماء والعالم.

متن:

قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ الْخَالِقَ وَاحِدٌ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ، لِأَنَّكَ قَدْ أَتَيْتَنِي بِحُجَّةٍ ظَهَرَتْ لِعَقْلِي^(٢)، وَانْقَطَعَتْ بِهَا حُجَّتِي، وَمَا أَرَى يَسْتَقِيمُ أَنْ يَكُونَ وَاضِعُ هَذَا الْحِسَابِ وَمُعَلِّمُ هَذِهِ النُّجُومِ وَاحِدًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ^(٣) لِأَنَّهَا فِي السَّمَاءِ، وَلَا مَعَ ذَلِكَ يَعْرِفُ مَا تَحْتَ الْأَرْضِ مِنْهَا، إِلَّا مُعَلِّمٌ مَا فِي السَّمَاءِ مِنْهَا، وَلَكِنْ لَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ سَقَطَ أَهْلُ الْأَرْضِ عَلَى هَذَا الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ حَتَّى اتَّفَقَ حِسَابُهُمْ عَلَى مَا رَأَيْتَ مِنَ الدَّقَّةِ وَالصَّوَابِ، فَإِنِّي لَوْ لَمْ أَعْرِفْ مِنْ هَذَا الْحِسَابِ مَا أَعْرِفُهُ لِأَنَّكَ تَرَاهُ وَلَا خَبْرُكَ أَنَّهُ بَاطِلٌ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ فَكَانَ أَهْوَنَ عَلَيَّ^(٤).

قُلْتُ: فَأَعْطَيْتَنِي مَوْثِقًا إِنَّ أَنَا أَعْطَيْتُكَ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْإِهْلِيلِجَةِ الَّتِي فِي يَدِكَ وَمَا تَدْعِي مِنَ الطُّبِّ الَّذِي هُوَ صِنَاعَتُكَ وَصِنَاعَةُ آبَائِكَ حَتَّى يَتَّصِلَ الْإِهْلِيلِجَةُ وَمَا يُشَبِّهُهَا مِنَ الْأَدْوِيَةِ بِالسَّمَاءِ لَتُدْعِنَ بِالْحَقِّ، وَلَتُنْصِفَنَّ مِنْ نَفْسِكَ، قَالَ: ذَلِكَ لَكَ. قُلْتُ: هَلْ كَانَ النَّاسُ عَلَى حَالٍ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الطُّبَّ وَمَنَافِعَهُ مِنْ هَذِهِ الْإِهْلِيلِجَةِ وَأَشْبَاهِهَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: فَمِنْ أَيْنَ اهْتَدَوْا لَهُ؟ قَالَ: بِالتَّجَرِبَةِ وَطُولِ الْمُقَايَسَةِ. قُلْتُ: فَكَيْفَ خَطَرَ عَلَى أَوْهَامِهِمْ حَتَّى هَمُّوا بِتَجَرِبَتِهِ؟ وَكَيْفَ ظَنُّوا أَنَّهُ مَصْلَحَةٌ لِلْأَجْسَادِ وَهُمْ لَا يَرَوْنَ فِيهِ إِلَّا الْمَضَرَّةَ؟ أَوْ كَيْفَ عَزَمُوا عَلَى طَلَبِ مَا لَا يَعْرِفُونَ مِمَّا لَا تَدُلُّهُمْ عَلَيْهِ الْحَوَاسُّ؟ قَالَ: بِالتَّجَارِبِ.

قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ وَاضِعِ هَذَا الطُّبِّ وَوَاصِفِ هَذِهِ الْعَقَاقِيرِ الْمُتَفَرِّقَةِ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، هَلْ كَانَ بَدْءٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ الَّذِي وَضَعَ ذَلِكَ وَدَلَّ عَلَى هَذِهِ الْعَقَاقِيرِ رَجُلٌ حَكِيمٌ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ هَذِهِ الْبُلْدَانِ؟ قَالَ: لَا بَدْءَ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ، وَأَنْ يَكُونَ رَجُلًا حَكِيمًا وَضَعَ ذَلِكَ وَجَمَعَ عَلَيْهِ الْحُكَمَاءُ فَنَظَرُوا فِي ذَلِكَ وَفَكَّرُوا فِيهِ بِعُقُولِهِمْ. قُلْتُ: كَأَنَّكَ تُرِيدُ الْإِنْصَافَ مِنْ نَفْسِكَ وَالْوَفَاءَ بِمَا أَعْطَيْتَ مِنْ مِيثَاقِكَ^(٥) فَأَعْلِمْنِي كَيْفَ عَرَفَ الْحَكِيمُ ذَلِكَ؟

١. ما ذكره «رحمه الله» بمعنى التأثير بنحو الاستقلال حق، وأما أصل التأثير بمعنى وجود رابطة السببية والمسببية بين هذه الأشياء فهو ممّا

بنى عليه كلامه عليه السلام من أوله إلى آخره كما هو ظاهر. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

٢. في فرج المهموم: «بهرت عقلي».

٣. في فرج المهموم: «واحدًا لا من أهل الأرض».

٤. إلى هنا تمت الرواية في فرج المهموم.

٥. في المصدر: «من ضمانك».

وَهَبَهُ قَدْ عَرَفَ بِمَا فِي بِلَادِهِ مِنَ الدَّوَاءِ، وَالرَّعْفَرَانِ الَّذِي بِأَرْضِ فَارِسَ، أَتَرَاهُ اتَّبَعَ جَمِيعَ نَبَاتِ الْأَرْضِ فَذَاقَهُ شَجَرَةً شَجَرَةً حَتَّى ظَهَرَ عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ؟ وَهَلْ يَدُلُّكَ عَقْلُكَ عَلَى أَنَّ رَجُلًا حُكَمَاءَ قَدَرُوا عَلَى أَنْ يَتَّبِعُوا جَمِيعَ بِلَادِ فَارِسَ وَنَبَاتِهَا شَجَرَةً شَجَرَةً حَتَّى عَرَفُوا ذَلِكَ بِحَوَاسِّهِمْ، وَظَهَرُوا عَلَى تِلْكَ الشَّجَرَةِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا خَلْطُ بَعْضِ هَذِهِ الْأَدْوِيَةِ الَّتِي لَمْ تُدْرِكْ حَوَاسِّهُمْ شَيْئًا مِنْهَا؟ وَهَبَهُ أَصَابَ تِلْكَ الشَّجَرَةَ بَعْدَ بَحْثِهِ عَنْهَا وَتَتَبُعِهِ جَمِيعَ شَجَرِ فَارِسَ وَنَبَاتِهَا، كَيْفَ عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ دَوَاءً حَتَّى يَضُمَّ إِلَيْهِ الْإِهْلِيلَجُ مِنَ الْهِنْدِ، وَالْمُصْطَكِيُّ^(١) مِنَ الرُّومِ، وَالْمِسْكُ مِنَ الثُّبَّتِ^(٢)، وَالذَّارِصِينِي مِنَ الصِّينِ، وَخَصَى بِيَدِ سِتْرٍ^(٣) مِنَ التُّرْكِ، وَالْأَفْيُونُ مِنْ مِصْرَ، وَالصَّبْرُ^(٤) مِنَ الْيَمَنِ، وَالْبُورَقُ^(٥) مِنْ إِرْمِينِيَّةَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَخْلَاطِ الْأَدْوِيَةِ الَّتِي تَكُونُ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ؟ وَكَيْفَ عَرَفَ أَنَّ بَعْضَ تِلْكَ الْأَدْوِيَةِ وَهِيَ عَقَاقِيرُ مُخْتَلِفَةٍ يَكُونُ الْمُنْعَةُ بِاجْتِمَاعِهَا وَلَا يَكُونُ مُنْعَتُهَا فِي الْحَالَاتِ بِغَيْرِ اجْتِمَاعٍ؟ أَمْ كَيْفَ اهْتَدَى لِمَنَابِتِ هَذِهِ الْأَدْوِيَةِ وَهِيَ الْوَانُ مُخْتَلِفَةٌ وَعَقَاقِيرُ مُنَابِتِيَّةٍ فِي بُلْدَانٍ مُتَفَرِّقَةٍ؟ فَمِنْهَا عُرُوقُ، وَمِنْهَا لِحَاءُ، وَمِنْهَا وَرَقُ، وَمِنْهَا ثَمَرُ، وَمِنْهَا عَصِيرُ، وَمِنْهَا مَائِعُ، وَمِنْهَا صَنْعُ، وَمِنْهَا دُهْنُ، وَمِنْهَا مَا يُعَصَّرُ وَيُطْبَخُ، وَمِنْهَا مَا يُعَصَّرُ وَلَا يُطْبَخُ، مِمَّا سُمِّيَ بِلُغَاتٍ شَتَّى لَا يُصْلَحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ وَلَا يَصِيرُ دَوَاءً إِلَّا بِاجْتِمَاعِهَا؛ وَمِنْهَا مَرَائِرُ السَّبَاعِ وَالِدَّوَابِّ الْبَرِّيَّةِ وَالْبَحْرِيَّةِ، وَأَهْلُ هَذِهِ الْبُلْدَانِ مَعَ ذَلِكَ مُتَعَادُونَ مُخْتَلِفُونَ مُتَفَرِّقُونَ بِاللُّغَاتِ، مُتَعَالِبُونَ بِالْمَنَاصِبِ^(٦)، وَمُتَحَارِبُونَ بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ. أَفَتَرَى ذَلِكَ الْحَكِيمَ تَتَّبَعَ هَذِهِ الْبُلْدَانَ حَتَّى عَرَفَ كُلَّ لُغَةٍ وَطَافَ كُلَّ وَجْهِ، وَتَتَّبَعَ هَذِهِ الْعَقَاقِيرَ مَشْرِقًا وَمَغْرِبًا آمِنًا صَاحِحًا لَا يَخَافُ وَلَا يَمْرُضُ، سَلِيمًا لَا يَغْطَبُ^(٧)، حَيًّا لَا يَمُوتُ، هَادِيًّا لَا يَضِلُّ، قَاصِدًا لَا يَجُورُ^(٨)، حَافِظًا لَا يَنْسَى، نَشِيطًا لَا يَمَلُّ، حَتَّى عَرَفَ وَقْتَ أَزْمِنَتِهَا، وَمَوَاضِعَ مَنَابِتِهَا مَعَ اخْتِلَاطِهَا وَاخْتِلَافِ صِفَاتِهَا وَنَبَاتِهَا أَلْوَانِهَا وَتَفَرُّقِ أَسْمَائِهَا، ثُمَّ وَضَعَ مِثَالَهَا عَلَى شِبْهِهَا وَصِفَتِهَا، ثُمَّ وَصَفَ كُلَّ شَجَرَةٍ بِنَبَاتِهَا وَوَرَقِهَا وَثَمَرِهَا وَرِيحِهَا وَطَعْمِهَا؟ أَمْ هَلْ كَانَ لِهَذَا الْحَكِيمِ بُدٌّ مِنْ أَنْ يَتَّبَعَ جَمِيعَ أَشْجَارِ الدُّنْيَا وَيَقُولُهَا وَعُرُوقِهَا شَجَرَةً شَجَرَةً، وَوَرَقَةً وَوَرَقَةً، شَيْئًا شَيْئًا؟ فَهَبَهُ وَقَعَ عَلَى الشَّجَرَةِ الَّتِي أَرَادَ، فَكَيْفَ دَلَّتْهُ حَوَاسُّهُ عَلَى أَنَّهَا تُصْلَحُ لِدَوَاءٍ، وَالشَّجَرُ مُخْتَلِفٌ مِنْهُ الْحُلُوُّ وَالْحَامِضُ وَالْمُرُّ وَالْمَالِحُ.

وَإِنْ قُلْتَ: يَسْتَوْصِفُ فِي هَذِهِ الْبُلْدَانِ وَيَعْمَلُ بِالسُّوَالِ، فَأَنْتَى يَسْأَلُ عَمَّا لَمْ يُعَايِنَ وَلَمْ يُدْرِكْهُ بِحَوَاسِّهِ؟ أَمْ كَيْفَ

١. المصطكى: قيل هو الكندر، راجع بحر الجواهر.

٢. الثبَّت: إسم بلاد يجلب منها المسك، وهي دون الصين وفيها قوم من قبائل اليمن، راجع شمس العلوم.

٣. بيدستر: حيوان ذو حياتين في البحر والبر، يسمونه الكلب. (هامش المطبوع)

٤. الصبر: عصارة شجر مُرٍّ، راجع لسان العرب.

٥. البورق: هو الطُّرُون، مسحوقه يلطخ به البطن قريبا من نار، فإنه يُخرج الدود، راجع القاموس المحيط.

٦. وفي أكثر النسخ: متقلبون بالمناسبة. (هامش المصدر)

٧. العطب: الهلاك، راجع لسان العرب.

٨. وفي نسخة: قاصدا لا يجوز. (هامش المصدر)

يَهْتَدِي إِلَى مَنْ يَسْأَلُهُ عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَهُوَ يُكَلِّمُهُ بِغَيْرِ لِسَانِهِ وَيَغْيِرُ لُغَتَهُ وَالْأَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ؟ فَهَبْهُ فَعَلَ، كَيْفَ عَرَفَ مَنَافِعَهَا وَمَضَارَّهَا، وَتَسْكِينَهَا وَتَهْيِيجَهَا، وَبَارِدَهَا وَحَارَّهَا، وَحُلُوهَا وَمَرَارَتَهَا وَحَرَافَتَهَا^(١)، وَلَيْبِنَهَا وَشَدِيدَهَا^(٢)؟ فَلَنْ قُلْتُ: بِالظَّنِّ إِنَّ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُدْرِكُ وَلَا يُعْرَفُ بِالطَّبَائِعِ وَالْحَوَاسِّ، وَلَكِنْ قُلْتُ: بِالتَّجَرُّبَةِ وَالشُّرْبِ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَمُوتَ فِي أَوَّلِ مَا شَرِبَ وَجَرَّبَ تِلْكَ الْأَدْوِيَةَ بِجَهْلَانَتِهِ بِهَا وَقَلَّةِ مَعْرِفَتِهِ بِمَنَافِعِهَا وَمَضَارَّهَا، وَأَكْثَرُهَا السَّمُّ الْقَاتِلُ، وَلَكِنْ قُلْتُ: بَلْ طَافَ فِي كُلِّ بَلَدٍ، وَأَقَامَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ يَتَعَلَّمُ لُغَاتِهِمْ وَيُجَرِّبُ بِهِمْ أَدْوِيَتَهُمْ تُقْتَلُ الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ مِنْهُمْ مَا كَانَ لِيَبْلُغَ مَعْرِفَتَهُ الدَّوَاءَ الْوَاحِدَ إِلَّا بَعْدَ قَتْلِ قَوْمٍ كَثِيرٍ، فَمَا كَانَ أَهْلُ تِلْكَ الْبُلْدَانِ الَّذِينَ قُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ بِتَجَرُّبَتِهِ بِالَّذِينَ يَنْقَادُونَهُ بِالْقَتْلِ وَلَا يَدْعُونَهُ أَنْ يُجَاوِرَهُمْ، وَهَبْهُ تَرْكُوهُ وَسَلَّمُوا لِأَمْرِهِ وَلَمْ يَنْهَوْهُ، كَيْفَ قَوِيَ عَلَى خَلْطِهَا، وَعَرَفَ قَدْرَهَا وَوزَنَهَا وَأَخَذَ مَثَاقِيلَهَا^(٣) وَقَرَطَ^(٤) قَرَارِيطَهَا^(٥)؟ وَهَبْهُ تَتَبَعَ هَذَا كُلَّهُ، وَأَكْثَرُهُ سَمٌّ قَاتِلٌ، إِنْ زِيدَ عَلَى قَدْرِهَا قَتْلًا، وَإِنْ نَقَصَ عَنْ قَدْرِهَا بَطْلًا، وَهَبْهُ تَتَبَعَ هَذَا كُلَّهُ وَجَالَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَطَالَ عُمُرُهُ فِيهَا تَتَبَعَهُ شَجَرَةٌ شَجَرَةً وَبُقْعَةٌ بُقْعَةً، كَيْفَ كَانَ لَهُ تَتَبَعُ مَا لَمْ يَدْخُلْ فِي ذَلِكَ مِنْ مَرَارَةِ الطَّيْرِ وَالسَّبَاعِ وَدَوَابِّ الْبَحْرِ؟ هَلْ كَانَ بُدًّا حَيْثُ رَعِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ الْحَكِيمَ تَتَبَعَ عَقَاقِيرَ الدُّنْيَا شَجَرَةً شَجَرَةً وَثَمَرَةً ثَمَرَةً حَتَّى جَمَعَهَا كُلَّهَا فَمِنْهَا مَا لَا يَصْلَحُ وَلَا يَكُونُ دَوَاءً إِلَّا بِالْمَرَارِ؟ هَلْ كَانَ بُدًّا مِنْ أَنْ يَتَبَعَ جَمِيعَ طَيْرِ الدُّنْيَا وَسَبَاعِهَا وَدَوَابِّهَا دَابَّةً دَابَّةً وَطَائِرًا طَائِرًا يَفْتُلُّهَا يُجَرِّبُ مَرَارَتَهَا، كَمَا بَحَثَ عَنْ تِلْكَ الْعَقَاقِيرِ عَلَى مَا رَعِمْتَ بِالتَّجَارِبِ؟ وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ فَكَيْفَ بَقِيَتِ الدَّوَابُّ وَتَنَاسَلَتْ وَلَيْسَتْ بِمَنْزِلَةِ الشَّجَرَةِ إِذَا قُطِعَتْ شَجَرَةٌ نَبَتَتْ أُخْرَى؟ وَهَبْهُ أَتَى عَلَى طَيْرِ الدُّنْيَا كَيْفَ يَصْنَعُ بِمَا فِي الْبَحْرِ مِنَ الدَّوَابِّ الَّتِي كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَتَبَعَهَا بَحْرًا وَدَابَّةً دَابَّةً حَتَّى أَحَاطَ بِهِ كَمَا أَحَاطَ بِجَمِيعِ عَقَاقِيرِ الدُّنْيَا الَّتِي بَحَثَ عَنْهَا حَتَّى عَرَفَهَا وَطَلَبَ ذَلِكَ فِي غَمَرَاتِ الْمَاءِ؟ فَإِنَّكَ مَهْمَا جَهَلْتَ شَيْئًا مِنْ هَذَا فَإِنَّكَ لَا تَجْهَلُ أَنَّ دَوَابَّ الْبَحْرِ كُلَّهَا تَحْتَ الْمَاءِ، فَهَلْ يَدُلُّ الْعَقْلُ وَالْحَوَاسُّ عَلَى أَنَّ هَذَا يُدْرِكُ بِالْبَحْثِ وَالتَّجَارِبِ؟

قَالَ: لَقَدْ ضَيَّقْتَ عَلَيَّ الْمَذَاهِبَ، فَمَا أَدْرِي مَا أَجِيبُكَ بِهِ! قُلْتُ: فَإِنِّي آتِيكَ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ أَوْضَحُ وَأَبِينُ مِمَّا افْتَصَّصْتُ عَلَيْكَ، أَلَسْتُ تَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْعَقَاقِيرَ الَّتِي مِنْهَا الْأَدْوِيَةُ وَالْمَرَارُ مِنَ الطَّيْرِ وَالسَّبَاعِ لَا يَكُونُ دَوَاءً إِلَّا بَعْدَ الْاجْتِمَاعِ؟ قَالَ: هُوَ كَذَلِكَ.

قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي كَيْفَ حَوَاسُّ هَذَا الْحَكِيمِ وَضَعَتْ هَذِهِ الْأَدْوِيَةَ مَثَاقِيلَهَا وَقَرَارِيطَهَا؟ فَإِنَّكَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِذَلِكَ لِأَنَّ

١. الحرافة: طعم يحرق اللسان والفم، راجع لسان العرب.

٢. وفي نسخة بدل: وليبنها ويابسها. (هامش المصدر)

٣. المثقال: مقدار من الوزن أي شيء كان من قليل أو كثير، راجع لسان العرب.

٤. قَرَطَهُ: قَطَعَهُ، راجع لسان العرب.

٥. القيراط من الوزن: جزء من أجزاء الدينار وهو نصف عشره في أكثر البلاد، وجمعه قرايط، راجع لسان العرب.

صِنَاعَتَكَ الطَّبِّ، وَأَنْتَ تَدْخُلُ فِي الدَّوَاءِ الْوَاحِدِ مِنَ اللَّوْنِ الْوَاحِدِ زِنَةَ أَرْبَعِيَّاتٍ مِثْقَالٍ، وَمِنَ الْآخِرِ مِثْقَالٌ وَقَرَارِيضٌ فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ وَدُونَهُ، حَتَّى يَجِيءَ بِقَدَرٍ وَاحِدٍ مَعْلُومٍ إِذَا سَقَيْتَ مِنْهُ صَاحِبَ الْبُطْنَةِ^(١) بِمِقْدَارٍ عَقْدَ بَطْنِهِ، وَإِنْ سَقَيْتَ صَاحِبَ الْقَوْلَنِجِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ اسْتَطْلَقَ بَطْنُهُ^(٢)، وَالْآنَ^(٣)، فَكَيْفَ أَدْرَكَتْ حَوَاسُّهُ عَلَى هَذَا؟ أَمْ كَيْفَ عَرَفَتْ حَوَاسُّهُ أَنَّ الَّذِي يُسْقَى لَوْجَعَ الرَّأْسِ لَا يَنْحَدِرُ إِلَى الرَّجْلَيْنِ، وَالْإِنْجِدَارُ أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنَ الصُّعُودِ؟ وَالَّذِي يُسْقَى لَوْجَعَ الْقَدَمَيْنِ لَا يَصْعَدُ إِلَى الرَّأْسِ، وَهُوَ إِلَى الرَّأْسِ عِنْدَ السُّلُوكِ أَقْرَبُ مِنْهُ؟ وَكَذَلِكَ كُلُّ دَوَاءٍ يُسْقَى صَاحِبَهُ لِكُلِّ عَضْوٍ لَا يَأْخُذُ إِلَّا طَرِيقَهُ فِي الْعُرُوقِ الَّتِي تُسْقَى لَهُ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَصِيرُ إِلَى الْمَعِدَةِ وَمِنْهَا يَتَفَرَّقُ؟ أَمْ كَيْفَ لَا يَسْفُلُ مِنْهُ مَا صَعِدَ وَلَا يَصْعَدُ مِنْهُ مَا انْحَدَرَ؟ أَمْ كَيْفَ عَرَفَتْ الْحَوَاسُّ هَذَا حَتَّى عَلِمَ أَنَّ الَّذِي يَنْبَغِي لِلْأَذُنِ لَا يَنْفَعُ الْعَيْنَ، وَمَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْعَيْنُ لَا يُغْنِي مِنَ وَجَعِ الْأَذُنِ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْأَعْضَاءِ يَصِيرُ كُلُّ دَاءٍ مِنْهَا إِلَى ذَلِكَ الدَّوَاءِ^(٤) الَّذِي يَنْبَغِي لَهُ بِعَيْنِهِ؟ فَكَيْفَ أَدْرَكَتِ الْعُقُولُ وَالْحِكْمَةُ وَالْحَوَاسُّ هَذَا وَهُوَ غَائِبٌ فِي الْجَوْفِ، وَالْعُرُوقُ فِي اللَّحْمِ، وَفَوْقَهُ الْجِلْدُ لَا يُدْرِكُ بِسَمْعٍ وَلَا بِبَصَرٍ وَلَا بِشَمٍّ وَلَا بِلَمْسٍ وَلَا بِذَوْقٍ؟

قَالَ: لَقَدْ جِئْتُ بِمَا أَعْرِفُهُ إِلَّا أَنَّنَا نَقُولُ: إِنَّ الْحَكِيمَ الَّذِي وَضَعَ هَذِهِ الْأَدْوِيَةَ وَأَخْلَاطَهَا كَانَ إِذَا سَقَى أَحَدًا شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَدْوِيَةِ فَمَاتَ شَقَّ بَطْنُهُ وَتَتَبَعَ عُرُوقَهُ وَنَظَرَ مَجَارِيَ تِلْكَ الْأَدْوِيَةِ وَآتَى الْمَوَاضِعَ الَّتِي تِلْكَ الْأَدْوِيَةُ فِيهَا. قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الدَّوَاءَ كُلَّهُ إِذَا وَقَعَ فِي الْعُرُوقِ اخْتَلَطَ بِالْدَّمِ فَصَارَ شَيْئًا وَاحِدًا؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا خَرَجَتْ نَفْسُهُ بَرَدَ دَمُهُ وَجَمَدَ؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: فَكَيْفَ عَرَفَ ذَلِكَ الْحَكِيمُ دَوَائَهُ الَّذِي سَقَاهُ لِلْمَرِيضِ^(٥) بَعْدَ مَا صَارَ غَلِيظًا عَبِيطًا^(٦) لَيْسَ بِأَمْسَاجٍ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ بِلَوْنٍ فِيهِ غَيْرُ لَوْنِ الدَّمِ؟ قَالَ: لَقَدْ حَمَلْتَنِي عَلَى مَطِيَّةٍ صَعْبَةٍ مَا حُمِلْتُ عَلَى مِثْلِهَا قَطُّ، وَلَقَدْ جِئْتُ بِأَشْيَاءَ لَا أَقْدِرُ عَلَى رَدِّهَا.

شرح:

قوله **عَلَيْهِ**: «خالط بعض هذه الأدوية» الخلط بالكسر: ما يخلط بالشيء أي ما يدخل في بعض هذه الأدوية المركبة. قوله **عَلَيْهِ**: «ثم وضع مثالها على شبهها» أي ضمَّ كلَّما وجد من كلِّ نوع إلى مثله لأنَّه يشبهه ويوافقه في الصفة، أو ترك الأشياء التي تشبه ما يريد، وإن كانت موافقة له في الصفات فإن كثيراً من العقاقير تشتهر بغيرها لاتِّفاقهما في كثير من الصفات. قوله **عَلَيْهِ**: «فكيف بقيت» لعلَّ المفروض أن ذلك كان في مبادي

١. البطننة: امتلاء البطن من الطعام، راجع لسان العرب.

٢. استطلق بطنه: كثر خروج ما فيه، يريد الإسهال، راجع لسان العرب.

٣. ألانه: جعله ليئا. راجع شمس العلوم.

٤. وفي نسختي: يصير كل دواء منها إلى ذلك الداء. (هامش المصدر)

٥. في المصدر: «دوائه الذي وصفت حين اختلط بالدم إذا جمد الدم؟ أم كيف مجاري دوائه الذي سقاه للمريض».

٦. العبيط من الدم: الخالص الطري، راجع الصحاح.

خلق العالم لقدم ذلك العلم فيلزم من التجارب الكثيرة فناء الحيوانات لقلتها في تلك الأزمنة. قوله عليه السلام: «ليس بأمشاج» أي أشياء مختلطة متميزة.

أقول:

كلامه عليه السلام يدل على أن خواص الأدوية وأجناسها ومنافعها ومناسبتها للأمراض إنما وصل إلى الخلق بإخبار الرسل «عليهم الصلاة والسلام»، ولم يصل الخلق إليها بعقولهم وتجاربهم.

متن:

قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي مِنْ أَيْنَ عِلْمِ الْعِبَادِ مَا وَصَفْتَ مِنْ هَذِهِ الْأَدْوِيَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَنَافِعُ لَهُمْ حَتَّى خَلَطُوهَا وَتَبَعُوا عَقَائِرَهَا فِي هَذِهِ الْبُلْدَانِ الْمُتَفَرِّقَةِ، وَعَرَفُوا مَوَاضِعَهَا وَمَعَادِنَهَا فِي الْأَمَاكِنِ الْمُتَبَايِنَةِ، وَمَا يَصْلُحُ مِنْ عُرُوقِهَا وَزَنْتِهَا مِنْ مَثَابِلِهَا وَقَرَارِيطِهَا، وَمَا يَدْخُلُهَا مِنَ الْحِجَارَةِ وَمِرَارِ السَّبَاعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؟ قَالَ: قَدْ أُعِينْتُ عَنْ إِجَابَتِكَ لِعُمُوضِ مَسَائِلِكَ وَالْجَانِكِ إِيَّايَ إِلَى أَمْرٍ لَا يَدْرُكُ عِلْمُهُ بِالْحَوَاسِّ، وَلَا بِالتَّشْبِيهِ وَالْقِيَاسِ، وَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ وَضَعَ هَذِهِ الْأَدْوِيَةِ وَاضِعٌ، لِأَنَّهَا لَمْ تَضَعْ هِيَ أَنْفُسُهَا، وَلَا اجْتَمَعَتْ حَتَّى جَمَعَهَا غَيْرُهَا بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ إِيَّاهَا؛ فَأَخْبِرْنِي كَيْفَ عِلْمِ الْعِبَادِ هَذِهِ الْأَدْوِيَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَنَافِعُ حَتَّى خَلَطُوهَا وَطَلَبُوا عَقَائِرَهَا فِي هَذِهِ الْبُلْدَانِ الْمُتَفَرِّقَةِ؟

قُلْتُ: إِنِّي ضَارِبُ لَكَ مَثَلًا، وَنَاصِبُ لَكَ دَلِيلًا تَعْرِفُ بِهِ وَاضِعَ هَذِهِ الْأَدْوِيَةِ وَالِدَّالَّ عَلَى هَذِهِ الْعَقَائِرِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَبَنَانِي الْجَسَدِ وَوَاضِعِ الْعُرُوقِ الَّتِي يَأْخُذُ فِيهَا الدَّوَاءُ إِلَى الدَّاءِ. قَالَ: فَإِنْ قُلْتَ ذَلِكَ لَمْ أَجِدْ بَدًّا مِنَ الْإِنْقِيَادِ إِلَى ذَلِكَ. قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ رَجُلٍ أَنْشَأَ حَدِيقَةً عَظِيمَةً، وَبَنَى عَلَيْهَا حَائِطًا وَثِيقًا، ثُمَّ غَرَسَ فِيهَا الْأَشْجَارَ وَالْأَثْمَارَ وَالرِّبَاحِينَ وَالْبُقُولَ، وَتَعَاهَدَ سَفِيحَهَا وَتَرْبِيعَتَهَا، وَوَقَاهَا مَا يَصُرُّهَا، حَتَّى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَوْضِعُ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهَا، فَإِذَا أَدْرَكَتْ أَشْجَارُهَا وَأَيْبَعَتْ أَثْمَارُهَا^(١) وَاهْتَزَّتْ بُقُولُهَا دَفَعَتْ إِلَيْهِ^(٢) فَسَأَلَتْهُ أَنْ يُطْعِمَكَ لَوْ نَأَى مِنَ الثَّمَارِ وَالْبُقُولِ سَمِيئَةً لَهُ أَوْ تَرَاهُ كَانَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَنْطَلِقَ قَاصِدًا مُسْتَمِرًّا لَا يَرْجِعُ، وَلَا يَهْوِي إِلَى شَيْءٍ يَمُرُّ بِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ وَالْبُقُولِ حَتَّى يَأْتِيَ الشَّجَرَةَ الَّتِي سَأَلَتْهُ أَنْ يَأْتِيَكَ بِثَمَرِهَا، وَالْبُقُولَةَ الَّتِي طَلَبْتَهَا حَيْثُ كَانَتْ مِنْ أَدْنَى الْحَدِيقَةِ أَوْ أَفْصَاهَا فَيَأْتِيَكَ بِهَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: أَفَرَأَيْتَ لَوْ قَالَ لَكَ صَاحِبُ الْحَدِيقَةِ حَيْثُ سَأَلْتَهُ الثَّمَرَةَ: ادْخُلِ الْحَدِيقَةَ فَخُذْ حَاجَتَكَ فَإِنِّي لَا أَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ^(٤)، هَلْ كُنْتَ تَقْدِرُ أَنْ تَنْطَلِقَ قَاصِدًا لَا تَأْخُذُ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الشَّجَرَةِ فَتَجْتَنِي مِنْهَا؟ قَالَ: وَكَيْفَ أَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ وَلَا عِلْمَ لِي فِي أَيِّ مَوَاضِعِ الْحَدِيقَةِ هِيَ؟ قُلْتُ: أَفَلَيْسَ تَعْلَمُ أَنَّكَ لَمْ تَكُنْ لِتُصِيبَهَا دُونَ أَنْ تَهْجُمَ عَلَيْهَا بِتَعَسُفٍ^(٥) وَجَوْلَانٍ فِي

١. في بعض النسخ: أيفع أثمارها. (هامش المطبوع)

٢. أبيع الثمر: إذا أدرك ونضج، راجع النهاية.

٣. وفي نسخة بدل: ذهب إلى، وفي نسخة أخرى: رفعت إليه. (هامش المصدر)

٤. في المصدر: «فإني لعليل لا أقدر على ذلك».

٥. العسف: السير بغير هداية والأخذ على غير الطريق، وكذلك التعسف، راجع لسان العرب.

جَمِيعِ الْحَدِيقَةِ، حَتَّى تَسْتَدِلَّ عَلَيْهَا بِبَعْضِ حَوَاسِّكَ بَعْدَ مَا تَتَصَفَّحُ^(١) فِيهَا مِنَ الشَّجَرَةِ شَجَرَةً وَثَمَرَةً ثَمَرَةً حَتَّى تَسْقُطَ عَلَى الشَّجَرَةِ الَّتِي تَطْلُبُ بِبَعْضِ حَوَاسِّكَ أَنْ تَأْتِيَهَا، وَإِنْ لَمْ تَرَهَا انْصَرَفْتَ.

قَالَ: وَكَيْفَ أَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ وَلَمْ أُعَايِنْ^(٢) مَغْرِسَهَا حَيْثُ غُرِسَتْ، وَلَا مَنِيَّتَهَا حَيْثُ نَبَتَتْ، وَلَا ثَمَرَتَهَا حَيْثُ طَلَعَتْ. قُلْتُ: فَإِنَّهُ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ يَدُلَّكَ عَقْلُكَ حَيْثُ عَجَزَتْ حَوَاسُّكَ عَنْ إِدْرَاكِ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِي غَرَسَ هَذَا الْبُسْتَانَ الْعَظِيمَ فِيمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَغَرَسَ فِيهِ هَذِهِ الْأَشْجَارَ وَالْبُقُولَ هُوَ الَّذِي دَلَّ الْحَكِيمَ الَّذِي زَعَمْتَ أَنَّهُ وَضَعَ الطَّبَّ عَلَى تِلْكَ الْعَقَاقِيرِ وَمَوَاضِعِهَا فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ؛ وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَسْتَدِلَّ بِعَقْلِكَ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الَّذِي سَمَّاها وَسَمَّى بِلَدَتِهَا وَعَرَفَ مَوَاضِعَهَا كَمَعْرِفَةِ صَاحِبِ الْحَدِيقَةِ الَّذِي سَأَلْتَهُ الثَّمَرَةَ، وَكَذَلِكَ لَا يَسْتَقِيمُ وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْغَارِسُ وَالِدَالُّ عَلَيْهَا إِلَّا الدَّالُّ عَلَى مَنَافِعِهَا وَمَضَارِّهَا وَقَرَارِيطِهَا وَمَثَاقِيلِهَا.

قَالَ: إِنَّ هَذَا لَكُمْ تَقُولُ. قُلْتُ: أَفَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ خَالِقُ الْجَسَدِ وَمَا فِيهِ مِنْ^(٣) الْعَصَبِ وَاللَّحْمِ وَالْأَمْعَاءِ وَالْعُرُوقِ الَّتِي يَأْخُذُ فِيهَا الْأَدْوِيَةُ إِلَى الرَّأْسِ وَإِلَى الْقَدَمَيْنِ وَإِلَى مَا سِوَى ذَلِكَ غَيْرَ خَالِقِ الْحَدِيقَةِ وَغَارِسِ الْعَقَاقِيرِ، هَلْ كَانَ يَعْرِفُ زَيْنَتَهَا وَمَثَاقِيلَهَا وَقَرَارِيطَهَا وَمَا يَصْلُحُ لِكُلِّ دَاءٍ مِنْهَا، وَمَا كَانَ يَأْخُذُ فِي كُلِّ عَرَقٍ؟

قَالَ: وَكَيْفَ يَعْرِفُ ذَلِكَ أَوْ يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَهَذَا لَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ؟ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْرِفَ هَذَا إِلَّا الَّذِي غَرَسَ الْحَدِيقَةَ وَعَرَفَ كُلَّ شَجَرَةٍ وَبَقْلَةٍ وَمَا فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ، قُلْتُ: أَفَلَيْسَ كَذَلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْخَالِقُ وَاحِدًا؟ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ اثْنَيْنِ أَحَدُهُمَا خَالِقُ الدَّوَاءِ وَالْآخَرُ خَالِقُ الْجَسَدِ وَالِدَاءِ لَمْ يَهْتَدِ غَارِسُ الْعَقَاقِيرِ لِإِصَالِ دَوَائِهِ إِلَى الدَّاءِ الَّذِي بِالْجَسَدِ مِمَّا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، وَلَا اهْتَدَى خَالِقُ الْجَسَدِ إِلَى عِلْمِ مَا يَصْلُحُ ذَلِكَ الدَّاءُ مِنْ تِلْكَ الْعَقَاقِيرِ، فَلَمَّا كَانَ خَالِقُ الدَّاءِ وَالدَّوَاءِ وَاحِدًا أَمْضَى الدَّوَاءَ فِي الْعُرُوقِ الَّتِي بَرَأَ وَصَوَّرَ إِلَى الدَّاءِ الَّذِي عَرَفَ وَوَضَعَ فَعَلِمَ مَزَاجَهَا مِنْ حَرِّهَا وَبَرْدِهَا وَلَيِّسَهَا وَشَدِيدِهَا وَمَا يَدْخُلُ فِي كُلِّ دَوَاءٍ مِنْهُ مِنَ الْقَرَارِيطِ وَالْمَثَاقِيلِ، وَمَا يَصْعَدُ إِلَى الرَّأْسِ مِنْهَا وَمَا يَهْبِطُ إِلَى الْقَدَمَيْنِ مِنْهَا وَمَا يَتَفَرَّقُ مِنْهُ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ.

قَالَ: لَا أَشْكُ فِي هَذَا لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ خَالِقُ الْجَسَدِ غَيْرَ خَالِقِ الْعَقَاقِيرِ لَمْ يَهْتَدِ وَاحِدٌ مِنْهُمَا إِلَى مَا وَصَفْتَ. قُلْتُ: فَإِنَّ الَّذِي دَلَّ الْحَكِيمَ الَّذِي وَصَفْتَ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ خَلَطَ هَذِهِ الْأَدْوِيَةَ وَدَلَّ عَلَى عَقَاقِيرِهَا الْمُتَفَرِّقَةِ فِيمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَوَضَعَ هَذَا الطَّبَّ عَلَى مَا وَصَفْتَ لَكَ هُوَ صَاحِبُ الْحَدِيقَةِ فِيمَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَهُوَ بَانِي الْجَسَدِ، وَهُوَ دَلَّ الْحَكِيمَ بِوَحْيٍ مِنْهُ عَلَى صِفَةِ كُلِّ شَجَرَةٍ وَبِلَدِهَا، وَمَا يَصْلُحُ مِنْهَا مِنَ الْعُرُوقِ وَالسَّمَارِ وَالذُّهْنِ وَالْوَرَقِ وَالْخَشَبِ وَاللِّحَاءِ؛ وَكَذَلِكَ دَلَّهُ عَلَى أَوْزَانِهَا مِنْ مَثَاقِيلِهَا وَقَرَارِيطِهَا وَمَا يَصْلُحُ لِكُلِّ دَاءٍ مِنْهَا، وَكَذَلِكَ هُوَ خَالِقُ السَّبَاعِ وَالطَّيْرِ

١. تصفَّح الأمر وصفحه: نظر فيه، راجع لسان العرب.

٢. عاينت الشيء: إذا رأيته بعينك، راجع الصحاح.

٣. وفي نسخة: «والمركب الذي هي مجاري الدم بين» بدل «وما فيه من». «هامش المصدر»

وَالدَّوَابَّ الَّتِي فِي مِرَارِهَا^(١) الْمَنَافِعُ مِمَّا يَدْخُلُ فِي تِلْكَ الْأَذْوِيَةِ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ غَيْرَ خَالِقِهَا لَمْ يَدْرِ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ مِرَارِهَا وَمَا يَضُرُّ وَمَا يَدْخُلُ مِنْهَا فِي الْعَقَاقِيرِ؛ فَلَمَّا كَانَ الْخَالِقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَاحِدًا دَلَّ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ مِنْهَا فَسَمَّاهُ بِاسْمِهِ حَتَّى عُرِفَ وَتَرِكَ مَا لَا مَنَفْعَةَ فِيهِ مِنْهَا، فَمِنْ ثَمَّ عَلِمَ الْحَكِيمُ أَيُّ السَّبَاعِ وَالِدَّوَابِّ وَالطَّيْرِ فِيهِ الْمَنَافِعُ، وَأَيُّهَا لَا مَنَفْعَةَ فِيهِ، وَلَوْ لَا أَنَّ خَالِقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ دَلَّهَ عَلَيْهَا مَا اهْتَدَى بِهَا. قَالَ: إِنَّ هَذَا لَكَمَا تَقُولُ، وَقَدْ بَطَلَتِ الْحَوَاسُّ وَالتَّجَارِبُ عِنْدَ هَذِهِ الصِّفَاتِ.

قُلْتُ: أَمَّا إِذَا صَحَّتْ نَفْسُكَ فَتَعَالَ نَنْظُرُ بِعُقُولِنَا وَنَسْتَدِلُّ بِحَوَاسِّنَا، هَلْ كَانَ يَسْتَقِيمُ لِخَالِقِ هَذِهِ الْحَدِيقَةِ وَغَارِسِ هَذِهِ الْأَشْجَارِ وَخَالِقِ هَذِهِ الدَّوَابِّ وَالطَّيْرِ وَالنَّاسِ الَّذِي خَلَقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ لِمَنَافِعِهِمْ أَنْ يَخْلُقَ هَذَا الْخَلْقَ وَيَغْرِسَ هَذَا الْغَرْسَ فِي أَرْضٍ غَيْرِهِ مِمَّا إِذَا شَاءَ مَنَعَهُ ذَلِكَ؟ قَالَ: مَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الْأَرْضُ الَّتِي خُلِقَتْ فِيهَا الْحَدِيقَةُ الْعَظِيمَةُ وَغَرِسَتْ فِيهِ الْأَشْجَارُ^(٢) إِلَّا لِخَالِقِ هَذَا الْخَلْقِ وَمِلْكٍ يَدِهِ.

قُلْتُ: فَقَدْ أَرَى الْأَرْضَ أَيْضًا لِصَاحِبِ الْحَدِيقَةِ لَا تَصَالِ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ. قَالَ: مَا فِي هَذَا شَكٍّ. قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي وَنَاصِحْ نَفْسَكَ، أَ لَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْحَدِيقَةَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَلْقَةِ الْعَظِيمَةِ مِنَ الْإِنْسِ وَالِدَّوَابِّ وَالطَّيْرِ وَالشَّجَرِ وَالْعَقَاقِيرِ وَالثَّمَارِ وَغَيْرِهَا لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا شُرْبُهَا وَرَيُّهَا مِنَ الْمَاءِ الَّذِي لَا حَيَاةَ لَشَيْءٍ إِلَّا بِهِ؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: أَفَتَرَى الْحَدِيقَةَ وَمَا فِيهَا مِنَ الذَّرِّءِ خَالِقُهَا وَاحِدٌ، وَخَالِقُ الْمَاءِ غَيْرُهُ يَحْبِسُهُ عَنْ هَذِهِ الْحَدِيقَةِ إِذَا شَاءَ وَيُرْسِلُهُ إِذَا شَاءَ فَيَفْسِدُ عَلَى خَالِقِ الْحَدِيقَةِ؟ قَالَ: مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ خَالِقُ هَذِهِ الْحَدِيقَةِ وَذَارِيُّ هَذَا الذَّرِّءِ الْكَثِيرِ وَغَارِسُ هَذِهِ الْأَشْجَارِ إِلَّا الْمُدَبِّرُ الْأَوَّلَ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْمَاءُ لِعَاقِبِهِ، وَإِنَّ الْيَقِينَ عِنْدِي لَهُوَ أَنَّ الَّذِي يُجْرِي هَذِهِ الْمِيَاهَ مِنْ أَرْضِهِ وَجِبَالِهِ لَغَارِسُ هَذِهِ الْحَدِيقَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَلِيقَةِ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمَاءُ لِعَاقِبِ صَاحِبِ الْحَدِيقَةِ لَهَلَكَ الْحَدِيقَةُ وَمَا فِيهَا، وَلَكِنَّهُ خَالِقُ الْمَاءِ قَبْلَ الْغَرْسِ وَالذَّرِّءِ، وَبِهِ اسْتَقَامَتِ الْأَشْيَاءُ وَصَلَحَتْ.

قُلْتُ: أَفَرَأَيْتَ لَوْ لَمْ يَكُنْ لِهَذِهِ الْمِيَاهِ الْمُتَفَجِّرَةِ فِي الْحَدِيقَةِ مَغِيضٌ^(٣) لِمَا يَفْضُلُ مِنْ شُرْبِهَا يَحْبِسُهُ عَنِ الْحَدِيقَةِ أَنْ يَفِيضَ عَلَيْهَا؟ أَلَيْسَ كَانَ يَهْلِكُ مَا فِيهَا مِنَ الْخَلْقِ عَلَى حَسَبِ مَا كَانُوا يَهْلِكُونَ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهَا مَاءٌ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلَّ هَذَا الْبَحْرَ لَيْسَ لَهُ حَاسِيسٌ وَأَنَّهُ شَيْءٌ لَمْ يَزَلْ. قُلْتُ: أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ أَعْطَيْتَنِي أَنَّهُ لَوْ لَا الْبَحْرُ وَمَغِيضُ الْمِيَاهِ إِلَيْهِ لَهَلَكَتِ الْحَدِيقَةُ. قَالَ: أَجَلْ. قُلْتُ: فَإِنِّي أَخْبِرُكَ عَنْ ذَلِكَ بِمَا تَسْتَيْقِنُ بِأَنَّ خَالِقَ الْبَحْرِ هُوَ خَالِقُ الْحَدِيقَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَلِيقَةِ، وَأَنَّهُ جَعَلَهُ مَغِيضًا لِمِيَاهِ الْحَدِيقَةِ مَعَ مَا جَعَلَ فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ لِلنَّاسِ.

قَالَ: فَاجْعَلْنِي مِنْ ذَلِكَ عَلَى يَقِينٍ كَمَا جَعَلْتَنِي مِنْ غَيْرِهِ. قُلْتُ: أَ لَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ قُضُولَ مَاءِ الدُّنْيَا يَصِيرُ فِي الْبَحْرِ؟

١. المزار: جمع المزار وهي التي في جوف الشاة وغيرها يكون فيها ماء أخضر مُرٌّ، راجع لسان العرب.

٢. في المصدر: «الأشجار الكثيرة».

٣. وفي نسخة: «المفيض» بالفاء، وكذا فيما يأتي بعده. (هامش المصدر)

قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: فَهَلْ رَأَيْتَهُ زَائِدًا قَطُّ فِي كَثَرَةِ الْمَاءِ وَتَتَابِعِ الْأَمْطَارِ عَلَى الْحَدِّ الَّذِي لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ؟ أَوْ هَلْ رَأَيْتَهُ نَاقِصًا فِي قِلَّةِ الْمِيَاهِ وَشِدَّةِ الْحَرِّ وَشِدَّةِ الْقَحْطِ؟ قَالَ: لَا. قُلْتُ: أَفَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَدُلَّكَ عَقْلُكَ عَلَى أَنَّ خَالِقَهُ وَخَالِقَ الْحَدِيقَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْخَلِيقَةِ وَاحِدٌ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَضَعَ لَهُ حَدًّا لَا يُجَاوِزُهُ لِكَثَرَةِ الْمَاءِ وَلَا لِقِلَّتِهِ؟ وَأَنَّ مِمَّا يُسْتَدَلُّ عَلَى مَا أَقُولُ أَنَّهُ يَقْبَلُ بِالْأَمْوَاجِ أَمْثَالَ الْجِبَالِ يُشْرِفُ عَلَى السَّهْلِ وَالْجَبَلِ، فَلَوْ لَمْ تُقْبِضْ أَمْوَاجُهُ وَلَمْ تُحْبَسْ فِي الْمَوَاضِعِ الَّتِي أُمِرَتْ بِالْاِخْتِاسِ فِيهَا لِأَطْبَقَتْ عَلَى الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ عَلَى تِلْكَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ تَنْتَهِي إِلَيْهَا ذَلِكَ أَمْوَاجُهُ وَخَضَعَ إِشْرَافُهُ.

قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ لَكَمَا وَصَفْتَ وَلَقَدْ عَايَنْتُ مِنْهُ كُلَّ الَّذِي ذَكَرْتَ، وَلَقَدْ أَتَيْتَنِي بِبُرْهَانٍ وَدَلَالَةٍ مَا أَقْدِرُ عَلَى انْكَارِهَا وَلَا جُحُودِهَا لِبَيَانِهَا. قُلْتُ: وَغَيْرَ ذَلِكَ سَأَتِيكَ بِهِ مِمَّا تَعْرِفُ اتِّصَالَ الْخَلْقِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ مُدَبِّرٍ حَكِيمٍ عَالِمٍ قَدِيرٍ، أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ عَامَّةَ الْحَدِيقَةِ لَيْسَ شَرْبُهَا مِنَ الْأَنْهَارِ وَالْعُيُونِ، وَأَنَّ أَعْظَمَ مَا يَنْبُتُ فِيهَا مِنَ الْعُقَاقِيرِ وَالْبُقُولِ الَّتِي فِي الْحَدِيقَةِ، وَمَعَاشٍ مَا فِيهَا مِنَ الدَّوَابِّ وَالْوَحْشِ وَالطَّيْرِ مِنَ الْبَرَارِيِّ الَّتِي لَا عُيُونَ لَهَا وَلَا أَنْهَارٌ إِنَّمَا يَسْقِيهِ السَّحَابُ؟ قَالَ: بَلَى. قُلْتُ: أَفَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَدُلَّكَ عَقْلُكَ وَمَا أَذْرَكَتْ بِالْحَوَاسِّ الَّتِي زَعَمْتَ أَنَّ الْأَشْيَاءَ لَا تَعْرِفُ إِلَّا بِهَا أَنَّهُ لَوْ كَانَ السَّحَابُ الَّذِي يَحْتَمِلُ مِنَ الْمِيَاهِ إِلَى الْبُلْدَانِ وَالْمَوَاضِعِ الَّتِي لَا تَنَالُهَا مَاءُ الْعُيُونِ وَالْأَنْهَارِ وَفِيهَا الْعُقَاقِيرُ وَالْبُقُولُ وَالشَّجَرُ وَالْأَنْعَامُ لَغَيَّرَ صَاحِبُ الْحَدِيقَةِ لَأَمْسَكَهُ عَنِ الْحَدِيقَةِ إِذَا شَاءَ^(١)، وَلَكَانَ خَالِقُ الْحَدِيقَةِ مِنْ بَقَاءِ خَلِيقَتِهِ الَّتِي ذَرَأَ وَبَرَأَ عَلَى غُرُورٍ وَوَجَلٍ^(٢)، خَائِفًا عَلَى خَلِيقَتِهِ أَنْ يَحْبِسَ صَاحِبُ الْمَطَرِ الْمَاءَ الَّذِي لَا حَيَاةَ لِلْخَلِيقَةِ إِلَّا بِهِ؟

قَالَ: إِنَّ الَّذِي جُنْتُ بِهِ لَوَاضِعُ مُتَّصِلُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الَّذِي خَلَقَ هَذِهِ الْحَدِيقَةَ وَهَذِهِ الْأَرْضَ، وَجَعَلَ فِيهَا الْخَلِيقَةَ وَخَلَقَ لَهَا هَذَا الْمَغِيزَ، وَأَنْبَتَ فِيهَا هَذِهِ الثَّمَارَ الْمُخْتَلِفَةَ إِلَّا خَالِقَ السَّمَاءِ وَالسَّحَابِ، يُرْسِلُ مِنْهَا مَا شَاءَ مِنَ الْمَاءِ إِذَا شَاءَ أَنْ يَسْقِيَ الْحَدِيقَةَ وَيُحْيِيَ مَا فِي الْحَدِيقَةِ مِنَ الْخَلِيقَةِ وَالْأَشْجَارِ وَالْدَّوَابِّ وَالْبُقُولِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنِي بِحُجَّةٍ أَزْدَادُ بِهَا يَقِينًا وَأَخْرُجُ بِهَا مِنَ الشَّكِّ. قُلْتُ: فَإِنِّي آتِيكَ بِهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِ إِهْلِيلَجَتِكَ وَاتِّصَالِهَا بِالْحَدِيقَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُتَّصِلَةِ بِأَسْبَابِ السَّمَاءِ لَتَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ بِتَدْبِيرِ عَلِيمٍ حَكِيمٍ.

قَالَ: وَكَيْفَ تَأْتِيَنِي بِمَا يُذْهِبُ عَنِّي الشَّكَّ مِنْ قَبْلِ الْإِهْلِيلَجَةِ؟ قُلْتُ: فِيمَا أُرِيكَ فِيهَا مِنْ إِتْقَانِ الصَّنْعِ، وَآثَرِ التَّرَكِيبِ الْمُؤَلَّفِ، وَاتِّصَالِ مَا بَيْنَ عُرُوقِهَا إِلَى فُرُوعِهَا، وَاجْتِنَاجِ بَعْضِ ذَلِكَ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى يَتَّصِلَ بِالسَّمَاءِ. قَالَ: إِنْ أَرَيْتَنِي ذَلِكَ لَمْ أَشْكُ. قُلْتُ: أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْإِهْلِيلَجَةَ نَابِتَةٌ فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ عُرُوقَهَا مُؤَلَّفَةٌ إِلَى أَصْلِ، وَأَنَّ الْأَصْلَ مُتَعَلِّقٌ بِسَاقٍ مُتَّصِلٍ بِالْعُصُونِ، وَالْعُصُونُ مُتَّصِلَةٌ بِالْفُرُوعِ، وَالْفُرُوعُ مُنْظُومَةٌ بِالْأَكْمَامِ^(٣) وَالْوَرَقِ، وَمَلْبَسٌ ذَلِكَ كُلُّهُ الْوَرَقُ، وَيَتَّصِلُ جَمِيعُهُ بِظِلِّ يَقْبِيهِ حَرَّ الزَّمَانِ وَبَرْدُهُ؟

١. في المصدر مع زيادة: «وَأَرْسَلَهُ إِذَا شَاءَ».

٢. الوجه: الفزع والخوف، راجع لسان العرب.

٣. الكُمَّة: كلُّ طرف غطيت به شيئاً وألبسته إياه فصار له كالغلاف، ومن ذلك أكمام الزرع: غُلفها التي يخرج منها، راجع لسان العرب.

قَالَ: أَمَّا الْإِهْلِيلَجَةُ فَقَدْ تَبَيَّنَ لِي اتِّصَالُ لِحَائِهَا وَمَا بَيْنَ عُرُوقِهَا وَبَيْنَ رَوَقِهَا وَمَنْبَتِهَا مِنَ الْأَرْضِ، فَأَشْهَدُ أَنَّ خَالِقَهَا وَاحِدٌ لَا يَشْرِكُهُ فِي خَلْقِهَا غَيْرُهُ لِإِتِّقَانِ الصُّنْعِ وَاتِّصَالِ الْخَلْقِ وَإِتِّلَافِ التَّدْبِيرِ وَإِحْكَامِ التَّقْدِيرِ. قُلْتُ: إِنَّ أَرَيْتَكَ التَّدْبِيرَ مُؤْتَلِفًا بِالْحِكْمَةِ وَالْإِتِّقَانَ مُعْتَدِلًا بِالصَّنْعَةِ، مُحْتَاجًا بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ، مُتَّصِلًا بِالْأَرْضِ الَّتِي خَرَجَتْ مِنْهُ الْإِهْلِيلَجَةُ فِي الْحَالَاتِ كُلِّهَا أَتَقَرُّ بِخَالِقِ ذَلِكَ؟ قَالَ: إِذَنْ لَا أَشْكُ فِي الْوَحْدَانِيَّةِ. قُلْتُ: فَافْهَمْ وَافْقَهُ مَا أَصِفُ لَكَ: أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْأَرْضَ مُتَّصِلَةً بِإِهْلِيلَجَتِكَ وَإِهْلِيلَجَتِكَ مُتَّصِلَةٌ بِالتُّرَابِ، وَالتُّرَابُ مُتَّصِلٌ بِالْحَرِّ وَالْبَرْدِ، وَالْحَرُّ وَالْبَرْدُ مُتَّصِلَانِ بِالْهَوَاءِ، وَالهَوَاءُ مُتَّصِلٌ بِالرَّيْحِ، وَالرَّيْحُ مُتَّصِلَةٌ بِالسَّحَابِ، وَالسَّحَابُ مُتَّصِلٌ بِالْمَطَرِ، وَالْمَطَرُ مُتَّصِلٌ بِالْأَرْضِ، وَالْأَرْضُ مُتَّصِلَةٌ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُتَّصِلَتَانِ بِدَوْرَانِ الْفَلَكَ، وَالْفَلَكَ مُتَّصِلٌ بِمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ صَنْعَةً ظَاهِرَةً، وَحِكْمَةً بَالِغَةً، وَتَأْلِيفَ مُتْنٍ، وَتَدْبِيرَ مُحْكَمٍ، مُتَّصِلٌ كُلُّ هَذَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لَا يَقُومُ بَعْضُهُ إِلَّا بِبَعْضٍ، وَلَا يَتَأَخَّرُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا عَنْ وَقْتِهِ، وَلَوْ تَأَخَّرَ عَنْ وَقْتِهِ لَهْلَكَ جَمِيعُ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْأَنْعَامِ وَالنَّبَاتَاتِ؟ قَالَ: إِنَّ هَذِهِ لَهِيَ الْعَلَامَاتُ الْبَيِّنَاتُ، وَالِدَّلَالَاتُ الْوَاضِحَاتُ الَّتِي يَجْرِي مَعَهَا أَثَرُ التَّدْبِيرِ، بِإِتِّقَانِ الْخَلْقِ وَالتَّأْلِيفِ مَعَ إِتِّقَانِ الصُّنْعِ، لَكِنِّي لَسْتُ أَدْرِي لَعَلَّ مَا تَرَكْتَ غَيْرَ مُتَّصِلٍ بِمَا ذَكَرْتَ. قُلْتُ: وَمَا تَرَكْتُ؟ قَالَ: النَّاسُ. قُلْتُ: أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ مُتَّصِلٌ بِالنَّاسِ، سَخَّرَهُ لَهَا الْمُدَبِّرُ الَّذِي أَعْلَمْتُكَ أَنَّهُ إِنْ تَأَخَّرَ شَيْءٌ مِمَّا عَدَدْتُ عَلَيْكَ هَلَكْتَ الْخَلِيقَةُ^(١)، وَبَادَ جَمِيعُ مَا فِي الْحَدِيقَةِ، وَذَهَبَتِ الْإِهْلِيلَجَةُ الَّتِي تَزْعُمُ أَنَّ فِيهَا مَنَافِعَ النَّاسِ؟

قَالَ: فَهَلْ تَقْدِرُ أَنْ تُفَسِّرَ لِي هَذَا الْبَابَ عَلَى مَا لَحِصْتَ لِي غَيْرُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، أُبَيِّنُ لَكَ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ إِهْلِيلَجَتِكَ، حَتَّى تَشْهَدَ أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مُسَخَّرٌ لِبَنِي آدَمَ. قَالَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاءَ سَفْعًا مَرْفُوعًا، وَلَوْ لَا ذَلِكَ اغْتَمَّ خَلْقُهُ لِقُرْبِهَا، وَأَحْرَقَتْهُمْ الشَّمْسُ لِدُنُوعِهَا، وَخَلَقَ لَهُمْ شُهُبًا وَنُجُومًا يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ لِمَنَافِعِ النَّاسِ، وَنُجُومًا يَعْرِفُ بِهَا أَصْلُ الْحِسَابِ، فِيهَا الدَّلَالَاتُ عَلَى إِنْطِلَالِ الْحَوَاسِّ، وَوُجُودِ مُعَلِّمِهَا الَّذِي عَلَّمَهَا عِبَادَهُ، مِمَّا لَا يُدْرِكُ عِلْمُهَا بِالْعُقُولِ فَضْلًا عَنِ الْحَوَاسِّ، وَلَا يَقَعُ عَلَيْهَا الْأَوْهَامُ وَلَا يَبْلُغُهَا الْعُقُولُ إِلَّا بِهِ لِأَنَّهُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الَّذِي دَبَّرَهَا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُبِيرًا، يَسْبَحَانِ^(٢) فِي فَلَكَ يَدُورُ بِهِمَا دَائِبَيْنِ، يُطْلِعُهُمَا تَارَةً وَيُؤْفِلُهُمَا أُخْرَى، فَبَتَى عَلَيْهِ الْأَيَّامُ وَالشُّهُورُ وَالسِّنِينَ الَّتِي هِيَ مِنْ سَبَبِ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ وَالرَّبِيعِ وَالْخَرِيفِ، أَزْمَنَةٌ مُخْتَلِفَةٌ الْأَعْمَالِ، أَصْلُهَا اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ اللَّذَيْنِ لَوْ كَانَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا سَرْمَدًا عَلَى الْعِبَادِ لَمَا قَامَتْ لَهُمْ مَعَاشٌ أَبَدًا، فَجَعَلَ مُدَبِّرُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَخَالِقُهَا النَّهَارِ مُبْصِرًا وَاللَّيْلِ سَكَنًا، وَأَهْبَطَ فِيهِمَا الْحَرَّ وَالْبَرْدَ مُتَبَايِنَيْنِ، لَوْ دَامَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا بِغَيْرِ صَاحِبِهِ مَا نَبَتَتْ شَجَرَةٌ وَلَا طَلَعَتْ ثَمَرَةٌ، وَلَهْلَكَتِ الْخَلِيقَةُ لِأَنَّ ذَلِكَ مُتَّصِلٌ بِالرَّيْحِ الْمَصْرِفَةِ فِي الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ، بَارِدَةً تُبْرِدُ أَنْفَاسَهُمْ، وَحَارَةً تُلْقِحُ أَجْسَادَهُمْ^(٣).

١. الخليفة: الخلق، وجمعها الخلائق، راجع لسان العرب.

٢. يسبحان: يجربان، راجع لسان العرب.

٣. وفي نسختي: أشجارهم. (هامش المصدر)

وَتَدْفَعُ الْأَدَى عَنْ أَيْدَانِهِمْ^(١) وَمَعَايِشِهِمْ، وَرُطُوبَةً تَرْطُبُ طَبَائِعَهُمْ، وَيُيَوِّسُهُ تَنْشِفُ^(٢) رُطُوبَاتِهِمْ، وَبِهَا يَأْتَلِفُ الْمُفْتَرِقُ، وَبِهَا يَتَفَرَّقُ الْغَمَامُ الْمُطْبِقُ^(٣) حَتَّى يَنْبَسِطَ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ مُدْبِرُهُ، فَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ لِمَعَايِشِ مَفْهُومٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، وَأَجَالٍ مَكْتُوبَةٍ، وَلَوْ احْتَبَسَ عَنْ أَرْمَنِيَّةِ وَوَقْتِهِ هَلَكَتْ الْخَلِيقَةُ، وَيَبْسُتِ الْحَدِيقَةُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْمَطَرَ فِي أَيَّامِهِ^(٤) وَوَقْتِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي خَلَقَهَا لِبَنِي آدَمَ، وَجَعَلَهَا فَرْشًا وَمِهَادًا، وَحَبَسَهَا أَنْ تَزُولَ بِهِمْ، وَجَعَلَ الْجِبَالَ لَهَا أَوْتَادًا، وَجَعَلَ فِيهَا يَنْابِيعَ تَجْرِي فِي الْأَرْضِ بِمَا تَنْبُتُ فِيهَا لَا تَقُومُ الْحَدِيقَةُ وَالْخَلِيقَةُ إِلَّا بِهَا، وَلَا يُصْلِحُونَ إِلَّا عَلَيْهَا مَعَ الْبَحَارِ الَّتِي يَرْكَبُونَهَا، وَيَسْتَخْرِجُونَ مِنْهَا حَلِيَّةً يَلْبَسُونَهَا وَلَحْمًا طَرِيًّا وَغَيْرَهُ يَأْكُلُونَهُ، فَعَلِمَ أَنَّ إِلَهَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَاحِدٌ حَيٌّ قَيُّومٌ مُدَبِّرٌ حَكِيمٌ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ غَيْرَهُ لَخْتَلَفَتِ الْأَشْيَاءُ. وَكَذَلِكَ السَّمَاءُ نَظِيرُ الْأَرْضِ الَّتِي أَخْرَجَ اللَّهُ مِنْهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَرَيْثُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًا يَتَدَبَّرُ مُؤَلَّفٍ مُبَيَّنٍّ، بِتَصْوِيرِ الزَّهْرَةِ وَالثَّمَرَةِ حَيَاةً لِبَنِي آدَمَ، وَمَعَاشًا يَقُومُ بِهِ أَجْسَادُهُمْ، وَتَعِيشُ بِهَا أَنْعَامُهُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ فِي أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ وَالْإِنْتِفَاعَ بِهَا وَالْبَلَاحَ عَلَى ظُهُورِهَا مَعَاشًا لَهُمْ لَا يَحْيُونَ إِلَّا بِهِ، وَصَلَاحًا لَا يَقُومُونَ إِلَّا عَلَيْهِ، وَكَذَلِكَ مَا جَهَلْتَ مِنَ الْأَشْيَاءِ، فَلَا تَجْهَلُ أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي الْأَرْضِ شَيْئَانِ: شَيْءٌ يُولَدُ، وَشَيْءٌ يَنْبُتُ، أَحَدُهُمَا آكِلٌ، وَالْآخَرُ مَأْكُولٌ، وَمِمَّا يَدُلُّكَ عَقْلُكَ أَنَّهُ خَالَقُهُمْ مَا تَرَى مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَتَهَيُّتِهِ جَسَدِهِ لَشَهْوَةِ الطَّعَامِ، وَالْمَعْدَةَ لِتَطْحَنَ الْمَأْكُولَ، وَمَجَارِيَ الْعُرُوقِ لِصَفْوَةِ الطَّعَامِ، وَهَيَّا لَهَا الْأَمْعَاءَ، وَلَوْ كَانَ خَالِقُ الْمَأْكُولِ غَيْرَهُ لَمَا خَلَقَ الْأَجْسَادَ مُشْتَهِيَةً لِلْمَأْكُولِ وَلَيْسَ لَهُ قُدْرَةٌ عَلَيْهِ.

قَالَ: لَقَدْ وَصَفْتَ صِفَةً أَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ مُدَبِّرٍ حَكِيمٍ لَطِيفٍ قَدِيرٍ عَلِيمٍ، قَدْ آمَنْتُ وَصَدَّقْتُ أَنَّ الْخَالِقَ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ، غَيْرَ أَنِّي أَشْكُ فِي هَذِهِ السَّمَائِمِ الْقَاتِلَةِ أَنْ يَكُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَهَا لِأَنَّهَا ضَارَّةٌ غَيْرُ نَافِعَةٍ! قُلْتُ: أَلَيْسَ قَدْ صَارَ عِنْدَكَ أَنَّهَا مِنْ غَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، لِأَنَّ الْخَلْقَ عِبِيدُهُ وَلَمْ يَكُنْ لِيَخْلُقْ مَا يَضُرُّهُمْ. قُلْتُ: سَأُبَصِّرُكَ مِنْ هَذَا شَيْئًا تَعْرِفُهُ وَلَا أَنْبُتُكَ إِلَّا مِنْ قَبْلِ إِهْلِيلَجَتِكَ هَذِهِ وَعِلْمِكَ بِالطَّبِّ. قَالَ: هَاتِ. قُلْتُ: هَلْ تَعْرِفُ شَيْئًا مِنَ النَّبْتِ لَيْسَ فِيهِ مَضَرَّةٌ لِلْخَلْقِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: هَذِهِ الْأَطْعِمَةُ. قُلْتُ: أَلَيْسَ هَذَا الطَّعَامُ الَّذِي وَصَفْتَ يُعَيِّرُ الْوَأْنَهُمْ، وَيُهَيِّجُ أَوْجَاعَهُمْ حَتَّى يَكُونَ مِنْهَا الْجَذَامُ وَالْبَرَصُ وَالسَّلَالُ^(٥) وَالْمَاءُ الْأَصْفَرُّ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَوْجَاعِ؟ قَالَ: هُوَ كَذَلِكَ. قُلْتُ: أَمَّا هَذَا الْبَابُ فَقَدْ انْكَسَرَ عَلَيْكَ. قَالَ: أَجَلُ. قُلْتُ: هَلْ تَعْرِفُ شَيْئًا مِنَ النَّبْتِ لَيْسَ فِيهِ مَنَفَعَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ.

١. وفي نسخة: ويدفع بها الأدواء عن الأبدان. (هامش المصدر)

٢. نشف الماء: يبس، راجع لسان العرب.

٣. طبق السحاب الجو: إذا غشاه، ومنه سحابة مطبقة، راجع تاج العروس.

٤. في المصدر: «في إِيَّانِهِ».

٥. اللل والسلا: داء يهزل ويضني ويقتل، راجع لسان العرب.

قُلْتُ: أَلَيْسَ يَدْخُلُ فِي الْأَدْوِيَةِ الَّتِي يُدْفَعُ بِهَا الْأَوْجَاعُ مِنَ الْجَذَامِ وَالْبَرَصِ وَالسَّلَالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَيَدْفَعُ الدَّاءَ وَيَذْهَبُ السَّقَمَ مِمَّا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ لِطَوْلِ مُعَالَجَتِكَ؟ قَالَ: إِنَّهُ كَذَلِكَ. قُلْتُ: فَأَخْبِرْنِي أَيُّ الْأَدْوِيَةِ عِنْدَكُمْ أَعْظَمُ فِي السَّمَائِمِ الْقَاتِلَةِ؟ أَلَيْسَ التَّرْيَاقُ^(١)؟ قَالَ: نَعَمْ، هُوَ رَأْسُهَا وَأَوَّلُ مَا يُفْرَغُ إِلَيْهِ عِنْدَ نَهْشِ الْحَيَّاتِ^(٢) وَلَسَعِ^(٣) الْهُوَامِ وَشُرْبِ السَّمَائِمِ.

قُلْتُ: أَلَيْسَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَا بَدَّ لِلْأَدْوِيَةِ الْمُزْتَفِعَةِ^(٤) وَالْأَدْوِيَةِ الْمُخْرِقَةِ فِي أَخْلَاطِ التَّرْيَاقِ إِلَّا أَنْ تُطْبَخَ بِالْأَفَاعِي الْقَاتِلَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، هُوَ كَذَلِكَ، وَلَا يَكُونُ التَّرْيَاقُ الْمُتَزَفِعُ بِهِ الدَّافِعَ لِلْسَّمَائِمِ الْقَاتِلَةِ إِلَّا بِذَلِكَ، وَلَقَدْ انْكَسَرَ عَلَيَّ هَذَا الْبَابُ^(٥)، فَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ^(٦)، وَأَنَّهُ خَالِقُ السَّمَائِمِ الْقَاتِلَةِ وَالْهُوَامِ الْعَادِيَةِ، وَجَمِيعِ النَّبْتِ وَالْأَشْجَارِ، وَغَارِسُهَا وَمُنْبِتُهَا، وَبَارِئُ الْأَجْسَادِ، وَسَائِقُ الرِّيَّاحِ، وَمُسَخِّرُ السَّحَابِ، وَأَنَّهُ خَالِقُ الْأَدْوَاءِ الَّتِي تُهَيِّجُ بِالْإِنْسَانِ كَالسَّمَائِمِ الْقَاتِلَةِ الَّتِي تَجْرِي فِي أَعْضَائِهِ وَعِظَامِهِ، وَمُسْتَقَرُّ الْأَدْوَاءِ وَمَا يُضْلِحُهَا مِنَ الدَّوَاءِ، الْعَارِفُ بِالرُّوحِ، وَمَجْرَى الدَّمِّ وَأَقْسَامِهِ فِي الْعُرُوقِ، وَاتِّصَالِهِ بِالْعَصَبِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْعَصَبِ وَالْجَسَدِ، وَأَنَّهُ عَارِفٌ بِمَا يُضْلِحُهُ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرَدِ، عَالِمٌ بِكُلِّ عَضْوٍ بِمَا فِيهِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي وَضَعَ هَذِهِ التُّجُومَ وَحَسَابَهَا وَالْعَالَمَ بِهَا، وَالذَّالُّ عَلَى نُحُوسِهَا وَسُوءِهَا وَمَا يَكُونُ مِنَ الْمَوَالِيدِ، وَأَنَّ التَّدْبِيرَ وَاحِدٌ لَمْ يَخْتَلَفْ مُتَّصِلٌ فِيمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهَا، فَبَيَّنَّ لِي كَيْفَ قُلْتُ: هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: هُوَ الْأَوَّلُ بَلَا كَيْفٍ، وَهُوَ الْآخِرُ بَلَا نِهَايَةٍ، لَيْسَ لَهُ مِثْلٌ، خَلَقَ الْخَلْقَ وَالْأَشْيَاءَ لَا مِنْ شَيْءٍ وَلَا كَيْفٍ، بَلَا عِلَاجٍ وَلَا مُعَانَاةٍ وَلَا فِكْرٍ وَلَا كَيْفٍ، كَمَا أَنَّهُ لَا كَيْفَ لَهُ، وَإِنَّمَا الْكَيْفُ بِكَيْفِيَّةِ الْمَخْلُوقِ، لِأَنَّهُ الْأَوَّلُ لَا بَدَأَ لَهُ وَلَا شِبْهَ وَلَا مِثْلَ وَلَا ضِدَّ وَلَا نِدَّ، لَا يَدْرِكُ بِبَصَرٍ وَلَا يَحْسُ بِلَمْسٍ، وَلَا يَعْرِفُ إِلَّا بِخَلْقِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قَالَ: فَصِفْ لِي قُوَّتَهُ. قُلْتُ: إِنَّمَا سَمِّيَ رَبُّنَا جَلَّ جَلَّالُهُ قُوَّةً لِلْخَلْقِ الْعَظِيمِ الْقَوِيِّ الَّذِي خَلَقَ مِثْلَ الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا مِنْ جِبَالِهَا وَبِحَارِهَا وَرِمَالِهَا وَأَشْجَارِهَا، وَمَا عَلَيْهَا مِنَ الْخَلْقِ الْمُتَحَرِّكِ مِنَ الْإِنْسِ وَمِنَ الْحَيَّوَانِ، وَتَضَرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ الْمُثَقَّلِ بِالْمَاءِ الْكَثِيرِ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَعَظِمَهُمَا وَعِظَمَ نُورِهِمَا الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ بُلُوغًا وَلَا مُنْتَهَى، وَالنُّجُومِ الْجَارِيَةِ، وَدَوَرَانِ الْفَلَكَ، وَغِلَظِ السَّمَاءِ، وَعِظَمِ الْخَلْقِ الْعَظِيمِ، وَالسَّمَاءِ الْمُسَقَّفَةِ فَوْقَنَا رَاكِدَةً فِي

١. الترياق: ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين، راجع لسان العرب.

٢. نهش: تناول الشيء بفمه ليعضه فيؤثر فيه ولا يجرحه، راجع لسان العرب.

٣. اللسع: لما ضرب بمؤخره واللدغ لما كان بالفم، راجع لسان العرب.

٤. وفي نسخة: المرفقة. (هامش المصدر)

٥. في بعض النسخ من رسالة الإهليلجة هنا زيادة كثيرة، لا نشير إليها لعدم التطويل.

٦. في المصدر مع زيادة: «وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ، عَلَيْهِ أَحْيَا وَعَلَيْهِ أَمُوتَ» إن شاء الله تعالى.

الْهَوَاءِ، وَمَا دُونَهَا مِنَ الْأَرْضِ الْمَسْطُوعَةِ، وَمَا عَلَيْهَا مِنَ الْخَلْقِ الثَّقِيلِ، وَهِيَ رَاكِدَةٌ لَا تَتَحَرَّكُ، غَيْرَ أَنَّهُ رُبَّمَا حُرِّكَ فِيهَا نَاحِيَةٌ وَالنَّاحِيَةُ الْأُخْرَى ثَابِتَةٌ، وَرُبَّمَا خَسَفَ مِنْهَا نَاحِيَةٌ وَالنَّاحِيَةُ الْأُخْرَى قَائِمَةٌ، يُرِينَا قُدْرَتَهُ، وَيَدُلُّنَا بِفِعْلِهِ عَلَى مَعْرِفَتِهِ، فَلِهَذَا سُمِّيَ قَوِيًّا لَا لِقُوَّةِ الْبَطْشِ^(١) الْمَعْرُوفَةِ مِنَ الْخَلْقِ، وَلَوْ كَانَتْ قُوَّتُهُ تُشَبِّهُ قُوَّةَ الْخَلْقِ لَوَقَعَ عَلَيْهِ التَّشْبِيهُ، وَكَانَ مُحْتَمِلًا لِلزِّيَادَةِ، وَمَا احْتَمَلَ الزِّيَادَةَ كَانَ نَاقِصًا، وَمَا كَانَ نَاقِصًا لَمْ يَكُنْ تَامًا، وَمَا لَمْ يَكُنْ تَامًا كَانَ عَاجِزًا ضَعِيفًا، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُشَبِّهُ بِشَيْءٍ، وَإِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّهُ قَوِيٌّ لِلْخَلْقِ الْقَوِيِّ، وَكَذَلِكَ قَوْلُنَا: الْعَظِيمُ وَالْكَبِيرُ؛ وَلَا يُشَبِّهُ بِهِذِهِ الْأَسْمَاءِ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قَالَ: أَفَرَأَيْتَ قَوْلَهُ: سَمِيعٌ بَصِيرٌ عَالِمٌ؟ قُلْتُ: إِنَّمَا يُسَمَّى تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهِذِهِ الْأَسْمَاءِ لِأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ مِنْ شَخْصٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ، أَوْ دَقِيقٍ أَوْ جَلِيلٍ، وَلَا نَصْفُهُ بَصِيرًا بِلَحْظٍ عَيْنٍ^(٢) كَالْمَخْلُوقِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ سَمِيعًا لِأَنَّهُ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةِ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةِ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا يَسْمَعُ النَّجْوَى، وَدَبِيبَ^(٣) النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا^(٤)، وَخَفَقَانَ الطَّيْرِ^(٥) فِي الْهَوَاءِ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ وَلَا شَيْءٌ مِمَّا أَدْرَكَتْهُ الْأَسْمَاعُ وَالْأَبْصَارُ وَمَا لَا تُدْرِكُهُ الْأَسْمَاعُ وَالْأَبْصَارُ، مَا جَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَمَا دَقَّ، وَمَا صَغُرَ وَمَا كَبُرَ، وَلَمْ نَقُلْ سَمِيعًا بَصِيرًا كَالسَّمْعِ الْمَعْقُولِ مِنَ الْخَلْقِ، وَكَذَلِكَ إِنَّمَا سُمِّيَ عَلِيمًا لِأَنَّهُ لَا يَجْهَلُ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، عَلِمَ مَا يَكُونُ وَمَا لَا يَكُونُ، وَمَا لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ، وَلَمْ نَصِفْ عَلِيمًا بِمَعْنَى غَرِيزَةٍ يَغْلَمُ بِهَا كَمَا أَنَّ لِلْخَلْقِ غَرِيزَةً يَغْلَمُونَ بِهَا، فَهَذَا مَا أَرَادَ مِنْ قَوْلِهِ: عَلِيمٌ، فَعَزَّ مِنْ جَلٍّ عَنِ الصِّفَاتِ، وَمَنْ نَزَّ نَفْسُهُ عَنْ أَفْعَالِ خَلْقِهِ فَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى، وَلَوْ لَا ذَلِكَ مَا فَصَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، فَسُبْحَانَهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ.

قَالَ: إِنَّ هَذَا لَكَمَا تَقُولُ، وَلَقَدْ عَلِمْتُ إِنَّمَا غَرَضِي أَنْ أَسْأَلَ عَنْ رَدِّ الْجَوَابِ فِيهِ عِنْدَ مُصَرِّفٍ يَسْنَحُ عَنِّي، فَأَخْبِرَنِي لَعَلِّي أَحْكُمُهُ فَيَكُونُ الْحُجَّةُ قَدْ انْشَرَحَتْ لِلْمُتَعَنِّتِ^(٦) الْمُخَالَفِ، أَوِ السَّائِلِ الْمُتَرَاتِبِ، أَوِ الطَّالِبِ الْمُتَرَادِ^(٧)، مَعَ مَا فِيهِ لِأَهْلِ الْمَوَافَقَةِ مِنَ الْإِزْدِيَادِ، فَأَخْبِرَنِي عَنْ قَوْلِهِ: لَطِيفٌ، وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّهُ لِلْفِعْلِ، وَلَكِنْ قَدْ رَجَوْتُ أَنْ تَشْرَحَ لِي ذَلِكَ بِوَصْفِكَ، قُلْتُ: إِنَّمَا سَمَّيْنَاهُ لَطِيفًا لِلْخَلْقِ اللَّطِيفِ، وَلِعَلِّمَهُ بِالشَّيْءِ اللَّطِيفِ مِمَّا خَلَقَ مِنَ الْبُعُوضِ وَالذَّرَّةِ، وَمِمَّا هُوَ أَصْغَرُ مِنْهُمَا لَا يَكَادُ تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَالْعُقُولُ لِصِغَرِ خَلْقِهِ مِنْ عَيْنِهِ وَسَمْعِهِ وَصُورَتِهِ، لَا يُعْرِفُ مِنْ ذَلِكَ لِصِغَرِهِ الذِّكْرُ مِنْ

١. البطش: الأخذ الشديد في كل شيء، راجع لسان العرب.

٢. اللحظ: النظر، راجع جمهرة اللغة.

٣. دبّ النمل: مشى على هيبنته ولم يسرع، راجع تاج العروس.

٤. الصفا: الحجارة، راجع المصباح المنير.

٥. الخفقان: اضطراب الجناح، وخفق الطائر أي طار، راجع لسان العرب.

٦. جائه مُتَعَنِّتًا: طالبا رلته، راجع القاموس المحيط.

٧. المتراد: الذي يريد الخير ليؤجر عليه، راجع مجمع البحرين، مادة «تلا».

الْأُنْثَى، وَلَا الْحَدِيثُ الْمَوْجُودُ مِنَ الْقَدِيمِ الْوَالِدِ^(١)، فَلَمَّا رَأَيْنَا لُطْفَ ذَلِكَ فِي صِغَرِهِ وَمَوْضِعَ الْعَقْلِ فِيهِ وَالشَّهْوَةَ لِلسَّفَادِ^(٢) وَالْهَرَبَ مِنَ الْمَوْتِ، وَالْحَدَبَ عَلَى نَسْلِهِ مِنْ وَلَدِهِ، وَمَعْرِفَةَ بَعْضِهَا بَعْضًا، وَمَا كَانَ مِنْهَا فِي لُجَجِ الْبَحَارِ، وَأَعْنَانِ السَّمَاءِ، وَالْمَفَاوِزِ^(٣)، وَالْقِفَارِ، وَمَا هُوَ مَعَنَا فِي مَنْزِلِنَا، وَيَقْتَضِيهِمْ بَعْضًا مِنْ مَنْطِقِهِمْ، وَمَا يَقْتَضِيهِمْ مِنْ أَوْلَادِهَا، وَتَقْلَهَا الطَّعَامَ إِلَيْهَا وَالْمَاءَ، عَلِمْنَا أَنَّ خَالِقَهَا لَطِيفٌ وَأَنَّهُ لَطِيفٌ بِخَلْقِ اللَّطِيفِ^(٤)، كَمَا سَمَّيْنَاهُ قَوِيًّا بِخَلْقِ الْقَوِيِّ.

قَالَ: إِنَّ الَّذِي جِئْتُ بِهِ لَوَاضِحٌ، فَكَيْفَ جَارَ لِلْخَلْقِ أَنْ يَتَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى؟ قُلْتُ: إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ أَبَاحَ لِلنَّاسِ الْأَسْمَاءَ وَوَهَبَهَا لَهُمْ، وَقَدْ قَالَ الْقَائِلُ مِنَ النَّاسِ لِلْوَاحِدِ: وَاحِدٌ، وَيَقُولُ لِلَّهِ: وَاحِدٌ، وَيَقُولُ: قَوِيٌّ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَوِيٌّ، وَيَقُولُ: صَانِعٌ، وَاللَّهُ صَانِعٌ، وَيَقُولُ: رَازِقٌ، وَاللَّهُ رَازِقٌ، وَيَقُولُ: سَمِيعٌ بَصِيرٌ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَمَنْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ: وَاحِدٌ فَهَذَا لَهُ اسْمٌ وَلَهُ شَبِيهٌ، وَاللَّهُ وَاحِدٌ وَهُوَ لَهُ اسْمٌ وَلَا شَيْءَ لَهُ شَبِيهٍ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى وَاحِدًا؛ وَأَمَّا الْأَسْمَاءُ فَهِيَ دَلَالَتُنَا عَلَى الْمُسَمَّى، لِأَنَّا قَدْ نَرَى الْإِنْسَانَ وَاحِدًا وَإِنَّمَا نُخْبِرُ وَاحِدًا إِذَا كَانَ مُفْرَدًا، فَعَلِمْنَا أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي نَفْسِهِ لَيْسَ بِوَاحِدٍ فِي الْمَعْنَى لِأَنَّ أَعْضَاءَهُ مُخْتَلِفَةٌ، وَأَجْزَائُهُ لَيْسَتْ سَوَاءً، وَلَحْمُهُ غَيْرُ دَمِهِ، وَعَظْمُهُ غَيْرُ عَصَبِهِ، وَشَعْرُهُ غَيْرُ ظَفْرِهِ، وَسَوَادُهُ غَيْرُ بَيَاضِهِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْخَلْقِ، وَالْإِنْسَانُ وَاحِدٌ فِي الْإِسْمِ، وَلَيْسَ بِوَاحِدٍ فِي الْإِسْمِ وَالْمَعْنَى وَالْخَلْقِ، فَإِذَا قِيلَ لِلَّهِ فَهُوَ الْوَاحِدُ الَّذِي لَا وَاحِدَ غَيْرُهُ، لِأَنَّهُ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ، وَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَمِيعٌ وَبَصِيرٌ وَقَوِيٌّ وَعَزِيزٌ وَحَكِيمٌ وَعَلِيمٌ، فَتَعَالَى اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِهِ: رَوْوْفٌ رَحِيمٌ، وَعَنْ رِضَاهُ وَمَحَبَّتِهِ وَغَضَبِهِ وَسَخَطِهِ، قُلْتُ: إِنَّ الرَّحْمَةَ وَمَا يَحْدُثُ لَنَا مِنْهَا شَفَقَةٌ وَمِنْهَا جُودٌ، وَإِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ ثَوَابُهُ لِخَلْقِهِ، وَالرَّحْمَةُ مِنَ الْعِبَادِ شَيْئَانِ: أَحَدُهُمَا يَحْدُثُ فِي الْقَلْبِ الرَّأْفَةُ وَالرَّقَّةُ لِمَا يُرَى بِالْمَرْحُومِ مِنَ الضَّرِّ وَالْحَاجَةِ وَضُرُوبِ الْبَلَاءِ، وَالْآخَرُ مَا يَحْدُثُ مِنَّا مِنْ بَعْدِ الرَّأْفَةِ وَاللُّطْفِ عَلَى الْمَرْحُومِ، وَالرَّحْمَةُ مِنَّا مَا نَزَلَ بِهِ، وَقَدْ يَقُولُ الْقَائِلُ: انْظُرْ إِلَى رَحْمَةِ فَلَانٍ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْفِعْلَ الَّذِي حَدَّثَ عَنِ الرَّقَّةِ الَّتِي فِي قَلْبِ فَلَانٍ، وَإِنَّمَا يُصَافُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ فَعَلٍ مَا حَدَّثَ عَنَّا مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ؛ وَأَمَّا الْمَعْنَى الَّذِي هُوَ فِي الْقَلْبِ فَهُوَ مَنْفِيٌّ عَنِ اللَّهِ كَمَا وَصَفَ عَنْ نَفْسِهِ، فَهُوَ رَحِيمٌ لَا رَحْمَةَ رَقَّةٍ؛ وَأَمَّا الْغَضَبُ فَهُوَ مِنَّا إِذَا غَضِبْنَا تَغَيَّرَتْ طَبَائِعُنَا، وَتَرْتَعَدُ أَحْيَانًا مَفَاصِلُنَا، وَحَالَتْ أَلْوَانُنَا، ثُمَّ نَجِيءُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ بِالْعُقُوبَاتِ فَسُمِّيَ غَضَبًا، فَهَذَا كَلَامُ النَّاسِ الْمَعْرُوفُ، وَالْغَضَبُ شَيْئَانِ:

١. هذا تنبيه منه ﷺ على وجود الحيوانات الحية والميكروبات المخفية عن الأنظار والعقول، قبل وجود المكبرات واختراع الميكروسكوب والمنظار بقرون، وغير خفي أن العلم بذلك في أحد عشر قرنا قبل زماننا لم يك يحصل إلا لذوي النفوس الكاملة والأنظار الثابتة الذين خصهم الله من بريته بفضله، وأيدهم بحكمته، وانتجهم لولايته من بين خلقه، وعلمهم ما لا يعلم غيرهم من عبيده. (هامش المطبوع)

٢. وفي نسخة: والشهوة للبقاء.

٣. المفاز والمفازة: البرية الففرة (النبات بها ولا ماء)، وتجمع المفاوز، راجع لسان العرب.

٤. وفي نسخة: لطيف يخلق اللطيف. (هامش المطبوع)

أَحَدُهُمَا فِي الْقَلْبِ، وَأَمَّا الْمَعْنَى الَّذِي هُوَ فِي الْقَلْبِ فَهُوَ مَنْفِيٌّ عَنِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَكَذَلِكَ رِضَاهُ وَسَخَطُهُ وَرَحْمَتُهُ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ جَلٌّ وَعَزٌّ لَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا مِثْلَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ إِرَادَتِهِ. قُلْتُ: إِنَّ الْإِرَادَةَ مِنَ الْعِبَادِ الضَّمِيرُ وَمَا يَبْدُو بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْفِعْلِ، وَأَمَّا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا إِرَادَةَ لِلْفِعْلِ إِحْدَاثُهُ، إِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ بِلَا تَعَبٍ وَلَا كَيْفٍ.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَدْ بَلَغْتَ حُسْبَكَ فَهَذِهِ كَافِيَةٌ لِمَنْ عَقَلَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي هَدَانَا مِنَ الضَّلَالِ، وَعَصَمَنَا مِنْ أَنْ نُشَبِّهَهُ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنْ نُشَكَّ فِي عَظَمَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَلَطِيفِ صُنْعِهِ وَجَبْرُوتِهِ، جَلَّ عَنِ الْأَشْبَاهِ وَالْأَضْدَادِ، وَتَكَبَّرَ عَنِ الشُّرَكَاءِ وَالْأَنْدَادِ.

شرح:

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «دفعت إليه» على بناء المجهول، أي دفعتك الحاجة والضرورة إليه، وفي الأساس: دفع فلان إلى فلان: انتهى إليه. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مغيض» هو بفتح الميم وكسر الغين المعجمة: موضع يجري إليه الماء ويغيب أو يجتمع فيه، وفي الثاني مصدر ميمي. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «في الجهات الأربع» أي الشمال والجنوب والصبأ والدبور^(١)، ويحتمل أن يكون المراد المتغيرة بسبب الصفات الأربعة التي فسرها عَلَيْهِ السَّلَامُ. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «تلقح أجسادهم» أي تنميتها، مستعاراً من لقاح الشجر، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾^(٢) وفي أكثر النسخ بالفاء وهو بمعنى الإحراق، فيكون كناية عن نضجها. و«الودق»: المطر. قوله: «وقضباً» يعني الرطوبة، سميت بمصدر قضبه إذا قطعه لأنها تقضب مرة بعد أخرى. «وحدائق غلباً» أي عظاماً، وصفت به الحدائق لتكاثرها وكثرة أشجارها، أو لأنها ذات أشجار غلاظ مستعار من وصف الرقاب. «وآباً»: مرعى، من آب إذا أمّ لأنه يومٌ وينتجع، أو من آب لكذا: إذا تهيأ له لأنه متهيئاً للرعي، وفاكهة يابسة توبّ للشتاء. وقال الجوهري: الأثاث: متاع البيت، قال الفرّاء: لا واحد له، وقال أبو زيد: الأثاث: المال أجمع، الإبل والغنم والعبيد والمتاع، الواحدة: أثاثة. انتهى. «ومتاعاً» أي شيئاً ينتفع به. «إلى حين»: إلى أن تقضوا منه أوطاركم^(٣)، أو إلى أن يبلى ويفنى، أو إلى أن تموتوا. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «والانتفاع» عطف على أوصافها، أو في أوصافها. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ومستقرّ»: اسم مكان معطوف على الأدواء. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «هو الأوّل بلا كيف» أي كان أزلياً من غير اتّصاف بكيفية، أو من غير أن تعرف كيفية أوّليته بمقارنة زمان قديم بل بلا زمان. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا من شيء ولا كيف» أي لا من مادة ولا من شبه ومثال وتصور وخيال تمثل فيه كيفية الخلق، ثم خلق على مثال ذلك كما في المخلوقين.

١. الدبور: ريح تهبّ من نحو المغرب، والصبأ تقابلها من ناحية المشرق، راجع لسان العرب.

٢. الحجر/٢٢.

٣. الوطر: الحاجة، والجمع الأوطار، راجع الصحاح.

قوله عليه السلام: «ولا كيف» أي ليس لخلقه وإيجاده كيفية كما في المخلوقين من حركة ومزاولة^(١) عمل فكما أنه لا كيف لذاته لا كيف لإيجاده، وإذا وصف خلقه وإيجاده بالكيف فهو يرجع إلى كيفية مخلوقه، فإذا قيل: كيف خلق الأشياء فالمعنى الصحيح له كيف مخلوقاته لا أنه كيف كان فعله وإيجاده، وإليه أشار عليه السلام بقوله: «وإنما الكيف بكيفية المخلوق» ثم علل ذلك بأن هذه صفات المحدثين، وهو الأول لا بدء له ولا شبه فكيف يتصف بها. قوله عليه السلام: «الذي خلق» خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي. وقوله عليه السلام: «وتصريف الرياح» عطف على الخلق العظيم، ويحتمل العطف على قوله عليه السلام: «مثل الأرض». قوله عليه السلام: «بلوغاً ولا منتهى» لعل المراد أنه لا يبلغ الأبصار إليهما، ولا إلى منتهى نورهما، أو منتهى جسمهما. قوله عليه السلام: «وعظم الخلق العظيم» أي السماء أو ما عليها من الملائكة. قوله عليه السلام: «ولا يشبه بهذه الأسماء» على بناء المجهول من باب التفعيل أي لا يصير إطلاق هذه الأسماء عليه سبباً لأن يظن أنه شبيه بخلقه. قوله «إنما غرضي» أي غرضي من السؤال أن تجيب عما يعرض لي من إشكال يصرفني عن الحق، يسنح ويظهر عني، وفي بعض النسخ عن ردّ الجواب فيه عند متعرّف غيبي^(٢)، أي إنني قد آمنت وأيقنت، وإنما المقصود من السؤال أن أقدر على أن أجيب عن سؤال متعرّف غيبي جاهل أحقق لأهديه إلى الحق، وهو أظهر. و«الحدب»: العطف والشفقة، ولعل المراد بما في أعنان السماء ما يطير في الهواء. وقد مرّ تفسير بعض الفقرات وسيأتي تفسير بعضها.

١. المزاولة: معالجة الشيء، راجع لسان العرب.

٢. الغيبي: الغافل القليل الفطنة، راجع لسان العرب.

﴿باب ٦﴾

«التوحيد ونفي الشريك ومعنى الواحد والأحد والصمد وتفسير سورة التوحيد»

الآيات:

البقرة/١٦٣: ﴿وَالْهُكْمُ لِلَّهِ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(١).
 البقرة/١٦٥: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ...﴾.
 البقرة/٢٥٥: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...﴾.
 البقرة/٢٨٤: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾.
 آل عمران/٦٢: ﴿... وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ...﴾.
 آل عمران/٦٤: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(٢).

١. **نقول:** هذه الآية تبين أحدية الله بشكل ينفي كل شرك وانحراف. قد نرى أحيانا موجودات منفردة في صفة من صفاتها، لكن هذه الموجودات تنفرد في صفة أو عدة صفات. أمّا الله فهو أحد في ذاته، وأحد في صفاته، وأحد في أفعاله، أحديته لا تقبل التعدد عقلا، إنه أحد أزلي وأبدي لا تؤثر الحوادث على أحديته، إنه أحد في الذهن وخارج الذهن. إنه أحد في أحديته! (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١، ص ٤٦٤)

٢. **نقول:** يعلمنا القرآن بهذه الآية درسا، مفاده: أنكم إذا لم توفقوا في حمل الآخرين على التعاون معكم في جميع أهدافكم، فلا ينبغي أن يقعد بكم اليأس عن العمل، بل اسعوا لإقناعهم بالتعاون معكم في تحقيق الأهداف المشتركة بينكم، كقاعدة للانطلاق إلى تحقيق سائر أهدافكم المقدسة. هذه الآية تعتبر نداء «الوحدة والاتحاد» إلى أهل الكتاب، فهي تقول لهم: إنكم تزعّمون - بل تعتقدون - أن التثليث (أي الاعتقاد بالآلهة الثلاثة) لا ينافي التوحيد، لذلك تقولون بالوحدة في التثليث. وهكذا اليهود يدعون التوحيد وهم يتكلمون بكلام فيه شرك ويعتبرون

النساء/٤٨: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

النساء/١١٦ و ١١٧: ﴿... وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا * إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾.

النساء/١٣٢: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.
 الأنعام/٤٠ و ٤١: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرِ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِلَٰهَ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾.
 الأنعام/٥٦: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾.
 الأعراف/٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥: ﴿... مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ...﴾^(١) في مواضع.

يونس/٦٦: ﴿... وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

يونس/١٠٤-١٠٦: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَتَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾.
 هود/٢: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾.

يوسف/٣٨: ﴿... مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ...﴾.
 يوسف/٣٩ و ٤٠: ﴿يَا صَاحِبِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا

→ «العزيز» ابن الله. يقول لهم القرآن: إنكم جميعاً ترون التوحيد مشتركاً، فتعالوا نضع يدا بيد لنحيي هذا المبدأ المشترك بدون لف أو دوران، ونتجنب كل تفسير يؤدي إلى الشرك والابتعاد عن التوحيد. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢، ص ٥٣٦)

١. **فقول:** إن شعار التوحيد ليس شعار نوح وحده، بل هو أول شعار عند جميع الأنبياء والمرسلين الإلهيين، ولهذا يشاهد في آيات متعددة من هذه السورة - وغيرها من السور القرآنية - أن أول ما يفتتح أكثر الأنبياء دعواتهم به هو هذا الشعار: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾. من هذه العبارات يستفاد جيداً أن الوثنية كانت أسوأ مانع في طريق سعادة البشرية جمعاء، وأن حملة غصون التوحيد هؤلاء كانوا أول ما يفعلونه لغرس هذه الغصون في مزرعة الحياة البشرية وتربية أنواع الورود الزاهية والأشجار المثمرة فيها، هو أنهم يشمرون عن ساعد الجد ليظهروا الحياة البشرية بمنجل تعاليمهم البناءة من الأشواك، أشواك الوثنية والشرك والعبودية لغير الله تعالى. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٥، ص ٨٦)

إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٦﴾.

يوسف / ١٠٦: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾.

الرعد / ١٤-١٦: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِهٖ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلَالًا لَهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْآصَالِ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١﴾.

الرعد / ٣٠: ﴿... قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾.

الرعد / ٣٣: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ...﴾.

الرعد / ٣٦: ﴿... قُلْ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ اللَّهُ وَلَا أُشْرِكْ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَابٍ﴾.

إبراهيم / ٥٢: ﴿... وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ...﴾.

النحل / ٢ و ٣: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ * خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

النحل / ٥١-٥٧: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيُكْفَرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * وَيجْعَلُونَ لِمَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ * وَيجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٢﴾.

١. **نقول:** يمكن أن يستفاد من الآية الأخيرة أن الخالق هو الربّ المدبّر، لأنّ الخلقة أمر مستمر ودائمي، وليس من خلق الكائنات يتركهم وشأنهم، بل إنّه تعالى يفيض بالوجود عليهم باستمرار وكل شيء يأخذ وجوده من ذاته المقدّسة، وعلى هذا فنظام الخلقة وتدير العالم كلّها بيد الله، ولهذا السبب يكون هو النافع والضارّ، وغيره لا يملك شيء إلاّ منه، فهل يوجد أحد غير الله أحقّ بالعبادة؟ (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٧، ص ٣٦٨)

٢. **نقول:** يوضح القرآن أدلة توحيد العبادة بأربعة بيانات ضمن هذه الآيات، فيقول أولاً: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهل ينبغي السجود

الإسراء/ ٢٢ و ٢٣: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ * وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ... ﴿١﴾.

الإسراء/ ٣٩: ﴿... وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُقَلِّبَ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾.
الإسراء/ ٤٢ و ٤٣: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

الإسراء/ ٥٦ و ٥٧: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾.

الكهف/ ١٤ و ١٥: ﴿... فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا * هُوَ لَا يَفْعَلُ مَا نَحْنُ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْ لَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

الكهف/ ٣٨: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.
الكهف/ ٤٢: ﴿... وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.
الكهف/ ١٠٢: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ...﴾.
الكهف/ ١١٠: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.
مريم/ ٨١ و ٨٢: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

→ للأصنام التي لا تملك شيئاً، أم لمن له ما في السموات والأرض؟ ثم يضيف: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ فعند ما يشبث أن عالم الوجود منه، وهو الذي أوجد جميع قوانينه التكوينية فينبغي أن تكون القوانين التشريعية من وضعه أيضاً، ولا تكون طاعة إلا له سبحانه. ثم يقول في نهاية الآية: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ فهل يمكن للأصنام أن تصدّ عنكم المكروه أو أن تفيض عليكم نعمة حتى تتقوها وتواظبوا على عبادتها؟! هذا ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ فهذه الآية تحمل لبيان الثالث بخصوص لزوم عبادة الله الواحد جلّ وعلا، وأن عبادة الأصنام إن كانت شكراً على نعمة فهي ليست بمنعمة، بل الكل بلا استثناء منعمون في نعم الله تعالى، وهو الأحق بالعبادة لا غيره. وعلاوة على ذلك ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُّونَ﴾ فإن كانت عبادتكم للأصنام دفعا للضرر وحالا للمعضلات، فهذا من الله وليس من غيره، وهو ما تظهره ممارستكم عمليا حين إصابتكم بالضرر، فلمن تلتجئون؟ إنكم تتركون كل شيء وتنتجهون إلى الله. وهذا البيان الرابع حول مسألة التوحيد بالعبادة. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٨، ص ٢١١)

الأنبياء ١٩-٢٥: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ * أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ * أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(١).

الأنبياء ٣٦: ﴿وَإِذَا رَأَوْا كَذِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

الأنبياء ٤٢ و ٤٣: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِتَّا يُصْحَبُونَ﴾.

الأنبياء ٩٨-١٠١: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هُوَ لِآلِهَةٍ مَّا وَرَدُّوَهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ * لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا

١. **نقول:** إنَّ الدليل الوارد في الآية: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ الذي يكون لإثبات التوحيد ونفي الآلهة، في الوقت الذي هو بسيط وواضح، فإنه من البراهين الفلسفية الدقيقة في هذا الباب، ويذكره العلماء تحت عنوان (برهان التمانع) ويمكن إيضاح خلاصة هذا البرهان بما يلي: إننا نرى - بدون شك - نظاما واحدا حاكما في هذا العالم، ذلك النظام المتناسق من جميع جهاته، فقوانينه ثابتة تجري في الأرض والسماء، ومناهجه متطابقة بعضها مع بعضها، وأجزاؤه متناسبة. إن انسجام القوانين وأنظمة الخلقة هذا يحكي أنها تنبع من عين واحدة، لأن البدايات إن كانت متعددة، والإرادات مختلفة لم يكن يوجد هذا الانسجام مطلقا، وهذا الشيء الذي يعبر عنه القرآن بـ «الفساد» يلاحظ في العالم بوضوح. إذا كنّا من أهل التحقيق والمطالعة - ولو قليلا - فإننا نستطيع أن نفهم جيدا من خلال تحقيق كتاب ما، أن كاتبه شخص واحد أم عدّة أشخاص؟ فإن الكتاب الذي يؤلفه شخص واحد يوجد انسجام خاص بين عباراته، ترتيب جملة، تعبيراته المختلفة، كنياته وإشارات، عناوينه ورؤوس مطالبه، طريقة الدخول في البحوث والخروج منها، والخلاصة: إن كل أقسامه متحدة متناسقة لأنها وليدة فكر واحد، وترشح قلم واحد. أمّا إذا تعهد شخصان أو عدّة أشخاص بأن يؤلف كل منهم جزءا من الكتاب - وإن كان الجميع علماء متقاربين في الروح والتفكير - فستظهر آثار هذه الازدواجية أو الكثرة في العبارات والألفاظ، وطريقة الأبحاث. وسبب ذلك واضح، لأنّ الفردين مهما كانا منسجمين في الفكر والذوق، فإنهما في النتيجة فردان، فلو كانت كلّ أشياهما واحدة لأصبحا فردا واحدا، فبناء على هذا فيجب أن يكون هناك تفاوت فيما بينهما قطعاً لئلا يمكن أن يكونا فردين، وهذا الاختلاف سيؤثر أثره في النتيجة، وسيبيد آثاره في كتاباتهما. وكلما كان هذا الكتاب أكبر وأكثر تفصيلا، وبيحت مواضيع متنوعة، فإنّ عدم الانسجام يلمس فيه أوضح. وكتاب عالم الخلقة الكبير، الذي نضيق بكلّ وجودنا في طيات عباراته لعظمته يشمل هذا القانون أيضا. حقّا إننا لا نستطيع مطالعة كلّ هذا الكتاب حتّى لو صرفنا كلّ عمرنا في مطالعته، إلّا أن هذا القدر الذي وقّنا نحن - وجميع العلماء - لمطالعتهم منسجم إلى الحدّ الذي يدلّ تماما على وحدة مؤلفه، إننا كلّما تصفّحنا هذا الكتاب العجيب فستظهر بين كلماته وسطوره وصفحاته آثار تنظيم عال وانسجام منقطع النظير. فإذا كانت هناك إرادات وبدايات متعددة تتدخل في إدارة هذا العالم وتنظيمه، فهل كان بالإمكان أن يوجد مثل هذا الانسجام؟ (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص ١٤٤)

الْحُسْنَى أَوْلَيْكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠٨﴾.

الأنبياء / ١٠٨: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

الحج / ٣١: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

الحج / ٧١: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.

المؤمنون / ٩١ و ٩٢: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

المؤمنون / ١١٦ و ١١٧: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ * وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

الفرقان / ٣: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاتًا وَلَا نُشُورًا﴾.

الشعراء / ٢١٣: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾.

النمل / ٢٦: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

النمل / ٥٩-٦٤: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آلَهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لَهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ أَكْثَرُ لَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

القصص / ٦٢-٦٤: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾.

القصص / ٨٧ و ٨٨: ﴿... وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

العنكبوت ٨/: ﴿... وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

العنكبوت ٤١-٤٣: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

الروم ٣١-٣٥: ﴿... وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنْزَلْنَاهُمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾^(١).

١. **نقول:** عبادة الله والاتجاه نحوه لهما مكانة في نفوس جميع الناس، وهو ما يصطلح عليه بـ «الفطرة». ويمكن أن يعدّ بعض الناس هذا الكلام ادعاء محضاً، يدّعيه المؤمنون، إلّا أن لدينا دلائل وشواهد مختلفة توضح بجلاء كون الميل إلى الله فطرياً، بل تؤكد هذا الميل في جميع أصول الدين وأبعاده: ١- إن دوام الاعتقاد الديني والإيمان بالله على امتداد التاريخ البشري بنفسه دليل على الفطرة، لأنّه إذا كان ذلك على سبيل العادة لما كانت له جنبه عمومية ولا جنبه دائمية، فهذا العموم وهذا الدوام دليل على فطرية الحالة. يقول المؤرخون الكبار: لم ير في المجتمعات الإنسانية في أعماق التاريخ البشري، وفي عصر ما قبل التاريخ أن أقواماً بشرية عاشت بلا دين إلّا بشكل استثنائي. ٢- إنّ المشاهدات عياناً في العالم المعاصر تكشف أنّه مع جميع ما بذل الطغاة والمستبدون - وأنظمتهم الجائرة من جهود وسعي لمحو الدين وآثاره وعن طرق مختلفة - لم يستطيعوا أن يستأصلوا الدين وجذوره من أعماق هذه المجتمعات. ونعرف جيداً أنّ الحزب الشيوعي الحاكم في الاتحاد السوفياتي، ومنذ أكثر من ستين سنة، وبوسائل الإعلام والدعايات المختلفة، حاول أن يغسل الأذهان والعقول والقلوب من الاعتقادات الدينية مستعيناً بالخلايا التنظيمية الجماعية، إلّا أنّ الأخبار التي تسربت وتهربت من ذلك المحيط المغلق، وما نقرأه في الصحف والجرائد، تكشف أنّهم - أي الحزب الحاكم في روسيا - مضافاً إلى عدم تحقيقهم هدفهم بالرغم من تشددهم في وسائل الإعلام، فإنّه تبدو هذه الأيام حالة من التطلع المتزايد إلى المسائل الدينية في بعض الدول الاشتراكية وجمهوريات روسيا ممّا أقلق قادة النظام، وهذا يدل على أنّه لو رفعوا الضغوط ولو يوماً واحداً لعاد الدين إلى مكانه بسرعة فائقة، وهذا بنفسه شاهد آخر على فطرية الدافع الديني أيضاً. ٣- الكشوفات الأخيرة من قبل النفسانيين وعلماء النفس في مجال أبعاد الروح الإنسانية، شاهد آخر على هذا المدعى، إذ أنّهم يقولون: إنّ التحقيقات في المجالات النفسية تشير إلى بعد أصيل هو البعد الديني، أو بتعبير آخر بعد قدسي، أو رباني، وربّما عدّوا هذا البعد أساساً للأبعاد الثلاثة الأخرى وهي البعد العلمي، والبعد الجمالي، والبعد الخيري. ٤- إنّ التجاء الإنسان في الشدائد والمحن إلى قوة خفية وراء الطبيعة، وطلب حل المشاكل والأزمات من قبل هذه القوة، لهو أيضاً شاهد آخر على أصالة هذا الدافع الباطني والإلهام الفطري، ويمكن - بضمها إلى مجموع الشواهد التي ذكرناها آنفاً - أن نوقفنا على مثل هذا الدافع الباطني في داخلنا نحو الله سبحانه. وبالطبع فمن الممكن أن يعدّ بعضهم هذا التوجه من آثار التلقينات أو الإعلام الديني في المحيط الاجتماعي المتدين إلّا أن عمومية هذه الظواهر في جميع الناس، حتى في أولئك الذين لا علاقة لهم بالمسائل الدينية عادة، تدلّ على أنّ لها جذراً أعمق من هذه الفرضية. ٥- وفي حياة الإنسان حوادث وظواهر لا يمكن

الروم / ٤٠: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

لقمان / ١٣: ﴿... يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

لقمان / ١٥: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ...﴾.

سبأ / ٢٢: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾.

سبأ / ٢٧: ﴿قُلِ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

سبأ / ٤٠ و ٤١: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِبْرَائِيمَ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾.

فاطر / ٣: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْصُرُوهُ﴾.

فاطر / ١٢-١٤: ﴿وَمَا يَسْتَوِ الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لَبْتَعُتُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ سَخَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ

→ تفسيرها إلا عن طريق أصالة الحس الديني، فكثير من الناس نجدهم قد ضحوا بجميع ما لديهم من الإمكانيات المادية، ولا يزالون يضحون أيضاً، ويصوبون كل ما عندهم مع ما لديهم من سوابق تحت قدم الدين، وربما قدّموا أنفسهم في سبيله أيضاً. الشهداء الذين شربوا كأس الشهادة - من أجل تقدم الأهداف الإلهية وتحققها - بشوق وعشق بالغين، بحيث نرى أمثالهم في تاريخ جهاد الإسلام الطويل، بل في تاريخ الأمم الأخرى أيضاً، يكشفون عن هذه الحقيقة، وهي أن الحس الديني له جذر عميق في روح الإنسان. لكن قد يرد على هذا الكلام إشكال، وهو أن أفراداً - كالشيعيين مثلاً - لهم موقع إلحادي - ضد الأيدلوجية والدين - ولا يكتفون موقعهم هذا أبداً كما أن لهم مواقف تضحية في سبيل حفظ فكرتهم واعتقادهم! إلا أن هذا الإشكال ينحل تماماً بملاحظة هذه المسألة، وهي أنه حتى الشيوعيون الذين ينفون الدين كلياً - بحسب الظاهر - ويعتقدون أن الدين مرتبط بالتاريخ القديم، ولا يمكن أن يكون له مكان في المجتمعات الشيوعية أجل، إن هؤلاء أنفسهم قد قبلوا بالدين بشكل آخر عن طريق العقل الباطني واللاوعي. فهم يقدّسون زعماءهم وقادتهم بالنظرة التي ينظرها المصريون القدماء أو شانهم، وصفوفهم الطويلة عند جسد «لينين» لزيارته هي شاهد آخر على هذا الموضوع أيضاً. وهم عادة يعتبرون الأصول الماركسية كوحى السماء لا تقبل النقد والخذش، فهي مقدّسة عندهم، ويتصورون أن ماركس ولينين وانجلس كالمعصومين من الأخطاء والسهو، ويعدون مراجعة العقل لاتخاذ موقف جديد من هذه الأصول ذنباً لا يغتفر أبداً، ويخاطبون مخالفيهم بتعبيرنا الديني على أنهم مرتدون، وعلى هذا فهم يعتقدون بكثير من المفاهيم والمسائل الدينية، غاية ما في الأمر هو أن تفكيرهم نوع من الفكر الديني في شكل منحرف! (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٢، ص ٥٢٢).

رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١﴾.

فاطر / ٤٠: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعْذُub الظَّالِمُونَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ إِلَّا غُرُورًا﴾.

يس / ٧٤ و ٧٥: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾.

الصافات / ١- ٥: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾.

ص / ٦٥ و ٦٦: ﴿... وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾.

الزمر / ٦: ﴿... ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْتَصِرُوا﴾.

١. **نقول:** لقد اتضح لدينا بأن الأصنام والأوثان وما يعبد من دون الله تعالى ليس لها آذان صاغية لما يطلب منها، وإن كان لها فهي غير قادرة على حل مشكلة ما، وليس لها في هذا العالم أي ملك ولو بقدر رأس الإبرة ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ وعلى هذا الأساس اتخذ الوهابيون هذه الآية ذريعة لهم للدعاء بأن كل شيء ما خلا الله جلّ وعلا - وإن كان نبياً - لا يسمع دعاء، وإن سمع فلا يجيب. كما رفضوا أي نوع من التوسل بأرواح الأنبياء والأئمة والأولياء. واعتبروا ذلك مخالفاً للتوحيد محتجين بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (الأعراف / ١٩٧)، ولو أمعنا النظر في الآيات السابقة واللاحقة لهذه الآية للاحظنا أن المقصود من قوله: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ هي الأصنام لا غير، وذلك يصدق على مجموعة الأحجار والأخشاب وغيرها والتي كانت في نظر مشركي الجاهلية بأنها ذات قدرة إزاء قدرة الخالق الكريم جلّ وعلا، كما أن الأنبياء والأولياء وحتى الشهداء في سبيل الله أحياء في البرزخ، وحياة البرزخ - كما هو معلوم - مجردة من الحجب المادية ومتعلقات الدنيا مما يجعلها أوسع منها. يضاف إلى ذلك فإن التوسل بالأرواح الطاهرة للأنبياء والأئمة عليهم السلام لا يعني إقرارنا لهم بالاستقلالية إزاء الخالق الكريم، بل إننا إنما نطلب العون والمدد من مقامهم وجاههم في حضرة البارئ العزيز، وهذا هو عين التوحيد، تأملوا جيداً. وقد صرح القرآن الكريم بأن الشفيع إنما يشفع بإذن الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة / ٢٥٥)، فمن يستطيع إنكار مثل هذه الآيات الصريحة غير الجهلة المغرورين الذين هتفوا بمثل هذه الادعاءات لزرع الفرقة بين المسلمين؟! وفي كثير من الحالات قرأ في سيرة الصحابة أنهم حينما تحيق بهم المشكلات يأتون إلى قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يتوسلون إليه، ويطلبون العون من الله عزّ وجلّ بشفاعته روحه الطاهرة. مثالنا على ذلك ما ذكره «البيهقي» من محدثي العامة، قال: في زمن الخليفة الثاني مرّ في الناس قحط وجدب، ممّا حدا ببلال وعدد من الصحابة إلى الذهاب لقبر رسول الله وقالوا عنده: «يا رسول الله، استق لأمتك فإنهم قد هلكوا»، كما نقل «الآلوسي» في (روح المعاني) الكثير من الأحاديث في هذا الصدد، وبعد المناقشة لهذه الأحاديث يخرج بالقول: إنني لا أرى مانعاً من التضرّع لله جلّ وعلا بمقام الرسول الأكرم في حياته أو بعد مماته ثم إن الآخرين الذين يمتلكون مقاما وقربا من الخالق الكريم يجوز التوسل بالله سبحانه بواسطتهم. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٤، ص ٥٠)

الزمر / ٨: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.

الزمر / ١٤ و ١٥: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ...﴾.

الزمر / ٢٩: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الزمر / ٦٤-٦٦: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيُخَبِّطَنَّ عَمَلُكَ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

غافر / ١٢: ﴿ذَلِكُمْ بَأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا ...﴾.

غافر / ٢٠: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

غافر / ٤١ و ٤٢: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾.

غافر / ٦٢: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانْتِظِرْ تَوْفِيقَهُ﴾.

غافر / ٦٥: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ...﴾.

غافر / ٨٤: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾.

فصلت / ٦: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾.

فصلت / ٩: ﴿قُلْ أَإِنِّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

فصلت / ١٤: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ...﴾.

فصلت / ٣٧ و ٣٨: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾.

فصلت / ٤٧ و ٤٨: ﴿... وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مَنَا مِنْ شَهِيدٍ * وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾.

الشورى ٩: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الشورى ١٣: ﴿... كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ...﴾.
الزخرف ٢٦ و ٢٧: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾.

الزخرف ٥٥: ﴿وَسْئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَنْ جَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾.
الزخرف ٥٧ و ٥٨: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.
الجاثية ١٠: ﴿... وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

محمد ١٩: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ...﴾.
ق ٢٦: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.
الذاريات ٥١: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمُ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.
الطور ٤٣: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.
المتحنة ٤: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ...﴾.

الجن ٢٠: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾.
المزمل ٩: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.
الإخلاص ١-٤: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

الروايات:

١٢١١. التوحيد، الخصال^(١): الطَّائِفَانِي، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ يَحْيَى، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْهَيْثَمِ الْبَلَدِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ الْمُعَافَى بْنِ عِمْرَانَ، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ الْمُقْدَامِ بْنِ شُرَيْحِ بْنِ هَانِي، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: إِنَّ أَعْرَابِيًّا قَامَ يَوْمَ الْجَمَلِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَتَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ؟ قَالَ: فَحَمَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَقَالُوا: يَا أَعْرَابِيُّ أَمَا تَرَى مَا فِيهِ

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٨٤ ح ٣؛ الخصال، ج ١، ص ٢، ح ١؛ روضة الواعظين، ج ١، ص ٣٦.

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ تَقْسِمِ الْقُلُوبِ؟ فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: دَعُوهُ فَإِنَّ الَّذِي يُرِيدُهُ الْأَعْرَابِيُّ هُوَ الَّذِي نُرِيدُهُ مِنَ الْقَوْمِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَعْرَابِيُّ إِنَّ الْقَوْلَ فِي أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ: فَوَجْهَانِ مِنْهَا لَا يَجُوزُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَوَجْهَانِ يَثْبِتَانِ فِيهِ، فَأَمَّا اللَّذَانِ لَا يَجُوزَانِ عَلَيْهِ فَقَوْلُ الْقَائِلِ: وَاحِدٌ يَقْصِدُ بِهِ بَابَ الْأَعْدَادِ فَهَذَا مَا لَا يَجُوزُ، لِأَنَّ مَا لَا ثَانِي لَهُ لَا يَدْخُلُ فِي بَابِ الْأَعْدَادِ، أَمَا تَرَى أَنَّهُ كَفَرَ مَنْ قَالَ إِنَّهُ ثَالِثٌ ثَلَاثَةً؟ وَقَوْلُ الْقَائِلِ: هُوَ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ، يُرِيدُ بِهِ النَّوعَ مِنَ الْجِنْسِ، فَهَذَا مَا لَا يَجُوزُ لِأَنَّهُ تَشْبِيهٌ، وَجَلَّ رَبُّنَا تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ. وَأَمَّا الْوَجْهَانِ اللَّذَانِ يَثْبِتَانِ فِيهِ فَقَوْلُ الْقَائِلِ: هُوَ وَاحِدٌ لَيْسَ لَهُ فِي الْأَشْيَاءِ شَبَّهُ، كَذَلِكَ رَبُّنَا؛ وَقَوْلُ الْقَائِلِ: إِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَحَدِي الْمَعْنَى، يَعْنِي بِهِ أَنَّهُ لَا يَنْقَسِمُ فِي وُجُودٍ وَلَا عَقْلٍ وَلَا وَهْمٍ، كَذَلِكَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ.

بيان:

«التقسيم»: التفرُّق، والمعنى الأول المنفي هو الوحدة العددية بمعنى أن يكون له ثان من نوعه، والثاني أن يكون المراد به صنفاً من نوع، فإن النوع يطلق في اللغة على الصنف، وكذا الجنس على النوع، فإذا قيل لرومي مثلاً: هذا واحد من الناس بهذا المعنى يكون المعنى أن صنف هذا صنف من أصناف الناس، أو هذا من صنف من أصنافهم، ويحتمل أن يكون المراد بالأول الذي له ثان في الإلهية، وبالثاني الواحد من نوع داخل تحت جنس، فالمراد أنه يريد به أي بالناس أنه نوع لهذا الشخص، ويكون ذكر الجنس لبيان أن النوع يستلزم الجنس غالباً فيلزم التركيب من الأجزاء العقلية. والمعنيان المثبتان: الأول منهما إشارة إلى نفي الشريك، والثاني منهما إلى نفي التركيب. وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «في وجود» أي في الخارج.

١٢١٢. التوحيد، معاني الأخبار^(١): أَبِي، عَنْ مُحَمَّدٍ الْعَطَّارِ، عَنْ ابْنِ عِيسَى، عَنْ أَبِي هَاشِمٍ الْجَعْفَرِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ الثَّانِي عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢) مَا مَعْنَى الْوَاحِدِ؟ قَالَ: الْمُجْتَمَعُ عَلَيْهِ بِجَمِيعِ الْأَلْسُنِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ.

١٢١٣. الإحتجاج^(٣): عَنْ أَبِي هَاشِمٍ الْجَعْفَرِيِّ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ الثَّانِي عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٤) مَا مَعْنَى الْأَحَدِ؟ قَالَ: الْمُجْتَمَعُ عَلَيْهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، أَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ: ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾^(٥) بَعْدَ ذَلِكَ^(٦) لَهُ شَرِيكَ وَصَاحِبَةٌ؟

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٨٢، ح ١؛ معاني الأخبار، ص ٥، ح ١؛ المحاسن، ج ٢، ص ٣٢٨، ح ٨٣.

٢. في المحاسن بهذا الإسناد: «البرقي، عن أبيه، عن داود بن القاسم قال: قال: سئل أحدهم».

٣. ورد في الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٤٤١، مع زيادة: متشابه القرآن (لابن شهر آشوب)، ج ١، ص ١٠٥.

٤. الإخلاص/١.

٥. العنكبوت/٦١.

٦. في المصدر والمتشابه: «ثم يقولون بعد ذلك ...».

بيان:

قوله عَلَيْهِ: «بعد ذلك» استفهام على الإنكار، أي كيف يكون له شريك وصاحبة بعد إجماع القول على خلافه؟

١٢١٤. التوحيد^(١): ابْنُ عَصَامٍ وَالدَّقَاقُ مَعًا، عَنْ الْكَلْبِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَسَنِ جَمِيعًا، عَنْ سَهْلٍ، عَنْ أَبِي هَاشِمٍ الْجَعْفَرِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ الثَّانِي عَلَيْهِ^(٢): مَا مَعْنَى الْوَاحِدِ؟ قَالَ: الَّذِي اجْتَمَعَ الْأَلْسُنُ عَلَيْهِ بِالتَّوْحِيدِ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾^(٣).^(٤)

بيان:

تحتمل تلك الأخبار وجوهاً:

الأول: أن يكون عَلَيْهِ أحال معنى الواحد على ما هو المعروف بين الناس وأعرض عنه، واستدلّ عليه بما جبل عليه^(٥) جميع العقول من الإذعان بتوحيده.

الثاني: أن يكون المراد به أن معنى الواحد هو الذي أقربّه كلّ ذي عقل إذا صرف عنه الأغراض النفسانية.

الثالث: أن يكون هذا اللفظ بحسب الشرع موضوعاً لهذا المعنى مأخوذاً فيه إجماع الألسن^(٦).

ثمّ الظاهر أن يكون الآية احتجاجاً على مشركي قريش، حيث كانوا يقرّون بأنّ الخالق لجميع المخلوقات

١. التوحيد (للمصدق)، ص ٨٣، ح ٢؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب معاني الأسماء، ص ١١٨، ح ١٢، مع اختلاف يسير.

٢. في الكافي: «علي بن محمد ومحمد بن الحسن، عن سهل بن زياد ومحمد بن يحيى، عن ابن عيسى جميعاً، عن أبي هاشم الجعفري، عن أبي جعفر الثاني عَلَيْهِ».

٣. لقمان/ ٢٥.

٤. الظاهر من مضامين الأحاديث الثلاثة أنّها متحدة، وأنّ أبا هاشم الجعفري سئل مرة واحدة عن موضوع واحد، والاختلاف الذي يترأى فيها جاء من قبل الرواة بعد النقل بالمعنى ونقلها بالتفصيل والإجمال. كما أن الظاهر من الحديث الثاني الذي نقل فيها ألفاظ السائل بتمامها أن المسئول عنه هو معنى الأحد الواقع في سورة الإخلاص - بل هو صريح في ذلك - لا المعنى الواحد كما في الحديث الأول والثالث المنقولين بالمعنى؟ وحاصل السؤال استفهام معنى الأحد، وكأنه أراد فهم الفرق بينه وبين معنى الواحد، فأجابه عَلَيْهِ بأنّ الأحد هو الذي لا يرى ذوي الألسن والعقول له شريك في وحدته، واجتمعوا باتصافه بالوحدانية دون غيره، ثمّ استشهد عَلَيْهِ لكونه تعالى كذلك بالآية وأن طوائف الناس بأجمعها مدعنة باتصافه بأنّه خالق السماوات والأرض وأنّه إلهما دون غيره. والحاصل كل ما يراه الناس بطوائفه وأصنافه أنّه واحد في ذاته أو في صفاته ولم يروا في ذلك له شبيه ونظير فهو المسمى بالأحد، بخلاف الواحد فإنه يحتمله وغيره والأول يسمى بالفارسية «يكستا» والثاني «يك» والأول لا يقع في مراتب الأعداد بخلاف الثاني. (هامش المطبوع)

٥. جبل الانسان على هذا الأمر: طبع عليه، راجع لسان العرب.

٦. أما المعنيان الأولان فهما بحسب الدقّة واحد وهو الذي جبل عليه العقول ولا تأثير للشهرة العرفية في هذه المعاني؛ وأما الثالث فاحتمال فاسد من أصله لا يحمل عليه الأخبار إذ لا معنى لدعوة القرآن إلى الحقيقة الشرعية من غير بيان ولا إشارة إلغازاً وتعمية. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

هو الله تعالى، ومع ذلك كانوا يعبدون الأصنام ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١) ويحتمل أن يكون المراد أن غرائز الخلق كلها مجبولة على الإذعان بتوحيده فإذا رجعوا إلى أنفسهم وتركوا العصبية والعناد يرون أنفسهم مذعنة بذلك، وينبّه على ذلك أنهم عند اضطرارهم في المهالك والمخاوف لا يلجئون إلا إليه، كما نبّه تعالى عليه في مواضع من القرآن المجيد؛ والأول أظهر، فإنّ للتوحيد ثلاثة معان: الأول: توحيد واجب الوجود، والثاني: توحيد صانع العالم ومدبر النظام، والثالث: توحيد الإله وهو المستحق للعبادة، وكان مشركوا القريش مخالفين في المعنى الثالث.

١٢١٥. الإحتجاج^(٢): عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ أَنَّهُ سَأَلَ الرَّنْدِيقُ الصَّادِقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَزَلْ مَعَهُ طِينَةٌ مُوَدِّعَةٌ، فَلَمْ يَسْتَطِعِ التَّفَصِّيُ^(٣) مِنْهَا إِلَّا بِامْتِرَاجِهِ بِهَا وَدُخُولِهِ فِيهَا، فَمِنْ تِلْكَ الطِّينَةِ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ. قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى، مَا أَعْجَزَ إِلَهًا يُوَصَفُ بِالْقُدْرَةِ لَا يَسْتَطِيعُ التَّفَصِّيُ مِنَ الطِّينَةِ! إِنْ كَانَتِ الطِّينَةُ حَيَّةً أَرَلِيَّةً فَكَانَا إِلَهَيْنِ قَدِيمَيْنِ فَاُمْتَرَجَا وَدَبَّرَا الْعَالَمَ مِنْ أَنْفُسِهِمَا، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ الْمَوْتُ وَالْفَنَاءُ؟ وَإِنْ كَانَتِ الطِّينَةُ مَيِّتَةً فَلَا بَقَاءَ لِلْمَيِّتِ مَعَ الْأَرَلِيِّ الْقَدِيمِ، وَالْمَيِّتُ لَا يَجِيءُ مِنْهُ حَيٌّ^(٤). هَذِهِ مَقَالَةٌ الدِّيَّانِيَّةِ أَشَدُّ الزَّنَادِقَةِ قَوْلًا وَأَهْمَلِهِمْ^(٥) مَثَلًا، نَظَرُوا فِي كُتُبٍ قَدْ صَنَفَتْهَا أَوَائِلُهُمْ، وَحَبَّرُوهَا^(٦) لَهُمْ بِالْفَاطِطِ مُزْخَرَفَةٍ مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ ثَابِتٍ، وَلَا حُجَّةٍ تُوجِبُ إِثْبَاتَ مَا ادَّعَوْا، كُلُّ ذَلِكَ خِلَافًا عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رُسُلِهِ، وَتَكْذِيبًا^(٧) بِمَا جَاءُوا بِهِ عَنِ اللَّهِ.

فَأَمَّا مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْأَبْدَانَ ظُلُمَةٌ وَالْأَرْوَاحَ نُورٌ، وَأَنَّ النُّورَ لَا يَعْمَلُ الشَّرَّ وَالظُّلُمَةَ لَا تَعْمَلُ الْخَيْرَ، فَلَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُلُومُوا أَحَدًا عَلَى مَعْصِيَةٍ، وَلَا رُكُوبِ حُرْمَةٍ، وَلَا إِثْبَانِ فَاحِشَةٍ، وَإِنَّ ذَلِكَ عَلَى الظُّلُمَةِ غَيْرُ مُسْتَنَكِرٍ لِأَنَّ ذَلِكَ فِعْلُهَا، وَلَا لَهُ أَنْ يَدْعُو رَبًّا، وَلَا يَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ، لِأَنَّ النُّورَ رَبٌّ، وَالرَّبُّ لَا يَتَضَرَّعُ إِلَى نَفْسِهِ، وَلَا يَسْتَعِيدُ بغيرِهِ، وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ أَنْ يَقُولَ: أَحْسَنْتُ وَأَسَأْتُ^(٨)، لِأَنَّ الْإِسَاءَةَ مِنْ فِعْلِ الظُّلُمَةِ وَذَلِكَ فِعْلُهَا، وَالْإِحْسَانُ مِنَ النُّورِ^(٩)، وَلَا يَقُولُ النُّورُ لِنَفْسِهِ: أَحْسَنْتَ يَا مُحْسِنٌ، وَلَيْسَ هُنَاكَ ثَالِثٌ، فَكَانَتِ الظُّلُمَةُ عَلَى قِيَاسِ قَوْلِهِمْ أَحْكَمَ فِعْلًا وَأَتَقَنَ تَدْبِيرًا وَأَعَزَّ

١. يونس/١٨.

٢. ورد في الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٤٥، ضمن رواية؛ الفصول المهمة، ج ١، ص ١٣٢، ح ٣١.

٣. التفصي: التخلص، راجع تاج العروس.

٤. وفي نسخة: والميت لا يجي منه حي. (هامش المطبوع)

٥. في المصدر: «أهمهم».

٦. حبرت الشعر والكلام: حسنته، راجع لسان العرب.

٧. لم يرد في المصدر: «وتكذيباً».

٨. في المصدر: «أحسننت يا محسن أو أسأت».

٩. في الفصول: «الإحسان من فعل النور».

أَرْكَانًا مِنَ النُّورِ، لِأَنَّ الْأَبْدَانَ مُحْكَمَةٌ فَمَنْ صَوَّرَ هَذَا الْخَلْقَ صُورَةً وَاحِدَةً عَلَى نُعُوتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَكُلَّ شَيْءٍ يَرَى ظَاهِرًا مِنَ الظَّهِيرِ^(١)، وَالْأَشْجَارِ وَالشُّمَارِ وَالطَّيْرِ وَالدَّوَابِّ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ إِلَهَا، ثُمَّ حَبَسَتْ النُّورَ فِي حَبْسِهَا وَالدَّوْلَةَ لَهَا، وَمَا ادَّعَوْا بِأَنَّ الْعَاقِبَةَ سَوْفَ تَكُونُ لِلنُّورِ فَدَعَا، وَيَنْبَغِي عَلَى قِيَاسِ قَوْلِهِمْ أَنْ لَا يَكُونَ لِلنُّورِ فِعْلٌ لِأَنَّهُ أَسِيرٌ، وَلَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ فَلَا فِعْلَ لَهُ وَلَا تَدْبِيرَ، وَإِنْ كَانَ لَهُ مَعَ الظُّلْمَةِ تَدْبِيرٌ فَمَا هُوَ بِأَسِيرٍ بَلْ هُوَ مُطْلَقٌ عَزِيزٌ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ وَكَانَ أَسِيرَ الظُّلْمَةِ فَإِنَّهُ يَظْهَرُ فِي هَذَا الْعَالَمِ إِحْسَانٌ وَخَيْرٌ مَعَ فَسَادٍ وَشَرٍّ^(٢)، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الظُّلْمَةَ تُحْسِنُ الْخَيْرَ وَتَفْعَلُهُ كَمَا تُحْسِنُ الشَّرَّ وَتَفْعَلُهُ، فَإِنْ قَالُوا: مُحَالٌ ذَلِكَ، فَلَا نُورَ يُثَبِّتُ وَلَا ظُلْمَةَ، وَبَطَلَتْ دَعْوَاهُمْ وَيَرْجِعُ الْأَمْرُ إِلَى أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ وَمَا سِوَاهُ بَاطِلٌ، فَهَذِهِ مَقَالَةُ مَا نَبِي الرَّنْدِيقِيِّ وَأَصْحَابِهِ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: النُّورُ وَالظُّلْمَةُ بَيْنَهُمَا حَكَمٌ، فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ أَكْبَرُ الثَّلَاثَةِ الْحَكَمُ، لِأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الْحَاكِمِ إِلَّا مَغْلُوبٌ، أَوْ جَاهِلٌ أَوْ مَظْلُومٌ، وَهَذِهِ مَقَالَةُ الْمَدْقُونِيَّةِ^(٣) وَالْحِكَايَةُ عَنْهُمْ تَطُولُ.

قَالَ: فَمَا قِصَّةُ مَا نَبِي؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مُتَّفَحٌ أَخَذَ بَعْضُ الْمَجُوسِيَّةِ فَشَابَهَا^(٤) بِنِعْضِ النَّصْرَانِيَّةِ، فَأَخْطَأَ الْمَلَكَيْنِ وَلَمْ يُصِبْ مَذْهَبًا وَاحِدًا مِنْهُمَا، وَزَعَمَ أَنَّ الْعَالَمَ دُبَّرَ مِنْ إِلَهَيْنِ: نُورٍ وَظُلْمَةٍ، وَأَنَّ النُّورَ فِي حِصَارٍ مِنَ الظُّلْمَةِ، عَلَى مَا حَكَيْنَا مِنْهُ فَكَذَّبَتْهُ النَّصَارَى وَقَبِلَتْهُ الْمَجُوسُ؛ الْخَبَرُ.

توضيح وتحقيق:

اعلم أنه عليه السلام أشار في هذا الخبر إلى إبطال مذاهب ثلاث فرق من الشنوية، ولنحقق أصل مذاهبهم ليتضح ما أفاده عليه السلام في الرد عليهم.

الأول: مذهب الديصانيّة وهم أصحاب ديسان، وهم أثبتوا أصلين: نوراً وظلاماً، فالنور يفعل الخير قصداً واختياراً، والظلام يفعل الشرّ طبعاً واضطراً، فما كان من خير ونفع وطيب وحسن فمن النور، وما كان من شرّ وضرّ وتنن^(٥) وقبح فمن الظلام؛ وزعموا أنّ النور حيّ عالم قادر حسّاس درّاك، ومنه تكون الحركة والحياة؛ والظلام ميّت جاهل عاجز جماد موات، لا فعل لها ولا تمييز؛ وزعموا أنّ الشرّ يقع منه طبعاً؛ وزعموا أنّ النور جنس واحد، وكذلك الظلام جنس واحد، وأنّ إدراك النور إدراك متّفق، وأنّ سمعه وبصره هو حواسّه، وإنّما قيل: سميع بصير، لاختلاف التركيب لا لأنّهما في نفسيهما شيئان مختلفان.

١. في المصدر والفصول: «الزّهر».

٢. في المصدر: «وجامع فساد وشر».

٣. وفي نسخة: وهذه مقالة المرقويّة. (هامش المطبوع)، وفي المصدر: «هذه مقالة المانويّة».

٤. شاب الشيء: خلطه، راجع لسان العرب.

٥. التنن: الرائحة الكريهة، راجع لسان العرب.

وزعموا أنَّ اللون هو الطعم وهو الرائحة وهو المجسَّة^(١)، وإنَّما وجده لونا لأنَّ الظلمة خالطته ضرباً من المخالطة، ووجده طعماً لأنَّها خالطته بخلاف ذلك الضرب، وكذلك يقول في لون الظلمة وطعمها ورائحتها ومجسَّتها؛ وزعموا أنَّ النور بياض كَلِّه، وأنَّ الظلمة سواد كَلِّها؛ وزعموا أنَّ النور لم يزل يلقي الظلمة بأسفل صفيحة^(٢) منه، وأنَّ الظلمة لم تزل تلقاه بأعلى صفيحة منها.

واختلفوا في المزاج والخلاص، فزعم بعضهم أنَّ النور دخل الظلمة، والظلمة تلقاه بخشونة وغلظ فتأذَّى بها، وأحبَّ أن يرقَّقها ويلينها ثمَّ يتخلَّص منها، وليس ذلك لاختلاف جسمها، ولكن كما أنَّ المنشار جنسه حديد وصفيحته لينة وأسنانه خشنة، فاللين في النور والخشونة في الظلمة وهما جنس واحد، فيلطف النور بليته حتَّى يدخل فيما بين تلك الفرج فما أمكنه إلَّا بتلك الخشونة، فلا يتصوَّر الوصول إلى كمال ووجود إلَّا بلين وخشونة.

وقال بعضهم: بل الظلام لما احتال حتَّى تشبَّث بالنور من أسفل صفيحته ودرجه فاجتهد النور حتَّى يتخلَّص منه ويدفعها عن نفسه اعتمد عليه فلجج فيه^(٣)، وذلك بمنزلة الإنسان الذي يريد الخروج من وحل^(٤) وقع فيه فيعتمد على رجله ليخرج فيزداد لجوجاً فيه، فاحتاج النور إلى زمان ليعالج التخلَّص منه والتفرّد بعالمه.

وقال بعضهم: إنَّ النور إنَّما دخل الظلام اختياراً ليصلحها ويستخرج منه أجزاء صالحة لعالمه، فلمَّا دخل تشبَّث به زماناً فصار يفعل الجور والقبيح اضطراباً لا اختياراً ولو انفرد في عالمه ما كان يحصل منه إلَّا الخير المحض والحسن البحت^(٥)، وفرق بين الفعل الضروري وبين الفعل الاختياري.

الثاني: مذهب المانويَّة أصحاب ماني الحكيم^(٦) الذي ظهر في زمان سابور بن أردشير^(٧)، وذلك بعد عيسى عليه السلام، أخذ ديناً بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام. حكى محمد بن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق أنَّ الحكيم ماني زعم أنَّ العالم مصنوع مركَّب من أصلين قديمين: أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنَّهما أزلَّان لم يزا ولا ولن يزا، وأنكر وجود شيء لا من الأصل

١. الجسَّ: المس باليد، والمجسَّة: الموضع الذي يقع عليه يده إذا جسَّه، راجع لسان العرب.

٢. الصفيحة: وجه كلِّ شيء عريض، راجع لسان العرب.

٣. لجَّ في الأمر: تمادى عليه وأبى أن ينصرف عنه، راجع لسان العرب.

٤. الوحل بالتحريك: الطين الرقيق الذي ترتطم فيه الدواب، راجع لسان العرب.

٥. البَحْت: الخالص من كل شيء، راجع لسان العرب.

٦. نقول: لعل هذا اللقب كان مشهوراً له، لأنَّه صفة له، والعلامة المجلسي تبع المشهور كما أنَّ محمد بن هارون فيما يأتي، ذكره بهذه الصفة.

٧. سابور بن أردشير: ثاني ملوك الدولة الساسانية، راجع كامل التواريخ.

قديمًا، وزعم أنَّهما لم يزالا قويَّين، حسَّاسين، سميعين بصيرين، وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادَّان، والخير والشرَّ متحاذايان تحاذي الشخص، والظلُّ والنور جوهره حسن فاضل كريم صاف نقيّ، طيّب الريح، حسن المنظر، ونفسه خيِّرة كريمة حلّيمة نافعة عالمة، وفعله الخير والصالح والنفع والسرور والترتيب والنظام والاتِّفاق، وجهته فوق، وأكثرهم على أنَّه مرتفع من ناحية الشمال.

وزعم بعضهم: أنَّه بجانب الظلمة وأجناسه خمسة: أربعة منها أبدان، والخامسة روحها، فالأبدان: النار والريح والنور والماء، وروحها النسيم، وهي تتحرَّك في هذه الأبدان، وصفاته حسنة خيِّرة طاهرة زكيَّة. وقال بعضهم: كون النور لم يزل على مثال هذا العالم له أرض وجوٌّ، وأرض النور لم تزل لطيفة على غير صورة هذه الأرض بل على صورة جرم الشمس، وشعاعها كشعاع الشمس، ورائحتها طيِّبة أطيب رائحة، وألوانها ألوان قوس قزح^(١).

وقال بعضهم: ولا شيء إلاَّ الجسم، والأجسام على ثلاثة أنواع: أرض النور، وهي خمسة، وهناك جسم آخر أطف منه وهو الجوِّ، وهو نفس النور، وجسم آخر أطف منه وهو النسيم، وهو روح النور. قال: ولم يزل يوَلِّد ملائكة وآلهة أولياء ليس على سبيل المناكحة بل كما يتولَّد الحكمة من الحكيم، والنطق الطيّب من الناطق، وملك ذلك العالم هو روحه، ويجمع عالمه الخير والحمد والنور.

وأما الظلمة فجوهرها قبيح ناقص لثيم كدر خبيث منتن الريح قبيح المنظر، ونفسها شريرة لثيمة سفينة ضارّة جاهلة، وفعلها الشرّ والفساد، والضرر والغمّ والتشويش والاختلاف، وجهتها تحت، وأكثرهم على أنَّها منحطّة من جانب الجنوب.

وزعم بعضهم: أنَّها بجانب النور، وأجناسها خمسة: أربعة منها أبدان والخامسة روحها، فالأبدان هي الحريق والظلمة والسموم والضباب^(٢)، وروحها الدخان، وهو يتحرَّك في هذه الأبدان، وأما صفاتها فهي خبيثة شريرة نجسة دنسة.

وقال بعضهم: كون الظلمة لم يزل على مثال هذا العالم له أرض وجوٌّ، فأرض الظلمة لم تزل كثيفة على غير صورة هذه الأرض بل هي أكثف وأصلب، ورائحتها كريهة أنتن الروائح وألوانها السواد. وقال بعضهم: ولا شيء إلاَّ الجسم، والأجسام على ثلاثة أنواع: أرض الظلمة، وجسم آخر أظلم منه وهو الدخان، وجسم آخر أظلم منه وهو السموم، وقال: ولم يزل تولِّد الظلمة شياطين وعفاريت لا على سبيل المناكحة بل كما يتولَّد الحشرات من العفونات القذرة، قال: وملك ذلك العالم هو روحه، ويجمع عالمه الشرّ والذميمة والظلمة.

١. قوس قُزَح: التي تبدو أيَّام المطر بحمرة وخضرة وصفرة، راجع شمس العلوم.

٢. الضباب: الندى يغشى الأرض كالغبار، أو سحب رقيق كالدخان، واحدته ضبابة، راجع شمس العلوم وكتاب الماء.

ثم اختلفت المانويّة في المزاج وسببه، والخلاص وسببه؛ قال بعضهم: إنّ النور والظلام امتزجا بالخبط^(١) والاتّفاق لا بالقصد والاختيار، وقال أكثرهم: إنّ سبب الامتزاج أنّ أبدان الظلمة تشاغل عن روحها بعض التشاغل فنظرت الروح فرأت الأبدان على ممازجة النور، فأجابتها لإسراعها إلى الشرّ، فلمّا رأى ذلك ملك النور وجهه إليها ملكاً من ملائكته في خمسة أجزاء من أجناسها الخمسة، فاختلطت الخمسة النوريّة بالخمسة الظلاميّة؛ فخالط الدخان النسيم، وإنّما الحياة والروح في هذا العالم من النسيم، والهلاك والآفات من الدخان، وخالط الحريق النار، والنور الظلمة، والسموم الريح، والضباب الماء، فما في العالم من منفعة وخير وبركة فمن أجناس النور، وما فيه من مضرة وشرّ وفساد فمن أجناس الظلمة، فلمّا رأى ملك النور هذه الامتزاج أمر ملكاً من ملائكته فخلق هذا العالم على هذه الهيئة ليخلص أجناس النور من أجناس الظلمة، وإنّما سارت الشمس والنجوم والقمر لاستصفاء أجزاء النور من أجزاء الظلمة. هذا ما ذكر الشهرستاني^(٢) من تحقيق مذهبهم مع خرافات آخر نقلها عنهم.

وقال ابن أبي الحديد: قالت المانويّة: إنّ النور لا نهاية له من جهة فوق، وأمّا من جهة تحت فله نهاية؛ والظلمة لا نهاية لها من جهة أسفل، وأمّا من جهة فوق فلها نهاية؛ وكان النور والظلمة هكذا قبل خلق العالم وبينهما فرجة، وإنّ بعض أجزاء النور اقتحم تلك الفرجة لينظر إلى الظلمة فأشرقت الظلمة فأقبل عالم كثير من النور فجاءت الظلمة ليستخلص المأمورين من تلك الأجزاء^(٣)، وطالت الحرب واختلط كثير من أجزاء النور بكثير من أجزاء الظلمة، فاقتضى حكمة نور الأنوار وهو الباري سبحانه عندهم أن عمل الأرض من لحوم القتلى، والجبال من عظامهم، والبحار من صديدهم^(٤) ودمائهم، والسماء من جلودهم، وخلق الشمس والقمر وسيّرهما لاستصفاء ما في العالم من أجزاء النور المختلطة بأجزاء الظلمة، وجعل حول العالم خندقاً خارج الفلك الأعلى يطرح فيه الظلام المستصفى، فهو لا يزال يزد ويتضاعف ويكثر في ذلك الخندق وهو ظلام صرف قد استصفى نوره.

وأما النور المستخلص فيلحق بعد الاستصفاء بعالم الأنوار فلا تزال الأفلاك متحركة والعالم مستمرّاً إلى أن يتمّ استصفاء النور الممتزج، وحينئذ يبقى من النور الممتزج شيء منعقد باطل لا تقدر النيران على استصفائه، فعند ذلك تسقط الأجسام العالية - وهي الأفلاك - على الأجسام السافلة - وهي الأرضون -

١. الخبط: الضرب الشديد، وفلان يخط في عمياء: إذا ركب ما ركب بجهالة، راجع تاج العروس.

٢. راجع الملل والنحل (لشهرستاني)، ج ١، ص ٢٩٢.

٣. وفي نسخة: ليتخلص المأمورين من تلك الأجزاء. (هامش المطبوع)

٤. الصديد: الدم المختلط بالقيح، راجع لسان العرب.

وتفوق نار تضطرم^(١) في تلك الأسافل وهي المسمّاة بجهنّم، ويكون الاضطرام مقدار ألف وأربعمائة سنة، فتحلّل بتلك النار تلك الأجزاء المنعقدة من النور الممتزجة بأجزاء الظلمة التي عجز الشمس والقمر عن استصفائها فيرتفع إلى عالم الأنوار ويبطل حينئذ، ويعود النور كلّ إلى حالة الأولى قبل الامتزاج وكذلك الظلمة^(٢).

الثالث: المرقبيّة أثبتوا أصلين متضادّين: أحدهما النور، والثاني الظلمة، وأثبتوا أصلاً ثالثاً هو المعدّل الجامع وهو سبب المزاج، فإنّ المتنافرين المتضادّين لا يمتزجان إلّا بجامع، وقالوا: الجامع دون النور في الرتبة وفوق الظلمة، وحصل من الاجتماع والامتزاج هذا العالم.

ومنهم من يقول: الامتزاج إنّما يحصل بين الظلمة والمعدّل، إذ هو قريب منها فامتزج به ليتطّيب به ويلتدّ ملاذّه، فبعث النور إلى العالم الممتزج روحاً مسيحيّة وهو روح الله وابنه تحنّناً على المعدّل السليم الواقع في شبكة الظلام الرجيم حتى يخلّصه من حبائل الشياطين، فمن اتّبعه فلم يلامس النساء ولم يقرب الزهومات^(٣) أفلت ونجا، ومن خالفه خسر وهلك. قالوا: وإنّما أثبتنا المعدّل لأنّ النور الذي هو الله تعالى لا تجوز عليه مخالطة الشيطان، فإنّ الضدّين يتنافران طبعاً، ويتمانعان ذاتاً ونفساً فكيف يجوز اجتماعهما وامتزاجهما؟ فلا بدّ من معدّل تكون منزلته دون النور وفوق الظلام فيقع المزاج معه. كذا ذكره الشهرستاني^(٤).

وقال ابن أبي الحديد: قول المجوس هو أنّ الغرض من خلق العالم أن يتحصّن الخالق جلّ اسمه من العدو^(٥)، وأن يجعل العالم شبكة له ليقع العدوّ فيه، ويجعله في ربط ووثاق. والعدوّ عندهم هو الشيطان، وبعضهم يعتقد قدمه وبعضهم حدوثة.

قال قوم منهم: إنّ الباري عزّ وجلّ استوحش ففكر فكرة رديّة، فتولّد منها الشيطان. وقال آخرون: بل شكّ شكّاً رديّاً، فتولّد الشيطان من شكّه. وقال آخرون: بل تولّد من عفونة رديّة قديمة.

وزعموا أنّ الشيطان حارب الباري سبحانه، وكان في الظلمة لم يزل بعيداً عن سلطان الباري سبحانه فلم يزل يزحف حتّى رأى النور فوثب وثبة عظيمة فصار في سلطان الله تعالى في النور، وأدخل معه البلايا والشرور، فبنى الله سبحانه هذه الأفلاك والأرض والعناصر شبكة له، وهو فيها محبوس لا يمكنه الرجوع

١. اضطرمت: اشتعلت و التهمت، راجع لسان العرب.

٢. شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد)، ج ٥، ص ١٦٢.

٣. الزهومة: الريح المنتنة، راجع لسان العرب.

٤. الملل والنحل (للشهرستاني)، ج ١، ص ٢٩٨.

٥. وفي نسخة: أن ينحصر الخالق جل اسمه من العدو. (هامش المطبوع)

إلى سلطانه الأول، والظلمة فهو أبداً يضطرب ويرمي الآفات على خلق الله سبحانه، فمن أحياء الله رماه الشيطان بالموت، ومن أصحّ رماه الشيطان بالسقم، ومن سرّه رماه الشيطان بالحزن والكآبة^(١) فلا يزال كذلك، وكلّ يوم ينتقص سلطانه وقوّته لأنّ الله تعالى يحتال له كلّ يوم ويضعفه إلى أن تذهب قوّته كلّها، ويخمد^(٢) ويصير جماداً جامداً هوائياً، ويجمع الله تعالى أهل الأديان فيعذبهم بقدر ما يطهرهم ويصفّيهم من طاعة الشيطان، ويغسلهم من الأدناس ثمّ يدخلهم الجنّة، وهي لا أكل فيها ولا شرب ولا تمتّع، ولكنها موضع لذّة وسرور.^(٣)

أقول:

لما عرفت هذه المذاهب السخيفة المزخرفة التي يغني تقريرها عن التعرّض لإبطالها وتزييفها^(٤) فلنرجع إلى توضيح الخبر.

فنقول: يظهر من كلامه عليه السلام أنّ الديصانيّة قالوا: بقدّم الطينة أي الظلمة، وبحدوث الامتزاج، ويحتمل أن يكون إشارة إلى ما نسبته الشهرستاني إلى الزروانيّة حيث قال: زعم بعضهم أنّه كان لم يزل مع الله شيء رديّ إمّا فكرة رديّة، وإمّا عفونة رديّة، وذلك هو مصدر الشيطان، وزعموا أنّ الدنيا كانت سليمة من الشرور والآفات، وكان أهلها في خير محض ونعيم خالص، فلما حدث أهر من حدثت الشرور والآفات والفتن^(٥)، وكان بمعزل من السماء فاحتال حتّى خرق السماء وصعد^(٦).

ثمّ إنّ استدلاله عليه السلام على إبطال مذهبهم بوجهين: الأوّل: أنّ قولكم: إنّ الله تعالى كان لم يزل متأدياً من تلك الطينة ولم يستطع التفصّي منها يستلزم عجزه تعالى، والعجز نقص يحكم العقل ببراءة صانع مثل هذا النظام عنه، وأيضاً يوجب الاحتياج إلى من يرفع ويدفع ذلك عنه، وهو ينافي وجوب الوجود الذي قام البرهان على اتّصاف الصانع تعالى به.

والثاني: أنّه لا يخلو إمّا أن تكون تلك الطينة الأزليّة حيّة عالمة قادرة، فيكون كلّ منهما إلهاً واجباً بالذات، لما قد ثبت بالعقل والنقل أنّ الممكن لا يكون قديماً، فإذا حصل العالم من امتزاجها فلا يجوز على شيء من أجزاء العالم الموت والفناء، إذ انتفاء المركّب إنّما يكون بانتفاء أحد أجزائه والجزءان هنا قديمان. ويحتمل أن

١. الكآبة: الغمّ وسوء الحال، راجع القاموس المحيط.

٢. خدمت النار: سكن لهما، راجع لسان العرب.

٣. شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد)، ج ٥، ص ١٦٠.

٤. التزييف: الردّ والإبطال، راجع تاج العروس.

٥. وفي نسخة: والآفات والمحن. (هامش المطبوع)

٦. الملل والنحل (للشهرستاني)، ج ١، ص ٢٨٠.

يكون هذا إلزاماً عليهم حيث أثبتوا الظلمة وجعلوها ميتة جاهلة عاجزة جماداً لينسبوا إليها الموت والفناء، زعماً منهم أن مثل هذه الأمور لا يصدر عن النور الحيّ العالم القادر، وإما أن تكون ميتة أي عادمة للقدرة والعلم والإرادة، وهذا محال إذ القدم يستلزم وجوب الوجود، وهو يستلزم الاتّصاف بالعلم والقدرة وسائر الكمالات، وإليه أشار عليه السلام بقوله: «فلا بقاء للميت مع الأزليّ القديم». ثمّ أبطل عليه السلام ذلك بوجه آخر، وهو أنّهم ينسبون خلق الموزيات كالحيات والعقارب والسباع إلى الظلمة، ولو كانت ميتة لا يجوز نسبة خلقها إليها، إذ العقل يحكم بديهة أنّه يجب أن يكون الصانع أشرف من المصنوع من جميع الجهات، وكيف يفيض الحياة والعلم والقدرة ممّن لم يكن له حظّ منها؟!

وأما المانويّة فيظهر من كلامه عليه السلام في تقرير مذهبهم غير ما مرّ من نقل الناقلين لمذهبهم ولا عبرة بنقلهم، فإنّهم كثيراً ما ينسبون أشياء إلى جماعة من الشيعة وغيرهم ممّا قد نعلم خلافها، مع أنّه يحتمل أن يكون كلامهم مرموزاً وعلم عليه السلام أنّ مرادهم بالنور الروح، وبالظلمة الجسد، والنور هو الربّ تعالى. ويؤيّد أنّه كان الملعون نصرانيّاً ومذهب النصاريّ في المسيح عليه السلام قريب من ذلك، ويحتمل أن يكون ما ذكره عليه السلام مذهباً لجماعة من قدمائهم، ثمّ غيروه إلى ما نقل عنهم؛ وكون النور أسيراً للظلمة يحتمل أن يكون كناية عن عدم استقلاله في التدبير ومعارضة أهر من له في كثير ممّا يريده. وقد استدللّ عليه السلام على بطلان مذهبهم بوجوه:

الأوّل: أن لا يكون الناس قادرين على ترك الشرور والمساوي والمعاصي لأنّها من فعل الجسد الذي هو الظلمة، ولا يتأتّى منه الخير، ولا يستحقّ أحد الملامة على الشرّ لكونه مجبوراً عليه، وقد نراهم يلومون الناس على الشرور والمساوي، فهذا دليل على بطلان مذهبهم.

الثاني: أنّهم يستحسنون التضرّع إلى الربّ تعالى وعبادته والاستعانة به، وأمثال تلك الأعمال فعل الروح الذي هو الربّ بزعمهم، فكيف يعبد نفسه ويستعين بنفسه ويتضرّع إليها؟! وإن قالوا: إنّّه يتضرّع إلى الظلمة، فكيف يليق بالربّ أن يستعيز بغيره؟

الثالث: أنّه يلزم أن لا يجوز أن يقول أحد لأحد: أحسنت ولا أسأت، وهذا باطل اتّفاقاً وبديهة؛ وأمّا بيان الملازمة فلأنّ الحاكم بذلك إمّا النور أو الظلمة، إذ المفروض أنّه لا شيء غيرهما. وكلاهما باطلان: أمّا الأوّل فلأنّ الظاهر من هذا الكلام المغايرة بين المادح والممدوح والمفروض اتّحادهما، ويحتمل أن يكون هذا منبّهاً على ما يحكم به العقل بديهة من المغايرة بين الأشخاص، مع أنّهم يقولون: بأنّ أرواح جميع الخلق شخص واحد هو النور وهو الربّ تعالى، وهذا قريب من الوحدة التي قالت به الصوفيّة. وأمّا الثاني فلأنّ الظلمة فعلها الإساءة وتعدّها حسنة، فكيف تحكم بقبحها؟!

ويمكن تقرير الملازمة بوجه آخر بأن يقال: ظاهر أنّ التحسين والتشجيع من فعل النور، ولا يتصوّر منه

شيء منهما لأنّ المخاطب في «أسأت» هو الظلمة، وهو مجبور على فعل القبيح بزعمهم، فلا يستحقّ اللوم، وهو المراد بقوله عليه السلام: «وذلك فعلها»، والمخاطب في «أحسنّت» هو النور لأنّ الحسن فعله، فيتحدّ المادح والممدوح.

الرابع: أنّهم يحكمون بأنّ النور هو الربّ تعالى، ويجب على هذا أن يكون أقوى وأحكم وأتقن من الظلمة التي هي مخلوقة، ويلزمهم بمقتضى أقوالهم الفاسدة عكس ذلك لأنّ الأبدان عندهم من فعل الظلمة، ولا نحكم بقدرة الربّ وعلمه وحكمته إلّا بما نشاهد من تلك الأبدان المختلفة، والأشجار والثمار، والطيور والدوابّ، ولا نشاهد ممّا يقولون من الأرواح شيئاً؛ فيلزمهم على قياس ذلك أن تكون الظلمة إلهاً قادراً حكيماً عليمًا. فقوله عليه السلام: «(من صوّر) مبتدأ وقوله: «يجب أن يكون إلهاً» خبره، وقوله عليه السلام: «كلّ شيء» معطوف على قوله: «هذا الخلق».

الخامس: قولهم: بأنّ النور في حبس الظلمة ينافي القول بربوبيّته، لأنّ كونه محبوساً يستلزم عجزه ونقصه، وكلّ منهما ينافي الربوبيّة كما مرّ، وما ادّعوا من أنّه في القيامة يغلب النور عليها فمع أنّه لا ينفع في دفع الفساد فهو دعوى من غير حجة. وأيضاً يلزمهم أن لا يكون للنور فعل لأنّه أسير، وإن قالوا: بأنّ له أيضاً فعلاً من الخلق والتدبير فليس بأسير لأنّ العقل يحكم بأنّ الخالق المدبّر لا بدّ من أن يكون عزيزاً منيعاً قادراً قاهراً على كلّ من سواه، فلمّا ثبت على قياس قولهم أنّه أسير فيلزمهم بما قرّرنا أن يكون ما في العالم من الإحسان والخير أيضاً من فعل الظلمة، فإن حكموا باستحالة ذلك أي كون الخير من الظلمة فقد بطل أصل كلامهم، وهو الحكم بتوزيع الخلق، وثبت ما قلناه: من أنّ الربّ تعالى واحد لا يشاركه ولا يضاده في ملكه أحد.

وأما مذهب المرقبيّة فقد بيّن عليه السلام بطلانه بأنّ القول بالحكم ينافي القول بربوبيّة النور، لأنّ الحكم يكون قاهراً والنور مقهوراً، وبديهة العقل حاكمة بطلان كون الربّ مقهوراً. وأيضاً يلزم أن يكون الحكم أعلم بالحكمة من النور الذي حكمت أنّه ربّ، والضرورة قاضية بأنّ الربّ الخالق لمثل هذا الخلق المدبّر لهذا النظام لا يكون جاهلاً.

هذا جملة القول في هذا الخبر على ما ناله فهمي القاصر، وبسط القول فيه يحتاج إلى كتاب مفرد معمول لذلك، والله الموفق لكلّ خير.

١٢١٦. تفسير القمي^(١): ثُمَّ رَدَّ عَلَى الشَّوَيْيَةِ - الَّذِينَ قَالُوا بِإِلَهَيْنِ - فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٢) قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَوْ كَانَ إِلَهَيْنِ كَمَا زَعَمْتُمْ لَكُنَا

١. تفسير القمي، ج ٢، ص ٩٣؛ تفسير البرهان، ج ٤، ص ٣٢، ح ٧٥١٦.

٢. المؤمنون/٩١.

يَخْلُقَانِ، فَيَخْلُقُ هَذَا وَلَا يَخْلُقُ هَذَا، وَيُرِيدُ هَذَا وَلَا يُرِيدُ هَذَا، وَلَطَلَبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الْغَلْبَةَ، وَإِذَا أَرَادَ أَحَدُهُمَا خَلْقَ إِنْسَانٍ وَأَرَادَ الْآخَرُ خَلْقَ بَهِيمَةٍ فَيَكُونُ إِنْسَانًا وَبَهِيمَةً فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ وَهَذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ، فَلَمَّا بَطَلَ هَذَا ثَبَتَ التَّدْيِيرُ وَالصُّنْعُ لَوَاحِدٍ، وَدَلَّ أَيْضًا التَّدْيِيرُ وَثَبَاتُهُ وَقَوَامُ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ عَلَى أَنَّ الصَّانِعَ وَاحِدٌ جَلَّ جَلَالُهُ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ الآية: ثُمَّ قَالَ أَنْفَا: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾^(١).

بيان:

«أنفأ» - بالتحريك - أي استنكافاً وتنزهاً.

١٢١٧. التوحيد، معاني الأخبار^(٢): الدَّقَاقُ، عَنِ الْكُلَيْبِيِّ، عَنْ عَلَّانٍ، عَنْ سَهْلٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ وَلِيدٍ، - وَلَقَبَهُ شَبَابُ الصَّيْرِفِيِّ - عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْقَاسِمِ الْجَعْفَرِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: جُعِلْتُ فِدَاكَ، مَا الصَّمَدُ؟ قَالَ: السَّيِّدُ الْمَصْمُودُ إِلَيْهِ^(٣) فِي الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ.

١٢١٨. التوحيد^(٤): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْعَطَّارِ، عَنِ الْأَشْعَرِيِّ، عَنِ الْمِثْمِيِّ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَحْيَى^(٥)، عَنْ أَبِي أَيُّوبَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: إِنَّ الْيَهُودَ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صلّى الله عليه وآله فَقَالُوا: انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ، فَلَبِثَ ثَلَاثًا لَا يُجِيبُهُمْ، ثُمَّ نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ إِلَى آخِرِهَا^(٦)، فَقُلْتُ مَا الصَّمَدُ؟ فَقَالَ صلّى الله عليه وآله: الَّذِي لَيْسَ بِمُجَوِّفٍ.

١٢١٩. التوحيد^(٧): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى، عَنْ يُونُسَ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ أَبِي السَّرِيِّ^(٨)، عَنْ جَابِرِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ شَيْءٍ مِنَ التَّوْحِيدِ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ الَّتِي يُدْعَى بِهَا، وَتَعَالَى فِي عُلُوِّ كُنْهِهِ، وَاحِدٌ^(٩) تَوَحَّدَ بِالتَّوْحِيدِ فِي عُلُوِّ تَوْحِيدِهِ^(١٠)، ثُمَّ أَجْرَاهُ عَلَى خَلْقِهِ فَهُوَ وَاحِدٌ صَمَدٌ قُدُّوسٌ، يَعْبُدُهُ كُلُّ شَيْءٍ، وَيَصْمَدُ إِلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ^(١١)، وَوَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا.

١. المؤمنون/٩١.

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٩٤، ح ١٠؛ معاني الأخبار، ص ٦، ح ٢؛ الكافي، ج ١، باب تأويل الصمد، ص ١٢٣، ح ١.

٣. صمد إليه: قصده، راجع لسان العرب.

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ٩٣، ح ٨؛ الكافي، ج ١، باب النسبة، ص ٩١، ح ١.

٥. في الكافي: «أحمد بن إدريس، عن محمد بن عبد الجبار، عن صفوان بن يحيى، ...».

٦. قد تمت الرواية في الكافي بهذه العبارة: «ثم نزلت قل هو الله أحد إلى آخرها».

٧. التوحيد (للصدوق)، ص ٩٣، ح ٩؛ المحاسن، ج ١، ص ٢٤١، ح ٢٦٦؛ الكافي، ج ١، باب تأويل الصمد، ص ١٢٣، ح ٢.

٨. في المحاسن والكافي: «البرقي، عن ابن عيسى، عن يونس، عن الحسن بن السري، ...».

٩. في المحاسن: «أحد».

١٠. وفي نسخة: في علو توحده. (هامش المطبوع)، وفي المحاسن والكافي: «أحد توحّد بالتوحيد في توحّده».

١١. في المحاسن مع زيادة: «وفوق الذي عيننا تبلغ».

إيضاح:

«واحد» خبر «إن»، والجملتان معترضان، أي تطهرت أسماؤه عن النقائص، أو كثرت صفات جلاله وعظمته، أو ثبت ولا يعتريها التغير، وكلمة «في» في قوله عليه السلام: «في علو كنهه» تعليلية. وقوله عليه السلام: «توحد بالتوحيد» أي لم يكن في الأزل أحد يوحدّه، فهو كان يوحد نفسه فكان متفرداً بالوجود، متوحداً بتوحيد نفسه، ثم بعد الخلق عرفهم نفسه، وأمرهم أن يوحدوه، أو المراد أن توحدّه لا يشبه توحد غيره، فهو متفرد بالتوحيد^(١)، أو كان قبل الخلق كذلك، وأجرى سائر أنواع التوحيد على خلقه، إذ الوحدة تساوق الوجود أو تستلزمه لكن وحداتهم مشوبة بأنواع الكثرة.

١٢٢٠. التوحيد^(٢): ابن الوليد، عن الصّغار، عن ابن عيسى، عن علي بن سيف بن عميرة، عن محمد بن عبيد قال: دخلت على الرضا عليه السلام فقال لي: قل للعباسي^(٣) يكف عن الكلام في التوحيد وغيره، ويكلم الناس بما يعرفون، ويكف عما ينكرون، وإذا سألك عن التوحيد فقل: كما قال الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٤)، وإذا سألك عن الكيفية فقل: كما قال الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٥)، وإذا سألك عن السمع فقل: كما قال الله عز وجل: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٦)، كَلِّمِ النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ.

١٢٢١. التوحيد^(٧): حدثنا أبو محمد جعفر بن علي بن أحمد الفقيه القمي ثم الإيلاقي «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» قال: حدثنا أبو سعيد عبدان بن الفضل، قال: حدثني أبو الحسن محمد بن يعقوب بن محمد بن يوسف بن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بمدينة خجندة^(٨)، قال: حدثني أبو بكر محمد بن أحمد بن شجاع الفرغاني، قال: حدثني أبو محمد الحسن بن حماد القبري بمصر^(٩)، قال: حدثني إسماعيل بن عبد الجليل البرقي، عن أبي البخترى وهب بن وهب القرشي، عن أبي عبد الله الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي الباقر عليه السلام.

١. وفي نسخة: فهو متفرد بالتوحيد. (هامش المطبوع)

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٩٥، ح ١٤؛ إثبات الهداة، ج ١، ص ٨٢، ح ٢٠.

٣. العباسي لقب جمع كثير مشترك بين الثقة والضعيف منهم إبراهيم بن هاشم، وهشام بن إبراهيم الراشدي الهمداني، وهشام بن إبراهيم البغدادي المشرقي وغيرهم، والظاهر من الوحيد البهبهاني أن الواقع في الحديث هو المشرقي، وأنه ثقة. (هامش المطبوع)

٤. الإخلاص / ١-٤.

٥. الشورى / ١١.

٦. البقرة / ١٣٧.

٧. التوحيد (للصدوق)، ص ٨٨، ح ١؛ تفسير البرهان، ج ٥، ص ٨٠٢، ح ١٢٠٢٦.

٨. خجندة: بلدة مشهورة بما وراء النهر على شاطئ سيحون، راجع معجم البلدان.

٩. في المصدر: «أبو الحسن محمد بن حماد العنبري بمصر»، وفي البرهان: «أبو محمد الحسن بن محمد الحسن بن محمد بن حماد العنبري بمصر».

فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١) قَالَ: ﴿قُلْ﴾ أَيْ أَظْهَرُ مَا أُوحِيَنا إِلَيْكَ وَتَبَيَّنَاكَ^(٢) بِهِ بِتَأْلِيفِ الْحُرُوفِ الَّتِي قَرَأْنَاهَا لَكَ، لِيَهْتَدِيَ بِهَا مَنْ ﴿أَلْفَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾^(٣) وَ﴿هُوَ﴾ اسْمُ مُشَارٍ وَمَكْنِيٍّ^(٤) إِلَى غَائِبٍ، فَالْهَاءُ تَنْبِيهُ عَنْ مَعْنَى ثَابِتٍ، وَالْوَاوُ إِشَارَةٌ إِلَى الْغَائِبِ عَنِ الْحَوَاسِّ كَمَا أَنَّ قَوْلَكَ: هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى الشَّاهِدِ عِنْدَ الْحَوَاسِّ، وَذَلِكَ أَنَّ الْكُفَّارَ نَبَّهُوا عَنْ آلِهَتِهِمْ بِحَرْفِ إِشَارَةِ الشَّاهِدِ الْمُذْرِكِ، فَقَالُوا: هَذِهِ آلِهَتُنَا الْمُحْسُوسَةُ الْمُذْرَكَةُ بِالْأَبْصَارِ فَاشِيرٌ أَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي تَدْعُو إِلَيْهِ حَتَّى نَرَاهُ وَنُذْرِكُهُ وَلَا تَأَلَّهُ^(٥) فِيهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَالْهَاءُ تَثْبِيْتُ لِلثَّابِتِ، وَالْوَاوُ إِشَارَةٌ إِلَى الْغَائِبِ عَنْ دَرْكِ الْأَبْصَارِ وَلَمَسِ الْحَوَاسِّ، وَاللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ^(٦) بَلْ هُوَ مُذْرِكُ الْأَبْصَارِ وَمُبْدِعُ الْحَوَاسِّ.

حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: رَأَيْتُ الْخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْمَنَامِ قَبْلَ بَدْرِ بَلِيلَةٍ، فَقُلْتُ لَهُ: عَلَّمَنِي شَيْئًا أَنْصُرَ بِهِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، فَقَالَ: قُلْ: يَا هُوَ يَا مَنْ لَا هُوَ إِلَّا هُوَ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ قَصَصْتُهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي: يَا عَلِيُّ عَلَّمْتُكَ الْإِسْمَ الْأَعْظَمَ؛ وَكَانَ عَلَى لِسَانِي يَوْمَ بَدْرِ. وَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٧)، فَلَمَّا فَرَعَ قَالَ: يَا هُوَ يَا مَنْ لَا هُوَ إِلَّا هُوَ اغْفِرْ لِي وَأَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.

وَكَانَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ ذَلِكَ يَوْمَ صِفِّينَ وَهُوَ يُطَارِدُ^(٨)، فَقَالَ لَهُ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا هَذِهِ الْكِنَايَاتُ؟ قَالَ: اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمَ، وَعِمَادُ التَّوْحِيدِ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾^(٩) وَأَوَّخَرَ الْحَشْرَ، ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ قَبْلَ الزَّوَالِ.

قَالَ: وَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اللَّهُ مَعْنَاهُ الْمَعْبُودُ الَّذِي يَأَلُّهُ فِيهِ الْخَلْقُ^(١٠)، وَيُؤَلُّهُ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْمَسْتُورُ عَنْ دَرْكِ الْأَبْصَارِ، الْمَحْجُوبُ عَنِ الْأَوْهَامِ وَالْخَطَرَاتِ.

قَالَ الْبَاقِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اللَّهُ مَعْنَاهُ الْمَعْبُودُ الَّذِي إِلَهُ الْخَلْقِ عَنْ دَرْكِ مَا يَتَّبِعُهُ^(١١) وَالْإِحَاطَةَ بِكَيْفِيَّتِهِ، وَيَقُولُ الْعَرَبُ: إِلَهُ الرَّجُلِ

١. الإخلاص / ١.

٢. في البرهان: «بعثناك».

٣. ق / ٣٧.

٤. في المصدر والبرهان: «مكنِّي مشار».

٥. أله يألوه: إذا تحيّر، راجع لسان العرب.

٦. وفي نسخة: وأنه تعالى عن ذلك. (هامش المطبوع)

٧. وفي نسخة: قرأ يوم بدر ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. (هامش المطبوع)

٨. طارد قرنه: حمل أحدهما على صاحبه وقتله، راجع الطراز الأول.

٩. آل عمران / ١٨.

١٠. وفي نسخة: تأله فيه الخلق. (هامش المطبوع)

١١. في التوحيد: «ماهيته».

إِذَا تَحَبَّرَ فِي الشَّيْءِ فَلَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمًا، وَوَلَهُ إِذَا فَرَعَ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا يَحْذَرُهُ وَيَخَافُهُ، فَلَا إِلَهَ هُوَ الْمُسْتَوْرُ عَنْ حَوَاسِّ الْخَلْقِ.

قَالَ الْبَاقِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْأَحَدُ الْفَرْدُ الْمُتَفَرَّدُ، وَالْأَحَدُ وَالْوَاحِدُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ^(١) وَهُوَ الْمُتَفَرَّدُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ، وَالتَّوْحِيدُ الْإِفْرَاقُ بِالْوَحْدَةِ وَهُوَ الْإِفْرَادُ، وَالْوَاحِدُ الْمُتَبَايِنُ الَّذِي لَا يَنْبُعْثُ مِنْ شَيْءٍ، وَلَا يَتَّحِدُ بِشَيْءٍ، وَمِنْ ثَمَّ قَالُوا: إِنَّ بِنَاءَ الْعَدَدِ مِنَ الْوَاحِدِ، وَلَيْسَ الْوَاحِدُ مِنَ الْعَدَدِ، لِأَنَّ الْعَدَدَ لَا يَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ بَلْ يَقَعُ عَلَى الْإِثْنَيْنِ، فَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أَيِ الْمَعْبُودِ الَّذِي يَأَلُّهُ الْخَلْقُ عَنْ إِدْرَاكِهِ وَالْإِحَاطَةِ بِكَيْفِيَّتِهِ، فَرُدُّ بِالْهَيْئَةِ، مُتَعَالٍ عَنْ صِفَاتِ خَلْقِهِ.

قَالَ الْبَاقِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَحَدَّثَنِي أَبِي زَيْنُ الْعَابِدِينَ، عَنْ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: الصَّمَدُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ، وَالصَّمَدُ الَّذِي قَدْ انْتَهَى سُودُهُ^(٢)، وَالصَّمَدُ الَّذِي لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ، وَالصَّمَدُ الَّذِي لَا يَنَامُ، وَالصَّمَدُ الدَّائِمُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ.

قَالَ الْبَاقِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَانَ مُحَمَّدٌ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» يَقُولُ^(٣): الصَّمَدُ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ الْغَنِيُّ عَنْ غَيْرِهِ، وَقَالَ غَيْرُهُ: الصَّمَدُ الْمُتَعَالِي عَنِ الْكَوْنِ وَالْفَسَادِ، وَالصَّمَدُ الَّذِي لَا يُوصَفُ بِالتَّغَايُرِ.

قَالَ الْبَاقِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الصَّمَدُ السَّيِّدُ الْمُطَاعُ الَّذِي لَيْسَ قَوْقُهُ أَمْرٌ وَنَاهٍ.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَسُئِلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ زَيْنُ الْعَابِدِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ «الصَّمَدِ» فَقَالَ: الصَّمَدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا يُؤْوَدُهُ حِفْظُ شَيْءٍ، وَلَا يَعْزُبُ^(٤) عَنْهُ شَيْءٌ^(٥).

١٢٢٢. قَالَ وَهْبُ بْنُ وَهْبٍ الْقُرَشِيُّ^(٦): قَالَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الصَّمَدُ الَّذِي إِذَا أَرَادَ شَيْئًا قَالَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ، وَالصَّمَدُ الَّذِي أَبَدَعَ الْأَشْيَاءَ فَخَلَقَهَا أَضْدَادًا وَأَشْكَالًا وَأَرْوَاجًا، وَتَفَرَّدَ بِالْوَحْدَةِ بِلَا ضِدٍّ وَلَا شَكْلٍ وَلَا مِثْلٍ وَلَا نِدٍّ.

١٢٢٣. قَالَ وَهْبُ بْنُ وَهْبٍ الْقُرَشِيُّ^(٧): وَحَدَّثَنِي الصَّادِقُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ الْبَاقِرِ، عَنْ أَبِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ أَهْلَ

١. لعل المراد أنَّ الأحد والواحد اللذان يتصف بهما الله تعالى معناهما واحد، لا مطلقهما حيث يستعمل. أو أنَّ الواحد الذي يستعمل في غير

باب الأعداد والأجناس مترادف مع الأحد في المعنى. كما تقدّم تفصيل ذلك في الحديث الأول فتأمل. (هامش المطبوع)

٢. السُّودُ: هو المجد والشرف، راجع مجمع البحرين.

٣. **فَقَوْلُ:** نظرًا إلى بعض القرائن مثل ما ورد في الحديث الآخر من هذا الباب، لا يبعد أخذ هذه المعاني عن المعصوم ولذا ذكرها العلامة المجلسي «رحمه الله».

٤. لا يعزب: لا يغيب، راجع لسان العرب.

٥. **فَقَوْلُ:** جاء في مقاييس اللغة أنَّ للصمد في الأصل معنيين: أحدهما القصد والثاني الصلابة والاستحكام، ويمكن إرجاع سائر المعاني إليهما ويمكن أن يكون الصمد إشارة إلى جميع الصفات الثبوتية.

٦. التوحيد (لِلصَّدُوقِ)، ص ٩٠، ح ٤؛ معاني الأخبار، ص ٧، ذيل ح ٣.

٧. التوحيد (لِلصَّدُوقِ)، ص ٩٠، ح ٥؛ الوافي، ج ١، ص ٣٦٦.

الْبَصْرَةَ كَتَبُوا إِلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَسْأَلُونَهُ عَنِ الصَّمَدِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِمْ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَمَّا بَعْدُ فَلَا تَحْوِضُوا فِي الْقُرْآنِ، وَلَا تُجَادِلُوا فِيهِ، وَلَا تَتَكَلَّمُوا فِيهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَقَدْ سَمِعْتُ جَدِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ؛ وَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ فَسَّرَ الصَّمَدَ^(١) فَقَالَ: «اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ» ثُمَّ فَسَّرَهُ فَقَالَ: «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»^(٢) «لَمْ يَلِدْ» لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيفٌ كَالْوَلَدِ وَسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الْكَثِيفَةِ الَّتِي تَخْرُجُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَا شَيْءٌ لَطِيفٌ كَالنَّفْسِ، وَلَا يَتَشَعَّبُ مِنْهُ الْبَدَاوَاتُ^(٣) كَالسَّنَةِ وَالنَّوْمِ، وَالْخَطَرَةِ وَالْهَمِّ، وَالْحَزَنِ وَالْبُهْجَةِ، وَالضَّحِكِ وَالْبُكَاءِ، وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَالرَّغْبَةَ وَالسَّامَةَ^(٤)، وَالْجُوعِ وَالشَّبَعِ؛ تَعَالَى أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُ شَيْءٌ، وَأَنْ يَتَوَلَّدَ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيفٌ أَوْ لَطِيفٌ. وَ«لَمْ يُولَدْ» لَمْ يَتَوَلَّدْ مِنْ شَيْءٍ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ شَيْءٍ كَمَا تَخْرُجُ الْأَشْيَاءُ الْكَثِيفَةُ مِنْ عَنَاصِرِهَا كَالشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ، وَالدَّابَّةُ مِنَ الدَّابَّةِ، وَالنَّبَاتُ مِنَ الْأَرْضِ، وَالْمَاءُ مِنَ النَّبَاتِ، وَالثَّمَارُ مِنَ الْأَشْجَارِ، وَلَا كَمَا تَخْرُجُ الْأَشْيَاءُ اللَّطِيفَةُ مِنْ مَرَاكِزِهَا، كَالْبَصَرِ مِنَ الْعَيْنِ، وَالسَّمْعِ مِنَ الْأُذُنِ، وَالشَّمِّ مِنَ الْأَنْفِ، وَالدَّوْقِ مِنَ الْفَمِ، وَالْكَلَامِ مِنَ اللِّسَانِ، وَالْمَعْرِفَةَ وَالتَّمْيِيزَ مِنَ الْقَلْبِ، وَكَالنَّارِ مِنَ الْحَجَرِ. لَا بَلْ هُوَ «اللَّهُ الصَّمَدُ» الَّذِي لَا مِنْ شَيْءٍ وَلَا فِي شَيْءٍ وَلَا عَلَى شَيْءٍ، مُبْدِعُ الْأَشْيَاءِ وَخَالِقُهَا، وَمُنْشِئُ الْأَشْيَاءِ بِقُدْرَتِهِ، يَتَلَاشَى مَا خَلَقَ لِلْفَنَاءِ بِمَشِيئَتِهِ، وَيَبْقَى مَا خَلَقَ لِلْبَقَاءِ بِعِلْمِهِ، فَذَلِكُمْ اللَّهُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

١٢٢٤. قَالَ وَهْبُ بْنُ وَهْبٍ الْقُرَشِيُّ^(٥): سَمِعْتُ الصَّادِقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: قَدِمَ وَفْدٌ مِنْ فَلَسْطِينَ عَلَى الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَأَلُوهُ عَنْ مَسَائِلَ فَأَجَابَهُمْ، ثُمَّ سَأَلُوهُ عَنِ الصَّمَدِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: تَفْسِيرُهُ فِيهِ، الصَّمَدُ خَمْسَةُ أَحْرُفٍ، فَأَلَفْتُ دَلِيلَ عَلَى إِنْشِئِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»^(٦) وَذَلِكَ تَنْبِيهُ وَإِشَارَةٌ إِلَى الْغَائِبِ عَنْ دَرْكِ الْحَوَاسِّ؛ وَاللَّامُ دَلِيلٌ عَلَى إِلَهِيَّتِهِ بِأَنَّهُ هُوَ اللَّهُ، وَالْأَلِفُ وَاللَّامُ مُدْعَمَانِ لَا يَظْهَرَانِ عَلَى اللِّسَانِ وَلَا يَقَعَانِ فِي السَّمْعِ، وَيَظْهَرَانِ فِي الْكِتَابَةِ دَلِيلَانِ عَلَى أَنَّ إِلَهِيَّتَهُ لَطِيفَةٌ خَافِيَةٌ لَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ^(٧)، وَلَا يَقَعُ فِي لِسَانٍ وَاصِفٍ، وَلَا أُذُنٍ سَامِعٍ، لِأَنَّ تَفْسِيرَ الْإِلَهِ هُوَ الَّذِي إِلَهَ الْخَلْقِ عَنْ دَرْكِ مَايَتِيَّتِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ بِحَسِّ أَوْ بَوْهَمٍ، لَا بَلْ هُوَ مُبْدِعُ الْأَوْهَامِ وَخَالِقُ الْحَوَاسِّ، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ ذَلِكَ عِنْدَ الْكِتَابَةِ فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَظْهَرَ رُبُوبِيَّتِهِ فِي إِبْدَاعِ الْخَلْقِ، وَتَرْكِيبِ أَرْوَاحِهِمُ اللَّطِيفَةِ فِي أَجْسَادِهِمُ الْكَثِيفَةِ،

١. وفي نسخة: وَأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ فَسَّرَ الصَّمَدَ. (هامش المطبوع)

٢. الإخلاص / ١-٤.

٣. وفي بعض النسخ: البدوات. (هامش المطبوع)

٤. السَّامَةُ: الملل والضجر، راجع كتاب الماء.

٥. التوحيد (للصدوق)، ص ٩٢، ح ٦؛ معاني الأخبار، ص ٧، ذيل ح ٣.

٦. آل عمران / ١٨.

٧. في المصدر والمعاني: «أَنَّ إِلَهِيَّتَهُ بِلُطْفِهِ خَافِيَةٌ لَا تَدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ».

فَإِذَا نَظَرَ عَبْدٌ إِلَى نَفْسِهِ لَمْ يَرِ رُوحَهُ، كَمَا أَنَّ لَامَ الصَّمَدِ لَا تَتَبَيَّنُ وَلَا تَدْخُلُ فِي حَاسَةٍ مِنْ حَوَاسِهِ الْخَمْسِ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَى الْكِتَابَةِ ظَهَرَ لَهُ مَا خَفِيَ وَلَطَفَ، فَمَتَى تَفَكَّرَ الْعَبْدُ فِي مَائِيَّةِ الْبَارِي وَكَيْفِيَّتِهِ أَلَهُ فِيهِ وَتَحَيَّرَ وَلَمْ تُحِطْ بِفِكَرَتِهِ بِشَيْءٍ يَتَصَوَّرُ لَهُ، لِأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَالِقُ الصُّورِ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَى خَلْقِهِ ثَبَتَ لَهُ أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَالِقُهُمْ، وَمُرَكَّبُ أَرْوَاحِهِمْ فِي أَجْسَادِهِمْ؛ وَأَمَّا الصَّادُ فَدَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صَادِقٌ، وَقَوْلُهُ صِدْقٌ وَكَلَامُهُ صِدْقٌ، وَدَعَا عِبَادَهُ إِلَى اتِّبَاعِ الصَّدَقِ بِالصَّدَقِ، وَوَعَدَ بِالصَّدَقِ دَارَ الصَّدَقِ؛ وَأَمَّا الْيَمِيمُ فَدَلِيلٌ عَلَى مُلْكِهِ، وَأَنَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ، لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ وَلَا يَزُولُ مُلْكُهُ؛ وَأَمَّا الدَّالُّ فَدَلِيلٌ عَلَى دَوَامِ مُلْكِهِ وَأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دَائِمٌ تَعَالَى عَنِ الْكَوْنِ وَالزَّوَالِ، بَلْ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُكُونُ الْكَائِنَاتِ الَّذِي كَانَ يَتَكُونُ بِهِ كُلُّ كَائِنٍ (١). (٢)

ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَوْ وَجَدْتُ لِعِلْمِي الَّذِي آتَانِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ حَمَلَةً لَنَشَرْتُ التَّوْحِيدَ وَالْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ وَالَّذِينَ وَالشَّرَائِعَ مِنَ الصَّمَدِ، وَكَيْفَ لِي بِذَلِكَ وَلَمْ يَجِدْ جَدِّي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَمَلَةً لِعِلْمِهِ حَتَّى كَانَ يَتَنَفَّسُ الصُّعْدَاءَ، وَيَقُولُ عَلَى الْمُنْبَرِ: سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي، فَإِنَّ بَيْنَ الْجَوَانِحِ مِنِّي عِلْماً جَمّاً، هَاهُ هَاهُ، أَلَا لَا أَجِدُ مَنْ يَحْمِلُهُ، أَلَا وَإِنِّي عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، فَلَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسُّوْا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسُّ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ.

ثُمَّ قَالَ الْبَاقِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيْنَا وَوَقَّفَنَا لِعِبَادَتِهِ، الْأَحَدَ الصَّمَدَ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ وَجَبَّتْنا عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ، حَمداً سَرْمداً وَشُكراً وَاصباً، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ فَيَكُونُ لَهُ وَلَدٌ يَرِثُهُ مُلْكُهُ وَ﴿لَمْ يُولَدْ﴾ فَيَكُونُ لَهُ وَالِدٌ يَشْرِكُهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَمُلْكِهِ، وَ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ فَيَعَارِزُهُ فِي سُلْطَانِهِ (٣).

بيان:

روي في معاني الأخبار ما يتعلق بتأويل الصمد من هذا الخبر بهذا الإسناد. ثم اعلم أن تحقيق معنى هو بهذا الوجه غير معروف، ولا يبعد أن يكون في أصل الوضع كذلك. وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولا نأله» صيغة المتكلم من أله بمعنى تحيّر، واختلف في لفظ الجلالة، فالمشهور أنه عربي مشتق، إما من أله بمعنى عبد، أو من أله: إذا تحيّر، إذ العقول تتحيّر في معرفته، أو من ألّهت إلى فلان أي سكنت إليه، لأن القلوب تطمئن بذكره، والأرواح تسكن إلى معرفته، أو من أله: إذا فزع من أمر نزل عليه، وألّله غيره: أجاره، إذ العابد يفرع إليه وهو يجيره، أو من أله الفصيل: إذا ولع بأُمّه، إذ العباد يولعون بالتضرّع إليه في الشدائد، أو من وله: إذا تحيّر وتخبّط عقله،

١. إلى هنا تمت الرواية في المعاني.

٢. نقول: تفسير كلمة «الصمد» بهذا الوجه وإن كان غريباً ولكن ليس بعيداً من الواضع العالم بحقيقة الأشياء وصفاتها.

٣. وفي نسخة: فيعاونه في سلطانه. (هامش المطبوع)، وكذا في المصدر.

وكان أصله ولاء فقلبت الواو همزة لاستثقال الكسرة عليها، أو من لاه مصدر لاه يليه ليهاً ولاهاً: إذا احتجب وارتفع، لأنه تعالى محجوب عن إدراك الأبصار، ومرتفع على كل شيء وعمّا لا يليق به؛ وقيل: إنه غير مشتق وهو علم للذات المخصوصة وضع لها ابتداءً؛ وقيل: أصله «لاها» بالسريانية فعرب بحذف الألف الأخيرة وإدخال اللام عليه.

وقال الرازي: ذكروا في الفرق بين الواحد والأحد وجوهاً: أحدها: أن الواحد يدخل في العدد والأحد لا يدخل فيه. وثانيها: أنك إذا قلت: فلان لا يقاومه واحد جاز أن يقال: لكنه يقاومه اثنان بخلاف الأحد. وثالثها: أن الواحد يستعمل في الإثبات والأحد في النفي^(١). انتهى.

وقوله عليه السلام: «ومن ثم» لبيان أن الواحد الحقيقي هو الذي لا يكون فيه شيء من أنحاء التعدد لأن الوحدة تقابل العدد.

ثم اعلم أنهم اختلفوا في معنى الصمد، فقيل: إنه فعل بمعنى المفعول من صمد إليه: إذا قصده، وهو السيد المقصود إليه في الحوائج^(٢).

ورَوَتِ الْعَامَّةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالُوا: مَا الصَّمَدُ؟ قَالَ ﷺ: هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي يُصَمَّدُ إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ.

وقيل: إن الصمد هو الذي لا جوف له. وقال ابن قتيبة: الدال فيه مبدلة من التاء وهو الصمت^(٣). وقال بعض اللغويين: الصمد هو الأملس من الحجر لا يقبل الغبار ولا يدخله ولا يخرج منه شيء^(٤).

فعلى الأول: عبارة عن وجوب الوجود والاستغناء المطلق واحتياج كل شيء في جميع أموره إليه، أي الذي يكون عنده ما يحتاج إليه كل شيء، ويكون رفع حاجة الكل إليه، ولم يفقد في ذاته شيئاً مما يحتاج إليه الكل، وإليه يتوجه كل شيء بالعبادة والخضوع، وهو المستحق لذلك، وإليه يومئ خبر الجعفري.

وأما على الثاني: فهو مجاز عن أنه تعالى أحديّ الذات أحديّ المعنى، ليست له أجزاء ليكون بين الأجزاء جوف، ولا صفات زائدة فيكون بينها وبين الذات جوف؛ أو عن أنه الكامل بالذات ليس فيه جهة استعداد وإمكان ولا خلوّ له عمّا يليق به، فلا يكون له جوف يصلح أن يدخله ما ليس له في ذاته فيستكمل به، فالجوف كناية عن الخلوّ عمّا لا يصح اتّصافه به.

١. مفاتيح الغيب، ج ٣٢، ص ٣٦٠.

٢. الكشف، ج ٤، ص ٨١٨.

٣. قال الشيخ «قدّس سرّه»: ومن قال: الصمد بمعنى المصمت فقد جهل الله، لأن المصمت هو المتضاغط الأجزاء، وهذا تشبيه وكفر بالله

تعالى. (التبيان، ج ١٠، ص ٤٣١)

٤. مفاتيح الغيب، ج ٣٢، ص ٣٦٢.

وأما على الثالث: فيكون كناية عن عدم الانفعال والتأثر عن الغير، وكونه محلاً للحوادث كما سيأتي في جواب من سأل الصادق عليه السلام عَنْ رِضَا اللَّهِ وَسَخَطِهِ، فَقَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ عَلَى مَا يُوجَدُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، وَذَلِكَ أَنَّ الرِّضَا دَخَالَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ فَيَنْقُلُهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ لِأَنَّ الْمَخْلُوقَ أَجُوفٌ، مُعْتَمِلٌ، مُرَكَّبٌ، لِلْأَشْيَاءِ فِيهِ مَدْخَلٌ، وَخَالِقُنَا لَا مَدْخَلَ لِلْأَشْيَاءِ فِيهِ لِأَنَّهُ وَاحِدٌ وَأَحَدِيٌّ الذَّاتِ وَأَحَدِيٌّ الْمَعْنَى. وهذا الخبر يؤيد بعض المعاني السابقة أيضاً.

وقد نقل بعض المفسرين عن الصحابة والتابعين والأئمة واللغويين قريباً من عشرين معنى، ويمكن إدخال جميعها فيما ذكرنا من المعنى الأول لأنه لاشتماله على الوجوب الذاتي يدل على جميع السلوك، ولدلالته على كونه مبدأً للكل يدل على اتصافه بجميع الصفات الكمالية، وبهذا الوجه يمكن الجمع بين الأخبار المختلفة الواردة في هذا المعنى.

وقوله عليه السلام: «لا يوصف بالتغاير» أي بالصفات الموجودة المغايرة للذات، ويحتمل على بعد أن يكون مأخوذاً من الغيرة كناية عن أنه ليس له ضد ولا ند، وفيما رواه الطبرسي «رحمه الله» لا يوصف بالنظائر. و«البدوات» بالفتحات: ما يبدو ويسنح ويظهر من الحوادث والحالات المتغيرة والآراء المتبدلة، يقال: بدا أي ظهر، وبدا له في الأمر: نشأ له فيه رأي، وهو ذو بدوات. و«الائتية»: التحقق والوجود. و«الصعداء» بضم الصاد وفتح العين: تنفّس طويل. و«الجوانح»: الضلوع تحت الترائب ممّا يلي الصدر. و«الواصب»: الدائم والثابت. و«المعازة»: المغالبة.

١٢٢٥. التوحيد^(١): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ عِيسَى، عَنْ ابْنِ فَضَالٍ، عَنْ الْحَلْبِيِّ وَزُرَّارَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام^(٢) قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَحَدٌ صَمَدٌ، لَيْسَ لَهُ جَوْفٌ، وَإِنَّمَا الرُّوحُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، نَصْرٌ وَتَأْيِيدٌ وَقُوَّةٌ يَجْعَلُهُ^(٣) اللَّهُ فِي قُلُوبِ الرُّسُلِ وَالْمُؤْمِنِينَ^(٤).

١٢٢٦. التوحيد^(٥): ابْنُ عَبْدِوَسٍّ، عَنْ ابْنِ قُتَيْبَةَ، عَنْ الْفَضْلِ بْنِ شاذَانَ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ مِنَ الثَّنَوِيَّةِ أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ مُوسَى الرِّضَا عليه السلام - وَأَنَا حَاضِرٌ - فَقَالَ لَهُ: إِنِّي أَقُولُ: إِنَّ صَانِعَ الْعَالَمِ اثْنَانِ، فَمَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ؟ فَقَالَ عليه السلام: قَوْلُكَ: إِنَّهُ اثْنَانِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ لِأَنَّكَ لَمْ تَدْعِ الثَّانِي إِلَّا بَعْدَ اثْبَاتِكَ الْوَاحِدِ، فَالْوَاحِدُ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ، وَكَثْرٌ مِنْ وَاحِدٍ مُخْتَلَفٌ فِيهِ.

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٧١، ح ٢؛ بصائر الدرجات، ص ٤٦٢، ح ١٢.

٢. في البصائر بهذا الإسناد: «أحمد بن محمد وبعقوب بن يزيد، عن ابن فضال، عن أبي جميلة، عن الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام».

٣. في البصائر: «من خلقه له بصر وقوة وتأيد يجعله...».

٤. **قول:** يظهر من غير واحد من الروايات لا سيما ما ورد في البحار (ج ٢٥، ح ٧، من كتاب البصائر) أنَّ للأنبياء والرسل وخواص المؤمنين روح غير ما في عامة الناس وهو الذي يعبر بروح القدس أحياناً.

٥. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٦٩، ح ٦؛ الفصول المهمة، ج ١، ص ١٣٥، ح ٣٤.

قال الصدوق «رحمه الله»: الدليل على أن الصانع واحد لا أكثر من ذلك أنهما لو كانا اثنين لم يخل الأمر فيهما من أن يكون كل واحد منهما قادراً على منع صاحبه مما يريد أو غير قادر، فإن كانا كذلك فقد جاز عليهما المنع، ومن جاز عليه ذلك فمحدث، كما أن المصنوع محدث؛ وإن لم يكونا قادرين لزمهما العجز والنقص، وهما من دلالات الحدث، فصح أن القديم واحد.

ودليل آخر: وهو أن كل واحد منهما لا يخلو من أن يكون قادراً على أن يكتم الآخر شيئاً، فإن كان كذلك فالذي جاز الكتمان عليه حادث، وإن لم يكن قادراً فهو عاجز، والعاجز حادث بما بيّناه^(١). وهذا الكلام يحتج به في إبطال قديمين صفة كل واحد منهما صفة القديم الذي أثبتناه. فأما ما ذهب إليه ماني وابن ديسان من خرافاتهما في الامتزاج، ودانت^(٢) به المجوس من حماقاتها في أهرمن ففاسد بما به يفسد قدم الأجسام، ولدخولهما في تلك الجملة اقتضت على الكلام فيهما ولم أفرد كلاهما بما يسأل عنه منه.

١٢٢٧. التوحيد^(٣): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّقَّارِ، عَنِ ابْنِ عِيْسَى، عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ؟ قَالَ: اتَّصَلَ التَّدْبِيرُ وَتَمَامُ الصَّنْعِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٤).

بيان:

إمّا إشارة إلى برهان التمانع أو إلى التلازم، وسيأتي بعض تقريراتهما. ١٢٢٨. تحف العقول^(٥): عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْقَاسِمِ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ الصَّمَدِ، فَقَالَ: الَّذِي لَا سُرَّةَ^(٦) لَهُ. قُلْتُ: فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ، فَقَالَ: كُلُّ ذِي جَوْفٍ لَهُ سُرَّةٌ.

بيان:

الغرض أنه ليس فيه تعالى صفات البشر وسائر الحيوانات، وهو أحد أجزاء معنى الصمد كما عرفت وهو لا يستلزم كونه تعالى جسماً مصمتاً^(٧).

١. الحجّتان مدخولتان لأنّ عموم القدرة في الواجب لا يستلزم تعلقها بكل أمر؛ فمن الجائز أن يكون المنع المفروض والكتمان المفروض محالين لا تتعلق بهما القدرة؛ فلا يلزمه نقص الواجب وحدوثه. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

٢. الدين: ما يتدبّر به الرجل، راجع لسان العرب.

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٥٠، ح ٢؛ الفصول المهمّة، ج ١، ص ١٣٤، ح ٣٣.

٤. الأنبياء/٢٢.

٥. تحف العقول، ص ٤٥٦.

٦. السُرّة: الوقبة التي في وسط البطن، راجع لسان العرب.

٧. المصمت: الذي لا جوف له، راجع لسان العرب.

١٢٢٩. جامع الأخبار^(١): سئل ابنُ الحَنَفِيَّةِ عَنِ الصَّمَدِ ﴿قَالَ: قَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: تَأْوِيلُ الصَّمَدِ لَا اسْمٌ وَلَا جِسْمٌ، وَلَا مِثْلٌ وَلَا شِبْهُ، وَلَا صُورَةٌ وَلَا تِمَثَالٌ، وَلَا حَدٌّ وَلَا حُدُودٌ^(٢)، وَلَا مَوْضِعٌ وَلَا مَكَانٌ، وَلَا كَيْفٌ وَلَا أَيْنٌ، وَلَا هُنَا وَلَا ثَمَّةٌ، وَلَا مَلَأٌ وَلَا خَلَأٌ^(٣)، وَلَا قِيَامٌ وَلَا قُعُودٌ، وَلَا سُكُونٌ وَلَا حَرَكَةٌ، وَلَا ظُلْمَانِيٌّ وَلَا نُورَانِيٌّ، وَلَا رُوحَانِيٌّ وَلَا نَفْسَانِيٌّ، وَلَا يَخْلُو مِنْهُ مَوْضِعٌ وَلَا يَسَعُهُ مَوْضِعٌ، وَلَا عَلَى لَوْنٍ، وَلَا عَلَى خَطَرٍ قَلْبٍ، وَلَا عَلَى شَمٍّ رَائِحَةٍ، مَنْفِيٌّ عَنْهُ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ. ١٢٣٠. الإحتجاج^(٤): عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ أَنَّهُ قَالَ: مِنْ سُؤَالِ الرَّزْدِيَّيْنِ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ قَالَ: لِمَ لَا يَجُوزُ^(٥) أَنْ يَكُونَ صَانِعُ الْعَالَمِ أَكْثَرُ مِنْ وَاحِدٍ؟ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا يَخْلُو قَوْلُكَ: إِنَّهُمَا اثْنَانِ مِنْ أَنْ يَكُونَا قَدِيمَيْنِ قَوِيَّيْنِ، أَوْ يَكُونَا ضَعِيفَيْنِ، أَوْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا قَوِيًّا وَالْآخَرُ ضَعِيفًا، فَإِنْ كَانَا قَوِيَّيْنِ فَلِمَ لَا يَدْفَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ وَيَسْتَفَرِّدُ بِالرُّبُوبِيَّةِ^(٦)؟ وَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّ أَحَدَهُمَا قَوِيٌّ وَالْآخَرُ ضَعِيفٌ ثَبَتَ أَنَّهُ وَاحِدٌ - كَمَا نَقُولُ - لِلْعَجْزِ الظَّاهِرِ فِي الثَّانِي، وَإِنْ قُلْتَ: إِنَّهُمَا اثْنَانِ لَمْ يَخْلُ مِنْ أَنْ يَكُونَا مُتَّفَقَيْنِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، أَوْ مُفْتَرَقَيْنِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، فَلَمَّا رَأَيْنَا الْخَلْقَ مُنْتَظِمًا، وَالْفَلَكَ جَارِيًا^(٧)، وَاخْتِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، دَلَّ صِحَّةَ الْأَمْرِ وَالتَّدْبِيرِ وَاتِّتِلَافُ الْأَمْرِ عَلَى أَنَّ الْمُدَبِّرَ وَاحِدٌ. التوحيد^(٨): الدَّقَاقُ، عَنْ أَبِي الْقَاسِمِ الْعَلَوِيِّ، عَنِ الْبَرْمَكِيِّ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحَسَنِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَاشِمٍ الْقُمِّيِّ، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَمْرِو الْقُمِّيِّ، عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ مِثْلَهُ؛ وَزَادَ فِيهِ: ثُمَّ يَلْزَمُكَ إِنْ ادَّعَيْتَ اثْنَيْنِ فَلَا بُدَّ مِنْ فُرْجَةٍ بَيْنَهُمَا حَتَّى يَكُونَا اثْنَيْنِ، فَصَارَتِ الْفُرْجَةُ ثَالِثًا بَيْنَهُمَا قَدِيمًا مَعَهُمَا، فَيَلْزَمُكَ ثَلَاثَةٌ، وَإِنْ ادَّعَيْتَ ثَلَاثَةً لَزِمَكَ مَا قُلْنَا فِي الْإِثْنَيْنِ حَتَّى يَكُونَ بَيْنَهُمْ فُرْجَتَانِ، فَيَكُونُوا خَمْسَةً، ثُمَّ يَتَنَاهَى فِي الْعَدَدِ إِلَى مَا لَا نِهَآيَةَ لَهُ فِي الْكَثَرَةِ.

بيان:

ولنشر هاهنا إلى بعض براهين التوحيد على وجه الاختصار، ثم لنذكر ما يمكن أن يقال في حلّ هذا الخبر الذي هو من غوامض الأخبار. فأما البراهين:

فالأول: أنه لما ثبت كون الوجود عين حقيقة الواجب فلو تعدّد لكان امتياز كلّ منهما عن الآخر بأمر

١. جامع الأخبار (لشعيري)، ص ٦؛ نوادر الأخبار (للفيض)، ص ٧٨، ح ٥.

٢. في المصدر: «ولا محدود».

٣. في المصدر: «... لا ثمة ولا علاء ولا خلاء ولا ملاء ولا قيام...»، وفي النوادر: «... لا ثمة ولا على ولا ملاء ولا خلاء...».

٤. ورد في الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٣٣، ذيل رواية: الكافي، ج ١، باب حدوث العالم، ص ٨٠، ح ٥.

٥. في المصدر: «ألا يجوز».

٦. وفي نسخة: ويتفرّد بالتدبير. (هامش المطبوع)، وكذا في الكافي والتوحيد.

٧. وفي نسخة: والفلك جاريا والتدبير واحدا. (هامش المطبوع)، وكذا في الكافي.

٨. التوحيد (للمصدق)، ص ٢٤٣، ح ١.

خارج عن الذات، فيكونان محتاجين في تشخصهما إلى أمر خارج، وكلّ محتاج ممكن.

والثاني: أنّه لو تعدّد الواجب لذاته فإنّما أن يكون امتياز كلّ منهما عن الآخر بذاته فيكون مفهوم واجب الوجود محمولاً عليهما بالحمل العرضي، والعارض معلول للمعروض فيرجع إلى كون كلّ منهما علّة لوجوب وجوده وقد ثبت بطلانه. وإنّما أن يكون ذلك الامتياز بالأمر الزائد على ذاتهما وهو أفحش، فإنّه إنّما أن يكون معلولاً لماهيتهما أو لغيرهما، وعلى الأول إن اتّحد ماهيتهما كان التعيّن مشتركاً وهذا خلف، وإن تعدّدت الماهيّة كان كلّ منهما شيئاً عرض له وجوب الوجود أعني الوجود المتأكّد للواجب، وقد تبين بدلائل عينية الوجود بطلانه، وعلى الثاني يلزم الاحتياج إلى الغير والإمكان؛ وبالجمله لو كان الواجب متعدّداً لكان نسبة الوجوب إليهما نسبة العوارض فكان ممكناً لا واجباً.

الثالث: أنّه لو كان لله سبحانه شريك لكان لمجموع الواجبين وجود غير وجود الآحاد، سواء كان ذلك الوجود عين مجموع الوجودين، أو أمراً زائداً عليه، ولكان هذا الوجود محتاجاً إلى وجود الأجزاء، والمحتاج إلى الغير ممكن، محتاج إلى مؤثّر، والمؤثّر في الشيء يجب أن يكون مؤثراً في واحد من أجزائه، وإلّا لم يكن مؤثراً في ذلك الشيء، وقد ادّعوا الضرورة فيه، ولا يمكن التأثير فيما نحن فيه في شيء من الأجزاء لكون كلّ من الجزئين واجباً، فالشريك يستلزم التأثير فيما لا يمكن التأثير فيه، أو إمكان ما فرض وجوبه إلى غير ذلك من المفاسد.

الرابع: برهان التمانع: وأظهر تقريراته أنّ وجوب الوجود يستلزم القدرة والقوّة على جميع الممكنات قوّة كاملة بحيث يقدر على إيجاده ودفع ما يضاده مطلقاً، وعدم القدرة على هذا الوجه نقص، والنقص عليه تعالى محال ضرورة، بدليل إجماع العقلاء عليه، ومن المحال عادة إجماعهم على نظريّ، ولئن لم يكن ضرورياً فنظريّ ظاهر متسق الطريق، واضح الدليل، واستحالة إجماعهم على نظريّ لا يكون كذلك أظهر، فنقول حينئذ: لو كان في الوجود واجبان لكانا قويين، وقوتهما يستلزم عدم قوتهما، لأنّ قوّة كلّ منهما على هذا الوجه يستلزم قوّته على دفع الآخر عن إرادة ضدّ ما يريد نفسه من الممكنات، والمدفوع غير قويّ بهذا المعنى الذي زعمنا أنّه لازم لسلب النقص.

فإن قلت: هذا إنّما يتمّ لو كان إرادة كلّ منهما للممكن بشرط إرادة الآخر لضده ممكناً وبالعكس؛ وليس كذلك بل إرادة كلّ منهما له بشرط إرادة الآخر لضده ممتنع، ونظير ذلك أنّ إرادة الواجب للممكن بشرط وجود ضده محال، ولا يلزم منه نقص.

قلت: امتناع الإرادة بشرط إرادة الآخر هو الامتناع بالغير، وامتناعه بالغير تحقّق النقص والعجز - تعالى عن ذلك - وأمّا امتناع إرادة الشيء بشرط وجود ضده فمن باب امتناع إرادة المحالّ الذاتي، وإن كان امتناع

الإرادة امتناعاً بالغير؛ ومثله غير ملزوم للنقص بخلاف ما نحن فيه فإن المراد ممتنع بالغير.

فإن قلت: وجود الشيء كما يمتنع بشرط ضده ونقيضه كذلك يمتنع بشرط ملزوم ضده ونقيضه، والأوّل امتناع بالذات، والثاني امتناع بالغير، وكما أنّ إرادة الأوّل منه تعالى محال ولا نقص فيه، كذلك إرادة الثاني، وظاهر أنّ إرادة إيجاد الممكن بشرط إرادة الآخر له من قبل الثاني فينبغي أن لا يكون فيه نقص.

قلت: فرق بين الأمرين فإنّ وجود الممكن إذا قيّد واشترط بملزوم نقيضه كان ممتنعاً ولو بالغير ولم يتعلّق به إرادة ضرورة، وأمّا إذا لم يقيّد الوجود به بل أطلق فغير ممتنع، فيمكن تعلّق الإرادة به ولو في زمان وجود ملزوم النقيض بأن يدفع الملزوم، وإن لم يندفع هو من قبل نفسه أو من دافع آخر؛ بخلاف إرادة الآخر له فإنّه لو لم يندفع من قبل نفسه ولم يدفعه دافع آخر لم يتعلّق به الإرادة ضرورة فهو مدفوع، وإلّا فالآخر مدفوع، فصار حاصل الفرق حينئذ أنّ الصانع تعالى قادر على إيجاد أحد الضدّين في زمان الضدّ الآخر بدون حاجة إلى واسطة غير مستندة إليه تعالى، وهو أي الحاجة إلى الواسطة المستندة إلى الفاعل لا ينافي الاستقلال والقدرة، كما لا ينافي الاحتياج إلى الواسطة المستندة إلى الذات الوجوب الذاتي بخلاف ما نحن فيه، فإنّه احتياج إلى واسطة غير مستندة إلى الذات.

لا يقال: لعلّ انتفاء إرادة الآخر واجب بنفسه، ولا نسلم منافاة توسط الواجب بالذات بين الفاعل وفعله، لاستقلاله واستلزامه النقص.

لأنّا نقول: الأوّل بين البطلان، فإنّ تحقّق إرادة الآخر وانتفاعها ممكن في نفسه، لكنّه ينتفي فيما نحن فيه من قبل ذي الإرادة لو انتفى، فيكون واسطة ممكنة غير صادرة عن الفاعل ولا مستندة إليه؛ وأمّا الثاني فربّما تدعى البداهة في استلزامه النقص وهو غير بعيد، وبهذا التقرير يندفع كثير من الشكوك والشبه.

الخامس: تقرير آخر لبرهان التمانع ذكره المحقّق الدواني، وهو أنّه لا يخلو أن يكون قدرة كلّ واحد منهما وإرادته كافية في وجود العالم، أو لا شيء منهما كاف، أو أحدهما كاف فقط، وعلى الأوّل يلزم اجتماع المؤثرين التامّين على معلول واحد، وعلى الثاني يلزم عجزهما لأنّهما لا يمكن لهما التأثير إلّا باشتراك الآخر، وعلى الثالث لا يكون الآخر خالقاً فلا يكون إلهاً؛ أفمن يخلق كمن لا يخلق؟

لا يقال: إنّما يلزم العجز إذا انتفت القدرة على الإيجاد بالاستقلال، أمّا إذا كان كلّ منهما قادراً على الإيجاد بالاستقلال ولكن اتّفقا على الإيجاد بالاشتراك، فلا يلزم العجز كما أنّ القادرين على حمل خشبة بالانفراد قد يشتركان في حملها، وذلك لا يستلزم عجزهما لأنّ إرادتهما تعلّقت بالاشتراك، وإنّما يلزم العجز لو أرادا الاستقلال ولم يحصل.

لأنّا نقول: تعلّق إرادة كلّ منهما إن كان كافياً لزم المحذور الأوّل، وإن لم يكن كافياً لزم المحذور الثاني،

والملازمتان بَيِّتان لا تقبلان المنع، وما أوردتم من المثال في سند المنع لا يصلح للسندية إذ في هذه الصورة ينقص ميل كل واحد منهما من الميل الذي يستقل في الحمل قدر ما يتم الميل الصادر من الآخر حتى تنقل الخشبة بمجموع الميلين، وليس كل واحد منهما بهذا القدر من الميل فاعلاً مستقلاً، وفي مبحثنا هذا ليس المؤثر إلا تعلق القدرة والإرادة، ولا يتصور الزيادة والنقصان في شيء منهما^(١).

السادس: أن كل من جاء من الأنبياء وأصحاب الكتب المنزلة إنما ادعى الاستناد إلى واحد أسند إليه الآخر، ولو كان في الوجود واجبان لكان يخبر مخبر من قبله بوجوده وحكمه، واحتمال أن يكون في الوجود واجب لا يرسل إلى هذا العالم أو لا يؤثر ولا يدبر أيضاً فيه مع تدبيره ووجود خبره في عالم آخر أو عدمه ممّا لا يذهب إليه وهم واهم، فإنّ الوجوب يقتضي العلم والقدرة وغيرهما من الصفات، ومع هذه الصفات الكمالية يمتنع عدم الإعلام ونشر الآثار بحيث يبلغ إلينا وجوده، وأمّا ما زعمت الثنوية من الإله الثاني فليس بهذه المثابة، وممّا يرسل ويحكم فيهم وإن قالوا بوجود الواجب الآخر فقد نفوا لازمه فهو باطل بحكم العقل.

وقد أثبتنا في كتاب الروضة فيما أوصى به أمير المؤمنين ابنه الحسن «صلوات الله عليهما» ما يومئ إلى هذا الدليل حيث قال: عَلَيْهِ السَّلَام؛ وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكَ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ صِفَتَهُ وَفِعَالَهُ، وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، لَا يُضَادُّهُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ وَلَا يُحَاجُّهُ، وَأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

السابع: الأدلة السمعية من الكتاب والسنة: وهي أكثر من أن تحصى، وقد مرّ بعضها، ولا محذور في التمسك بالأدلة السمعية في باب التوحيد، وهذه هي المعتمد عليها عندي. وبسط الكلام في تلك الأدلة وما سواها ممّا لم نشر إليها موكول إلى مظانها^(٢)، ولنرجع إلى حلّ الخبر وشرحه، وقد قيل فيه وجوه:

الأول: أن المراد بالقويّ القويّ على فعل الكلّ بالإرادة مع إرادة استبداده به، والمراد بالضعيف الذي لا يقوى على فعل الكلّ، ولا يستبدّ به ولا يقاوم القويّ، فإن كانا قويين فلم لا يدفع كل منهما صاحبه ويتفرّد به؟ أي يلزم من قوّتهما انفراد كلّ بالتدبير، ويلزم منه عدم وقوع الفعل، وإن زعمت أن أحدهما قويّ والآخر ضعيف ثبت أنه واحد أي المبدأ للعالم واحد لعجز الضعيف عن المقاومة والتأثير، وثبت احتياج الضعيف إلى العلة الموحدة لأنّ القويّ أقوى وجوداً من الضعيف، وضعف الوجود لا يتصور إلاّ بجواز خلوّ الماهية عن الوجود، ويلزم منه الاحتياج إلى المبدأ المبين الموجد له.

١. التعليقات على شرح العقائد العضدية، ص ٨٩ و ٩٠.

٢. تحف العقول، ص ٧٢، ضمن وصية أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَام لابنه الحسن عَلَيْهِ السَّلَام.

٣. مظنة الشيء: موضعه ومألفه الذي يظنّ كونه فيه، والجمع المظانّ، راجع لسان العرب.

وإن قلت: إنَّهما اثنان أي المبدأ اثنان، وهذا هو الشق الثاني، أي كونهما ضعيفين بأن يقدر ويقوى كل منهما على بعض، أو يفعل بعضاً دون بعض بالإرادة، وإن كان يقدر على الكل وفي هذا الشق لا يخلو من أن يكونا متفقين أي في الحقيقة من كل جهة، ويلزم من هذا عدم الامتياز بالتعین للزوم المغايرة بين الحقيقة والتعینين المختلفين، واستحالة استنادهما إلى الحقيقة، واستحالة استنادهما إلى الغير فيكون لهما مبدأ، أو مختلفين مفترقين من كل جهة وذلك معلوم الانتفاء فإنَّنا رأينا الخلق منتظماً، والفلک جارياً، والتدبير واحداً، والليل والنهار والشمس والقمر دلّ صحّة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر على أن المدبّر واحد لا اثنان مختلفان من كل جهة، ثمّ ذلك المدبّر الواحد لا يجوز أن يكون واحداً بجهة من حيث الحقيقة مختلفاً بجهة أخرى فيكون المدبّر اثنين، ويلزمك إن ادّعت اثنين فرجة ما بينهما لأنّ لهما وحدة فلا يتمايزان إلاّ بمميّز فاصل بينهما حتّى يكونا اثنين، لامتناع الاثنينيّة بلا مميّز بينهما، وعبر عن الفاصل المميّز بالفرجة حيث إنّ الفاصل بين الأجسام يعبر عنه بالفرجة، وأولئك الزنادقة لم يكونوا يدركون غير المحسوسات تنبيهاً على أنكم لا تستحقّون أن تخاطبوا إلاّ بما يليق استعماله في المحسوسات، وذلك المميّز لا بدّ أن يكون وجودياً داخلياً في حقيقة أحدهما، إذ لا يجوز التعدّد مع الاتّفاق في تمام الحقيقة كما ذكرنا، ولا يجوز أن يكون ذلك المميّز ذا حقيقة يصحّ انفكاكها عن الوجود وخلوّها عنه ولو عقلاً، وإلاّ لكان معلولاً محتاجاً إلى المبدأ فلا يكون مبدأ ولا داخلياً فيه، فيكون المميّز الفاصل بينهما قديماً موجوداً بذاته كالمتمتّق فيه فيكون الواحد المشتمل على المميّز الوجوديّ اثنين لا واحداً، ويكون الاثنان اللذان ادّعتيهما ثلاثة، فإن قلت به وادّعت ثلاثة لزمك ما قلت في الاثنين من تحقّق المميّز بين الثلاثة، ولا بدّ من مميّزين وجوديين حتّى تكون بين الثلاثة فرجتان ولا بدّ من كونهما قديمين - كما مرّ - فيكونوا خمسة وهكذا، ثمّ يتناهى في العدد إلى ما لا نهاية له في الكثرة، أي يتناهى الكلام في التعدّد إلى القول بما لا نهاية له في الكثرة، أو يبلغ عدده إلى كثرة غير متناهية؛ أو المراد أنّه يلزمك أن يتناهى المعدود المنتهي ضرورة بمعروض ما ينتهي إليه العدد أي الواحد إلى كثير لا نهاية له في الكثرة فيكون عدداً بلا واحد وكثرة بلا وحدة، وعلى هذا يكون الكلام برهانياً لا يحتاج إلى ضميمة، وعلى الأوّلين يصير بضمّ ما ذكرناه من ثالث الاحتمالات برهانياً.

الثاني: أن يكون إشارة إلى ثلاثة براهين، وتقرير الأوّل - بعد ما تقرّر أنّ ما لا يكون قوياً على إيجاد أيّ ممكن كان لا يكون واجباً بالذات - أن يقال: لا يصحّ أن يكون الواجب بالذات اثنين، وإلاّ كان كلّ منهما قوياً على إيجاد أيّ ممكن كان، وكلّ ممكن بحيث يكون استناده إلى أيّ منهما كافياً في تصحّخ خروجه من القوّة إلى الفعل، وحينئذ لم يكن محيص إمّا من لزوم استناد كلّ معلول شخصيّ إلى علّتين مستبدّتين بالإفاضة وذلك محال، أو من لزوم الترجّح بلا مرجّح وهو فطريّ الاستحالة، أو من كون أحدهما غير واجب بالذات،

وهو خلاف المفروض، وهذا البرهان يتم عند قوله ﷻ: «للعجز الظاهر في الثاني».

وقوله ﷻ: «وإن قلت» إلى قوله: «على أن المدبر واحد» إشارة إلى برهان ثان، وهو أحد الوجوه البرهانية في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(١) وتلخيص تقريره: أن التلازم بين أجزاء النظام الجملي المنتظم المتسق كما بين السماء والأرض مثلاً على ما قد أحقته القوانين الحكيمية لا يستتب^(٢) إلا بالاستناد إلى فاعل واحد يصنع الجميع بحكمته وقدرته، إذ التلازم بين شيئين لا يتصحح إلا بعليّة أحدهما للآخر، أو بمعلوليتهما لعلّة واحدة موجبة، فلو تعدّد اختل الأمر وفسد النظام.

وتقرير الثالث: هو أنك لو ادّعت اثنين كان لا محالة بينهما انفصال في الوجود، وافتراق في الهوية، ويكون هناك موجود ثالث هو المركّب من مجموع الاثنين، وهو المراد بالفرجة، لأنّه منفصل الذات والهوية، وهذا المركّب لتركبه عن الواجبات بالذات المستغنيات عن الجاعل موجود لا من تلقاء الصانع، إذ افتقار المركّب إلى الجاعل بحسب افتقار أجزائه فإذا لم تفتقر أجزاؤه لم يفتقر هو بالضرورة، فإذا لم يفتقر لم يفتقر إلى الجاعل، فلو كان هذا الموجود الثالث أيضاً قديماً فيلزمك ثلاثة وقد ادّعت اثنين وهكذا؛ ويرد عليه مع بُعد إطلاق الفرجة بهذا المعنى أنّه يلزم في الفرض الثاني سبعة لا خمسة.

الثالث: أن يكون إشارة إلى حجّتين: إحداهما عاميّة مشهورة، والأخرى خاصيّة برهانية؛ أمّا الأولى: فقوله ﷻ: «لا يخلو قولك» إلى قوله: «في الثاني» ومعناه أنّه لو فرض قديمان فلا يخلو أن يكون كلاهما قويين أو كلاهما ضعيفين أو أحدهما قوياً والآخر ضعيفاً، والثلاثة بأسرها باطلة؛ أمّا الأوّل: فلأنّه إذا كانا قويين وكلّ منهما في غاية القوّة من غير ضعف وعجز كما هو المفروض - والقوّة يقتضي الغلبة والقهر على كلّ شيء سواه - فما السبب المانع لأن يدفع كلّ واحد منهما صاحبه حتّى يتفرد بالتدبير والقهر على غيره؟ إذ اقتضاء الغلبة والاستعلاء مركوزة في كلّ ذي قوّة على قدر قوّته والمفروض أن كلّاً منهما في غاية القوّة.

وأما فساد الشقّ الثاني فهو ظاهر عند جمهور الناس، لما حكموا بالفطرة من أنّ الضعف ينافي الإلهيّة، ولظهوره لم يذكره ﷻ. وأيضاً يعلم فساد بفساد الشقّ الثالث، وهو قوله ﷻ: «وإن زعمت أن أحدهما قوي والآخر ضعيف» ثبت أنّه أي الإله واحد - كما نحن نقول - للعجز الظاهر في المفروض ثانياً لأنّ الضعف منشأ العجز، والعاجز لا يكون إلهاً بل مخلوقاً محتاجاً لأنّه محتاج إلى من يعطيه القوّة والكمال والخيريّة.

وأما الحجّة البرهانية: فأشار إليها بقوله ﷻ: «وإن قلت: إنّهما اثنان» وبيانه أنّه لو فرض موجودان قديمان فإمّا أن يتّفقا من كلّ جهة، أو يختلفا من كلّ جهة، أو يتّفقا بجهة ويختلفا بأخرى، والكلّ محال؛ أمّا

١. الأنبياء/ ٢٢.

٢. يستتب الأمر: إذا ثبت واستقام، راجع شمس العلوم.

بطلان الأول: فلأن الاثنين لا تتحقق إلا بامتياز أحد الاثنين عن صاحبه ولو بوجه من الوجوه؛ وأمّا بطلان الثاني: فلما نبّه عليه بقوله ﷺ: «فلما رأينا الخلق منتظماً»، وتقريره أن العالم كله كشخص واحد كثير الأجزاء والأعضاء مثل الإنسان، فإننا نجد أجزاء العالم مع اختلاف طبائعها الخاصّة وتباين صفاتها وأفعالها المخصوصة يرتبط بعضها ببعض، ويفتقر بعضها إلى بعض، وكلّ منها يعين بطبعه صاحبه، وهكذا نشاهد الأجرام العالية وما ارتكز فيها من الكواكب النيرة في حركاتها الدورية وأضوائها الواقعة منها نافعة للسفليات، محصلة لأمزجة المركبات التي يتوقّف عليها صور الأنواع ونفوسها، وحياة الكائنات ونشوء الحيوان والنبات، فإذا تحقّق ما ذكرنا من وحدة العالم لوحدة النظام واتّصال التدبير دلّ على أن إلهه واحد، وإليه أشار بقوله ﷺ: «دلّ صحّة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر على أن المدبّر واحد».

وأمّا بطلان الشقّ الثالث - وهو أنّهما متّفقان من وجه ومختلفان من وجه آخر - فبأن يقال - كما أشار إليه ﷺ بقوله: «ثم يلزمك» -: أنّه لا بدّ فيهما من شيء يمتاز به أحدهما عن صاحبه وصاحبه عنه، وذلك الشيء يجب أن يكون أمراً وجودياً يوجد في أحدهما ولم يوجد في الآخر، أو أمران وجوديان يختصّ كلّ منهما بواحد فقط، وأمّا كون الفارق المميّز لكلّ منهما عن صاحبه أمراً عديمياً فهو ممتنع بالضرورة، إذ الأعدام بما هي أعدام لا تمايز بينها ولا تمييز بها، فإذا فرض قديمان فلا أقلّ من وجود أمر ثالث يوجد لأحدهما، ويسلب عن الآخر، وهو المراد بالفرجة إذ به يحصل الانفراج أي الافتراق بينهما لوجوده في أحدهما وعدمه في الآخر، وهو أيضاً لا محالة قديم موجود معهما، وإلاّ لم يكونا اثنين قديمين فيلزم أن يكون القدماء ثلاثة وقد فرض اثنان وهذا خلف، ثمّ يلزم من فرض كونهم ثلاثة أن يكونوا خمسة، وهكذا إلى أن يبلغ عددهم إلى ما لا نهاية له وهو محال.

أقول:

الأظهر على هذا التقرير أن تحمل الوحدة في قوله ﷺ: «على أن المدبّر واحد» على الأعمّ من الوحدة النوعيّة والشخصيّة، ولو حملت على الشخصيّة يمكن أن يستخرج منه ثلاث حجج بهذا التقرير ولا يخفى توجيهاها.

الرابع: أن يكون إشارة إلى ثلاث حجج لكن على وجه آخر، وتقرير الأول: أنّه لو كان اثنين فإنّما أن يكونا قويّين أي مستقلّين بالقدرة على كلّ ممكن في نفسه سواء كان موافقاً للمصلحة أو مخالفاً، وهو إنّما يتصوّر بكونهما قديمين، وإنّما أن يكونا ضعيفين أي غير مستقلّين بالقدرة على ممكن ما في نفسه، وإنّما أن يكون أحدهما قوياً والآخر ضعيفاً، والأوّل محال لاشتماله على التناقض، لأنّ كون كلّ منهما قوياً بهذا المعنى يستلزم أن يكون قوياً على دفع الآخر عن أن يصدر عنه مراد الأوّل بعينه أو مثله أو ضده في محلّه، لأنّ عدم

المنافي شرط في صدور كل ممكن، وعدم القوّة على الشرط ينافي القوّة على المشروط، ولا شك أن المدفوع كذلك ضعيف مسخر، فقوّة كل منهما في فعل صدر عنه يستلزم دفعه الآخر فيه وضعف ذلك الآخر، وفي فعل تركه حتّى فعل الآخر ضده يستلزم تمكينه الآخر في فعله، وهذا تفرد بالتدبير، فالاستفهام في «لم لا يدفع» إنكارى أي معلوم ضرورة أنه يدفع كل منهما الآخر ويتفرد بالتدبير، وبطلان الشق الثالث لكونه مستلزماً لعجز أحدهما أي ضعفه، وعدم كونه ممّن ينتهي إليه شيء من تدبير العالم يستلزم بطلان الشق الثاني بطريق أولى.

وتقرير الثاني: هو أنه لو كان المدبر اثنين فنسبة معلول معلول إليهما إمّا متساوية من جميع الوجوه بأن لا يكون في واحد منهما ولا في كل منهما ما يختص به ويرجح صدوره عنه على صدوره عن الآخر من الداعي والمصلحة ونحوهما، وإمّا غير متساوية من جميع الوجوه وكلاهما باطل.

أمّا الأوّل: فلأنه إمّا أن يكون ترك كل منهما لذلك المعلول مستلزماً لفعل الآخر إياه لحكمة كل منهما أم لا، فعلى الأوّل: إحداث أحدهما ذلك المعلول يستلزم الترجيح بلا مرجح، لأن إحداث كل منهما ذلك المعلول ليس أولى بوجه من تركه إياه وإحداث الآخر إياه، وعلى الثاني: إمّا أن يكون ترك التارك له مع تجويزه الترك على الآخر قبيحاً وخلاف الحكمة أم لا، والأوّل يستلزم النقص، والثاني يستلزم عدم إمكان رعاية المصالح التي لا تحصى في خلق العالم، لأنه اتّفاقيّ حينئذ، ومعلوم بديهية أن الاتّفاقيّ لا يكون منتظماً في أمر سهل، كصدور مثل قصيدة من قصائد البلغاء المشهورين عمّن لم يمارس البلاغة، وإن كان يمكن أن يصدر عنه اتّفاقاً مصراعاً بليغ، أو مصراعان فضلاً عمّا نحن فيه.

وأمّا بطلان الثاني: فلأنه يستلزم أن يكون مختلفة من جميع الوجوه بأن لا يكون أحدهما قادراً عليه أصلاً، لأن اختلاف نسبة قادرين إلى معلول واحد شخصيّ إنّما يتصوّر فيما يمكن أن يكون صدوره عن أحدهما أصلح وأنفع من صدوره عن الآخر، وهذا إنّما يتصوّر فيما كان نفع فعله راجعاً إليه كالعباد، وأمّا إذا كان القادران بريئين من الانتفاع كما فيما نحن فيه فلا يتصوّر ذلك فيه بديهية، وينبّه عليه أن الغني المطلق إنّما يفعل ما هو الخير في نفسه من غير أن يكون له فيه نفع، سواء كان لغيره فيه نفع كما في ثواب المطيع أو لم يكن، ومثاله عقاب الكافر إن لم يكن للمطيعين فيه نفع.

وتقرير الثالث أنه: إن كان المدبر اثنين فنسبة معلول معلول إليهما إمّا متساوية من جميع الوجوه أو لا وكلاهما باطل. أمّا الأوّل: فلأن صدور بعض المعلولات عن أحدهما وبعض آخر منها عن الآخر منهما حينئذ يحتاج إلى ثالث هو الفرجة بينهما، أي ما يميّز ويعيّن كل معلول معلول لواحد معيّن منهما حتّى يكون المدبران اثنين، لامتناع الترجيح من جهة الفاعلين بلا مرجح أي بلا داع أصلاً كما هو المفروض، فيلزم

خلاف الفرض، وهو أن يكون المدبر ثلاثة ثم تنقل الكلام إلى الثلاثة وهكذا إلى ما لا نهاية له في الكثرة ويلزم التسلسل. وإنما لم يكتف عليه السلام بعد نقل الكلام إلى الثلاثة بالاحتياج إلى فرجة واحدة للتمييز حتى يكون المجموع أربعة لا خمسة، وإن كان المطلوب وهو لزوم التسلسل حاصلًا به أيضاً لأنّ هناك ثلاثة تميزات، وتخصيص واحد منهما بتمييز كما هو المفروض، واشتراك اثنين منهما بواحد مع اتحاد النسبة تحكم. وأمّا بطلان الثاني: فلما مرّ في بيان بطلان الشقّ الثاني من الدليل الثاني.

أقول:

لا يخفى بعد هذا التقرير عن الأفهام واحتياجه إلى تقدير كثير من المقدمات في الكلام. الخامس: أن يكون الأوّل إشارة إلى برهان التمانع بأحد تقريراته المشهورة، والثاني إلى التلازم كما مرّ، والثالث يكون إلزاماً على المجسّمة المشتركة القائلين بالهين مجسّمين متباعين في المكان كما هو الظاهر من كلام المجوس «لعنهم الله»، ويكون الفرجة محمولة على معناها المتبادر من جسم يملأ البعد بينهما لبطلان الخلا أو سطح فاصل بينهما لتحقيق الاثنينية. هذا ما قيل أو يمكن أن يقال في حلّ هذا الخبر الذي تحيّرت فيه الأفهام والفكر. ولم نتعرض لبسط الكلام في كلّ وجه. ولا لإيراد ما يرد على كلّ منها من الإشكالات والاعتراضات احترازاً عن الإسهاب^(١) والإطناب والله الموفق للصواب.

١٢٣١. التوحيد^(٢): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّفَّارِ، عَنْ عَبْدِ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنْ سَعْدِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام عَنِ التَّوْحِيدِ، فَقَالَ: هُوَ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ^(٣).

١٢٣٢. التوحيد^(٤): أَبِي، عَنْ سَعْدِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَاشِمٍ وَبِقُوتِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ ابْنِ فَضَّالٍ، عَنْ ابْنِ بُكَيْرٍ، عَنْ زُرَّارَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: سَمِعْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾^(٥) قَالَ: هُوَ تَوْحِيدُهُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٦).

١٢٣٣. التوحيد^(٧): الْأُسْتَنْبِي، عَنْ ابْنِ مَهْرُوبٍ، عَنِ الْفَرَّاءِ، عَنِ الرِّضَا، عَنْ آبَائِهِ، عَنْ عَلِيِّ عليه السلام قَالَ: قَالَ رَسُولُ

١. أسهب الرجل: أكثر الكلام، راجع لسان العرب.

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٤٦، ح ٦.

٣. **فقول:** إشارة إلى أنّ التوحيد الحقيقي هو ما عليه الشيعة بتعليم أئمتهم عليهم السلام.

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ٤٦، ح ٧؛ تفسير البرهان، ج ١، ص ٦٥٠، ح ١٧٨٠.

٥. آل عمران/ ٨٣.

٦. **فقول:** لا يبعد أن يكون «كرها» إشارة إلى أنّ الكفار إذا ركبوا في الفلك أو ابتلوا ببلاء دعوا الله مخلصين له الدين ولكنه من باب الإكراه والاضطرار.

٧. التوحيد (للصدوق)، ص ٦٨، ح ٢٤؛ صحيفة الإمام الرضا عليه السلام، ص ٥٢، ح ٥١.

اللَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: التَّوْحِيدُ نِصْفُ الدِّينِ^(١)، وَاسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ^(٢).

قال الصدوق في كتاب التوحيد بعد نقل خبر أعرابي: سمعت من أثق بدينه ومعرفته باللغة والكلام يقول: إن قول القائل: واحد واثنان وثلاثة إلى آخره، إنما وضع في أصل اللغة للإبانة عن كميّة ما يقال عليه لا لأنّ له مسمّى يتسمّى به بعينه، أو لأنّ له معنى سوى ما يتعلّمه الإنسان لمعرفة الحساب، ويدور عليه عقد الأصابع عند ضبط الآحاد والعشرات والمئات والألوف، ولذلك متى أراد مريد أن يخبر غيره عن كميّة شيء بعينه سمّاه باسمه الأخصّ، ثمّ قرن لفظة الواحد به وعلّقه عليه يدلّ به على كميّة لا على ما عدا ذلك من أوصافه، ومن أجله يقول القائل: درهم واحد، وإنّما يعني به أنّه درهم فقط، وقد يكون الدرهم درهماً بالوزن ودرهماً بالضرب، فإذا أراد المخبر أن يخبر عن وزنه قال: درهم واحد بالوزن، وإذا أراد أن يخبر عن عدده أو ضربه قال: درهم واحد بالعدد، ودرهم واحد بالضرب. وعلى هذا الأصل يقول القائل: هو رجل واحد، وقد يكون الرجل واحداً بمعنى أنّه إنسان وليس بإنسانين، ورجل ليس برجلين، وشخص ليس بشخصين، ويكون واحداً في الفضل، واحداً في العلم، واحداً في السخاء، واحداً في الشجاعة، فإذا أراد القائل أن يخبر عن كميّته قال: هو رجل واحد فدلّ ذلك من قوله على أنّه رجل وليس هو برجلين، وإذا أراد أن يخبر عن فضله قال: هذا واحد عصره، فدلّ ذلك على أنّه لا ثاني له في الفضل، وإذا أراد أن يدلّ على علمه قال: إنّّه واحد في علمه، فلو دلّ قوله: واحد بمجرّده على الفضل والعلم كما دلّ بمجرّده على الكميّة لكان كلّ من أطلق عليه لفظة واحد أراد فاضلاً لا ثاني له في فضله، وعالملاً لا ثاني له في علمه، وجواداً لا ثاني له في جوده، فلمّا لم يكن كذلك صحّ^(٣) أنّه بمجرّده لا يدلّ إلّا على كميّة الشيء دون غيره، وإلّا لم يكن لما أضيف إليه من قول القائل: واحد عصره ودهره فائدة، ولا كان لتقييده بالعلم والشجاعة معنى لأنّه كان يدلّ بغير تلك الزيادة وبغير ذلك التقييد على غاية الفضل وغاية العلم والشجاعة، فلمّا احتيج معه إلى زيادة لفظ واحتيج إلى التقييد بشيء صحّ ما قلناه. فقد تقرّر أنّ لفظة القائل واحد إذا قيل على الشيء دلّ بمجرّده على كميّة في اسمه الأخصّ، ويدلّ بما يقتزن به على فضل المقول عليه وعلى كماله وعلى توّحّده بفضله وعلمه وجوده، وتبيّن أنّ الدرهم الواحد قد يكون درهماً واحداً بالوزن، ودرهماً واحداً بالعدد، ودرهماً واحداً بالضرب، وقد يكون بالوزن درهمين، وبالضرب درهماً واحداً، ويكون بالدوانيق^(٤) ستّة دوانيق، وبالفلوس ستّين فلساً، ويكون

١. **فقول:** المراد من قوله نصف الدين أنّه من أركان الدين وأساسه فلا ينافي ما ورد بهذا التعبير بالنسبة إلى النكاح وغيره.

٢. **فقول:** الصدقة خدمة للخلق بنية القرب إلى الخالق، فهي مؤكدة للتوحيد، ولعلّ هذا هو الوجه في جعل هذين في عبارة واحدة.

٣. في نسخة: فلمّا لم يكن كذلك وضع. (هامش المطبوع)

٤. الدانق: هو سدس الدرهم، والجمع دوانيق، راجع لسان العرب.

بالأجزاء كثيراً، وكذلك يكون العبد عبداً واحداً ولا يكون عبيدين بوجه، ويكون شخصاً واحداً ولا يكون شخصين بوجه، ويكون أجزاء كثيرة وأبعاضاً كثيرة، وكلّ بعض من أبعاضه يكون جواهر كثيرة متّحدة اتّحد بعضها ببعض وتركّب بعضها مع بعض، ولا يكون العبد واحداً وإن كان كلّ واحد منه في نفسه إنّما هو عبد واحد، وإنّما لم يكن العبد واحداً لأنّه ما من عبد إلّا وله مثل في الوجود أو في المقدور، وإنّما صحّ أن يكون للعبد مثل لأنّه لم يتوحّد بأوصافه التي من أجلها صار عبداً مملوكاً، ووجب لذلك أن يكون الله عزّ وجلّ متوحّداً بأوصافه العلى وأسمائه الحسنى ليكون إلهاً واحداً، فلا يكون له مثل، ويكون واحداً لا شريك له ولا إله غيره، فالله تبارك وتعالى إله واحد لا إله إلّا هو، وقديم واحد لا قديم إلّا هو، وموجود واحد ليس بحالّ ولا محلّ، ولا موجود كذلك إلّا هو، وشيء واحد لا يجانسه ولا يشاكله شيء ولا يشبهه شيء، ولا شيء كذلك إلّا هو، فهو كذلك موجود غير منقسم في الوجود ولا في الوهم، وشيء لا يشبهه شيء بوجه، وإله لا إله غيره بوجه، وصار قولنا: يا واحد يا أحد في الشريعة اسماً خاصاً له دون غيره، لا يسمّى به إلّا هو عزّ وجلّ، كما أنّ قولنا: الله اسم لا يسمّى به غيره.

وفصل آخر في ذلك وهو أنّ الشيء قد يعدّ مع ما جانسه وشاكله ومائله، يقال: هذا رجل، وهذان رجلان، وثلاثة رجال. وهذا عبد، وهذا سواد، وهذان عبدان، وهذان سوادان. ولا يجوز على هذا الأصل أن يقال: هذان إلهان إذ لا إله إلّا إله واحد، فالله لا يعدّ على هذا الوجه، ولا يدخل في العدد من هذا الوجه بوجه. وقد يعدّ الشيء مع ما لا يجانسه ولا يشاكله، يقال: هذا بياض، وهذان بياض وسواد، وهذا محدث، وهذان محدثان، وهذان ليسا بمحدثين ولا بمخلوقين، بل أحدهما قديم والآخر محدث، وأحدهما ربّ والآخر مربوب، فعلى هذا الوجه يصحّ دخوله في العدد، وعلى هذا النحو قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ الآية^(١). وكما أنّ قولنا: فلان إنّما هو رجل واحد لا يدلّ على فضله بمجرد ذلك قولنا: فلان ثاني فلان لا يدلّ بمجرد ذلك قولنا: فلان إنّما هو رجل واحد لا يدلّ على فضله متى قيل: إنّ ثانياً في الفضل، أو في الكمال أو العلم. فأما توحيد الله تعالى ذكره فهو توحيد بصفاته العلى^(٢) وأسمائه الحسنى، ولذلك كان إلهاً واحداً لا شريك له ولا شبيه، والموحّد هو من أقرّ به على ما هو عليه عزّ وجلّ من أوصافه العلى وأسمائه الحسنى على بصيرة منه ومعرفة وإيقان وإخلاص، وإذا كان ذلك كذلك فمن لم يعرف الله عزّ وجلّ متوحّداً بأوصافه العلى وأسمائه الحسنى ولم يقرّ بتوحيده بأوصافه العلى فهو غير موحّد. وربّما قال جاهل من الناس: إنّ من

١. المجادلة/٧.

٢. في نسخة: فهو توحّد بصفاته العلى. (هامش المطبوع)

وَحَدَّ اللَّهُ وَأَقَرَّ أَنَّهُ وَاحِدٌ فَهُوَ مُوَحَّدٌ وَإِنْ لَمْ يَصِفْهُ بِصِفَاتِهِ الَّتِي تَوْحَّدَ بِهَا، لِأَنَّ مِنْ وَحَدَ الشَّيْءِ فَهُوَ مُوَحَّدٌ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ، فَيُقَالُ لَهُ: أَنْكَرْنَا ذَلِكَ لِأَنَّ مِنْ زَعَمَ أَنَّ رَبَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَشَيْءٌ وَاحِدٌ ثُمَّ أَثْبَتَ مَعَهُ مُوصُوفاً آخَرَ بِصِفَاتِهِ الَّتِي تَوْحَّدَ بِهَا فَهُوَ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَّةِ وَسَائِرِ أَهْلِ الْمِلَلِ ثَنَوِيٌّ غَيْرُ مُوَحَّدٍ، وَمُشْرِكٌ مُشَبَّهٌ غَيْرُ مُسْلِمٍ، وَإِنْ زَعَمَ أَنَّ رَبَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ، وَشَيْءٌ وَاحِدٌ، وَمَوْجُودٌ وَاحِدٌ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَجِبَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مُتَوْحِّدًا بِصِفَاتِهِ الَّتِي تَفَرَّدَ بِالْإِلَهِيَّةِ مِنْ أَجْلِهَا، وَتَوْحَّدَ بِالْوَحْدَانِيَّةِ لِتَوْحُّدِهِ بِهَا لِيَسْتَحِيلَ أَنْ يَكُونَ إِلَهٌ آخَرُ، وَيَكُونَ اللَّهُ وَاحِدًا وَالْإِلَهُ وَاحِدًا لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا شَبِيهَ، لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَتَوْحَّدَ بِهَا كَانَ لَهُ شَرِيكَ وَشَبِيهَ، كَمَا أَنَّ الْعَبْدَ لَمَّا لَمْ يَتَوْحَّدَ بِأَوْصَافِهِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا كَانَ عَبْدًا كَانَ لَهُ شَبِيهَ، وَلَمْ يَكُنِ الْعَبْدُ وَاحِدًا وَإِنْ كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِمَّنْ عَبْدًا وَاحِدًا، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَمَنْ عَرَفَهُ مُتَوْحِّدًا بِصِفَاتِهِ، وَأَقَرَّ بِمَا عَرَفَهُ وَاعْتَقَدَ ذَلِكَ كَانَ مُوَحَّدًا وَبِتَوْحِيدِ رَبِّهِ عَارِفًا، وَالْأَوْصَافُ الَّتِي تَوْحَّدَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا وَتَوْحَّدَ بِرَبُوبِيَّتِهِ لِتَفَرُّدِهِ بِهَا فِي الْأَوْصَافِ الَّتِي يَقْتَضِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَنْ لَا يَكُونَ الْمَوْصُوفُ بِهَا إِلَّا وَاحِدًا لَا يَشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ وَلَا يُوصَفُ بِهِ إِلَّا هُوَ؛ وَتِلْكَ الْأَوْصَافُ هِيَ كُوصَفْنَا لَهُ بِأَنَّهُ مَوْجُودٌ وَاحِدٌ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ حَالًا فِي شَيْءٍ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَحِلَّهُ شَيْءٌ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْعَدَمُ وَالْفَنَاءُ وَالزَّوَالُ؛ مُسْتَحَقٌّ لِلْوَصْفِ بِذَلِكَ بِأَنَّهُ أَوَّلُ الْأَوَّلِينَ، وَآخِرُ الْآخِرِينَ، قَادِرٌ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ ضَعْفٌ وَلَا عَجْزٌ؛ مُسْتَحَقٌّ لِلْوَصْفِ بِذَلِكَ بِأَنَّهُ أَقْدَرُ الْقَادِرِينَ، وَأَقْهَرُ الْقَاهِرِينَ، عَالِمٌ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ، لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ جَهْلٌ وَلَا سَهْوٌ، وَلَا شَكٌّ وَلَا نِسْيَانٌ؛ مُسْتَحَقٌّ لِلْوَصْفِ بِذَلِكَ بِأَنَّهُ أَعْلَمُ الْعَالَمِينَ، حَيٌّ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مَوْتٌ وَلَا نَوْمٌ، وَلَا تَرْجِعُ إِلَيْهِ مَنْفَعَةٌ، وَلَا تَنَالُهُ مُضَرَّةٌ؛ مُسْتَحَقٌّ لِلْوَصْفِ بِذَلِكَ بِأَنَّهُ أَبْقَى الْبَاقِينَ، وَأَكْمَلُ الْكَامِلِينَ، فَاعِلٌ لَا يَشْغَلُهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ، وَلَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَلَا يَفُوتُهُ شَيْءٌ؛ مُسْتَحَقٌّ لِلْوَصْفِ بِذَلِكَ بِأَنَّهُ إِلَهٌ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَأَحْسَنُ الْخَالِقِينَ وَأَسْرَعَ الْحَاسِبِينَ، غَنِيٌّ لَا يَكُونُ لَهُ قَلَّةٌ، مُسْتَغْنٍ لَا يَكُونُ لَهُ حَاجَةٌ، عَدْلٌ لَا تَلْحَقُهُ مَذْمَةٌ، وَلَا تَرْجِعُ إِلَيْهِ مَنْقَصَةٌ، حَكِيمٌ لَا يَقَعُ مِنْهُ سَفَاهَةٌ، رَحِيمٌ لَا يَكُونُ لَهُ رَقَّةٌ وَيَكُونُ فِي رَحْمَتِهِ سَعَةٌ، حَلِيمٌ لَا يَلْحَقُهُ مَوْجِدَةٌ^(١)، وَلَا يَقَعُ مِنْهُ عَجَلَةٌ؛ مُسْتَحَقٌّ لِلْوَصْفِ بِذَلِكَ بِأَنَّهُ أَعْدَلُ الْعَادِلِينَ، وَأَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، وَأَسْرَعَ الْحَاسِبِينَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ أَوَّلَ الْأَوَّلِينَ لَا يَكُونُ إِلَّا وَاحِدًا، وَكَذَلِكَ أَقْدَرُ الْقَادِرِينَ، وَأَعْلَمُ الْعَالَمِينَ، وَأَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ، وَأَحْسَنُ الْخَالِقِينَ، وَكُلُّ مَا جَاءَ عَلَى هَذَا الْوِزْنِ، فَصَحَّ بِذَلِكَ مَا قُلْنَا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ وَمِنْهُ الْعِصْمَةُ وَالتَّسْدِيدُ^(٢).

١. وجد عليه مَوْجِدَةٌ: غضب، راجع شمس العلوم.

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٨٤-٨٨.

﴿باب ٧﴾

«عبادة الأصنام والكواكب والأشجار والنيرين وعلّة حدوثها
وعقاب من عبدها أو قرب إليها قرباناً»

الآيات:

الأنعام / ٧١: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا...﴾.

الأعراف / ١٩١-١٩٨: ﴿أَيُّ شِرْكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصراً وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ * إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ * إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

يونس / ١٨: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أْتُبَيِّنُ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١).

١. **نقول:** لقد كان الاعتقاد بشفاعة الأصنام أحد أسباب عبادتها، وكما جاء في التواريخ، فإن عمرو بن لحي كبير العرب عند ما ذهب إلى المياه المعدنية في الشام لمعالجة نفسه بها، جلب انتباهه وضع عبدة الأصنام، ولما سأل منهم عن الباعث على هذا العمل والعبادة، قالوا له: إن هذه الأصنام هي سبب نزول الأمطار، وحل المشاكل، ولها الشفاعة بين يدي الله، ولما كان رجلاً خرافياً وقع تحت تأثير هذه الأجوبة، وطلب منهم بعض الأصنام ليأخذها إلى الحجاز، وعن هذا الطريق راجت عبادة الأصنام بين أهل الحجاز. إن القرآن يقول في دفع هذا الوهم: ﴿قُلْ

يونس / ٣٤ و ٣٥: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَآتَى تُوفُّكَوْنَ * قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

هود / ١٠٩: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾.

النحل / ١٧: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

النحل / ٢٠-٢٢: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ * إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾.

النحل / ٧١: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

النحل / ٧٣-٧٦: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلَا يَسْتَطِيعُونَ * فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(١)﴾.

→ أَتَبَيَّنُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ؟ وهو كناية عن أن الله سبحانه لو كان له مثل هؤلاء الشفعاء، فإنه يعلم بوجودهم في أي نقطة كانوا من السماء والأرض، لأن سعة علم الله لا تدع أصغر ذرة في السماء والأرض إلا وتحيط بها علما. وبتعبير آخر، إن ذلك يشبه تماما ما لو قيل لشخص: أ عندك مثل هذا الوكيل؟ وهو في الجواب يقول: لا علم لي بوجود هذا الوكيل، وهذا أفضل دليل على نفيه حيث لا يمكن أن لا يعلم الإنسان بوكيله. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٦، ص ٣٢٣)

١. **نقول:** هذه الآية، إشارة إلى المشركين بأن لا أمل لكم في عبادتكم للأصنام، لأنها لا تضرركم ولا تنفعكم وليس لها أي أثر على مصيركم، فالرزق مثلا والذي به تدور عجلة الحياة سواء كان من السماء (كقطرات المطر وأشعة الشمس وغير ذلك) أو ما يستخرج من الأرض، إنما هو خارج عن اختيار الأصنام، لأنها موجودات فاقدة لأية قيمة ولا تملك الإرادة، وإن هي إلا خرافات صنعتها العصبية الجاهلية ليس إلا. وجملة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ سبب لجملة ﴿لَا يَمْلِكُ﴾ أي: إنها لا تملك شيئا من الأرزاق لعدم استطاعتها الملك، فكيف بالخلق! ثم تقول الآية التالية كنتيجة لما قبلها: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ وَذَلِكَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. قال بعض المفسرين: إن عبارة ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ تشير إلى منطق المشركين في عصر الجاهلية (ولا يخلو عصرنا الحاضر من أشباه أولئك المشركين) حيث كانوا يقولون: إنما نعبد

مريم ٤٢: ﴿... يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾.

الحج ١٢ و ١٣: ﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ * يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِيُبْسِ الْمَوْتَى وَلِيُبْسِ الْعَشِيرُ﴾.

الحج ٧٣ و ٧٤: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

الفرقان ٤١-٤٣: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ أَنْ يَنْخَضُونَكَ إِلَّا هُزُواً هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِنَّ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْ لَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا * أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

الفرقان ٥٥: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾.

الشعراء ٦٩-٧٧: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

الشعراء ٩١-١٠٢: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ * فَكَبَّكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

النمل ٢٤-٢٦: ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبِّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

→ الأصنام لأننا لا نتملك الأهلية لعبادة الله، فنعبدها لتقربنا إلى الله! وإن الله مثل ملك عظيم لا يصل إليه إلا الوزراء والخواص، وما على عوام الناس إلا أن تقترب للحاشية والخواص لتصل إلى خدمة الله!! هذا الانحراف في التوجه والتفكير، الذي قد يتجسم أحيانا على هيئة أمثال منحرفة، إنما هو من الخطورة بمكان بحيث يطفى على كل الانحرافات الفكرية. ولذا يجيبهم القرآن الكريم قائلا: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ التي هي من صنع أفكاركم المحدودة ومن صنع موجودات (ممكنة الوجود) وملبئة بالنواقص. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٨، ص ٢٦٠)

العنكبوت ١٧-٢٥: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

الروم ١٢-٢٨: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

يس ٢٣ و ٢٤: ﴿أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُون * إِنِّي إِذَا لَفَى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

الصافات ٣٥ و ٣٦: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ إِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾^(١).

الصافات ٨٦-٩٦: ﴿أَفِئْكَآ آلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

الصافات ١٢٥ و ١٢٦: ﴿أَتَدْعُونَ بَغْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

ص ٥-٧: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾.

الزمر ٢ و ٣: ﴿... فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ...﴾^(٢).

١. **نقول:** إنَّ التكبر والغرور، وعدم الانصياع للحق، والعمل بالعادات الخاطئة والتقاليد الباطلة بإصرار ولجاجة، والنظر إلى كل شيء

باستخفاف واستحقار، تؤدي جميعاً إلى انحراف الإنسان. فروح الاستكبار يقابلها الخضوع والاستسلام للحق والذي هو الإسلام الحقيقي،

الاستكبار الذي هو أساس الظلام، فيما أنَّ الخضوع والاستسلام هو أساس السعادة. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٤، ص ٣١٠)

٢. **نقول:** منطق عبدة الأصنام واضح، فأحد أسباب عبادة الأصنام هي أنَّ مجموعة كانت تزعم أنَّ الله سبحانه وتعالى أجلُّ من أن يحيط به

الإدراك الإنساني من عقل أو وهم أو حس، فهو منزّه عن أن يكون مورداً للعبادة مباشرة، فلذا قالوا: من الواجب أن نتقرب إليه بالتقرب إلى

مقربيه من خلقه، وهم الذين فوض إليهم تدبير شؤون العالم، فتتخذهم أرباباً من دون الله ثمَّ آلهة نعبدهم ونتقرب إليهم ليشفعوا لنا عند الله

الزمر/٣٨: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

الزمر/٤٣-٤٥: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

غافر/٦٦: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

غافر/٧١-٧٤: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ * ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾.

فصلت/٣٧: ﴿... لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

الشورى/٦: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِیْظٌ عَلَيْهِمْ ...﴾.

→ ويقربونا إليه زلفى، وهؤلاء هم الملائكة والجن وقد يسو البشر. ولما أحسوا بأن ليس باستطاعتهم الوصول إلى أولئك المقدسين، بنوا تماثيل لهم، وأخذوا يعبدونها، وهذه التماثيل هي نفسها الأصنام، ولأنهم كانوا يزعمون أن لا فرق بين التماثيل وأولئك المقدسين وأنّ لهما نوعاً من التوحد، لذا عمدوا إلى عبادة الأصنام واتخاذها آلهة لهم. وبهذا الشكل فإنّ الأرباب في نظرهم، هم أولئك الذين خلقهم الله وقربهم إلى نفسه، وفوض إليهم تدبير شؤون العالم حسب زعمهم، وكانوا يعتبرون البارئ عزّ وجلّ هو (رب الأرباب) وهو خالق عالم الوجود، ومن النادر أن يوجد من الوثنيين من يقول بأن هذه الأصنام المصنوعة من الحجر والخشب، أو حتى آلهتهم الوهمية -أي الملائكة والجن وأمثالهم - هي التي خلقت هذا الكون وأوجدته وبالطبع فإنّ هناك أسباباً أخرى لعبادة الأصنام، ومنها أنّ الاحترام الفائق الذي يكنونه في بعض الأحيان للأنبياء والصالحين يتسبب في احترام حتى التمثال الذي ينحت أو يصنع لهم بعد وفاتهم، ومع مرور الزمن تأخذ هذه تماثيل طابعا استقلاليا، ويتبدل الاحترام إلى عبادة، ولهذا فإنّ الإسلام نهى بشدّة عن صنع التماثيل. وقد ورد في كتب التاريخ أنّ عرب الجاهلية كانوا يكتنون احتراماً فائقاً للكعبة الشريفة ولأرض مكة المكرمة، ولهذا كانوا يأخذون معهم قطعة حجر صغيرة من تلك الأرض عند ما يذهبون إلى مكان آخر، ويضفون عليها الاحترام والتقديس، ومن ثمّ يعمدون إلى عبادتها. عبادة الأصنام -بأي شكل كانت - ما هي إلّا أوهام وخيالات لا صحة لها ترشحت من أفكار ضعيفة وعاجزة، حرفت الناس عن الطريق الرئيسي الأصيل لمعرفة الله. والقرآن المجيد يؤكّد بصورة خاصّة على أنّ الإنسان يستطيع أن يتصل بالله من دون أي واسطة، وأن يتحدث معه ويناجيه ويطلب منه حاجته، ويطلب العفو والتوبة، فكلّ هذه الأمور من الله وتحت تسلط قدرته. وبهذا الشكل فالبارئ عزّ وجلّ ليس ببعيد عنّا، ولسنا بعيدين عنه كي تكون هناك حاجة للوساطة بين الطرفين، إنّه أقرب إلينا من كلّ قريب، وموجود في كلّ مكان وفي أعماق قلوبنا. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٥، ص ١١)

الزخرف ٨٦/ و ٨٧: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

الجاثية ٢٣: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ...﴾.

الأحقاف ٤-٦: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

الأحقاف ٢١-٢٨: ﴿... أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَوْ لَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

النجم ١٩-٢٣: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ...﴾^(١).
الكافرون ١-٦: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخر السورة.

أقول:

سيأتي الآيات الكثيرة في ذلك في كتاب النبوة وكتاب الاحتجاج وكتاب المعاد.

الروايات:

١٢٣٤. تفسير القمي^(٢): ﴿وَلَا تَذَرْنَّ وُدًّا وَلَا سُوعًا وَلَا يَعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾^(٣) قَالَ: كَانَتْ وَدُّ صَمًّا لِكَلْبٍ،

١. **نقول:** إنَّ واحداً من أقدم أسس الشرك هو تنوع الموجودات في العالم حيث أنَّ ذوي الفكر القصير والنظر الضيق لم يستطيعوا تصديق أنَّ كلَّ هذه الموجودات المتنوعة في السماء والأرض مخلوقة لله الأحد «لأنَّهم يقيسون ذلك بأنفسهم إذ لا يتسنَّى لهم التسلُّط إلا على أمر واحد أو عدَّة أمور» لذلك كانوا يزعمون أنَّ لكلَّ نوع من الموجودات ربًّا يعيِّر عنه «(ربُّ النوع)» كربُّ نوع البحر، وربُّ نوع الصحراء، وربُّ نوع المطر، وربُّ نوع الشمس، وربُّ الحرب، وربُّ الصلح...، وهذه الآلهة المزعومة التي كانوا يسمونها الملائكة أحياناً كانت حسب اعتقادهم تحكم هذا العالم وحيشما تقع مشكلة يلتجأ إلى ربِّ نوعها وحيث أنَّ أرباب الأنواع لم تكن موجودات محسوسة فقد صنعوا لها تماثيل وعبدوها! هذه العقائد الخرافية انتقلت من اليونان إلى المناطق الأخرى حتَّى وصلت إلى الحجاز. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٧، ص ٢٣٧)

٢. ورد في تفسير القمي، ج ٢، ص ٣٨٨، عن أبي جعفر عليه السلام: تفسير البرهان، ج ٥، ص ٥٠٢، ح ١١١١٤.

وَكَانَتْ سَوَاعٌ لِهَذَيْلٍ وَيَعُوْتُ لِمُرَادٍ وَكَانَتْ يَعُوقُ لِهَمْدَانَ وَكَانَتْ نَسْرُ لِحُصَيْنٍ.

١٢٣٥. قرب الإسناد^(٤): هَارُونُ، عَنِ ابْنِ صَدَقَةَ، عَنْ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ عليه السلام، أَنَّ عَلِيًّا «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ» سُئِلَ عَنْ أَسَافٍ وَنَائِلَةٍ وَعِبَادَةِ قُرَيْشٍ لَهُمَا، فَقَالَ: نَعَمْ كَانَا شَابَّيْنِ صَبِيحَيْنِ^(٥)، وَكَانَ بِأَحَدِهِمَا تَأْنِيثٌ، وَكَانَا يَطُوفَانِ بِالْبَيْتِ فَصَادَفَا مِنْ الْبَيْتِ خَلْوَةً فَأَرَادَ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ فَفَعَلَ، فَمَسَخَهُمَا اللَّهُ حَجَرَيْنِ^(٦)، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: لَوْ لَا أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَضِيَ أَنْ يُعْبَدَا مَعَهُ مَا حَوَّاهُمَا عَنْ حَالِهِمَا^(٧).

١٢٣٦. علل الشرائع^(٨): فِي أَسْئَلَةِ الشَّامِيِّ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ أَوَّلِ مَنْ كَفَرَ وَأَنْشَأَ الْكُفْرَ، فَقَالَ عليه السلام: إِبْلِيسُ «لَعَنَهُ اللَّهُ».

١٢٣٧. علل الشرائع^(٩): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي الْخَطَّابِ وَابْنِ عَيْسَى، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَابِرٍ، وَكَرَّامِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ أَبِي الدَّيْلَمِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: إِنْ قَابِيلَ لَمَّا رَأَى النَّارَ قَدْ قَبِلَتْ قُرْبَانَ هَابِيلَ قَالَ لَهُ إِبْلِيسُ: إِنْ هَابِيلَ كَانَ يَعْبُدُ تِلْكَ النَّارَ، فَقَالَ قَابِيلُ: لَا أَعْبُدُ النَّارَ الَّتِي عَبْدَهَا هَابِيلُ، وَلَكِنْ أَعْبُدُ نَاراً أُخْرَى، وَأَقْرَبُ قُرْبَاناً لَهَا فَتَقْبَلُ قُرْبَانِي، فَبَنَى بَيْوتَ النَّارِ فَقَرَّبَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ بِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَمْ يَرِثْ مِنْهُ وَلَدُهُ إِلَّا عِبَادَةَ النَّيِّرَانِ.

١٢٣٨. علل الشرائع^(١٠): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ عَيْسَى، عَنْ ابْنِ مَحْبُوبٍ، عَنْ ابْنِ النُّعْمَانِ، عَنْ بُرَيْدٍ الْعُجَلِيِّ قَالَ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: إِنَّمَا سُمِّيَ الْعُودُ خِلَافاً لِأَنَّ إِبْلِيسَ عَمِلَ صُورَةَ سَوَاعٍ عَلَى خِلَافِ صُورَةِ وَدٍّ فَسُمِّيَ الْعُودُ خِلَافاً. وهذا في حديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

بيان:

إِنَّمَا سُمِّيَ الْعُودُ، أَيِ الشَّجَرَةِ الْمَعْهُودَةِ خِلَافاً لِأَنَّ إِبْلِيسَ عَمِلَ سَوَاعاً مِنْهَا عَلَى خِلَافِ وَدٍّ فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ بِهَا. ١٢٣٩. علل الشرائع^(١١): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ عَيْسَى، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْبَرْقِيِّ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ عَيْسَى، عَنْ حَرِيزٍ، عَنْ جَعْفَرٍ

٣. نوح/٢٣.

٤. قرب الإسناد، ص ٥٠، ح ١٦٣؛ وقد ورد في الكافي، ج ٤، باب التَّوَادِر، ص ٥٤٦، ح ٢٩، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام.

٥. رجل صبيح: جميل، راجع لسان العرب.

٦. لم يرد في الكافي «حجرين».

٧. الحديث موضوع وهو قصة تاريخية خرافية. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

٨. علل الشرائع، ج ٢، ص ٥٩٥، ح ٤٤؛ وقد ورد في قرب الإسناد، ص ٤٨، ح ١٥٦ بهذا المضمون؛ تحف العقول، ص ١٢٤.

٩. علل الشرائع، ج ١، ص ٣، ح ١؛ وقد ورد في قصص الأنبياء عليهم السلام (للراوندي)، ص ٦٦، ح ٤٦، مع اختلاف العبارات.

١٠. علل الشرائع، ج ١، ص ٤، ح ١.

١١. علل الشرائع، ج ١، ص ٣، ح ١؛ تفسير البرهان، ج ٥، ص ٤٩٩، ح ١١١٠٨.

بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾^(١)، قَالَ: كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَمَاتُوا فَضَجَّ قَوْمُهُمْ وَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَجَاءَهُمْ إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللَّهُ فَقَالَ لَهُمْ: اتَّخِذُوا لَكُمْ أَصْنَامًا عَلَى صُورِهِمْ فَتَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ وَتَتَأْنِسُونَ بِهِمْ وَتَعْبُدُونَ اللَّهَ، فَأَعَدَّ لَهُمْ أَصْنَامًا عَلَى مِثَالِهِمْ فَكَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَيَنْظُرُونَ إِلَى تِلْكَ الْأَصْنَامِ، فَلَمَّا جَاءَهُمُ الشِّتَاءُ وَالْأَمْطَارُ أَدْخَلُوا الْأَصْنَامَ الْبُيُوتَ، فَلَمْ يَزَالُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى هَلَكَ ذَلِكَ الْقَرْنُ وَنَشَأَ أَوْلَادُهُمْ، فَقَالُوا: إِنَّ آبَاءَنَا كَانُوا يَعْبُدُونَ هَؤُلَاءِ، فَعَبَدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ الْآيَةَ.

١٢٤٠. قصص الأنبياء عليه السلام (٢): بِإِسْنَادٍ عَنِ الصَّدُوقِ «رَحِمَهُ اللَّهُ»، عَنِ ابْنِ الْمُتَوَكِّلِ، عَنِ الْحَمِيرِيِّ، عَنِ ابْنِ عِيسَى، عَنِ ابْنِ مَحْبُوبٍ، عَنِ الْأَخْوَلِ، عَنِ بُرَيْدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ فِي مَسْجِدِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله: إِنَّ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ هُوَ أَوَّلُ مَنْ صَوَّرَ صُورَةً عَلَى مِثَالِ آدَمَ عليه السلام لِيُفْتِنَ بِهِ النَّاسَ، وَيُضِلَّهُمْ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَانَ وَدٌّ فِي وُلْدِ قَابِيلَ، وَكَانَ خَلِيفَةً قَابِيلَ عَلَى وُلْدِهِ وَعَلَى مَنْ بَحَضَرَتْهُمْ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ (٣) يُعْظَمُونَهُ وَيُسَوِّدُونَهُ، فَلَمَّا أَنْ مَاتَ وَدٌّ جَزَعَ عَلَيْهِ إِخْوَتُهُ، وَخَلَّفَ عَلَيْهِمْ ابْنًا يُقَالُ لَهُ: «سُوَاعٌ» فَلَمْ يُعْنِ غَنَاءَ أَبِيهِ مِنْهُمْ فَأَتَاهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ شَيْخٍ، فَقَالَ: قَدْ بَلَغَنِي مَا أَصَبْتُمْ بِهِ مِنْ مَوْتِ وَدٍّ عَظِيمِكُمْ، فَهَلْ لَكُمْ فِي أَنْ أَصَوِّرَ لَكُمْ عَلَى مِثَالِ وَدٍّ صُورَةً تَسْتَرِيحُونَ إِلَيْهَا وَتَتَأْنِسُونَ بِهَا؟ قَالُوا: أَفْعَلْ. فَعَمِدَ الْخَبِيثُ إِلَى الْآنُكَ (٤) فَأَذَابَهُ حَتَّى صَارَ مِثْلَ الْمَاءِ، ثُمَّ صَوَّرَ لَهُمْ صُورَةً مِثَالِ وَدٍّ فِي بَيْتِهِ فَتَدَافَعُوا عَلَى الصُّورَةِ يَلْتَمِسُونَهَا (٥) وَيَضَعُونَ خُدُودَهُمْ عَلَيْهَا وَيَسْجُدُونَ لَهَا، وَأَحَبَّ سُوَاعٌ أَنْ يَكُونَ التَّعْظِيمُ وَالسُّجُودُ لَهُ، فَوَثَبَ عَلَى صُورَةِ وَدٍّ فَحَكَّهَا حَتَّى لَمْ يَدَعْ مِنْهَا شَيْئًا، وَهَمُّوا بِقَتْلِ سُوَاعٍ، فَوَعَّظَهُمْ وَقَالَ: أَنَا أَقُومُ لَكُمْ بِمَا كَانَ يَقُومُ بِهِ وَدٌّ، وَأَنَا ابْنُهُ، فَإِنْ قَتَلْتُمُونِي لَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَئِيسٌ، فَمَالُوا إِلَى السُّوَاعِ بِالطَّاعَةِ وَالتَّعْظِيمِ فَلَمْ يَلْبِثْ سُوَاعٌ أَنْ مَاتَ، وَخَلَّفَ ابْنًا يُقَالُ لَهُ: «يَغُوثٌ» فَجَزَعُوا عَلَى سُوَاعٍ فَأَتَاهُمْ إِبْلِيسُ وَقَالَ: أَنَا الَّذِي صَوَّرْتُ لَكُمْ صُورَةَ وَدٍّ، فَهَلْ لَكُمْ أَنْ أَجْعَلَ لَكُمْ مِثَالَ سُوَاعٍ عَلَى وَجْهِهِ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُغَيِّرَهُ؟ قَالُوا: فَاْعْمَلْ، فَعَمِدَ إِلَى عُودٍ فَتَجَرَّه (٦) وَنَصَبَهُ لَهُمْ فِي مَنْزِلِ سُوَاعٍ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ ذَلِكَ الْعُودُ خِلَافًا، لِأَنَّ إِبْلِيسَ عَمِلَ صُورَةَ سُوَاعٍ عَلَى خِلَافِ صُورَةِ وَدٍّ. قَالَ: فَسَجَدُوا لَهُ وَعَظَّمُوهُ وَقَالُوا لِيَغُوثَ: مَا نَأْمُكَ عَلَى هَذَا الصَّنَمِ أَنْ تَكِيدَهُ كَمَا كَادَ أَبُوكَ مِثَالِ وَدٍّ، فَوَضَعُوا عَلَى الْبَيْتِ حُرَّاسًا وَحُجَّابًا، ثُمَّ كَانُوا يَأْتُونَ الصَّنَمَ

١. نوح/٢٣.

٢. قصص الأنبياء عليه السلام (للراوندي)، ص ٦٧، ح ٤٨.

٣. سفح الجبل: أسفله، راجع الصحاح.

٤. الآنك: الأشراب وهو الرصاص، راجع لسان العرب.

٥. لثمها: قتلها، راجع لسان العرب.

٦. نجر الخشبة: نحتها، راجع الصحاح.

فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، وَيَعْظُمُونَهُ أَشَدَّ مَا كَانُوا يُعْظُمُونَ سُوعَا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ يَغُوثُ قَتَلَ الْحَرَسَةَ وَالْحُجَابَ لَيْلًا، وَجَعَلَ الصَّنَمَ رَمِيمًا، فَلَمَّا بَلَغَهُمْ ذَلِكَ أَقْبَلُوا لِيَقْتُلُوهُ، فَتَوَارَى مِنْهُمْ إِلَى أَنْ طَلَبُوهُ وَرَأَسُوهُ وَعَظَّمُوهُ ثُمَّ مَاتَ وَخَلَفَ ابْنًا يُقَالُ لَهُ: «يَعُوقُ» فَأَتَاهُمْ إِبْلِيسُ فَقَالَ: قَدْ بَلَغَنِي مَوْتُ يَغُوثُ، وَأَنَا جَاعِلٌ لَكُمْ مِثَالَهُ فِي شَيْءٍ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُغَيِّرَهُ قَالُوا: فَأَفْعَلْ، فَعَمَدَ الْخَبِيثُ إِلَى حَجَرٍ ^(١) أَبْيَضَ فَتَفَرَّهَ ^(٢) بِالْحَدِيدِ حَتَّى صَوَّرَ لَهُمْ مِثَالَ يَغُوثٍ فَعَظَّمُوهُ أَشَدَّ مِمَّا مَضَى، وَبَنَوْا عَلَيْهِ بَيْتًا مِنْ حَجَرٍ، وَتَبَايَعُوا أَنْ لَا يَفْتَحُوا بَابَ ذَلِكَ الْبَيْتِ إِلَّا فِي رَأْسِ كُلِّ سَنَةٍ، وَسُمِّيَتِ الْبَيْعَةُ يَوْمَئِذٍ لَأَنَّهُمْ تَبَايَعُوا وَتَعَاقَدُوا عَلَيْهِ؛ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى يَعُوقَ فَعَمَدَ إِلَى رِيطَةٍ ^(٣) وَخَلَعَ فَالْقَاهَا فِي الْحَائِرِ ^(٤)، ثُمَّ رَمَاهَا بِالنَّارِ لَيْلًا فَأَصْبَحَ الْقَوْمُ وَقَدْ احْتَرَقَ الْبَيْتُ وَالصَّنَمُ وَالْحَرَسُ، وَازْفَضَ الصَّنَمَ مُلْقَى، فَجَزَعُوا وَهَمُّوا بِقَتْلِ يَعُوقَ فَقَالَ لَهُمْ: إِنْ قَتَلْتُمْ رَئِيسَكُمْ فَسَدَتْ أُمُورُكُمْ، فَكُتُّوا فَلَمْ يَلْبَثُ أَنْ مَاتَ يَعُوقُ وَخَلَفَ ابْنًا يُقَالُ لَهُ: «نَسْرُ»، فَأَتَاهُمْ إِبْلِيسُ فَقَالَ: بَلَغَنِي مَوْتُ عَظِيمِكُمْ فَأَنَا جَاعِلٌ لَكُمْ مِثَالَ يَعُوقَ فِي شَيْءٍ لَا يَبْلَى، فَقَالُوا: أَفْعَلْ، فَعَمَدَ إِلَى الذَّهَبِ وَأَوْقَدَ عَلَيْهِ النَّارَ حَتَّى صَارَ كَالْمَاءِ، وَعَمِلَ مِثَالًا مِنَ الطِّينِ عَلَى صُورَةِ يَعُوقَ ثُمَّ أَفْرَعَ الذَّهَبَ فِيهِ، ثُمَّ نَصَبَهُ لَهُمْ فِي دَيْرِهِمْ وَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى نَسْرِ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى دُخُولِ تِلْكَ الدَّيْرِ فَانْحَارَ عَنْهُمْ فِي فِرْقَةٍ قَلِيلَةٍ مِنْ إِخْوَتِهِ يَعْبُدُونَ نَسْرًا، وَالْآخَرُونَ يَعْبُدُونَ الصَّنَمَ حَتَّى مَاتَ نَسْرُ، وَظَهَرَتْ نُبُوءَةُ إِدْرِيسَ قَبْلَعَهُ حَالُ الْقَوْمِ وَأَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ جِسْمًا عَلَى مِثَالِ يَعُوقَ، وَأَنَّ نَسْرًا كَانَ يُعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ بِمَنْ مَعَهُ حَتَّى نَزَلَ مَدِينَةَ نَسْرِ وَهُمْ فِيهَا فَهَزَمَهُمْ ^(٥)، وَقُتِلَ مَنْ قُتِلَ، وَهَرَبَ مَنْ هَرَبَ، فَتَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ، وَأَمَرَ بِالصَّنَمِ فَحُمِلَ وَالْقِي فِي الْبَحْرِ، فَاتَّخَذَتْ كُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ صَنَمًا، وَسَمَّوْهَا بِأَسْمَائِهَا، فَلَمْ يَزَالُوا بَعْدَ ذَلِكَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ لَا يَعْرِفُونَ إِلَّا تِلْكَ الْأَسْمَاءَ، ثُمَّ ظَهَرَتْ نُبُوءَةُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(٦) فَدَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَخَدَهُ، وَتَرَكَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنَ الْأَصْنَامِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

بيان:

ارفضاض الشيء: تفرقه، وترفض: تكسر. «وانحاز عنه»: عدل.

١٢٤١. ثواب الأعمال ^(٧): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنِ الْبَرْقِيِّ، عَنْ أَبِي الْجَوَازِ ^(٨)، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلْوَانَ، عَنْ مُنْذِرٍ، عَنْ أَبِي

١. في المصدر: «حجر جرع أبيض...».

٢. تفره: ضربه، راجع لسان العرب.

٣. الربطة: كل ثوب ليّن دقيق، راجع لسان العرب.

٤. الحائر: هو المكان المظلم الوسط المرتفع الحروف، راجع لسان العرب.

٥. وفي نسخة: فهزمهم. (هامش المطبوع)

٦. وفي نسخة: فظهرت نبوة نوح عليه السلام. (هامش المطبوع)

٧. ثواب الأعمال، ص ٢٢٤.

٨. في المصدر: «سعد، عن البرقي، عن أبي عبد الله، عن أبي الجوزاء ...».

عَبَدَ اللَّهُ ﷻ قَالَ: ذَكَرَ أَنَّ سَلْمَانَ قَالَ: إِنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْجَنَّةَ فِي دُبَابٍ وَآخَرَ دَخَلَ النَّارَ فِي دُبَابٍ. فَقِيلَ لَهُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: مَرَّ عَلَى قَوْمٍ فِي عِيدٍ لَهُمْ، وَقَدْ وَضَعُوا أَصْنَامًا لَهُمْ لَا يَجُوزُ بِهِمْ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرَّبَ إِلَى أَصْنَامِهِمْ قُرْبَانًا قَلَّ أَمْ كَثُرَ، فَقَالُوا لَهُمَا: لَا تَجُوزَا حَتَّى تُقَرَّبَا كَمَا يُقَرَّبُ كُلُّ مَنْ مَرَّ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: مَا مَعِيَ شَيْءٌ أَقْرَبُهُ، وَأَخَذَ أَحَدُهُمَا دُبَابًا فَقَرَّبَهُ، وَلَمْ يُقَرَّبِ الْآخَرُ، فَقَالَ: لَا أَقْرَبُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ شَيْئًا، فَقَتَلُوهُ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ، وَدَخَلَ الْآخَرُ النَّارَ^(١).

١٢٤٢. تفسير العياشي^(٢): عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ﷻ فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَلَمْ يُجِبْهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: فَإِنْ كُنْتُ ابْنَ أَبِيكَ فَإِنَّكَ مِنْ أَتْنَاءِ عِبَدَةِ الْأَصْنَامِ، فَقَالَ ﷻ لَهُ: كَذَبْتَ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ ﷻ أَنْ يُنْزِلَ إِسْمَاعِيلَ ﷻ بِمَكَّةَ، فَفَعَلَ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ فَلَمْ يَعْبُدْ أَحَدًا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ صَنَمًا قَطُّ، وَلَكِنَّ الْعَرَبَ عِبَدَةُ الْأَصْنَامِ، وَقَالَتْ بَنُو إِسْمَاعِيلَ: ﴿هُؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فَكَفَرَتْ وَلَمْ تَعْبُدِ الْأَصْنَامَ^(٣).

بيان:

لعل المراد أنهم أقروا بوحداية الصانع، وإن أشركوا من جهة العبادة والسجود لها، فنفي ﷻ عنهم أعظم أنواع الشرك وهو الشرك في الربوبية، وقد مرّت الإشارة إلى الفرق بينهما في الباب السابق^(٤).

١٢٤٣. الكافي^(٥): مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَامِرٍ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ رِزْقٍ الْعُمَشَانِيِّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْأَشَلِّ بَيَّاعِ الْأَنْمَاطِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷻ قَالَ: كَانَتْ قُرَيْشٌ تُلَطِّخُ^(٦) الْأَصْنَامَ الَّتِي كَانَتْ حَوْلَ الْكَعْبَةِ بِالْمِسْكِ وَالْعَبْرِ، وَكَانَ يَعْوثُ قُبَالَةَ الْبَابِ، وَكَانَ يَعُوقُ عَنْ يَمِينِ الْكَعْبَةِ، وَكَانَ نَسْرُ عَنْ يَسَارِهَا، وَكَانُوا إِذَا دَخَلُوا خَرُّوا

١. نقول: الرواية ضعيفة سنداً.

٢. تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٣٠، ح ٣١.

٣. نقول: يظهر من الآيات القرآنية أن المشركين كانوا على طوائف، طائفة منهم كانت تقول بالنسبة إلى الأصنام ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، وطائفة أخرى يعتقدون بربوبية الأصنام وأن لها دوراً في الخلق أو في نزول الأرزاق والأمطار والغلبة على العدو وغير ذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اتَّخَذُوا مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْثَارَةً مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الأحقاف / ٤) وقال تعالى: ﴿فَلَوْ لَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (الأحقاف / ٢٨) فلو لا أنهم يدعون هذه الأمور للأصنام لم يكن وجه لهذه الأسئلة (فتأمل فإنه دقيق).

٤. والرواية مع ذلك لا تخلو عن شيء، فإن توحيد الصانع بهذا المعنى أساس الثنوية، واتخاذ الأصنام آلهة وعبادتها ليس إلا القول بكونهم شفعاء. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

٥. الكافي، ج ٤، باب النوادر، ص ٥٤٢، ح ١١.

٦. لطفه: لوّثه، راجع القاموس المحيط.

سُجِّدًا لِيُعَوِّثَ، وَلَا يَنْحُنُونَ^(١) ثُمَّ يَسْتَدِيرُونَ بِحِيَالِهِمْ^(٢) إِلَى يَعْقُوقَ، ثُمَّ يَسْتَدِيرُونَ بِحِيَالِهِمْ إِلَى نَسْرِ، ثُمَّ يُسَلِّتُونَ فَيَقُولُونَ: لَيْتَكَ اللَّهُمَّ لَيْتَكَ، لَيْتَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، إِلَّا شَرِيكَ هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ. قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَبَعَثَ اللَّهُ ذُبَابًا أَخْضَرَ لَهُ أَرْبَعَةَ أَجْحَةٍ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذَلِكَ الْمِسْكِ وَالْعَنْبَرِ شَيْئًا إِلَّا أَكَلَهُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾^(٤).

١٢٤٤. تفسير القمي^(٥): قَالَ عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾^(٦) قَالَ: نَزَلَتْ فِي قُرَيْشٍ وَذَلِكَ أَنَّهُ ضَاقَ عَلَيْهِمُ الْمَعَاشُ فَخَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ وَتَفَرَّقُوا، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا رَأَى شَجَرَةً حَسَنَةً، أَوْ حَجَرًا حَسَنًا هَوَاهُ^(٧) فَعَبَدَهُ، وَكَانُوا يَنْحَرُونَ لَهَا النَّعَمَ، وَيُلَطِّخُونَهَا بِالْدَّمِ، وَيُسَمُّونَهَا سَعْدَ صَخْرَةٍ، وَكَانَ إِذَا أَصَابَهُمْ دَاءٌ فِي إِبِلِهِمْ وَأَغْنَامِهِمْ جَاؤُوا إِلَى الصَّخْرَةِ فَيَتَمَسَّحُونَ بِهَا الْغَنَمَ وَالْإِبِلَ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ بِإِبِلٍ لَهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَمَسَّحَ بِالصَّخْرَةِ إِبِلُهُ وَيُبَارِكَ عَلَيْهَا، فَفَرَّتْ إِبِلُهُ وَتَفَرَّقَتْ، فَقَالَ الرَّجُلُ شِعْرًا:

فَشَتَّنَا سَعْدُ فَمَا نَحْنُ مِنْ سَعْدٍ

مِنَ الْأَرْضِ لَا تَهْدِي لَغَيٍّ وَلَا رُشْدٍ

لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الشَّعَالِبُ!

أَتَيْتُ إِلَى سَعْدٍ لِيَجْمَعَ شَمْلَنَا^(٨)

وَمَا سَعْدٌ إِلَّا صَخْرَةٌ مُسْوَدَّةٌ^(٩)

وَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ وَالْتَعَلَبُ يَبُولُ عَلَيْهِ فَقَالَ شِعْرًا:

أَرْبُ^(١٠) يَبُولُ الشَّعْلَبَانُ بِرَأْسِهِ؟

١. انحنى الشيء: انعطف، راجع لسان العرب.

٢. وفي نسخة: ولا يحبون. (هامش المطبوع)

٣. قعد بحiale: بإزائه، راجع لسان العرب.

٤. الحج/٧٣.

٥. تفسير القمي، ج ٢، ص ١١٤.

٦. الجاثية/٢٣.

٧. هواه: إذا أحبته واشتهاه، راجع مجمع البحرين.

٨. الشمل: الاجتماع، راجع لسان العرب.

٩. في المصدر: «مستوية».

١٠. في المصدر: «ورب».

﴿باب ٨﴾

«نفي الولد والصاحبة»

الآيات:

النساء/١٧١ و ١٧٢: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ...﴾^(١).

المائدة/١٧ و ١٨: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

١. **نقول:** ليس في الانحرافات التي تورط بها العالم المسيحي أكبر من انحراف عقيدة التثليث، لأنّ المسيحيين يعتقدون صراحة بالثالوث الإلهي، وهم في نفس الوقت يصرحون بأنّ الله واحد! أي أنّهم يرون الحقيقة في التثليث والتوحيد في آن واحد، فلو كان المسيحيون مستعدين لقبول مسألة التوحيد بأنها «مجازية» وقبول مسألة التثليث بأنها مسألة حقيقية أو قبول العكس لأمكن تبرير هذا الأمر، ولكنهم يرون الحقيقة في الجمع بين هذين المتناقضين، فيقولون أن الثلاثة واحد، كما يقولون أن الواحد ثلاثة في نفس الوقت. إن الأدلة العديدة التي يستشهد بها - في مجال التوحيد ووحداية الذات الإلهية - ترفض كل أنواع التثنية أو التثليث، فالله سبحانه وتعالى هو وجود مطلق لا يحد بالجهات، وهو أزلي أبدي لا حدود لعلمه ولقدرته ولقدرته. وبديهي أنّه لا يمكن تصور التثنية في اللامتناهي، لأنّ فرض وجود لا متناهيين يجعل من هذين الاثنين متناهيين ومحدودين، لأن وجود الأول يفتقر إلى قدرة وقوة وجود الثاني، كما أن وجود الثاني يفتقر إلى وجود وخصائص الأول، وعلى هذا الأساس فإن كلا الوجودين محدودان. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٣، ص ٥٤٩)

أقول:

سيأتي كثير من الآيات المتعلقة بعيسى عليه السلام في كتاب النبوة، وكثير منها في أبواب الاحتجاجات. التوبة / ٣٠ و ٣١: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

يونس / ٦٨: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

الإسراء / ٤٠: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾^(٢).
الكهف / ٤ و ٥: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

مريم / ٣٥: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.
مريم / ٨٨-٩٤: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾.

الأنبياء / ٢٦-٢٩: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يُسَبِّحُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ

١. **نقول:** مما يلفت النظر أن الآية عبّرت هنا بـ «اتَّخَذَ» وهذا يوحي أن هؤلاء كانوا يعتقدون أن الله تعالى لم يلد ذلك الولد، بل يقولون: إن الله قد اختار بعض الموجودات كولد له، تماما مثل أولئك الذين لا يولد لهم ولد، ويتبنون طفلا من دور الحضانة وأمثالها. على كل حال، فإن هؤلاء الجاهلين وقصيري النظر وقعوا في اشتباه المقارنة بين الخالق والمخلوق، وكانوا يقيسون ذات الله الصمدية على وجودهم المحدود المحتاج. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٦، ص ٤٠٣)

٢. **نقول:** إن الاعتقاد بوجود ابن الله لا يتلائم مع أي منطق ويعتبر ضعيفا من عدة جهات، هي:
(أ) إن هذا الاعتقاد يعتبر إهانة عظيمة لمحضره المقدس، لأنه سبحانه وتعالى ليس بجسم، وليست فيه الصفات الجسمانية، ولا يحتاج في بقائه إلى النسل. لذا فالاعتقاد بهذا الأمر يدل على عدم المعرفة بالصفات الإلهية.
(ب) كيف تعتقدون بأن أولاد الله كلهم بنات، في حين أنكم ترون البنات أدنى مكانة واحتراما من الأولاد؟ هذا الاعتقاد السفهية يعتبر إهانة أخرى إلى مقام الله تبارك وتعالى.

(ج) هذا الاعتقاد يعتبر إهانة لمقام ملائكة الله الذين يعتبرون من المقربين للعرش، فأنتم تصابون بالرعب بمجرد سماع كلمة «بنت»، في حين تعتبرون هؤلاء المقربين من العرش إناثا؟! (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٨، ص ٤٨٣)

بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ *
وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ *.

الصفات / ١٤٩-١٦٦: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لَرَّبُّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونُ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ أَفْكَهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ * فَاتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ * وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ *.

الزمر / ٤: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ *.

الزخرف / ١٥-٢٢: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ * أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَمْ مَنْ يُشْهَرُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ * وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ *.

الزخرف / ٨١ و ٨٢: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾^(١).

الطور / ٣٩: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبُتُونُ *.

النجم / ٢١ و ٢٢: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى *.

النجم / ٢٧ و ٢٨: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُنُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ

١. **نقول:** هنا نكتتان يجب الالتفات إليهما: الأولى: أنَّ العبادة لا تعني العبادة في كل الموارد، فقد تأتي أحياناً بمعنى الطاعة والتعظيم والاحترام، وهي هنا بهذا المعنى، فعلى فرض أن لله ولداً - وهو فرض محال - فلا دليل على عبادته، لكنه لما كان - طبقاً لهذا الفرض - ابن الله فيجب أن يكون مورد احترام وتقدير وطاعة. والأخرى: أنَّ (لو) تستعمل بدل (إن) في مثل هذه الموارد عادة في أدب العرب، وهي تدل على كون الشيء مستحيلاً، وإنما لم تستعمل في الآية - مورد البحث - مماشاة وانسجماً في الكلام مع الطرف المقابل. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٦، ص ١٠٣)

عَلِمَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا». الجن ٣: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾.

الروايات:

١٢٤٥. تفسير القمي^(١): جَعْفَرُ بْنُ أَحْمَدَ، عَنْ عُبيدِ اللَّهِ بْنِ مُوسَى، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي حَمْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قُلْتُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هَذَا حَيْثُ قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ لِلَّهِ وَلَدًا، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ إِنَاثُ، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ أَيَّ عَظِيمًا ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾^(٢) مِمَّا قَالُوا: ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾^(٣) فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾^(٤) وَاحِدًا وَاحِدًا.

١٢٤٦. التوحيد^(٥): مَا جِيلَوِيهِ، عَنْ عَمِّهِ، عَنِ الْبَرْقِيِّ، عَنِ الْيَاقِينِيِّ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ رُشَيْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الْمُفَضَّلِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي^(٦) لَمْ يَلِدْ فَيُورَثَ وَلَمْ يُولَدْ فَيُشَارَكَ.

١٢٤٧. تفسير القمي^(٧): قَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾^(٨) يَغْنِي أَوَّلَ الْآفِينِ لَهُ^(٩) أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ.

بيان:

هذا أحد الوجوه في تأويل هذه الآية. قال الجوهرية: قال أبو زيد: العبد بالتحريك: الغضب والأنف. والاسم العبدة مثل الأنفة، وقد عبد أي أنف، وقال أبو عمرو: قوله تعالى: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ من الأنف والغضب. انتهى؛ وثانيها: أن يكون من قبيل تعليق المحال بالمحال أي ليس له ولد، إذ لو كان له ولد لكنت

١. في تفسير القمي، ج ٢، ص ٥٦، ضمن رواية.

٢. في المصدر مع زيادة: «يعني ممَّا قالوه وممَّا مَوَّهوا به ﴿وتنشقُّ الأرض وتخرُّ الجبال هذا﴾».

٣. مريم/٨٨-٩١.

٤. مريم/٩٢-٩٥.

٥. التوحيد (للصدوق)، ص ٤٨، ح ١٢؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب النسبة، ص ٩١، ذيل، ح ٢.

٦. لم يرد في الكافي: «الحمد لله الذي».

٧. تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٨٩؛ وقد ورد في الإحتجاج (للطبرسي)، ج ١، ص ٢٥٠، ضمن رواية.

٨. الزخرف/٨١.

٩. في المصدر: «يعني أول القائلين لله...»، وفي الإحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فأنا أول العابدِينَ أي الجاحدين» فحسب.

أَوَّلُ الْعَابِدِينَ لَهُ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَكُونُ أَعْلَمُ بِاللَّهِ وَبِمَا يَصَحُّ لَهُ وَمَا لَا يَصَحُّ، وَأَوَّلَى بِتَعْظِيمِ مَا يَجِبُ تَعْظِيمُهُ، وَمَنْ حَقَّ تَعْظِيمُ الْوَالِدِ تَعْظِيمَ وَلَدِهِ؛ وَثَالِثُهَا: أَنَّ الْمَعْنَى: إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فِي زَعْمِكُمْ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ لِلَّهِ، الْمُوَحِّدِينَ لَهُ، الْمُنْكَرِينَ لِقَوْلِكُمْ؛ وَرَابِعُهَا: أَنَّ «إِنْ» بِمَعْنَى «مَا» لِلنَّفْيِ؛ وَالْمَعْنَى: مَا كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ، فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ لِلَّهِ الْمَقْرَرِينَ بِذَلِكَ.

أَقُولُ:

سَيَأْتِي مَا يَتَضَمَّنُ نَفْيَ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ فِي بَابِ جَوَامِعِ التَّوْحِيدِ، وَسَنَذَكُرُ احْتِجَاجَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْقَائِلِينَ بِالْوَلَدِ فِي الْمَجْلَدِ الرَّابِعِ^(١).

١. كتاب الإحتجاج، باب ١، ما احتجَّ ﷺ به على المشركين والزنادقة وسائر أهل الملل الباطلة.

﴿باب ٩﴾

«النهي عن التفكر في ذات الله تعالى، والخوض في مسائل التوحيد وإطلاق القول بأنه شيء»

الآيات:

الزمر/٦٧: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾.

الروايات:

١٢٤٨. تفسير العياشي^(١): عَنْ مَسْعُودَةَ بِنِ صَدَقَةَ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هَلْ تَصِفُ رَبَّنَا نَزْدَادُ لَهُ حُبًّا وَبِهِ مَعْرِفَةٌ؟ فَغَضِبَ وَخَطَبَ النَّاسَ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فِيمَا قَالَ: عَلَيْكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ بِمَا دَلَّكَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ صِفَتِهِ، وَتَقَدَّسَكَ فِيهِ^(٢) الرَّسُولُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ، فَأَتَمَّ بِهِ وَاسْتَضَى بِنُورِ هِدَايَتِهِ، فَإِنَّمَا هِيَ نِعْمَةٌ وَحِكْمَةٌ أَوْتِيَتْهَا فَحُذِّ مَا أَوْتِيَتْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ وَمَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ^(٣) مِمَّا لَيْسَ عَلَيْكَ فِي الْكِتَابِ فَرَضُهُ، وَلَا فِي سُنَّةِ الرَّسُولِ وَأَمَّةِ الْهُدَاةِ أَثَرُهُ، فَكُلْ عِلْمَهُ إِلَى اللَّهِ وَلَا تُقَدِّرْ عَلَيْهِ عَظَمَةَ اللَّهِ^(٤)، وَاعْلَمْ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ عَنِ الْإِقْتِحَامِ عَلَى السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ، إِقْرَارًا بِجَهْلِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ، فَقَالُوا: آمَنَّا بِهِ كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا، وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنِ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْمًا، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمْ الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخًا.

١. تفسير العياشي، ج ١، ص ١٦٣، ح ٥؛ وقد ورد في التوحيد (للصدوق)، ص ٥٥، ذيل ح ١٣، مع اختلاف العبارات.

٢. في المصدر: «تقدّمك فيه».

٣. في المصدر: «عليه».

٤. وفي نسخة: ولا تقدّر عظمة الله على قدر عقلك فتكون من الهالكين. (هامش المطبوع) وكذا في المصدر.

بيان:

«الاحتحام»: الهجوم والدخول مغالبة. و«السدود»: جمع السدة وهي الباب المغلق، وفيه إشكال لدلالته على أن الراسخين في العلم في الآية غير معطوف على المستثنى، كما دلّت عليه الأخبار الكثيرة، وسيأتي القول فيه في كتاب الإمامة^(١) إلا أن يقال: إن هذا إلزام على من يفسر الآية كذلك، أو يقال: بالجمع بين التفسيرين على وجهين مختلفين، وسيأتي تمام القول في ذلك في محله إن شاء الله تعالى.

١٢٤٩. الاحتجاج^(٢): رُوِيَ عَنْ هِشَامٍ أَنَّهُ سَأَلَ الزُّنْدِيقَ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَا هُوَ؟ فَقَالَ: هُوَ شَيْءٌ بِخِلَافِ الْأَشْيَاءِ^(٣) أَرْجِعْ بِقَوْلِي: شَيْءٌ إِلَى أَنَّهُ شَيْءٌ بِحَقِيقَةِ الشَّيْئَةِ^(٤) غَيْرَ أَنَّهُ لَا جِسْمٌ وَلَا صُورَةٌ، وَلَا يُحَسُّ وَلَا يُجَسُّ^(٥)، وَلَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسِّ الْخَمْسِ، لَا تُدْرِكُهُ الْأَوْهَامُ، وَلَا تَنْقُصُهُ الدُّهُورُ، وَلَا تُغَيِّرُهُ الْأَزْمَانُ؛ الْخَبَرُ.

بيان:

اعلم أن الشيء مساوٍ للموجود إذا أخذ الوجود أعم من الذهني والخارجي، والمخلوط بالوجود من حيث الخلط شيء، وشيئيته كونه ماهية قابلة له؛ وقيل: إن الوجود عين الشيئية. فإذا عرفت هذا فالمراد بقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بحقيقة الشيئية» أي بالشيئية الحقة الثابتة له في حد ذاته، لأنه تعالى هو الذي يحق أن يقال له: شيء أو موجود لكون وجوده بذاته ممتنع الانفكاك عنه، وغيره تعالى في معرض العدم والفناء، وليس وجودهم إلا من غيرهم، أو المراد أنه يجب معرفته بمحض أنه شيء، لا أن يثبت له حقيقة معلومة مفهومة يتصدى لمعرفتها فإنه يمتنع معرفة كنه ذاته وصفاته؛ وقيل: إنه إشارة إلى أن الوجود عين ذاته تعالى.

١. قد بينا في تفسير «الميزان» أنه هو المتيقن في الآية، وتكلمنا في الأخبار الكثيرة التي يشير إليها. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

٢. الاحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٣١؛ الكافي، ج ١، باب إطلاق القول بأنه شيء، ص ٨٣، ح ٦؛ التوحيد (للمصدق)، ص ٢٤٤، ح ١، وقد ورد في هذه المصادر ضمن رواية.

٣. أي هو موجود يخالف سائر الموجودات، فإن سائر الموجودات لها وجود وماهية زائدة على وجودها، ولكن الله تعالى حقيقته صرف الوجود، وعين الوجود، وله حقيقة الشيئية وهي الوجود. ثم بين عَلَيْهِ السَّلَامُ وجه اختلافه تعالى مع سائر الأشياء بقوله: «غير أنه لا جسم» إلخ. ولعله عَلَيْهِ السَّلَامُ أشار بقوله: هو شيء بخلاف الأشياء إلى أنه لا يعرف أحد حقيقة ذاته وصفاته، وإنما يعرف بمفهوم سلبي وهو أنه موجود مغاير لخلقه في الذات والصفات، مثل الإمكان والحدوث والجسمية وغيرها. (هامش المطبوع)

٤. في المصدر: «أرجع بقولي شيء إلى إثباته وأنه شيء بحقيقة الشيئية»، وفي الكافي والتوحيد: «أرجع بقولي إلى إثبات معنى وأنه شيء بحقيقة الشيئية».

٥. بالجيم إمّا من جسّه بيده أي مسّه بيده ليتعرّفه، أو بعينه أي أحد النظر إليه ليتبينه، وإمّا من جسّ الأخبار والأمر أي بحث وتفحص عنها. (هامش المطبوع)

١٢٥٠. الأُمالي للصدوق^(١): أَبِي، عَنِ الْحَمِيرِيِّ، عَنِ ابْنِ عَيْسَى، عَنِ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ^(٢)، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حُمَرَانَ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ الْحَذَاءِ قَالَ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: يَا زِيَادُ إِيَّاكَ وَالْخُصُومَاتِ، فَإِنَّهَا تُورِثُ الشَّكَّ، وَتُحْبِطُ الْعَمَلَ، وَتُزْدِي صَاحِبَهَا، وَعَسَى أَنْ يَتَكَلَّمَ الرَّجُلُ بِالشَّيْءِ لَا يُغْفَرُ لَهُ. يَا زِيَادُ إِنَّهُ كَانَ فِيمَا مَضَى قَوْمٌ تَرَكَوْا عِلْمَ مَا وَكَّلُوا بِهِ^(٣)، وَطَلَبُوا عِلْمَ مَا كُفُّوا^(٤)، حَتَّى انْتَهَى بِهِمُ الْكَلَامُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَتَحَيَّرُوا، فَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيُدْعَى مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ فَيُجِيبُ مِنْ خَلْفِهِ، أَوْ يُدْعَى مِنْ خَلْفِهِ فَيُجِيبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ^(٥).

١٢٥١. الأُمالي للصدوق^(٦): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّفَّارِ، عَنِ الْبَرْقِيِّ، عَنِ أَبِيهِ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَحْيَى، عَنْ أَبِي الْيَسَعِ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ خَالِدٍ قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: إِيَّاكُمْ وَالتَّفَكُّرَ فِي اللَّهِ^(٧)، فَإِنَّ التَّفَكُّرَ فِي اللَّهِ لَا يَزِيدُ إِلَّا تَيْهًا^(٨)، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَلَا يُوصَفُ بِمُقَدَّارٍ.

١٢٥٢. تفسير القمِّي^(٩): قَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾^(١٠) حَدَّثَنِي أَبِي، عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ جَمِيلٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام^(١١) قَالَ: إِذَا انْتَهَى الْكَلَامُ إِلَى اللَّهِ فَأَمْسِكُوا، وَتَكَلَّمُوا فِيمَا دُونَ الْعَرْشِ، وَلَا تَكَلَّمُوا فِيمَا فَوْقَ الْعَرْشِ، فَإِنْ قَوْمًا تَكَلَّمُوا فِيمَا فَوْقَ الْعَرْشِ فَتَاهَتْ عُقُولُهُمْ^(١٢) حَتَّى كَانَ الرَّجُلُ يُنَادِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ فَيُجِيبُ مِنْ خَلْفِهِ، وَيُنَادِي مِنْ خَلْفِهِ فَيُجِيبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ.

١. الأُمالي (للصدوق)، ص ٤١٧، ح ٢؛ المحاسن، ص ٢٣٨، ح ٢١٠؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب النهي عن الكلام في الكيفية، ص ٩٢، ح ٤، مع اختلاف يسير.

٢. في الكافي: «عدة من أصحابنا، عن البرقي، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، ...».

٣. أي علم ما كلفوا به، وهو العلم بما أمر الله به ونهاه عنه، والعلم بمحجوباته ومبغوضاته. (هامش المطبوع)

٤. أي علم ما كفاهم الله ثبوته - إن كان من الكفاية - أو علم ما صرفه الله عنهم - إن كان من الكف - والمراد التفحص عما كانت أفهام البشر عن دركه قاصرة، كالكلام في العرش وما فوقه، والكلام في كنه الذات والصفات. (هامش المطبوع)

٥. **فَقَوْلُ:** هذه العبارة كناية عن شدة تحيرهم في الأمور.

٦. الأُمالي (للصدوق)، ص ٤١٧، ح ٣؛ روضة الواعظين، ج ١، ص ٣٦.

٧. **فَقَوْلُ:** إشارة إلى التفكر في ذات الله تعالى فإنه لا يزيد الإنسان إلا تحييراً، وأما التفكر في بدايع خلقه وآثاره الدالة عليه من أفضل العبادات والقربات.

٨. التبيه: التحير، راجع المغرب.

٩. تفسير القمِّي، ج ١، ص ٢٥؛ وقد ورد في التوحيد (للصدوق)، ص ٤٥٥، ح ٧، مع اختلاف يسير.

١٠. النجم/ ٤٢.

١١. في التوحيد بهذا الإسناد: «ابن الوليد، عن الصفار، عن ابن عيسى، عن ابن فضال، عن ثعلبة بن ميمون، عن الحسن الصيقل، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام».

١٢. في التوحيد: «فإن قوماً تكلموا في الله عز وجل فتأهوا حتى ...».

بيان:

التكلم فيما فوق العرش كناية عن التفكر في كنه ذاته وصفاته تعالى، فالمراد إما الفوقية المعنوية؛ أو بناء على زعمهم حيث قالوا: بالجسم والصورة، ويحتمل - على بعد - أن يكون المراد التفكر في الخلا البحت^(١) بعد انتهاء الأبعاد.

١٢٥٣. تفسير العياشي^(٢): عَنْ رُبَيْعٍ، عَمَّنْ ذَكَرَهُ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قَالَ: الْكَلَامُ فِي اللَّهِ وَالْجِدَالُ فِي الْقُرْآنِ ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾^(٣) قَالَ عليه السلام: مِنْهُمْ الْقَصَاصُ.

بيان:

«القصص»: علماء المخالفين، فإنهم كروا القصة والأكاذيب فيما يبنون عليه علومهم، وهم يخوضون في تفاسير الآيات وتحقيق صفات الذات بالظنون والأوهام لانحرافهم عن أهل البيت عليهم السلام.

١٢٥٤. التوحيد^(٤): الْعَطَّارُ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَهْلِ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ عليه السلام - سَنَةَ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَتَيْنِ - قَدْ اخْتَلَفَ يَا سَيِّدِي أَصْحَابُنَا فِي التَّوْحِيدِ، مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ جِسْمٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ صُورَةٌ، فَإِنْ رَأَيْتَ يَا سَيِّدِي أَنَّ تَعَلَّمَنِي مِنْ ذَلِكَ مَا أَقِفُ عَلَيْهِ وَلَا أَجُوزُهُ فَعَلْتُ مَطَوعًا عَلَى عَبْدِكَ.

فَوَقَعَ بِخَطِّهِ عليه السلام: سَأَلْتُ عَنِ التَّوْحِيدِ وَهَذَا عَنْكُمْ مَعْرُوضٌ، اللَّهُ تَعَالَى وَاحِدٌ أَحَدٌ صَمَدٌ^(٥)، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، خَالِقٌ وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ، يَخْلُقُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا يَشَاءُ مِنَ الْأَجْسَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ^(٦)، وَيُصَوِّرُ مَا يَشَاءُ، وَلَيْسَ بِمُصَوَّرٍ، جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، وَتَعَالَى عَنْ^(٧) أَنْ يَكُونَ لَهُ شِبْهُهُ، هُوَ لَا غَيْرُهُ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

بيان:

«وهذا عنكم معزول» أي لا يجب عليكم التفكر في الذات والصفات، بل عليكم التصديق بما وصف تعالى به نفسه.

١. البحت: الصِّرف، راجع لسان العرب.

٢. تفسير العياشي، ج ١، ص ٣٦٢، ح ٣١؛ تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٣٠، ح ٣٥٠٨.

٣. الأنعام/٦٨.

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ١٠١، ح ١٤؛ الكافي، ج ١، باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه تعالى، ص ١٠٣، ح ١٠.

٥. لم يرد في الكافي: «صمد».

٦. في الكافي مع زيادة: «وليس بجسم».

٧. لم يرد في الكافي: «وتعالى عن».

١٢٥٥. السرائر^(١): السَّيَّارِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢) يَقُولُ: لَيْسَ الْعِبَادَةُ كَثْرَةُ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ إِنَّمَا الْعِبَادَةُ فِي التَّفَكُّرِ فِي اللَّهِ^(٣).

بيان:

أي التفكر في قدرته وعظمته بالتفكر في عظمة خلقه، كما فسّر به في الأخبار الأخر، أو بالتفكر فيما جاء عن الله وحججه عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذلك.

١٢٥٦. التوحيد^(٤): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّقَّارِ، عَنِ ابْنِ مَعْرُوفٍ^(٥)، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجْرَانَ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ عُمَانَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْقَصِيرِ قَالَ: كَتَبْتُ عَلَى يَدَيَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ أَعْيَنَ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمَسَائِلَ، فِيهَا: أَخْبِرْنِي عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، هَلْ يُوصَفُ بِالصُّورَةِ وَبِالتَّخْطِيطِ؟ فَإِنْ رَأَيْتَ - جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ - أَنْ تَكْتُبَ إِلَيَّ بِالْمَذْهَبِ الصَّحِيحِ مِنَ التَّوْحِيدِ. فَكَتَبَ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ» عَلَى يَدَيَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ أَعْيَنَ: سَأَلْتُ - رَحِمَكَ اللَّهُ - عَنِ التَّوْحِيدِ وَمَا ذَهَبَ فِيهِ مِنْ قِبَلِكَ، فَتَعَالَى اللَّهُ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ، الْمُشَبِّهُونَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِخَلْقِهِ، الْمُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ. وَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - أَنَّ الْمَذْهَبَ الصَّحِيحَ فِي التَّوْحِيدِ مَا نَزَلَ بِهِ الْقُرْآنُ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَائْتِ بِعَنِ اللَّهِ الْبُطْلَانَ وَالتَّشْبِيهَ، فَلَا نَفْيَ وَلَا تَشْبِيهَ، هُوَ اللَّهُ الثَّابِتُ الْمَوْجُودُ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ، وَلَا تَعُدُّ الْقُرْآنَ فَتَضِلَّ بَعْدَ الْبَيَانِ.

بيان:

«على يدي عبد الملك» أي كان هو الرسول والحامل للكتاب والجواب.

١٢٥٧. فقه الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٦): أُرْوِي أَنَّهُ قُرِيَ بَيْنَ يَدَيَّ الْعَالِمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلُهُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^(٧) فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّمَا عَنَى أَبْصَارَ الْقُلُوبِ وَهِيَ الْأَوْهَامُ^(٨)، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا تُدْرِكُ الْأَوْهَامَ كَيْفِيَّتُهُ وَهُوَ يُدْرِكُ كُلَّ

١. السرائر، ج ٣، ص ٥٦٨؛ وقد ورد في الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ، ص ٣٨٠، ضمن رواية؛ الكافي، ج ٢، باب التفكر، ص ٥٥، ح ٤.

٢. في الكافي: «معمر بن خلاد قال: سمعت أبا الحسن الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ».

٣. في الفقه المنسوب: «التفكر في أمر الله جلّ وعلا».

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ١٠٢، ح ١٥؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه تعالى، ص ١٠٠، ح ١ مع اختلاف يسير.

٥. في الكافي: «علي بن إبراهيم، عن ابن معروف...».

٦. الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ، ص ٣٨٤؛ وقد ورد في المحاسن، ج ١، ص ٢٣٩، ح ٢١٥، مع اختلاف يسير.

٧. الأنعام/١٠٣.

٨. نقول: أي أبصار القلوب لا يدرك كنه ذاته.

وَهُمْ^(١)، وَأَمَّا عُيُونُ الْبَشَرِ فَلَا تَلْحَقُهُ، لِأَنَّهُ لَا يُحَدُّ فَلَا يُوصَفُ. هَذَا مَا نَحْنُ عَلَيْهِ كُلُّنَا.

١٢٥٨. التوحيد^(٢): الدَّقَاقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ الْبَزْمَكِيِّ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحَسَنِ، عَنِ بَكْرِ بْنِ صَالِحٍ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ سَعِيدٍ قَالَ: سُئِلَ أَبُو جَعْفَرٍ الثَّانِي عليه السلام^(٣) يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ لِلَّهِ: إِنَّهُ شَيْءٌ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، تُخْرِجُهُ مِنَ الْحَدِيثِ: حَدُّ التَّعْطِيلِ وَحَدُّ التَّشْبِيهِ.

بيان:

«حدّ التعطيل»: هو عدم إثبات الوجود والصفات الكمالية والفعليّة والإضافيّة له تعالى، وحدّ التشبيه الحكم بالاشتراك مع الممكنات في حقيقة الصفات وعوارض الممكنات.

١٢٥٩. التوحيد^(٤): ابْنُ مَسْرُورٍ، عَنِ ابْنِ بَطَّةَ، عَنِ عِدَّةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، عَنِ الْيَقُطِينِيِّ قَالَ: قَالَ لِي أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: مَا تَقُولُ إِذَا قِيلَ لَكَ: أَخْبِرْنِي عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَمَّا شَيْءٌ هُوَ أَمْ لَا شَيْءٌ هُوَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ أَثْبَتَ عَزَّ وَجَلَّ نَفْسَهُ شَيْئاً حَيْثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾^(٥) فَأَقُولُ: إِنَّهُ شَيْءٌ لَا كَالْأَشْيَاءِ، إِذْ فِي نَفْيِ الشَّيْئِيَّةِ عَنْهُ إِطْلَاقُهُ وَنَفْيُهُ. قَالَ عليه السلام لِي: صَدَقْتَ وَأَصَبْتَ. ثُمَّ قَالَ الرِّضَا عليه السلام: لِلنَّاسِ فِي التَّوْحِيدِ ثَلَاثَةُ مَذَاهِبٍ: نَفْيُ وَتَشْبِيهِ وَإِثْبَاتٌ بِغَيْرِ تَشْبِيهِ؛ فَمَذْهَبُ النَّفْيِ لَا يَجُوزُ، وَمَذْهَبُ التَّشْبِيهِ لَا يَجُوزُ، لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ، وَالسَّبِيلُ فِي الطَّرِيقَةِ الثَّلَاثَةِ إِثْبَاتٌ بِلَا تَشْبِيهِ.

تفسير العياشي^(٦): عَنْ هِشَامِ الْمَشْرِقِيِّ، عَنْهُ عليه السلام مِثْلُهُ، وَزَادَ فِي آخِرِهِ: وَهُوَ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ أَحَدُ صَمَدٍ نُورٍ. ١٢٦٠. التوحيد^(٧): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّقَّارِ، عَنِ الْبَرْقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ^(٨)، عَنِ النَّضْرِ، عَنْ يَحْيَى الْحَلَبِيِّ، عَنِ ابْنِ مُسْكَانٍ، عَنْ زُرَّارَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلُوعٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَخَلَقَهُ خُلُوعٌ مِنْهُ، وَكُلُّ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ اسْمُ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ مَخْلُوعٌ، وَاللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، تَبَارَكَ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ^(٩).

١. قد تَمَّت الرواية في المحاسن بهذه العبارة: «وهو يدرك كل فهم».

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ١٠٧، ح ٧؛ الكافي، ج ١، باب إطلاق القول بأنه شيء، ص ٨٢، ح ٢ و ص ٨٥، ح ٧.

٣. في الكافي، ح ٢: «البرقي، عن محمد بن إسماعيل، عن الحسين بن الحسن...»، وفي ح ٧، بهذا الإسناد: «عدّة من أصحابنا، عن البرقي، عن ابن عيسى، عن ذكره، عن أبي جعفر عليه السلام».

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ١٠٧، ح ٨؛ تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٤٠، ح ٣٤٢٣.

٥. الأنعام/١٩.

٦. تفسير العياشي، ج ١، ص ٣٦٥، ح ١١.

٧. التوحيد (للصدوق)، ص ١٠٥، ح ٣؛ الكافي ج ١، باب إطلاق القول بأنه شيء، ص ٨٢، ح ٤.

٨. لم يرد في المصدر: «عن أبيه».

٩. في الكافي مع زيادة: «وهو السميع البصير».

إيضاح:

«الخلو» بكسر الخاء وسكون اللام: الخالي. وقوله عليه السلام: «خلو من خلقه» أي من صفات خلقه أو من مخلوقاته، فيدلّ على نفي الصفات الموجودة الزائدة لأنها لا بدّ أن تكون مخلوقة لله تعالى بانضمام المقدّمين الأخيرتين المبنيتين على التوحيد، واتّصافه بمخلوقه مستحيل لما تقرّر من أنّ الشيء لا يكون فاعلاً وقابلاً لشيء واحد، ويدلّ أيضاً على بطلان ما ذهب إليه جماعة من كونه تعالى معروضاً لماهيات الممكنات. وقوله عليه السلام: «وخلق خلقه منه» أي من صفاته، أو المراد أنّه لا يحلّ في شيء بوجه من الوجوه، فينفي كونه عارضاً لشيء أو حالاً فيه أو متمكناً فيه، إذ ما من شيء إلا وهو مخلوق له بحكم المقدّمين الأخيرتين. ١٢٦١. التوحيد^(١): ابن الوليد، عن الصّغار، عن ابن عيسى^(٢)، عن الحسين بن سعيد، عن النضر، عن ابن حميد رفعه قال: سئل علي بن الحسين عليه السلام عن التوحيد فقال: إنّ الله تعالى علّم أنّه يكون في آخر الزمان أقوامٌ متعمّقون فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾^(٣) (٤) والآيات من سورة الحديد إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٥) فمن رام^(٦) ما وراء ذلك فقد هلك.

بيان:

ظاهره المنع عن التفكير والخوض في مسائل التوحيد والوقوف مع النصوص؛ وقيل: المراد أنّه تعالى بين لهم صفاته ليتفكروا فيها؛ ولا يخفى بعده.

١٢٦٢. المحاسن^(٧): أبي، عن ابن أبي عمير، عن محمد بن يحيى، عن عبد الرحيم القصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن شيء من الصفة^(٨) فقال: فرّج يديه إلى السماء ثم قال عليه السلام: تعالى الله الجبار، إنّهُ مَنْ تَعَاطَى مَا نَمَّ هَلَكَ، يَقُولُهَا مَرَّتَيْنِ.

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٨٣، ح ٢؛ الكافي، ج ١، باب النسبة، ص ٩١، ح ٣.

٢. في المصدر: «ابن الوليد، عن سعد بن عبد الله، عن ابن عيسى...»، وفي الكافي «محمد بن يحيى، عن ابن عيسى...».

٣. الإخلاص / ١ و ٢.

٤. لم يرد في الكافي: «الله الصمد».

٥. الحديد / ٦.

٦. رام الشيء: طلبه، راجع لسان العرب.

٧. المحاسن، ج ١، ص ٢٣٧، ح ٢٠٧؛ الكافي، ج ١، باب النهي عن الكلام في الكيفية، ص ٩٤، ح ١٠؛ التوحيد (للصدوق)، ص ٤٥٦، ح ٨. وقد ورد في الأخيرين مع اختلاف يسير.

٨. في الكافي والتوحيد بهذا الإسناد: «علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن محمد بن يحيى، عن عبد الرحيم القصير، عن أبي جعفر عليه السلام».

٩. في التوحيد: «عن شيء من التوحيد».

بيان:

«تعالى الله الجبار» أي عن أن يكون له جسم أو صورة أو يوصف بصفة زائدة على ذاته، وأن يكون لصفاته الحقيقية بيان حقيقي، «من تعاطى» أي تناول بيان «ما ثم» من صفاته الحقيقية «هلك» وضلّ ضلالاً بعيداً.

١٢٦٣. المحاسن^(١): أَبِي، عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْخَزَّازِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام (٢): يَا مُحَمَّدُ إِنَّ النَّاسَ لَا يَزَالُ لَهُمُ الْمُنْطِقُ حَتَّى يَتَكَلَّمُوا فِي اللَّهِ، فَإِذَا سَمِعْتُمْ ذَلِكَ فَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (٣).

بيان:

أي إذا سمعتم الكلام في الله فاقصروا على التوحيد ونفي الشريك منبهاً على أنه لا يجوز الكلام فيه وتبيين معرفته إلا بسلب التشابه والتشارك بينه وبين غيره، أو إذا أجروا الكلام في الجسم والصورة فقولوا ذلك تنزيهاً له عما يقولون.

١٢٦٤. المحاسن^(٤): أَبُو أَيُّوبَ الْمَدَنِيُّ، عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنِ ابْنِ بُكَيْرٍ، عَمَّنْ ذَكَرَهُ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام (٥) قَالَ: إِنَّ مَلِكًا كَانَ فِي مَجْلِسِهِ فَتَنَّاوَلَ الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَقَقِدَ فَمَا يُدْرِي أَيْنَ هُوَ.

بيان:

أي فقد من مكانه سخطاً من الله عليه، أو تحير وسار في الأرض فلم يعرف له خبر؛ وقيل: هو على المعلوم أي فقد ما كان يعرف وكان لا يدري في أي مكان هو من الحيرة؛ ولا يخفى ما فيه.

١٢٦٥. تفسير الإمام عليه السلام (٦): لَقَدْ مَرَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَخْلَاطِ (٧) الْمُسْلِمِينَ، لَيْسَ فِيهِمْ مُهَاجِرِيٌّ وَلَا أَنْصَارِيٌّ، وَهُمْ قُعودٌ فِي بَعْضِ الْمَسَاجِدِ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ شَعْبَانَ، وَإِذَا هُمْ يَخُوضُونَ فِي أَمْرِ الْقَدَرِ وَغَيْرِهِ مِمَّا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ، قَدْ ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ وَاشْتَدَّ فِيهِ جِدَالُهُمْ، فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ فَرَدُّوا عَلَيْهِ وَوَسَّعُوا لَهُ، وَقَامُوا إِلَيْهِ يَسْأَلُونَهُ الْقُعودَ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ يَحْفَلْ بِهِمْ (٨)، ثُمَّ قَالَ عليه السلام لَهُمْ - وَتَادَاهُمْ - : يَا مَعْاشِرَ الْمُتَكَلِّمِينَ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ لِلَّهِ عِبَادًا قَدْ أَسْكَنَهُمُ

١. المحاسن، ج ١، ص ٢٣٧، ح ٢٠٩؛ وفي الكافي، ج ١، باب النهي عن الكلام في الكيفية، ص ٩٢، ح ٣؛ التوحيد (للصدوق)، ص ٤٥٦، ح ١٠.

٢. في الكافي والتوحيد بهذا الإسناد: «علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن أبي أيوب، عن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام».

٣. لم يرد في المصدر: «الواحد الذي ليس كمثله شيء».

٤. المحاسن، ج ١، ص ٢٤٠، ح ٢١٩؛ الكافي، ج ١، باب النهي عن الكلام في الكيفية، ص ٩٣، ح ٦.

٥. في الكافي بهذا الإسناد: «محمد بن يحيى، عن ابن عيسى، عن ابن فضال، عن ابن بكير، عن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام».

٦. ورد في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، ص ٦٣٥، ح ٣٧١، مع اختلاف يسير.

٧. الأخلاط: الجماعة من الناس، راجع لسان العرب.

٨. ما حفل به: ما بالى به، راجع تاج العروس.

حَسْبِيَّتُهُ مِنْ غَيْرِ عِيٍّ^(١) وَلَا بِكُمْ؟ وَأَنَّهُمْ هُمُ الْفُصْحَاءُ الْبُلْغَاءُ الْأَلْبَاءُ^(٢) الْعَالِمُونَ بِاللَّهِ وَأَيَّامِهِ وَلَكِنَّهُمْ إِذَا ذَكَرُوا عَظَمَةَ اللَّهِ انْكَسَرَتْ أَلْسِنَتُهُمْ، وَانْقَطَعَتْ أَفئِدَتُهُمْ، وَطَاشَتْ^(٣) عُقُولُهُمْ، وَتَاهَتْ^(٤) حُلُومُهُمْ، إِعْزَازًا لِلَّهِ وَإِعْظَامًا وَإِجْلَالًا، فَإِذَا أَفَاقُوا مِنْ ذَلِكَ اسْتَبَقُوا إِلَى اللَّهِ بِالْأَعْمَالِ الزَّائِكَةِ يَعُدُّونَ أَنْفُسَهُمْ مَعَ الظَّالِمِينَ وَالْخَاطِئِينَ، وَأَنَّهُمْ بُرَاءٌ مِنَ الْمُقْصِرِينَ وَالْمُقَرَّبِينَ، أَلَا إِنَّهُمْ لَا يَرْضَوْنَ اللَّهَ بِالْقَلِيلِ، وَلَا يَسْتَكْبِرُونَ لِلَّهِ الْكَثِيرَ، وَلَا يُدِلُّونَ عَلَيْهِ بِالْأَعْمَالِ، فَهُمْ إِذَا رَأَيْتَهُمْ مُهَيِّمُونَ، مُرَوِّعُونَ^(٥)، خَائِفُونَ، مُشْفِقُونَ، وَجُلُونَ؛ فَأَيْنَ أَنْتُمْ مِنْهُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُبْتَدِعِينَ؟ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَعْلَمَ النَّاسِ بِالضَّرَرِ^(٦) أَسَكَّتَهُمْ عَنْهُ، وَأَنَّ أَجْهَلَ النَّاسِ بِالضَّرَرِ أَنْطَقَهُمْ فِيهِ؟

بيان:

«لا يدلُّون» من قولهم: أدلَّ عليه أي أوثق بمحبته فأفرط عليه. والهيام: الجنون من العشق.

١٢٦٦. رجال الكشي^(٧): عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُوسَى الْهَمْدَانِيِّ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُوسَى الْخَشَّابِ، عَنْ غَيْرِهِ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ حَكِيمٍ الْخُثْعَمِيِّ^(٨) قَالَ: اجْتَمَعَ ابْنُ سَالِمٍ وَهَشَامُ بْنُ الْحَكَمِ وَجَمِيلُ بْنُ دَرَّاجٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْحَجَّاجِ وَمُحَمَّدُ بْنُ حُمْرَانَ وَسَعِيدُ بْنُ غَزْوَانَ وَنَحْوُ مِنْ خَمْسَةِ عَشَرَ مِنْ أَصْحَابِنَا فَسَأَلُوا هَشَامَ بْنَ الْحَكَمِ أَنْ يُنَاطِرَ هَشَامَ بْنَ سَالِمٍ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَصِفَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَعَنْ غَيْرِ ذَلِكَ، لِيَنْظُرُوا أَيُّهُمْ أَقْوَى حُجَّةً، فَرَضِيَ هَشَامُ بْنُ سَالِمٍ أَنْ يَتَكَلَّمَ عِنْدَ^(٩) مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، وَرَضِيَ هَشَامُ بْنُ الْحَكَمِ أَنْ يَتَكَلَّمَ عِنْدَ^(١٠) مُحَمَّدِ بْنِ هَشَامٍ فَتَكَالَمَا وَسَاقَا مَا جَرَى بَيْنَهُمَا، وَقَالَ: قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَجَّاجٍ لِهَشَامِ بْنِ الْحَكَمِ: كَفَرْتَ وَاللَّهِ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَاللَّحْدَتْ فِيهِ، وَيَحْكُ مَا قَدَرْتَ أَنْ تُشَبِّهَ بِكَلَامِ رَبِّكَ إِلَّا الْعُودَ يُضْرَبُ بِهِ، قَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ حَكِيمٍ: فَكَتَبَ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ مُوسَى طَلْحَةَ يَحْكِي لَهُ مُحَاطَبَتَهُمْ وَكَلَامَهُمْ، وَيَسْأَلُهُ أَنْ يُعَلِّمَهُمْ مَا الْقَوْلُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَدِينَ اللَّهُ بِهِ مِنْ صِفَةِ الْجَبَّارِ،

١. العي: العجز، راجع المغرب.

٢. الليب: العاقل والجمع الألباء، راجع مجمع البحرين.

٣. طيش العقل: ذهابه، راجع لسان العرب.

٤. في المصدر: «هامت».

٥. الروع: الفرع، راجع لسان العرب.

٦. في المصدر: «بالقدر» وكذا في المورد الآتي.

٧. رجال الكشي، ص ٢٧٩، ح ٥٠٠؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه تعالى، ص ١٠٢، ح ٦، من «انَّ الله أَعْلَى وَأَجَل وَأَعْظَمُ...» إلى آخر الحديث، فحسب.

٨. في الكافي بهذا الإسناد: «سهل، عن محمد بن عيسى، عن إبراهيم، عن محمد بن حكيم».

٩. في المصدر: «أن يتكلم عنه».

١٠. في المصدر: «أن يتكلم عنه».

فَأَجَابَهُ عَلَيْهِ فِي عَرْضِ كِتَابِهِ: فَهَمْتُ - رَحِمَكَ اللَّهُ - وَاعْلَمَ - رَحِمَكَ اللَّهُ - أَنَّ اللَّهَ أَجَلٌ وَأَعْلَى وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُبْلَغَ كُنْهَ صِفَتِهِ، فَصِفُوهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَكُفُّوا عَمَّا سِوَى ذَلِكَ.

١٢٦٧. التوحيد^(١): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّقَّارِ، عَنِ الْيَقِينِيِّ، عَنِ ابْنِ أَبِي نَجْرَانَ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ الثَّانِي عَلَيْهِ السَّلَامُ (٢) عَنِ التَّوْحِيدِ فَقُلْتُ: أَتَوَهُمُ شَيْئاً؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: نَعَمْ، غَيْرَ مَعْقُولٍ وَلَا مَحْدُودٍ، فَمَا وَقَعَ وَهْمُكَ عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ خِلَافُهُ، لَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَوْهَامُ، كَيْفَ تُدْرِكُهُ الْأَوْهَامُ وَهُوَ خِلَافُ مَا يُعْقَلُ وَخِلَافُ مَا يُتَصَوَّرُ فِي الْأَوْهَامِ؟ إِنَّمَا يُتَوَهُمُ شَيْءٌ غَيْرَ مَعْقُولٍ وَلَا مَحْدُودٍ.

بيان:

اعلم أنَّ من المفهومات مفهومات عامّة شاملة لا يخرج منها شيء من الأشياء لا ذهنياً ولا عينياً كمفهوم الشيء والموجود والمخبر عنه، وهذه معان اعتباريّة يعتبرها العقل لكلّ شيء. إذا تقرّر هذا فاعلم: أنَّ جماعة من المتكلّمين ذهبوا إلى مجرّد التعطيل، ومنعوا من إطلاق الشيء والموجود وأشباههما عليه، محتجّين بأنّه لو كان شيئاً شارك الأشياء في مفهوم الشيئية وكذا الموجود وغيره. وذهب إلى مثل هذا بعض معاصرينا فحكم بعدم اشتراك مفهوم من المفهومات بين الواجب والممكن، وبأنّه لا يمكن تعقل ذاته وصفاته تعالى بوجه من الوجوه، وبكذب جميع الأحكام الإيجابيّة عليه تعالى، ويردّ قولهم الأخبار السالفة، وبناء غلطهم على عدم الفرق بين مفهوم الأمر وما صدق عليه، وبين الحمل الذاتي والحمل العرضي، وبين المفهومات الاعتباريّة والحقائق الموجودة.

فأجاب عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنّ ذاته تعالى وإن لم يكن معقولاً لغيره ولا محدوداً بحدٍّ إلّا أنّه ممّا يصدق عليه مفهوم شيء، لكن كلّ ما يتصوّر من الأشياء فهو بخلافه لأنّ كلّ ما يقع في الأوهام والعقول فصورها الإدراكية كصفات نفسانيّة، وأعراض قائمة بالذهن، ومعانيها مهيّات كليّة قابلة للاشتراك والانقسام فهو بخلاف الأشياء^(٣).

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٠٦، ح ٦؛ الكافي، ج ١، باب إطلاق القول بأنّه شيء، ص ٨٢، ح ١.

٢. في الكافي بهذا الإسناد: «علي بن إبراهيم، عن محمّد بن عيسى، عن ابن أبي نجران، عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ».

٣. اعلم أنّ هذا الخبر وما يساوقه في البيان من أخبار التوحيد من غرر الأخبار الواردة عن معادن العلم والحكمة عَلَيْهِ السَّلَامُ وما ذكره المصنّف في هذا البيان وما يشابهه من البيانات متألّفة من مقدمات كلامية أو فلسفية عاميّة غير وافية لإيضاح تمام المراد منها وإن لم تكن أجنبية عنها بالكلية، وليبيان لبّ المراد منها مقام آخر. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

﴿باب ١٠﴾

«أدنى ما يجزي من المعرفة في التوحيد، وأنه لا يعرف الله إلا به»

الروايات:

١٢٦٨. التوحيد، عيون أخبار الرضا عليه السلام^(١): مَا جِيلَوِيهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ مُخْتَارِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ مُخْتَارٍ الْهَمْدَانِيِّ، عَنِ الْفَتْحِ بْنِ يَزِيدَ الْجُرْجَانِيِّ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام^(٢) قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ أَدْنَى الْمَعْرِفَةِ، فَقَالَ عليه السلام: الْإِقْرَارُ بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا شِبْهَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ لَهُ، وَأَنَّهُ قَدِيمٌ مُثَبَّتٌ مَوْجُودٌ غَيْرُ فَقِيدٍ، وَأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.

بيان:

قوله عليه السلام: «موجود» إمّا من الوجود، أو من الوجدان أي معلوم. وكذا قوله عليه السلام: «غير فقيد» أي غير مفقود زائل الوجود، أو لا يفقده الطالب؛ وقيل: أي غير مطلوب عند الغيبة حيث لا غيبة له^(٣).

١٢٦٩. التوحيد، عيون أخبار الرضا عليه السلام^(٤): الدَّقَاقُ، عَنْ مُحَمَّدٍ الْأَسَدِيِّ، عَنِ الْبَرْمَكِيِّ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحَسَنِ، عَنْ بَكْرِ بْنِ زِيَادٍ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الْمُهْتَدِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ الرِّضَا عليه السلام عَنِ التَّوْحِيدِ، فَقَالَ: كُلُّ مَنْ قَرَأَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٥) وَأَمَنَ بِهَا فَقَدْ عَرَفَ التَّوْحِيدَ. قُلْتُ: كَيْفَ يَقْرُؤُهَا؟ قَالَ: كَمَا يَقْرُؤُهَا النَّاسُ. وَزَادَ فِيهِ: كَذَلِكَ اللَّهُ رَبِّي، كَذَلِكَ اللَّهُ رَبِّي، كَذَلِكَ اللَّهُ رَبِّي^(٦).

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٨٣، ح ١؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٣٣، ح ٢٩؛ الكافي، ج ١، باب أدنى المعرفة، ص ٨٦، ح ١.
 ٢. في الكافي بهذا الإسناد: «محمد بن الحسن، عن عبد الله بن الحسن العلوي وعلي بن إبراهيم، عن المختار بن محمد الهمداني، عن الفتح بن يزيد، عن أبي الحسن عليه السلام».
 ٣. الحاشية على أصول الكافي (لمحمد بن حيدر النائيني)، ص ٢٨٦.
 ٤. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٨٤، ح ٣؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٣٣، ح ٣٠؛ الكافي، ج ١، باب النسبة، ص ٩١، ح ٤.
 ٥. الإخلاص/١.
 ٦. قد وردت في الكافي عبارة «كذلك الله ربّي» مرّتين.

١٢٧٠. التوحيد^(١): الدَّقَاقُ وَالْوَرَّاقُ مَعًا، عَنِ الصُّوفِيِّ، عَنِ الرُّوْيَانِيِّ، عَنْ عَبْدِ الْعَظِيمِ الْحَسَنِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى سَيِّدِي عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَمَّا بَصُرَ بِي قَالَ لِي: مَرْحَبًا بِكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ أَنْتَ وَلِيَّتَا حَقًّا. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ دِينِي، فَإِنْ كَانَ مَرْضِيًّا ثَبِّتْهُ^(٢) عَلَيْهِ حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ. فَقَالَ: هَاتِيهَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَقُلْتُ: إِنِّي أَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَاحِدٌ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، خَارِجٌ مِنَ الْحَدِّينَ: حَدُّ الْإِبْطَالِ، وَحَدُّ التَّشْبِيهِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا صُورَةٍ وَلَا عَرَضٍ وَلَا جَوْهَرٍ، بَلْ هُوَ مُجَسِّمُ الْأَجْسَامِ، وَمُصَوِّرُ الصُّورِ، وَخَالِقُ الْأَعْرَاضِ وَالْجَوَاهِرِ، وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَالِكُهُ وَجَاعِلُهُ وَمُحْدِثُهُ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٣)، وَأَقُولُ: إِنَّ الْإِمَامَ وَالْخَلِيفَةَ وَوَلِيَّ الْأَمْرِ بَعْدَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ الْحَسَنُ، ثُمَّ الْحُسَيْنُ، ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، ثُمَّ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، ثُمَّ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ، ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ أَنْتَ يَا مَوْلَايَ. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَمِنْ بَعْدِي الْحَسَنُ ابْنِي، فَكَيْفَ لِلنَّاسِ بِالْخَلَفِ مِنْ بَعْدِهِ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا مَوْلَايَ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ لَا يَرَى شَخْصَهُ، وَلَا يَحِلُّ ذِكْرُهُ بِاسْمِهِ حَتَّى يَخْرُجَ، فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مَلَأْتَ ظُلْمًا وَجَوْرًا. قَالَ: فَقُلْتُ: أَفَرَزْتُ وَأَقُولُ: إِنَّ وَلِيَّهُمْ وَلِيُّ اللَّهِ، وَعَدُوَّهُمْ عَدُوُّ اللَّهِ، وَطَاعَتُهُمْ طَاعَةُ اللَّهِ، وَمَعْصِيَتُهُمْ مَعْصِيَةُ اللَّهِ^(٤)، وَأَقُولُ: إِنَّ الْمِعْرَاجَ حَقٌّ، وَالْمُسَائِلَةَ فِي الْقَبْرِ حَقٌّ، وَإِنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، وَالصِّرَاطَ حَقٌّ، وَالْمِيزَانَ حَقٌّ، وَإِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَإِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ، وَأَقُولُ: إِنَّ الْفَرَائِضَ الْوَاجِبَةَ بَعْدَ الْوَلَايَةِ الصَّلَاةَ، وَالزَّكَاةَ، وَالصَّوْمَ، وَالْحَجَّ، وَالْجِهَادَ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ^(٥). فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ هَذَا وَاللَّهِ دِينُ اللَّهِ الَّذِي ارْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ، فَاثْبُتْ عَلَيْهِ ثَبَّتَكَ اللَّهُ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ.

١٢٧١. التوحيد^(٦): مَا جِيلُوهُ، عَنْ عَمِّهِ، عَنْ مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ الْقُرَشِيِّ، عَنْ مُحَمَّدٍ بْنِ سِنَانٍ، عَنْ مُحَمَّدٍ بْنِ يَغْلَى الْكُوفِيِّ، عَنْ جُوَيْرٍ، عَنْ الضَّحَّاكِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: جَاءَ أَغْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَنِي مِنْ غَرَائِبِ الْعِلْمِ. قَالَ: مَا صَنَعْتَ فِي رَأْسِ الْعِلْمِ^(٧) حَتَّى تَسْأَلَ عَنْ غَرَائِبِهِ؟ قَالَ الرَّجُلُ: مَا رَأْسُ الْعِلْمِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَعْرِفَةُ اللَّهِ حَقًّا

١. التوحيد (لِلصَّدُوقِ)، ص ٨١، ح ٣٧؛ كفاية الأثر، ص ٢٨٦؛ روضة الواعظين، ج ١، ص ٣١.

٢. فِي الْمَصْدَرِ وَالْكَفَايَةِ: «أَثْبَتَ عَلَيْهِ».

٣. وَرَدَ فِي الرُّوْضَةِ مَعَ زِيَادَةٍ: «وَإِنَّ شَرِيعَتَهُ خَاتَمَةُ الشَّرَائِعِ لَا شَرِيعَةَ بَعْدَهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

٤. فِي كَفَايَةِ الْأَثَرِ: «طَاعَتُهُمْ طَاعَةُ اللَّهِ وَمِبْغُضُهُمْ مِبْغُضُ اللَّهِ وَمَعْصِيَتُهُمْ مَعْصِيَةُ اللَّهِ...».

٥. **فَقَوْلُ:** وَالْخُمْسَ دَاخِلَ فِي عُنْوَانِ الزَّكَاةِ بِالْمَعْنَى الْعَامِ.

٦. التوحيد (لِلصَّدُوقِ)، ص ٢٨٤، ح ٥؛ مشكاة الأنوار، ص ١٠؛ نونية المريد، ص ٣٦٦.

٧. فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ فَائِدَةٌ: نَبَّهْنَا عَلَيْهَا فِي ذَيْلِ ح ١١٧٤.

مَعْرِفَتِهِ. قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَمَا مَعْرِفَةُ اللَّهِ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ؟ قَالَ: تَعْرِفُهُ بِلَا مِثْلٍ وَلَا شَبِيهِ وَلَا نِدٍّ، وَأَنَّهُ وَاحِدٌ أَحَدٌ ظَاهِرٌ بَاطِنٌ أَوَّلٌ آخِرٌ، لَا كُفُوَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ، فَذَلِكَ حَقُّ مَعْرِفَتِهِ.

بيان:

«النَّد» بالكسر: المثل.

١٢٧٢. التوحيد^(١): أَبِي وَابْنُ الْوَلِيدِ مَعًا، عَنْ مُحَمَّدٍ الْعَطَّارِ وَأَحْمَدَ بْنِ إِدْرِيسَ مَعًا، عَنِ الْأَشْعَرِيِّ، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِنَا، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الطَّاحِنِ^(٢)، عَنْ طَاهِرِ بْنِ حَاتِمِ بْنِ مَاهُوِيهِ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى الطَّيِّبِ - يَعْنِي أَبَا الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَا الَّذِي لَا يُجْتَرَأُ فِي مَعْرِفَةِ الْخَالِقِ جَلَّ جَلَالُهُ بِدُونِهِ؟ فَكَتَبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَمْ يَزَلْ سَمِيعًا وَعَلِيمًا وَبَصِيرًا، وَهُوَ الْفَعَالُ لِمَا يُرِيدُ.

بيان:

المشهور أَنَّ الكاف زائدة؛ وقيل^(٣): أي ليس مثل مثله شيء فيدل على نفي مثله بالكناية التي هي أبلغ، لأنَّه مع وجود المثل يكون هو مثل مثله، أو المعنى: أَنَّهُ ليس ما يشبه أن يكون مثلاً له فكيف مثله حقيقة.

١٢٧٣. التوحيد^(٤): الدَّقَاقُ، عَنِ الْكَلِينِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، عَنِ الْفَضْلِ بْنِ شاذَانَ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَحْيَى، عَنْ مَنْصُورِ بْنِ حَازِمٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنِّي نَظَرْتُ قَوْمًا فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ وَأَجَلُّ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ بِخَلْقِهِ، بَلِ الْعِبَادُ يُعْرِفُونَ بِاللَّهِ^{(٥)(٦)}، فَقَالَ: رَحِمَكَ اللَّهُ.

١. التوحيد (للمصدق)، ص ٢٨٤، ح ٤؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب أدنى المعرفة، ص ٨٦، ح ٢، بهذا المضمون.

٢. في المصدر: «محمد بن علي الطاحي».

٣. شرح الكافي (المولى صالح المازندراني)، ج ٣، ص ٨٥.

٤. التوحيد (للمصدق)، ص ٢٨٥، ح ١؛ الكافي ج ١، باب أَنَّهُ لا يعرف إلا به، ص ٨٦، ح ٣.

٥. على صيغة المعلوم أي العباد يعرفون الله بالله، أي يعرفون الله بتوقيفه وهدايته، أو بما وصف نفسه وعرفهم من الصفات اللاتقة بجماله وجلاله، أو يكون الإشارة إلى البرهان المسمّى ببرهان الصديقين الذي هو أشرف البراهين وأسدّها، وهو الاستدلال به تعالى عليه، والاستشهاد بذاته تعالى على صفاته، وبصفاته على أفعاله ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت/ ٥٣)، ولعله إليه أشار الإمام زين العابدين عليه السلام بقوله: «بك عرفتك وأنت دلتني عليك، ودعوتني إليك، ولو لا أنت لم أدر ما أنت»، وبقوله عليه السلام: «يا غفار بنورك اهتدينا». وتأتي هذه الاحتمالات في قوله: «اعرفوا الله بالله».

أو على صيغة المجهول ويكون المراد - على ما قيل - أَنَّهُ تعالى لا يعرف حق المعرفة إلى خلقه والاستدلال بهم عليه، بل الخلق يعرفون بنور ربهم، كما تعرف الذرات بنور الشمس دون العكس، وليس نور الله في آفاق النفوس بأقل من نور الشمس في آفاق السماء، قال عز من قائل: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ (الزمر/ ٦٩) فضوؤه قاطع لرين أرباب الضمائر، ونوره ساطع في أبصار أصحاب البصائر. (هامش المطبوع)

٦. نقول: هذه مرتبة عالية من التوحيد وهو برهان الصديقين وإلا معرفة الله بآثاره في الآفاق والأنفس مما صرح به القرآن في آيات كثيرة.

١٢٧٤. التوحيد^(١): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ عَيْسَى، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حُمَرَانَ^(٢)، عَنْ الْفَضْلِ بْنِ السَّكَنِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اعْرِفُوا اللَّهَ بِاللَّهِ، وَالرَّسُولَ بِالرَّسَالَةِ، وَأُولِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ^(٣).

١٢٧٥. التوحيد^(٤): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّفَّارِ، عَنِ الْبَرْقِيِّ، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِنَا، عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَقْبَةَ رَفَعَهُ قَالَ: سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (٥) بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: بِمَا عَرَفَنِي نَفْسُهُ. قِيلَ: وَكَيْفَ عَرَفَكَ نَفْسُهُ؟ فَقَالَ: لَا تُشَبِّهُهُ صُورَةً^(٦)، وَلَا يُحَسُّ بِالْحَوَاسِّ، وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ^(٧)، قَرِيبٌ فِي بُعْدِهِ، بَعِيدٌ فِي قُرْبِهِ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُقَالُ: شَيْءٌ فَوْقَهُ^(٨)، أَمَامَ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُقَالُ لَهُ: أَمَامٌ، دَاخِلٌ فِي الْأَشْيَاءِ لَا كَشَيْءٍ فِي شَيْءٍ دَاخِلٍ، وَخَارِجٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَا كَشَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ خَارِجٍ، سُبْحَانَ مَنْ هُوَ هَكَذَا وَلَا هَكَذَا غَيْرُهُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ مَبْدَأٌ^(٩).

بيان:

«قريب»: من حيث إحاطة علمه وقدرته بالكل. «في بعده» أي مع بعده عن الكل من حيث المباني في الذات والصفات، فظهر أن قربه ليس بالمكان، بعيد عن إحاطة العقول والأوهام والأفهام به مع قربه حفظاً وتربية ولطفاً ورحمة، وقد مرَّ أنه يحتمل أن يكون إشارة إلى أن جهة قربه أي بالعلية واحتياج الكل إليه هي جهة بعده عن مشابهة مخلوقاته إذ الخالق لا يشابه المخلوق، وكذا العكس. «فوق كل شيء» أي بالقدرة والقهر والغلبة، وبالكمال والاتصاف بالصفات الحسنة. «ولا يقال: شيء فوقه» في الأمرين، وفيه إشعار بأنه ليس المراد به الفوقية بحسب المكان وإلا لأمكن أن يكون شيء فوقه. «أمام كل شيء» أي علة كل شيء ومقدم عليها، ويحتاج إليه كل موجود، ويتضرع إليه ويعبده كل مكلف، أو كل شيء متوجه نحوه في الاستكمال، والتشبه به في صفاته الكمالية، والكلام في قوله عليه السَّلَامُ: «ولا يقال له: أمام» كما مرَّ. «داخل في

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٨٥، ح ٣؛ الإمامة والتبصرة من الحيرة، ص ١٣٧، ح ١٥٥؛ الكافي، ج ١، باب أنه لا يعرف إلا به، ص ٨٥، ح ١.

٢. في الكافي: «علي بن محمد، عمّن ذكره، عن ابن عيسى، عن محمد بن حمران...».

٣. في الكافي: «وأولي الأمر بالأمر بالمعروف والعديل والإحسان».

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٨٥، ح ٢؛ المحاسن، ج ١، ص ٢٣٩، ح ٢١٧؛ الكافي، ج ١، باب أنه لا يعرف إلا به، ص ٨٥، ح ٢.

٥. في المحاسن: «البرقي، عن بعض أصحابنا، عن صالح بن عقبة، عن قيس بن سميان، عن أبي رييحة مولى رسول الله ﷺ رفعه قال: سئل أمير المؤمنين عليه السَّلَامُ:».

٦. وفي نسخة: لا يشبهه صورة. (هامش المطبوع)

٧. في المحاسن: «لا يقاس بالقياس».

٨. في المحاسن: «فوق كل شيء ولا يقال شيء تحته وتحت كل شيء، ولا يقال شيء فوقه...».

٩. وفي نسخة: ولكل شيء مبتدأ. (هامش المطبوع)، وكذا في التوحيد والمحاسن والكافي.

الأشياء» أي لا يخلو شيء من الأشياء ولا جزء من الأجزاء عن تصرفه وحضوره العلمي وإفاضة فيضه وجوده عليه، لا كدخول الجزء في الكل، ولا كدخول العارض في المعروض، ولا كدخول المتمكن في المكان. «خارج من الأشياء» بتعالي ذاته عن ملابستها ومقارنتها والاتصاف بصفاتها والابتلاع منها، لا كخروج شيء من شيء بالبعد المكاني أو المحلي. وقوله عليه السلام: «ولكل شيء مبدأ» أي علّة في ذواتها وصفاتها كالتعليل لما سبق.

١٢٧٦. التوحيد^(١): مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْحَاقَ الْفَارِسِيِّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ سَعِيدِ النَّسَوِيِّ^(٢)، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الصُّغْدِيِّ، - بِمَرَوْ - عَنْ مُحَمَّدٍ بْنِ يَعْقُوبَ الْحَكَمِ الْعَسْكَرِيِّ وَأَخِيهِ مُعَاذِ بْنِ يَعْقُوبَ، عَنْ مُحَمَّدٍ بْنِ سِنَانِ الْحَنْظَلِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَاصِمٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ ابْنِ هَاشِمٍ الرِّمَّانِيِّ^(٣)، عَنْ زَادَانَ، عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ يَذْكُرُ فِيهِ قُدُومَ الْجَائِلِيَةِ الْمَدِينَةِ مَعَ مِائَةِ مِنَ النَّصَارَى، وَمَا سَأَلَ عَنْهُ أَبَا بَكْرٍ فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ أُرْشِدَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَأَلَهُ عَنْ مَسَائِلَ فَأَجَابَهُ عَنْهَا، وَكَانَ فِيهَا سَأَلُهُ أَنْ قَالَ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَرَفْتُ اللَّهَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، أَمْ عَرَفْتُ مُحَمَّدًا بِاللَّهِ؟ فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا عَرَفْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَلَكِنْ عَرَفْتُ مُحَمَّدًا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حِينَ خَلَقَهُ وَأَخَذَتْ فِيهِ الْحُدُودَ مِنْ طُولٍ وَعَرْضٍ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ مُدَبَّرٌ مَصْنُوعٌ بِاسْتِدْلَالٍ وَإِلْهَامٍ مِنْهُ وَإِرَادَةٍ، كَمَا أَلْهَمَ الْمَلَائِكَةَ طَاعَتَهُ وَعَرَفَهُمْ نَفْسَهُ بِلَا شَيْءٍ وَلَا كَيْفٍ. والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

وحدثنا^(٤) علي بن أحمد بن محمد بن عمران الدقاق «رحمه الله» قال: سمعت محمد بن يعقوب يقول: معنى قوله: «اعرفوا الله بالله» يعني أن الله عز وجل خلق الأشخاص والألوان^(٥) والجواهر والأعيان^(٦)، فالأعيان: الأبدان، والجواهر: الأرواح، وهو جل وعز لا يشبه جسمًا ولا روحًا، وليس لأحد في خلق الروح الحسّاس الدراك أثر^(٧) ولا سبب، هو المتفرّد بخلق الأرواح والأجسام، فمن نفى عنه الشبهين: شبه الأبدان وشبه الأرواح فقد عرف الله بالله، ومن شبهه بالروح أو البدن أو النور^(٨) فلم يعرف الله بالله.

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٨٦، ح ٤ و ٥.

٢. في المصدر: «أحمد بن محمد بن أبو سعيد النسوي».

٣. في المصدر: «عن أبي هاشم الرماني».

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٨٨، ح ٥؛ الكافي، ج ١، باب أنه لا يعرف إلا به، ص ٨٥، ذيل ح ١.

٥. في الكافي: «الأنوار».

٦. لم يرد في التوحيد: «والأعيان».

٧. في الكافي: «أمر».

٨. **نقول:** ولا ينافي ذلك ما ورد في قوله تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور/٣٥) فإنه إشارة إلى أنه تعالى منور السماوات والأرض بنور الوجود.

أقول:

قال الصدوق «رحمه الله» في كتاب التوحيد: القول الصواب في هذا الباب هو أن يقال: عرفنا الله بالله^(١) لأننا إن عرفناه بعقولنا فهو عز وجل واهبها، وإن عرفناه عز وجل بأنبيائه ورسله وحججه عليه السلام فهو عز وجل باعتهم ومرسلهم ومتخذهم حججاً، وإن عرفناه بأنفسنا فهو عز وجل محدثنا، فبه عرفناه؛ وقد قال الصادق عليه السلام: لَوْ لَا اللَّهُ مَا عَرَفْنَا، وَلَوْ لَا نَحْنُ مَا عَرَفَ اللَّهُ. ومعناه: لو لا الحجج ما عرف الله حق معرفته، ولو لا الله ما عرف الحجج.

وقد سمعت بعض أهل الكلام يقول: لو أن رجلاً ولد في فلاة من الأرض^(٢) ولم ير أحداً يهديه ويرشده حتى كبر وعقل ونظر إلى السماء والأرض لدله ذلك على أن لهما صانعاً ومحدثاً. فقلت: إن هذا شيء لم يكن، وهو إخبار بما لم يكن أن لو كان كيف كان يكون، ولو كان ذلك لكان لا يكون ذلك الرجل إلا حجة الله تعالى ذكره على نفسه كما في الأنبياء عليهم السلام منهم من بعث إلى نفسه، ومنهم من بعث إلى أهله وولده، ومنهم من بعث إلى أهل محلته، ومنهم من بعث إلى أهل بلده، ومنهم من بعث إلى الناس كافة^(٣).

وأما استدلال إبراهيم الخليل عليه السلام بنظره إلى الزهرة، ثم إلى القمر، ثم إلى الشمس، وقوله - فلما أفلت -: يا قوم إني برىء مما تشركون فإنه عليه السلام كان نبياً ملهماً مبعوثاً مرسلأً، وكان جميع قوله إلى آخره بإلهام الله عز وجل إياه، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾^(٤) وليس كل أحد كإبراهيم عليه السلام، ولو استغنى في معرفة التوحيد بالنظر عن تعليم الله عز وجل وتعريفه لما أنزل الله عز وجل ما أنزل من قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٥) ومن قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٦) إلى آخره، ومن قوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٧) وآخر الحشر وغيرها من آيات التوحيد.

١. سيجيء حق معنى معرفة الله بالله في رواية عبد الأعلى على نحو الإشارة، وأما ما ذكره رحمه الله زعماً منه أن المعرفة مستندة إلى الله

وليس بمكتسبة فيمعرزل عن مراد الرواية. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

٢. الفلاة: التي لا ماء بها ولا أنيس، راجع لسان العرب.

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٩٠ و ص ٢٩١.

٤. الأنعام/٨٣.

٥. محمد/١٩.

٦. الإخلاص/١.

٧. الأنعام/١٠١-١٠٣.

تبيين وتحقيق:

اعلم أنَّ هذه الأخبار لا سيَّما خبر ابن السكّن تحتل وجوهاً:

الأوّل: أن يكون المراد بالمعرّف به ما يعرف الشيء به بأنّه هو هو، فمعنى «اعرفوا الله بالله» اعرفوه بأنّه هو الله مسلوباً عنه جميع ما يعرف به الخلق من الجواهر والأعراض ومشابهته شيء منها، وهذا هو الذي ذكره الكليني «رحمه الله» وعلى هذا فمعنى قوله ﷺ: «والرسول بالرسالة» معرفة الرسول بأنّه أرسل بهذه الشريعة وهذه الأحكام، وهذا الدين، وهذا الكتاب، ومعرفة كلّ من أوّلي الأمر بأنّه الأمر بالمعروف، والعالم العامل به، وبالعديل أي لزوم الطريقة الوسطى في كلّ شيء، والإحسان أي الشفقة على خلق الله والتفضّل عليهم ودفع الظلم عنهم. أو المعنى: «اعرفوا الله بالله» أي بما يناسب ألوهيته من التنزيه والتقديس، والرسول بما يناسب رسالته من العصمة والفضل والكمال، وأوّلي الأمر بما يناسب درجتهم العالية التي هي الرئاسة العامة للعالم والدين، وبما يحكم العقل به من اتّصاف صاحب تلك الدرجة القصوى به من العلم والعصمة والفضل والمزية على من سواه؛ ويحتمل أن يكون الغرض عدم الخوض في معرفته تعالى ورسوله وحججه بالعقول الناقصة، فينتهي إلى نسبة ما لا يليق به تعالى إليه، وإلى الغلوّ في أمر الرسول والأئمة «صلوات الله عليهم».

وعلى هذا يحتمل وجهين: الأوّل أن يكون المراد: اعرفوا الله بعقولكم بمحض أنّه خالق إله، والرسول بأنّه رسول أرسله الله إلى الخلق، وأوّلي الأمر بأنّه المحتاج إليه لإقامة المعروف والعدل والإحسان، ثمّ عوّلوا^(١) في صفاته تعالى وصفات حججه ﷺ على ما بينوا ووصفوا لكم من ذلك ولا تخوضوا فيها بعقولكم. والثاني: أن يكون المعنى: اعرفوا الله بما وصف لكم في كتابه وعلى لسان نبيّه، والرسول بما أوضح لكم من وصفه في رسالته إليكم، والإمام بما بين لكم من المعروف والعدل والإحسان كيف اتّصف بتلك الأوصاف والأخلاق الحسنة. ويحتمل الأخيرين وجهاً ثالثاً، وهو أن يكون المراد لا تعرفوا الرسول بما يخرج به عن الرسالة إلى درجة الألوهية، وكذا الإمام.

الثاني: أن يكون المراد بما يعرف به ما يعرف باستعانتها من قوى النفس العاقلة والمدرّكة وما يكون بمنزلتها ويقوم مقامها، فمعنى اعرفوا الله بالله: اعرفوه بنور الله المشرق على القلوب بالتوسّل إليه والتقرّب به، فإنّ العقول لا تهتدي إليه إلّا بأنوار فيضه تعالى، واعرفوا الرسول بتكميله إياكم برسالته، وبمتابعته فيما يؤدّي إليكم من طاعة ربّكم، فإنّها توجب الروابط المعنوية بينكم وبينه، وعلى قدر ذلك يتيسّر لكم من معرفته، وكذا معرفة أوّلي الأمر إنّما تحصل بمتابعتهم في المعروف والعدل والإحسان وباستكمال العقل بها.

١. عوّل عليه: اتّكل واعتمد، راجع لسان العرب.

الثالث: أن يكون المراد ما يعرف بها من الأدلة والحجج، فمعنى اعرفوا الله بالله أنه إنما تتأتى معرفته لكم بالتفكر فيما أظهر لكم من آثار صنعه وقدرته وحكمته بتوفيقه وهدايته، لا بما أرسل به الرسول من الآيات والمعجزات فإن معرفتها إنما تحصل بعد معرفته تعالى، واعرفوا الرسول بالرسالة أي بما أرسل به من المعجزات والدلائل، أو بالشرعية المستقيمة التي بعث بها، فإنها لانطباقها على قانون العدل والحكمة يحكم العقل بحقيته من أرسل بها، واعرفوا أولي الأمر بعلمهم بالمعروف، وإقامة العدل والإحسان، وإتيانهم بها على وجهها، وهذا أقرب الوجوه، ويؤيده خبر سلمان وكذا خبر ابن حازم، إذ الظاهر أن المراد به أن وجوده تعالى أظهر الأشياء، وبه ظهر كل شيء، وقد أظهر الآيات للخلق على وجوده وعلمه وقدرته، وأظهر المعجزات حتى علم بذلك حقيقة حججه عليه السلام، فالعباد معروفون به، ولا يحتاج في معرفة وجوده إلى بيان أحد من خلقه. ويمكن أن يقرأ «يعرفون» على بناء المعلوم أيضاً.

وأما ما ذكره الصدوق «رحمه الله» فيرجع إلى أن المعنى أن جميع ما يعرف الله به ينتهي إليه سبحانه، ويرد عليه أنه على هذا تكون معرفة الرسول وأولي الأمر أيضاً بالله، فما الفرق بينهما وبين معرفة الله في ذلك؟ وأيضاً لا يلائمه قوله عليه السلام: «اعرفوا الله بالله» إلا أن يقال: الفرق باعتبار أصناف المعرفة، فالمعرفة بالرسالة صنف من المعرفة بالله، والمعرفة بالمعروف صنف آخر منها، ومعرفة الله فيها أصناف لا اختصاص لها بصنف، والمراد بـ «اعرفوا الله بالله»: حصلوا معرفة الله التي تحصل بالله، هكذا حققه بعض الأفاضل^(١). ثم إن في كلامه تشويشاً وتناقضاً، ولعل مراده أخيراً نفي معرفة صفاته الكمالية حق معرفتها بدون إرسال الرسل ونصب الحجج إلا أن التصديق بوجوده تعالى يتوقف على ذلك وإن كان بعض كلماته يدل عليه.

١. الحاشية على أصول الكافي (لمحمد بن حيدر النائيني)، ص ٢٨٣.

﴿باب ١١﴾

«الدين الحنيف والفطرة وصبغة الله والتعريف في الميثاق»

الآيات:

البقرة/١٣٨: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَتَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾^(١).
 الروم/٣٠: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

١. **نقول:** ذكر المفسرون أن النصارى دأبوا على غسل أبنائهم بعد ولادتهم في ماء أصفر اللون، ويسمون غسل التعميد، ويجعلون ذلك تطهيراً للمولود من الذنب الذاتي الموروث من آدم! القرآن يرفض هذا المنطق الخاوي ويقول: من الأفضل أن تتركوا هذه الصبغات الظاهرية الخرافية المفرقة، وتصطبغوا بصبغة الله، لتطهر روحكم. ما أجمل تعبير «الصبغة» في هذه الآية! وما أروع هذه الدعوة إلى الاصطباغ بصبغة الله لو حدث ذلك، لو اختارت البشرية صبغة الله أي صبغة الطهر والتقوى والعدالة والمساواة والأخوة، صبغة التوحيد والإخلاص لاستطاعت أن تستأصل جذور الشرك والنفاق والتفرقة، إنها في الحقيقة الصبغة التي لا لون بها وتطهر الإنسان من جميع الألوان. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١، ص ٣٩٧)

٢. **نقول:** الآية تبين عدة حقائق:

(أ) إن معرفة الله - ليست وحدها - بل الدين والاعتقاد بشكل كلي وفي جميع أبعاده هو أمر فطري، وينبغي أن يكون كذلك، لأن الدراسات التوحيدية تؤكد أن بين جهاز التكوين والتشريع انسجاماً لازماً، فما ورد في الشرع لا بد أن يكون له جذر في الفطرة، وما هو في التكوين وفطرة الإنسان متناغم مع قوانين الشرع!

(ب) إن الدين له وجود نقي خالص من كل شائبة داخل نفس الإنسان، أما الانحرافات فأمر عارض، ووظيفة الأنبياء إذن إزالة هذه الأمور العارضة، وفسح المجال لفطرة الإنسان في الإشراق.

(ج) إن جملة ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ وبعدها جملة ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ تأكيدان آخران على مسألة كون الدين فطرياً، وعدم إمكان تغيير هذه الفطرة! (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٢، ص ٥١٨)

الروايات:

١٢٧٧. معاني الأخبار^(١): أَبِي عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ ابْنِ أُذَيْنَةَ، عَنْ زُرَّارَةَ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(٢) عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ ^(٣) فَقُلْتُ: مَا الْحَنِيفِيَّةُ؟ قَالَ هِيَ الْفِطْرَةُ ^(٤).

بيان:

أي الملة الحنيفية هي التوحيد الذي فطر الله الخلق عليه، ويومئ إليه قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ ^(٥) واختلف في معنى ذلك الفطرة فقيل: المعنى أنه خلقهم على نوع من الجبلّة والطبع المتهيئ لقبول الدين، فلو ترك عليها لاستمرّ على لزومها، ولم يفارقها إلى غيرها، وإنّما يعدل عنه من يعدل لآفة من الآفات، وتقليد الآباء والأمّهات ^(٦)؛ وقيل: كلّهم مفطورون على معرفة الله والإقرار به، فلا تجد أحداً إلّا وهو يقرّ بأنّ الله تعالى صانع له، وإن سمّاه بغير اسمه أو عبد معه غيره ^(٧)؛ وقيل: المعنى أنه خلقهم لها لأنّه خلق كلّ الخلق لأن يوحدوه ويعبدوه ^(٨). قال الجزريّ: فيه: «خلقت عبادي حنفاء» أي طاهري الأعضاء من المعاصي لأنّه خلقهم كلّهم مسلمين، لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ ^(٩) وقيل أراد أنّه خلقهم حنفاء مؤمنين لمّا أخذ عليهم الميثاق: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ ^(١٠) فلا يوجد أحد إلّا وهو مقرّ بأنّ له ربّاً وإن أشرك به. والحنفاء جمع حنيف، وهو المائل إلى الإسلام الثابت عليه، والحنيف عند العرب من كان على دين إبراهيم، وأصل الحنف: الميل. انتهى.

أقول:

الذي يظهر من الأخبار هو أنّ الله تعالى قرّر عقول الخلق على التوحيد والإقرار بالصانع في بدء الخلق

١. معاني الأخبار، ص ٣٤٩، ح ١؛ المحاسن، ج ١، ص ٢٤١، ح ٢٢٣؛ الكافي، ج ٢، باب فطرة الخلق على التوحيد، ص ١٢، ح ٤.

٢. في المحاسن: «البرقي، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن ابن أذينة، عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ».

٣. الحج/٣١.

٤. في المحاسن مع زيادة: «التي فطر الناس عليها، فطر الله الخلق على معرفته»، وفي الكافي بهذه العبارة: «الحنيفية من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، قال: فطرهم على المعرفة به».

٥. الروم/٣٠.

٦. النهاية (لابن أثير الجزري)، ج ٣، ص ٥٧.

٧. مجمع البحرين، ج ٣، ص ٤٣٨.

٨. تصحيح إعتقادات الإمامية، ص ٦٠.

٩. التغاين/٢.

١٠. الأعراف/١٧٢.

عند الميثاق، فقلوب جميع الخلق مذعنة بذلك وإن جحدوه معاندة. وسيأتي تمام الكلام في ذلك في كتاب العدل إن شاء الله تعالى.

١٢٧٨. تفسير القمّي^(١): الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ مُعَلَّى بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُمُهورٍ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ بِشِيرٍ^(٢)، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي حَمْرَةَ، عَنْ أَبِي بصيرٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فِي قَوْلِهِ: ﴿فَاقِمِ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾^(٣) قَالَ: الْوَلَايَةُ.

١٢٧٩. التوحيد^(٤): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّفَّارِ، عَنِ ابْنِ هَاشِمٍ، عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام^(٥) قَالَ: قُلْتُ: ﴿فِطَرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾^(٦) قَالَ: التَّوْحِيدُ.

١٢٨٠. التوحيد^(٧): ابْنُ الْمُتَوَكِّلِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الثَّقَطِينِيِّ، عَنْ يُونُسَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سِنَانٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فِطَرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ مَا تِلْكَ الْفِطْرَةُ؟ قَالَ: هِيَ الْإِسْلَامُ فَطَرَهُمُ اللَّهُ حِينَ أَخَذَ مِيثَاقَهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ، فَقَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾^(٨) وَفِيهِمُ الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ.

١٢٨١. التوحيد^(٩): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّفَّارِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ حَسَّانَ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ يُونُسَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام^(١٠) فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فِطَرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ قَالَ: التَّوْحِيدُ، وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى الله عليه وآله وَعَلِيُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام.

١٢٨٢. التوحيد^(١١): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ الْمُغِيرَةِ، عَنْ ابْنِ مُسْكَانَ، عَنْ زُرَّارَةَ قَالَ:

١. تفسير القمي، ج ٢، ص ١٥٤؛ الكافي، ج ١، باب فيه نكت وتنف من التنزيل في الولاية، ص ٤١٨، ح ٣٥؛ تأويل الآيات الظاهرة، ص ٤٢٧.

٢. في الكافي: «علي بن إبراهيم، عن صالح بن السندي، عن جعفر بن بشير، ...»، وفي التأويل: «محمد بن العباس، عن أحمد بن الحسين المالكي، عن محمد بن عيسى، عن الحسن بن سعيد، عن جعفر بن بشير، ...».

٣. الروم/٣٠.

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ٣٢٨، ح ٢؛ المحاسن، ج ١، ص ٢٤١، ح ٢٢٢؛ الكافي ج ٢، باب فطرة الخلق على التوحيد، ص ١٢، ح ١.
٥. في المحاسن بهذا الإسناد: «البرقي، عن ابن فضال، عن عبد الله بن بكير، عن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام»، وفي الكافي: «علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، ...».

٦. الروم/٣٠.

٧. التوحيد (للصدوق)، ص ٣٢٩، ح ٣؛ الكافي، ج ٢، باب فطرة الخلق على التوحيد، ص ١٢، ح ٢؛ مختصر البصائر، ص ٣٩٥، ح ٤٤٩.

٨. الأعراف/١٧٢.

٩. التوحيد (للصدوق)، ص ٣٢٩، ح ٧؛ بصائر الدرجات، ص ٧٨، ح ٧؛ تفسير فرات الكوفي، ص ٣٢٢، ح ٤٣٦.

١٠. في البصائر بهذا الإسناد: «الصفار، عن أحمد بن موسى، عن الحسن بن موسى الخشاب، عن علي بن حسان، عن عبد الرحمن بن كثير، عن أبي عبد الله عليه السلام»، وفي تفسير فرات: «فرات، عن محمد بن القاسم بن عبيد، معنعناً عن أبي عبد الله عليه السلام».

١١. التوحيد (للصدوق)، ص ٣٣٠، ح ٨؛ مختصر البصائر، ص ٣٩٨، ح ٤٥٥.

قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: أَصْلَحَكَ اللَّهُ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ قَالَ: فَطَرَهُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ عِنْدَ الْمِيثَاقِ عَلَى مَعْرِفَتِهِ أَنَّهُ رَبُّهُمْ. قُلْتُ: وَخَاطَبُوهُ؟ قَالَ: فَطَاطَ رَأْسَهُ، ثُمَّ قَالَ: لَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَعْلَمُوا مَنْ رَبُّهُمْ وَلَا مَنْ رَازِقُهُمْ.

١٢٨٣. التوحيد^(١): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ هَاشِمٍ وَابْنِ أَبِي الْخَطَّابِ وَابْنِ يَزِيدَ جَمِيعاً، عَنْ ابْنِ أَبِي عَمِيرٍ^(٢)، عَنْ ابْنِ أَدْنِيَّةَ، عَنْ زُرَّارَةَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾^(٣) وَعَنِ الْحَنِيفِيَّةِ فَقَالَ عليه السلام: هِيَ الْفِطْرَةُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾^(٤)، قَالَ عليه السلام: فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَى الْمَعْرِفَةِ، قَالَ زُرَّارَةُ: وَسَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾^(٥)، قَالَ عليه السلام: أَخْرَجَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ دُرِّيَّتَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَخَرَجُوا كَالدَّرِّ، فَعَرَفَهُمْ وَأَرَاهُمْ صُنْعَهُ^(٦) وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ رَبَّهُ. وَقَالَ عليه السلام: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلوات الله عليه: كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، يَغْنِي عَلَى الْمَعْرِفَةِ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَالِقُهُ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَتَنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(٧).

١٢٨٤. المحاسن^(٨): الْمُحَسِّنُ بْنُ أَحْمَدَ، عَنْ أَبَانَ الْأَحْمَرِ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْأَحْوَلِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام ^(٩) قَالَ: عُرْوَةُ اللَّهِ الْوُثْقَى: التَّوْحِيدُ، وَالصَّبْغَةُ: الْإِسْلَامُ.

بيان:

قال البيضاوي في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾^(١٠) أي صبغنا الله صبغته وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها فإنها حلية الإنسان، كما أنَّ الصبغة حلية المصبوغ، أو هدايا هدايته وأرشدنا حجته، أو طهر قلوبنا بالإيمان تطهيره، وسمّاه صبغة لأنه ظهر أثره عليهم ظهور الصبغ على المصبوغ، وتداخل قلوبهم تداخل

١. التوحيد (للسدوق)، ص ٣٣٠، ح ٩؛ الكافي، ج ٢، باب فطرة الخلق على التوحيد، ص ١٢، ح ٤؛ مختصر البصائر، ص ٣٩٩، ح ٤٥٦.

٢. في الكافي: «علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، ...».

٣. الحج/٣١.

٤. الروم/٣٠.

٥. الأعراف/١٧٢.

٦. في الكافي والمختصر: «أراهم نفسه».

٧. لقمان/٢٥.

٨. المحاسن، ج ١، ص ٢٤٠، ح ٢٢١؛ تفسير العياشي، ج ١، ص ٦٢، ح ١٠٨ وقد وردت فيه بهذه العبارة: «الصبغة الإسلام» فحسب؛ وجاء في الكافي، ج ٢، باب في أنَّ الصبغة هي الإسلام، ص ١٤، ح ١، بهذا المضمون.

٩. في تفسير العياشي بهذا الإسناد: «عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام وحمزان، عن أبي عبد الله عليه السلام»، وفي الكافي: «علي بن إبراهيم، عن أبيه ومحمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد جميعاً عن ابن محبوب، عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام».

١٠. البقرة/١٣٨.

الصبغ الثوب، أو للمشاكلة فإن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه العمودية، ويقولون هو تطهير لهم وبه تحقق نصرانيتهم^(١)^(٢).

١٢٨٥. معاني الأخبار^(٣): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ فَضَالَةَ، عَنْ أَبَانَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٤) فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾^(٥) قَالَ: هِيَ الْإِسْلَامُ.

١٢٨٦. المحاسن^(٦): ابْنُ فَضَالٍ، عَنْ ابْنِ بُكَيْرٍ، عَنْ زُرَّارَةَ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٧) عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾^(٨) قَالَ: ثَبَّتَ الْمَعْرِفَةَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَنَسُوا الْمَوْقِفَ، وَسَيَذْكُرُونَهُ يَوْمًا، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَدْرِ أَحَدٌ مَنْ خَالَقَهُ وَلَا مَنْ رَازِقُهُ.

١٢٨٧. تفسير العياشي^(٩): عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾^(١٠) قَالَ: الصَّبْغَةُ مَعْرِفَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْوَلَايَةِ فِي الْمِيثَاقِ^(١١).

١٢٨٨. تفسير العياشي^(١٢): عَنْ الْوَلِيدِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: إِنَّ الْحَنِيفِيَّةَ^(١٣) هِيَ الْإِسْلَامُ.

١. أنوار التنزيل، ج ١، ص ١٠٩.

٢. قال الشيخ الطوسي: وقال قتادة: اليهود تصبغ أبناءها يهودا، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى. فهذا غير المعنى الأول، وإنما معناه أنهم يلقنون أولادهم اليهودية والنصرانية فيصبغونهم بذلك لما يشربون قلوبهم منه، فقليل: صبغة الله التي أمر بها ورضيها يعني الشريعة لا صبغتهم. وقال الجبائي: سمي الدين صبغة لأنه هيئة تظهر بالمشاهدة من أثر الطهارة والصلاة وغير ذلك من الآثار الجميلة التي هي كالصبغة. (التبيان، ج ١، ص ٤٨٥)

٣. معاني الأخبار، ص ١٨٨، ح ١، تفسير القمي، ج ١، ص ٦٢؛ الكافي، ج ٢، باب في أن الصبغة هي الإسلام، ص ١٤، ح ٢.

٤. في الكافي بهذا الإسناد: «عده من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن البرزطي، عن داود بن سرحان، عن عبد الله بن فرقد، عن حمران، عن أبي عبد الله عليه السلام».

٥. البقرة/١٣٨.

٦. المحاسن، ج ١، ص ٢٤١، ح ٢٢٥؛ وقد ورد في تفسير القمي، ج ١، ص ٢٤٨، مع زيادة: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٤٠، ح ١١٢.

٧. في تفسير القمي بهذا الإسناد: «علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن ابن مسكان، عن أبي عبد الله عليه السلام»، وفي تفسير العياشي: «زرارة عن أبي جعفر عليه السلام».

٨. الأعراف/١٧٢.

٩. تفسير العياشي، ج ١، ص ٦٢، ح ١٠٩؛ تفسير فرات الكوفي، ص ٦١، ح ٢٥؛ الكافي، ج ١، باب فيه نكت وتنف من التنزيل في الولاية، ص ٤٢٢، ح ٥٣.

١٠. البقرة/١٣٨.

١١. في تفسير الفرات: «قال: صبغة المؤمنين بالولاية في الميثاق»، وفي الكافي: «قال: صبغ المؤمنين بالولاية في الميثاق».

١٢. تفسير العياشي، ج ١، ص ٦١، ح ١٠٣؛ تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٣٦، ح ٦٤٩.

١٣. في تفسير العياشي: «الحنيفة».

١٢٨٩. عوالي اللثالي^(١): قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ حَتَّى يَكُونَ أَبَوَاهُ يَهُودًا أَوْ نَصْرَانِيَةً أَوْ مَجُوسًا.

بيان:

قال السيّد المرتضى «رحمه الله» في كتاب الغرر والدرر - بعد نقل بعض التأويلات عن المخالفين في هذا الخبر -: والصحيح في تأويله أنّ قوله ﷺ: «يولد على الفطرة» يحتمل أمرين: أحدهما: أن تكون الفطرة هاهنا الدين، ويكون «على» بمعنى اللام فكأنه قال ﷺ: كل مولود يولد للدين ومن أجل الدين، لأن الله تعالى لم يخلق من يبلغه مبلغ المكلفين إلا ليعبده فينتفع بعبادته، يشهد بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢) والدليل على أنّ «على» يقوم مقام اللام ما حكاه يعقوب بن السكيت، عن أبي يزيد، عن العرب أنهم يقولون: صف عليّ كذا وكذا حتى أعرفه، بمعنى صف لي، ويقولون: ما أغبطك عليّ يريدون ما أغبطك لي، والعرب تقيم بعض الصفات مقام بعض، وإنّما ساغ أن يريد بالفطرة التي هي الخلقة في اللغة الدين من حيث كان هو المقصود بها، وقد يجري على الشيء اسم ما له به هذا الضرب من التعلّق والاختصاص، وعلى هذا يتأوّل قوله تعالى: ﴿وَأَقِمُّوا﴾^(٣) وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا أراد دين الله الذي خلق الخلق له، وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾^(٤) أراد به أنّ ما خلق الله العباد له من العبادة والطاعة ليس ممّا يتغيّر ويختلف حتى يخلق قوماً للطاعة وآخرين للمعصية، ويجوز أن يريد بذلك الأمر وإن كان ظاهره ظاهر الخبر، فكأنه قال: لا تبدّلوا ما خلقكم الله له من الدين والطاعة بأن تعصوا وتخالفوا.

والوجه الآخر في تأويل قوله ﷺ: «الفطرة»: أن يكون المراد به الخلقة، وتكون لفظة «على» على ظاهرها لم يرد بها غيره، ويكون المعنى: كل مولود يولد على الخلقة الدالة على وحدانيّة الله تعالى وعبادته والإيمان به، لأنّه جلّ وعزّ قد صوّر الخلق وخلقهم على وجه يقتضي النظر فيه معرفته والإيمان به، وإن لم ينظروا ويعرفوا، فكأنه ﷺ قال: كل مخلوق ومولود فهو يدلّ بخلقته وصورته على عبادة الله تعالى وإن عدل بعضهم فصار يهودياً أو نصرانياً، وهذا الوجه أيضاً يحتمله قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

١. عوالي اللثالي، ج ١، ص ٣٥، ح ١٨؛ شرح الأخبار، ج ١، ص ١٩٠، ضمن ح ١٤٧؛ وقد ورد في من لا يحضره الفقيه، ج ٢، باب الخراج والجزية، ص ٤٩، صدر ح ١٦٦٨، عن أبي عبد الله عليه السلام.

٢. الذاريات/٥٦.

٣. في المصحف الشريف: ﴿فَأَقِمْ﴾

٤. الروم/٣٠.

وإذا ثبت ما ذكرناه في معنى الفطرة فقول له عليه الصلاة والسلام: «حتّى يكون أبواه يهودانه وينصرّانه»^١ يحتمل وجهين: أحدهما: أنّ من كان يهودياً أو نصرانياً ممّن خلّقه لعبادتي وديني فإنّما جعله أبواه كذلك، أو من جرى مجراهما ممّن أوقع له الشبهة وقلّده الضلال عن الدين، وإنّما خصّ الأبوين لأنّ الأولاد في الأكثر ينشئون على مذاهب آبائهم ويألفون أديانهم ونحلهم، ويكون الغرض بالكلام تنزيه الله تعالى عن ضلال العباد وكفرهم، وأنّه إنّما خلقهم للإيمان فصدهم عنه آبائهم، أو من جرى مجراهم.

والوجه الآخر: أن يكون معنى يهودانه وينصرّانه أي يلحقانه بأحكامهما، لأنّ أطفال أهل الذمّة قد ألحق بالشرع أحكامهم بأحكامهم، فكأنّه صلى الله عليه وآله قال: لا تتوهّموا من حيث لحقت أحكام اليهود والنصارى أطفالهم أنّهم خلقوا لدينهم بل لم يخلقوا إلّا للإيمان والدين الصحيح، لكن آبائهم هم الذين أدخلوهم في أحكامهم، وعبر عن إدخالهم في أحكامهم بقوله صلى الله عليه وآله: «يهودانه وينصرّانه»^(١).

١. أمالي المرتضى، ج ٢، ص ٨٤ و ٨٥.

﴿باب ١٢﴾

«إثبات قدمه تعالى وامتناع الزوال عليه»

الروايات:

١٢٩٠. الأماشي للصدوق^(١): ابْنُ الْمُتَوَكِّلِ، عَنِ السَّعْدِ آبَادِيٍّ، عَنِ الْبَرْقِيِّ، عَنِ الْبَرْزَنْطِيِّ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْمُؤَصِّلِيِّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَتَى كَانَ رَبُّكَ؟ فَقَالَ لَهُ: ثَكَلْتُكَ أُمُّكَ^(٢) وَمَتَى لَمْ يَكُنْ حَتَّى يُقَالَ: مَتَى كَانَ؟ كَانَ رَبِّي قَبْلَ الْقَبْلِ بِلاَ قَبْلِ، وَيَكُونُ بَعْدَ الْبَعْدِ بِلاَ بَعْدٍ، وَلَا غَايَةَ وَلَا مُنْتَهَى لِغَايَتِهِ، انْقَطَعَتِ الْغَايَاتُ عَنْهُ، فَهُوَ مُنْتَهَى كُلِّ غَايَةٍ^(٣).

بيان:

لَمَّا كَانَ «متى كان» سؤالاً عن الزمان المخصوص من بين الأزمنة لوجوده، ولا يصح فيما لا اختصاص لزمان به أجابه عليه السلام بقوله: «متى لم يكن حتى يقال: متى كان»، ونبه على بطلان الاختصاص الذي أخذ في السؤال، ثم بيّن عليه السلام سر مدّيته، فقال: «كان ربّي قبل القبل» أي هو قبل كلّ ما هو قبل شيء ولا قبل بالنسبة إليه، وبعد كلّ ما هو بعد شيء ولا شيء بعده، أو هو قبل الموصوف بالقبليّة والبعدية لذاته أي الزمان، وبعده بلا زمان إذ هو مبدأ كلّ شيء وغاية له. و«الغاية»: نهاية الامتداد، وقد يطلق على نفس الامتداد، والمعنى: أنّه لا غاية لوجوده وسائر كمالاته أزلاً وأبداً، ولعلّ المراد بها ثانياً نفس الامتداد أي ليس لما يتوهم له من الامتداد نهاية.

١. الأماشي (للصدوق)، ص ٦٧١، ح ١؛ الكافي، ج ١، باب الكون والمكان، ص ٨٩، ح ٥؛ الإحتجاج (للطبرسي)، ج ١، ص ٢١٠.

٢. **فقول:** أمثال هذه التعبيرات إشارة إلى أهمية الموضوع وتأكيده، وليس فيه إهانة ودعاء عليه، «والثكل» في الأصل بمعنى فقدان المرأة ولدها (صحاح اللغة) فقله: «ثكلتك أمك» أي فقدتك أمك.

٣. قد ورد في الكافي والإحتجاج مع زيادة: «فقال: يا أمير المؤمنين أفنبي أنت؟ فقال: ويليك إنما أنا عبد من عبيد محمد ﷺ».

ويحتمل أن يكون المراد بها أولاً أيضاً الامتداد، فيكون مجروراً أي بلا امتداد زمني، ويحتمل أن يكون المراد بها ثانياً أيضاً النهاية، أي كل ما توهمت أنه غاية له فهو موجود بعده، ولا ينتهي إليه وجوده، فكل غاية أي امتداد أو نهاية ينقطع عنه لوجوده تعالى قبله وبعده، فهو منتهى كل غاية أي بعدها، أو هو علة لها وإليه ينتهي وجودها، فكيف تكون غاية له؟ ويحتمل أن يكون المراد بالغايات نهايات أفكار العارفين فإنها منقطعة عنه لا تصل إليه، وبكونه منتهى كل غاية أنه منتهى رغبات الخلائق وحاجاتهم، ويمكن أن يحمل الغاية في الأخيرتين على العلة الغائية أيضاً، والله يعلم.

١٢٩١. معاني الأخبار^(١): ابن المَوَكَّل، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ ابْنِ أُذَيْنَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ مَيْمُونِ بْنِ قَالٍ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾^(٢) فَقَالَ: الْأَوَّلُ لَا عَنْ أَوَّلٍ قَبْلَهُ وَلَا عَنْ بَدْءٍ سَبْقَهُ، وَآخِرٌ لَا عَنْ نِهَايَةٍ كَمَا يُعْقَلُ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَكِنْ قَدِيمٌ أَوَّلٌ آخِرٌ، لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ بِلَا بَدْءٍ وَلَا نِهَايَةٍ، لَا يَقَعُ عَلَيْهِ الْحُدُوثُ، وَلَا يُحَوَّلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

بيان:

«لا عن أول قبله» أي لا مبتدأ عن أول يكون قبله زماناً، «ولا عن بدء» على وزن فعل، أو بديء على وزن فاعيل أي مبتدأ سبقه رتبة بالعلية. وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا عن نهاية» أي لا معها مجازاً؛ ويحتمل أن تكون «عن» تعليلية أي ليست آخريته بسبب أن له نهاية بعد نهاية غيره. وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا يقع عليه الحدوث» ناظر إلى الأول. وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولا يحول من حال إلى حال» ناظر إلى الآخر، أي آخريته بأنه أبدي بجميع صفاته لا يعتريه تغير في شيء من ذلك. وسيأتي^(٣) تحقيقه في باب الأسماء.

١٢٩٢. الإحتجاج^(٤): سَأَلَ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَتَى كَانَ؟ فَقَالَ لَهُ: وَيْلَكَ أَخْبِرْنِي أَنْتَ مَتَى لَمْ يَكُنْ حَتَّى أَخْبِرَكَ مَتَى كَانَ، سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ فَرْدًا صَمَدًا لَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا.

١٢٩٣. التوحيد^(٥): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ حَارِثٍ، عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: أَخْرَجَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَقًّا^(٦) فَأَخْرَجَ مِنْهُ وَرَقَةً فَإِذَا فِيهَا: سُبْحَانَ الْوَاحِدِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ^(٧)، الْقَدِيمُ الْمُبْدِيُّ

١. معاني الأخبار، ص ١٢، ح ١؛ الكافي، ج ١، باب معاني الأسماء، ص ١١٦، ح ٦.

٢. الحديد/٣.

٣. تتمه كتاب التوحيد، أبواب أسمائه تعالى، باب ٢، معاني الأسماء واشتقاقها.

٤. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٢٦؛ تفسير القمي، ج ١، ص ٢٣٥؛ الكافي، ج ٨، حديث آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الشجرة، ص ١٢٢، ح ٩٣، وقد ورد في هذه المصادر ضمن رواية.

٥. التوحيد (للصدوق)، ص ٤٦، ح ٨.

٦. الحقّة: وعاء من خشب، راجع القاموس المحيط.

٧. وفي نسخة: فإذا فيها سبحان الله الواحد الذي لا إله غيره. (هامش المطبوع)

الَّذِي لَا بَدْءَ لَهُ، الدَّائِمُ الَّذِي لَا نَفَادَ لَهُ، الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، الْخَالِقُ مَا يَرَى وَمَا لَا يَرَى، الْعَالِمُ كُلِّ شَيْءٍ بِغَيْرِ تَعْلِيمٍ، ذَلِكَ اللَّهُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ.

١٢٩٤. التوحيد^(١): ابْنُ الْمُتَوَكِّلِ، عَنْ مُحَمَّدٍ الْعَطَّارِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ مَهْزِيَارٍ قَالَ: كَتَبَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام إِلَى رَجُلٍ بِخَطِّهِ - وَقَرَأْتُهُ - فِي دُعَاءٍ كَتَبَ بِهِ أَنْ يَقُولَ: يَا ذَا الَّذِي كَانَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، ثُمَّ يَبْقَى وَيَقْنَى كُلُّ شَيْءٍ^(٢)، وَيَا ذَا الَّذِي لَيْسَ فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى وَلَا فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى، وَلَا فَوْقَهُنَّ وَلَا بَيْنَهُنَّ وَلَا تَحْتَهُنَّ إِلَهٌ يُعْبَدُ غَيْرُهُ.

١٢٩٥. التوحيد^(٣): مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ إِسْحَاقَ الْمَذْكُورِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ سُفْيَانَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ سَلَمَةَ اللَّبْقِيِّ^(٤)، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ يَحْيَى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَلْحَةَ، عَنْ سَعْدِ بْنِ سِنَانٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ، عَنِ النَّزَّالِ بْنِ سَبْرَةَ قَالَ: جَاءَ يَهُودِيٌّ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَتَى كَانَ رَبُّنَا؟ قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَلِيُّ عليه السلام: إِنَّمَا يُقَالُ مَتَى كَانَ لَشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ فَكَانَ، وَرَبُّنَا هُوَ كَائِنٌ بِلَا كَيْنُونَةٍ كَائِنٌ، كَانَ بِلَا كَيْفٍ يَكُونُ، كَانَ لَمْ يَزَلْ بِلَا لَمْ يَزَلْ وَبِلَا كَيْفٍ يَكُونُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لَيْسَ لَهُ قَبْلُ، هُوَ قَبْلَ الْقَبْلِ بِلَا قَبْلٍ وَبِلَا غَايَةٍ وَلَا مُنْتَهَى غَايَةٍ وَلَا غَايَةَ إِلَيْهَا، غَايَةُ انْقِطَاعَتِ الْغَايَاتِ عَنْهُ، فَهُوَ غَايَةُ كُلِّ غَايَةٍ.

بيان:

«بلا كينونة كائن» أي كان ولم يحدث حادث بعداً ولا على نحو حدوث الحوادث. قال الفيروزآبادي: الكون: الحدث كالكينونة. قوله عليه السلام: «بلا كيف يكون» أي صفة موجودة زائدة، ولعل الوصف بقوله عليه السلام: «يكون» للإشعار بأنه إذا كان له كيف يكون حادثاً لا محالة. قوله عليه السلام: «بلا لم يزل» أي بلا زمان قديم موجود يسمى بلم يزل ليكون معه قديماً ثانياً. وقوله عليه السلام ثانياً: «بلا كيف يكون» تأكيد لما سبق؛ ويحتمل أن يكون الأول لنفي الكيفيات الجسمانية أو الحادثة، والثاني لنفي الصفات الحقيقية الزائدة أو القديمة؛ ويحتمل أن يكون المراد بالأخير أنه ليس لوجوده في الأزل واتّصافه بها كيف، فيكون إشارة إلى نفي معلولية الوجود أو زيادته. وفي الكافي بسند آخر: «كيف يكون له قبل»، وهو أظهر كما سيأتي أيضاً. قوله عليه السلام: «بلا غاية» أي امتداد وزمان موجود. «ولا منتهى غاية» أي في الأزل. «ولا غاية» أي منتهى ينتهي إليها، «غاية» أي امتداد في لا يزال.

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٤٧، ١١؛ المقنعة، ص ٣٢٠؛ الإقبال بالأعمال الحسنة، ج ١، ص ٣٤٨.

٢. في المقنعة مع زيادة: «يا ذا الذي ليس كمثله شيء».

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ٧٧، ح ٣٣؛ وقد ورد في جامع الأخبار (للشعيري)، ص ٥، مع اختلاف العبارات.

٤. في المصدر: «علي بن سلمة الليفي».

١٢٩٦. التوحيد^(١): ابْنُ الْمُتَوَكِّلِ، عَنْ مُحَمَّدٍ الْعَطَّارِ، عَنْ سَهْلٍ^(٢)، عَنْ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى الْخَزَّازِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَمَاعَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَالَ رَأْسُ الْجَالُوتِ لِلْيَهُودِ: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ عَلِيًّا مِنْ أَجْدَلِ النَّاسِ وَأَعْلَمِهِمْ، أَذْهَبُوا بِنَا إِلَيْهِ لَعَلِّي أَسْأَلُهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ أُخْطِئُ فِيهَا. فَأَتَاهُ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ مَسْأَلَةٍ. قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: سَلْ عَمَّا شِئْتَ. قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَتَى كَانَ رَبُّنَا؟ قَالَ: يَا يَهُودِيٌّ إِنَّمَا يُقَالُ مَتَى كَانَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ فَكَانَ، هُوَ كَائِنْ بِلا كَيْفُونَةٍ كَائِنْ، كَانَ بِلا كَيْفٍ. يَا يَهُودِيٌّ^(٣) كَيْفَ يَكُونُ لَهُ قَبْلُ وَهُوَ قَبْلُ الْقَبْلِ بِلا غَايَةٍ وَلَا مُنْتَهَى غَايَةٍ، وَلَا غَايَةٍ إِلَيْهَا غَايَةٌ؟ انْقَطَعَتِ الْغَايَاتُ عَنْهُ فَهُوَ غَايَةٌ كُلُّ غَايَةٍ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ دِينَكَ الْحَقُّ، وَأَنَّ مَا خَالَفَهُ بَاطِلٌ.

أقول:

قد أثبتنا خبر محمد بن عبد الله الخراساني في باب إثبات الصانع، وسيأتي كثير من الأخبار في باب نفي الزمان والمكان، وسائر الأبواب مشحونة بما يناسب الباب من الأخبار.

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٧٥، ح ٦؛ الكافي، ج ١، باب الكون والمكان، ص ٩٠، ح ٦.

٢. في الكافي: «علي بن محمد، عن سهل...».

٣. في الكافي: «كان بلا كيف يكون، بلى يا يهودي، ثم بلى يا يهودي».

﴿باب ١٣﴾

«نفي الجسم والصورة والتشبيه والحلول والاتحاد وأنه لا يدرك بالحواس والأوهام والعقول والأفهام»

الآيات:

الأنعام/٩١ والحج/٧٤ والزمر/٦٧: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾.
الشورى/١١: ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١).

الروايات:

١٢٩٧. الأماي للشيخ الطوسي^(٢): مُحَمَّدٌ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ شَاذَانَ الْقُمِّيَّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عِيْسَى، عَنْ عَلِيِّ بْنِ بِلَالٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ بَشِيرٍ الدَّهَّانِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَمَاعَةَ قَالَ: سَأَلَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا

١. **نقول:** إنَّ هذا الجزء من الآية يتضمَّن حقيقةً أساسية في معرفة صفات الله الأخرى، وبدونها لا يمكن التوصل إلى أي صفة من صفات الله، لأنَّ أكبر منزلق يواجه السائر في طريق معرفة الله يتمثل في «التشبيه» حيث يشبهون الخالق جلَّ وعلا بصفات مخلوقاته، وهو أمر يؤدي للسقوط في وادي الشرك! إنَّ وجود الله تعالى ليس له نهاية ولا يحد بحد، وكل شيء غيره له نهاية وحد من حيث القدر والعمر والعلم والحياة والإرادة والفعل...، وفي كل شيء. وهذا هو خط تنزيه الخالق من نقائص الممكنات. لذا فإنَّ ما يشبَّه لغيره لا يصح عليه سبحانه وتعالى ولا ينطبق على ذاته المنزهة، بل ولا معنى له. فبالنسبة إلينا تكون بعض الأمور سهلة والأخرى صعبة، وبعض الأحداث وقع في الماضي وبعضها يقع الآن، ومنها ما يقع في المستقبل. وبعض الأشياء صغير وبعضها كبير. إنَّ مقاييس هذه الأشياء ومدلولاتها ومفاهيمها تحتكم إلى وجودنا المحدود، وهي تلائم إدراكنا وحاجتنا إلى مقاييس الأشياء بغيرها. أمَّا هذه المواصفات والمقاييس والمصطلحات المحدودة، فإنَّ أيًّا منها لا ينطبق على صفات الله، إذ لا معنى لديه للقرب والبعد، فالكل قريب وفي متناول إرادته، ولا معنى للصعب والسهل، فكل شيء سهل وطوع إرادته المطلقة، ولا يوجد مستقبل وماض، فكل شيء بالنسبة إليه تعالى حضور وحال. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل،

ج ١٥، ص ٤٧٦)

٢. الأماي (للطوسي)، ص ٦٨٧، ح ١٤٥٨؛ مجموعة ورام، ج ٢، ص ٩١.

الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ: أَخْبِرْنِي أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ^(١)؟ قَالَ: تَوْحِيدُكَ لِرَبِّكَ، قَالَ: فَمَا أَكْبَرُ الذُّنُوبِ؟ قَالَ: تَشْبِيهُكَ لِخَالِقِكَ.

١٢٩٨. كفاية الأثر^(٢): عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، عَنْ هَارُونَ بْنِ مُوسَى، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ هَمَّامٍ، عَنِ الْحَمِيرِيِّ، عَنْ عُمَرَ بْنِ عَلِيٍّ الْعَبْدِيِّ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ كَثِيرٍ الرَّقِّيِّ، عَنْ يُونُسَ بْنِ ظَبْيَانَ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى الصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقُلْتُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ إِنِّي دَخَلْتُ عَلَى مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ فَسَمِعْتُ بَعْضَهُمْ يَقُولُ: إِنَّ لِلَّهِ وَجْهًا كَالْوُجُوهِ، وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: لَهُ يَدَانِ! وَاحْتَجُّوا لِذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿بِيَدَيَّ أَسْتَكْبِرُ﴾^(٣) وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: هُوَ كَالشَّابِّ مِنْ أَبْنَاءِ ثَلَاثِينَ سَنَةً! فَمَا عِنْدَكَ فِي هَذَا يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ - وَكَانَ مُتَكِنًا فَاسْتَوَى جَالِسًا -: وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اللَّهُمَّ عَفْوُكَ عَفْوُكَ، ثُمَّ قَالَ: يَا يُونُسُ مَنْ زَعَمَ أَنَّ لِلَّهِ وَجْهًا كَالْوُجُوهِ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ لِلَّهِ جَوَارِحَ كَجَوَارِحِ الْمَخْلُوقِينَ فَهُوَ كَافِرٌ بِاللَّهِ^(٤)، فَلَا تَقْبَلُوا شَهَادَتَهُ، وَلَا تَأْكُلُوا ذَبِيحَتَهُ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَصِفُهُ الْمُشَبِّهُونَ بِصِفَةِ الْمَخْلُوقِينَ، فَوَجْهُ اللَّهِ أَنْبِيَاؤُهُ وَأُولِيَاؤُهُ^{(٥)(٦)}، وَقَوْلُهُ: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبِرُ﴾ الْيَدُ: الْقُدْرَةُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾^(٧) فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ فِي شَيْءٍ، أَوْ عَلَى شَيْءٍ، أَوْ يَحُولُ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، أَوْ يَخْلُو مِنْهُ شَيْءٌ، أَوْ يَشْتَغِلُ بِهِ شَيْءٌ، فَقَدْ وَصَفَهُ بِصِفَةِ الْمَخْلُوقِينَ، وَاللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا يُقَاسُ بِالْقِيَاسِ، وَلَا يُشَبَّهُ بِالنَّاسِ، لَا يَخْلُو مِنْهُ مَكَانٌ، وَلَا يَشْتَغِلُ بِهِ مَكَانٌ، قَرِيبٌ فِي بُعْدِهِ، بَعِيدٌ فِي قُرْبِهِ، ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّنَا لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، فَمَنْ أَرَادَ اللَّهَ وَأَحَبَّهُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ فَهُوَ مِنَ الْمُوحِدِينَ، وَمَنْ أَحَبَّهُ بِغَيْرِ هَذِهِ الصِّفَةِ فَاللَّهُ مِنْهُ بَرِيءٌ وَنَحْنُ مِنْهُ بُرَاءٌ.

١٢٩٩. الأُمَالِي لِلصَّدُوقِ^(٨): مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَاصِمٍ، عَنِ الْكَلِينِيِّ، عَنْ عَلَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْفَرَجِ الرَّخَّجِيِّ، قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْأَلُهُ عَمَّا قَالَ هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ فِي الْجِسْمِ، وَهِشَامُ بْنُ سَالِمٍ فِي الصُّورَةِ. فَكَتَبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: دَعْ عَنْكَ حَيْرَةَ الْحَيْرَانِ وَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، لَيْسَ الْقَوْلُ مَا قَالَ الْهَشَامَانِ.

بيان:

لا ريب في جلالة قدر الهشامين وبراءتهما عن هذين القولين، وقد بالغ السيّد المرتضى «قدّس الله

١. في هذه الرواية فائدة: تنبّهنا عليها في ذيل ح ١١٦١.

٢. ورد في كفاية الأثر، ص ٢٥٥ صدر رواية؛ تفسير البرهان، ج ٤، ص ٦٨٤، ح ٩١٤١.

٣. ص ٧٥.

٤. **فقول:** الشرك والكفر هنا بمعنى واحد.

٥. لأن العباد يتوجهون بهم إلى الله تعالى والله تعالى يخاطب العباد ويواجههم بهم عَلَيْهِ السَّلَامُ. (هامش المطبوع)

٦. لم يرد في المصدر: «أولياؤه».

٧. الأنفال/٢٦.

٨. الأُمَالِي (للصَّدُوقِ)، ص ٢٧٧، ح ١؛ الكافي، ج ١، باب النهي عن الجسم والصورة، ص ١٠٥، ح ٥؛ متشابه القرآن (لابن شهر آشوب)، ج ١،

ص ٦٦، ح ٧.

روحه» في براءة ساحتهما عما نسب إليهما في كتاب الشافي^(١)، مستدلًّا عليها بدلائل شافية، ولعلَّ المخالفين نسبوا إليهما هذين القولين معاندة كما نسبوا المذاهب الشنيعة إلى زرارته وغيره من أكابر المحدثين، أو لعدم فهم كلامهما؛ فقد قيل: إنَّهما قالَا بجسم لا كالأجسام، وبصورة لا كالصور، فلعلَّ مرادهما بالجسم الحقيقة القائمة بالذات، وبالصورة الماهية، وإنَّ أخطأ في إطلاق هذين اللفظين عليه تعالى.

قال المحقِّق الدواني: المشبهة منهم من قال: إنَّه جسم حقيقة، ثمَّ افترقوا فقال بعضهم: إنَّه مركَّب من لحم ودم. وقال بعضهم: هو نور متألِّئ كالسبيكة^(٢) البيضاء، طوله سبعة أشبار بشبر نفسه. ومنهم من قال: إنَّه على صورة إنسان؛ فمنهم من يقول: إنَّه شابُّ أُمرد^(٣) جعد^(٤) ققط؛ ومنهم من قال: إنَّه شيخ أشمط^(٥) الرأس والحية؛ ومنهم من قال: هو في جهة الفوق مماسٌّ للصفحة العليا من العرش، ويجوز عليه الحركة والانتقال وتبدُّل الجهات، وتطُّ العرش تحته أطيط^(٦) الرجل الجديد تحت الراكب الثقيل، وهو يفضل عن العرش بقدر أربع أصابع؛ ومنهم من قال: هو محاذ للعرش غير مماسٍّ له، وبعده عنه بمسافة متناهية؛ وقيل: بمسافة غير متناهية، ولم يستنكف هذا القائل عن جعل غير المتناهي محصوراً بين حاصرين، ومنهم من تسترَّ بالكُفَّة^(٧)^(٨) فقال: هو جسم لا كالأجسام وله حيِّز لا كالأحياز، ونسبته إلى حيِّزه ليس كنسبة الأجسام إلى أحيازها، وهكذا ينفي جميع خواصَّ الجسم عنه حتَّى لا يبقى إلَّا اسم الجسم؛ وهؤلاء لا يكفرون بخلاف المصرِّحين بالجسمية^(٩). انتهى.

وقال الشهرستاني: حكى الكعبي عن هشام بن الحكم أنَّه قال: هو جسم ذو أبعاد، له قدر من الأقدار، ولكن لا يشبه شيئاً من المخلوقات ولا تشبهه. ونقل عنه أنَّه قال: هو سبعة أشبار بشبر نفسه، وأنَّه في مكان مخصوص وجهة مخصوصة، وأنَّه يتحرَّك وحركته فعله، وليست من مكان إلى مكان، وقال: هو متناه بالذات غير متناه بالقدرا! وحكى عنه أبو عيسى الورَّاق أنَّه قال: إنَّ الله تعالى مماسٌّ لعرشه لا يفضل منه شيء من العرش ولا يفضل عنه شيء.

١. الشافي في الإمامة، ج ١، ص ٨٣.

٢. السبيكة: القطعة المذوبة من الذهب والفضة، راجع تاج العروس.

٣. الأُمرد: الشابُّ طرَّ شاربه ولم تنبت لحيته، راجع القاموس المحيط.

٤. الجعد من الشعر: القصير منه، وجعد ققط: شديدة الجعودة، راجع القاموس المحيط ولسان العرب.

٥. الشَّمط في الشعر: اختلافه بلونين من سواد وبياض، راجع لسان العرب.

٦. الأطيط: صوت المحامل والرحال إذا ثقل عليها الركبان، راجع لسان العرب.

٧. كُفَّة الثوب: هي حاشيته، راجع المصباح المنير.

٨. في نسخة: «البلفكة» ولم نجد له معنى. (هامش المطبوع)

٩. التعليقات على شرح العقائد العضدية، ص ٩٤.

وقال هشام بن سالم: إنه تعالى على صورة إنسان، أعلاه مجوّف، وأسفله مصمت^(١)، وهو نور ساطع يتلأأ، وله حواس خمس ويد ورجل وأنف وأذن وعين وفم وله وفرة سوداء^(٢)، وهو نور أسود لكنه ليس بلحم ولا دم.

ثم قال: وغلا هشام بن الحكم في حق عليّ عليه السلام حتى قال: إنه إله واجب الطاعة، وهذا هشام بن الحكم صاحب غور في الأصول، لا يجوز أن يغفل عن إلزاماته على المعتزلة فإن الرجل وراء ما يلزمه على الخصم، ودون ما يظهره من التشبيه، وذلك أنه ألزم العلّاف فقال: إنك تقول: إن الباري تعالى عالم بعلم وعلمه ذاته، فيشارك المحدثات في أنه عالم بعلم، ويباينها في أن علمه ذاته فيكون عالماً لا كالعالمين، فلم لا تقول: هو جسم لا كالأجسام وصورة لا كالصور، وله قدر لا كالأقذار؟ إلى غير ذلك^(٣). انتهى.

أقول:

فظهر أن نسبة هذين القولين إليهما إما لتخطئة رواة الشيعة وعلمائهم لبيان سفاهة آرائهم، أو أنهم لما ألزموهم في الاحتجاج بأشياء إسكاتاً لهم نسبوها إليهم، والأئمة عليهم السلام لم ينفوها عنهم إنما للتبرّي عنهم إبقاء عليهم، أو لمصالح أخرى. ويمكن أن يحمل هذا الخبر على أن المراد: ليس هذا القول الذي تقول ما قال الهشامان، بل قولهما مباين لذلك. ويحتمل أن يكون هذان مذهبهما قبل الرجوع إلى الأئمة عليهم السلام والأخذ بقولهم، فقد قيل: إن هشام بن الحكم كان قبل أن يلقي الصادق عليه السلام على رأي جهم بن صفوان، فلما تبعه عليه السلام تاب ورجع إلى الحق، ويؤيده ما ذكره الكراچكي في كنز الفوائد في الرد على القائلين بالجسم بمعنييه حيث قال: وأما موالاتنا هشاماً «رحمه الله» فهي لما شاع عنه واستفاض من تركه للقول بالجسم الذي كان ينصره، ورجوعه عنه، وإقراره بخطائه فيه وتوبته منه؛ وذلك حين قصد الإمام جعفر بن محمد عليه السلام إلى المدينة فحجبه، وقيل له: إنه أمرنا أن لا نوصلك إليه ما دمت قائلاً بالجسم، فقال: والله ما قلت به إلا لأنني ظننت أنه وفاق لقول إمامي، فأما إذا أنكره عليّ فإنني تائب إلى الله منه، فأوصله الإمام عليه السلام إليه ودعا له بخير وحفظ^(٤).

١٣٠٠. تفسير العياشي^(٥): عَنْ جَابِرِ الْجُعْفِيِّ قَالَ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا جَابِرُ مَا أَعْظَمَ فِرْيَةَ^(٦) أَهْلِ الشَّامِ عَلَى

١. المصمت: الذي لا جوف له، راجع لسان العرب.

٢. الوفرة: شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الأذن، راجع لسان العرب.

٣. الملل والنحل، ج ١، ص ٢١٨.

٤. كنز الفوائد، ج ٢، ص ٤١.

٥. تفسير العياشي، ج ١، ص ٥٩، ح ٩٤؛ التوحيد (للسدوق)، ص ١٧٩، ح ١٣.

اللَّهُ، يَزْعُمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيْثُ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ وَضَعَ قَدَمَهُ عَلَى صَخْرَةٍ بَيْنَ الْمُقَدَّسِ، وَلَقَدْ وَضَعَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَدَمَهُ عَلَى حَجَرٍ، فَأَمَرَنَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ نَتَّخِذَهَا مُصَلًّى، يَا جَابِرُ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا شَبِيهَ، تَعَالَى عَنْ صِفَةِ الْوَاصِفِينَ، وَجَلَّ عَنْ أَوْهَامِ الْمُتَوَهِّمِينَ، وَاحْتَجَبَ عَنْ عَيْنِ النَّاطِرِينَ، وَلَا يَزُولُ مَعَ الرَّاثِلِينَ، وَلَا يَأْفُلُ مَعَ الْآفِلِينَ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

١٣٠١. تفسير العياشي^(٧): عَنْ هِشَامِ الْمَشْرِقِيِّ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْخُرَاسَانِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَالَ: إِنَّ اللَّهَ - كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ - أَحَدٌ صَمَدٌ نُورٌ، ثُمَّ قَالَ: بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ فَقُلْتُ لَهُ: أَفَلَهُ يَدَانِ هَكَذَا؟ - وَأَشْرْتُ يَدَيَّ إِلَى يَدِهِ - فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَوْ كَانَ هَكَذَا كَانَ مَخْلُوقًا.

١٣٠٢. الإحتجاج^(٨): فِي سُؤَالِ الرَّنْدِيِّ بِرَوَايَةِ هِشَامٍ، عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا جِسْمٌ وَلَا صُورَةٌ وَلَا يَحْسُ وَلَا يُحَسُّ، وَلَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ الْخَمْسِ، لَا تُدْرِكُهُ الْأَوْهَامُ، وَلَا تَنْقُصُهُ الدُّهُورُ، وَلَا تُغَيِّرُهُ الْأَزْمَانُ؛ الْخَبَرُ.

١٣٠٣. الإحتجاج^(٩): قَالَ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: مَا آمَنَ بِي مَنْ فَسَّرَ بِرَأْيِهِ كَلَامِي، وَمَا عَرَفَنِي مَنْ شَبَّهَنِي بِخَلْقِي، وَلَا عَلَى دِينِي مَنْ اسْتَعْمَلَ الْقِيَاسَ فِي دِينِي.

التوحيد، عيون أخبار الرضا عليه السلام، الأماشي للصدوق^(١٠): ابْنُ الْمُتَوَكِّلِ، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ الرِّيَّانِ بْنِ الصَّلْتِ، عَنْ عَلِيٍّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ آبَائِهِ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: مِثْلُهُ.

١٣٠٤. رجال الكشي^(١١): عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ، عَنْ ابْنِ يَزِيدَ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ بَشَّارٍ، عَنْ يُونُسَ بْنِ بَهْمَنَ قَالَ: قَالَ لِي يُونُسُ: اكْتُبْ إِلَيَّ أَبِي الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاسْأَلْهُ عَنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، هَلْ فِيهِ مِنْ جَوْهَرِيَّةِ اللَّهِ شَيْءٌ؟ قَالَ: فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ، فَأَجَابَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مَسْأَلَةُ رَجُلٍ عَلَى غَيْرِ السُّنَّةِ، فَقُلْتُ لِيُونُسَ: فَقَالَ: لَا يَسْمَعُ ذَا أَصْحَابَنَا فَيَبْرُؤُونَ مِنْكَ، قَالَ: قُلْتُ لِيُونُسَ: يَتَبَرَّؤُونَ مِنِّي أَوْ مِنْكَ؟^(١٢)

٦. الفرية: الكذبة، راجع مجمع البحرين.

٧. تفسير العياشي، ج ١، ص ٣٣٠، ح ١٤٥؛ تفسير البرهان، ج ٢، ص ٣٣١، ح ٣٢٠١.

٨. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٣١؛ الكافي، ج ١، باب إطلاق القول بأنه شيء، ص ٨٣، ح ٦.

٩. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٤١٠؛ مشكاة الأنوار، ص ٩؛ كشف الغمّة، ج ٢، ص ٢٨٤.

١٠. التوحيد (للصدوق)، ص ٦٨، ح ٢٣؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١١٦، ح ٤؛ الأماشي (للصدوق)، ص ٦، ح ٣.

١١. رجال الكشي، ج ٢، ص ٧٨٥، ح ٩٤٢.

١٢. **فقول:** المراد من يونس في قوله «قال لي يونس» هو يونس بن عبد الرحمن بقرينة ما رواه الكشي في رجاله: «عن يونس بن بهمن قال: قال يونس بن عبد الرحمن» فتكون الرواية ذمّاً على هذا الراوي الجليل الثقة أعنى يونس بن عبد الرحمن ولكن لما كان يونس بن بهمن من الضعفاء لا يمكن الاعتماد على هذه الرواية.

بيان:

الكلام في يونس وما نسب إليه أيضاً كما مرّ في الهشامين. وقال الشهرستاني: إنه زعم أن الملائكة تحمل العرش والعرش يحمل الربّ وهو من مشبهة الشيعة. انتهى.^(١)

١٣٠٥. الأماشي للصديق^(٢): ابن الوليد، عن الصفار، عن ابن معروف، عن علي بن مهزيار قال: كتبت إلى أبي جعفر الثاني عليه السلام: جعلت فداك أصلي خلف من يقول بالجسم، ومن يقول: يقول يونس - يعني ابن عبد الرحمن -؟ فكتب عليه السلام: لا تصلوا خلفهم، ولا تعطوهم من الزكاة، وأبرؤوا منهم برئ الله منهم.

١٣٠٦. الأماشي للصديق^(٣): ابن الوليد، عن الصفار، عن البرقي، عن أبي هاشم الجعفري قال: سمعت علي بن موسى الرضا عليه السلام يقول: إلهي بدت قدرتك ولم تبد هيئته فجهلوك^(٤). وبه قدرتك والتقدير على غير ما به وصفوك، وإني بريء يا إلهي من الذين بالتشبيه طَبَّوْكَ، ليس كمثلك شيء، إلهي ولكن يدركوك، وظاهر ما بهم من نعمك دليلهم عليك لو عرفوك، وفي خلقك يا إلهي مندوحة أن يتناولوك، بل سوّوك بخلقك فمن ثم لم يعرفوك، واتخذوا بعض آياتك رباً فبدلك وصفوك، تعاليت ربّي عما به المشبهون نعتوك.

بيان:

«وبه» أي وبالجهل. قوله عليه السلام: «والتقدير على غير ما به وصفوك» أي التقدير بما قدروا به من المقادير الجسمانية ينافي ما وصفوك به من الربوبية، ويحتمل أن يكون المراد بالتقدير مطلق التوصيف، أي ينبغي ويجب توصيفك على غير ما وصفوك به من الجسم والصورة. و«المندوحة»: السعة أي في التفكير في خلقك والاستدلال به على عظمتك وتقديسك عن صفات المخلوقين مندوحة عن أن يتفكروا في ذاتك فينسبوا إليك ما لا يليق بجنابك، أو المعنى: أن التفكير في الخلق يكفي في أن لا ينسبوا إليك هذه الأشياء.

١٣٠٧. الإرشاد^(٥): جاءت الرواية أن علي بن الحسين عليه السلام كان في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم، إذ سمع قوماً

١. الملل والنحل، ج ١، ص ٢٢٠.

٢. الأماشي للصديق، ص ٢٧٧، ح ٣؛ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٣١٢، ح ١٠٧٥٨.

٣. الأماشي للصديق، ص ٦٠٩، ح ٢؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١١٦، ح ٥؛ وقد ورد في بشارة المصطفى، ص ٢٠٧، مع اختلاف العبارات.

٤. في البشارة بهذا الإسناد: «الصفار، عن منصور بن العباس، عن محمد بن الفضل الهمداني قال: حدثني مسهر رجل من أصحابنا، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام».

٥. في المصدر: «لم تبد هيئتك فجهلوك»، وفي العيون: «لم تبد واهية فجهلوك».

٦. الإرشاد (للمفيد)، ج ٢، ص ١٥٢؛ كشف الغمّة، ج ٢، ص ٨٩، وقد ورد فيهما مع زيادة في ذيله.

يُسَبِّهُونَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ، فَفَرَعَ لِدَلِكْ وَارْتَاعَ^(١) لَهُ وَنَهَضَ حَتَّى أَتَى قَبْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَوَقَفَ عِنْدَهُ وَدَفَعَ^(٢) صَوْتَهُ يُنَاجِي رَبَّهُ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مُنَاجَاتِهِ لَهُ: إِلَهِي بَدَتْ قُدْرَتُكَ وَلَمْ تَبْدُ هَيْئَتُهُ فَجَهِلُوكَ^(٣)، وَقَدَّرُوكَ بِالتَّقْدِيرِ عَلَى غَيْرِ مَا بِهِ أَنْتَ شَبَّهُوكَ؛ إِلَى آخِرِ مَا مَرَّ.

١٣٠٨. التوحيد^(٤): الدَّقَاقُ، عَنِ الْكُلَيْنِيِّ، عَنْ عَلَّانٍ، عَنْ سَهْلِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْهَمْدَانِيِّ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى الرَّجُلِ^(٥) - يَعْنِي أَبَا الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ -^(٦): أَنَّ مَنْ قَبَلَنَا مِنْ مَوَالِكٍ قَدْ اخْتَلَفُوا فِي التَّوْحِيدِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: جِسْمٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: صُورَةٌ، فَكَتَبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِخَطِّهِ: سُبْحَانَ مَنْ لَا يُحَدُّ وَلَا يُوصَفُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، أَوْ قَالَ: الْبَصِيرُ.

١٣٠٩. التوحيد، عيون أخبار الرضا عليه السلام^(٧): الْقَامِيُّ، - فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ - عَنْ مُحَمَّدٍ الْحَمِيرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَاشِمٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ مَعْبُدٍ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ إِنَّ النَّاسَ يَنْسُبُونَآ إِلَى الْقَوْلِ بِالتَّشْبِيهِ وَالْجَبْرِ لِمَا رُوِيَ مِنَ الْأَخْبَارِ فِي ذَلِكَ عَنْ آبَائِكَ الْأَئِمَّةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: يَا ابْنَ خَالِدٍ أَخْبِرْنِي عَنِ الْأَخْبَارِ الَّتِي رُوِيَتْ عَنْ آبَائِي الْأَئِمَّةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي التَّشْبِيهِ وَالْجَبْرِ أَكْثَرُ أَمْ الْأَخْبَارُ الَّتِي رُوِيَتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ؟ فَقُلْتُ: بَلْ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي ذَلِكَ أَكْثَرُ، قَالَ: فَلْيَقُولُوا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي التَّشْبِيهِ وَالْجَبْرِ إِذَا، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَقُلْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا وَإِنَّمَا رُوِيَ عَلَيْهِ. قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَلْيَقُولُوا فِي آبَائِي الْأَئِمَّةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا وَإِنَّمَا رُوِيَ عَلَيْهِمْ. ثُمَّ قَالَ: مَنْ قَالَ بِالتَّشْبِيهِ وَالْجَبْرِ فَهُوَ كَافِرٌ مُشْرِكٌ، وَتَحَنُّ مِنْهُ بَرَاءٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، يَا ابْنَ خَالِدٍ إِنَّمَا وَضَعَ الْأَخْبَارَ عَنَّا فِي التَّشْبِيهِ وَالْجَبْرِ الْعُلَاةُ الَّذِينَ صَغَرُوا عَظَمَةَ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَقَدْ أَبْغَضَنَا، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَقَدْ أَحَبَّنَا، وَمَنْ وَالَاهُمْ فَقَدْ عَادَانَا، وَمَنْ عَادَاهُمْ فَقَدْ وَالَانَا، وَمَنْ وَصَلَهُمْ فَقَدْ قَطَعَنَا، وَمَنْ قَطَعَهُمْ فَقَدْ وَصَلْنَا، وَمَنْ جَفَاهُمْ فَقَدْ بَرَّانَا، وَمَنْ بَرَّاهُمْ فَقَدْ جَفَانَا، وَمَنْ أَكْرَمَهُمْ فَقَدْ أَهَانَنَا، وَمَنْ أَهَانَهُمْ فَقَدْ أَكْرَمَنَا، وَمَنْ قَبَلَهُمْ فَقَدْ رَدَّنَا، وَمَنْ رَدَّهُمْ فَقَدْ قَبَلْنَا، وَمَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ فَقَدْ أَسَاءَ إِلَيْنَا، وَمَنْ أَسَاءَ

١. ارتاع له: تفرَّع، راجع لسان العرب.

٢. في المصدر والكشف: «رفع».

٣. في المصدر والكشف: «لم تبد هيئة فجهلوك».

٤. ورد في التوحيد (للمصدق)، ص ١٠٠، ح ٩ وص ١٠١، ح ١٣، مع اختلاف يسير؛ الكافي، ج ١، باب النهي عن الصفة، ص ١٠٢، ح ٥.

٥. نقول: إطلاق «الرجل» على الأئمة الهادين الرضا والجواد والهادي والعسكري سلام الله عليهم أجمعين - كما في الروايات - إنما هو من باب التقية.

٦. في التوحيد، ح ١٣ بهذا الإسناد: «الحسن بن أحمد بن إدريس، عن أبيه، عن أبي سعيد الآدمي، عن بشر بن بشار النيسابوري قال: كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام»، وفي الكافي: «سهل، عن بشر بن بشار النيسابوري قال: كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام».

٧. التوحيد (للمصدق)، ص ٣٦٣، ح ١٢؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٤٢، ح ٤٥؛ الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ١٤.

إِلَيْهِمْ فَقَدْ أَحْسَنَ إِلَيْنَا، وَمَنْ صَدَقَهُمْ فَقَدْ كَذَّبَنَا، وَمَنْ كَذَّبَهُمْ فَقَدْ صَدَقَنَا، وَمَنْ أَعْطَاهُمْ فَقَدْ حَرَمَنَا، وَمَنْ حَرَمَهُمْ فَقَدْ أَعْطَانَا. يَا ابْنَ خَالِدٍ مَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِنَا فَلَا يَتَّخِذَنَّ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا.

١٣١٠. الإحتجاج^(١): الْحَسَنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمَازِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ هِشَامَ بْنَ الْحَكَمِ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جِسْمٌ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، عَالِمٌ، سَمِيعٌ، بَصِيرٌ، قَادِرٌ، مُتَكَلِّمٌ، نَاطِقٌ، وَالْكَلامُ وَالْقُدْرَةُ وَالْعِلْمُ يَجْرِي مَجْرَى وَاحِدٍ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا مَخْلُوقًا. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَاتَلَهُ اللَّهُ أَمَا عَلِمَ أَنَّ الْجِسْمَ مَحْدُودٌ وَالْكَلامَ غَيْرُ الْمُتَكَلِّمِ؟ مَعَاذَ اللَّهِ وَأَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، لَا جِسْمٌ وَلَا صُورَةٌ وَلَا تَحْدِيدٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ مَخْلُوقٌ، وَإِنَّمَا تُكُونُ الْأَشْيَاءُ بِإِرَادَتِهِ وَمَشِيتَتِهِ مِنْ غَيْرِ كَلَامٍ وَلَا تَرَدُّدٍ فِي نَفْسٍ وَلَا نُطْقٍ بِلِسَانٍ.

بيان:

قوله «ليس كمثله شيء» يومئ إلى أنه لم يقل بالجسمية الحقيقية، بل أطلق عليه لفظ الجسم ونفى عنه صفات الأجسام، ويحتمل أن يكون مراده أنه لا يشبهه شيء من الأجسام بل هو نوع مباين لسائر أنواع الأجسام، فعلى الأول نفى عليه إطلاق هذا اللفظ عليه تعالى بأن الجسم إنما يطلق على الحقيقة التي يلزمها التقدير والتحديد فكيف يطلق عليه تعالى؟

وقوله عليه السَّلَام: «يجري مجرى واحد» إشارة إلى عينية الصفات وكون الذات قائمة مقامها، فنفى عليه السَّلَام كون الكلام كذلك، ثم نبه على بطلان ما يوهم كلامه من كون الكلام من أسباب وجود الأشياء، فلفظة ﴿كُنْ﴾^(٢) في الآية الكريمة كناية عن تسخيرها للأشياء وانقيادها له، من غير توقّف على التكلم بها، ثم نفى عليه السَّلَام كون الإرادة على نحو إرادة المخلوقين من خطوط بال، أو تردّد في نفس؛ ويحتمل أن يكون المقصود بما نسب إلى هشام كون الصفات كلّها مع زيادتها مشتركة في عدم الحدوث والمخلوقية، فنفاه عليه السَّلَام بإثبات المغايرة أولاً ثم بيان أن كلّ شيء سواه مخلوق، والأوّل أظهر. ولفظة «تكون» يمكن أن تقرأ على المعلوم وعلى المجهول من باب التفعيل.

١٣١١. الإحتجاج^(٣): عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: لَا أَقُولُ: إِنَّهُ قَائِمٌ فَازِيْلُهُ عَنْ مَكَانٍ، وَلَا أَحَدُهُ بِمَكَانٍ يَكُونُ فِيهِ، وَلَا أَحَدُهُ أَنْ يَتَحَرَّكَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَرْكَانِ وَالْجَوَارِحِ، وَلَا أَحَدُهُ بِلَفْظٍ شَقٍّ فَمٍ، وَلَكِنْ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٤) بِمَشِيتَتِهِ مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ فِي نَفْسٍ، صَمَدًا فَرْدًا لَمْ

١. الإحتجاج (للتبرسي)، ج ٢، ص ٣٨٥؛ الكافي، ج ١، باب النهي عن الجسم والصورة، ص ١٠٦، ح ٧؛ التوحيد (للمصدق)، ص ١٠٠، ح ٨.

٢. يس/٨٢.

٣. الإحتجاج (للتبرسي)، ج ٢، ص ٣٨٦؛ الكافي، ج ١، باب الحركة والانتقال، ص ١٢٥، ح ٢؛ التوحيد (للمصدق)، ص ١٨٣، ح ١٩.

٤. يس/٨٢.

يَحْتَجُّ إِلَى شَرِيكِ يُدَبِّرُ لَهُ مُلْكَهُ^(١)، وَلَا يَفْتَحُ لَهُ أَبْوَابَ عِلْمِهِ.

بيان:

«فأزيله عن مكانه» أي فأقول: إنه يجوز أن يزول ويتحرك من مكان إلى آخر، فيلزم مع كونه تعالى جسماً محتاجاً تبدل الأحوال عليه، أو المعنى: أن القيام نسبة إلى المكان يخلو بعض المكان عن بعض القائم عنه، وشغل بعضه ببعضه، مع أن نسبته تعالى إلى جميع الأمكنة على السواء ولا يشغل به مكان. وقوله عليه السلام: «في شيء من الأركان» أي بشيء من الأعضاء والجوارح، ويحتمل أن يكون «في» بمعناه ويكون المراد بها الحركة الكمّية. وقوله عليه السلام: «بلفظ شقّ فم» أي بكلمة تخرج من فلقة^(٢) الفم عند تكلمه بها.

١٣١٢. تفسير القمي^(٣): مُحَمَّدٌ بْنُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْعَبَّاسِ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ الْحَسَنِ بْنِ أُسَيْدٍ^(٤)، عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ: سَمِعْتُ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ» يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ مُحَمَّدٍ صلوات الله عليه وآله أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، وَيُسَمَّى بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ^(٥) الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، فَتَاهَتْ هُنَالِكَ عُقُولُهُمْ، وَاسْتَحَفَّتْ حُلُومُهُمْ، فَضَرَبُوا لَهُ الْأَمْثَالَ، وَجَعَلُوا لَهُ أُنْدَاداً وَشَبَّهُوهُ بِالْأَمْثَالِ، وَمَثَلُوهُ أَشْبَاهاً، وَجَعَلُوهُ يَزُولُ وَيَحُولُ، فَتَاهُوا فِي بَحْرِ عَمِيقٍ لَا يَدْرُونَ مَا غَوْرُهُ وَلَا يَدْرُكُونَ كَمِّيَّةَ بَعْدِهِ^(٦).

١٣١٣. قرب الإسناد^(٧): ابْنُ عَيْسَى، عَنِ الْبَزْطِيِّ قَالَ: قُلْتُ لَهُ عليه السلام: جُعِلْتُ فِدَاكَ هُمْ يَقُولُونَ فِي الصِّفَةِ، فَقَالَ لِي - هُوَ ابْتِدَاءً -: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلوات الله عليه وآله لَمَّا أُسْرِيَ بِهِ أَوْقَفَهُ جَبْرِئِيلُ عليه السلام مَوْقِفًا لَمْ يَطَّأهُ أَحَدٌ قَطُّ فَمَضَى النَّبِيُّ صلوات الله عليه وآله فَأَرَاهُ اللَّهُ مِنْ نُورٍ عَظَمَتِهِ مَا أَحَبَّ. فَوَقَّفْتُهُ عَلَى التَّشْبِيهِ، فَقَالَ عليه السلام: سُبْحَانَ اللَّهِ! دَعْ ذَا لَا يَنْفَتِحُ عَلَيْكَ مِنْهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ.

بيان:

«فقال لي هو ابتداء» أي من غير أن أذكر ما وصفوه من التشبيه. «فوقفته على التشبيه» أي فذكرت له ما يقولون في التشبيه فأجابه عليه السلام بتنزيهه تعالى عن ذلك، ونهاه عن القول بذلك، والتفكر فيه لئلا ينفث عليه من ذلك أمر عظيم هو الكفر والخروج عن الدين.

١. في الكافي: «إلى شريك يذكر له ملكه»، وفي التوحيد: «شريك يكون له في ملكه».

٢. الفلق: الشق، واحدها فلقة، راجع لسان العرب.

٣. تفسير القمي، ج ٢، ص ٣٦٠؛ تفسير البرهان، ج ٥، ص ٣٥٠، ح ١٠٦٤٦.

٤. في المصدر: «عن الحسن بن أسد»، وفي البرهان: «عن الحسن بن راشد».

٥. وفي نسخة: وسمي بهذه الأسماء. (هامش المطبوع)

٦. وفي نسخة: ولا يدركون كنه بعده. (هامش المطبوع)

٧. ورد في قرب الإسناد، ص ٣٥٧، ح ١٢٧٥ ذيل رواية؛ وجاء في الكافي، ج ١، باب في إبطال الرؤية، ص ٩٨، ح ٨ هكذا: «قال رسول الله صلوات الله عليه وآله: لَمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ بَلَغَ بِي جَبْرِئِيلُ عليه السلام مَكَانًا لَمْ يَطَّأهُ قَطُّ جَبْرِئِيلُ فَكَشَفَ لَهُ فَأَرَاهُ اللَّهَ مِنْ نُورٍ عَظَمَتِهِ مَا أَحَبَّ» فحسب.

١٣١٤. التوحيد^(١): الْمُفَسِّرُ بِإِسْنَادِهِ إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ الْعَسْكَرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَامَ رَجُلٌ إِلَى الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ صِفْ لَنَا رَبَّكَ فَإِنْ مَنْ قَبَلْنَا قَدْ اخْتَلَفُوا عَلَيْنَا، فَقَالَ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهُ مَنْ يَصِفُ رَبَّهُ بِالْقِيَّاسِ لَا يَزَالُ الدَّهْرُ فِي الْإِلْتِبَاسِ، مَاثِلًا عَنِ الْمُنْهَاجِ، طَاعِنًا^(٢) فِي الْأَعْوَجَاجِ، ضَالًّا عَنِ السَّبِيلِ، قَانِلًا غَيْرَ الْجَمِيلِ، أُعْرِفُهُ بِمَا عَرَفَ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ^(٣)، وَأَصْفُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ غَيْرِ صُورَةٍ، لَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ، وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ، مَعْرُوفٌ بِغَيْرِ تَشْبِيهِ^(٤)، وَمُتَدَانٍ فِي بُعْدِهِ لَا يَنْظُرُ، لَا يُمَثِّلُ بِخَلِيقَتِهِ، وَلَا يَجُوزُ فِي قَضِيَّتِهِ، الْخَلْقُ إِلَى مَا عَلِمَ مُنْقَادُونَ، وَعَلَى مَا سَطَرَ فِي الْمَكُونِ مِنْ كِتَابِهِ مَاضُونَ، لَا يَعْمَلُونَ خِلَافَ مَا عَلِمَ مِنْهُمْ وَلَا غَيْرَهُ يُرِيدُونَ، فَهُوَ قَرِيبٌ غَيْرُ مُلْتَزِقٍ، وَبَعِيدٌ غَيْرُ مُفْتَضٍّ، يُحَقِّقُ وَلَا يُمَثِّلُ، وَيُوَحِّدُ وَلَا يُبَعِّضُ، يُعْرِفُ بِالْآيَاتِ وَيُثَبِّتُ بِالْعَلَامَاتِ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ. ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - بَعْدَ كَلَامٍ آخَرَ تَكَلَّمَ بِهِ -: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ أَبِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: مَا عَرَفَ اللَّهُ مَنْ شَبَّهَهُ بِخَلْقِهِ، وَلَا وَصَفَهُ بِالْعَدْلِ مَنْ نَسَبَ إِلَيْهِ ذُنُوبَ عِبَادِهِ.

بيان:

الظعن: السير. والتقضي: البعد وبلوغ الغاية. «يحقق» على المجهول أي يثبت وجوده. «ولا يُمَثِّلُ» أي لا يوجد كنهه في الذهن.

١٣١٥. روضة الواعظين^(٥): رُوِيَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَيْنَ الْمَعْبُودُ؟ فَقَالَ: لَا يُقَالُ لَهُ: أَيْنَ، لِأَنَّهُ أَيْنَ الْأَيُّنِيَّةِ، وَلَا يُقَالُ لَهُ: كَيْفَ، لِأَنَّهُ كَيْفَ الْكَيْفِيَّةِ، وَلَا يُقَالُ لَهُ: مَا هُوَ، لِأَنَّهُ خَلَقَ الْمَاهِيَّةَ، سُبْحَانَهُ مِنْ عَظِيمِ تَاهَتِ الْفِطْنِ فِي تَيَّارِ^(٦) أَمْوَاجِ عَظَمَتِهِ، وَحَصَرَتْ الْأَلْبَابُ عِنْدَ^(٧) ذِكْرِ أَرْزَلِيَّتِهِ، وَتَحَيَّرَتِ الْعُقُولُ فِي أَفْلَاكِ مَلَكُوتِهِ.

١٣١٦. وَرُوِيَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْضًا^(٨): أَنَّهُ قَالَ: اتَّقُوا أَنْ تُمَثِّلُوا بِالرَّبِّ الَّذِي لَا مِثْلَ لَهُ، أَوْ تُشَبِّهُوهُ مِنْ خَلْقِهِ، أَوْ تُتْلِقُوا عَلَيْهِ الْأَوْهَامَ، أَوْ تُعْمِلُوا فِيهِ الْفِكَرَ، وَتَضْرِبُوا لَهُ الْأَمْثَالَ، أَوْ تَتَعَتُّوهُ بِنُعُوتِ الْمَخْلُوقِينَ، فَإِنَّ لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ نَارًا.

١٣١٧. التوحيد^(٩): الدَّقَائِقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ النَّحَعِيِّ، عَنِ النَّوْفَلِيِّ، عَنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ ظَهِيرٍ، عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٤٧، ح ٩؛ وقد ورد في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، ص ٥٠، ح ٢٤، مع زيادة.

٢. في التفسير المنسوب: «طاغيا».

٣. في المصدر والتفسير المنسوب: «من غير رؤية».

٤. في نسخة: معروف بغير شبيهه، وفي أخرى: معروف بغير تشبيهه. (هامش المطبوع)، ولكن في التفسير المنسوب: «معروف بالآيات، بعيد بغير تشبيهه».

٥. روضة الواعظين، ج ١، ص ٣٧.

٦. التيارات: موج البحر ومعظمه، ويطلق على البحر نفسه، راجع الطراز الأول.

٧. في المصدر: «عن ذكر أَرْزَلِيَّتِهِ».

٨. روضة الواعظين، ج ١، ص ٣٧.

٩. التوحيد (للصدوق)، ص ٥٩، ح ١٧.

جَرِيرِ الْعَبْدِيِّ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يُحَسُّ وَلَا يُحَسُّ وَلَا يُحَسُّ وَلَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ الْخَمْسِ، وَلَا يَقَعُ عَلَيْهِ الْوَهْمُ، وَلَا تَصِفُهُ الْأَلْسُنُ، فَكُلُّ شَيْءٍ حَسَنُهُ الْحَوَاسُّ، أَوْ جَسَنُهُ الْجَوَاسُّ ^(١)، أَوْ لَمَسَنُهُ الْأَيْدِي فَهُوَ مَخْلُوقٌ، وَاللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ حَيْثُ مَا يُبْتَغَى يُوجَدُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَانَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، كَانَ لَمْ يُوَجَدْ لَوْضَفِهِ كَانَ ^(٢)، بَلْ كَانَ أَوَّلًا كَانَ كَائِنًا ^(٣)، لَمْ يَكُونْهُ مُكُونٌ جَلَّ ثَنَاهُ، بَلْ كَوْنُ الْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِهَا، فَكَانَتْ كَمَا كَوْنُهَا، عَلِمَ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ، كَانَ إِذْ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ، وَلَمْ يَنْطِقْ فِيهِ نَاطِقٌ، فَكَانَ إِذْ لَا كَانَ.

بيان:

نفي «كان» إما لا شعاره بالحدوث كما مرّ، أو لعدم كونه زمانياً بناءً على أن الزمان يخص المتغيرات. ويدلّ الخبر على حدوث العالم.

١٣١٨. التوحيد ^(٤): الدَّقَاقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ الْبَغْدَادِيِّ، عَنْ سَهْلٍ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: إِلَهِي تَاهَتْ أَوْهَامُ الْمُتَوَهِّمِينَ، وَقَصَرَ طُرْفُ الطَّارِفِينَ ^(٥)، وَتَلَاشَتْ أَوْصَافُ الْوَاصِفِينَ، وَاضْمَحَلَّتْ أَقَاوِيلُ الْمُطِيلِينَ عَنِ الدَّرَكِ لِعَجِيبِ شَانِكَ، أَوْ الْوُقُوعِ بِالْبُلُوغِ إِلَى عُلُوكَ، فَأَنْتَ الَّذِي لَا تَتَنَاهَى، وَلَمْ يَقَعْ عَلَيْكَ عُيُونٌ بِإِشَارَةٍ وَلَا عِبَارَةٍ، هَيْهَاتَ ثُمَّ هَيْهَاتَ ^(٦) يَا أَوْلَىيَا وَحْدَانِي يَا فَرْدَانِي، شَمَحَتْ فِي الْعُلُوبِ بِعِزِّ الْكِبَرِ، وَارْتَفَعَتْ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ غَوْرَةٍ وَنَهَايَةٍ بِجَبَرُوتِ الْفَخْرِ.

بيان:

«أو الوقوع» أي عليك؛ ويحتمل تعلّق قوله عليه السلام: «بالبلوغ» بالوقوع بأن تكون الباء ظرفية؛ ويحتمل أيضاً تنازع الوقوع والبلوغ في قوله عليه السلام: «إلى علوك»، «فأنت الذي لا تتناهى» أي ليس لمعرفتك ومعرفة صفاتك حدود تنتهي إليها، أو لعلمك وقدرتك ورحمتك وغيرها نهاية تقف عندها. والمراد بـ«العيون» الجواسيس، أو بالفتح بمعنى حديد البصر إن ساعده الاستعمال، وإذا حمل على العيون - جمع العين بمعنى الباصرة - فإسناد العبارة إليها مجازي، ويحتمل أن تكون العبارة متعلّقة بقوله عليه السلام: «لا تتناهى» على اللف والنشر غير المرتّب. وشمخ: علا و طال. والغور: القعر من كلّ شيء أي ارتفعت عن أن يدرك كنه ذاتك وصفاتك بالوصول إلى غور الأفكار ونهايتها بسبب جبروت وعظمة ذاتية توجب الفخر.

١. جسّ الخبر: بحث عنه وفحص، والجواس: الحواس، راجع لسان العرب.

٢. وفي نسخة: كان لا يوجد لوصفه كان. (هامش المطبوع)

٣. وفي نسخة: بل كان أولاً كان كائناً. (هامش المطبوع)، وفي المصدر: «بل كان أولاً كائناً».

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ٦٦، ح ١٩؛ وقد ورد في الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٤٤٩، ذيل رواية مع اختلاف العبارات.

٥. الطرف: تحريك الجفون في النظر، راجع لسان العرب.

٦. قد تمت الرواية في الإحتجاج بهذه العبارة: «والعبارة، هيهات، هيهات».

١٣١٩. التوحيد^(١): ابْنُ الْمُتَوَكِّلِ، عَنِ السَّعْدِ آبَادِيٍّ، عَنِ الْبَرْقِيِّ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْقَاسِمِ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ مُوسَى الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ، وَمَنْ وَصَفَهُ بِالْمَكَانِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ نَسَبَ إِلَيْهِ مَا نَهَى عَنْهُ فَهُوَ كَاذِبٌ. ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾^(٢).

١٣٢٠. التوحيد^(٣): الْقَاسِمِيُّ، عَنْ مُحَمَّدٍ الْحَمِيرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عِيْسَى، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ، وَمَنْ أَنْكَرَ قُدْرَتَهُ فَهُوَ كَافِرٌ.

١٣٢١. التوحيد^(٤): الْقَاسِمِيُّ، عَنْ مُحَمَّدٍ الْحَمِيرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عِيْسَى، عَنْ مُحَمَّدٍ الْبَرْقِيِّ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ الْمُفَضَّلِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ^(٥)، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُشَبِّهُ شَيْئاً وَلَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ، وَكُلُّ مَا وَقَعَ فِي الْوَهْمِ فَهُوَ بِخِلَافِهِ.

قال الصدوق «رحمه الله»: الدليل على أن الله سبحانه لا يشبه شيئاً من خلقه من جهة من الجهات: أنه لا جهة لشيء من أفعاله إلا محدثة، ولا جهة محدثة إلا وهي تدل على حدوث من هي له، فلو كان الله جل ثناؤه يشبه شيئاً منها لدلت على حدوثه من حيث دلت على حدوث من هي له، إذ المتماثلان في العقول يقتضيان حكماً واحداً من حيث تماثلا منها، وقد قام الدليل على أن الله عز وجل قديم، ومحال أن يكون قديماً من جهة حادثاً من أخرى.

ومن الدليل على أن الله تبارك وتعالى قديم: أنه لو كان حادثاً لوجب أن يكون له محدث لأن الفعل لا يكون إلا بفاعل، ولكان القول في محدثه كالقول فيه، وفي هذا وجود حادث قبل حادث لا إلى أول، وهو محال، فيصح أنه لا بد من صانع قديم، وإذا كان ذلك كذلك فالذي يوجب قدم ذلك الصانع ويدل عليه يوجب قدم صانعنا ويدل عليه.

١٣٢٢. التوحيد^(٦): الْهَمْدَانِيُّ، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الْقَاسِمِ، عَنْ جَدِّهِ، عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا إِبْرَاهِيمَ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ يُكَلِّمُ رَاهِباً مِنَ النَّصَارَى - فَقَالَ لَهُ فِي بَعْضِ مَا نَظَرَهُ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَجَلٌ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحَدَّ بِيدٍ، أَوْ رِجْلٍ، أَوْ حَرَكَةٍ، أَوْ سُكُونٍ، أَوْ يُوصَفَ بِطَوِيلٍ أَوْ قَصَرٍ، أَوْ تَبْلُغَهُ الْأَوْهَامُ، أَوْ تُحِيطَ بِصِفَتِهِ الْعُقُولُ،

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٦٨، ح ٢٥؛ روضة الواعظين، ج ١، ص ٣٦؛ مشكاة الأنوار، ص ٩.

٢. النحل/ ١٠٥.

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ٧٦، ح ٣١؛ وسائل الشيعة، ج ٢٨، ص ٣٤٤، ح ٣٤٩٢٠.

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ٨٠، ح ٣٦؛ الإرشاد (للمفيد)، ج ٢، ص ٢٠٤.

٥. لم يرد في الإرشاد: «من شبّه الله بخلقه فهو مشرك».

٦. التوحيد (للصدوق)، ص ٧٥، ح ٣٠.

أَنْزَلَ مَوَاعِظَهُ وَوَعْدَهُ وَوَعِيدَهُ، أَمَرَ بِلاَ شَفَقَةٍ وَلَا لِسَانٍ، وَلَكِنْ كَمَا شَاءَ أَنْ يَقُولَ: كُنْ فَكَانَ خَيْرًا^(١) كَمَا أَرَادَ فِي اللُّوحِ. ١٣٢٣. التوحيد^(٢): أَبِي، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ إِدْرِيسَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَحْيَى، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي حَمْزَةَ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ الْحَكَمِ يَرْوِي عَنْكُمْ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ جَسْمٌ صَمَدِيٌّ نُورِيٌّ، مَعْرِفَتُهُ ضَرُورَةٌ، يَمُنُّ بِهَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: سُبْحَانَ مَنْ لَا يَعْلَمُ كَيْفَ هُوَ إِلَّا هُوَ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ^(٣)، لَا يَحُدُّ وَلَا يُحَسُّ وَلَا يُجَسُّ وَلَا يَمَسُّ، وَلَا يُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ^(٤)، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ، لَا جِسْمٌ وَلَا صُورَةٌ وَلَا تَخْطِيطٌ وَلَا تَحْدِيدٌ.

بيان:

«معرفة ضرورة» أي تقذف في القلب من غير اكتساب، أو تحصل بالروية تعالى الله عن ذلك، وقد يؤول كلامه بأن مراده بالجسم الحقيقة العينية القائمة بذاتها لا غيرها، وبالصمدي ما لا يكون خالياً في ذاته عن شيء فيستعد أن يدخل هو فيه، أو مشتملاً على شيء يصح عليه خروجه عنه، وبالنوري ما يكون صافياً عن ظلم المواد وقابليتها بل عن الماهية المغايرة للوجود وقابليتها له.

١٣٢٤. التوحيد^(٥): الدَّقَاقُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَسَدِيِّ، عَنْ الْبَرْمَكِيِّ، عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ صَالِحِ بْنِ أَبِي حَمَّادٍ، عَنْ بَكْرِ بْنِ صَالِحٍ، عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ قَالَ: سَمِعْتُ يُونُسَ بْنَ ظَبْيَانَ يَقُولُ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ هِشَامَ بْنَ الْحَكَمِ يَقُولُ قَوْلًا عَظِيماً إِلَّا أَنِّي أَخْتَصِرُ لَكَ مِنْهُ أَحْرَفًا: يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ جِسْمٌ لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ شَيْئَانِ: جِسْمٌ، وَفِعْلُ الْجِسْمِ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الصَّانِعُ بِمَعْنَى الْفِعْلِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ، فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَيْلَهُ^(٦)، أَمَا عَلِمَ أَنَّ الْجِسْمَ مَحْدُودٌ مُتَنَاهٍ، وَالصُّورَةَ مَحْدُودَةٌ مُتَنَاهِيَةٌ؟ فَإِذَا اخْتَمَلَ الْحَدَّ اخْتَمَلَ الزِّيَادَةَ وَالنُّقْصَانَ، وَإِذَا اخْتَمَلَ الزِّيَادَةَ وَالنُّقْصَانَ كَانَ مَحْلُوقًا. قَالَ: قُلْتُ: فَمَا أَقُولُ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا جِسْمٌ وَلَا صُورَةٌ، وَهُوَ مُجَسَّمُ الْأَجْسَامِ، وَمُصَوَّرُ الصُّوَرِ، لَمْ يَتَجَزَّأْ وَلَمْ يَتَنَاهَ، وَلَمْ يَتَزَايَدْ وَلَمْ يَتَنَاقَضْ، لَوْ كَانَ كَمَا يَقُولُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ فَرْقٌ، وَلَا بَيْنَ الْمُنْشِئِ وَالْمُنْشَأِ، لَكِنْ هُوَ الْمُنْشِئُ، فَرَقُ بَيْنَ مَنْ جَسَّمَهُ وَصَوَّرَهُ وَأَنْشَأَهُ، إِذْ كَانَ لَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ، وَلَا يُشَبِّهُهُ هُوَ شَيْئًا.

١. في المصدر: «خَيْرًا».

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٩٨، ح ٤؛ الكافي، ج ١، باب النهي عن الجسم والصورة، ص ١٠٤، ح ١.

٣. وفي نسخة: وهو السميع العليم. (هامش المطبوع)

٤. في الكافي: «لا يُجَسُّ ولا تدركه الأبصار ولا الحواس ولا يحيط به شيء...».

٥. التوحيد (للصدوق)، ص ٩٩، ح ٧؛ الكافي، ج ١، باب النهي عن الجسم والصورة، ص ١٠٦، ح ٦؛ وقد ورد في الحكايات في مخالفات

المعتزلة من العدلية (للمفيد)، ص ٨٠، مع نقصان واختلاف العبارات.

٦. في الكافي: «ويحه».

إيضاح:

استدل عليه السلام على نفي جسميته تعالى بأنه لو كان جسماً لكان محدوداً بحدود متناهيها إليها، لاستحالة لا تناهي الأبعاد، وكلّ محتمل للحدّ قابل للانقسام بأجزاء متشاركة في الاسم والحدّ، فله حقيقة كلّية غير متشخصة بذاتها ولا موجودة بذاتها، أو هو مركّب من أجزاء حال كلّ واحد منها ما ذكر فيكون مخلوقاً، أو بأن كلّ قابل للحدّ والنهية قابل للزيادة والنقصان لا يتأبى عنهما في حدّ ذاته، وإن استقرّ على حدّ معيّن فإنما استقرّ عليه من جهة جاعل. ثم استدل عليه السلام بوجه آخر وهو ما يحكم به الوجدان من كون الموجد أعلى شأنًا وأرفع قدراً من الموجد، وعدم المشابهة والمشاركة بينهما، وإلا فكيف يحتاج أحدهما إلى العلّة دون الآخر؟ وكيف صار هذا موجداً لهذا بدون العكس؟ ويحتمل أن يكون المراد عدم المشاركة والمشاركة فيما يوجب الاحتياج إلى العلّة، فيحتاج إلى علّة أخرى. قوله عليه السلام: «فرق» بصيغة المصدر أي الفرق حاصل بينه وبين من صوّره، ويمكن أن يقرأ على الماضي المعلوم.

١٣٢٥. التوحيد^(١): عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْبَرْقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ أَحْمَدَ، عَنْ الْبَزْطِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حَكِيمٍ^(٢) قَالَ: وَصَفْتُ لِأَبِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلَ هِشَامِ الْجَوَالِيقِيِّ، وَحَكَيْتُ لَهُ قَوْلَ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ: إِنَّهُ جِسْمٌ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ؛ أَيُّ فُحْشٍ أَوْ خَنًا أَعْظَمُ مِنْ قَوْلِ مَنْ يَصِفُ خَالِقَ الْأَشْيَاءِ بِجِسْمٍ، أَوْ صُورَةٍ، أَوْ بِخَلْقَةٍ، أَوْ بِتَحْدِيدٍ وَأَعْضَاءٍ؟ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

بيان:

«الخن» الفحش في القول، ويحتمل أن يكون التردد من الراوي.

١٣٢٦. كفاية الأثر^(٣): أَبُو الْمُفَضَّلِ الشَّيْبَانِيُّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُطَوَّقٍ بْنِ سَوَّارٍ^(٤)، عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْمُهَلَّبِ، عَنْ عَبْدِ الْعَقَّارِ بْنِ كَثِيرٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ حَمِيدٍ^(٥)، عَنْ أَبِي هَاشِمٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ^(٦) قَالَ: قَدِمَ يَهُودِيٌّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - يُقَالُ لَهُ: نَعْتَلُ - فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ أَشْيَاءٍ تَلْجَلُجُ فِي صَدْرِي مُنْذُ حِينٍ، فَإِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنِي عَنْهَا أَسَلَمْتُ عَلَى يَدِكَ، قَالَ: سَلْ يَا أَبَا عُمَارَةَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ صِفْ لِي رَبَّكَ، فَقَالَ: إِنَّ الْخَالِقَ لَا يُوصَفُ إِلَّا بِمَا وَصَفَ

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٩٩، ح ٦؛ الكافي، ج ١، باب النهي عن الجسم والصورة ص ١٠٥، ح ٤.

٢. في الكافي بهذا الإسناد: «محمد بن أبي عبد الله، عن ذكره، عن علي بن عباس، عن البرزطي، عن محمد بن حكيم».

٣. كفاية الأثر، ص ١١؛ الدرّ النظيم، ص ٧٨٨؛ العدد القويّة، ص ٨١، وقد ورد في هذه المصادر صدر رواية.

٤. في المصدر: «أحمد بن مطرق بن سواد بن الحسين القاضي البستي»، وفي الدرّ النظيم: «أحمد بن مطرف بن سواد أبو الحسين القاضي البستي».

٥. في الدرّ النظيم: «هيثم بن حميد».

٦. في العدد القويّة: «عن أبي عباس».

بِهِ نَفْسُهُ، وَكَيْفَ يُوَصِّفُ الْخَالِقُ الَّذِي يَعْجُزُ الْحَوَاسُّ أَنْ تُدْرِكَهُ، وَالْأَوْهَامُ أَنْ تَنَالَهُ، وَالْخَطَرَاتُ أَنْ تَحُدَّهُ، وَالْأَبْصَارُ عَنْ الْإِحَاطَةِ بِهِ، جَلَّ عَمَّا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ، نَأَى فِي قُرْبِهِ، وَقُرْبُ فِي نَائِهِ، كَيْفَ الْكَيْفِيَّةِ، فَلَا يُقَالُ لَهُ: كَيْفَ، وَأَيُّنَ الْأَيِّنِ، فَلَا يُقَالُ لَهُ: أَيُّنَ، هُوَ مُنْقَطِعُ الْكَيْفِيَّةِ وَالْأَيُّنِيَّةِ، فَهُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، وَالْوَاصِفُونَ لَا يَبْلُغُونَ نَعْتَهُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْوًا أَحَدٌ.

قَالَ: صَدَقْتَ يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِكَ: إِنَّهُ وَاحِدٌ لَا شَبِيهَ لَهُ، أَلَيْسَ اللَّهُ وَاحِدًا وَالْإِنْسَانُ وَاحِدًا؟ فَوَخَدَانِيَّتُهُ أَشْبَهَتْ وَخَدَانِيَّةَ الْإِنْسَانِ. فَقَالَ: اللَّهُ وَاحِدٌ وَاحِدِي الْمَعْنَى، وَالْإِنْسَانُ وَاحِدٌ ثَنَوِي الْمَعْنَى، جِسْمٌ وَعَرَضٌ، وَبَدَنٌ وَرُوحٌ، فَإِنَّمَا التَّشْبِيهُ فِي الْمَعَانِي لَا غَيْرُ، قَالَ: صَدَقْتَ يَا مُحَمَّدُ.

١٣٢٧. التوحيد^(١): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنْ مُحَمَّدٍ الْعَطَّارِ، عَنِ الْأَشْعَرِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَيْسَى^(٢)، عَنْ هِشَامِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْعَبَّاسِيِّ قَالَ: قُلْتُ لَهُ - يَعْنِي أَبَا الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ -: جُعِلْتُ فِدَاكَ، أَمَرَنِي بَعْضُ مَوَالِيكَ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ مَسْأَلَةٍ، قَالَ: وَمَنْ هُوَ؟ قُلْتُ: الْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ، قَالَ: وَفِي أَيِّ شَيْءٍ الْمَسْأَلَةُ؟ قُلْتُ: فِي التَّوْحِيدِ، قَالَ: وَأَيُّ شَيْءٍ مِنَ التَّوْحِيدِ؟ قَالَ: يَسْأَلُكَ عَنْ اللَّهِ جِسْمٌ أَوْ لَا جِسْمٌ؟ فَقَالَ لِي: إِنَّ لِلنَّاسِ فِي التَّوْحِيدِ ثَلَاثَةَ مَذَاهِبٍ: اثْنَاتٌ بِتَشْبِيهِهِ، وَمَذْهَبُ النَّفْيِ، وَمَذْهَبُ اثْبَاتٍ بِلَا تَشْبِيهِهِ؛ فَمَذْهَبُ الْإِثْبَاتِ بِتَشْبِيهِهِ لَا يَجُوزُ، وَمَذْهَبُ النَّفْيِ لَا يَجُوزُ، وَالطَّرِيقُ فِي الْمَذْهَبِ الثَّلَاثِ اثْبَاتٌ بِلَا تَشْبِيهِهِ.

١٣٢٨. التوحيد^(٣): ابْنُ الْمُتَوَكِّلِ، عَنِ الْحَمِيرِيِّ، عَنِ ابْنِ عَيْسَى، عَنِ ابْنِ مَحْبُوبٍ، عَنْ يَعْقُوبَ السَّرَّاجِ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ بَعْضَ أَصْحَابِنَا يَزْعُمُ أَنَّ لِلَّهِ صُورَةً مِثْلَ الْإِنْسَانِ، وَقَالَ آخَرُ: إِنَّهُ فِي صُورَةِ أَمْرَدٍ جَعَدٍ قَطَطٍ! فَخَرَّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَاجِدًا ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَلَا يُحِيطُ بِهِ عِلْمٌ، لَمْ يَلِدْ لِأَنَّ الْوَلَدَ يُشَبِّهُ أَبَاهُ، وَلَمْ يُولَدْ، فَيُشَبِّهُ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ كُفْوًا أَحَدٌ، تَعَالَى عَنْ صِفَةٍ مِنْ سِوَاهُ عُلُوًّا كَبِيرًا.

بيان:

«الجعده» ضد السبط، قال الجزري في صفة شعره ﷺ: ليس بالسبط ولا الجعد القلط، السبط من الشعر: المنبسط المسترسل، و«القطط»: الشديدة الجعودة.

١٣٢٩. رجال الكشي^(٤): مُحَمَّدُ بْنُ مَسْعُودٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ الْقُمِّيِّ، عَنِ الْبَرْقِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُوسَى بْنِ عَيْسَى،

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٠٠، ح ١٠؛ وقد ورد في فرج المهموم، ص ١٣٩، مع اختلاف العبارات.

٢. في فرج المهموم بهذا الإسناد: «ابن الوليد، عن محمد بن الحسن الصفار وعبد الله بن جعفر الحميري، عن محمد بن عيسى بن عبيد، عن هشام بن إبراهيم العباسي».

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ١٠٣، ح ١٩؛ نوادر الأخبار (للفيض)، ص ٨٣، ح ٢.

٤. ورد في رجال الكشي، ص ٢٨٤، ح ٥٠٣، مع اختلاف يسير.

عَنْ إِشْكِيْبِ بْنِ أَحْمَدَ الْكَيْسَانِيِّ^(١)، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ هِشَامٍ الْحَنَاطِيِّ^(٢) قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي الْحَسَنِ الرُّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَسْأَلُكَ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ؟ قَالَ: سَلْ يَا جَبَلِي، عَمَّا ذَا تَسْأَلُنِي؟ فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ زَعَمَ هِشَامُ بْنُ سَالِمٍ أَنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ صُورَةً، وَأَنَّ آدَمَ خُلِقَ عَلَى مِثَالِ الرَّبِّ، فَيَصِفُ هَذَا وَيَصِفُ هَذَا - وَأَوْمَأْتُ إِلَى جَانِبِي وَشَعَرِ رَأْسِي - وَزَعَمَ يُونُسُ مَوْلَى آلِ يَظْطِينٍ وَهِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ أَنَّ اللَّهَ شَيْءٌ لَا كَالْأَشْيَاءِ، وَأَنَّ الْأَشْيَاءَ بَائِتَةٌ مِنْهُ، وَأَنَّهُ بَائِتٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَزَعَمَا أَنَّ إِنْثِبَاتَ الشَّيْءِ أَنَّ يُقَالَ: جِسْمٌ، فَهُوَ جِسْمٌ لَا كَالْجَسَامِ، شَيْءٌ لَا كَالْأَشْيَاءِ، ثَابِتٌ مَوْجُودٌ غَيْرُ مَفْقُودٍ وَلَا مَعْدُومٍ، خَارِجٌ عَنِ الْحَدِّينِ: حَدِّ الْإِبْطَالِ، وَحَدِّ التَّشْبِيهِ، فَبَأَيِّ الْقَوْلَيْنِ أَقُولُ؟ قَالَ: فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (٣) أَرَادَ هَذَا الْإِنْثِبَاتَ، وَهَذَا شَبَهُ رَبِّهِ تَعَالَى بِمَخْلُوقٍ، تَعَالَى اللَّهُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ شَبَهُ وَلَا مِثْلٌ وَلَا عَدْلٌ وَلَا نَظِيرٌ، وَلَا هُوَ بِصِفَةِ الْمَخْلُوقِينَ، لَا تَقُلْ بِمِثْلِ مَا قَالَ هِشَامُ بْنُ سَالِمٍ، وَقُلْ بِمَا قَالَ مَوْلَى آلِ يَظْطِينٍ وَصَاحِبِهِ. قَالَ: فَقُلْتُ: يُعْطَى الزَّكَاةُ مَنْ خَالَفَ هِشَامًا فِي التَّوْحِيدِ؟ فَقَالَ بِرَأْسِهِ: لَا.

بيان:

أراد هذا الإثبات أي يونس وهشام بن الحكم، ولعله عليه السلام إنما صوّب قولهما في المعنى لا في إطلاق لفظ الجسم عليه تعالى، ويظهر ممّا زعماً من «أن إثبات الشيء أن يقال: جسم» أن مرادهم بالجسم أعم من المعنى المصطلح كما مر.

١٣٣٠. التوحيد^(٤): مَا جِيلَوِيهِ، عَنْ عَمِّهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الصَّيْرَفِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ حَمَّادٍ، عَنْ الْمُفَضَّلِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُقَدَّرُ قُدْرَتُهُ، وَلَا يُقَدَّرُ الْعِبَادُ عَلَى صِفَتِهِ، وَلَا يَبْلُغُونَ كُنْهَ عِلْمِهِ، وَلَا مَبْلَغَ عَظَمَتِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَهُوَ نُورٌ لَيْسَ فِيهِ ظُلْمَةٌ، وَصِدْقٌ لَيْسَ فِيهِ كَذِبٌ، وَعَدْلٌ لَيْسَ فِيهِ جَوْرٌ، وَحَقٌّ لَيْسَ فِيهِ بَاطِلٌ، كَذَلِكَ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ أَبَدَ الْأَبَدِينَ، وَكَذَلِكَ كَانَ إِذْ لَمْ تَكُنْ أَرْضٌ وَلَا سَمَاءٌ، وَلَا لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ، وَلَا شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ، وَلَا نُجُومٌ وَلَا سَحَابٌ، وَلَا مَطَرٌ وَلَا رِيَّاحٌ؛ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَحَبَّ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقًا يُعَظِّمُونَ عَظَمَتَهُ، وَيُكَبِّرُونَ كِبَرِيَّاتَهُ، وَيُجِلُّونَ جَلَالَهُ، فَقَالَ: كُونَا ظَلِّينَ^(٥)، فَكَانَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى^(٦).

قال الصدوق «رحمه الله»: معنى قوله عليه السلام: «(هو نور)» أي هو منير وهاد، ومعنى قوله: «(كونا ظليين)» الروح

١. في المصدر: «إشكيب بن عبدك الكسائي».

٢. في المصدر: «الحنّاط».

٣. في المصدر: «فبأي القولين أقول؟ قال: فقال».

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ١٢٨، ح ٨؛ نوادر الأخبار (للفيضي)، ص ٩١، ح ١.

٥. نقول: المراد من قوله: «كونا ظليين» غير واضح ولعله وقع سقط في الرواية قبل هذا الخطاب فالمخاطب محذوف.

٦. لم يرد في النوادر: «فكانا كما قال الله تبارك وتعالى».

المقدس، والملك المقرب، والمراد به أن الله كان ولا شيء معه فأراد أن يخلق أنبياءه وحججه وشهادته فخلق قبلهم الروح القدس وهو الذي يؤيد الله عز وجل به أنبياءه وشهادته وحججه «صلوات الله عليهم» وهو الذي يحرسهم به من كيد الشيطان ووسواسه، ويسددهم ويوفقهم ويمددهم بالخواطر الصادقة، ثم خلق الروح الأمين الذي نزل على أنبيائه بالوحي منه عز وجل وقال لهما: كونا ظليين ظليلين لأنبيائي ورسلي وحججي وشهادتي، فكانا كما قال الله عز وجل ظليين ظليلين لأنبيائه ورسله وحججه وشهادته، يعينهم بهما، وينصرهم على أيديهما، ويحرسهم بهما، وعلى هذا المعنى قيل للسلطان العادل: إنه ظل الله في أرضه لعباده، يأوي إليه المظلوم، ويأمن به الخائف الوجل، ويأمن به السبل، وينتصر به الضعيف من القوي^(١)، وهذا هو سلطان الله وحجته التي لا تخلو الأرض منه إلى أن تقوم الساعة^(٢).

بيان:

قوله عليه السلام: «وليس شيء غيره» أي كذلك، أو كان كذلك حين لا شيء غيره؛ ويحتمل اتصاله بما بعده أي هو منتصف بتلك الأوصاف المذكورة بعد ذلك لا شيء غيره. وقوله عليه السلام: «كونا ظليين» يحتمل أن يكون إشارة إلى خلق أرواح الثقلين، فإن الظلال تطلق على عالم الأرواح في الأخبار كما سيأتي^(٣)، أو إلى الملائكة وأرواح البشر، أو إلى نور محمد وعلي «صلوات الله عليهما» أو نور محمد ونور أهل بيته عليهم السلام. ويؤيده ما سيأتي في باب بدء خلق أرواح الأنبياء^(٤) عليه السلام عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان الله ولا شيء غيره^(٥)، فأول ما ابتدأ من خلق خلقه أن خلق محمداً صلى الله عليه وآله وحلقنا أهل البيت معه من نور عظمته، فأوقفنا أظلة خضراء بين يديه، حيث لا سماء ولا أرض ولا مكان، ولا ليل ولا نهار ولا شمس ولا قمر؛ الخبر.

وعن صفوان، عن الصادق عليه السلام قال^(٦): لما خلق الله السماوات والأرضين استوى على العرش فأمر نورين من نوره فطافا حول العرش سبعين مرة، فقال عز وجل: هذان نوران لي مطيعان، فخلق الله من ذلك النور محمداً وعلياً

١. وفي نسخة: وينتصف به الضعيف من القوي. (هامش المطبوع)

٢. ما ذكره الصدوق «رحمه الله» وما أورده المصنف في البيان لا ينطبق شيء منهما على فقرات الرواية، والذي يظهر من الروايات الواردة في هذا اللسان أن المراد بقوله عليه السلام: «ليس شيء غيره»: أنه الشيء بحقيقة الشبيبة والوجود كما يؤيده الفقرات التالية. والمراد بالظليين: العالمين العلوي والسفلي وهو المعنى المناسب لقوله: ليس شيء غيره. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

٣. تنمة كتاب التوحيد، أبواب أسمائه تعالى، باب ٤ جوامع التوحيد.

٤. أصل الرواية من كتاب رياض الجنان للشيخ فضل الله محمود الفارسي، ولكن لم نعثر عليه، والسيد البحراني روى عنه في كتبه، وجاء هذه الرواية في حلية الأبرار، ج ١، ص ١٣، ح ٢.

٥. في الحلية مع زيادة: «ولا معلوم ولا مجهول».

٦. في غرر الأخبار، ص ٢٠٥، عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

وَالْأَصْفِيَاءَ مِنْ وَلَدِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١).

وَعَنِ الثَّمَالِيِّ قَالَ^(٢): دَخَلَتْ حَبَابَةُ الْوَالِيبَةِ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَتْ: أَخْبِرْنِي يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ أَيَّ شَيْءٍ كُنْتُمْ فِي الْأَظْلَةِ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كُنَّا نُورًا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ قَبْلَ خَلْقِ خَلْقِهِ؛ الْخَبَرُ. ويحتمل أن يكون المراد بهما مادّتي السماء والأرض.

١٣٣١. تفسير القمّي^(٣): أَبِي، عَنِ الْبَزَنْطِيِّ، عَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَالَ لِي: يَا أَحْمَدُ مَا الْخِلَافُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَصْحَابِ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ فِي التَّوْحِيدِ؟ فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ قُلْنَا نَحْنُ بِالصُّورَةِ لِلْحَدِيثِ الَّذِي رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى رَبَّهُ فِي صُورَةِ شَابٍّ فَقَالَ هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ: بِالنَّفْيِ بِالْجِسْمِ. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا أَحْمَدُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا أُسْرِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ وَبَلَغَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، حُرِقَ لَهُ فِي الْحُجُبِ مِثْلُ سَمِّ الْإِبْرَةِ^(٤)، فَرَأَى مِنْ نُورِ الْعِظَمَةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرَى، وَارْدَتْكُمْ أَنْتُمْ التَّشْبِيهِ، دَعُ هَذَا يَا أَحْمَدُ لَا يَنْفَتَحُ عَلَيْكَ مِنْهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ^(٥).

بيان:

«بالنفي» أي نفي الصورة مع القول بالجسم، والمراد بالحجب إمّا الحجب المعنويّة، وبالرؤية الرويّة القلبيّة، أو الحجب الصوريّة، فالمراد بنور العظمة آثار عظمتته برويّة عجائب خلقه.

١٣٣٢. المحاسن^(٦): مُحَمَّدُ بْنُ عِيْسَى، عَنْ أَبِي هَاشِمٍ الْجَعْفَرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي الْأَشْعَثُ بْنُ حَاتِمٍ أَنَّهُ سَأَلَ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٧) عَنْ شَيْءٍ مِنَ التَّوْحِيدِ فَقَالَ: أَلَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: اقْرَأْ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^(٨) فَقَرَأْتُ، فَقَالَ: وَمَا الْأَبْصَارُ؟ قُلْتُ: أَبْصَارُ الْعَيْنِ، قَالَ: لَا، إِنَّمَا عَنِ الْأَوْهَامِ، لَا تُدْرِكُ الْأَوْهَامَ كَيْفِيَّتَهُ وَهُوَ يُدْرِكُ كُلَّ فَهْمٍ. المحاسن^(٩): مُحَمَّدُ بْنُ عِيْسَى، عَنْ أَبِي هَاشِمٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَحْوَهُ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: الْأَبْصَارُ هَاهُنَا أَوْهَامُ الْعِبَادِ، وَالْأَوْهَامُ أَكْثَرُ مِنَ الْأَبْصَارِ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَوْهَامَ وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَوْهَامُ.

١. قد تمت الرواية في الغرر بهذه العبارة: «فخلق الله تعالى منها محمداً وعليّاً، وخلق من نورهما شيعةهما، وخلق من نور شيعةهما نور الأبصار».

٢. الهداية الكبرى، ص ٢٤٠؛ إثبات الوصية، ص ١٨٠؛ وفي عيون المعجزات، ص ٧٧، قد ورد في هذه المصادر ضمن رواية.

٣. تفسير القمي، ج ١، ص ٢٠؛ تفسير البرهان، ج ١، ص ٨٧.

٤. السّم: كلّ ثقب ضيق كخرق الإبرة، راجع مفردات ألفاظ القرآن.

٥. في المصدر: «لا يفتح عليك هذا أمر عظيم».

٦. المحاسن، ج ١، ص ٢٣٩، ح ٢١٥؛ الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام، ص ٣٨٤؛ الكافي، ج ١، باب في إبطال الرويّة، ص ٩٨، ح ١٠، وقد ورد في الأخيرين بهذا المضمون.

٧. في الكافي بهذا الإسناد: «محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن أبي هاشم الجعفري، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام».

٨. الأنعام/١٠٣.

٩. المحاسن، ج ١، ص ٢٣٩، ذيل ح ٢١٥.

بيان:

كون الأوهام أكثر لأنّ البصر في الشخص متّحد، وله واهمة ومتفكّرة ومتخيّلة وعاقلة، وكثيراً ما يسلب عن الشخص البصر وتكون له تلك القوى، ويحتمل أن يكون المراد بها أكثرية مدركاتها فإنّها تدرك ما لا يدركه البصر أيضاً.

١٣٣٣. تفسير العياشي^(١): عَنْ الثُّمَالِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: لَا يُوصَفُ اللَّهُ بِمُحْكَمٍ وَحَيْهِ، عَظُمَ رَبُّنَا عَنْ الصِّفَةِ، وَكَيْفَ يُوصَفُ مَنْ لَا يُحَدُّ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

بيان:

أي دلّ محكم الآيات على أنّه لا يوصف كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٢) وقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾^(٣).

أقول:

قد مرّ كثير من الأخبار المناسبة لهذا الباب في باب إثبات الصانع، وباب النهي عن التفكير، وسيأتي بعضها في باب جوامع التوحيد، وباب احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على النصارى، وباب الرؤية.

١. تفسير العياشي، ج ١، ص ٣٧٣، ح ٧٨؛ تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٦٦، ح ٣٦١١.

٢. الشورى/١١.

٣. الأنعام/١٠٣.

﴿باب ١٤﴾

«نفي الزمان والمكان والحركة والانتقال عنه تعالى وتأويل الآيات والأخبار في ذلك»

الروايات:

١٣٣٤. الأماشي للصدوق^(١): السَّانِي، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ النَّخَعِيِّ، عَنِ عَمِّهِ النَّوْفَلِيِّ، عَنِ عَلِيِّ بْنِ سَالِمٍ، عَنِ أَبِي بَصِيرٍ، عَنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُوصَفُ بِزَمَانٍ وَلَا مَكَانٍ وَلَا حَرَكَةٍ وَلَا انْتِقَالٍ وَلَا سُكُونٍ؛ بَلْ هُوَ خَالِقُ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ وَالْإِنْتِقَالِ، تَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

١٣٣٥. الإرشاد، الإحتجاج^(٢): رُوِيَ أَنَّ بَعْضَ أَحْبَارِ الْيَهُودِ جَاءَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ عَلَى الْأُمَّةِ؟ (٣) فَقَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: إِنَّا نَجِدُ فِي التَّوْرَةِ أَنَّ خُلَفَاءَ الْأَنْبِيَاءِ أَعْلَمُ أُمَمِهِمْ، فَخَبِّرْنِي عَنِ اللَّهِ أَيْنَ هُوَ؟ فِي السَّمَاءِ هُوَ أَمْ فِي الْأَرْضِ؟ فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: فِي السَّمَاءِ عَلَى الْعَرْشِ. قَالَ الْيَهُودِيُّ: فَارَى الْأَرْضَ خَالِيَةً مِنْهُ، فَأَرَاهُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ فِي مَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ! فَقَالَ لَهُ: أَبُو بَكْرٍ: هَذَا كَلَامُ الرَّنَادِقَةِ، اعْزُبْ عَنِّي وَإِلَّا قَتَلْتُكَ. فَوَلَّى الرَّجُلُ مُتَعَجِّبًا يَسْتَهْزِئُ بِالْإِسْلَامِ، فَاسْتَقْبَلَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ: يَا يَهُودِيُّ قَدْ عَرَفْتُ مَا سَأَلْتَ عَنْهُ وَمَا أُجِبْتَ بِهِ، وَإِنَّا نَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَيْنَ الْأَيْنَ فَلَا أَيْنَ لَهُ، وَجَلَّ مِنْ أَنْ يَحْوِيَهُ مَكَانٌ، وَهُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ بِغَيْرِ مُمَاسَّةٍ وَلَا مُجَاوَرَةٍ، يُحِيطُ عِلْمًا بِمَا فِيهَا، وَلَا يَحْلُو شَيْءٌ مِنْ تَذْيِيرِهِ تَعَالَى، وَإِنِّي مُخْبِرُكَ بِمَا جَاءَ فِي كِتَابٍ مِنْ كُتُبِكُمْ، يُصَدِّقُ بِمَا ذَكَرْتَهُ لَكَ فَإِنْ عَرَفْتَهُ أَتَوْا مِنْ بِهِ؟ قَالَ الْيَهُودِيُّ: نَعَمْ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَلَسْتُمْ تَجِدُونَ فِي بَعْضِ كُتُبِكُمْ أَنَّ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسًا، إِذْ جَاءَهُ مَلَكٌ مِنَ الْمَشْرِقِ فَقَالَ لَهُ: مِنْ أَيْنَ جِئْتَ؟ قَالَ: مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ جَاءَهُ مَلَكٌ مِنَ الْمَغْرِبِ فَقَالَ لَهُ: مِنْ أَيْنَ جِئْتَ؟ قَالَ: مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ جَاءَهُ مَلَكٌ آخَرُ فَقَالَ لَهُ: مِنْ أَيْنَ جِئْتَ؟ قَالَ: قَدْ جِئْتُكَ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

١. الأماشي (للصدوق)، ص ٢٧٩، ح ٧؛ روضة الواعظين، ج ١، ص ٣٥.

٢. الإرشاد (للمفيد)، ج ١، ص ٢٠١؛ الإحتجاج (للطبرسي)، ج ١، ص ٢٠٩، وقد ورد فيهما مع اختلاف يسير؛ وجاء في متشابه القرآن (لابن

شهر آشوب)، ج ١، ص ٧٠، مع نقصان.

٣. في نسخة: أَنْتَ خَلِيفَةُ رَسُولِ هَذِهِ الْأُمَّةِ. (هامش المطبوع)

عَزَّوَجَلَّ، وَجَاءَهُ مَلَكٌ آخَرُ، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ جِئْتَ؟ قَالَ: قَدْ جِئْتُكَ مِنَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَى مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: سُبْحَانَ مَنْ لَا يَخْلُو مِنْهُ مَكَانٌ وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَكَانٌ أَقْرَبَ مِنْ مَكَانٍ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَشْهَدُ أَنَّ هَذَا هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ، وَأَنْتَ أَحَقُّ بِمَقَامِ نَبِيِّكَ ﷺ مِمَّنِ اسْتَوَلَى عَلَيْهِ.

بيان:

عَزَبَ عنه يعزُبُ ويعزِبُ أي بعد وغاب، وفسر عليه قوله: «وهو في كل مكان» بما ذكره بعده ليظهر أن المراد به الإحاطة بالعلم والتدبير.

١٣٣٦. الإحتجاج^(١): فِي جَوَابِ أَسْئَلَةِ الزُّنْدِيقِ الْمُنْكَرِ لِلْقُرْآنِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾^(٢) فَإِنَّمَا خَاطَبَ نَبِيَّنَا ﷺ هَلْ يَنْتَظِرُ الْمُتَافِقُونَ وَالْمُسْرِكُونَ ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ فَيَعَايِنُوهُمْ ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ أَمْرَ رَبِّكَ، وَالْآيَةُ هِيَ الْعَذَابُ فِي دَارِ الدُّنْيَا كَمَا عَذَّبَ الْأُمَمَ السَّالِفَةَ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةَ، وَقَالَ: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾^(٣) يَعْنِي بِذَلِكَ مَا يَهْلِكُ مِنَ الْقُرُونِ فَسَمَّاهُ إِيْتَانًا، وَقَوْلُهُ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٤) يَعْنِي اسْتَوَى تَدْبِيرُهُ وَعَلَا أَمْرُهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾^(٥) وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(٦) وَقَوْلُهُ: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾^(٧) فَإِنَّمَا أَرَادَ بِذَلِكَ اسْتِيلَاءَ أَمْنَائِهِ بِالْقُدْرَةِ الَّتِي رَكَّبَهَا فِيهِمْ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ، وَأَنَّ فِعْلَهُمْ فِعْلُهُ: الْخَبَرُ.

التوحيد^(٨): فِي هَذَا الْخَبَرِ: وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾^(٩) يَعْنِي أَرْسَلَ عَلَيْهِمُ عَذَابًا، وَكَذَلِكَ إِيْتَانُهُ بُنْيَانَهُمْ؛ وَقَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾^(١٠) فَإِيْتَانُهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ إِسْأَالُ الْعَذَابِ.

١. ورد في الإحتجاج (للطبرسي)، ج ١، ص ٢٥٠، ضمن رواية.

٢. الأنعام/١٥٨.

٣. الرعد/٤١.

٤. طه/٥.

٥. الزخرف/٨٤.

٦. الحديد/٤.

٧. المجادلة/٧.

٨. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٦٦، ح ٥.

٩. الحشر/٢.

١٠. النحل/٢٦.

تبيان:

قال البيضاوي: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون يعني أهل مكة وهم ما كانوا منتظرين لذلك ولكن لما كان يلحقهم لحوق المنتظر شبهوا بالمنتظرين ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ ملائكة الموت أو العذاب ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي أمره بالعذاب، أو كل آية يعني آيات القيامة والهلاك الكلي لقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ يعني أشرار الساعة^(١).

أقول:

لعله عليه السلام فسر إتيان الرب بالقيامة، وإتيان أمره تعالى بقيامها، وإتيان بعض الآيات بنزول العذاب في الدنيا، وإتيان الملائكة بظهورهم عند الموت، أو الأعم منه ومن غيره. وقال الطبرسي «رحمه الله»: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أي نقصدها. ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ اختلف في معناه على أقوال أحدها: أو لم ير هؤلاء الكفار أننا ننقص أطراف الأرض بإماتة أهلها. وثانيها: ننقصها بذهاب علمائها وفقهائها وخيار أهلها. وثالثها: أن المراد نقصد الأرض ننقصها من أطرافها بالفتوح على المسلمين منها فننقص من أهل الكفر ونزيد في المسلمين، يعني ما دخل في الإسلام من بلاد الشرك. ورابعها: أن معناه أو لم يروا ما يحدث في الدنيا من الخراب بعد العمارة، والموت بعد الحياة، والنقصان بعد الزيادة^(٣). انتهى.

وأما ما ذكره عليه السلام أخيراً في الخبر الأول فالظاهر تعلّقه بالثلاثة الأخيرة، فالمراد بالأولى: نفوذ أمره تعالى في السماء والأرض، وخلق الملائكة والحجج فيهما، وإنفاذهم أمره تعالى فيهما، وبالثانية: كون الملائكة والحجج معهم شاهددين عليهم، وكذا الثالثة.

١٣٣٧. الإحتجاج^(٤): عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ جَعْفَرٍ الْجَعْفَرِيِّ، عَنْ أَبِي إِسْرَاهِيمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: ذُكِرَ عِنْدَهُ قَوْمٌ زَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْزِلُ وَلَا يَخْتِاجُ إِلَى أَنْ يَنْزِلَ، إِنَّمَا مَنَظَرُهُ فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ سَوَاءٌ، لَمْ يَبْعُدْ مِنْهُ قَرِيبٌ، وَلَمْ يَقْرُبْ مِنْهُ بَعِيدٌ^(٥)، وَلَمْ يَخْتِجْ إِلَى شَيْءٍ بَلْ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَهُوَ ذُو الطُّولِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ؛ أَمَّا قَوْلُ الْوَاصِفِينَ: إِنَّهُ يَنْزِلُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ^(٦)، فَإِنَّمَا يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ يَنْسُبُهُ إِلَى نَقْصٍ أَوْ زِيَادَةٍ،

١. أشرار الساعة: علاماتها، راجع لسان العرب.

٢. أنوار التنزيل، ج ٢، ص ١٩٠.

٣. مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٦١.

٤. الإحتجاج (للتبرسي)، ج ٢، ص ٣٨٦؛ قد ورد في الكافي، ج ١، باب الحركة والانتقال، ص ١٢٥، ح ١، مع زيادة في ذيله.

٥. في المصدر: «لم يبعد منه بعيد، ولا يقرب منه قريب».

٦. في المصدر: «عن ذلك علواً كبيراً».

وَكُلُّ مُتَحَرِّكٍ مُّحْتَاجٌ إِلَى مَنْ يُحَرِّكُهُ أَوْ يَتَحَرَّكُ بِهِ، فَمَنْ ظَنَّ بِاللَّهِ الظُّنَّ فَقَدْ هَلَكَ وَأَهْلَكَ^(١)، فَاحْذَرُوا فِي صِفَاتِهِ مِنْ أَنْ تَقِفُوا لَهُ عَلَى حَدٍّ مِنْ نَقْصٍ أَوْ زِيَادَةٍ، أَوْ تَحْرِيكِ أَوْ تَحَرُّكِ، أَوْ زَوَالٍ أَوْ اسْتِزَالٍ، أَوْ نُهُوضٍ أَوْ قُعُودٍ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ صِفَةِ الْوَاصِفِينَ وَنَعْتِ النَّاعَتِينَ وَتَوَهُّمِ الْمُتَوَهُّمِينَ.

التوحيد^(٢): الدَّقَاقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ الْبَرْمَكِيِّ، عَنِ عَلِيِّ بْنِ عَيَّاشٍ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ رَاشِدٍ، عَنِ يَعْقُوبَ بْنِ جَعْفَرٍ الْجَعْفَرِيِّ مِثْلَهُ، وَزَادَ فِي آخِرِهِ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ.

بيان:

«إنما منظره» أي نظره وعلمه وإحاطته، بأن يكون مصدراً ميمياً، أو ما ينظر إليه في القرب والبعد منه سواء، أي لا يختلف اطلاعه على الأشياء بالقرب والبعد لأن القرب والبعد إنما يجريان في المكاني بالنسبة إلى المكان، وهو سبحانه متعال عن المكان. و«الطول»: الفضل والإنعام.

قوله عليه السلام: «فإنما يقول ذلك من ينسبه إلى نقص» أي النزول المكاني إنما يتصور في المتحيز، وكل متحيز موصوف بالتقدير وكل متقدر متصف بالنقص عما هو أزيد منه، وبالإضافة على ما هو أنقص منه، أو يكون في نفسه قابلاً للزيادة والنقصان، والوجوب الذاتي ينافي ذلك، لاستلزامه التجزي والانقسام المستلزمين للإمكان، وأيضاً كل متحرك محتاج إلى من يحركه أو يتحرك به، لأن المتحرك إما جسم أو متعلق بالجسم، والجسم المتحرك لا بد له من محرك لأنه ليس يتحرك بجسميته، والمتعلق بالجسم لا بد له في تحركه من جسم يتحرك به، وهو سبحانه منزّه عن الاحتياج إلى المتحرك، وعن التغير بمغير، وعن التعلق بجسم يتحرك به. ويحتمل أن يكون المراد بالأول: الحركة القسرية، وبالثاني: ما يشمل الإرادية والطبيعية، بأن يكون المراد بقوله عليه السلام: من يتحرك به، ما يتحرك به من طبيعة أو نفس.

وقوله عليه السلام: «من أن تقفوا» من وقف يقف أي أن تقوموا في الوصف له وتوصيفه على حدّ تحدّونه بنقص أو زيادة؛ ويحتمل أن يكون من قفا يقفوا أي أن تتبعوا له في البحث عن صفاته تتبّعاً على حدّ تحدّونه بنقص أو زيادة. وقوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ أي إلى التهجد، أو إلى الخيرات، أو إلى الأمور كلّها. ﴿وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ أي تردّدك وحركاتك فيما بين المصلّين بالقيام والقعود والركوع والسجود.

١٣٣٨. الإحتجاج^(٣): عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ جَعْفَرٍ الْجَعْفَرِيِّ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ - يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ الْغَفَّارِ السَّلْمِيُّ - أَبَا إِبْرَاهِيمَ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾^(٤) فَقَالَ: أَرَى هَاهُنَا خُرُوجاً

١. لم يرد في المصدر والكافي: «وأهلك».

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ١٨٣، ح ١٨.

٣. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٨٦؛ تفسير البرهان، ج ٥، ص ١٩٧، ح ١٠٢١١.

٤. النجم ٨ و ٩.

مِنْ حُجُبٍ وَتَدَلَّى إِلَى الْأَرْضِ، وَأَرَى مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ بِقَلْبِهِ، وَنُسِبَ إِلَى بَصَرِهِ وَكَيْفَ هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يَدَلُّ عَنْ مَوْضِعٍ^(١)، وَلَمْ يَتَدَلَّ بِبَدَنٍ. فَقَالَ عَبْدُ الْغَفَّارِ: أَصِفْهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسُهُ حَيْثُ قَالَ: ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾ فَلَمْ يَتَدَلَّ عَنْ مَجْلِسِهِ إِلَّا قَدْ زَالَ عَنْهُ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَصِفْ بِذَلِكَ نَفْسَهُ. فَقَالَ أَبُو إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ هَذِهِ لُغَةٌ فِي قُرَيْشٍ إِذَا أَرَادَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ أَنْ يَقُولَ قَدْ سَمِعْتُ يَقُولُ: قَدْ تَدَلَّيْتُ، وَإِنَّمَا التَّدَلَّى: الْفَهْمُ.

بيان:

«التدلي» القرب، والنزول من علو، والامتداد إلى جهة السفلى، ويكون من التدلل بمعنى الغنج، وما ذكره عليه السلام أن المراد به الفهم فهو على المجاز، لأن من يريد فهم شيء يتدلى إلى القائل ليسمعه ويفهمه. ثم اعلم أنه قد اختلف في تفسير هذه الآية على وجوه:

الأول: أن تكون الضمائر راجعة إلى جبرئيل عليه السلام فالمعنى ﴿وَهُوَ﴾ أي جبرئيل ﴿بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ أفق السماء ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ من النبي ﷺ ﴿فَتَدَلَّى﴾ أي تعلق به، وهو تمثيل لعروجه بالرسول ﷺ، أو تدلى من الأفق الأعلى فدنا من الرسول، فيكون إشعاراً بأنه عرج به غير منفصل عن محله وتقريراً لشدة قوته؛ وقيل: المعنى قرب فاشتدّ قربه، ﴿فَكَانَ﴾ البعد بينهما ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي قدرهما ﴿أَوْ أَدْنَى﴾، والمقصود تمثيل ملكة الاتصال وتحقيق استماعه لما أوحى إليه بنفي البعد الملبس^(٢).

الثاني: أن تكون الضمائر راجعة إلى محمد ﷺ أي ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ محمد من الخلق والأمة، وصار كواحد منهم ﴿فَتَدَلَّى﴾ إليهم بالقول اللين والدعاء الرفيق، فالحاصل أنه ﷺ استوى وكمل فدنا من الخلق بعد علوه وتدلى إليهم وبلغ الرسالة.

الثالث: أن تكون الضمائر راجعة إلى الله تعالى، فيكون دنوه كناية عن رفع مكانته، وتدليه عن جذبه بشرائره^(٣) إلى جناب القدس^(٤).

والحاصل أنه مؤول بالدنو المعنوي، والتقرب والمعرفة واللفظ، على ما يؤول حديث: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا»؛ وقيل الدنو منه ﷺ وهو كناية عن عظم قدره حيث انتهى إلى حيث لم ينته إليه أحد، والتدلى منه تعالى كناية عن غاية لطفه ورحمته.

١٣٣٩. الأما لي للصدوق، التوحيد، عيون أخبار الرضا عليه السلام^(٥): الدقاق، عن الصوفي، عن الروياني، عن عبد العظيم

١. في المصدر والبرهان: «لم يزل من موضع».

٢. أنوار التنزيل، ج ٥، ص ١٥٧.

٣. بشرائره: بجملته، وألقى عليه شرائره: ألقى عليه نفسه حرصاً ومحبة.

٤. أنوار التنزيل، ج ٥، ص ١٥٨.

٥. الأما لي (للصدوق)، ص ٤١٠، ح ٥؛ التوحيد (للصدوق)، ص ١٧٦، ح ٧؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٢٦، ح ٢١.

الْحُسَيْنِي، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي مُحَمَّدٍ قَالَ: قُلْتُ لِلرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ مَا تَقُولُ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يَرَوِيهِ النَّاسُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا^(١). فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَعَنَ اللَّهُ الْمُحَرِّفِينَ لِلْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَاللَّهُ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَذَلِكَ، إِنَّمَا قَالَ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَنْزِلُ مَلَكًا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ فِي الثُّلُثِ الْآخِرِ، وَلَيْلَةُ الْجُمُعَةِ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ فَيَأْمُرُهُ فَيُنَادِي: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيهِ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَاتُوبَ عَلَيْهِ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ يَا طَالِبَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، يَا طَالِبَ الشَّرِّ أَقْصِرْ؛ فَلَا يَزَالُ يُنَادِي بِهَذَا إِلَى أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ، فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ عَادَ إِلَى مَحَلِّهِ مِنْ مَلَكَوَتِ السَّمَاءِ^(٢). حَدَّثَنِي بِذَلِكَ أَبِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ آبَائِهِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

بيان:

الظاهر أن مراده عليه السلام تحريفهم: لفظ الخبر، ويحتمل أن يكون المراد تحريفهم معناه بأن يكون المراد بنزوله تعالى إنزال ملائكته مجازاً.

١٣٤٠. الأُمالي للصدوق^(٣): السَّنَانِي، عَنِ الْأَسَدِيِّ^(٤)، عَنِ النَّخَعِيِّ، عَنِ النَّوْفَلِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ سَالِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ثَابِتِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: سَأَلْتُ زَيْنَ الْعَابِدِينَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ هَلْ يُوصَفُ بِمَكَانٍ؟ فَقَالَ: تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ. قُلْتُ: فَلِمَ أُسْرِيَ نَبِيُّهُ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ؟ قَالَ: لِإِيْرِيَهُ مَلَكَوَتِ السَّمَاءِ وَمَا فِيهَا مِنْ عَجَائِبٍ صُنْعِهِ وَبَدَائِعِ خَلْقِهِ. قُلْتُ: فَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾^(٥) قَالَ: ذَاكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ دَنَا مِنْ حُجُبِ النُّورِ فَرَأَى مَلَكَوَتِ السَّمَاوَاتِ، ثُمَّ تَدَلَّى ﷺ فَنَظَرَ مِنْ تَحْتِهِ إِلَى مَلَكَوَتِ الْأَرْضِ حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ فِي الْقُرْبِ مِنَ الْأَرْضِ كَقَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى^(٦).

١٣٤١. تفسير القمِّي^(٧): أَبِي، عَنْ حَمَّادٍ، عَنْ حَرِيزٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: إِنَّ الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَنْزِلُ^(٨) كُلَّ لَيْلَةٍ جُمُعَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ، وَفِي كُلِّ لَيْلَةٍ فِي الثُّلُثِ الْآخِرِ، وَأَمَامَهُ مَلَكٌ يُنَادِي: هَلْ مِنْ تَائِبٍ يُتَابُ عَلَيْهِ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَيَغْفَرَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَى سُؤْلُهُ؟ اللَّهُمَّ أَعْطِ كُلَّ مُنْفِقٍ خَلْفًا^(٩)، وَكُلَّ مُمْسِكٍ تَلْفًا. فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ عَادَ

١. في العيون: «كل ليلة جمعة إلى السماء الدنيا».

٢. المَلَكَوَت: الملك العظيم، العز والسلطان. والمَلَكَوَت السماوي: هو محل القديسين في السماء. (هامش المطبوع)

٣. الأُمالي (للصدوق)، ص ١٥٠، ح ٢١؛ علل الشرائع، ج ١، ص ١٣١، ح ١؛ روضة الواعظين، ج ١، ص ٦٠.

٤. في علل الشرائع: «محمد بن أحمد بن السناني وعلي بن أحمد بن محمد الدقاق والحسين بن إبراهيم بن أحمد بن هشام المؤدب وعلي بن عبد الله الورّاق قالوا: حدّثنا الأسدي، عن ...».

٥. النجم ٨/٩.

٦. في الروضة مع زيادة: «وكان معراجهُ ﷺ بعد النبوة بسنين».

٧. تفسير القمّي، ج ٢، ص ٢٠٤؛ وسائل الشيعة، ج ٧، ص ٣٩١، ح ٩٦٦٣.

٨. في المصدر والوسائل: «ينزل أمره».

٩. الخلف: العوض والبدل مما أُخذ أو ذهب، راجع لسان العرب.

الرَّبُّ إِلَى عَرْشِهِ فَيَقْسِمُ الْأَرْزَاقَ بَيْنَ الْعِبَادِ. ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْفَضِيلِ بْنِ يَسَارٍ: يَا فَضِيلُ نَصِيْبَكَ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾^(١).

بيان:

نزوله تعالى كناية عن تنزله عن عرش العظمة والجلال، وأنه مع غنائه عنهم من جميع الوجوه يخاطبهم بما يخاطب به من يحتاج إلى غيره تلطفاً وتكرماً، وعوده إلى عرشه عن توجهه تعالى إلى شؤون آخر يفعله الملوك إذا تمكنوا على عرشهم. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نصيبك» أي خذ نصيبك من هذا الخير ولا تغفل عنه.

١٣٤٢. علل الشرائع^(٢): الْمُكْتَبُ وَالْوَرَّاقُ وَالْهَمْدَانِيُّ، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي عِمْرَانَ وَصَالِحِ بْنِ السُّنْدِيِّ، عَنْ يُونُسَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ^(٣) قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي الْحَسَنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَيِّ عِلَّةٍ عَرَجَ اللَّهُ بِنَبِيِّهِ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ، وَمِنْهَا إِلَى سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، وَمِنْهَا إِلَى حُجُبِ الثُّورِ، وَخَاطَبَهُ وَتَاجَاهُ هُنَاكَ وَاللَّهُ لَا يُوصَفُ بِمَكَانٍ؟ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُوصَفُ بِمَكَانٍ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ زَمَانٌ، وَلَكِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَرَادَ أَنْ يُشْرِفَ بِهِ مَلَائِكَتَهُ وَسُكَّانَ سَمَاوَاتِهِ وَيُكْرِمَهُمْ بِمُشَاهَدَتِهِ، وَيُرِيَهُ مِنْ عَجَائِبِ عَظَمَتِهِ مَا يُخْبِرُ بِهِ بَعْدَ هُبُوطِهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ عَلَى مَا يَقُولُهُ الْمُشَبِّهُونَ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ^(٤).

١٣٤٣. علل الشرائع^(٥): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ عِيْسَى، عَنْ ابْنِ مَجُوبٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ عُيَيْنَةَ^(٦)، عَنْ حَبِيبِ السَّجِسْتَانِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾^(٧) فَقَالَ لِي: يَا حَبِيبُ لَا تَقْرَأْ هَكَذَا افْرَأْ: ثُمَّ دَنَا فَتَدَانِي^(٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ^(٩) أَوْ أَدْنَى، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى عَبْدِهِ - يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - مَا أَوْحَى. يَا حَبِيبُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ أَتَعَبَ نَفْسَهُ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالشُّكْرِ لِنِعْمِهِ فِي الطَّوَافِ بِالْبَيْتِ، وَكَانَ عَلَيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَهُ، فَلَمَّا غَشِيَهُمُ اللَّيْلُ انْطَلَقَا إِلَى

١. سبأ/٣٩-٤١.

٢. علل الشرائع، ج ١، ص ١٣٢، ح ٢؛ التوحيد (للصدوق)، ص ١٧٥، ح ٥.

٣. في التوحيد بهذا الإسناد: «علي بن الحسين بن الصلت، عن محمد بن أحمد بن علي بن الصلت، عن عمه أبي طالب عبد الله بن الصلت، عن يونس بن عبد الرحمن».

٤. في التوحيد: «عمًا يشركون».

٥. علل الشرائع، ج ١، ص ٢٧٦، ح ١؛ تفسير البرهان، ج ٥، ص ١٩٥، ح ١٠٢٠٧.

٦. في البرهان: «مالك بن عطية».

٧. النجم/٨-١٠.

٨. نقول: هذا من قبيل التفسير للآية كما يشهد به ذيل الرواية لأنه وقع في القرآن تحريف، فإنه لا تحريف فيه مطلقاً.

٩. في المصدر والبرهان: «فكان قاب قوسين في القرب...».

الصَّفا وَالْمَرْوَةَ يُرِيدَانِ السَّعْيَ؛ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَلَمَّا هَبَطَا مِنَ الصَّفا إِلَى الْمَرْوَةِ وَصَارَا فِي الْوَادِي دُونَ الْعَلَمِ الَّذِي رَأَيْتَ، غَشِيَهُمَا مِنَ السَّمَاءِ نُورٌ فَأَضَاءَتْ لَهُمَا جِبَالُ مَكَّةَ، وَخَسَّاتُ أَبْصَارُهُمَا^(١)، قَالَ: فَفَزَعَا لِذَلِكَ فَرَعَا شَدِيدًا، قَالَ: فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى ارْتَفَعَ مِنَ الْوَادِي، وَتَبِعَهُ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا هُوَ بِرِمَانَتَيْنِ عَلَى رَأْسِهِ، قَالَ: فَتَنَاوَلَهُمَا^(٢) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّهَا مِنْ قِطْفِ الْجَنَّةِ فَلَا يَأْكُلُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ وَوَصِيكَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ: فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِحْدَاهُمَا وَأَكَلَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْآخَرَى، ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ: مَا أَوْحَى. قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا حَبِيبُ ﴿وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾^(٤) يَغْنِي عِنْدَهَا وَاقِي بِهِ جَبْرِئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ: فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى مَحَلِّ السِّدْرَةِ وَقَفَ جَبْرِئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ دُونَهَا وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ: إِنَّ هَذَا مَوْقِفِي الَّذِي وَضَعَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ، وَلَنْ أَقْدِرَ عَلَى أَنْ أَتَقَدَّمَ، وَلَكِنْ امْضِ أَنْتَ أَمَامَكَ إِلَى السِّدْرَةِ، فَوَقَفَ عِنْدَهَا^(٥)، قَالَ: فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى السِّدْرَةِ وَتَخَلَّفَ جَبْرِئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّمَا سُمِّيَتْ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى لِأَنَّ أَعْمَالَ أَهْلِ الْأَرْضِ تَصْعَدُ بِهَا الْمَلَائِكَةُ الْحَفَظَةُ إِلَى مَحَلِّ السِّدْرَةِ، وَالْحَفَظَةُ الْكَرَامُ الْبَرَّةُ دُونَ السِّدْرَةِ، يَكْتُبُونَ مَا تَرْفَعُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ فِي الْأَرْضِ، قَالَ: فَيَنْتَهُونَ بِهَا إِلَى مَحَلِّ السِّدْرَةِ، قَالَ: فَظَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَرَأَى أَغْصَانَهَا تَحْتَ الْعَرْشِ وَحَوْلَهُ، قَالَ: فَجَلَّى لِمُحَمَّدٍ ﷺ نُورُ الْجَبَّارِ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَمَّا غَشِيَ مُحَمَّدًا ﷺ النُّورُ شَخَصَ بِبَصَرِهِ، وَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ، قَالَ: فَشَدَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمُحَمَّدٍ ﷺ قَلْبَهُ وَقَوَّى لَهُ بَصَرَهُ حَتَّى رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ مَا رَأَى، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾^(٦) قَالَ: يَغْنِي الْمُوَافَاةُ^(٧)، قَالَ: فَرَأَى مُحَمَّدًا ﷺ مَا رَأَى بِبَصَرِهِ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى، يَغْنِي أَكْبَرَ الْآيَاتِ. قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَإِنَّ غِلَظَ السِّدْرَةِ بِمَسِيرَةِ مِائَةِ عَامٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، وَإِنَّ الْوَرْقَةَ مِنْهَا تُعْطَى أَهْلَ الدُّنْيَا، وَإِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَلَائِكَةً وَكَلَّهْمُ بَنَاتِ الْأَرْضِ مِنَ الشَّجَرِ وَالنَّخْلِ، فَلَيْسَ مِنْ شَجَرَةٍ وَلَا نَخْلَةٍ إِلَّا وَمَعَهَا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَلَكٌ يَحْفَظُهَا وَمَا كَانَ فِيهَا، وَلَوْ لَا أَنَّ مَعَهَا مَنْ يَمْنَعُهَا لِأَكْلِهَا السَّبَاعُ وَهَوَامُّ الْأَرْضِ إِذَا كَانَ فِيهَا ثَمَرُهَا، قَالَ: وَإِنَّمَا نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَضْرِبَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَلَاهُ تَحْتَ شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ قَدْ أَثْمَرَتْ لِمَكَانِ الْمَلَائِكَةِ الْمُوَكَّلِينَ بِهَا، قَالَ: وَلِذَلِكَ يَكُونُ الشَّجَرُ وَالنَّخْلُ أُنْسَاءً إِذَا كَانَ فِيهِ

١. في المصدر والبرهان: «خسعت أبصارهما».

٢. خساً البصر: كلٌّ وأعبا، راجع أساس البلاغة.

٣. تناول الأمر: أخذه، راجع لسان العرب.

٤. النجم/١٣-١٥.

٥. في المصدر والبرهان: «فقف عندها».

٦. النجم/١٣-١٥.

٧. الموافاة: أن توافي إنساناً في الميعاد، راجع لسان العرب.

حَمَلُهُ^(١) لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَخْضَعُ.

إيضاح:

«القطف» بالكسر: اسم للثمار المقطوعة من أصولها. وشخوص البصر: فتحه بحيث لا يطف. والفريضة: ودج العنق واللحمة بين الجنب والكتف لا تزال ترعد.

١٣٤٤. تفسير القمي^(٢): قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾^(٣) يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَتَدَلَّى﴾^(٤) قَالَ: إِنَّمَا أَنْزَلْتُ ثُمَّ دَنَا فَتَدَانِي، ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ قَالَ: كَانَ مِنَ اللَّهِ كَمَا بَيْنَ مَقْبِضِ الْقَوْسِ إِلَى رَأْسِ السَّيَةِ^(٥)، ﴿أَوْ أَدْنَى﴾^(٦) قَالَ بَلْ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ، ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾^(٨) قَالَ: وَحَى الْمُسَافَهَةَ.

تبيين:

قال الجوهري تقول: بينهما قاب قوس، وقب قوس، وقاد قوس، وقيد قوس أي قدر قوس، والقاب ما بين المقبض والسبة ولكل قوس قابان. وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أراد قابي قوس فغلبه.

١٣٤٥. الخصال^(٩): فِي مَسَائِلِ الْيَهُودِيِّ، عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَهُ: فَرَبُّكَ يَحْمِلُ أَوْ يُحْمَلُ؟ قَالَ: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ يَحْمِلُ كُلَّ شَيْءٍ بِقُدْرَتِهِ^(١٠)، وَلَا يَحْمِلُهُ شَيْءٌ. قَالَ: فَكَيْفَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَّةٌ﴾^(١١) قَالَ: يَا يَهُودِيُّ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ لِلَّهِ ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾^(١٢) فَكُلُّ شَيْءٍ عَلَى الثَّرَى، وَالثَّرَى عَلَى الْقُدْرَةِ، وَالْقُدْرَةُ تَحْمِلُ كُلَّ شَيْءٍ^(١٣)؛ الْخَبَرُ.

١. وفي نسخة: ولذلك يكون للشجر والنخل أنسا إذا كان فيه حملة. (هامش المطبوع)

٢. تفسير القمي، ج ٢، ص ٣٣٤؛ تفسير البرهان، ج ٥، ص ١٩١، ح ١٠١٩٩.

٣. النجم/٧.

٤. النجم/٨.

٥. سبة القوس: ما عطف من طرفيها، راجع لسان العرب.

٦. النجم/٩.

٧. في المصدر والبرهان: «أو أدنى أي من نعمته ورحمته».

٨. النجم/١٠.

٩. الخصال، ج ٢، ص ٥٩٧، ح ١؛ إرشاد القلوب (للدليمي)، ج ٢، ص ٣١٧.

١٠. لم يرد في الإرشاد: «بقدرته».

١١. الحاقة/١٧.

١٢. طه/٦.

١٣. في الإرشاد: «وما بينهما وما تحت الثرى على القدرة، فالقدرة عند ربّي».

١٣٤٦. التوحيد، عيون أخبار الرضا عليه السلام (١): تَمِيمُ الْقُرَشِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ الْهَرَوِيِّ قَالَ: سَأَلَ الْمَأْمُونُ أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ مُوسَى الرِّضَا عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٢) فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ الْعَرْشَ وَالْمَاءَ وَالْمَلَائِكَةَ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَكَانَتِ الْمَلَائِكَةُ تَسْتَدِلُّ بِأَنْفُسِهَا بِالْعَرْشِ وَالْمَاءِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ جَعَلَ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ (٣) لِيُظْهِرَ بِذَلِكَ قُدْرَتَهُ لِلْمَلَائِكَةِ، فَتَعَلَّمَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، ثُمَّ رَفَعَ الْعَرْشَ بِقُدْرَتِهِ وَنَقَلَهُ، وَجَعَلَهُ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَهُوَ مُسْتَوِلٍ عَلَى عَرْشِهِ، وَكَانَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَخْلُقَهَا فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ، وَلَكِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَهَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ لِيُظْهِرَ لِلْمَلَائِكَةِ مَا يَخْلُقُهُ مِنْهَا شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، فَيَسْتَدِلُّ بِحُدُوثِ مَا يَخْدُثُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَلَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ الْعَرْشَ لِحَاجَةٍ بِهِ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَرْشِ وَعَنْ جَمِيعِ مَا خَلَقَ، لَا يُوصَفُ بِالْكُونِ عَلَى الْعَرْشِ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِجِسْمٍ، تَعَالَى عَنْ صِفَةِ خَلْقِهِ عُلُوًّا كَبِيرًا.

١٣٤٧. التوحيد، معاني الأخبار، عيون أخبار الرضا عليه السلام (٤): الْمُعَاذِيُّ، عَنْ أَحْمَدَ الْهَمْدَانِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ فَضَالٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَأَلْتُ الرِّضَا عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (٥) فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُوصَفُ بِمَكَانٍ يَحُلُّ فِيهِ فَيُحْجَبَ عَنْهُ فِيهِ عِبَادُهُ، وَلَكِنَّهُ يَغْنِي أَنَّهُمْ عَنْ ثَوَابِ رَبِّهِمْ مَحْجُوبُونَ. قَالَ: وَسَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (٦) فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُوصَفُ بِالْمَجِيءِ وَالذَّهَابِ، تَعَالَى عَنِ الْإِنْتِقَالِ، إِنَّمَا يَغْنِي بِذَلِكَ وَجَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا.

قَالَ: وَسَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ (٧) قَالَ: يَقُولُ: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ، وَهَكَذَا نَزَلَتْ. قَالَ: وَسَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ (٨) وَعَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ (٩) وَعَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ (١٠)

١. التوحيد (لِلصَّدُوقِ)، ص ٣٢٠، ح ٢؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٣٤، ح ٣٣؛ الإحتجاج (لِلطَّبْرَسِيِّ)، ج ٢، ص ٤١٢، وقد ورد في هذه المصادر مع زيادة.

٢. هود/٧.

٣. لم يرد في الإحتجاج من «والملائكة قبل خلق السماوات والأرض» إلى «ثم جعل عرشه على الماء».

٤. التوحيد (لِلصَّدُوقِ)، ص ١٦٢، ح ١؛ معاني الأخبار، ص ١٣، ح ٣؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٢٥، ح ١٩.

٥. المطففين/١٥.

٦. الفجر/٢٢.

٧. البقرة/٢١٠.

٨. التوبة/٧٩.

٩. البقرة/١٥.

وَعَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾^(١١) فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَسْخَرُ وَلَا يَسْتَهْزِئُ وَلَا يَمَكُرُ وَلَا يُخَادِعُ، وَلَكِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُجَارِيهِمْ جَزَاءَ السُّخْرِيَّةِ وَجَزَاءَ الْإِسْتِهْزَاءِ وَجَزَاءَ الْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

بيان:

قال الزمخشري في الآية الأولى: كونهم محجوبين عنه، تمثيل للاستخفاف بهم وإهانتهم، لأنه لا يؤذن على الملوك إلا للمكرمين لديهم، ولا يحجب عنهم إلا المهانون عندهم^(١٢). وقال الرازي في الآية الثانية: اعلم أنه ثبت بالدليل العقلي أن الحركة على الله محال، لأن كل ما كان كذلك كان جسماً، والجسم مستحيل أن يكون أزلياً، فلا بد فيه من التأويل، وهو أن هذا من باب حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه. ثم ذلك المضاف ما هو؟ فيه وجوه:

أحدها: وجاء أمر ربك للمحاسبة والمجازاة. وثانيها: وجاء قهر ربك كما يقال: جاءتنا بنو أمية أي قهرهم. وثالثها: وجاء جلائل آيات ربك، لأن هذا يكون يوم القيامة، وفي ذلك اليوم تظهر العظام وجلائل الآيات، فجعل مجيئها مجيئاً له تفخيماً لشأن تلك الآيات. ورابعها: وجاء ظهوره، وذلك لأن معرفة الله تصير ذلك اليوم ضرورة فصار ذلك كظهوره وتجليه للخلق، فقال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أي زالت الشبه وارتفعت الشكوك. وخامسها: أن هذا تمثيل لظهور آيات الله، وتبيين آثار قهره وسلطانه، مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا ظهر بنفسه فإنه يظهر بمجرد حضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها. وسادسها: أن الرب المربي فلعل ملكاً هو أعظم الملائكة هو مربب للنبي ﷺ جداً، فكان هو المراد من قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾^(١٣).

وقال الطبرسي «رحمه الله» في الآية الثالثة: أي هل ينتظر هؤلاء المكذبون بآيات الله إلا أن يأتيهم أمر الله أي عذاب الله، وما توعدهم به على معصيته في ستر من السحاب؛ وقيل: قطع من السحاب، وهذا كما يقال: قتل الأمير فلاناً وضربه وأعطاه، وإن لم يتول شيئاً من ذلك بنفسه، بل فعل بأمره فأُسند إليه لأمره به؛ وقيل: معناه ما ينتظرون إلا أن تأتيهم جلائل آيات الله، غير أنه ذكر نفسه تفخيماً للآيات كما يقال: دخل الأمير البلد ويراد بذلك جنده، وإنما ذكر الغمام ليكون أهول، فإن الأهوال تشبه بظلل الغمام كما قال سبحانه:

١٠. آل عمران / ٥٤.

١١. النساء / ١٤٢.

١٢. الكشف، ج ٤، ص ٧٢٢.

١٣. مفاتيح الغيب، ج ٣١، ص ١٥٩.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾^(١) وقال الزجاج: معناه: يأتيهم الله بما وعدهم من العذاب والحساب، كما قال: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾^(٢) أي أتاهم بخذلانه إياهم؛ والأقوال متقاربة. وقد يقال: أتى وجاء فيما لا يجوز عليه المجيء والذهاب، يقال: أتاني وعيد فلان، وجاءني كلام فلان، وأتاني حديثه، ولا يراد به الاتيان الحقيقي، ثم قال: وقرأ أبو جعفر عليه السلام الملائكة بالجر، قال: وقيل: معنى الآية: إلا أن يأتيهم الله بظلل من الغمام أي بجلال آياته وبالملائكة^(٣). انتهى. أقول: على قراءة عليه السلام لا يحتاج إلى شيء من هذه التأويلات. ١٣٤٨. الاحتجاج^(٤): عَنْ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ، عَنْ آبَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ فِي جَوَابِ الْيَهُودِيِّ الَّذِي سَأَلَ عَنْ مُعْجَزَاتِ الرَّسُولِ ﷺ: إِنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَغُرِجَ بِهِ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ مَسِيرَةَ خَمْسِينَ أَلْفَ عَامٍ فِي أَقَلِّ مِنْ ثُلْثِ لَيْلَةٍ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَاقِ الْعَرْشِ، فَدَنَا بِالْعِلْمِ فَتَدَلَّى، فَدُلِّيَ لَهُ مِنَ الْجَنَّةِ رُفْرُفٌ^(٥) أَخْضَرُ، وَغَشِيَ النُّورَ بَصَرَهُ فَرَأَى عَظَمَةَ رَبِّهِ بِفُؤَادِهِ وَلَمْ يَرَهَا بِعَيْنِهِ، فَكَانَ كَقَابِ قَوْسَيْنِ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَوْ أَدْنَى؛ الْخَبَرُ.

بيان:

الضمير في: قوله عليه السلام: «بينها» راجع إلى الجنة، ورجوعه إلى العظمة بعيد.

١٣٤٩. التوحيد، علل الشرائع^(٦): ابْنُ عَصَامٍ، عَنِ الْكَلْبِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ التَّمِيمِيِّ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلْوَانَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ خَالِدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبِي سَيِّدَ الْعَابِدِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَتِ أَخْبِرْنِي عَنْ جَدَّنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمَّا غُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ وَأَمَرَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِخَمْسِينَ صَلَاةً، كَيْفَ لَمْ يَسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ عَنْ أُمَّتِهِ حَتَّى قَالَ لَهُ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلِ التَّخْفِيفَ^(٧)، فَإِنْ أُمِّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: يَا بَنِيَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ لَا يَقْتَرِحُ^(٨) عَلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا يُرَاجِعُهُ فِي شَيْءٍ يَأْمُرُهُ بِهِ، فَلَمَّا سَأَلَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ فَكَانَ شَفِيعاً لِأُمَّتِهِ إِلَيْهِ لَمْ يَجْزُ لَهُ رَدُّ شَفَاعَةِ أَخِيهِ مُوسَى، فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ فَسَأَلَهُ التَّخْفِيفَ إِلَى أَنْ رَدَّهَا إِلَيَّ خَمْسِ صَلَوَاتٍ.

١. لقمان/٣٢.

٢. الحشر/٢.

٣. مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٣٨.

٤. الاحتجاج (للطبرسي)، ج ١، ص ٢٢٠؛ تفسير الصافي، ج ١، ص ٣١١.

٥. الرurf: البساط، راجع لسان العرب.

٦. التوحيد (للصدوق)، ص ١٧٦، ح ٨؛ علل الشرائع، ج ١، ص ١٣٢، ح ١؛ لا يحضره الفقيه، ج ١، باب فرض الصلوة، ص ١٩٨، ح ٦٠٣.

٧. وفي نسخة: فاسأله التخفيف. (هامش المطبوع)، وكذا في المصدر والفقيه.

٨. اقترح عليه بكذا: تحكّم وسأل من غير رواية، راجع لسان العرب.

قَالَ: قُلْتُ لَهُ: يَا أَبَتِ فَلِمَ لَا يَرْجِعُ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(١) وَيَسْأَلُهُ التَّخْفِيفَ عَنْ خَمْسِ صَلَوَاتٍ وَقَدْ سَأَلَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى رَبِّهِ وَيَسْأَلُهُ التَّخْفِيفَ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا بُنَيَّ أَرَادَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُحْصَلَ لِأُمَّتِهِ التَّخْفِيفُ مَعَ أَجْرِ خَمْسِينَ صَلَاةً يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾^(٢) أَلَا تَرَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا هَبَطَ إِلَى الْأَرْضِ نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ رَبَّكَ يُفَرِّقُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ: إِنَّهَا خَمْسُ بِخَمْسِينَ، ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٣).

قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَتِ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لَا يُوصَفُ بِمَكَانٍ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا. قُلْتُ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ؟ فَقَالَ: مَعْنَاهُ مَعْنَى قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّهْدِينِ﴾^(٤) وَمَعْنَى قَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾^(٥) وَمَعْنَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾^(٦) يَغْنِي حُجُوعًا إِلَى بَيْتِ اللَّهِ، يَا بُنَيَّ إِنَّ الْكَعْبَةَ بَيْتُ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ فَقَدْ قَصَدَ إِلَى اللَّهِ، وَالْمَسَاجِدُ بَيُوتُ اللَّهِ، فَمَنْ سَعَى إِلَيْهَا فَقَدْ سَعَى إِلَى اللَّهِ وَقَصَدَ إِلَيْهِ، وَالْمُصَلِّي مَا دَامَ فِي صَلَاتِهِ فَهُوَ وَاقِفٌ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَأَهْلُ مَوْقِفِ عَرَفَاتٍ، هُمْ وَقُوفٌ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِقَاعًا فِي سَمَاوَاتِهِ، فَمَنْ عُرِجَ بِهِ إِلَى بُقْعَةٍ مِنْهَا فَقَدْ عُرِجَ بِهِ إِلَيْهِ، أَلَا تَسْمَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾^(٧) وَيَقُولُ فِي قِصَّةِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾^(٨)^(٩) وَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(١٠).

بيان:

الغرض من ذكر هذه الاستشهادات بيان شيوع تلك الاستعمالات والتجوزات في لسان أهل الشرع والعرف.

١. وفي نسخة: فلم لم يرجع إلى ربّه عزّ وجلّ. (هامش المطبوع)، وكذا في المصدر والفقهاء.

٢. الأنعام/١٦٠.

٣. ق/٢٩.

٤. الصافات/٩٩.

٥. طه/٨٤.

٦. الذاريات/٥٠.

٧. المعارج/٤.

٨. النساء/١٥٨.

٩. لم يرد في المصدر: «ويقول في قصة عيسى عليه السلام بل رفعه الله إليه».

١٠. فاطر/١٠.

١٣٥٠. التوحيد^(١): مَاجِلَوِيهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عِيْسَى، عَنْ يُونُسَ، عَنْ أَبِي الْمَغْرَاءِ رَفَعَهُ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام^(٢) قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ^(٣) مِنْ خَلْقِهِ، وَخَلَقَهُ خَلْقًا مِنْهُ، وَكُلُّ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ اسْمٌ شَيْءٌ فَهُوَ مَخْلُوقٌ مَا خَلَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ.

١٣٥١. التوحيد^(٤): حَمَزَةُ الْعَلَوِيِّ، عَنْ عَلِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ^(٥)، عَنْ ابْنِ أُذَيْنَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾^(٦) فَقَالَ: هُوَ وَاحِدٌ أَحَدِيّ الذَّاتِ^(٧) بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَبِذَلِكَ وَصَفَ نَفْسَهُ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ بِالْإِشْرَافِ وَالْإِحَاطَةِ وَالْقُدْرَةِ، لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ بِالْإِحَاطَةِ وَالْعِلْمِ بِالذَّاتِ، لِأَنَّ الْأَمَّاكِنَ مَحْدُودَةٌ تَحْوِيهَا حُدُودٌ أَرْبَعَةٌ فَإِذَا كَانَ بِالذَّاتِ لَزِمَهُ الْحَوَايَةُ.

بيان:

﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ أي ما يقع من تناجي ثلاثة، ويجوز أن يقدر مضاف، أو يؤول نجوى بمتناجين، ويجعل ثلاثة صفة لها ﴿إِلَّا﴾ و﴿هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أي إلا الله يجعلهم أربعة من حيث إنه يشاركهم في الاطلاع عليها. ﴿وَلَا خَمْسَةٍ﴾ أي ولا نجوى خمسة، وتخصيص العددين إما لخصوص الواقعة، أو لأن الله وتر يحب الوتر، والثلاثة أول الأوتار، أو لأن التشاور لا بد له من اثنين يكونان كالمتنازعين وثالث يتوسط بينهم.

ثم اعلم أنه لما كان القدام والخلف واليمين والشمال غير متميزة إلا بالاعتبار عدّ الجميع حدّين، والفوق والتحت حدّين، فصارت أربعة، والمعنى أنه ليست إحاطته سبحانه بالذات لأنّ الأمّاكن محدودة، فإذا كانت إحاطته بالذات بأن كانت بالدخول في الأمكنة لزم كونه محاطاً بالمكان كالمتمكن، وإن كانت بالانطباق على المكان لزم كونه محيطاً بالمتمكن كالمكان.

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٠٥، ح ٥؛ الكافي، ج ١، باب إطلاق القول بأنّه شيء، ص ٨٢، ح ٣ و ٤.

٢. في الكافي، ح ٤ هذا الإسناد: «عدة من أصحابنا، عن البرقي، عن أبيه، عن النضر بن سويد، عن يحيى الحلبي، عن ابن مسكان، عن زرارة بن أعين، عن أبي عبد الله عليه السلام».

٣. الخلو: المنفرد والمراد المبانيّة الذاتية والصفاتية بين الخالق والمخلوق، راجع لسان العرب ومجمع البحرين.

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ١٣١، ح ١٣؛ الكافي، ج ١، باب الحركة والانتقال، ص ١٢٧، ح ٥.

٥. في الكافي: «عدة من أصحابنا، عن البرقي، عن يعقوب بن يزيد، عن ابن أبي عمير، ...».

٦. المجادلة/٧.

٧. في الكافي: «هو واحد وأحديّ الذات».

١٣٥٢. التوحيد^(١): العطار، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ يَزِيدَ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْخَزَّازِ، عَنْ مُشْنَى الْحَنَاطِ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ - أَظُنُّهُ مُحَمَّدَ بْنَ الثُّعْمَانِ - قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾^(٢) قَالَ: كَذَلِكَ هُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ. قُلْتُ: بِذَاتِهِ؟ قَالَ: وَيَحْكُ إِنَّ الْأَمَّاكِينَ أَقْدَارُ، فَإِذَا قُلْتَ فِي مَكَانٍ بِذَاتِهِ لَزِمَكَ أَنْ تَقُولَ فِي أَقْدَارٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَكِنْ هُوَ بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، مُحِيطٌ بِمَا خَلَقَ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَإِحَاطَةً وَسُلْطَانًا^(٣)، وَلَيْسَ عِلْمُهُ بِمَا فِي الْأَرْضِ بِأَقْلٍ مِمَّا فِي السَّمَاءِ، لَا يَبْعُدُ مِنْهُ شَيْءٌ، وَالْأَشْيَاءُ لَهُ سَوَاءٌ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَسُلْطَانًا وَمُلْكًا وَإِحَاطَةً.

تفسير:

قال البيضاوي: ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ الضمير لله والله خبره، ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ متعلق باسم الله، والمعنى: هو المستحق للعبادة فيهما لا غير، كقوله: ﴿هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾^(٤)، أو بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾^(٥) والجملة خبر ثانٍ أو هي الخبر، والله بدل، ويكفي لصحة الظرفية كون المعلوم فيهما، كقولك: رميت الصيد في الحرم - إذا كنت خارجه والصيد فيه -، أو ظرف مستقر وقع خبراً بمعنى أنه تعالى لكمال علمه بما فيهما كأنه فيهما، و﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ بيان وتقرير له^(٦).

١٣٥٣. التوحيد^(٧): أَبِي، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ: قَالَ أَبُو شَاكِرٍ الدِّيصَانِيُّ: إِنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَةً هِيَ قُوَّةُ لَنَا^(٨)، قُلْتُ: وَمَا هِيَ؟ فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾^(٩) فَلَمْ أَذِرْ بِمَا أُحِبُّهُ، فَحَجَجْتُ فَخَبَرْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: هَذَا كَلَامُ زَنْدِيقٍ خَبِيثٍ، إِذَا رَجَعْتَ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: مَا اسْمُكَ بِالْكُوفَةِ؟ فَإِنَّهُ يَقُولُ: فَلَانُ، فَقُلْ: مَا اسْمُكَ بِالْبَصْرَةِ؟ فَإِنَّهُ يَقُولُ: فَلَانُ، فَقُلْ كَذَلِكَ اللَّهُ رَبُّنَا فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَفِي الْبَحَارِ إِلَهٌ^(١٠)، وَفِي كُلِّ مَكَانٍ إِلَهٌ. قَالَ: فَقَدِمْتُ فَاتَيْتُ أَبَا شَاكِرٍ فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: هَذِهِ نُقِلَتْ مِنَ الْحِجَازِ.

بيان:

لعل هذا الديصاني لما كان قائلاً بالهين: نور ملكه السماء، وظلمة ملكتها الأرض، أول الآية بما يوافق

١. التوحيد (للمصدق)، ص ١٣٢، ح ١٥؛ نوادر الأخبار (للفيض)، ص ٨٠، ح ٤.

٢. الأنعام/٣.

٣. في المصدر: «سلطانا وملكا».

٤. زخرف/٨٤.

٥. الأنعام/٣.

٦. أنوار التنزيل، ج ٢، ص ١٥٤.

٧. التوحيد (للمصدق)، ص ١٣٣، ح ١٦؛ الكافي، ج ١، باب الحركة والانتقال، ص ١٢٨، ح ١٠.

٨. في الكافي: «هي قولنا».

٩. الزخرف/٨٤.

١٠. في الكافي مع زيادة: «وفي القفار إله».

مذهبه بأن جعل قوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ جملة تامة معطوفة على مجموع الجملة السابقة، أي وفي الأرض إله آخر، ويظهر من بعض الأخبار أنه كان من الدهريين، فيمكن أن يكون استدلاله بما يوهم ظاهر الآية من كونه بنفسه حاصلاً في السماء والأرض، فيوافق ما ذهبوا إليه من كون المبدأ الطبيعة، فإنها حاصلة في الأجرام السماوية والأجسام الأرضية معاً، فأجاب عليه: بأن المراد أنه تعالى مسمى بهذا الاسم في السماء وفي الأرض، والأكثر على أن الظرف متعلق بالإله، لأنه بمعنى المعبود، أو مضمن معناه كقولك: هو حاتم في البلد.

١٣٥٤. التوحيد^(١) القَطَّانُ والدَّقَاقُ معاً، عَنِ ابْنِ زَكْرِيَّا القَطَّانِ، عَنِ ابْنِ حَبِيبٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحَكَمِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَسْوَدَ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ صَدِيقَانِ يَهُودِيَّانِ قَدْ آمَنَّا بِمُوسَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَتَيْنَا مُحَمَّدًا ﷺ وَسَمِعْنَا مِنْهُ، وَقَدْ كَانَا قَرَأَ التَّوْرَةَ وَصَحَّفَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢)، وَعَلِمَا عِلْمِ الْكُتُبِ الْأُولَى، فَلَمَّا قَبِضَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَسُولُهُ ﷺ أَقْبَلَا يَسْأَلَانِ عَنْ صَاحِبِ الْأَمْرِ بَعْدَهُ وَقَالَا: إِنَّهُ لَمْ يَمُتْ نَبِيٌّ قَطُّ إِلَّا وَلَهُ خَلِيفَةٌ يَتَوَقَّعُ بِالْأَمْرِ فِي أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ، قَرِيبُ الْقَرَابَةِ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، عَظِيمُ الْقَدْرِ^(٣)، جَلِيلُ الشَّانِ. فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: هَلْ تَعْرِفُ صَاحِبَ الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِ هَذَا النَّبِيِّ؟ قَالَ الْآخَرُ: لَا أَعْلَمُهُ إِلَّا بِالصِّفَةِ الَّتِي أَجِدُهَا فِي التَّوْرَةِ هُوَ الْأَصْلَحُ^(٤) الْمُصَمَّرُ فَإِنَّهُ كَانَ أَقْرَبَ الْقَوْمِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا دَخَلَا الْمَدِينَةَ وَسَأَلَا عَنْ الْخَلِيفَةِ أُرْشِدَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا نَظَرَا إِلَيْهِ قَالَا: لَيْسَ هَذَا صَاحِبَنَا، ثُمَّ قَالَا لَهُ: مَا قَرَأْتُكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنِّي رَجُلٌ مِنْ عَشِيرَتِهِ، وَهُوَ زَوْجُ ابْنَتِي عَائِشَةَ. قَالَا: هَلْ غَيْرُ هَذَا؟ قَالَ: لَا. قَالَا: لَيْسَتْ هَذِهِ بِقَرَابَةٍ فَأَخْبَرْنَا أَيْنَ رُبُّكَ؟ قَالَ: فَوْقَ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ! قَالَا: هَلْ غَيْرُ هَذَا؟ قَالَ: لَا. قَالَا: دُلَّنَا عَلَى مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، فَإِنَّكَ أَنْتَ لَسْتَ بِالرَّجُلِ الَّذِي نَجِدُ فِي التَّوْرَةِ أَنَّهُ وَصِيُّ هَذَا النَّبِيِّ وَخَلِيفَتُهُ، قَالَ: فَتَعَيَّظَ مِنْ قَوْلِهِمَا، وَهَمَّ بِهِمَا، ثُمَّ أُرْشِدَهُمَا إِلَى عُمَرَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ عَرَفَ مِنْ عُمَرَ أَنَّهُمَا إِنْ اسْتَقْبَلَاهُ بِشَيْءٍ بَطِشَ^(٥) بِهِمَا، فَلَمَّا أَتِيَاهُ قَالَا: مَا قَرَأْتُكَ مِنْ هَذَا النَّبِيِّ؟ قَالَ: أَنَا مِنْ عَشِيرَتِهِ، وَهُوَ زَوْجُ ابْنَتِي حَفْصَةَ. قَالَا: هَلْ غَيْرُ هَذَا؟ قَالَ: لَا. قَالَا: لَيْسَتْ هَذِهِ بِقَرَابَةٍ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الصِّفَةُ الَّتِي نَجِدُهَا فِي التَّوْرَةِ، ثُمَّ قَالَا لَهُ: فَأَيْنَ رُبُّكَ؟ قَالَ: فَوْقَ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ! قَالَا: هَلْ غَيْرُ هَذَا؟ قَالَ: لَا. قَالَا: دُلَّنَا عَلَى مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، فَأُرْشِدَهُمَا إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا جَاءَهُ فَتَنَظَّرَا إِلَيْهِ، قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إِنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي صِفَتُهُ فِي التَّوْرَةِ، إِنَّهُ وَصِيُّ هَذَا النَّبِيِّ، وَخَلِيفَتُهُ وَزَوْجُ ابْنَتِهِ، وَأَبُو السَّبْطَيْنِ

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٨٠، ح ١٥.

٢. في المصدر: «صحف إبراهيم وموسى».

٣. وفي نسخة: عظيم الخطر. (هامش المطبوع)

٤. الأصل: من سقط شعر مقدم رأسه. (هامش المطبوع)

٥. بطش به: أخذه أخذاً شديداً، راجع مقدمة الأدب.

وَالْقَائِمُ بِالْحَقِّ مِنْ بَعْدِهِ. ثُمَّ قَالَ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَيُّهَا الرَّجُلُ مَا قَرَأْتُكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هُوَ أَخِي وَأَنَا وَارِثُهُ وَوَصِيِّهُ، وَأَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ وَأَنَا زَوْجُ ابْنَتِهِ^(١). قَالَ: هَذِهِ الْقَرَابَةُ الْفَاحِشَةُ وَالْمَنْزِلَةُ الْقَرِيبَةُ، وَهَذِهِ الصِّفَةُ الَّتِي نَجِدُهَا فِي التَّوْرَةِ، فَأَيْنَ رَبُّكَ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ لَهُمَا عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنْ شِئْتُمَا أَنْبَأْتُكُمَا بِالَّذِي كَانَ عَلَى عَهْدِ نَبِيِّكُمَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَإِنْ شِئْتُمَا أَنْبَأْتُكُمَا بِالَّذِي كَانَ عَلَى عَهْدِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، قَالَا: أَنْبِئْنَا بِالَّذِي كَانَ عَلَى عَهْدِ نَبِيِّنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَقْبَلْ أَرْبَعَةُ أَمْثَالٍ: مَلِكٌ مِنَ الْمَشْرِقِ، وَمَلِكٌ مِنَ الْمَغْرِبِ، وَمَلِكٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَمَلِكٌ مِنَ الْأَرْضِ، فَقَالَ صَاحِبُ الْمَشْرِقِ لِصَاحِبِ الْمَغْرِبِ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قَالَ: أَقْبَلْتُ مِنْ عِنْدِ رَبِّي؛ وَقَالَ صَاحِبُ الْمَغْرِبِ لِصَاحِبِ الْمَشْرِقِ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قَالَ: أَقْبَلْتُ مِنْ عِنْدِ رَبِّي؛ وَقَالَ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ لِلخَارِجِ مِنَ الْأَرْضِ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قَالَ: أَقْبَلْتُ مِنْ عِنْدِ رَبِّي؛ وَقَالَ الْخَارِجُ مِنَ الْأَرْضِ لِلنَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قَالَ: أَقْبَلْتُ مِنْ عِنْدِ رَبِّي، فَهَذَا مَا كَانَ عَلَى عَهْدِ نَبِيِّكُمَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَمَّا مَا كَانَ عَلَى عَهْدِ نَبِيِّنَا ﷺ فَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ الْآيَةُ^(٢). قَالَ الْيَهُودِيَّانِ: فَمَا مَنَعَ صَاحِبَيْكَ أَنْ يَكُونَا جَعَلَاكَ فِي مَوْضِعِكَ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ؟ فَوَ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى إِنَّكَ لَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ حَقًّا، نَجِدُ صِفَتَكَ فِي كُتُبِنَا، وَنَقْرُوه فِي كِتَابِنَا، وَإِنَّكَ لَأَنْتَ أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ وَأَوْلَى بِهِ مِمَّنْ قَدْ غَلَبَكَ عَلَيْهِ، فَقَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَدَمًا وَآخَرًا، وَحِسَابُهُمَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يُوقَفَانِ وَيُسْأَلَانِ.

١٣٥٥. التوحيد^(٣): الْعَطَّارُ، عَنْ أَبِيهِ^(٤)، عَنْ ابْنِ عِيْسَى، عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي حَمْزَةَ، عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا جَعْفَرٍ أَخْبِرْنِي عَنْ رَبِّكَ مَتَى كَانَ؟ فَقَالَ: وَيْلَكَ إِنَّمَا يُقَالُ لَشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ فَكَانَ: «مَتَى كَانَ» إِنَّ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَانَ لَمْ يَزَلْ حَيًّا بِلاَ كَيْفٍ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كَانَ، وَلَا كَانَ لِكُونِهِ كَيْفٌ، وَلَا كَانَ لَهُ أَيْنَ، وَلَا كَانَ فِي شَيْءٍ، وَلَا كَانَ عَلَى شَيْءٍ، وَلَا ابْتَدَعَ لِكَانَهُ مَكَانًا^(٥)؛ الْخَبَرُ.

١٣٥٦. التوحيد^(٦): وَرَوِيَ أَنَّهُ سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ سَمَاءً وَأَرْضًا؟ فَقَالَ: أَيْنَ سُؤَالُ عَنْ مَكَانٍ، وَكَانَ اللَّهُ وَلَا مَكَانَ.

١. في المصدر: «وأنا زوج ابنته فاطمة».

٢. المجادلة/٧.

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ١٧٣، ح ٢؛ الكافي، ج ١، باب الكون والمكان، ص ٨٨، ح ٣.

٤. لم يرد في الكافي: «عن أبيه».

٥. كذا فيما عندنا من النسخ، وفي التوحيد المطبوع: «ولا ابتدع لكونه مكانا». وفي نسخة أخرى منه: «ولا ابتدع لمكانه مكانا». (هامش

المطبوع)، وفي الكافي: «ولا ابتدع لمكانه مكانا».

٦. التوحيد (للصدوق)، ص ١٧٥، ح ٤؛ الكافي، ج ١، باب الكون والمكان، ص ٨٩، ح ٥؛ أمالي المرتضى، ج ١، ص ١٤٩.

١٣٥٧. التوحيد^(١): أَبِي، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ مَحْبُوبٍ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: كَذَبَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي شَيْءٍ، أَوْ مِنْ شَيْءٍ، أَوْ عَلَى شَيْءٍ.

قال الصدوق «رحمه الله»: الدليل على أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا في مكان أَنَّ الأماكن كلها حادثة، وقد قام الدليل على أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قديم سابق للأماكن، وليس يجوز أن يحتاج الغني القديم إلى ما كان غنياً عنه، ولا أن يتغير عما لم يزل موجوداً عليه، فصَحَّ اليوم أَنَّهُ لا في مكان كما أَنَّهُ لم يزل كذلك؛ وتصديق ذلك مَا حَدَّثَنَا بِهِ الْقُطَّانُ، عَنْ ابْنِ زَكَرِيَّا الْقُطَّانِ، عَنْ ابْنِ حَبِيبٍ، عَنْ ابْنِ بُهْلُولٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سُلَيْمَانَ الْمُرْزِيِّ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ: قُلْتُ لِجَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ نَقُولَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَكَانٍ؟ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ! إِنَّهُ لَوْ كَانَ فِي مَكَانٍ لَكَانَ مُحَدَّثًا، لِأَنَّ الْكَائِنَ فِي مَكَانٍ مُحْتَاجٌ إِلَى الْمَكَانِ، وَالْإِحْتِيَاجُ مِنْ صِفَاتِ الْوَحْدِ، لَا مِنْ صِفَاتِ الْقَدِيمِ.

١٣٥٨. التوحيد^(٢): الدَّقَاقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ الْبَرْمَكِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ رَاشِدٍ، عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ جَعْفَرٍ الْجَعْفَرِيِّ، عَنْ أَبِي إِبْرَاهِيمَ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَانَ لَمْ يَزَلْ بِلاَ زَمَانٍ وَلَا مَكَانٍ، وَهُوَ الْآنَ كَمَا كَانَ لَا يَخْلُو مِنْهُ مَكَانٌ، وَلَا يَشْتَغِلُ بِهِ مَكَانٌ، وَلَا يَحِلُّ فِي مَكَانٍ ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَآبِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾^(٣) لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ حِجَابٌ غَيْرُ خَلْقِهِ، احْتَجَبَ بِغَيْرِ حِجَابٍ مَحْجُوبٍ، وَاسْتَرَّ بِغَيْرِ سِتْرٍ مَسْتُورٍ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ^(٤).

بيان:

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «غير خلقه» أي ليس الحجاب بينه وبين خلقه إلا عجز المخلوق عن الإحاطة به. وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «محجوب» إما نعت لحجاب، أو خبر مبتدأ محذوف، فعلى الأول فهو إما بمعنى حاجب، إذ كثيراً ما يجيء صيغة المفعول بمعنى الفاعل كما قيل في قوله تعالى: ﴿حِجَاباً مُسْتُوراً﴾^(٥)، أو بمعناه ويكون المراد أَنَّهُ ليس

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٧٨، ح ١٠ و ١١.

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ١٧٨، ح ١٢.

٣. المجادلة/٧.

٤. من غرر الأحاديث؛ وكون الخلق حجاباً بأنفسهم نظير قول الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطبته الآتية من باب جوامع التوحيد: «حجب بعضها عن بعض ليعلم أن لا حجاب بينه وبينها غيرها» الخطبة؛ معناه استحالة المعاينة بالإحاطة إذ لا يمكن ذلك إلا بارتفاع الحجاب ومع ارتفاع الحجاب، الذي هو نفس الخلق لا يبقى موضوع الخلق هذا. وهذا الكلام إذا انضم إلى قول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ في خطبته الآتية من باب جوامع التوحيد: «حجب بعضها عن بعض ليعلم أن لا حجاب بينه وبين خلقه غير خلقه» الخطبة؛ أفاد أن العباد لو انصرفوا عن الاشتغال بأنفسهم واتسباع هواهم، وتوجهوا إلى ربهم لأشرقت عليهم أنوار العظمة الإلهية، وهذا هو الذي يعبر عنه برؤية القلب كما مر في عدة من الأخبار في باب نفي الرؤية. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

٥. الإسراء/٤٥.

له تعالى حجاب مستور، بل حجاب ظاهر وهو تجرّده وتقدّسه وعلوّه عن أن يصل إليه عقل أو وهم، ويحتمل على هذا أن يكون المراد بالحجاب الحجة الذي أقامه بينه وبين خلقه فهو ظاهر غير مخفي؛ ويحتمل أيضاً أن يكون المراد به أنه لم يحتجب بحجاب مخفي فكيف الظاهر. وأمّا على الثاني فالظرف متعلق بقوله عليه السلام: «محبوب» أي هو محبوب بغير حجاب. وهاهنا احتمال ثالث، وهو أن يكون محبوب مضاف إليه بتقدير اللام، وإجراء الاحتمالات في الفقرة الثانية ظاهر، وهي إمّا تأكيد للأولى، أو الأولى إشارة إلى الاحتجاب عن الحواس، والثانية إلى الاستتار عن العقول والأفهام.

١٣٥٩. التوحيد^(١): مُحَمَّدٌ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْحَاقَ الْفَارِسِيِّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ النَّشَوِيِّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الصَّفَدِيِّ^(٢)، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَعْقُوبَ الْعَسْكَرِيِّ وَأَخِيهِ مُعَاذٍ مَعًا، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ الْحَنْظَلِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَاصِمٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِي هَاشِمٍ الرُّمَّانِيِّ، عَنْ زَادَانَ، عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ يَذْكُرُ فِيهِ قُدُومَ الْجَائِلِقِ الْمَدِينَةِ مَعَ مِائَةٍ مِنَ النَّصَارَى بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله، وَسُؤَالَهُ أَبَا بَكْرٍ عَنْ مَسَائِلَ لَمْ يُجِبْهُ عَنْهَا، ثُمَّ أُرْسِدَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فَسَأَلَهُ عَنْهَا فَأَجَابَهُ، فَكَانَ فِيمَا سَأَلَهُ أَنْ قَالَ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنْ وَجْهِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَدَعَا عَلِيٌّ عليه السلام بِنَارٍ وَحَطَبٍ فَأَضْرَمَهُ، فَلَمَّا اشْتَعَلَتْ قَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: أَيْنَ وَجْهِ هَذِهِ النَّارِ؟ قَالَ النَّصْرَانِيُّ: هِيَ وَجْهُ مِنْ جَمِيعِ حُدُودِهَا. قَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: هَذِهِ النَّارُ مُدَبَّرَةٌ مَصْنُوعَةٌ لَا تَعْرِفُ وَجْهَهَا، وَخَالِقُهَا لَا يُشَبِّهُهَا؟ ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾^(٣) لَا يَخْفَى عَلَى رَبِّنَا خَافِيَةٌ. والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

١٣٦٠. التوحيد^(٤): الْأَشْثَانِيُّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ مَهْرُوَيْهِ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنِ الرِّضَا، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ آبَائِهِ، عَنْ عَلِيِّ عليه السلام قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله^(٥): إِنْ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عليه السلام لَمَّا نَاجَى رَبَّهُ قَالَ: يَا رَبُّ أَبْعِيدْ أُنْتِ مِنِّي فَأُنَادِيكَ، أَمْ قَرِيبٌ فَأُنَاجِيكَ^(٦)، فَأَوْحَى اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ إِلَيْهِ: أَنَا جَلِيسٌ مَن ذَكَرَنِي. فَقَالَ مُوسَى عليه السلام: يَا رَبُّ إِنِّي أَكُونُ فِي حَالٍ أَجْلُكَ أَنْ أَذْكُرَكَ فِيهَا، فَقَالَ: يَا مُوسَى اذْكُرْنِي عَلَى كُلِّ حَالٍ.

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٨٢، ح ١٦؛ تفسير الصافي، ج ١، ص ١٨٣.

٢. في المصدر: «أبو سعيد أحمد بن محمد النّسوي، عن أبي نصر أحمد بن محمد بن عبد الله الصّغدي».

٣. البقرة/١١٥.

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ١٨٢، ح ١٧؛ وقد ورد في علل الشرائع، ج ١، ص ٢٨٤، ذيل ح ١؛ كشف الغمّة، ج ٢، ص ٢٨٥.

٥. في العلل بهذا الإسناد: «علي بن أحمد بن محمد، عن محمد بن أبي عبد الله الكوفي، عن موسى بن عمران النخعي، عن عمّه النوفلي، عن علي بن سالم، عن أبيه، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام».

٦. **فقول:** أمثال هذه الأسئلة في الحقيقة من قبل الناس تجري على لسان الأنبياء مثل قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾.

١٣٦١. التوحيد^(١): مُحَمَّدٌ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْفَارِسِيِّ^(٢)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الرُّمَيْحِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَيْسَى الْوَاسِطِيِّ^(٣)، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زَكَرِيَّا الْمَكِّيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي مُنِيفٌ - مَوْلَى جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ - قَالَ: حَدَّثَنِي سَيِّدِي جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: كَانَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٤) يُصَلِّي فَمَرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ رَجُلٌ فَتَهَاهُ بَعْضُ جُلَسَائِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ: لِمَ نَهَيْتَ الرَّجُلَ؟^(٥) قَالَ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ حَظَرُ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمُخْرَابِ. فَقَالَ: وَيْحَكَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَقْرَبُ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَحْظُرَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَحَدٌ.

١٣٦٢. التوحيد^(٦): الْمُظَفَّرُ الْعُلَوِيُّ، عَنْ ابْنِ الْعِيَّاشِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ إِشْكِيْب، عَنْ هَارُونَ بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ أَسَدِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شَمْرِ، عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ الْبَاقِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا جَابِرُ مَا أَعْظَمَ فِرْيَةَ أَهْلِ الشَّامِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَزْعُمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيْثُ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ وَضَعَ قَدَمَهُ عَلَى صَخْرَةٍ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَلَقَدْ وَضَعَ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ قَدَمَهُ عَلَى حَجَرٍ^(٧) فَأَمَرَنَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ نَتَّخِذَهُ مُصَلًّى، يَا جَابِرُ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا نَظِيرَ لَهُ وَلَا شَبِيهَ، تَعَالَى عَنْ صِفَةِ الْوَاصِفِينَ، وَجَلَّ عَنْ أَوْهَامِ الْمُتَوَهِّمِينَ، وَاحْتَجَبَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاطِرِينَ، لَا يَزُولُ مَعَ الزَّائِلِينَ، وَلَا يَأْفُلُ مَعَ الْآفِلِينَ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

١٣٦٣. التوحيد^(٨): الدَّقَّاقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ الْبَرَمَكِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ عِيَّاشٍ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ رَاشِدٍ، عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: لَا أَقُولُ إِنَّهُ قَائِمٌ فَازِيلُهُ عَنْ مَكَانِهِ، وَلَا أَحُدُهُ بِمَكَانٍ يَكُونُ فِيهِ، وَلَا أَحُدُهُ أَنْ يَتَحَرَّكَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَرْكَانِ وَالْجَوَارِحِ، وَلَا أَحُدُهُ بِلَفْظٍ شَقٍّ فَمٍ، وَلَكِنْ كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٩) بِمِشَبِّهَتِهِ مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ فِي نَفْسٍ، فَرُدُّ صَمَدٌ، لَمْ يَخْتَجِ إِلَى شَرِيكَ يَكُونُ لَهُ فِي مُلْكِهِ^(١٠) وَلَا يَفْتَحُ لَهُ أَبْوَابَ عِلْمِهِ.

١٣٦٤. التوحيد^(١١): مُحَمَّدٌ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْحَاقَ الْعَزَائِمِيِّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ رُمَيْحٍ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ إِسْحَاقَ،

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٨٤، ح ٢٢؛ وسائل الشيعة، ج ٥، ص ١٣٣، ح ٦١٣٠.

٢. في الوسائل: «محمد بن إبراهيم بن إسحاق الطالقاني».

٣. في التوحيد والوسائل: «... عن أبي سعيد الرُمَيْحِيِّ، عن عبد العزيز بن إسحاق، عن محمد بن عيسى الواسطي، عن...».

٤. وفي نسخة: كان الحسين بن علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ. (هامش المطبوع)، وكذا في الوسائل.

٥. **نقول:** الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ رأى المنكر في الصلوة لينهى عنه، ولا ينافي حضور قلبه في الصلوة.

٦. التوحيد (للصدوق)، ص ١٧٩، ح ١٣؛ تفسير العياشي، ج ١، ص ٥٩، ح ٩٤.

٧. وفي نسخة: على صخرة. (هامش المطبوع)

٨. التوحيد (للصدوق)، ص ١٨٣، ح ١٩؛ الكافي، ج ١، باب الحركة والانتقال، ص ١٢٥، ح ٢؛ الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٨٦.

٩. البقرة/١١٧.

١٠. في الكافي: «يذكر له ملكه»، وفي الإحتجاج: «يدبر له ملكه».

١١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٨٤، ح ٢١؛ وقد ورد في الغارات، ج ١، ص ١١٢، مع زيادة.

عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْحَسَنِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ خَلْفٍ، عَنْ بَشْرِ بْنِ الْحَسَنِ، عَنْ عَبْدِ الْقُدُّوسِ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ السَّيِّعِيِّ، عَنْ الْحَارِثِ الْأَعْوَرِ، عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام ^(١) أَنَّهُ دَخَلَ السُّوقَ فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مَوْلِيهِ ظَهْرُهُ يَقُولُ: لَا وَالَّذِي احْتَجَبَ بِالسَّبْعِ، فَضَرَبَ عَلَيَّ عليه السلام ظَهْرَهُ ثُمَّ قَالَ: مَنْ الَّذِي احْتَجَبَ بِالسَّبْعِ؟ قَالَ: اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: أَخْطَأْتُ ثَكِلَتَكَ أُمُّكَ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ حِجَابٌ لِأَنَّهُ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا. قَالَ: مَا كَفَّارَةٌ مَا قُلْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ مَعَكَ حَيْثُ كُنْتَ. قَالَ: أَطْعِمُ الْمَسَاكِينَ؟ قَالَ: لَا، إِنَّمَا حَلَفْتُ بِغَيْرِ رَبِّكَ.

١٣٦٥. التوحيد ^(٢): الدَّقَاقُ، عَنْ أَبِي الْقَاسِمِ الْعَلَوِيِّ، عَنْ الْبَرْمَكِيِّ، عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحَسَنِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَاشِمٍ الْقُمِيِّ، عَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَمْرِو الْقُتَيْبِيِّ، عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ - فِي حَدِيثِ الزُّنْدِيقِ الَّذِي أَتَى أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام - قَالَ: سَأَلَهُ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ^(٣) قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: بِذَلِكَ وَصَفَ نَفْسَهُ، وَكَذَلِكَ هُوَ مُسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ، بَائِتٌ مِنْ خَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ حَامِلًا لَهُ، وَلَا أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ حَاطِيًا لَهُ، وَلَا أَنَّ الْعَرْشَ مُحْتَازٌ لَهُ، وَلَكِنَّا نَقُولُ: هُوَ حَامِلُ الْعَرْشِ، وَمُسْكُ الْعَرْشِ، وَنَقُولُ مِنْ ذَلِكَ مَا قَالَ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ^(٤) فَتَبَيَّنَا مِنَ الْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ مَا تَبَيَّنَهُ، وَتَبَيَّنَا أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ أَوْ الْكُرْسِيُّ حَاطِيًا لَهُ، وَأَنْ يَكُونَ عَزَّ وَجَلَّ مُحْتَاجًا إِلَى مَكَانٍ أَوْ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا خَلَقَ، بَلْ خَلَقَهُ مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ.

قَالَ السَّائِلُ: فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ أَنْ تَرْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ إِلَى السَّمَاءِ وَبَيْنَ أَنْ تَخْفِضُوهَا نَحْوَ الْأَرْضِ؟ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: ذَلِكَ فِي عِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ وَقُدْرَتِهِ سَوَاءً، وَلَكِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ أَوْلِيَائِهِ وَعِبَادَهُ بِرَفْعِ أَيْدِيهِمْ إِلَى السَّمَاءِ نَحْوَ الْعَرْشِ لِأَنَّهُ جَعَلَهُ مَعْدِنَ الرُّزْقِ، فَتَبَيَّنَا مَا تَبَيَّنَهُ الْقُرْآنُ وَالْأَخْبَارُ عَنِ الرَّسُولِ صلوات الله عليه وآله حِينَ قَالَ: ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَهَذَا يُجْمَعُ عَلَيْهِ فَرْقُ الْأُمَّةِ كُلِّهَا ^(٥).

قَالَ السَّائِلُ: فَتَقُولُ: إِنَّهُ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا؟ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: نَقُولُ ذَلِكَ، لِأَنَّ الرُّوَايَاتِ قَدْ صَحَّتْ بِهِ وَالْأَخْبَارُ.

قَالَ السَّائِلُ: وَإِذَا نَزَلَ أَلَيْسَ قَدْ حَالَ عَنِ الْعَرْشِ وَحَوْلَهُ عَنِ الْعَرْشِ انْتِقَالٌ؟ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: لَيْسَ ذَلِكَ عَلَى مَا يُوجَدُ مِنَ الْمَخْلُوقِ الَّذِي يَنْتَقِلُ بِاخْتِلَافِ الْحَالِ عَلَيْهِ، وَالْمَلَاةِ وَالسَّامَةِ وَنَاقِلٍ يَنْقُلُهُ، وَيُحَوِّلُهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، بَلْ هُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَخْذُلُ عَلَيْهِ الْحَالُ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ الْحُدُوثُ، فَلَا يَكُونُ نُزُولُهُ كَنُزُولِ الْمَخْلُوقِ الَّذِي مَتَى تَنَحَّى

١. في الغارات بهذا الإسناد: «حدثنا محمد، عن الحسن، عن إبراهيم، عن بشير بن خيشمة المرادي، عن عبد القدوس، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن أمير المؤمنين عليه السلام».

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٤٨، ح ١؛ الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٣٢.

٣. طه/٥.

٤. البقرة/٢٥٥.

٥. في التوحيد والإحتجاج تمت الرواية إلى هنا كما أشار إليها العلامة.

عَنْ مَكَانٍ خَلَا مِنْهُ الْمَكَانُ الْأَوَّلُ، وَلَكِنَّهُ يَنْزِلُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا بِغَيْرِ مُعَانَاةٍ^(١) وَلَا حَرَكَةٍ، فَيَكُونُ هُوَ كَمَا فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ عَلَى الْعَرْشِ كَذَلِكَ هُوَ فِي سَمَاءِ الدُّنْيَا إِنَّمَا يَكْشِفُ عَنْ عَظَمَتِهِ، وَيُرِي أَوْلِيَاءَهُ نَفْسَهُ حَيْثُ شَاءَ، وَيَكْشِفُ مَا شَاءَ مِنْ قُدْرَتِهِ، وَمَنْظَرُهُ فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ سَوَاءً.

ثم قال: قال مصنف هذا الكتاب قوله ﷺ: إنه على العرش إنه ليس بمعنى التمكن فيه، ولكنه بمعنى التعالي عليه بالقدرة، يقال: فلان على خير واستعانه على عمل كذا وكذا، ليس بمعنى التمكن فيه والاستقرار عليه، ولكن ذلك بمعنى التمكن منه والقدرة عليه، وقوله ﷺ: في النزول ليس بمعنى الانتقال وقطع المسافة، ولكنه على معنى إنزال الأمر منه إلى سماء الدنيا، لأن العرش هو المكان الذي ينتهي إليه بأعمال العباد من السدرة المنتهى إليه، وقد يجعل الله عز وجل السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، وفي ليالي الجمعة مسافة الأعمال في ارتفاعها أقرب منها في سائر الأوقات إلى العرش. وقوله ﷺ: «يري أوليائه نفسه» فإنه يعني بإظهار بدائع فطرته، فقد جرت العادة بأن يقال للسلطان إذا أظهر قوة وقدرة وخيلاً ورجلاً: قد أظهر نفسه، وعلى ذلك دل الكلام ومجاز اللفظ.

أقول:

من قوله: «قال السائل» إلى آخر كلامه لم يكن في أكثر النسخ، وليس في الإحتجاج أيضاً.

١٣٦٦. التوحيد^(٢): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ عَيْسَى وَابْنِ هَاشِمٍ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ عَلِيٍّ الْيَعْقُوبِيِّ، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِنَا، عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى - مَوْلَى آلِ سَامٍ - عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَهُودِيٌّ يَقَالُ لَهُ: سَبَحْتَ^(٣) فَقَالَ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ رَبِّكَ فَإِنْ أَجَبْتَنِي عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ^(٤) وَإِلَّا رَجَعْتُ، فَقَالَ ﷺ لَهُ: سَلْ عَمَّا شِئْتَ. فَقَالَ: أَيْنَ رَبُّكَ؟ فَقَالَ: هُوَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَلَيْسَ هُوَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَكَانِ بِمَحْدُودٍ. قَالَ: فَكَيْفَ هُوَ؟ فَقَالَ ﷺ: وَكَيْفَ أَصِفُ رَبِّي بِالْكَيْفِ وَالْكَيْفُ مَخْلُوقٌ؟ وَاللَّهُ لَا يُوصَفُ بِخَلْقِهِ. قَالَ: فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّكَ نَبِيٌّ؟ قَالَ: فَمَا بَقِيَ حَوْلَهُ حَجَرٌ وَلَا مَدَرٌ^{(٥)(٦)} وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ إِلَّا تَكَلَّمَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ: يَا شَيْخُ إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ^(٧) فَقَالَ سَبَحْتَ: بِاللَّهِ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ

١. معاناة الشيء: ملا بستته ومباشرته، راجع لسان العرب.

٢. التوحيد (للصدوق) ص ٣٠٩، ح ١؛ بصائر الدرجات، ص ٥٠١، ح ١؛ الكافي، ج ١، باب النهي عن الكلام في الكيفية، ص ٩٤، ح ٩.

٣. اختلفت النسخ في ضبطه ففي بعضها «سبحت» بالباء الموحدة ثم الحاء المهملة، وفي بعض آخر بالباء والحاء المعجمة، وفي البحار المطبوع شجعت «شبحت خ ل» وضبط بضم السين والباء وسكون الحاء المهملة، وبضم السين وسكون الباء وفتح الحاء، وبضم السين وسكون الباء وضم الحاء المعجمة، وعلى أي حال كان رجالاً من ملوك فارس، وكان ذرباً، كما يأتي في حديث آخر. (هامش المطبوع)، وفي المصدر والكافي: «سُبِّحْتَ».

٤. في المصدر مع زيادة: «اتَّبَعْتُكَ».

٥. المدر: قِطْع الطين اليابس، راجع لسان العرب.

٦. لم يرد في البصائر والكافي: «ولا مدر».

٧. وفي نسخة: يا سبحت إنه رسول الله. (هامش المطبوع)

أَبِين، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ.

١٣٦٧. التوحيد^(١): مَا جِئْتُ بِهِ، عَنْ عَمِّهِ، عَنْ الْبَرْقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ، عَنْ الْمُفَضَّلِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ شَيْءٍ أَوْ فِي شَيْءٍ^(٢) فَقَدْ أَشْرَكَ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ مِنْ شَيْءٍ فَقَدْ جَعَلَهُ مُحَدَّثًا، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ فِي شَيْءٍ فَقَدْ زَعَمَ أَنَّهُ مَحْصُورٌ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ عَلَى شَيْءٍ فَقَدْ جَعَلَهُ مَحْمُولًا.

١٣٦٨. التوحيد^(٣): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنْ ابْنِ أَبِيَانَ، عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ سَعِيدٍ^(٤)، عَنْ النَّضْرِ، عَنْ ابْنِ حُمَيْدٍ، عَنْ أَبِي بصيرٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ شَيْءٍ، أَوْ فِي شَيْءٍ، أَوْ عَلَى شَيْءٍ فَقَدْ كَفَرَ. قُلْتُ: فَسِّرْ لِي، قَالَ: أَغْنِي بِالْحَوَايَةِ^(٥) مِنَ الشَّيْءِ لَهُ، أَوْ بِإِمْسَاكِ لَهُ، أَوْ مِنْ شَيْءٍ سَبَقَهُ.

بيان:

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بالحواية من الشيء له» تفسير لقوله: «في شيء». وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أو بإمساك له» تفسير لقوله: «على شيء». وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أو من شيء سبقه» تفسير لقوله: «من شيء».

١٣٦٩. التوحيد^(٦): الطَّلَقَانِيُّ، عَنْ أَحْمَدَ الْهَمْدَانِيِّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الصُّغْدِيِّ^(٧)، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَعْقُوبَ الْعَسْكَرِيِّ وَأَخِيهِ مُعَاذٍ مَعًا، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ الْحَنْطَلِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَاصِمٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ قَيْسٍ، عَنْ أَبِي هَاشِمٍ الرُّمَّانِيِّ، عَنْ زَادَانَ، عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ فِي حَدِيثٍ طَوِيلٍ يَذْكُرُ فِيهِ قُدُومَ الْجَائِلِقِ الْمَدِينَةَ مَعَ مِائَةِ مِنَ النَّصَارَى بَعْدَ قَبْضِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسُؤَالِهِ أَبَا بَكْرٍ عَنْ مَسَائِلَ لَمْ يُجِبْهُ عَنْهَا، ثُمَّ أُرْسِدَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَأَلَهُ فَأَجَابَهُ، فَكَانَ فِيمَا سَأَلَهُ أَنْ قَالَ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنِ الرَّبِّ أَيْنَ هُوَ؟ وَأَيْنَ كَانَ؟ قَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا يُوصَفُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ بِمَكَانٍ، هُوَ كَمَا كَانَ، وَكَانَ كَمَا هُوَ، لَمْ يَكُنْ فِي مَكَانٍ، وَلَمْ يَزَلْ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وَلَا أَحَاطَ بِهِ مَكَانٌ، بَلْ كَانَ لَمْ يَزَلْ بِلَا حَدٍّ وَلَا كَيْفٍ. قَالَ: صَدَقْتَ، فَأَخْبِرْنِي عَنِ الرَّبِّ أَفِي الدُّنْيَا هُوَ أَوْ فِي الْآخِرَةِ؟ قَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَمْ يَزَلْ رَبُّنَا قَبْلَ الدُّنْيَا^(٨) هُوَ مُدَبِّرُ الدُّنْيَا، وَعَالِمُ بِالْآخِرَةِ، فَأَمَّا أَنْ يُحِيطَ بِهِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ فَلَا، وَلَكِنْ

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٣١٧، ح ٩؛ روضة الواعظين، ج ١، ص ٣٧؛ وقد ورد في متشابه القرآن (لابن شهر آشوب)، ج ١، ص ٦٩، مع زيادة.

٢. في المصدر والروضة: «من شيء، أو في شيء، أو على شيء»، وفي متشابه القرآن: «من شيء، أو على شيء».

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ٣١٧، ح ٥؛ الكافي، ج ١، باب الحركة والانتقال، ص ١٢٨، ح ٩.

٤. في الكافي: «محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسين بن سعيد،...».

٥. حوى الشيء حواية: جمعه وأحرزه، راجع لسان العرب.

٦. التوحيد (للصدوق)، ص ٣١٦، ح ٣.

٧. في المصدر: «أبو الحسين محمد بن إبراهيم بن إسحاق الفارسي، عن أحمد بن محمد أبو سعيد السوسي، عن الصُّغْدِيِّ...».

٨. في المصدر: «ولا يزال أبدا».

يَعْلَمُ مَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، قَالَ: صَدَقْتَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ.

ثُمَّ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ رَبِّكَ أَيْ يَحْمِلُ أَوْ يُحْمَلُ؟ فَقَالَ عَلِيُّ عليه السلام: إِنَّ رَبَّنَا جَلَّ جَلَالُهُ يَحْمِلُ وَلَا يُحْمَلُ. قَالَ النَّصْرَانِيُّ: وَكَيْفَ ذَلِكَ وَنَحْنُ نَجِدُ فِي الْإِنْجِيلِ: وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ؟ فَقَالَ عَلِيُّ عليه السلام: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَحْمِلُ الْعَرْشَ، وَلَيْسَ الْعَرْشُ كَمَا تَظُنُّ كَهَيْئَةِ السَّرِيرِ، وَلَكِنَّهُ شَيْءٌ مَحْدُودٌ مَخْلُوقٌ مُدَبَّرٌ، وَرَبُّكَ عَزَّ وَجَلَّ مَالِكُهُ، لَا أَنَّهُ عَلَيْهِ كَكَوْنِ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ بِحَمْلِهِ فَهُمْ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ بِمَا أَقْدَرَهُمْ عَلَيْهِ. قَالَ النَّصْرَانِيُّ: صَدَقْتَ رَحِمَكَ اللَّهُ. والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

١٣٧٠. التوحيد^(١): الدَّقَائِقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ الْبُزْمَكِيِّ، عَنِ جُذْعَانَ بْنِ نَصْرِ، عَنِ سَهْلِ^(٢)، عَنِ ابْنِ مَحْبُوبٍ، عَنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ كَثِيرٍ، عَنِ دَاوُدَ الرَّقِّيِّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾^(٣) فَقَالَ لِي: مَا يَقُولُونَ؟ قُلْتُ: يَقُولُونَ: إِنَّ الْعَرْشَ كَانَ عَلَى الْمَاءِ، وَالرَّبُّ فَوْقَهُ، فَقَالَ: فَقَدْ كَذَّبُوا، مَنْ زَعَمَ هَذَا فَقَدْ صَيَّرَ اللَّهَ مَحْمُولًا، وَوَصَفَهُ بِصِفَةِ الْمَخْلُوقِينَ، وَالْزَمَهُ^(٤) أَنَّ الشَّيْءَ الَّذِي يَحْمِلُهُ أَقْوَى مِنْهُ. قُلْتُ: بَيَّنْ لِي جُعِلْتُ فِدَاكَ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَمَلَ دِينَهُ وَعِلْمَهُ الْمَاءَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ أَرْضٌ أَوْ سَمَاءٌ، أَوْ جِنٌّ أَوْ إِنْسٌ، أَوْ شَمْسٌ أَوْ قَمَرٌ، فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ نَثَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُمْ: مَنْ رَبُّكُمْ؟ فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ نَطَقَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْإِمَامَ عليه السلام فَقَالُوا: أَنْتَ رَبُّنَا فَحَمَلَهُمُ الْعِلْمُ وَالدِّينَ، ثُمَّ قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: هَؤُلَاءِ حَمَلَةُ عِلْمِي وَدِينِي وَأَمَنَائِي فِي خَلْقِي، وَهُمْ الْمَسْئُولُونَ. ثُمَّ قِيلَ لِبَنِي آدَمَ: أَقْرِؤْوا لِلَّهِ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَلِهَؤُلَاءِ النَّفَرِ بِالطَّاعَةِ^(٥)، فَقَالُوا: رَبَّنَا أَقْرُؤْنَا. فَقَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: اشْهَدُوا، فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: شَهِدْنَا عَلَى أَنْ لَا يَقُولُوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^(٦) أَوْ يَقُولُوا: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾^(٧) يَا دَاوُدُ وَلَا يَتَّبِعُنَا مُوَكَّدَةٌ عَلَيْهِمْ فِي الْمِيثَاقِ.

قال الصدوق «رحمه الله» في التوحيد: إِنَّ الْمَشَبَّهَةَ تَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾^(٨) وَلَا حُجَّةَ لَهَا فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ قَوْلِهِ: ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ أَيِ ثُمَّ نَقَلَ الْعَرْشَ إِلَى فَوْقِ السَّمَاوَاتِ وَهُوَ مُسْتَوِلٌ عَلَيْهِ

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٣١٩، ح ١؛ الكافي، ج ١، باب العرش والكرسي، ص ١٣٢، ح ٧؛ مختصر البصائر، ص ٣٩٧، ح ٤٥٣.

٢. في الكافي: «محمد بن الحسن، عن سهل بن زياد، ...».

٣. هود/٧.

٤. في المصدر والكافي والمختصر: «لزمه».

٥. في الكافي: «بالولاية والطاعة».

٦. الأعراف/١٧٢.

٧. الأعراف/١٧٣.

٨. الأعراف/٥٤.

ومالك له، فقله عز وجل: ﴿ثُمَّ﴾ إنّما هو لدفع العرش إلى مكانه الذي هو فيه، ونقله للاستواء، ولا يجوز أن يكون معنى قوله: ﴿أَسْتَوَى﴾ استولى، لأن الاستيلاء لله تعالى^(١) على الملك وعلى الأشياء ليس هو بأمر حادث، بل كان لم يزل مالكا لكل شيء ومستوليا على كل شيء، وإنما ذكر عز وجل الاستواء بعد قوله: ﴿ثُمَّ﴾ وهو يعني الرفع مجازاً، وهو كقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾^(٢) فذكر ﴿نَعْلَمَ﴾ مع قوله: ﴿حَتَّى﴾ وهو عز وجل يعني: حتى يجاهد المجاهدون ونحن نعلم ذلك، لأن «حتى» لا يقع إلا على فعل حادث، وعلم الله عز وجل بالأشياء لا يكون حادثاً؛ وكذلك ذكر قوله عز وجل: ﴿أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ بعد قوله: ﴿ثُمَّ﴾ وهو يعني بذلك: ثم رفع العرش لاستيلائه عليه؛ ولم يعن بذلك الجلوس واعتدال البدن، لأن الله لا يجوز أن يكون جسماً ولا ذا بدن، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً^(٣).

١٣٧١. المحاسن^(٤): أَبِي، عَمَّنْ ذَكَرَهُ قَالَ: اجْتَمَعَتِ الْيَهُودُ إِلَى رَأْسِ الْجَالُوتِ، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ عَالِمٌ - يَعْنُونَ بِهِ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَانْطَلِقُوا بِنَا إِلَيْهِ لِنَسْأَلَهُ، فَأَتَوْهُ فَقِيلَ لَهُ: هُوَ فِي الْقَصْرِ. فَانْتَظَرُوهُ حَتَّى خَرَجَ، فَقَالَ لَهُ رَأْسُ الْجَالُوتِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ جِئْنَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: سَلْ يَا يَهُودِيَّ عَمَّا بَدَا لَكَ. قَالَ: أَسْأَلُكَ عَنْ رَبَّنَا مَتَى كَانَ؟ فَقَالَ: كَانَ بِلَا كَيْفُونَةٍ، كَانَ بِلَا كَيْفٍ^(٥)، كَانَ لَمْ يَزَلْ بِلَا كَيْفٍ وَلَا كَيْفٍ، كَانَ لَيْسَ لَهُ قَبْلٌ، هُوَ قَبْلَ الْقَبْلِ بِلَا قَبْلٍ^(٦)، وَلَا غَايَةٍ وَلَا مُنْتَهَى غَايَةٍ، وَلَا غَايَةَ إِلَيْهَا، انْقَطَعَتْ عَنْهُ الْغَايَاتُ، فَهُوَ غَايَةٌ كُلُّ غَايَةٍ. قَالَ: فَقَالَ رَأْسُ الْجَالُوتِ لِلْيَهُودِ: امْضُوا بِنَا^(٧) فَهَذَا أَعْلَمُ مِمَّا يُقَالُ فِيهِ^(٨).

١. في نسخة: لأن استيلاء الله تعالى. (هامش المطبوع)

٢. محمد/٣١.

٣. قال السيّد الرضي «قدس الله روحه» بعد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾: وهذه استعارة، لأن حقيقة الاستواء إنّما توصف بها الأجسام التي تعلو البساط وتهبط وتميل وتعتدل، والمراد بالاستواء هاهنا الاستيلاء بالقدرة والسلطان، لا بحلول القرار والمكان، كما يقال: استوى فلان الملك على سرير ملكه بمعنى استولى على تدبير الملك، وملك معقد الأمر والنهي، وحسن صفته بذلك وإن لم يكن له في الحقيقة سرير يقعد عليه، ولا مكان عال يشار إليه، وإنّما المراد نفاذ أمره في مملكته، واستيلاء سلطانه على رعيته. فإن قيل: فالله سبحانه مستول على كل شيء بقهره وغلبته ونفاذ أمره وقدرته، فما معنى اختصاص العرش بالذكر هاهنا؟ قيل: كما ثبت أنه تعالى رب لكل شيء، وقد قال في صفة نفسه: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ فإن قيل: فما معنى قولنا: عرش الله إن لم يرد بذلك كونه عليه؟ قيل: كما يقال: بيت الله وإن لم يرد كونه فيه، والعرش تطوف به الملائكة تعبداً، كما أنّ البيت في الأرض تطوف به الخلائق تعبداً. (تلخيص البيان، ص ١٥٣)

٤. المحاسن، ج ١، ص ٢٤٠، ح ٢١٨؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب الكون والمكان، ص ٨٩، ح ٤ مع اختلاف يسير.

٥. لم يرد في المصدر: «كان بلا كيف».

٦. في المصدر: «هو القبل هو بلا قبل».

٧. وفي نسخة: مرّوا بنا. (هامش المطبوع)، وكذا في المصدر.

٨. وفي الرواية دلالة على كونه تعالى هو المطلوب المطلق لكل شيء. (هامش المطبوع)

بيان:

«ولا غاية إليها» أي ينتهي إليها.

١٣٧٢. المحاسن^(١): الْقَاسِمُ بْنُ يَحْيَى، عَنْ جَدِّهِ الْحَسَنِ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ مُوسَى عليه السلام وَسُئِلَ عَنْ مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ: ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٢) فَقَالَ: اسْتَوَى عَلَى مَا دَقَّ وَجَلَّ^(٣).

١٣٧٣. التوحيد^(٤): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ^(٥)، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَحْيَى، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَجَّاجِ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٦) فَقَالَ: اسْتَوَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَلَيْسَ شَيْءٌ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ، لَمْ يَبْعُدْ مِنْهُ بَعِيدٌ، وَلَمْ يَقْرُبْ مِنْهُ قَرِيبٌ، اسْتَوَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

بيان:

اعلم أن الاستواء يطلق على معان: الأول: الاستقرار والتمكّن على الشيء، الثاني: قصد الشيء والإقبال إليه، الثالث: الاستيلاء على الشيء، قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق
من غير سيف ودم مهوراق^(٧)

الرابع: الاعتدال، يقال: سوّيت الشيء فاستوى، الخامس: المساواة في النسبة.

فأما المعنى الأول فيستحيل على الله تعالى لما ثبت بالبراهين العقلية والنقلية من استحالة كونه تعالى مكانياً، فمن المفسرين من حمل الاستواء في هذه الآية على الثاني أي أقبل على خلقه وقصد إلى ذلك؛ وقد روي أنه سئل أبو العباس أحمد بن يحيى عن هذه الآية فقال: الاستواء: الإقبال على الشيء، ونحو هذا قال الفراء والزجاج في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾^(٨) والأكثر من حملوها على الثالث أي استولى عليه وملكه ودبره، قال الزمخشري: لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك لا يحصل إلا مع الملك، جعلوه كناية عن الملك، فقالوا استوى فلان على السرير، يريدون ملكه، وإن لم يقعد على السرير البتة. وإنما عبروا عن حصول الملك بذلك، لأنه أصرح وأقوى في الدلالة من أن يقال: فلان ملك، ونحوه

١. المحاسن، ج ١، ص ٢٣٨، ح ٢١٢؛ الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٨٦.

٢. طه/٥.

٣. ما دقّ وجلّ: حقر وعظم، راجع مجمع البحرين.

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ٣١٥، ح ٢؛ الكافي، ج ١، باب الحركة والانتقال، ص ١٢٨، ح ٨.

٥. في الكافي: «محمد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن...».

٦. طه/٥.

٧. هراق الماء: صبّه، راجع لسان العرب.

٨. البقرة/٢٩.

قولك: يد فلان مبسوطة، ويد فلان مغلوطة بمعنى أنه جواد أو بخيل، لا فرق بين العبارتين إلا فيما قلت، حتى أن من لم يبسط يده قطّ بالنوال^(١) أو لم يكن له يد رأساً وهو جواد، قيل فيه: يده مبسوطة، لأنه لا فرق عندهم بينه وبين قولهم: جواد^(٢). انتهى. ويحتمل أن يكون المراد المعنى الرابع بأن يكون كناية عن نفي النقص عنه تعالى من جميع الوجوه، فيكون قوله تعالى: ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ حاليّة، وسيأتي توجيهه ولكنه بعيد. وأمّا المعنى الخامس فهو الظاهر ممّا مرّ من الأخبار.

فاعلم أن العرش قد يطلق على الجسم العظيم الذي أحاط بسائر الجسمانيات، وقد يطلق على جميع المخلوقات، وقد يطلق على العلم أيضاً كما وردت به الأخبار الكثيرة^(٣)، وسيأتي تحقيقه في كتاب السماء والعالم^(٤).

فإذا عرفت هذا فإمّا أن يكون عَلَيْهِ السَّلَام فسرّ العرش بمجموع الأشياء، وضمن الاستواء ما يتعدّى بعلى، كالاستيلاء والاستعلاء والإشراف، فالمعنى: استوت نسبته إلى كلّ شيء حال كونه مستولياً عليها، أو فسّره بالعلم ويكون متعلّق الاستواء مقدّراً أي تساوت نسبته من كلّ شيء حال كونه متمكناً على عرش العلم، فيكون إشارة إلى بيان نسبته تعالى وأنها بالعلم والإحاطة، أو المراد بالعرش عرش العظمة والجلال والقدرة كما فسّر بها أيضاً في بعض الأخبار أي استوى من كلّ شيء مع كونه في غاية العظمة ومتمكناً على عرش التقدّس والجلالة؛ والحاصل أن علوّ قدره ليس مانعاً من دنوّه بالحفظ والتربية والإحاطة وكذا العكس، وعلى التقادير فقوله: ﴿اَسْتَوَى﴾ خبر، وقوله: ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ حال، ويحتمل أن يكونا خبرين على بعض التقادير، ولا يبعد على الاحتمال الأوّل جعل قوله: ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ متعلّقاً بالاستواء بأن تكون كلمة ﴿عَلَى﴾ بمعنى «إلى»، ويحتمل على تقدير حمل العرش على العلم أن يكون قوله: ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ خبراً، وقوله: ﴿اَسْتَوَى﴾ حالاً عن العرش، لكنه بعيد. وعلى التقادير يمكن أن يقال: إنّ النكتة في إيراد الرحمن بيان أن رحمانيته توجب استواء نسبته إيجاباً وحفظاً وتربية وعلماً إلى الجميع، بخلاف الرحيمية، فإنّها تقتضي إفاضة الهدايا الخاصة على المؤمنين فقط، وكذا كثير من أسمائه الحسنى تخصّ جماعة، كما سيأتي تحقيقها. ويؤيد بعض الوجوه التي ذكرنا ما ذكره الصدوق «رحمه الله» في كتاب العقائد حيث قال:

١. النوال: العطاء، راجع لسان العرب.

٢. الكشف، ج ٣، ص ٥٢.

٣. قال الشيخ الطوسي «قدّس سرّه» في ذيل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (يونس/٣) قيل: إنّ العرش المذكور هاهنا هو السماوات والأرض، لأنهن من بنائه، والعرش: البناء، ومنه قوله: ﴿يَغْرُسُونَ﴾ (الأعراف/١٣٧) أي يبنون، وأمّا العرش المعظم الذي تعبد الله الملائكة بالحفوف به والإعظام له وعنايه بقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ (غافر/٧) فهو غير هذا. (التبيان، ج ٥، ص ٣٣٥)

٤. تتمّة كتاب السماء والعالم، باب ٤، العرش والكرسي.

اعتقادنا في العرش أنه جملة جميع الخلق، والعرش في وجه آخر هو العلم، وسُئِلَ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ فَقَالَ: اسْتَوَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ^(١). انتهى.

وإنما بسطنا الكلام في هذا المقام لصعوبة فهم تلك الأخبار على أكثر الأفهام.

أقول:

قد مرّت الأخبار المناسبة لهذا الباب في باب إثبات الصانع، وباب نفي الجسم والصورة، وسيأتي في باب احتجاج أمير المؤمنين «صلوات الله عليه» على النصارى، وباب العرش والكرسي، وباب جوامع التوحيد.

١. اعتقادات الإمامية (للصدوق)، ص ٥٤.

* أبواب تأويل الآيات والأخبار الموهمة لخلاف ما سبق *

﴿باب ١﴾

« تأويل قوله تعالى: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾^{(١)(٢)} و﴿جَنَّبَ اللَّهُ﴾^{(٣)(٤)} و﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾^{(٥)(٦)} و﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾^{(٧)(٨)} وأمثالها »

١٣٧٤. تفسير القمّي^(٩): مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ ثَابِتٍ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْهَاشِمِيِّ^(١٠)، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَيَّارٍ، عَنْ

١. ص ٧٥/.

٢. **نقول:** من البديهي أن عبارة «يدي» لا تعني الأيدي الحقيقية المحسوسة، لأنّ الباري عزّ وجلّ منزّه عن كافّة أشكال الجسم والتجسيم، وإنّما «اليد» هنا كناية عن القدرة. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٤، ص ٥٥٥)

٣. الزمر/ ٥٦.

٤. **نقول:** إنّ المفسّرين ذكروا تفاسير ومعاني كثيرة لها. وكلمة «جنب» تعني في اللغة «الخاصرة»، كما تطلق على كلّ شيء يستقر إلى جانب شيء آخر، وهنا «جَنَّبَ اللَّهُ» تعني أن الأمور ترجع إلى جانب الله، فأوامره وإطاعته والتقرب إليه، والكتب السماوية كلها نزلت من جانبه، وكلها مجموعة في هذا المعنى. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٥، ص ١٢٨)

٥. البقرة/ ١١٥.

٦. **نقول:** «وجه» بالإضافة إلى معناها المعروف قد تستعمل بمعنى ذات، وعندئذ «وَجْهَ اللَّهِ» تعني ذات الله التي يجب أن يتوجّه إليها. ثم إنّ الوجه أشرف جزء من أجزاء الجسم الظاهرة، ففيه أهمّ أعضاء الإنسان كالبصر والسمع والنطق. ولهذا حيثما استعملت كلمة «الوجه» كان القصد إيصال معاني الشرف والأهميّة، واستعمالها هنا استعمال كناية يفهم منه الاحترام والأهميّة، وإلا فإنّ الله منزّه عن الصورة الجسدية. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢، ص ٣٢٧)

٧. القلم/ ٤٢.

٨. **نقول:** جملة «يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ» كما قال جمع من المفسّرين، كناية عن شدّة الهول والخوف والرعب وسوء الحال، إذ أنّ المتعارف بين العرب عند مواجهتهم أمرا صعبا أنّهم يشدّون ثيابهم على بطونهم ممّا يؤدّي إلى كشف سيقانهم. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٨، ص ٥٥١)

٩. تفسير القمّي، ج ٢، ص ٢٤٤؛ تفسير البرهان، ج ٤، ص ٦٨٢، ح ٩١٣٦.

١٠. في المصدر: «... القاسم بن محمد، عن إسماعيل الهاشمي...».

الْحُسَيْنِ بْنِ الْمُخْتَارِ، عَنْ أَبِي بصيرٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ بِيَدِهِ لَمْ يَحْتَجْ فِي آدَمَ أَنَّهُ خَلَقَهُ بِيَدِهِ، فَيَقُولُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾^(١) أَفَتَرَى اللَّهَ يَبْعَثُ الْأَشْيَاءَ بِيَدِهِ؟

بيان:

لعل المراد أنه لو كان الله تعالى جسماً يزاول الأشياء ويعالجها بيده لم يكن ذلك مختصاً بآدم عليه السلام، بل هو تعالى منزّه عن ذلك، وهو كناية عن كمال العناية بشأنه كما سيأتي.

١٣٧٥. التوحيد، معاني الأخبار^(٢): ابن عَصَامٍ، عَنِ الْكَلْبِيِّ، عَنِ الْأَعْلَانِ، عَنِ الْيَقْطِينِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ الْعَسْكَرِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾^(٣) فَقَالَ: ذَلِكَ تَغْيِيرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِمَنْ شَبَّهَهُ بِخَلْقِهِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَالَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(٤)؟ وَمَعْنَاهُ: إِذْ قَالُوا: إِنَّ الْأَرْضَ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٥)، ثُمَّ نَزَّ عَزَّ وَجَلَّ نَفْسَهُ عَنِ الْقَبْضَةِ وَالْيَمِينِ فَقَالَ: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٦).

بيان:

هذا وجه حسن لم يتعرّض له المفسّرون، وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ متّصل بقوله: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً﴾ فيكون على تأويله عليه السلام القول مقدراً أي ما عظموا الله حقّ تعظيمه، وقد قالوا: إنّ الأرض جميعاً؛ ويؤيده أنّ العامة^(٧) رَوَوْا أَنَّ يَهُودِيّاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ وَذَكَرَ نَحْواً مِنْ ذَلِكَ فَضَحِكَ ﷺ.

١٣٧٦. التوحيد^(٨): أَحْمَدُ بْنُ الْهَيْثَمِ الْعَجَلِيُّ، عَنِ ابْنِ زَكَرِيَّا الْقَطَّانِ، عَنِ ابْنِ حَبِيبٍ، عَنِ ابْنِ بُهْلُولٍ، عَنِ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْعَبْدِيِّ، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فَقَالَ: يَغْنِي مَلَكُهُ لَا يَمْلِكُهَا مَعَهُ أَحَدٌ، وَالْقَبْضُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: الْمَنْعُ، وَالْبَسْطُ مِنْهُ: الْإِعْطَاءُ وَالتَّوَسُّيعُ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٩) يَغْنِي يُعْطِي وَيُوسِّعُ وَيَمْنَعُ

١. ص/٧٥.

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ١٦٠، ح ١؛ معاني الأخبار، ص ١٤، ح ٤؛ تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٥٠، ح ٣٥٦٢.

٣. الزمر/٦٧.

٤. الزمر/٦٧.

٥. الأنعام/٩١.

٦. الزمر/٦٧.

٧. مسند أحمد، ج ١، ص ٣٧٨؛ صحيح البخاري، ج ٨، ص ١٧٤؛ صحيح مسلم، ج ٨، ص ١٢٥.

٨. التوحيد (للصدوق)، ص ١٦١، ح ٢؛ نوادر الأخبار (للفيض)، ص ٨٦، ح ٣؛ تفسير البرهان، ج ٤، ص ٧٢٧، ح ٩٢٨٥.

٩. البقرة/٢٤٥.

وَيُضَيِّقُ. وَالْقَبْضُ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي وَجْهِ آخَرَ: الْأَخْذُ فِي وَجْهِ الْقَبُولِ مِنْهُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾^(١) أَي يَقْبِضُهَا مِنْ أَهْلِهَا وَيُثَبِّتُ عَلَيْهَا. قُلْتُ: فَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾^(٢) قَالَ: الْيَمِينُ: الْيَدُ، وَالْيَدُ: الْقُدْرَةُ وَالْقُوَّةُ، يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِقُدْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ، ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

بيان:

قال الشيخ الطبرسي «رحمه الله»: القبض في اللغة: ما قبضت عليه بجميع كفك، أخبر الله سبحانه عن كمال قدرته فذكر أن الأرض كلها مع عظمها في مقدوره، كالشيء الذي يقبض عليه القابض بكفه فيكون في قبضته، وهذا تفهيم لنا على عادة التخاطب فيما بيننا، لأننا نقول: هذا في قبضة فلان وفي يد فلان إذا هان عليه التصرف فيه وإن لم يقبض عليه، وكذا قوله: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أي يطويها بقدرته كما يطوي أحد منا الشيء المقدور له طيه بيمينه، وذكر اليمين للمبالغة في الاقتدار والتحقيق للملك، كما قال: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾^(٣) أي ما كانت تحت قدرتك إذ ليس الملك يختص باليمين دون الشمال وسائر الجسد؛ وقيل: معناه أنها محفوظات مصونات بقوته، و«اليمين»: القوة^(٤) (٥).

١٣٧٧. التوحيد، عيون أخبار الرضا عليه السلام^(٦): الهمداني، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الْهَرَوِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِعَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرُّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ مَا تَقُولُ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يَرَوِيهِ أَهْلُ الْحَدِيثِ: أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَزُورُونَ رَبَّهُمْ مِنْ

١. التوبة / ١٠٤.

٢. الزمر / ٦٧.

٣. النساء / ٣.

٤. قال الرضي «رضوان الله عليه» في تلخيص البيان: وهاتان استعارتان، ومعنى «قبضته» هاهنا أي ملك له خالص قد ارتفعت عنه أيدي المالكين من برئته والمتصرفين فيه من خليفته، وقد ورث تعالى عباده ما كان ملكهم في دار الدنيا من ذلك، فلم يبق ملك إلا انتقل، ولا مالك إلا بطل؛ وقيل أيضا: معنى ذلك أن الأرض في مقدوره كالذي يقبض عليه القابض ويستولى عليه كفه، ويحوزه ملكه، ولا يشاركه فيه غيره. ومعنى قوله: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أي مجموعات في ملكه ومضمونات بقدرته، واليمين هاهنا بمعنى الملك، يقول القائل: هذا ملك يميني، وليس يريد اليمين التي هي الجارحة، وقد يعبرون عن القوة أيضا باليمين، فيجوز على هذا التأويل أن يكون معنى قوله: ﴿مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أي يجمع أقطارها ويطوي انتشارها بقوته، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾ (الأنبياء / ١٠٤) وقيل: لليمين هاهنا وجه آخر، وهو أن يكون بمعنى القسم، لأنه تعالى لما قال في سورة الأنبياء: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ كان التزامه تعالى فعل ما أوجبه على نفسه بهذا الوعد، كأنه قسم أقسم به ليفعلن ذلك، فأخبر سبحانه في هذا الموضع من السورة الأخرى: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أي بذلك الوعد الذي ألزمه نفسه تعالى وجرى مجرى القسم الذي لا بد أن يقع الوفاء به، والخروج منه. والاعتماد على القولين المتقدمين أولى. (هامش المطبوع)

٥. مجمع البيان، ج ٨، ص ٧٩٢.

٦. التوحيد (للصدوق)، ص ١١٧، ح ٢١؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١١٥، ح ٣؛ الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٤٠٨.

مَنَازِلِهِمْ فِي الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا الصَّلْتِ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَضَّلَ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ مِنَ النَّسَبِ وَالْمَلَائِكَةِ، وَجَعَلَ طَاعَتَهُ طَاعَتَهُ، وَمُبَايَعَتَهُ مُبَايَعَتَهُ^(١)، وَزِيَارَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ زِيَارَتَهُ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٢) وَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^(٣)، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ زَارَنِي فِي حَيَاتِي أَوْ بَعْدَ مَوْتِي فَقَدْ زَارَ اللَّهَ. وَدَرَجَةُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْجَنَّةِ أَرْفَعُ الدَّرَجَاتِ، فَمَنْ رَأَاهُ إِلَى دَرَجَتِهِ^(٤) فِي الْجَنَّةِ مِنْ مَنْزِلِهِ فَقَدْ زَارَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ فَمَا مَعْنَى الْخَبَرِ الَّذِي رَوَاهُ أَنَّ ثَوَابَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ؟ فَقَالَ ﷺ: يَا أَبَا الصَّلْتِ مَنْ وَصَفَ اللَّهَ بِوَجْهِه كَالْوُجُوهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَكِنَّ وَجْهَ اللَّهِ أَنْبِيَاؤُهُ وَرُسُلُهُ وَحُجَجُهُ «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ» هُمُ الَّذِينَ بِهِمْ يُتَوَجَّهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى دِينِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾^(٥) وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٦) فَالنَّظَرُ إِلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَحُجَجِهِ ﷺ فِي دَرَجَاتِهِمْ ثَوَابٌ عَظِيمٌ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ أَبْغَضَ أَهْلَ بَيْتِي وَعِشْرَتِي لَمْ يَزِنِي وَلَمْ أَرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ ﷺ: إِنَّ فِيكُمْ مَنْ لَا يَزَانِي بَعْدَ أَنْ يُفَارِقَنِي. يَا أَبَا الصَّلْتِ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُوصَفُ بِمَكَانٍ، وَلَا يُدْرَكُ بِالْأَبْصَارِ وَالْأَوْهَامِ.

قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ أَهْمَا الْيَوْمَ مَخْلُوقَتَانِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَرَأَى النَّارَ لَمَّا عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ قَوْمًا يَقُولُونَ إِنَّهُمَا الْيَوْمَ مُقَدَّرَتَانِ غَيْرُ مَخْلُوقَتَيْنِ. فَقَالَ ﷺ: مَا أَوْلَيْكَ مَنَّا وَلَا نَحْنُ مِنْهُمْ، مَنْ أَنْكَرَ خَلْقَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَقَدْ كَذَّبَ النَّبِيَّ ﷺ وَكَذَّبَنَا، وَلَيْسَ مِنْ وَلَا يَتَنَا عَلَى شَيْءٍ، وَيُخَلَّدُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾^(٧). وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَمَّا عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ أَخَذَ بِيَدِي جَبْرِئِيلُ فَأَدْخَلَنِي الْجَنَّةَ فَنَاولَنِي مِنْ رُطْبِهَا فَأَكَلْتُهُ فَتَحَوَّلَ ذَلِكَ نُطْفَةً فِي صُلْبِي، فَلَمَّا هَبَطْتُ إِلَى الْأَرْضِ وَاقَعْتُ خَدِيجَةً فَحَمَلْتُ بِفَاطِمَةَ، فَفَاطِمَةُ حَوْرَاءُ إِنْسِيَّةٌ فَكَلَّمَا اشْتَقْتُ إِلَى رَائِحَةِ الْجَنَّةِ شَمِمْتُ رَائِحَةَ ابْنَتِي فَاطِمَةَ.

١. في التوحيد والعبود: «متابعته متابعته».

٢. النساء / ٨٠.

٣. الفتح / ١٠.

٤. في العيون: «في دَرَجَتِهِ».

٥. الرحمن / ٢٦ و ٢٧.

٦. القصص / ٨٨.

٧. الرحمن / ٤٣ و ٤٤.

١٣٧٨. التوحيد، معاني الأخبار^(١): الدَّقَاقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ الْبَرْمَكِيِّ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحَسَنِ، عَنِ بَكْرِ، عَنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْبَرْقِيِّ، عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى، عَنِ أَبِي أَيُّوبَ الْخَزَّازِ، عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقُلْتُ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾^(٢) فَقَالَ: الْإِيدُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْقُوَّةُ وَالنَّعْمَةُ. قَالَ اللَّهُ: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾^(٣) وَقَالَ: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾^(٤) أَيُّ بِقُوَّةٍ، وَقَالَ: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾^(٥) أَيُّ قَوَاهِمُ، وَيُقَالُ: لِفُلَانٍ عِنْدِي أَيَادِي كَثِيرَةٌ أَيُّ فَوَاضِلٍ وَإِحْسَانٍ^(٦)، وَلَهُ عِنْدِي يَدٌ بَيَاضٌ أَيُّ نِعْمَةٍ.

بيان:

يظهر منه أنَّ التأييد مشتق من اليد بمعنى القوة، كما يظهر من كلام الجوهري أيضاً.
١٣٧٩. التوحيد، معاني الأخبار^(٧): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّقَّارِ، عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَيْسَى، عَنِ الْمَشْرِقِيِّ، عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ^(٨)، عَنِ أَبِي الْحَسَنِ الرُّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾^(٩) فَقُلْتُ لَهُ: يَدَانِ هَكَذَا؟ - وَأَشْرْتُ بِإِيدِي إِلَى يَدَيْهِ -، فَقَالَ: لَا، لَوْ كَانَ هَكَذَا لَكَانَ مَخْلُوقًا.

بيان:

غُلِّ اليد وبسطها كناية عن البخل والجود، وثني اليد مبالغة في الرد ونفي البخل عنه، وإثبات لغاية الجود، فإنَّ غاية ما يبذله السخي من ماله أن يعطيه بيديه، أو للإشارة إلى منح^(١٠) الدنيا والآخرة، أو ما يعطى للاستدراج وما يعطى للإكرام، أو للإشارة إلى لطفه وقهره.
١٣٨٠. تفسير القمِّي^(١١): ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾^(١٢) * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ﴿١٣﴾ قَالَ: دِينَ رَبِّكَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ

١. التوحيد (للمصدق)، ص ١٥٣، ح ١؛ معاني الأخبار، ص ١٥، ح ٨؛ نوادر الأخبار (للفيض)، ص ٨٦، ح ٤.

٢. ص ٧٥/.

٣. ص ١٧/.

٤. الذاريات/ ٤٧.

٥. المجادلة/ ٢٢.

٦. لم يرد في المعاني: «عندي أيادي كثيرة أي فواضل وإحسان وله».

٧. التوحيد (للمصدق)، ص ١٦٨، ح ٢؛ معاني الأخبار، ص ١٨، ح ١٦؛ تفسير العياشي، ج ١، ص ٣٣٠، ح ١٤٥.

٨. لم يرد في المعاني وتفسير العياشي: «عن عبد الله بن قيس».

٩. المائدة/ ٦٤.

١٠. مَنَحَ: جمع مَنَحَةٍ وهي العطاء، راجع الصحاح.

١١. تفسير القمِّي، ج ٢، ص ٣٤٥؛ تفسير الصافي، ج ٥، ص ١٠٩.

١٢. ورد في المصدر وتفسير الصافي مع زيادة: «قال: مَنْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ».

١٣. الرحمن/ ٢٦ و ٢٧.

الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: نَحْنُ الْوَجْهَ الَّذِي يُؤْتَى اللَّهُ مِنْهُ.

١٣٨١. التوحيد، معاني الأخبار^(١): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ عِيْسَى، عَنْ ابْنِ بَزِيعٍ، عَنْ مَنُصُورِ بْنِ يُونُسَ، عَنْ جَلِيسٍ لِأَبِي حَمْرَةَ، عَنْ أَبِي حَمْرَةَ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٢) قَالَ: فَيَهْلِكُ كُلُّ شَيْءٍ وَيَبْقَى الْوَجْهَ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ بِالْوَجْهِ، وَلَكِنَّ مَعْنَاهُ: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا دِينَهُ، وَالْوَجْهَ الَّذِي يُؤْتَى مِنْهُ.

بصائر الدرجات^(٣): ابن يزيد، عن ابن أبي عمير، عن منصور مثله.

١٣٨٢. بصائر الدرجات^(٤): أَحْمَدُ، عَنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِنَا، عَنْ ابْنِ عَمِيرَةَ، عَنْ ابْنِ الْمُغِيرَةِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٥) فَسَأَلَهُ رَجُلٌ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قَالَ: مَا يَقُولُونَ فِيهِ؟ قُلْتُ: يَقُولُونَ: يَهْلِكُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا وَجْهَهُ؛ فَقَالَ: يَهْلِكُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا وَجْهَهُ الَّذِي يُؤْتَى مِنْهُ، وَنَحْنُ وَجْهَ اللَّهِ الَّذِي يُؤْتَى مِنْهُ.

١٣٨٣. التوحيد^(٦): مَا جِيلَوْنِي، عَنْ مُحَمَّدٍ الْعَطَّارِ، عَنْ سَهْلٍ، عَنِ الْبَرْزَنْطِيِّ، عَنْ صَفْوَانَ الْجَمَّالِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قَالَ: مَنْ أَتَى اللَّهَ بِمَا أَمَرَ بِهِ مِنْ طَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالْأُتَمَّةِ مِنْ بَعْدِهِ^(٧) «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ» فَهُوَ الْوَجْهَ^(٨) الَّذِي لَا يَهْلِكُ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٩).

١٣٨٤. التوحيد^(١٠): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّفَّارِ، عَنْ ابْنِ يَزِيدَ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَحْيَى^(١١)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْمُكَارِيِّ، عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، عَنِ الْحَارِثِ بْنِ الْمُغِيرَةِ النَّصْرِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قَالَ: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا مَنْ أَخَذَ طَرِيقَ الْحَقِّ.

١. التوحيد (للسدوق)، ص ١٤٩، ح ١؛ معاني الأخبار، ص ١٢، ح ١؛ المحاسن، ج ١، ص ٢١٨، ح ١١٦.

٢. القصص/٨٨.

٣. بصائر الدرجات، ص ٦٥، ح ٣.

٤. بصائر الدرجات، ص ٦٦، ح ٦؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب النوادر، ص ١٤٣، ح ١، مع اختلاف يسير.

٥. ورد في الكافي بهذا الإسناد: «محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن علي بن نعمان، عن سيف بن عميرة، عن ذكره، عن الحارث بن المغيرة، قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام:».

٦. التوحيد (للسدوق)، ص ١٤٩، ح ٣؛ المحاسن، ج ١، ص ٢١٩، ح ١١٨؛ الكافي، ج ١، باب النوادر، ص ١٤٣، ح ٢.

٧. لم يرد في الكافي: «والأُتَمَّةُ من بعده».

٨. في المحاسن: «بما أمر به من طاعته وطاعة محمد ﷺ فهو الوجه...».

٩. النساء/٨٠.

١٠. التوحيد (للسدوق)، ص ١٤٩، ح ٢؛ المحاسن، ج ١، ص ٢١٩، ح ١١٧؛ تفسير البرهان، ج ٤، ص ٢٩٥، ح ٨٢١٤.

١١. في المحاسن: «أحمد بن محمد بن خالد، عن أبيه، عن صفوان...».

بيان:

ذكر المفسرون فيه وجهين: أحدهما: أن المراد به «إلا ذاته» كما يقال: وجه هذا الأمر أي حقيقته^(١).
وثانيهما: أن المعنى ما أريد به وجه الله من العمل. واختلف على الأول في الهلاك هل هو الانعدام حقيقة، أو أنه لإمكانه في معرض الفناء والعدم؟ وعلى ما ورد في تلك الأخبار يكون المراد بالوجه الجهة كما هو في أصل اللغة، فيمكن أن يراد به دين الله إذ به يتوسل إلى الله ويتوجه إلى رضوانه، أو أئمة الدين عليهم السلام فإنهم جهة الله، وبهم يتوجه إلى الله ورضوانه ومن أراد طاعة الله تعالى يتوجه إليهم^(٢).

١٣٨٥. التوحيد^(٣): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ عِيْسَى، عَنْ عَلِيِّ بْنِ سَيْفٍ، عَنْ أَخِيهِ الْحُسَيْنِ، عَنْ أَبِيهِ سَيْفِ بْنِ عَمِيرَةَ النَّخَعِيِّ، عَنْ خَشِيمَةَ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام ^(٤) عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قَالَ: دِينُهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام دِينَ اللَّهِ وَوَجْهَهُ وَعَيْنُهُ فِي عِبَادِهِ، وَلِسَانُهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ، وَيَدُهُ عَلَى خَلْقِهِ، وَنَحْنُ وَجْهُ اللَّهِ الَّذِي يُؤْتَى مِنْهُ، لَنْ نَزَالَ فِي عِبَادِهِ مَا دَامَتْ لِلَّهِ فِيهِمْ رُيَّةٌ. قُلْتُ: وَمَا الرُّيَّةُ؟ قَالَ: الْحَاجَةُ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ فِيهِمْ حَاجَةٌ رَفَعْنَا إِلَيْهِ فَصَنَعَ مَا أَحَبَّ.

بيان:

قال الجوهری: لنا قبلك رويّة أي حاجة. انتهى. وحاجة الله مجاز عن علم الخير والصلاح فيهم.

١. مفاتيح الغيب، ج ١، ص ١١٢.

٢. قال السيد الرضي ذيل قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وهذه استعارة والوجه هاهنا عبارة عن ذات الشيء ونفسه، وعلى هذا قوله تعالى في السورة التي فيها الرحمن سبحانه: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي ويبقى ذات ربك، ومن الدليل على ذلك الرفع في قوله: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ لأنه صفة للوجه الذي هو الذات، ولو كان الوجه هاهنا بمعنى العضو المخصوص على ما ظنه الجهال لكان: «ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام» فيكون «ذي» صفة للجملة لا صفة للوجه الذي هو التخاطيط المخصوص، كما يقول القائل: رأيت وجه الأمير ذي الطول والإنعام، ولا يقول: «ذا» لأن الطول والإنعام من صفات جملته، لا من صفات وجهه، ويوضح ذلك قوله في هذه السورة: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ لما كان الاسم غير المسمى وصف سبحانه المضاف إليه، ولما كان الوجه في الآية المتقدمة هو النفس والذات. قال تعالى: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ولم يقل: «ذي الجلال والإكرام» ويقولون: عين الشيء ونفس الشيء على هذا النحو. وقد قيل في ذلك وجه آخر وهو أن يراد بالوجه هاهنا ما قصد الله به من العمل الصالح والمنتجر الرابع على طريق القرينة وطلب الزلفة وعلى ذلك قول الشاعر:

«أستغفر الله ذنبا لست محصيه ربّ العباد إليه الوجه والعمل»

أي إليه تعالى قصد الفعل الذي يستنزل به فضله ودرجات عفوه، فأعلمنا سبحانه أن كل شيء هالك إلا وجه دينه الذي يوصل إليه منه، ويستزلف عنده به ويجعل وسيلة إلى رضوانه وسببا لغفرانه. (هامش المطبوع)

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ١٥١، ح ٧؛ وقد ورد في بصائر الدرجات، ص ٦٥، ح ٣، مع نقصان.

٤. في البصائر بهذا الإسناد: «يعقوب بن يزيد، عن ابن أبي عمير، عن منصور، عن جليس له، عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام».

١٣٨٦. التوحيد^(١): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ هَاشِمٍ، عَنْ ابْنِ فَضَّالٍ، عَنْ أَبِي جَمِيلَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْحَلَبِيِّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ قَالَ: تَبَارَكَ الْجَبَّارُ، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى سَاقِهِ فَكَشَفَ عَنْهَا الْإِزَارَ، قَالَ: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾^(٢) قَالَ: أَفْجَمَ الْقَوْمُ وَدَخَلَتْهُمْ الْهَيْبَةُ^(٣)، وَشَخَصَتْ الْأَبْصَارُ^{(٤)(٥)} وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ^(٦) تَرَهَّقَهُمُ الذَّلَّةُ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ. قَالَ الصَّدُوقُ «رَحِمَهُ اللَّهُ» قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «تَبَارَكَ الْجَبَّارُ، وَأَشَارَ إِلَى سَاقِهِ فَكَشَفَ عَنْهَا الْإِزَارَ» يَعْنِي بِهِ تَبَارَكَ الْجَبَّارُ أَنْ يُوَصَفَ بِالسَّاقِ الَّذِي هَذِهِ صِفَتُهُ.

بيان:

أفحمته: أسكته في خصومة أو غيرها.

١٣٨٧. التوحيد^(٧): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّفَّارِ، عَنِ ابْنِ عَيْسَى، عَنِ الْبَزْطِيِّ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُوسَى، عَنْ عُبيدِ بْنِ زُرَّارَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ قَالَ: كَشَفَ إِزَارَهُ عَنْ سَاقِهِ، وَيَدُهُ الْأُخْرَى عَلَى رَأْسِهِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى.

قال الصدوق: معنى قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «سبحان ربي الأعلى» تنزيه لله عزَّ وجلَّ عن أن يكون له ساق.

١٣٨٨. التوحيد، عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٨): الْمُكْتَبُ وَالدَّقَائِقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ الْبَزْطِيِّ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحَسَنِ، عَنْ بَكْرِ بْنِ صَالِحٍ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ سَعِيدٍ^(٩)، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ قَالَ: حِجَابٌ مِنْ نُورٍ يُكْشَفُ، فَيَقَعُ الْمُؤْمِنُونَ سُجَّدًا أَوْ تُدْمَجُ أَصْلَابُ الْمُتَافِقِينَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ السُّجُودَ.

بيان:

دمج دموجاً: دخل في الشيء واستحكم فيه، والدامج: المجتمع. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يكشف» أي عن شيء من أنوار عظمتها وآثار قدرته.

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٥٤، ح ٢؛ تفسير البرهان، ج ٥، ص ٤٦٢، ح ١٠٩٨٣.

٢. القلم/٤٢.

٣. الهيبة: المهابة، وهي الإجلال والمخافة، راجع لسان العرب.

٤. في البرهان: «خشعت الأبصار».

٥. شخص بصر فلان، فهو شاخص: إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف، راجع لسان العرب.

٦. في المصدر والبرهان: «خاشعة أبصارهم».

٧. التوحيد (للصدوق)، ص ١٥٥، ح ٣؛ تفسير البرهان، ج ٥، ص ٤٦٢، ح ١٠٩٨٤.

٨. التوحيد (للصدوق)، ص ١٥٤، ح ١؛ عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ، ج ١، ص ١٢٠، ح ١٤؛ الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٤١١.

٩. وفي نسخة: عن الحسين بن سعيد. (هامش المطبوع)، وكذا في التوحيد.

واعلم أنَّ المفسرين ذكروا في تأويل هذه الآية وجوهاً:

الأول: أنَّ المراد: يوم يشتد الأمر ويصعب الخطب، وكشف الساق مثل في ذلك، وأصله تشمير المخدرات^(١) عن سوقهنّ في الهرب؛ قال حاتم:

إن عَضَّتْ^(٢) به الحرب عضّها وإن شَمَّرت عن ساقها الحرب شَمَّراً

الثاني: أنَّ المعنى يوم يكشف عن أصل الأمر وحقيقته بحيث يصير عياناً؛ مستعار من ساق الشجر وساق الإنسان، وتنكيره للتهويل أو للتعظيم.

الثالث: أنَّ المعنى أنه يكشف عن ساق جهنم، أو ساق العرش، أو ساق ملك مهيب عظيم^(٣).

قال الطبرسي «رحمه الله»: ﴿وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ﴾ أي يقال لهم على وجه التوبيخ: اسجدوا ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾^(٤)؛ وقيل: معناه أنَّ شدة الأمر وصعوبة حال ذلك اليوم تدعوهم إلى السجود وإن كانوا لا ينتفعون به ليس أنهم يؤمرون به، وهذا كما يفزع الإنسان إلى السجود إذا أصابه هول من أهوال الدنيا، ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ أي ذليلة أبصارهم، لا يرفعون نظرهم عن الأرض ذلة ومهانة. ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي تغشاهم ذلة الندامة والحسرة ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾^(٥) أي أصحاء يمكنهم السجود فلا يسجدون، يعني أنهم كانوا يؤمرون بالصلاة في الدنيا فلم يفعلوا^(٦).

وَرَوَى عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ^(٧) أَنَّهُمَا قَالَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أُفْحِمَ الْقَوْمَ وَدَخَلَتْهُمُ الْهَيْبَةُ، وَشَخَصَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَاجِرَ لِمَا رَهَقَهُمْ مِنَ النَّدَامَةِ وَالْخِزْيِ وَالْمَذَلَّةِ: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ أَي يَسْتَطِيعُونَ الْأَخْذَ بِمَا أُمُّرُوا بِهِ وَالتَّرُكَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَلِذَلِكَ ابْتُلُوا.

١٣٨٩. التوحيد^(٨): ابن الوليد، عن ابن أبان، عن الحسين بن سعيد، عن النضر، عن ابن سنان، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة: أنا الهادي، وأنا المهتدي، وأنا أبو اليتامى والمساكين، وزوج

١. تشميرك الثوب: إذا رفعته، راجع لسان العرب.

٢. العض: الشد بالأسنان على الشيء، راجع لسان العرب.

٣. نقول: يمكن جمع هذه التفسير في معنى الآية واستعمال اللفظ في أكثر من معنى جائز على المختار وإن كان المعنى الأول أوفق بظاهر الآية.

٤. القلم/٤٢.

٥. القلم/٤٣.

٦. مجمع البيان، ج ١٠، ص ٥١٠.

٧. في اعتقادات الإمامية (للصدوق)، ص ٣٩، عن الصادق عليه السلام قط.

٨. التوحيد (للصدوق)، ص ١٦٤، ح ٢؛ معاني الأخبار، ص ١٧، ح ١٤؛ الإختصاص، ص ٢٤٨.

الْأَرَامِلِ^(١)، وَأَنَا مُلْجَأُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَمَأْمَنُ كُلِّ خَائِفٍ، وَأَنَا قَائِدُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَنَا حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَأَنَا عُرْوَةُ اللَّهِ الْوُثْقَى وَكَلِمَةُ التَّقْوَى^(٢)، وَأَنَا عَيْنُ اللَّهِ وَلِسَانُهُ الصَّادِقُ وَيَدُهُ، وَأَنَا جَنْبُ اللَّهِ الَّذِي يَقُولُ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسُ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾^(٣) وَأَنَا يَدُ اللَّهِ الْمُسَوِّطَةُ عَلَى عِبَادِهِ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، وَأَنَا بَابُ حِطَّةٍ، مَنْ عَرَفَنِي وَعَرَفَ حَقِّي فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ لِأَنِّي وَصِيُّ نَبِيِّهِ ﷺ فِي أَرْضِهِ، وَحُجَّتُهُ عَلَى خَلْقِهِ، لَا يُنْكِرُ هَذَا إِلَّا رَاذٌ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ.

قال الصدوق: الجنب: الطاعة في لغة العرب، يقال: هذا صغير في جنب الله أي في طاعة الله عز وجل، فمعنى قول أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا جنب الله» أي أنا الذي ولايتي طاعة الله، قال الله عز وجل: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسُ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي في طاعة الله عز وجل.

بيان:

رُويَ عَنِ الْبَاقِرِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: مَعْنَى «جَنْبِ اللَّهِ» أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَقْرَبَ إِلَى اللَّهِ مِنْ رَسُولِهِ ﷺ، وَلَا أَقْرَبَ إِلَى رَسُولِهِ مِنْ وَصِيِّهِ، فَهُوَ فِي الْقُرْبِ كَالْجَنْبِ، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسُ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ يَعْنِي فِي وَلَايَةِ أَوْلِيَائِهِ.

وقال الطبرسي «رحمه الله»: الجنب: القرب أي يا حسرتي على ما فرطت في قرب الله وجواره، وفلان في جنب فلان أي في قربه وجواره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ﴾^(٤) وهو الرفيق في السفر، وهو الذي يصحب الإنسان بأن يحصل بجنبه لكونه رفيقه قريباً منه ملاصقاً له^(٥). انتهى^(٦). و«العين» أيضاً من المجازات الشائعة، أي لما كان شاهداً على عباده مطّلعاً عليهم فكأنه عينه؛ وكذا «اللسان» فإنّه لما كان يخاطب الناس من قبل الله ويعبّر عنه في بريته فكأنه لسانه.

١. **نقول:** المراد منه واضح وأنه هو كفالته عليه السلام لهنّ ويدل عليه ما بعده «وأنا ملجأ كل ضعيف».

٢. لم يرد في الاختصاص: «وكلمة التقوى».

٣. الزمر/٥٦.

٤. النساء/٣٦.

٥. مجمع البيان، ج ٨، ص ٧٨٧.

٦. قال السيّد الرضوي «رضي الله عنه»: وهذه استعارة وقد اختلف في المراد بالجنب هاهنا، فقال قوم: معناه في ذات الله؛ وقال قوم: معناه في طاعة الله وفي أمر الله، إلّا أنّه ذكر الجنب على مجرى العادة في قولهم: هذا الأمر صغير في جنب ذلك الأمر أي في جهته، لأنّه إذا عبّر عنه بهذه العبارة دلّ على اختصاصه به من وجه قريب من معنى صفته؛ وقال بعضهم: معنى ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أي في سبيل الله، أو في الجانب الأقرب إلى مرضاته بالأوصل إلى طاعته، ولما كان الأمر كلّّه يتشعّب إلى طريقين: إحداهما هدى ورشاد، والأخرى غي وضلال، وكلّ واحد منهما مجانب لصاحبه، أي هو في جانب والآخر في جانب، وكان الجنب والجانب بمعنى واحد حسنت العبارة هاهنا عن سبيل الله بجنب الله على النحو الذي ذكرناه. (هامش المطبوع)

١٣٩٠. تفسير العياشي^(١): عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ السَّعْدِيِّ قَالَ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾^(٢) يَغْنِي لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِخَيْرٍ لِمَنْ لَا يَرْحَمُهُمْ^(٣)، وَقَدْ يَقُولُ الْعَرَبُ لِلرَّجُلِ السَّيِّدِ أَوْ لِلْمَلِكِ: لَا تَنْظُرُ إِلَيْنَا يَغْنِي أَنَّكَ لَا تُصِيبُنَا بِخَيْرٍ، وَذَلِكَ النَّظَرُ مِنَ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ.

١٣٩١. التوحيد، عيون أخبار الرضا عليه السلام^(٤): ابْنُ عَصَامٍ، عَنِ الْكُلَيْنِيِّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ إِدْرِيسَ، عَنِ ابْنِ عِيسَى، عَنْ عَلِيِّ بْنِ سَيْفٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُبَيْدَةَ قَالَ: سَأَلْتُ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْ﴾^(٥) قَالَ: يَغْنِي بِقُدْرَتِي وَقُوَّتِي.

قال الصدوق «رحمه الله»: سمعت بعض مشايخ الشيعة بنيسابور يذكر في هذه الآية أَنَّ الْأئِمَّةَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانُوا يَقِفُونَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ﴾ ثُمَّ يَبْتَدِءُونَ بِقَوْلِهِ: ﴿بِيَدَيَّ أَسْتَكْبِرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ قَالَ: وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِ الْقَائِلِ: بِسَيْفِي تَقَاتَلَنِي وَبِرَمْحِي تَطَاعَنِي، كَأَنَّهُ يَقُولُ: بِنِعْمَتِي عَلَيْكَ وَإِحْسَانِي إِلَيْكَ قَوِيَتْ عَلَى الْأَسْتِكْبَارِ وَالْعَصِيَانِ.

بيان:

ما ورد في الخبر أظهر ما قيل في تفسير هذه الآية، ويمكن أن يقال في توجيه التشبيه: إِنَّهَا لِبَيَانِ أَنَّ فِي خَلْقِهِ كَمَالَ الْقُدْرَةِ، وَأَنَّ لَهُ رُوحاً وَبَدناً أَحَدَهُمَا مِنْ عَالَمِ الْخَلْقِ، وَالْآخَرُ مِنْ عَالَمِ الْأَمْرِ، أَوْ لِأَنَّهُ مُصَدِّرٌ لِأَفْعَالٍ مُلْكِيَّةٍ، وَمُنْشَأٌ لِأَفْعَالٍ بَهِيمِيَّةٍ، وَالثَّانِيَةُ كَأَنَّهَا أَثَرُ الشَّمَالِ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، وَأَمَّا حَمْلُ الْيَدِ عَلَى الْقُدْرَةِ فَهُوَ شَائِعٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، تَقُولُ: مَا لِي لِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ يَدٍ أَيْ قُوَّةٍ وَطَاقَةٍ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النَّكَاحِ﴾^(٦).

وقد ذكر في الآية وجوه أخرى: أحدها: أَنَّ الْيَدَ عِبَارَةٌ عَنِ النِّعْمَةِ، يُقَالُ: أَيَادِي فَلَانٍ فِي حَقِّ فَلَانٍ ظَاهِرَةٌ، وَالْمَرَادُ بِالْيَدَيْنِ النِّعْمَ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، أَوْ نِعَمَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا^(٧)، وَثَانِيهَا: أَنَّ الْمَرَادَ خَلْقَتَهُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِ تَوْسِطِ كَأَبٍ وَأُمٍّ^(٨)، وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ كِنَايَةٌ عَنِ غَايَةِ الْإِهْتِمَامِ بِخَلْقِهِ، فَإِنَّ السُّلْطَانَ الْعَظِيمَ لَا يَعْمَلُ شَيْئاً بِيَدَيْهِ إِلَّا إِذَا

١. تفسير العياشي، ج ١، ص ١٨٠، ح ٧٢؛ نوادر الأخبار (للفيض)، ص ٨٩، ح ٩.

٢. آل عمران/٧٧.

٣. في المصدر: «لا ينظر إليهم بخير أي لا يرحمهم».

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ١٥٣، ح ٢؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٢٠، ح ١٣.

٥. ص/٧٥.

٦. البقرة/٢٢٧.

٧. مفاتيح الغيب، ج ٢٦، ص ٤١٢.

٨. أنوار التنزيل، ج ٥، ص ٣٥.

كانت غاية عنايته مصروفة إلى ذلك العمل^(١).

أقول:

سيأتي كثير من الأخبار المناسبة لهذا الباب في أبواب كتاب الإمامة، وباب أسئلة الزنديق المدعي للتناقض في القرآن.

١. مفاتيح الغيب، ج ٢٦، ص ١٣٤.

﴿باب ٢﴾

«تأويل قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(١) ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾^(٢)

وقوله ﷺ: خلق الله آدم على صورته»

١٣٩٢. التوحيد، عيون أخبار الرضا ﷺ^(٣): أَلْهَمَدَانِي، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ مَعْبُدٍ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ خَالِدٍ قَالَ: قُلْتُ لِلرَّضَا ﷺ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ إِنَّ النَّاسَ يَزُوُونَ^(٤) أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ! فَقَالَ: قَاتَلَهُمُ اللَّهُ لَقَدْ حَدَفُوا أَوَّلَ الْحَدِيثِ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ بِرَجُلَيْنِ يَتَسَابَّانِ، فَسَمِعَ أَحَدَهُمَا يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: قَبِّحَ اللَّهُ وَجْهَكَ وَوَجْهَ مَنْ يُشَبِّهَكَ. فَقَالَ ﷺ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَقُلْ هَذَا لِأَخِيكَ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ.

١٣٩٣. معاني الأخبار^(٥): أَبِي، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ^(٦)، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ ابْنِ أُذَيْنَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ ﷺ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ قَالَ ﷺ: رُوحُ اخْتَارَهُ اللَّهُ، وَاضْطَفَأَهُ وَخَلَقَهُ، وَأَصَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ، وَفَضَّلَهُ عَلَى جَمِيعِ الْأَرْوَاحِ فَأَمَرَ فَنُفِخَ مِنْهُ فِي آدَمَ ﷺ.

١٣٩٤. التوحيد، معاني الأخبار^(٧): غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِنَا، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ الْبَرْمَكِيِّ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحَسَنِ، عَنْ

١. الحجر/٢٩.

٢. النساء/١٧١.

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ١٥٢، ح ١١؛ عيون أخبار الرضا ﷺ، ج ١، ص ١١٩، ح ١٢؛ الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٤١٠.

٤. في الإحتجاج: «إِنَّ قَوْمًا يَقُولُونَ...».

٥. معاني الأخبار، ص ١٦، ح ١١؛ التوحيد (للصدوق)، ص ١٧٠، ح ١.

٦. في التوحيد: «حمزة العلوي، عن علي، عن أبيه...».

٧. التوحيد (للصدوق)، ص ١٧١، ح ٣؛ معاني الأخبار، ص ١٧، ح ١٢؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب الروح، ص ١٣٣، ح ٣، مع اختلاف

بَكْرٍ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ الطَّائِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ^(١) قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ كَيْفَ هَذَا النَّفْخُ؟ فَقَالَ: إِنَّ الرُّوحَ مُتَحَرِّكُ كَالرَّيْحِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ رُوحاً لِأَنَّهُ اشْتَقَّ اسْمُهُ مِنَ الرَّيْحِ، وَإِنَّمَا أَخْرَجَهُ عَلَى لَفْظَةِ الرُّوحِ لِأَنَّ الرُّوحَ مُجَانِسٌ لِلرَّيْحِ، وَإِنَّمَا أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ لِأَنَّهُ اصْطَفَاهُ عَلَى سَائِرِ الْأَرْوَاحِ، كَمَا اصْطَفَى بَيْتاً مِنَ الْبُيُوتِ فَقَالَ: بَيْتِي، وَقَالَ لِرَسُولٍ مِنَ الرُّسُلِ: خَلِيلِي، وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ، وَكُلُّ ذَلِكَ مَخْلُوقٌ، مَصْنُوعٌ، مُحَدَّثٌ، مَرْبُوبٌ، مُدَبَّرٌ.

١٣٩٥. الإحتجاج^(٢): حُمَرَانُ بْنُ أَعْيَنَ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾^(٣) قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هِيَ مَخْلُوقَةٌ خَلَقَهَا اللَّهُ بِحِكْمَتِهِ فِي آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِي عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٤).

١٣٩٦. التوحيد^(٥): السَّنَائِيُّ وَالْمَكْتَبُ وَالِدَقَّاقُ جَمِيعاً، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ الْبَرْمَكِيِّ، عَنِ عَلِيِّ بْنِ الْعَبَّاسِ، عَنِ عُبَيْسِ بْنِ هِشَامٍ، عَنِ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٦) فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(٧) قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقاً، وَخَلَقَ رُوحاً، ثُمَّ أَمَرَ مَلَكاً فَتَفَخَّ فِيهِ، وَلَيْسَتْ بِالنَّيِّ تَقْصُتُ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ شَيْئاً^(٨) هِيَ مِنْ قُدْرَتِهِ.

١٣٩٧. التوحيد^(٩): ابْنُ الْمُتَوَكِّلِ، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ ابْنِ أُذَيْنَةَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْأَصَمِّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الرُّوحِ الَّتِي فِي آدَمَ وَالَّتِي فِي عِيسَى مَا هُمَا؟ قَالَ: رُوحَانِ مَخْلُوقَانِ اخْتَارَهُمَا وَاصْطَفَاهُمَا: رُوحُ آدَمَ وَرُوحُ عِيسَى «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا».

١٣٩٨. التوحيد^(١٠): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ عِيسَى، عَنْ ابْنِ فَضَّالٍ، عَنِ الْحَلَبِيِّ وَزُرَّارَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١١).

١. في الكافي بهذا الإسناد: «محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن محمد بن خالد، عن القاسم بن عروة، عن عبد الحميد الطائي، عن محمد بن مسلم، عن أبي عبد الله عليه السلام».

٢. الإحتجاج (للتبرسي)، ج ٢، ص ٢٣٢؛ وفي الكافي، ج ١، باب الروح، ص ١٣٣، ح ٢، عن أبي عبد الله عليه السلام.

٣. النساء/١٧١.

٤. **فقول:** معناه أنَّ إضافة الروح إليه تعالى إضافة تشريفية كما في قولنا: «روح الله» لا أنَّ لله تعالى روح وجسم ونفخ من روحه في آدم وعيسى عليه السلام.

٥. التوحيد (للصدوق)، ص ١٧٢، ح ٦؛ تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٤١، ح ١٠.

٦. في تفسير العياشي: «عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام».

٧. الحجر/٢٩.

٨. في تفسير العياشي: «من الله شيئاً».

٩. التوحيد (للصدوق)، ص ١٧١، ح ٤؛ تفسير البرهان، ج ٣، ص ٣٦٣، ح ٥٨٥٥.

١٠. التوحيد (للصدوق)، ص ١٧١، ح ٢؛ بصائر الدرجات، ص ٤٦٢، ح ١٢؛ تفسير العياشي، ج ٢، ص ٣١٦، ح ١٦٠.

١١. في البصائر بهذا الإسناد: «أحمد بن محمد ويعقوب بن يزيد، عن ابن فضال، عن أبي جميلة، عن الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام»؛ وفي تفسير العياشي: «عن زرارة وحمزان، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام».

قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَحَدٌ صَمَدٌ لَيْسَ لَهُ جَوْفٌ، وَإِنَّمَا الرُّوحُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، نَصْرٌ وَتَأْيِيدٌ وَقُوَّةٌ^(١)، يَجْعَلُهُ اللَّهُ فِي قُلُوبِ الرُّسُلِ وَالْمُؤْمِنِينَ^(٢).

١٣٩٩. تفسير العياشي^(٣): عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَوْرَمَةَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْأَحْوَلِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنِ الرُّوحِ الَّتِي فِي آدَمَ، قَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(٤) قَالَ: هَذِهِ رُوحٌ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ، وَالرُّوحُ الَّتِي فِي عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ.

١٤٠٠. التوحيد^(٥): ابْنُ الْبَرَقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ أَحْمَدَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَحْرٍ^(٦)، عَنْ أَبِي أَيُّوبَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَمَّا يَزُودُنَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، فَقَالَ: هِيَ صُورَةٌ مُخَدَّتَةٌ مَخْلُوقَةٌ، اصْطَفَاهَا اللَّهُ وَاخْتَارَهَا عَلَى سَائِرِ الصُّوَرِ الْمُخْتَلَفَةِ، فَأَضَافَهَا إِلَى نَفْسِهِ كَمَا أَضَافَ الْكَعْبَةَ إِلَى نَفْسِهِ، وَالرُّوحَ إِلَى نَفْسِهِ فَقَالَ: بَيْتِي، وَقَالَ: ﴿نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾.

بيان:

هذا الخبر لا ينافي ما سبق، لأنه تأويل على تقدير عدم ذكر أوله، كما يرويه من حذف منه ما حذف.

تذنب:

قال السيد المرتضى «قدس الله روحه» في كتاب تنزيه الأنبياء: فإن قيل: ما معنى الخبر المروي عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ؟ أوليس ظاهر هذا الخبر يقتضي التشبيه وأنَّ له تعالى عن ذلك صورة؟ قلنا: قد قيل في تأويل هذا الخبر: أنَّ الهاء في «صورته» إذا صحَّ هذا الخبر راجعة إلى آدم عليه السلام، دون الله تعالى فكان المعنى أَنَّهُ تعالى خلقه على الصورة التي قبض عليها، فإنَّ حاله لم يتغيَّر في الصورة بزيادة ولا نقصان كما يتغيَّر أحوال البشر. وذكر وجه ثان: وهو على أنَّ تكون الهاء راجعة إلى الله تعالى، ويكون المعنى أَنَّهُ خلقه على الصورة التي اختارها واجتباها، لأنَّ الشيء قد يضاف على هذا الوجه إلى مختاره ومصطفاه. وذكر أيضاً وجه ثالث: وهو أنَّ هذا الكلام خرج على سبب معروف، لأنَّ الزُّهْرِيَّ رَوَى عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَضْرِبُ وَجْهَ غُلَامٍ لَهُ وَيَقُولُ: قَبَّحَ اللَّهُ وَجْهَكَ وَوَجْهَ مَنْ

١. في البصائر وتفسير العياشي: «له بصر وقوة وتأيد».

٢. في هذه الرواية فائدة، تنبها عليها في ذيل ح ١٢٢٥.

٣. تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٤١، ح ٩؛ تفسير البرهان، ج ٣، ص ٣٦٤، ح ٥٨٥٩.

٤. الحجر/٢٩.

٥. التوحيد (للصدوق)، ص ١٠٣، ح ١٨؛ الكافي، ج ١، باب الروح، ص ١٣٤، ح ٤؛ الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٢٣.

٦. قلت: والحديث لا يخلو عن غرابة، وقد تقدَّمت روايات أخرى بطرق متعدِّدة في معنى الحديث تعرب عن تدليس وقع في نقل الحديث

عن النَّبِيِّ ﷺ فارجعها. (هامش المطبوع)

تُشَبِّهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بِمَسِّ مَا قُلْتُ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى صُورَتِهِ، يعني صورة المضروب. ويمكن في الخبر وجه رابع: وهو أن يكون المراد أن الله تعالى خلق آدم وخلق صورته، لينتفي بذلك الشك في أن تأليفه من فعل غيره، لأن التأليف من جنس مقدور البشر، والجواهر وما شاكلها من الأجناس المخصوصة من الأعراض هي التي يتفرد القديم تعالى بالقدرة عليها، فيمكن قبل النظر أن يكون الجواهر من فعله وتأليفها من فعل غيره، فكأنه عليه السلام أخبر بهذه الفائدة الجليلة وهو أن جوهر آدم عليه السلام وتأليفه من فعل الله تعالى.

ويمكن وجه خامس: وهو أن يكون المعنى أن الله أنشأ على هذه الصورة التي شوهد عليها على سبيل الابتداء، وأنه لم ينتقل إليها ويتدرج كما جرت العادة في البشر. وكل هذه الوجوه جائز في معنى الخبر والله تعالى ورسوله ﷺ أعلم بالمراد. انتهى كلامه «رفع الله مقامه»^(١).

أقول:

وفيه وجه سادس ذكره جماعة من شراح الحديث: وهو أن المراد بالصورة الصفة من كونه سمياً بصيراً متكماً، وجعله قابلاً للاتصاف بصفاته الكمالية والجلالية على وجه لا يفضي إلى التشبيه، والأولى الاقتصار على ما ورد في النصوص عن الصادقين عليه السلام، وقد روت العامة الوجه الأول المروي عن أمير المؤمنين وعن الرضا «صلوات الله عليهما» بطرق متعددة في كتبهم.

١. تنزيه الأنبياء، ص ١٢٧ و ١٢٨.

﴿باب ٣﴾

«تأويل آية النور»

١٤٠١. التوحيد، معاني الأخبار^(١): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنِ ابْنِ يَزِيدَ،^(٢) عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ هَلَالٍ قَالَ: سَأَلْتُ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣) فَقَالَ: هَادٍ لِأَهْلِ السَّمَاءِ، وَهَادٍ لِأَهْلِ الْأَرْضِ.

١٤٠٢. التوحيد، معاني الأخبار^(٤): إِبْرَاهِيمُ بْنُ هَارُونَ الْهَيْسِي^(٥)، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي الثَّلَاجِ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ أَيُّوبَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ غَالِبٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ أَيُّوبَ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ الذُّهْلِيِّ، عَنِ الْفَضِيلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ: كَذَلِكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: قُلْتُ: ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾، قَالَ لِي: مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قُلْتُ: ﴿كَمْشَكَاةٍ﴾، قَالَ: صَدْرُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. قُلْتُ: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾، قَالَ: فِيهِ نُورُ الْعِلْمِ يَعْنِي النُّبُوَّةَ. قُلْتُ: ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾، قَالَ: عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَدَرَ إِلَى قَلْبِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٦). قُلْتُ: ﴿كَانَهَا﴾ قَالَ: لِأَيِّ شَيْءٍ تَقْرَأُ كَانَهَا؟ قُلْتُ: وَكَيْفَ جَعَلْتُ فِدَاكَ؟ قَالَ: كَانَتْ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ^(٧). قُلْتُ: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قَالَ: ذَاكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ. قُلْتُ: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ قَالَ: يَكَادُ الْعِلْمُ يَخْرُجُ مِنْ فَمِ الْعَالِمِ مِنْ

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٥٥، ح ١؛ معاني الأخبار، ص ١٥، ح ٦؛ في الكافي، ج ١، باب معاني الأسماء واشتقاقها، ص ١١٥، ح ٤.

٢. في الكافي بهذا الإسناد: «علي بن محمد، عن سهل بن زياد، عن يعقوب بن يزيد، ...».

٣. النور/٣٥.

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ١٥٧، ح ٣؛ معاني الأخبار، ص ١٥، ح ٧.

٥. لعل الصواب: الهيتي، قال الفيروزآبادي: هيت بالكسر: بلدة بالعراق. (هامش المطبوع) وفي التوحيد: «الهيتي بمدينة السلام ...»، وفي المعاني: «الهيسي بمدينة السلام ...».

٦. في نسخة: صار إلى قلب علي عليه السلام. (هامش المطبوع)

٧. نقول: تذكير الضمير باعتبار المراد من الآية لا باعتبار لفظها، فلا يكون دليلاً على التحريف.

آلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْطِقَ بِهِ. قُلْتُ: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾^(١) قَالَ: الْإِمَامُ عَلَى أَثَرِ الْإِمَامِ.

قال الصدوق «رحمه الله»: إنَّ المشبهة تفسر هذه الآية على أنَّه ضياء السماوات والأرض، ولو كان كذلك لما جاز أن توجد الأرض مظلمة في وقت من الأوقات، لا بالليل ولا بالنهار، لأنَّ الله هو نورها وضياؤها على تأويلهم، وهو موجود غير معدوم، فوجود الأرض مظلمة بالليل، ووجودنا داخلها أيضاً مظلماً بالنهار يدلُّ على أنَّ تأويل قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو ما قاله الرضا عليه السلام دون تأويل المشبهة، وأنَّه عزَّ وجلَّ هادي أهل السماوات والأرض، والمبين لأهل السماوات والأرض أمور دينهم^(٢) ومصالحهم، فلمَّا كان بالله وبهداه يهتدي أهل السماوات والأرض إلى صلاحهم وأمور دينهم، كما يهتدون بالنور الذي خلقه الله لهم في السماوات والأرض إلى إصلاح دنياهم، قال: إنَّه نور السماوات والأرض على هذا المعنى، وأجرى على نفسه هذا الاسم توسعاً ومجازاً لأنَّ العقول دالة على أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يجوز أن يكون نوراً ولا ضياءً، ولا من جنس الأنوار والضياء، لأنَّه خالق الأنوار وخالق جميع أجناس الأشياء، وقد دلَّ على ذلك أيضاً قوله: ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾ وإنَّما أراد به صفة نوره، وهذا النور هو غيره، لأنَّه شبيهه بالمصباح وضوئه الذي ذكره، ووصفه في هذه الآية، ولا يجوز أن يشبه نفسه بالمصباح، لأنَّ الله لا شبه له ولا نظير، فصحَّ أن نوره الذي شبيهه بالمصباح إنَّما هو دلالة أهل السماوات والأرض على مصالح دينهم، وعلى توحيد ربهم وحكمته وعدله. ثمَّ بيَّن وضوح دلالة هذه وسمّاها نوراً من حيث يهتدي بها عباده إلى دينهم وصلاحهم، فقال: مثله مثل كوة وهي المشكاة فيها المصباح، والمصباح هو السراج في زجاجة صافية شبيهة بالكوكب الذي هو الكوكب المشبه بالدرّ في لونه، وهذا المصباح الذي في هذه الزجاجة الصافية يتوقّد^(٣) من زيت زيتونة مباركة، وأراد به زيتون الشام لأنَّه يقال: إنَّه بورك فيه لأهله، وعنى عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ أنَّ هذه الزيتونة ليست بشرقية فلا تسقط الشمس عليها في وقت الغروب، ولا غربيّة ولا تسقط الشمس عليها في وقت الطلوع، بل هي في أعلى شجرها، والشمس تسقط عليها في طول نهارها، فهو أجود لها وأضوأ لزيته، ثمَّ أكّد وصفه لصفاء زيتها فقال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ لما فيها من الصفاء فيبيّن أنَّ دلالات الله التي بها دلَّ عباده في السماوات والأرض على مصالحهم وعلى أمور دينهم في الوضوح والبيان بمنزلة هذا المصباح الذي في هذه الزجاجة الصافية، ويتوقّد بها الزيت الصافي الذي وصفه، فيجتمع فيه ضوء النار مع ضوء الزجاجة وضوء الزيت وهو معنى قوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾، وعنى بقوله

١. النور/٣٥.

٢. في نسخة: «أمورهم». وكذا فيما يأتي بعد ذلك. (هامش المطبوع).

٣. في نسخة: توقّد. (هامش المطبوع).

عز وجل: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾^(١) يعني من عباده وهم المكلفون، ليعرفوا بذلك، ويهتدوا به ويستدلوا به على توحيد ربهم وسائر أمور دينهم، وقد دلّ الله عز وجل بهذه الآية وبما ذكره من وضوح دلالاته وآياته التي دلّ بها عباده على دينهم أن أحداً منهم لم يؤت فيما صار إليه من الجهل، ومن تضييع الدين لشبهة ولبس دخلا عليه في ذلك من قبل الله عز وجل، إذ كان الله عز وجل قد بين لهم دلالاته وآياته على سبيل ما وصف، وأنهم إنما أوتوا في ذلك من قبل نفوسهم^(٢) بتركهم النظر في دلالات الله، والاستدلال بها على الله عز وجل وعلى صلاحهم في دينهم، وبيّن أنه بكل شيء من مصالح عباده ومن غير ذلك عليهم. وَقَدْ رُوِيَ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ فَقَالَ: هُوَ مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لَنَا.

فالنبي والأئمة «صلوات الله عليهم» من دلالات الله، وآياته التي يهتدى بها إلى التوحيد ومصالح الدين وشرائع الإسلام والسنن والفرائض، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(٣).

١٤٠٣. تفسير القمي^(٤): حُمَيْدُ بْنُ زِيَادٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى، عَنْ طَلْحَةَ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ: بَدَأَ بِنُورِ نَفْسِهِ تَعَالَى، ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾ مِثْلُ هُدَاهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ، قَوْلُهُ: ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الْمِشْكَاةُ: جَوْفُ الْمُؤْمِنِ. وَالْقَنْدِيلُ^(٥): قَلْبُهُ، وَالْمِصْبَاحُ: النُّورُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ فِيهِ. ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ قَالَ: الشَّجَرَةُ: الْمُؤْمِنُ. ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ قَالَ: عَلَى سَوَاءِ الْجَبَلِ ﴿لَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أَيُّ لَا شَرْقِيَّةٍ لَهَا، وَلَا شَرْقِيَّةٍ أَيُّ لَا غَرْبَ لَهَا، إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ طَلَعَتْ عَلَيْهَا وَإِذَا غَرَبَتْ غَرَبَتْ عَلَيْهَا. ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ يَعْنِي يَكَادُ النُّورُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ ﴿يُضِيءُ﴾ وَإِنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ. ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ فَرِيضَةٌ عَلَى فَرِيضَةٍ، وَسُنَّةٌ عَلَى سُنَّةٍ، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ يَهْدِي اللَّهُ لِفَرَاغِهِ وَسُنَّتِهِ مَن يَشَاءُ. ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾^(٦) وَهَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ. ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَالْمُؤْمِنُ مَن يَتَقَلَّبُ^(٧) فِي خَمْسَةِ مِنَ النُّورِ: مَدْخُلُهُ نُورٌ، وَمَخْرَجُهُ نُورٌ، وَعِلْمُهُ نُورٌ، وَكَلَامُهُ نُورٌ، وَمَصِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى الْجَنَّةِ نُورٌ. قُلْتُ

١. النور/٣٥.

٢. وفي نسخة: من قبل أنفسهم. (هامش المطبوع)

٣. التوحيد، ص ١٥٥-١٥٧، ب ١٥.

٤. تفسير القمي، ج ٢، ص ١٠٣؛ تفسير الصافي، ج ٣، ص ٤٣٦.

٥. القنديل: معروف، وهو مصباح من زجاج، (راجع تاج العروس).

٦. النور/٣٥.

٧. وفي نسخة: فالؤمن من يتقلب. (هامش المطبوع)

لِجَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ يَا سَيِّدِي إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَثَلُ نُورِ الرَّبِّ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! لَيْسَ لِلَّهِ بِمَثَلٍ مَا، قَالَ اللَّهُ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾^(١).

بيان:

قوله عليه السلام: «الشجرة: المؤمن» لعل المراد أن نور الإيمان الذي جعله الله في قلب المؤمن يتقد من أعمال سالحة هي ثمرة شجرة مباركة هي المؤمن المهتدي، ويحتمل أن يكون المراد بالمؤمن المؤمن الكامل وهو الإمام عليه السلام، ولا يبعد أن يكون المؤمن تصحيف الإيمان، أو القرآن، أو نحن، أو الإمام.

١٤٠٤. تفسير القمي^(٢): مُحَمَّدُ بْنُ هَمَّامٍ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ الصَّائِغِ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ^(٣)، عَنْ صَالِحِ بْنِ سَهْلٍ الْهَمْدَانِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٤) يَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ فَاطِمَةُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ الْحَسَنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ﴿الْمِصْبَاحُ﴾ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ كَأَنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ بَيْنَ نِسَاءِ أَهْلِ الدُّنْيَا، ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ يُوقَدُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ لَا يَهُودِيَّةٍ وَلَا نَصْرَانِيَّةٍ، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ يَكَادُ الْعِلْمُ يَنْفَجِرُ مِنْهَا^(٥)، ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ إِمَامٌ بَعْدَ إِمَامٍ ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يَهْدِي اللَّهُ بِالْأئِمَّةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَنْ يَشَاءُ^(٦).

توضيح:

قوله عليه السلام: «والمصباح الحسين عليه السلام» أي المصباح المذكور في الآية ثانياً، وعلى هذا الخبر تكون المشكاة والزجاجة كنايةتين عن فاطمة عليها السلام.

١٤٠٥. الكافي^(٧): عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْعَبَّاسِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ حَمَّادٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شَمْرٍ، عَنْ جَابِرٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ الْعِلْمَ^(٨) الَّذِي كَانَ عِنْدَهُ عِنْدَ الْوَصِيِّ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ

١. النحل / ٧٤.

٢. تفسير القمي، ج ٢، ص ١٠٢؛ الكافي، ج ١، باب أن الأئمة عليهم السلام نور الله عز وجل، ص ١٩٥، ح ٥؛ تفسير البرهان، ج ٤، ص ٦٧، ح ٧٦٢٨.

٣. هو الصيرفي. (هامش المطبوع)

٤. في الكافي بهذا الإسناد: «علي بن محمد ومحمد بن الحسن، عن سهل بن زياد، عن محمد بن الحسن بن شمعون، عن عبد الله بن الأصم، عن عبد الله بن القاسم، عن صالح بن سهل الهمداني، عن أبي عبد الله عليه السلام».

٥. وفي نسخة: يكاد العلم يتفجر منها. (هامش المطبوع)، وكذا في المصدر.

٦. في المصدر مع زيادة: «أن يدخله في نور ولا يتهم مخلصاً» وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

٧. ورد في الكافي، ج ٨، ص ٣٨٠، ضمن ح ٥٧٤؛ تفسير البرهان، ج ٤، ص ٦٧، ح ٧٦٢٩.

٨. في المصدر والبرهان: «إن رسول الله ﷺ وضع العلم...».

وَالْأَرْضِ ﴿ يَقُولُ: أَنَا هَادِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مَثَلُ الْعِلْمِ الَّذِي أُعْطِيَتْهُ وَهُوَ نُورِي الَّذِي يُهْتَدَى بِهِ مَثَلُ الْمَشْكَاةِ فِيهَا الْمِصْبَاحُ، فَالْمَشْكَاةُ قَلْبُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالْمِصْبَاحُ النُّورُ الَّذِي فِيهِ الْعِلْمُ، وَقَوْلُهُ: ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ يَقُولُ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَقْبِضَكَ فَاجْعَلِ الَّذِي عِنْدَكَ عِنْدَ الْوَصِيِّ كَمَا يُجْعَلُ الْمِصْبَاحُ فِي الزُّجَاجَةِ، ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّي﴾ فَأَعْلَمَهُمْ فَضْلَ الْوَصِيِّ: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ فَأَصْلُ الشَّجَرَةِ الْمُبَارَكَةِ إِبْرَاهِيمَ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ» وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾^(١) وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢)، ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ يَقُولُ: لَسْتُمْ بِيَهُودَ فَتُصَلُّوا قِبَلَ الْمَغْرِبِ، وَلَا نَصَارَى فَتُصَلُّوا قِبَلَ الْمَشْرِقِ، وَأَنْتُمْ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ»، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣)، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يَقُولُ: مَثَلُ أَوْلَادِكُمُ الَّذِينَ يُولَدُونَ مِنْكُمْ كَمَثَلِ الزَّيْتِ الَّذِي يُغَصِّرُ مِنَ الزَّيْتُونِ ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ يَقُولُ: يَكَادُونَ أَنْ يَتَكَلَّمُوا بِالتَّبَوُّةِ وَلَوْ لَمْ يُنْزَلْ عَلَيْهِمْ مَلَكٌ.

أقول:

سيأتي الأخبار الكثيرة في تأويل تلك الآية في كتاب الإمامة في باب أنهم أنوار الله.

تنوير:

قال البيضاوي: النور في الأصل كيفية تدركها الباصرة أولاً وبواسطتها سائر المبصرات، كالكيفية الفائضة من النيران على الأجرام الكثيفة المحاذية لهما، وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى إلا بتقدير مضاف، كقولك: زيد كرم بمعنى ذو كرم، أو على تجوُّز بمعنى منور السماوات والأرض - وقد قرئ به - فإنه تعالى نورها بالكواكب وما يفيض عنها من الأنوار، وبالملائكة والأنبياء، أو مدبرها من قولهم للرئيس الفائق في التدبير: نور القوم لأنهم يهتدون به في الأمور، أو موجدها فإن النور ظاهر بذاته مظهر لغيره، وأصل الظهور هو الوجود، كما أن أصل الخفاء هو العدم، والله سبحانه موجود بذاته، موجد لما عداه، أو الذي به يدرك، أو يدرك أهلها من حيث إنه يطلق على الباصرة لتعلقها به، أو لمشاركتها له في توقُّف الإدراك عليه ثم على البصيرة، لأنها أقوى إدراكاً فإنها تدرك نفسها وغيرها من الكليات والجزئيات، الموجودات والمعدومات، ويغوص في بواطنها، ويتصرّف فيها بالتركيب والتحليل. ثم إن هذه الإدراكات ليست بذاتها، وإلا لما فارقتها

١. هود/٧٣.

٢. آل عمران/٣٣ و٣٤.

٣. آل عمران/٦٧.

فهي إذن من سبب يفيضها عليها، وهو الله تعالى ابتداءً أو بتوسط من الملائكة والأنبياء، ولذلك سموا أنواراً. ويقرب منه قول ابن عباس: معناه هادي من فيهما، فهم بنوره يهتدون؛ وإضافته إليهما للدلالة على سعة إشراقه، ولا شتمالهما على الأنوار الحسّية والعقلية، وقصور الإدراكات البشرية عليهما وعلى المتعلق بهما والمدلول لهما.

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ صفة نوره العجيبة الشأن، وإضافته إلى ضميره سبحانه دليل على أن إطلاقه عليه لم يكن على ظاهره، ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ كصفة مشكاة، وهي الكوة^(١) الغير النافذة، ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ سراج ضخّم ثاقب؛ وقيل: المشكاة: الأنوبة في وسط القنديل، والمصباح: الفتيلة المشتعلة، ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ في قنديل من الزجاج ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ مضيء متألّئ كالزهرة في صفائه وزهرته، منسوب إلى الدرّ، أو فعيل كبيرق من الدرّ، فإنّه يدفع الظلام بضوئه، أو بعض ضوئه بعضاً من لمعانه، إلا أنّه قلبت همزته ياء، ويدلّ عليه قراءة حمزة وأبي بكر على الأصل، وقراءة أبي عمرو والكسائي «درّي» كشرّيب، وقد قرئ به مقلوباً، ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أي ابتداء توقّد المصباح من شجرة الزيتون المتكاثر نفعه بأن رويت زبالتها^(٢) بزيتها، وفي إيهام الشجرة ووصفه بالبركة ثم إبدال الزيتون عنها تفخيم لشأنها. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالياء، والبناء للمفعول من أوقد؛ وحمزة والكسائي وأبو بكر بالتاء كذلك على إسناده إلى الزجاج بحذف المضاف. وقرئ «توقّد» بمعنى تتوقّد، وتوقّد بحذف التاء لاجتماع الزيادتين وهو غريب. ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ يقع الشمس عليها حين بل بحيث يقع عليها طول النهار كالتي تكون على قلة أو صحراء واسعة فإنّ ثمرتها تكون أنضج، وزيتها أصفى، أو لا ثابتة في شرق المعمورة وغربها بل في وسطها وهو الشام، فإنّ زيتونه أجود الزيتون، أو لا في مضحى^(٣) تشرق الشمس عليها دائماً فتحرّقها، ومقناة^(٤) تغيب عنها دائماً فيتركها نيباً^(٥). وفي الحديث: «لا خير في شجرة ولا في نبات في مقناة، ولا خير فيها في مضحى». ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي يكاد يضيء بنفسه من غير نار لتلاؤله وفرط بيضه، ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ متضاعف، فإنّ نور المصباح زاد في إنارته صفاء الزيت وزهرة القنديل، وضبط المشكاة لآشعته.

١. الكوة بالضم والفتح والتشديد: النقبة في الحائط غير نافذة، راجع لسان العرب.

٢. في أنوار التنزيل والطبع الحجري: «ذباته بزيتها»، والذباله: الفتيلة التي تسرج، راجع لسان العرب.

٣. المضحاة: الأرض البارزة التي لا تكاد الشمس تغيب عنها، راجع لسان العرب.

٤. المَقْنَأَة والمَقْنُوءَة: المكان الذي لا تطلع عليه الشمس، راجع لسان العرب.

٥. النيب: كل شيء شأنه أن يعالج بطبخ أو شيء ولم ينضج، راجع المصباح المنير.

وقد ذكر في معنى التمثيل وجوه:

الأول: أنه تمثيل للهدى الذي دلّ عليه الآيات البينات في جلاء مضمونها، وظهور ما تضمنته من الهدى بالمشكاة المنعوتة، أو تشبيه للهدى من حيث إنه محفوظ من ظلمات أوهام الناس وخيالاتهم بالمصباح، وإثما ولي الكاف المشكاة لاشتمالها عليها، وتشبيهه به أوفق من تشبيهه بالشمس، أو تمثيل لما نور الله به قلب المؤمن من المعارف والعلوم بنور المشكاة المثبت فيها من مصباحها، ويؤيده قراءة أبي مثل نور المؤمن، أو تمثيل لما منح الله عباده من القوى الدراكة الخمس المترتبة التي بها المعاش والمعاد، وهي الحاسة التي تدرك المحسوسات بالحواس الخمس، والخيالية التي تحفظ صورة تلك المحسوسات لتعرضها على القوة العقلية متى شاءت، والعلمية التي تدرك الحقائق الكلية، والمفكرة وهي التي تؤلف المعقولات لتستنتج منها علم ما لم تعلم، والقوة القدسية التي يتجلّى فيها لوائح^(١) الغيب وأسرار الملكوت المختصة بالأنبياء والأولياء المعنوية بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾^(٢) بالأشياء الخمسة المذكورة في الآية، وهي المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت، فإن الحاسة كالمشكاة لأن محلّها كالكوّة، ووجهها إلى الظاهر لا يدرك ما وراءها وإضاءتها بالمعقولات لا بالذات، والخيالية كالزجاجة في قبول صور المدركات من الجوانب وضبطها للأنوار العقلية، وإنارتها بما يشتمل عليها من المعقولات، والعاقلة كالمصباح لإضاءتها بالإدراكات الكلية، والمعارف الإلهية، والمفكرة كالشجرة المباركة لتأديتها إلى ثمرات لا نهاية لها، والزيتونة المثمرة بالزيت الذي هو مادة المصباح التي لا تكون شرقية ولا غربية، لتجردها عن اللواحق الجسميّة، أو لوقوعها بين الصور والمعاني متصرفة في القبيلتين، منتفعة من الجانبين، والقوة القدسية كالزيت فإنها لصفائها وشدة ذكائها تكاد زيتها تضيء بالمعارف من غير تفكر ولا تعليم.

أو تمثيل للقوة العقلية في مراتبها بذلك، فإنها في بدء أمرها خالية عن العلوم، مستعدة لقبولها كالمشكاة، ثم ينتقش بالعلوم الضرورية بتوسط إحساس الجزئيات بحيث يتمكن من تحصيل النظريات فتصير كالزجاجة متألّثة في نفسها قابلة للأنوار، وذلك التمكن إن كان بفكر واجتهاد فكالشجرة الزيتونة، وإن كان بالحدس فكالزيت، وإن كان بقوة قدسية فكالذي يكاد زيتها يضيء لأنّها تكاد تعلم وإن لم تتصل بملك الوحي والإلهام الذي مثله النار من حيث إنّ العقول تشتعل عنها، ثم إذا حصلت لها العلوم بحيث يتمكن من

١. لوائح الشيء: ما يبدو منه وتظهر علامته عليه، راجع تاج العروس.

٢. الشورى ٥٢.

استحضرها متى شاءت كان كالمصباح، فإذا استحضرها كان نوراً على نور ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ الشاقب ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ فإن الأسباب دون مشيئته لاغية، إذ بها تمامها، ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ إدناء للمعقول من المحسوس توضيحاً وبياناً ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ معقولاً كان أو محسوساً، ظاهراً أو خفياً، وفيه وعد ووعد لمن تدبرها ولمن لم يكثرث^(١) بها^(٢). انتهى.

وقال الطبرسي «رحمه الله»: اختلف في هذا التشبيه والمشبّه به على أقوال: أحدها: أنه مثل ضربه الله لنبيه محمد ﷺ فالمشكاة صدره، والزجاجة قلبه، والمصباح فيه النبوة، ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ أي لا يهودية ولا نصرانية، ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ يعني شجرة النبوة وهي إبراهيم عليه السلام، يكاد نور محمد ﷺ يتبين ولو لم يتكلم به كما أن ذلك الزيت يكاد يضيء، ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي تصيبه النار؛ وقيل: إن المشكاة إبراهيم عليه السلام، والزجاجة إسماعيل عليه السلام، والمصباح محمد ﷺ، كما سمي سراجاً في موضع آخر، ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ يعني إبراهيم عليه السلام لأن أكثر الأنبياء من صلبه، ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ لا نصرانية ولا يهودية، لأن النصارى تصلي إلى المشرق، واليهود تصلي إلى المغرب، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ أي يكاد محاسن محمد ﷺ تظهر قبل أن يوحى إليه، ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أي نبي من نسل نبي؛ وقيل: إن المشكاة عبد المطلب، والزجاجة عبد الله، والمصباح هو النبي ﷺ، ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ بل مكية لأن مكة وسط الدنيا.

وروي عن الرضا عليه السلام^(٣) أنه قال: نحن المشكاة، والمصباح محمد ﷺ، يهدي الله لولايتنا من أحب. وثانيها: أنها مثل ضربه الله للمؤمن، المشكاة نفسه، والزجاجة صدره، والمصباح الإيمان، والقرآن في قلبه، ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ هي الإخلاص لله وحده لا شريك له، فهي خضراء ناعمة كشجرة التّف^(٤) بها الشجر فلا يصيبها الشمس على أي حال كانت لا إذا طلعت ولا إذا غربت، وكذلك المؤمن قد احترز من أن يصيبه شيء من الفتن، فهو بين أربع خلال: إن أعطي شكر، وإن ابتلي صبر، وإن حكم عدل، وإن قال صدق، فهو في سائر الناس كالرجل الحيّ يمشي بين قبور الأموات، ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ كلامه نور، وعمله نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى نور يوم القيامة، عن أبي بن كعب. وثالثها: أنه مثل القرآن في قلب المؤمن فكما أن هذا المصباح يستضاء به، وهو كما هو لا ينقص فكذلك

١. لا يكثرث لهذا الأمر: لا يعابّه ولا يباليه، راجع المصباح المنير.

٢. أنوار التنزيل، ج ٤، ص ١٠٧ و ١٠٨.

٣. ورد هذه الرواية في تفسير القمي، ج ٢، ص ١٠٥.

٤. التّف الشيء: تجمّع وتكاثف، راجع لسان العرب.

القرآن يهتدى به ويعمل به، فالمصباح هو القرآن، والزجاجة قلب المؤمن، والمشكاة لسانه وفمه، والشجرة المباركة شجرة الوحي، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾ تكاد حجج القرآن تتضح وإن لم يقرأ؛ وقيل: تكاد حجج الله على خلقه تضيء لمن تفكر فيها وتدبرها ولو لم ينزل القرآن، ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ يعني أن القرآن نور مع سائر الأدلة قبله، فازدادوا به نوراً على نور^(١). انتهى كلامه «رحمه الله».

١. مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٢٥-٢٢٧.

﴿باب ٤﴾

«معنى حجة الله عز وجل»

١٤٠٦. التوحيد^(١): مَا جِلَوِيهِ، عَنْ عَمِّهِ، عَنْ الْبَرْقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ، عَنْ أَبِي الْجَارُودِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ بَشِيرٍ الْهَمْدَانِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَنْفِيَّةِ يَقُولُ: حَدَّثَنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخَذَ بِحُجْرَةِ اللَّهِ، وَنَحْنُ أَخِذُونَ بِحُجْرَةِ نَبِيِّنَا، وَشِيعَتُنَا أَخِذُونَ بِحُجْرَتِنَا. قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا الْحُجْرَةُ؟ قَالَ: اللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ بِحُجْرَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَنَحْنُ آلَ مُحَمَّدٍ أَخِذُونَ بِأَمْرِ نَبِيِّنَا، وَشِيعَتُنَا أَخِذُونَ بِأَمْرِنَا.

١٤٠٧. التوحيد، عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ عَيْسَى، عَنْ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْخَزَّازِ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرُّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٣) قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَخَذَ بِحُجْرَةِ اللَّهِ، وَنَحْنُ أَخِذُونَ بِحُجْرَةِ نَبِيِّنَا، وَشِيعَتُنَا أَخِذُونَ بِحُجْرَتِنَا. ثُمَّ قَالَ: الْحُجْرَةُ: التُّورُ.

١٤٠٨. عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ، التوحيد^(٤): الدَّقَاقُ، عَنْ الْأَسَدِيِّ، عَنْ الْبَرْمَكِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْعَبَّاسِ، عَنْ الْحَسَنِ بْنِ يُوسُفَ^(٥)، عَنْ عَبْدِ السَّلَامِ، عَنْ عَمَّارٍ، عَنْ أَبِي الْيَقْطَانِ^(٦)، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: يَجِيءُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٦٥، ح ١.

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ١٦٥، ح ٢؛ عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ، ج ١، ص ١٢٦، ح ٢٠؛ وقد ورد في تفسير القمي، ج ٢، ص ١٠٤، بهذا المضمون.

٣. في تفسير القمي بهذا الإسناد: «علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبد الله بن جندب قال: كتبت إلى أبي الحسن الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ».

٤. لم نثر عليه فيما بأيدينا من العيون، وقد ورد في التوحيد (للصدوق)، ص ١٦٦، ح ٣؛ تفسير الصافي، ج ٢، ص ٤٧.

٥. يحتمل كونه الحسن بن علي بن يوسف بن بقاح الأزدي الثقة، كما يحتمل كون عبد السلام الآتي بعده هو ابن سالم البجلي الثقة، نقل النجاشي رواية الحسن بن علي بن يوسف بن بقاح عنه. (هامش المطبوع)

٦. كذا في النسخ والظاهر أن كلمة «عن» زائدة. وهو عمار بن موسى الساباطي أبو اليقطان. (هامش المطبوع)؛ وفي التوحيد: «عن عمار بن أبي اليقطان».

الْقِيَامَةِ أَخِذًا بِحُجْزَةِ رَبِّهِ، وَنَحْنُ آخِذُونَ بِحُجْزَةِ نَبِيِّنَا، وَشِيعَتُنَا آخِذُونَ بِحُجْزَتِنَا، فَنَحْنُ وَشِيعَتُنَا حِزْبُ اللَّهِ، وَحِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ، وَاللَّهُ مَا نَزَعُمُ أَنَّهَا حُجْزَةُ الْإِزَارِ وَلَكِنَّهَا أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، يَجِيءُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَخِذًا بِدَيْنِ اللَّهِ، وَنَجِيءُ نَحْنُ آخِذِينَ بِدَيْنِ نَبِيِّنَا، وَيَجِيءُ شِيعَتُنَا آخِذِينَ بِدِينِنَا.

١٤٠٩. وَقَدْ رُوِيَ^(١) عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: الصَّلَاةُ حُجْزَةُ اللَّهِ، وَذَلِكَ أَنَّهَا تَحْجُزُ الْمُصَلِّيَّ عَنِ الْمَعَاصِي مَا دَامَ فِي صَلَاتِهِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^(٢).

بيان:

الأخذ بالحجزة كناية عن التمسك بالسبب الذي جعلوه في الدنيا بينهم وبين ربهم ونبيهم وحججهم أي الأخذ بدينهم وطاعتهم ومتابعة أمرهم، وتلك الأسباب الحسنة تتمثل في الآخرة بالأنوار، فإذا عرفت ذلك فاعلم أن مضامين تلك الأخبار ترجع إلى أمر واحد، فقوله عليه السلام في الخبر الأول: «ولكن رسول الله ﷺ أخذ بأمر الله» أي بما عمل به من أوامر الله، فيحتج في ذلك اليوم، ويتمسك بأنه عمل بما أمره الله به؛ وكذا «النور» الذي ورد في الخبر الثاني يرجع إلى ذلك، إذ الأديان والأخلاق والأعمال الحسنة أنوار معنوية تظهر للناس في القيامة؛ والثالث ظاهر. قال الجزري: فيه: إنَّ الرحم أخذت بحجزة الرحمن، أي اعتصمت به والتجأت إليه مستجيرة. وأصل الحجزة موضع شد الإزار، ثم قيل للإزار: حجزة للمجاورة، واحتجز الرجل بالإزار: إذا شده على وسطه، فاستعاره للاعتصام والالتجاء والتمسك بالشيء والتعلق به، ومنه الحديث الآخر: «يا ليتني أخذ بحجزة الله» أي بسبب منه.

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٦٦، ح ٤؛ تفسير الصافي، ج ٤، ص ١١٨.

٢. العنكبوت/ ٥٥.

﴿باب ٥﴾

«نفي الرؤية وتأويل الآيات فيها»

الآيات:

النساء/١٥٣: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ...﴾.
 الأنعام/١٠٣: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١).

الروايات:

١٤١٠. الأماشي للصدوق^(٢): أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ إِسْرَاهِيمَ بْنِ هَاشِمٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ مَعْبُدٍ، عَنْ وَاصِلٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سِنَانٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: حَضَرْتُ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ الْبَاقِرَ عليه السلام وَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ فَقَالَ: يَا أَبَا جَعْفَرٍ أَيُّ شَيْءٍ تَعْبُدُ؟ قَالَ: اللَّهَ. قَالَ: رَأَيْتَهُ؟^(٣) قَالَ: لَمْ تَرَهُ الْعَيْنُ بِمُشَاهَدَةِ الْعَيْنِ، وَرَأَتْهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، لَا يُعْرَفُ بِالْقِيَاسِ، وَلَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ^(٤)، وَلَا يُشَبَّهُ بِالنَّاسِ، مَوْصُوفٌ بِالْآيَاتِ، مَعْرُوفٌ بِالْعَلَامَاتِ، لَا يَجُورُ فِي حُكْمِهِ، ذَلِكَ

١. **نقول:** تثبت الأدلة العقلية أنّ الله لا يمكن أن يرى بالعين، لأنّ العين لا تستطيع أن ترى إلّا الأجسام، أو على الأصح بعضاً من كميّات الأجسام، فإذا لم يكن الشّيء جسماً ولا كميّة من كميّات الجسم، لا يمكن أن تراه العين. وبتعبير آخر، إذا أمكنت رؤية شيء بالعين، فلأنّ لهذا الشّيء حيزاً واتّجاهاً وكتلة، في حين أنّ الله أرفع من أن يتصف بهذه الصفات، فهو وجود غير محدود وهو أسمى من عالم المادة المحدود في كل شيء. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٤، ص ٤١١)

٢. الأماشي (للصدوق)، ص ٢٧٨، ح ٤؛ الكافي، ج ١، باب في إبطال الرؤية، ص ٩٧، ح ٥؛ وقد ورد في أمالي المرتضى، ج ١، ص ١٥٠، مع اختلاف يسير.

٣. في أمالي المرتضى: «فقال له: هل رأيت ربك حين عبدته؟ فقال: لم أكن لأعبد شيئاً لم أره، فقال: كيف رأيتَه؟».

٤. لم يرد في المصدر: «ولا يدرك بالحواس».

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. قَالَ: فَخَرَجَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(١).

بيان:

قوله عليه السلام: «بحقائق الإيمان» أي بالعقائد التي هي حقائق أي عقائد عقلية ثابتة يقينية لا يتطرق إليها الزوال والتغير، هي أركان الإيمان، أو بالأنوار والآثار التي حصلت في القلب من الإيمان، أو بالتصديقات والإذعانات التي تحقق أن تسمى إيماناً، أو المراد بحقائق الإيمان ما ينتمي إليه تلك العقائد من البراهين العقلية، فإن الحقيقة ما يصير إليه حق الأمر ووجوبه، ذكره المطرزي في الغريبين. «لا يعرف بالقياس» أي بالمقايضة بغيره. وقوله عليه السلام: «ولا يشبهه بالناس» كالتعليل لقوله: «لا يدرك بالحواس». «موصوف بالآيات» أي إذا أريد أن يذكر ويوصف يوصف بأن له الآيات الصادرة عنه المنتمية إليه، أو إنما يوصف بالصفات الكمالية بما يشاهد من آيات قدرته وعظمته، وينزه عن مشابقتها لما يرى من العجز والنقص فيها. «معروف بالعلامات» أي يعرف وجوده وصفاته العينية الكمالية بالعلامات الدالة عليه لا بالكنه.

١٤١١. التوحيد، الأمالي للصدوق^(٢): الْقَطَّانُ وَالْذَّقَّاقُ وَالسَّنَانِيُّ^(٣)، عَنْ ابْنِ زَكَرِيَّا الْقَطَّانِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْعَبَّاسِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي السَّرِيِّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُونُسَ، عَنْ ابْنِ طَرِيفٍ، عَنِ الْأَصْبَغِ^(٤) - فِي حَدِيثٍ - قَالَ: قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ يَقَالُ لَهُ: ذِعْلَبُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَيْلَكَ يَا ذِعْلَبُ لَمْ أَكُنْ بِالَّذِي أَعْبُدُ رَبًّا لَمْ أَرَهُ.

قَالَ: فَكَيْفَ رَأَيْتَهُ؟ صِفْهُ لَنَا. قَالَ: وَيْلَكَ لَمْ تَرَهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْأَبْصَارِ، وَلَكِنْ رَأَتْهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ. وَيْلَكَ يَا ذِعْلَبُ إِنَّ رَبِّي لَا يُوصَفُ بِالْبُعْدِ، وَلَا بِالْحَرَكَةِ وَلَا بِالسُّكُونِ، وَلَا بِالْقِيَامِ قِيَامِ انْتِصَابٍ، وَلَا بِجَيْئَةٍ وَلَا بِذَهَابٍ، لَطِيفُ اللَّطَافَةِ لَا يُوصَفُ بِاللُّطْفِ، عَظِيمُ الْعَظَمَةِ لَا يُوصَفُ بِالْعَظَمِ، كَبِيرُ الْكِبَرِيَاءِ لَا يُوصَفُ بِالْكِبَرِ، جَلِيلُ الْجَلَالَةِ لَا يُوصَفُ بِالْغَلَطِ^(٥)، رَوْوْفُ الرَّحْمَةِ لَا يُوصَفُ بِالرَّقَّةِ، مُؤْمِنٌ لَا بِعِبَادَةٍ، مُدْرِكٌ لَا بِمَجَسَّةٍ، قَائِلٌ لَا بِالْفُظْ، هُوَ فِي الْأَشْيَاءِ عَلَى غَيْرِ مُمَازَجَةٍ، خَارِجٌ مِنْهَا عَلَى غَيْرِ مُبَايَنَةٍ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُقَالُ شَيْءٌ فَوْقَهُ، أَمَامَ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا يُقَالُ لَهُ أَمَامٌ، دَاخِلٌ فِي الْأَشْيَاءِ لَا كَشَيْءٍ فِي شَيْءٍ دَاخِلٍ، وَخَارِجٌ مِنْهَا لَا كَشَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ خَارِجٍ. فَخَرَّ ذِعْلَبُ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ؛ الْخَبَرُ.

١. في نسخة: حيث يجعل رسالاته. (هامش المطبوع) وكذا في المصدر.

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٣٠٥، ح ١؛ الأمالي (للصدوق)، ص ٣٤٢، ح ١؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب جوامع التوحيد، ص ١٣٨، ح ٤، مع نقصان.

٣. لم يرد في التوحيد: «السناني».

٤. في الكافي بهذا الإسناد: «محمد بن أبي عبد الله رفعه، عن أبي عبد الله عليه السلام».

٥. الغلط: ضد الرقة، في الخلق والطبع والفعل والمنطق والعيش ونحو ذلك، راجع لسان العرب.

بيان:

«ذعلب»: بكسر الهمزة وسكون العين المهملة وكسر اللام كما ضبطه الشهيد «رحمه الله»^(١). و«الأبصار»: بفتح الهمزة ويحتمل كسرهما. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لطيف اللطافة» أي لطافته لطيفة عن أن تدرك بالعقول والأفهام، ولا يوصف باللفظ المدرك لعباده في دقائق الأشياء ولطائفها، وعظمته أعظم من أن يحيط به الأذهان، وهو لا يوصف بالعظم الذي يدركه مدارك الخلق من عظام الأشياء وجلالها، وكبرياؤه أكبر من أن يوصف ويعبر عنه بالعبادة^(٢) والبيان، وهو لا يوصف بالكبر الذي يتصف به خلقه، وجلالته أجل من أن يصل إليه أفهام الخلق، وهو لا يوصف بالغلظ كما يوصف الجلائل من الخلق به، والمراد بالغلظ إما الغلظ في الخلق، أو الخشونة في الخلق. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا يوصف بالرقّة» أي رقة القلب لأنه من صفات الخلق، بل المراد فيه تعالى غايته. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مؤمن لا بعبادة» أي يؤمن عباده من عذابه، من غير أن يستحقوا ذلك بعبادة، أو يطلب عليه المؤمن لا كما يطلق بمعنى الإيمان والإذعان والتعبد. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا بلفظ» أي من غير تلفظ بلسان، أو من غير احتياج إلى إظهار لفظ، بل يلقي في قلوب من يشاء من خلقه ما يشاء.

١٤١٢. الأماي للصديق^(٣): عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُوسَى، عَنِ الصُّوفِيِّ، عَنِ الرُّوْيَانِيِّ، عَنْ عَبْدِ الْعَظِيمِ الْحَسَنِيِّ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي مُحَمَّدٍ قَالَ: قَالَ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾^(٤) قَالَ: يَعْنِي مُشْرِقَةً تَنْتَظِرُ ثَوَابَ رَبِّهَا.

بيان:

اعلم أن للفرقة المحقة في الجواب عن الاستدلال بتلك الآية على جواز الرؤية وجوهاً:
الأول: ما ذكره عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا الخبر من أن المراد بالناظرة المنتظرة كقوله تعالى: ﴿فَنَازِرَةٌ بِسْمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾^(٥) روي ذلك عن مجاهد، والحسن، وسعيد بن جبير، والضحاك، وهو المروي عن علي عَلَيْهِ السَّلَامُ. واعترض عليه بأن النظر بمعنى الانتظار لا يتعدى إلى. وأجيب بأن تعديته بهذا المعنى إلى كثيرة، كما قال الشاعر:

إني إليك لما وعدت لناظر
نظر الفقير إلى الغني الموسر

١. القواعد والفوائد، ج ١، ص ٧٨.

٢. في الطبع الحجري: «بالعبارة».

٣. الأماي (لصديق)، ص ٤٠٩، ح ١؛ وفي تفسير القمي، ج ٢، ص ٣٩٧، مع اختلاف يسير؛ روضة الواعظين، ج ١، ص ٣٤.

٤. القيامة/ ٢٢ و ٢٣.

٥. النمل/ ٣٥.

وقال آخر:

ويوم بذى قار رأيت وجوههم
إلى الموت من وقع السيوف نواظر
والشواهد عليه كثيرة مذكورة في مظانّه. ويحكى عن الخليل أنّه قال: يقال: نظرت إلى فلان بمعنى انتظرتّه.
وعن ابن عباس أنّه قال: العرب تقول: إنّما أنظر إلى الله ثمّ إلى فلان؛ وهذا يعمّ الأعمى والبصير، فيقولون:
عيني شاخصة إلى فلان وطامحة إليك، ونظري إلى الله وإليك. وقال الرازي: وتحقيق الكلام فيه أنّ قولهم في
الانتظار: «نظرته» بغير صلة فإنّما ذلك في الانتظار لمجيء الإنسان بنفسه، فأما إذا كان منتظراً لرّفده ومعونته
فقد يقال فيه: نظرت إليه^(١). انتهى. وأجيب أيضاً بأنّ لا نسلم أنّ لفظة «إلى» صلة للنظر، بل هو واحد الآلاء،
ومفعول به للنظر بمعنى الانتظار، ومنه قال الشاعر:

أبيض لا يرهّب الهُزال^(٢) ولا
يقطع رَحماً^(٣) ولا يخون إلى

أي لا يخون نعمة.

الثاني: أن يكون فيه حذف مضاف. أي إلى ثواب ربّها. أي هي ناظرة إلى نعيم الجنّة حالاً بعد حال فيزداد
بذلك سرورها، وذكر الوجوه والمراد به أصحاب الوجوه، روي ذلك عن جماعة من علماء المفسّرين من
الصحابة والتابعين وغيرهم^(٤).

الثالث: أن يكون «إلى» بمعنى «عند» وهو معنى معروف عند النحاة وله شواهد، كقول الشاعر:

فهل لكم فيما إلّيّ فإتني
طبيب بما أعيّا^(٥) النطاسيّ^(٦) حذيما^(٧)

أي فيما عندي، وعلى هذا يحتمل تعلّق الظرف بناصرة و بناظرة، والأوّل أظهر.

الرابع: أن يكون النظر إلى الربّ كناية عن حصول غاية المعرفة بكشف العلائق الجسمانية فكأنّها ناظرة
إليه تعالى، كقوله ﷺ^(٨): «اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ».

١. مفاتيح الغيب، ج ٣٠، ص ٧٣١.

٢. الهُزال: تقيض السّمن، راجع لسان العرب.

٣. الرّحْم: القرابة، راجع الصحاح.

٤. مجمع البيان، ج ١٠، ص ٦٠١.

٥. عبي فلان بالأمر: إذا عجز عنه، راجع لسان العرب.

٦. رجل نطاسيّ: عالم بالأُمور، حاذق بالطبّ وغيره، راجع لسان العرب.

٧. الحذيّم: الحاذق بالشيء، راجع لسان العرب.

٨. مصباح الشريعة، ص ٨.

١٤١٣. الأمالي للصدوق^(١): الْمُكْتَبُ، عَنْ مُحَمَّدٍ الْأَسَدِيِّ، عَنْ ابْنِ بَرِيعٍ، عَنِ الرُّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^(٢) قَالَ: لَا تُدْرِكُهُ أَوْهَامُ الْقُلُوبِ فَكَيْفَ تُدْرِكُهُ أَبْصَارُ الْعُيُونِ؟

بيان:

هذه الآية إحدى الدلالات التي استدلل بها النافون للرؤية وقرروها بوجهين: أحدهما: أن إدراك البصر عبارة شائعة في الإدراك بالبصر إسناداً للفعل إلى الآلة، والإدراك بالبصر هو الرؤية بمعنى اتّحاد المفهومين أو تلازمهما، والجمع المعرّف باللام - عند عدم قرينة العهدية والبعضية - للعموم والاستغراق بإجماع أهل العربية والأصول وأئمة التفسير وبشهادة استعمال الفصحاء، وصحة الاستثناء، فالله سبحانه قد أخبر بأنه لا يراه أحد في المستقبل، فلو رآه المؤمنون في الجنة لزم كذبه تعالى وهو محال^(٣).

واعترض عليه بأن اللام في الجمع لو كان للعموم والاستغراق كما ذكرتم كان قوله: تدركه الأبصار موجبة كلية، وقد دخل عليها النفي، فرفعها هو رفع الإيجاب الكلي، ورفع الإيجاب الكلي سلب جزئي، ولو لم يكن للعموم كان قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ سالبة مهملّة في قوّة الجزئية، فكان المعنى لا تدركه بعض الأبصار، ونحن نقول بموجبه حيث لا يراه الكافرون، ولو سلّم فلا نسلم عمومه في الأحوال والأوقات، فيحمل على نفي الرؤية في الدنيا جمعاً بين الأدلة.

والجواب أنه قد تقرّر في موضعه أن الجمع المحلّي باللام عامّ نفيّاً وإثباتاً في المنفيّ والمثبت كقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾^(٤) و﴿وَمَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾^(٥) حتّى أنّه لم يرد في سياق النفي في شيء من الكتاب الكريم إلّا بمعنى عموم النفي، ولم يرد لنفي العموم أصلاً. نعم، قد اختلف في النفي الداخل على لفظة «كلّ» لكنّه في القرآن المجيد أيضاً بالمعنى الذي ذكرنا كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^(٦) إلى غير ذلك، وقد اعترف بما ذكرنا في شرح المقاصد^(٧) وبالغ فيه؛ وأمّا منع عموم الأحوال والأوقات فلا يخفى فساده، فإنّ النفي المطلق الغير المقيّد لا وجه لتخصيصه ببعض الأوقات، إذ لا ترجيح

١. الأمالي (للصدوق)، ص ٤٠٩، ح ٢، روضة الواعظين، ج ١، ص ٣٤؛ متشابه القرآن (لابن شهر آشوب)، ج ١، ص ٩٣.

٢. الأنعام/ ١٠٣.

٣. شرح المقاصد، ج ٤، ص ٢٠١.

٤. غافر/ ٣١.

٥. التوبة/ ٩١.

٦. الحديد/ ٢٣.

٧. شرح المقاصد، ج ٤، ص ٢٠٢.

لبعضها على بعض، وهو أحد الأدلة على العموم عند علماء الأصول، وأيضاً صحة الاستثناء دليل عليه، وهل يمنع أحد صحة قولنا: ما كلّمت زيداً إلا يوم الجمعة، ولا أكلّمه إلا يوم العيد؟ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ﴾^(١)، وقال: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ﴾^(٢)، وأيضاً كل نفي ورد في القرآن بالنسبة إلى ذاته تعالى فهو للتأييد وعموم الأوقات لا سيما فيما قبل هذه الآية، وأيضاً عدم إدراك الأبصار جميعاً لشيء لا يختص بشيء من الموجودات خصوصاً مع اعتبار شمول الأحوال والأوقات فلا يختص به تعالى، فتعين أن يكون التمدح بعدم إدراك شيء من الأبصار له في شيء من الأوقات. وثانيهما: أنه تعالى تمدح بكونه لا يرى، فإنه ذكره في أثناء المدائح، وما كان من الصفات عدمه مدحاً كان وجوده نقصاً يجب تنزيه الله تعالى عنه، وإنما قلنا من الصفات احترازاً عن الأفعال كالعفو والانتقام، فإن الأول تفضّل، والثاني عدل، وكلاهما كمال.

١٤١٤. الأمالي للصدوق^(٣): الطالقاني، عن ابن عقدة، عن المنذر بن محمد، عن علي بن إسماعيل الميثمي، عن إسماعيل بن الفضل قال: سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن الله تبارك وتعالى هل يرى في المعاد؟ فقال: سبحانه الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، يا ابن الفضل إن الأبصار لا تدرك إلا ما له لؤن وكيفية، والله خالق الألوان والكيفية.

١٤١٥. التوحيد، عيون أخبار الرضا عليه السلام، الأمالي للصدوق^(٤): الهمداني، عن علي، عن أبيه، عن الهروي قال: قلت لعلي بن موسى الرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله ما تقول في الحديث الذي يرويه أهل الحديث: أن المؤمنين يزورون ربهم من منازلهم في الجنة؟ فقال: يا أبا الصلت إن الله تبارك وتعالى فضل نبيه محمداً صلى الله عليه وآله على جميع خلقه من النبيين والملائكة، وجعل طاعته طاعته، ومبايعته مبايعته^(٥)، وزيارته في الدنيا والآخرة زيارته، فقال الله عز وجل: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٦) وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^(٧) وقال النبي صلى الله عليه وآله: من زارني في حياتي أو بعد موتي فقد زار الله جلّ جلاله. ودرجة النبي صلى الله عليه وآله في الجنة أرفع الدرجات، فمن زاره إلى درجته في الجنة من منزله فقد زار الله تبارك وتعالى.

١. النساء/ ١٩.

٢. الطلاق/ ١.

٣. الأمالي (للصدوق)، ص ٤١٠، ح ٣؛ روضة الواعظين، ج ١، ص ٣٤.

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ١١٧، ح ٢١؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١١٥، ح ٣؛ الأمالي (للصدوق)، ص ٤٦٠، ح ٧.

٥. في التوحيد والعيون والأمالي: «ومتابعته متابعته».

٦. النساء/ ٨٠.

٧. الفتح/ ١٠.

قَالَ: قُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ فَمَا مَعْنَى الْخَبَرِ الَّذِي رَوَاهُ أَنْ ثَوَابَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ؟ فَقَالَ: يَا أَبَا الصَّلْتِ مَنْ وَصَفَ اللَّهَ بِوَجْهِ كَالْوُجُوهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَكِنَّ وَجْهَ اللَّهِ أَنْبِيَاؤُهُ وَرُسُلُهُ وَحُجَجُهُ «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ» هُمُ الَّذِينَ بِهِمْ يُتَوَجَّهُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى دِينِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَتَّقَى وَجْهَ رَبِّكَ﴾^(١)، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٢) فَالْنَّظَرُ إِلَى أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَحُجَجِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دَرَجَاتِهِمْ ثَوَابٌ عَظِيمٌ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَنْ أَبْغَضَ أَهْلَ بَيْتِي وَعِثْرَتِي لَمْ يَرْنِي وَلَمْ أَرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ ﷺ: إِنَّ فِيكُمْ مَنْ لَا يَرَانِي بَعْدَ أَنْ يُفَارِقَنِي. يَا أَبَا الصَّلْتِ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُوصَفُ بِمَكَانٍ وَلَا يُدْرَكُ بِالْأَبْصَارِ وَالْأَوْهَامِ؛ الْخَبَرُ.

١٤١٦. الأمامي للصدوق^(٣): ابْنُ نَاتَانَةَ، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْكَرْخِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِلصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ رَجُلًا رَأَى رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَنَامِهِ فَمَا يَكُونُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: ذَلِكَ رَجُلٌ لَا دِينَ لَهُ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَرَى فِي الْبَقَّةِ وَلَا فِي الْمَنَامِ، وَلَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

بيان:

لعل المراد أنه كذب في تلك الرؤيا، أو أنه لما كان مجسماً تخيل له ذلك، أو أن هذه الرؤيا من الشيطان وذكرها يدل على كونه معتقداً للتجسم.

١٤١٧. الإحتجاج^(٤): فِي خَبَرِ الزُّنْدِيقِ الَّذِي سَأَلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَمَّا تَوَهَّمَهُ مِنَ التَّنَاقُصِ فِي الْقُرْآنِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾^(٥) ذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ يَنْتَهِي فِيهِ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ مَا يَفْرُغُ مِنَ الْحِسَابِ إِلَىٰ نَهْرِ يُسَمَّى الْحَيَوَانَ، فَيَعْتَسلُونَ فِيهِ وَيَشْرَبُونَ مِنْ آخَرٍ، فَتَبَيَّصُ وُجُوهُهُمْ فَيَذْهَبُ^(٦) عَنْهُمْ كُلُّ قَذَى^(٧) وَوَعِثٌ، ثُمَّ يُؤْمَرُونَ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ فَمِنْ هَذَا الْمَقَامِ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمْ كَيْفَ يُثِيبُهُمْ، وَمِنْهُ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي تَسْلِيمِ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(٨) فَعِنْدَ ذَلِكَ

١. الرحمن/٢٦ و٢٧.

٢. القصص/٨٨.

٣. الأمامي (للصدوق)، ص ٦١٠، ح ٥؛ روضة الواعظين، ج ١، ص ٣٤؛ وفي متشابه القرآن (لابن شهر آشوب)، ج ١، ص ٩٣، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام.

٤. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ١، ص ٢٤٣؛ التوحيد (للصدوق)، ص ٢٦٢، ح ٥.

٥. القيامة/٢٢ و٢٣.

٦. في التوحيد: «ويشربون منه فتنضر وجوههم إشراقاً فيذهب...».

٧. القذى: ما يقع في العين من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك، راجع لسان العرب.

٨. الزمر/٧٣.

أُثْبِتُوا^(١) بِدُخُولِ الْجَنَّةِ وَالنَّظَرِ إِلَى مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وَالنَّازِرَةُ فِي بَعْضِ اللُّغَةِ هِيَ الْمُتَنَظِّرَةُ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَنَازِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾^(٢) أَيِ مُتَنَظِّرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ. وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾^(٣) يَعْنِي مُحَمَّدًا ﷺ حِينَ كَانَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، حَيْثُ لَا يُجَاوِزُهَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَوْلُهُ فِي آخِرِ الْآيَةِ: ﴿مَا رَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَعَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾^(٤) رَأَى جَبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي صُورَتِهِ مَرَّتَيْنِ: هَذِهِ الْمَرَّةَ وَمَرَّةً أُخْرَى، وَذَلِكَ أَنَّ خَلْقَ جَبْرَائِيلَ عَظِيمٌ فَهُوَ مِنَ الرُّوحَانِيِّينَ الَّذِينَ لَا يُدْرِكُ خَلْقَهُمْ وَصُورَتَهُمْ^(٥) إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ؛ الْخَبَرُ.

بيان:

«الوعث» والوعشاء: المشقة. قوله صلوات الله عليه: «والنظر إلى ما وعدهم الله» يحتمل أن يكون المراد بالنظر الانتظار، فيكون قوله: «والناظرة في بعض اللغة» تتمّة وتأييداً للتوجيه الأول، والأظهر أنه عليه السلام أشار إلى تأويلين: الأول: تقدير مضاف في الكلام، أي ناظرة إلى ثواب ربّها فيكون النظر بمعنى الإبصار. والثاني: أن يكون النظر بمعنى الانتظار، ويؤيده ما في التوحيد^(٦) في تتمّة التوجيه الأول: فذلك قوله: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَازِرَةٌ﴾ وإنما يعني بالنظر إليه النظر إلى ثوابه تبارك وتعالى، وأرجع عليه السلام الضمير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ إلى جبرئيل عليه السلام وسيأتي القول فيه.

١٤١٨. الإحتجاج^(٧): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَنَانٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾^(٨) قَالَ: إِحَاطَةُ الْوَهْمِ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ لَيْسَ يَعْنِي بَصَرَ الْعُيُونِ ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ لَيْسَ يَعْنِي مِنَ الْبَصَرِ بِعَيْنِهِ ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾^(٩) لَيْسَ يَعْنِي عَمَى الْعُيُونِ، إِنَّمَا عَمَى إِحَاطَةُ الْوَهْمِ، كَمَا يُقَالُ: فُلَانٌ بَصِيرٌ بِالشَّعْرِ، وَفُلَانٌ بَصِيرٌ بِالْفَقْهِ، وَفُلَانٌ بَصِيرٌ بِالدَّرَاهِمِ، وَفُلَانٌ بَصِيرٌ بِالثِّيَابِ، اللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُرَى بِالْعَيْنِ. التوحيد: (١٠) أَبِي، عَنْ مُحَمَّدٍ الْعَطَّارِ، عَنْ ابْنِ عِيسَى، عَنْ ابْنِ أَبِي نَجْرَانَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَنَانَ مِثْلَهُ.

١. في التوحيد: «أُثْبِتُوا».

٢. النمل/٣٥.

٣. النجم/١٣ و ١٤.

٤. النجم/١٧ و ١٨.

٥. وفي نسخة: لا يدرك خلقهم وصفتهم. (هامش المطبوع) وكذا في المصدر.

٦. التوحيد (للسدوق)، ص ٢٦٢.

٧. الإحتجاج (للتبرسي)، ج ٢، ص ٣٣٦: الكافي، ج ١، باب في إبطال الرؤية، ص ٩٨، ح ٩.

٨. الأنعام/١٠٣.

٩. الأنعام/١٠٤.

١٠. التوحيد (للسدوق)، ص ١١٢، ح ١٠.

بيان:

قوله عليه السلام: «اللَّهُ أعظم من أن يرى بالعين» هذا تفريع على ما سبق، أي إذا لم يكن مدركاً بالأوهام فيكون أعظم من أن يدرك بالعين، ويحتمل أن يكون المعنى أنه أعظم من أن يشك، أو يتوهم فيه أنه مدرك بالعين حتى يتعرض لنفيه فيكون دليلاً على أن المراد بالأبصار الأوهام.

١٤١٩. التوحيد^(١): ابن إدريس، عن أبيه، عن أحمد بن إسحاق قال: كتبت إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام أسأله عن الرؤية وما فيه الناس، فكتب عليه السلام: لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الراي والمرئي هواء ينقذه البصر، فإذا انقطع الهواء وعدم الضياء عن الراي والمرئي لم تصح الرؤية، وكان في ذلك الاشتباه لأن الراي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه، وكان في ذلك التشبيه؛ لأن الأسباب لا بد من اتصالها بالمسببات.

بيان:

استدل عليه السلام على عدم جواز الرؤية بأنها تستلزم كون المرئي جسمانياً ذا جهة وحيز وبين ذلك بأنه لا بد أن يكون بين الراي والمرئي هواء ينفذه البصر، وظاهره كون الرؤية بخروج الشعاع، وإن أمكن أن يكون كناية عن تحقق الإبصار بذلك وتوقفه عليه، فإذا لم يكن بينهما هواء وانقطع الهواء وعدم الضياء الذي هو أيضاً من شرائط الرؤية عن الراي والمرئي لم تصح الرؤية بالبصر، وكان في ذلك أي في كون الهواء بين الراي والمرئي الاشتباه يعني شبه كل منهما بالآخر يقال: اشتبها: إذا أشبه كل منهما الآخر لأن الراي متى ساوى المرئي وماثله في النسبة إلى السبب الذي أوجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه، ومشابهة أحدهما الآخر في توسط الهواء بينهما، وكان في ذلك التشبيه أي كون الراي والمرئي في طرفي الهواء الواقع بينهما يستلزم الحكم بمشابهة المرئي بالراي من الوقوع في جهة ليصح كون الهواء بينهما فيكون متحيزاً ذا صورة وضعية، فإن كون الشيء في طرف مخصوص من طرفي الهواء وتوسط الهواء بينه وبين شيء آخر سبب عقلي للحكم بكونه في جهة ومتحيزاً وذا وضع، وهو المراد بقوله عليه السلام: «لأن الأسباب لا بد من اتصالها بالمسببات»؛ ويحتمل أن يكون ذلك تعليلاً لجميع ما ذكر من كون الرؤية متوقفة على الهواء إلى آخر ما ذكر. وحاصله يرجع إلى ما ادّعاه جماعة من أهل الحق من العلم الضروري، بأن الإدراك المخصوص المعلوم بالوجه الممتاز عن غيره لا يمكن أن يتعلّق بما ليس في جهة وإلا لم يكن للبصر مدخل فيه، ولا كسب لرؤيته، بل المدخل في ذلك للعقل فلا وجه حينئذ لتسميته إبصاراً؛ والحاصل أن الإبصار بهذه الحاسة يستحيل أن يتعلّق بما ليس في جهة بديهة، وإلا لم يكن لها مدخل فيه، وهم قد جوّزوا الإدراك بهذه

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٠٩، ح ٧؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب في إبطال الرؤية، ص ٩٧، ح ٤، مع اختلاف يسير؛ وجاء في الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٤٤٩، مع اختلاف العبارات.

الجارحة^(١) الحساسة، وأيضاً هذا النوع من الإدراك يستحيل ضرورة أن يتعلّق بما ليس في جهة، مع قطع النظر عن أن تعلّق هذه الحاسة يستدعي الجهة والمقابلة. وما ذكره الفخر الرازي: من أن الضروري لا يصير محلاً للخلاف، وأن الحكم المذكور ممّا يقتضيه الوهم ويعين عليه، وهو ليس مأموناً، لظهور خطائه في الحكم بتجسّم الباري تعالى وتحيّزه، وما ظهر خطؤه مرّة فلا يؤمن بل يتّهم، ففاسد لأنّ خلاف بعض العقلاء في الضروريات جائز كالسوفسطائية والمعتزلة في قولهم بانفكاك الشيئية والوجود وثبوت الحال؛ وأمّا قوله: بأنّه حكم الوهم الغير المأمون فطريف^(٢) جداً لأنّه منقوض بجميع أحكام العقل، لأنّه أيضاً ممّا ظهر خطؤه مراراً، وجميع الهندسيات والحسابيات، وأيضاً مدخلية الوهم في الحكم المذكور ممنوع، وإنّما هو عقلي صرف عندنا، وكذلك ليس كون الباري تعالى متحيّراً ممّا يحكم به ويجزم، بل هو تخيل يجري مجرى سائر الأكاذيب في أن الوهم وإن صوّره وخيّله إلينا لكنّ العقل لا يكاد يجوّزه بل يحيله ويجزم ببطلانه، وكون ظهور الخطأ مرّة سبباً لعدم ائتمان المخطئ واتّهامه ممنوع أيضاً، وإلا قدح في الحسيات وسائر الضروريات، وقد تقرّر بطلانه في موضعه في ردّ شبه القادحين في الضروريات.

١٤٢٠. التوحيد^(٣): الدّقّاق، عَنِ الْكُلَيْنِيِّ، عَنِ أَحْمَدَ بْنِ إِدْرِيسَ، عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَحْيَى قَالَ: سَأَلَنِي أَبُو قُرَّةَ الْمُحَدِّثُ أَنْ أَدْخِلَهُ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَاسْتَأْذَنَتْهُ فِي ذَلِكَ فَأَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَسَأَلَهُ عَنِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَالْأَحْكَامِ حَتَّى بَلَغَ سُؤَالُهُ التَّوْحِيدَ، فَقَالَ أَبُو قُرَّةَ: إِنَّا رُوِينَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَسَمَ الرُّوْيَةَ وَالْكَلامَ بَيْنَ اثْنَيْنِ: فَقَسَمَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِمُحَمَّدٍ ﷺ الرُّوْيَةَ، فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَمَنِ الْمُبْلَغُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى الثَّقَلَيْنِ الْحِجْنِ وَالْإِنْسِ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^(٤) ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾^(٥) ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٦) أَلَيْسَ مُحَمَّدٌ ﷺ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَكَيْفَ يَجِيءُ رَجُلٌ إِلَى الْخَلْقِ جَمِيعاً فَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَيَقُولُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ وَ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا رَأَيْتُهُ بَعْثِي، وَأَخْطُتُ بِهِ عِلْمًا، وَهُوَ عَلَى صُورَةِ الْبَشَرِ؟! أَمَا يَسْتَحْيُونَ؟ مَا قَدَرْتَ الرَّنَادِقَةَ أَنْ تَزْمِيَهُ بِهِذَا أَنْ يَكُونَ يَأْتِي عَنِ اللَّهِ بِشَيْءٍ، ثُمَّ يَأْتِي بِخِلَافِهِ مِنْ وَجْهِ آخَرَ. قَالَ أَبُو قُرَّةَ: فَإِنَّهُ يَقُولُ:

١. الجارحة: واحدة جوارح الإنسان، راجع شمس العلوم.

٢. الطرفة: كلّ شيء استحدثته فأعجبك وهو الطريف، راجع لسان العرب.

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ١١٠، ح ٩؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب في إبطال الرؤية، ص ٩٥، ح ٢، مع اختلاف يسير؛ وجاء في أمالي المرتضى، ج ١، ص ١٤٩، مع اختلاف العبارات.

٤. الأنعام/١٠٣.

٥. طه/١١٠.

٦. الشورى/١١.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾^(١) فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا رَأَى حَيْثُ قَالَ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾^(٢) يَقُولُ مَا كَذَبَ فُؤَادُ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا رَأَتْ عَيْنَاهُ، ثُمَّ أَخْبَرَ بِمَا رَأَى فَقَالَ: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾^{(٣)(٤)} فَأَيَّاتُ اللَّهِ غَيْرُ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾، فَإِذَا رَأَتْهُ الْأَبْصَارُ فَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ الْعِلْمُ، وَوَقَعَتِ الْمَعْرِفَةُ. فَقَالَ أَبُو قُرَّةٍ: فَتُكَذِّبُ الرُّوَايَاتِ؟ فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِذَا كَانَتِ الرُّوَايَاتُ مُخَالَفَةً لِلْقُرْآنِ كَذَّبْتُ بِهَا، وَمَا أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ^(٥) أَنَّهُ لَا يُحِيطُ بِهِ عِلْمٌ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.

بيان:

اعلم أن المفسرين اختلفوا في تفسير تلك الآيات؛ قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾^(٦) يحتمل كون ضمير الفاعل في رأى راجعاً إلى النبي ﷺ وإلى الفؤاد. قال البيضاوي: ما كذب الفؤاد ما رأى ببصره من صورة جبرئيل عليه السلام، أو الله أي ما كذب الفؤاد بصره بما حكاها له، فإن الأمور القدسية تدرك أولاً بالقلب، ثم ينتقل منه إلى البصر؛ أو ما قال فؤاده لما رآه: لم أعرفك، ولو قال ذلك كان كاذباً لأنه عرفه بقلبه كما رآه بصره؛ أو ما رآه بقلبه، والمعنى لم يكن تخيلاً كاذباً، ويدل عليه: أَنَّهُ سُئِلَ ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: رَأَيْتُهُ بِفُؤَادِي. وقرئ ما كذب أي صدقه ولم يشك فيه. ﴿أَقْتَمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾^(٧) أفتجادلونه عليه، من المراء وهو المجادلة^(٨). انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾^(٩) قال الرازي: يحتمل الكلام وجوهاً ثلاثة: الأول: الرب تعالى^(١٠)،

١. النجم/١٣.

٢. النجم/١١.

٣. النجم/١٨.

٤. **نقول:** تغيير ترتيب الآيات إنما هو من باب ضرورة التفسير لأن ترتيبها في مصحف أهل البيت عليه السلام كان مغايراً لما هو الموجود بين المسلمين.

٥. وفي نسخة: وما اجتمع المسلمون عليه. (هامش المطبوع)

٦. النجم/١١.

٧. النجم/١٢.

٨. أنوار التنزيل، ج ٥، ص ١٥٨.

٩. النجم/١٣.

١٠. قال البغوي في معالم التنزيل: هو قول أنس والحسن وعكرمة، قالوا: رأى محمد ربه، وروى عكرمة عن ابن عباس قال: إن الله اصطفى إبراهيم بالخلعة، واصطفى موسى بالكلام، واصطفى محمداً ﷺ بالرواية؛ ونسب القول الثاني إلى ابن مسعود وعائشة، وروى بطريقه عن مسروق قيل: قلت لعائشة: يا أمّاه هل رأى محمد «صلى الله» ربه؟ فقالت: لقد تكلمت بشيء وقف له شعري ممّا قلت، أين أنت من ثلاث من

والثاني: جبرئيل عليه السلام، والثالث: الآيات العجيبة الإلهية^(١). انتهى. أي ولقد رآه نازلاً نزلة أخرى، فيحتمل نزوله عليه السلام ونزول مرثية.

فإذا عرفت محتملات تلك الآيات عرفت سخافة استدلالهم بها على جواز الرؤية ووقوعها بوجوه:
الأول: أنه يحتمل أن يكون المرئي جبرئيل عليه السلام، إذا المرئي غير مذكور في اللفظ، وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا الوجه في الخبر السابق. وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ بِإِسْنَادِهِ عَنْ زُرْعَةَ^(٢)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ قَالَ: رَأَى جَبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ سِتْمَانَةٌ جَنَاحَ. وَرَوَى أَيْضاً بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ قَالَ: رَأَى جَبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِصُورَتِهِ الَّتِي لَهُ فِي الْخَلْقَةِ الْأَصْلِيَّةِ.

الثاني: ما ذكره عليه السلام في هذا الخبر وهو قريب من الأول لكنه أعم منه. الثالث: أن يكون ضمير الرؤية راجعاً إلى الفؤاد، فعلى تقدير إرجاع الضمير إلى الله تعالى أيضاً لا فساد فيه. الرابع: أن يكون على تقدير إرجاع الضمير إليه عليه السلام وكون المرئي هو الله تعالى المراد بالرؤية غاية مرتبة المعرفة ونهاية الانكشاف.
وأما استدلاله عليه السلام بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٣) فهو إما لأن الرؤية تستلزم الجهة والمكان وكونه جسماً أو جسمانيّاً، أو لأن الصورة التي تحصل منه في المدركة تشبهه. قوله عليه السلام: «حيث قال» أي أولاً قبل هذه الآية، وإنما ذكر عليه السلام ذلك لبيان أن المرئي قبل هذه الآية غير مفسر أيضاً، بل إنما يفسره ما سيأتي بعدها. قوله عليه السلام: «وما أجمع المسلمون عليه» أي اتفق المسلمون على حقيقة مدلول ما في الكتاب مجملاً، والحاصل أن الكتاب قطعيّ السند متفق عليه بين جميع الفرق، فلا يعارضه الأخبار المختلفة المتخالفة التي تفرّدتم بروايتها.

ثم اعلم أنه عليه السلام أشار في هذا الخبر إلى دققة غفل عنها الأكثر، وهي أن الأشاعرة وافقونا في أن كنهه تعالى يستحيل أن يتمثل في قوة عقلية حتى أن المحقق الدواني نسبته إلى الأشاعرة موهماً اتّفاقهم عليه، وجوّزوا ارتسامه^(٤) وتمثله في قوة جسمانية، وتجويز إدراك القوة الجسمانية لها دون العقلية بعيد عن العقل

→ حدثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً صلى الله عليه وآله رأى ربه فقد كذب؟ ثم قرأت: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ... وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ (الشورى ٥١) إلى أن قالت: ولكنه رأى جبرئيل في صورته مرتين.

أقول: أخرجه البخاري في صحيحه، ج ٦، ص ٥٠، والمسلم في ج ١، ص ١١٠ من صحيحه ونسب القول الثاني الشيخ في التبيان إلى مجاهد والربيع أيضاً. (هامش المطبوع)

١. مفاتيح الغيب، ج ٢٨، ص ٢٤٢.

٢. الصحيح كما في نسخة: عن زرّ «أي ابن حبيش»، عن عبد الله. أخرجه المسلم في ج ١، ص ١٠٩، وكذا حديث أبي هريرة. (هامش المطبوع)

٣. الشورى ١١/.

٤. المقصود من ارتسامه: تصويره وتخيّله.

مستغرب، فأشار عليه إلى أن كل ما ينفي العلم بكنهه تعالى من السمع ينفي الرؤية أيضاً، فإن الكلام ليس في رؤية عرض من أعراضه تعالى بل في رؤية ذاته وهو نوع من العلم بكنهه تعالى^(١).

١٤٢١. التوحيد^(٢): أَبِي، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْعَطَّارِ، عَنْ ابْنِ عَيْسَى، عَنِ الْبَزْطِيِّ، عَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ بَلَغَ بِي جَبْرَيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَكَاناً لَمْ يَطَّاهُ جَبْرَيْلُ قَطُّ فَكَشَفَ لِي، فَأَرَانِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ نُورٍ عَظَمَتِهِ مَا أَحَبَّ.

١٤٢٢. التوحيد^(٣): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّقَّارِ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِي هَاشِمٍ الْجَعْفَرِيِّ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هَلْ يُوصَفُ^(٤)؟ فَقَالَ: أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: أَمَا تَقْرَأُ قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^(٥)؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَتَعْرِفُونَ الْأَبْصَارَ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قُلْتُ: أَبْصَارُ الْعُيُونِ، فَقَالَ: إِنَّ أَوْهَامَ الْقُلُوبِ أَكْثَرُ مِنْ أَبْصَارِ الْعُيُونِ^(٦) فَهُوَ لَا تُدْرِكُهُ الْأَوْهَامُ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَوْهَامَ.

بيان:

«أكثر» أي أعم إدراكاً فهو أولى بالتعرض لنفيه.

١٤٢٣. التوحيد^(٧): الدَّقَّاقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَمَّنْ ذَكَرَهُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَيْسَى، عَنْ أَبِي هَاشِمٍ الْجَعْفَرِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ بْنِ عَلِيٍّ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾^(٨) فَقَالَ: يَا أَبَا هَاشِمٍ أَوْهَامُ الْقُلُوبِ أَدْقُ مِنْ أَبْصَارِ الْعُيُونِ، أَنْتَ قَدْ تُدْرِكُ بَوْهِمِكَ السُّنْدَ وَالْهِنْدَ، وَالْبُلْدَانَ الَّتِي لَمْ تَدْخُلْهَا وَلَمْ تُدْرِكْهَا بِبَصَرِكَ^(٩) فَأَوْهَامُ الْقُلُوبِ لَا تُدْرِكُهُ، فَكَيْفَ أَبْصَارُ الْعُيُونِ.

١. لا ملازمة بين الأمرين فإنَّ حسَّ البصر لا ينال إلا الأضواء والألوان، وأمَّا جوهر الأجسام أعني موضوع هذه الأعراض فلا يناله شيء من الحواس لا البصر ولا غيره، وإنما طريق نبيله الفكر والقياس والرواية غير متعرضة لشيء من ذلك. (هامش المطبوع نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»).

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ١٠٨، ح ٤؛ وقد ورد في قرب الإسناد، ص ٣٥٧، ضمن ح ١٢٥٧، مع اختلاف يسير؛ الكافي ج ١، باب في إبطال الرؤية، ص ٩٨، ح ٨.

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ١١٢، ح ١١؛ الكافي، ج ١، باب في إبطال الرؤية، ص ٩٨، ح ١٠.

٤. أي: هل يوصف بأنه مرئي. (هامش المطبوع)

٥. الأنعام/١٠٣.

٦. في الكافي: «أكبر من أبصار العيون».

٧. التوحيد (للصدوق)، ص ١١٣، ح ١٢؛ الكافي، ج ١، باب في إبطال الرؤية، ص ٩٩، ح ١١؛ وقد ورد في الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٤٤١، ضمن رواية مع اختلاف يسير.

٨. الأنعام/١٠٣.

٩. وفي نسخة: ولا تدركها ببصرك. (هامش المطبوع)

١٤٢٤. التوحيد^(١): الدَّقَاقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ الْبَرْمَكِيِّ، عَنِ ابْنِ أَبَانَ، عَنِ بَكْرِ بْنِ صَالِحٍ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْخَزَّازِ وَمُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ قَالَا: دَخَلْنَا عَلَى أَبِي الْحَسَنِ الرُّضَا عليه السلام فَحَكَيْتَا لَهُ مَا رَوَيْ أَنَّ مُحَمَّدًا صلوات الله عليه رَأَى رَبَّهُ فِي هَيْئَةِ الشَّابِّ الْمُؤَفَّقِ فِي سِنِّ أُنْبَاءِ ثَلَاثِينَ سَنَةً، رَجُلَاهُ فِي خُضْرَةٍ وَقُلْنَا: إِنَّ هِشَامَ بْنَ سَالِمٍ وَصَاحِبَ الطَّاقِ وَالْمِثْمِيِّ يَقُولُونَ: إِنَّهُ أَجُوفٌ إِلَى الشُّرَّةِ^(٢) وَالْبَاقِي صَمَدٌ^(٣)، فَخَرَّ عليه السلام سَاجِدًا ثُمَّ قَالَ: سُبْحَانَكَ مَا عَرَفُوكَ وَلَا وَحَدُوكَ، فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَصَفُوكَ، سُبْحَانَكَ لَوْ عَرَفُوكَ لَوَصَفُوكَ بِمَا وَصَفْتَ بِهِ نَفْسَكَ، سُبْحَانَكَ كَيْفَ طَاوَعْتَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ شَبَّهُوكَ بِغَيْرِكَ، إِلَهِي لَا أَصِفُكَ إِلَّا بِمَا وَصَفْتَ بِهِ نَفْسَكَ، وَلَا أَشَبِّهُكَ بِخَلْقِكَ، أَنْتَ أَهْلٌ لِكُلِّ خَيْرٍ، فَلَا تَجْعَلْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(٤).

ثُمَّ التَّفَتَ إِلَيْنَا فَقَالَ: مَا تَوَهَّمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَوَهَّمُوا اللَّهَ غَيْرَهُ. ثُمَّ قَالَ: نَحْنُ آلَ مُحَمَّدٍ النَّمَطُ الْوُسْطَى^(٥) الَّذِي لَا يُدْرِكُنَا الْعَالِي وَلَا يَسْبِقُنَا النَّالِي، يَا مُحَمَّدُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلوات الله عليه حِينَ نَظَرَ إِلَى عَظَمَةِ رَبِّهِ كَانَ فِي هَيْئَةِ الشَّابِّ^(٦) الْمُؤَفَّقِ وَسِنِّ أُنْبَاءِ ثَلَاثِينَ سَنَةً، يَا مُحَمَّدُ عَظُمَ رَبِّي وَجَلَّ أَنْ يَكُونَ فِي صِفَةِ الْمَخْلُوقِينَ. قَالَ: قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ مَنْ كَانَتْ رِجْلَاهُ فِي خُضْرَةٍ؟ قَالَ: ذَلِكَ مُحَمَّدٌ صلوات الله عليه كَانَ إِذَا نَظَرَ إِلَى رَبِّهِ يَقْلِبُهُ جَعَلَهُ فِي نُورٍ مِثْلِ نُورِ الْحُجُبِ حَتَّى يَسْتَبِينَ لَهُ مَا فِي الْحُجُبِ، إِنَّ نُورَ اللَّهِ مِنْهُ اخْضَرَ مَا اخْضَرَ^(٧)، وَمِنْهُ احْمَرَّ مَا احْمَرَّ، وَمِنْهُ ابْيَضَّ مَا ابْيَضَّ، وَمِنْهُ غَيْرُ ذَلِكَ، يَا مُحَمَّدُ مَا شَهِدَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَنَحْنُ الْقَائِلُونَ بِهِ.

بيان:

قوله عليه السلام: «النمط الوسطى» - وفي الكافي: الأوسط - قال الجزري: فِي حَدِيثِ عَلِيِّ عليه السلام: خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَمَةِ النَّمَطُ الْأَوْسَطُ. النمط: الطريقة من الطرائق والضروب، يقال: ليس هذا من ذلك النمط أي من ذلك الضرب، والنمط: الجماعة من الناس أمرهم واحد. انتهى. قوله عليه السلام: «لا يدركنا العالي» في أكثر النسخ بالغين المعجمة، وفي بعضها بالعين المهملة، وعلى التقديرين المراد به: من يتجاوز الحد في الأمور. أي لا يدركنا ولا يلحقنا في سلوك طريق النجاة من يغلو فينا أو في كل شيء. و«التالي» أي التابع لنا لا يصل إلى النجاة إلا

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١١٣، ح ١٣؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه تعالى، ص ١٠٠، ح ٣، مع اختلاف يسير.

٢. الشُّرَّة: الوَقْبَةُ التي في وسط البطن، راجع لسان العرب.

٣. الصمد: هو الذي لا جوف له، راجع النهاية.

٤. وفي نسخة: فلا تجعلني مع القوم الظالمين. (هامش المطبوع)

٥. في التوحيد والكافي: «الأوسط».

٦. الموفق: هو بالميم والفاء في نسخ متعددة. وفسره البعض بتناسب الأعضاء، راجع مجمع البحرين.

٧. كذا في النسخ، ولعل الصحيح: «إِنَّ نُورَ اللَّهِ مِنْهُ اخْضَرَ اخْضَرَ مِنْهُ مَا اخْضَرَ»، وكذا فيما بعده. (هامش المطبوع)

بالأخذ عتاً، فلا يسبقنا بأن يصل إلى المطلوب لا بالتوصل بنا. وفي الكافي: «إِنَّ نُورَ اللَّهِ مِنْهُ أَخْضَرُ وَمِنْهُ أَحْمَرُ وَمِنْهُ أَيْبُضُ وَمِنْهُ غَيْرُ ذَلِكَ». وسيأتي في باب العرش في خبر أبي الطفيل: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْعَرْشَ مِنْ أَنْوَارٍ مَخْتَلِفَةٍ فَمِنْ ذَلِكَ الثُّورِ نُورٌ أَخْضَرَ اخْضَرَّتْ مِنْهُ الْخُضْرَةُ، وَنُورٌ أَصْفَرَ اصْفَرَّتْ مِنْهُ الصُّفْرَةُ، وَنُورٌ أَحْمَرَ اخْمَرَّتْ مِنْهُ الْحُمْرَةُ، وَنُورٌ أَيْبُضَ وَهُوَ نُورُ الْأَنْوَارِ وَمِنْهُ ضَوْءُ النَّهَارِ».

ثم اعلم أنه يمكن إبقاء الحجب والأنوار على ظواهرها، بأن يكون المراد بالحجب أجساماً لطيفة مثل العرش والكرسي يسكنها الملائكة الروحانيون، كما يظهر من بعض الدعوات والأخبار أي أفاض عليه شبيه نور الحجب ليمكن له رؤية الحجب كنور الشمس بالنسبة إلى عالمنا، ويحتمل التأويل أيضاً بأن يكون المراد بها الوجوه التي يمكن الوصول إليها في معرفة ذاته تعالى وصفاته إذ لا سبيل لأحد إلى الكنه، وهي تختلف باختلاف درجات العارفين قرباً وبعداً، فالمراد بنور الحجب قابلية تلك المعارف وتسميتها بالحجب؛ إما لأنها وسائط بين العارف والرب تعالى كالحجاب، أو لأنها موانع عن أن يسند إليه تعالى ما لا يليق به، أو لأنها لما لم تكن موصلة إلى الكنه فكانت حجب، إذ الناظر خلف الحجاب لا تتبين له حقيقة الشيء كما هي. وقيل: إن المراد بها العقول، فإنها حجب نور الأنوار ووسائط النفوس الكاملة، والنفس إذا استكملت ناسبت نوريتها نورية تلك الأنوار فاستحقت الاتصال بها والاستفادة منها، فالمراد بجعله في نور الحجب جعله في نور العلم والكمال مثل نور الحجب، حتى يناسب جوهر ذاته جوهر ذاتهم فيستبين له ما في ذاتهم^(١)؛ ولا يخفى فساده على أصولنا بوجوه شتى.

وأما تأويل ألوان الأنوار فقد قيل فيه وجوه:

الأول: أنها كناية عن تفاوت مراتب تلك الأنوار بحسب القرب والبعد من نور الأنوار، فالأبيض هو الأقرب، والأخضر هو الأبعد كأنه ممزج بضرب من الظلمة، والأحمر هو المتوسط بينهما، ثم ما بين كل اثنين ألوان أخرى كألوان الصبح والشفق المختلفة في الألوان لقربها وبعدها من نور الشمس.

الثاني: أنها كناية عن صفاته المقدسة، فالأخضر قدرته على إيجاد الممكنات، وإفاضته الأرواح التي هي عيون الحياة ومنابع الخضرة، والأحمر غضبه وقهره على الجميع بالإعدام والتعذيب، والأبيض رحمته ولطفه على عباده كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾^(٢).

الثالث: ما استفدته من الوالد العلامة «قدس الله روحه» وذكر أنه مما أفيض عليه من أنوار الكشف واليقين، وبيانه يتوقف على تمهيد مقدمة، وهي أن لكل شيء مثلاً في عالم الرؤيا والمكاشفة، وتظهر تلك

١. التعليقة على أصول الكافي (الميرداماد)، ج ٢، ص ٢٢٩ و ٢٣٠.

٢. آل عمران/ ١٠٧.

الصور والأمثال على النفوس مختلفة باختلاف مراتبها في النقص والكمال، فبعضها أقرب إلى ذي الصورة، وبعضها أبعد، وشأن المعبر أن ينتقل منها إلى ذواتها.

فإذا عرفت هذا فالنور الأصفر عبارة عن العبادة ونورها كما هو المجرب في الرؤيا، فإنه كثيراً ما يرى الرائي الصفرة في المنام، فيتيسر له بعد ذلك عبادة يفرح بها وكما هو المعين في جباه^(١) المتجهدين، وقد ورد في الخبر في شأنهم أنه ألبسهم الله من نوره لما خلوا به. والنور الأبيض: العلم لأنه منشأ للظهور وقد جرب في المنام أيضاً. والنور الأحمر: المحبة، كما هو المشاهد في وجوه المحبين عند طغيان المحبة وقد جرب في الأحلام أيضاً. والنور الأخضر: المعرفة، كما تشهد به الرؤيا ويناسبه هذا الخبر، لأنه صلى الله عليه وسلم في مقام غاية العرفان كانت رجلاه في خضرة، ولعلهم عليه السلام إنما عبروا عن تلك المعاني على تقدير كونها مرادة بهذه التعبيرات لقصور أفهامنا عن محض الحقيقة كما تعرض على النفوس الناقصة في الرؤيا هذه الصور، ولأننا في منام طويل من الغفلة عن الحقائق كما قال عليه السلام (٢): النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا. وهذه التأويلات غاية ما يصل إليه أفهامنا القاصرة، والله أعلم بمراد حجه وأوليائه عليه السلام.

١٤٢٥. التوحيد (٣): ابن الوليد، عن إبراهيم بن هاشم، عن ابن أبي عمير، عن مرزم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَغْنِي بِقَلْبِهِ.

وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ مَا حَدَّثَنَا بِهِ ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّقَّارِ، عَنِ ابْنِ أَبِي الْخَطَّابِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْفَضِيلِ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا الْحَسَنِ عليه السلام هَلْ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، بِقَلْبِهِ رَأَاهُ، أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (٤) لَمْ يَرَهُ بِالْبَصَرِ وَلَكِنْ رَأَاهُ بِالْفُؤَادِ.

١٤٢٦. التوحيد (٥): أبي، عن سعد، عن الأصمغاني، عن المنقري، عن حفص أو غيره قال: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ (٦) قَالَ: رَأَى جَبْرِئِيلَ عليه السلام عَلَى سَاقِهِ الدُّرُّ مِثْلَ الْقَطْرِ عَلَى الْبُقْلِ، لَهُ سِتْمَانَةُ جَنَاحٍ، قَدْ مَلَأَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. (٧)

١٤٢٧. التوحيد (٨): الدقاق، عن الأسدي، عن علي بن أبي القاسم، عن يعقوب بن إسحاق قال: كَتَبْتُ إِلَى أَبِي

١. الجبهة: موضع السجود وجمعها جباه، راجع لسان العرب.

٢. خصائص الأئمة عليهم السلام (خصائص أمير المؤمنين عليه السلام)، ص ١١٢.

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ١١٦، ح ١٦ و ١٧.

٤. النجم / ١١.

٥. التوحيد (للصدوق)، ص ١١٦، ح ١٨؛ تفسير القمي، ج ٢، ص ٣٣٨.

٦. النجم / ١٨.

٧. نقول: يمكن ظهور الملائكة بصور مختلفة منها هذه الصورة ولا بعد فيه أو يكون كناية عن قواهم المختلفة.

٨. التوحيد (للصدوق)، ص ١٠٨، ح ٢؛ الكافي، ج ١، باب في إبطال الرؤية، ص ٩٥، ح ١.

مُحَمَّدٌ ﷺ أَسْأَلُهُ كَيْفَ يَعْبُدُ الْعَبْدُ رَبَّهُ وَهُوَ لَا يَرَاهُ؟ فَوَقَّعَ: يَا أَبَا يُوسُفَ، جَلَّ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ وَالْمُنْعِمُ عَلَيَّ وَعَلَى آبَائِي أَنْ يَرَى. قَالَ: وَسَأَلْتُهُ هَلْ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَبَّهُ؟ فَوَقَّعَ: أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَرَى رَسُولَهُ بِقَلْبِهِ مِنْ نُورٍ عَظَمَتِهِ مَا أَحَبُّ.

١٤٢٨. التوحيد^(١): ابْنُ إِدْرِيسَ، عَنْ أَبِيهِ^(٢)، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ، عَنْ صَفْوَانَ، عَنْ ابْنِ حُمَيْدٍ قَالَ: ذَاكَرْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا يَرُوءُونَ مِنَ الرُّؤْيَا، فَقَالَ الشَّمْسُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نُورِ الْكُرْسِيِّ، وَالْكُرْسِيُّ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نُورِ الْعَرْشِ، وَالْعَرْشُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نُورِ الْحِجَابِ، وَالْحِجَابُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نُورِ السِّرِّ^(٣)، فَإِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فَلْيَمْلُؤُوا أَعْيُنَهُمْ مِنَ الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ.

بيان:

لعله تمثيل وتنبيه على عجز القوى الجسمانية، وبيان لأن لا دراكها حداً لا تتجاوزه؛ ويحتمل أن يكون تنبيهاً بضعف القوى الظاهرة على ضعف القوى الباطنة، أي كما لا يقدر بصرك في رأسك على تحديد النظر إلى الشمس، فكذلك لا تقدر عين قلبك على مطالعة شمس ذاته وأنوار جلاله، والأول أظهر.

١٤٢٩. التوحيد^(٤): الدَّقَاقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ النَّخَعِيِّ، عَنِ النَّوْفَلِيِّ، عَنِ الْبُطَائِنِيِّ، عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هَلْ يَرَاهُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَقَدْ رَأَوْهُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. فَقُلْتُ: مَتَى؟ قَالَ: حِينَ قَالَ لَهُمْ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾^(٥)، ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَيَرَوْنَهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٦)، أَلَسْتُ تَرَاهُ فِي وَقْتِكَ هَذَا؟ قَالَ أَبُو بَصِيرٍ: فَقُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ فَاحْدِثْ بِهِذَا عَنْكَ؟ فَقَالَ: لَا، فَإِنَّكَ إِذَا حَدَّثْتَ بِهِ فَأَنْكَرَهُ مُنْكَرٌ جَاهِلٌ بِمَعْنَى مَا تَقُولُهُ، ثُمَّ قَدَّرَ أَنَّ ذَلِكَ تَشْبِيهُ وَكُفْرٌ^(٧)، وَلَيْسَتْ الرُّؤْيَا بِالْقَلْبِ

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٠٨، ح ٣؛ الكافي، ج ١، باب في إبطال الرؤية، ص ٩٨، ح ٧.

٢. لم يرد في الكافي: «عن أبيه».

٣. في المصدر والكافي: «جزءاً من نور الستر».

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ١١٧، ح ٢٠؛ نوادر الأخبار (للفيضي)، ص ٨٢، ح ٣.

٥. الأعراف/١٧٢.

٦. لأن في القيامة يظهر آثار عظمتهم وكبريائهم وملكوته وسلطانه أشد الظهور، ويرتفع حجب الشكوك والأوهام وأستار الجحد والعناد عن القلوب، فما من نفس إلا وهي مدعنة لربوبيته وموقنة بألوهيته، وخاشعة لعظمتهم وكبريائهم، وصعق من في السماوات والأرض، كل أتوه داخرين وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا... فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (ق/٢٢) هذا حال غير أوليائه وأصفيائه، وأمّا عباد الله الصالحون فلهم الدنيا والآخرة سيّان، فما رأون شيئاً إلا ويرون الله قبله وبعده ومعه، بل لو كشف الغطاء ما ازدادوا يقيناً. وبالجملة ما يمنع عن رؤيته وظهور براهين وجوده وشواهد قدرته هو التوغل والانهماك في الماديات وتعلق القلب بالدنيا وزخرفها وإلا فهو ظاهر مشهور، لم يحتجب عن خلقه، ولم يمنعهم عن عرفان جماله، ولنعم ما قال زين العابدين «عليه الصلاة والسلام»: إِنَّكَ لَا تَحْتَجِبُ عَنْ خَلْقِكَ إِلَّا أَنْ تَحْجِبَهُمُ الْأَعْمَالُ دُونَكَ. (هامش المطبوع)

٧. في المصدر والنوادر: «تشبيه كفر».

كَالرُّؤْيَةِ بِالْعَيْنِ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَصِفُهُ الْمُشَبِّهُونَ وَالْمُلْحِدُونَ.

١٤٣٠. الأُمالي للصدوق، التوحيد^(١): ابْنُ الْمُتَوَكِّلِ، عَنِ السَّعْدِ آبَادِيٍّ، عَنِ الْبَرْقِيِّ، عَنِ أَبِيهِ، عَنِ أَحْمَدَ بْنِ النَّضْرِ، عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ، عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ السَّائِبِ، عَنِ أَبِي صَالِحٍ، عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) قَالَ: يَقُولُ: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ مِنْ أَنْ أَسْأَلَكَ رُؤْيَةً، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِأَنَّكَ لَا تَرَى.

قال الصدوق «رحمه الله»: إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الرُّؤْيَةُ، وَإِنَّمَا سَأَلَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَرِيهِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ عَنْ قَوْمِهِ حِينَ الْحَوَا^(٣) عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، فَسَأَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَبَّهُ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَأْذِنَهُ، فَقَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ فِي حَالِ تَدَكُّدِهِ^(٤) ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾^(٥) وَمَعْنَاهُ أَنَّكَ لَا تَرَانِي أَبَدًا، لِأَنَّ الْجَبَلَ لَا يَكُونُ سَاكِنًا مُتَحَرِّكًَا فِي حَالِ أَبَدٍ، وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾^(٦) وَمَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ أَبَدًا، كَمَا لَا يَلْبِغُ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ أَبَدًا ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ أَيُّ ظَهَرَ بَآيَةً مِنْ آيَاتِهِ وَتِلْكَ الْآيَةُ نُورٌ مِنَ الْأَنْوَارِ الَّتِي خَلَقَهَا أَلْقَى مِنْهَا عَلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ ﴿فَجَعَلَهُ دَكَّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ مِنْ هَوْلِ تَدَكُّدِكَ ذَلِكَ الْجَبَلِ عَلَى عَظَمِهِ وَكِبَرِهِ، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أَيُّ رَجَعْتُ إِلَى مَعْرِفَتِي بِكَ عَادِلًا عَمَّا حَمَلَنِي عَلَيْهِ قَوْمِي مِنْ سَوَالِكِ الرُّؤْيَةِ؛ وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ التَّوْبَةُ مِنْ ذَنْبِهِ، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يَذْنُبُونَ ذَنْبًا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا، وَلَمْ يَكُنِ الْاسْتِئْذَانُ قَبْلَ السُّؤَالِ بَوَاجِبٍ عَلَيْهِ، لَكِنَّهُ كَانَ أَدْبًا أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ وَيَأْخُذَ بِهِ نَفْسَهُ مَتَى أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ؛ عَلَى أَنَّهُ قَدْ رَوَى قَوْمٌ أَنَّهُ قَدْ اسْتَأْذَنَ فِي ذَلِكَ فَأَذِنَ لَهُ لِيَعْلَمَ قَوْمَهُ بِذَلِكَ أَنَّ الرُّؤْيَةَ لَا تَجُوزُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٨) يَقُولُ: أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ - مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ، وَسَأَلُوهُ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَرِيهِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ - بِأَنَّكَ لَا تَرَى.

والأخبار التي رويت في هذا المعنى وأخرجها مشايخنا «رضي الله عنهم» في مصنفاتهم عندي صحيحة،

١. الأُمالي (للصدوق)، ص ٥١٠، ح ٣؛ التوحيد (للصدوق)، ص ١١٨، ح ٢٢.

٢. الأعراف/١٤٣.

٣. أَلَحَّ عَلَى الشَّيْءِ: إِذَا لَزِمَهُ وَأَصْرَّ عَلَيْهِ، رَاجِعَ لِسَانَ الْعَرَبِ.

٤. فِي التَّوْحِيدِ: «فِي حَالِ تَزَلُّزِهِ».

٥. تَدَكَّدَكَ: تَزَلُّزَ وَهُوَ يَبُّ.

٦. الأعراف/١٤٣.

٧. الأعراف/٤٠.

٨. الأعراف/١٤٣.

وإنما تركت إيرادها في هذا الباب خشية أن يقرأها جاهل بمعانيها، فيكذب بها فيكفر بالله عز وجل وهو لا يعلم.

والأخبار التي ذكرها أحمد بن محمد بن عيسى في نوادره والتي أوردها محمد بن أحمد بن يحيى في جامعه في معنى الرؤية صحيحة لا يردّها إلا مكذب بالحق أو جاهل به، وألفاظها ألفاظ القرآن، ولكل خبر معنى ينفي التشبيه والتعطيل، ويثبت التوحيد، وقد أمرنا الأئمة «صلوات الله عليهم» أن لا نكلّم الناس إلا على قدر عقولهم، ومعنى الرؤية هنا الواردة في الأخبار: العلم، وذلك أن الدنيا دار شكوك وارتياح وخطرات، فإذا كان يوم القيامة كشف للعباد من آيات الله وأمره في ثوابه وعقابه ما تزول به الشكوك، ويعلم حقيقة قدرة الله عز وجل وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(١) فمعنى ما روي في الحديث أنه عز وجل يرى أي يعلم علماً يقينياً، كقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾^(٢) وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾^(٣) وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾^(٤) وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾^(٥) وأشبه ذلك من رؤية القلب وليست من رؤية العين، وأمّا قول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾^(٦) فمعناه: لما ظهر عز وجل للجبل بآية من آيات الآخرة التي يكون بها الجبال سراباً، والذي ينسف^(٧) بها الجبال نسفاً، تدكدك الجبل فصار تراباً لأنّه لم يطق حمل تلك الآية، وقد قيل: إنّه بدا له نور العرش.

وتصديق ما ذكرته ما حدّثنا^(٨) به تميم القرشي، عن أبيه، عن حمّد بن سليمان، عن علي بن محمد بن الجهم

١. ق/٢٢.

٢. الفرقان/٤٥.

٣. البقرة/٢٥٨.

٤. البقرة/٢٤٣.

٥. الفيل/١.

٦. قال الرضي في تلخيصه: هذه استعارة على أحد وجهي التأويل وهو أن يكون المعنى: فلما حقّق تعالى بمعرفته لحاضري الجبل الآيات التي أحدثها في العلم بحقيقته عوارض الشبه وخوالج الريب، وكأنّ معرفته سبحانه تجلّت لهم من غطاء أو برزت لهم من حجاب. وأمّا التأويل الآخر وهو أن يقدر في الكلام محذوف، هو سلطانه أو أمره سبحانه، ويكون تقدير الكلام: فلما تجلّى أمر ربه أو سلطان ربه للجبل، ويكون ذلك مثل قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ (الفجر/٢٢) أي ملائكة ربك أو أمر ربك أو عقاب ربك، وهذه استعارة من وجه آخر وهو من حيث وصف الأمر أو السلطان بالتجلي وإنما المتجلي حاملهما والوارد بهما. (هامش المطبوع)

٧. ينسف: يقلع، راجع لسان العرب.

٨. التوحيد (للصدوق)، ص ١٢١، ح ٢٤؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ٢٠٠، ح ١؛ الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٤٢٩؛ وقد ورد في الأخيرين ضمن رواية.

قَالَ: حَضَرْتُ مَجْلِسَ الْمَأْمُونِ وَعِنْدَهُ الرِّضَا عَلِيُّ بْنُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ الْمَأْمُونُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، أَلَيْسَ مِنْ قَوْلِكَ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ؟ قَالَ: بَلَى، فَسَأَلَهُ عَنْ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، فَكَانَ فِيهَا سَأَلَ أَنْ قَالَ لَهُ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ الْآيَةَ^(١)؟ كَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَلِيمُ اللَّهِ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الرُّؤْيَةُ حَتَّى يَسْأَلَهُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ؟ فَقَالَ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ كَلِيمَ اللَّهِ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَنْ أَنْ يُرَى بِالْأَبْصَارِ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا كَلَّمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَرَّبَهُ نَجِيًّا^(٢) رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَلَّمَهُ وَقَرَّبَهُ وَنَاجَاهُ، فَقَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَسْمَعَ كَلَامَهُ كَمَا سَمِعْتَ، وَكَانَ الْقَوْمُ سَبْعِمِائَةَ أَلْفٍ رَجُلٍ فَاخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعِينَ أَلْفًا، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعَةَ أَلْفٍ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعِمِائَةَ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِ رَبِّهِ، فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى طُورٍ سَيْنَاءَ، فَأَقَامَهُمْ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ^(٣) وَصَعِدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الطُّورِ، وَسَأَلَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يُكَلِّمَهُ وَيُسْمِعَهُمْ كَلَامَهُ، فَكَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ وَسَمِعُوا كَلَامَهُ مِنْ فَوْقٍ وَأَسْفَلَ وَيَمِينٍ وَشِمَالٍ وَوَرَاءَ وَأَمَامٍ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخَذَتْهُ فِي الشَّجَرَةِ، ثُمَّ جَعَلَهُ مُنْبَعِثًا مِنْهَا حَتَّى سَمِعُوهُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، فَقَالُوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ بِأَنَّ هَذَا الَّذِي سَمِعْنَاهُ كَلَامُ اللَّهِ ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾^(٤)، فَلَمَّا قَالُوا هَذَا الْقَوْلَ الْعَظِيمَ وَاسْتَكْبَرُوا وَعَتَوْا بَعَثَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ صَاعِقَةً فَأَخَذَتْهُمْ بِظُلْمِهِمْ فَمَاتُوا، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ مَا أَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا رَجَعْتُ إِلَيْهِمْ وَقَالُوا: إِنَّكَ ذَهَبْتَ بِهِمْ فَقَتَلْتَهُمْ لِأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ صَادِقًا فِيَمَا ادَّعَيْتَ مِنْ مُنَاجَاةِ اللَّهِ إِلَيْكَ؟ فَأَحْيَاهُمُ اللَّهُ وَبَعَثَهُمْ مَعَهُ، فَقَالُوا: إِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ اللَّهَ أَنْ يُرِيكَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ لَأَجَابَكَ، وَكُنْتَ تُخْبِرُنَا كَيْفَ هُوَ فَعَرَفُهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ! فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا قَوْمِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُرَى بِالْأَبْصَارِ وَلَا كَيْفِيَّةً لَهُ، وَإِنَّمَا يُعْرَفُ بِآيَاتِهِ وَيُعْلَمُ بِأَعْلَامِهِ. فَقَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَسْأَلَهُ، فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ قَدْ سَمِعْتَ مَقَالََةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِصَلَاحِهِمْ فَأَوْحَى اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ إِلَيْهِ: يَا مُوسَى اسْأَلْنِي مَا سَأَلُوكَ فَلَنْ أُؤَاخِذَكَ بِجَهْلِهِمْ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾ وَهُوَ يَهْوِي ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ بِآيَاتِهِ ﴿جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ يَقُولُ: رَجَعْتُ إِلَى مَعْرِفَتِي بِكَ عَنْ جَهْلِ قَوْمِي ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مِنْهُمْ بِأَنَّكَ لَا تُرَى. فَقَالَ الْمَأْمُونُ: لِلَّهِ دَرْكٌ^(٥) يَا أَبَا الْحَسَنِ، الْخَيْرَ.

١. الأعراف/١٤٣.

٢. النجى: المناجى والمخاطب للإنسان والمحدث له، راجع مجمع البحرين.

٣. سفح الجبل: أسفله، راجع الصحاح.

٤. البقرة/٥٥.

٥. لله دَرْكٌ: لله ما خرج منك من خير، راجع لسان العرب.

بيان:

اعلم أن المنكرين للرؤية والمثبتين لها كليهما استدلّوا بما ورد في تلك القصة على مطلوبهم، فأما المثبتون فاحتجّوا بها بوجهين:

الأول: أن موسى عليه السلام سأل الرؤية ولو امتنع كونه تعالى مرئياً لما سأل، لأنه حينئذ إما أن يعلم امتناعه أو يجهره، فإن علمه فالعاقل لا يطلب المحال لأنه عبث، وإن جهله فالجاهل بما لا يجوز على الله تعالى ويمتنع لا يكون نبياً كليماً.

وأجيب عنه بوجه:

الأول: ما ورد في هذا الخبر من أن السؤال إنما كان بسبب قومه لا لنفسه لأنه كان عالماً بامتناعها، وهذا أظهر الوجوه واختاره السيّد الأجل المرتضى في كتابي تنزيه الأنبياء وغرر الفوائد، وأيده بوجه: منها: حكاية طلب الرؤية من بني إسرائيل في مواضع، كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(٢) ومنها: أن موسى عليه السلام أضاف ذلك إلى السفهاء، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾^(٣) وإضافة ذلك إلى السفهاء تدلّ على أنه كان بسببهم ومن أجلهم حيث سألوا ما لا يجوز عليه تعالى.

فإن قيل: فلم أضاف السؤال إلى نفسه ووقع الجواب مختصاً به؟ قلنا: لا يمتنع وقوع الإضافة على هذا الوجه، مع أن السؤال كان لأجل الغير إذا كانت هناك دلالة تؤمن من اللبس، فلهذا يقول أحدنا - إذا شفع في حاجة غيره - للمشفوع إليه: أسألك أن تفعل بي كذا وتجيبيني إلى ذلك، ويحسن أن يقول المشفوع إليه: قد أجبتك وشفعتك، وما جرى مجرى ذلك^(٤)، على أنه قد ذكر في الخبر ما يغني عن هذا الجواب.

وأما ما يورد في هذا المقام من أن السؤال إذا كان للغير فأيّ جرم كان لموسى عليه السلام حتى تاب منه؟ فأجاب عليه السلام بحمل التوبة على معناه اللغوي أي الرجوع أي كنت قطعت النظر عما كنت أعرفه من عدم جواز رؤيتك، وسألت ذلك للقوم، فلما انقضت المصلحة في ذلك تركت هذا السؤال، ورجعت إلى معرفتي بعدم جواز رؤيتك وما تقتضيه من عدم السؤال.

١. النساء/١٥٣.

٢. البقرة/٥٥.

٣. الأعراف/١٥٥.

٤. أمالي المرتضى، ج ٢، ص ٢١٧.

وأجاب السيّد «قدّس الله روحه» عنه بأنّه يجوز أن يكون التوبة لأمر آخر غير هذا الطلب، أو يكون ما أظهره من التوبة على سبيل الرجوع إلى الله تعالى، وإظهار الانقطاع إليه، والتقرب منه، وإن لم يكن هناك ذنب. والحاصل أنّ الغرض من ذلك إنشاء التذلل والخضوع، ويجوز أن يضاف إلى ذلك تنبيه القوم المخطئين على التوبة ممّا التمسوه من الرؤية المستحيلة عليه^(١). بل أقول: يحتمل أن تكون التوبة من قبلهم كما كان السؤال كذلك.

الثاني: أنّه عليه السلام لم يسأل الرؤية بل تجوّز بها عن العلم الضروريّ لأنّه لازمها، وإطلاق اسم الملزوم على اللازم شائع سيّما استعمال رأى بمعنى علم وأرى بمعنى أعلم، والحاصل أنّه سأله أن يعلمه نفسه ضرورة بإظهار بعض أعلام الآخرة التي تضطرّه إلى المعرفة، فتزول عنه الدواعي والشكوك، ويستغني عن الاستدلال كما سأل إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾^(٢) (٣).

الثالث: أنّ في الكلام مضافاً محذوفاً أي أرنى آية من آياتك أنظر إلى آيتك، وحاصله يرجع إلى الثاني. الرابع: أنّه عليه السلام سأل الرؤية مع علمه بامتناعها لزيادة الطمأنينة بتعاقد دليل العقل والسمع، كما في طلب إبراهيم عليه السلام، وحاصله يرجع إلى منع أنّ العاقل لا يطلب المحال الذي علم استحالة، إذ يمكن أن يكون الطلب لغرض آخر غير حصول المطلوب، فلا يلزم العبث لجواز ترتّب غرض آخر عليه، والعبث ما لا فائدة فيه أصلاً، ولعلّ في هذا السؤال فوائد عظيمة سوى ما ذكر أيضاً، ولا يلزمنا تعيين الفائدة بل على المستدلّ أن يدلّ على انتفاءها مطلقاً، ونحن من وراء المنع، وممّا يستغرب من الأشاعرة أنّهم أجمعوا على أنّ الطلب غير الإرادة، واحتجّوا عليه بأنّ الأمر ربّما أمر عبده بأمر وهو لا يريد، بل يريد نقيضه، ثمّ يقولون هاهنا: بأنّ طلب ما علم استحالة لا يتأتّى من العاقل.

الثاني من وجهي احتجاجهم: هو أنّه تعالى علّق الرؤية على استقرار الجبل، وهو أمر ممكن في نفسه. والمعلّق على الممكن ممكن، لأنّ معنى التعليق أنّ المعلّق يقع على تقدير وقوع المعلّق عليه، والمحال لا يقع على شيء من التقادير، ويمكن الجواب عنه بوجوه أوجهها أن يقال: التعليق إمّا أن يكون الغرض منه بيان وقت المعلّق وتحديد وقوعه بزمان وشرط ومن البيّن أنّ ما نحن فيه ليس من هذا القبيل؛ وإمّا أن يكون المطلوب فيه مجرد بيان تحقق الملازمة وعلاقة الاستلزام بأن يكون لإفادة النسبة التي بين الشرط والجزاء مع قطع النظر عن وقوع شيء من الطرفين وعدم وقوعه، ولا يخفى على ذي لبّ أن لا علاقة بين استقرار

١. أمالي المرتضى، ج ٢، ص ٢٢٠.

٢. البقرة / ٢٦٠.

٣. أمالي المرتضى، ج ٢، ص ٢١٨.

الجبل ورؤيته تعالى في نفس الأمر ولا ملازمة؛ على أن إفادة مثل هذا الحكم وهو تحقق علاقة اللزوم بين هاتين القضيتين لا يليق بسياق مقاصد القرآن الحكيم مع ما فيه من بعده عن مقام سؤال الكلیم، فإن المناسب لما طلب من الرؤية بيان وقوعه ولا وقوعه، لا مجرد إفادة العلاقة بين الأمرين، فالصواب حينئذ أن يقال: المقصود من هذا التعليق بيان أن الجزء لا يقع أصلاً بتعليقه على ما لا يقع، ثم هذا التعليق إن كان مستلزماً للعلاقة بين الشرط والجزء فواجب أن يكون إمكان الجزء مستتباً لإمكان الشرط، لأن ما له هذه العلاقة مع المحال لا يكون ممكناً على ما هو المشهور من أن مستلزم المحال محال، وإلا فلا وجه لوجوب إمكان الجزء، والأول وإن كان شائع الإرادة من اللفظ إلا أن الثاني أيضاً مذهب معروف للعرب كثير الدوران بينهم، وهو عمدة البلاغة ودعامتها^(١) ومن ذلك قول الشاعر:

إذا شاب^(٢) الغراب أتيت أهلي وصار القار^(٣) كاللبن الحليب

ومعلوم أن مشيب الغراب وصيرورة القار كاللبن لا ملازمة بينهما وبين إتيان الشاعر أهله. ونظيره في الكتاب الكريم كثير كتعليق خروج أهل النار منها على ولوج الجمل في سم الخياط، وبعيد من العاقل أن يدعي علاقة بينهما، وإذا كان ذلك التعليق أمراً شائعاً كثير الوقوع في كلامهم فلا ترجيح للاحتمال الأول بل الترجيح معنا، فإن البلاغة في ذلك؛ وأما إذا تحقق العلاقة في الواقع بينهما وعلق عليه لمكان تلك العلاقة فليس له ذلك الموقع من حسن القبول، ألا ترى أن المتمم لوصال حبيبه الميَّت لو قال: إذا رجع الموتى إلى الدنيا أمكن لي زيارة الحبيب لم يكن كقول الصب^(٤) المتحسر على مفارقة الأحباء: متى أقبل الأمس الدابر وحيي الميت الغابر طمعت في اللقاء. وأيضاً لا يخفى على ذي فطرة أن التزام تحقق علاقة لزوم بين استقرار الجبل في تلك الحال وبين رؤيته تعالى، بحيث لو فرض وقوع ذلك الاستقرار امتنع أن لا يقع رؤيته تعالى مستبعد جداً يكاد يجزم العقل ببطلانه، فإذا المقصود من ذلك الكلام مجرد بيان انتفائه بتعليقه على أمر غير واقع، ويكفي في ذلك عدم وقوع المعلق عليه، ولا يستدعي امتناع المعلق امتناعه، ولو سلم فنقول: إن المعلق عليه هو الاستقرار لا مطلقاً بل في المستقبل وعقيب النظر بدلالة «الفاء» و«إن»؛ وذلك لأنه إذا دخل «الفاء» على «إن» يفيد اشتراط التعقيب لا تعقيب الاشتراط، فالشرط هاهنا وقوع الاستقرار عقيب النظر، والنظر ملزوم لوقوع حركة الجبل عقيب، فوقع السكون عقيب محال لاستحالة وقوع الشيء عقيب

١. الدعاة: عماد البيت، راجع لسان العرب.

٢. الشيب: بياض الشعر، راجع لسان العرب.

٣. القار: شيء أسود تطلّى به السفن يمنع الماء أن يدخل، راجع لسان العرب.

٤. أنت صب: عاشق مشتاق، راجع تاج العروس.

ما يستعقب منافي ذلك الشيء ويستلزم وقوعه عقيبها.

وأما أن النظر لا يستلزم اندكاك الجبل وتزلزله، ولا علاقة بينه وبينه وإنما هو مصاحبة اتّفاقية فممنوع، ولعلّ النظر ملزوم للحركة كما أن استقرار الجبل ملزوم لرؤيته تعالى، وتحقق العلاقة بين النظر والحركة ليس بأبعد من تحقق العلاقة بين الاستقرار والرؤية. ولنقتصر على ذلك فإن إطناب الكلام في كل من الدلائل والأجوبة يوجب الخروج عما هو المقصود من الكتاب.

وأما المنكرون فاحتجوا بقوله تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾^(١) فإن كلمة «لن» تفيد إمّا تأييد النفي في المستقبل - كما صرح به الزمخشري في أنموذجه - فيكون نصّاً في أن موسى عليه السلام لا يراه أبداً، أو تأكيده - على ما صرح به في الكشف^(٢) - فيكون ظاهراً في ذلك لأن المتبادر في مثله عموم الأوقات، وإذا لم يره موسى عليه السلام لم يره غيره إجماعاً، وإن نوقش في كونها للتأكيد أو للتأييد فكفاك شاهداً استدلالاً أئمتنا عليه السلام بها على نفي الرؤية مطلقاً، لأنهم أفصح الفصحاء طرّاً باتفاق الفريقين، مع أننا لكثرة براهيننا لا نحتاج إلى الإكثار في دلالة هذه الآية على المطلوب.

١٤٣١. نهج البلاغة^(٣): من كلام له عليه السلام: وَقَدْ سَأَلَهُ ذُعْلُبُ الْيَمَانِيِّ فَقَالَ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَفَاعْبُدُ مَا لَا أَرَى؟ قَالَ: وَكَيْفَ تَرَاهُ؟ قَالَ: لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعَيْنِ، وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرِ مُلَامِسٍ^(٥)، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرِ مُبَايِنٍ، مُتَكَلِّمٌ لَا بِرَوِيَّةٍ، وَمَرِيدٌ لَا بِهَمَّةٍ، صَانِعٌ لَا بِجَارِحَةٍ^(٦)، لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ، كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ، بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْحَاسَةِ، رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرَّقَةِ، تَغْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ، وَتَجِبُ^(٧) الْقُلُوبُ^(٨) مِنْ مَخَافَتِهِ^(٩).

١. الأعراف/١٤٣.

٢. الكشف، ج ٢، ص ٨٩.

٣. نهج البلاغة (الصبحي الصالح)، ص ٢٥٨، ح ١٧٢؛ وقد ورد في إرشاد القلوب (للدليمي)، ج ١، ص ١٦٧، ضمن رواية؛ وجاء في أعلام الدين، ص ٦٥، صدر رواية.

٤. استفهام إنكاري لعبادة ما لا يدرك وفيه إزاء على السائل. (هامش المطبوع)

٥. في المصدر: «غير ملابس».

٦. جوارح الإنسان: أعضائه وعوامل جسده، واحدها جارحة، راجع لسان العرب.

٧. تجب القلوب: تضطرب، راجع مجمع البحرين.

٨. في الإرشاد والأعلام: «توجل القلوب».

٩. قال ابن ميثم: تنزيهه له عن الرؤية بحاسة البصر، وشرح لكيفية الرؤية الممكنة، ولما كان تعالى منزهاً عن الجسمية ولواحقها من الجهة وتوجيه البصر إليه وإدراكه به وإنما يرى ويدرك بحسب ما يمكن لبصيرة العقل لا جرم نزهه عن تلك وأثبت له هذه، فقال عليه السلام: «لا تدركه العيون» إلى قوله: «بحقائق الإيمان»، وأراد بحقائق الإيمان أركانه، وهي التصديق بوجود الله ووحدانيته وسائر صفاته، واعتبارات أسمائه

١٤٣٢. المحاسن^(١): التَّبَرُّطِيُّ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ أَتَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: يَا عَلِيُّ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: مَا كُنْتُ بِالَّذِي أَعْبُدُ إِلَهًا لَمْ أَرَهُ، ثُمَّ قَالَ: لَمْ تَرَهُ الْعُيُونُ فِي مُشَاهَدَةِ الْأَبْصَارِ، غَيْرَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْغَيْبِ مِنْ عَقْدِ الْقُلُوبِ.

١٤٣٣. تفسير العياشي^(٢): عَنْ الْأَشْعَثِ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: قَالَ دُو الرُّؤَسَاتَيْنِ: قُلْتُ لِأَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ أَخْبِرْنِي عَمَّا اخْتَلَفَ فِيهِ النَّاسُ مِنَ الرُّؤْيَةِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا يَرَى. فَقَالَ: يَا أَبَا الْعَبَّاسِ مَنْ وَصَفَ اللَّهَ بِخِلَافِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ أَعْظَمَ الْفِرْيَةَ^(٣) عَلَى اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٤) هَذِهِ الْأَبْصَارُ لَيْسَتْ هِيَ الْأَعْيُنُ، إِنَّمَا هِيَ الْأَبْصَارُ الَّتِي فِي الْقُلُوبِ، لَا تَقَعُ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ وَلَا يُدْرِكُ كَيْفَ هُوَ.

→ الحسنی، وعد من جعلتها اعتبارات يدركه بها:

أحدها: كونه قريبا من الأشياء، ولما كان المفهوم من القرب المطلق الملامسة والاتصاف - وهما من عوارض الجسمانية - نزّه قربه تعالى عنها، فقال عليه السَّلَامُ: «غير ملامس»، فأخرجت هذه القرينة ذلك اللفظ عن حقيقته إلى مجازة وهو اتصاله بالأشياء وقربه منها بعلمه المحيط وقدرته التامة.

الثاني: كونه بعيدا منها، ولما كان البعد يستلزم المباينة - وهي أيضا من لواحق الجسمانية - نزّه عنها بقوله عليه السَّلَامُ: «غير مباين» فكان بعده عنها إشارة إلى مباينته بذاته الكاملة عن مشابهة شيء منها.

الثالث: وكذلك قوله عليه السَّلَامُ: «متكلم بلا رويّة» وكلامه يعود إلى علمه بصور الأوامر والنواهي، وسائر أنواع الكلام عند قوم، وإلى المعنى النفساني عند الأشعرية، وإلى خلقه الكلام في جسم النبي ﷺ عند المعتزلة. وقوله عليه السَّلَامُ: «بلا رويّة»، تنزيه له عن كلام الخلق لكونه تابعا للأفكار والتروّي.

الرابع: وكذلك «مريد بلا همّة» تنزيه لإرادته عن مثلية إرادتنا في سبق العزم والهمة لها.

الخامس: «صانع بلا جارحة» وهو تنزيه لصنعه عن صنع المخلوقين لكونه بالجارحة التي من لواحق الجسمانية.

السادس: وكذلك «لطيف لا يوصف بالخفاء» واللطيف يطلق ويراد به رقيق القوام وصغير الحجم المستلزمين للخفاء وعديم اللون من الأجسام والمحكم من الصنعة، وهو منزّه عن إطلاقه بأحد هذه المعاني لاستلزام الجسمانية والإمكان، فبقى إطلاقها عليه باعتبارين: أحدهما: تصرفه في الذوات والصفات تصرفا خفيا بفعل الأسباب المعدة لها لإفاداته كمالاتها. والثاني: جلالة ذاته وتنزيهها عن قبول الإدراك البصري.

السابع: «رحيم لا يوصف بالرقّة» تنزيه لرحمته عن رحمة أحدنا لاستلزامها رقة الطبع والانفعال النفساني.

الثامن: كونه عظيما تخضع الوجوه لعظمته، إذ هو الإله المطلق لكل موجود وممكن فهو العظيم المطلق الذي تفرد باستحقاق ذلك الكل وخضوعه له ووجوب القلوب واضطرابها من هيئته عند ملاحظة كل منها ما يمكن له من تلك العظمة. (هامش المطبوع)

١. المحاسن، ج ١، ص ٢٣٩، ح ٢١٦.

٢. تفسير العياشي، ج ١، ص ٣٧٣، ح ٧٩؛ تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٦٦، ح ٣٦١٢.

٣. الفرية: الكذب، راجع لسان العرب.

٤. الأنعام/١٠٣.

١٤٣٤. كفاية الأثر^(١): الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ هَارُونَ بْنِ مُوسَى، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ، عَنِ الصَّفَّارِ، عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ هِشَامٍ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ الصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ مُعَاوِيَةُ بْنُ وَهَبٍ وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ أَعْيَنَ فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ بْنُ وَهَبٍ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، مَا تَقُولُ فِي الْخَبَرِ الَّذِي رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلَّى الله عليه وآله رَأَى رَبَّهُ، عَلَى أَيِّ صُورَةٍ رَأَاهُ؟ وَعَنِ الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ، عَلَى أَيِّ صُورَةٍ يَرَوْنَهُ؟ فَتَبَسَّمَ عليه السلام ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاوِيَةُ مَا أَقْبَحَ بِالرَّجُلِ يَأْتِي عَلَيْهِ سَبْعُونَ سَنَةً أَوْ ثَمَانُونَ سَنَةً، يَعِيشُ فِي مُلْكِ اللَّهِ، وَيَأْكُلُ مِنْ نَعَمِهِ ثُمَّ لَا يَعْرِفُ اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ.

ثُمَّ قَالَ عليه السلام: يَا مُعَاوِيَةُ إِنَّ مُحَمَّدًا صلَّى الله عليه وآله لَمْ يَرَ الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِمُشَاهَدَةِ الْعَيْنِ، وَإِنَّ الرُّؤْيَا عَلَى وَجْهَيْنِ: رُؤْيَا الْقَلْبِ، وَرُؤْيَا الْبَصَرِ، فَمَنْ عَنِ رُؤْيَا الْقَلْبِ فَهُوَ مُصِيبٌ، وَمَنْ عَنِ رُؤْيَا الْبَصَرِ فَقَدْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَبِآيَاتِهِ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صلَّى الله عليه وآله: مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ. وَلَقَدْ حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام قَالَ: سُئِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَقِيلَ: يَا أَخَا رَسُولِ اللَّهِ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: وَكَيْفَ أَعْبُدُ مَنْ لَمْ أَرَهُ؟ لَمْ تَرَهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعَيْنِ، وَلَكِنْ رَأَتْهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، فَإِذَا كَانَ الْمُؤْمِنُ يَرَى رَبَّهُ بِمُشَاهَدَةِ الْبَصَرِ فَإِنَّ كُلَّ مَنْ جَارَ عَلَيْهِ الْبَصَرُ وَالرُّؤْيَا فَهُوَ مَخْلُوقٌ، وَلَا بُدَّ لِلْمَخْلُوقِ مِنَ الْخَالِقِ، فَقَدْ جَعَلْتُهُ إِذَا مَخْدَأًا مَخْلُوقًا، وَمَنْ شَبَّهَهُ بِخَلْقِهِ فَقَدْ اتَّخَذَ مَعَ اللَّهِ شَرِيكًا. وَيَلْعَنُ أُولَئِكَ يَسْمَعُوا يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٢) وَقَوْلُهُ: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾؟ وَإِنَّمَا طَلَعَ مِنْ نُورِهِ عَلَى الْجَبَلِ كَضَوْءٍ يَخْرُجُ مِنْ سَمِّ الْخِيَّاطِ فَدَكَّدَتْ الْأَرْضُ وَصَعِقَتِ الْجِبَالُ فَ﴿خَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ أَيَّ مَيِّتًا ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ وَرَدَّ عَلَيْهِ رُوحُهُ ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ﴾ مِنْ قَوْلِ مَنْ زَعَمَ أَنَّكَ تُرَى، وَرَجَعْتَ إِلَى مَعْرِفَتِي بِكَ أَنَّ الْأَبْصَارَ لَا تُدْرِكُكَ، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) وَأَوَّلُ الْمُقَرَّرِينَ بِأَنَّكَ تُرَى وَلَا تُرَى، وَأَنْتَ بِالْمُنْظَرِ الْأَعْلَى.

ثُمَّ قَالَ عليه السلام: إِنَّ أَفْضَلَ الْفَرَائِضِ وَأَوْجَبَهَا عَلَى الْإِنْسَانِ مَعْرِفَةُ الرَّبِّ وَالْإِقْرَارُ لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ، وَحَدُّ الْمَعْرِفَةِ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلَا شَبِيهَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ، وَأَنْ يَعْرِفَ أَنَّهُ قَدِيمٌ مُثَبَّتٌ مَوْجُودٌ غَيْرُ فَقِيدٍ، مَوْصُوفٌ مِنْ غَيْرِ شَبِيهِ وَلَا مُبْطِلٌ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، وَبَعْدَهُ مَعْرِفَةُ الرَّسُولِ وَالشَّهَادَةُ بِالنُّبُوَّةِ، وَأَدْنَى مَعْرِفَةِ الرَّسُولِ الْإِقْرَارُ بِنُبُوَّتِهِ، وَأَنْ أَتَى بِهِ مِنْ كِتَابٍ أَوْ أَمْرٍ أَوْ نَهْيٍ فَذَلِكَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَبَعْدَهُ مَعْرِفَةُ الْإِمَامِ الَّذِي بِهِ تَأْتَمُّ^(٤) بِنَعْتِهِ

١. كفاية الأثر، ص ٢٦٠؛ وقد ورد في البرهان، ج ٢، ص ٥٨١، ح ٣٩٧٧، مع اختلاف يسير.

٢. الأنعام/١٠٣.

٣. الأعراف/١٤٣.

٤. اتَّئَمَّ بِهِ: اقتدى به، راجع لسان العرب.

وَصِفَتِهِ وَاسْمِهِ فِي حَالِ الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَأَدْنَى مَعْرِفَةِ الْإِمَامِ أَنَّهُ عِدْلُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَّا دَرَجَةَ النُّبُوَّةِ، وَوَارِثُهُ، وَأَنَّ طَاعَتَهُ طَاعَةُ اللَّهِ وَطَاعَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالتَّسْلِيمُ لَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ، وَالرَّدُّ إِلَيْهِ، وَالْأَخْذُ بِقَوْلِهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبَعْدَهُ الْحَسَنُ، ثُمَّ الْحُسَيْنُ، ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، ثُمَّ أَنَا، ثُمَّ بَعْدِي مُوسَى ابْنِي، وَبَعْدَهُ عَلِيُّ ابْنُهُ، وَبَعْدَ عَلِيٍّ مُحَمَّدُ ابْنُهُ، وَبَعْدَ مُحَمَّدٍ عَلِيُّ ابْنُهُ، وَبَعْدَ عَلِيٍّ الْحَسَنُ ابْنُهُ، وَالْحُجَّةُ مِنْ وَلَدِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا مُعَاوِيَةُ جَعَلْتُ لَكَ أَصْلًا فِي هَذَا فاعْمَلْ عَلَيْهِ، فَلَوْ كُنْتُ تَمُوتُ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ لَكَانَ خَالِكَ أَسْوَأَ الْأَحْوَالِ، فَلَا يَغُرَّتْكَ قَوْلُ مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرَى بِالْبَصَرِ. قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَقَدْ قَالُوا أَعْجَبَ مِنْ هَذَا، أَوْ لَمْ يَنْسُبُوا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْمَكْرُوهِ؟ أَوْ لَمْ يَنْسُبُوا إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَا نَسَبُوهُ؟ أَوْ لَمْ يَنْسُبُوا دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَا نَسَبُوهُ مِنْ حَدِيثِ الطَّيْرِ؟ أَوْ لَمْ يَنْسُبُوا يُوسُفَ الصَّدِّيقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَا نَسَبُوهُ مِنْ حَدِيثِ زَلِيخَا؟ أَوْ لَمْ يَنْسُبُوا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَا نَسَبُوهُ مِنَ الْقَتْلِ^(١)؟ أَوْ لَمْ يَنْسُبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَى مَا نَسَبُوهُ مِنْ حَدِيثِ زَيْدٍ؟ أَوْ لَمْ يَنْسُبُوا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى مَا نَسَبُوهُ مِنْ حَدِيثِ الْقُطَيْبَةِ؟ إِنَّهُمْ أَرَادُوا بِذَلِكَ تَوْبِيخَ الْإِسْلَامِ لِيَرْجِعُوا عَلَى أَغْقَابِهِمْ، أَعْمَى اللَّهُ أَبْصَارَهُمْ كَمَا أَعْمَى قُلُوبَهُمْ، تَعَالَى اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ غُلُوبًا كَبِيرًا.

١٤٣٥. التوحيد^(٢): الدَّقَاقُ، عَنِ الْكَلِينِيِّ، عَنِ أَحْمَدَ بْنِ إِدْرِيسَ، عَنِ ابْنِ عِيسَى، عَنِ عَلِيِّ بْنِ سَيْفٍ، عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ عُبَيْدَةَ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْأَلُهُ عَنِ الرُّوْيَةِ وَمَا تَرْوِيهِ الْعَامَّةُ وَالْخَاصَّةُ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ يَشْرَحَ لِي ذَلِكَ. فَكَتَبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِخَطِّهِ: اتَّفَقَ الْجَمِيعُ لَا تَمَانَعُ بَيْنَهُمْ أَنَّ الْمَعْرِفَةَ مِنْ جِهَةِ الرُّوْيَةِ ضَرُورَةٌ، فَإِذَا جَازَ أَنْ يَرَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْعَيْنِ^(٣) وَقَعَتِ الْمَعْرِفَةُ ضَرُورَةً، ثُمَّ لَمْ تَحُلْ تِلْكَ الْمَعْرِفَةُ مِنْ أَنْ تَكُونَ إِيمَانًا أَوْ لَيْسَتْ بِإِيمَانٍ، فَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الْمَعْرِفَةُ مِنْ جِهَةِ الرُّوْيَةِ إِيمَانًا فَالْمَعْرِفَةُ الَّتِي فِي دَارِ الدُّنْيَا مِنْ جِهَةِ الْاِكْتِسَابِ لَيْسَتْ بِإِيمَانٍ، لِأَنَّهَا ضِدُّهُ فَلَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا أَحَدٌ مُؤْمِنًا، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ الْمَعْرِفَةُ الَّتِي مِنْ جِهَةِ الرُّوْيَةِ إِيمَانًا لَمْ تَحُلْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ الَّتِي مِنْ جِهَةِ الْاِكْتِسَابِ أَنْ تَزُولَ أَوْ لَا تَزَالَ فِي الْمَعَادِ، فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُرَى بِالْعَيْنِ إِذِ الْعَيْنُ يُوَدِّي إِلَى مَا وَصَفَنَاهُ.

إيضاح:

اعلم أنَّ الناظرين في هذا الخبر قد سلكوا مسالك شتى في حلِّها ولنذكر بعضها:

١. لم يرد في المصدر والبرهان: «من القتل».

٢. التوحيد (للمصدق)، ص ١٠٩، ح ٨؛ الكافي، ج ١، باب في إبطال الرؤية، ص ٩٦، ح ٣؛ وقد ورد في الدرّ النظيم، ص ٦٩٣، مع اختلاف

يسير.

٣. وفي نسخة: فإذا جاز أن يرى الله عزَّ وجلَّ بالعيون. (هامش المطبوع)

الأول: وهو الأقرب إلى الأفهام وإن كان أبعد من سياق الكلام، وكان الوالد العلامة «قدس الله روحه» يرويه عن المشايخ الأعلام، وتقديره - على ما حرّره بعض الأفاضل الكرام - هو أن المراد أنه اتفق الجميع أي جميع العقلاء من مجوّزي الرؤية ومحيلها لا تمنع ولا تنازع بينهم، على أن المعرفة من جهة الرؤية ضرورة، أي كلّ ما يرى يعرف بأنّه على ما يرى، وأنّه متّصف بالصفات التي يرى عليها ضرورة، فحصول معرفة المرئي بالصفات التي يرى عليها ضروري.

وهذا الكلام يحتمل وجهين: أحدهما: كون قوله عليه السلام: «من جهة الرؤية» خبراً، أي إن المعرفة بالمرئي يحصل من جهة الرؤية ضرورة. وثانيهما: تعلّق الظرف بالمعرفة، وكون قوله عليه السلام: «ضرورة» خبراً، أي المعرفة الناشئة من جهة الرؤية ضرورة أي ضرورية، والضرورة على الاحتمالين تحتل الوجوب والبدهة، وتقدير الدليل: أن حصول المعرفة من جهة الرؤية ضروري، فلو جاز أن يرى الله سبحانه بالعين وقعت المعرفة من جهة الرؤية ضرورة، فتلك المعرفة لا يخلو من أن يكون إيماناً أو لا يكون إيماناً، وهما باطلان لأنّه إن كانت إيماناً لم تكن المعرفة الحاصلة في الدنيا من جهة الاكتساب إيماناً لأنّهما متضادّان، فإن المعرفة الحاصلة بالاكتساب أنّه ليس بجسم، وليس في مكان، وليس بمتكّم، ولا متكيّف؛ والرؤية بالعين لا يكون إلّا بإدراك صورة متحيّزة من شأنها الانطباع في مادّة جسمانيّة، والمعرفة الحاصلة من جهتها معرفة بالمرئي بأنّه متّصف بالصفات المدركة في الصورة، فهما متضادّتان لا تجتمعان في المطابقة للواقع، فإن كانت هذه إيماناً لم تكن تلك إيماناً، فلا يكون في الدنيا مؤمن لأنّهم لم يروا الله عزّ ذكره، وليس لهم إلّا المعرفة من جهة الاكتساب فلو لم يكن إيماناً لم يكن في الدنيا مؤمن؛ وإن لم تكن تلك المعرفة التي من جهة الرؤية إيماناً أي اعتقاداً مطابقاً للواقع، وكانت المعرفة الاكتسابيّة إيماناً لم تخل هذه المعرفة التي من جهة الاكتساب من أن تزول عند المعرفة من جهة الرؤية لتضادّهما أو لا تزول لامتناع زوال الإيمان في الآخرة. وهذه العبارة تحتمل ثلاثة أوجه: أحدها: لم تخل هذه المعرفة من الزوال عند الرؤية، والمعرفة من جهتها لتضادّهما، والزوال مستحيل لا يقع لامتناع زوال الإيمان في الآخرة. وثانيها: لم تخل هذه المعرفة من الزوال وعدم الزوال، ويكون متّصفاً بكليهما في المعاد عند وقوع الرؤية والمعرفة من جهتها لامتناع اجتماع الضدّين، وامتناع زوال الإيمان في المعاد، والمستلزم لاجتماع النقيضين مستحيل. وثالثها: لم تخل هذه المعرفة من الزوال وعدم الزوال، ولا بدّ من أحدهما وكلّ منهما محال.

وأما بيان أن الإيمان لا يزول في المعاد بعد الاتفاق والاجتماع عليه أن الاعتقاد الثابت المطابق للواقع الحاصل بالبرهان مع معارضة الوسوس الحاصلة في الدنيا يتمتع زوالها عند ارتفاع الوسوس والموانع، على أن الرؤية عند مجوّزها أنّها تقع للخواصّ من المؤمنين والكمّل منهم في الجنّة، فلو زال إيمانهم لزم كون غير المؤمن أعلى درجة من المؤمن، وكون الأخطّ مرتبة أكمل من الأعلى درجة، وفساده ظاهر.

أقول:

الاحتمالات الثلاثة إنما هي على ما في الكافي من «الواو»، وأما على ما في التوحيد من كلمة «أو» فالأخير متعين.

ثم اعلم أنه يرد على هذا الحل أن من لم يسلم امتناع الرؤية كيف يسلم كون الإيمان المكتسب منافياً لها، وإن ادعى الضرورة في كون الرؤية مستلزماً لما اتفقوا على امتناعه فهو كاف في إثبات المطلوب، إلا أن يقال: إنما أورد هكذا بياناً لكثرة الفساد وإيضاحاً للمراد، أو يقال: لعله ^{عائلاً} كان بين السائل امتناع الرؤية بالدلائل فلمّا ذكر السائل ما ترويه العامة في ذلك بين امتناع وقوع ما ثبت لنا بالبراهين امتناعه، وآمنا به بهذا الوجه.

الثاني: أن حاصل الدليل أن المعرفة من جهة الرؤية غير متوقّفة على الكسب والنظر، والمعرفة في دار الدنيا متوقّفة عليه ضعيفة بالنسبة إلى الأولى فتخالفتا مثل الحرارة القويّة والحرارة الضعيفة، فإن كانت المعرفة من جهة الرؤية إيماناً لم تكن المعرفة من جهة الكسب إيماناً كاملاً، لأن المعرفة من جهة الرؤية أكمل منها، وإن لم يكن إيماناً يلزم سلب الإيمان عن الرأيين، لامتناع اجتماع المعرفتين في زمان واحد في قلب واحد يعني قيام تصديقين أحدهما أقوى من الآخر بذهن واحد، وأحدهما حاصل من جهة الرؤية، والآخر من جهة الدليل، كما يمتنع قيام حرارتين بماء واحد في زمان واحد، ويرد عليه النقض بكثير من المعارف التي تعرف في الدنيا بالدليل وتصير في الآخرة بالمعينة ضرورية، ويمكن بيان الفرق بتكلف.

الثالث: ما حققه بعض الأفاضل بعد ما مهّد من أن نور العلم والإيمان يشتدّ حتّى ينتهي إلى المشاهدة والعيان لكن العلم إذا صار عيناً لم يصير عيناً محسوساً، والمعرفة إذا انقلبت مشاهدة لم تنقلب مشاهدة بصرية حسّية، لأنّ الحسّ والمحسوس نوع مضاف للعقل والمعقول ليس نسبة أحدهما إلى الآخر نسبة النقص إلى الكمال والضعف إلى الشدّة، بل لكلّ منهما في حدود نوعه مراتب في الكمال والنقص، لا يمكن لشيء من أفراد أحد النوعين المتضادين أن ينتهي في مراتب استكمالته واشتداده إلى شيء من أفراد النوع الآخر، فالإبصار إذا اشتدّ لا يصير تخيلاً مثلاً، ولا التخيل إذا اشتدّ يصير تعقلاً ولا بالعكس. نعم، إذا اشتدّ التخيل يصير مشاهدة ورؤية بعين الخيال لا بعين الحسّ، وكثيراً ما يقع الغلط من صاحبه أنّه رأى بعين الخيال أم بعين الحسّ الظاهر، كما يقع للمبرسمين^(١) والمجانين، وكذا التعقّل إذا اشتدّ يصير مشاهدة قلبية ورؤية عقلية، لا خيالية ولا حسّية. وبالجملّة الإحساس والتخيّل والتعقّل أنواع متقابلة من المدارك كلّ منها في عالم آخر من العوالم الثلاثة، ويكون تأكّد كلّ منها حجاباً مانعاً عن الوصول إلى الآخر. فإذا تمهّد هذا فنقول: اتفق

١. البرسام: علّة يهذى فيها، راجع القاموس المحيط.

الجميع أنّ المعرفة من جهة الرؤية أمر ضروريّ، وأنّ رؤية الشيء متضمّنة لمعرفته بالضرورة، بل الرؤية بالحسّ نوع من المعرفة، فإنّ من رأى شيئاً فقد عرفه بالضرورة، فإن كان الإيمان بعينه هو هذه المعرفة التي مرجعها الإدراك البصريّ والرؤية الحسيّة، فلم تكن المعرفة العلميّة التي حصلت للإنسان من جهة الاكتساب بطريق الفكر والنظر إيماناً لأنّها ضدّه، لأنّك قد علمت أنّ الإحساس ضدّ التخيل، وأنّ الصورة الحسيّة ضدّ الصورة العقليّة، فإذا لم يكن الإيمان بالحقيقة مشتركاً بينهما، ولا أمراً جامعاً لهما لثبوت التضادّ وغاية الخلاف بينهما، ولا جنساً مبهماً بينهما غير تامّ الحقيقة المتحصّلة كجنس المتضادّين مثل اللونيّة بين نوعي السواد والبياض لأنّ الإيمان أمر محصّل وحقيقة معيّنة، فهو إمّا هذا وإمّا ذاك، فإذا كان ذاك لم يكن هذا، وإن كان هذا لم يكن ذاك^(١)، ثمّ ساق الدليل إلى آخره كما مرّ. ولا يخفى أنّ شيئاً من الوجوه لا يخلو من تكلفات: إمّا لفظيّة، وإمّا معنويّة. ولعلّه عليه السلام بنى ذلك على بعض المقدمات المقرّرة بين الخصوم في ذلك الزمان إلزاماً عليهم كما صدر عنهم كثير من الأخبار كذلك، والله تعالى يعلم وحججه حقائق كلامهم عليه السلام.

تذييل:

اعلم أنّ الأئمة اختلفوا في رؤية الله تعالى على أقوال: فذهبت الإماميّة والمعتزلة^(٢) إلى امتناعها مطلقاً،

١. شرح أصول الكافي (الصدر المتألّهين)، ج ٣، ص ١٤٣ و ١٤٤.

٢. ويسمّون أصحاب العدل والتوحيد، وافتقرت المعتزلة عشرين فرقة: الواصلية، والعمرية، والهديلية، والنظامية، والأسوارية، والمعمرية، والإسكافية، والجعفرية - أصحاب جعفر بن حرب الثقفي المتوفّى سنة ٢٣٤ هـ وجعفر بن مبشر الهمدانيّ المتوفّى سنة ٢٣٦ هـ -، والبشرية، والمردارية، والهشامية - أصحاب هشام بن عمر الفوطيّ -، والثمامية، والجاحظية، والخياطية، وأصحاب صالح بن قبة، والمريسية، والشحامية، والكعبية، والجبائية، والبهشمية - المنسوبة إلى أبي هاشم الجبائيّ - والذي يعم جميع فرقهم من الاعتقاد القول: بأنّ الله قديم، والقدم أخص وصف ذاته، ونفوا الصفات القديمة أصلاً فقالوا: هو عالم لذاته، قادر لذاته، حيّ لذاته، لا يعلم وقدرة وحياة، هي صفات قديمة ومعان قائمة به. وبأنّ كلامه محدث مخلوق في محل وهو حرف وصوت. كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه، وبأنّ الإرادة والسمع والبصر ليست بمعان قائمة بذاته، واختلفوا في وجوه وجودها ومحامل معانيها. وبأنّ رؤية الله تعالى مستحيلة في الدنيا والآخرة، ونفوا عنه التشبيه من كل جهة مكاناً وصورة وجسماً وتحيزاً وانتقالاً وزوالاً وتغيّراً وتأثراً، وبأنّ العبد قادر لأفعاله خيرها وشرها، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الآخرة؛ والرب تعالى منزّه من أن يضاف إليه شرّ وظلم. وبأنّه تعالى لا يفعل إلاّ الصلاح والخير. وبأنّ أصول المعرفة وشكر النعمة واجبة قبل ورود السمع، والحسن والقبيح يجب معرفتهما بالعقل واعتناق الحسن واجتناب القبيح واجب كذلك وورود التكاليف ألطف للبرائى تعالى. وغير ذلك ممّا اتّفقوا عليه واختلفوا كل واحد من فرقهم في أمور ذكرت في مظانّها. وسموا بالمعتزلة لأنّ واصل بن عطا لما قال بمقالة المنزلة بين المنزلتين وأنّ صاحب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر وتفرد بهذه المقالة خلافاً لأستاذه الحسن البصري واعتزل عنه إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ذلك على جماعة من أصحاب الحسن فقال الحسن: اعتزل عنا واصل فسمي هو وأصحابه معتزلة؛ وقيل في وجه التسمية غير ذلك أيضاً. (هامش المطبوع)

وذهبت المشبهة^(١) والكرامية^(٢) إلى جواز رؤيته تعالى في الجهة والمكان، لكونه تعالى عندهم جسماً، وذهبت الأشاعرة إلى جواز رؤيته تعالى منزلهاً عن المقابلة والجهة والمكان.

قال الآبي في كتاب إكمال الإكمال ناقلاً عن بعض علمائهم: أن رؤية الله تعالى جائزة في الدنيا عقلاً، واختلف في وقوعها وفي أنه هل رآه النبي ﷺ ليلة الإسراء أم لا؟ فأنكرته عائشة^(٣) وجماعة من الصحابة والتابعين والمتكلمين، وأثبت ذلك ابن عباس^(٤) وقال: إن الله اختصه ﷺ بالرؤية، وموسى بالكلام، وإبراهيم بالخلّة، وأخذ به جماعة من السلف، والأشعري في جماعة من أصحابه وابن حنبل، وكان الحسن يقسم لقد رآه، وتوقف فيه جماعة. هذا حال رؤيته في الدنيا، وأمّا رؤيته في الآخرة فجائزة عقلاً، وأجمع على وقوعها أهل السنّة، وأحالها المعتزلة والمرجئة والخوارج، والفرق بين الدنيا والآخرة أن القوى والإدراكات ضعيفة في الدنيا، حتّى إذا كانوا في الآخرة وخلقهم للبقاء قوى إدراكهم فأطاقوا رؤيته. انتهى كلامه.

وقد عرفت ممّا مرّ أن استحالة ذلك مطلقاً هو المعلوم من مذهب أهل البيت عليه السلام وعليه إجماع الشيعة باتّفاق المخالف والمؤلف، وقد دلّت عليه الآيات الكريمة وأقيمت عليه البراهين الجليّة. وقد أشرنا إلى بعضها وتمام الكلام في ذلك موكول إلى الكتب الكلاميّة.

١. اعلم أن المشبهة صنفان: صنف شبهوا ذات الباري سبحانه بذات غيره صنف شبهوا صفاته بصفات غيره، فمن الأول جماعة من أصحاب الحديث الحشوية صرحوا بالتشبيه مثل مضر وكهمش وأحمد الجهمي وغيرهم من أهل السنة قالوا: معبودهم صورة ذات أعضاء وأعضاء إما روحانية أو جسمانية يجوز عليه الانتقال والنزول والصعود والاستقرار والتمكن، وأجازوا على ربهم الملامسة والمصافحة، وأن المخلصين من المسلمين يعانقونه في الدنيا والآخرة إذا بلغوا في الرياضة والاجتهاد إلى حدّ الإخلاص والاتحاد المحض. وحكى عن داود الجوابي أنه قال: اعفوني عن الفرج واللحية وأسألوني عما وراء ذلك، قاله الشهرستاني. ونسب إلى الحنابلة أنهم مشاركون معهم في بعض التشبيهات.

أقول: ومنهم الكرامية والبيانية والمغيرية والمنصورية والخطابية والحلولية والاتحادية وغير ذلك، يطول ذكرهم وبيان معتقداتهم فمن شاء فليطلب من المعاجم.

ومن الصنف الثاني المعتزلة البصرية والكرامية الذين زعموا أن إرادته تعالى من جنس إرادتنا وغيرهما ممن يعتقدون بأن صفاته كصفاتنا زائدة على وجوده تعالى. (هامش المطبوع)

٢. أصحاب أبي عبد الله محمد بن الكرام المتوفى سنة ٢٥٥ هـ، وله ولأصحابه مقالات زائفة خرافية في التشبيه، قال الشهرستاني: وهم طوائف يبلغ عددهم إلى اثني عشرة فرقة وأصولها ستة: العابدية، والتونية، والزينية، والإسحاقية، والواحدية، والهيصمية. (هامش المطبوع)

٣. أوردنا قبل ذلك روايتها التي تدلّ على ذلك بل على استحالة رؤيته سبحانه من صحاحهم فالصحيح أن عائشة أيضاً تكون ممن قال بامتناع رؤيته سبحانه. (هامش المطبوع)

٤. الصحيح من مذهب ابن عباس أنه كان ممن يقول بعدم جواز رؤيته سبحانه بالبصر وكان يثبت الرؤية بالفؤاد، يدل على ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه ج ١، ص ١٠٩ بطريقه عن أبي العالية، عن ابن عباس قال: «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى وَلَقَدْ رَأَى نَزْلَةَ أُخْرَى» (النجم ١١) قال: رآه بفؤاده مرتين. (هامش المطبوع)

* أبواب الصفات *

﴿ باب ١ ﴾

« نفي التركيب واختلاف المعاني والصفات، وأنه ليس محلاً للحوادث والتغيرات، وتأويل الآيات فيها، والفرق بين صفات الذات وصفات الأفعال »

١٤٣٦. عيون أخبار الرضا عليه السلام، التوحيد، الأماشي للصدوق^(١): الدقاق، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ الْبَرْمَكِيِّ، عَنِ الْفَضْلِ بْنِ سُلَيْمَانَ الْكُوفِيِّ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ خَالِدٍ قَالَ: سَمِعْتُ الرُّضَا عَلِيَّ بْنَ مُوسَى عليه السلام يَقُولُ: لَمْ يَزَلِ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَالِمًا قَادِرًا حَيًّا قَدِيمًا سَمِيعًا بَصِيرًا. فَقُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ، إِنَّ قَوْمًا يَقُولُونَ: إِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَزَلْ عَالِمًا بِعِلْمٍ، وَقَادِرًا بِقُدْرَةٍ، وَحَيًّا بِحَيَاةٍ، وَقَدِيمًا بِقَدَمٍ، وَسَمِيعًا بِسَمْعٍ، وَبَصِيرًا بِبَصَرٍ، فَقَالَ عليه السلام: مَنْ قَالَ بِذَلِكَ وَدَانَ بِهِ فَقَدْ اتَّخَذَ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى، وَلَيْسَ مِنْ وَلَا يَتَنَا عَلَى شَيْءٍ، ثُمَّ قَالَ: لَمْ يَزَلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَالِمًا قَادِرًا حَيًّا قَدِيمًا سَمِيعًا بَصِيرًا لِدَاتِهِ، تَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ وَالْمُشَبِّهُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

بيان:

اعلم أن أكثر أخبار هذا الباب تدلّ على نفي زيادة الصفات، أي على نفي صفات موجودة زائدة على ذاته تعالى، وأما كونها عين ذاته تعالى بمعنى أنها تصدق عليها، أو أنها قائمة مقام الصفات الحاصلة في غيره تعالى، أو أنها أمور اعتبارية غير موجودة في الخارج واجبة الثبوت لذاته تعالى، فلا نص^(٢) فيها على شيء منها، وإن كان الظاهر من بعضها أحد المعنيين الأولين، ولتحقيق الكلام في ذلك مقام آخر. قال المحقق الدواني: لا خلاف بين المتكلمين كلّهم والحكماء في كونه تعالى عالماً قديراً مريداً متكلماً، وهكذا في سائر الصفات، ولكنهم يخالفوا في أن الصفات عين ذاته، أو غير ذاته، أو لا هو ولا غيره، فذهبت المعتزلة

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١١٩، ح ١٠؛ التوحيد (للصدوق)، ص ١٣٩، ح ٣؛ الأماشي (للصدوق)، ص ٢٧٨، ح ٥.

٢. وهذا من عجيب الكلام ودلالة الروايات على عينية الصفات للذات ممّا لا غبار عليها بمعنى أن لله سبحانه مثلاً علماً حقيقة بالأشياء لا مجازاً ولا أثر العلم ونتيجته وهذا العلم بذاته لا بصفة غير ذاته. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

والفلاسفة إلى الأول، وجمهور المتكلمين^(١) إلى الثاني، والأشعري إلى الثالث، والفلاسفة حققوا عينية الصفات بأن ذاته تعالى من حيث إنه مبدأ لانكشاف الأشياء عليه علم، ولما كان مبدأ الانكشاف عين ذاته كان عالماً بذاته، وكذا الحال في القدرة والإرادة وغيرهما من الصفات. قالوا: وهذه المرتبة أعلى من أن تكون تلك الصفات زائدة عليه، فإننا نحتاج في انكشاف الأشياء علينا إلى صفة مغايرة لنا قائمة بنا، والله تعالى لا يحتاج إليه، بل بذاته ينكشف الأشياء عليه، ولذلك قيل: محصول كلامهم نفي الصفات وإثبات نتائجها وغاياتها. وأما المعتزلة فظاهر كلامهم أنها عندهم من الاعتبار العقلية التي لا وجود لها في الخارج^(٢). انتهى.

١٤٣٧. التوحيد، عيون أخبار الرضا عليه السلام^(٣): ابن عصام، عن الكليني، عن العلان، عن عمران بن موسى، عن الحسن بن القاسم^(٤)، عن القاسم بن مسلم، عن أخيه عبد العزيز قال: سألت الرضا علي بن موسى عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(٥) فقال: إن الله تبارك وتعالى لا ينسى ولا يشهو، وإنما ينسى ويشهو المخلوق المحدث، ألا تسمعه عز وجل يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾^(٦)؟ وإنما يجازي من نسيه ونسي لقاء يومه بأن ينسيهم أنفسهم، كما قال الله تعالى: ﴿لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٧) وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾^(٨) أي نتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا. قال الصدوق «رحمه الله» قوله: «نتركهم» أي لا نجعل لهم ثواب من كان يرجو لقاء يومه، لأن الترك لا يجوز على الله تعالى عز وجل، وأما قول الله عز وجل: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(٩) أي لم يعاجلهم بالعقوبة، وأمهلهم ليتوبوا.

بيان:

أراد الصدوق «رحمه الله» أن ينبّه على أن الترك لا يعنى به الإهمال، فإن ترك التكليف في الدنيا أو ترك

١. من أهل السنة. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

٢. التعليقات على شرح العقائد العضية، ص ٦٨.

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ١٥٩، ح ١؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٢٥، ح ١٨؛ الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ١١٤.

٤. في العيون: «الحسين بن القاسم».

٥. التوبة/٦٧.

٦. مريم/٦٤.

٧. الحشر/١٩.

٨. الأعراف/٥١.

٩. البقرة/١٧.

الجزاء في الآخرة لا يجوز على الله تعالى، بل المراد ترك الإثابة والرحمة وتشديد العذاب عليهم. ثم إنه عليه السلام أشار إلى الوجهين الذين يمكن أن يؤول بهما أمثال تلك الآيات؛ الأول: أن يكون الله تعالى عبر عن جزاء النسيان بالنسيان على مجاز المشاكلة، والثاني: أن يكون المراد بالنسيان الترك. قال الجوهري: النسيان: الترك، قال الله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾^(١).

وقال البيضاوي: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾: أغفلوا ذكر الله وتركوا طاعته، ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾: فتركهم من لطفه وفضله^(٢)، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾ نسوا حقه ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ فجعلهم ناسين لها حتى لم يسمعوها ما ينفعها، ولم يفعلوا ما يخلصها، أو أراهم يوم القيامة من الأهوال ما أنساهم أنفسهم^(٣).

١٤٣٨. التوحيد، معاني الأخبار^(٤): أبي، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ إِدْرِيسَ، عَنِ الْبَرْقِيِّ، عَنِ الْيَقُطِينِيِّ، عَنْ حَمْزَةَ بْنِ الرَّبِيعِ^(٥)، عَمَّنْ ذَكَرَهُ قَالَ: كُنْتُ فِي مَجْلِسِ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ^(٦) فَقَالَ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، قَوْلُ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ^(٧): ﴿وَمَنْ يَخْلُلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾^(٨) مَا ذَلِكَ الْغَضَبُ؟ فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: هُوَ الْعِقَابُ. يَا عَمْرُو، إِنَّهُ مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ زَالَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ فَقَدْ وَصَفَهُ صِفَةً مَخْلُوقٍ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ لَا يَسْتَفِزُّهُ شَيْءٌ وَلَا يُغَيِّرُهُ^{(٩)(١٠)}.

١٤٣٩. التوحيد، معاني الأخبار^(١١): بِهَذَا الْإِسْنَادِ عَنِ الْبَرْقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ يَزْفَعُهُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فِي قَوْلِ اللَّهِ

١. البقرة/٢٣٧.

٢. أنوار التنزيل، ج ٣، ص ٨٨.

٣. المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٠٣.

٤. التوحيد (للمصدق)، ص ١٦٨، ح ١؛ معاني الأخبار، ص ١٨، ح ١؛ الكافي، ج ١، باب الإرادة أنها من صفات الفعل، ص ١١٠، ح ٥.

٥. في التوحيد: «اليقطيني، عن المشركي، عن حمزة بن الربيع»، وفي الكافي: «عن اليقطيني، عن المشركي، حمزة بن المرتفع».

٦. هو عمرو بن عبيد بن باب المتكلم الزاهد المشهور، شيخ المعتزلة في وقته، وكان من تلامذة الحسن البصري. (هامش المطبوع)

٧. في نسخة: قال الله عز وجل. (هامش المطبوع).

٨. طه/٨١.

٩. في المعاني: «فإن الله عز وجل لا يتنفره شيء ولا يعزّه شيء».

١٠. أي لا يستخفه ولا يزعه، قال المصنف في المرأة: وقيل: أي لا يجد خاليا عما يكون قابلا له فيغيّره للحصول لتغيير الصفة لموصوفها.

(هامش المطبوع)

١١. التوحيد (للمصدق)، ص ١٦٨، ح ٢؛ معاني الأخبار، ص ١٩، ح ٢؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب النوادر، ص ١٤٤، ح ٦، مع اختلاف

يسير.

١٢. في الكافي بهذا الإسناد: «محمد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن محمد بن إسماعيل بن بزيع، عن عمّه حمزة بن بزيع، عن أبي عبد

الله عليه السلام».

عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾^(١) قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يَأْسَفُ كَأَسَفِنَا، وَلَكِنَّهُ خَلَقَ أَوْلِيَاءَ لِنَفْسِهِ يَأْسِفُونَ وَيَرْضَوْنَ، وَهُمْ مَخْلُوقُونَ مُدَبَّرُونَ^(٢)، فَجَعَلَ رِضَاهُمْ لِنَفْسِهِ رِضَى، وَسَخَطَهُمْ لِنَفْسِهِ سَخَطًا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ جَعَلَهُم الدُّعَاةَ إِلَيْهِ وَالْأَدِلَّةَ عَلَيْهِ، وَلِذَلِكَ صَارُوا كَذَلِكَ، وَلَيْسَ أَنَّ ذَلِكَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا يَصِلُ إِلَى خَلْقِهِ، وَلَكِنَّ هَذَا مَعْنَى مَا قَالَ مِنْ ذَلِكَ، وَقَدْ قَالَ أَيْضًا: مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ وَدَعَانِي إِلَيْهَا، وَقَالَ أَيْضًا: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٣) وَقَالَ أَيْضًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾^(٤) وَكُلُّ هَذَا وَشَبِيهُهُ عَلَى مَا ذَكَرْتُ لَكَ، وَهَكَذَا الرِّضَا وَالْغَضَبُ وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْأَشْيَاءِ مِمَّا يُشَاكِلُ ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ يَصِلُ إِلَى الْمُكُونِ الْأَسْفَ وَالضَّجَرِ وَهُوَ الَّذِي أَحَدَثَهُمَا وَأَنْشَأَهُمَا لَجَازَ لِقَائِلِ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ الْمُكُونِ^(٥) يَبِيدُ يَوْمًا لِأَنَّهُ إِذَا دَخَلَهُ الضَّجَرُ وَالْغَضَبُ دَخَلَهُ التَّغْيِيرُ، وَإِذَا دَخَلَهُ التَّغْيِيرُ لَمْ يُمْضِ عَلَيْهِ الْإِبَادَةُ^(٦)، وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ لَمْ يُعْرِفِ الْمُكُونُ مِنَ الْمُكُونِ، وَلَا الْقَادِرُ مِنَ الْمُقْدُورِ، وَلَا الْخَالِقُ مِنَ الْمَخْلُوقِ؛ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ هَذَا الْقَوْلِ عُلُوًّا كَبِيرًا. هُوَ الْخَالِقُ لِلْأَشْيَاءِ لَا لِحَاجَةٍ، فَإِذَا كَانَ لَا لِحَاجَةَ اسْتَحَالَ الْحَدُّ وَالْكَيفُ فِيهِ، فَأَفْهَمَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

بيان:

قال الطبرسي «رحمه الله»: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أي أغضبونا، عن ابن عباس ومجاهد. وغضب الله سبحانه على العصاة إرادة عقابهم، ورضاه عن المطيعين إرادة ثوابهم؛ وقيل، معناه آسفوا رسلنا، لأنَّ الأسف بمعنى الحزن، لا يجوز على الله تعالى. انتهى^(٧). وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وهو الذي أحدثهما» إشارة إلى وجه آخر لاستحالة ذلك كما مرَّ في بعض الأخبار^(٨) أَنَّ اللَّهَ لَا يوصف بخلقه، وأشار عَلَيْهِ السَّلَامُ آخراً إلى أَنَّ الاحتياج إلى الغير ينافي الخالقيَّةَ ووجوب الوجود كما هو المشهور.

١٤٤٠. التوحيد، معاني الأخبار^(٩): ابْنُ الْمُتَوَكِّلِ، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَمْرِو الْمُقَيَّمِيِّ، عَنْ هِشَامِ بْنِ

١. الزخرف/ ٥٥.

٢. في الكافي: «مربوبون».

٣. النساء/ ٨٠.

٤. الفتح/ ١٠.

٥. كَوْنُ اللَّهِ الْأَشْيَاءِ: أوجدتها، راجع تاج العروس.

٦. الإِبَادَةُ: الإِهْلَاكُ، راجع لسان العرب.

٧. مجمع البيان، ج ٩، ص ٨٠.

٨. كتاب التوحيد، باب ١٤ نفي الزمان والمكان والحركة.

٩. التوحيد (للصدوق)، ص ١٦٩، ح ٣؛ معاني الأخبار، ص ٢٠، ح ٣؛ الكافي، ج ١، باب الإرادة أنَّها من صفات الفعل، ص ١١٠، ح ٦، وقد

تمَّت الرواية فيه إلى عبارة: «العاجزين المحتاجين».

الْحَكَمَ أَنْ رَجُلًا سَأَلَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ رِضَى وَسَخَطٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَيْسَ ذَلِكَ عَلَى مَا يُوجَدُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الرِّضَا وَالْعُصْبَ دَخَلَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ فَيَنْقُلُهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، مُعْتَمِلٌ^(١) مُرَكَّبٌ لِلْأَشْيَاءِ فِيهِ مَدْخَلٌ، وَخَالِقًا لَا مَدْخَلَ لِلْأَشْيَاءِ فِيهِ، وَاحِدٌ أَحَدِيّ الذَّاتِ وَأَحَدِيّ الْمَعْنَى^(٢)، فَرِضَاهُ ثَوَابُهُ، وَسَخَطُهُ عِقَابُهُ، مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ يَدْخُلُهُ فَيَهَيِّجُهُ وَيَنْقُلُهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ صِفَةُ الْمَخْلُوقِينَ الْعَاجِزِينَ الْمُحْتَاجِينَ، وَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ لَا حَاجَةَ بِهِ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا خَلَقَ، وَخَلَقَهُ جَمِيعًا مُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، إِنَّمَا خَلَقَ الْأَشْيَاءَ لَا مِنْ حَاجَةٍ^(٣)، وَلَا سَبَبٍ اخْتِرَاعًا وَائْتِدَاعًا.

بيان:

في الكافي هكذا: «فينقله من حال إلى حال لأن المخلوق أجوف معتمِل» وهو الظاهر. والحاصل أن عروض تلك الأحوال والتغيرات إنما يكون لمخلوق أجوف، له قابليّة ما يحصل فيه ويدخله، معتمِل يعمل بأعمال صفاته وآلاته، مركّب من أمور مختلفة وجهات مختلفة للأشياء من الصفات والجهات والآلات فيه مدخل، وخالقنا تبارك اسمه لا مدخل للأشياء فيه لاستحالة التركيب في ذاته، فإنه أحديّ الذات وأحديّ المعنى، فإذا لا كثرة فيه لا في ذاته ولا في صفاته الحقيقيّة، وإنّما الاختلاف في الفعل فيشيب عند الرضا ويعاقب عند السخط.

قال السيّد الداماد «رحمه الله»: المخلوق أجوف لما قد برهن واستبان في حكمة ما فوق الطبيعة أن كلّ ممكن زوج تركيبّي وكلّ مركّب مزوّج الحقيقة، فإنه أجوف الذات لا محالة، فما لا جوف لذاته على الحقيقة هو الأحد الحقّ سبحانه لا غير، فإذا الصمد الحقّ ليس هو إلا الذات الأحديّة الحقّة من كلّ جهة، فقد تصحّح من هذا الحديث الشريف تأويل الصمد بما لا جوف له، وما لا مدخل لمفهوم من المفهومات وشيء من الأشياء في ذاته أصلاً^(٤).

١٤٤١. الإحتجاج^(٥): عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ^(٦)، أَنَّهُ سَأَلَ الزُّنْدِيقَ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: فَلَمْ يَزَلْ صَانِعُ الْعَالَمِ عَالِمًا بِالْأَحْدَاثِ الَّتِي أَحْدَثَهَا قَبْلَ أَنْ يُحْدِثَهَا؟ قَالَ: لَمْ يَزَلْ يَعْلَمُ فَخَلَقَ^(٧). قَالَ: أَمْ مُخْتَلِفٌ هُوَ أَمْ مُؤْتَلَفٌ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا يَلِيقُ بِهِ

١. في الكافي: «وذلك أن الرضا حال تدخل عليه فتنتقله من حال إلى حال لأن المخلوق أجوف معتمِل ...».

٢. في المعاني والكافي: «واحد واحدٍ الذات واحدٍ المعنى ...».

٣. في التوحيد: «إنّما خلق الأشياء من غير حاجة».

٤. التعليقة على أصول الكافي (الميرداماد)، ج ٢، ص ٢٥٠ و ٢٥١.

٥. قد ورد في الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٣٨، ضمن رواية: الكافي، ج ١، باب الإيلاء، ص ١١٦، ح ٧؛ التوحيد (للصدوق)، ص ١٩٣، ح ٧؛ وجاء في الأخيرين بهذا المضمون.

٦. في المصدر: «عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام»، وفي الكافي والتوحيد: «أبي هاشم الجعفري، عن أبي جعفر الثاني عليه السلام».

٧. في المصدر: «فلم يزل يعلم فخلق ما علم».

الِاخْتِلَافُ وَلَا الْإِتِلَافُ، إِنَّمَا يَخْتَلِفُ الْمُتَجَزِّي وَيَاتْلِفُ الْمُتَبَعُّصُ، فَلَا يُقَالُ لَهُ: مُؤْتَلِفٌ وَلَا مُخْتَلِفٌ. قَالَ: فَكَيْفَ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ فَلَا وَاحِدَ كَوَاحِدٍ، لِأَنَّ مَا سِوَاهُ مِنَ الْوَاحِدِ مُتَجَزِّيٌّ، وَهُوَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَاحِدٌ لَا مُتَجَزِّيٌّ وَلَا يَقَعُ عَلَيْهِ الْعَدُّ.

١٤٤٢. الإحتجاج^(١): رُوِيَ أَنَّ عَمْرُو بْنَ عَبِيدٍ وَقَدَ عَلَى مُحَمَّدٍ بْنِ عَلِيٍّ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَتَحَانِهِ بِالسُّوَالِ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ مَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾^(٢) مَا هَذَا الرَّتْقُ وَالْفَتْقُ؟ فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَانَتِ السَّمَاءُ رَتْقًا لَا تُنْزَلُ الْقَطْرُ، وَكَانَتِ الْأَرْضُ رَتْقًا لَا تُخْرِجُ النَّبَاتَ، فَفَتَقَ اللَّهُ السَّمَاءَ بِالْقَطْرِ، وَفَتَقَ الْأَرْضَ بِالنَّبَاتِ. فَانْطَلَقَ^(٣) عَمْرُو وَلَمْ يَجِدْ اعْتِرَاضًا، وَمَضَى ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَخْبِرْنِي جُعِلْتُ فِدَاكَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾^(٤) مَا غَضَبُ اللَّهِ؟ فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: غَضَبُ اللَّهِ تَعَالَى عِقَابُهُ، يَا عَمْرُو مَنْ ظَنَّ أَنَّ اللَّهَ يُعَيِّرُهُ شَيْءٌ فَقَدْ كَفَرَ^(٥).

١٤٤٣. التوحيد^(٦): الهمداني، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ هَارُونَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ قَالَ: سَأَلَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ التَّوْحِيدِ، فَقَالَ: هُوَ عَزَّ وَجَلَّ مُثَبَّتٌ مَوْجُودٌ، لَا مُبْطَلٌ وَلَا مَعْدُودٌ، وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَةِ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَهُ عَزَّ وَجَلَّ نُعُوتٌ وَصِفَاتٌ، فَالْصِّفَاتُ لَهُ وَأَسْمَاؤُهَا جَارِيَةٌ عَلَى الْمَخْلُوقِينَ، مِثْلُ السَّمِيعِ وَالْبَصِيرِ وَالرَّؤُوفِ وَالرَّحِيمِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ، وَالتَّعُوتُ نُعُوتُ الذَّاتِ لَا يَلِيْقُ إِلَّا بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَاللَّهُ نُورٌ لَا ظِلَامَ فِيهِ، وَحَيٌّ لَا مَوْتَ فِيهِ، وَعَالِمٌ لَا جَهْلَ فِيهِ، وَصَمَدٌ لَا مَدْخَلَ فِيهِ، رَبُّنَا نُورِي الذَّاتِ، حَيِّ الذَّاتِ، عَالِمِ الذَّاتِ، صَمَدِي الذَّاتِ.

بيان:

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فالفئات له» أي لا تجري صفاته بالمعنى الذي يطلق عليه تعالى على المخلوقين، بل إنما يطلق عليهم هذا الاسم بمعنى آخر، وإن اشترك المعنيان بوجه من الوجوه، والنور هو الوجود لأنه منشأ الظهور، والظلام: الإمكان. وقال الحكماء: الحي في حقه تعالى هو الدِّرَاكُ الْفَعَالُ^(٧). وعند المتكلمين من المعتزلة والشيعة هي كونه تعالى منشأ للعلم والإرادة، وعبارة أخرى: كونه تعالى بحيث يصح أن يعلم ويقدر، وذهبت الأشاعرة الميثبتون للصفات الزائدة أنها صفة توجب صحّة العلم والقدرة، وقد عرفت بطلانها.

١. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٢٦: الإرشاد (للمفيد)، ج ٢، ص ١٦٥: روضة الواعظين، ج ١، ص ٢٠٣.

٢. الأنبياء / ٣٠.

٣. في المصدر والإرشاد والروضة: «فانقطع».

٤. طه / ٨٨.

٥. في المصدر: «فقد هلك».

٦. التوحيد (للسدوق)، ص ١٤٠، ح ٤؛ التعليقة على أصول الكافي (لمير داماد)، ص ٢٤٣.

٧. الأسفار الأربعة، ج ٦، ص ٤١٥.

١٤٤٤. التوحيد^(١): مَا جِيلَوِيهِ، عَنْ عَمِّهِ، عَنْ الْبَرْقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ النَّضْرِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شَمْرٍ، عَنْ جَابِرٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَانَ وَلَا شَيْءَ غَيْرُهُ، نُورًا لَا ظَلَامَ فِيهِ، وَصَادِقًا لَا كَذِبَ فِيهِ، وَعَالِمًا لَا جَهْلَ فِيهِ، وَحَيًّا لَا مَوْتَ فِيهِ، وَكَذَلِكَ هُوَ الْيَوْمَ، وَكَذَلِكَ لَا يَزَالُ أَبَدًا.

١٤٤٥. التوحيد^(٢): حَمْرَةُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْعَلَوِيُّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ الْيَقُطِينِيِّ، عَنْ حَمَادٍ، عَنْ حَرِيزٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: فِي صِفَةِ الْقَدِيمِ: إِنَّهُ وَاحِدٌ أَحَدٌ صَمَدٌ أَحَدِي الْمَعْنَى، لَيْسَ بِمَعَانٍ كَثِيرَةٍ مُخْتَلَفَةٍ. قَالَ: قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ يَزْعُمُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ أَنَّهُ يَسْمَعُ بَغِيرَ الَّذِي يُبْصِرُ، وَيُبْصِرُ بَغِيرَ الَّذِي يَسْمَعُ. قَالَ: فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كَذَبُوا وَالْحَدُّوا وَشَبَّهُوا؛ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ إِنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَسْمَعُ بِمَا يُبْصِرُ وَيُبْصِرُ بِمَا يَسْمَعُ. قَالَ: قُلْتُ: يَزْعُمُونَ أَنَّهُ بَصِيرٌ عَلَى مَا يَعْقِلُونَهُ. قَالَ: فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: تَعَالَى اللَّهُ إِنَّمَا يَعْقِلُ مَا كَانَ بِصِفَةِ الْمَخْلُوقِ وَلَيْسَ اللَّهُ كَذَلِكَ.

بيان:

قوله: «على ما يعقلونه» أي من الإبصار بآلة البصر، فيكون نقلاً لكلام المجسمة، أو باعتبار صفة زائدة قائمة بالذات فيكون نقلاً لكلام الأشاعرة، والجواب أنه إنما يعقل بهذا الوجه من كان بصفة المخلوق، أو المراد: تعالى الله أن يتصف بما يحصل ويرتسم في العقول والأذهان، والحاصل أنهم يشبّهون الله تعالى ما يعقلون من صفاتهم، والله منزّه عن مشابهتهم ومشاركتهم في تلك الصفات الإمكانية.

١٤٤٦. التوحيد^(٣): ابْنُ الْمُتَوَكِّلِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِيهِ، عَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ: فِي حَدِيثِ الزُّنْدِيقِ الَّذِي سَأَلَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لَهُ: أَتَقُولُ إِنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ؟ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ سَمِيعٌ بَغَيْرِ جَارِحَةٍ وَبَصِيرٌ بَغَيْرِ آلَةٍ بَلْ يَسْمَعُ بِنَفْسِهِ، وَيُبْصِرُ بِنَفْسِهِ، وَلَيْسَ قَوْلِي: إِنَّهُ يَسْمَعُ بِنَفْسِهِ أَنَّهُ شَيْءٌ وَالتَّنَفُّسُ شَيْءٌ آخَرٌ، وَلَكِنِّي أَرَدْتُ عِبَارَةً عَنْ نَفْسِي إِذْ كُنْتُ مَسْئُولًا وَإِفْهَامًا لَكَ إِذْ كُنْتُ سَائِلًا، فَأَقُولُ: يَسْمَعُ بِكُلِّهِ لَا أَنَّ كُلَّهُ لَهُ بَعْضٌ، وَلَكِنِّي أَرَدْتُ إِفْهَامَكَ وَالتَّعْيِيرَ عَنْ نَفْسِي وَلَيْسَ مَرْجِعِي فِي ذَلِكَ إِلَّا إِلَى أَنَّهُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْعَالِمُ الْخَبِيرُ بِلَا اخْتِلَافٍ الذَّاتِ وَلَا اخْتِلَافٍ مَعْنَى.

١٤٤٧. التوحيد^(٤): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنْ الصَّفَّارِ وَسَعْدٍ مَعًا، عَنْ ابْنِ عِيسَى، عَنْ أَبِيهِ وَالْحُسَيْنِ بْنِ سَعِيدٍ وَمُحَمَّدِ الْبَرْقِيِّ^(٥)، عَنْ ابْنِ أَبِي عَمِيرٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لِي: أَتَنْتَعُ اللَّهَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: هَاتِ،

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٤٠، ح ٥؛ المحاسن، ج ١، ص ٢٤٢، ح ٢٢٨.

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ١٤٤، ح ٩؛ الكافي، ج ١، باب آخر من صفات الذات، ص ١٠٨، ح ١؛ وقد ورد في الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٢٢، مع اختلاف يسير.

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ١٤٤، ح ١٠؛ الكافي، ج ١، باب آخر من صفات الذات، ص ١٠٨، ح ٢؛ الفصول المهمة، ج ١، ص ١٩٠، ح ١٤٢.

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ١٤٦، ح ١٤؛ الوافي، ج ١، ص ٤٥٣.

٥. في بعض النسخ: عن أبيه، عن ابن أبي عمير. (هامش المطبوع)

فَقُلْتُ: هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. قَالَ: هَذِهِ صِفَةٌ يَشْتَرِكُ فِيهَا الْمَخْلُوقُونَ. قُلْتُ: فَكَيْفَ نَنَعْتُهُ؟ فَقَالَ: هُوَ نُورٌ لَا ظُلْمَةٌ فِيهِ، وَحَيَاةٌ لَا مَوْتَ فِيهِ، وَعِلْمٌ لَا جَهْلَ فِيهِ، وَحَقٌّ لَا بَاطِلَ فِيهِ. فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ وَأَنَا أَعْلَمُ النَّاسِ بِالتَّوْحِيدِ.

قال الصدوق «رحمه الله»^(١): إذا وصفنا الله تبارك وتعالى بصفات الذات فإنما ننفي عنه بكل صفة منها ضدها؛ فمتى قلنا: إنه حيّ، نفينا عنه ضد الحياة وهو الموت، ومتى قلنا: عليم، نفينا عنه ضد العلم وهو الجهل، ومتى قلنا: سميع، نفينا عنه ضد السمع وهو الصمم، ومتى قلنا: بصير، نفينا عنه ضد البصر وهو العمى، ومتى قلنا: عزيز، نفينا عنه ضد العزة وهو الذلة، ومتى قلنا: حكيم، نفينا عنه ضد الحكمة وهو الخطأ، ومتى قلنا: غنيّ، نفينا عنه ضد الغنى وهو الفقر، ومتى قلنا: عدل، نفينا عنه الجور وهو الظلم، ومتى قلنا: حلیم، نفينا عنه العجلة، ومتى قلنا: قادر، نفينا عنه العجز، ولو لم نفعل ذلك أثبتنا معه أشياء لم تزل معه، ومتى قلنا: لم يزل حيّاً سميعاً بصيراً عزيزاً حكيماً غنياً ملكاً^(٢)، فلما جعلنا معنى كل صفة من هذه الصفات التي هي صفات ذاته نفينا ضدها أثبتنا أن الله لم يزل واحداً لا شيء معه. وليست الإرادة والمشیئة والرضا والغضب وما يشبه ذلك من صفات الأفعال بمثابة صفات الذات، فإنه لا يجوز أن يقال: لم يزل الله مريداً شائياً كما يجوز أن يقال: لم يزل الله قادراً عالماً.

بيان:

حاصل كلامه: أن كل ما يكون اتّصف ذاته تعالى به بنفي ضده عنه مطلقاً فهي من صفات الذات، ويمكن أن يكون عين ذاته، ولا يلزم من قدمها تعدّد في ذاته ولا في صفاته، وأمّا الصفات التي قد يتّصف بها بالنسبة إلى شيء وقد يتّصف بنقيضها بالنسبة إلى شيء آخر، فلا يمكن أن يكون النقيضان عين ذاته، فلا بدّ من زيادتها فلا يكون من صفات الذات، وأيضاً يلزم من كونها من صفات الذات قدمها مع زيادتها، فيلزم تعدّد القدماء، وأيضاً لو كانت من صفات الذات يلزم زوالها عند طرؤ نقيضها، فيلزم التغيّر في الصفات الذاتية. وقد أشار الكليني إلى هذا الوجه الأخير بعد ما ذكر في وجه الفرق ما تقدّم ذكره وسيأتي تحقيق الإرادة في بابها. وقال الصدوق «رحمه الله» في موضع آخر من التوحيد: والدليل على أن الله عزّ وجلّ عالم قادر حيّ بنفسه لا بعلم وقدرة وحياة هو غيره، أنه لو كان عالماً بعلم لم يخل علمه من أحد أمرين: إمّا أن يكون قديماً أو حادثاً، فإن كان حادثاً فهو جلّ ثناؤه قبل حدوث العلم غير عالم وهذا من صفات النقص، وكلّ منقوص محدث بما قدّمناه، وإن كان قديماً وجب أن يكون غير الله عزّ وجلّ قديماً وهذا كفر بالإجماع، وكذلك القول في القادر وقدرته والحيّ وحياته، والدليل على أنه عزّ وجلّ لم يزل قادراً عالماً حيّاً أنه قد ثبت أنه

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٤٨.

٢. في المصدر: «لم يزل حيّاً عليمّاً سميعاً بصيراً عزيزاً حكيماً غنياً ملكاً حلماً عادلاً كريماً».

عالم قادر حيّ بنفسه، وصحّ بالدلائل أنّه عزّ وجلّ قديم، وإذا كان كذلك كان عالماً لم يزل إذ نفسه التي لها علم لم تنزل، ونفس هذا يدلّ على أنّه قادر حيّ لم يزل^(١).

١٤٤٨. الأماشي للشيخ الطوسي^(٢): بِإِسْنَادِ الْمُجَاشِعِيِّ، عَنِ الصَّادِقِ، عَنْ آبَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُغْرِجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَضَعَ آخَرِينَ.

١٤٤٩. التوحيد^(٣): مَا جِيلَوِيهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الطَّبَّالِيِّ، عَنْ صَفْوَانَ، عَنْ ابْنِ مُسْكَانَ، عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لَمْ يَزَلِ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ رَبَّنَا وَالْعِلْمُ ذَاتُهُ وَلَا مَعْلُومٌ، وَالسَّمْعُ ذَاتُهُ وَلَا مَسْمُوعٌ، وَالْبَصَرُ ذَاتُهُ وَلَا مُبْصَرٌ، وَالْقُدْرَةُ ذَاتُهُ وَلَا مَقْدُورٌ، فَلَمَّا أَحْدَثَ الْأَشْيَاءَ وَكَانَ الْمَعْلُومُ وَقَعَ الْعِلْمُ مِنْهُ عَلَى الْمَعْلُومِ وَالسَّمْعُ عَلَى الْمَسْمُوعِ، وَالْبَصَرُ عَلَى الْمُبْصَرِ، وَالْقُدْرَةُ عَلَى الْمَقْدُورِ. قَالَ: قُلْتُ: فَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ مُتَكَلِّمًا؟ قَالَ: إِنَّ الْكَلَامَ صِفَةٌ مُحْدَثَةٌ لَيْسَتْ بِأَزَلِيَّةٍ، كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا مُتَكَلِّمًا.

بيان:

قوله ﷺ: «وقع العلم منه على المعلوم» أي وقع على ما كان معلوماً في الأزل، وانطبق عليه وتحقق مصداقه، وليس المقصود تعلّقه به تعلّقاً لم يكن قبل الإيجاد، أو المراد بوقوع العلم على المعلوم العلم به على أنّه حاضر موجود، وكان قد تعلّق العلم به قبل ذلك على وجه الغيبة وأنّه سيوجد، والتغيّر يرجع إلى المعلوم لا إلى العلم.

وتحقيق المقام: أنّ علمه تعالى بأنّ شيئاً وجد هو عين العلم الذي كان له تعالى بأنّه سيوجد، فإنّ العلم بالقضية إنّما يتغيّر بتغيّرها وهو إمّا بتغيّر موضوعها أو محمولها، والمعلوم ها هنا هي القضية القائلة بأنّ زيداً موجود في الوقت الفلاني، ولا يخفى أنّ زيداً لا يتغيّر معناه بحضوره وغيبته. نعم يمكن أن يشار إليه إشارة خاصّة بالموجود حين وجوده ولا يمكن في غيره، وتفاوت الإشارة إلى الموضوع لا يؤثر في تفاوت العلم بالقضية، ونفس تفاوت الإشارة راجع إلى تغيّر المعلوم لا العلم^(٤). وأمّا الحكماء فذهب محققوهم إلى أنّ الزمان والزمانيات كلّها حاضرة عنده تعالى لخروجه عن الزمان كالخيوط الممتدّة من غير غيبة لبعضها دون بعض، وعلى هذا فلا إشكال، لكنّ فيه إشكالات لا يسع المقام إيرادها.

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٢٤.

٢. الأماشي (لوطوسي)، ص ٥٢١، ح ١١٥١؛ مجموعة ورام، ج ٢، ص ١٧٦؛ نوادر الأخبار (للفيض)، ص ٩٧، ح ١.

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ١٣٩، ح ١؛ الكافي، ج ١، باب صفات الذات، ص ١٠٧، ح ١.

٤. العلم الذي لا يتغيّر حاله مع وجود المعلوم الخارجي وعدمه وقبله وبعده كما هو لازم هذا البيان علم كلي. وسيأتي طعن المؤلّف على من يقول به، والحق أنّ علمه تعالى حضوريّ لا حصوليّ وتفصيل بيانه في محله وعليه ينبغي أن يوجّه الخبر لا على العلم الحصوليّ. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

١٤٥٠. التوحيد^(١): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَيْسَى، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ سَهْلٍ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ عَيْسَى قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقُلْتُ: لَمْ يَزَلِ اللَّهُ يَغْلَمُ؟ قَالَ: أَنَّى يَكُونُ يَغْلَمُ وَلَا مَغْلُومٌ؟ قَالَ: قُلْتُ: فَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ يَسْمَعُ؟ قَالَ: أَنَّى يَكُونُ ذَلِكَ وَلَا مَسْمُوعٌ؟ قَالَ: قُلْتُ: فَلَمْ يَزَلِ يُبْصِرُ؟ قَالَ: أَنَّى يَكُونُ ذَلِكَ وَلَا مُبْصَرٌ؟ قَالَ: ثُمَّ قَالَ: لَمْ يَزَلِ اللَّهُ عَلِيماً سَمِيعاً بَصِيراً ذَاتُ عِلْمَةٍ سَمِيعَةٍ بَصِيرَةٍ.

بيان:

لعلَّ السائل إنما سأل عن العلم على وجه الحضور بأن يكون المعلوم حاضراً موجوداً، فنفي عليه السلام ذلك ثم أثبت كونه تعالى أزلاً متصفاً بالعلم، لكن لا مع وجود المعلوم وحضوره، وكذا السمع والبصر. ثم اعلم أن السمع والبصر قد يظنُّ أنَّهما نوعان من الإدراك لا يتعلَّقان إلا بالموجود العيني، فهما من توابع الفعل، فيكونان حادثين بعد الوجود، ومع قطع النظر عن المفسد التي ترد عليه لا يوافق الأخبار الكثيرة الدالة صريحاً على قدمهما، وكونهما من صفات الذات فهما إما راجعان إلى العلم بالمسموع والمبصر، وإنما يمتازان عن سائر العلوم بالمتعلِّق، أو أنَّهما ممتازان عن غيرهما من العلوم لا بمجرد المتعلِّق المعلوم، بل بنفسهما لكنَّهما قديمان يمكن تعلُّقهما للمعدوم كسائر العلوم، وبعد وجود المسموع والمبصر يتعلَّقان بهما من حيث الوجود والحضور. ولا تفاوت بين حضورهما باعتبار الوجود وعدمه فيما يرجع إلى هاتين الصفتين، نعم لما كان هذان النوعان من الإدراك في الإنسان مشروطين بشرائط لا يتصوَّر في المعدوم كالمقابلة، وتوسَّط الشفاف في البصر لم يمكن تعلُّقه بالمعدوم، ولا يشترط شيء من ذلك في إبصاره تعالى، فلا يستحيل تعلُّقه بالمعدوم وكذا السمع.

وقيل: يحتمل أن يكون المراد بكون السمع والبصر قديماً أن إمكان إبصار المبصرات الموجودة وسماع المسموعات الموجودة وما يساوق هذا المعنى قديم، فإذا تحقَّق المبصر صار مبصراً بالفعل بخلاف العلم فإنَّ تعلُّقه بجميع المعلومات قديم؛ ويرد عليه أن الفرق بين العلم والسمع والبصر على هذا الوجه بعيد عن تلك الأخبار الكثيرة المتقدمة. والله تعالى يعلم وحججه عليه السلام.

أقول:

سيأتي خبر سليمان المروزي في أبواب الاحتجاجات وهو يناسب هذا الباب^(٢).

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٣٩، ح ٢.

٢. تنمة كتاب الإحتجاج، باب ١٩ مناظرات الرضا علي بن موسى صلوات الله عليه واحتجاجه.

﴿باب ٢﴾

«العلم وكيفيته والآيات الواردة فيه»

الآيات:

- البقرة/٢٩: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.
- البقرة/١٩٧: ﴿... وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ...﴾.
- البقرة/٢١٥: ﴿... وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.
- البقرة/٢١٦ و ٢٣٢: ﴿... وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ في موضعين.
- البقرة/٢٢٠: ﴿... وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ...﴾.
- البقرة/٢٢٤: ﴿... وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.
- البقرة/٢٢٧: ﴿... فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.
- البقرة/٢٣١: ﴿... وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.
- البقرة/٢٣٣: ﴿... وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.
- البقرة/٢٣٤: ﴿... وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.
- البقرة/٢٣٥: ﴿... وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ...﴾.
- البقرة/٢٣٧: ﴿... إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.
- البقرة/٢٤٤: ﴿... وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.
- البقرة/٢٤٧: ﴿... وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.
- البقرة/٢٥٥: ﴿... يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ...﴾.
- البقرة/٢٦٥: ﴿... وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

البقرة/٢٧٠: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ...﴾.

البقرة/٢٧٣: ﴿... وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

البقرة/٢٨٢: ﴿... وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

البقرة/٢٨٣: ﴿... وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

آل عمران/١٥ و ٢٠: ﴿... وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ مرتين.

آل عمران/٢٩: ﴿قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾.

آل عمران/٣٤: ﴿... وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

آل عمران/٣٥: ﴿... إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

آل عمران/٩٢: ﴿... وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

آل عمران/١١٥: ﴿... وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

آل عمران/١١٩: ﴿... إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

آل عمران/١٢٠: ﴿... إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

آل عمران/١٢١: ﴿... وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

آل عمران/١٥٣: ﴿... وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

آل عمران/١٦٦ و ١٦٧: ﴿... وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا...﴾.

النساء/١١ و ٢٤: ﴿... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

النساء/٣٢: ﴿... إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

النساء/٣٣: ﴿... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

النساء/٣٥: ﴿... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾.

النساء/٣٩: ﴿... وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

النساء/٥٨: ﴿... إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

النساء/٧٠: ﴿... وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾.

النساء/١٠٨: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنْ

الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

النساء/١٧٦: ﴿... وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

المائدة/٩٧: ﴿... ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

المائدة/٩٩: ﴿... وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.

الأنعام/٥٩ و ٦٠: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ...﴾.

الأنعام/١١٧: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

الأعراف/٨٩: ﴿... وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ...﴾.

الأنفال/٤٣: ﴿... إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

الأنفال/٤٧: ﴿... وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

التوبة/٤٤: ﴿... وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾.

التوبة/٤٧: ﴿... وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

التوبة/٧٨: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

التوبة/١١٥: ﴿... إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

يونس/٦١: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَغْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

هود/٦: ﴿... وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(١).

هود/١١٢: ﴿... إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

هود/١٢٣: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

الرعد/٨-١٠: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾^(٢).

١. **نقول:** «الكتاب المبين» معناه المكتوب الواضح البين، ويشير إلى علم الله الواسع، وقد يعبر عنه أحيانا باللوحة المحفوظ أيضا. (الأمثل في

تفسير كتاب الله المنزل، ج ٦، ص ٤٦٤)

٢. **نقول:** ليس المقصود من علمه بالذكر والأنثى فقط، بل بكل خصائصه والطاقة الكامنة فيه، هذه الأشياء لا يستطيع أحد وبأي وسيلة أن

- الرعد / ٤٢: ﴿... يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ...﴾.
- الحجر / ٢٤: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾.
- النحل / ١٩: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.
- النحل / ٢٣: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.
- النحل / ١٢٥: ﴿... إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.
- الإسراء / ١٧: ﴿... وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.
- الإسراء / ٢٥: ﴿... رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنَّ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾.
- الإسراء / ٥٥: ﴿... وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- الإسراء / ٩٦: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾.
- مريم / ٩٤: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾.
- طه / ١١٠: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾.
- الأنبياء / ٤: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.
- الأنبياء / ٢٨: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.
- الأنبياء / ١١٠: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾.
- الحج / ٧٠: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.
- المؤمنون / ٩٢: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ...﴾.
- النور / ٢٩: ﴿... وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾.
- النور / ٣٠: ﴿... إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.
- النور / ٣٥ و ٦٤: ﴿... وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.
- الفرقان / ٦: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾.
- النمل / ٧٤ و ٧٥: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

→ يتعرّف عليها، وعلى هذا فإنّ وجود هذا النظام الدقيق والمعقّد للجنين ومراحل تكامله لا يمكن أن يكون بدون صانع عالم وقدير. (الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٧، ص ٣٥٠)

العنكبوت / ١٠ و ١١: ﴿... أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾.

العنكبوت / ٥٢: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
 لقمان / ٣٤: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّا ذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.
 أحزاب / ٥١: ﴿... وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾.
 أحزاب / ٥٢: ﴿... وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾.
 أحزاب / ٥٤: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.
 أحزاب / ٥٥: ﴿... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.
 سبأ / ٢: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾.

سبأ / ٣: ﴿... عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.
 سبأ / ٥٠: ﴿... إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.
 فاطر / ٨: ﴿... إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.
 فاطر / ٣١: ﴿... إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.
 فاطر / ٣٨: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.
 يس / ١٢: ﴿... وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾.
 يس / ٧٦: ﴿فَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.
 غافر / ١٩: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.
 فصلت / ٤٠: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا...﴾ وقال تعالى: ﴿... اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.
 فصلت / ٤٧: ﴿إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ...﴾.
 الزخرف / ٨٠: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.
 محمد / ١٩: ﴿... وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾.

- محمد / ٢٦: ﴿... وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾.
- الفتح / ١٨: ﴿... فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ...﴾.
- الفتح / ٢٤: ﴿... وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.
- الفتح / ٢٦: ﴿... وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.
- الفتح / ٢٨: ﴿... وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.
- الحجرات / ٨: ﴿... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.
- الحجرات / ١٣: ﴿... إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.
- الحجرات / ١٦: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١).
- الحجرات / ١٨: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.
- ق / ١٦: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.
- ق / ٥٤: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ...﴾.
- النجم / ٣٠: ﴿... إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾.
- النجم / ٣٢: ﴿... هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾.
- المجادلة / ١: ﴿... وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.
- المجادلة / ٧: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.
- المتحنة / ١: ﴿... وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ ...﴾.
- المتحنة / ١٠: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾.
- الملك / ١٣ و ١٤: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

١. **فقول:** ذاته المقدسة هي علمه بعينه وعلمه هو ذاته بعينها ولذلك فإن علمه أرلبي أبدي! ذاته المقدسة في كل مكان حاضرة، وهو أقرب إليكم من حبل الوريد، ويحول بين المرء وقلبه. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٦، ص ٥٧٥)

القلم / ٧: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.
 الجن / ٢٦ و ٢٧: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ...﴾^(١).
 الجن / ٢٨: ﴿... وَأَخَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.
 الأعلى / ٧: ﴿... إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾.
 العلق / ١٤: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾.

الروايات :

١٤٥١. التوحيد، عيون أخبار الرضا عليه السلام^(٢): عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْقُرَشِيُّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ الْقُضَلِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، عَنْ مَنْصُورِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْأَصْفَهَانِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ بَشَّارٍ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرضا عليه السلام قَالَ: سَأَلْتُهُ أَيْعَلَمُ اللَّهُ الشَّيْءَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ أَنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ، أَوْ لَا يَعْلَمُ إِلَّا مَا يَكُونُ^(٣)؟ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْعَالِمُ بِالْأَشْيَاءِ قَبْلَ كَوْنِ الْأَشْيَاءِ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٤) وَقَالَ لِأَهْلِ النَّارِ: ﴿وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(٥) فَقَدْ عَلِمَ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَوْ رَدَّهُمْ لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ، وَقَالَ لِلْمَلَائِكَةِ: لَمَّا قَالُوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٦) فَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَّمُهُ سَابِقًا لِلْأَشْيَاءِ، قَدِيمًا قَبْلَ أَنْ

١. **نقول:** كيف نجمع بين هذه الآيات والروايات التي ينفي بعضها علم الغيب لغير الله وإثبات البعض الآخر لغيره تعالى؟ هناك طرق مختلفة

للجمع بينها:

١. أشهر طرق الجمع هو أن المراد من اختصاص علم الغيب بالله تعالى هو العلم الذاتي والاستقلالي، ولهذا لا يعلم الغيب إلا هو، وما يعلمونه فهو من الله، وذلك بلطفه وعنايته.

٢. أسرار الغيب قسمان: قسم خاص بالله عز وجل لا يعلمه إلا هو كقيام الساعة، وغيرها مما يشابه ذلك، والقسم الآخر علّمه الأنبياء والأولياء.

٣. الطريق الآخر للجمع بين القسمين من الآيات والروايات هو ثبوت أسرار الغيب في مكانين: في اللوح المحفوظ ولوح المحو والإثبات الذي هو علم مقتضيات وليس العلّة التامة، ولهذا فهو قابل للتغيير.

٤. والطريق الآخر هو أن الله تعالى يعلم بكل أسرار الغيب، وأمّا الأنبياء والأولياء فإنهم لا يعلمونها كلها. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل،

ج ١٩، ص ١١١)

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ١٣٦، ح ٨؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١١٨، ح ٨؛ تفسير البرهان، ج ٥، ص ٣١، ح ٩٧٥١.

٣. لم يرد في البرهان: «أو لا يعلم إلا ما يكون».

٤. الجاثية / ٢٩.

٥. الأنعام / ٢٨.

٦. البقرة / ٣٠.

يَخْلُقُهَا، فَتَبَارَكَ رَبُّنَا وَتَعَالَى عُلُوءًا كَبِيرًا، خَلَقَ الْأَشْيَاءَ وَعِلْمُهُ بِهَا سَابِقُ لَهَا كَمَا شَاءَ، كَذَلِكَ لَمْ يَزَلْ رَبُّنَا عَلِيمًا سَمِيعًا بَصِيرًا.

بيان:

قال الطبرسي «رحمه الله»: ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ يعني ديوان الحفظة ﴿يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي يشهد عليكم بالحق ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ستكتب الحفظة ما كنتم تعملون في دار الدنيا^(١)؛ وقيل: المراد بالكتاب اللوح المحفوظ يشهد بما قضى فيه من خير وشر؛ وعلى هذا فيكون معنى نستنسخ أن الحفظة تستنسخ ما هو مدون عندها من أحوال العباد، وهو قول ابن عباس. انتهى^(٢). أقول: بناء استشاده عليه على المعنى الثاني وإن كان المشهور بين المفسرين هو المعنى الأول.

١٤٥٢. معاني الأخبار^(٣): مَاجِيلُوهُ، عَنْ عَمِّهِ، عَنِ الْكُوفِيِّ، عَنْ مُوسَى بْنِ سَعْدَانَ الْحَنَاطِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْقَاسِمِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْكَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾^(٤) قَالَ: السِّرُّ مَا كَتَمْتَهُ فِي نَفْسِكَ، وَأَخْفَى مَا خَطَرَ بِبَالِكَ ثُمَّ أَنْسَيْتَهُ.

بيان:

قال الطبرسي «رحمه الله»: السر: ما حدث به العبد غيره في خفية، وأخفى منه: ما أضمره في نفسه ما لم تحدث غيره، عن ابن عباس. وقيل: السر: ما أضمره العبد في نفسه وأخفى منه: ما لم يكن ولا أضمره أحد؛ وقيل: السر: ما تحدث به نفسك، وأخفى منه: ما تريد أن تحدث به نفسك في ثاني الحال؛ وقيل: السر: العمل الذي تستره عن الناس، وأخفى منه: الوسوسة؛ وقيل: معناه يعلم أسرار الخلق، وأخفى: أي سر نفسه، عن زيد بن أسلم جعله فعلاً ماضياً، ثم روى هذا الخبر عن الباقر والصادق عليه السلام^(٥).

١٤٥٣. معاني الأخبار^(٦): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عِيسَى، عَنْ ابْنِ فَضَّالٍ، عَنْ ثَعْلَبَةَ بْنِ مَيْمُونٍ، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِنَا، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾^(٧) فَقَالَ: الْغَيْبُ: مَا لَمْ يَكُنْ، وَالشَّهَادَةُ: مَا قَدْ كَانَ.

١. وقال بعد ذلك، والاستنساخ: الأمر بالنسخ مثل الاستكتاب: الأمر بالكتابة. (هامش المطبوع)

٢. مجمع البيان، ج ٩، ص ١٢٠.

٣. معاني الأخبار، ص ١٤٣، ح ١؛ نوادر الأخبار (للفيض)، ص ٩٣، ح ٩.

٤. طه/٧.

٥. مجمع البيان، ج ٧، ص ٦.

٦. معاني الأخبار، ص ١٤٦، ح ١؛ نوادر الأخبار (للفيض)، ص ٩٣.

٧. الأنعام/٧٣.

بيان:

قال الطبرسي «رحمه الله»: أي عالم بما غاب عن حسّ العباد، وبما تشاهده العباد؛ وقيل: عالم بالمعدوم والموجود؛ وقيل: عالم السرّ والعلانية، والأولى أن يحمل على العموم^(١).

١٤٥٤. معاني الأخبار^(٢): بِإِسْنَادِ الْمُتَقَدِّمِ عَنْ ثَعْلَبَةَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَلَمَةَ الْجَرِيرِيِّ^(٣) قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾^(٤) فَقَالَ: أَلَمْ تَرَ إِلَى الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلَى الشَّيْءِ وَكَأَنَّهُ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ؟ فَذَلِكَ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ.

بيان:

قال الطبرسي «رحمه الله»: ﴿خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ﴾ أي خيانتها وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحلّ النظر إليه؛ وقيل: تقديره: يعلم الأعين الخائنة؛ وقيل: هو الرمز بالعين؛ وقيل: هو قول الإنسان: ما رأيت وقد رأيت، ورأيت وما رأي^{(٥)(٦)}.

١٤٥٥. التوحيد، عيون أخبار الرضا عليه السلام^(٧): تَمِيمُ الْقُرَشِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الْأَنْصَارِيِّ، عَنِ الْهَرَوِيِّ قَالَ: سَأَلَ الْمَأْمُونُ الرُّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي خَبَرٍ طَوِيلٍ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٨) فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ لِيَبْلُوَهُمْ بِتَكْلِيفٍ طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، لَا عَلَى سَبِيلِ الْإِمْتِحَانِ وَالتَّجَرِبَةِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ عَلِيمًا بِكُلِّ شَيْءٍ.

١٤٥٦. معاني الأخبار^(٩): مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ أَبَانَ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنِ النَّضْرِ بْنِ سُوَيْدٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ عِمْرَانَ الْحَلَبِيِّ، عَنْ أَبِي بَصِيرٍ^(١٠) قَالَ: سَأَلْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ

١. مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٣١.

٢. معاني الأخبار، ص ١٤٧، ح ١؛ نوادر الأخبار (للفيض)، ص ٩٣، ح ٩.

٣. في المصدر: «عبد الرحمن بن مسلمة الجريري».

٤. غافر/١٩.

٥. قال الرضي «رضوان الله تعالى عليه» في تلخيصه: هذه استعارة والمراد بخائنة الأعين - والله أعلم - الريب في كسر الجفون ومرامز العيون، وسمي سبحانه ذلك خيانة لأنه أمانة للريبة ومجانبة للعفة وقد يجوز أن تكون خائنة الأعين، هاهنا صفة لبعض الأعين بالمبالغة في الخيانة، على المعنى الذي أشرنا إليه، كما يقال: علامة ونسابة. (هامش المطبوع)

٦. مجمع البيان، ج ٨، ص ٨٠٧.

٧. التوحيد (للمصدق)، ص ٣٢٠، ح ٢؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٣٤، ح ٣٣؛ الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٤١٢؛ وقد ورد في هذه المصادر ضمن رواية.

٨. هود/٧.

٩. معاني الأخبار، ص ٢١٥، ح ١؛ تفسير القمي، ج ١، ص ٢٠٣؛ وقد ورد في الكافي، ج ٨، حديث القباب ص ٢٤٨، ضمن ح ٣٤٩.

١٠. في الكافي بهذا الإسناد: «محمد بن يحيى، عن ابن عيسى، عن محمد بن خالد والحسين بن سعيد جميعاً، عن النضر بن سويد، عن يحيى الحلبي، عن عبد الله بن مسكان، عن زيد بن الوليد، عن أبي الربيع الشامي، عن أبي عبد الله عليه السلام».

إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ^(١) قَالَ: فَقَالَ: الْوَرَقَةُ السَّقَطُ، وَالْحَبَّةُ الْوَلَدُ، وَظُلُمَاتُ الْأَرْضِ الْأَرْحَامُ، وَالرَّطْبُ مَا يَحْيَى، وَالْيَابِسُ مَا يَغِيضُ^(٢) (٣)، وَكُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ. تفسير العياشي^(٤): عن أبي الربيع الشامي، عن أبي عبد الله عليه السلام مثله.

بيان:

في أكثر نسخ الكتابين «يغيض» بالعين المعجمة، والياء المثناة من تحت، من الغيض بمعنى النقص، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾^(٥) وقال الفيروز آبادي: الغيض: السقط الذي لم يتم خلقه، فيحتمل أن يكون المراد بالسقط ما يسقط قبل حلول الروح أو قبل تمام خلق البدن أيضاً، وبالحبة ما يكون في علم الله أنه تحل فيه الروح وهو ينقسم إلى قسمين: فإما أن ينزل في أوانه ويعيش خارج الرحم فهو الرطب، وإما أن ينزل قبل كماله فيموت إما في الرحم أو في خارجها وهو اليابس. وفي بعض نسخ معاني الأخبار والكافي: «يقيض» بالقاف فيحتمل أن لا يكون ذلك تفصيلاً لأحوال السقط، بل يكون المراد أنه يعلم الحي من الناس والميت منهم.

ثم اعلم أن هذا التفسير وما سيأتي من بطون الآية الكريمة لا ينافي كون ظاهرها أيضاً مراداً. قال الطبرسي: قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ قال الزجاج: المعنى أنه يعلمها ساقطة وثابتة؛ وقيل: يعلم ما سقط من ورق الأشجار وما بقي، ويعلم كم انقلبت ظهر البطن عند سقوطها، ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ معناه وما تسقط من حبة في باطن الأرض إلا يعلمها، وكنت بالظلمة عن باطن الأرض لأنه لا يدرك كما لا يدرك ما حصل في الظلمة؛ وقال ابن عباس: يعني تحت الصخرة وأسفل الأرضين السبع، أو تحت حجر، أو شيء، ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾ قد جمع الأشياء كلها لأن الأجسام لا تخلو من أحد هذين؛ وقيل: أراد ما ينبت وما لا ينبت، عن ابن عباس. وعنه أيضاً أن الرطب: الماء، واليابس: البادية؛ وقيل: الرطب: الحي، واليابس: الميت^(٦). انتهى.

١٤٥٧. تفسير القمي^(٧): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ

١. الأنعام/٥٩.

٢. في نسخة: «ما يقبض»، وهو أظهر حيث لا يحتاج إلى التكلف. (هامش المطبوع)

٣. **فقول:** وفي الحديث الآخر من هذا الباب تفسير اليابس بـ«ما يتم» ولا ينافي ما نحن فيه بناء على نسخة «ما يقبض» بدل «ما يغيض» فإنه إذا تم حيات شيء يقبضه.

٤. تفسير العياشي، ج ١، ص ٣٦١، ح ٢٨.

٥. الرعد/٨.

٦. مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٨١.

٧. تفسير القمي، ج ١، ص ٣٦٠؛ الكافي، ج ٦، باب بدء خلق الإنسان، ص ١٢، ح ٢؛ وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٣٨١، ح ٢٧٣٥٧، وقد ورد في الأخيرين مع زيادة واختلاف يسير.

عِنْدَهُ بِمَقْدَارٍ ﴿٢﴾ (١) ﴿مَا تَغِيضُ﴾ أَيُّ مَا تَسْقُطُ قَبْلَ التَّمَامِ، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ يَعْنِي عَلَى تِسْعَةِ أَشْهُرٍ، كُلُّ مَا رَأَتْ الْمَرْأَةُ مِنْ حَيْضٍ فِي أَيَّامِ حَمْلِهَا، زَادَ ذَلِكَ عَلَى حَمْلِهَا.

١٤٥٨. و (٣) فِي رِوَايَةِ أَبِي الْجَارُودِ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فِي قَوْلِهِ: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ السِّرُّ وَالْعَلَانِيَةُ عِنْدَهُ سَوَاءٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ أَيُّ مُسْتَخْفٍ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ ^(٤) يَعْنِي تَحْتَ الْأَرْضِ فَذَلِكَ كُلُّهُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاحِدٌ يَعْلَمُهُ.

بيان:

قال الطبرسي: أي من هو مستتر متوار بالليل، ومن هو سالك في سره أي في مذهبه، ماض في حوائجه بالنهار. وقال الحسن: معناه: ومن هو مستتر في الليل ومن هو مستتر في النهار. وصحح الزجاج هذا القول لأن العرب تقول: انسرب الوحش إذا دخل في كناسته ^(٥) (٦).

١٤٥٩. تفسير القمي ^(٧): قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ^(٨) قَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: هَذِهِ الْخُمُسَةُ أَشْيَاءٌ لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْهَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَهِيَ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

بيان:

أي بدون تعليم الله تعالى ووحيه.

١. الرد ٨/.

٢. قال السيد الرضي: هذه استعارة عجيبة لأن حقيقة الغيض إنما يوصف بها الماء دون غيره، يقال: غاض الماء وغضته، ولكن النطفة لما كانت تسمى ماء جاز أن توصف الأرحام بأنها تغيض في قرارها وتشتمل على بقاعاتها، فيكون ما غاضته من ذلك الماء سببا لزيادته بأن يصير علقته ثم مضغة ثم خلقه مصورة، فذلك معنى قوله: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾؛ وقيل أيضا: معنى ﴿مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ أي ما تنقص بإسقاط العلق وإخراج الخلق، ومعنى ﴿مَا تَزْدَادُ﴾ أي ما تلده لتنام وتؤدي خلقه على كمال، فيكون الغيض هاهنا عبارة عن النقصان والازدياد عبارة عن التمام. (هامش المطبوع)

٣. تفسير القمي، ج ١، ص ٣٦٠.

٤. الرد ١٠/.

٥. الكيناس: بيت الطيبي، راجع شمس العلوم.

٦. مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٣١.

٧. تفسير القمي، ج ٢، ص ١٦٧؛ نوادر الأخبار (للفيض)، ص ٩٣، ذيل ح ٩؛ تفسير البرهان، ج ٤، ص ٣٨٢، ح ٨٤٥١.

٨. لقمان ٣٤/.

١٤٦٠. التوحيد^(١): الدَّقَاقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ الْبَرْمَكِيِّ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ بُرْدَةَ، عَنِ الْفَقِيِّ، عَنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْعَلَوِيِّ، عَنِ فَتْحِ بْنِ يَزِيدَ الْجُرْجَانِيِّ، عَنِ أَبِي الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢) قَالَ: قُلْتُ لَهُ: يَعْلَمُ الْقَدِيمُ الشَّيْءَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ أَنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ؟ قَالَ: وَيَحْكُ إِنَّ مَسْأَلَتَكَ لَصَعْبَةٌ، أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٣) وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٤) وَقَالَ - يَخْكِي قَوْلَ أَهْلِ النَّارِ -: ﴿أَخْرَجْنَا نَعْمَلُ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾^(٥) وَقَالَ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾^(٦) فَقَدْ عَلِمَ الشَّيْءَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ أَنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ؛ الْخَبَرُ.

١٤٦١. التوحيد^(٧): الدَّقَاقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ النَّخَعِيِّ، عَنِ عَمِّهِ النَّوْفَلِيِّ، عَنِ سُلَيْمَانَ بْنِ سَفْيَانَ، عَنِ أَبِي عَلِيٍّ الْقَصَّابِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقُلْتُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ مُنْتَهَى عِلْمِهِ، فَقَالَ: لَا تَقُلْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِعِلْمِهِ مُنْتَهَى^(٨).

١٤٦٢. التوحيد^(٩): أَبِي وَائِنُ الْوَلِيدِ، عَنِ مُحَمَّدٍ الْعَطَّارِ وَأَحْمَدَ بْنِ إِدْرِيسَ مَعًا، عَنِ الْأَشْعَرِيِّ، عَنِ عَلِيِّ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، عَنِ صَفْوَانَ، عَنِ الْكَاهِلِيِّ^(١٠) قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دُعَاءِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ مُنْتَهَى عِلْمِهِ؛ فَكَتَبَ إِلَيَّ: لَا تَقُولَنَّ: مُنْتَهَى عِلْمِهِ^(١١)، وَلَكِنْ قُلْ: مُنْتَهَى رِضَاهُ.

١٤٦٣. التوحيد^(١٢): الدَّقَاقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ النَّخَعِيِّ، عَنِ النَّوْفَلِيِّ، عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنِ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ، عَنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: الْعِلْمُ هُوَ مِنْ كَمَالِهِ.

١٤٦٤. التوحيد^(١٣): أَبِي، عَنِ سَعْدِ بْنِ هَاشِمٍ، عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنِ أَبِي الْحَسَنِ الصَّيْرَفِيِّ، عَنِ بَكَّارِ الْوَاسِطِيِّ،

١. ورد في التوحيد (للصدوق)، ص ٦٠، ضمن ح ١٨.

٢. في الأصول بهذا الإسناد: «هارون بن موسى التلعكبري، عن ابن عقدة، عن بن علي بن حسن بن فضال، عن علي بن أسباط، عن أبي علي القطان، عن أبي عبد الله عليه السلام».

٣. الأنبياء/٢٢.

٤. المؤمنون/٩١.

٥. فاطر/٣٧.

٦. الأنعام/٢٨.

٧. التوحيد (للصدوق)، ص ١٣٤، ح ١؛ وقد ورد في الأصول الستة عشر، ص ٣٤٤، ح ٥٧٦، مع اختلاف يسير.

٨. **فقول:** وما ورد في بعض الأدعية من قوله عليه السلام «الحمد لله منتهى علمه ومبلغ رضاه وما لا نفاذ له» المراد به ما لا نهاية له من علمه بقربنة قوله ما لا نفاذ له فلا منافاة بين الروايتين.

٩. التوحيد (للصدوق)، ص ١٣٤، ح ٢؛ الكافي، ج ١، باب صفات الذات، ص ١٠٧، ح ٣؛ تحف العقول، ص ٤٠٨.

١٠. في الكافي بهذا الإسناد: «محمد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن صفوان بن يحيى، عن الكاهلي».

١١. في الكافي والتحف مع زيادة: «فليس لعلمه منتهى».

١٢. التوحيد (للصدوق)، ص ١٣٤، ح ٣.

١٣. التوحيد (للصدوق)، ص ١٣٤، ح ٤.

عَنِ الثَّمَالِيِّ، عَنْ حُمْرَانَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فِي الْعِلْمِ، قَالَ: هُوَ كَيْدُكَ ^(١).

قال الصدوق «رحمه الله»: يعني أن العلم ليس هو غيره وأنه من صفات ذاته، لأن الله عز وجل ذات علامة سمعية بصيرة، وإنما نريد بوصفنا إياه بالعلم نفى الجهل عنه، ولا نقول: إن العلم غيره لأننا متى قلنا ذلك ثم قلنا: إن الله لم يزل عالماً أثبتنا معه شيئاً قديماً لم يزل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

أقول:

في بعض نسخ التوحيد زيادة في هذا المقام، وهي هذه: فيه إلحاق بخط بعض المشايخ «رحمه الله» يقول: هذا غلط من الراوي، والصحيح الخبر الأول، والإمام أجل من أن يبعث الله سبحانه بعلمه منه ككون يد الإنسان منه، وألحق فيه أحمد بن محمد الموصلي أن قال: إن الإمام عليه السلام يخاطب الناس على قدر فهمهم وكنه عقولهم، وليس في هذه الرواية ما ينافي الرواية التي قبلها لأن قوله عليه السلام في العلم: «هو كيدك منك» أراد: كما أن يد الإنسان من كماله كذلك الله سبحانه كونه عالماً من كماله، ولو لم يكن عالماً لم يكن كاملاً كما أن الإنسان لو لم يكن له يد لم يكن كاملاً، وعلى هذا لا تنافي بينهما.

بيان:

أقول: يحتمل أن يكون التشبيه لبيان غاية ظهور معلوماته تعالى عنده فإن اليد أظهر أعضاء الإنسان؛ أي يعلم جميع الأشياء كما تعلم يدك، وهذا مثل معروف بين العرب فلا حاجة إلى هذه التكلفات.

١٤٦٥. التوحيد ^(٢): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّفَّارِ، عَنِ الثَّقُفِيِّ، عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ، عَنْ عِيسَى بْنِ أَبِي مَنصُورٍ، عَنْ جَابِرِ الْجُعْفِيِّ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام ^(٣) قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ نُورٌ لَا ظِلْمَةَ فِيهِ، وَعِلْمٌ لَا جَهْلَ فِيهِ، وَحَيَاةٌ لَا مَوْتَ فِيهِ.

١٤٦٦. التوحيد ^(٤): ابْنُ الْمُتَوَكِّلِ، عَنِ الْحَمِيرِيِّ، عَنِ ابْنِ عِيسَى، عَنِ ابْنِ مَحْبُوبٍ، عَنِ ابْنِ سِنَانٍ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ عليه السلام قَالَ ^(٥): إِنَّ لِلَّهِ عِلْماً خَاصّاً وَعِلْماً عَامّاً، فَأَمَّا الْعِلْمُ الْخَاصُّ فَالْعِلْمُ الَّذِي لَمْ يُطْلَعْ عَلَيْهِ مَلَائِكَتُهُ الْمُقَرَّبِينَ

١. في المصدر: «هو كيدك منك».

٢. ورد في التوحيد (للصدوق)، ص ١٣٨، ح ١٣، و ص ١٣٧، ح ١١، مع تقديم وتأخير؛ وفي متشابه القرآن ومختلفه (لابن شهر آشوب)، ج ١، ص ٦٥، عن الصادق عليه السلام.

٣. ورد في التوحيد، ح ١١، بهذا الإسناد: «الصدوق، عن أبيه، عن سعد بن عبد الله، عن إبراهيم بن هاشم، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن الحكم، عن منصور الصيقلي، عن أبي عبد الله عليه السلام».

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ١٣٨، ح ١٤؛ وقد ورد في بصائر الدرجات، ص ١١١، ح ١٢، مع اختلاف يسير؛ نواذر الأخبار (للفيض)، ص ٩٢، ح ٨.

٥. ورد في البصائر بهذا الإسناد: «أحمد بن محمد، عن الحسن بن محبوب، عن حنان الكندي، عن أبيه، عن أبي جعفر عليه السلام».

وَأَنْبِيَائِهِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ، وَأَمَّا عِلْمُهُ الْعَامُّ فَإِنَّهُ عِلْمُهُ الَّذِي أَطْلَعَ عَلَيْهِ مَلَائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ وَأَنْبِيَائَهُ الْمُرْسَلِينَ ﷺ، وَقَدْ وَقَعَ إِلَيْنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

١٤٦٧. التوحيد^(١): عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ الْفَضْلِ، عَنْ مَنْصُورِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَصْفَهَانِيِّ، عَنْ صَفْوَانَ^(٢)، عَنْ ابْنِ مُسْكَانَ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ﷺ عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَكَانَ يَعْلَمُ الْمَكَانَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْمَكَانَ أَمْ عِلْمُهُ عِنْدَ مَا خَلَقَهُ وَبَعْدَ مَا خَلَقَهُ^(٣)؟ فَقَالَ ﷺ: تَعَالَى اللَّهُ! بَلْ لَمْ يَزَلْ عَالِمًا بِالْمَكَانِ قَبْلَ تَكْوِينِهِ كَعِلْمِهِ بِهِ بَعْدَ مَا كَوَّنَهُ، وَكَذَلِكَ عِلْمُهُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ كَعِلْمِهِ بِالْمَكَانِ.

قال الصدوق «رحمه الله»: من الدليل على أن الله تعالى عالم أن الأفعال المختلفة التقدير المتضادة التدبير المتفاوتة الصنعة لا يقع على ما ينبغي أن تكون عليه من الحكمة ممن لا يعلمها، ولا يستمر على منهاج منتظم ممن يجهلها. ألا ترى أنه لا يصوغ قرطاً^(٤)؟ يحكم صنعته، ويضع كلاً من دقيقة وجلييلة موضعه من لا يعرف الصياغة، ولا أن ينظم كتابة يتبع كل حرف منها ما قبله من لا يعلم الكتابة، والعالم أطف صنعة وأبدع تقديرًا مما وصفناه فوقه من غير عالم بكيفية قبل وجوده أبعد وأشد استحالة؛ وتصديق ذلك: مَا حَدَّثَنَا^(٥) بِهِ ابْنُ عَبْدِ وَاسٍ، عَنْ ابْنِ قُتَيْبَةَ، عَنْ الْفَضْلِ قَالَ: سَمِعْتُ الرِّضَا عَلِيَّ بْنَ مُوسَى ﷺ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ بِقُدْرَتِهِ، أَتَقَنَّ مَا خَلَقَ بِحِكْمَتِهِ، وَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهُ مَوْضِعَهُ بِعِلْمِهِ، سُبْحَانَ مَنْ يَعْلَمُ حَاقِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

١٤٦٨. التوحيد^(٦): بِهِذَا الْإِسْنَادِ، عَنْ النَّوْفَلِيِّ، عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي يَحْيَى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ، عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى، عَنْ الْعَبْدِ الصَّالِحِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ ﷺ قَالَ: عِلْمُ اللَّهِ لَا يُوصَفُ اللَّهُ مِنْهُ بِأَيْنٍ، وَلَا يُوصَفُ الْعِلْمُ مِنَ اللَّهِ بِكَيْفٍ، وَلَا يُفْرَدُ الْعِلْمُ مِنَ اللَّهِ، وَلَا يُبَانُ اللَّهُ مِنْهُ، وَلَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عِلْمِهِ حَدٌّ^(٧).

بيان:

قوله ﷺ: «لا يوصف الله منه بأين» أي ليس علمه تعالى شيئاً مбайناً منه بحسب المكان بأن يكون هو تعالى في مكان وعلمه في مكان آخر، أو لا يوصف بسبب العلم بمكان بأن يقال: علم ذلك الشيء في هذا

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٣٧، ح ٩؛ الفصول المهمة، ج ١، ص ١٥٤، ح ٧٣.

٢. في المصدر: «... منصور بن عبد الله الأصفهاني، عن علي بن عبد الله، عن صفوان، عن ابن مسكان...».

٣. لم يرد في الفصول: «وبعد ما خلقه».

٤. القرط: الذي يعلق في شحمة الأذن ونوع من حللي الأذن، راجع لسان العرب.

٥. التوحيد (للصدوق)، ص ١٣٧، ح ١٠.

٦. التوحيد (للصدوق)، ص ١٣٨، ح ١٦؛ نوادر الأخبار (للفيض)، ص ٩١، ح ٥.

٧. من الروايات الدالة على عينية العلم للذات صراحة. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

المكان، أي لا يحتاج في العلم بالأشياء إلى الدنو منها والإحاطة الجسميّة بها، ويحتمل أن يكون المراد أنّه تعالى ليس مكاناً للمعلوم بأن يحلّ ويحصل فيه صورته، لكنّه بعيد. وقوله عليه السلام: «ولا يوصف العلم من الله بكيف» أي ليس علمه تعالى كقيّة كما في المخلوقين، أو لا يعلم كنه علمه تعالى وكيفية تعلّقه بالمعلومات. وقوله عليه السلام: «وليس بين الله وبين علمه حدّ» إمّا إشارة إلى عدم مغايرة العلم للذات، أو إلى عدم حدوث علمه تعالى أي لم ينفك علمه تعالى عنه حتّى يكون بين وجوده تعالى وعلمه حدّ وأمد حتّى يقال: كان ثمّ حدث علمه في وقت معيّن وحدّ معلوم.

١٤٦٩. التوحيد^(١): أَبِي، عَنْ مُحَمَّدٍ الْعَطَّارِ، عَنِ ابْنِ أَبِي الْخَطَّابِ، عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ غَيْرُهُ، وَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ عَالِمًا بِمَا كَوْنٌ، فَعِلْمُهُ بِهِ قَبْلَ كَوْنِهِ كَعِلْمِهِ بِهِ بَعْدَ مَا كَوْنُهُ^(٢).

١٤٧٠. التوحيد^(٣): الْعَطَّارُ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ بَشِيرٍ، عَنْ فَضِيلِ بْنِ سُكْرَةَ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُعَلِّمَنِي، هَلْ كَانَ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ يَعْلَمُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ أَنَّهُ وَحْدَهُ؟ فَقَدْ اخْتَلَفَ مَوَالِيكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ كَانَ يَعْلَمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ وَحْدَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا مِنْ خَلْقِهِ؛ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا مَعْنَى يَعْلَمُ يَعْلَلُ، فَهُوَ الْيَوْمَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا غَيْرَهُ قَبْلَ فِعْلِ الْأَشْيَاءِ؛ وَقَالُوا: إِنْ أَثْبَنَّا أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ عَالِمًا بِأَنَّهُ لَا غَيْرَهُ فَقَدْ أَثْبَنَّا مَعَهُ غَيْرَهُ فِي أَرْلَيْتِهِ، فَإِنْ رَأَيْتَ يَا سَيِّدِي أَنْ تُعَلِّمَنِي مَا لَا أَعْدُوهُ إِلَّا غَيْرَهُ، فَكَتَبَ عليه السلام: مَا زَالَ اللَّهُ عَالِمًا تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذِكْرُهُ.

بيان:

قوله: «إِنَّمَا مَعْنَى يَعْلَمُ يَعْلَلُ» أي إنّ تعلّق علمه تعالى بشيء يوجب وجود ذلك الشيء وتحقّقه، فلو كان لم يزل عالماً كان لم يزل فاعلاً، فكان معه شيء في الأزل، أو إنّ تعلّق العلم بشيء يستدعي انكشاف ذلك الشيء، وانكشاف الشيء يستدعي نحو حصول له، وكلّ حصول ووجود لغيره سبحانه مستند إليه، فيكون من فعله، فيكون معه في الأزل شيء من فعله. فأجاب عليه السلام: بأنّه لم يزل عالماً، ولم يلتفت إلى بيان فساد متمسك نافية، إمّا لظهوره أو لتعليم أنّه لا ينبغي الخوض في تلك المسائل المتعلقة بذاته وصفاته تعالى، فإنّها ممّا تقتصر عنه الأفهام وتزلّ فيه الأقدام.

ثمّ اعلم أنّ من ضروريّات المذهب كونه تعالى عالماً أزلاً وأبداً بجميع الأشياء كليّاتها وجزئياتها من غير

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٤٥، ح ١٢؛ الكافي، ج ١، باب صفات الذات، ص ١٠٧، ح ٢.

٢. في الكافي: «ولم يزل عالماً بما يكون، فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد كونه».

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ١٤٥، ح ١١؛ الكافي، ج ١، باب صفات الذات، ص ١٠٨، ح ٦.

تغيّر في علمه تعالى، وخالف في ذلك جمهور الحكماء فنفوا العلم بالجزئيات عنه تعالى، ولقدماء الفلاسفة في العلم مذاهب غريبة:

منها: أنّه تعالى لا يعلم شيئاً أصلاً؛ ومنها: أنّه لا يعلم ما سواه ويعلم ذاته، وذهب بعضهم إلى العكس؛ ومنها: أنّه لا يعلم جميع ما سواه وإن علم بعضه؛ ومنها: أنّه لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها، ونسب الأخير إلى أبي الحسين البصري وهشام بن الحكم كما ورد في الأخبار أيضاً، ولعلّه كان مذهبه قبل اختيار الحق، أو اشتبه على الناقلين بعض كلماته، وجميع هذه المذاهب الباطلة كفر صريح مخالف لضرورة العقل والدين، وقد دلّت البراهين القاطعة على نفيها، ولهم في ذلك شبه ليس هذا موضع ذكرها وبيان سخافتها.

١٤٧١. التوحيد، معاني الأخبار، عيون أخبار الرضا عليه السلام (١): أبي، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ إِدْرِيسَ، عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ (٢)، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَمُوسَى بْنِ عَمْرٍو وَالْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي عُثْمَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا الْحَسَنِ الرُّضَا عليه السلام هَلْ كَانَ اللَّهُ عَارِفًا بِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: يَرَاهَا وَيَسْمَعُهَا؟ قَالَ: مَا كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى ذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْأَلُهَا وَلَا يَطْلُبُ مِنْهَا، هُوَ نَفْسُهُ وَنَفْسُهُ هُوَ، قُدْرَتُهُ نَافِذَةٌ، فَلَيْسَ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُسَمِّيَ نَفْسَهُ، وَلَكِنَّهُ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ أَسْمَاءً لِيُغَيِّرَهُ يَدْعُوهُ بِهَا، لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُدْعَ بِاسْمِهِ لَمْ يَعْرِفْ، فَأَوَّلُ مَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ: الْعَلِيِّ الْعَظِيمُ، لِأَنَّهُ أَعْلَى الْأَسْمَاءِ كُلِّهَا (٣)، فَمَعْنَاهُ اللَّهُ وَاسْمُهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، هُوَ أَوَّلُ أَسْمَائِهِ لِأَنَّهُ عَلِيٌّ عَلَا كُلَّ شَيْءٍ.

بيان:

قوله: «ويسمّعها» أي يسمّي نفسه ويسمّعها، ويمكن أن يقرأ من باب الإفعال. قوله عليه السلام: «فمعناه الله» أي مدلول هذا اللفظ، ويدلّ ظاهراً على أنّ الله اسم للذات غير صفة.

١٤٧٢. التوحيد (٤): أبي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ الْأَصْفَهَانِيِّ، عَنْ الْمُتَقَرِّي، عَنْ حَفْصٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ (٥) قَالَ: عَلِمَهُ.

١٤٧٣. التوحيد (٦): أبي، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سِنَانٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فَقَالَ: السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي الْكُرْسِيِّ، وَالْعَرْشُ هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ قُدْرَهُ.

١. التوحيد (للمصدق)، ص ١٩١، ح ٤؛ معاني الأخبار، ص ٢، ح ٢؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٢٩، ح ٢٤.

٢. وفي نسخة: «عن الحسين بن عبد الله». (هامش المطبوع)

٣. في التوحيد والمعاني والعيون: «لأنّه أعلى الأشياء كلها».

٤. التوحيد (للمصدق)، ص ٣٢٧، ح ١؛ كنز الفوائد، ج ٢، ص ١٠٦.

٥. البقرة/٢٥٥.

٦. التوحيد (للمصدق)، ص ٣٢٧، ح ٢؛ تفسير البرهان، ج ١، ص ٥١٧، ح ١٣٩٠.

بيان:

هذا الخبر والذي تقدمه يدلّان على أنّ العرش والكرسيّ قد يطلق كلّ منهما على علمه تعالى، وسيأتي تحقيقه في كتاب السماء والعالم.

١٤٧٤. التوحيد^(١): الدقاق، عن الكليني، عن عليّ بن إبراهيم، عن الثّقطيني، عن يونس، عن ابن حازم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام^(٢) هل يكون اليوم شيء لم يكن في علم الله بالأمر؟ قال: لا، من قال هذا فأخذه الله. قلت: أرايت ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة أليس في علم الله؟ قال: بلى قبل أن يخلق الخلق.

١٤٧٥. بصائر الدرجات^(٣): عبد الله بن عامر، عن الربيع بن أبي الخطاب، عن جعفر بن بشير، عن ضريس، عن أبي جعفر عليه السلام^(٤) قال: إنّ لله علمين: علماً مبذولاً، وعلماً مكفوفاً، فأما المبذول فإنه ليس من شيء يعلمه الملائكة والرسل عليه السلام إلا نحن نعلمه، وأما المكفوف فهو الذي عند الله في أم الكتاب^(٥).

١٤٧٦. بصائر الدرجات^(٦): ابن هاشم، عن البرقي رفعه قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ لله علمين: علم تعلمه ملائكته ورسله عليه السلام، وعلم لا يعلمه غيره، فما كان مما يعلمه ملائكته ورسله عليه السلام فنحن نعلمه، وما خرج من العلم الذي لا يعلم غيره فإيننا يخرج.

١٤٧٧. الخرائج والجرائح^(٧): قال أبو هاشم الجعفري: سأل محمد بن صالح الأرميني أبا محمد عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٨) فقال: هل يمحوا إلا ما كان؟ وهل يثبت إلا ما لم يكن؟ فقلت في نفسي: هذا خلاف قول هشام بن الحكم؛ إنه لا يعلم بالشيء حتى يكون^(٩)، فنظر عليه السلام إليّ فقال: تعالى الجبار

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٣٣٤، ح ٨؛ وقد ورد في المحاسن، ج ١، ص ٢٤٣، ح ٢٣٣، مع اختلاف يسير من «أرايت ما كان» إلى آخر

الحديث: الكافي، ج ١، باب البدء، ص ١٤٨، ح ١١.

٢. في المحاسن «البرقي»، عن أبيه، عن محمد بن أبي عمير، عن منصور بن حازم، عن أبي عبد الله عليه السلام.

٣. بصائر الدرجات، ص ١١١، ح ١١، و ص ١٠٩، ح ٣، و ص ١١٢، ح ١٨؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب أن الأئمة عليهم السلام يعلمون جميع العلوم التي ...، ص ٢٥٥، ح ٣.

٤. في البصائر، ح ٣: «محمد بن إسماعيل، عن علي بن الحكم، عن ضريس، عن أبي جعفر عليه السلام» وفي ح ١٨: «أحمد بن محمد، عن البرقي، عن الربيع الكاتب، عن جعفر بن بشير، عن أبي جعفر عليه السلام» وفي الكافي: «علي بن إبراهيم، عن صالح بن السندي، عن جعفر بن بشير، عن ضريس، عن أبي جعفر عليه السلام».

٥. ورد في الكافي مع زيادة: «إذا خرج نفذ».

٦. بصائر الدرجات، ص ١١٢، ح ١٧؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب نادر فيه ذكر الغيب، ص ٢٥٦، ح ٤، مع اختلاف يسير مروياً عن أبي جعفر عليه السلام، وقد تمت الرواية فيه إلى عبارة: «فنحن نعلمه».

٧. الخرائج والجرائح، ج ٢، ص ٦٨٧، ح ١٠؛ إثبات الهداة، ج ٥، ص ٢٧، ح ٥٦.

٨. الرد ٣٩/.

٩. وفي نسخة: أنه لا يعلم الشيء حتى يكون. (هامش المطبوع)

الْحَاكِمُ^(١) الْعَالِمُ بِأَلْشَيْءٍ قَبْلَ كَوْنِهَا. قُلْتُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ حُجَّةُ اللَّهِ^(٢).

١٤٧٨. كشف الغمّة^(٣): مِنْ دَلَائِلِ الْحَمِيرِيِّ، عَنِ الْجَعْفَرِيِّ مِثْلَهُ، وَفِي آخِرِهِ: تَعَالَى الْجَبَّارُ^(٤) الْعَالِمُ بِأَلْشَيْءٍ قَبْلَ كَوْنِهَا، الْخَالِقُ إِذْ لَا مَخْلُوقٌ، وَالرَّبُّ إِذْ لَا مَرْبُوبٌ، وَالْقَادِرُ قَبْلَ الْمَقْدُورِ عَلَيْهِ^(٥)، فَقُلْتُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ وَلِيُّ اللَّهِ وَحُجَّتُهُ وَالْقَائِمُ بِقِسْطِهِ، وَأَنَّكَ عَلَى مِنْهَاجِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعِلْمِهِ.

١٤٧٩. تفسير العياشي^(٦): عَنْ دَاوُدَ الرَّقِّيِّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾^(٧) قَالَ: إِنَّ اللَّهَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا هُوَ مُكَوَّنُهُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَهُ وَهُمْ ذُرٌّ، وَعَلِمَ مَنْ يُجَاهِدُ مِمَّنْ لَا يُجَاهِدُ، كَمَا عَلِمَ أَنَّهُ يُمَيِّتُ خَلْقَهُ قَبْلَ أَنْ يُمَيِّتَهُمْ وَلَمْ يَرِهِمْ مَوْتَى وَهُمْ أَحْيَاءُ^(٨).

بيان:

فالعلم كناية عن الوقوع، أو المراد العلم بعد الوقوع.

١٤٨٠. تفسير العياشي^(٩): عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ خَالِدٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ فَقَالَ: الْوَرَقُ: السَّقَطُ يَسْقُطُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُهْلَ الْوَلَدُ^(١٠). قَالَ: قُلْتُ: وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا حَبَّةٍ﴾ قَالَ: يَعْنِي الْوَلَدَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ إِذَا أَهْلَ وَيَسْقُطُ مِنْ قَبْلِ الْوِلَادَةِ. قَالَ: قُلْتُ: قَوْلُهُ: ﴿وَلَا رَطْبٍ﴾ قَالَ: يَعْنِي الْمُضْغَةَ إِذَا اسْتَكْنَتْ^(١١) فِي الرَّحِمِ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ خَلْقُهَا قَبْلَ أَنْ يَنْتَقِلَ. قَالَ: قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَابِسٍ﴾ قَالَ: الْوَلَدُ النَّامُ. قَالَ: قُلْتُ: ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(١٢) قَالَ: فِي إِمَامٍ مُبِينٍ.

١. لم يرد في المصدر والإثبات: «الحاكم».

٢. لم يرد في الإثبات: «قلت أشهد أنك حجة الله».

٣. كشف الغمّة، ج ٢، ص ١٩٤؛ الثاقب في المناقب، ص ٥٦٦، ح ٥٠٧.

٤. في المصدر مع زيادة: «الحاكم».

٥. وفي نسخة: القادر إذا لا مقدور. (هامش المطبوع)

٦. تفسير العياشي، ج ١، ص ١٩٩، ح ١٤٧؛ مختصر البصائر، ص ٤١٦، ح ٤٨٦؛ الذريعة إلى حافظ الشريعة، ج ١، ص ٣٣٦.

٧. آل عمران/١٤٢.

٨. في المصدر: «ولم يرههم موتهم وهم أحياء».

٩. تفسير العياشي، ج ١، ص ٣٦١، ح ٢٩؛ تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٢٦، ح ٣٤٩٥.

١٠. في نسخة: «سألت أبا الحسن عليه السلام». فعلى هذا يكون المراد من الحسين بن خالد الصيرفي، وعلى ما في المتن يكون هو ابن طهمان.

(هامش المطبوع)، وكذا في المصدر والبرهان.

١١. أهل الصبي: إذا رفع صوته بالبكاء، راجع أساس البلاغة.

١٢. في المصدر والبرهان: «أسكنت».

١٣. الأنعام/٥٩.

١٤٨١. تفسير العياشي^(١): عَنْ جَابِرٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ قَالَ: تَرَكُوا طَاعَةَ اللَّهِ ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾^(٢) قَالَ: فَتَرَكَهُمْ.

١٤٨٢. تفسير العياشي^(٣): عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ السَّعْدِيِّ قَالَ: قَالَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(٤) فَإِنَّمَا يَغْنِي أَنَّهُمْ نَسُوا اللَّهَ فِي دَارِ الدُّنْيَا فَلَمْ يَعْمَلُوا لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَبِرَسُولِهِ^(٥) فَنَسِيَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، أَيْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ فِي ثَوَابِهِ نَصِيباً فَصَارُوا مَنُوسِينَ مِنَ الْخَيْرِ.

١٤٨٣. تفسير العياشي^(٦): عَنْ حَرِيزٍ رَفَعَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قَالَ: الْغِيضُ: كُلُّ حَمْلٍ دُونَ تِسْعَةِ أَشْهُرٍ، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾^(٧) كُلُّ شَيْءٍ يَزْدَادُ عَلَى تِسْعَةِ أَشْهُرٍ، وَكَلَّمَا رَأَتْ الدَّمَ فِي حَمْلِهَا مِنَ الْحَيْضِ يَزْدَادُ بَعْدَ^(٨) الْأَيَّامِ الَّتِي رَأَتْ فِي حَمْلِهَا مِنَ الدَّمِ.

١٤٨٤. تفسير العياشي^(٩): مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ وَحُمَرَانُ وَزُرَّارَةُ عَنْهُمَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ أُنْثَىٰ أَوْ ذَكَرٍ ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ الَّتِي لَا تَحْمِلُ^(١٠) ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾^(١١) مِنْ أُنْثَىٰ أَوْ ذَكَرٍ.

١٤٨٥. تفسير العياشي^(١٢): عَنْ زُرَّارَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ قَالَ: الذَّكَرُ وَالْأُنْثَىٰ ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ قَالَ: مَا كَانَ دُونَ التَّسْعَةِ وَهُوَ غِيضٌ ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾^(١٣) قَالَ: مَا رَأَتْ الدَّمَ فِي حَالِ حَمْلِهَا زَادَ بِهِ عَلَى التَّسْعَةِ الْأَشْهُرِ، إِنْ كَانَ رَأَتْ الدَّمَ خَمْسَةَ أَيَّامٍ أَوْ أَقَلَّ أَوْ أَكْثَرَ زَادَ ذَلِكَ عَلَى التَّسْعَةِ الْأَشْهُرِ.

١. تفسير العياشي، ج ٢، ص ٩٥، ح ٨٥؛ تفسير الصافي، ج ٢، ص ٣٦٥.

٢. التوبة/٦٧.

٣. تفسير العياشي، ج ٢، ص ٩٦، ح ٨٦؛ التوحيد (للصدوق)، ص ٢٥٩، ح ٥؛ الإحتجاج (للطبرسي)، ج ١، ص ٢٤١؛ وقد ورد في الأخيرين ضمن رواية.

٤. التوبة/٦٧.

٥. لم يرد في التوحيد والإحتجاج: «ولم يؤمنوا به وبرسوله».

٦. تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٠٤، ح ١٠؛ الكافي، ج ٦، باب بدء خلق الإنسان...، ص ١٢، ح ٢؛ تفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٣٣، ح ٥٤٧٣.

٧. الرعد/٨.

٨. في الكافي: «فكلما رأت المرأة الدم الخالص في حملها فإنها تزاد بعدد...».

٩. تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٠٤، ح ١٢؛ تفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٣٤، ح ٥٤٧٥.

١٠. في المصدر والبرهان: «قال: ما لم يكن حملاً» بدلاً من «التي لا تحمل».

١١. الرعد/٨.

١٢. تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٠٥، ح ١٤؛ تفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٣٤، ح ٥٤٧٧.

١٣. الرعد/٨.

بيان:

قال الطبرسي «رحمه الله»: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ أي يعلم ما في بطن كل حامل من ذكر أو أنثى تاماً أو غير تام، ويعلم لونه وصفاته، ﴿مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ أي يعلم الوقت الذي تنقصه الأرحام من المدة التي هي تسعة أشهر ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ على ذلك عن أكثر المفسرين. وقال الضحاك: الغيض النقصان من الأجل والزيادة ما يزداد على الأجل، وذلك أن النساء لا يلدون^(١) لأجل واحد؛ وقيل: يعني بقوله: ﴿مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ الولد الذي تأتي به المرأة لأقل من ستة أشهر، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ الولد الذي تأتي به لأقصى مدة الحمل؛ وقيل: معناه ما تنقص الأرحام من دم الحيض وهو انقطاع الحيض. وما تزداد بدم النفاس بعد الوضع؛ عن ابن عباس بخلاف وابن زيد^(٢).

١٤٨٦. نهج البلاغة^(٣): مِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَعْلَمُ عَجِيجُ^(٤) الْوُحُوشِ فِي الْفُلُوتِ، وَمَعَاصِي الْعِبَادِ فِي الْخَلُوتِ، وَاخْتِلَافَ النَّيْنَانِ^(٥) فِي الْبَحَارِ الْغَامِرَاتِ^(٦)، وَتَلَاظُمَ الْمَاءِ بِالرِّيَّاحِ الْعَاصِفَاتِ.

أقول:

سيأتي بعض الأخبار في باب معاني الأسماء، وباب جوامع التوحيد، وباب البداء، وأبواب علوم الأئمة عليهم السلام، وقد سبق بعضها في الباب السابق.

١. كذا في المطبوع ولكن في الطبع الحجري: «يلدن» وهو الصحيح.

٢. مجمع البيان، ج ٦، ص ٤٣٠.

٣. نهج البلاغة (لصبي الصالح)، ص ٣١٢، صدر خطبة ١٩٨.

٤. عجة القوم وعجيجهم: صياحهم، راجع لسان العرب.

٥. النون: الحوت، والجمع أنوان ونيان، راجع لسان العرب.

٦. العُمُر: الماء الكثير، أي يغمر من دخله ويغطيه، راجع لسان العرب.

﴿باب ٣﴾

«البداء والنسخ»^(١)

الآيات:

البقرة ١٠٦: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

١. البداء بالفتح والمد في اللغة ظهور الشيء بعد الخفاء، وحصول العلم به بعد الجهل، واتفقت الأمة على امتناع ذلك على الله سبحانه إلا من لا يعتد به، ومن افترى ذلك على الإمامية فقد افترى كذبا عظيما، والإمامية منه براء. وفي العرف - على ما يستفاد من كلام العلماء وأئمة الحديث - يطلق على معان كلها صحيحة في حقه تعالى:

منها: إبداء شيء وإحداثه والحكم بوجوده بتقدير حادث وتعلق إرادة حادثة بحسب الشروط والمصالح، ومن هذا القبيل إيجاد الحوادث اليومية، ويقرب منه قول ابن أثير في حديث الأفرع والأبرص والأعمى: بدأ الله عز وجل أن يبتليهم، أي قضى بذلك، وهو معنى البداء هاهنا، لأن القضاء سابق والبداء استصواب شيء علم بعد أن لم يعلم، وذلك على الله عز وجل محال غير جائز. انتهى. ولعله أراد بالقضاء الحكم بالوجود، وأراد بكونه سابقا أن العلم به سابق كما يرشد إليه ظاهر التعليل المذكور بعده.

ومنها: ترجيح أحد المتقابلين والحكم بوجوده بعد تعلق الإرادة بهما تعلقا غير حتمي، لرجحان مصلحته وشروطه على مصلحة الآخر وشروطه، ومن هذا القبيل اجابة الداعي، وتحقيق مطالبه، وتطويل العمر بصلته الرحم، وإرادة إبقاء قوم بعد إرادة إهلاكهم.

ومنها: محو ما ثبت وجوده في وقت محدود بشروط معلومة ومصلحة مخصوصة، وقطع استمراره بعد انقضاء ذلك الوقت والشروط والمصالح، سواء أثبت بدله لتحقيق الشروط والمصالح في إثباته أولا، ومن هذا القبيل الإحياء والإماتة والقبض والبسط في الأمر التكويني، ونسخ الأحكام بلا بدل أو معه في الأمر التكليفي. والنسخ أيضا داخل في البداء كما صرح به الصدوق في كتابي التوحيد والاعتقادات. ومن أصحابنا من خص البداء بالأمر التكويني وأخرج النسخ عنه، وليس لهذا التخصيص وجه يعتد به، وإنما سميت هذه المعاني بداء لأنها مستلزمة لظهور شيء على الخلق بعد ما كان مخفيا عنهم، ومن ثم عرّف البداء بعض القوم بأنه أثر لم يعلم أحد من خلقه قبل صدوره عنه أنه يصدر عنه.

واليهود أنكروا البداء وقالوا: يد الله مغلولة - غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا - وهم يعنون بذلك أنه تعالى فرغ من الأمر فليس يحدث شيئا، وتقل عنهم أيضا أنه تعالى لا يقضي يوم السبت شيئا، ويقرب منه قول النظام من المعتزلة: إن الله تعالى خلق الموجودات دفعة واحدة على ما هي

المائدة/٦٤: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ...﴾.

الأنعام/٢: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾.
الرعد/٣٨ و ٣٩: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٣).

→ عليه الآن: معادن ونباتات، وحيوانات وإنساناً، ولم يتقدم خلق آدم ﷺ على خلق أولاده والتقدم والتأخر إنما يقع في ظهورها من مكانها دون حدودها، وكأنه أخذ ذلك من الكمون والظهور من مذهب الفلاسفة، ونقل صاحب الكشف عن الحسين بن الفضل ما يعود إلى هذا المذهب، وهو أن عبد الله بن طاهر دعا الحسين بن الفضل وذكر أن من آيات أشكلت عليه قوله عز من قائل: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن/٢٩) وقد صح «أن القلم جف بما هو كان إلى يوم القيامة» قال الحسين: أما قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فإنها شئون يبدئها لا شئون يبتدئها. وهذه المذاهب عندنا باطلة لأنه تعالى يحدث بعد ما يشاء في أي وقت يشاء على وفق الحكمة والمصلحة، كما دلت عليه روايات هذا الباب، ودلت عليه أيضاً قول أمير المؤمنين ﷺ: «الحمد لله الذي لا يموت ولا ينقضي عجائبه، لأنه كل يوم في شأن من إحداث بديع لم يكن» فإنه صريح في أنه تعالى يحدث في كل وقت ما أراد إحداثه من الأشخاص والأحوال، ولعل الحسين كالسائل فهم أن ابتداءها وإحداثها ينافي ما صح من جفاف القلم، وأنت تعلم أنه لا منافاة بينهما، لأن جفاف القلم دل على أن كل ما هو كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في اللوح المحفوظ أو في التقدير، ومعلوم له بحيث لا يتغير ولا يتبدل، ومن المكتوب والمعلوم له تعالى أن يقدر كذا في وقت كذا ويبتدئ بإيجاده وإحداثه على وفق الحكمة والمصلحة، فالابتداء والإحداث الذي هو البداء المراد هنا أيضاً من المكتوبات فليتأمل. قاله بعض الأفاضل في شرحه على الكافي.

أقول: سيأتي تحقيقات أخر حول البداء من المصنف وغيره. (هامش المطبوع)

٢. **نقول:** النسخ في اللغة الإزالة، وفي الاصطلاح تغيير حكم شرعي وإحلال حكم آخر محله، وهنا يطرح سؤال معروف بشأن سبب النسخ يقول: لو كان في الحكم مصلحة فلماذا نسخ؟ وإن لم يكن كذلك فلماذا شرع؟ لماذا لم تطرح الشريعة منذ البداية حكماً غير قابل للنسخ؟ نعلم أن بعض احتياجات الإنسان ثابتة لا تقبل التغيير، لأنها ترتبط بفطرة الإنسان وطبيعته، وبعضها الآخر تتغير بتغير الزمان وظروف البيئة، وهذه المتغيرات قد تضمن سعادة الإنسان في زمن معين، لكنها تصبح عقبة أمام تقدم الفرد في زمان آخر. هذه المسألة تتضح أكثر في إطار القانون اللازم لتكامل الإنسان والمجتمع الإنساني، وهذا القانون لا بد أن يتضمن متغيرات كي يكون المنهج التكاملي مفيداً لكل مراحل مسيرة المجتمع. لا بد من التأكيد أن أصول الأحكام الإلهية ثابتة لا يعترضها التغيير، فالتوحيد والعدالة الاجتماعية وسائر الأصول والمبادئ المشابهة ثابتة لا تتغير، وإنما يطرأ التغيير على المسائل الفرعية والثانوية. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١، ص ٣٢٨)

٣. **نقول:** «البداء» في اللغة بمعنى الظهور والوضوح الكامل، وله معنى آخر هو الندم، لأن الشخص النادم قد ظهرت له - حتماً - أمور جديدة. لا شك، إن هذا المعنى الأخير بالنسبة إلى الله تعالى مستحيل، ولا يمكن لأي عاقل وعارف أن يحتمل أن هناك أموراً خافية على الله ثم تظهر له بمرور الأيام، فهذا القول هو الكفر بعينه، ولازمه نسبة الجهل وعدم المعرفة إلى ذاته المقدسة، وإن ذاته محلاً للتغيير والحوادث. والأصل في هذا المعنى هو أن معرفتنا مرة تكون فقط بالعلل الناقصة، ولا نرى الشروط والموانع وتقضي طبقاً لذلك، ولكن بعد أن نواجه فقدان الشرط أو وجود المانع ويتحقق خلاف ما كنا نتوقعه سوف ننتبه إلى هذه المسائل. وكذلك قد يعلم النبي أو الإمام بأمر مكتوبة في لوح المحو والإثبات القابل للتغيير طبعاً، فقد لا تتحقق أحياناً لمواجهة الموانع وفقدان الشروط. ولكي تتضح هذه الحقيقة لا بد من مقايضة بين

الروايات:

١٤٨٧. الأماشي للصديق^(١): عَلِيُّ بْنُ عِيسَى، عَنْ مَاجِلَوَيْهِ، عَنْ الْبَرْقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانِ الْمُجَاوِرِ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ نَصْرِ الطَّحَّانِ، عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الصَّادِقَ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ عِيسَى رُوحَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَرَّ بِقَوْمٍ مُجَلِّبِينَ، فَقَالَ: مَا لَهُمْ لَا؟ قِيلَ: يَا رُوحَ اللَّهِ إِنَّ فُلَانَةَ بِنْتَ فُلَانٍ تَهْدِي إِلَى فُلَانٍ فِي لَيْلَتِهَا هَذِهِ. قَالَ: يُجَلِّبُونَ الْيَوْمَ وَيَبْكُونَ غَدًا، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: وَلِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لِأَنَّ صَاحِبَتَهُمْ مَيِّتَةٌ فِي لَيْلَتِهَا هَذِهِ! فَقَالَ الْقَائِلُونَ بِمَقَالَتِهِ: صَدَقَ اللَّهُ وَصَدَقَ رَسُولُهُ، وَقَالَ أَهْلُ التَّقَايَا: مَا أَقْرَبَ غَدًا؛ فَلَمَّا أَصْبَحُوا جَاءُوا فَوَجَدُوهَا عَلَى حَالِهَا لَمْ يَحْدُثْ بِهَا شَيْءٌ. فَقَالُوا: يَا رُوحَ اللَّهِ إِنَّ النَّبِيَّ أَخْبَرَنَا أَنَّهَا مَيِّتَةٌ لَمْ تَمُتْ! فَقَالَ عِيسَى «عَلَى نَبِيِّنَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ»: يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ فَادْهَبُوا بِنَا إِلَيْهَا، فَدَهَبُوا يَتَسَابِقُونَ حَتَّى قَرَعُوا الْبَابَ، فَخَرَجَ رَوْحُهَا فَقَالَ لَهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: اسْتَأْذِنْ لِي عَلَى صَاحِبَتِكَ، قَالَ: فَدَخَلَ عَلَيْهَا فَأَخْبَرَهَا أَنَّ رُوحَ اللَّهِ وَكَلِمَتَهُ بِالْبَابِ مَعَ عِدَّةٍ، قَالَ: فَتَخَدَّرَتْ فَدَخَلَ عَلَيْهَا، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهَا: مَا صَنَعْتَ لَيْلَتِكَ هَذِهِ؟ قَالَتْ: لَمْ أَصْنَعْ شَيْئًا إِلَّا وَقَدْ كُنْتُ أَصْنَعُهُ فِيمَا مَضَى؛ إِنَّهُ كَانَ يَغْتَرِينَا سَائِلٌ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ جُمُعَةٍ فَنُيْلُهُ مَا يَقُوتهُ إِلَى مِثْلِهَا، وَإِنَّهُ جَاءَنِي فِي لَيْلَتِي هَذِهِ وَأَنَا مَشْغُولَةٌ بِأَمْرِي، وَأَهْلِي فِي مَشَاغِلَ فَهَتَفَ^(٢) فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ، ثُمَّ هَتَفَ، فَلَمْ يُجِبْ حَتَّى هَتَفَ مَرَارًا، فَلَمَّا سَمِعْتُ مَقَالَتَهُ قُمْتُ مُتَنَكِّرَةً حَتَّى نَلْتَهُ كَمَا كُنَّا نُنِيْلُهُ، فَقَالَ لَهَا: تَنَحَّيْ عَنْ مَجْلِسِكَ فَإِذَا تَحْتَ ثِيَابِهَا أَفْعَى مِثْلُ جُدْعَةٍ عَاضٌ عَلَى ذَنَبِهِ. فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: بِمَا صَنَعْتَ صُرِفَ عَنْكَ هَذَا.

بيان:

قال الفيروز آبادي: جلبيه يجلبه ويجلبه واجتلبه: ساقه من موضع إلى موضع آخر، والجلب: اختلاط الصوت كالجلبة جلبوا يجلبون ويجلبون وأجلبوا وجلبوا، وجلب وأجلب جمع الجمع. انتهى. و«تخدرت»: دخلت في الخدر وهو ستر يمد للجارية في ناحية البيت. ويقال: عرّه واعترّه واعترب به وعراه واعتراه: إذا أتاه يطلب معروفه، وقولها: «متنكرة» أي بحيث لا يعرفني أحد، والجدع بالكسر: ساق النخلة.

→ «النسخ» و«البداء»: نحن نعلم أن النسخ جائز عند جميع المسلمين، يعني من الممكن أن ينزل حكم في الشريعة فيتصور الناس أن هذا الحكم دائم، لكن بعد مدة يعلن الرسول ﷺ عن تغيير هذا الحكم وينسخه، ويحل محله حكماً آخر، كما قرأنا في حادثة تغيير القبلة. إن هذا في الحقيقة نوع من «البداء» ولكن في القضايا التشريعية والقوانين والأحكام يسمونه «النسخ» وفي الأمور التكوينية يسمي «البداء». الملاحظة الأخيرة في هذا المجال: يقول علماء الشيعة: إننا حينما ننسب البداء إلى الله جلّ وعلا فإنه يكون بمعنى «الإبداء» بمعنى إظهار الشيء الذي لم يكن ظاهراً لنا من قبل ولم يكن متوقعاً. وإن ما ينسب إلى الشيعة بأنهم يعتقدون أن الله يندم على عمله أحياناً، أو يخبر عن شيء لم يعلمه سابقاً، فهذه من أكبر التهم ولا يمكن الصفح عنها أبداً لذلك. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٧، ص ٤٣٥)

١. الأماشي (للصديق)، ص ٥٠٠، ح ١٣؛ روضة الواعظين، ج ٢، ص ٣٥٨، وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٣٨٨، ح ١٢٣٠٦، وقد ورد في الأخيرين مع اختلاف يسير.

٢. هتف به: صاح به، راجع لسان العرب.

١٤٨٨. عيون أخبار الرضا عليه السلام^(١): جعفر بن علي بن أحمد الفقيه، عن حسن بن محمد بن علي بن صدقة، عن محمد بن عمر بن عبد العزيز، عن سمع الحسن بن محمد التوفلي يقول: قال الرضا عليه السلام لسليمان المزوري: ما أنكرت من البداء يا سليمان والله عز وجل يقول: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾^(٢) ويقول عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾^(٣) ويقول: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٤) ويقول عز وجل: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾^(٥) ويقول: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾^(٦) ويقول عز وجل: ﴿وَأَخْرَجُوا مَرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾^(٧) ويقول عز وجل: ﴿وَمَا يَعْمَرُ مِنَ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾^(٨)؟

قال سليمان: هل رويت فيه عن آبائك شيئا؟ قال عليه السلام: نعم، رويت عن أبي، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إن لله عز وجل علمين: علما مخزوناً مكنوناً لا يعلمه إلا هو، من ذلك يكون البداء، وعلماً علماً ملائكته ورسله عليه السلام فالعلماء من أهل بيت نبيك صلى الله عليه وآله يعلمونه. قال سليمان: أحب أن تنزعني لي من كتاب الله عز وجل، قال: قول الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿قَتُلْ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ أراد إهلاكهم ثم بدا، فقال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٩). قال سليمان: زدني جعلت فداك. قال الرضا عليه السلام: لقد أخبرني أبي، عن آبائه عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إن الله عز وجل أوحى إلى نبي من أنبيائه أن أخبر فلان الملك أنني متوفي إليه كذا وكذا، فأتاه ذلك النبي فأخبره فدعا الله الملك وهو على سريرته حتى سقط من السرير، وقال: يا رب أجلني حتى يشب طفلي وأقضي أمري، فأوحى الله عز وجل إلى ذلك النبي أن انت فلان الملك فأعلمه أنني قد أنسيته أجله، وزدت في عمره خمس عشرة سنة؛ فقال ذلك النبي: يا رب إنك لتعلم أنني لم أكذب قط، فأوحى الله عز وجل إليه إنما أنت عبد مأمور فأبلغه ذلك، والله لا يسئل عما يفعل.

ثم التفت عليه السلام إلى سليمان فقال له: أحسبك ضاهيت^(١٠) في هذا الباب؛ قال: أعوذ بالله من ذلك، وما قالت

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٨٠، ح ١؛ التوحيد (للسدوق)، ص ٤٤٣، ح ١؛ وقد ورد فيهما ضمن رواية.

٢. مريم/٦٧.

٣. الروم/٢٧.

٤. البقرة/١١٧.

٥. فاطر/١.

٦. السجدة/٧.

٧. التوبة/١٠٦.

٨. فاطر/١١.

٩. الذاريات/٥٤ و ٥٥.

١٠. ضاهيت الرجل: شابهته، راجع لسان العرب.

الْيَهُودُ؟ قَالَ: قَالَتِ الْيَهُودُ: يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ يَغْنُونُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَعَ مِنَ الْأَمْرِ فَلَيْسَ يُحْدِثُ شَيْئًا، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾^(١) وَلَقَدْ سَمِعْتُ قَوْمًا سَأَلُوا أَبِي مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عليه السلام عَنِ الْبَدَاءِ فَقَالَ: وَمَا يُنْكَرُ النَّاسُ مِنَ الْبَدَاءِ وَأَنْ يَقِفَ اللَّهُ قَوْمًا يُرْجِيهِمْ^(٢) لِأَمْرِهِ.

قَالَ سُلَيْمَانُ: أَلَا تُخْبِرُنِي عَنْ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(٣) فِي أَيِّ شَيْءٍ أَنْزَلْتُمْ؟ قَالَ عليه السلام: يَا سُلَيْمَانُ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ يَقْدُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا مَا يَكُونُ مِنَ السَّنَةِ إِلَى السَّنَةِ مِنْ حَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ، أَوْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، أَوْ رِزْقٍ فَمَا قَدَرَهُ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ فَهُوَ مِنَ الْمَحْتَمِ. قَالَ سُلَيْمَانُ: الْآنَ قَدْ فَهِمْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ فَرَدْنِي. قَالَ: يَا سُلَيْمَانُ، إِنَّ مِنَ الْأُمُورِ أُمُورًا مَوْقُوفَةً عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقْدَمُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَيُؤَخَّرُ مَا يَشَاءُ^(٤)، يَا سُلَيْمَانُ، إِنَّ عَلِيًّا عليه السلام كَانَ يَقُولُ: الْعِلْمُ عِلْمَانِ: فَعِلْمُ عِلْمِهِ اللَّهُ مَلَائِكَتُهُ وَرُسُلُهُ عليه السلام فَمَا عِلْمُهُ مَلَائِكَتُهُ وَرُسُلُهُ فَإِنَّهُ يَكُونُ وَلَا يُكَذِّبُ نَفْسَهُ وَلَا مَلَائِكَتَهُ وَلَا رُسُلَهُ، وَعِلْمُ عِنْدَهُ مَخْزُونٌ، لَمْ يُطْلَعْ عَلَيْهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ، يَقْدَمُ مِنْهُ مَا يَشَاءُ وَيُؤَخَّرُ مَا يَشَاءُ، وَيَمْحُو وَيُنْثَبُ مَا يَشَاءُ. قَالَ سُلَيْمَانُ لِلْمَأْمُونِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تُنْكَرُ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا الْبَدَاءَ وَلَا أَكْذِبُ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

بيان:

لعل استدلاله عليه السلام أولاً بالآيات لرفع الاستبعاد عما هو مبني البداء من أن الله تعالى أن يحدث شيئاً لم يكن، ويغير ما قد كان، وليس على ما قالت اليهود ومن يضاهيهم: إن الله فعل ما فعل وقدر ما قدر في أول الأمر فلا يغير شيئاً من خلقه ولا أحكامه، وإن لله كتاباً يمحو فيه ما قد ثبت، ويثبت فيه ما لم يكن، على ما سيأتي تحقيقه. وذكر بعض ما يدل على النسخ إما على التنظير والتمثيل لمشابهة البداء النسخ في أن أحدهما تغيير في الأمر التكليفي والآخر تغيير في الأمر التكويني، أو لأن المراد هنا ما يعم النسخ أيضاً.

١٤٨٩. قرب الإسناد^(٥): أَحْمَدُ، عَنِ الْبَرْزَنْطِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِلرُّضَا عليه السلام إِنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِنَا سَمِعَنِي وَأَنَا أَقُولُ: إِنَّ مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ لَوْ سِئِلَ عَنْهُ صَاحِبُ الْقَبْرِ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُ عِلْمٌ، فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنَّمَا عَنِي بِذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَقَالَ عليه السلام: لَقَدْ جَعَلَهُمَا فِي مَوْضِعٍ صَدَقَ! قَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عليه السلام: إِنَّ مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ لَوْ سِئِلَ عَنْهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صلوات الله عليه مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُ عِلْمٌ، لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُلُوكِ الَّذِينَ سُمُوا لَهُ، وَإِنَّمَا كَانَ لَهُ أَمْرٌ طَرَأَ^(٦)، قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ وَأَبُو جَعْفَرٍ وَعَلِيُّ بْنُ

١. المائدة/٦٤.

٢. في المصدر والتوحيد: «يرجيهم».

٣. القدر/١.

٤. في المصدر مع زيادة: «ويمحو ما يشاء».

٥. قرب الإسناد، ص ٣٥٣، ح ١٢٦٥ و ١٢٦٦.

٦. طراً: إذا جاء بمفاجأة، راجع لسان العرب.

الْحُسَيْنِ وَالْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَاللَّهُ لَوْ لَا آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَحَدَّثْنَاكُمْ بِمَا يَكُونُ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ﴿يَمَحُوهَا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١).

بيان:

مروان بن محمد هو الذي من خلفاء بني أمية، وكانت خلافته من الأمور الغريبة كما يظهر من السير، والمقصود أن خلافته كانت من الأمور البدائية التي لم تصل إلى النبي ﷺ في حياته فلو كان ﷺ سئل في حياته عن هذا الأمر لم يكن له علم بذلك لأن مروان لم يكن من الملوك الذين سموا للنبي ﷺ، فالمراد بصاحب القبر الرسول ﷺ ولما حملة السامع على الشيخين قال عليه السلام: قد جعل هذا الرجل هذين في موضع صدق وأكرمهما حيث جعلهما جاهلين بهذا الأمر حسب، وليس في معرض العلم بالأمور المغيبة حتى ينفي خصوص ذلك عنهما، هكذا حقق هذا الخبر وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ.

١٤٩٠. تفسير القمي^(٢): قَوْلُهُ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَالُوا: قَدْ فَرَعَ اللَّهُ مِنَ الْأَمْرِ، لَا يُحَدِّثُ اللَّهُ غَيْرَ مَا قَدَّرَهُ فِي التَّقْدِيرِ الْأَوَّلِ، قَرَدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^(٣) أَيُ يُقَدِّمُ وَيُؤَخِّرُ، وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَلَهُ الْبَدَاءُ وَالْمَشِيئَةُ^(٤).

بيان:

ذكر الرازي في الآية وجوهاً من التأويل:

الأول: أَنَّ الْقَوْمَ إِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ عَلَى الْإِزَامِ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا سَمِعُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾^(٥) قَالُوا: لَوْ احتاج إلى القرض لكان فقيراً عاجزاً.

الثاني: أَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا رَأَوْا أَصْحَابَ الرَّسُولِ ﷺ فِي غَايَةِ الشَّدَّةِ وَالْفَقْرِ قَالُوا عَلَى سَبِيلِ الْاسْتَهْزَاءِ: إِنَّ إِلَهَ مُحَمَّدٍ فَقِيرٌ مَغْلُولٌ الْيَدِ.

الثالث: قَالَ الْمَفْسُورُونَ: إِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا أَكْثَرَ النَّاسِ مَالاً وَثَرَةً فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَكَذَّبُوا بِهِ ضَيَّقَ

١. الرد/٣٩.

٢. تفسير القمي، ج ١، ص ١٧١؛ تفسير الصافي، ج ٢، ص ٤٩.

٣. المائدة/٦٤.

٤. قال السيد الرضي في تلخيص البيان: هذه استعارة ومعناها أَنَّ الْيَهُودَ أَخْرَجُوا هَذَا الْقَوْلَ مَخْرَجَ الْاسْتِخْالِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ فَكَذَّبُوا بِهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ وليس المراد بذكر اليمين هاهنا الاثنتين اللتين هما أكثر من الواحدة، وإنما المراد به المبالغة في وصف النعمة، كما يقول القائل: ليس لي بهذا الأمر يدان. وليس يريد به الجارحتين، وإنما يريد به المبالغة في نفي القوة على ذلك الأمر؛ وربما قيل: إِنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ نِعْمَةُ الدُّنْيَا وَنِعْمَةُ الْآخِرَةِ. (هامش المطبوع)

٥. البقرة/٢٤٥.

الله عليهم المعيشة، فعند ذلك قالت اليهود: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي مقبوضة عن العطاء.
 الرابع: لعله كان فيهم من كان على مذهب الفلسفة وهو أن الله تعالى موجب لذاته وأن حدوث الحوادث عنه لا يمكن إلا على نهج واحد وسنن واحد، وأنه تعالى غير قادر على إحداث الحوادث غير الوجوه التي عليها يقع^(١)، فعبروا عن عدم الاقتدار على التغيير والتبديل بغلّ اليد.
 الخامس: قال بعضهم: المراد هو قول اليهود: إن الله لا يعذبنا إلا قدر الأيَّام التي عبدنا فيها العجل، فعبروا عنه بهذه العبارة^(٢).

أقول:

الوجه الرابع قريب ممّا ورد في بعض الأخبار.

١٤٩١. تفسير القمّي^(٣): قَوْلُهُ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾^(٤) فَإِنَّهُ حَدَّثَنِي أَبِي، عَنِ النَّضْرِ بْنِ سُوَيْدٍ، عَنِ الْحَلْبِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْكَانٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: الْأَجَلُ الْمَقْضِيُّ هُوَ الْمَحْتُومُ الَّذِي قَضَاهُ اللَّهُ وَحَتَمَهُ، وَالْمُسَمًّى هُوَ الَّذِي فِيهِ الْبَدَاءُ يُقَدَّمُ مَا يَشَاءُ وَيُؤَخَّرُ مَا يَشَاءُ، وَالْمَحْتُومُ لَيْسَ فِيهِ تَقْدِيمٌ وَلَا تَأْخِيرٌ.

وَحَدَّثَنِي^(٥) يَاسِرٌ عَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا بِتَحْرِيمِ الْخَمْرِ، وَأَنْ يُقَرَّ لَهُ بِالْبَدَاءِ أَنْ يَفْعَلَ اللَّهُ مَا يَشَاءُ، وَأَنْ يَكُونَ فِي تَرَائِهِ الْكُذْرُ^(٦).^(٧)

١٤٩٢. تفسير القمّي^(٨): أَبِي، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْفُضَيْلِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ بَلَعْنَا أَنْ لَالَ جَعْفَرٍ رَايَةً وَلَالَ الْعَبَّاسِ رَايَتَيْنِ، فَهَلِ انْتَهَى إِلَيْكَ مِنْ عِلْمٍ ذَلِكَ شَيْءٌ؟ قَالَ: أَمَّا آلُ جَعْفَرٍ فَلَيْسَ بِشَيْءٍ وَلَا إِلَى شَيْءٍ، وَأَمَّا آلُ الْعَبَّاسِ فَإِنَّ لَهُمْ مُلْكًا مُبْطِئًا يُقَرَّبُونَ فِيهِ الْبُعِيدَ، وَيُبَاعِدُونَ فِيهِ الْقَرِيبَ، وَسُلْطَانُهُمْ عُسْرٌ لَيْسَ فِيهِ يُسْرٌ

١. هذا من النسب التي يتبرأ منها أهل الفلسفة وإنما هي ناشئة من سوء الفهم في المقاصد البرهانية. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»).

٢. مفاتيح الغيب، ج ١٢، ص ٣٩٤.

٣. تفسير القمّي، ج ١، ص ١٩٤؛ تفسير الصافي، ج ٢، ص ١٠٧.

٤. الأنعام/٢.

٥. تفسير القمّي، ج ١، ص ١٩٤؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ١٥، ح ٣٣؛ تهذيب الأحكام، ج ٩، باب الذبائح والأطعمة، ص ١٠٢، ح ١٨١.

٦. في العيون مع زيادة: «قال وسمعه عليه السلام يقول: لا تدخلوا بالليل بيتاً مظلماً إلا مع السراج».

٧. نقول: والأول ناظر إلى الأخلاق، والثاني إلى الاعتقاد، والثالث إلى سلامة الإنسان والارتباط بين هذه الثلاثة ظاهر.

٨. تفسير القمّي، ج ١، ص ٣١٠؛ تفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٢، ح ٤٨٦٦.

حَتَّى إِذَا أَمِنُوا مَكَرَ اللَّهِ، وَأَمِنُوا عِقَابَهُ، صَبَحَ فِيهِمْ صَاحَةٌ لَا يَتَقَى لَهُمْ مَالٌ يَجْمَعُهُمْ^(١) وَلَا رِجَالٌ يَمْنَعُهُمْ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ الآية^(٢). قُلْتُ: جُعِلَتْ فِدَاكَ فَمَتَى يَكُونُ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَمَا إِنَّهُ لَمْ يُوقَّتْ لَنَا فِيهِ وَقْتُ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْنَاكُمْ بِشَيْءٍ فَكَانَ كَمَا نَقُولُ، فَقُولُوا: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؛ وَإِنْ كَانَ بِخِلَافِ ذَلِكَ فَقُولُوا: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ تَوَجَّرُوا مَرَّتَيْنِ،^(٣) وَلَكِنْ إِذَا اشْتَدَّتِ الْحَاجَةُ وَالْفَاقَةُ وَانْكَرَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَعِنْدَ ذَلِكَ تَوَقَّعُوا هَذَا الْأَمْرَ صَبَاحًا وَمَسَاءً. قُلْتُ: جُعِلَتْ فِدَاكَ الْحَاجَةُ وَالْفَاقَةُ قَدْ عَرَفْنَاهُمَا، فَمَا انْكَارُ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؟ قَالَ: يَأْتِي الرَّجُلُ أَحَاهُ فِي حَاجَةٍ فَيَلْقَاهُ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي كَانَ يَلْقَاهُ فِيهِ، وَيَكْلُمُهُ بِغَيْرِ الْكَلَامِ الَّذِي كَانَ يَكْلُمُهُ.

١٤٩٣. تفسير القمي^(٤): قَالَ عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ * يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ^(٥) فَإِنَّهُ حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ النَّضْرِ بْنِ سُوَيْدٍ، عَنْ يَحْيَى الْحَلْبِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْكَانَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَنِ اللَّهِ عَنِ اللَّهِ^(٦) قَالَ: إِذَا كَانَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ نَزَلَتِ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ^(٧) وَالْكِتَابَةُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَكْتُبُونَ مَا يَكُونُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى فِي تِلْكَ السَّنَةِ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُعَدِّمَ شَيْئًا أَوْ يُؤَخِّرَهُ أَوْ يَنْقُصَ شَيْئًا^(٨) أَمَرَ الْمَلَكَ أَنْ يَمْحُوَ مَا يَشَاءُ ثُمَّ أَثَبَّتَ الَّذِي أَرَادَ، قُلْتُ: وَكُلُّ شَيْءٍ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ مُثَبَّتٌ فِي كِتَابٍ^(٩)؟ قَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: فَأَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ بَعْدَهُ؟ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! ثُمَّ يُحَدِّثُ اللَّهُ أَيْضًا مَا يَشَاءُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

١٤٩٤. تفسير القمي^(١٠): ﴿الْمَ﴾ * غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بَضْعِ سِنِينَ^(١١) فَإِنَّهُ حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَمِيرٍ، عَنْ جَمِيلٍ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَنِ اللَّهِ^(١٢) قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ

١. في المصدر والبرهان: «منال يجمعهم».

٢. يونس / ٢٤.

٣. **قول:** لا يبعد أن يكون الحديث إشارة إلى إمكان حصول البداء في الحوادث التي يخبر بها المعصوم ع (بمعناه الصحيح) وهو أن يكون وقوع حادثة مشروطاً بشرط ولكن لا يحصل شرطه مثل أن يكون موت فلان مقرراً في يوم كذا ولكن مشروطاً بعدم صدور صدقة أو صلة رحم منه وحصل ذلك ولم يمت ببركته كما هو معروف في قصة موت العروس التي أخبر به المسيح ع.

٤. تفسير القمي، ج ١، ص ٣٦٦؛ وقد ورد في تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢١٦، ح ٦٢، مع اختلاف العبارات.

٥. الرعد / ٣٨ و ٣٩.

٦. في تفسير العياشي بهذا الإسناد: «حمران، عن أبي عبد الله ع».

٧. لم يرد في تفسير العياشي: «الروح».

٨. في المصدر: «أو ينقص شيئاً أو يزيده».

٩. في المصدر: «وكل شيء عنده بمقدار مثبت في كتابه».

١٠. تفسير القمي، ج ٢، ص ١٥٢؛ الكافي، ج ٨، حديث نوح ع يوم القيامة، ص ٢٦٩، ح ٣٩٧؛ نوادر المعجزات، ص ٣١؛ وقد ورد في الأخيرين مع اختلاف يسير.

١١. الروم / ١-٤.

قَوْلِ اللَّهِ: ﴿الْم * غَلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ قَالَ: يَا أَبَا عُبَيْدَةَ إِنَّ لِهَذَا تَأْوِيلًا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنَ الْأَئِمَّةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ - وَقَدْ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ - كَتَبَ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ كِتَابًا وَبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولًا يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَكَتَبَ إِلَى مَلِكِ فَارِسَ كِتَابًا وَبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولًا يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَأَمَّا مَلِكُ الرُّومِ فَإِنَّهُ عَظَّمَ كِتَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَكْرَمَ رَسُولَهُ، وَأَمَّا مَلِكُ فَارِسَ فَإِنَّهُ مَزَقَ كِتَابَهُ، وَاسْتَخَفَّ بِرَسُولِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١) وَكَانَ مَلِكُ فَارِسَ يَوْمَئِذٍ يُقَاتِلُ مَلِكَ الرُّومِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَهُوُونَ (٢) أَنْ يَغْلِبَ مَلِكُ الرُّومِ مَلِكَ فَارِسَ، وَكَانُوا لِتَاحِيَةِ مَلِكِ الرُّومِ أَرْجَى مِنْهُمْ لِمَلِكِ فَارِسَ، فَلَمَّا غَلَبَ مَلِكُ فَارِسَ مَلِكَ الرُّومِ بَكَى لِدَلِكِ الْمُسْلِمُونَ وَاعْتَمُوا (٣)، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿الْم * غَلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ يَعْنِي غَلِبَتْهَا فَارِسُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهِيَ الشَّامَاتُ وَمَا حَوْلَهَا، ثُمَّ قَالَ: وَفَارِسُ ﴿مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ﴾ الرُّومُ سَيُغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ، قَوْلُهُ: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ﴾ أَنْ يَأْمُرَ وَمِنْ بَعْدُ أَنْ يَقْضِيَ بِمَا يَشَاءُ، قَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ (٤) قُلْتُ: أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ: ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾؟ وَقَدْ مَضَى لِلْمُسْلِمِينَ سِنُونَ كَثِيرَةٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَفِي إِمَارَةِ أَبِي بَكْرٍ، وَإِنَّمَا غَلَبَ الْمُؤْمِنُونَ فَارِسَ فِي إِمَارَةِ عُمَرَ، فَقَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: إِنَّ لِهَذَا تَأْوِيلًا وَتَفْسِيرًا؟ وَالْقُرْآنُ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ نَاسِخٌ وَمَنْسُوخٌ، أَمَا تَسْمَعُ قَوْلَهُ: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾؟ يَعْنِي إِلَيْهِ الْمَشِيئَةُ فِي الْقَوْلِ أَنْ يُؤَخِّرَ مَا قَدَّمَ وَيُقَدِّمَ مَا أَخَّرَ (٥) إِلَى يَوْمٍ يَحْتَمُ الْقَضَاءُ بِنُزُولِ النَّصْرِ فِيهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ (٦).

بيان:

قد قرئ في بعض الشواذ «غلبت» بالفتح و«سَيُغْلِبُونَ» بالضم. قوله ﷺ: «يعني غلبتها فارس» الظاهر أن إضافة الغلبة إلى الضمير إضافة إلى المفعول، أي مغلوبية روم من فارس، ويمكن أن يقرأ فعلاً، وقوله: «وفارس» تفسير لضمير «هم»، فالظاهر أنه كان في قراءتهم ﷺ «غَلِبَتِ وَسَيُغْلِبُونَ» كلاهما على المجهول، وهي مركبة من القراءتين، ويحتمل أن يكون قراءتهم ﷺ على وفق الشاذة بأن تكون إضافة الغلبة إلى الضمير إضافة إلى الفاعل، وإضافة غلبهم في الآية إضافة إلى المفعول، أي بعد مغلوبية فارس عن

١. في المصدر: «واستخفَّ برَسُولِ اللَّهِ ﷺ».

٢. هَوِي: أَحَبَّ، رَاجَعَ لِسَانَ الْعَرَبِ.

٣. في الكافي ونوادر المعجزات: «كره ذلك المسلمون واعتَمُوا به».

٤. الروم/٤ و٥.

٥. في الكافي ونوادر المعجزات: «ما أَخَّرَ فِي الْقَوْلِ».

٦. في الكافي ونوادر المعجزات مع زيادة: «ينصر من يشاء أي يحتم القضاء بالنصر».

الروم سيغلبون عن المسلمين أيضاً، أو إلى الفاعل فيكون في الآية إشارة إلى غلبة فارس ومغلوبيتهم عن الروم وعن المسلمين جميعاً، ولكنه يحتاج إلى تكلف.

ثم إن البضع لما كان بحسب اللغة إنما يطلق على ما بين الثلاث إلى التسع، وكان تمام الغلبة على فارس في السابع عشر أو أواخر السادس عشر من الهجرة، فعلى المشهور بين المفسرين من نزول الآية بمكة قبل الهجرة لا بد من أن يكون بين نزول الآية وبين الفتح ست عشرة سنة، وعلى ما هو الظاهر من الخبر من كون نزول الآية بعد مراسلة قيصر وكسرى وكانت على الأشهر في السنة السادسة، فيزيد على البضع أيضاً بقليل، فلذا اعترض السائل عليه عليه السلام بذلك، فأجاب عليه السلام: بأن الآية مشعرة باحتمال وقوع البداء حيث قال: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي لله أن يقدم الأمر قبل البضع ويؤخره بعده، كما هو الظاهر من تفسيره عليه السلام. وسيأتي^(١) تمام القول في تفسير تلك الآية في كتاب أحوال النبي صلى الله عليه وآله إن شاء الله تعالى.

١٤٩٥. تفسير القمي^(٢): قَالَ عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمَرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾^(٣) يَعْني يُكْتَبُ فِي كِتَابٍ. وَهُوَ رَدُّ عَلَى مَنْ يُنْكِرُ الْبَدَاءَ.

١٤٩٦. تفسير القمي^(٤): ﴿فِيهَا يُفَرِّقُ﴾ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾^(٥) أَي يَقْدِرُ اللَّهُ كُلَّ أَمْرٍ مِنَ الْحَقِّ وَمِنَ الْبَاطِلِ، وَمَا يَكُونُ فِي تِلْكَ السَّنَةِ؛ وَلَهُ فِيهِ الْبَدَاءُ وَالْمَشِيئَةُ يَقْدُمُ مَا يَشَاءُ وَيُؤَخِّرُ مَا يَشَاءُ مِنَ الْأَجَالِ وَالْأَرْزَاقِ وَالْبَلَايَا وَالْأَعْرَاضِ وَالْأَمْرَاضِ، وَيَزِيدُ فِيهَا مَا يَشَاءُ وَيُنْقِصُ مَا يَشَاءُ، وَيُلْقِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيُلْقِيهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْأَئِمَّةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى يَنْتَهِيَ ذَلِكَ إِلَى صَاحِبِ الزَّمَانِ «عَجَّلَ اللَّهُ فَرَجَهُ» وَيَشْتَرِطُ لَهُ فِيهِ الْبَدَاءُ وَالْمَشِيئَةُ وَالتَّقْدِيرُ وَالتَّأْخِيرُ. قَالَ: حَدَّثَنِي بِذَلِكَ أَبِي، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْكَانَ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ وَأَبِي عَبْدِ اللَّهِ وَأَبِي الْحَسَنِ «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ».

١٤٩٧. تفسير القمي^(٦): أَحْمَدُ بْنُ إِدْرِيسَ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ النَّضْرِ بْنِ سُوَيْدٍ، عَنْ يَحْيَى الْحَلْبِيِّ، عَنْ هَارُونَ بْنِ خَارِجَةَ، عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِ اللَّهِ: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾^(٧) قَالَ: إِنَّ عِنْدَ اللَّهِ كُتُبًا مَوْفُوتَةً^(٨) يَقْدُمُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَيُؤَخِّرُ، فَإِذَا كَانَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهَا كُلَّ شَيْءٍ

١. تنمة كتاب تاريخ نبينا صلى الله عليه وآله، أبواب معجزاته، باب ١، إعجاز أم المعجزات القرآن الكريم.

٢. تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٠٨.

٣. فاطر/ ١١.

٤. تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٩٠؛ شرح الكافي (للمازندراني)، ج ٧، ص ٢٥٣؛ تفسير الصافي، ج ٤، ص ٤٠٣.

٥. الدخان/ ٤.

٦. تفسير القمي، ج ٢، ص ٣٧٠؛ نوادر الأخبار (للفيض)، ص ٩٨، ح ٤.

٧. المنافقون/ ١١.

٨. وفي نسخة: إن عند الله كتباً موقوفة. (هامش المطبوع) ولكن في المصدر والنوادر: «موقوفة».

يَكُونُ إِلَى لَيْلَةٍ مِثْلَهَا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿لَنْ يُوَحَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾ إِذَا أُنْزِلَ، وَكُتِبَتْ كُتَابُ السَّمَاوَاتِ، وَهُوَ الَّذِي لَا يُوَحَّرُهُ.

١٤٩٨. علل الشرائع^(١): ابْنُ الْمُتَوَكِّلِ، عَنِ الْحَمِيرِيِّ، عَنِ ابْنِ عِيسَى، عَنِ ابْنِ مَحْبُوبٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ عَطِيَّةَ، عَنْ أَبِي حَمْرَةَ الثَّمَالِيِّ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَرَضَ عَلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْمَاءَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَعْمَارَهُمْ، قَالَ: فَمَرَّ بِآدَمَ اسْمُ دَاوُدَ النَّبِيِّ فَإِذَا عُمُرُهُ فِي الْعَالَمِ أَرْبَعُونَ سَنَةً، فَقَالَ آدَمُ: يَا رَبِّ، مَا أَقَلَّ عُمُرُ دَاوُدَ وَمَا أَكْثَرَ عُمُرِي! يَا رَبِّ، إِنَّ أَنَا زِدْتُ دَاوُدَ مِنْ عُمُرِي ثَلَاثِينَ سَنَةً أَتُثِبْتُ ذَلِكَ لَهُ؟ قَالَ: نَعَمْ يَا آدَمُ. قَالَ: فَإِنِّي قَدْ زِدْتُهُ مِنْ عُمُرِي ثَلَاثِينَ سَنَةً فَأَنْفِذْ ذَلِكَ لَهُ وَأُثِبْتَهَا لَهُ عِنْدَكَ وَاطْرَحْهَا مِنْ عُمُرِي.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَأُثِبَتْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِدَاوُدَ فِي عُمُرِهِ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَكَانَتْ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مُثَبَّتَةً، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثِبْتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٢) قَالَ فَمَحَا اللَّهُ مَا كَانَ عِنْدَهُ مُثَبَّتًا لِآدَمَ وَأُثِبَتْ لِدَاوُدَ مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مُثَبَّتًا. قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَمَضَى عُمُرُ آدَمَ فَهَبِطَ مَلَكُ الْمَوْتِ لِقَبْضِ رُوحِهِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: يَا مَلَكُ الْمَوْتِ إِنَّهُ قَدْ بَقِيَ مِنْ عُمُرِي ثَلَاثُونَ سَنَةً! فَقَالَ لَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ: يَا آدَمُ أَلَمْ تَجْعَلْهَا لِابْنِكَ دَاوُدَ النَّبِيِّ وَطَرَحْتَهَا مِنْ عُمُرِكَ حِينَ عَرَضَ عَلَيْكَ أَسْمَاءُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، وَقَدْ عُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَارُهُمْ وَأَنْتَ يَوْمِئِذٍ بِوَادِي الدُّخْيَانِ^(٣)؟ قَالَ: فَقَالَ لَهُ آدَمُ: مَا أَذْكَرُ هَذَا. قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَقَالَ لَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ: يَا آدَمُ لَا تَجْحَدْ، أَلَمْ تَسْأَلِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُثَبَّتَهَا لِدَاوُدَ وَيَمْحُوهَا مِنْ عُمُرِكَ؟ فَأُثِبَتْهَا لِدَاوُدَ فِي الزُّبُورِ وَمَحَاهَا مِنْ عُمُرِكَ فِي الذِّكْرِ^(٤). قَالَ آدَمُ: حَتَّى أَعْلَمَ ذَلِكَ^(٥). قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَكَانَ آدَمُ صَادِقًا لَمْ يَذْكُرْ وَلَمْ يَجْحَدْ، فَمِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَمَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْعِبَادَ أَنْ يَكْتُبُوا بَيْنَهُمْ إِذَا تَدَايَنُوا وَتَعَامَلُوا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، لِنِسْيَانِ آدَمَ^(٦) وَجُحُودِهِ مَا جَعَلَ عَلَى نَفْسِهِ.

بيان:

قد شرحناه في كتب النبوة^(٧).

١٤٩٩. علل الشرائع^(٨): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنِ ابْنِ عِيسَى، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عِيسَى، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الْأَرْجَانِيِّ^(٩)، عَنْ أَبِي

١. علل الشرائع، ج ٢، ص ٥٥٣، ح ١؛ وقد ورد في تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢١٨، ح ٧٣، مع زيادة واختلاف يسير.

٢. الرعد/٣٩.

٣. في تفسير العياشي: «بوادي الروحاء».

٤. **فقول:** وهذا من قبيل النسخ في الأحكام الشرعية، ولكنه في الأمور التكوينية.

٥. في تفسير العياشي: «فقال آدم: فأحضر الكتاب حتى أعلم ذلك».

٦. **فقول:** وهذا دليل على جواز النسيان على بعض الأنبياء في غير الأحكام الشرعية في مثل آدم الذي لم يكن له دعوة إلى شريعة ودين.

٧. كتاب النبوة، باب ٨ عمر آدم ووفاته.

٨. علل الشرائع، ج ٢، ص ٥٦٦، ح ١؛ الكافي، ج ٨، حديث نوح عليه السلام يوم القيامة، ص ٢٧١، ح ٤٠٠.

٩. قال الفيروز آبادي: الأرجان كهيبان: بلدة بفارس. والرجل هو أبو إسحاق الجرجاني من أصحاب الصادق عليه السلام.

عَبْدُ اللَّهِ ﷺ^(١) قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ لِمَنْ جَعَلَ لَهُ سُلْطَانًا مُدَّةً مِنْ لَيَالٍ وَأَيَّامٍ وَسِنِينَ وَشُهُورٍ، فَإِنْ عَدُّوا فِي النَّاسِ أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صَاحِبَ الْفَلَكَ أَنْ يُبْطِئَ^(٢) بِإِدَارَتِهِ، فَطَالَتْ أَيَّامُهُمْ وَلَيَالِيهِمْ وَسَنُوهُمْ وَشُهُورُهُمْ، وَإِنْ هُمْ جَارُوا فِي النَّاسِ وَلَمْ يَعْدُوا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ صَاحِبَ الْفَلَكَ فَاسْرَعَ إِدَارَتُهُ، وَأَسْرَعَ فَنَاءَ لَيَالِيهِمْ^(٣) وَأَيَّامِهِمْ وَسِنِيهِمْ وَشُهُورِهِمْ، وَقَدْ وَفَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُمْ بِعَدَدِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ.^(٤)

بيان:

لعل المراد سرعة تسبب أسباب زوال ملكهم وانقراض دولتهم وبالعكس على الاستعارة التمثيلية، فالمراد «بالوفاء» بعدد شهورهم وسنينهم أن تلك الشهور والسنين التي كانت مقدرة قبل ذلك كانت مشروطة بعدم الإتيان بتلك الأفعال، وقد أخبر الله بنقصان ملكهم مع الإتيان بها فلم يخلف الله ما وعده لهم؛ ويحتمل أن يكون لكل دولة فلك سوى الأفلاك المعروفة الحركات، وقد قدر لدولتهم عدد من الدورات، فإذا أراد الله إطالة مدتهم أمر بإبطائه في الحركة، وإذا أراد سرعة فنائها أمر بإسراعه.

١٥٠٠. التوحيد، معاني الأخبار^(٥): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ الْبَرْقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ النَّعْمَانِ، عَنْ إِسْحَاقَ، عَمَّنْ سَمِعَهُ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ لَمْ يَغْنُوا أَنَّهُ هَكَذَا، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: قَدْ فَرَعَ مِنَ الْأَمْرِ فَلَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، فَقَالَ اللَّهُ جَلَّ جَلَّالُهُ تَكْذِيبًا لِقَوْلِهِمْ: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾^(٦) أَلَمْ تَسْمَعْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٧)؟

١٥٠١. تفسير الإمام ﷺ^(٨): قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾^(٩) قَالَ الْإِمَامُ ﷺ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ مُوسَى الرِّضَا ﷺ: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ بِأَنْ نَرَفَعَ حُكْمَهَا

١. في الكافي: «عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن خالد، عن عثمان بن عيسى، عن أبي إسحاق الجرجاني، عن أبي عبد الله ﷺ».

٢. أبطاء به: أخره، راجع لسان العرب.

٣. في الكافي: «فأسرع بإدارته فقصرت ليلاتهم و...».

٤. **فقول:** ما ورد في هذا الحديث كناية عن سرعة زوال حكومة الظالمين ودوام حكومة العادلين وكل ذلك من آثار أعمالهم.

٥. التوحيد (للصدوق)، ص ١٦٧، ح ١؛ معاني الأخبار، ص ١٨، ح ١٥.

٦. المائدة/٦٤.

٧. الرعد/٣٩.

٨. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري ﷺ، ص ٤٩١، ح ٣١١ و ٣١٢؛ الإحتجاج (للطبرسي)، ج ١، ص ٤٠.

٩. البقرة/١٠٦ و ١٠٧.

﴿أَوْ نُنْسِيهَا﴾ بِأَنْ نَرْفَعَ رَسْمَهَا - وَقَدْ تُلِي - وَعَنِ الْقُلُوبِ حِفْظَهَا وَعَنْ قَلْبِكَ يَا مُحَمَّدٌ كَمَا قَالَ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾^(١) أَنْ يُنْسِيكَ فَرَفَعَ عَنْ قَلْبِكَ ذِكْرَهُ ﴿نَأْتٍ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ يَعْنِي بِخَيْرٍ لَكُمْ، فَهَذِهِ الثَّانِيَةُ أَكْثَرُ لِفَوَائِكُمْ وَأَجَلٌ لِصَلَاحِكُمْ مِنَ الْآيَةِ الْأُولَى الْمُنْسُوخَةِ ﴿أَوْ مِثْلَهَا﴾ أَيْ مِثْلَهَا فِي الصَّلَاحِ لَكُمْ، لِأَنَّا لَا نَنْسَخُ وَلَا نُبَدِّلُ إِلَّا وَغَرَضُنَا فِي ذَلِكَ مَصَالِحِكُمْ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فَلَأَنَّهُ قَدِيرٌ يَقْدِرُ عَلَى النَّسْخِ وَغَيْرِهِ، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَهُوَ الْعَالِمُ بِتَدْيِيرِهَا وَمَصَالِحِهَا، هُوَ يُدَبِّرُكُمْ بِعِلْمِهِ ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ بِإِصْلَاحِكُمْ إِذْ كَانَ الْعَالِمُ بِالصَّالِحِ هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ دُونَ غَيْرِهِ ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾ وَمَا لَكُمْ نَاصِرٌ يَنْصُرُكُمْ مِنْ مَكْرِهِ^(٢) إِنْ أَرَادَ اللَّهُ إِنْزَالَهُ بِكُمْ أَوْ عَذَابِهِ، إِنْ أَرَادَ إِحْلَالَهُ لَكُمْ.

وَقَالَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَلِيٍّ الْبَاقِرُ عليه السلام: وَمِمَّا قَدَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّسْخَ وَالتَّنْزِيلَ^(٣) لِمَصَالِحِكُمْ وَمَنَافِعِكُمْ لِتُؤْمِنُوا وَيَتَوَقَّرَ عَلَيْكُمُ الثَّوَابُ بِالتَّصَدِيقِ بِهَا، فَهُوَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ مِمَّا فِيهِ صَلاَحُكُمْ وَالْخَيْرَةُ لَكُمْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فَهُوَ يَمْلِكُهُمَا بِقُدْرَتِهِ وَيَضْرِفُهُمَا تَحْتَ مَشِيتِهِ، لَا مُقَدَّمُ لِمَا آخَرَ وَلَا مُؤَخَّرُ لِمَا قَدَّمَ، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ وَالْمُكَذِّبِينَ بِمُحَمَّدٍ صلوات الله عليه وآله وَالْبَاحِدِينَ نَسْخَ الشَّرَائِعِ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يَلِي مَصَالِحَكُمْ إِنْ لَمْ يَدُلَّكُمْ رَبُّكُمْ لِلْمَصَالِحِ، ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾ يَنْصُرُكُمْ مِنَ اللَّهِ يَدْفَعُ عَنْكُمْ عَذَابَهُ.

قَالَ عليه السلام: وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلوات الله عليه وآله لَمَّا كَانَ بِمَكَّةَ، أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَتَوَجَّهَ^(٤) نَحْوَ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ^(٥) فِي صَلَاتِهِ، وَيَجْعَلَ الْكَعْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِذَا أُمِّنَ، وَإِذَا لَمْ يَتِمَّ كُنَّ اسْتِقْبَالَ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ كَيْفَ كَانَ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلوات الله عليه وآله يَفْعَلُ ذَلِكَ طُولَ مَقَامِهِ بِهَا ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَلَمَّا كَانَ بِالْمَدِينَةِ وَكَانَ مُتَعَبِّدًا بِاسْتِقْبَالِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ اسْتَقْبَلَهُ وَانْحَرَفَ عَنِ الْكَعْبَةِ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا^(٦) جَعَلَ قَوْمٌ مِنْ مَرَدَةِ الْيَهُودِ^(٧) يَقُولُونَ: وَاللَّهِ مَا دَرَى مُحَمَّدٌ كَيْفَ صَلَّى حَتَّى صَارَ يَتَوَجَّهُ إِلَى قِبْلَتِنَا، وَيَأْخُذُ فِي صَلَاتِهِ بِهَذَا^(٨) وَنُسَكِنَا، فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلوات الله عليه وآله لِمَا اتَّصَلَ بِهِ عَنْهُمْ، وَكَرِهَ قِبْلَتَهُمْ وَأَحَبَّ الْكَعْبَةَ، فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلوات الله عليه وآله: يَا جِبْرِيلُ لَوَدِدْتُ لَوْ صَرَفَنِي اللَّهُ

١. الأعلى/٦.

٢. في المصدر: «من مكروه».

٣. في المصدر: «النسخ والتبديل».

٤. تبدأ الرواية في الاحتجاج من «لَمَّا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلوات الله عليه وآله بِمَكَّةَ» إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ.

٥. مَقْدَس: وزان مسكن ويأتي أيضا على اسم المفعول من باب التفعيل. (هامش المطبوع)

٦. لم يرد في المصدر والبرهان: «أو ستة عشر شهرا».

٧. المارد من الرجال: العاتي الشديد، وجمع المارد: مَرْدَة، راجع لسان العرب.

٨. في المصدر والاحتجاج والبرهان: «بهدينا».

تَعَالَى عَنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْكَعْبَةِ فَقَدْ تَأَذَّبْتُ بِمَا يَتَّصِلُ بِي مِنْ قِبَلِ الْيَهُودِ مِنْ قِبَلَتِهِمْ، فَقَالَ جَبْرِئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَاسْأَلْ رَبَّكَ أَنْ يُحَوِّلَكَ إِلَيْهَا، فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّكَ عَنْ طَلِبَتِكَ، وَلَا يُحْيِيكَ مِنْ بُعْيَتِكَ^(١)، فَلَمَّا اسْتَسَمَّ دُعَاؤُهُ صَعِدَ جَبْرِئِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ عَادَ مِنْ سَاعَتِهِ، فَقَالَ: اقْرَأْ يَا مُحَمَّدٌ: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ الْآيَاتِ^(٢). فَقَالَتِ الْيَهُودُ عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ جَوَابٍ فَقَالَ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ وَهُوَ يَمْلِكُهُمَا، وَتَكْلِيفُهُ التَّحَوُّلَ إِلَى جَانِبٍ كَتَحْوِيلِهِ لَكُمْ إِلَى جَانِبٍ آخَرَ ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٣) هُوَ مَصْلَحَتُهُمْ وَتَوَدِّيَهُمْ طَاعَتُهُمْ إِلَى جَنَاتِ النَّعِيمِ.

فَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَجَاءَ قَوْمٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ هَذِهِ الْقِبْلَةُ بَيْتُ الْمَقْدِسِ قَدْ صَلَّيْتَ إِلَيْهَا أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً ثُمَّ تَرَكْتَهَا الْآنَ، أَفَحَقًّا كَانَ مَا كُنْتَ عَلَيْهِ فَقَدْ تَرَكْتَهُ إِلَى بَاطِلٍ فَإِنَّمَا يُخَالِفُ الْحَقُّ الْبَاطِلَ، أَوْ بَاطِلًا كَانَ ذَلِكَ فَقَدْ كُنْتَ عَلَيْهِ طُولَ هَذِهِ الْمُدَّةِ؟ فَمَا يُؤْمِنُنَا أَنْ تَكُونَ الْآنَ عَلَى بَاطِلٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَلْ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا وَهَذَا حَقٌّ، يَقُولُ اللَّهُ: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إِذَا عَرَفَ صَلاَحَكُمْ يَا أَيُّهَا الْعِبَادُ فِي اسْتِقْبَالِ الْمَشْرِقِ أَمَرَكُمْ بِهِ، وَإِذَا عَرَفَ صَلاَحَكُمْ فِي اسْتِقْبَالِ الْمَغْرِبِ أَمَرَكُمْ بِهِ، وَإِنْ عَرَفَ صَلاَحَكُمْ فِي غَيْرِهِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، فَلَا تُنْكِرُوا تَذْيِيرَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَقَصْدَهُ إِلَى مَصَالِحِكُمْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَقَدْ تَرَكْتُمُ الْعَمَلَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ، ثُمَّ عَمِلْتُمْ بَعْدَهُ سَائِرَ الْأَيَّامِ، ثُمَّ تَرَكْتُمُوهُ فِي السَّبْتِ ثُمَّ عَمِلْتُمْ بَعْدَهُ، أَفَتَرَكْتُمُ الْحَقَّ إِلَى بَاطِلٍ، أَوْ الْبَاطِلَ إِلَى حَقٍّ، أَوْ الْبَاطِلَ إِلَى بَاطِلٍ، أَوْ الْحَقَّ إِلَى حَقٍّ، قُولُوا كَيْفَ شِئْتُمْ فَهُوَ قَوْلُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَجَوَابُهُ لَكُمْ؟ قَالُوا: بَلْ تَرَكُ الْعَمَلَ فِي السَّبْتِ حَقٌّ، وَالْعَمَلَ بَعْدَهُ حَقٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَكَذَلِكَ قِبْلَةُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي وَقْتِهِ حَقٌّ، ثُمَّ قِبْلَةُ الْكَعْبَةِ فِي وَقْتِهِ حَقٌّ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ أَفَبَدَا لِرَبِّكَ فِيمَا كَانَ أَمْرُكَ بِهِ بِزَعْمِكَ مِنَ الصَّلَاةِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ حَتَّى نَقْلَكَ إِلَى الْكَعْبَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا بَدَأَ لَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ الْعَالَمُ بِالْعَوَاقِبِ، وَالْقَادِرُ عَلَى الْمَصَالِحِ، لَا يَسْتَدْرِكُ عَلَى نَفْسِهِ غَلْطًا، وَلَا يَسْتَحْدِثُ رَأْيًا يُخَالِفُ الْمُتَقَدَّمَ، جَلَّ عَنْ ذَلِكَ، وَلَا يَقَعُ عَلَيْهِ أَيْضًا مَانِعٌ يَمْنَعُهُ مِنْ مُرَادِهِ، وَلَيْسَ يَبْدُو وَإِلَّا لِمَا كَانَ هَذَا وَصَفُهُ، وَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ مُتَعَالٍ عَنِ هَذِهِ الصِّفَاتِ عُلُوًّا كَبِيرًا.

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيُّهَا الْيَهُودُ أَخْبِرُونِي عَنِ اللَّهِ، أَلَيْسَ يُمْرِضُ ثُمَّ يُصِحُّ، وَيُصِحُّ ثُمَّ يُمْرِضُ، أَبَدَا لَهُ فِي ذَلِكَ؟ أَلَيْسَ يُحْيِي وَيُمِيتُ، أَبَدَا لَهُ^(٤) فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ؟ فَقَالُوا: لَا. قَالَ: فَكَذَلِكَ اللَّهُ، تَعَبَّدَ نَبِيُّهُ مُحَمَّدًا بِالصَّلَاةِ

١. فيه ثلاث لغات: «البغية» بضم الباء وسكون الغين وفتح الياء، والبغية بكسر الباء، والبغية بفتح الباء وكسر الغين والياء المشددة المفتوحة،

ومعناها ما يطلب ويرغب فيه. (هامش المطبوع)

٢. البقرة/١٤٤.

٣. البقرة/١٤٢.

٤. في المصدر والبرهان مع زيادة: «أليس يأتي بالليل في أثر النهار، والنهار في أثر الليل أبدا له في كل واحد من ذلك؟».

إِلَى الْكَعْبَةِ بَعْدَ أَنْ تَعْبَدَهُ بِالصَّلَاةِ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَمَا بَدَأَ لَهُ فِي الْأَوَّلِ، ثُمَّ قَالَ: أَ لَيْسَ اللَّهُ يَأْتِي بِالشِّتَاءِ فِي أَثَرِ الصَّيْفِ، وَالصَّيْفِ فِي أَثَرِ الشِّتَاءِ، أ بَدَأَ لَهُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَكَذَلِكَ لَمْ يَبْدُ لَهُ فِي الْقِبْلَةِ. قَالَ: ثُمَّ قَالَ ﷺ: أَ لَيْسَ قَدْ أَلَزَمَكُمْ فِي الشِّتَاءِ أَنْ تَحْتَرِزُوا مِنَ الْبَرْدِ بِالثِّيَابِ الْعَلِيظَةِ، وَأَلَزَمَكُمْ فِي الصَّيْفِ أَنْ تَحْتَرِزُوا مِنَ الْحَرِّ، فَبَدَأَ لَهُ فِي الصَّيْفِ حَتَّى أَمَرَكُمْ بِخِلَافِ مَا كَانَ أَمَرَكُمْ بِهِ فِي الشِّتَاءِ؟ قَالُوا: لَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَكَذَلِكَ اللَّهُ تَعَبَّدَكُمْ فِي وَقْتٍ لِصَلَاةٍ يَعْلَمُهُ بِشَيْءٍ، ثُمَّ تَعَبَّدَكُمْ فِي وَقْتٍ آخَرَ لِصَلَاةٍ آخَرَ يَعْلَمُهُ بِشَيْءٍ آخَرَ، وَإِذَا أَطَعْتُمُ اللَّهَ فِي الْحَالَتَيْنِ اسْتَحَقَقْتُمْ ثَوَابَهُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (١) يَعْنِي إِذَا تَوَجَّهْتُمْ بِأَمْرِهِ فَثَمَّ الْوَجْهُ الَّذِي تَقْصِدُونَ مِنْهُ اللَّهُ وَتَأْمُلُونَ ثَوَابَهُ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَا عِبَادَ اللَّهِ أَنْتُمْ كَالْمَرْضَى، وَاللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ كَالطَّيِّبِ، فَصَلِّحُ الْمَرْضَى فِيمَا يَعْلَمُهُ الطَّيِّبُ وَيُدَبِّرُهُ بِهِ، لَا فِيمَا يَشْتَهِيهِ الْمَرِيضُ وَيَقْتَرِحُهُ (٢)؛ أَلَا فَسَلِّمُوا لِلَّهِ أَمْرَهُ تَكُونُوا مِنَ الْفَائِزِينَ. فَقِيلَ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ فَلِمَ أَمَرَ بِالْقِبْلَةِ الْأُولَى؟ فَقَالَ ﷺ: لِمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ وَهِيَ بَيْتُ الْمُقَدَّسِ ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ إِلَّا لِنَعْلَمَ ذَلِكَ مِنْهُ وَجُوداً بَعْدَ أَنْ عَلِمْنَاهُ سَيُوجَدُ، وَذَلِكَ أَنَّ هَوَى أَهْلِ مَكَّةَ كَانَ فِي الْكَعْبَةِ فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُبَيِّنَ مُتَّبِعَ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ مُخَالَفِيهِ بِاتِّبَاعِ الْقِبْلَةِ الَّتِي كَرِهَهَا وَمُحَمَّدٌ ﷺ يَأْمُرُ بِهَا، وَلَمَّا كَانَ هَوَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي بَيْتِ الْمُقَدَّسِ أَمَرَهُمْ بِمُخَالَفَتِهَا وَالتَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ لِيُبَيِّنَ مَنْ يُوَافِقُ مُحَمَّدًا فِيمَا يَكْرَهُهُ فَهُوَ مُصَدِّقُهُ وَمُؤَافِقُهُ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ (٣) إِنَّمَا كَانَ التَّوَجُّهُ إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ كَبِيرَةً إِلَّا عَلَى مَنْ يَهْدِي اللَّهُ فَعَرَفَ أَنَّ اللَّهَ يُتَعَبَّدُ بِخِلَافِ مَا يُرِيدُهُ الْمَرْءُ لِيُتَّبِلِيَ طَاعَتَهُ فِي مُخَالَفَةِ هَوَاهُ.

بيان:

قوله: «أو ستة عشر شهراً» التريديد إما من الراوي أو منه ﷺ لبيان الاختلاف بين المخالفين.

أقول:

لَمَّا كَانَ الْكَلَامُ فِي النِّسْخِ وَتَجْوِيزِهِ مَثْبُتاً فِي الْكُتُبِ الْأُصُولِيَّةِ لَمْ نَتَعَرَّضْ لَذِكْرِهِ وَبَسْطِ الْقَوْلِ فِيهِ، مَعَ أَنَّ هَذَا الْخَبَرَ مُشْتَمِلٌ عَلَى رَدِّ شِبْهِ النَّاظِرِينَ لَهُ عَلَى أَبْلِغِ الْوُجُوهِ.

١٥٠٢. التوحيد (٤): أَبِي، عَنْ مُحَمَّدٍ الْعَطَّارِ، عَنْ ابْنِ عَيْسَى، عَنِ الْحَجَّالِ (٥)، عَنْ ثَعْلَبَةَ، عَنْ زُرَّارَةَ، عَنْ أَحَدِهِمَا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

١. البقرة/١١٥.

٢. اقترحت عليه شيئاً: سألته إياه من غير رويته، راجع مجمع البحرين.

٣. البقرة/١٤٣.

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ٣٣١، ح ١، وح ٢، وفيه: «ما عظم» بدلاً من: «ما عبد»؛ الكافي، ج ١، باب البدء، ص ١٤٦، ح ١.

٥. الحجَّال مشترك بين جماعة والظاهر هنا بقريته روايته عن ثعلبة بن ميمون أنه عبد الله بن محمد المزخرف. (هامش المطبوع)

قَالَ: مَا عَبْدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِشَيْءٍ مِثْلَ الْبَدَاءِ^(١).

١٥٠٣. التوحيد^(٢): مَا جِيلَوِيهِ، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ وَحَفْصِ بْنِ الْبَخْتَرِيِّ وَغَيْرِهِمَا، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٣) فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾^(٤) قَالَ: فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَهَلْ يَمْحُو اللَّهُ إِلَّا مَا كَانَ، وَهَلْ يُثْبِتُ إِلَّا مَا لَمْ يَكُنْ؟

١٥٠٤. التوحيد^(٥): حَمْرَةُ الْعُلَوِيِّ، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ مُرَازِمِ بْنِ حَكِيمٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٦) يَقُولُ: مَا تَنَبَّأَ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يُقَرَّرَ لِلَّهِ تَعَالَى بِخَمْسٍ^(٧): بِالْبَدَاءِ وَالْمَشِيئَةِ وَالسُّجُودِ وَالْعُبُودِيَّةِ وَالطَّاعَةِ^(٨).

المحاسن^(٩): بعض أصحابنا، عن محمد بن عمر الكوفي - أخي يحيى -، عن مرزم، مثله.

١٥٠٥. المحاسن^(١٠): أَبِي، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ، عَنْ زُرَّارَةَ وَمُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا قَطُّ حَتَّى يَأْخُذَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، الْإِفْرَارَ لِلَّهِ بِالْعُبُودِيَّةِ، وَخَلَعَ الْأَنْدَادِ، وَأَنَّ اللَّهَ يَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ^(١١).

١٥٠٦. التوحيد^(١٢): الدَّقَاقُ، عَنِ الْكَلِينِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الْيَقُطِينِيِّ، عَنْ يُونُسَ، عَنْ مَالِكِ الْجُهَنِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي الْقَوْلِ بِالْبَدَاءِ مِنَ الْأَجْرِ مَا فَتَرُوا عَنِ الْكَلَامِ فِيهِ.

قال الصدوق «رحمه الله» في التوحيد: ليس البداء كما تظنّه جهال الناس بأنه بداء ندامة - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - ولكن يجب علينا أن نقرّ لله عزّ وجلّ بأنّ له البداء، معناه أنّ له أن يبدأ بشيء من خلقه

١. في بعض النسخ: «ما عبد الله عزّ وجلّ بشيء أفضل من البداء»، وقد أوعز المصنّف «قدس الله أسرار» في خاتمة الباب إلى معنى الحديث والحديث الذي يأتي بعده وما ضاهاهما. (هامش المطبوع)

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٣٣٣، ح ٤؛ تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢١٥، ح ٦٠؛ الكافي، ج ١، باب البداء، ص ١٤٦، ح ٢.

٣. في تفسير العياشي: «عن جميل بن درّاج، عن أبي عبد الله عليه السلام».

٤. الرعد/٣٩.

٥. التوحيد (للصدوق)، ص ٣٣٣، ح ٥؛ الكافي، ج ١، باب البداء، ص ١٤٨، ح ١٣.

٦. في الكافي بهذا الإسناد: «عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن خالد، عن بعض أصحابنا، عن محمد بن عمر والكوفي، عن مرزم بن حكيم، عن أبي عبد الله عليه السلام».

٧. في الكافي: «بخمسة خصال».

٨. **نقول:** وعطف السجود والعبودية والطاعة من قبيل ذكر الخاص قبل العام للتأكيد في هذه الأمور.

٩. المحاسن، ج ١، ص ٢٣٤، ح ١٩٠.

١٠. المحاسن، ج ١، ص ٢٣٣، ح ١٨٩؛ تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢١٥، ح ٥٧؛ الكافي، ج ١، باب البداء، ص ١٤٧، ح ٣.

١١. في تفسير العياشي والكافي: «... وخلق الأنداد وأنّ الله يقدر ما يشاء».

١٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٣٣٤، ح ٧؛ الكافي، ج ١، باب البداء، ص ١٤٨، ح ١٢.

فيخلقه قبل شيء، ثم يعدم ذلك الشيء ويبدأ بخلق غيره، أو يأمر بأمر ثم ينهى عن مثله، أو ينهى عن شيء ثم يأمر بمثل ما نهى عنه، وذلك مثل نسخ الشرائع، وتحويل القبلة، وعدة المتوفى عنها زوجها. ولا يأمر الله عباده بأمر في وقت ما إلا وهو يعلم أن الصلاح لهم في ذلك الوقت في أن يأمرهم بذلك، ويعلم أن في وقت آخر الصلاح لهم في أن ينهاهم عن مثل ما أمرهم به، فإذا كان ذلك الوقت أمرهم بما يصلحهم، فمن أقر لله عز وجل: بأن له أن يفعل ما يشاء، ويؤخر ما يشاء، ويخلق مكانه ما يشاء، ويؤخر ما يشاء، كيف يشاء فقد أقر بالبداء، وما عظم الله عز وجل بشيء أفضل من الإقرار بأن له الخلق والأمر، والتقديم والتأخير، وإثبات ما لم يكن، ومحو ما قد كان، والبداء هو رد على اليهود لأنهم قالوا: إن الله قد فرغ من الأمر، فقلنا: إن الله كل يوم في شأن، يحيي ويميت، ويرزق، ويفعل ما يشاء. والبداء ليس من ندامة وإنما هو ظهور أمر، تقول العرب: بدا لي شخص في طريقي أي ظهر، وقال الله عز وجل: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾^(١) أي ظهر لهم، ومتى ظهر لله تعالى ذكره من عبد صلة لرحمه زاد في عمره، ومتى ظهر له قطيعة رحم نقص من عمره، ومتى ظهر له من عبد إتيان الزنا نقص من رزقه وعمره، ومتى ظهر له منه التعفف عن الزنا زاد في رزقه وعمره ومن ذلك قول^(٢) الصادق عليه السلام: مَا بَدَأَ لِلَّهِ بَدَاءٌ كَمَا بَدَأَ لَهُ فِي إِسْمَاعِيلَ ابْنِي يَقُولُ: مَا ظَهَرَ لِلَّهِ أَمْرٌ كَمَا ظَهَرَ لَهُ فِي إِسْمَاعِيلَ ابْنِي إِذِ اخْتَرَمَهُ^(٣) قَبْلِي لِيُعْلَمَ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ بِأَمَامِ بَعْدِي.

وقد روي لي من طريق أبي الحسين الأسدي «رضوان الله عليه» في ذلك شيء غريب، وهو^(٤) أنه روي أن الصادق عليه السلام قال: مَا بَدَأَ لِلَّهِ بَدَاءٌ كَمَا بَدَأَ لَهُ فِي إِسْمَاعِيلَ أَبِي إِذَا أَمَرَ أَبَاهُ بِذَنْبِهِ ثُمَّ قَدَّاهُ بِذَنْبِهِ عَظِيمٍ. وفي الحديث على الوجهين جميعاً عندي نظر، إلا أنني أوردته لمعنى لفظ البداء والله الموفق للصواب.

بيان:

ليس غرضه «رحمه الله» من قوله: إن له أن يبدأ بشيء أن البداء مشتق من المهموز، بل قد صرح آخرًا بخلافه، وإنما أراد أن هذا مما يتفرع عليه كما مر في خبر المروزي، وستعرف أنه لا استبعاد في صحة الخبرين اللذين نفاهما.

١٥٠٧. بصائر الدرجات^(٥): أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، أَوْ عَمَّنْ رَوَاهُ، عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ

١. الزمر/٤٧.

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٣٣٦، ح ١٠.

٣. اخترم فلان عتاً: مات وذهب، راجع لسان العرب.

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ٣٣٦، ح ١١.

٥. بصائر الدرجات، ص ١٠٩، ح ٢؛ الكافي، ج ١، باب البداء، ص ١٤٧، ح ٨.

عُثْمَانُ، عَنْ سَمَاعَةَ، عَنْ أَبِي بصيرٍ وَوَهْبٍ^(١)، عَنْ أَبِي بصيرٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: إِنَّ لِلَّهِ عِلْمَيْنِ: عِلْمٌ مَكْنُونٌ مَخْزُونٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ مِنْ ذَلِكَ الْبَدَاءُ، وَعِلْمٌ عَلَّمَهُ مَلَائِكَتُهُ وَرُسُلُهُ وَأَنْبِيَائُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَنَحْنُ نَعْلَمُهُ.

١٥٠٨. بصائر الدرجات^(٢): أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنِ الْأَهْوَازِيِّ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِي حمزة^(٣)، عَنْ أَبِي بصيرٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قَتُولَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾^(٤) أَرَادَ أَنْ يُعَذِّبَ أَهْلَ الْأَرْضِ، ثُمَّ بَدَأَ لِلَّهِ فَتَزَلَّتِ الرَّحْمَةُ فَقَالَ: ذَكَّرُ يَا مُحَمَّدُ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ. فَرَجَعْتُ مِنْ قَابِلٍ، فَقُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنِّي حَدَّثْتُ أَصْحَابَنَا فَقَالُوا: بَدَأَ لِلَّهِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي عِلْمِهِ^(٥)؟ قَالَ: فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ لِلَّهِ عِلْمَيْنِ: عِلْمٌ عِنْدَهُ لَمْ يُطْلَعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَعِلْمٌ نَبَذَهُ إِلَى مَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَمَا نَبَذَهُ إِلَى مَلَائِكَتِهِ فَقَدْ انْتَهَى إِلَيْنَا.

١٥٠٩. بصائر الدرجات^(٦): أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنِ ابْنِ مَحْبُوبٍ، عَنِ ابْنِ رِثَابٍ، عَنْ سَدِيرٍ^(٧) قَالَ: سَأَلَ حُمْرَانُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ فَقَالَ لَهُ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾^(٨) وَكَانَ وَاللَّهُ مُحَمَّدٌ ﷺ مِمَّنْ ارْتَضَاهُ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَالِمٌ بِمَا غَابَ عَنْ خَلْقِهِ بِمَا يَقْدُرُ مِنْ شَيْءٍ وَيَقْضِيهِ فِي عِلْمِهِ، فَذَلِكَ يَا حُمْرَانُ عِلْمٌ مَوْقُوفٌ عِنْدَهُ، إِلَيْهِ فِيهِ الْمَشِيئَةُ، فَيَقْضِيهِ إِذَا أَرَادَ، وَيَبْدُو لَهُ فِيهِ، فَلَا يُمْضِيهِ، فَأَمَّا الْعِلْمُ الَّذِي يَقْدُرُهُ اللَّهُ وَيَقْضِيهِ وَيُمْضِيهِ فَهُوَ الْعِلْمُ الَّذِي انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ إِلَيْنَا.

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنِ ابْنِ مَحْبُوبٍ بِهَذَا الْإِسْنَادِ وَزَادَ فِيهِ: فَمَا يَقْدُرُ مِنْ شَيْءٍ وَيَقْضِيهِ فِي عِلْمِهِ أَنْ يَخْلُقَهُ، وَقَبْلَ أَنْ يَقْضِيَهُ^(٩) إِلَى مَلَائِكَتِهِ، فَذَلِكَ يَا حُمْرَانُ عِلْمٌ مَوْقُوفٌ عِنْدَهُ غَيْرُ مَقْضِيٍّ لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ، إِلَيْهِ فِيهِ الْمَشِيئَةُ،

١. في الكافي: «وَهْبٌ بن حفص».

٢. بصائر الدرجات، ص ١١٠، ح ٤.

٣. في المصدر: «عن ابن أبي حمزة».

٤. الذاريات / ٥٤.

٥. لعلمهم قالوه على سبيل الاستفهام الإنكاري، أو قالوا: إنَّ لازم ما حدثت من الآيتين أن بدا لله ما لم يكن في علمه، فهو خلاف ما عليه الشيعة؛ ولما رأى أبو بصير ذلك الإنكار والإعجاب من أصحابه - وهم بطانته - عرض ذلك عليه، فأجاب عليه بأنَّه لا يلازم ذلك، لأنَّ لله علمين: علم عنده مختص به، لم يطلع عليه أحدٌ ففيه البداء، يقدم ما يشاء، ويؤخر ما يشاء، ويثبت ما يشاء، ويمحو ما يشاء، على ما تقتضيه مصالح الأشياء ومنافعها، مع علمه في الأزل بتقديره ذلك وتأخيرها، ومحوه وإثباته. (هامش المطبوع)

٦. بصائر الدرجات، ص ١١٣، ح ١ و ٢؛ في الكافي، ج ١، باب نادر فيه ذكر الغيب، ص ٢٥٦، ح ٢؛ وقد ورد فيهما ذيل رواية.

٧. في الكافي: «محمد بن يحيى، عن عبد الله بن محمد بن عيسى، عن ابن محبوب...».

٨. الجن / ٢٦ و ٢٧.

٩. في المصدر: «وقبل أن يقضيه»، وفي الكافي: «وقبل أن يفرضه».

فَيَقْضِيهِ إِذَا أَرَادَ؛ إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ.

١٥١٠. إكمال الدين^(١): أَبِي، عَنْ مُحَمَّدٍ الْعَطَّارِ، عَنِ الْأَشْعَرِيِّ، عَنِ الْجَامُورَانِيِّ، عَنِ اللَّوْثِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ، عَنْ عَمَّارٍ، عَنْ أَبِي بصيرٍ وَسَمَاعَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْدُو لَهُ فِي شَيْءٍ^(٢) لَمْ يَعْلَمْهُ أَمْسٍ فَأَبْرَأُوا مِنْهُ^(٣).

١٥١١. قصص الأنبياء عليه السلام^(٤): بِالسَّنَادِ إِلَى الصَّدُوقِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ عِيسَى، عَنِ الْوَشَّاءِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ سُوْقَةَ، عَنْ عِيسَى الْفَرَّاءِ وَأَبِي عَلِيٍّ الْعَطَّارِ، عَنْ رَجُلٍ، عَنِ الثُّمَالِيِّ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: بَيْنَا دَاوُدُ «عَلَى نَبِيَّتَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ» جَالِسٌ وَعِنْدَهُ شَابٌّ رَثٌ^(٥) الْهَيْئَةِ، يُكْثِرُ الْجُلُوسَ عِنْدَهُ، وَيُطِيلُ الصَّمْتَ، إِذْ أَتَاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَأَحَدَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ النَّظَرَ^(٦) إِلَى الشَّابِّ، فَقَالَ دَاوُدُ «عَلَى نَبِيَّتَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ»: نَظَرْتُ إِلَى هَذَا؟ فَقَالَ: نَعَمْ، إِنِّي أُمِرْتُ بِقَبْضِ رُوحِهِ إِلَى سَبْعَةِ أَيَّامٍ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، فَرَحَّمَهُ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: يَا شَابُّ هَلْ لَكَ امْرَأَةٌ؟ قَالَ: لَا، وَمَا تَزَوَّجْتُ قَطُّ، قَالَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَأَتِ فُلَانًا - رَجُلًا كَانَ عَظِيمَ الْقَدْرِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ - فَقُلْ لَهُ: إِنَّ دَاوُدَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَزَوَّجَنِي ابْنَتَكَ وَتَدْخُلَهَا اللَّيْلَةَ^(٧)، وَخُذْ مِنَ النَّفَقَةِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَكُنْ عِنْدَهَا، فَإِذَا مَضَتْ سَبْعَةُ أَيَّامٍ فَوَافِنِي فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

فَمَضَى الشَّابُّ بِرِسَالَةِ دَاوُدَ «عَلَى نَبِيَّتَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ» فَزَوَّجَهُ الرَّجُلُ ابْنَتَهُ وَأَدْخَلُوهَا عَلَيْهِ^(٨)، وَأَقَامَ عِنْدَهَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ وَافَى دَاوُدَ يَوْمَ الثَّامِنِ، فَقَالَ لَهُ دَاوُدُ: يَا شَابُّ كَيْفَ رَأَيْتَ مَا كُنْتَ فِيهِ؟ قَالَ: مَا كُنْتُ فِي نِعْمَةٍ وَلَا سُورٍ

١. كمال الدين وتمام النعمة، ج ١، ص ٦٩؛ اعتقادات الإمامية (للصدوق)، ص ٤١.

٢. في المصدر والاعتقادات: «في شيء اليوم».

٣. أقول: هذا الحديث وأمثالها تشرح وتبين أن المراد من البداء ليس ما يحمله ويفتره المخالفون على الإمامية، من ظهور رأى لله سبحانه لم يكن قبل، وأمر عليه السلام شيعته أن يبرؤوا من قائله وحكم بكفره وخروجه عن التوحيد.

وروي في الكافي عن محمد بن يحيى، عن أحمد، عن الحسن بن علي بن فضال، عن داود بن فرق، عن عمرو بن عثمان الجهني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْدُ لَهُ مِنْ جَهْلٍ.

وعن علي بن إبراهيم، عن محمد بن عيسى، عن يونس، عن منصور بن حازم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام هل يكون اليوم شيء لم يكن في علم الله بالأمر؟ قال: لا، من قال هذا فأخزاه الله. قلت: رأيت ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة أليس في علم الله؟ قال: بلى قبل أن يخلق الخلق. أقول: تقدم ما يدل على ذلك في باب العلم وكيفية. (هامش المطبوع)

٤. قصص الأنبياء عليه السلام (للراوندي)، ص ٢٠٤، ح ٢٦٥.

٥. رجل رث الهيئة: إذا كان خلق الثياب سيئ الحال، راجع الطراز الأول.

٦. أحدثت إليه النظر: نظرت إليه متأملاً، راجع المصباح المنير.

٧. في المصدر: «تدخلها الليلة علي».

٨. في المصدر: «أدخلها عليه».

قَطُّ أَعْظَمَ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ. قَالَ دَاوُدُ: اجْلِسْ فَجَلَسَ وَدَاوُدُ يَنْتَظِرُ أَنْ يَقْبُضَ رُوحَهُ، فَلَمَّا طَالَ قَالَ: انْصَرِفْ إِلَى مَنْزِلِكَ فَكُنْ مَعَ أَهْلِكَ فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الثَّامِنِ فَوَافِنِي هَاهُنَا. فَمَضَى الشَّابُّ، ثُمَّ وَاثَاهُ يَوْمَ الثَّامِنِ وَجَلَسَ عِنْدَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ أُسْبُوعًا آخَرَ، ثُمَّ أَتَاهُ وَجَلَسَ، فَجَاءَ مَلِكُ الْمَوْتِ دَاوُدَ، فَقَالَ دَاوُدُ «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ»: أَ لَسْتَ حَدَّثْتَنِي بِأَنَّكَ أَمَرْتَ يَقْبُضُ رُوحَ هَذَا الشَّابِّ إِلَى سَبْعَةِ أَيَّامٍ؟ قَالَ: بَلَى، فَقَالَ: قَدْ مَضَتْ ثَمَانِيَّةٌ وَثَمَانِيَّةٌ وَثَمَانِيَّةٌ^(١)! قَالَ: يَا دَاوُدُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَحِمَهُ بِرَحْمَتِكَ لَهُ فَأَخَّرَ فِي أَجَلِهِ ثَلَاثِينَ سَنَةً.

١٥١٢. كِتَابُ الْإِمَامَةِ وَالتَّبَصُّرَةِ لِعَلِيِّ بْنِ بَابُوَيْهِ^(٢): عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى وَأَخْمَدَ بْنِ إِدْرِيسَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ، عَمَّنْ ذَكَرَهُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْفَضِيلِ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَمَّارٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ نَبِيٌّ، وَعَدَهُ اللَّهُ أَنْ يَنْصُرَهُ إِلَى خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ قَوْمَهُ فَقَالُوا: وَاللَّهِ إِذَا كَانَ لِيَفْعَلَنَّ وَلِيَفْعَلَنَّ فَأَخَّرَهُ اللَّهُ إِلَى خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَكَانَ فِيهِمْ مَنْ وَعَدَهُ اللَّهُ النَّصْرَةَ إِلَى خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ قَوْمَهُ فَقَالُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ، فَعَجَّلَهُ اللَّهُ لَهُمْ فِي خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً.

١٥١٣. قِصَصُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٣): بِإِسْنَادٍ إِلَى الصَّدُوقِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ قَالَ: سَأَلَ عَبْدُ الْأَعْلَى مَوْلَى بَنِي سَامٍ الصَّادِقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٤) - وَأَنَا عِنْدَهُ - حَدِيثَ يَزُودُهُ النَّاسُ، فَقَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: يَزُودُنَ أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى حَزَقِيلَ^(٥) النَّبِيِّ «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ» أَنْ أَخْبِرَ فُلَانًا الْمَلِكَ أَنَّي مُتَوَفِّكَ يَوْمَ كَذَا، فَأَتَى حَزَقِيلَ الْمَلِكَ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ. قَالَ: فَدَعَا اللَّهَ وَهُوَ عَلَى سَرِيرِهِ حَتَّى سَقَطَ مَا بَيْنَ الْحَاظِ وَالسَّرِيرِ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أَخْزِنِي حَتَّى يَشَبَّ طِفْلِي، وَأَقْضِي أَمْرِي، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى ذَلِكَ النَّبِيِّ أَنْ آتِ فُلَانًا وَقُلْ: إِنِّي أَنَسَأْتُ^(٦) فِي عُمْرِهِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً. فَقَالَ النَّبِيُّ: يَا رَبِّ وَعِزَّتِكَ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَكْذِبْ كَذِبَةً قَطُّ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنَّمَا أَنْتَ عَبْدٌ مَأْمُورٌ فَأَبْلِغْهُ^(٧).

١. في المصدر: «ثمانية وثمانية».

٢. الإمامة والتبصرة من الحيرة، ص ٩٤، ح ٨٦.

٣. قصص الأنبياء عليه السلام (لرأوندي)، ص ٢٤١، ح ٢٨٣؛ وقد ورد في التوحيد (للصدوق)، ص ٤٤٣، ضمن ح ١، مع اختلاف يسير.

٤. في التوحيد بهذا الإسناد: «جعفر بن علي بن أحمد الفقيه، عن أبي محمد الحسن بن محمد القمي، عن محمد بن عمر بن عبد العزيز الأنصاري، عمن سمع الحسن بن محمد النوفلي، عن علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن آبائه عليه السلام عن رسول الله ﷺ».

٥. هو حزقيال بن بوري، ثالث خلفاء بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام، وذلك أن القيم بأمر بني إسرائيل بعد موسى كان يوشع بن نون ثم كالب بن يوفنا، ثم حزقيال، قال الثعلبي في العرائس: ويلقب بابن العجوز، لأن أمه سألت عن الله تعالى ولداً وهي عجوز، وقد كبرت وعقمت عن الولد، فوهبه الله تعالى لها. أقول: ويأتي ذكره وأخباره مفصلاً في كتاب الأنبياء. (هامش المطبوع)

٦. أنسا أجله: أخره، راجع لسان العرب.

٧. في التوحيد: «فأبلغه ذلك والله لا يستل عما يفعل».

أقول:

سيأتي^(١) مثله في قصة شعيا^(٢) «على نبينا وآله وعليه السلام».

١٥١٤. بصائر الدرجات^(٣): عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ مَهْزِيَارٍ، عَنِ ابْنِ مُسَافِرٍ^(٤) قَالَ: قَالَ لِي أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْعَشِيَّةِ الَّتِي اعْتَلَّ فِيهَا مِنْ لَيْلَتِهَا الْعِلَّةُ الَّتِي تُوَفِّي مِنْهَا -: يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا أَرْسَلَ اللَّهُ نَبِيًّا مِنْ أَنْبِيَائِهِ إِلَى أَحَدٍ حَتَّى يَأْخُذَ عَلَيْهِ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ. قُلْتُ: وَأَيُّ شَيْءٍ هُوَ يَا سَيِّدِي؟ قَالَ: الْأَفْرَارُ بِاللَّهِ بِالْعُبُودِيَّةِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ، وَأَنَّ اللَّهَ يَقْدَمُ مَا يَشَاءُ، وَنَحْنُ قَوْمٌ - أَوْ نَحْنُ مَعْشَرٌ - إِذَا لَمْ يَرْضَ اللَّهُ لِأَحَدِنَا الدُّنْيَا نَقَلْنَا إِلَيْهِ.

١٥١٥. المحاسن^(٥): أَبِي، عَنْ حَمَّادٍ^(٦)، عَنْ رَبِيعٍ، عَنِ الْفَضِيلِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: الْعِلْمُ عِلْمَانِ: عِلْمٌ عِنْدَ اللَّهِ مَخْزُونٌ لَمْ يُطْلَعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَعِلْمٌ عَلَّمَهُ مَلَائِكَتُهُ وَرُسُلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَمَّا مَا عَلَّمَ مَلَائِكَتَهُ وَرُسُلَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاتُّهُ سَيِّكُونُ، لَا يَكْذِبُ نَفْسُهُ وَلَا مَلَائِكَتُهُ وَلَا رُسُلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وَعِلْمٌ عِنْدَهُ مَخْزُونٌ يَقْدَمُ فِيهِ مَا يَشَاءُ وَيُؤَخَّرُ مَا يَشَاءُ^(٧) وَيُثَبِّتُ مَا يَشَاءُ.

١٥١٦. المحاسن^(٨): بِهَذَا الْإِسْنَادِ، عَنْ فَضِيلٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: مِنَ الْأُمُورِ أُمُورٌ مَوْقُوفَةٌ عِنْدَ اللَّهِ^(٩) يَقْدَمُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَيُؤَخَّرُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ، وَيُثَبِّتُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ.

١٥١٧. الغيبة للشيخ الطوسي^(١٠): الْفَضْلُ بْنُ شاذَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ سَعْدَانَ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: أَلِهَذَا الْأَمْرُ أَمَدٌ تَرِيحُ إِلَيْهِ^(١١) (١٢) أَبَدَانًا وَتَنْتَهِي إِلَيْهِ؟ قَالَ: بَلَى وَلَكِنَّكُمْ أَدْعُمُ فَرَادَ اللَّهُ فِيهِ^(١٣).

١. تَمَّتْ كِتَابُ النُّبُوَّةِ، بَاب ١٤، قِصَّةُ شُعْيَا وَحَبِيقٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٢. هُوَ شُعْيَا بْنُ أَمْضِيَا، بَعَثَ قَبْلَ مَبْعَثِ زَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ الَّذِي بَشَّرَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ - حِينَ شَكَّى إِلَيْهِ الْخَرَابَ - فَقَالَ: أَبَشِّرْ فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ رَاكِبَ الْحِمَارِ وَمِنْ بَعْدِهِ صَاحِبَ الْبَعِيرِ، قَالَهُ الثَّلَعْبِيُّ فِي الْعُرَائِسِ. (هَامِشُ الْمَطْبُوعِ)

٣. بصائر الدرجات، ص ٤٨١، ح ٤.

٤. فِي الْمَصْدَرِ: «أَبِي مَسَافِرٍ».

٥. المحاسن، ج ١، ص ٢٤٣، ح ٢٣١؛ تَفْسِيرُ الْعِيَاشِيِّ، ج ٢، ص ٢١٧، ح ٦٧؛ الْكَافِي، ج ١، بَابُ الْبَدَاءِ، ص ١٤٧، ح ٦.

٦. فِي الْكَافِي: «مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، عَنِ الْفَضْلِ بْنِ شاذَانَ، عَنْ حَمَادٍ...».

٧. فِي تَفْسِيرِ الْعِيَاشِيِّ مَعَ زِيَادَةٍ: «وَيَمْحُو مَا يَشَاءُ».

٨. المحاسن، ج ١، ص ٢٤٣، ح ٢٣٢؛ وَقَدْ وَرَدَ فِي تَفْسِيرِ الْعِيَاشِيِّ، ج ٢، ص ٢١٦، ح ٦٥، مَعَ زِيَادَةٍ فِي ذِيْلِهِ: الْكَافِي، ج ١، بَابُ الْبَدَاءِ، ص ١٤٧، ح ٧.

٩. فِي تَفْسِيرِ الْعِيَاشِيِّ: «مِنَ الْأُمُورِ أُمُورٌ مَحْتَمَةٌ كَائِنَةً لَا مُحَالَةَ، وَمِنَ الْأُمُورِ أُمُورٌ مَوْقُوفَةٌ عِنْدَ اللَّهِ...».

١٠. الْغَيْبَةُ لِلطُّوسِيِّ، ص ٤٢٧؛ الْغَيْبَةُ (لِلنَّعْمَانِيِّ)، ص ٢٨٨، ح ١.

١١. أَرَاهُ الرَّجُلَ: اسْتَرَاحَ وَرَجَعَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ بَعْدَ الْإِعْيَاءِ، رَاجِعَ لِسَانَ الْعَرَبِ.

١٢. فِي الْمَصْدَرِ: «تُرِيحُ إِلَيْهِ».

١٣. **فَقَوْلُ:** التَّعْبِيرُ بِ«هَذَا الْأَمْرِ» وَرَدَّ فِي رَوَايَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعْنَاهُ هُوَ أَمْرٌ وَلَايَةُ الْإِمَامَةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقد يَكُونُ بِمَعْنَى ظُهُورِ دَوْلَتِهِمْ - كَمَا فِي الْمَقَامِ - وَالْإِذَاعَةِ بِمَعْنَى تَرْكِ التَّقِيَّةِ وَإِظْهَارِ هَذَا الْأَمْرِ عِنْدَ الْأَعْدَاءِ وَكَانَ هَذَا سَبَبًا لِتَأْخِيرِ أَمْرِ حُكُومَتِهِمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

١٥١٨. الغيبة للشيخ الطوسي^(١): الفضل، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُحَبُّوبٍ، عَنْ أَبِي حَمْرَةَ الثَّمَالِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ يَقُولُ: إِلَى السَّبْعِينَ بَلَاءً، وَكَانَ يَقُولُ: بَعْدَ الْبَلَاءِ رَحَاءٌ، وَقَدْ مَضَتْ السَّبْعُونَ وَلَمْ نَرَ رَحَاءً، فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا ثَابِتُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ وَقَّتَ هَذَا الْأَمْرَ فِي السَّبْعِينَ، فَلَمَّا قُتِلَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَأَخْرَجَهُ إِلَى أَرْبَعِينَ وَمِائَةِ سَنَةٍ، فَحَدَّثْنَاكُمْ فَأَدْعُمُوا الْحَدِيثَ، وَكَشَفْنَاكُمْ قِنَاعَ السَّرِّ^(٢) فَأَخْرَجَهُ اللَّهُ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَقْتًا عِنْدَنَا،^(٣) ﴿وَيَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتْ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٤) قَالَ أَبُو حَمْرَةَ: وَقُلْتُ ذَلِكَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ.

١٥١٩. الغيبة للشيخ الطوسي^(٥): الفضل، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ، عَنْ أَبِي يَحْيَى التَّمَنَامِ^(٦) السُّلَمِيِّ، عَنْ عُثْمَانَ النَّوَّائِ^(٧) قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِيَّ فَأَخْرَجَهُ اللَّهُ؟ وَيَفْعَلُ بَعْدُ فِي ذُرِّيَّتِي مَا يَشَاءُ.^(٨)

أقول:

قال الشيخ بعد نقل هذه الأخبار: الوجه في هذه الأخبار أن نقول - إن صحَّت - إنه لا يمتنع أن يكون الله تعالى قد وقَّت هذا الأمر في الأوقات التي ذكرت فلما تجدد ما تجددت المصلحة، واقتضت تأخيرها إلى وقت آخر، وكذلك فيما بعد، ويكون الوقت الأول وكل وقت يجوز أن يؤخر مشروطاً بأن لا يتجدد ما تقتضي المصلحة تأخيرها إلى أن يجيء الوقت الذي لا يغيّره شيء فيكون محتوماً، وعلى هذا يتأوّل ما روي في تأخير الأعمار عن أوقاتها، والزيادة فيها عند الدعاء وصلة الأرحام، وما روي في تنقيص الأعمار عن أوقاتها إلى ما قبله عند فعل الظلم وقطع الرحم وغير ذلك، وهو تعالى وإن كان عالماً بالأمرين^(٩) فلا يمتنع أن

١. الغيبة (للطوسي)، ص ٤٢٨؛ تفسير العياشي، ح ٢، ص ٢١٧، ح ٦٩، وقد تمت الرواية فيه إلى عبارة: «وعنده أم الكتاب»؛ وقد ورد في الخرائج والجرائح، ج ١، ص ١٧٨، ح ١١، مع زيادة في صدره.

٢. في تفسير العياشي: «قناع الستر».

٣. **فقول:** قد مرّ أنه لا حاجة لتطبيق هذه التواريخ على الحوادث الواقعة وقيام بعض أهل البيت عليه السلام بل المراد أنه كان من القدر وقوع فرج في السبعين ولكن شهادة الحسين عليه السلام وأصحابه في سنة إحدى وستين كان سبباً لتأخيرها وهكذا.

٤. الرعد/٣٩.

٥. الغيبة (للطوسي)، ص ٤٢٨؛ الحاشية على أصول الكافي (أستر آبادي)، ص ١٦٥.

٦. وفي نسخة: عن أبي يحيى القمقام. (هامش المطبوع)

٧. مجهول كسابقه. (هامش المطبوع)

٨. **فقول:** لا منافاة بين أمثال هذه الرواية وما ورد في ظهور المهدي عليه السلام في نهاية الأمر لأنه كان من المقدر أن يقع هذا الظهور في عصر الصادق عليه السلام أو شبهه مثلاً ولكن علم الله تعالى أنه سيقع أمور يوجب تأخيرها إلى ظهور المهدي عليه السلام فورد أخبار المهدي عليه السلام ناظرةً إليه.

٩. وفي نسخة: وهو أنه وإن كان عالماً بالأمرين. (هامش المطبوع)

يكون أحدهما معلوماً بشرط والآخر بلا شرط، وهذه الجملة لا خلاف فيها بين أهل العدل، وعلى هذا يتأول أيضاً ما روي من أخبارنا المتضمنة للفظ البداء ويبيّن أنّ معناها النسخ على ما يريده جميع أهل العدل فيما يجوز فيه النسخ، أو تغيّر شروطها إن كان طريقها الخبر عن الكائنات، لأنّ البداء في اللغة هو الظهور فلا يمتنع أن يظهر لنا من أفعال الله تعالى ما كنّا نظنّ خلافه، أو نعلم ولا نعلم شرطه^(١).

فمن ذلك ما^(٢) رَوَاهُ سَعْدُ، عَنْ ابْنِ عِيْسَى، عَنْ ابْنِ زُنَيْبٍ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قَبْلَهُ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ وَجَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: كَيْفَ لَنَا بِالْحَدِيثِ مَعَ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فَأَمَّا مَنْ قَالَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعْلَمُ الشَّيْءَ إِلَّا بَعْدَ كَوْنِهِ فَقَدْ كَفَرَ وَخَرَجَ عَنِ التَّوْحِيدِ.

وَقَدْ رَوَى^(٣) سَعْدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِي هَاشِمٍ الْجَعْفَرِيِّ قَالَ: سَأَلَ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ الْأَزْمَنِيُّ أَبَا مُحَمَّدٍ الْعَسْكَرِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٤) فَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَهَلْ يَمْحُو إِلَّا مَا كَانَ، وَيُثَبِّتُ إِلَّا مَا لَمْ يَكُنْ؟ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَذَا خِلَافُ مَا يَقُولُ هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ إِنَّهُ لَا يَعْلَمُ الشَّيْءَ حَتَّى يَكُونَ؛ فَنَظَرَ إِلَيَّ أَبُو مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: تَعَالَى الْجَبَّارُ الْعَالِمُ بِالشَّيْءِ قَبْلَ كَوْنِهَا.

والحديث مختصر. والوجه في هذه الأخبار ما قدّمنا ذكره من تغيّر المصلحة فيه واقتضائها تأخير الأمر إلى وقت آخر على ما بيّناه دون ظهور الأمر له تعالى فإنّا لا نقول به ولا نجوّزه، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

فإن قيل: هذا يؤدّي إلى أن لا نثق بشيء من أخبار الله تعالى؛ قلنا: الأخبار على ضربين: ضرب لا يجوز فيه التغيّر في مخابراته، فإنّا نقطع عليها لعلّنا بأنّه لا يجوز أن يتغيّر المخبر في نفسه، كالأخبار عن صفات الله وعن الكائنات فيما مضى، وكالأخبار بأنّه يثيب المؤمنين، والضرب الآخر هو ما يجوز تغيّره في نفسه لتغيّر المصلحة عند تغيّر شروطه فإنّا نجوّز جميع ذلك كالأخبار عن الحوادث في المستقبل إلّا أن يرد الخبر على وجه يعلم أنّ مخبره لا يتغيّر، فحينئذ نقطع بكونه، ولأجل ذلك قرن الحتم بكثير من المخابرات، فأعلمنا أنّه ممّا لا يتغيّر أصلاً فعند ذلك نقطع به.

١٥٢٠. الخرائج والجرائح^(٥): قَالَ أَبُو هَاشِمٍ سَأَلَ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ أَبَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ

١. الغيبة (للطوسي)، ص ٤٣٠.

٢. الغيبة (للطوسي)، ص ٤٣٠.

٣. الغيبة (للطوسي)، ص ٤٣٠؛ الثاقب في المناقب، ص ٥٦٦، ح ٥٠٧؛ الخرائج والجرائح، ج ٢، ص ٦٨٧، ح ١٠.

٤. الرعد/٣٩.

٥. الخرائج والجرائح، ج ٢، ص ٦٨٦، ح ٨؛ الثاقب في المناقب، ص ٥٦٤، ح ٥٠٢؛ المناقب (لابن شهر آشوب)، ج ٤، ص ٤٣٦، قد تمت الرواية فيه إلى عبارة: «له الخلق والأمر»؛ وقد ورد في الأخيرين مع اختلاف يسير.

قَبِلَ وَمِنْ بَعْدُ^(١) فَقَالَ: لَهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْمُرَ بِهِ، وَلَهُ الْأَمْرُ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْمُرَ بِهِ بِمَا يَشَاءُ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: هَذَا قَوْلُ اللَّهِ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) فَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ: هُوَ كَمَا أَسْرَرْتَ فِي نَفْسِكَ ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ قُلْتُ: أَشْهَدُ أَنَّكَ حُجَّةُ اللَّهِ وَابْنُ حُجَّتِهِ فِي خَلْقِهِ.

كشف الغمة^(٣): من دلائل الحميري، عن الجعفري، مثله.

١٥٢١. تفسير العياشي^(٤): عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾^(٥) قَالَ: النَّاسُ: مَا حَوْلَ، وَمَا يُنْسِيهَا: مِثْلُ الْغَيْبِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ بَعْدَ كَقَوْلِهِ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٦) قَالَ: فَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيَحْوِلُ مَا يَشَاءُ، مِثْلُ قَوْمِ يُوسُفَ إِذَا بَدَأَ لَهُ فَرَحَهُمْ، وَمِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾^(٧) قَالَ: أَدْرَكَهُمْ رَحْمَتُهُ^(٨).

١٥٢٢. تفسير العياشي^(٩): عَنْ عُمَرَ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾^(١٠) فَقَالَ: كَذَبُوا مَا هَكَذَا هِيَ إِذَا كَانَ يُنْسِي^(١١) وَيَنْسَخُهَا وَيَأْتِي^(١٢) بِمِثْلِهَا لَمْ يَنْسَخُهَا. قُلْتُ: هَكَذَا قَالَ اللَّهُ! قَالَ: لَيْسَ هَكَذَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قُلْتُ: فَكَيْفَ قَالَ؟ قَالَ: لَيْسَ فِيهَا أَلْفٌ وَلَا وَاوُ، قَالَ: مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا^(١٣) مِثْلُهَا يَقُولُ: مَا نُمِيتُ مِنْ إِمَامٍ أَوْ نُنْسِ ذِكْرَهُ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهُ مِنْ صُلْبِهِ مِثْلِهِ.

بيان:

لعلَّ الخيرية باعتبار أنَّ الإمام المتأخَّرَ أصلح لأهل عصره من المتقدم، وإن كانا متساويين في الكمال كما يدلُّ عليه قوله: مثله.

١. الروم/٤.

٢. الأعراف/٥٤.

٣. كشف الغمة، ج ٢، ص ٤٢٠.

٤. تفسير العياشي، ج ١، ص ٥٥، ح ٧٧؛ تفسير البرهان، ج ٢، ص ٣٠٢، ح ٥٧٦.

٥. البقرة/١٠٦.

٦. الرعد/٣٩.

٧. الذاريات/٥٤.

٨. في المصدر: «أدركتهم رحمته»، وفي البرهان: «أدركهم برحمته».

٩. تفسير العياشي، ج ١، ص ٥٥، ح ٧٨؛ تفسير البرهان، ج ١، ص ٣٠٢، ح ٥٧٧.

١٠. البقرة/١٠٦.

١١. لم يرد في البرهان: «ينسي».

١٢. في المصدر: «أو يأت».

١٣. نقول: والمراد من الرواية أنَّ «أو» هنا زائدة للتأكيد فإن الحروف الزائدة إنما تكون للتأكيد غالباً.

١٥٢٣. تفسير العياشي^(١): عَنْ حُمْرَانَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾^(٢) قَالَ: الْمُسَمًّى مَا سُمِّيَ لِمَلَكِ الْمَوْتِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَهُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(٣) وَهُوَ الَّذِي سُمِّيَ لِمَلَكِ الْمَوْتِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ^(٤)، وَالْآخَرُ لَهُ فِيهِ الْمَشِيئَةُ، إِنْ شَاءَ قَدَمَهُ وَإِنْ شَاءَ أَخَرَهُ.

١٥٢٤. تفسير العياشي^(٥): عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾^(٦) قَالَ: ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْأَجَلُ الْأَوَّلُ هُوَ مَا نَبَذَهُ إِلَى الْمَلَائِكَةِ وَالرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْأَجَلُ الْمُسَمًّى عِنْدَهُ هُوَ الَّذِي سَتَرَهُ اللَّهُ عَنِ الْخَلَائِقِ.

بيان:

هذا الخبر وخبر ابن مسكان يدلان على أن الأجل الذي فيه البداء هو المسمى، وسائر الأخبار على أنه هو المقضي، ويشكل الجمع بينها إلا أن يقال: صدر بعضها موافقة لبعض العامة، أو أنه اشتبه على بعض الرواة، أو أن أحد التأويلين من بطون الآية.

قال الرازي: اختلف المفسرون في تفسير الأجلين على وجوه: الأول: أن المقضي آجال الماضين، والمسمى عنده آجال الباقين. الثاني: أن الأول أجل الموت، والثاني أجل القيامة، لأن مدة حياتهم في الآخرة لا آخر لها. الثالث: أن الأول ما بين أن يخلق إلى أن يموت، والثاني ما بين الموت والبعث. الرابع: أن الأول النوم، والثاني الموت. الخامس: أن الأول مقدار ما انقضى من عمر كل واحد، والثاني مقدار ما بقي من عمر كل أحد. السادس: - وهو قول حكماء الإسلام - أن لكل إنسان أجلين: أحدهما الآجال الطبيعية، والثاني الآجال الاخترامية، أما الآجال الطبيعية فهي التي لو بقي ذلك المزاج مصوناً عن العوارض الخارجية لانتهدت مدة بقائه إلى الوقت الفلاني، وأما الآجال الاخترامية فهي التي تحصل بالأسباب الخارجية كالغرق والحرق وغيرهما من الأمور المنفصلة^(٧). انتهى ملخص كلامه.

١. تفسير العياشي، ج ١، ص ٣٥٤، ح ٦؛ الفصول المهمة، ج ١، ص ٢٦٧، ح ٢٨٣.

٢. الأنعام/٢.

٣. الأعراف/٣٤.

٤. لم يرد في الفصول: «وهو الذي سمي لملاك الموت في ليلة القدر».

٥. تفسير العياشي، ج ١، ص ٣٥٥، ح ٩؛ تفسير البرهان، ج ٢، ص ٤٠١، ح ٣٤١٢.

٦. الأنعام/٢.

٧. مفاتيح الغيب، ج ١٢، ص ٤٨٠ و ٤٨١.

١٥٢٥. تفسير العياشي^(١): عَنْ الْفَضْلِ بْنِ أَبِي قُرَّةَ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: أَوْحَى اللَّهُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ سَيُولَدُ لَكَ، فَقَالَ لِسَارَةَ، فَقَالَتْ: أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ؟ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ أَنَّهَا سَتَلِدُ، وَيُعَذِّبُ أَوْلَادَهَا أَرْبَعِمِائَةِ سَنَةٍ بِرَدِّهَا الْكَلَامَ عَلَيَّ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَلَمَّا طَالَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ الْعَذَابُ ضَجُّوا وَبَكَوا إِلَى اللَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى وَهَارُونَ يُخَلِّصُهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ فَحَطَّ عَنْهُمْ سَبْعِينَ وَمِائَةَ سَنَةٍ. قَالَ: وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هَكَذَا أَنْتُمْ، لَوْ فَعَلْتُمْ لَفَرَّجَ اللَّهُ عَنَّا، فَأَمَّا إِذَا لَمْ تَكُونُوا فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْتَهِي إِلَى مُنْتَهَاهُ.

١٥٢٦. تفسير العياشي^(٢): عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَرْوَانَ، عَنْ أَيُّوبَ بْنِ نُوحٍ قَالَ: قَالَ لِي أَبُو الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَأَنَا وَاقِفٌ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالْمَدِينَةِ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ - : يَا أَيُّوبُ إِنَّهُ مَا نَبَأَ اللَّهُ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَأْخُذَ عَلَيْهِ ثَلَاثَ خِلَالٍ^(٣): شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَخَلْعَ الْأَنْدَادِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَأَنَّ الْمَشِيئَةَ^(٤) يُقَدِّمُ مَا يَشَاءُ وَيُؤَخِّرُ مَا يَشَاءُ، أَمَا إِنَّهُ إِذَا جَرَى الْإِخْتِلَافُ بَيْنَهُمْ لَمْ يَزَلِ الْإِخْتِلَافُ بَيْنَهُمْ إِلَى أَنْ يَقُومَ صَاحِبُ هَذَا الْأَمْرِ.

١٥٢٧. تفسير العياشي^(٥): عَنْ الْفَضْلِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا فِيهِ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَمَا شَاءَ مِنْهُ قَدَّمَ، وَمَا شَاءَ مِنْهُ أَخَّرَ، وَمَا شَاءَ مِنْهُ مَحَا، وَمَا شَاءَ مِنْهُ أَثَبَتَ، وَمَا شَاءَ مِنْهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ مِنْهُ لَمْ يَكُنْ.

١٥٢٨. تفسير العياشي^(٦): عَنْ الْفَضْلِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: مِنَ الْأُمُورِ أُمُورٌ مَحْتُمَةٌ جَائِيَةٌ لَا مَحَالَهَ^(٧)، وَمِنَ الْأُمُورِ أُمُورٌ مَوْثُوقَةٌ عِنْدَ اللَّهِ يُقَدِّمُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ، وَيَمْحُو مِنْهَا مَا يَشَاءُ، وَيُثَبِّتُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ، لَمْ يُطْلِعْ عَلَى ذَلِكَ أَحَدًا - يَعْنِي الْمَوْثُوقَةَ - فَأَمَّا مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ فَهِيَ كَائِنَةٌ لَا يُكَذِّبُ نَفْسَهُ وَلَا نَبِيَّهُ وَلَا مَلَائِكَتَهُ.

١٥٢٩. تفسير العياشي^(٨): عَنْ أَبِي حَمْزَةَ الثَّمَالِيِّ قَالَ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا أَبَا حَمْزَةَ إِنَّ حَدَّثْنَاكَ بِأَمْرٍ أَنَّهُ يَجِيءُ مِنْ هَاهُنَا فَجَاءَ مِنْ هَاهُنَا فَإِنَّ اللَّهَ يَصْنَعُ مَا يَشَاءُ، وَإِنْ حَدَّثْنَاكَ الْيَوْمَ بِحَدِيثٍ وَحَدَّثْنَاكَ غَدًا بِخِلَافِهِ فَإِنَّ اللَّهَ يَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ.

١٥٣٠. تفسير العياشي^(٩): عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَمِقِ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ ضُرِبَ عَلَى قَرْبِهِ فَقَالَ لِي:

١. تفسير العياشي، ج ٢، ص ١٥٤، ح ٤٩؛ تفسير الصافي، ج ٢، ص ٤٦٠.

٢. تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢١٥، ح ٥٦؛ تفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٦٧، ح ٥٦١٤.

٣. في المصدر والبرهان: «ثلاث خصال».

٤. في المصدر والبرهان: «وَأَنَّ لِلَّهِ الْمَشِيئَةَ...».

٥. تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢١٦، ح ٦٤؛ تفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٦٨، ح ٥٦٢٢.

٦. تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢١٦، ح ٦٥؛ تفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٦٨، ح ٥٦٢٣.

٧. في المصدر والبرهان: «محتومة كائنة لا محالة».

٨. تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢١٧، ح ٦٦؛ نواذر الأخبار (للفيض)، ص ٩٨، ح ٨.

٩. تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢١٧، ح ٦٨؛ تفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٦٩، ح ٥٦٢٦.

يَا عَمْرُو إِنِّي مُفَارِقُكُمْ ثُمَّ قَالَ: سَنَةُ السَّبْعِينَ فِيهَا بَلَاءٌ^(١) - قَالَهَا ثَلَاثًا - فَقُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ الْبَلَاءِ رَحَاءٌ؟ فَلَمْ يُجِبْنِي وَأُغْمِيَ عَلَيْهِ فَبَكَتْ أُمُّ كَلْثُومٍ، فَأَفَاقَ فَقَالَ: يَا أُمَّ كَلْثُومٍ لَا تُؤْذِينِي فَإِنَّكَ لَوْ قَدْ تَرَيْنَ مَا أَرَى لَمْ تَبْكِي، إِنَّ الْمَلَائِكَةَ فِي السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ بَعْضُهُمْ خَلْفَ بَعْضٍ، وَالتَّبَيُّونَ خَلْفَهُمْ، وَهَذَا مُحَمَّدٌ ﷺ آخِذٌ بِيَدِي يَقُولُ: انْطَلِقِي يَا عَلِيٌّ فَمَا أَمَامَكَ خَيْرٌ لَكَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ. فَقُلْتُ: يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي قُلْتَ: إِلَى السَّبْعِينَ بَلَاءٌ، فَهَلْ بَعْدَ السَّبْعِينَ رَحَاءٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَا عَمْرُو إِنَّ بَعْدَ الْبَلَاءِ رَحَاءٌ ﴿وَيَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٢).

١٥٣١. تفسير العياشي^(٣): عَنْ أَبِي الْجَارُودِ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ فَنَاءَ قَوْمٍ أَمَرَ الْفَلَكَ فَاسْرَعَ الدَّوْرُ بِهِمْ، فَكَانَ مَا يُرِيدُ مِنَ النَّقْصَانِ، فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَقَاءَ قَوْمٍ أَمَرَ الْفَلَكَ فَابْطَأَ الدَّوْرُ بِهِمْ، فَكَانَ مَا يُرِيدُ مِنَ الزِّيَادَةِ، فَلَا تُنْكِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ يَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ.

١٥٣٢. تفسير العياشي^(٤): عَنْ ابْنِ سِنَانٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُقَدِّمُ مَا يَشَاءُ، وَيُؤَخِّرُ مَا يَشَاءُ، وَيَمْحُو مَا يَشَاءُ، وَيُثَبِّتُ مَا يَشَاءُ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ، وَقَالَ: فَكُلُّ أَمْرٍ يُرِيدُهُ اللَّهُ فَهُوَ فِي عِلْمِهِ قَبْلَ أَنْ يَصْنَعَهُ، لَيْسَ شَيْءٌ يَبْدُو لَهُ إِلَّا وَقَدْ كَانَ فِي عِلْمِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَبْدُو لَهُ مِنْ جَهْلٍ.

١٥٣٣. تفسير العياشي^(٥): عَنْ عَمَّارِ بْنِ مُوسَى، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام سِئَلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٦) قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ الْكِتَابُ كِتَابُ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ، فَمِنْ ذَلِكَ الَّذِي يَرُدُّ الدُّعَاءَ الْقَضَاءُ، وَذَلِكَ الدُّعَاءُ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ: الَّذِي يَرُدُّ بِهِ الْقَضَاءُ، حَتَّى إِذَا صَارَ إِلَى أُمِّ الْكِتَابِ لَمْ يُعْنِ الدُّعَاءُ فِيهِ شَيْئًا.

١٥٣٤. تفسير العياشي^(٧): عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ عليه السلام قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ الْمَرْءَ لَيَصِلُ رَحِمَهُ وَمَا بَقِيَ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا ثَلَاثُ سِنِينَ، فَيَمُدُّهَا اللَّهُ إِلَى ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، وَإِنَّ الْمَرْءَ لَيَقْطَعُ رَحِمَهُ وَقَدْ بَقِيَ مِنْ عُمُرِهِ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً، فَيَقْصُرُهَا اللَّهُ إِلَى ثَلَاثِ سِنِينَ أَوْ أَذْنَى، قَالَ الْحُسَيْنُ: وَكَانَ جَعْفَرُ عليه السلام يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٨).

١. في البرهان: «سنة إلى السبعين فيها بلاء».

٢. الرعد/٣٩.

٣. تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢١٨، ح ٧٠؛ تفسير البرهان، ج ٣، ص ٢٦٩، ح ٥٦٢٨.

٤. تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢١٨، ح ٧١؛ وقد ورد في نوادر الأخبار (للفيض)، ص ٩٩، ح ٩؛ من: «فكل ما يريد الله» إلى آخر الحديث.

٥. تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٢٠، ح ٧٤؛ الفصول المهمة، ج ١، ص ٢٦٨، ح ٢٨٦.

٦. الرعد/٣٩.

٧. تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٢٠، ح ٧٥؛ جامع الأخبار (للشعيري)، ص ١٠٦.

٨. الرعد/٣٩.

١٥٣٥. الكافي^(١): عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ^(٢)، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأَسَدِيِّ، عَنْ سَالِمِ بْنِ مُكْرَمٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَالَ: مَرَّ يَهُودِيٌّ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْكَ. فَقَالَ أَصْحَابُهُ: إِنَّمَا سَلَّمَ عَلَيْكَ بِالْمَوْتِ فَقَالَ: الْمَوْتُ عَلَيْكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَكَذَلِكَ رَدَدْتُ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ هَذَا الْيَهُودِيَّ يَعْضُهُ أَسْوَدٌ فِي فَمِهِ فَيَقْتُلُهُ. قَالَ: فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ فَاحْتَطَبَ حَطَبًا كَثِيرًا فَاحْتَمَلَهُ ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ انْصَرَفَ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ضَعُهُ فَوَضَعَ الْحَطَبَ فَإِذَا أَسْوَدٌ فِي جَوْفِ الْحَطَبِ عَاضٌ عَلَى عُودٍ، فَقَالَ ﷺ: يَا يَهُودِيٌّ مَا عَمِلْتَ الْيَوْمَ؟ قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا إِلَّا حَطَبِي هَذَا حَمَلْتُهُ فَجِئْتُ بِهِ وَكَانَ مَعِيَ كَعْكَتَانِ^(٣) فَأَكَلْتُ وَاحِدَةً وَتَصَدَّقْتُ بِوَاحِدَةٍ عَلَى مُسْكِينٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بِهَا دَفَعَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ ﷺ: إِنَّ الصَّدَقَةَ تَدْفَعُ مِيتَةَ السَّوَاءِ عَنِ الْإِنْسَانِ.

١٥٣٦. كتاب زيد النرسي^(٤): عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْحَلِيِّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: كَانَتْ الدُّنْيَا قَطُّ مُنْذُ كَانَتْ وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ حُجَّةٌ؟ قَالَ: قَدْ كَانَتْ الْأَرْضُ وَلَيْسَ فِيهَا رَسُولٌ وَلَا نَبِيٌّ وَلَا حُجَّةٌ وَذَلِكَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْفَتْرَةِ وَلَوْ سَأَلْتُ هَؤُلَاءِ عَنْ هَذَا لَقَالُوا: لَنْ تَخْلُو الْأَرْضُ مِنَ الْحُجَّةِ - وَكَذَّبُوا - إِنَّمَا ذَلِكَ شَيْءٌ بَدَأَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ، فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، وَقَدْ كَانَ بَيْنَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُحَمَّدٍ ﷺ فَتْرَةٌ مِنَ الزَّمَانِ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ نَبِيٌّ وَلَا رَسُولٌ وَلَا عَالِمٌ، فَبَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَيْهِ.

بيان:

لعل المراد عدم الحجة والعالم الظاهرين لتظافر الأخبار بعدم خلو الأرض من حجة قط.
١٥٣٧. ومن كتاب المذكور^(٥): عَنْ عُبَيْدِ بْنِ زُرَّارَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: مَا بَدَأَ لِلَّهِ بَدَأٌ أَكْثَرُ مِنْ بَدَأٍ بَدَأَ لَهُ فِي إِسْمَاعِيلَ ابْنِي.

١٥٣٨. كتاب حسين بن عثمان^(٦): عَنْ سُلَيْمَانَ الطَّلْحِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَخْبِرْنِي عَمَّا أَخْبَرْتَ بِهِ الرَّسُولَ عَنْ رَبِّهَا وَأَنْهَتْ ذَلِكَ إِلَى قَوْمِهَا، أَيْ كَوْنُ لِلَّهِ الْبَدَاءُ فِيهِ؟ قَالَ: أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ لَكَ: إِنَّهُ يَفْعَلُ، وَلَكِنْ إِنْ شَاءَ فَعَلَ.

١. الكافي، ج ٤، باب أن الصدقة تدفع البلاء، ص ٥، ح ٣؛ وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٣٨٦، ح ١٢٣٠٢.

٢. في المصدر: «علي بن محمد، عن أحمد بن محمد...».

٣. الكعك: الخبز اليابس، راجع لسان العرب.

٤. الأصول الستة عشر، كتاب زيد النرسي، ص ١٩٧، ح ١٦٩.

٥. الأصول الستة عشر، كتاب زيد النرسي، ص ١٩٦، ح ١٦٦؛ كمال الدين وتام النعمة، ج ١، ص ٦٩؛ التوحيد (للمصدق)، ص ٣٣٦، ح ١٠؛

وقد ورد في الأخيرين هكذا: «ما بدا لله بداء كما بدا له في إسماعيل ابني».

٦. الأصول الستة عشر، كتاب حسين بن عثمان بن شريك، ص ٣٢٢، ح ٥١٤.

* (بسط كلام لرفع شكوك وأوهام) *

اعلم أنّ البداء ممّا ظنّ أنّ الإماميّة قد تفرّدت به، وقد شنع عليهم بذلك كثير من المخالفين، والأخبار في ثبوتها كثيرة مستفيضة من الجانبين كما عرفت، ولنشر إلى بعض ما قيل في تحقيق ذلك، ثمّ إلى ما ظهر لي من الأخبار ممّا هو الحقّ في المقام.

اعلم أنّه لما كان البداء - ممدوداً - في اللغة بمعنى ظهور رأي لم يكن - يقال: بدا الأمر بُدوّاً: ظهر، وبدا له في هذا الأمر بداء أي نشأ له فيه رأي، كما ذكره الجوهرى وغيره - فلذلك يشكل القول بذلك في جناب الحقّ تعالى، لاستلزامه حدوث علمه تعالى بشيء بعد جهله وهذا محال، ولهذا شنع كثير من المخالفين على الإماميّة في ذلك نظراً إلى ظاهر اللفظ من غير تحقيق لمرامهم حتّى أنّ الناصبيّ المتعصب الفخر الرازيّ ذكر في خاتمة كتاب «المحصل» حاكياً عن سليمان بن جرير أنّ الأئمة الرافضة وضعوا القول بالبداء لشيعتهم فإذا قالوا: إنّ سيكون لهم أمر وشوكة ثمّ لا يكون الأمر على ما أخبروه قالوا: بدا لله تعالى فيه^(١). وأعجب منه أنّه أجاب المحقّق الطوسي «رحمه الله» في «نقد المحصل» عن ذلك - لعدم إحاطته كثيراً بالأخبار -: بأنّهم لا يقولون بالبداء، وإنّما القول به ما كان إلّا في رواية رويها عن جعفر الصادق عليه السلام أنّه جعل إسماعيل القائم مقامه بعده، فظهر من إسماعيل ما لم يرتضه منه فجعل القائم مقامه موسى عليه السلام، فسئل عن ذلك فقال عليه السلام: بدا لله في إسماعيل؛ وهذه رواية وعندهم أنّ خبر الواحد لا يوجب علماً ولا عملاً^(٢). انتهى.

فانظر إلى هذا المعاند كيف أعمت العصبية عينه، حيث نسب إلى أئمة الدين الذين لم يختلف مخالف ولا مؤلف في فضلهم وعلمهم وورعهم وكونهم اتقى الناس وأعلامهم شأناً ورفعة الكذب والحيلة والخديعة، ولم يعلم أنّ مثل هذه الألفاظ المجازيّة الموهمة لبعض المعاني الباطلة قد وردت في القرآن الكريم وأخبار الطرفين كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾^(٣) و﴿مَكَرَ اللَّهُ﴾^(٤) و﴿لَيَبْلُوَكُمْ﴾^(٥) و﴿لَنَعْلَمَ﴾^(٦) و﴿يَدُ اللَّهِ﴾^(٧) و﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾^(٨) و﴿جَنِبِ اللَّهِ﴾^(٩) إلى غير ذلك ممّا لا يحصى، وقد ورد في أخبارهم ما يدلّ على البداء

١. المحصل، ص ٦٠٢.

٢. تلخيص المحصل المعروف بنقد المحصل، ص ٤٢١ و ٤٢٢.

٣. البقرة/ ١٥.

٤. آل عمران/ ٥٤.

٥. المائدة/ ٤٨.

٦. البقرة/ ١٤٣.

٧. المائدة/ ٦٤.

٨. البقرة/ ١١٥.

٩. الزمر/ ٥٦.

بالمعنى الذي قالت به الشيعة أكثر ممّا ورد في أخبارنا، كخبر دعاء النبي ﷺ على اليهودي، وإخبار عيسى «على نبينا وآله وعليه السلام»، وأنّ الصدقة والدعاء يغيّران القضاء وغير ذلك.

وقال ابن الأثير في النهاية: في حديث الأقرع والأبرص والأعمى: «بدا لله عزّ وجلّ أن يبتليهم» أي قضى بذلك، وهو معنى البداء ها هنا لأنّ القضاء سابق، والبداء استصواب شيء علم بعد أن لم يعلم، وذلك على الله غير جائز. انتهى.

وقد دلّت الآية على الأجلين وفسّرهما أخيراً بما عرفت، وقد قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١) وقال هذا الناصبي في تفسيرها: في هذه الآية قولان:

الأوّل: أنّها عامّة في كلّ شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ، قالوا: إنّ الله يمحو من الرزق ويزيد فيه، وكذا القول في الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر، وهو مذهب عمرو بن مسعود، ورواه جابر عن رسول الله ﷺ.

والثاني: أنّها خاصّة في بعض الأشياء^(٢) دون البعض، ففيها وجوه:

الأوّل: أنّ المراد من المحو والإثبات نسخ الحكم المتقدّم وإثبات حكم آخر بدلاً عن الأوّل. الثاني: أنّه تعالى يمحو من ديوان الحفظة ما ليس بحسنة ولا سيئة، لأنّهم مأمورون بكتابة كلّ قول وفعل ويثبت غيره. الثالث: أنّه تعالى أراد بالمحو أنّ من أذنب أثبت ذلك الذنب في ديوانه، فإذا تاب عنه محاه عن ديوانه. الرابع: يمحو الله ما يشاء وهو من جاء أجله، ويدع من لم يجئ أجله ويثبته. الخامس: أنّه تعالى يثبت في أوّل السنة فإذا مضت السنة محيت وأثبت كتاب آخر للمستقبل. السادس: يمحو نور القمر ويثبت نور الشمس. السابع: يمحو الدنيا ويثبت الآخرة. الثامن: أنّه في الأرزاق والمحن والمصائب يثبتها في الكتاب ثمّ يزيلها بالدعاء والصدقة، وفيه حثّ على الانقطاع إلى الله تعالى. التاسع: تغيّر أحوال العبد، فما مضى منها فهو المحو، وما حضر وحصل فهو الإثبات. العاشر: يزيل ما يشاء من حكمه لا يطّلع على غيبه أحد فهو المتفرّد بالحكم كما يشاء، وهو المستقلّ بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والإغناء والإفقار بحيث لا يطّلع على تلك الغيوب أحد من خلقه.

واعلم أنّ هذا الباب فيه مجال عظيم فإنّ قال قائل: أليست تزعمون أنّ المقادير سابقة قد جفّ بها القلم، فكيف يستقيم مع هذا المعنى المحو والإثبات؟ قلنا: ذلك المحو والإثبات أيضاً ممّا قد جفّ به القلم، فلا يمحو إلّا ما سبق في علمه وقضائه محوه، ثمّ قال: قالت الرافضة: البداء جائز على الله تعالى، وهو أنّ

١. الرعد/٣٩.

٢. في مفاتيح الغيب: «بعض الأشياء».

يعتقد شيئاً ثم يظهر له أن الأمر بخلاف ما اعتقده، وتمسكوا فيه بقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(١). انتهى كلامه لعنه الله.

ولا أدري من أين أخذ هذا القول الذي افترى عليهم مع أن كتب الإمامية المتقدمين عليه كالصدوق والمفيد والشيخ والمرتضى وغيرهم «رضوان الله عليهم» مشحونة بالتبري عن ذلك، ولا يقولون إلا ببعض ما ذكره سابقاً أو بما هو أصوب منها كما ستعرف، والعجب أنهم في أكثر الموارد ينسبون إلى الرب تعالى ما لا يليق به، والإمامية «قدس الله أسرارهم» يبالغون في تنزيهه تعالى ويُفحمونهم^(٢) بالحجج البالغة، ولمّا لم يظفروا في عقائدهم بما يوجب نقصاً يباهتونه ويفترون عليهم بأمثال تلك الأقاويل الفاسدة، وهل البهتان والافتراء إلا دأب العاجزين؟ ولو فرض أن بعضاً من الجهلة المنتحلين للتشيع قال بذلك فالإمامية يتبرؤون منه ومن قوله كما يتبرؤون من هذا الناصبي وأمثاله وأقاويلهم الفاسدة. فأما ما قيل في توجيه البداء فقد عرفت ما ذكره الصدوق والشيخ «قدس الله روحهما» في ذلك^(٣).

١. الرعد/٣٩.

٢. مفاتيح الغيب، ج ١٩، ص ٥١ و ٥٢.

٣. أفحمت الخصم: إذا أسكتته بالحجة، راجع المصباح المنير.

٤. تقدم توجيه الصدوق وكلام الشيخ. ولهما ولغيرهما من أعلام الشيعة حول مسألة البداء مقالات أخرى لا يخلو ذكرها عن فائدة. قال الصدوق في كتاب العقائد: «باب الاعتقاد في البداء» إن اليهود قالوا: إن الله تبارك وتعالى قد فرغ من الأمر! قلنا: بل هو تعالى كل يوم هو في شأن، لا يشغله شأن عن شأن، يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، ويفعل ما يشاء، وقلنا: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وأنه لا يمحوا إلا ما كان، ولا يثبت إلا ما لم يكن، وهذا ليس ببداء كما قالت اليهود وأتباعهم، فنسبنا في ذلك إلى القول بالبداء، وتبعهم على ذلك من خالفنا من أهل الأهواء المختلفة، وقال الصادق عليه السلام: «ما بعث الله نبيّاً قط حتّى يأخذ عليه الإقرار لله بالعبودية وخلع الأنداد، وأنّ الله يؤخر ما يشاء، ويقدم ما يشاء» ونسخ الشرائع والأحكام بشرية نبينا وأحكامه من ذلك، ونسخ الكتب بالقرآن من ذلك، وقال الصادق عليه السلام: «من زعم أنّ الله عزّ وجلّ بدا في شيء ولم يعلمه أمس فأبرأ منه» وقال: «من زعم أنّ الله بدا له من شيء بداء ندامة فهو عندنا كافر بالله العظيم». وقال الشيخ الطوسي في العدة: البداء حقيقة في اللغة هو الظهور، ولذلك يقال: بد لنا سور المدينة، وبد لنا وجه الرأي، وقال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ (الجاثية/٣٣) ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ (الزمر/٤٨) ويراد بذلك كله «ظهر»، وقد يستعمل ذلك في العلم بالشيء بعد أن لم يكن حاصلًا، وكذلك في الظنّ، فأما إذا أضيف هذه اللفظة إلى الله تعالى فمنه ما يجوز إطلاقه عليه ومنه ما لا يجوز، فأما ما يجوز من ذلك فهو ما أفاد النسخ بعينه. ويكون إطلاق ذلك عليه على ضرب من التوسع، وعلى هذا الوجه يحمل جميع ما ورد عن الصادقين عليه السلام من الأخبار المتضمنة لإضافة البداء إلى الله تعالى، دون ما لا يجوز عليه من حصول العلم بعد أن لم يكن، ويكون وجه إطلاق ذلك فيه تعالى والتشبيه هو أنّه إذا كان ما يدل على النسخ يظهر به للمكلفين ما لم يكن ظاهراً لهم ويحصل لهم العلم به بعد أن لم يكن حاصلًا لهم أطلق على ذلك لفظ البداء.

وذكر سيّدنا الأجل المرتضى «قدس الله روحه» وجهاً آخر في ذلك: وهو أن قال: يمكن حمل ذلك على حقيقته بأن يقال: بدا له تعالى بمعنى

وقد قيل فيه وجوه أخر:

الأول: ما ذكره السيّد الداماد «قدّس الله روحه» في «نبراس الضياء» حيث قال: البداء منزلته في التكوين

→ أنه ظهر له من الأمر ما لم يكن ظاهراً له، وبداء له من النهي ما لم يكن ظاهراً له، لأن قبل وجود الأمر والنهي لا يكونان ظاهرين مدركين، وإنما يعلم أنه يأمر أو ينهى في المستقبل، فأما كونه أمراً أو ناهياً فلا يصح أن يعلمه إلا إذا وجد الأمر والنهي، وجرى ذلك مجرى أحد الوجهين المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ﴾ (محمد/ ٣١) بأن نحمله على أن المراد به حتى نعلم جهادكم موجوداً، لأن قبل وجود الجهاد لا يعلم الجهاد موجوداً، وإنما يعلم كذلك بعد حصوله، فكذلك القول في البداء وهذا وجه حسن جداً.

وقال الإمام العلامة، معلّم الأمة الشيخ المفيد محمد بن النعمان في كتاب تصحيح الاعتقاد في شرح ما قدمنا من كلام الصدوق: قول الإمامية في البداء طريقه السمع دون العقل وقد جاءت الأخبار به عن أئمة الهدى عليهم السلام، والأصل في البداء هو الظهور، قال الله تعالى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَخْتَسِبُونَ﴾ (الزمر/ ٤٧) يعني به ظهر لهم من أفعال الله تعالى بهم ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم، وقال: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ﴾ يعني ظهر لهم جزاء كسبهم وبأن لهم ذلك، وتقول العرب: «قد بدا فلان عمل حسن، وبداء له كلام فصيح» كما يقولون: «بدا من فلان كذا» فيجعلون اللام قائمة مقامه، فالمعنى في قول الإمامية: بدا لله في كذا أي ظهر له فيه، ومعنى ظهر فيه أي ظهر منه، وليس المراد منه تعقب الرأي ووضوح أمر كان قد خفي عنه، وجميع أفعاله تعالى الظاهرة في خلقه بعد أن لم تكن فهي معلومة فيما لم يزل، وإنما يوصف منها بالبداء ما لم يكن في الاحتساب ظهوره، ولا في غالب الظن وقوعه، فأما ما علم كونه وغلب في الظن حصوله فلا يستعمل فيه لفظ البداء، وقول أبي عبد الله عليه السلام: «ما بدا لله في شيء كما بدا له في إسماعيل» فإنما أراد به ما ظهر من الله تعالى فيه من دفاع القتل عنه وقد كان مخوفاً عليه من ذلك، مظنوناً به فلطف له في دفعه عنه، وقد جاء الخبر بذلك عن الصادق عليه السلام فروي عنه أنه قال: «إن القتل قد كتب على إسماعيل مرتين فسألت الله في دفعه عنه، فدفعه» وقد يكون الشيء مكتوباً بشرط فيتغير الحال فيه، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجْلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ (الأنعام/ ٢) فتبين أن الآجال على ضربين: ضرب منها مشروط يصح فيه الزيادة والنقصان، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ (فاطر/ ٩٦) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف/ ٩٦) فبين أن آجالهم كانت مشروطة في الامتداد بالبر والالتقاط بالفسوق، وقال تعالى - فيما خبر به عن نوح عليه السلام في خطابه لقومه -: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ۖ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ (نوح/ ١٠ و ١١) إلى آخر الآيات، فاشترط لهم في مد الأجل وسبوغ النعم الاستغفار، فلما لم يفعلوه قطع آجالهم وبتر أعمارهم واستأصلهم بالعذاب؛ فالبداء من الله تعالى يختص ما كان مشروطاً في التقدير، وليس هو الانتقال من عزيمة إلى عزيمة، ولا من تعقب الرأي - تعالى الله عما يقول المبطلون علواً كبيراً -.

وقد قال بعض أصحابنا: إن لفظ البداء أُطلق في أصل اللغة على تعقب الرأي والانتقال من عزيمة إلى عزيمة، وإنما أُطلق على الله تعالى على وجه الاستعارة كما يطلق عليه الغضب والرضا مجازاً غير حقيقة، وإن هذا القول لم يضر بالمذهب، إذ المجاز من القول يطلق على الله تعالى فيما ورد به السمع، وقد ورد السمع بالبداء على ما بينا، والذي اعتمدناه في معنى البداء أنه الظهور على ما قدمت القول في معناه، فهو خاص فيما يظهر من الفعل الذي كان وقوعه يبعد في النظر دون المعتاد، إذ لو كان في كل واقع من أفعال الله تعالى لكان الله تعالى موصوفاً بالبداء في كل أفعاله وذلك باطل بالاتفاق. انتهى كلامه.

أقول: إنما أطلنا الكلام في نقل الأقوال حتى يتضح جليلة الحال في هذه المرغمة والفريّة الشائنة، وترى الباحث أن أقوال الشيعة التي تعرب عن معتقداتهم قديماً وحديثاً تكذب ما عساه المخالفون إلينا، وأنهم لم يلتزموا بالصدق والأمانة فيما يكتب عن الشيعة بل التزموا بضدها ولم يتركوا قوس إفكهم منزعاً لم يرموا بها الشيعة، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً والله خير بما يعملون. (هامش المطبوع)

منزلة النسخ في التشريع، فما في الأمر التشريعي والأحكام التكليفية نسخ فهو في الأمر التكويني والمكونات الزمانية بدء، فالنسخ كأنه بدء تشريعي، والبدء كأنه نسخ تكويني ولا بدء في القضاء، ولا بالنسبة إلى جناب القدس الحق، والمفارقات المحضة من ملائكته القدسية، وفي متن الدهر الذي هو ظرف مطلق الحصول القار والثبات البات^(١) ووعاء عالم الوجود كله، وإنما البدء في القدر وفي امتداد الزمان الذي هو أفق التقضي^(٢) والتجدد، وظرف التدريج والتعاقب، وبالنسبة إلى الكائنات الزمانية ومن في عالم الزمان والمكان وإقليم المادة والطبيعة. وكما حقيقة النسخ عند التحقيق انتهاء الحكم التشريعي وانقطاع استمراره لا رفعه وارتفاعه من وعاء الواقع، فكذا حقيقة البدء عند الفحص البالغ انبئات استمرار الأمر التكويني، وانتهاء اتصال الإفاضة، ومرجعه إلى تحديد زمان الكون وتخصيص وقت الإفاضة لا أنه ارتفاع المعلول الكائن عن وقت كونه وبطلانه في حد حصوله.^(٣) انتهى.

الثاني: ما ذكره بعض الأفاضل في شرحه على الكافي وتبعه غيره من معاصرينا، وهو أن القوى المنطبعة الفلكية لم تحط بتفاصيل ما سيقع من الأمور دفعة واحدة لعدم تنامي تلك الأمور بل إنما ينتقش فيها الحوادث شيئاً فشيئاً وجملة فجملة مع أسبابها وعللها على نهج مستمر ونظام مستقر، فإن ما يحدث في عالم الكون والفساد فإنما هو من لوازم حركات الأفلاك المسخرة لله تعالى، ونتائج بركاتها، فهي تعلم أنه كلما كان كذا كان كذا، فمهما حصل لها العلم بأسباب حدوث أمر ما في هذا العالم حكمت بوقوعه فيه فينتقش فيها ذلك الحكم، وربما تأخر بعض الأسباب الموجب لوقوع الحادث على خلاف ما يوجهه بقية الأسباب لو لا ذلك السبب^(٤)، ولم يحصل لها العلم بذلك بعد، لعدم اطلاعها على سبب ذلك السبب^(٥)، ثم لما جاء أوانه واطلعت عليه حكمت بخلاف الحكم الأول، فيمحي عنها نقش الحكم السابق ويثبت الحكم الآخر؛ مثلاً لما حصل لها العلم بموت زيد بمرض كذا لأسباب تقتضي ذلك، ولم يحصل لها العلم بتصدقه الذي سيأتي به قبل ذلك الوقت، لعدم اطلاعها على أسباب التصديق بعد ثم علمت به وكان موته بتلك الأسباب مشروطاً بأن لا يتصدق، فتحكم أولاً بالموت وثانياً بالبرء، وإذا كانت الأسباب لوقوع أمر ولا وقوعه متكافئة ولم يحصل لها العلم برجحان أحدهما بعد، لعدم مجيء أوان سبب ذلك الرجحان بعد،

١. البات: الجازم والقاطع الذي لا شبهة فيه، راجع لسان العرب.

٢. انقضاء الشيء وتقضيته: فناء وانصرامه، راجع لسان العرب.

٣. نبراس الضياء، ص ٥٥-٥٧.

٤. في نسخة: ذلك الحادث. (هامش المطبوع)

٥. في نسخة: ذلك الحادث. (هامش المطبوع)

كان لها التردد في وقوع ذلك الأمر ولا وقوعه فينتقش فيها الوقوع تارة واللاوقوع أخرى، فهذا هو السبب في البداء والمحو والإثبات والتردد وأمثال ذلك في أمور العالم فإذا اتّصلت بتلك القوى نفس النبي أو الإمام «عليهما الصلاة والسلام» وقرأ فيها بعض تلك الأمور فله أن يخبر بما رآه بعين قلبه، أو شاهده بنور بصيرته، أو سمع بأذن قلبه؛ وأما نسبة ذلك كله إلى الله تعالى فلأن كل ما يجري في العالم الملكوتي إنما يجري بإرادة الله تعالى، بل فعلهم بعينه فعل الله سبحانه حيث إنهم ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١) إذ لا داعي لهم على الفعل إلا إرادة الله عز وجل لاستهلاك إرادتهم في إرادته تعالى، ومثلهم كمثال الحواس للإنسان كلما هم بأمر محسوس امتثلت الحواس لما هم به، فكل كتابة تكون في هذه الألواح والصحف فهو أيضاً مكتوب لله عز وجل بعد قضائه السابق المكتوب بقلمه الأول، فيصح أن يوصف الله عز وجل نفسه بأمثال ذلك بهذا الاعتبار، وإن كان مثل هذه الأمور يشعر بالتغير والسنوح، وهو سبحانه منزّه عنه، فإن كل ما وجد فهو غير خارج عن عالم ربوبيته^(٢).

الثالث: ما ذكره بعض المحققين حيث قال: تحقيق القول في البداء أن الأمور كلها عامها وخاصها، ومطلقها ومقيدها، وناسخها ومنسوخها، ومفرداتها ومركباتها، وإخباراتها وإنشائها بحيث لا يشذ عنها شيء منتقشة في اللوح، والفائض منه على الملائكة والنفوس العلوية والنفوس السفلية قد يكون الأمر العام المطلق أو المنسوخ حسب ما تقتضيه الحكمة الكاملة من الفيضان في ذلك الوقت، ويتأخر المبين إلى وقت تقتضي الحكمة فيضانه فيه، وهذه النفوس العلوية وما يشبهها يعبر عنها بكتاب المحو والإثبات، والبداء عبارة عن هذا التغير في ذلك الكتاب^(٣).

الرابع: ما ذكره السيد المرتضى «رضوان الله عليه» في جواب مسائل أهل الري وهو وأنه قال: المراد بالبداء النسخ؛ وادّعى أنه ليس بخارج عن معناه اللغوي^{(٤)(٥)}.

أقول:

هذا ما قيل في هذا الباب، وقد قيل فيه وجوه أخر لا طائل في إيرادها، والوجوه التي أوردناها بعضها

١. التحريم/٦.

٢. الوافي، ج ١، ص ٥٠٧-٥٠٩.

٣. الحاشية على أصول الكافي (لمحمد بن حيدر النائيني)، ص ٤٧٥.

٤. ما عدّه «رحمه الله» من الوجوه العديدة ليس إلا وجهاً واحداً وهو الذي ذكر في الرواية، ومحصله: كون البداء نسبة حاصلة للشيء إلى علله الناقصة والقضاء نسبة إلى علته التامة وبيانه التفصيلي يحتاج إلى محل آخر وليته «رحمه الله» اقتصر على إيراد نفس الروايات فإن بيانها شاف كاف. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»).

٥. رسائل الشريف المرتضى، المسألة الخامسة، ص ١١٧.

بمعزل عن معنى البداء وبينهما كما بين الأرض والسماء، وبعضها مبنية على مقدمات لم تثبت في الدين بل ادّعي على خلافها إجماع المسلمين، وكلّها يشتمل على تأويل نصوص كثيرة بلا ضرورة تدعو إليه، وتفصيل القول في كلّ منها يفضي إلى الإطناب، ولنذكر ما ظهر لنا من الآيات والأخبار بحيث تدلّ عليه النصوص الصريحة وتأبى عنه العقول الصحيحة.

فنقول - وبالله التوفيق -: إنهم عليه السلام إنّما بالغوا في البداء رداً على اليهود الذين يقولون: إنّ الله قد فرغ من الأمر وعلى النظام، وبعض المعتزلة الذين يقولون: إنّ الله خلق الموجودات دفعة واحدة على ما هي عليه الآن معادن ونباتاً وحيواناً وإنساناً، ولم يتقدّم خلق آدم عليه السلام على خلق أولاده، والتقدّم إنّما يقع في ظهورها لا في حدوثها ووجودها، وإنّما أخذوا هذه المقالة من أصحاب الكُمون والظهور من الفلاسفة؛ وعلى بعض الفلاسفة القائلين بالعقول والنفوس الفلكيّة، وبأنّ الله تعالى لم يؤثّر حقيقة إلّا في العقل الأوّل فهم يعزلونه تعالى عن ملكه، وينسبون الحوادث إلى هؤلاء، فنفوا عليه السلام ذلك وأثبتوا أنّه تعالى كلّ يوم في شأن من إعدام شيء وإحداث آخر، وإماتة شخص وإحياء آخر إلى غير ذلك، لئلاّ يتركوا العباد التضرّع إلى الله ومسألته وطاعته والتقرّب إليه بما يصلح أمور دنياهم وعقباهم، وليرجوا عند التصدّق على الفقراء وصلة الأرحام وبرّ الوالدين والمعروف والإحسان ما وعدوا عليها من طول العمر وزيادة الرزق وغير ذلك.

ثمّ اعلم أنّ الآيات والأخبار تدلّ على أنّ الله خلق لوحين أثبت فيهما ما يحدث من الكائنات: أحدهما اللوح المحفوظ الذي لا تتغيّر فيه أصلاً وهو مطابق لعلمه تعالى، والآخر لوح المحو والإثبات، فيثبت فيه شيئاً، ثمّ يمحوه لحكم كثيرة لا تخفى على أولي الأبواب؛ مثلاً يكتب فيه أنّ عمر زيد خمسون سنة، ومعناه أنّ مقتضى الحكمة أن يكون عمره كذا إذا لم يفعل ما يقتضي طوله أو قصره، فإذا وصل الرحم مثلاً يمحي الخمسون ويكتب مكانه ستون، وإذا قطعها يكتب مكانه أربعون، وفي اللوح المحفوظ أنّه يصل وعمره ستون، كما أنّ الطبيب الحاذق إذا اطّلع على مزاج شخص يحكم بأنّ عمره بحسب هذا المزاج يكون ستين سنة، فإذا شرب سمّاً ومات أو قتله إنسان فنقص من ذلك، أو استعمل دواءً قوي مزاجه به فزاد عليه لم يخالف قول الطبيب، والتغيير الواقع في هذا اللوح مسمّى بالبداء إمّا لأنّه مشبّه به كما في سائر ما يطلق عليه تعالى من الابتلاء والاستهزاء والسخرية وأمثالها، أو لأنّه يظهر للملائكة أو للخلق إذا أخبروا بالأوّل خلاف ما علموا أوّلاً، وأيّ استبعاد في تحقّق هذين اللوحين وأيّة استحالة في هذا المحو والإثبات حتّى يحتاج إلى التأويل والتكلف وإن لم تظهر الحكمة فيه لنا لعجز عقولنا عن الإحاطة بها مع أنّ الحكم فيه ظاهرة^(١):

١. إن كنّا بحثنا عن اللوح من جهة العقل فالبرهان يثبت في الوجود أمراً نسبته إلى الحوادث الكونية نسبة الكتاب إلى ما فيه من المكتوب،

منها: أن يظهر للملائكة الكاتبين في اللوح والمطلعين عليه لطفه تعالى بعباده وإيصالهم في الدنيا إلى ما يستحقونه فيزدادوا به معرفة.

ومنها: أن يعلم بإخبار الرسل والحجج «عليهم الصلاة والسلام» أن لأعمالهم الحسنة مثل هذه التأثيرات في صلاح أمورهم، ولأعمالهم السيئة تأثيراً في فسادها، فيكون داعياً لهم إلى الخيرات صارفاً لهم عن السيئات، فظهر أن لهذا اللوح تقدماً على اللوح المحفوظ من جهة، لصيرورته سبباً لحصول بعض الأعمال، فبذلك انتقش في اللوح المحفوظ حصوله، فلا يتوهم أنه بعد ما كتب في هذا اللوح حصوله لا فائدة في المحو والإثبات.

ومنها: أنه إذا أخبر الأنبياء والأوصياء أحياناً من كتاب المحو والإثبات ثم أخبروا بخلافه يلزمهم الإذعان به، ويكون ذلك تشديداً للتكليف عليهم، تسبباً لمزيد الأجر لهم كما في سائر ما يتبلى الله عباده منه من التكليف الشاقّة وإيراد الأمور التي تعجز أكثر العقول عن الإحاطة بها، وبها يمتاز المسلمون الذين فازوا بدرجات اليقين عن الضعفاء الذين ليس لهم قدم راسخ في الدين.

ومنها: أن يكون هذه الأخبار تسليية من المؤمنين المنتظرين لفرج أولياء الله وغلبة الحق وأهله، كما روي في قصة نوح «على نبينا وآله وعليه السلام» حين أخبر بهلاك القوم ثم آخر ذلك مراراً، وكما روي في فرج أهل البيت عليهم السلام وغلبتهم لأنهم عليهم السلام لو كانوا أخبروا الشيعة في أول ابتلائهم باستيلاء المخالفين وشدة محنتهم أنه ليس فرجهم إلا بعد ألف سنة ليئسوا ورجعوا عن الدين ولكّتهم أخبروا شيعتهم بتعجيل الفرج، وربما أخبروهم بأنه يمكن أن يحصل الفرج في بعض الأزمنة القريبة ليثبتوا على الدين وينابوا بانتظار الفرج كما مرّ في خبر أمير المؤمنين «صلوات الله عليه».

وَرَوَى الْكَلْبِيُّ^(١)، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى وَأَخْمَدَ بْنِ إِدْرِيسَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ، عَنِ السَّيَّارِيِّ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ يَقْطِينٍ، عَنْ أَخِيهِ الْحُسَيْنِ، عَنْ أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ يَقْطِينٍ قَالَ: قَالَ لِي أَبُو الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الشَّيْعَةُ تُرَبَّى بِالْأَمَانِيِّ مُنْذُ مِائَتِي سَنَةٍ.

قَالَ: وَقَالَ يَقْطِينٌ لِأَبْنِهِ عَلِيٍّ بْنِ يَقْطِينٍ: مَا بَالُنَا قِيلَ لَنَا فَكَانَ وَقِيلَ لَكُمْ فَلَمْ يَكُنْ؟ قَالَ: فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ: إِنَّ الَّذِي قِيلَ لَنَا وَلَكُمْ كَانَ مِنْ مَخْرَجٍ وَاحِدٍ غَيْرَ أَنَّ أَمْرَكُمْ حَضَرَ فَأَعْطَيْتُمْ مَحْضَةً فَكَانَ كَمَا قِيلَ لَكُمْ، وَأَنَّ أَمْرَنَا لَمْ يَحْضُرْ فَعَلَّلْنَا

→ ومن البديهي أن لوحاً جسمانيا لا يسع كتابة ما يستقبل نفسه وأجزاؤه من الحالات والقصص في أزمنة غير متناهية وإن كبر ما كبر فضلاً عن شرح حال كل شيء في الأبد الغير المتناهي؛ وإن كنّا بحثنا من جهة النقل فالأخبار نفسها تؤوّل اللوح والقلم إلى ملكين من ملائكة الله، وعلى أي حال فلا وجه لما ذكره «رحمه الله». (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»).

١. الكافي، ج ١، باب كراهية التوقيت، ص ٣٦٩، ح ٦.

بِالْأَمَانِيِّ، فَلَوْ قِيلَ لَنَا: إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا إِلَى مِائَتَيْ سَنَةٍ أَوْ ثَلَاثِمِائَةٍ سَنَةٍ لَقَسَتِ الْقُلُوبُ، وَلَرَجَعَ عَامَّةُ النَّاسِ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَلَكِنْ قَالُوا عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا أَسْرَعَهُ وَمَا أَقْرَبَهُ تَأْلِيفًا لِقُلُوبِ النَّاسِ وَتَقْرِيْبًا لِلْفَرَجِ.

وقوله: قيل لنا أي في خلافة العباسية - وكان من شيعتهم - أو في دولة آل يقطين. وقيل لكم، أي في أمر القائم وظهور فرج الشيعة.

وَرَوَى^(١) أَيْضاً عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ مُعَلَّى بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْخَزَّازِ، عَنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ بْنِ عَمْرٍو الْخَثْعَمِيِّ، عَنِ الْفَضِيلِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قُلْتُ لِهَذَا الْأَمْرِ وَفَتْ؟ فَقَالَ: كَذَبَ الْوَقَّاتُونَ، كَذَبَ الْوَقَّاتُونَ، كَذَبَ الْوَقَّاتُونَ، إِنَّ مُوسَى «عَلَى نَبِيِّنَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ» لَمَّا خَرَجَ وَافِدًا^(٢) إِلَى رَبِّهِ وَاعَدَهُمْ ثَلَاثِينَ يَوْمًا، فَلَمَّا زَادَ اللَّهُ إِلَى الثَّلَاثِينَ عَشْرًا قَالَ قَوْمُهُ: قَدْ أَخْلَفْنَا مُوسَى، فَصَنَعُوا مَا صَنَعُوا، فَإِذَا حَدَّثْنَاكُمْ الْحَدِيثَ فَجَاءَ عَلَى مَا حَدَّثْنَاكُمْ فَقُولُوا: صَدَقَ اللَّهُ، وَإِذَا حَدَّثْنَاكُمْ الْحَدِيثَ فَجَاءَ عَلَى خِلَافِ مَا حَدَّثْنَاكُمْ بِهِ فَقُولُوا: صَدَقَ اللَّهُ تَوَجَّرُوا مَرَّتَيْنِ.

وسيا تي كثير من الأخبار في ذلك في كتاب النبوة لا سيما في أبواب قصص نوح وموسى وشعيا «على نبينا وآله وعليهم السلام»، وسيا تي أيضا في كتاب الغيبة، فأخبارهم عَلَيْهِ السَّلَامُ بما يظهر خلافه ظاهراً من قبيل المجملات والمتشابهات التي تصدر عنهم بمقتضى الحكم، ثم يصدر عنهم بعد ذلك تفسيرها وبيانها، وقولهم: «يقع الأمر الفلاني في وقت كذا» معناه إن كان كذا، أو إن لم يقع الأمر الفلاني الذي ينافيه، وإن لم يذكروا الشرط كما قالوا في النسخ قبل الفعل، وقد أوضحناه في باب ذبح إسماعيل «على نبينا وآله وعليه السلام»، فمعنى قولهم عَلَيْهِ السَّلَامُ «ما عبد الله بمثل البداء»: أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْبَدَاءِ مِنْ أَكْثَرِ الْعِبَادَاتِ الْقَلْبِيَّةِ لَصُعُوبَتِهِ وَمَعَارَضَتِهِ الْوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِيَّةِ فِيهِ، وَلَكُونِهِ إِقْرَارًا بِأَنَّ لَهُ الْخَلْقَ وَالْأَمْرَ وَهَذَا كَمَالُ التَّوْحِيدِ، أَوِ الْمَعْنَى أَنَّهُ مِنْ أَكْثَرِ الْأَسْبَابِ وَالِدَوَاعِي لِعِبَادَةِ الرَّبِّ تَعَالَى كَمَا عَرَفْتُ. وكذا قولهم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما عَظَّمَ اللَّهُ بِمِثْلِ الْبَدَاءِ» يحتمل الوجهين وإن كان الأول فيه أظهر.

وَأَمَّا قَوْلُ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٣): لَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي الْقَوْلِ بِالْبَدَاءِ مِنَ الْأَجْرِ مَا فَتَرُوا عَنِ الْكَلَامِ فِيهِ. فلما مرَّ أيضاً من أَنَّ أَكْثَرَ مَصَالِحِ الْعِبَادِ مَوْقُوفَةٌ عَلَى الْقَوْلِ بِالْبَدَاءِ إِذْ لَوْ اعْتَقَدُوا أَنَّ كُلَّ مَا قَدَّرَ فِي الْأَزْلِ فَلَا بَدَّ مِنْ وَقُوعِهِ حَتْمًا لَمَا دَعَوْا اللَّهَ فِي شَيْءٍ مِنْ مَطَالِبِهِمْ، وَمَا تَضَرَّعُوا إِلَيْهِ، وَمَا اسْتَكَانُوا لَدَيْهِ، وَلَا خَافُوا مِنْهُ وَلَا رَجَعُوا إِلَيْهِ^(٤)؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا قَدْ أَوْمَأْنَا إِلَيْهِ. وَأَمَّا إِنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَسْبَابِ الْمَقْدَرَةِ فِي الْأَزْلِ أَنْ يَقَعَ الْأَمْرُ بِهَا

١. الكافي، ج ١، باب كراهية التوقيت، ص ٣٦٨، ح ٥.

٢. الوفود: القدوم على العظماء، راجع تاج العروس.

٣. الكافي، ج ١، باب البداء، ص ١٤٨، ح ١٢.

٤. وفي نسخة: ولا رجوا إليه. (هامش المطبوع)

لا بدونها، فمما لا يصل إليه عقول أكثر الخلق فظهر أن هذا اللوح وعلمهم بما يقع فيه من المحو والإثبات أصلح لهم من كل شيء.

بقي هاهنا إشكال آخر وهو أنه يظهر من كثير من الأخبار المتقدمة أن البداء لا يقع فيما يصل علمه إلى الأنبياء والأئمة «عليهم الصلاة والسلام»، ويظهر من كثير منها وقوع البداء فيما وصل إليهم أيضاً، ويمكن الجمع بينها بوجوه:

الأول: أن يكون المراد بالأخبار الأوّلة عدم وقوع البداء فيما وصل إليهم على سبيل التبليغ بأن يؤمروا بتبليغه ليكون إخبارهم بها من قبل أنفسهم لا على وجه التبليغ.

الثاني: أن يكون المراد بالأوّلة الوحي ويكون وما يخبرون به من جهة الإلهام واطّلاع نفوسهم على الصحف السماوية، وهذا قريب من الأوّل.

الثالث: أن تكون الأوّلة محمولة على الغالب فلا ينافي ما وقع على سبيل الندرة.

الرابع: ما أشار إليه الشيخ «قدّس الله روحه» من أن المراد بالأخبار الأوّلة عدم وصول الخبر إليهم وأخبارهم على سبيل الحتم فيكون إخبارهم على قسمين: أحدهما ما أوحى إليهم أنه من الأمور المحتومة فهم يخبرون كذلك ولا بداء فيه. وثانيهما ما يوحى إليهم لا على هذا الوجه فهم يخبرون كذلك، وربما أشعروا أيضاً باحتمال وقوع البداء فيه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام بعد الإخبار بالسبعين: ﴿وَيَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(١) وهذا وجه قريب.

الخامس: أن يكون المراد بالأخبار الأوّلة أنهم لا يخبرون بشيء لا يظهر وجه الحكمة فيه على الخلق لئلا يوجب تكذيبهم، بل لو أخبروا بشيء من ذلك يظهر وجه الصدق فيما أخبروا به، كخبر عيسى «على نبينا وآله وعليه السلام» والنبي صلّى الله عليه وآله حيث ظهرت الحجة دالة على صدق مقالهما. وسيأتي بعض القول في ذلك في باب ليلة القدر^(٢)، وسيأتي بعض أخبار البداء في باب القضاء؛ وإيفاء حق الكلام في هذه المسألة يقتضي رسالة مفردة والله الموفق.

١. الرعد/٣٩.

٢. تنمّة كتاب الصوم، باب ٥٣ ليلة القدر.

﴿باب ٤﴾

«القدرة والإرادة»

الآيات:

- البقرة/٢٥٩: ﴿... قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.
- آل عمران/٢٩ و ١٨٩: ﴿... وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.
- آل عمران/١٦٥: ﴿... إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.
- النساء/٥٦: ﴿... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.
- النساء/١٣٣: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾.
- النساء/١٤٩: ﴿... فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.
- المائدة/١: ﴿... إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.
- التوبة/٥٥: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.
- هود/٤: ﴿... وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.
- إبراهيم/١٩ و ٢٠: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.
- النحل/٤٠: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.
- الكهف/٤٥: ﴿... وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾.
- الحج/١٤: ﴿... إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.
- الحج/١٦: ﴿... وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾.

النور/٤٥: ﴿... يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.
 الأحزاب/١٧: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.
 الأحزاب/٢٥: ﴿... وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.
 الأحزاب/٢٧: ﴿... وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.
 فاطر/١٦ و ١٧: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.
 فاطر/٤٤: ﴿... وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.
 يس/٨١ و ٨٢: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.
 الفتح/٢١: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.
 القمر/٥٠: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾^(١).

١. نقول: بحثان حول الآية الشريفة

الأول:

قد يتوهم البعض من خلال ما طرحته الآية الكريمة من الاعتقاد بالتقدير والحساب الإلهي، أن أعمالنا وممارساتنا التي نقوم بها لا بد أن تكون واقعة ضمن هذا القانون، فهي مخلوقة لله تعالى أيضا وبالتالي فلسنا مسؤولين عنها ولا اختيار لنا فيها. ولكن فإن أعمالنا هي بتقدير ومشئئة البارئ عز وجل، ولن تخرج عن دائرة قدرته وإرادته أبدا، وقد جعلنا الله سبحانه مختارين فيها ضمن ما قدر لنا، ولذلك عيّن لنا مسؤوليات وتكاليف، فلو لم تكن مختارين فإن هذه المسؤوليات والتكاليف ستكون بلا معنى حيث إن فقدان الإرادة يجعلنا مجبورين في أعمالنا، وهذا خلاف التقدير الإلهي. ونلاحظ في مقابل إفراط «الجبريين» تفريط جماعة «القدريين» أو المفوضة الذين يذهبون صراحة إلى القول بأن الله لا يتدخل في أعمالنا وممارساتنا، حيث إنهم يحدون ويحجمون دائرة الهيمنة الإلهية على الإنسان ويعتقدون باستقلاليتهم تماما عن المشئئة الإلهية، وبذلك سلكوا طريق الشرك من هذه الجهة. والحقيقة أن الجمع بين أصلي «التوحيد والعدل» يحتاج إلى دقة وضبط، فلو فسرنا «التوحيد» بأن الله خالق كل شيء حتى أعمالنا بشكل لا نملك أي اختيار فيها فإتينا نكون بذلك قد أنكرنا أصل العدل، لأن مقتضي الذنوب مجبرون على ارتكاب المعاصي، ثم ينتظرهم الجزاء المتمثل بالعقاب، وهذا خلاف العدالة. وإذا فسرنا «العدل» بأن الله تعالى ليس له أي لون من التدخل في أعمالنا فإتينا سنخرج الإرادة الإلهية من الهيمنة علينا، وعندئذ تقع في وادي الشرك. ويمثل مفهوم «الأمر بين الأمرين» الإيمان الخالص والصرط المستقيم وخط الوسط بين الجبريين والقدريين وهو أن نعتقد بأننا مختارين، واختيارنا هذا يكون ضمن الهيمنة الإلهية، حيث تستطيع الإرادة الإلهية في أي لحظة أن تسلب منا هذا الاختيار، وهذا ما يذهب إليه أهل البيت (عليهم السلام).

الثاني:

من الواضح أن لا فاصلة زمنية بين العلة التامة والمعلول، لذلك ورد في اصطلاح الفلاسفة أن تقدم العلة على المعلول أمر رتبي، وبالنسبة إلى

المعارج/ ٣٩-٤١: ﴿... إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ * فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ *﴾.
الجن/ ١٢: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا *﴾.

الروايات:

١٥٣٩. التوحيد، الأمالي للصدوق^(١): ابنُ مَسْرُورٍ، عَنِ ابْنِ عَامِرٍ، عَنِ عَمِّهِ، عَنِ ابْنِ مَحْبُوبٍ، عَنِ مُقَاتِلِ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: لَمَّا صَعِدَ مُوسَى «عَلَى نَبِيئَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ» إِلَى الطُّورِ فَتَاجَى^(٢) رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: يَا رَبِّ، أَرِنِي خَزَائِنَكَ. قَالَ: يَا مُوسَى إِنَّمَا خَزَائِنِي إِذَا أَرَدْتُ شَيْئًا أَنْ أَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.
١٥٤٠. الخصال^(٣): مَاجِيلَوَيْهِ، عَنْ مُحَمَّدٍ الْعَطَّارِ، عَنِ الْأَشْعَرِيِّ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنِ ابْنِ مَعْرُوفٍ، عَنِ ابْنِ مَهْزِيَارٍ، عَنْ حَكَمِ بْنِ بُهْلُولٍ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ هَمَّامٍ، عَنْ ابْنِ أُذَيْنَةَ، عَنْ أَبَانَ بْنِ أَبِي عِيَّاشٍ، عَنْ سُلَيْمِ بْنِ قَيْسٍ الْهَلَالِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ لِأَبِي الطُّفَيْلِ عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ الْكِنَانِيِّ: يَا أَبَا الطُّفَيْلِ الْعِلْمُ عِلْمَانِ: عِلْمٌ لَا يَسَعُ النَّاسَ إِلَّا النَّظَرُ فِيهِ وَهُوَ صِبْغَةُ الْإِسْلَامِ، وَعِلْمٌ يَسَعُ النَّاسَ تَرَكُ النَّظَرُ فِيهِ وَهُوَ قُدْرَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

بيان:

«صبغة الإسلام» هي العلوم التي يوجب العلم بها الدخول في دين الإسلام والتلوّن بلونه من توحيد الواجب تعالى، وتنزيهه عن النقائص وسائر ما يعدّ من أصول المذهب. وأمّا قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وهو قدرة

→ الإرادة الإلهية في أمر الإيجاد والخلق والذي هو أوضح مصداق للعلّة النائمة أو أنّه مصداق وحيد للعلّة النائمة يتّضح هذا المعنى أكثر. ولذلك فإذا فسّروا الآية: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾ بكلمة «كن» فإنّها من ضيق البيان. وإلّا فإنّ كلمة «كن» مركّبة من الكاف والنون، وهي أيضا تحتاج إلى زمان، حتّى «الفاء» في «فيكون» والتي توضّح نوعا من الزمان فإنّها من ضيق البيان كذلك، بل حتّى تشبيهه ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ وعند ما يتحدّث عن الأمر الإلهي في يوم القيامة ويشبهه «لمح بالبصر» يضيف «أو هو أقرب». وعلى كلّ حال فإنّ الحديث هنا عن الزمان حسب التعبيرات اليومية لنا، وكذلك فإنّ القرآن الكريم يخاطبنا بلغتنا، وإلّا فإنّ أوامر الله تعالى فوق الزمان. وضمنا فإنّ التعبير «واحدة» يمكن أن يكون إشارة لهذا المعنى، وهو أنّ أمرا واحدا يكفي ولا يحتاج إلى تكرار، أو أنّها إشارة إلى أنّ أمره تعالى حول الصغير والكبير وحتّى خلق السموات الواسعة أجمع لا يختلف عن خلقه لذرة التراب. وفي الأصل فإنّ الكبير والصغير والسهل والصعب يكون في مقاييسنا الفكرية المحدودة و قدرتنا الضئيلة، أمّا عندما يكون الحديث عن القدرة الإلهية العظيمة فإنّ هذه المفاهيم تتلاشى تماما، ويصبح الكلّ بلون واحد وشكل واحد. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٧، ص ٣٥١)

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٣٣، ح ١٧؛ الأمالي (للصدوق)، ص ٥١١، ح ٤؛ وقد ورد في قصص الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامُ (للراوندي)، ص ١٦٥، ح ١٩٠، مع زيادة.

٢. في التوحيد: «فنادى».

٣. الخصال، ج ١، ص ٤١، ح ٣٠؛ نوادر الأخبار (للفيض)، ص ٢٢، ح ١.

الله» تعالى، فلعل المراد بها التفكير في قضاء الله وقدره كما نهى في أخبار آخر عن التفكير فيها؛ ويحتمل أن يكون المراد التفكير في كيفية القدرة، ويشكل بأن التفكير في كيفية سائر الصفات منهى عنه فلا يختص بالقدرة.

١٥٤١. عيون أخبار الرضا عليه السلام^(١): السنان، عن محمد الأسدي، عن البرمكي، عن الحسين بن الحسن، عن محمد بن عيسى، عن محمد بن عرفة قال: قلت للرضا عليه السلام: خلق الله الأشياء بالقدرة أم بغير القدرة؟ فقال: لا يجوز أن يكون خلق الأشياء بالقدرة لأنك إذا قلت: خلق الأشياء بالقدرة فكأنك قد جعلت القدرة شيئاً غيره، وجعلتها آلة لها بها خلق الأشياء وهذا شرك، وإذا قلت: خلق الأشياء بقدرة^(٢) فإنما تصفه أنه جعلها باقتدار عليها وقدرة^(٣)، ولكن ليس هو بضعيف ولا عاجز ولا محتاج إلى غيره بل هو سبحانه قادر لذاته لا بالقدرة.

التوحيد^(٤): الدقاق، عن أبي القاسم العلوي، عن البرمكي، مثله إلى قوله عليه السلام: إلى غيره. ثم قال الصدوق «رحمه الله»: إذا قلنا: إن الله لم يزل قادراً فإنما نريد بذلك نفي العجز عنه؛ ولا نريد إثبات شيء معه لأنه عز وجل لم يزل واحداً لا شيء معه.

١٥٤٢. التوحيد، عيون أخبار الرضا عليه السلام^(٥): ابن إدريس، عن أبيه، عن محمد بن عبد الجبار، عن صفوان بن يحيى قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: أخبرني عن الإرادة من الله عز وجل ومن الخلق^(٦)، فقال: الإرادة من المخلوق^(٧) الضمير وما يبدو له بعد ذلك من الفعل، وأما من الله عز وجل فأرادته إحداه لا غير ذلك لأنه لا يروى^(٨) ولا يهمل ولا يتفكر، وهذه الصفات منفية عنه، وهي من صفات الخلق فأرادة الله هي الفعل لا غير ذلك، يقول له: كن فيكون بلا لفظ ولا تطلق بلسان ولا همّة ولا تفكر، ولا كيف لذلك كما أنه بلا كيف.

بيان:

اعلم أن إرادة الله تعالى كما ذهب إليه أكثر متكلمي الإمامية هي العلم بالخير والنفع وما هو الأصلح،

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١١٧، ح ٧؛ التوحيد (للصدوق)، ص ١٣٠، ح ١٢؛ الوافي، ج ١، ص ٥٢٤.

٢. وفي نسخة: وإذا قلت: خلق الأشياء بغير قدرة. (هامش المطبوع) وكذا في المصدر.

٣. في العيون المطبوع: فإنما تصفه بالاقتدار عليها ولا قدرة. (هامش المطبوع)

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ١٣٠، ح ١٢.

٥. التوحيد (للصدوق)، ص ١٤٧، ح ١٧؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١١٩، ح ١١؛ الكافي، ج ١، باب الإرادة أنها من صفات الفعل.... ص ١٠٩، ح ٣.

٦. وفي نسخة: ومن المخلوق. (هامش المطبوع) وكذا في التوحيد والعيون والكافي.

٧. في الكافي: «من الخلق».

٨. روى في الأمر: نظر فيه وتفكر، راجع لسان العرب.

ولا يشبتون فيه تعالى وراء العلم شيئاً^(١)، ولعلّ المراد بهذا الخبر وأمثاله من الأخبار الدالة على حدوث الإرادة هو أنّه يكون في الإنسان قبل حدوث الفعل اعتقاد النفع فيه، ثمّ الرويّة، ثمّ الهمة، ثمّ انبعاث الشوق منه، ثمّ تأكّده إلى أن يصير إجماعاً باعثاً على الفعل، وذلك كلّ إرادة فينا متوسطة بين ذاتنا وبين الفعل، وليس فيه تعالى بعد العلم القديم بالمصلحة من الأمور المقارنة للفعل سوى الإحداث والإيجاد، فالإحداث في الوقت الذي تقتضي المصلحة صدور الفعل فيه قائم مقام ما يحدث من الأمور في غيره تعالى، فالمعنى أنّه ذاته تعالى بصفاته الذاتية الكمالية كافية في حدوث الحادث، من غير حاجة إلى حدوث أمر في ذاته عند حدوث الفعل.

قال بعض المحققين في شرح هذا الخبر: الظاهر أنّ المراد بالإرادة مخصّص أحد الطرفين وما به يرجّح القادر أحد مقدوريه على الآخر لا ما يطلق في مقابل الكراهة، كما يقال: يريد الصلاح والطاعة، ويكره الفساد والمعصية. وحاصل الجواب أنّ «الإرادة من الخلق الضمير» أي أمر يدخل خواطرهم وأذهانهم ويوجد في نفوسهم ويحلّ فيها بعد ما لم يكن فيها وكانت هي خالية عنه.

وقوله عليه السلام: «وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل» يحتمل أن يكون جملة معطوفة على الجملة السابقة والظرف خبراً للموصول، ويحتمل أن يكون الموصول معطوفاً على قوله عليه السلام: «الضمير» ويكون قوله عليه السلام: «من الفعل» بياناً للموصول، والمعنى على الأوّل: أنّ الإرادة من الخلق الضمير، والذي يكون لهم بعد ذلك من الفعل لا من إرادتهم، وعلى الثاني: أنّ إرادتهم مجموع ضمير يحصل في قلبهم، وما يكون لهم من الفعل المترتب عليه، فالمقصود هنا من الفعل ما يشمل الشوق إلى المراد وما يتبعه من التحريك إليه والحركة، وأمّا الإرادة من الله فيستحيل أن يكون كذلك، فإنّه يتعالى أن يقبل شيئاً زائداً على ذاته بل إرادته المرجّحة للمراد من مراتب الإحداث لا غير ذلك، إذ ليس في الغائب إلّا ذاته الأحديّة ولا يتصوّر هناك كثرة المعاني ولا له بعد ذاته، وما لذاته بذاته إلّا ما ينسب إلى الفعل، فإرادة الله سبحانه من مراتب الفعل المنسوب إليه لا غير ذلك^(٢).

أقول:

ويحتمل على الاحتمال الأوّل أن يكون المراد بالضمير تصوّر الفعل، وبما يبدو لهم بعد ذلك اعتقاد النفع

١. هذا الذي ذكره تصوير للإرادة الذاتية التي هي عين الذات - إن صح تصويرهم - وأمّا الإرادة التي في الأخبار فهي الإرادة التي هي من الصفات الفعلية كالرزق والخلق وهي نفس الموجود الخارجي من زيد وعمرو والأرض والسماء كما ذكره شيخنا المفيد «رحمه الله». (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»).

٢. الحاشية على أصول الكافي (المحمّد بن حيدر النائي)، ص ٣٦٨.

والشوق وغير ذلك، فقوله عليه السلام: «من الفعل» أي من أسباب الفعل، وقوله عليه السلام: «ولا كيف لذلك» أي لا صفة حقيقية لقوله ذلك وإرادته، كما أنه لا كيف لذاته، ولا يعرف كيفية إرادته على الحقيقة كما لا يعرف كيفية ذاته وصفاته بالكنه.

وقال الشيخ المفيد «قدس الله روحه»: إن الإرادة من الله جلّ اسمه نفس الفعل، ومن الخلق الضمير وأشباهه ممّا لا يجوز إلّا على ذوي الحاجة والنقص، وذلك لأنّ العقول شاهدة بأنّ القصد لا يكون إلّا بقلب، كما لا تكون الشهوة والمحبة إلّا لذي قلب، ولا تصحّ النية والضمير والعزم إلّا على ذي خاطر يضطرّ معها في الفعل الذي يغلب عليه إلى الإرادة له والنية فيه والعزم، ولما كان الله تعالى يجلّ عن الحاجات ويستحيل عليه الوصف بالجوارح والأدوات ولا يجوز عليه الدواعي والخطرات بطل أن يكون محتاجاً في الأفعال إلى القصد والعزمات، وثبت أنّ وصفه بالإرادة مخالف في معناه لوصف العباد، وأنّها نفس فعله الأشياء، وبذلك جاء الخبر عن أئمة الهدى عليهم السلام. ثمّ أورد هذه الرواية.

ثمّ قال: هذا نصّ على اختياري في الإرادة، وفيه نصّ على مذهب لي آخر، وهو أنّ إرادة العبد تكون قبل فعله، وإلى هذا ذهب البلخي، والقول في تقدّم الإرادة للمراد كالقول في تقدّم القدرة للفعل، وقوله عليه السلام: «إنّ الإرادة من الخلق الضمير وما يبدو لهم بعد الفعل» صريح في وجوب تقدّمها للفعل إذ كان الفعل يبدو من العبد بعدها، ولو كان الأمر فيها على مذهب الجبائيّ لكان الفعل بادئاً في حالها ولم يتأخّر بدوّه إلى الحال التي هي بعد حالها^(١).

١٥٤٣. التوحيد^(٢): فِي خَبَرِ الْفَتْحِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام قَالَ: إِنَّ لِلَّهِ إِرَادَتَيْنِ وَمَشِيئَتَيْنِ: إِرَادَةٌ حَتْمٌ^(٣)، وَإِرَادَةٌ عَزْمٌ^(٤)، يَنْهَى وَهُوَ يَشَاءُ، وَيَأْمُرُ وَهُوَ لَا يَشَاءُ؛ أَوْ مَا رَأَيْتَ اللَّهَ نَهَى آدَمَ عليه السلام وَزَوَّجَتْهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنَ الشَّجَرَةِ وَهُوَ شَاءَ ذَلِكَ؟ إِذْ لَوْ لَمْ يَشَأْ لَمْ يَأْكُلْ، وَلَوْ أَكَلَا لَغَلَبَتْ مَشِيئَتُهُمَا مَشِيئَةَ اللَّهِ، وَأَمَرَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام بِذَبْحِ ابْنِهِ^(٥) وَشَاءَ أَنْ لَا يَذْبَحَهُ، وَلَوْ لَمْ يَشَأْ أَنْ لَا يَذْبَحَهُ لَغَلَبَتْ مَشِيئَةُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام مَشِيئَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٦). والخبر بإسناده أوردناه في باب جوامع التوحيد.

١. الإرادة (للمفيد)، ص ١١ و ١٢.

٢. التوحيد (للمصدق)، ص ٦٤، ح ١٨؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب المشيئة والإرادة، ص ١٥١، ح ٣، مع اختلاف يسير؛ وجاء في مختصر البصائر، ص ٣٦٧، ح ٤٣٤، ذيل رواية.

٣. ولا يتخلف المراد عنها كما هو شأن إرادته بالنسبة إلى أفعال نفسه. (هامش المطبوع)

٤. يمكن تخلف المراد عنها كما هو شأن إرادته تعالى بالنسبة إلى أفعال العباد. (هامش المطبوع)

٥. في المصدر: «ابنه إسماعيل»، وفي الكافي: «أن يذبح إسحاق».

٦. **نقول:** المشيئة على قسمين: مشيئة تشريعية وهي جعل الأحكام من الأوامر والنواهي، والمشيئة التكوينية وهي ما يقع في العالم الخارج، وقد يتخالفان فإنه قد يجعل حكماً امتحانياً لعباده، ومع ذلك يمنع عن تحقيقه في الخارج ولا منافاة بينهما.

بيان:

قوله عليه السلام: «وهو شاء ذلك»، قيل: أي علم ذلك^(١)، والأظهر أن يقال: إنه لما لم يصرفهما عن إرادتهما وكلهما إلى اختيارهما للمصالح العظيمة فكأنه شاء ذلك^(٢). وسيأتي القول في ذلك في كتاب العدل إن شاء الله.

١٥٤٤. التوحيد^(٤): القامي، عن مُحَمَّدٍ الْحَمِيرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عِيْسَى، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٥) قَالَ: إِنَّ مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ، وَمَنْ أَنْكَرَ قُدْرَتَهُ فَهُوَ كَافِرٌ^(٦).

١٥٤٥. التوحيد^(٧): ابْنُ الْمُتَوَكَّلِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عِدَّةٍ مِنْ أَصْحَابِنَا أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ الدِّيصَانِيَّ أَتَى هِشَامَ بْنَ الْحَكَمِ فَقَالَ لَهُ: أَلَا لَكَ رَبٌّ؟ فَقَالَ: بَلَى، قَالَ: قَادِرٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَادِرٌ قَاهِرٌ، قَالَ: يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ الدُّنْيَا كُلُّهَا فِي الْبَيْضَةِ لَا تَكْبُرُ الْبَيْضَةُ وَلَا تَصْغُرُ الدُّنْيَا؟ فَقَالَ هِشَامٌ: النَّظَرَةُ^(٨). فَقَالَ لَهُ: قَدْ أَنْظَرْتُكَ حَوْلًا.

١. ويؤيد ذلك ما حكى عن الفقه الرضوي من أنه قال عليه السلام: قد شاء الله من عباده المعصية وما أراد، وشاء الطاعة وأراد منهم لأن المشيئة مشيئة الأمر ومشيئة العلم، وإرادته إرادة الرضا وإرادة الأمر، أمر بالطاعة ورضى بها، وشاء المعصية - يعني علم من عباده المعصية - ولم يأمرهم بها؛ الخبر.

وقال الصدوق - بعد إيراد هذا الخبر -: إن الله تبارك وتعالى نهى آدم عليه السلام وزوجته عن أن يأكلا من الشجرة وقد علم أنهما يأكلان منها، لكنه عز وجل شاء أن لا يحول بينهما وبين الأكل منها بالجبر والقدرة، كما منعهما من الأكل منها بالنهي والزجر، فهذا معنى مشيئته فيهما، ولو شاء عز وجل منعهما من الأكل بالجبر ثم أكل منها لكانت مشيئتهما قد غلبت مشيئته كما قال الإمام عليه السلام، تعالى الله عن العجز علواً كبيراً. انتهى. أقول: ويمكن أن يوجه الخبر أيضاً بأن إسناد مشيئة الأكل وعدم الذبح ونحوهما في أمثال تلك الأخبار إلى الله تعالى إسناد للفعل إلى علته البعيدة، فإن العبد وقدرته لما كانت مخلوقة لله تعالى فهو سبحانه علة بعيدة لأفعاله، فصَحَّ نسبة ذلك إليه بهذا الاعتبار، كما هو الشأن في جميع العلل الطولية، فلذا ترى صحة إسناد البناء إلى البناء لأنه كان مباشراً، وإلى الأمر لأنه أقدره على ذلك ومكّنه منه. وللحديث توجيهات أخرى لا يسعنا ذكرها هنا. (هامش المطبوع)

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٦٥.

٣. الذي في الخبر هو تقسيم الإرادة إلى تشريعية وتكوينية وسبجيّة إن شاء الله؛ وأما ما استظهره المصنّف فهو إنّما يفيد التشبيه دون الحقيقة. (هامش المطبوع نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»).

٤. ورد في التوحيد (للصدوق)، ص ٧٦، صدر ح ٣١، و ص ٦٨، ح ٢٥؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١١٤، ح ١؛ نزهة الناظر (للحلواني)، ص ١٢٧، ح ٣.

٥. في التوحيد، ح ٢٥ بهذا الإسناد: «ابن المتوكل، عن علي بن الحسين السعد آبادي، عن البرقي، عن داود بن القاسم، عن علي بن موسى الرضا عليه السلام»، وفي العيون: «ابن المتوكل، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن الصقر بن دلف، عن ياسر الخادم، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام».

٦. في التوحيد، ص ٦٨: «من وصفه بالمكان فهو كافر»، وفي العيون والنزهة: «من نسب إليه ما نهى عنه فهو كافر».

٧. التوحيد (للصدوق)، ص ١٢٢، ح ١؛ الكافي، ج ١، باب حدوث العالم، ص ٧٩، ح ٤.

٨. النظرة: التأخير والإمهال، راجع شمس العلوم.

ثُمَّ خَرَجَ عَنْهُ فَرَكَبَ هِشَامٌ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَهُ فَقَالَ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ أَتَانِي عَبْدُ اللَّهِ الدِّيصَانِيُّ بِمَسْأَلَةٍ لَيْسَ الْمُعْوَلُ فِيهَا إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَعَلَيْكَ. فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: عَمَّاذَا سَأَلْتُكَ؟ فَقَالَ: قَالَ لِي: كَيْتَ وَكَيْتَ. فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا هِشَامُ كَمْ حَوَاشُكَ؟ قَالَ: خَمْسُ. فَقَالَ: أَيُّهَا الصَّغَرُ؟ فَقَالَ: النَّاطِرُ. قَالَ: وَكَمْ قَدَرُ النَّاطِرِ؟ قَالَ: مِثْلُ الْعَدَسَةِ أَوْ أَقَلُّ مِنْهَا. فَقَالَ: يَا هِشَامُ فَانْظُرْ أَمَامَكَ وَفَوْقَكَ وَأَخْبِرْنِي بِمَا تَرَى. فَقَالَ: أَرَى سَمَاءً وَأَرْضًا وَدُورًا وَقُصُورًا وَتُرَابًا^(١) وَجِبَالًا وَأَنْهَارًا. فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ الَّذِي قَدَرَ أَنْ يَدْخُلَ الَّذِي تَرَاهُ الْعَدَسَةَ أَوْ أَقَلُّ مِنْهَا قَادِرٌ أَنْ يَدْخُلَ الدُّنْيَا كُلَّهَا الْبَيْضَةَ لَا تَصْغُرُ الدُّنْيَا وَلَا تَكْبُرُ الْبَيْضَةُ. فَانْكَبَّ هِشَامٌ عَلَيْهِ وَقَبَّلَ يَدَيْهِ وَرَأْسَهُ وَرَجُلَيْهِ وَقَالَ: حَسْبِي يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ.

فَانْصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَغَدَا عَلَيْهِ الدِّيصَانِيُّ^(٢) فَقَالَ لَهُ: يَا هِشَامُ إِنِّي جِئْتُكَ مُسَلِّمًا، وَلَمْ أَجِئْكَ مُتَقَاضِيًا لِلْجَوَابِ، فَقَالَ لَهُ هِشَامٌ: إِنْ كُنْتَ جِئْتَ مُتَقَاضِيًا فَهَآكَ الْجَوَابُ. فَخَرَجَ عَنْهُ الدِّيصَانِيُّ، فَأَخْبَرَ أَنَّ هِشَامًا دَخَلَ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَعَلَّمَهُ الْجَوَابَ، فَضَمَّى عَبْدُ اللَّهِ الدِّيصَانِيُّ حَتَّى أَتَى بَابَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَهُ، فَلَمَّا قَعَدَ قَالَ لَهُ: يَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ دَلَّنِي عَلَى مَعْبُودِي، فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا اسْمُكَ؟ فَخَرَجَ عَنْهُ وَلَمْ يُخْبِرْهُ بِاسْمِهِ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: كَيْفَ لَمْ تُخْبِرْهُ بِاسْمِكَ؟ قَالَ: لَوْ كُنْتُ قُلْتُ لَهُ: عَبْدُ اللَّهِ كَانَ يَقُولُ: مَنْ هَذَا الَّذِي أَنْتَ لَهُ عَبْدٌ؟ فَقَالُوا لَهُ: عُدْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: يَدُلُّكَ عَلَى مَعْبُودِكَ وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ اسْمِكَ. فَارْجِعْ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: يَا جَعْفَرُ دَلَّنِي عَلَى مَعْبُودِي وَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ اسْمِي. فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اجْلِسْ - وَإِذَا غُلَامٌ لَهُ صَغِيرٌ فِي كَفِّهِ بَيْضَةٌ يَلْعَبُ بِهَا - فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: نَاوِلْنِي يَا غُلَامُ الْبَيْضَةَ، فَتَنَاوَلَهُ إِيَّاهَا فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا دِيسَانِيُّ هَذَا حِصْنٌ مَكُونٌ لَهُ جِلْدٌ غَلِيظٌ، وَتَحْتَ الْجِلْدِ الْغَلِيظِ جِلْدٌ رَقِيقٌ، وَتَحْتَ الْجِلْدِ الرَّقِيقِ ذَهَبَةٌ مَائِعَةٌ وَفِضَّةٌ ذَاتِبَةٌ، فَلَا الذَّهَبُ الْمَائِعَةُ تَخْتَلِطُ بِالْفِضَّةِ الذَّائِبَةِ، وَلَا الْفِضَّةُ الذَّائِبَةُ تَخْتَلِطُ بِالذَّهَبِ الْمَائِعَةِ، هِيَ عَلَى حَالِهَا لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا مُصْلَحٌ فَيُخْبِرَ عَنْ إِصْلَاحِهَا، وَلَا دَخَلَ فِيهَا مُفْسِدٌ فَيُخْبِرَ عَنْ فُسَادِهَا، لَا تَدْرِي لِلذَّكَرِ خُلُقٌ أَمْ لِلْأُنْثَى، يَتَفَلَّقُ^(٣) عَنْ مِثْلِ الْوَانِ الطَّوَاوِيسِ، أَتَرَى لَهَا مُدِيرًا؟ قَالَ: فَاطَّرَقَ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّكَ إِمَامٌ وَحَجَّةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ وَأَنَا تَائِبٌ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ.

بيان:

يمكن أن يوؤل هذا الخبر بوجوه:

الأول: أن يكون غرض السائل أنه هل يجوز أن يحصل كبير في صغير بنحو من أنحاء التحقق،

١. في الكافي: «براري».

٢. وفي نسخة: وغدا إليه الديصاني. (هامش المطبوع)

٣. في المصدر والكافي: «تفلق».

فأجاب عليه السلام: بأن له نحواً من التحقق، وهو دخول الصورة المحسوسة المتقدرة بالمقدار الكبير بنحو الوجود الظلي في الحاسة أي مادتها الموصوفة بالمقدار الصغير، والقرينة على أنه كان مراده المعنى الأعم أنه قنع بالجواب، ولم يراجع فيه باعتراض.

الثاني: أن يكون المعنى أن الذي يقدر على أن يدخل ما تراه العدسة لا يصح أن ينسب إلى العجز، ولا يتوهم فيه أنه غير قادر على شيء أصلاً، وعدم قدرته على ما ذكرت ليس من تلقاء قدرته لقصور فيها، بل إنما ذلك من نقصان ما فرضته، حيث إنه محال ليس له حظ من الشيئية والإمكان، فالغرض من ذكر ذلك بيان كمال قدرته تعالى حتى لا يتوهم فيه عجز.

الثالث: أن المعنى أن ما ذكرت محال وما يتصور من ذلك إنما هو بحسب الوجود الانطباعي وقد فعله فما كان من السؤال له محمل ممكن فهو تعالى قادر عليه، وما أردت من ظاهره فهو محال لا يصلح لتعلق القدرة به. الرابع: و - هو الأظهر - أن السائل لما كان قاصراً عن فهم ما هو الحق معانداً فلو أجاب عليه السلام صريحاً بعدم تعلق القدرة به لتشبت بذلك ولج وعاند، فأجاب عليه السلام بجواب متشابه له وجهان، لعلمه عليه السلام بأنه لا يفرق بين الوجود العيني والانطباعي، ولذا قنع بذلك ورجع، كما أنه عليه السلام لما علم أنه عاجز عن الجواب عن سؤال الاسم أورده عليه إفحاماً له، وإظهاراً لعجزه عن فهم الأمور الظاهرة، ولما كان السائلون في الأخبار الأخر الآتية قابليين لفهم الحق غير معاندين أجابوهم بما هو الحق الصريح.

ثم اعلم أنه على التقادير كلها يدل على أن الإبصار بالانطباع وإن كان فيما سوى الثاني أظهر، وعلى الرابع يحتمل أيضاً أن يكون إقناعياً مبنياً على المقدمة المشهورة لدى الجمهور أن الرؤية بدخول المرئيات في العضو البصري، فلا ينافي كون الإبصار حقيقة بخروج الشعاع.

١٥٤٦. التوحيد^(١): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ الْبَرْقِيِّ^(٢)، عَنْ ابْنِ يَزِيدَ، عَنْ حَمَادِ بْنِ عِيسَى^(٣)، عَنْ رَبِيعِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ الْفَضْلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُوصَفُ، قَالَ: وَقَالَ زُرَّارَةُ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام^(٤): إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُوصَفُ بِعَجْزٍ^(٥)، وَكَيْفَ يُوصَفُ وَقَدْ قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(٦)

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٢٧، ح ٦؛ الكافي، ج ١، باب النهي عن الصفة ...، ص ١٠٣، ح ١١.

٢. لم يرد في المصدر: «عن البرقي».

٣. في الكافي: «محمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان، عن حماد بن عيسى، ...».

٤. لم ترد في الكافي عبارة: «إن الله لا يوصف، قال: وقال زرارة: قال أبو جعفر عليه السلام».

٥. لم يرد في المصدر: «بعجز».

٦. الأنعام/٩١.

فَلَا يُوصَفُ بِقُدْرَةٍ^(١) إِلَّا كَانَ أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ.

١٥٤٧. التوحيد^(٢): الْعَطَّارُ، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ يَزِيدَ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَمَّنْ ذَكَرَهُ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٣) قَالَ: إِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَ يَقْدِرُ رَبُّكَ عَلَى أَنْ يَدْخُلَ الْأَرْضَ بَيْضَةً لَا تَصْغُرُ الْأَرْضُ وَلَا تَكْبُرُ الْبَيْضَةُ؟ فَقَالَ عِيسَى «عَلَى نَبِيِّنَا وَآلِهِ وَعَلَيْهِ السَّلَامُ»: وَيَلِكَ إِنَّ اللَّهَ لَا يُوصَفُ^(٤) بِعَجْزٍ، وَمَنْ أَقْدَرُ مِمَّنْ يُلَطِّفُ الْأَرْضَ وَيُعْظِمُ الْبَيْضَةَ؟

١٥٤٨. التوحيد^(٥): مَا جِيلَوْنِي، عَنْ عَمِّهِ، عَنِ الْبَرْقِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي أَيُّوبَ الْمَدَنِيِّ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ ابْنِ أُذَيْنَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَبِلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هَلْ يَقْدِرُ رَبُّكَ أَنْ يَدْخُلَ الدُّنْيَا فِي بَيْضَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَصْغُرَ^(٦) الدُّنْيَا أَوْ تَكْبُرَ^(٧) الْبَيْضَةُ؟ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُنْسَبُ إِلَى الْعَجْزِ، وَالَّذِي سَأَلْتَنِي لَا يَكُونُ^(٨).

١٥٤٩. التوحيد^(٩): ابْنُ الْبَرْقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ أَحْمَدَ، عَنِ الْبَرْقَنْطِيِّ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الرُّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: هَلْ يَقْدِرُ رَبُّكَ أَنْ يَجْعَلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي بَيْضَةٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَفِي أَصْغَرِ مِنَ الْبَيْضَةِ، وَقَدْ جَعَلَهَا فِي عَيْنِكَ وَهِيَ أَقْلُ مِنَ الْبَيْضَةِ، لِأَنَّكَ إِذَا فَتَحْتَهَا عَايَنْتَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَلَوْ شَاءَ لَأَعْمَاكَ عَنْهَا.

١٥٥٠. التوحيد^(١٠): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ ابْنِ أَبِي الْخَطَّابِ، عَنِ الْبَرْقَنْطِيِّ قَالَ: جَاءَ قَوْمٌ مِنْ وَرَاءِ النَّهْرِ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالُوا لَهُ: جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ ثَلَاثِ مَسَائِلَ، فَإِنْ أَجَبْتَنَا فِيهَا عَلِمْنَا أَنَّكَ عَالِمٌ، فَقَالَ: سَلُوا. فَقَالُوا: أَخْبِرْنَا عَنِ اللَّهِ أَيْنَ كَانَ، وَكَيْفَ كَانَ، وَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ كَانَ اعْتِمَادُهُ؟ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَيْفَ الْكَيْفَ فَهُوَ بِلَا كَيْفٍ، وَأَيْنَ الْأَيْنَ فَهُوَ بِلَا أَيْنَ، وَكَانَ اعْتِمَادُهُ عَلَى قُدْرَتِهِ. فَقَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ عَالِمٌ.

١. في الكافي: «بقدر».

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ١٢٧، ح ٥، و ص ١٣٠، ح ١٠؛ التعليقة على أصول الكافي (المير داماد)، ص ١٨٣.

٣. ورد في التوحيد، ح ١٠ بهذا الإسناد: «جعفر بن محمد بن مسرور، عن الحسين بن محمد بن عامر، عن عمِّه عبد الله بن عامر، عن ابن أبي عمير، عن أبان بن عثمان، عن أبي عبد الله عليه السَّلَامُ قَالَ: جاء رجل إلى أمير المؤمنين عليه السَّلَامُ، فقال...».

٤. وفي نسخة: إِنَّ اللَّهَ لَا يُوصَفُ بِالْعَجْزِ. (هامش المطبوع)

٥. التوحيد (للصدوق)، ص ١٢٩، ح ٩؛ التعليقة على أصول الكافي (المير داماد)، ص ١٨٢.

٦. في المصدر: «يصغّر».

٧. في المصدر: «يكبّر».

٨. لأنَّ القدرة تتعلق بما يصحَّ حصوله ويمكن وجوده، فما هو ممتنع وجوده ومتعذر حصوله لا تتعلق به القدرة، ولا يصحَّ أن يسأل عنه بأنَّ اللَّهَ قادر أن يفعل أم لا؟ فإثبات عموم قدرته وتنزيهه ساحته عن العجز والقصور لا ينافي عدم إمكان حصول تلك الأمور، وبالجمله فالنقص في القابل دون الفاعل. (هامش المطبوع)

٩. التوحيد (للصدوق)، ص ١٣٠، ح ١١؛ الذريعة إلى حافظ الشريعة، ج ١، ص ٢٨٢.

١٠. التوحيد (للصدوق)، ص ١٢٥، ح ٣؛ عيون أخبار الرضا عليه السَّلَامُ، ج ١، ص ١١٧، ح ٦.

قال الصدوق «رحمه الله»: يعني بقوله عليه السلام: «وكان اعتماده على قدرته» أي على ذاته لأن القدرة من صفات ذات الله عز وجل. ثم قال الصدوق «رحمه الله»: من الدليل على أن الله قادر أن العالم لما ثبت أنه صنع لصانع، ولم نجد أن يصنع الشيء من ليس بقادر عليه بدلالة أن المقعد لا يقع منه المشي، والعاجز لا يتأتى له الفعل صح أن الذي صنعه قادر، ولو جاز غير ذلك لجاز منا الطيران مع فقد ما يكون به من الآلة، ولصح لنا الإدراك وإن عدمنا الحاسة فلما كان إجازة هذا خروجاً عن المعقول كان الأول مثله^(١).

١٥٥١. التوحيد^(٢): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنِ الْبَرْقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنِ ابْنِ أُذَيْنَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: الْمَشِيئَةُ مُحَدَّثَةٌ^(٣).

١٥٥٢. التوحيد^(٤): الدَّقَاقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ الْبَرْمَكِيِّ، عَنِ ابْنِ أَبَانَ، عَنْ بَكْرِ بْنِ صَالِحٍ، عَنِ ابْنِ أَشْبَاطٍ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ الْجَهْمِ، عَنْ بَكْرِ بْنِ أَعْيَنَ^(٥) قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: عِلْمُ اللَّهِ وَمَشِيئَتُهُ هُمَا مُخْتَلِفَانِ أَمْ مُتَّفِقَانِ؟ فَقَالَ: الْعِلْمُ لَيْسَ هُوَ الْمَشِيئَةُ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقُولُ: سَأَفْعَلُ كَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَلَا تَقُولُ: سَأَفْعَلُ كَذَا إِنْ عَلِمَ اللَّهُ؟ فَقَوْلُكَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَشَأْ، فَإِذَا شَاءَ كَانَ الَّذِي شَاءَ كَمَا شَاءَ، وَعِلْمُ اللَّهِ سَابِقٌ لِلْمَشِيئَةِ.

بيان:

لعل المراد المشيئة المتأخرة عن العلم الحادثة عند حدوث المعلوم، وقد عرفت أنه في الله تعالى ليس سوى الإيجاد، ومغايرته للعلم ظاهر؛ ويحتمل أن يكون المقصود بيان عدم اتحاد مفهوميهما، إذ ليست الإرادة مطلق العلم إذ العلم يتعلّق بكلّ شيء بل هي العلم بكونه خيراً وصلاًحاً ونافعاً، ولا تتعلّق إلا بما هو كذلك، وفرق آخر بينهما وهو أن علمه تعالى بشيء لا يستدعي حصوله بخلاف علمه به على النحو الخاصّ، فالسابق على هذا يكون محمولاً على السابق الذاتيّ الذي يكون للعامّ على الخاصّ، والأوّل أظهر كما عرفت^(٦).

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٣٤.

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ١٤٧، ح ١٨؛ الكافي، ج ١، باب الإرادة أنّها من صفات الفعل، ص ١١٠، ح ٧؛ مختصر البصائر، ص ٣٦٦، ح ٤٣٢.

٣. **فقول:** ولنا هنا بيان آخر وهو أن المشيئة على قسمين: قد يكون في مقام العلم وقد يكون في مقام الفعل فعلمه بما هو صلاح ومصلحة مشيئة ذاتية وإرادته للإيجاد مشيئة فعلية.

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ١٤٦، ح ١٦؛ الكافي، ج ١، باب الإرادة أنّها من صفات الفعل، ص ١٠٩، ح ٢؛ مختصر البصائر، ص ٣٦٥، ح ٤٣٠.

٥. في المصدر والكافي والمختصر: «بكير بن أعين»، وهو الصحيح.

٦. قد عرفت دلالة الأخبار على أن المشيئة والإرادة نفس المعلوم الخارجيّ وإصراره مع ذلك على كونها العلم بالصلاح والخير عجيب. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»).

١٥٥٣. التوحيد^(١): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ ابْنِ أَبِي بَابٍ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ سَعِيدٍ^(٢)، عَنِ النَّضْرِ، عَنِ ابْنِ حُمَيْدٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: لَمْ يَزَلِ اللَّهُ مُرِيداً؟ فَقَالَ: إِنَّ الْمُرِيدَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِمُرَادٍ مَعَهُ، بَلْ لَمْ يَزَلْ عَالِماً قَادِراً ثُمَّ أَرَادَ.

بيان:

لما عرفت أنَّ الإرادة المقارنة للفعل ليس فيه تعالى إلا نفس الإيجاد فهي حادثة والعلم أزلي، وقال بعض المحققين: أي لا يكون المريد بحال إلا حال كون المراد معه، ولا يكون مفارقاً من المراد، وحاصله: أنَّ ذاته تعالى مناط لعلمه وقدرته أي صحّة الصدور واللاصدور، بأن يريد فيفعل، وأن لا يريد فيتترك، فهو بذاته مناط لصحّة الإرادة وصحّة عدمها، فلا يكون بذاته مناطاً للإرادة وعدمها بل المناط فيها الذات مع حال المراد، فالإرادة أي المخصصة لأحد الطرفين لم يكن من صفات الذات، فهو بذاته عالم قادر مناط لهما، وليس بذاته مريداً مناطاً لهما، بل بمدخلية مغاير متأخر عن الذات، وهذا معنى قوله عليه السَّلَامُ: «لم يزل عالماً قادراً ثمَّ أَرَادَ»^(٣).

١٥٥٤. كتاب زيد النرسي^(٤): قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: كَانَ اللَّهُ وَهُوَ لَا يُرِيدُ بِلَا عَدَدٍ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ مُرِيداً.

١٥٥٥. التوحيد^(٥): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّفَّارِ، عَنِ الْيَقُطِينِيِّ، عَنِ الْجَعْفَرِيِّ قَالَ: قَالَ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْمَشِيئَةُ^(٦) مِنْ صِفَاتِ الْأَفْعَالِ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَزَلْ مُرِيداً شَائِئاً فَلَيْسَ بِمُوحِّدٍ.

١٥٥٦. التوحيد^(٧): مَا جِيلَوِيهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْعَطَّارِ، عَنِ الْأَشْعَرِيِّ، عَنْ مُوسَى بْنِ عُمَرَ، عَنِ ابْنِ سِنَانٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْقَمَّاطِ قَالَ: قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: خَلَقَ اللَّهُ الْمَشِيئَةَ قَبْلَ الْأَشْيَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ بِالْمَشِيئَةِ.

١٥٥٧. التوحيد^(٨): أَبِي، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ ابْنِ أُذَيْنَةَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ الْمَشِيئَةَ بِنَفْسِهَا، ثُمَّ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ بِالْمَشِيئَةِ.

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٤٦، ح ١٥؛ الكافي، ج ١، باب الإرادة أنَّها من صفات الفعل، ص ١٠٩، ح ١؛ مختصر البصائر، ص ٣٦٥، ح ٤٢٩.

٢. في الكافي: «محمد بن العطار، عن ابن عيسى الأشعري، عن الحسين بن سعيد، ...».

٣. الحاشية على أصول الكافي (لمحمد بن حيدر النائيني)، ص ٣٦٧.

٤. الأصول الستة عشر، كتاب زيد النرسي، ص ٢٠٦، ح ١٩٥.

٥. التوحيد (للصدوق)، ص ٣٣٧، ح ٥؛ مختصر البصائر، ص ٣٦٩، ح ٤٣٦؛ نوادر الأخبار (للفيض)، ص ٩٢، ح ٧.

٦. في المصدر والمختصر والنوادر: «المشيئة والإرادة».

٧. التوحيد (للصدوق)، ص ٣٣٩، ح ٨.

٨. التوحيد (للصدوق)، ص ١٤٧، ح ١٩؛ الكافي، ج ١، باب الإرادة أنَّها من صفات الفعل، ص ١١٠، ح ٤؛ مختصر البصائر، ص ٣٦٧، ح ٤٣٣.

بيان:

هذا الخبر الذي هو من غوامض الأخبار يحتمل وجوهاً من التأويل:

الأول: أن لا يكون المراد بالمشيئة الإرادة بل إحدى مراتب التقديرات التي اقتضت الحكمة جعلها من أسباب وجود الشيء، كالتقدير في اللوح مثلاً والإثبات فيه، فإن اللوح وما أثبت فيه لم يحصل بتقدير آخر في لوح سوى ذلك اللوح، وإنما وجد سائر الأشياء بما قدر في ذلك اللوح، وربما يلوح هذا المعنى من بعض الأخبار كما سيأتي في كتاب العدل^(١)، وعلى هذا المعنى يحتمل أن يكون الخلق بمعنى التقدير.

الثاني: أن يكون خلق المشيئة بنفسها كناية عن كونها لازمة لذاته تعالى، غير متوقفة على تعلق إرادة أخرى بها، فيكون نسبة الخلق إليها مجازاً عن تحققها بنفسها منتزعة عن ذاته تعالى بلا توقف على مشيئة أخرى، أو أنه كناية عن أنه اقتضى علمه الكامل وحكمته الشاملة كون جميع الأشياء حاصلة بالعلم بالأصلح، فالمعنى أنه لما اقتضى كمال ذاته أن لا يصدر عنه شيء إلا على الوجه الأصلح والأكمل فلذا لا يصدر شيء عنه تعالى إلا بإرادته المقتضية لذلك.

الثالث: ما ذكره السيد الداماد «قدس الله روحه» أن المراد بالمشيئة هنا مشيئة العباد لأفعالهم الاختيارية لتقدّسه سبحانه عن مشيئة مخلوقة زائدة على ذاته عز وجل، وبالأشياء أفاعيلهم المترتب وجودها على تلك المشيئة، وبذلك تتحلّ شبهة ربّما أوردت ها هنا وهي أنه لو كانت أفعال العباد مسبوقة بإرادتهم لكانت الإرادة مسبوقة بإرادة أخرى وتسلسلت الإرادات لا إلى نهاية^(٢).

الرابع: ما ذكره بعض الأفاضل وهو أن للمشيئة معنيين: أحدهما متعلق بالشائي وهي صفة كمالية قديمة هي نفس ذاته سبحانه وهي كون ذاته سبحانه بحيث يختار ما هو الخير والصالح، والآخر يتعلّق بالمشيئ وهو حادث بحدوث المخلوقات لا يتخلف المخلوقات عنه، وهو إيجاد سبحانه إيّاها بحسب اختياره، وليست صفة زائدة على ذاته عز وجل وعلى المخلوقات، بل هي نسبة بينهما تحدث بحدوث المخلوقات لفرعيتهما المنتسبين معاً.

فنقول: إنه لما كان ها هنا مظنة شبهة هي أنه إن كان الله عز وجل خلق الأشياء بالمشيئة فبم خلق المشيئة؟ أم مشيئة أخرى؟ فيلزم أن تكون قبل كلّ مشيئة مشيئة إلى ما لا نهاية له، فأفاد الإمام عليه السلام أن الأشياء مخلوقة بالمشيئة، وأمّا المشيئة نفسها فلا يحتاج خلقها إلى مشيئة أخرى بل هي مخلوقة بنفسها، لأنها نسبة وإضافة بين الشائي والمشئي تتحصّل بوجوديهما العيني والعلمي، ولذا أضاف خلقها إلى الله سبحانه لأنّ كلا

١. كتاب العدل، باب ١.

٢. التعليقة على أصول الكافي (المير داماد)، ج ٢، ص ٢٤٨.

الوجودين له وفيه ومنه. وفي قوله عليه السلام: «بنفسها» دون أن يقول: بنفسه إشارة لطيفة إلى ذلك، نظير ذلك ما يقال: إن الأشياء إنما توجد بالوجود فأما الوجود نفسه فلا يفتقر إلى وجود آخر بل إنما يوجد بنفسه^(١).

الخامس: ما ذكره بعض المحققين بعد ما حقق أن إرادة الله المتجددة هي نفس أفعاله المتجددة الكائنة الفاسدة، فأرادته لكل حادث بالمعنى الإضافي يرجع إلى إيجاده، وبمعنى المرادية ترجع إلى وجوده قال: نحن إذا فعلنا شيئاً بقدرتنا واختيارنا فأردناه أولاً ثم فعلناه بسبب الإرادة نشأت من أنفسنا بذاتها لا بإرادة أخرى وإلا لتسلسل الأمر لا إلى نهاية فالإرادة مرادة لذاتها، والفعل مراد بالإرادة، وكذا الشهوة في الحيوان مشتهة لذاتها لذيدة بنفسها، وسائر الأشياء مرعوبة بالشهوة، فعلى هذا المثال حال مشيئة الله المخلوقة، وهي نفس وجودات الأشياء، فإن الوجود خير ومؤثر لذاته ومجعول بنفسه، والأشياء بالوجود موجودة والوجود مشيئ بالذات، والأشياء مشيئة بالوجود وكما أن الوجود حقيقة واحدة متفاوتة بالشدة والضعف والكمال والنقص فكذا الخيرية والمشية، وليس الخير المحض الذي لا يشوبه شر إلا الوجود البحت^(٢) الذي لا يمازجه عدم ونقص، وهو ذات البارئ جلّ مجده، فهو المراد الحقيقي^(٣). إلى آخر ما حققه.

والأوفق بأصولنا هو الوجه الأول كما سيظهر لك في كتاب العدل، وسيأتي^(٤) بعض الأخبار المناسبة لهذا الباب هناك. وخبر سليمان المروزي في باب احتجاجات الرضا عليه السلام، وسنورد هناك^(٥) بعض ما تركناه هاهنا إن شاء الله تعالى، وقد مرّ بعضها في باب نفي الجسم والصورة^(٦)، وباب نفي الزمان والمكان.

١. الوافي، ج ١، ص ٤٥٨ و ٤٥٩.

٢. البحت: الخالص الذي لا يخالطه شيء، راجع لسان العرب.

٣. شرح أصول الكافي (صدر المتألهين)، ج ٤، ص ٢٢٦ و ٢٢٧.

٤. كتاب العدل والمعاد، باب ٣، القضاء والقدر.

٥. أبواب الاحتجاجات، باب التاسع عشر، مناظرات علي بن موسى الرضا عليه السلام.

٦. كتاب التوحيد، باب ١٣، نفي الجسم والصورة والتشبيه والاتحاد.

﴿باب ٥﴾

«أنَّه تعالى خالق كلِّ شيءٍ، وليس الموجد والمعدم إلَّا الله تعالى، وأنَّ ما سواه مخلوق»

الآيات:

الرعد / ١٦: ﴿... قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ...﴾^(١).

المؤمنون / ١٤: ﴿... فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٢).

١. **نقول:** يمكن أن يستفاد من الآية أعلاه: أنَّ الخالق هو الربُّ المدبِّر، لأنَّ الخلقة أمر مستمر ودائمي، وليس من خلق الكائنات يتركهم وشأنهم، بل إنَّه تعالى يفيض بالوجود عليهم باستمرار وكلِّ شيء يأخذ وجوده من ذاته المقدَّسة، وعلى هذا فنظام الخلقة وتدير العالم كلُّها بيد الله، ولهذا السبب يكون هو النافع والضارَّ، وغيره لا يملك شيء إلَّا منه، فهل يوجد أحد غير الله أحقَّ بالعبادة؟ استدللَّ جمع من أتباع مدرسة الجبر أنَّ جملة ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ في الآية أعلاه لها من السعة بحيث تشمل حتَّى عمل الأفراد، فالله خالق أعمالنا ونحن غير مختارين. يمكن أن نجيب على هذا القول بطريقتين: أوَّلًا: الجمل الأخرى للآية تنفي هذا الكلام، لأنَّها تلوم المشركين بشكل أكيد فإذا كانت أعمالنا غير اختيارية، فلما ذا هذا التوبيخ؟! وإذا كانت إرادة الله أن نكون مشركين فلما ذا يلومنا؟! ولماذا يسعى بالأدلة العقلية لتغيير مسيرتهم من الضلالة إلى الهداية؟ كلُّ هذا دليل على أنَّ الناس أحرار في انتخاب طريقهم. ثانياً: إنَّ الخالقية بالذات من مختصات الله تعالى. ولا يتنافى مع اختيارنا في الأفعال، لأنَّ ما نمتلكه من القدرة والعقل والشعور، وحتَّى الاختيار والحرية، كلُّها من عند الله، وعلى هذا فمن جهة هو الخالق (بالنسبة لكلِّ شيء وحتَّى أفعالنا) ومن جهة أخرى نحن نفعل باختيارنا، فهما في طول واحد وليس في عرض وأفق واحد، فهو الخالق لكلِّ. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٧، ص ٣٦٩)

٢. **نقول:** عبارة ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ تنبئ هذا التساؤل: هل يوجد خالق غير الله؟! وضع بعض المفسِّرين تبريرات لهذه الآية في وقت لا حاجة فيه لهذه التبريرات، لأنَّ كلمة «الخلق» بمعنى التقدير والصنع، ويصحَّ ذلك بالنسبة إلى غير الله، إلَّا أنَّ هناك اختلافاً جوهرياً بين الخالقين، يخلق الله المواد وصورها، بينما يصنع الإنسان أشياءه ممَّا خلق الله، فهو يغيِّر صورها. كمن يبنّي داراً حيث يستخدم موادَّ أولية كالجصِّ والآجر، أو يصنع من الحديد سيارة أو ماكينة.

ومن جهة أخرى لا حدود لخلق الله في وقت نجد ما صنعه الإنسان محدوداً جداً، وفي كثير من الأحيان يجد الإنسان فيما خلقه هو نقصاً

الزمر ٦٢/ ٦٣: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾^(١).

الروايات:

١٥٥٨. التوحيد^(٢): فِي خَبَرِ الْفَتْحِ بْنِ يَزِيدَ الْجُرْجَانِيِّ: قُلْتُ لِأَبِي الْحَسَنِ عليه السلام هَلْ غَيَّرَ الْخَالِقُ الْجَلِيلِ خَالِقُ؟ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٣) فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ فِي عِبَادِهِ خَالِقِينَ وَغَيْرَ خَالِقِينَ^(٤)، مِنْهُمْ عِيسَى «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ» خَلَقَ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِ اللَّهِ فَفَنَخَ فِيهِ فَصَارَ طَائِرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَالسَّامِرِيُّ خَلَقَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا.^(٥)

→ يجب سدّه فيما بعد، إلا أن الله يبدع الخلق دون أي نقص أو عيب. ثم إن قدرة الإنسان على صنع الأشياء جاءت بإذن من الله، حيث كل شيء في العالم يتحرك بإذن الله، حتى الورق على الشجر، كما نقرأ في سورة المائدة الآية (١١٠) عن المسيح عليه السلام ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص ٤٢٩)

١. **نقول:** قد عمد بعض المؤيدين للمذهب الجبري إلى الاستدلال على بعض الأمور من عبارة ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لتأكيد ما جاء في معتقدهم المنحرفة، إذ قالوا: إن هذه الآية تشمل الأعمال أيضا، ولهذا فإن أعمالنا تعد من خلق الله، رغم أن أعضائنا هي التي تقوم بها. إن خطأ أولئك هو أنهم لم يدركوا هذه الحقيقة جيدا، وهي أن خالقية الله سبحانه وتعالى لا يوجد فيها أي تعارض مع حرية الإرادة والاختيار لدينا، لأن التناسب فيما بينهما طولي وليس عرضي.

فأعمالنا تتعلق بالله، وتتعلق بنا أيضا، لأنه لا يوجد هناك شيء في هذا الكون يمكن أن يكون خارج إطار سلطة البارئ عز وجل، وعلى هذا الأساس فإن أعمالنا هي من خلقه، وإنه أعطانا القدرة والعقل والاختيار والإرادة وحرية العمل، ومن هذه الناحية يمكن أن ننسب أعمالنا إليه، حيث إنه أراد أن نكون أحرارا وننفذ الأعمال باختيارنا، كما أنه وضع كل ما نحتاجه تحت تصرفنا. لكننا في الحال ذاته أحرار مخيرون في تنفيذ الأعمال، وعلى ذلك فإن أفعالنا منسوبة إلينا ونحن المسؤولون عنها. فإذا قال أحد: إن الإنسان يخلق أعماله، ولا دخل لله عز وجل فيها، فإنه قد أشرك لأنه في هذه الحالة يعتقد بوجود خالقين، خالق كبير وخالق صغير، وإذا قال آخر: إن أعمالنا هي من خلق الله ولا دخل لنا فيها، فقد انحرف، لأنه أنكر بقوله هذا حكمه وعدالة الله، إذ لا يصح أن يجبرنا في الأعمال، ثم يحملنا مسئوليتها! لأن في هذه الحالة، يصبح الجزاء والثواب والحساب والمعاد والتكليف والمسؤولية كلها عبثا.

لذا فإن الاعتقاد الإسلامي الصحيح والذي يمكن أن يستشف من مجموع آيات القرآن المجيد، هو أن كل أعمالنا منسوبة لله وإلينا، وهذه النسبة لا يوجد فيها أي تعارض، لأنها طولية وليست عرضية. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٥، ص ١٣٧)

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٦٣، ح ١٨؛ مختصر البصائر، ص ٣٦٧، ح ٤٣٤.

٣. المؤمنون / ١٤.

٤. لم يرد في المصدر والمختصر: «وغير خالقين».

٥. **نقول:** هذه مسألة واضحة فإنه لا شك أن الخالق بالذات هو الله تعالى، وأما الخلق بمعنى الإيجاد لفعل أو لصفة بإذن الله تعالى وبقدرته التي

بيان:

لا ريب في أن خالق الأجسام ليس إلا الله تعالى، وأمّا الأعراض فذهبت الأشاعرة إلى أنها جميعاً مخلوقة لله تعالى، وذهبت الإمامية والمعتزلة إلى أن أفعال العباد وحركاتهم واقعة بقدرتهم واختيارهم فهم خالقون لها^(١). وما في الآيات من أنه تعالى ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢) وأمثالها فإمّا مخصّص بما سوى أفعال العباد، أو مؤوّل بأنّ المعنى أنه خالق كلّ شيء إمّا بلا واسطة أو بواسطة مخلوقاته، وأمّا خلق عيسى عليه السلام فذهب الأكثر إلى أن المراد به التقدير والتصوير، ويظهر من الخبر أن تكون الهيئة العارضة للطير من فعله «على نبيّنا وآله وعليه السلام» ومخلوقاً له، ولا استبعاد فيه، وإن أمكن أن يكون نسبة الخلق إليه لكونه معدّاً لفيضان الهيئة والصورة، كما تقوله الحكماء، وكذا السامريّ؛ وسيأتي تمام القول في ذلك في كتاب العدل إن شاء الله تعالى.

١٥٥٩. التوحيد^(٣): أَبِي، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ إِدْرِيسَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ، عَنْ سَهْلِ بْنِ زِيَادٍ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ يَشْرِ^(٤)، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُمُهورٍ الْعُمِّيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْقُضَيْلِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سِنَانٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: قَالَ فِي الرُّبُوبِيَّةِ الْعُظْمَى وَالْإِلَهِيَّةِ الْكُبْرَى: لَا يَكُونُ الشَّيْءُ لَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَنْقُلُ الشَّيْءُ مِنْ جَوْهَرِيَّتِهِ إِلَى جَوْهَرٍ آخَرَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَنْقُلُ الشَّيْءُ مِنَ الْوُجُودِ إِلَى الْعَدَمِ إِلَّا اللَّهُ.

بيان:

أي في علم الربوبية والإلهية، والكلام فيه كالكلام فيما سبق^(٥)، وذهب بعض الحكماء إلى أن المؤثر في عالم الوجود ليس إلا الرب تعالى، وأمّا غيره فإنما هم شرائط معدّة لإفاضته^(٦)، قال «بهمنيار» في التحصيل: فإن سألت الحقّ فلا يصحّ أن يكون علّة الوجود إلّا ما هو بريء من كلّ وجه عن معنى ما بالقوّة، وهذا هو

→ أعطاهما لخلقه فهو ثابت للعباد، وما ذكرته الأشاعرة إنكار للحسّ والعقل، والاعتقاد بما ذكرنا تأكيد للتوحيد لأنّ الكل بإذنه ويرجع إليه وليس فيه من شائبة الشرك شيء.

١. أمّا المعتزلة فهم لا يبالون بأمثال هذا الشرك الظاهر وأمّا الإمامية فهم تبعه أئمة أهل البيت عليه السلام وحاشاهم عن القول بذلك وإنك لا تجد حتّى في خبر واحد صحيح منهم القول بأنّ مع الله الخالق لكل شيء خالقاً آخر لا لذات ولا لفعل بالمعنى المتنازع فيه وهو الإيجاد، بل الأخبار المتكاثرة يصرح بخلافه. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»).

٢. الأنعام/١٠٢.

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ٦٨، ح ٢٢؛ الفصول المهمة، ج ١، ص ٢٥٦، ح ٢٦٢.

٤. لعل صحيحه أحمد بن بشير بقرينة رواية سهل عنه، فيكون أحمد بن بشير البرقي، ذكر الشيخ في رجاله تضعيفه عن ابن بابويه، وإلا فمجهول. (هامش المطبوع)

٥. تتمّة كتاب التوحيد، باب ٢، العلم وكيفية.

٦. شرح أصول الكافي (الصدر المتألّهين)، ج ٤، ص ٣٢٤.

صفة الأول لا غير^(١). انتهى. وقد بينا ما هو الحق عند الفرقة المحقة سابقاً^(٢).

١٥٦٠. التوحيد^(٣): ابن الوليد، عن الصفار، عن البرقي، عن أبيه، عن النضر، عن يحيى الحلبي، عن ابن مسكان، عن زُرارة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام^(٤) يقول: إن الله تبارك وتعالى خلو^(٥) من خلقه وخلق خلوه منه، وكل ما وقع عليه اسم شيء ما خلا الله عز وجل فهو مخلوق، والله خالق كل شيء؛ تبارك الذي ليس كمثله شيء^(٦).

التوحيد^(٧): حمزة بن محمد العلوي، عن علي، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن علي بن عطية، عن خثيمة، عن أبي جعفر عليه السلام مثله إلى قوله: خالق كل شيء.

١٥٦١. ثواب الأعمال^(٨): أبي، عن سعد، عن البرقي، عن أبيه^(٩)، عن محمد بن سنان، عن أبي العلاء، عن أبي خالد الصيقل، عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن الله عز وجل فوض الأمر إلى ملك من الملائكة، فخلق سبع سماوات وسبع أرضين وأشياء، فلما رأى الأشياء قد انقادت له قال: من مثلي؟ فأرسل الله عز وجل نورية من نار. قلت: وما نورية من نار؟ قال: نار بمثل أنملة. قال: فاستقبلها بجميع ما خلق، فتحللت لذلك^(١٠) حتى وصلت إليه لما أن دخله العجب^(١١).

بيان:

لعل المراد بخلق الملك أن الله تعالى خلقها عند إرادة الملك كما سنحقق في المعجزة.

١. ومراده أن الله سبحانه خالق للذوات، والإنسان خالق للأفعال، وإنما قال بذلك من قال فرارا عن محذور الجبر، فوقع في محذور التفويض وقد أشرنا في الحاشية السابقة أن مذهب أئمة أهل البيت عليه السلام خلاف ذلك؛ وأما محذور الجبر فسيجيء في أخبار الجبر والتفويض أن الذي قام عليه البرهان وأطبق عليه الكتاب والسنة وهو مذهب أئمة أهل البيت عليه السلام خلاف القولين جميعا. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

٢. تتمه كتاب التوحيد، أبواب الصفات، باب ٤، القدرة والإرادة.

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ١٠٥، ح ٣؛ الكافي، ج ١، باب إطلاق القول بأنه شيء، ص ٨٢، ح ٤ وص ٨٣، ح ٥.

٤. ورد في الكافي، ح ٥ بهذا الإسناد: «علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن علي بن عطية، عن خثيمة، عن أبي جعفر عليه السلام».

٥. الخلو بكسر الخاء: الخالي، يقال: فلان خلو من كذا أي حال برىء منه، والمراد أن بينه وبين خلقه مباينة في الذات والصفات، لا يتصف واحد منهما بصفة الآخر، ولا يشركه في ذاته، لأنه تعالى وجود صرف لا ماهية له، ولا يتصف بالعجز والنقص، والخلق ماهيات ظلمانية، مشوبات بالجهل والعجز والنقص. أقول: تقدم الحديث في باب النهي عن التفكر في ذات الله تعالى مع شرح من المصنف. (هامش المطبوع)

٦. لم يرد في الكافي، ح ٥: «تبارك الذي ليس كمثله شيء».

٧. التوحيد (للصدوق)، ص ١٠٥، ح ٤.

٨. ثواب الأعمال، ص ٢٥١؛ المحاسن، ج ١، ص ١٢٣، ح ١٣٩.

٩. لم يرد في المصدر: «عن أبيه».

١٠. وفي نسخة: «فتخللت ذلك». (هامش المطبوع) وفي المحاسن: «فتخبّل لذلك»، ولكن لم يرد في المصدر: «فتحللت لذلك».

١١. نقول: بعض مراتب العجب ينافي العصمة، ولكن بعضها من قبيل ترك الأولى.

﴿باب ٦﴾

«كلامه تعالى ومعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً﴾ الآية»^{(١)(٢)}

١٥٦٢. الأماي للشيخ الطوسي^(٣): الْمُفِيدُ، عَنِ ابْنِ قُوتُوْبِيْهِ، عَنِ الْكُتَيْبِيِّ، عَنِ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الطَّيَالِسِيِّ، عَنِ صَفْوَانَ بْنِ يَحْيَى، عَنِ ابْنِ مُسْكَانَ، عَنِ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: لَمْ يَزَلِ اللَّهُ جَلَّ اسْمُهُ عَالِمًا بِذَاتِهِ وَلَا مَعْلُومًا، وَلَمْ يَزَلْ قَادِرًا بِذَاتِهِ وَلَا مَقْدُورًا. قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ فَلَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا؟ قَالَ: الْكَلَامُ مُحْدَثٌ، كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَيْسَ بِمُتَكَلِّمٍ ثُمَّ أَحْدَثَ الْكَلَامَ.

بيان:

اعلم أنه لا خلاف بين أهل الملل في كونه تعالى متكلماً لكن اختلفوا في تحقيق كلامه وحدوثه وقدمه؛ فالإمامية قالوا: بحدوث كلامه تعالى، وأنه مؤلف من أصوات وحروف، وهو قائم بغيره، ومعنى كونه تعالى

١. الكهف/١٠٩.

٢. **فقول:** الكلمة لفظ يدل على المعنى، وبما أن كل موجود من موجودات هذا العالم هو دليل على علم وقدرة الخالق، لذا فإنه يطلق في بعض الأحيان على كل موجود اسم «كلمة الله» ويختص هذا التعبير أكثر بالموجودات المهمة العظيمة.

فبالنسبة للمسيح عيسى عليه السلام يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ وفي الآية التي نبينها فإن «كلمة» قد استخدمت بهذا المعنى، أي إشارة إلى موجودات عالم الوجود التي تدل كل واحدة فيه على الصفات المختلفة لله تبارك وتعالى. وفي الحقيقة إن القرآن يلفت أنظارنا في هذه الآية إلى هذه الحقيقة وهي: لا تظنوا أن عالم الوجود محدود بما تشاهدونه أو تعلمونه أو تحسونه، بل هو على قدر من السعة والعظمة بحيث لو أن البحار تتحول إلى حبر، وتكتب صفاته وخصائصه، فإنها -أي البحار- ستجف قبل أن تحصى موجودات عالم الوجود. ومن الضروري الالتفات هنا إلى أن كلمة البحر يراد بها الجنس وكذلك كلمة «مثل» في قوله: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ فإنه يراد بها الجنس أيضاً، وهذه إشارة إلى أننا مهما أضفنا من أمثال هذه البحار إليها فإن الكلمات الإلهية لا تنتهي ولا تنفذ.

(الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٩، ص ٣٨٨)

٣. الأماي (للطوسي)، ص ١٦٨، ح ٢٨٢.

متكلماً عندهم أنه موجد تلك الحروف والأصوات في الجسم، كاللوح المحفوظ أو جبرئيل عليه السلام أو النبي صلى الله عليه وآله أو غيرهم كشجرة موسى عليه السلام، وبه قالت المعتزلة أيضاً، والحنابلة ذهبوا إلى أن كلامه تعالى حروف وأصوات وهي قديمة، بل قال بعضهم: بقدّم الجلد والغلاف أيضاً! والكرامية ذهبوا إلى أن كلامه تعالى صفة له مؤلفة من الحروف والأصوات الحادثة القائمة بذاته تعالى. والأشاعرة أثبتوا الكلام النفسي وقالوا: كلامه معنى واحد بسيط قائم بذاته تعالى، قديم، وقد قامت البراهين على إبطال ما سوى المذهب الأول، وتشهد البديهة ببطان بعضها، وقد دلت الأخبار الكثيرة على بطلان كل منها، وقد تقدّم بعضها^(١) وسيأتي بعضها في كتاب القرآن^(٢)، نعم القدرة على إيجاد الكلام قديمة غير زائدة على الذات، وكذا العلم بمدلولاتها، وظاهر أن الكلام غيرهما.

١٥٦٣. تفسير القمي^(٣): جَعْفَرُ بْنُ أَحْمَدَ^(٤)، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مُوسَى^(٥)، عَنْ ابْنِ الْبُطَائِنِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: فِي قَوْلِهِ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾^(٦) قَالَ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا قَالَ: لَا يُرِيدُونَ بِهَا بَدَلًا. قُلْتُ: قَوْلُهُ: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾^(٧) قَالَ: قَدْ أُخْبِرْتُ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ آخِرٌ وَلَا غَايَةٌ وَلَا يَنْقُطُ أَبَدًا. قُلْتُ: قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾^(٨) قَالَ: هَذِهِ نَزَلَتْ فِي أَبِي ذَرٍّ وَالْمُقَدَّادِ وَسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ وَعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا مَأْوًى وَمَنْزِلًا. قَالَ: ثُمَّ قَالَ: قُلْ يَا مُحَمَّدٌ: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٩) فَهَذَا الشُّرْكُ شُرْكُ رِبَاءٍ.

١٥٦٤. الإحتجاج^(١٠): سَأَلَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ أَبَا الْحَسَنِ عليه السلام عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَاتُ

١. تتمّة كتاب التوحيد، أبواب الصفات، باب ١، نفي التركيب واختلاف المعاني...

٢. كتاب القرآن، أبواب فضله وأحكامه وإعجازه... باب القرآن مخلوق.

٣. تفسير القمي، ج ٢، ص ٤٦؛ البرهان، ج ٣، ص ٦٨٨، ح ٦٨١٦.

٤. في المصدر: «محمد بن أحمد».

٥. في المصدر والبرهان: «عبد الله بن موسى».

٦. الكهف/١٠٨.

٧. الكهف/١٠٩.

٨. الكهف/١٠٧.

٩. الكهف/١١٠.

١٠. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٥٤؛ وقد ورد في الإختصاص، ص ٩٤، ضمن رواية؛ المناقب (لابن شهر آشوب)، ج ٤، ص ٤٠٠.

اللَّهُ ﴿١﴾ مَا هِيَ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هِيَ عَيْنُ الْكِبَرِيَّةِ (٢)، وَعَيْنُ الْيَمَنِ، وَعَيْنُ الْبَرَهُوتِ (٣)، وَعَيْنُ الطَّبَرِيَّةِ (٤)، وَحَمَّةُ (٥) (٦) ماسيدان (٧)، وَحَمَّةُ إِفْرِيقِيَّةَ، وَعَيْنُ بَاجُورَانَ (٨)، وَنَحْنُ الْكَلِمَاتُ الَّتِي لَا تُدْرِكُ فَضَائِلُهَا (٩)، وَلَا تُسْتَقْصَى.

١٥٦٥. الإحتجاج (١٠): عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَحْيَى قَالَ: سَأَلَ أَبُو قُرَّةَ الْمُحَدِّثُ عَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: أَخْبِرْنِي جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ لِمُوسَى، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيِّ لِسَانٍ كَلَّمَهُ، بِالسُّرْيَانِيَّةِ أَمْ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، فَأَخَذَ أَبُو قُرَّةَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ: إِنَّمَا أَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا اللَّسَانِ، فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: سُبْحَانَ اللَّهِ مِمَّا تَقُولُ! وَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُشْبِهَ خَلْقَهُ أَوْ يَتَكَلَّمَ بِمِثْلِ مَا هُمْ مُتَكَلِّمُونَ، وَلَكِنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَلَا كَمِثْلِهِ قَائِلٌ فَاعِلٌ. قَالَ: كَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: كَلَامُ الْخَالِقِ لِمَخْلُوقٍ لَيْسَ كَكَلَامِ الْمَخْلُوقِ لِمَخْلُوقٍ، وَلَا يَلْفُظُ بِشَقٍّ فَمٍ وَلِسَانٍ، وَلَكِنْ يَقُولُ لَهُ: «كُنْ» فَكَانَ بِمَشِيئَتِهِ مَا خَاطَبَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ فِي نَفْسٍ؛ الْخَبَرُ.

أقول:

قد أثبتنا بعض أخبار هذا الباب في باب صفات الذات والأفعال، وباب نفي الجسم والصورة، وباب نفي الزمان والمكان.

١. لقمان/٢٧.

٢. الكبريت: عين تجري، فإذا جمد ماءها صار كبريتاً أبيض وأصفر وأكدر. والكبريت الأحمر يقال: هو من الجوهر ومعدنه خلف بلاد التبت، وادي النمل الذي مر به سليمان «على نبيتنا وآله وعليه السلام»، راجع لسان العرب.

٣. برهوت: واد أو بشر بحضر موت، راجع القاموس المحيط.

٤. طبرية: مدينة بالشام، راجع المصباح المنير.

٥. الحمة: العين الحارة يستشفى بها الأعلاء والمرضى، راجع الصحاح.

٦. في المصدر: «جمّة».

٧. في الاختصاص: «ماسيدان».

٨. في نسخة: «باحروان»، وفي أخرى: «باحوران». (هامش المطبوع) وفي المصدر: «ماجروان».

٩. في المصدر والاختصاص والمناقب: «لا تدرك فضائلنا».

١٠. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٤٠٥.

* أبواب أسمائه تعالى وحقائقها وصفاتها ومعانيها *

﴿باب ١﴾

«المغايرة بين الاسم والمعنى، وأنَّ المعبود هو المعنى، والاسم حادث»

١٥٦٦. الإحتجاج^(١): عَنْ أَبِي هَاشِمٍ الْجَعْفَرِيِّ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي جَعْفَرٍ الثَّانِي عليه السلام فَسَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَلَهُ أَسْمَاءٍ وَصِفَاتٍ فِي كِتَابِهِ؟ وَهَلْ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ هِيَ هُوَ؟ فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: إِنَّ لِهَذَا الْكَلَامِ وَجْهَيْنِ: إِنْ كُنْتَ تَقُولُ هِيَ هُوَ أَنَّهُ ذُو عَدَدٍ وَكَثْرَةٍ فَتَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَإِنْ كُنْتَ تَقُولُ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ لَمْ تَزَلْ فَإِنَّمَا لَمْ تَزَلْ مُحْتَمِلٌ مَعْنِيَيْنِ^(٢) فَإِنْ قُلْتَ: لَمْ تَزَلْ عِنْدَهُ فِي عِلْمِهِ وَهُوَ يَسْتَحِقُّهَا^(٣) فَنَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ تَقُولُ: لَمْ يَزَلْ صَوْرَهَا وَهَجَاؤُهَا^(٤) وَتَقْطِيعُ حُرُوفِهَا فَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ شَيْءٌ غَيْرُهُ، بَلْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ وَلَا خَلْقٌ ثُمَّ خَلَقَهَا وَسِبْطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ يَتَصَرَّعُونَ بِهَا إِلَيْهِ وَيَعْبُدُونَهُ وَهِيَ ذِكْرُهُ، وَكَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَلَا ذِكْرَ، وَالْمَذْكُورُ بِالذِّكْرِ هُوَ اللَّهُ الْقَدِيمُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ، وَالْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ مَخْلُوقَاتُ^(٥) وَالْمَعْنَى بِهَا هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا يَلِيقُ بِهِ الْإِخْتِلَافُ وَلَا الْإِيتِلَافُ، وَإِنَّمَا يَخْتَلِفُ وَيَأْتِلِفُ الْمُتَجَرِّي، وَلَا يُقَالُ لَهُ: قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ^(٦)، وَلَكِنَّهُ الْقَدِيمُ فِي ذَاتِهِ لِأَنَّ مَا سِوَى الْوَاحِدِ مُتَجَرِّي، وَاللَّهُ وَاحِدٌ لَا مُتَجَرِّي وَلَا مُتَوَهَّمٌ بِالْقَلَّةِ وَالْكَثَرَةِ، وَكُلُّ مُتَجَرِّي أَوْ مُتَوَهَّمٍ بِالْقَلَّةِ وَالْكَثَرَةِ فَهُوَ مَخْلُوقٌ ذَالٌّ عَلَى خَالِقٍ لَهُ، فَقَوْلُكَ: إِنَّ اللَّهَ قَدِيرٌ خَبِرْتَ أَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فَتَفَيْتَ بِالْكَلِمَةِ الْعَجْزَ وَجَعَلْتَ الْعَجْزَ سِوَاهُ، وَكَذَلِكَ قَوْلُكَ: عَالِمٌ إِنَّمَا نَفَيْتَ بِالْكَلِمَةِ الْجَهْلَ وَجَعَلْتَ الْجَهْلَ سِوَاهُ؛ فَإِذَا أَفْنَى اللَّهُ الْأَشْيَاءَ أَفْنَى الصُّورَةَ وَالْهَجَاءَ وَالتَّقْطِيعَ فَلَا يَزَالُ مَنْ لَمْ يَزَلْ عَالِمًا.

١. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٤٤٢؛ الكافي، ج ١، باب معاني الأسماء واشتقاقها، ص ١١٦، ح ٧.

٢. في نسخة: فإن لم تزل محتمل معنيين. (هامش المطبوع).

٣. في الكافي والتوحيد: «وهو مستحقها».

٤. في الكافي والتوحيد: «لم يزل تصويرها وهجاؤها».

٥. في التوحيد: «والصفات مخلوقات المعاني»، وفي الكافي: «والأسماء والصفات مخلوقات والمعاني».

٦. في التوحيد والكافي: «فلا يقال: الله مؤلف، ولا الله كثير، ولا قليل».

فَقَالَ الرَّجُلُ: فَكَيْفَ سَمَّيْنَا رَبَّنَا سَمِيعًا؟ فَقَالَ: لِأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا يُدْرِكُ بِالْأَسْمَاعِ، وَلَمْ نَصِفْهُ بِالسَّمْعِ الْمُعْقُولِ فِي الرَّأْسِ. وَكَذَلِكَ سَمَّيْنَاهُ بَصِيرًا لِأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا يُدْرِكُ بِالْأَبْصَارِ مِنْ لَوْنٍ أَوْ شَخْصٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَلَمْ نَصِفْهُ بِبَصَرِ طَرْفَةٍ^(١) الْعَيْنِ^(٢). وَكَذَلِكَ سَمَّيْنَاهُ لَطِيفًا لِعِلْمِهِ بِالشَّيْءِ اللَّطِيفِ مِثْلَ الْبُعْضَةِ وَمَا هُوَ أَحْفَى مِنْ ذَلِكَ، وَمَوْضِعِ الْمَشْيِ مِنْهَا^(٣) وَالْعَقْلِ وَالشَّهْوَةِ لِلْسَّفَادِ^(٤) وَالْحَدَبِ عَلَى أَوْلَادِهَا^(٥)^(٦) وَإِقَامَةِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ^(٧) وَنَقْلِهَا الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ إِلَى أَوْلَادِهَا فِي الْجِبَالِ وَالْمَفَاوِزِ^(٨) وَالْأَوْدِيَةِ^(٩) وَالْفَقَارِ، فَعَلِمْنَا بِذَلِكَ أَنَّ خَالِقَهَا لَطِيفٌ بِمَا لَا كَيْفَ إِذِ الْكَيْفِيَّةُ لِلْمَخْلُوقِ الْمُكَيَّفِ. وَكَذَلِكَ سَمَّيْنَا رَبَّنَا قَوِيًّا بِمَا قُوَّةَ الْبَطْشِ^(١٠) الْمَعْرُوفِ مِنَ الْخَلْقِ، وَلَوْ كَانَ قُوَّتُهُ قُوَّةَ الْبَطْشِ الْمَعْرُوفِ مِنَ الْخَلْقِ لَوَقَعَ التَّشْبِيهُ وَاحْتِمَلِ الزِّيَادَةَ، وَمَا احْتِمَلِ الزِّيَادَةَ احْتِمَلِ النُّقْصَانَ، وَمَا كَانَ نَاقِصًا كَانَ غَيْرَ قَدِيمٍ وَمَا كَانَ غَيْرَ قَدِيمٍ كَانَ عَاجِزًا؛ فَرَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا شَبَهَ لَهُ وَلَا ضِدَّ وَلَا نِدَّ، وَلَا كَيْفِيَّةَ وَلَا نِهَايَةَ وَلَا تَصَارِيفَ^(١١)^(١٢)، مُحَرَّمٌ عَلَى الْقُلُوبِ أَنْ تَحْتَمِلَهُ^(١٣)، وَعَلَى الْأَوْهَامِ أَنْ تَحُدَّهُ، وَعَلَى الضَّمَائِرِ أَنْ تُصَوِّرَهُ^(١٤)، جَلَّ وَعَزَّ عَنْ أَدَاةِ خَلْقِهِ وَسِمَاتِ بَرِّيَّتِهِ^(١٥)، وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

التوحيد^(١٦): الدقاق، عن الأسدي، عن محمد بن بشر، عن الجعفري، مثله.

إيضاح:

اعلم أن المتكلمين اختلفوا في أن الاسم هل هو عين المسمى أو غيره، فذهب أكثر الأشاعرة إلى الأول،

١. الطرف: إطباق الجفن على الجفن، راجع لسان العرب.

٢. في التوحيد: «ولم نصفه بنظر لحظة العين»، وفي الكافي: «ببصر لحظة العين».

٣. في الكافي: «وموضع النشوء منها»، وفي التوحيد: «مثل البعوضة وأحقر من ذلك وموضع الشق منها».

٤. السفاد: نَزَوَ الذكر على الأنثى، راجع لسان العرب.

٥. في الكافي والتوحيد: «على نسلها».

٦. حَدَبٌ عَلَيْهِ: تَعَطَّفَ، وَحَنَّا عَلَيْهِ، راجع لسان العرب.

٧. في التوحيد: «وإفهام بعضها عن بعض».

٨. المفاز والمفاضة: البرية القفر (لا نبات بها ولا ماء)، وتجمع المفاوز، راجع لسان العرب.

٩. الوادي: كُلُّ مَفْرَجٍ بَيْنَ الْجِبَالِ، والجمع الأودية، راجع لسان العرب.

١٠. البطش: الأخذ الشديد في كل شيء، راجع القاموس المحيط.

١١. تصاريف الأمور: تخاليفها، راجع لسان العرب.

١٢. في الكافي: «ولا تبصار بصر».

١٣. في الكافي والتوحيد: «محرم على القلوب أن تمثله».

١٤. في الكافي: «أن تكونه»، وفي التوحيد: «أن تكيفه».

١٥. السمات: جمع السمة، وهي العلامة، راجع مجمع البحرين.

١٦. التوحيد (للصدوق)، ص ١٩٣، ح ٧.

والإمامية والمعتزلة إلى الثاني، وقد وردت هذه الأخبار ردّاً على القائلين بالعينية، وأوّل بعض المتأخّرين كلامهم لسخافته وإن كانت كلماتهم صريحة فيما نسب إليهم. قال شارح المقاصد: الاسم هو اللفظ المفرد الموضوع للمعنى على ما يعمّ أنواع الكلمة، وقد يقيّد بالاستقبال والتجرّد عن الزمان فيقابل الفعل والحروف على ما هو مصطلح النحاة. والمسمّى هو المعنى الذي وضع الاسم بإزائه، والتسمية هو وضع الاسم للمعنى وقد يراد بها ذكر الشيء باسمه كما يقال: يسمّى زيداً ولم يسمّ عمراً؛ فلا خفاء في تغاير الأمور الثلاثة، وإنّما الخفاء فيما ذهب إليه بعض أصحابنا من أنّ الاسم نفس المسمّى، وفيما ذكره الشيخ الأشعريّ من أنّ أسماء الله تعالى ثلاثة أقسام: ما هو نفس المسمّى، مثل «الله» الدالّ على الوجود أي الذات، وما هو غيره «كالخالق والرازق» ونحو ذلك ممّا يدلّ على فعل؛ وما لا يقال إنّّه هو ولا غيره «كالعالم والقادر» وكلّ ما يدلّ على الصفات. وأمّا التسمية بغير الاسم والمسمّى، وتوضيحه أنّهم يريدون بالتسمية اللفظ، وبالاسم مدلوله كما يريدون بالوصف قول الواصف، وبالصفة مدلوله، وكما يقولون: إنّ القراءة حادثة والمقرّ قديم إلا أنّ أصحاب اعتبروا المدلول المطابق فأطلقوا القول بأنّ الاسم نفس المسمّى للقطع بأنّ مدلول الخالق شيء ما له الخلق لا نفس الخلق، ومدلول العالم شيء ما له العلم لا نفس العلم. والشيخ أخذ المدلول أعمّ، واعتبر في أسماء الصفات المعاني المقصودة، فزعم أنّ مدلول الخالق الخلق وهو غير الذات، ومدلول العالم العلم وهو لا عين ولا غير^(١). انتهى.

فإذا عرفت هذا فاعلم أنّ الظاهر أنّ المراد بالأسماء الأسماء الدالة على الذات من غير ملاحظة صفة، وبالصفات ما يدلّ على الذات متّصفاً بصفة، واستفسر عليه السلام مراد السائل وذكر احتمالاته وهي ثلاثة، وينقسم بالتقسيم الأوّل إلى احتمالين، لأنّ المراد إمّا معناه الظاهر، أو مؤوّل بمعنى مجازيّ لكون معناه الظاهر في غاية السخافة.

الأوّل: أن يكون المراد كون كلّ من تلك الأسماء والحروف المؤلّفة المركّبة عين ذاته تعالى، وحكم بأنّه تعالى منزّه عن ذلك لاستلزامه تركيبه وحدوثه وتعدّده كما سيأتي^(٢) - تعالى الله عن ذلك -.

الثاني: أن يكون قوله عليه السلام: «هي هو» كناية عن كونها دائماً معه في الأزل فكأنّها عينه، وهذا يحتمل معنيين: الأوّل: أن يكون المراد أنّه تعالى كان في الأزل مستحقّاً لإطلاق تلك الأسماء عليه، وكون تلك الأسماء في علمه تعالى من غير تعدّد في ذاته تعالى وصفاته، ومن غير أن يكون معه شيء في الأزل فهذا حقّ؛ والثاني، أن يكون المراد كون تلك الأصوات والحروف المؤلّفة دائماً معه في الأزل، فمعاذ الله أن يكون

١. شرح المقاصد (للتفتازاني)، ج ٤، ص ٣٣٨ و٣٣٩.

٢. تتمّة كتاب التوحيد، أبواب أسمائه تعالى، باب ٢.

معه غيره في الأزل، وهذا صريح في نفي تعدّد القدماء ولا يقبل التأويل. ثم أشار عليه إلى حكمة خلق الأسماء والصفات بأنّها وسيلة بينه وبين خلقه يتضرّعون بها إليه ويعبدونه، وهي ذكره «بالضمير» أي يذكر بها، والمذكور بالذكر قديم، والذكر حادث؛ ومنهم من قرأ: «التاء» قال الجوهري: الذكر والذكرى نقيض النسيان، وكذلك الذكر. انتهى.

قوله عليه: «والأسماء والصفات مخلوقات» هاهنا النسخ مختلفة، ففي التوحيد: «مخلوقات المعاني» أي معانيها اللغويّة ومفهوماتها الكلّيّة مخلوقة، وفي الإحتجاج ليس لفظ «المعاني» أصلاً، وفي الكافي: «والمعاني» بالعطف، فالمراد بها إمّا مصداق مدلولاتها، ويكون قوله عليه: «والمعاني بها» عطف تفسير له، أو هي معطوفة على الأسماء أي والمعاني وهي حقائق مفهومات الصفات مخلوقة، أو المراد بالأسماء الألفاظ، وبالصفات ما وضع ألفاظها له؛ وقوله عليه: «مخلوقات والمعاني» خبران لقوله عليه: «الأسماء والصفات» أي الأسماء مخلوقات والصفات هي المعاني.

وقوله عليه: «والمعاني بها هو الله» أي المقصود بها المذكور بالذكر، ومصداق تلك المعاني المطلوب بها هو ذات الله؛ والمراد بالاختلاف تكثّر الأفراد، أو تكثّر الصفات أو الأحوال المتغيّرة، أو اختلاف الأجزاء وتباينها بحسب الحقيقة أو الانفكاك والتحلل، وبالإيتلاف التركّب من الأجزاء أو الأجزاء المتّفقة الحقائق.

قوله عليه: «فإذا أفنى الله الأشياء» استدلال على مغايرته تعالى للأسماء وهجائها وتقطيعها والمعاني الحاصلة منها في الأذهان من جهة النهاية كما أنّ المذكور سابقاً كان من جهة البداية، والحاصل أنّ علمه تعالى ليس عين قولنا: «عالم» وليس اتّصافه تعالى به متوقّفاً على التكلّم بذلك، وكذا الصور الذهنيّة ليست عين حقيقة ذاته وصفاته تعالى وليس اتّصافه تعالى بالصفات متوقّفاً على حصول تلك الصور إذ بعد فناء الأشياء تفنى تلك الأمور مع بقائه تعالى متّصفاً بجميع الصفات الكماليّة كما أنّ قبل حدوثها كان متّصفاً بها. ثمّ اعلم أنّ المقصود ممّا ذكر في هذا الخبر وغيره من أخبار البابين هو نفي تعقّل كنه ذاته وصفاته تعالى، وبيان أنّ صفات المخلوقات مشوبة بأنواع العجز، والله تعالى متّصف بها معرّى من جهات النقص والعجز كالسمع فإنّه فينا هو العلم بالمسموعات بالحاسة المخصوصة، ولما كان توقّف علمنا على الحاسة لعجزنا، وكان حصولها لنا من جهة تجسّمنا وإمكاننا ونقصنا، وأيضاً ليس علمنا من ذاتنا لعجزنا، وعلمنا حادث لحدوثنا، وليس علمنا محيطاً بحقائق ما نسمعه كما هي لقصورنا عن الإحاطة، وكلّ هذه نقائص شابت^(١) ذلك الكمال فقد أثبتنا له تعالى ما هو الكمال وهو أصل العلم، ونفيّا عنه جميع تلك الجهات التي هي من سمات النقص والعجز، ولما كان علمه تعالى غير متصوّر لنا بالكنه، وإنّا لمّا رأينا الجهل فينا نقصاً نفينا عنه

١. الشّوب: الخلط، راجع لسان العرب.

فكأنما لم نتصوّر من علمه تعالى إلاّ عدم الجهل، فإثباتنا العلم له تعالى إنّما يرجع إلى نفي الجهل لأنّنا لم نتصوّر علمه تعالى إلاّ بهذا الوجه، وإذا تدبّرت في ذلك حقّ التدبّر وجدته نافياً لما يدّعيه جماعة عن الاشتراك اللفظي في الوجود وسائر الصفات لا مثبّتاً له، وقد عرفت أنّ الأخبار الدالّة على نفي التعطيل ينفي هذا القول، وقد سبق تفسير بعض أجزاء الخبر فيما سبق فلا نعيده^(١).

١٥٦٧. الإحتجاج^(٢): عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ عَزَّ ذِكْرُهُ وَاشْتِقَاقِهَا، فَقُلْتُ: «اللَّهُ» مِمَّا هُوَ مُشْتَقٌّ؟ قَالَ: يَا هِشَامُ «اللَّهُ» مُشْتَقٌّ مِنْ إِلَهٍ، وَإِلَهُ يَفْتَضِي مَالُوهَا، وَالْإِسْمُ غَيْرُ الْمُسَمَّى فَمَنْ عَبَدَ الْإِسْمَ دُونَ الْمَعْنَى فَقَدْ كَفَرَ وَلَمْ يَعْبُدْ شَيْئاً، وَمَنْ عَبَدَ الْإِسْمَ وَالْمَعْنَى فَقَدْ كَفَرَ^(٣) وَعَبَدَ اثْنَيْنِ، وَمَنْ عَبَدَ الْمَعْنَى دُونَ الْإِسْمِ فَذَلِكَ التَّوْحِيدُ، أَفَهِمْتُ يَا هِشَامُ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: زِدْنِي فَقَالَ: إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً فَلَوْ كَانَ الْإِسْمُ هُوَ الْمُسَمَّى لَكَانَ كُلُّ اسْمٍ مِنْهَا إِلَهاً، وَلَكِنَّ اللَّهَ مَعْنَى يُدَلُّ عَلَيْهِ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَكُلُّهَا غَيْرُهُ، يَا هِشَامُ الْخُبْرُ اسْمٌ لِلْمَأْكُولِ، وَالْمَاءِ اسْمٌ لِلْمَشْرُوبِ، وَالثُّوبُ اسْمٌ لِلْمَلْبُوسِ، وَالنَّارُ اسْمٌ لِلْمُحْرِقِ، أَفَهِمْتُ يَا هِشَامُ فَهَمَّا تَدْفَعُ بِهِ وَتَنَاضِلُ أَعْدَاءَنَا^(٤) وَالْمُتَحَذِّينَ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ غَيْرُهُ؟^(٥) قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَقَالَ: نَفَعَكَ اللَّهُ بِهِ وَتَبَيَّنَكَ. قَالَ هِشَامُ: فَوَ اللَّهِ مَا فَهَرَنِي أَحَدٌ فِي عِلْمِ التَّوْحِيدِ حَتَّى قُمْتُ مَقَامِي هَذَا.

التوحيد^(٦): ابن عصام والدقاق، عن الكليني، عن عليّ، عن أبيه، عن النضر، عن هشام، مثله.

بيان:

هذا الخبر يدلّ على أنّ لفظ الجلالة مشتق، وقد سبق الكلام فيه في باب التوحيد، وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللَّهُ مشتق من إله» إمّا اسم على فعال بمعنى المفعول أي المعبود، أو غيره من المعاني التي تقدّم ذكرها^(٧)، أو فعل بمعنى عبد أو نحوه، والظاهر أنّه ليس المقصود أولاً الاستدلال على المغايرة بين الاسم والمسمى، بل المعنى أنّ هذا اللفظ بجوهره يدلّ على وجود معبود يعبد، ثمّ بيّن أنّه لا يجوز عبادة اللفظ بوجه، ثمّ استدّل على المغايرة بين الاسم والمسمى، ويحتمل أن يكون استدلالاً بأنّ هذا اللفظ يدلّ على معنى والدالّ غير المدلول بديهة، وعلى هذا يحتمل أن يكون ما يذكر بعد ذلك تحقيقاً آخر لبيان ما يجب أن يقصد بالعبادة، وأن يكون تتمّة لهذا

١. كتاب التوحيد، باب ٥، الخبر المرويّ عن المفضل بن عمر في التوحيد المشتهر بالإهليلجة.

٢. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٣٣؛ الكافي، ج ١، باب المعبود، ص ٨٧، ح ٢؛ تفسير البرهان، ج ١، ص ١٠٢، ح ٢٥٨.

٣. في التوحيد والكافي: «فقد أشرك».

٤. تناضل به أعداءنا: تدافع به أعداءنا، راجع مجمع البحرين.

٥. في التوحيد: «تنافر أعداءنا والملحدّين في الله والمشرّكين مع الله عزّ وجلّ غيره».

٦. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٢٠، ح ١٣.

٧. كتاب التوحيد، باب ٦، التوحيد ونفي الشرك.

الدليل تكثيراً للإيراد وإيضاحاً لما يلزمهم من الفساد بأن يكون المعنى أن العقل لما حكم بالمغايرة فمن توهم الاتحاد إن جعل هذه الحروف معبوداً بتوهم أن الذات عينها فلم يعبد شيئاً أصيلاً، إذ ليس لهذه الأسماء بقاء واستمرار وجود إلا بتبعية النقوش في الألواح أو الأذهان، وإن جعل المعبود مجموع الاسم والمسمى فقد أشرك وعبد مع الله غيره، وإن عبد الذات الخالص فهو التوحيد، وبطل الاتحاد بين الاسم والمسمى، والأول أظهر. ويحتمل أن يكون المراد بالمألوه من له الإله، كما يظهر من بعض الأخبار أنه يستعمل بهذا المعنى كقوله عليه السلام: «كان إلهاً إذ لا مألوه وعالماً إذ لا معلوم» فالمعنى أن الإله يقتضي نسبة إلى غيره ولا يتحقق بدون الغير، والمسمى لا حاجة له إلى غيره فالاسم غير المسمى.

ثم استدلل عليه على المغايرة بوجهين آخرين: الأول: أن الله تعالى أسماء متعددة فلو كان الاسم عين المسمى لزم تعدد الآلهة لبداهة مغايرة تلك الأسماء بعضها لبعض؛ قوله عليه السلام: «ولكن الله» أي ذاته تعالى لا هذا الاسم. الثاني: أن الخبز اسم لشيء يحكم عليه بأنه مأكول، ومعلوم أن هذا اللفظ غير مأكول، وكذا البواقي.

وقيل^(١): إن المقصود من أول الخبر إلى آخره بيان المغايرة بين المفهومات العرضية التي هي موضوعات تلك الأسماء وذاته تعالى الذي هو مصداق تلك المفهومات؛ فقوله عليه السلام: «والإله يقتضي مألوها» معناه أن هذا المعنى المصدري يقتضي أن يكون في الخارج موجود هو ذات المعبود الحقيقي ليدل على أن مفهوم الاسم غير المسمى، والحق تعالى ذاته نفس الوجود الصرف بلا مهية أخرى، فجميع مفهومات الأسماء والصفات خارجة عنه، فصدقها وحملها عليه ليس كصدق الذاتيات على الماهية - إذ الماهية له كلية - ولا كصدق العرضيات - إذ لا قيام لأفرادها بذاته تعالى - ولكن ذاته تعالى بذاته الأحدية البسيطة مما ينتزع منه هذه المفهومات وتحمل عليه فالمفهومات كثيرة والجميع غيره فيلزم من عينية تلك المفهومات تعدد الآلهة. وقوله عليه السلام: «الخبز اسم للمأكول» حجة أخرى على ذلك، فإن مفهوم المأكول اسم لما يصدق عليه كالخبز، ومفهوم المشروب يصدق على الماء، ومفهوم الملبوس على الثوب، والمحرق على النار؛ ثم إذا نظرت إلى كل من هذه المعاني في أنفسها وجدتها غير محكوم عليها بأحكامها فإن معنى المأكول غير مأكول إنما المأكول شيء آخر كالخبز، وكذا البواقي ولا يخفى ما فيه.

١٥٦٨. التوحيد، معاني الأخبار، عيون أخبار الرضا عليه السلام^(٢): أبي، عن أحمد بن إدريس، عن الحسين بن عبيد الله،

١. كما أشار إليه صدر المتألهين في شرح أصول الكافي، ج ٣، ص ٧٩.

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ١٩٢، ح ٥؛ معاني الأخبار، ص ٢، ح ١؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٢٩، ح ٢٥.

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَمُوسَى بْنِ عَمْرٍو وَالْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي عُثْمَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ قَالَ: سَأَلْتُ الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْإِسْمِ مَا هُوَ؟ قَالَ: صِفَةٌ لِمَوْصُوفٍ.

بيان:

أي سمة وعلامة تدلّ على ذات فهي غير الذات، أو المعنى أن أسماء الله تعالى تدلّ على صفات تصدق عليه، ويحتمل أن يكون المراد بالاسم هنا ما أشرنا إليه سابقاً أي المفهوم الكلّي الذي هو موضوع اللفظ.

١٥٦٩. الإحتجاج^(١): سئل أبو الحسن عليّ بن محمد عليه السلام عن التّوحيد، فقيل له: لم يزل الله وحده لا شيء معه ثم خلق الأشياء بديعاً، واختار لنفسه أحسن الأسماء، أ ولم تزل الأسماء والحروف معه قديمة؟ فكتب: لم يزل الله موجوداً، ثم كوّن ما أَرَادَ، لا رادّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، تاهت أوهام المتوهّمين، وقصر طرف الطّارفين^(٢)، وتلاشت أوصاف الواصفين، واضمحلت أقاويل المُبطلين عن الدّرك لعجيب شأنه والوقوع بالبُلوغ على علو مكانه، فهو بالموضع الذي لا يتناهى، وبالمكان الذي لم تقع عليه النّاعتون بإشارة^(٣) ولا عبارة هيئات هيئات.

١٥٧٠. التوحيد^(٤): الدّقّاق، عن الأسديّ، عن البرمكيّ، عن عليّ بن العباس، عن يزيد بن عبد الله، عن الحسن بن سعيد الخزّاز^(٥)، عن رجاله، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الله غاية من غياه فالْمَعْيَا غير الغاية، توحّد بالربوبية، ووصف نفسه بغير محدوديّة، فالذّكر الله غير الله، والله غير أسماء، وكلّ شيء وقع عليه اسم شيء سواه فهو مخلوق، ألا ترى قوله: العِزّة لله، العِزّة لله؛ وقال: ﴿وَلِلّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٦) وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٧) فالأسماء مضافّة إليه وهو التّوحيد الخالص.

بيان:

استدلّ عليه السلام على المغايرة بين الاسم والمسمّى بما أضيف إليه من الأسماء، فإنّ الإضافة تدلّ على المغايرة بين الاسم والمسمّى يقال: المال لزيد، ولا يقال: زيد لنفسه، وقوله: العِزّة لله، العِزّة لله، يومئ إلى أنّ المراد بالاسم المفهوم، كما مرّ.

١. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٤٤٩.

٢. وفي نسخة: وقصر طرف العارفين. (هامش المطبوع)

٣. في المصدر: «لم يقع عليه عيون بإشارة».

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ٥٨، ح ١٦.

٥. في المصدر: «عن الحسين بن سعيد الخزّاز».

٦. الأعراف/ ١٨٠.

٧. الإسراء/ ١١٠.

١٥٧١. التوحيد^(١): ابْنُ الْمُتَوَكِّلِ، عَنْ مُحَمَّدٍ الْعَطَّارِ، عَنِ ابْنِ أَبَانَ، عَنِ ابْنِ أَوْرَمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢) قَالَ: اسْمُ اللَّهِ غَيْرُ اللَّهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ وَقَعَ عَلَيْهِ اسْمُ شَيْءٍ فَهُوَ مَخْلُوقٌ مَا خَلَا اللَّهَ، فَأَمَّا مَا عَبَّرَ الْأَلْسُنُ عَنْهُ أَوْ عَمِلَتِ الْأَيْدِي فِيهِ فَهُوَ مَخْلُوقٌ، وَاللَّهُ غَايَةٌ مِنْ غَايَاهُ، وَالْمُعَيَّنِيُّ غَيْرُ الْغَايَةِ، وَالْغَايَةُ مَوْصُوفَةٌ وَكُلُّ مَوْصُوفٍ مَصْنُوعٌ، وَصَانِعُ الْأَشْيَاءِ غَيْرُ مَوْصُوفٍ بِحَدٍّ مُسَمًّى، لَمْ يَتَكَوَّنْ فَتَعْرِفَ كَيْنُونَتَهُ بِصُنْعٍ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَتَنَاهَ إِلَى غَايَةٍ إِلَّا كَانَتْ غَيْرَهُ، لَا يَزِلُّ مَنْ فَهِمَ هَذَا الْحُكْمَ أَبَدًا وَهُوَ التَّوْحِيدُ الْخَالِصُ فَاعْتَقِدُوهُ^(٣) وَصَدَقُوهُ وَتَفَهَّمُوهُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْرِفُ اللَّهَ بِحِجَابٍ أَوْ بِصُورَةٍ أَوْ بِمِثَالٍ فَهُوَ مُشْرِكٌ، لِأَنَّ الْحِجَابَ وَالْمِثَالَ وَالصُّورَةَ غَيْرُهُ، وَإِنَّمَا هُوَ وَاحِدٌ مُوَحَّدٌ فَكَيْفَ يُوحَّدُ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ عَرَفَهُ بِغَيْرِهِ، إِنَّمَا عَرَفَ اللَّهَ مَنْ عَرَفَهُ بِاللَّهِ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ بِهِ فَلَيْسَ يَعْرِفْهُ إِنَّمَا يَعْرِفُ غَيْرَهُ؛ لَيْسَ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ شَيْءٌ^(٤)، وَاللَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ لَا مِنْ شَيْءٍ، يُسَمَّى بِأَسْمَائِهِ فَهُوَ غَيْرُ أَسْمَائِهِ وَالْأَسْمَاءُ غَيْرُهُ^(٥)، وَالْمَوْصُوفُ غَيْرُ الْوَاصِفِ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُؤْمِنُ بِمَا لَا يَعْرِفُ فَهُوَ ضَالٌّ عَنِ الْمَعْرِفَةِ، لَا يُدْرِكُ مَخْلُوقٌ شَيْئًا إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا تُدْرِكُ مَعْرِفَةُ اللَّهِ إِلَّا بِاللَّهِ، وَاللَّهُ خَلُوعٌ مِنْ خَلْقِهِ وَخَلْقُهُ خَلُوعٌ مِنْهُ، وَإِذَا أَرَادَ شَيْئًا كَانَ كَمَا أَرَادَ بِأَمْرِهِ مِنْ غَيْرِ نُطْقٍ، لَا مَلْجَأَ لِعِبَادِهِ مِمَّا قَضَى، وَلَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيمَا ارْتَضَى، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى عَمَلٍ وَلَا مُعَالَجَةٍ مِمَّا أَحْدَثَ فِي أَبْدَانِهِمُ الْمَخْلُوقَةَ إِلَّا بِرَبِّهِمْ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يَقْوَى عَلَى عَمَلٍ لَمْ يُرِدْهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ زَعَمَ أَنَّ إِرَادَتَهُ تَغْلِبُ إِرَادَةَ اللَّهِ؛ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

قال الصدوق «رحمه الله»: معنى ذلك أن من زعم أنه يقوى على عمل لم يرد الله أن يقويه عليه فقد زعم أن إرادته تغلب إرادة الله تبارك الله رب العالمين.

بيان:

قوله عليه السلام: «اسم شيء» أي لفظ الشيء، أو هذا المفهوم المركب، والأول أظهر، ثم بين المغايرة بأن اللفظ الذي يعبر به الألسن والخط الذي تعمله الأيدي فظاهر أنه مخلوق. قوله عليه السلام: «والله غاية من غاياه» اعلم أن الغاية تطلق على المدى والنهاية، وعلى امتداد المسافة، وعلى الغرض والمقصود من الشيء، وعلى الراية والعلامة. وهذه العبارة تحتمل وجوهاً:

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٤٢، ح ٧، و ص ١٩٢، ح ٦؛ الكافي، ج ١، باب حدوث الأسماء، ص ١١٣، ح ٤.
٢. في الكافي بهذا الإسناد: «محمد بن أبي عبد الله، عن محمد بن إسماعيل، عن بعض أصحابه، عن بكر بن صالح، عن علي بن صالح، عن الحسن بن محمد بن خالد بن يزيد، عن عبد الأعلى، عن أبي عبد الله عليه السلام: «وفي التوحيد، ح ٦، مثل الكافي إلا فيه: «علي بن الحسن بن محمد، عن خالد بن يزيد» بدلاً من: «علي بن صالح، عن الحسن بن محمد بن خالد بن يزيد».
٣. وفي الكافي: «فارعه».
٤. لم يرد في المصدر: «ليس بين الخالق والمخلوق شيء».
٥. في الكافي تمت الرواية إلى هنا.

الأوّل: أن تكون الغاية بمعنى الغرض والمقصود، أي كلمة الجلالة مقصود من جعله مقصوداً، وذريعة من جعله ذريعة أي كلّ من كان له مطلب وعجز عن تحصيله بسعيه يتوسّل إليه باسم الله. و«المعني» بالغين المعجمة والياء المثناة المفتوحة أي المتوسّل إليه بتلك الغاية غير الغاية، أو بالياء المكسورة أي الذي جعل لنا الغاية غاية هو غيرها، وفي بعض النسخ: «والمعنى» بالعين المهملة والنون أي المقصود بذلك التوسّل، أو المعنى المصطلح غير تلك الغاية التي هي الوسيلة إليه.

الثاني: أن يكون المراد بالغاية النهاية، وبالله الذات لا الاسم، أي الربّ تعالى غاية آمال الخلق يدعونه عند الشدائد بأسمائه العظام، والمعنيّ بفتح الياء المشددة: المسافة ذات الغاية، والمراد هنا الأسماء فكأنّها طرق ومسالك توصل الخلق إلى الله في حوائجهم، والمعنى أنّ العقل يحكم بأنّ الوسيلة غير المقصود بالحاجة، وهذا لا يلائمه قوله: «والغاية موصوفة» إلّا بتكلّف تامّ.

الثالث: أن يكون المراد بالغاية العلامة، وصحّت «غاياه» بغاياته، أي علامة من علاماته، والمعنى أي المقصود أو المعنيّ أي ذو العلامة غيرها.

الرابع: أن يكون المقصود أنّ الحقّ تعالى غاية أفكار من جعله غاية وتفكّر فيه، والمعنى المقصود أعني ذات الحقّ غير ما هو غاية أفكارهم ومصنوع عقولهم، إذ غاية ما يصل إليه أفكارهم ويحصل في أذهانهم موصوف بالصفات الزائدة الإمكانية وكلّ موصوف كذلك مصنوع.

الخامس: ما صحّفه بعض الأفاضل حيث قرأ «عانة من عاناه» أي الاسم ملابس من لابس، قال في النهاية: معاناة الشيء: ملابسته ومباشرته. أو مهمّ من اهتمّ به، من قولهم: عانيت به فأنا عانٍ، أي اهتممت به واشتغلت. أو أسير من أسره، وفي النهاية: العاني: الأسير، وكلّ من ذلّ واستكان وخضع فقد عنا يعنوه فهو عان. أو محبوس من حبسه، وفي النهاية: وعَنُوا بالأصوات أي احبسوها، والمعنى أي المقصود بالاسم غير العانة أي غير ما تتصوّره ونعقله.^(١)

ثمّ اعلم أنّه على بعض التقادير يمكن أن يقرأ «والله» بالكسر بأن يكون الواو للقسم. قوله **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: «غير موصوف بحدّ» أي من الحدود الجسمانيّة، أو الصفات الإمكانية، أو الحدود العقليّة. وقوله **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: «مسمّى» صفة لحدّ التعميم كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾^(٢) ويحتمل أن يكون المراد أنّه غير موصوف بالصفات التي هي مدلولات تلك الأسماء؛ وقيل: هو خبر بعد خبر، أو خبر مبتدأ محذوف^(٣).

١. الحاشية على أصول الكافي (لمحمد بن حيدر النائي)، ص ٣٢٨.

٢. الإنسان ١/.

٣. الحاشية على أصول الكافي (لمحمد بن حيدر النائي)، ص ٣٨٣.

قوله عليه السلام: «لم يتكوّن فيعرف^(١) كينونته بصنع غيره» قيل: المراد أنّه لم يتكوّن فيكون محدثاً بفعل غيره فتعرف كينونته وصفات حدوثه بصنع صانعه كما تعرف المعلولات بالعلل^(٢).

أقول:

لعلّ المراد أنّه غير مصنوع حتى يعرف بالمقايضة إلى مصنوع آخر كما تعرف المصنوعات بمقايضة بعضها إلى بعض، فيكون الصنع بمعنى المصنوع وغيره صفة له؛ أو أنّه لا يعرف بحصول صورة هي مصنوعة لغيره إذ كلّ صورة ذهنيّة مصنوعة للمدرك معلولة له.

قوله عليه السلام: «ولم يتناه» أي هو تعالى في المعرفة أو عرفانه، أو العارف في عرفانه إلى نهاية إلا كانت تلك النهاية غيره تعالى ومباينة له غير محمولة عليه.

قوله عليه السلام: «لا يزل» في بعض النسخ بالذال^(٣) أي ذلّ الجهل والضلال من فهم هذا الحكم وعرف سلب جميع ما يغيره عنه، وعلم أنّ كلّ ما يصل إليه أفهام الخلق فهو غيره تعالى.

قوله عليه السلام: «ومن زعم أنّه يعرف الله بحجاب» أي بالأسماء التي هي حجب بين الله وبين خلقه ووسائل بها يتوسّلون إليه بأن زعم أنّه تعالى عين تلك الأسماء، أو الأنبياء والأئمّة عليهم السلام بأن زعم أنّ الله تعالى اتّحد بهم، أو بالصفات الزائدة، فإنّها حجب عن الوصول إلى حقيقة الذات الأحديّة أو بصورة أي بآنه ذو صورة، كما قالت المشبّهة، أو بصورة عقليّة زعم أنّها كنه ذاته وصفاته تعالى، أو بمثال أي خيالي، أو بأن جعل له مماثلاً ومشابهاً من خلقه فهو مشرك لما عرفت مراراً من لزوم تركّبه تعالى وكونه ذا حقائق مختلفة وذا أجزاء، تعالى الله عن ذلك؛ ويحتمل أن يكون إشارة إلى أنّه لا يمكن الوصول إلى حقيقته تعالى بوجه من الوجوه لا بحجاب ورسول يبيّن ذلك، ولا بصورة عقليّة ولا خياليّة إذ لا بدّ بين المعرف والمعرّف من مماثلة وجهة اتّحاد وإلا فليس ذلك الشيء معرّفاً أصلاً، والله تعالى مجرّد الذات عن كلّ ما سواه، فحجابه ومثاله وصورته غيره من كلّ وجه إذ لا مشاركة بينه وبين غيره في جنس أو فصل أو مادّة أو موضوع أو عارض، وإنّما هو واحد موحد فرد عمّا سواه، فإنّما يعرف الله بالله إذا نفى عنه جميع ما سواه، وكلّ ما وصل إليه عقله كما مرّ أنّه التوحيد الخالص^(٤).

وقال بعض المحقّقين: من زعم أنّه يعرف الله بحجاب أو بصورة أو بمثال أي بحقيقة من الحقائق

١. ما جاء في الحديث: «فتعرف».

٢. الحاشية على أصول الكافي (لمحمد بن حيدر النائي)، ص ٣٨٣.

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ١٤٣ و ١٩٢.

٤. تتمّة كتاب التوحيد، أبواب أسمائه تعالى ...، باب ١، المغايرة بين الاسم والمعنى.

الإمكانية كالجسم والنور، أو بصفة من صفاتها التي هي عليها كما أسند إلى القائلين بالصورة، أو بصفة من صفاتها عند حصولها في العقل كما في قول الفلاسفة في رؤية العقول المفارقة فهو مشرك لأنَّ الحجاب والصورة والمثال كلُّها مغايرة له غير محمولة عليه فمن عبد الموصوف بها عبد غيره فكيف يكون موحدًا له عارفًا به؟ إنَّما عرف الله من عرفه بذاته وحقيقته المسلوب عنه جميع ما يغيره، فمن لم يعرفه به فليس يعرفه، إنَّما يكون يعرف غيره^(١).

أقول:

لا يخفى أنَّ هذا الوجه وما أوردته سابقاً من الاحتمالات التي سمحت بها قريحتي القاصرة لا يخلو كلٌّ منها من تكلف^(٢)، وقد قيل فيه وجوه أخر أعرضت عنها صفحاً لعدم موافقتها لأصولنا. والأظهر عندي أنَّ هذا الخبر موافق لما مرَّ^(٣)، وسيأتي في كتاب العدل أيضاً من أنَّ المعرفة من صنعه تعالى^(٤)، وليس للعباد فيها صنع، وأنَّه تعالى يهبها لمن طلبها، ولم يقصر فيما يوجب استحقاق إفاضتها. والقول بأنَّ غيره تعالى يقدر على ذلك نوع من الشرك في ربوبيته وإلهيته، فإنَّ التوحيد الخالص هو أن يعلم أنَّه تعالى مفيض جميع العلوم والخيرات والمعارف والسعادات، كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾^(٥) فالمراد بالحجاب إمَّا أئمة الضلال وعلماء السوء الذين يدعون أنَّهم يعرفونه تعالى بعقولهم ولا يرجعون في ذلك إلى حجج الله تعالى، فإنَّهم حجب يحجبون الخلق عن معرفته وعبادته تعالى؛ فالمعنى أنَّه تعالى إنَّما يعرف بما عرّف به نفسه للناس لا بأفكار وعقولهم أو أئمة الحق أيضاً، فإنَّه ليس شأنهم إلا بيان الحق للناس؛ فأما إفاضة المعرفة والإيصال إلى البغية^(٦) فليس إلا من الحق

١. الحاشية على أصول الكافي (لمحمد بن حيدر النائيني)، ص ٣٨٤.

٢. ولقد أنصف «رحمه الله» في الاعتراف بأنَّ الرواية لا تتضح بما أوردته من الوجوه، وأمَّا ما استظهره من أنَّ المراد بها ما ورد في الأخبار من أنَّه لا صنع لغيره تعالى في المعرفة فهو أهون من الوجوه السابقة، فإنَّ مدلول تلك الأخبار ببيان أنَّ الفاعل للمعرفة هو الله سبحانه وأمَّا نفي الوساطة والوسيلة من البين فلا؛ كيف والقرآن صريح في أنَّ التقوى والإنابة والتدبُّر والتفكُّر والتعقُّل وكذا الأنبياء والملائكة والأئمة عليهم السلام وسائل لمعرفة الله في آيات كثيرة، وقد قال في خصوص القرآن: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ الآية (المائدة/١٦)؛ فالروايات المذكورة لا تنفي الوساطة بهذا المعنى. وأمَّا هذه الرواية فهي صريحة في نفي الوساطة، وفي أنَّه تعالى معروف بذاته وكل شيء سواه معروف معلوم به على خلاف ما اشتهر أنَّ الأشياء تعرف بذاتها أو صفاتها أو آثارها، وأنَّ الله يعرف بالأشياء، فالرواية تحتاج في بيانها إلى أصول علمية عالية غير الأصول الساذجة المعمولة المذكورة في الكتاب، ولا يضاحها محل آخر. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

٣. كتاب التوحيد، باب ١٠، أدنى ما يجزي من المعرفة في التوحيد.

٤. كتاب العدل والمعاد، باب ١، نفي الظلم والجور.

٥. النساء/٧٩.

٦. البغية: الطلبة، راجع لسان العرب.

تعالى كما قال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾^(١) ويجري في الصورة والمثال ما مر من الاحتمالات. فقوله عليه السلام: «ليس بين الخالق والمخلوق شيء» أي ليس بينه تعالى وبين خلقه حقيقة أو مادة مشتركة حتى يمكنهم معرفته من تلك الجهة، بل أوجدتهم لا من شيء كان. قوله عليه السلام: «غير الواصف» يحتمل أن يكون المراد بالواصف الاسم الذي يصف الذات بمدلوله. قوله عليه السلام: «فمن زعم أنه يؤمن بما لا يعرف» أي لا يؤمن أحد بالله إلا بعد معرفته، والمعرفة لا يكون إلا منه تعالى فالتعريف من الله، والإيمان والإدعان وعدم الإنكار من الخلق، ويحتمل أن يكون المراد على بعض الوجوه السابقة بيان أنه وإن لم يعرف بالكنه لكن لا يمكن الإيمان به إلا بعد معرفته بوجه من الوجوه، فيكون المقصود نفي التعطيل، والأول أظهر؛ وهذه الفقرات كلها مؤيدة للمعنى الأخير كما لا يخفى لمن تأمل فيها. ثم بين عليه السلام كون الأشياء إنما يحصل بمشيئته تعالى وأن إرادة الخلق لا يغلب إرادته تعالى كما سيأتي تحقيقه في كتاب العدل، والله الموفق^(٢).

١٥٧٢. التوحيد^(٣): ابن الوليد، عن الصغار، عن أبي بصير، عن ابن محبوب^(٤)، عن ابن رثاب، عن غير واحد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من عبد الله بالتوهم فقد كفر، ومن عبد الاسم ولم يعبد المعنى فقد كفر، ومن عبد الله بالتوهم فقد كفر، ومن عبد الاسم ولم يعبد المعنى فقد كفر، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي يصف بها نفسه^(٥) فقد كفر، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي يصف بها نفسه^(٥) فقد كفر، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي يصف بها نفسه^(٥) فقد كفر، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي يصف بها نفسه^(٥) فقد كفر». وفي حديث آخر: أولئك هم المؤمنون حقاً.

إيضاح:

قوله عليه السلام: «من عبد الله بالتوهم» أي من غير أن يكون على يقين في وجوده تعالى وصفاته، أو بأن يتوهمه محدوداً مدركاً بالوهم فقد كفر، لأن الشك كفر، ولأن كل محدود ومدرك بالوهم غيره سبحانه، فمن عبده كان عابداً لغيره فهو كافر. وقوله عليه السلام: «ومن عبد الاسم» أي الحروف أو المفهوم الوصفي له دون المعنى أي المعبر عنه بالاسم، فقد كفر لأن الحروف والمفهوم غير الواجب الخالق لكل تعالى شأنه.

١٥٧٣. التوحيد^(٦): الدقاق، عن الكليني، عن علي بن محمد، عن صالح بن أبي حماد، عن الحسين بن يزيد، عن ابن البطائني، عن إبراهيم بن عمر، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الله تبارك وتعالى خلق اسماً بالحروف غير

١. القصص/٥٦.

٢. كتاب العدل والمعاد، باب ٣، القضاء والقدر والمشيئة والإرادة.

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٢٠، ح ١٢؛ الكافي، ج ١، باب المعبود، ص ٨٧، ح ١؛ عدة الداعي، ص ٣٣٧.

٤. في الكافي: «علي بن إبراهيم، عن محمد بن عيسى بن عبيد، عن الحسن بن محبوب...».

٥. وفي نسخة: بصفاته التي وصف بها نفسه. (هامش المطبوع)

٦. في المصدر والكافي والعدة: «في سرائره».

٧. التوحيد (للصدوق)، ص ١٩٠، ح ٣؛ وفي الكافي، ج ١، باب حدوث الأسماء، ص ١١٢، ح ١.

مَنْعُوتٍ^(١)، وَبِاللَّفْظِ غَيْرِ مُنْطَقٍ، وَبِالشَّخْصِ غَيْرِ مُجَسَّدٍ، وَبِالتَّشْبِيهِ غَيْرِ مُوصُوفٍ، وَبِاللَّوْنِ غَيْرِ مَصْبُوغٍ، مَنْفِيٌّ عَنْهُ الْأَقْطَارُ، مُبْعَدٌ عَنْهُ الْحُدُودُ، مَحْجُوبٌ عَنْهُ حِسُّ كُلِّ مَتَوَهِّمٍ، مُسْتَرَزٌّ غَيْرُ مَسْتُورٍ، فَجَعَلَهُ كَلِمَةً تَامَّةً عَلَى أَرْبَعَةِ أَجْزَاءٍ مَعًا، لَيْسَ مِنْهَا وَاحِدٌ قَبْلَ الْآخَرِ، فَأُظْهِرَ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَسْمَاءٍ لِفَاقَةِ^(٢) الْخَلْقِ إِلَيْهَا، وَحَجَبَ وَاحِدًا مِنْهَا، وَهُوَ الْإِسْمُ الْمَكُونُ الْمَخْزُونُ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي أُظْهِرَتْ، فَالظَّاهِرُ هُوَ «اللَّهُ، وَتَبَارَكَ، وَسُبْحَانَ»^(٣) لِكُلِّ اسْمٍ مِنْ هَذِهِ أَرْبَعَةُ أَرْكَانٍ، فَذَلِكَ اثْنَا عَشَرَ رُكْنًا، ثُمَّ خَلَقَ لِكُلِّ رُكْنٍ مِنْهَا ثَلَاثِينَ اسْمًا فِعْلًا مَسْئُوبًا إِلَيْهَا، فَهُوَ الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، الْمَلِكُ، الْقُدُّوسُ، الْخَالِقُ، الْبَارِئُ، الْمُصَوِّرُ، الْحَيُّ، الْقَيُّومُ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ، الْعَلِيمُ، الْخَبِيرُ، السَّمِيعُ، الْبَصِيرُ، الْحَكِيمُ، الْعَزِيزُ، الْجَبَّارُ، الْمُتَكَبِّرُ، الْعَلِيُّ، الْعَظِيمُ، الْمُقْتَدِرُ، الْقَادِرُ، السَّلَامُ، الْمُؤْمِنُ، الْمُهَيِّمُ، الْبَارِئُ^(٤)، الْمُنْشِئُ، الْبَدِيعُ، الرَّفِيعُ، الْجَلِيلُ، الْكَرِيمُ، الرَّازِقُ، الْمُحْيِي، الْمُمِيتُ، الْبَاعِثُ، الْوَارِثُ^(٥). فَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ وَمَا كَانَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى حَتَّى تَتِمَّ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتِّينَ اسْمًا فَهِيَ نِسْبَةُ لِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ، وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ الثَّلَاثَةُ أَرْكَانٌ وَحُجُبٌ لِلْإِسْمِ الْوَاحِدِ الْمَكُونِ الْمَخْزُونِ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٦).

بيان:

اعلم أنَّ هذا الخبر من متشابهات الأخبار وغوامض الأسرار التي لا يعلم تأويلها إلاَّ الله والِّرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، والسكوت عن تفسيره والإقرار بالعجز عن فهمه أصوب وأولى وأحوط وأحرى. ولنذكر وجهاً تبعاً لمن تكلم فيه على سبيل الاحتمال^(٧)، فنقول: «أسماء» في بعض النسخ بصيغة الجمع

١. في النسخة المقروءة على المصنّف «جعلها» بدلا عما في المتن. (هامش المطبوع) وفي الكافي: «إنَّ الله خلق اسماً بالحروف غير متصوت»، وفي التوحيد: «إنَّ الله تبارك وتعالى خلق اسماً بالحروف، فهو عزَّ وجلَّ بالحروف غير منعوت».

٢. الفاقة: الحاجة والفقر، راجع لسان العرب.

٣. في المصدر والكافي: «هو الله تبارك وتعالى وسخر سبحانه».

٤. مكرر ولعله من النسخ. (هامش المطبوع)

٥. يأتي شرح هذه الأسماء وغيرها مفصلاً من الصدوق «قدس الله روحه» في «باب عدد أسماء الله تعالى وفضل إحصائها وشرحها» ولغيره أيضاً كالكفعمي في المصباح، وابن فهد في عدة الداعي. ولها شروح مستوفاة، كما أن جمعا من أصحابنا «قدس الله أسرارهم» أفردوا حول هذه الأسماء وشرحها كتباً مستقلة تبلغ عدتها عشرين أو أكثر، وأورد أسماءها العلامة الرازي في كتابه الذريعة، ج ٢، ص ٦٦ فراجع. (هامش المطبوع)

٦. الإسراء/ ١١٠.

٧. المراد بالرواية أنَّ ذاته تعالى أجل من أن يحيط به مفاهيم الأسماء، يسقط عنده كل اسم ورسم وأنَّ لمعاني الأسماء نحو تأخر عنه غير عنه بالخلق، ولها مراتب ودرجات فيما بينها أنفسها وقد شرحنا الرواية في رسالة الصفات من الرسائل السبع بعض الشرح. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

وفي بعضها بصورة المفرد^(١)، والأخير أظهر، والأوّل لعلّه مبنيّ على أنّه مجزّى بأربعة أجزاء كلّ منها اسم، فلذا أُطلق عليه صيغة الجمع. وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بالحروف غير منعوت»^(٢) - وفي بعض النسخ كما في الكافي: «غير متصوّت» - وكذا ما بعده من الفقرات تحتمل كونها حالاً عن فاعل «خلق» وعن قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اسماً»، ويؤيّد الأوّل ما في أكثر نسخ التوحيد: خلق اسماً بالحروف وهو عزّ وجلّ بالحروف غير منعوت، فيكون المقصود بيان المغايرة بين الاسم والمسمّى بعدم جريان صفات الاسم بحسب ظهوراته النطقية والكتيبية فيه تعالى؛ وأمّا على الثاني فلعلّه إشارة إلى حصوله في علمه تعالى، فيكون الخلق بمعنى التقدير والعلم، وهذا الاسم عند حصوله في العلم الأقدس لم يكن ذا صوت ولا ذا صورة ولا ذا شكل ولا ذا صبغ؛ ويحتمل أن يكون إشارة إلى أن أوّل خلقه كان بالإفاضة على روح النّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأرواح الأئمّة عليهم السلام بغير نطق وصبغ ولون وخطّ بقلم.

ولنرجع إلى تفصيل كلّ من الفقرات وتوضيحها، فعلى الأوّل قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «غير متصوّت» إمّا على البناء للفاعل أي لم يكن خلقها بإيجاد حرف وصوت، أو على البناء للمفعول أي هو تعالى ليس من قبيل الأصوات والحروف حتّى يصلح كون الاسم عينه تعالى، لكنّ الظاهر من كلام اللغويين أن «تصوّت» لازم، فيكون على البناء للفاعل بالمعنى الثاني، فيؤيّد الوجه الأوّل.

وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وباللفظ غير منطوق» بفتح الطاء أي ناطق، أو أنّه غير منطوق باللفظ كالحروف ليكون من جنسها؛ أو بالكسر أي لم يجعل الحروف ناطقة على الإسناد المجازيّ كقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾^(٣) وهذا التوجيه يجري في الثاني من احتمالي الفتح، وتطبيق تلك الفقرات على الاحتمال الثاني وهو كونها حالاً عن الاسم بعد ما ذكرنا ظاهر، وكذا تطبيق الفقرات الآتية على الاحتمالين.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مستتر غير مستور» أي كنه حقيقته مستور عن الخلق مع أنّه من حيث الآثار أظهر من كلّ شيء، أو مستتر بكمال ذاته من غير ستر وحاجب، أو أنّه غير مستور عن الخلق بل هو في غاية الظهور، والنقص إنّما هو من قبلنا، ويجري نظير الاحتمالات في الثاني؛ ويحتمل على الثاني أن يكون المراد أنّه مستور عن الخلق غير مستور عنه تعالى.

وأما تفصيل الأجزاء وتشعب الأسماء فيمكن أن يقال: إنّهُ لَمَّا كَانَ كَنَهُ ذَاتِهِ تَعَالَى مُسْتَوْرًا عَنْ عُقُولِ جَمِيعِ

١. الحاشية على أصول الكافي (المحمد بن حيدر النائيني)، ص ٣٧٦.

٢. هذا من قبيل النقل بالمعنى ارتكبه بعض الرواة إصلاحاً للمعنى على زعمه مع منافاته البيئة لسائر فقرات الرواية. (هامش المطبوع، نقلاً

عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

٣. الجاثية/ ٢٩.

الخلق فالاسم الدالّ عليه ينبغي أن يكون مستوراً عنهم، فالاسم الجامع هو الاسم الذي يدلّ على كنه الذات مع جميع الصفات الكمالية، ولما كانت أسماؤه تعالى ترجع إلى أربعة لأنها إما أن تدلّ على الذات، أو الصفات الثبوتية الكمالية، أو السلبية التنزيهية، أو صفات الأفعال، فجزأ ذلك الاسم الجامع إلى أربعة أسماء جامعة، واحدة منها للذات فقط، فلما ذكرنا سابقاً استبدّ تعالى به ولم يعطه خلقه، وثلاثة منها تتعلّق بالأنواع الثلاثة من الصفات فأعطاه خلقه ليعرفوه بها بوجه من الوجوه، فهذه الثلاثة حجب ووسائط بين الخلق وبين هذا الاسم المكنون إذ بها يتوسّلون إلى الذات وإلى الاسم المختصّ بها، ولما كانت تلك الأسماء الأربعة مطوية في الاسم الجامع على الإجمال لم يكن بينها تقدّم وتأخّر، ولذا قال عليه السلام: «ليس منها واحد قبل الآخر». ويمكن أن يقال على بعض الاحتمالات السابقة: أنّه لما كان تحقّقها في العلم الأقدس لم يكن بينها تقدّم وتأخّر في الوجود^(١)، كما يكون في تكلم الخلق، والأوّل أظهر.

ثمّ بيّن الأسماء الثلاثة فأولّها: «الله» وهو الدالّ على النوع الأوّل لكونه موضوعاً للذات المستجمع للصفات الذاتية الكمالية. والثاني: «تبارك» لأنّه من البركة والنموّ وهو إشارة إلى أنّه معدن الفيوض ومنبع الخيرات التي لا تنتاهي، وهو رئيس جميع الصفات الفعلية من الخالقية والرازقية والمنعمية وسائر ما هو منسوب إلى الفعل، كما أنّ الأوّل رئيس الصفات الوجودية من العلم والقدرة وغيرهما، ولما كان المراد بالاسم كلّ ما يدلّ على ذاته وصفاته تعالى أعمّ من أن يكون اسماً أو فعلاً أو جملة لا محذور في عدّ «تبارك» من الأسماء. والثالث: هو «سبحان» الدالّ على تنزيهه تعالى عن جميع النقائص، فيندرج فيه ويتبعه جميع الصفات السلبية والتنزيهية، هذا على نسخة التوحيد، وفي الكافي: «هو الله تبارك وتعالى وسخر لكلّ اسم» فعمل المراد أنّ الظاهر بهذه الأسماء هو الله تعالى، وهذه الأسماء إنّما جعلها ليظهر بها على الخلق، فالمظهر هو الاسم، والظاهر به هو الربّ سبحانه.

ثمّ لما كان لكلّ من تلك الأسماء الثلاثة الجامعة شعب أربع ترجع إليها جعل لكلّ منها أربعة أركان هي بمنزلة دعائمه، فأما «الله» فلدلالته على الصفات الكمالية الوجودية له أربع دعائم: وهي وجوب الوجود المعبر عنه بالصمدية والقيومية والعلم والقدرة والحياة، أو مكان الحياة اللطف أو الرحمة أو العزّة، وإنّما جعلت هذه الأربعة أركاناً لأنّ سائر الصفات الكمالية إنّما ترجع إليها كالسميع والبصير والخبير مثلاً، فإنّها راجعة إلى العلم، والعلم يشملها وهكذا.

وأما «تبارك» فله أركان أربعة هي الإيجاد والتربية في الدارين، والهداية في الدنيا والمجازاة في الآخرة

١. أو يقال: إنّ إيجادها لما كان بالإفاضة على الأرواح المقدّسة ولم يكن بالتكلم لم يكن بينها وبين أجزائها تقدّم وتأخّر في الوجود، كما يكون في تكلم الخلق، والأوّل أظهر. هكذا في مرآة العقول، ولعله سقط هنا عن قلم النسخ. (هامش المطبوع)

أي الموجد أو الخالق والربّ والهادي والديّان^(١)، ويمكن إدخال الهداية في التربية، وجعل المجازاة ركنين: الإثابة والانتقام، ولكلّ منها شعب من أسماء الله الحسنى كما لا يخفى بعد التأمل والتتبّع.

وأما «سبحانه» فله أربعة أركان لأنّه إمّا تنزيه الذات عن مشابهة الممكنات، أو تنزيهه عن إدراك الحواسّ والأوهام والعقول، أو تنزيه صفاته عمّا يوجب النقص، أو تنزيه أفعاله عمّا يوجب الظلم والعجز والنقص. ويحتمل وجهاً آخر، وهو تنزيهه عن الشريك والأضداد والأنداد، وتنزيهه عن المشاكلة والمشابهة، وتنزيهه عن إدراك العقول والأوهام، وتنزيهه عمّا يوجب النقص والعجز من التركّب والصاحبة والولد والتغيّرات والعوارض والظلم والجور والجهل وغير ذلك، وظاهر أنّ لكلّ منها شعباً كثيرة، فجعل عليه شعب كلّ منها ثلاثين وذكر بعض أسمائه الحسنى على التمثيل وأجمل الباقي. ويحتمل على ما في الكافي أن تكون الأسماء الثلاثة ما يدلّ على وجوب الوجود والعلم والقدرة، والاثنى عشر ما يدلّ على الصفات الكماليّة والتنزيهيّة التي تتبع تلك الصفات، والمراد بالثلاثين صفات الأفعال التي هي آثار تلك الصفات الكماليّة ويؤيّده قوله عليه: «فعلاً منسوباً إليها»، وعلى الأوّل يكون المعنى أنّها من توابع تلك الصفات، فكانها من فعلها.

هذا ما خطر ببالي في حلّ هذا الخبر، وإنّما أوردته على سبيل الاحتمال من غير تعيين لمراد المعصوم عليه، ولعلّه أظهر الاحتمالات التي أوردتها أقوام على وفق مذاهبهم المختلفة وطرائقهم المتشكّكة، وإنّما هداني إلى ذلك ما أوردته ذريعتي إلى الدرجات العلى ووسيلتي إلى مسالك الهدى بعد أئمة الورى عليه.

أعني والدي العلامة «قدّس الله روحه» في شرح هذا الخبر على ما في الكافي حيث قال: الذي يخطر بالبال في تفسير هذا الخبر على الإجمال هو أنّ الاسم الأوّل كان اسماً جامعاً للدلالة على الذات والصفات، ولما كان معرفة الذات محجوبة عن غيره تعالى جزأً ذلك الاسم على أربعة أجزاء، وجعل الاسم الدالّ على الذات محجوباً عن الخلق، وهو الاسم الأعظم باعتبار، والدالّ على المجموع اسم أعظم باعتبار آخر، ويشبه أن يكون الجامع هو «الله» والدالّ على الذات فقط هو، وتكون المحجوبيّة باعتبار عدم التعيين كما قيل إنّ الاسم الأعظم داخل في جملة الأسماء المعروفة^(٢)، ولكنّها غير معيّنة لنا، ويمكن أن يكون غيرها. والأسماء التي أظهرها الله للخلق على ثلاثة أقسام:

منها: ما يدلّ على التقديس مثل العليّ، العظيم، العزيز، الجبّار، المتكبرّ؛ ومنها: ما يدلّ على علمه تعالى؛ ومنها ما يدلّ على قدرته تعالى. وانقسام كلّ واحد منها إلى أربعة أقسام بأن يكون التنزيه إمّا مطلقاً أو للذات

١. الدّين: الجزء، ومنه الدّيان في صفة الله، راجع الصحاح.

٢. تأويل الآيات الظاهرة (لأستريادي)، ص ٤٧٩.

أو الصفات أو الأفعال، ويكون ما يدلّ على العلم إمّا لمطلق العلم أو للعلم بالجزئيات، كالسميع والبصير، أو الظاهر أو الباطن، وما يدلّ على القدرة إمّا للرحمة الظاهرة أو الباطنة أو الغضب ظاهراً أو باطناً أو ما يقرب من ذلك التقسيم، والأسماء المفردة على ما ورد في القرآن والأخبار يقرب من ثلاثمائة وستين اسماً، ذكرها الكفعمي في مصباحه^(١)، فعليك جمعها والتدبر في ربط كلّ منها بركن من تلك الأركان. انتهى كلامه «رفع الله مقامه».

أقول:

بعض الناظرين في هذا الخبر جعل الاثني عشر كناية عن البروج الفلكية والثلاث مائة والستين عن درجاتها، ولعمري لقد تكلف بأبعد ممّا بين السماء والأرض؛ ومنهم من جعل الاسم كناية عن مخلوقاته تعالى، والاسم الأوّل الجامع عن أوّل مخلوقاته وبزعم القائل هو العقل، وجعل ما بعد ذلك كناية عن كيفية تشعّب المخلوقات وتعدّد العوالم، وكفى ما أومانّا إليه للاستغراب وذكرها بطولها يوجب الإطناب. قوله عليه السلام: «وذلك قوله عزّ وجلّ» استشهاد بأنّ له تعالى أسماء حسنى، وأنّه إنّما وضعها ليدعوه الخلق بها فقال تعالى: قل ادعوه تعالى باللّه أو بالرحمن أو بغيرهما فالمقصود واحد وهو الربّ وله أسماء حسنى كلّ منها يدلّ على صفة من صفاته المقدّسة فأياً ما تدعو فهو حسن. قيل: نزلت الآية حين سمع المشركون رسول اللّه ﷺ يقول: يا الله يا رحمان فقالوا: إنّهم ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر! وقالت اليهود: إنّك لتقلّ ذكر الرحمن وقد أكثره الله في التوراة؛^(٢) فنزلت الآية ردّاً لما توهّموا من التعدّد، أو عدم الإتيان بذكر الرحمن.

١. المصباح (للكفعمي)، ص ٣١٢.

٢. أنوار التنزيل، ج ٣، ص ٢٧٠.

﴿باب ٢﴾

«معاني الأسماء واشتقاقها وما يجوز إطلاقه عليه تعالى وما لا يجوز»

١٥٧٤. الخصال، عيون أخبار الرضا عليه السلام (١): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَاشِمٍ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ أَبَا الْحَسَنِ عليه السلام - وَهُوَ فِي الطَّوَافِ - فَقَالَ لَهُ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْجَوَادِ، فَقَالَ: إِنَّ لِكَلَامِكَ وَجْهَيْنِ: فَإِنْ كُنْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْمَخْلُوقِ فَإِنَّ الْجَوَادَ الَّذِي يُؤَدِّي مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ، وَالْبَخِيلَ مَنْ بَخَلَ بِمَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ وَإِنْ كُنْتَ تَغْنِي الْخَالِقَ فَهُوَ الْجَوَادُ إِنْ أُعْطِيَ، وَهُوَ الْجَوَادُ إِنْ مَنَعَ، لِأَنَّهُ إِنْ أُعْطِيَ عَبْدًا أَعْطَاهُ مَا لَيْسَ لَهُ، وَإِنْ مَنَعَ مَنَعَ مَا لَيْسَ لَهُ.

بيان:

لعل المراد أن المخلوق إنما يوصف بالبخل إن منع لأنه لا يؤدّي ما فرض الله عليه من حقوق الخلق، وأمّا الله سبحانه فلا يوصف بالبخل إن منع لأنه ليس لأحد حقّ على الله، فالمراد بقوله عليه السلام: «إنّه جواد إن منع» أنّه ليس ببخيل أو أنّه جواد من حيث عطاياه الغير المتناهية الأخر، وهذا المنع لا ينافي جوده لعدم لزومه عليه، ويحتمل أن يكون المراد بقوله عليه السلام: «ما ليس له» أخيراً غير ما هو المراد به أولاً، أي ما لا يستحقّ التفضّل عليه به وليس صلاحه في إعطائه، فجوده من جهة هذا المنع أيضاً ثابت لأنّ إعطاء ما يضرّ السائل ليس بجود بل منعه عنه عين الجود.

١٥٧٥. التوحيد، عيون أخبار الرضا عليه السلام (٢): مَا جِيلَوِيهِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، عَنِ الْمُخْتَارِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْمُخْتَارِ الْهَمْدَانِيِّ، عَنْ الْفَتْحِ بْنِ يَزِيدَ الْجُرْجَانِيِّ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ عليه السلام قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، مُنْشِئُ الْأَشْيَاءِ، وَمُجَسِّمُ الْأَجْسَامِ،

١. الخصال، ج ١، ص ٤٣، ح ٣٦؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٤١، ح ٤١.

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ١٨٥، ح ١؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٢٧، ح ٢٣؛ الكافي، ج ١، باب آخر من معاني الأسماء،

ص ١١٨، ح ١.

وَمُصَوِّرُ الصُّورِ، لَوْ كَانَ كَمَا يَقُولُونَ لَمْ يُعْرِفِ الْخَالِقُ مِنَ الْمَخْلُوقِ، وَلَا الْمُنْشِئُ مِنَ الْمُنْشَأِ، فَرَقَ بَيْنَ مَنْ جَسَّمَهُ وَصَوَّرَهُ وَأَنْشَأَهُ إِذْ كَانَ لَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ، وَلَا يُشَبِّهُهُ هُوَ شَيْئاً. قُلْتُ: أَجَلُ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ لِكَيْتَكَ قُلْتُ: الْأَحَدُ الصَّمَدُ وَقُلْتُ: لَا يُشَبِّهُهُ شَيْئاً وَاللَّهُ وَاحِدٌ وَالْإِنْسَانُ وَاحِدٌ، أَلَيْسَ قَدْ تَشَابَهَتِ الْوَاحِدَانِيَّةُ؟ قَالَ: يَا فَتْحُ أَحَلْتَ ثُبَّتَكَ اللَّهُ، إِنَّمَا التَّشْبِيهُ فِي الْمَعَانِي، فَأَمَّا فِي الْأَسْمَاءِ فَهِيَ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ دَلَالَةٌ عَلَى الْمُسَمَّى، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ وَإِنْ قِيلَ وَاحِدٌ، فَإِنَّمَا يُخْبِرُ أَنَّهُ جُثَّةٌ وَاحِدَةٌ وَلَيْسَ بِاثْنَيْنِ، فَالْإِنْسَانُ نَفْسُهُ لَيْسَ بِوَاحِدٍ لِأَنَّ أَعْضَاءَهُ مُخْتَلِفَةٌ وَالْوَأْنَةُ مُخْتَلِفَةٌ كَثِيرَةٌ غَيْرُ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ أَجْزَاءٌ مُجَزَّأٌ لَيْسَتْ بِسَوَاءٍ، دَمُهُ غَيْرُ لَحْمِهِ، وَلَحْمُهُ غَيْرُ دَمِهِ، وَعَصَبُهُ غَيْرُ عُرْوَقِهِ، وَشَعْرُهُ غَيْرُ بَشَرِهِ، وَسَوَادُهُ غَيْرُ بَيَاضِهِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْخَلْقِ فَالْإِنْسَانُ وَاحِدٌ فِي الْإِسْمِ لَا وَاحِدٌ فِي الْمَعْنَى، وَاللَّهُ جَلَّ جَلَّالُهُ وَاحِدٌ لَا وَاحِدَ غَيْرُهُ، لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا تَفَاوُتَ وَلَا زِيَادَةَ وَنَقْصَانَ، فَأَمَّا الْإِنْسَانُ الْمَخْلُوقُ الْمَصْنُوعُ الْمُؤَلَّفُ مِنْ أَجْزَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ وَجَوَاهِرَ شَتَّى غَيْرَ أَنَّهُ بِالْإِجْتِمَاعِ شَيْءٌ وَاحِدٌ.

قُلْتُ: جُعِلَتْ فِدَاكَ فَرَجَتْ عَنِّي فَرَجَ اللَّهُ عَنْكَ، فَقَوْلُكَ: اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ فَسَّرَهُ لِي كَمَا فَسَّرْتَ الْوَاحِدَ، فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ لُطْفَهُ عَلَى خِلَافِ لُطْفِ خَلْقِهِ لِلْفَضْلِ غَيْرَ أَنِّي أَحِبُّ أَنْ تَشْرَحَ ذَلِكَ لِي.

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا فَتْحُ إِنَّمَا قُلْنَا: اللَّطِيفُ لِلْخَلْقِ اللَّطِيفِ، وَلِعَلِّمَهُ بِالشَّيْءِ اللَّطِيفِ^(١)، وَغَيْرِ اللَّطِيفِ، وَفِي الْخَلْقِ اللَّطِيفِ مِنَ الْحَيَوَانِ الصَّغَارِ مِنَ الْبُعُوضِ وَالْجَرَجِسِ^(٢) وَمَا هُوَ أَصْغَرُ مِنْهُمَا مَا لَا يَكَادُ تَسْتَبِينُهُ الْعُيُونُ بَلْ لَا يَكَادُ يُسْتَبَانُ لِصَغَرِهِ الذِّكْرُ مِنَ الْأُنْثَى، وَالْحَدِيثُ الْمَوْلُودُ مِنَ الْقَدِيمِ، فَلَمَّا رَأَيْنَا صَغَرَ ذَلِكَ فِي لُطْفِهِ وَاهْتِدَاءَهُ لِلْسَّفَادِ^(٣) وَالْهَرَبَ مِنَ الْمَوْتِ وَالْجَمْعَ لِمَا يُصْلِحُهُ مِمَّا فِي لُجَجِ الْبَحَارِ وَمَا فِي لِحَاءِ الْأَشْجَارِ وَالْمَفَاوِزِ وَالْقَفَارِ وَفَهَمَ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ مُنْطَقَهَا وَمَا يَفْهَمُ بِهِ أَوْلَادُهَا عَنْهَا وَنَقَلَهَا الْغِذَاءَ إِلَيْهَا ثُمَّ تَأَلَّفَ أَلْوَانُهَا حُمْرَةً مَعَ صُفْرَةٍ، وَبَيَاضاً مَعَ خُضْرَةٍ^(٤) وَمَا لَا تَكَادُ عُيُونُنَا تَسْتَبِينُهُ بِتَمَامِ خَلْقِهَا^(٥) وَلَا تَرَاهُ عُيُونُنَا وَلَا تَلْمِسُهُ أَيْدِينَا عَلِمْنَا أَنَّ خَالِقَ هَذَا الْخَلْقِ لَطِيفٌ لُطْفَ فِي خَلْقِ مَا سَمَّيْنَاهُ بِلَا عِلَاجٍ وَلَا أَدَاةٍ وَلَا آلَةٍ، وَأَنَّ كُلَّ صَانِعٍ شَيْءٍ فَمِنْ شَيْءٍ صَنَعَ، وَاللَّهُ الْخَالِقُ اللَّطِيفُ الْجَلِيلُ خَلَقَ وَصَنَعَ لَا مِنْ شَيْءٍ.

توضيح:

أبو الحسن هو الرضا عليه السلام، كما يظهر من الكليني، ويحتمل الهادي عليه السلام حيث عدَّ الشيخ «رحمه الله» الفتح من أصحابه، والأول أظهر. قوله عليه السلام: «مجسَّم الأجسام» أي خالقها، أو معطي ماهياتها على القول

١. في المصدر والكافي: «أولا ترى وفقك الله وثبتك إلى أثر صنعه في النبات اللطيف وغير اللطيف».

٢. الجرجس: البقُّ والبعوض الصغار، راجع تاج العروس.

٣. السفاد: نَزْوُ الذَّكَرِ عَلَى الْأُنْثَى، راجع لسان العرب.

٤. في العيون والكافي: «وبياض مع حمرة».

٥. في بعض النسخ: لدمامة خلقها. (هامش المطبوع) وكذا في الكافي.

بجعلها. قوله عليه السلام: «فرق» إمّا فعل أو اسم أي الفرق حاصل بينه وبين من جسمه. قوله عليه السلام: «أحلت» أي أتيت بالمحال. قوله عليه السلام: «إنما التشبيه في المعاني» أي التشبيه الممنوع منه إنّما هو تشبيه معنى حاصل فيه تعالى بمعنى حاصل للخلق لا محض إطلاق لفظ واحد عليه تعالى وعلى الخلق بمعنيين متغايرين؛ أو المعنى أنّه ليس التشبيه في كنه الحقيقة والذات، وإنّما التشبيه في المفهومات الكلّية التي هي مدلولات الألفاظ وتصدق عليه تعالى كما مرّ تحقيقه.

قوله عليه السلام: «فأما في الأسماء فهي واحدة» أي الأسماء التي تطلق عليه تعالى وعلى الخلق واحدة لكنّها لا توجب التشابه، إذ الأسماء دالّة على المسمّيات، وليست عينها حتّى يلزم الاشتراك في حقيقة الذات والصفات. ثمّ بيّن عليه السلام عدم كون التشابه في المعنى في اشتراك لفظ الواحد بأنّ الوحدة في المخلوق هي الوحدة الشخصية التي تجتمع مع أنواع التكثرات، وليست إلّا تآلف أجزاء واجتماع أمور متكرّرة، ووحدته سبحانه هي نفي الكثرة والتجزئ والتعدد عنه مطلقاً.

قوله عليه السلام: «فأما الإنسان» يحتمل أن يكون كلّ من المخلوق والمصنوع والمؤلف والظرف خبراً، وإن كان الأوّل أظهر. قوله عليه السلام: «للفصل» أي للفرق الظاهر بينه وبين خلقه. قوله عليه السلام: «في لطفه» أي مع لطف ذلك المخلوق، أو بسبب لطفه تعالى. قوله عليه السلام: «بتمام» في بعض النسخ: «لدمامة» بالمهملة وهي الحقارة.

١٥٧٦. التوحيد، معاني الأخبار، عيون أخبار الرضا عليه السلام^(١): أبي، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ إِدْرِيسَ، عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ^(٢)، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَمُوسَى بْنِ عَمْرٍو وَالْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي عُثْمَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِنَانٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا الْحَسَنِ الرُّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ هَلْ كَانَ اللَّهُ عَارِفًا بِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: يَرَاهَا وَيَسْمَعُهَا؟ قَالَ: مَا كَانَ مُحْتَاجًا إِلَى ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْأَلُهَا وَلَا يَطْلُبُ مِنْهَا، هُوَ نَفْسُهُ، وَنَفْسُهُ هُوَ، قُدْرَتُهُ نَافِذَةٌ فَلَيْسَ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يُسَمِّيَ نَفْسَهُ، وَلَكِنَّهُ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ أَسْمَاءَ لِغَيْرِهِ يَدْعُوهُ بِهَا، لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُدْعَ بِاسْمِهِ لَمْ يُعْرِفْ، فَأَوَّلُ مَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ، لِأَنَّهُ أَعْلَى الْأَسْمَاءِ^(٣) كُلُّهَا؛ فَمَعْنَاهُ اللَّهُ وَاسْمُهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، هُوَ أَوَّلُ أَسْمَائِهِ لِأَنَّهُ عَلِيُّ عَلا كُلِّ شَيْءٍ.

١٥٧٧. عيون أخبار الرضا عليه السلام^(٤): مَاجِيلَوِيهِ، عَنْ عَمِّهِ، عَنْ أَبِي سَمِينَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْخُرَاسَانِيِّ قَالَ: دَخَلَ رَجُلٌ مِنَ الزَّنَادِقَةِ عَلَى الرُّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ فِي جُمْلَةٍ مَا سَأَلَ: فَأَخْبَرَنِي عَنْ قَوْلِكُمْ: إِنَّهُ لَطِيفٌ وَسَمِيعٌ وَبَصِيرٌ وَعَلِيمٌ

١. التوحيد (للمصدق)، ص ١٩١، ح ٤؛ معاني الأخبار، ص ٢، ح ٢؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٢٩، ح ٢٤.

٢. وفي نسخة: عن الحسن بن عبد الله. (هامش المطبوع)

٣. في التوحيد والمعاني والعيون: «أعلى الأشياء».

٤. عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٣١، ح ٢٨؛ التوحيد (للمصدق)، ص ٢٥٠، ح ٣؛ الإحتجاج (للتبرسي)، ج ٢، ص ٣٩٦؛ وقد ورد في هذه المصادر ذيل رواية.

وَحَكِيمٌ، أَيْ كَوْنُ السَّمِيعِ إِلَّا بِالْأُذُنِ؟ وَالْبَصِيرُ إِلَّا بِالْعَيْنِ؟ وَاللَّطِيفُ إِلَّا بِعَمَلِ الْيَدَيْنِ؟ وَالْحَكِيمُ إِلَّا بِالصَّنْعَةِ؟ فَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ عليه السلام: إِنَّ اللَّطِيفَ مِنَّا عَلَى حَدِّ اتِّخَاذِ الصَّنْعَةِ، أَوْ مَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَتَّخِذُ شَيْئًا يَلْطَفُ فِي اتِّخَاذِهِ فَيَقَالُ: مَا أَلْطَفَ فَلَنَا! فَكَيْفَ لَا يُقَالُ لِلْخَالِقِ الْجَلِيلِ: لَطِيفٌ؟ إِذْ خَلَقَ خَلْقًا لَطِيفًا وَجَلِيلًا، وَرَكَّبَ فِي الْحَيَوَانِ مِنْهُ أَرْوَاحَهَا، وَخَلَقَ كُلَّ جِنْسٍ مُتَبَايِنًا مِنْ جِنْسِهِ فِي الصُّورَةِ، وَلَا يُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَكُلُّ لُهُ لُطْفٌ مِنَ الْخَالِقِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ فِي تَرْكِيبِ صُورَتِهِ، ثُمَّ نَظَرْنَا إِلَى الْأَشْجَارِ، وَحَمَلَهَا أَطْيَبُهَا الْمَأْكُولَةُ مِنْهَا وَغَيْرُ الْمَأْكُولَةِ، فَقُلْنَا عِنْدَ ذَلِكَ: إِنَّ خَالِقَنَا لَطِيفٌ لَا كُطْفَ خَلَقَهُ فِي صَنْعَتِهِمْ، وَقُلْنَا: إِنَّهُ سَمِيعٌ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ أَصْوَاتُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ الْعَرْشِ إِلَى الثَّرَى مِنَ الذَّرَّةِ إِلَى أَكْبَرِ مِنْهَا، فِي بَرِّهَا وَبَحْرِهَا، وَلَا تَشْتَبِهُ عَلَيْهِ لُغَاتُهَا فَقُلْنَا عِنْدَ ذَلِكَ: إِنَّهُ سَمِيعٌ لَا بِأُذُنٍ، وَقُلْنَا: إِنَّهُ بَصِيرٌ لَا بِبَصَرٍ لِأَنَّهُ يَرَى أَثَرَ الذَّرَّةِ ^(١) السَّحْمَاءِ ^(٢) فِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءِ عَلَى الصَّخْرَةِ السُّودَاءِ، وَيَرَى دَيْبَ ^(٣) النَّمْلِ فِي اللَّيْلَةِ الدُّجْنَةِ ^(٤) ^(٥)، وَيَرَى مَضَارَهَا وَمَنَافِعَهَا وَأَثَرَ سَفَادِهَا وَفِرَاحَهَا وَنَسْلَهَا فَقُلْنَا عِنْدَ ذَلِكَ: إِنَّهُ بَصِيرٌ لَا كَبَصَرٍ خَلَقَهُ. قَالَ: فَمَا بَرَحَ حَتَّى أَسْلَمَ.

١٥٧٨. التوحيد، عيون أخبار الرضا عليه السلام ^(٦): الدَّقَاقُ، عَنِ الْكَلْبِيِّ، عَنْ عَلَّانٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَيْسَى، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرُّضَا عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: اْعْلَمْ عِلْمَكَ اللَّهُ الْخَيْرَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدِيمٌ، وَالْقَدَمُ صِفَةٌ دَلَّتِ الْعَاقِلَ عَلَى أَنَّهُ لَا شَيْءَ قَبْلَهُ، وَلَا شَيْءَ مَعَهُ فِي دَيْمُومِيَّتِهِ ^(٧)، فَقَدْ بَانَ لَنَا بِإِقْرَارِ الْعَامَّةِ مُعْجَزَةُ الصِّفَةِ أَنَّهُ لَا شَيْءَ قَبْلَ اللَّهِ، وَلَا شَيْءَ مَعَ اللَّهِ فِي بَقَائِهِ، وَبَطَلَ قَوْلُ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ كَانَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، أَوْ كَانَ مَعَهُ شَيْءٌ فِي بَقَائِهِ، لَمْ يَجْزُ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا لَهُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مَعَهُ فَكَيْفَ يَكُونُ خَالِقًا لِمَنْ لَمْ يَزَلْ مَعَهُ؟ وَلَوْ كَانَ قَبْلَهُ شَيْءٌ كَانَ الْأَوَّلَ ذَلِكَ الشَّيْءُ لَا هَذَا، وَكَانَ الْأَوَّلَ أَوْلَى بِأَنْ يَكُونَ خَالِقًا لِلأَوَّلِ الثَّانِي. ثُمَّ وَصَفَ نَفْسَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَسْمَاءٍ دَعَا الْخَلْقَ إِذْ خَلَقَهُمْ وَتَعَبَّدَهُمْ وَابْتَلَاهُمْ إِلَى أَنْ يَدْعُوهُ بِهَا فَسَمَّى نَفْسَهُ سَمِيعًا، بَصِيرًا، قَادِرًا، قَاهِرًا، حَيًّا، قَيُّومًا، ظَاهِرًا ^(٨)، بَاطِنًا، لَطِيفًا، خَبِيرًا، قَوِيًّا، عَزِيزًا، حَكِيمًا، عَلِيمًا، وَمَا أَشَبَّهُ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ. فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ الْعَالُونَ الْمُكَذِّبُونَ وَقَدْ سَمِعُونَا نَحْدُثُ عَنِ اللَّهِ أَنَّهُ لَا شَيْءَ مِثْلُهُ، وَلَا شَيْءَ مِنَ الْخَلْقِ فِي حَالِهِ قَالُوا: أَخْبِرُونَا إِذْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ لَا مِثْلَ لِلَّهِ وَلَا شَيْءَ لَهُ كَيْفَ شَارَكْتُمُوهُ فِي

١. الذرّ: صغار النمل، واحدته ذرّة، راجع لسان العرب.

٢. السحماء: السوداء، راجع تاج العروس.

٣. الدبيب: مشي خفيف، راجع مفردات ألفاظ القرآن.

٤. الدجنة: الظلمة، راجع لسان العرب.

٥. في التوحيد والإحتجاج: «في الليلة الدجيّة».

٦. التوحيد (للصدوق)، ص ١٨٦، ح ٢؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٤٥، ح ٥٠؛ الكافي، ج ١، باب آخر من معاني الأسماء، ص ١٢٠، ح ٢.

٧. ديموميّ: أزليّ في الماضي والمستقبل، راجع مجمع البحرين.

٨. في التوحيد: «قادرًا، قائمًا، ظاهرًا...»، وفي الكافي: «قادرًا، قائمًا، ناطقًا، ظاهرًا...».

أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى فَتَسَمَّيْتُمْ بِجَمِيعِهَا؟ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّكُمْ مِثْلُهُ فِي خَالَاتِهِ كُلِّهَا أَوْ فِي بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ إِذْ قَدْ جَمَعْتُمْ الْأَسْمَاءَ الطَّيِّبَةَ. قِيلَ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَلَزَمَ الْعِبَادَ أَسْمَاءَ مِنْ أَسْمَائِهِ عَلَى اخْتِلَافِ الْمَعَانِي، وَذَلِكَ كَمَا يَجْمَعُ الْإِسْمُ الْوَاحِدُ مَعْنَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، وَالِدَلِيلُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ النَّاسِ الْجَائِزِ عِنْدَهُمُ السَّائِعُ^(١) وَهُوَ الَّذِي خَاطَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ الْخَلْقَ فَكَلَّمَهُمْ بِمَا يَعْقِلُونَ لِيَكُونَ عَلَيْهِمْ حُجَّةٌ فِي تَضْيِيعِ مَا ضَيَّعُوا، وَقَدْ يُقَالُ لِلرَّجُلِ: كَلَبَ وَحِمَارًا وَتَوَرَّ وَسُكْرَةً^(٢) وَعَلَقَمَةً وَأَسَدًا، كُلُّ ذَلِكَ عَلَى خِلَافِهِ، لِأَنَّهُ لَمْ تَقَعِ الْأَسْمَاءُ^(٣) عَلَى مَعَانِيهَا الَّتِي كَانَتْ بُنِيَتْ عَلَيْهَا، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ بِأَسَدٍ وَلَا كَلَبٍ، فَافْهَمْ ذَلِكَ رَحِمَكَ اللَّهُ.

وَإِنَّمَا تَسَمَّى اللَّهُ بِالْعَالِمِ لِغَيْرِ عِلْمٍ حَادِثٍ عِلْمٍ بِهِ الْأَشْيَاءَ، وَاسْتَعَانَ بِهِ عَلَى حِفْظِ مَا يُسْتَقْبَلُ مِنْ أَمْرِهِ، وَالرَّوِيَّةِ فِيمَا يَخْلُقُ مِنْ خَلْقِهِ وَيُفْنِيهِ مِمَّا مَضَى^(٤) مِمَّا أَفْنَى مِنْ خَلْقِهِ مِمَّا لَوْ لَمْ يَحْضُرْهُ ذَلِكَ الْعِلْمُ وَيَغِيْبُهُ كَانَ جَاهِلًا ضَعِيفًا، كَمَا أَنَا رَأَيْنَا عُلَمَاءَ الْخَلْقِ إِنَّمَا سُمُّوا بِالْعِلْمِ لِعِلْمٍ حَادِثٍ، إِذْ كَانُوا قَبْلَهُ جَهْلَةً، وَرُبَّمَا فَارَقَهُمُ الْعِلْمُ بِالْأَشْيَاءِ فَصَارُوا^(٥) إِلَى الْجَهْلِ. وَإِنَّمَا سُمِّيَ اللَّهُ عَالِمًا لِأَنَّهُ لَا يَجْهَلُ شَيْئًا، فَقَدْ جَمَعَ الْخَالِقَ وَالْمَخْلُوقَ اسْمَ الْعِلْمِ وَاخْتَلَفَ الْمَعْنَى عَلَى مَا رَأَيْتَ. وَسُمِّيَ رَبُّنَا سَمِيعًا لَا بِجُزْءٍ فِيهِ يَسْمَعُ بِهِ الصَّوْتُ لَا يُبْصِرُ بِهِ كَمَا أَنَّ جُزْءَنَا الَّذِي نَسْمَعُ بِهِ لَا نَقْوِي عَلَى النَّظَرِ بِهِ، وَلَكِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ الْأَصْوَاتُ لَيْسَ عَلَى حَدِّ مَا سَمِينَا بِهِ نَحْنُ فَقَدْ جَمَعْنَا الْإِسْمَ بِالسَّمِيعِ وَاخْتَلَفَ الْمَعْنَى، وَهَكَذَا الْبَصِيرُ لَا بِجُزْءٍ بِهِ أَبْصَرَ كَمَا أَنَّا نُبْصِرُ بِجُزْءٍ مِنَّا لَا نَنْتَفِعُ بِهِ فِي غَيْرِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ لَا يَجْهَلُ شَخْصًا مُنْظُورًا إِلَيْهِ، فَقَدْ جَمَعْنَا الْإِسْمَ وَاخْتَلَفَ الْمَعْنَى. وَهُوَ قَائِمٌ لَيْسَ عَلَى مَعْنَى انْتِصَابٍ وَقِيَامٍ عَلَى سَاقٍ فِي كِبَدٍ كَمَا قَامَتِ الْأَشْيَاءُ، وَلَكِنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ قَائِمٌ يُخْبِرُ أَنَّهُ حَافِظٌ كَقَوْلِ الرَّجُلِ: الْقَائِمُ بِأَمْرِنَا فُلَانٌ، وَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، وَالْقَائِمُ أَيْضًا فِي كَلَامِ النَّاسِ الْبَاقِي، وَالْقَائِمُ أَيْضًا يُخْبِرُ عَنِ الْكِفَايَةِ كَقَوْلِكَ لِلرَّجُلِ: قُمْ بِأَمْرِ فُلَانٍ أَيْ اكْفِهِ، وَالْقَائِمُ مِنَّا قَائِمٌ عَلَى سَاقٍ، فَقَدْ جَمَعْنَا الْإِسْمَ وَلَمْ يَجْمَعْنا الْمَعْنَى. وَأَمَّا اللَّطِيفُ فَلَيْسَ عَلَى قِلَّةٍ وَقِصَافَةٍ وَصِغَرٍ وَلَكِنْ ذَلِكَ عَلَى النَّقَازِ فِي الْأَشْيَاءِ وَالِامْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُدْرَكَ كَقَوْلِكَ: لَطُفَ عَنِّي هَذَا الْأَمْرُ، وَلَطُفَ فُلَانٌ فِي مَذْهَبِهِ، وَقَوْلُهُ: يُخْبِرُكَ أَنَّهُ غَمَضَ فَبَهَرَ الْعَقْلَ، وَقَاتَ الطَّلَبَ وَعَادَ مُتَعَمِّقًا مُتَلَطِّفًا لَا يُدْرِكُهُ الْوَهْمُ، فَهَكَذَا لَطُفَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ أَنْ يُدْرَكَ بِحَدٍّ أَوْ يَحَدَّ بِوَصْفٍ، وَاللَّطَافَةُ مِنَّا الصَّغَرُ وَالْقِلَّةُ، فَقَدْ جَمَعْنَا الْإِسْمَ وَاخْتَلَفَ الْمَعْنَى. وَأَمَّا الْخَبِيرُ فَالَّذِي لَا يَغْرُبُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَفُوتُهُ، لَيْسَ لِلتَّجَرِبَةِ وَلَا لِلْإِعْتِبَارِ بِالْأَشْيَاءِ فَتَقْدِيدُهُ التَّجَرِبَةَ وَالْإِعْتِبَارَ عِلْمًا لَوْلَاهُمَا مَا عِلْمٌ، لِأَنَّ

١. في التوحيد والكافي: «الشائع».

٢. السُّكْرُ: نوع من الرُّطْبِ شديد الحلاوة، الواحدة سُكْرَةٌ، راجع المصباح المنير.

٣. في التوحيد والكافي: «على خلافه وحالاته لم تقع الأسماء...».

٤. في التوحيد: «وبعينه ما مضى»، وفي الكافي «وبفسد ما مضى».

٥. في الكافي: «فعادوا».

مَنْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ جَاهِلًا، وَاللَّهُ لَمْ يَزَلْ خَبِيرًا بِمَا يَخْلُقُ، وَالْخَبِيرُ مِنَ النَّاسِ الْمُسْتَحْبِرُّ عَنْ جَهْلِ الْمُسْتَعْلَمِ، وَقَدْ جَمَعْنَا الْإِسْمَ وَاخْتَلَفَ الْمَعْنَى. وَأَمَّا الظَّاهِرُ فَلَيْسَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ عَلَا الْأَشْيَاءَ بِرُكُوبِ فَوْقَهَا وَقُعُودِ عَلَيْهَا وَتَسَنُّمِ لِدُرَاهَا، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لِقَهْرِهِ وَلِغَلَبَتِهِ الْأَشْيَاءَ وَقُدْرَتِهِ عَلَيْهَا كَقَوْلِ الرَّجُلِ: ظَهَرْتُ عَلَى أَعْدَائِي، وَأَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَى خَصْمِي، يُخْبِرُ عَنِ الْفَلَجِ وَالْغَلَبَةِ، فَهَكَذَا ظُهُورُ اللَّهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ^(١). وَوَجْهٌ آخَرُ أَنَّهُ الظَّاهِرُ لِمَنْ أَرَادَهُ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَأَنَّهُ مُدَبِّرٌ لِكُلِّ مَا يَرَى^(٢)، فَأَيُّ ظَاهِرٍ أَظْهَرَ وَأَوْضَحَ أَمْرًا مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَإِنَّكَ لَا تَعْدُمُ صَنْعَتَهُ حَيْثُمَا تَوَجَّهْتَ وَفِيكَ مِنْ آثَارِهِ مَا يُغْنِيكَ، وَالظَّاهِرُ مِنَّا الْبَارِزُ بِنَفْسِهِ وَالْمَعْلُومُ بِحَدِّهِ، فَقَدْ جَمَعْنَا الْإِسْمَ وَاخْتَلَفَ الْمَعْنَى^(٣). وَأَمَّا الْبَاطِنُ فَلَيْسَ عَلَى مَعْنَى الْإِسْبِطَانِ لِلْأَشْيَاءِ بِأَنْ يَغُورَ فِيهَا، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَى اسْتِبْطَانِهِ لِلْأَشْيَاءِ عِلْمًا وَحِفْظًا وَتَدْبِيرًا كَقَوْلِ الْقَائِلِ: أَبْطَنْتُهُ يَعْنِي خَبَرْتُهُ وَعَلِمْتُ مَكْتُومَ سِرِّهِ، وَالْبَاطِنُ مِنَّا بِمَعْنَى الْغَائِبِ فِي الشَّيْءِ الْمُسْتَسْتَرِ، فَقَدْ جَمَعْنَا الْإِسْمَ وَاخْتَلَفَ الْمَعْنَى. وَأَمَّا الْقَاهِرُ فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَى عِلَاجٍ وَنَصَبٍ وَاحْتِيَالٍ وَمُدَارَاةٍ وَمَكْرٍ كَمَا يَفْهَرُ الْعِبَادُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَالْمَقْهُورُ مِنْهُمْ يَعُودُ قَاهِرًا وَالْقَاهِرُ يَعُودُ مَقْهُورًا، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى أَنْ جَمِيعَ مَا خَلَقَ مُتَلَبِّسٌ بِهِ الذِّلُّ لِفَاعِلِهِ وَقِلَّةُ الْإِمْتِنَاعِ لِمَا أَرَادَ بِهِ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ طَرَفَةٌ عَيْنٍ غَيْرَ أَنَّهُ يَقُولُ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ، فَالْقَاهِرُ مِنَّا عَلَى مَا ذَكَرْتُ وَوَصَفْتُ فَقَدْ جَمَعْنَا الْإِسْمَ وَاخْتَلَفَ الْمَعْنَى. وَهَكَذَا جَمِيعُ الْأَسْمَاءِ وَإِنْ كُنَّا لَمْ نُسَمِّهَا كُلَّهَا^(٤)، فَقَدْ تَكْتَفِي لِلْإِعْتِبَارِ^(٥)، بِمَا أَلْقَيْنَا إِلَيْكَ، وَاللَّهُ عَوْنُنَا وَعَوْنُكَ فِي إِرْشَادِنَا وَتَوْفِيقِنَا.

توضيح:

«الإقرار» إما من أقرّ بالحقّ إذا اعترف به، أو من أقرّ الحقّ في مكانه فاستقرّ هو، فقوله **عَلَيْهَا**: «معجزة الصفة» على الأوّل: منصوب بنزع الخافض، وعلى الثاني: منصوب على المفعولية، والمعجزة اسم فاعل من أعجزته بمعنى وجدته عاجزاً أو جعلته عاجزاً أو من أعجزه الشيء بمعنى فاتته، وإضافتها إلى الصفة - والمراد بها القدم - من إضافة الصفة إلى الموصوف، وإثما وصفها بالإعجاز لأنّها تجدهم أو تجعلهم لنباهة^(٦) شأنها عاجزين عن إدراكهم كنهها، أو عن اتّصافهم بها، أو عن إنكارهم لها، أو لأنّها تفوتهم وهم فاقدون لها؛ ويحتمل أن تكون المعجزة مصدر عجز عن الشيء عاجزاً أو معجزة بفتح الميم وكسر الجيم وفتحها أي إقرارهم بعجزهم عن الاتّصاف بتلك الصفة، ويمكن أن يقرأ على بناء المفعول بأن يكون حالاً عن العامّة أو صفة لها

١. في التوحيد: «فهكذا ظهور الله على الأعداء».

٢. في التوحيد والكافي: «وأنّه مدبّر لكل ما يرى».

٣. في المصدرين والكافي: «فقد جمعنا الاسم ولم يجمعنا المعنى».

٤. في الكافي: «وإن كنّا لم نستجمعها كلّها».

٥. في العيون والكافي: «فقد يكتفي الاعتبار».

٦. النباهة: الشرافة، راجع لسان العرب.

أي بإقرارهم موصوفين بالعجز عن ترك الإقرار، أو الحال أن صفة القدم أعجزتهم وألجأتهم إلى الإقرار فالمقرّ به والمبين شيء واحد، وهو قوله عليه السلام: «أنه لا شيء قبل الله». قال بعض الأفاضل: المراد بقوله عليه السلام: «إقرار العامة» إذعانهم أو الإثبات، وعلى الأول: متعلق الإذعان إمّا معجزة الصفة بحذف الصلة، أو محذوف أي إقرار العامة بأنه خالق كل شيء، ومعجزة الصفة صفة للإقرار أو بدل عنه أي إقرار العامة بأنه خالق كل شيء معجزة الصفة أي صفة الخلقية لكل شيء أو صفة القدم لا يسع أحداً أن ينكره؛ وأمّا على الثاني: فمعجزة الصفة مفعول الإقرار، أو صفة للإقرار، أو بدل عنه، والمفعول محذوف، وعلى تقدير كونه مفعولاً فمعجزة الصفة من إضافة الصفة إلى الموصوف أي الصفة التي هي معجزة لهم عن أن لا يشبّوا له خالقية كل شيء، أو المعجزة بمعناه المتعارف والإضافة لامية أي إثباتهم الخلقية لكل معجزة هذه الصفة حيث لا يسعهم أن ينكروها وإن أرادوا الإنكار؛ ويحتمل أن يكون معجزة الصفة فاعل «بان» ويكون قوله عليه السلام: «أنه لا شيء قبل الله» بياناً أو بدلاً لمعجزة الصفة^(١). انتهى.

أقول:

لا يخفى أنه يدلّ على أنه لا قديم سوى الله، وعلى أن التأثير لا يعقل إلا في الحادث، وأن القدم مستلزم لوجوب الوجود.

قوله عليه السلام: «ثم وصف» أي سمى نفسه، «بأسماء» بالتنوين، «دعاء الخلق» بالنصب أي لدعائهم، ويحتمل إضافة الأسماء إلى الدعاء، والأظهر أنه على صيغة الفعل. وقوله عليه السلام: «إلى أن يدعوه» متعلق به أو بالابتلاء أيضاً على التنازع، لكن في أكثر نسخ الكلينيّ مهموز. قوله عليه السلام: «وابتلاهم» أي بالمصائب والحوائج، وألجأهم إلى أن يدعوه بتلك الأسماء. قوله عليه السلام: «والدليل على ذلك» أي على إطلاق اللفظ الواحد على المعنيين المختلفين، والقول السائع هو ما فسره عليه السلام بقوله: «وقد يقال». و«العلقم»: شجر مرّ، ويقال للحنظل ولكل شيء مرّ: علقم. قوله عليه السلام: «على خلافه» أي على خلاف موضوعه الأصلي. قوله عليه السلام: «ويفنيه ممّا مضى» كذا في بعض نسخ الكتابين، فهو عطف على يخلق، وفي بعض نسخ العيون: «تفنيه ما مضى» أي إفناؤها، وفي بعض نسخ التوحيد: «تفنيه ما مضى ممّا أفنى» أي جعل بعض ما يفنى في قفاء ما مضى أي يكون مستحضراً لما مضى ممّا أعدمه سابقاً حتّى يفنى ما يفنى بعده على طريقته، وعلى التقديرين معطوف على الموصول. قوله عليه السلام: «لا بجزء» في الكافي: «لا بخرت» في المواضع وهو بالفتح والضم: الثقب في الأذن وغيرها. و«الكبد» بالتحريك: المشقة والتعب، والقضاة بالقاف والضاد المعجمة ثم الفاء: الدقة والنحافة. قوله عليه السلام: «فهر العقل» أي غلبه فلا يصل العقل إليه، ويمكن أن يقرأ على البناء المجهول^(٢) وفي الكافي:

١. الحاشية على أصول الكافي (المحمد بن حيدر النائي)، ص ٤٠٥.

٢. وفي نسخة: على البناء للمفعول. (هامش المطبوع)

«فيه العقل»، «وفات الطلب» أي وفات ذلك الشيء عن الطلب فلا يدركه الطلب، أو فوات عن العقل الطلب فلا يمكنه طلبه، ويحتمل على هذا أن يكون الطلب بمعنى المطلوب، «وعاد» أي العقل أو الوهم على التنازع أو ذلك الشيء، فالمراد أنه صار ذا عمق ولطافة ودقة لا يدركه الوهم لبعده عمقه وغاية دقته، وسنام كل شيء: أعلاه، ومنه «تسّمه» أي علاه، والذري بضمّ الذال المعجمة وكسرهما جمع الذروة بهما وهي أيضاً أعلى الشيء. قوله عليه السلام: «لا يخفى عليه شيء» يحتمل إرجاع الضمير المجرور إلى الموصول أي لا يخفى على من أراد معرفة شيء من أموره، من وجوده وعلمه وقدرته وحكمته؛ وعلى تقدير إرجاعه إليه تعالى لعلّه ذكر استطراداً، أو إنّما ذكر لأنّه مؤيد لكونه مدبراً لكل شيء، أو لأنّه مسبّب عن كلّ شيء، أو لأنّ ظهوره لكل شيء وظهور كلّ شيء له مسببان عن تجرّده تعالى، ويحتمل أن يكون وجهاً آخر لإطلاق الظاهر عليه تعالى لأنّ في المخلوقين لما كان المطلّع على شيء حاضراً عنده ظاهراً له جاز أن يعبر عن هذا المعنى بالظهور؛ والعلاج: العمل والمزاولة بالجوارح.

١٥٧٩. التوحيد، معاني الأخبار^(١): أبي، عن ابن عيسى وسلمة بن الخطاب، عن القاسم، عن جدّه، عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: سئل عن معنى الله عزّ وجلّ، فقال: استولى على ما دقّ وجلّ^(٢).

بيان:

لعلّه من باب تفسير الشيء بلازمه، فإنّ معنى الإلهيّة يلزمه الاستيلاء على جميع الأشياء دقيقتها وجليها؛ وقيل: السؤال إنّما كان عن مفهوم الاسم ومناطه فأجاب عليه السلام: بأنّ الاستيلاء على جميع الأشياء مناط المعبوديّة بالحقّ لكلّ شيء.

١٥٨٠. التوحيد، معاني الأخبار^(٣): المُفسّر بإسناده إلى أبي محمد عليه السلام قال: الله هو الذي يتألّه^(٤) إليه عند الحوائج

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٣٠، ح ٤؛ معاني الأخبار، ص ٤، ح ١؛ الكافي، ج ١، باب معاني الأسماء واشتقاقها، ص ١١٤، ح ٣.

٢. أخرجه الكليني أيضاً في الكافي في باب «معاني الأسماء واشتقاقها» عن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد البرقي، عن القاسم بن يحيى، عن جده الحسن بن راشد، عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام. وقد تقدم الحديث في باب «نفي الزمان والمكان» عن المحاسن بإسناده عن القاسم بن يحيى، عن جده الحسن، عن أبي الحسن عليه السلام مع زيادة في المتن، وهو هكذا: وسئل عن معنى قول الله: ﴿عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه/ ٥) فقال: استولى على ما دقّ وجلّ. انتهى.

وعن الإحتجاج عن الحسن مثله، فالظاهر بقريّة السند والمتن ورواية الكليني الحديث عن أحمد بن محمد البرقي صاحب المحاسن اتّحاده مع ما رواه الصدوق والكليني، وأنّ رواة الحديث في طريق الصدوق والكليني لم ينقلوا الحديث بتمامه، فسقط من الحديث ما ترى ووقع فيه الإخلال بحيث غيّر معناه إلى معنى آخر. (هامش المطبوع)

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٣٠، ح ٥؛ معاني الأخبار، ص ٤، ح ٢؛ التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام، ص ٢١، ح ٥؛ وقد ورد في هذه المصادر صدر رواية.

٤. أله يألّه إلى كذا: لجأ إليه لأنه سبحانه المفزع الذي يلجأ إليه في كلّ أمر، راجع لسان العرب.

وَالشَّدَائِدِ كُلُّ مَخْلُوقٍ عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَاءِ مِنْ كُلِّ مَنْ دُونَهُ، وَتَقَطُّعِ الْأَسْبَابِ مِنْ جَمِيعِ مَنْ سِوَاهُ.

أقول:

تمامه في كتاب القرآن في تفسير سورة الفاتحة^(١).

١٥٨١. التوحيد، معاني الأخبار^(٢): ابْنُ الْمُتَوَكِّلِ، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ، عَنْ ابْنِ أُذَيْنَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ مَيْمُونِ بْنِ أَلْبَانٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾^(٣) فَقَالَ: الْأَوَّلُ لَا عَنْ أَوَّلٍ قَبْلَهُ، وَلَا عَنْ بَدْءٍ سَبْقَهُ، وَآخِرٌ لَا عَنْ نِهَايَةٍ كَمَا يُعْقَلُ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَكِنْ قَدِيمٌ، أَوَّلٌ، آخِرٌ، لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ بِلَا بَدْءٍ وَلَا نِهَايَةٍ، لَا يَقَعُ عَلَيْهِ الْحُدُوثُ، وَلَا يَحُولُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

١٥٨٢. التوحيد^(٤): ابْنُ إِدْرِيسَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ يَحْيَى، عَنْ فَضِيلِ بْنِ عُثْمَانَ، عَنْ ابْنِ أَبِي يَعْفُورٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ وَقُلْتُ: أَمَّا الْأَوَّلُ فَقَدْ عَرَفْنَاهُ، وَأَمَّا الْآخِرُ فَبَيِّنْ لَنَا تَفْسِيرَهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ إِلَّا يَبِيدُ أَوْ يَتَغَيَّرُ، أَوْ يَدْخُلُهُ التَّغْيِيرُ وَالزَّوَالُ، أَوْ يَنْتَقِلُ مِنْ لَوْحٍ إِلَى لَوْحٍ، وَمِنْ هَيْئَةٍ إِلَى هَيْئَةٍ، وَمِنْ صِفَةٍ إِلَى صِفَةٍ، وَمِنْ زِيَادَةٍ إِلَى نُقْصَانٍ، وَمِنْ نُقْصَانٍ إِلَى زِيَادَةٍ، إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ، وَلَا يَزَالُ وَاحِدًا^(٥)، هُوَ الْأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الْآخِرُ عَلَى مَا لَمْ يَزَلْ، لَا تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ وَالْأَسْمَاءُ كَمَا تَخْتَلِفُ عَلَى غَيْرِهِ مِثْلُ الْإِنْسَانِ الَّذِي يَكُونُ تَرْبَابًا مَرَّةً، وَمَرَّةً لَحْمًا، وَمَرَّةً دَمًا، وَمَرَّةً رُفَاتًا وَرَمِيمًا، وَكَالتَّمْرِ الَّذِي يَكُونُ مَرَّةً بَلْحًا، وَمَرَّةً بُسْرًا، وَمَرَّةً رُطْبًا، وَمَرَّةً تَمْرًا، فَيَتَبَدَّلُ عَلَيْهِ الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِخِلَافِ ذَلِكَ.

بيان:

«يبيد» أي يهلك، والرفات: المتكسر من الأشياء اليابسة، والرميم: ما بلي من العظام، والبلح محرّكة: ما بين الخلال والبسر، قال الجوهرى: البلح قبل البسر لأنَّ أَوَّلَ التمر طلع، ثمَّ خلال، ثمَّ بلح، ثمَّ رطب.

أقول:

الغرض أنَّ دوام الجنة والنار وأهلها وغيرها لا ينافي آخريته تعالى واختصاصها به، فإنَّ هذه الأشياء دائماً في التغيّر والتبدّل، وفي معرض الفناء والزوال، وهو تعالى باق من حيث الذات والصفات أزلاً وأبداً من حيث لا يلحقه تغيّر أصلاً، فكلّ شيء هالك وفان إلا وجهه تعالى.

١. كتاب القرآن، باب ٢٩، فضل سورة الفاتحة وتفسيرها....

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٣١٣، ح ١؛ معاني الأخبار، ص ١٢، ح ١؛ الكافي، ج ١، باب المعاني الأسماء واشتقاقها، ص ١١٦، ح ٦.

٣. الحديد/٣.

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ٣١٤ ح ٢؛ الكافي، ج ١، باب معاني الأسماء واشتقاقها، ص ١١٥، ح ٥.

٥. في الكافي: «فإنه لم يزل ولا يزال بحالة واحدة».

١٥٨٣. تفسير الإمام علي عليه السلام^(١): ﴿الرَّحْمَنُ﴾^(٢) قَالَ الْإِمَامُ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الرَّحْمَنُ: الْعَاطِفُ عَلَى خَلْقِهِ بِالرِّزْقِ، لَا يَقْطَعُ عَنْهُمْ مَوَادَّ رِزْقِهِ وَإِنْ انْقَطَعُوا عَنْ طَاعَتِهِ، الرَّحِيمُ: بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَخْفِيفِهِ عَلَيْهِمْ طَاعَاتِهِ، وَبِعِبَادِهِ الْكَافِرِينَ فِي الرِّزْقِ لَهُمْ^(٣)، وَفِي دُعَائِهِمْ إِلَى مُوَافَقَتِهِ.

وَقَالَ^(٤) أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ أَنَّهُ خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ، جَعَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً فِي الْخَلْقِ كُلِّهِمْ فِيهَا يَتَرَاخَمُ النَّاسُ، وَتَرْحَمُ الْوَالِدَةُ وَلَدَهَا، وَتَحْنُو الْأُمَّهُاتُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ عَلَى أَوْلَادِهَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَصَافَ هَذِهِ الرَّحْمَةَ الْوَاحِدَةَ إِلَى تِسْعٍ وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، فَيَرْحَمُ بِهَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، ثُمَّ يُشَفِّعُهُمْ فَيَمْنُ يُحِبُّونَ لَهُ الشَّقَاعَةَ مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ؛ تَمَامَ الْخَبَرِ.

١٥٨٤. تفسير القمي^(٥): قَوْلُهُ: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾^(٦) قَالَ: هُوَ شَيْءٌ قَالَتْهُ الْجِنُّ بِجَهَالَةٍ، فَلَمْ يَرْضَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُمْ، وَمَعْنَى جَدُّ رَبِّنَا أَيُّ بَحْتُ^(٧) رَبِّنَا^(٨).

١٥٨٥. الخصال^(٩): فِي خَبَرِ الْأَعْمَشِ عَنِ الصَّادِقِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يُقَالُ فِي افْتِتَاحِ الصَّلَاةِ: تَعَالَى عَرْشُكَ، وَلَا يُقَالُ: تَعَالَى جَدُّكَ.

أقول:

قد مضى بعض الأخبار المناسبة للباب في باب إثبات الصانع^(١٠)، وسيأتي بعضها في باب الجوامع^(١١).

١. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، ص ٣٤، ح ١٢؛ نوادر الأخبار (للفيضي)، ص ٩٥، ح ٣.

٢. الفاتحة / ١.

٣. في المصدر: «في الفرق بهم».

٤. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، ص ٣٧، ح ١٣؛ تأويل الآيات الظاهرة، ص ٢٦.

٥. تفسير القمي، ج ٢، ص ٣٨٨؛ تفسير الصافي، ج ٥، ص ٢٣٤؛ وقد ورد في تفسير البرهان، ج ٥، ص ٥٠٦، ضمن ح ١١١٢٤.

٦. الجن / ٣.

٧. البخت: الحظ، المصباح المنير.

٨. **فقول:** ذكر آخرون معاني محدودة لهذه الكلمة فقد فسروها بالصفات، والقدرة، والملك، والحاكمة، والنعمة، والاسم، وتجتمع كل هذه المعاني في معنى العظمة، وهناك ادعاء في أَنَّ المقصود هنا هو الأب الأكبر «الجد» وتشير الروايات إلى أَنَّ الجنَّ لقلَّة معرفتهم اختاروا هذا التعبير غير المناسب، وهذا إشارة إلى نهيمهم عن ذكر هذه التعابير.

ويمكن أن يكون هذا الحديث ناظرًا إلى الموارد التي يتداعى فيها هذا المفهوم، وإلا فإنَّ القرآن يذكر هذا التعبير بلحن الموافق في هذه الآيات، وقد ذكر هذا التعبير أيضًا في نهج البلاغة، كما في الخطبة (١٩١): «الحمد لله الفاشي في الخلق حمده، والغالب جنده، والمتعالي جدّه».

وورد في بعض الروايات أَنَّ أنس بن مالك قد قال: كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة جدَّ في أعيننا.

على كل حال، فإنَّ استعمال هذه اللفظة في المجد والعظمة مطابق لما ورد في نصوص اللغة. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٩، ص ٨١)

٩. الخصال، ج ٢، ص ٦٠٣، ح ٩؛ وسائل الشيعة، ج ٧، ص ٢٨٦، ح ٩٣٦٠.

١٠. كتاب التوحيد، باب ٣، إثبات الصانع و....

١١. تنمة كتاب التوحيد، باب ٤، جوامع التوحيد.

﴿باب ٣﴾

«عدد أسماء الله تعالى وفضل إحصائها وشرحها»

الآيات:

الفاتحة/ ١-٤: إلى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(١).

البقرة/ ٢٩: ﴿... وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

البقرة/ ١٧٣ و ١٨٢ و ١٩٩ و ٢٢٦: ﴿... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

البقرة/ ٢٠٢: ﴿... وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

البقرة/ ١٩٦: ﴿... وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

البقرة/ ٢٠٧: ﴿... وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.

البقرة/ ٢٠٩: ﴿... فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

البقرة/ ٢١١: ﴿... فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

البقرة/ ٢١٨: ﴿... وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

البقرة/ ٢٢٠: ﴿... إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

البقرة/ ٢٢٤ و ٢٥٦: ﴿... وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

١. **نقول:** مالكية الله في ذلك اليوم دون شك ليست ملكية اعتبارية، نظير ملكيتنا للأشياء في هذا العالم، ملكيتنا هذه عقد يبرم بموجب تعامل ووثائق، وينفسخ بموجب تعامل آخروثائق أخرى، لكن ملكية الله لعالم الكون ملكية حقيقية، وقد يسأل سائل فيقول: لماذا وصفنا الله بأنه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ بينما هو مالك الكون كله؟ والجواب هو أن الله مالك لعالم الدنيا والآخرة، لكن مالكيته ليوم القيامة أبرز وأظهر، لأن الارتباطات المادية والملكيات الاعتبارية تتلاشى كلها في ذلك اليوم، وحتى الشفاعة لا تتم يومئذ إلا بأمر الله. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١، ص ٤٥)

- البقرة/٢٢٥: ﴿... وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.
- البقرة/١٩٢: ﴿... فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
- البقرة/٢٢٧: ﴿... فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.
- البقرة/٢٢٨ و ٢٤٠: ﴿... وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.
- البقرة/٢٣٣: ﴿... وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.
- البقرة/٢٣٤ و ٢٧١: ﴿... وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.
- البقرة/٢٣٥: ﴿... وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.
- البقرة/٢٤٤: ﴿... وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.
- البقرة/٢٤٧ و ٢٥٦ و ٢٦١ و ٢٦٨: ﴿... وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ في مواضع.
- البقرة/٢٥٤: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...﴾^(١).
- البقرة/٢٥٥: ﴿... وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.
- البقرة/١٢٧ و ١٢٨ و ١٢٩ و ٢٠٠ و ٢٠١ و ٢٥٠ و ٢٨٥: ﴿... رَبَّنَا...﴾ في مواضع.

١. **فقول:** في التعبير السائد نقول للكائن أنه حي إذا كان يتَّصف بالنموّ والتغذية والتكاثر والجذب والدفع، وقد يتَّصف بالحسّ والحركة. ولكن لا بدّ من الانتباه إلى أنّ بعضاً من السدّج قد يحسبون حياة الله شبيهة بهذه، مع علمنا بأنّه لا يتَّصف بأية واحدة من هذه الصفات. هذا هو القياس الذي يوقع الإنسان في أخطاء في حقل معرفة الله حين يقيس صفات الله بصفاته. «الحياة» بمعناها الواسع الحقيقي هي العلم والقدرة، وعليه فإنّ من يملك العلم والقدرة اللامتناهيتين يملك الحياة الكاملة. حياة الله هي مجموعة علمه وقدرته، وفي الواقع بالعلم والقدرة يمكن التمييز بين الحيّ وغير الحيّ. أمّا النموّ والحركة والتغذية والتكاثر فهي صفات كائنات ناقصة ومحدودة، فهي تكمل نقصها بالتغذية والتكاثر والحركة، أمّا الذي لا نقص فيه فلا يمكن أن يتَّصف بمثل هذه الصفات. «القيوم» صيغة مبالغة من القيام. لذلك فالكلمة تدلّ على الموجود الذي قيامه بذاته، وقيام كلّ الكائنات بوجوده. وبعبارة أخرى: جميع كائنات العالم تستند إليه. بديهي أنّ القيام كما هو الشائع في الكلام اليومي هو الوقوف وبالهئية المعروفة، ولكن بما أنّ هذا المعنى لا يتفق مع الله المنزّه عن الصفات الجسميّة، لذلك فالمقصود به هو القيام بالخلق والتدبير والتعهد، فإنّه هو الذي خلق المخلوقات كلّها وتعهّد بتدبيرها وتربيتها وإدامتها، ولن يغفل عنها لحظة واحدة، فهو قائم دائماً وأبداً وباستمرار دون توقّف. ويتّضح من هذا أنّ «قيوم» هي في الواقع أساس كلّ صفات الفعل، وهي الصفات التي تبيّن علاقة الله بالموجودات مثل الخالق، الرازق، الهادي، المحيي، وأمثالها. فالقيام بالخلق وتدبير أمور العالم يشمل كلّ هذه الأمور، فهو الذي يرزق، وهو الذي يحيي، وهو الذي يميت، وهو الذي يهدي. وعليه فإنّ صفات الخالق والرازق والهادي والمحيي وأمثالها تتجمّع كلّها في «القيوم». ومن هنا يتّضح أنّ تحديد البعض لمفهوم هذه الجملة بالقيام بأمر الخلقة أو القيام بأمر الرزق وأمثال ذلك هو في الواقع إشارة إلى أحد مصاديق القيام في حين أنّه مفهومه واسع ويشمل كلّ ذلك، لأنّ مفهومه كما قلنا يعطي معنى القائم بالذات وغيره متقوم به ومحتاج إليه وفي الحقيقة أنّ «الحيّ» يشمل جميع الصّفات الإلهيّة كالعلم والقدرة والسّميع والبصير وأمثال ذلك، و«القيوم» تتحدّث عن احتياج جميع المخلوقات إليه، ولذا قيل: إنّ الاسم الأعظم الإلهي هو مجموع هاتين الصفتين. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢، ص ٢٤٤)

- البقرة/٢٦٣: ﴿... وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾.
- البقرة/٢٦٧: ﴿... وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.
- البقرة/٢٨٤: ﴿... وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.
- آل عمران/٨: ﴿... إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.
- النساء/١: ﴿... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(١).
- النساء/٦: ﴿... وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.
- النساء/١٦: ﴿... إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.
- النساء/٣٤: ﴿... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾.
- النساء/٤٣: ﴿... إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا غَفُورًا﴾.
- النساء/٤٥: ﴿... وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾.
- النساء/٧٩: ﴿... وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.
- النساء/٨١: ﴿... وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.
- النساء/٨٥: ﴿... وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾.
- النساء/٨٦: ﴿... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾.
- النساء/١٣٠: ﴿... وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾.
- النساء/١٤٧: ﴿... وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.
- الأعراف/٨٧: ﴿... وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.
- الأعراف/٨٩: ﴿... وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.
- الأعراف/١٨٠: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

١. **فقول:** الرقيب أصله من الترقب، وهو الانتظار من مكان مرتفع، ثم استعمل بمعنى الحافظ والحارس، لأن الحراسة من لوازم الترقب والنظارة. وارتفاع مكان الرقيب قد يكون من الناحية الظاهرية بكون الرقيب يرقب على مكان مرتفع، ويمارس النظارة من ذلك الموقع، وقد يكون من الناحية المعنوية. يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ أي أنه يحصي عليكم نياتكم وأعمالكم، ويعلم بها ويراهها جميعا، كما أنه هو الذي يحفظكم أمام الحوادث. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٣، ص ٨٢)

٢. **فقول:** المراد من «أسماء الله الحسنى» هي صفات الله المختلفة التي هي حسنى جميعا، فنحن نعرف أن الله عالم قادر رازق عادل جواد كريم رحيم، كما أن له صفات أخرى حسنى من هذا القبيل أيضا. فالمراد من دعاء الله بأسمائه الحسنى، ليس هو ذكر هذه الألفاظ وجريانها

- الأنفال/٩: ﴿... فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.
- الأنفال/٥٢: ﴿... إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.
- يونس/١٠٩: ﴿... وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾.
- هود/١: ﴿... مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.
- يوسف/٣٩: ﴿... الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.
- يوسف/٦٤: ﴿... فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.
- الرعد/١٣: ﴿... وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾^(١).
- الإسراء/١١٠: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ...﴾^(٢).
- طه/١١٤: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ...﴾.
- الحج/٤٠: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.
- النور/٢٥: ﴿... وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾.
- النور/٣٢: ﴿... وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

→ على اللسان فحسب، كأن نقول مثلا: يا عالم يا قادر يا أرحم الراحمين. بل ينبغي أن تتمثل هذه الصفات في وجودنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، وأن يشع إشراق من علمه وشعاع من قدرته وجانب من رحمته الواسعة فينا وفي مجتمعنا. وبتعبير آخر: ينبغي أن نتصف بصفاته ونتخلق بأخلاقه، لنستطيع بهذا الشعاع، شعاع العلم والقدرة والرحمة والعدل أن نخرج أنفسنا ومجتمعنا الذي نعيش فيه من سلك أهل التَّار.... (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٥، ص ٣٠٣)

١. **نقول:** «المحال» في الأصل «الحيلة» بمعنى التدبير السري وغير الظاهر، فالذي له القدرة على هذا التدبير يمتلك العلم والحكمة العالية، ولهذا السبب يستطيع أن ينتصر على أعدائه ولا يمكن الفرار من حكومته. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٧، ص ٣٦٢)
٢. **نقول:** هل من العجيب أن تكون للخالق أسماء متعددة تتناسب مع أفعاله وكمالاته وهو المطلق في وجوده وفي صفاته والمنبع لكل صفات الكمال وجميع النعم، وهو وحده عز وجل الذي يدير دفة هذا العالم والوجود؟ أساسا، فإنَّ الله تعالى لا يمكن معرفته ومناجاته باسم واحد إذ ينبغي أن تكون أسماؤه مثل صفاته غير محدودة حتى تعبر عن ذاته، ولكن لمحدودية ألفاظنا - كما هي أشياءنا الأخرى أيضا - لا نستطيع سوى ذكر أسماء محدودة له، وإن معرفتنا مهما بلغت فهي محدودة أيضا، حتى أن رسول الله ﷺ وهو من هو في منزلته وروحه وعلو شأنه، نراه يقول: «ما عرفناك حق معرفتك»، إنَّ الله تعالى في قضية معرفتنا إيَّاه لم يتركنا في أفق عقولنا ودرايتنا الخاصة، بل ساعدنا كثيرا في معرفة ذاته، وذكر نفسه بأسماء متعددة في كتابه العظيم، ومن خلال كلمات أوليائه تصل أسماؤه - تقديس وتعالى - إلى ألف اسم. وطبيعي أن كل هذه أسماء الله، وأحد معاني الأسماء العلامة، لذا فإنَّ هذه علامات على ذاته الطاهرة، وجميع هذه الخطوط والعلامات تنتهي إلى واحدة، وهي لا تقلل من شأن توحيد الذات والصفات. وهناك قسم من هذه الأسماء ذو أهمية وعظمة أكثر، حيث تعطينا معرفة ووعيا أعظم، تسمى في القرآن الكريم وفي الروايات الإسلامية، بالأسماء الحسنى، وهناك رواية معروفة عن رسول الهدى ﷺ ما مضمونها: «إنَّ لله تسعا وتسعين اسما، من أحصاها دخل الجنة». (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٩، ص ١٧٧)

الأحزاب / ٣٤: ﴿... إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾^(١).

فاطر / ٣٠: ﴿... إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

الفتح / ٧: ﴿... وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

الحجرات / ١٢: ﴿... إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾.

الذاريات / ٥٨: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.

الرحمن / ٢٧: ﴿... ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(٢).

المجادلة / ٢: ﴿... وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ﴾^(٣).

الحشر / ٢٢-٢٤: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ

الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٤).

الجمعة / ١١: ﴿... وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

الروايات:

١٥٨٦. التوحيد^(٥): الْقَطَّانُ، عَنِ ابْنِ زَكَرِيَّا الْقَطَّانِ، عَنِ ابْنِ حَبِيبٍ، عَنِ ابْنِ بُهْلُولٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْعَبْدِيِّ.

١. **نقول:** الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ إشارة إلى أنه سبحانه مطلع على أدق الأعمال وأخفاها، ويعلم نياتكم تماما، وهو خير بأسراركم الدفينة في صدوركم. هذا إذا فسرنا «اللطيف» بالمطلع على الدقائق والخصفيات، وأما إذا فسر بصاحب اللطف، فهو إشارة إلى أن الله سبحانه لطيف ورحيم بكن يا نساء النبي، وهو خير بأعمالكن أيضا. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٣، ص ٢٤٠)

٢. **نقول:** ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ والذي هو وصف لـ «الوجه» يشير إلى صفات الجمال والجلال لله سبحانه، لأن ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ تستبئنا عن الصفات التي يكون الله أسمى وأجل منها الصفات السلبية. وكلمة «الإكرام» تشير إلى الصفات التي تظهر حسن وقيمة الشيء، وهي الصفات الثبوتية لله سبحانه كعلمه وقدرته. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٧، ص ٣٩٩)

٣. **نقول:** ويثار تساؤل عن الفرق الموجود بين «العفو» و«الغفور». قال البعض: «العفو» إشارة إلى الله تعالى «الغفور» إشارة إلى تغطية الذنوب إذ أن من الممكن أن يعفو شخص عن ذنب ما، ولكن لا يستتره أبدا، غير أن الله تعالى يعفو ويستتر في نفس الوقت. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٨، ص ١٠٥)

٤. **نقول:** إن الآيات الأخيرة لهذه السورة - التي اشتملت على قسم مهم من الأسماء والصفات الإلهية - آيات خارقة وعظيمة وملهمة، وهي درس تربوي كبير للإنسان، لأنها تقول له: إذا كنت تطلب قرب الله، وتريد العظمة والكمال فاقبض من هذه الصفات نورا يضيء وجودك. وجاء في بعض الروايات أن «اسم الله الأعظم» هو في الآيات الأخيرة من سورة الحشر. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٨، ص ٢٢٣)

٥. التوحيد (للصدوق)، ص ١٩٤، ح ٨؛ عده الداعي، ص ٣١٨؛ المقام الأسنى في تفسير الأسماء الحسنى (للكفعمي)، ص ٢١.

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مِهْرَانَ، عَنِ الصَّادِقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدَةً^(١) مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ. وَهِيَ: اللَّهُ، الْإِلَهُ، الْوَاحِدُ، الْأَحَدُ، الصَّمَدُ، الْأَوَّلُ، الْآخِرُ، السَّمِيعُ، الْبَصِيرُ، الْقَدِيرُ، الْقَاهِرُ، الْعَلِيُّ، الْأَعْلَى، الْبَاقِي، الْبَدِيعُ، الْبَارِي، الْأَكْرَمُ، الظَّاهِرُ، الْبَاطِنُ، الْحَيُّ، الْحَكِيمُ، الْعَلِيمُ، الْحَلِيمُ، الْحَفِيزُ، الْحَقُّ، الْحَسِيبُ، الْحَمِيدُ، الْحَفِيُّ، الرَّبُّ، الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، الدَّارِيُّ، الرَّازِقُ، الرَّقِيبُ، الرَّؤُوفُ، الرَّائِي، السَّلَامُ، الْمُؤْمِنُ، الْمُهِمِّنُ، الْعَزِيزُ، الْجَبَّارُ، الْمُتَكَبِّرُ، السَّيِّدُ، السُّبُّوحُ، الشَّهِيدُ، الصَّادِقُ، الصَّانِعُ، الطَّاهِرُ، الْعَدْلُ، الْعَفُوُّ، الْغَفُورُ، الْغَنِيُّ، الْغِيَاثُ، الْفَاطِرُ، الْفَرْدُ، الْفَتَّاحُ، الْفَالِقُ، الْقَدِيمُ، الْمَلِكُ، الْقُدُّوسُ، الْقَوِيُّ، الْقَرِيبُ، الْقَيُّومُ، الْقَابِضُ، الْبَاسِطُ، قَاضِي الْحَاجَاتِ، الْمَجِيدُ، الْمُؤَلَّى، الْمَنَّانُ، الْمُحِيطُ، الْمُبِينُ، الْمُقِيتُ، الْمُصَوِّرُ، الْكَرِيمُ، الْكَبِيرُ، الْكَافِي، كَاشِفُ الضَّرِّ، الْوَثَرُ، الثَّوْرُ، الْوَهَّابُ، النَّاصِرُ، الْوَاسِعُ، الْوَدُودُ، الْهَادِي، الْوَفِيُّ، الْوَكِيلُ، الْوَارِثُ، الْبَرُّ، الْبَاعِثُ، التَّوَّابُ، الْجَلِيلُ، الْجَوَادُ، الْخَبِيرُ، الْخَالِقُ، خَيْرُ النَّاصِرِينَ، الدِّيَّانُ، الشَّكُورُ، الْعَظِيمُ، اللَّطِيفُ، الشَّافِي^(٢).

١٥٨٧. التوحيد^(٣): أَلْهَمَدَانِي، عَنْ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ الْهَرَوِيِّ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى الرَّضَا، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ آبَائِهِ، عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ دَعَا اللَّهَ بِهَا اسْتَجَابَ لَهُ، وَمَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ.

قال الصدوق «رحمه الله» معنى قول النبي ﷺ: لله تبارك وتعالى تسعة وتسعون اسماً من أحصاها دخل الجنة إحصاؤها هو الإحاطة بها، والوقوف على معانيها، وليس معنى الإحصاء عدّها، وبالله التوفيق. «الله» و«الإله» الله والإله المستحق للعبادة ولا تحقق العبادة إلا له، وتقول: لم يزل إلهاً بمعنى أنه يحق له العبادة، ولهذا لما ضلّ المشركون فقدّروا أنّ العبادة تجب للأصنام^(٤) سمّوها آلهة، وأصله الألهة وهي العبادة، ويقال: أصله الإله يقال: أله الرجل يأله إليه أي فزع إليه من أمر نزل به، وأله أي أجاره، ومثاله من الكلام «الإمام» فاجتمعت همزتان في كلمة كثر استعمالهم لها فاستقلوا الأصلية لأنهم وجدوا فيما بقي دلالة عليها، فاجتمعت لآمان أولهما ساكنة فأدغموها في الأخرى فصارت لا ماً مثقلة في قولك: الله.

١. **فقول:** عدد هذه الأسماء مائة كاملة لا تسعة وتسعين والسبب فيه أنّ لفظ الجلالة «الله» خارج عنها لأنّها كلّها يعود الى وصف خاص من اوصافه الثبوتية واما لفظ الجلالة ليس فيه اشارة الى وصف خاص بل جامع لجميع صفات الكمال.

٢. **فقول:** لا منافات بين هذه الرواية والرواية الثالثة من هذا الباب ولا غيرهما وإن تفاوتت أسمائها فإنها ليست بصدد الحصر. وقد يقال: إنّ أسمائه تعالى يبلغ ألف اسم وواحد، أو أكثر من ذلك، أو أربعة آلاف، وقد ورد في كل رواية ما هو أعظمها.

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ١٩٥، ح ٩؛ عدّة الداعي، ص ٣١٧.

٤. وفي نسخة: فقد رأوا أنّ العبادة تجب للأصنام. (هامش المطبوع)

«الأحد الواحد» الأحد معناه أنه واحد في ذاته ليس بذی أبعاد ولا أجزاء ولا أعضاء ولا يجوز عليه الأعداد والاختلاف لأن اختلاف الأشياء من آيات وحدانيته ممّا دلّ به على نفسه، ويقال: لم يزل الله واحداً. ومعنى ثان أنه واحد لا نظير له ولا يشاركه في معنى الوحدانية غيره لأنّ كلّ من كان له نظراء أو أشباه لم يكن واحداً في الحقيقة، ويقال: فلان واحد الناس أي لا نظير له فيما يوصف به، والله واحد لا من عدد لأنّه عزّ وجلّ لا يعدّ في الأجناس، ولكنّه واحد ليس له نظير؛ وقال بعض الحكماء في الواحد والأحد: إنّما قيل: الواحد لأنّه متوحّد، والأوّل لا ثاني له^(١) ثمّ ابتدع الخلق كلّهم محتاجاً بعضهم إلى بعض، والواحد من العدد في الحساب ليس قبله شيء بل هو قبل كلّ عدد، والواحد كيف ما أردته أو جزّأته لم يزد فيه شيء ولم ينقص منه شيء، تقول: واحد في واحد فلم يزد عليه شيء ولم يتغيّر اللفظ عن الواحد فدلّ أنّه لا شيء قبله، وإذا دلّ أنّه لا شيء قبله دلّ أنّه محدث الشيء، وإذا كان هو مفني الشيء دلّ أنّه لا شيء بعده، فإذا لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء فهو المتوحّد بالأزل فلذلك قيل: واحد أحد، وفي الأحد خصوصيّة ليست في الواحد تقول: ليس في الدار واحد يجوز أن واحداً من الدوابّ أو الطير أو الوحوش أو الإنس لا يكون في الدار، وكان الواحد بعض الناس وغير الناس، وإذا قلت: ليس في الدار أحد فهو مخصوص للآدميين دون سائرهم؛ والأحد ممتنع من الدخول في الضرب والعدد والقسمة وفي شيء من الحساب، وهو متفرّد بالأحديّة، والواحد منقاد للعدد والقسمة وغيرهما داخل في الحساب تقول: واحد واثنان وثلاثة، فهذا العدد والقسمة، والواحد علّة العدد وهو خارج من العدد وليس بعدد، وتقول: واحد في اثنين أو ثلاثة، فما فوقها، وتقول في القسمة: واحد بين اثنين، أو ثلاثة لكلّ واحد من الاثنين واحد ونصف، ومن الثلاثة ثلث فهذه القسمة، والأحد ممتنع في هذه كلّها، لا يقال: أحد واثنان، ولا أحد في أحد، ولا يقال: أحد بين اثنين، والأحد والواحد وغيرهما من هذه الألفاظ كلّها مشتقة من الوحدة.

«الصمد» معناه السيّد، ومن ذهب إلى هذا المعنى جاز له أن يقول له: لم يزل صمداً، ويقال للسيّد المطاع في قومه الذي لا يقضون أمراً دونه: صمد، وقد قال الشاعر:

علوته بحُسام^(٢) ثمّ قلتُ له خذها حذيفُ فأنّت السيّد الصمد

وللصمد معنى ثان وهو أنّه المصمود إليه في الحوائج، يقال: صمدت صمداً هذا الأمر أي قصدت قصده، ومن ذهب إلى هذا المعنى لم يجز له أن يقول: لم يزل صمداً لأنّه قد وصفه عزّ وجلّ بصفة من صفات فعله وهو مصيب أيضاً، والصمد: الذي ليس بجسم ولا جوف له. أقول: (٣) وقد أخرجت في معنى «الصمد» في تفسير:

١. وفي نسخة: لا ثاني معه. (هامش المطبوع)

٢. الحُسام: السيف القاطع، راجع لسان العرب.

٣. الظاهر أنّ كلمة: «أقول» من سهو النساخ، لأنّ ما بعده من كلام الصدوق.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١) في هذا الكتاب معاني أخرى لم أحبّ إعادتها في هذا الباب.

«الأوّل» و«الآخر» الأوّل والآخر معناهما: أنّه الأوّل بغير ابتداء، والآخر بغير انتهاء.

«السميع» السميع معناه إذا وجد المسموع كان له سامعاً، ومعنى ثان أنّه سميع الدعاء أي مجيب الدعاء، وأمّا السامع فإنّه يتعدّى إلى مسموع ويوجب وجوده، ولا يجوز فيه بهذا المعنى لم يزل، والبارئ عزّ وجلّ سميع لذاته.

«البصير» البصير معناه: إذا كانت المبصرات كان لها مبصراً فلذلك جاز أن يقال: لم يزل بصيراً، ولم يجز أن يقال: لم يزل مبصراً لأنّه يتعدّى إلى مبصر ويوجب وجوده، والبصارة في اللغة مصدر البصيرة وبصر بصارة، والله عزّ وجلّ بصير لذاته، وليس وصفنا له تبارك وتعالى بأنّه سميع بصير وصفاً بأنّه عالم بل معناه ما قدّمناه من كونه مدركاً، وهذه الصفة صفة كلّ حيٍّ لا آفة به.

بيان:

أي ليس السمع والبصر مطلق العلم، بل العلم بالجزئيات المخصوصة أو نوع خاص من العلم، وقد مرّ تحقيقه^(٢).

«القدير» و«القاهر» القدير والقاهر معناهما أنّ الأشياء لا تطيق الامتناع منه ومما يريد الإنفاذ فيها، وقد قيل: إنّ القادر من يصحّ منه الفعل إذا لم يكن في حكم الممنوع، والقهر: الغلبة، والقدرة مصدر قولك: قدر قدرة أي ملك فهو قدير قادر مقتدر، وقدرته على ما لم يوجد واقتداره على إيجادها هو قهره وملكه لها، وقد قال عزّ ذكره: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾^(٣) ويوم الدين لم يوجد بعد، ويقال: إنّّه عزّ وجلّ قاهر لم يزل، ومعناه أنّ الأشياء لا تطيق الامتناع منه ومما يريد إنفاذه فيها، ولم يزل مقتدراً عليها، ولم تكن موجودة كما يقال: مالك يوم الدين ويوم الدين لم يوجد.

«العليّ» العليّ معناه القاهر، فالله العليّ ذو العلى والتعالى أي ذو القدرة والقهر والاقتدار، يقال: علا الملك علواً، ويقال لكلّ شيء علا: قد علا علواً، وعلا يعلى علاء والمعلاة: مكسب الشرف، وهي من المعالي، وعلو كلّ شيء: أعلاه برفع العين وخفضها وفلان من عليّة الناس وهو اسم، ومعنى الارتفاع والصعود والهبوط عن الله تبارك وتعالى منفيّ. ومعنى ثان أنّه عليّ تعالى عن الأشباه والأنداد وعمّا خاضت فيه وسأوس الجهال وترامت إليه فكر الضلال، فهو عليّ متعال عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً.

١. الإخلاص / ١.

٢. تتمّة كتاب التوحيد، أبواب الصفات، باب ٢، العلم وكيفيته.

٣. الفاتحة / ٤.

وأما «الأعلى» فمعناه العليّ القاهر، ويؤيده قوله عزّ وجلّ لموسى «على نبينا وآله وعليه السلام»: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾^(١) أي الغالب، وقوله عزّ وجلّ في تحريض المؤمنين على القتال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢) وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٣) أي غلبهم واستولى عليهم، وقد قال الشاعر في هذا المعنى:

فلما علونا واستوينا عليهم تركناهم صرعى^(٤) لنسر^(٥) وكاسر
ومعنى ثان أنه متعال عن الأشباه والأنداد أي متنزه كما قال: ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٦).

بيان:

الكاسر: العقاب.

«الباقى» الباقي معناه الكائن بغير حدوث ولا فناء، والبقاء ضدّ الفناء، بقي الشيء بقاء؛ ويقال: ما بقيت منهم باقية ولا وقتهم من الله وافية؛ والدائم في صفاته هو الباقي أيضاً الذي لا يبيد ولا يفنى.
«البديع» البديع مبدع البدائع، ومحدث الأشياء على غير مثال واحتذاء^(٧)، وهو فعيل بمعنى مفعول، كقوله عزّ وجلّ: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٨) والمعنى: مؤلم، وتقول العرب: ضرب وجيع والمعنى: موجه، وقال الشاعر في هذا المعنى:

أمن ريحانة الداعي السميع يؤرّقني وأصحابي هجوع
فالمعنى: الداعي المسمع. والبدع: الشيء الذي يكون أولاً في كلّ أمر، ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ﴾^(٩) أي لست بأول مرسل، والبدعة: اسم ما ابتدع من الدين وغيره، وقال الشاعر في هذا المعنى:

وكفّاك لم تخلقا للندى ولم يك بخلهما بدعة

١. طه/٦٨.

٢. آل عمران/١٣٩.

٣. القصص/٤.

٤. الصرع: الطرح بالأرض، راجع لسان العرب.

٥. النسر: طائر معروف، راجع لسان العرب.

٦. يونس/١٨.

٧. احتذى مثاله: اقتدى به، راجع شمس العلوم.

٨. البقرة/١٠.

٩. الأحقاف/٩.

فكفّ عن الخير مقبوضة
وأخرى ثلاثة آلافها
ويقال: لقد جئت بأمر بديع أي مبدع عجيب^(١).

بيان:

ريحانة: اسم المعشوقة، والأرق بالتحريك: السهر، وأرقني كذا تأريفاً أي أسهرني أي أذهب عني النوم الداعي المسموع من قبل ريحانة، والحال أن أصحابي نيام. والأبيات الأخر هجو لرجل يوصفه بغاية البخل، والذي خطر بالبال أن هذا مبني على حساب العقود، وغرضه أن كفيه مقبوضتان. وقوله: فكفّ يريد بها اليمنى وإذا حطّ عن مائة سبعة كان ثلاثة وتسعين، وعلامة الثلاثة في العقود عقد الخنصر^(٢) والبنصر^(٣) والوسطى من اليمنى، وعلامة التسعين وضع ظفر السبابة على مفصل العقدة الثانية من الإبهام منها فهذا وصف كون جميع أصابع كفه اليمنى معقودة. وقوله: وأخرى إشارة إلى كفه اليسرى، وعقد الثلاثة المذكورة أولاً من اليسرى موضوعة لثلاثة آلاف، وما كان للتسعين في اليمنى فهي بعينها لتسعمائة في اليسرى فهذا يبين كون أصابع كفه اليسرى أيضاً كلّها معقودة. وقوله: لها شرعة أي طريقة وعادة؛ فافهم وكن من الشاكرين. «البارئ» البارئ معناه أنه بارئ البرايا أي خالق الخلائق، برأهم يبرؤهم أي خلقهم يخلقهم، والبريئة: الخليفة وأكثر العرب على ترك همزها، وهي فعيلة بمعنى مفعولة. وقال بعضهم: بل هي مأخوذة من بريئ العود^(٤)، ومنهم من يزعم أنه من البرى وهو التراب أي خلقهم من التراب، وقالوا: لذلك لا يهزم.

«الأكرم» الأكرم معناه الكريم، وقد يجيء أفعّل في معنى الفعيل مثل قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾^(٥) أي هيّن عليه، ومثل قوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾^(٦) وقوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾^(٧) يعني بالأشقى والأشقى الشقيّ والتقيّ، وقد قال الشاعر في هذا المعنى:

إنّ الذي سمك السماء بنا لنا
بيتاً دعائمه أعزّ وأطول

١. التوحيد (للصدوق)، ص ١٩٥ - ٢٠٠.

٢. الخنصر: الإصبع الصغير، راجع لسان العرب.

٣. البنصر: الإصبع التي بين الوسطى والخنصر، راجع لسان العرب.

٤. برى العود والقلم: نحتته، راجع لسان العرب.

٥. الروم/ ٢٧.

٦. الليل/ ١٥.

٧. الليل/ ١٧.

«الظاهر» الظاهر معناه أنه الظاهر بآياته التي أظهرها من شواهد قدرته وآثار حكمته، وبيّنات حجّته التي عجز الخلق عن إبداع أصغرها وإنشاء أيسرها وأحقرها عندهم كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾^(١) فليس شيء من خلقه إلّا وهو شاهد له على وحدانيّته من جميع جهاته وأعرض تبارك وتعالى عن وصف ذاته فهو ظاهر بآياته محتجب بذاته. ومعنى ثان: أنه ظاهر غالب قادر على ما يشاء، ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾^(٢) أي غالبين لهم.

«الباطن» الباطن معناه أنه قد بطن عن الأوهام فهو باطن بلا إحاطة لا يحيط به محيط لأنّه قدم الفكر فخبّت عنه^(٣)، وسبق العلوم فلم تحط به، وفات الأوهام فلم تكتنّه^(٤)، وحارت عنه الأبصار فلم تدركه، فهو باطن كلّ باطن، ومحتجب كلّ محتجب، بطن بالذات، وظهر وعلا بالآيات فهو الباطن بلا حجاب، والظاهر بلا اقتراب. ومعنى ثان: أنه باطن كلّ شيء أي خبير بصير بما يسرون وما يعلنون، وبكلّ ما ذرأ^(٥). وبطانة الرجل: وليّجته من القوم الذين يداخلهم ويدخلونه في دخلة أمره، والمعنى أنه عزّ وجلّ عالم بسرائرهم لأنّه عزّ وجلّ يبطن في شيء يواريه^(٦).

«الحيّ» الحيّ معناه أنه الفعّال المدبّر، وهو حيّ لنفسه لا يجوز عليه الموت والفناء، وليس يحتاج إلى حياة بها يحيا.

«الحكيم» الحكيم معناه أنه عالم، والحكمة في اللغة: العلم، ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٧). ومعنى ثان: أنه محكم وأفعاله محكمة متقنة من الفساد؛ وقد حكمته وأحكمته لغتان؛ وحكمة اللجام سمّيت بذلك لأنّها تمنعه من الجري الشديد، وهو ما أحاطت بحنكه.

«العليم» العليم معناه أنه عليم بنفسه عالم بالسرائر مطّلع على الضمائر لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه^(٨) مثقال ذرّة، علم الأشياء قبل حدوثها وبعد ما أحدثها، سرّها وعلا نيّتها، ظاهرها وباطنها، وفي علمه عزّ وجلّ بالأشياء على خلاف علم الخلق دليل على أنه تبارك وتعالى بخلافهم في جميع معانيهم، والله عالم

١. الحجّ/٧٣.

٢. الصف/١٤.

٣. خبت ذكره: إذا خفي، راجع لسان العرب.

٤. كنه كلّ شيء: قدره ونهايته وغايته، راجع لسان العرب.

٥. ذرأ الخلق: خلقهم، راجع لسان العرب.

٦. يواريه: يخفيه، راجع لسان العرب.

٧. البقرة/٢٦٩.

٨. لا يعزب عنه: لا يغيب عن علمه شيء، راجع لسان العرب.

لذاته، والعالم من يصحّ منه الفعل المحكم المتقن، فلا يقال: إنه يعلم الأشياء بعلم، كما لا يثبت معه قديم غيره بل يقال: إنه ذات عالمة، وهكذا يقال في جميع صفات ذاته.

«الحليم» الحليم معناه أنه حليم عمّن عصاه لا يعجل عليهم بعقوبة^(١).

«الحفيظ» الحفيظ معناه الحافظ وهو فاعيل بمعنى فاعل، ومعناه أنه يحفظ الأشياء ويصرف عنها البلاء، ولا يوصف بالحفظ على معنى العلم لأننا نوصف بحفظ القرآن والعلوم على المجاز، والمراد بذلك أننا إذا علمناه لم يذهب عنا كما إذا حفظنا الشيء لم يذهب عنا.

«الحق» الحق معناه المحقّ، ويوصف به توسّعاً لأنه مصدر، وهو كقولهم: غياث المستغيثين. ومعنى ثان يراد به أن عبادة الله هي الحق، وعبادة غيره هي الباطل، ويؤيد ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾^(٢) أي يبطل ويذهب ولا يملك لأحد ثواباً ولا عقاباً.

«الحسيب» الحسيب معناه المحصي لكلّ شيء العالم به، لا يخفى عليه شيء. ومعنى ثان: أنه المحاسب لعباده، يحاسبهم بأعمالهم ويجازيهم عليها، وهو فاعيل على معنى مفاعل مثل جليس ومجالس. ومعنى ثالث: أنه الكافي، والله حسبي وحسبك أي كافينا، وأحسبني هذا الشيء أي كفاني، وأحسبته أي أعطيته حتّى قال: حسبي، ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَاباً﴾^(٣) أي كافياً.

«الحميد» الحميد معناه المحمود وهو فاعيل في معنى مفعول، والحمد: نقيض الذمّ، ويقال: حمدت فلاناً إذا رضيت فعله ونشرته في الناس.

«الحفيّ» الحفيّ معناه العالم، ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَاتِبًا حَفِيٌّ عَنْهَا﴾^(٤) أي يسألونك عن الساعة كأنك عالم بوقت مجيئها. ومعنى ثان: أنه اللطيف، والحفاية مصدر، الحفيّ: اللطيف المحتفي بك ببرك وبلطفك.

«الربّ» الربّ المالك، وكلّ من ملك شيئاً فهو ربّه، ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾^(٥) أي إلى سيّدك ومليكك، وقال قائل يوم حنين: لأنّ يربّني رجل من قريش أحبّ إليّ من أن يربّني رجل من هوازن؛ يريد: أن يملكني ويصير لي ربّاً ومالكاً. ولا يقال لمخلوق: الربّ بالألّف واللام لأنّ الألّف واللام دالّتان على العموم، وإنّما يقال للمخلوق: ربّ كذا فيعرف بالإضافة لأنّه لا يملك غيره فينسب إلى ملكيّته، والربّانيّون

١. وفي نسخة: لا يعجل عليهم بعقوبته. (هامش المطبوع)

٢. الحجّ/٦٢.

٣. النبأ/٣٦.

٤. الأعراف/١٨٧.

٥. يوسف/٥٠.

نسبوا إلى التأله والعبادة للرب في معنى الربوبية له، والربيون الذين صبروا مع الأنبياء «عليهم الصلاة والسلام».

«الرحمن» الرحمن معناه الواسع الرحمة على عباده يعمهم بالرزق والإنعام عليهم؛ ويقال: هو اسم من أسماء الله تبارك وتعالى في الكتب لا سمّي له فيه؛ ويقال للرجل: رحيم القلب، ولا يقال: رحمن لأنّ الرحمن يقدر على كشف البلوى، ولا يقدر الرحيم من خلقه على ذلك، وقد جوّز قوم أن يقال للرجل: رحمن، وأرادوا به الغاية في الرحمة، وهذا خطأ، والرحمن: هو لجميع العالم، والرحيم هو للمؤمنين خاصّة.

«الرحيم» الرحيم معناه أنّه رحيم بالمؤمنين يخصّهم برحمته في عاقبة أمرهم كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾^(١) والرحمن والرحيم اسمان مشتقان من الرحمة على وزن ندمان ونديم، ومعنى الرحمة: النعمة، والراحم: المنعم، كما قال عزّ وجلّ لرسوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢) يعني نعمة عليهم، ويقال للقرآن: هدى ورحمة؛ وللغيث رحمة يعني نعمة، وليس معنى الرحمة: الرقة لأنّ الرقة عن الله عزّ وجلّ منفيّة، وإنّما سمّي رقيق القلب من الناس رحيماً لكثرة ما يوجد الرحمة منه، ويقال: ما أقرب رحم فلان! إذا كان ذا مرحمة وبرّ، والمرحمة: الرحمة، ويقال: رحمته مرحمة ورحمة.

«الذاري» الذاري معناه الخالق يقال: ذرأ الله الخلق وبرأهم أي خلقهم، وقد قيل: إنّ الذريّة منه اشتقّ اسمها، كأنّهم ذهبوا إلى أنّها خلق الله عزّ وجلّ خلقها من الرجل، وأكثر العرب على ترك همزها، وإنّما تركوا الهمز في هذا المذهب لكثرة ترددها في أفواههم كما تركوا همزة البريّة وهمزة بريّ وأشباه ذلك. ومنهم من يزعم أنّها من ذروت أو ذريت معاً يريد أنّه قد كثّرهم وبثّهم^(٣) في الأرض بثّاً كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾^(٤).

بيان:

ذرو الرياح يكون بالواو والياء معاً.

«الرازق» الرازق معناه أنّه عزّ وجلّ يرزق عباده برّهم وفاجرهم رزقاً بفتح الراء رواية من العرب ولو أرادوا المصدر لقالوا: رزقاً بكسر الراء. ويقال: ارتزق الجند رزقة واحدة أي أخذوه مرّة واحدة.

«الرقيب» الرقيب معناه الحافظ، وهو فاعيل بمعنى فاعل، ورقيب القوم: حارسهم.

«الرؤوف» الرؤوف معناه الرحيم، والرأفة: الرحمة.

١. الأحزاب/٤٣.

٢. الأنبياء/١٠٧.

٣. بثّ الله الخلق: نشرهم، راجع الطراز الأوّل.

٤. النساء/١.

«الرائي» الرائي معناه العالم، والرؤية: العلم. ومعنى ثان: أنه المبصر، ومعنى الرؤية: الإِبصار، ويجوز في معنى العلم لم يزل رائيًا، ولا يجوز ذلك في معنى الإِبصار.

«السلام» السلام معناه المسلّم، وهو توسّع لأنّ السلام مصدر، والمراد به أنّ السلامة تنال من قبله، والسلام والسلامة مثل الرضاع والرضاعة واللذاز واللذاذة. ومعنى ثان: أنه يوصف بهذه الصفة لسلامته ممّا يلحق الخلق من العيب والنقص والزوال والانتقال والفناء والموت، وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾^(١) والسلام: هو الله عزّ وجلّ، وداره الجنّة، ويجوز أن يكون سمّاها سلاماً لأنّ الصائر إليها يسلم فيها من كلّ ما يكون في الدنيا من مرض ووصب^(٢) وموت وهرم وأشباه ذلك، فهي دار السلامة من الآفات والعاهات^(٣) وقوله عزّ وجلّ: ﴿فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾^(٤) يقول: فسلامة لك منهم أي تخبرك عنهم سلامة، والسلامة في اللغة: الصواب والسداد أيضاً، ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(٥) أي سداداً وصواباً، ويقال: سمّي الصواب من القول سلاماً لأنّه يسلم من العيب واللاثم.

«المؤمن» المؤمن معناه المصدّق، والإيمان: التصديق في اللغة، يدلّ على ذلك قوله عزّ وجلّ حكاية عن إخوة يوسف «على نبينا وآله وعليه السلام»: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾^(٦) فالعبد مؤمن مصدّق بتوحيد الله وآياته، والله مؤمن مصدّق لما وعده ومحققه. ومعنى ثان: أنه محقق حقّ وحدانيّته بآياته عند خلقهم، وعرفهم حقيقته لما أبدى من علاماته وأبان من بيّناته وعجائب تدبيره ولطائف تقديره. ومعنى ثالث: أنه آمنهم من الظلم والجور، وَقَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٧): سُمِّيَ الْبَارِيُّ عَزَّ وَجَلَّ مُؤْمِنًا لِأَنَّهُ يُؤْمِنُ مِنْ عَذَابِهِ مَنْ أَطَاعَهُ، وَسُمِّيَ الْعَبْدُ مُؤْمِنًا لِأَنَّهُ يُؤْمِنُ عَلَى اللَّهِ فَيُحِيزُ اللَّهُ أَمَانَهُ. وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٨): الْمُؤْمِنُ مَنْ آمَنَ جَارَهُ بَوَائِقِهِ^(٩). وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١٠): الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَأْتِمُنُهُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَدِمَائِهِمْ^(١١).

١. الأنعام/١٢٧.

٢. الوصب: شدة التعب، راجع لسان العرب.

٣. العاهات: جمع العاهة، وهي الآفة، راجع المصباح المنير.

٤. الواقعة/٩١.

٥. الفرقان/٦٣.

٦. يوسف/١٧.

٧. وأيضاً ورد في عدة الداعي، ص ٣٢٤.

٨. وأيضاً ورد في الكافي، ج ٢، باب حق الجوار، ص ٦٦٦، ح ١٢.

٩. بوائقه: غوائله وشرّه أو ظلمه وغشمه، راجع لسان العرب.

١٠. وأيضاً ورد في الكافي، ج ٢، باب المؤمن وعلاماته وصفاته، ص ٢٣٤، ضمن ح ١٢.

١١. وفي نسخة: على أموالهم وأنفسهم. (هامش المطبوع)

«المهيمن» المهيمن معناه الشاهد، وهو كقوله عز وجل: ﴿وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾^(١) أي شاهداً عليه. ومعنى ثان: أنه اسم مبني من الأمين، والأمين اسم من أسماء الله عز وجل كما بني المبيطر من البيطر والبيطار، وكان الأصل فيه مؤيمناً فقلبت الهمزة هاءً كما قلبت همزة أرقط وأيهات فقل: هرقت وهيهات، وأمين اسم من أسماء الله عز وجل، ومن طول الألف أراد يا أمين فأخرجه مخرج قولهم «أزيد» على معنى يا زيد، ويقال: المهيمن من أسماء الله عز وجل في الكتب السابقة.

«العزیز» العزیز معناه أنه لا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء أراداه فهو قاهر للأشياء غالب غير مغلوب، وقد يقال في مثل: «من عزّيز» أي من غلب سلب، وقوله عز وجل حكاية عن الخصمين: ﴿وَعَزَّزْنِي فِي الْخُطَابِ﴾^(٢) أي غلبني في مجاوبة الكلام. ومعنى ثان: أنه الملك، ويقال للملك: العزیز، كما قال إخوة يوسف ليوسف «على نبينا وآله وعليه السلام»: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾^(٣) والمراد به يا أيها الملك.

«الجبار» الجبار معناه القاهر الذي لا ينال، وله التجبر والجبروت أي التعظم والعظمة، ويقال للنخلة التي لا تنال: جبارة، والجبر أن تجبر إنساناً على ما يكرهه قهراً تقول: جبرته على ما ليس كذا وكذا، وقال الصادق عليه السلام^(٤): لَا جَبَرَ وَلَا تَفْوِضَ بَلْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ.

عنى بذلك أن الله تبارك وتعالى لم يجبر عباده على المعاصي ولم يفوض إليهم أمر الدين حتى يقولوا بآرائهم ومقاييسهم، فإنه عز وجل قد حدّ ووظف وشرع وفرض وسنّ وأكمل لهم الدين، فلا تفويض مع التحديد والتوظيف والشرع والفرض والسنة وإكمال الدين^(٥).

«المتكبر» المتكبر مأخوذ من الكبرياء وهو اسم للتكبر والتعظم.

«السيد» السيد معناه الملك، ويقال لملك القوم وعظيمهم سيّد، وقد سادهم يسودهم، وقيل لقيس بن عاصم: بم سدت قومك؟ قال: ببذل الندي^(٦) وكف الأذى ونصر المولى.

وقال النبي ﷺ^(٧): عَلَيَّ سَيِّدُ الْعَرَبِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَسْتَ سَيِّدَ الْعَرَبِ؟ قَالَ: أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ،

١. المائدة/٤٨.

٢. ص/٢٣.

٣. يوسف/٧٨.

٤. قد أخرج هذه الرواية أصحابنا في كتبهم، منهم الكليني في الكافي، ج ١، باب الجبر والقدر، ص ١٦٠، صدرح ١٣، وغيره من الأصحاب، فراجع.

٥. سيجيء في باب الجبر والتفويض أن معنى الرواية نفى الجبر والتفويض في الأفعال وإثبات الوساطة لا نفى الجبر في الأفعال والتفويض في الأحكام. (هامش المطبوع، نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»).

٦. الندي: السخاء والكرم، راجع تاج العروس.

٧. أخرج الحاكم النيسابوري في المستدرک، ج ٣، ص ١٢٤، إلى «وعلي سيد العرب»، ويقول: «هذا حديث صحيح الإسناد»، «وله شاهد من حديث عروة، عن عائشة»، وذكر الطبراني في معجم الكبير، ج ٣، ص ٨٨، ح ٧٤٩، بطريق آخر ما يدل عليه.

وَعَلَيْ سَيِّدِ الْعَرَبِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا السَّيِّدُ؟ قَالَ: مَنْ افْتَرَضَتْ طَاعَتُهُ كَمَا افْتَرَضَتْ طَاعَتِي. وقد أخرجت هذا الحديث مسنداً في كتاب معاني الأخبار^(١) فعلى معنى هذا الحديث السيّد هو الملك الواجب الطاعة.

«سبّوح» سبّوح هو حرف مبنيّ على فعول وليس في كلام العرب فعول إلا سبّوح قدّوس، ومعناها واحد، وسبحان الله تنزيهاً له عن كلّ ما لا ينبغي أن يوصف به، ونصبه لأنّه في موضع فعل على معنى تسبيحاً لله يريد سبّحت تسبيحاً، ويجوز أن يكون نصباً على الظرف ومعناه نسبح لله وسبّحوا لله.

بيان:

الواو في قوله: وسبّحوا لله للحال، وهو بيان لحاصل معنى الظرفيّة أي أسبّح الله عند تسبيح كلّ مسبّح لله.

«الشهيد» الشهيد معناه الشاهد بكلّ مكان صانعاً ومدبراً على أنّ المكان مكان لصنعه وتدبيره لا على أنّ المكان مكان له لأنّه عزّ وجلّ كان ولا مكان.

«الصادق» الصادق معناه أنّه صادق في وعده، ولا يبخس^(٢) ثواب من يفي بعهده.

«الصانع» الصانع معناه أنّه صانع كلّ مصنوع أي خالق كلّ مخلوق، ومبدع جميع البدائع، وكلّ ذلك دالّ على أنّه لا يشبه شيئاً من خلقه لأنّا لم نجد فيما شاهدنا فعلاً يشبه فاعله لأنّهم أجسام وأفعاّهم غير أجسام، والله تعالى عن أن يشبه أفعاله، وأفعاله لحم ودم وعظم وشعر وعصب وعروق وأعضاء وجوارح وأجزاء ونور وظلمة وأرض وسماء وشجر وحجر وغير ذلك من صنوف الخلق، وكلّ ذلك فعله وصنعه عزّ وجلّ، وجميع ذلك دليل على وحدانيّته، شاهد على انفراده وعلى أنّه بخلاف خلقه وأنّه لا شريك له؛ وقال بعض الحكماء في هذا المعنى وهو يصف النرجس:

عيون في جفون في فنون	بدت فأجاد صنعتها المليك
بأبصار التغنّج ^(٣) طامحات ^(٤)	كأنّ حداقها ذهب سبيك ^(٥)
على غصن الزمرد مخبرات	بأنّ الله ليس له شريك

١. معاني الأخبار، باب معنى قول النبي ﷺ في علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه سيّد العرب، ص ١٠٣، ح ١ و ٢.

٢. البخس: النقص، راجع لسان العرب.

٣. امرأة غنجة: حسنة الدلّ وقيل: الغنّج: ملاحاة العينين، راجع لسان العرب.

٤. طمح بصره إلى الشيء: ارتفع، راجع الصحاح.

٥. سبك الذهب والفضّة ونحوه: ذوّبه وأفرغه في قالب، والسبيكة: قطعة مذوّبة، راجع لسان العرب.

«الطاهر» الطاهر معناه أنه متنزه عن الأشباه والأنداد والأضداد والأمثال والحدود والزوال والانتقال، ومعاني الخلق من العرض والطول والأقطار والثقل والخفة والدقة والغلط والدخول والخروج والملازمة والمباينة والرائحة والطعم واللون والمجسمة^(١) والخشونة واللين والحرارة والبرودة والحركة والسكون والاجتماع والافتراق والتمكّن في مكان دون مكان، لأنّ جميع ذلك محدث مخلوق وعاجز ضعيف من جميع الجهات، دليل على محدث أحدثه وصانع صنعه، قادر قويّ طاهر عن معانيها لا يشبه شيئاً منها لأنّها دلّت من جميع جهاتها على صانع صنعها ومحدث أحدثها، وأوجبت على جميع ما غاب عنها من أشباهها وأمثالها أن يكون دالّة على صانع صنعها تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

«العدل» العدل معناه الحكم بالعدل والحقّ، وسمّي به توسّعاً لأنّه مصدر والمراد به العادل، والعدل من الناس المرضيّ قوله وفعله وحكمه.

«العفو» العفو اسم مشتقّ من العفو على وزن فعول، والعفو: المحو، يقال: عفا الشيء: إذا امتحى وذهب ودرس، وعفوته أنا: إذا محوته، ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾^(٢) أي محاه الله عنك إذكرك لهم.

«الغفور» الغفور اسم مشتقّ من المغفرة وهو الغافر الغفار، وأصله في اللغة: التغطية والستر، تقول: غفرت الشيء: إذا غطيته، ويقال: هذا أغفر من هذا أي أستر، وغفر الخزّ والصوف: ما علا فوق الثوب منهما كالزئبر؛ يسمّى غفراً لأنّه ستر الثوب، ويقال لجنّة الرأس: مغفر لأنّها تستر الرأس، والغفور: الساتر لعبده برحمته.

بيان:

الغفر بالتحريك: الزئبر بكسر الزاء فالهمزة الساكنة فالباء الموحدة المكسورة، وهو ما يعلو الثوب الجديد مثل ما يعلو الخزّ.

«الغني» الغني معناه أنه الغنيّ بنفسه عن غيره وعن الاستعانة بالآلات والأدوات وغيرها، والأشياء كلّها سوى الله عزّ وجلّ متشابهة في الضعف والحاجة فلا يقوم بعضها إلّا ببعض ولا يستغني بعضها عن بعض.

«الغياث» الغياث معناه المغيث، سمّي به توسّعاً لأنّه مصدر.

«الفاطر» الفاطر معناه الخالق، فطر الخلق أي خلقهم، وابتدأ صنعة الأشياء وابتدعها فهو فاطرها أي خالقها ومبدعها.

«الفرد» الفرد معناه أنه المتفرّد بالربوبية والأمر دون الخلق. ومعنى ثان أنه موجود وحده لا موجود معه.

«الفتاح» الفتح معناه أنه الحاكم ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾^(٣) وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ

١. المجسمة: ممسّة ما جسّستّه بيديك، راجع لسان العرب.

٢. التوبة / ٤٣.

٣. الأعراف / ٨٩.

الْفَتْحُ الْعَلِيمُ^(١).

«الفالق» الفالق اسم مشتق من الفلق ومعناه في أصل اللغة: الشق، يقال: سمعت هذا من فلق فيه، وفلقت الفستقة^(٢) فانفلقت، وخلق الله تبارك وتعالى كل شيء فانفلق عن جميع ما خلق، فلق الأرحام فانفلقت عن الحيوان، وفلق الحب والنوى فانفلقا عن النبات، وفلق الأرض فانفلقت عن كل ما أخرج منها هو كقوله عز وجل: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾^(٣) صدعها فانصدعت^(٤)، وفلق الظلام فانفلق عن الإصباح، وفلق السماء فانفلقت عن القطر، وفلق البحر لموسى «على نبينا وآله وعليه السلام» فانفلق، فكان كل فرق منه كالطود^(٥) العظيم.

«القديم» القديم معناه المتقدم للأشياء كلها، وكلّ متقدّم لشيء يسمى قديماً إذا بولغ في الوصف، ولكنه سبحانه قديم لنفسه بلا أول ولا نهاية، وسائر الأشياء لها أول ونهاية، ولم يكن لها هذا الاسم في بدئها فهي قديمة من وجه ومحدثة من وجه؛ وقد قيل: إن القديم معناه أنه الموجود لم يزل، وإذا قيل لغيره إنه قديم كان على المجاز لأن غيره محدث ليس بقديم.

«الملك» الملك هو مالك الملك قد ملك كل شيء، والملوك: ملك الله عز وجل زيدت فيه التاء كما زيدت في رهبوت ورحموت، تقول العرب: رهبوت خير من رحموت أي لأن ترهب خير من أن ترحم.

«القدّوس» القدّوس معناه الطاهر، والتقديس: التطهير والتنزيه، وقوله عز وجل حكاية عن الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾^(٦) أي ننسبك إلى الطهارة ونسبحك. ونسبح بحمدك ونقدّس لك بمعنى واحد، وحظيرة القدس: موضع القدس من الأنداس التي تكون في الدنيا والأوصاب^(٧) والأوجاع وأشباه ذلك؛ وقد قيل: إن القدّوس من أسماء الله عز وجل في الكتب.

«القوي» القوي معناه معروف، وهو القوي بلا معاناة ولا استعانة.

«القريب» القريب معناه المجيب، ويؤيد ذلك قوله عز وجل: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا﴾

١. سباء/٢٦.

٢. الفستق: معرب بستانه، راجع القاموس المحيط.

٣. الطارق/١٢.

٤. صدع الشيء: شقه بنصفين، راجع لسان العرب.

٥. الطود: الجبل العظيم، راجع لسان العرب.

٦. البقرة/٣٠.

٧. الأوصاب: جمع وصب، وهو الوجع والمرض، راجع لسان العرب.

دَعَانِ ﴿١﴾. ومعنى ثان أنه عالم بوساوس القلوب، لا حجاب بينه وبينها ولا مسافة، ويؤيد هذا المعنى قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (٢) فهو قريب من غير مماثلة، بائن من خلقه بغير طريق ولا مسافة بل هو على المفارقة لهم في المخالطة، والمخالفة لهم في المشابهة؛ وكذلك التقريب إلى الله ليس من جهة الطرق والمسائف (٣) إنما هو من جهة الطاعة وحسن العبادة فالله تبارك وتعالى قريب دان، دنوه من غير تنقل لأنه ليس باقتطاع المسائف يدنو، ولا باجتياز (٤) الهواء يعلو، كيف وقد كان قبل السفلى والعلو، وقبل أن يوصف بالعلو والدنو.

«القيوم» القيوم والقيام هما فيعول وفيعال من قمت بالشيء: إذا وليته بنفسك وتوليت حفظه وإصلاحه، وتقديره قولهم: ما فيها من ديور ولا ديّار (٥).

«القباض» اسم مشتق من القبض، وللقبض معان: منها الملك، يقال: فلان في قبضي، وهذه الضيعة (٦) في قبضي، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (٧) وهذا كقول الله عز وجل: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ (٨) وقوله: ﴿الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (٩) وقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (١٠)، ومنها إفناء الشيء، ومن ذلك قولهم للميت: قبضه الله إليه، ومنه قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ (١١) فالشمس لا يقبض بالبراجم، والله تبارك وتعالى قابضها ومطلقها، ومن هذا قوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٢) فهو باسط على عباده فضله وقابض ما يشاء من عائدته وأياديه، والقبض: قبض البراجم أيضاً، وهو عن الله تعالى ذكره منفي، ولو كان القبض والبسط الذي ذكره الله عز وجل من قبل البراجم لما جاز أن يكون في وقت واحد قابضاً وباسطاً لاستحالة ذلك، والله

١. البقرة/١٨٦.

٢. ق/١٦.

٣. المسافة: البعد، وجمعها مساوف، راجع شمس العلوم.

٤. الاجتياز: السلوك، راجع لسان العرب.

٥. ما بها ديّار ولا ديور: أحد، راجع المحيط في اللغة.

٦. الضيعة: العقار والأرض المعلقة، راجع لسان العرب.

٧. الزمر/٦٧.

٨. الأنعام/٧٣.

٩. الانفطار/١٩.

١٠. الحمد/٤.

١١. الفرقان/٤٥ و٤٦.

١٢. البقرة/٢٤٥.

تعالى ذكره في كل ساعة يقبض الأنفس ويبسط الرزق ويفعل ما يريد.

بيان:

البراجم: مفاصل الأصابع التي بين الأشاجع^(١) والرواجب وهي رؤوس السلاميات^(٢) من ظهر الكف، إذا قبض القابض كفّه ارتفعت.

«الباسط» الباسط معناه المنعم المفضل، قد بسط على عباده فضله وإحسانه وأسبغ عليهم نعمه.

«القاضي» القاضي اسم مشتق من القضاء، ومعنى القضاء من الله عز وجل ثلاثة أوجه: فوجه منها هو الحكم والإلزام، يقال: قضى القاضي على فلان بكذا أي حكم عليه به وألزمه إياه، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾^(٣) ووجه منها هو الخبر ومنه قوله عز وجل: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾^(٤) أي أخبرناهم بذلك على لسان النبي، ووجه منها هو الإتمام ومنه قوله عز وجل: ﴿فَقَضَاهُنَّ سِنَعةَ سَمَواتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾^(٥) ومنه قول الناس: قضى فلان حاجتي يريد أنه أتم حاجتي على ما سألته.

«المجيد» المجيد معناه الكريم العزيز ومنه قوله عز وجل: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾^(٦) أي كريم عزيز، والمجد في اللغة نيل الشرف، ومجد الرجل وأمجد لغتان وأمجده: كرم فعاله. ومعنى ثان أنه مجيد ممجّد مجّده خلقه أي عظّمه.

«المولى» المولى معناه الناصر، ينصر المؤمنين ويتولّى نصرهم على عدوّهم، ويتولّى ثوابهم وكرامتهم، وتولّى الطفل هو الذي يتولّى إصلاح شأنه، والله وليّ المؤمنين وهو مولاهم وناصرهم، والمولى في وجه آخر هو الأولي، ومنه قول النبي ﷺ: «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَيْ مَوْلَاهُ»^(٧).

وذلك على إثر كلام قد تقدّمه وهو أن قال: أولى بكم من أنفسكم^(٨)، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فمن كنت مولاه أي من كنت أولى به منه بنفسه فعليّ مولاه أي أولى به منه بنفسه.

١. الأشاجع: أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف، راجع الصحاح.

٢. السلاميات: هي التي بين كل مفصلين من أصابع الإنسان، راجع لسان العرب.

٣. الإسراء/٢٣.

٤. الإسراء/٤.

٥. فصلت/١٢.

٦. البروج/٢١.

٧. الخبر معروف، ذكره المحدثون وغيرهم من الفريقين في كتبهم واتفق الأمة عليه. منهم: أحمد بن حنبل في مسنده، ج ١، ص ٨٤ و١١٨.

و ١١٩؛ سنن ابن ماجه، ج ١، ص ٤٥، ح ٢١؛ سنن الترمذي، ج ٥، ص ٢٩٧، ح ٧٩٧؛ فضائل الصحابة (للنسائي)، ص ١٤، بطريقتين و....

٨. هكذا في المطبوع، ولكن في الطبع الحجري: «أست أولى بكم من أنفسكم».

«المنان» المنان معناه المعطي المنعم، ومنه قوله عز وجل: ﴿فَأَمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١) وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾^(٢).

«المحيط» المحيط معناه أنه محيط بالأشياء، عالم بها كلها، وكل من أخذ شيئاً كله أو بلغ علمه أقصاه فقد أحاط به، وهذا على التوسع لأن الإحاطة في الحقيقة إحاطة الجسم الكبير بالجسم الصغير من جوانبه كإحاطة البيت بما فيه وإحاطة السور بالمدن، ولهذا المعنى سمي الحائط حائطاً. ومعنى ثان: يحتمل أن يكون نصباً على الظرف معناه مستولياً مقتدراً كقوله عز وجل: ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾^(٣) فسمّاه إحاطة لهم لأن القوم إذا أحاطوا بعدوهم لم يقدر العدو على التخلص منهم.

«المبين» المبين معناه الظاهر البين حكمته، المظهر لها بما أبان من بيناته وآثار قدرته، ويقال: بان الشيء وأبان واستبان بمعنى واحد.

«المقيت» المقيت معناه الحافظ الرقيب، ويقال: بل هو القدير.

«المصوّر» المصوّر هو اسم مشتق من التصوير، يصوّر الصور في الأرحام كيف يشاء، فهو مصوّر كلّ صورة، وخالق كلّ مصوّر في رحم ومدرك ببصر ومتمثل في نفس، وليس الله تبارك وتعالى بالصورة والجوارح يوصف، ولا بالحدود والأبعاد يعرف، ولا في سعة الهواء بالأوهام يطلب، ولكن بالآيات يعرف وبالعلامات والدلالات يحقق، وبها يوقن، وبالقدرة والعظمة والجلال والكبرياء يوصف لأنه ليس له في خلقه شبيه، ولا في بريته عدل.

«الكريم» الكريم معناه العزيز، يقال: فلان أكرم عليّ من فلان أي أعزّ منه، ومنه قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾^(٤) وكذلك قوله عز وجل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(٥) ومعنى ثان: أنه الجواد المفضل، يقال: رجل كريم أي جواد، وقوم كرام أي أجواد، وكريم وكرم مثل أديم وأدم.

«الكبير» الكبير السيّد، يقال لسيّد القوم: كبيرهم، والكبرياء اسم للتكبر والتعظيم.

«الكافي» الكافي اسم مشتق من الكفاية، وكل من توكلّ عليه كفاه، ولا يلجئه إلى غيره.

«الكاشف» الكاشف معناه المفرج، يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ، والكشف في اللغة: رفعك شيئاً عما يواريه ويغطيّه.

١. ص/٣٩.

٢. المدثر/٦.

٣. يونس/٢٢.

٤. الواقعة/٧٧.

٥. الدخان/٤٩.

«الوتر» الوتر معناه الفرد، وكلّ شيء كان فرداً قيل: وتر.

«النور» النور معناه المنير، ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) أي منير لهم وآمرهم وهاديهم، فهم يهتدون به في مصالحهم كما يهتدون في النور والضياء وهذا توسّع، والنور: الضياء، والله عزّ وجلّ متعال عن ذلك علوّاً كبيراً لأنّ الأنوار محدثة، ومحدثها قديم لا يشبهه شيء، وعلى سبيل التوسّع قيل: إنّ القرآن نور، لأنّ الناس يهتدون به في دينهم كما يهتدون بالضياء في مسالكهم، ولهذا المعنى كان النبي ﷺ منيراً.

«الوهاب» الوهاب معروف وهو من الهبة يهب لعباده ما يشاء ويمنّ عليهم بما يشاء، ومنه قوله عزّ وجلّ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنِثَاءً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾^(٢).

«الناصر» الناصر والنصير بمعنى واحد، والنصرة: حسن المعونة.

«الواسع» الواسع الغني، والسعة: الغنى، يقال: فلان يعطي من سعة أي من غنى، والوسع: جدة الرجل وقدرة ذات يده، ويقال: أنفق على قدر وسعك.

«الودود» الودود فعول بمعنى مفعول كما يقال: هبوب، بمعنى مهيب يراد به أنّه مودود محبوب، ويقال: بل فعول بمعنى فاعل كقولك: غفور بمعنى غافر أي يودّ عباده الصالحين ويحبّهم، والودّ والوداد مصدر المودة، وفلان ودّك ووديدك أي حبّك وحبيبك.

«الهادي» الهادي معناه أنّه عزّ اسمه يهديهم للحقّ، والهدى من الله عزّ وجلّ على ثلاثة أوجه: فوجه هو الدلالة قد دلّهم جميعاً على الدين. والثاني هو الإيمان، والإيمان هدى من الله عزّ وجلّ كما أنّه نعمة من الله. والثالث هو النجاة وقد بين الله عزّ وجلّ أنّه سيهدي المؤمنين بعد وفاتهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾^(٣) ولا يكون الهدى بعد الموت والقتل إلا الثواب والنجاة، وكذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾^(٤) وهو ضدّ الضلال الذي هو عقوبة الكافر، وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾^(٥) أي يهلكهم ويعاقبهم، وهو كقوله عزّ وجلّ: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾^(٦) أي أهلك أعمالهم وأحبطها بكفرهم.

١. النور/ ٣٥.

٢. الشورى ٤٩.

٣. محمد/ ٥ و ٤.

٤. يونس/ ٩.

٥. إبراهيم/ ٢٧.

٦. محمد/ ٢.

«الوفِّي» الوَفِّي معناه يفي بعهدهم و يوفي بعهد، ويقال: رجل وفِّي وموف، وقد وفيت بعهدك وأوفيت لغتان. «الوكيل» الوكيل معناه المتولِّي أي القائم بحفظنا، وهذا هو معنى الوكيل على المال منّا. ومعنى ثان أنه المعتمد والملجأ؛ والتوكّل: الاعتماد عليه والالتجاء إليه. «الوارث» الوارث معناه أن كل من ملكه الله شيئاً يموت ويبقى ما كان في ملكه ولا يملكه إلا الله تبارك وتعالى.

«البرّ» البرّ معناه الصادق، يقال: صدق فلان وبرّ، ويقال برّ يمين فلان: إذا صدقت، وأبرّها الله أي أمضاها على الصدق.

«الباعث» الباعث معناه أنه يبعث من في القبور ويحييهم وينشرهم للجزاء والبقاء. «التوّاب» التوّاب معناه أنه يقبل التوبة ويعفو عن الحوبة^(١) إذا تاب منها العبد يقال: تاب العبد إلى الله عزّ وجلّ فهو تائب توّاب إليه، وتاب الله عليه أي قبل توبته فهو توّاب عليه، والتّوب: التوبة، ويقال: اتّاب فلان من كذا مهموزاً: إذا استحيا منه، ويقال: ما طعامك بطعام توبة أي لا يحتشم منه ولا يستحيا منه.

بيان:

لعلّ مراده بقوله: مهموز الهمز الأوّل أي بوزن باب الإفعال^(٢)، ولم أعر على ما ذكره من المعنى الأخير فيما عندنا من كتب اللغة.

«الجليل» الجليل معناه السيّد، يقال لسيّد القوم: جليلهم وعظيمهم، وجلّ جلال الله فهو الجليل، ذو الجلال والإكرام، ويقال: جلّ فلان في عيني أي عظم، وأجللته أي عظّمته.

«الجواد» الجواد معناه المحسن المنعم الكثير الإنعام والإحسان، يقال: جاد السخيّ من الناس وجود جوداً، ورجل جواد، وقوم أجواد وجود أي أسخياء، ولا يقال لله عزّ وجلّ: سخيّ لأن أصل السخاوة راجع إلى اللين، يقال: أرض سخاوية وقرطاس سخاويّ: إذا كان ليناً، وسمّي السخيّ سخياً لئنه عند الحوائج إليه. «الخبير» الخبير معناه العالم، والخبر والخبير في اللغة واحد، والخبر علمك بالشيء، يقال: لي به خبر أي علم.

بيان:

قال الفيروزآبادي: رجل خابر وخبير وخبر ككتف وحجر: عالم به^(٣).

١. الحوبة: الإثم، راجع تاج العروس.

٢. بل أراد «قدس الله روحه» أنه من باب الافتعال، وهو من أب يئب وأبأ وإية، من فلان: استحيى منه وانقبض، وأتّاب منه: استحيى منه، والإية والتّوبة والمؤنبة: الحياء، الخزي، العار. (هامش المطبوع)

٣. في النسخة المقروءة على المصنّف هكذا: بيان: لعل مراده أن الخبر والخبير مادتهما واحدة، والخبير مشتق من الخبر، وإلا فالخبر بالضمّ بمعنى العلم، والخبير بمعنى العالم، وقد صرح بهما. قلت: لعلّه أفاده أوّلاً ثم عدل إلى ما في المتن. (هامش المطبوع).

«الخالق» الخالق معناه الخلاق، خلق الخلائق خلقاً وخليقة، والخليقة: الخلق، والجمع الخلائق، والخلق في اللغة: تقدير كشيء يقال في مثل: إني إذا خلقت فريت لا كمن يخلق ولا يفري. وفي قول أئمتنا عليهم السلام^(١): إِنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ، خَلْقٌ تَقْدِيرٌ لَا خَلْقٌ تَكْوِينٌ، وخلق عيسى «على نبينا وآله وعليه السلام» من الطين كهيئة الطير هو خلق تقدير أيضاً، ومكوّن الطير وخالقه في الحقيقة الله عز وجل.

بيان:

قال الجوهري: الخلق التقدير يقال: خلقت الأديم: إذا قدرته قبل القطع. وقال الحجاج: ما خلقت إلا فريت ولا وعدت إلا وفيت. إنتهى. والفري: القطع.

«خير الناصرين» خير الناصرين وخير الراحمين معناه أنه فاعل الخير إذا كثرت منه سمى خيراً توسعاً.

بيان:

الظاهر أن الخير بمعنى التفضيل أي الأ خير، وهو صفة ولا حاجة إلى ما تكلفه.

«الديان» الديان هو الذي يدين العباد ويجزيهم بأعمالهم، والدين: الجزاء، ولا تجمع لأنه مصدر يقال: دان يدين ديناً، ويقال في المثل: كما تدين تدان أي كما تجزي تجزي، قال الشاعر:

كما يدين الفتى يوماً يدان به
من يزرع الثوم لا يقلعه ريحاناً.

«الشكور» الشكور والشاكر معناه أنه يشكر للعبد عمله، وهو توسع لأن الشكر في اللغة عرفان الإحسان، وهو المحسن إلى عباده المنعم عليهم لكنه سبحانه لما كان مجازياً للمطيعين على طاعتهم جعل مجازاته شكراً لهم على المجاز، كما سميت مكافاة المنعم شكراً.

«العظيم» العظيم معناه السيد، وسيد القوم: عظيمهم وجليلهم. ومعنى ثان أنه يوصف بالعظمة لغلبته على الأشياء وقدرته عليها، ولذلك كان الواصف بذلك معظماً. ومعنى ثالث أنه عظيم لأن ما سواه كله ذليل خاضع، فهو عظيم السلطان عظيم الشأن. ومعنى رابع أنه المجيد، يقال: عظم فلان في المجد عظاماً، والعظمة - مصدر -: الأمر العظيم، والعظمة من التجبر، وليس معنى العظيم ضخم طويل عريض ثقيل لأن هذه المعاني معاني الخلق وآيات الصنع والحدث، وهي عن الله تبارك وتعالى منفية، وقد روي في الخبر أنه سمى العظيم لأنه خالق الخلق العظيم ورب العرش العظيم وخالقه.

«اللطيف» اللطيف معناه أنه لطيف بعباده فهو لطيف بهم، بارّ بهم، منعم عليهم، واللفظ: البرّ والتكرمة، يقال: فلان لطيف بالناس بارّ بهم: يبرّهم ويلطفهم إطفافاً. ومعنى ثان أنه لطيف في تدبيره وفعله يقال: فلان لطيف العمل. وقد روي أن معنى اللطيف هو أنه الخالق للخلق اللطيف كما أنه سمى العظيم لأنه الخالق للخلق العظيم.

١. تحف العقول، ص ٢١٤.

«الشافى» الشافى معناه معروف وهو من الشفاء كما قال الله عز وجل حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾^(١).

فجملة هذه الأسماء الحسنى تسعة وتسعون اسماً، وأما تبارك فهو من البركة، وهو عز وجل ذو بركة، وهو فاعل البركة وخالقها وجاعلها في خلقه، وتبارك وتعالى عن الولد والصاحبة والشريك وعمّا يقول الظالمون علواً كبيراً؛ وقد قيل: إن معنى قول الله عز وجل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾^(٢) إنما عنى به أن الله الذي يدوم بقاؤه ويبقى نعمه ويصير ذكره بركة على عباده واستدامة لنعم الله عندهم هو الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً. والفرقان هو القرآن، وإنما سمّاه فرقاناً لأن الله عز وجل فرق به بين الحق والباطل، وعبده الذي نزل عليه بذلك هو محمد ﷺ، وسمّاه عبداً لئلا يتخذ رباً معبوداً، وهذا رد على من يغلو فيه، وبين عز وجل أنه نزل عليه ذلك لينذر به العالمين وليخوفهم به من معاصي الله وأليم عقابه، والعالمون: الناس. ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما قالت النصرارى إذا ضافوا إليه الولد كذباً عليه وخروجاً من توحيده، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾^(٣) يعنى أنه خلق الأشياء كلها على مقدار يعرفه، وأنه لم يخلق شيئاً من ذلك على سبيل سهو ولا على غفلة ولا على تنحيب ولا على مجازفة^(٤)، بل على المقدار الذي يعلم أنه صواب من تدبيره، وأنه استصلاح لعباده في أمر دينهم، وأنه عدل منه على خلقه لأنه لو لم يخلق ذلك على مقدار يعرفه على سبيل ما وصفناه لوجد ذلك التفاوت والظلم والخروج عن الحكم وصواب التدبير إلى العبث وإلى الظلم والفساد كما يوجد مثل ذلك في فعل خلقه الذين ينحّبون في أفعالهم ويفعلون في ذلك ما لا يعرفون مقداره؛ ولم يعن بذلك أنه خلق لذلك تقديراً، فعرف به مقدار ما يفعله ثم فعل أفعاله بعد ذلك لأن ذلك إنما يوجد في فعل من لا يعلم مقدار ما يفعله إلا بهذا التقدير وهذا التدبير، والله سبحانه لم يزل عالماً بكل شيء، وإنما عنى بقوله: فقدّره تقديراً أي فعل ذلك على مقدار يعرفه - على ما بيّناه - وعلى أن يقدر أفعاله لعباده بأن يعرفهم مقدارها ووقت كونها ومكانها الذي يحدث فيه ليعرفوا ذلك، وهذا التقدير من الله عز وجل كتاب وخبر كتبه لملائكته وأخبرهم به ليعرفوه، فلمّا كان كلامه لم يوجد إلا على مقدار يعرفه لئلا يخرج عن حدّ الصدق إلى الكذب، وعن حدّ الصواب إلى الخطاء، وعن حدّ البيان إلى التلبيس كان ذلك دلالة على أن الله قد قدره على

١. الشعراء / ٨٠.

٢. الفرقان / ١.

٣. الفرقان / ٢.

٤. المجازفة: هو الحدس والتخمين، راجع تاج العروس.

ما هو به وأحكمه وأحدثه، فلهذا صار محكماً لا خلل فيه ولا تفاوت ولا فساد^(١).

بيان:

يقال: نحَبُوا تنحيباً أي جدّوا في عملهم، ولعلّه كناية عن عدم رعاية الحكم فيها لأنّ من يجدّ في عمله لا يقع على ما ينبغي ولا يمكنه رعاية الدقائق فيه.

أقول:

إنّما اقتصرنا هاهنا في شرح الأسماء على ما ذكره الصدوق «رحمه الله» ولم نرد عليه شيئاً، ولم نتعرّض لما ذكره أيضاً إلا بما يوضح كلامه، لأنّنا يطول الكلام في هذا المقام، وسنشرحها في كتاب الدعاء إن شاء الله تعالى.

١٥٨٨. التوحيد^(٢): عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ الْأَسْوَارِيِّ، عَنْ مَكِّيِّ بْنِ أَحْمَدَ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ مُوسَى بْنِ عَامِرٍ، عَنْ الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ زُهَيْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ الْأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، إِنَّهُ وَثُرٌ يُحِبُّ الْوُثْرَ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، فَبَلَعْنَا أَنَّ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ قَالَ: إِنَّ أَوَّلَهَا يُفْتَحُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى، اللَّهُ، الْوَاحِدُ، الصَّمَدُ، الْأَوَّلُ، الْآخِرُ، الظَّاهِرُ، الْبَاطِنُ، الْخَالِقُ، الْبَارِئُ، الْمُصَوِّرُ، الْمَلِكُ، الْقُدُّوسُ، السَّلَامُ، الْمُؤْمِنُ، الْمُهِمِّنُ، الْعَزِيزُ، الْجَبَّارُ، الْمُتَكَبِّرُ، الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، اللَّطِيفُ، الْخَبِيرُ، السَّمِيعُ، الْبَصِيرُ، الْعَلِيُّ، الْعَظِيمُ، الْبَارُّ، الْمُتَعَالِي، الْجَلِيلُ، الْجَمِيلُ، الْحَيُّ، الْقَيُّومُ، الْقَادِرُ، الْقَاهِرُ، الْحَكِيمُ، الْقَرِيبُ، الْمُجِيبُ، الْعَنِيُّ، الْوَهَّابُ، الْوَدُودُ، الشَّكُورُ، الْمَاجِدُ، الْأَحَدُ، الْوَلِيُّ، الرَّشِيدُ، الْعَفُورُ، الْكَرِيمُ، الْحَلِيمُ، التَّوَّابُ، الرَّبُّ، الْمَجِيدُ، الْحَمِيدُ، الْوَفِيُّ، الشَّهِيدُ، الْمُبِينُ، الْبُرْهَانُ، الرَّؤُوفُ، الْمُبْدِي، الْمُعِيدُ، الْبَاعِثُ، الْوَارِثُ، الْقَوِيُّ، الشَّدِيدُ، الضَّارُّ، النَّافِعُ، الْوَافِي، الْحَافِظُ، الرَّافِعُ، الْقَابِضُ، الْبَاسِطُ، الْمُعِزُّ، الْمَذِلُّ، الرَّازِقُ، ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ، الْقَائِمُ، الْوَكِيلُ، الْعَادِلُ، الْجَامِعُ، الْمُعْطِي، الْمُجْتَبِي، الْمُخَيِّ، الْمُمِيتُ، الْكَافِي، الْهَادِي، الْأَبَدُ، الصَّادِقُ، التَّوَرُّ، الْقَدِيمُ، الْحَقُّ، الْفَرْدُ، الْوُثْرُ، الْوَاسِعُ، الْمُحْصِي، الْمُفْتَدِرُ، الْمُقَدِّمُ، الْمُؤَخَّرُ، الْمُنتَقِمُ، الْبَدِيعُ.

١٥٨٩. بصائر الدرجات^(٣): أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحَكَمِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْفُضَيْلِ، عَنْ ضُرَيْسِ الْوَابِشِيِّ^(٤)، عَنْ

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٢٠٠-٢١٨.

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٢١٩، ح ١١؛ تفسير البرهان، ج ٥، ص ٣٤٨، ح ١٠٦٤٣.

٣. بصائر الدرجات، ص ٢٠٨، ح ١؛ الكافي، ج ١، باب ما أعطي الأئمة عليهم السلام من اسم الله الأعظم، ص ٢٣٠، ح ١؛ كشف الغمّة،

ج ٢، ص ١٩١.

٤. في المصدر: «محمد بن الفضل، عن ضريس الوابشي»، وفي الكافي: «محمد بن الفضيل، عن شريس الوابشي».

جَابِرٍ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام ^(١) قَالَ: إِنَّ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ عَلَى ثَلَاثَةِ وَسَبْعِينَ حَرْفًا، وَإِنَّمَا عِنْدَ آصَفٍ مِنْهَا حَرْفٌ وَاحِدٌ، فَتَكَلَّمَ بِهِ فَخُسِفَ ^(٢) بِالْأَرْضِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَرِيرِ بَلْقِيسَ، ثُمَّ تَنَاوَلَ السَّرِيرَ بِيَدِهِ، ثُمَّ عَادَتِ الْأَرْضُ كَمَا كَانَتْ أَسْرَعَ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ، وَعِنْدَنَا نَحْنُ مِنَ الْإِسْمِ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ حَرْفًا، وَحَرْفٌ عِنْدَ اللَّهِ اسْتَأْثَرَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

١٥٩٠. بصائر الدرجات ^(٣): أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْبَرْقِيِّ يَرْفَعُهُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام ^(٤) قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ اسْمَهُ الْأَعْظَمَ عَلَى ثَلَاثَةِ وَسَبْعِينَ حَرْفًا، فَأَعْطَى آدَمَ عليه السلام مِنْهَا خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ حَرْفًا، وَأَعْطَى نُوحًا عليه السلام مِنْهَا خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ ^(٥) حَرْفًا، وَأَعْطَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام ثَمَانِيَةَ أَحْرَفٍ، وَأَعْطَى مُوسَى عليه السلام مِنْهَا أَرْبَعَةَ أَحْرَفٍ، وَأَعْطَى عِيسَى عليه السلام مِنْهَا حَرْفَيْنِ، وَكَانَ يُحْيِي بِهِمَا الْمَوْتَى وَيُبْرِئُ بِهِمَا الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَأَعْطَى مُحَمَّدًا صلى الله عليه وآله اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ حَرْفًا، وَاحْتَجَبَ حَرْفًا لئَلَّا يُعْلَمَ مَا فِي نَفْسِهِ وَيُعْلَمَ مَا فِي نَفْسِ الْعِبَادِ.

أقول:

قد أوردنا كثيراً من تلك الأخبار في أبواب الإمامة، وباب قصة بلقيس.

١٥٩١. عوالي اللئالي ^(٦): رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ لِلَّهِ أَرْبَعَةَ آلَافِ اسْمٍ، أَلْفٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ، وَأَلْفٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ، وَأَلْفٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّبِيُّونَ ^(٧)، أَمَّا الْأَلْفُ الرَّابِعُ فَالْمُؤْمِنُونَ يَعْلَمُونَهُ، ثَلَاثُمِائَةٍ مِنْهَا فِي التَّوْرَةِ، وَثَلَاثُمِائَةٍ فِي الْإِنْجِيلِ، وَثَلَاثُمِائَةٍ فِي الزَّبُورِ، وَمِائَةٌ فِي الْقُرْآنِ، تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ ظَاهِرَةً، وَوَاحِدٌ مِنْهَا مَكْتُومٌ، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ.

١. في كشف الغمّة بهذا الإسناد: «عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام و سعيد أبي عمر الجلاب، عن أبي عبد الله عليه السلام كلاهما رويَا عنهما معاً».

٢. الخسف: إلحاق الأرض الأولى بالثانية، راجع لسان العرب.

٣. بصائر الدرجات، ص ٢٠٨، ح ٣؛ الكافي، ج ١، باب ما أُعطي الأئمة عليهم السلام من اسم الله الأعظم، ص ٢٣٠، ح ٣؛ المصباح (للكفعمي)، ص ٣١٢؛ وقد ورد في الأخيرين مع اختلاف يسير.

٤. في الكافي بهذا الإسناد: «الحسين بن محمد الأشعري، عن معلّى بن محمد، عن أحمد بن محمد بن عبد الله، عن علي بن محمد النوفلي، عن أبي الحسن الهادي عليه السلام».

٥. في المصدر والكافي والمصباح: «خمس عشرة».

٦. عوالي اللئالي، ج ٤، ص ١٠٦، ح ١٥٧؛ نوادر الأخبار (للفيض)، ص ٩٦، ح ٦.

٧. نقول: الظاهر أن عدم ذكر الأنبياء في الفقرة الثانية ناطرة إلى بعض الأنبياء لا جميعهم لا سيما مثل نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله.

﴿باب ٤﴾

«جوامع التوحيد»

الآيات:

البقرة/٢٥٥-٢٥٧: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾^(١) إلى آخر الآيات.

البقرة/٢٦٠: ﴿... وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

البقرة/٢٦١: ﴿... وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

البقرة/٢٦٧: ﴿... وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

آل عمران/١-٦: ﴿الَمْ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

١. **فقول:** «سنة» من مادة «وسن» وتعني كما يقول كثير من المفسرين أنها الإغفاءة والاسترخاء الذي يكون في بداية النوم، وبعبارة أخرى: أنه النوم الخفيف، و«نوم» يعني الحالة التي تركد فيها بعض حواس الإنسان المهمة، وفي الواقع أن «سنة» عبارة عن النوم العارض للعين، ولكن عند ما يتوغل كثيرا في الإنسان ويتعمق ويعرض على العقل فيقال له «نوم» وجملة ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ هي في الواقع تأكيد لصفة القيوم التي يوصف بها الله، لأن القيام الكامل والمطلق بتدبير عالم الوجود يتطلب عدم إغفال ذلك حتى للحظة واحدة. أي إن الله لا يغفل طرفة عين عن حكمه المطلق على عالم الوجود وإدارته. لذلك فكل صفة لا تتفق مع قيومية الله تنتفي من ساحة قدس الله تلقائيا، بل إن ذاته منزّهة حتى عن أية عامل يمكن أن يؤدي إلى أي تهاون في عمله، مثل «السنة». (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢، ص ٢٤٤) وفيها مباحث أخرى حول أسماء الله جل اسمه، أشرنا إليها في الباب الثالث في ذيل الآية الشريفة.

آل عمران / ١٨: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١).

آل عمران / ٢٦ و ٢٧: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتَخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتَخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

آل عمران / ٦٢: ﴿... وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

آل عمران / ٧٣: ﴿... وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

آل عمران / ٨٣: ﴿... وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

آل عمران / ١٠٩: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

آل عمران / ١٥٤: ﴿... وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

آل عمران / ١٥٦: ﴿... وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

آل عمران / ١٨٠: ﴿... وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

النساء / ٢٦: ﴿... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

النساء / ١٧ و ١١١: ﴿... وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

النساء / ٨٤: ﴿... وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾.

النساء / ٨٧: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ كُمُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.

النساء / ٩٤: ﴿... إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

النساء / ٩٦: ﴿... وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

النساء / ١٢٦: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾.

النساء / ١٢٧: ﴿... وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾.

النساء / ١٣١: ﴿... وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾.

المائدة / ٢: ﴿... إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

١. **فقول:** المقصود من شهادة الله هنا هو الشهادة العملية والعقلية، لا الشهادة اللفظية أي أن الله بخلقه عالم المخلوقات الذي يسوده نظام موحد، وتنشابه قوانينه في كل مكان، وتجري وفق برنامج واحد، لتكوّن وحدة واحدة ونظاما واحدا، قد أظهر عمليا أن الخالق والمعبود في العالم ليس أكثر من واحد، وأن كل شيء ينطلق من ينبوع واحد. وعليه فإن خلق هذا النظام الواحد شهادة ودليل على وحدانيته. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢، ص ٤٢٦)

المائدة/٤: ﴿... إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

المائدة/٧: ﴿... إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(١).

المائدة/٩٥: ﴿... وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾.

المائدة/٩٨: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

المائدة/١٢٠: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

الأنعام/١-٣: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ * وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾.

الأنعام/١٢-١٤: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢).

الأنعام/١٧ و ١٨: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْغَايُ قَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾^(٣).

الأنعام/٧٣: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

الأنعام/٩٥-١٠٣: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ

١. **نقول:** تدل عبارة: ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ على أن الله عالم بأدق أسرار البشر المكنونة في أعماق نفوسهم والتي لا يمكن لأي مخلوق معرفتها

غير صاحب السرّ وخالفه، أي الله العالم بذات الصدور. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٣، ص ٦٢٣)

٢. **نقول:** ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي أن اتساع عالم الوجود، والكائنات في آفاق الزمان والمكان لا تحول أبداً دون أن يكون الله عليماً بأسرارها، بل إنه يسمع نجواها، ويعلم حركة النملة الضعيفة على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء في أعماق واد سحيق صامت، وإنه ليدرك حاجاتها وحاجات غيرها، ويعلم ما تفعل. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٤، ص ٢٢٦)

٣. **نقول:** «القاهر» و«الغالب» وإن كانا بمعنى واحد، إلا أنهما من جذرين مختلفين، «القهر» يطلق على ذلك النصر الذي يتحقق دون أن يتمكن الطرف المقهور من إبداء أية مقاومة، وفي كلمة «الغلبة» لا يوجد هذا المعنى، وقد تحصل بعد المقاومة. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل،

ج ٤، ص ٢٣٢)

الْعَلِيمُ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُشْتَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ^(١).

١. **نقول:** هنا نشير إلى بضع نقاط:

١. ما معنى «بديع»؟ أن «بديع» تعني موجد الشيء بغير سابق وجود، أي أن الله أوجد السماوات والأرض بغير أن يسبق ذلك وجود مادة أو خطة سابقة. هنا يعترض بعضهم بقوله: كيف يمكن إيجاد شيء من عدم. قلنا: إننا عند ما نقول إن الله أوجد الأشياء من عدم لا نعني أن المادة الأولية لخلقها هي «العدم» مثلما نقول: إن النجار صنع الكرسي من الخشب، فهذا بالطبع مستحيل، لأن «العدم» لا يمكن أن يكون مادة «الوجود». إنما المقصود هو أن موجودات هذا العالم لم تكن موجودة من قبل، ثم وجدت، وليس في هذا ما يصعب فهمه. ونضيف هنا قائلين: إننا قادرون على أن نوجد في أذهاننا أشياء لم تكن فيها من قبل مطلقا، ولا شك أن لهذه الموجودات الذهنية نوعا من الوجود والكيونة، رغم أنه ليس وجودا خارجيا، ولكنها موجودة في أفق أذهاننا، وإذا كان وجود الشيء بعد العدم مستحيلا، فما الفرق بين الوجود الذهني والوجود الخارجي؟ وبناء على ذلك فإننا كما نستطيع أن نخلق في أذهاننا كائنات لم يكن لها وجود من قبل، كذلك يفعل الله ذلك في العالم الخارجي؛ إن قليلا من التأمل في هذا المثال كاف لحل هذه المسألة.

٢. الله خالق كل شيء: بعض المفسرين من أهل السنة، ممن يذهب إلى الجبر يتخذ من قوله تعالى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ دليلا على صحة مذهبهم في الجبر، فيقول: إن أعمالنا وأفعالنا من «أشياء» هذا العالم أيضا، لأن كلمة «شيء» تطلق على كل ذي وجود، ماديا كان أم غير مادي، وسواء كان من الذوات أم من الصفات، وعليه عند ما نقول: إن الله خالق كل شيء، لا بد لنا أن نقبل أيضا بأنه خالق أفعالنا، وهذا هو الجبر بعينه. بيد أن القائلين بحرية الإرادة والاختيار يردون بجواب واضح على أمثال هذه الاستدلالات، وهو أن خالقية الله حتى بالنسبة لأفعالنا لا تتعارض مع حريتنا في الاختيار، إذ أن أفعالنا يمكن أن تنسب إلينا وإلى الله، فنسبتها إلى الله قائمة على كونه قد وضع جميع مقدمات ذلك تحت تصرفنا، فهو الذي وهبنا القوة والقدرة والإرادة والاختيار، فما دامت جميع المقدمات من خلقه، فيمكن أن تنسب أفعالنا إليه باعتبارها خالقتها، ولكن من حيث اتخاذ القرار النهائي فإننا بالاستفادة مما وهبه الله لنا من القدرة على الإرادة والاختيار نتخذ القرار بأداء الفعل أو تركه، فمن هنا تنسب هذه الأفعال إلينا ونكون مسؤولين عنها. وتعبير الفلاسفة: لا يوجد في هذا المقام علتان أو خالقان للفعل في عرض واحد. بل هما ممتدتان طولًا، لأن وجود علتين تأمّتين في عرض واحد لا معنى له، لكنهما إذا كانا طوليين فلا مانع من ذلك، ولما كانت أفعالنا تستلزم المقدمات التي وهبها الله لنا، فيمكن أن تنسب هذه المستلزمات إليه أيضا، إضافة إلى نسبتها إلى فاعلها. هذا الكلام أشبه بالذي يريد أن يختبر عماله فيترك لهم الحرية في عملهم واختياراتهم، ويهيئ لهم جميع ما تطلبه عملهم من مقدمات ووسائل، فطبيعي أن تعتبر أفعالهم منسوبة إلى رب العمل، ولكن ذلك لا يسلبهم حرية العمل والاختيار، بل يكونون مسؤولين عن أعمالهم.

- الأنعام/١١٥: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.
- الأنعام/١٣٣: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ...﴾.
- الأنعام/١٦٤: ﴿...أَغْنِيَ اللَّهُ أَبْنِيَ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ...﴾.
- الأنعام/١٦٥: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.
- الأعراف/٥٤-٥٧: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ * وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ...^(١).
- الأنفال/٢٤: ﴿...وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.
- الأنفال/٤٠: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.
- الأنفال/٤٤: ﴿...وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.
- التوبة/١١٦: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

→ ٣. لا تدركه الأبصار: تثبت الأدلة العقلية أنَّ الله لا يمكن أن يرى بالعين، لأنَّ العين لا تستطيع أن ترى إلا الأجسام، أو على الأصح بعضا من كيفيات الأجسام، فإذا لم يكن الشيء جسما ولا كيفية من كيفيات الجسم، لا يمكن أن تراه العين. وبتعبير آخر، إذا أمكنت رؤية شيء بالعين، فلأن لهذا الشيء حيزا واتجاها وكتلة، في حين أنَّ الله أرفع من أن يتصف بهذه الصفات، فهو وجود غير محدود وهو أسمى من عالم المادة المحدود في كل شيء.

٤. ما معنى «اللطيف»؟ «اللطيف» من مادة «لطف»، واللطيف إذا وصف به الجسم دل على الخفيف المضاد للثقل، ويعبر باللطافة واللطف عن الحركة الخفيفة وعن تعاطي الأمور الدقيقة التي قد لا تدركها الحواس، ويصح أن يكون وصف الله تعالى باللطف على هذا الوجه لمعرفته بدقائق الأمور، ولخلفه أشياء دقيقة لطيفة غير مرئية، وتنسم أفعاله بالدقة المتناهية الخارجة عن قدرة الإدراك. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٤، ص ٤١١)

١. **نقول:** هناك كلام كثير بين المفسرين حول المراد من «الخلق» و«الأمر» أنه ما هو؟ ولكن بالنظر إلى القرائن الموجودة في هذه الآية والآيات القرآنية الأخرى يستفاد أنَّ المراد من «الخلق» هو الخلق والإيجاد الأول. والمراد من «الأمر» هو السنن والقوانين الحاكمة على عالم الوجود بأسره بأمر الله تعالى، والتي تقود الكون في مسيره المرسوم له. إن هذا التعبير - في الحقيقة - رد على الذين يتصورون أنَّ الله خلق الكون ثم تركه لحاله وأهله، وجلس جانبا. أي إنَّ العالم بحاجة إلى الله في وجوده وحدوثه، دون بقائه واستمراره. إنَّ هذه الجملة تقول: كلاً، بل إنَّ العالم كما يحتاج إلى حدوثه إلى الله، كذلك يحتاج إليه في تديره واستمرار حياته وإدارة شؤونه إلى الله، ولو أنَّ الله صرف عنايته ولطفه عن الكون لحظة واحدة لتبدد النظام وانهار وانهدم بصورة كاملة. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٥، ص ٧٥)

- التوبة/١٢٩: ﴿... حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.
- يونس/٣: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.
- يونس/٥: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.
- يونس/٣١ و ٣٢: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾.
- يونس/٦٤: ﴿... لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ...﴾.
- يونس/٦٥: ﴿... إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.
- يونس/٦٧: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾.
- يونس/١٠٧: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.
- هود/٧: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا...﴾.
- هود/١٢: ﴿... وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.
- هود/٥٦: ﴿... مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١).

١. **نقول:** ملاحظتان: الأولى: إنّ «الناصية» في اللغة معناها الشعر المسترسل على الجبهة، وهي مشتقة من «نصا» ومعناها الاتصال والارتباط، وأخذ بناصية فلان كناية عن القهر والتسلط عليه، فما ورد في الجملة السابقة من الآية من قول الحق سبحانه: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا﴾ إشارة إلى قدرته القاهرة على جميع الأشياء بحيث لا شيء في الوجود له طاقة المقاومة قبال هذه القدرة، لأن من أحكم الإمساك على شعر مقدم الرأس من الإنسان أو أي حيوان آخر، فإنه يسلب منه القدرة على المقاومة عادة. والغرض من هذه العبارة أنّ المستكبرين المغترين وعبدة الأوثان والظالمين الباحثين عن السلطة لا يتصوروا أنّه إذا أُخلي لهم الميدان لعدة أيام فذلك دليل على قدرتهم على المقاومة أمام قدرة الله، فعليهم أن يلتفتوا إلى هذه الحقيقة وأن ينزلوا من مركب غرورهم. الثانية: إنّ جملة «رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» من أروع التعابير في الحكاية عن قدرة الله المقترنة بعدله، لأنّ المقتدرين في الغالب ظالمون ومتجاوزون للحدود، ولكن الله سبحانه مع قدرته التي لا نهاية لهم فهو دائما على صراط مستقيم، وجادة صافية ونظم وحساب ودقة! (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٦، ص ٥٦٧)

هود/٥٧: ﴿... إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾.

يوسف/١٠١: ﴿... فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...﴾.

الرعد/١١-١٣: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ * هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾.

الرعد/٤١: ﴿... وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

إبراهيم/١ و٢: ﴿... إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾.

النحل/٤٨-٥٠: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

النحل/٦٠: ﴿... وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

النحل/٧٧: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾.

الإسراء/١١١: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا﴾^(١).

مريم/٦٤ و٦٥: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.

طه/٤-٨: ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ تَجَهَّرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

١. **نقول:** قد يطرح هنا هذا السؤال: كيف يكون حمد الخالق في الآية أعلاه في قبال الصفات السلبية، في حين أننا نعلم بأن «الحمد» هو في قبال الصفات الثبوتية كالعلم والقدرة، أما صفات مثل نفي الولد والشريك والولي فهي تتلاءم مع التنسيب فكيف مع الحمد؟ في الجواب على هذا السؤال نقول: بالرغم من أن طبيعة الصفات السلبية والثبوتية تختلف بعضها عن بعض وإن إحداها تتلاءم مع التنسيب والأخرى تتلاءم مع الحمد، إلا أنه في الوجود الخارجي العيني يكون الاثنان لازمين وملزومين، فنفي الجهل عن الخالق يكون ملازماً لإثبات العلم له، كما أن إثبات العلم لذاته جلّ وعلا ملازم لنفي الجهل. وعلى هذا الأساس فلا مانع تارة من ذكر اللازم وأخرى من ذكر الملزوم. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٩، ص ١٨٣)

طه / ٩٨: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

طه / ١١١: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

الأنبياء / ١١٢: ﴿... وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾.

الحج / ١٨: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.

الحج / ٤١: ﴿... وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

الحج / ٦٠-٦٦: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ * وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾^(١).

الحج / ٧٦: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

النور / ٦٤: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

الفرقان / ١ و ٢: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾.

الفرقان / ٥٨ و ٥٩: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾.

١. **فقول:** التحام صفتي «الغني» و«الحمد» جاء في غاية الإحكام: أولاً: لأنَّ عدداً كبيراً من الناس أغنياء، إلا أنَّهم بخلاء يستغلون الآخرين ويعملون لذاتهم فقط، وقد غرقوا في الغفلة والغرور. وغلب على أصحاب الثروة الطائلة هذه الصفات. أمّا غنى الله سبحانه فهو مزيج من اللطف والسماء والجلود والكرم، لذا استحقَّ الحمد والثناء من عباده. ثانياً: إنَّ الأغنياء غيَّرَ الله تعالى غناهم الظاهري، وإذا كانوا أكرماً فإنَّ كرمهم في الواقع ليس منهم، بل من لطف الله سبحانه وقديم إحسانه، فكلَّ إمكاناتهم إنما هي من أنعم الله. فالله وحده هو الغني بذاته والجدير بكلِّ حمد وثناء. ثالثاً: لأنَّ الأغنياء يعملون ما يفيدهم أو يتوخَّون فائدته، أمّا ربَّ العالمين سبحانه وتعالى فيجود ويرحم ويعفو دون حساب، ولا ابتغاء فائدة، ولا سدَّ حاجة، وإنَّما يفعل ذلك كرمًا منه ورحمة، فهو أهل الحمد والثناء بلا شريك. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٠، ص ٣٩٠)

الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسُئِلَ بِهِ خَبِيرًا^(١).

الشعراء/١٩١: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

الشعراء/٢١٧-٢٢٠: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

القصص/٦٨-٧٠: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

القصص/٨٨: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

العنكبوت/٦: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

العنكبوت/٢١ و ٢٢: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

الروم/٥: ﴿... يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

الروم/١٧-١٩: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

الروم/٢٦: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾^(٢).

١. **نقول:** في الآيات أعلاه، يأمر الله تبارك وتعالى النبي ﷺ بالتوكل، وأن يصرف النظر عن جميع المخلوقات، وينظر إلى الله عز وجل فقط. ولذلك يحدد صفات لهذه الذات المقدسة، هي في الحقيقة شرائط أساسية فيمن يستطيع أن يكون ملاذاً واقعياً وآمناً للناس. الأولى: هي أن يكون حياً، وذلك أن موجوداً ميتاً فاقداً لخصائص الحياة - مثل الأصنام - لا يمكنه أبداً أن يكون معتمداً. الثانية: هي أن تكون حياته خالدة، بالشكل الذي لا يحدث احتمال موته تنزلاً في فكر المتوكلين. الثالثة: هي أن يحيط بكل شيء علماً، فيكون مطلعاً على احتياجات المتوكلين، وعلى خطط ومؤامرات الأعداء أيضاً. الرابعة: هي أن يكون على كل شيء قديراً، حيث لا وجود فيه لأي شكل من العجز وعدم الاستطاعة الموجبين لضعف هذا الملجأ. الخامسة: هي أن تكون الحاكمة له على جميع الأمور، وإدارتها بيده المقتدرة. ونحن نعلم أن هذه الصفات ليست إلا لله تبارك وتعالى، ولهذا فهو وحده الملجأ الباعث على الاطمئنان الذي لا يتزلزل أمام كل الحوادث. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١١، ص ٢٩٥)

٢. **نقول:** واضح أن المراد من المالكية وخضوع المخلوقات وقنوتها هي الخضوع والقنوت التكويني أي إن زمام أمر الجميع من جهة القوانين

الروم/٢٧: ﴿... وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.
 لقمان/٢٦: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١).
 السجدة/٤: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.
 السجدة/٦ و٧: ﴿ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾.
 الأحزاب/٤: ﴿... وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾.
 الأحزاب/٣٩: ﴿... وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.
 الأحزاب/٤٠: ﴿... وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.
 الأحزاب/٤٣: ﴿... وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.
 الأحزاب/٤٨: ﴿... وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.
 الأحزاب/٦٢: ﴿... وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.
 سبأ/١: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.
 سبأ/٢١: ﴿... وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾.
 فاطر/١٠: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ

→ التكوينية كله في يده، وهم مستسلمون لقانون عالم التكوين وفق مشيئة الله، شاؤوا أم أبوا. حتى العناية الطغاة الألداء والمتمردون على القانون والجباة، هم مضطرون أيضاً أن يحنوا رؤوسهم لأمر الله في القوانين التكوينية. والدليل على هذه المالكية هو الخالقية والربوبية، فإن من خلق الموجودات في البداية وتكفلها بالتدبير، فمن المسلم أنه هو المالك الأصلي لها لا سواه! وبما أن جميع موجودات الدنيا سواسية في هذا الأمر، فمن الواضح أن لا يكون معه أي شريك في الملك حتى الأوثان والمعبودات المصطنعة التي يتصورها المشركون أنها أربابهم، هي أيضاً مملوكة لمالك الملك والملوك، وهي طوع أمره. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٢، ص ٥١٠)

١. **نقول:** من البديهي أن الخالق والمالك يكون مدبراً لأمر العالم أيضاً، وبهذا تثبت أركان التوحيد الثلاثة، وهي: «توحيد الخالقية» و«توحيد المالكية» و«توحيد الربوبية». والذي يكون على هذا الحال فإنه غني عن كل شيء، وأهل لكل حمد وثناء، إنه غني على الإطلاق، وحامد من كل جهة، لأن كل موهبة في هذا العالم تعود إليه، وكل ما يملكه الإنسان فإنه صادر منه وخزائن كل الخيرات بيده، وهذا دليل حي على غناه. ولما كان «الحمد» بمعنى الثناء على العمل الحسن الذي يصدر عن المرء باختياره، وكل حسن نراه في هذا العالم فهو من الله سبحانه، فإن كل حمد وثناء منه، فحتي إذا مدحنا جمال الزهور، ووصفنا جاذبية العشق الملوكوتي، وقدّرنا إيثار الشخص الكريم، فإننا في الحقيقة نحمده، لأن هذا الجمال والجاذبية والكرم منه أيضاً إذن فهو حميد على الإطلاق. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٣، ص ٦١)

يَرْفَعُهُ...»^(١).

فاطر ١٥: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

فاطر ٤٣: ﴿... فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

يس ٨٣: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

الصافات ١٨٠: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

الزمر ٣٦/ ٣٧: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ

* وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾.

غافر ٢/ ٣: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي

الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾.

فصلت ٤٢: ﴿... تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

فصلت ٤٣: ﴿... إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

الشورى ٣-٦: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ

رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ

حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

الشورى ١٩: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾^(٢).

الشورى ٢٤-٢٨: ﴿... فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ

عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ *

وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ * وَلَوْ

بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ * وَهُوَ الَّذِي

١. **نقول:** «العزة»: على ما يقول الراغب في مفرداته: حالة مانعة للإنسان من أن يغلب، من قولهم: أرض عزاز، أي صلبة. ولأنَّ الله سبحانه

وتعالى هو الذات الوحيدة التي لا تغلب، وجميع المخلوقات بحكم محدوديتها قابلة لأن تغلب، وعليه فإنَّ العزة جميعها من الله، وكل من

اكتسب عزة فمن بحر عزته اللامتناهي. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٤، ص ٣٢)

٢. **نقول:** من الضروري الانتباه إلى هذه الملاحظة وهي أنَّ «لطيف» لها معنيان: الأول: أنه صاحب اللطف والمحبة والرحمة. والثاني: علمه

بجميع الأمور الصغيرة والخفية، وبما أنَّ رزق العباد يحتاج إلى الإحاطة والعلم بالجميع وفي أي مكان كانوا، سواء في السماء أو في الأرض،

لذا فإنَّ الآية تشير في البداية إلى لطفه ثم إلى رزقه. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٥، ص ٥٠١)

يُنْزِلُ الْعَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ*.

الشورى ٤٩ و ٥٠: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يَزُوجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ*.

الشورى ٥٣: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ*.

الزخرف ٨٤ و ٨٥: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ*.

الدخان ٧ و ٨: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ*.

الجاثية ٣٦ و ٣٧: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ*.

الأحقاف ١-٣: ﴿حَمَّ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ...*.

الأحقاف ٨: ﴿... قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ*.

الفتح ٤: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا*.

الفتح ٧: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا*.

الفتح ١٤: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا*.

النجم ٤٢-٤٩: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَىٰ*^(١).

١. **نقول:** إنَّ ما تشيره هذه الآيات في الحقيقة إشارة إلى هذا المعنى، وهو أنَّ أيَّ نوع من أنواع التدبير في هذا العالم إنَّما يعود إلى ذات الله المقدَّسة، بدءاً من مسألة الموت والحياة، إلى خلق الإنسان من نطفة لا قيمة لها، وكذلك الحوادث المختلفة التي تقع في حياة الإنسان فتضحكه تارة وتبكيه أخرى، كلَّ ذلك من تدبير الله سبحانه. والنجوم والكواكب المشرقة في السماء تطلع وتغيب بأمره وتحت ربوبيته. وفي الأرض الغنى وعدم الحاجة وما يقتنيه الإنسان كلَّ ذلك يعود إلى ذاته المقدَّسة. وبالطبع فإنَّ النشأة الأخرى بأمره أيضاً، لأنَّها حياة جديدة

الرحمن / ٢٩: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

الرحمن / ٧٨: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

الحديد / ١-٦: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(١).

الحديد / ٢٩: ﴿لَيْتَآ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

الحشر / ١ والصف / ١: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

الجمعة / ١: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

المنافقون / ٧: ﴿... وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾.

المنافقون / ٨: ﴿... وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ...﴾.

التغابن / ١-٤: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

→ وامتداد لهذه الحياة واستمرارها. هذا البيان يبرز خط التوحيد من جهة ومن جهة أخرى خط المعاد، لأن خالق الإنسان من نطفة لا قيمة لها في الرحم قادر على تجديد حياته أيضاً، وتعبير آخر، إن جميع هذه الأمور كاشفة عن توحيد أفعال الله وتوحيد ربوبيته، أجل كل هذي الأصداء من إيحائه! (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٧، ص ٢٧١)

١. **نقول:** ملاحظات: الأولى: حقيقة «التسييح» عبارة عن نفي كل عيب ونقص عن الذات الإلهية، وشهادة جميع الكائنات في هذا العالم بطهارة ذاته من كل عيب، حيث إن النظم والحساب والحكمة والعجائب في نظام الكائنات هذه جميعها تذكر «الله» بلسان حالها وتسبحه وتحمده وتنزهه، وتؤكد أن لخالقها قدرة لا متناهية، وحكمة لا محدودة. الثانية: إن مالكية الله عز وجل لعالم الوجود ليست مالكية اعتبارية وتشريعية، إذ أنها مالكية حقيقية وتكوينية. وهذا يعني أن الله سبحانه محيط بكل شيء، وأن جميع العالم في قبضته وقدرته وتحت إرادته وأوامره. الثالثة: الاختلاف بين «العزة» و«القدرة» هو أن العزة أكثر دلالة على تحطيم المقابل والقدرة تعني توفير الأسباب وإيجادها، وبناء على هذا فإنهما يعدان وصفين مختلفين بالرغم من أنهما مشتركان في أصل القدرة. الرابعة: والوصف بـ «الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ» هو تعبير آخر عن الإحاطة الوجودية أي وجود الله بالنسبة لجميع الموجودات، أي أنه أظهر من كل شيء لأن آثاره شملت جميع مخلوقاته في كل مكان، وهو خفي أكثر من كل شيء أيضاً لأن كنه ذاته لم يتضح لأحد. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ١٨، ص ١١)

بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ *.

التغابن / ٦: ﴿... وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ *.

التغابن / ١٧ و ١٨: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكورٌ حلِيمٌ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *.

الطلاق / ٣: ﴿... إِنْ اللَّهُ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا *.

التحریم / ٢: ﴿... وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ *.

الملك / ١ و ٢: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ *.

البروج / ٨ و ٩: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *.

البروج / ١٢-١٦: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ * وَهُوَ الْعَفُورُ الْودُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ *.

البروج / ٢٠: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ *.

الأعلى / ١-٥: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى * (١).

الناس / ١-٣: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ *.

الروايات:

١٥٩٢. التوحيد، الأماي للصدوق^(٢): ابْنُ عَصَامٍ، عَنِ الْكَلْبِيِّ، عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مَعْنٍ، عَنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ

١. **نقول:** يذهب جمع من المفسرين إلى أن المراد بالـ «اسم» هنا هو المسمى، في حين قال آخرون: هو «اسم الله» سبحانه وتعالى. وليس ثمة فرق كبير بين القولين، فالاسم يدل على المسمى. وعلى أية حال، فمراد الآية أن لا يوضع اسمه جلّ شأنه في مصاف أسماء الأصنام، ويجب تنزيه ذاته المقدسة من كلّ عيب ونقص، ومن كلّ صفات المخلوق وعوارض الجسم، أي أن لا يحد. فينبغي على المؤمنين ألا يتعاملوا مع اسمه الجليل كتعامل عبدة الأصنام، بأن يضعوا اسمه تعالى مع أسماء أصنامهم، ولا يفعلوا كما يفعل المجسمة، ممن وقعوا في خطأ كبير وفاحش حينما نسبوا إلى الباري جلّ جلاله الصفات الجسمية. ﴿الْأَعْلَى﴾: أي الأعلى من كلّ أحد، تصوّر، أو تخيل، أو توهم، ومن أي شرك بشقيه الجلي والخفي. ﴿رَبِّكَ﴾: إشارة إلى أنه غير ذلك الرب الذي يعتقد به عبدة الأصنام. (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢٠، ص ١٢٥)

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٧٢، ح ٢٧؛ الأماي (للصدوق)، ص ٣٢٠، ح ٨، وفي الكافي، ج ٨، خطبة لأمر المؤمنين عليه السلام، وهي خطبة الوسيلة، ص ١٨، ح ٤، مع زيادة.

عَاتِكَةَ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ النَّضْرِ الْفَهْرِيِّ، عَنْ عَمْرِو الْأَوْزَاعِيِّ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شَمْرٍ^(١)، عَنْ جَابِرِ بْنِ يَزِيدَ الْجُعْفِيِّ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْبَاقِرِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي خُطْبَةٍ خَطَبَهَا بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ بِتِسْعَةِ^(٢) أَيَّامٍ - وَذَلِكَ حِينَ فَرَعَ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ - فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْجَزَ الْأَوْهَامَ أَنْ تَنَالَ إِلَّا وَجُودَهُ، وَحَبَبَ الْعُقُولَ عَنْ أَنْ تَتَخَيَّلَ ذَاتَهُ فِي امْتِنَاعِهَا مِنَ الشَّبَهِ وَالشَّكْلِ، بَلْ هُوَ الَّذِي لَمْ يَتَفَاوَتْ فِي ذَاتِهِ، وَلَمْ يَتَبَعَضْ بِتَجْزِيَةِ الْعَدَدِ فِي كَمَالِهِ، فَارَقَ الْأَشْيَاءَ لَا عَلَى اخْتِلَافِ الْأَمَاكِينِ، وَتَمَكَّنَ مِنْهَا لَا عَلَى الْمُمَارَجَةِ، وَعَلِمَهَا لَا بِأَدَاةٍ لَا يَكُونُ الْعِلْمُ إِلَّا بِهَا، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعْلُومِهِ عِلْمٌ غَيْرُهُ، إِنْ قِيلَ: «كَانَ» فَعَلَى تَأْوِيلِ أَرْلِيَّةِ الْوُجُودِ، وَإِنْ قِيلَ: «لَمْ يَزَلْ» فَعَلَى تَأْوِيلِ نَفْيِ الْعَدَمِ، فَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ قَوْلِ مَنْ عَبَدَ سِوَاهُ وَاتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرَهُ عُلُوًّا كَبِيرًا.

أقول:

سياًتي الخطبة بتمامها في أبواب المواعظ مع شرحها.

١٥٩٣. التوحيد، عيون أخبار الرضا عليه السلام^(٣): حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِسْحَاقَ الطَّالْقَانِيُّ «رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ»، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الْعَدَوِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْهَيْثَمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الرُّمَانِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ مُوسَى الرُّضَا، عَنْ أَبِيهِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِيهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ أَبِيهِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: خَطَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ النَّاسَ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ، وَلَا مِنْ شَيْءٍ كَوَّنَ مَا قَدْ كَانَ، الْمُسْتَشْهِدُ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَرْلِيَّتِهِ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ، لَمْ يَخْلُ مِنْهُ مَكَانٌ فَيُذْرِكُ بِأَيْبِيَّتِهِ، وَلَا لَهُ شَبَحٌ مِثَالُ^(٤) فَيُوصَفُ بِكَيْفِيَّتِهِ، وَلَمْ يَغِبْ عَنْ شَيْءٍ^(٥) فَيَعْلَمَ بِحَيْثِيَّتِهِ، مُبَايِنٌ لِجَمِيعِ مَا أَحْدَثَ فِي الصِّفَاتِ، وَمُمْتَنِعٌ عَنِ الْإِدْرَاكِ بِمَا ابْتَدَعَ مِنْ تَصْرِيفِ الذَّوَاتِ، وَخَارِجٌ بِالْكَبَرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ مِنْ جَمِيعِ تَصْرِيفِ الْحَالَاتِ، مُحَرَّمٌ عَلَى بَوَارِعِ نَاقِبَاتِ الْفِطَنِ تَحْدِيدُهُ، وَعَلَى عَوَاقِبِ ثَاقِبَاتِ الْفِكْرِ تَكْيِيفُهُ، وَعَلَى غَوَائِصِ سَابِحَاتِ النَّظَرِ^(٦) تَصْوِيرُهُ، لَا تَحْوِيهِ الْأَمَاكِينُ لِعَظَمَتِهِ، وَلَا تَذَرُّعُهُ^{(٧)(٨)}

١. في الكافي: «محمد بن علي بن معمر، عن محمد بن علي بن عكابة، عن الحسين بن النضر الفهري، عن أبي عمرو الأوزاعي، عن عمرو بن شمر...».

٢. في التوحيد: «بِسَعَةِ».

٣. التوحيد (للصدوق)، ص ٦٩، ح ٢٦؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٢١، ح ١٥.

٤. في التوحيد: «لا له شبه مثال».

٥. في التوحيد: «عن علمه شيء».

٦. في التوحيد: «محرم على بوارع ثاقبات الفطن تحديده، وعلى عوامق ناقبات الفكر تكييفه، وعلى غوائص سابحات الفطر»، وفي العيون:

«... الفطن تجديدها وعلى غوامض ثاقبات الفكر...».

٧. ذرع الثوب: قدره بالذراع، راجع لسان العرب.

الْمَقَادِيرُ لِجَلَالِهِ، وَلَا تَقْطَعُهُ الْمَقَايِيسُ لِكِبَرِيَّائِهِ، مُنْتَمِعٌ عَنِ الْأَوْهَامِ أَنْ تَكْتَنِبَهُ، وَعَنِ الْأَفْهَامِ أَنْ تَسْتَعْرِقَهُ، وَعَنِ الْأَذْهَانِ أَنْ تَمْتَثِلَهُ، قَدْ يَسِسَتْ مِنْ اسْتِنْبَاطِ الْإِحَاطَةِ بِهِ طَوَامِحُ الْعُقُولِ، وَنَضَبَتْ عَنِ الْإِشَارَةِ إِلَيْهِ بِالْاِكْتِنَاهِ بِحَارُ الْعُلُومِ، وَرَجَعَتْ بِالصَّغَرِ عَنِ السُّمُوِّ إِلَى وَصْفِ قُدْرَتِهِ لَطَائِفُ الْخُصُومِ، وَاحِدٌ لَا مِنْ عَدَدٍ، وَدَائِمٌ لَا بِأَمَدٍ، وَقَائِمٌ لَا بِعَمَدٍ، وَلَيْسَ بِجَنْسٍ فَتَعَادِلُهُ الْأَجْنَاسُ، وَلَا بِشَبَحٍ فَتَضَارِعُهُ الْأَشْبَاحُ، وَلَا كَالْأَشْيَاءِ فَتَقَعَّ عَلَيْهِ الصِّفَاتُ، قَدْ ضَلَّتِ الْعُقُولُ فِي أَمْوَاجِ تَيَّارِ إِدْرَاكِهِ، وَتَحَيَّرَتْ الْأَوْهَامُ عَنْ إِحَاطَةِ ذِكْرِ أَرْلِيَّتِهِ، وَحَصِرَتْ الْأَفْهَامُ عَنِ اسْتِشْعَارِ وَصْفِ قُدْرَتِهِ، وَغَرِقَتِ الْأَذْهَانُ فِي لُجَجِ أَفْلَاكِ مَلَكُوتِهِ، مُقْتَدِرٌ بِالْآلَاءِ، وَمُتَمَتِّعٌ بِالْكِبَرِيَّاءِ، وَمُتَمَلِّكٌ عَلَى الْأَشْيَاءِ، فَلَا دَهْرٌ يَخْلُقُهُ^(٩)، وَلَا وَصْفٌ يَحِيطُ بِهِ، قَدْ خَضَعَتْ لَهُ رَوَاتِبُ الصَّعَابِ^(١٠) فِي مَحَلِّ تَخُومِ قَرَارِهَا، وَأَدْعَنْتْ لَهُ رَوَاصِنُ الْأَسْبَابِ فِي مُتَمَتَّى شَوَاقِقِ أَقْطَارِهَا، مُسْتَشْهِدٌ بِكُلِّيَّةِ الْأَجْنَاسِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ، وَبِعَجزِهَا عَلَى قُدْرَتِهِ، وَبِفُطُورِهَا عَلَى قِدَمَتِهِ، وَبِزَوَالِهَا عَلَى بَقَائِهِ، فَلَا لَهَا مَحِيصٌ عَنْ إِدْرَاكِهِ إِيَّاهَا، وَلَا خُرُوجٌ مِنْ إِحَاطَتِهِ بِهَا، وَلَا اخْتِجَابٌ عَنْ إِحْصَائِهِ لَهَا، وَلَا امْتِنَاعٌ مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَيْهَا، كَفَى بِاتِّقَانِ الصَّنْعِ لَهَا آيَةً، وَبِمَرْكَبِ الطَّبْعِ عَلَيْهَا دَلَالَةً، وَبِحُدُوثِ الْفَطْرِ عَلَيْهَا قَدَمَةً، وَبِإِحْكَامِ الصَّنْعَةِ لَهَا عِبْرَةً، فَلَا إِلَيْهِ حُدٌّ مُسْتَوْبٍ، وَلَا لَهُ مَثَلٌ مَضْرُوبٌ، وَلَا شَيْءٌ عَنْهُ بِمَحْجُوبٍ، تَعَالَى عَنْ ضَرْبِ الْأَمْثَالِ وَالصِّفَاتِ الْمَخْلُوقَةِ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِيْمَانًا بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَخِلَافًا عَلَى مَنْ أَنْكَرَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، الْمُقَرَّرُ فِي خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ، الْمُتَنَاسَخُ مِنْ أَكَارِمِ الْأَصْلَابِ وَمُطَهَّرَاتِ الْأَرْحَامِ، الْمُخْرَجُ مِنْ أَكْرَمِ الْمَعَادِنِ مَحْتَدًا، وَأَفْضَلِ الْمَنَابِتِ مُنْبِتًا، مِنْ أَمْنَعِ ذِرْوَةٍ^(١١) وَأَعَزِّ أَرْوَمَةٍ، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَاغَ اللَّهُ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ^(١٢)، وَانْتَجَبَ مِنْهَا أَمَنَاءَهُ، الطَّيِّبَةِ الْعُودِ، الْمُعْتَدِلَةِ الْعُمُودِ، الْبَاسِقَةِ الْفُرُوعِ، النَّاصِرَةِ^(١٣) الْعُصُونِ، الْيَابِغَةِ الثَّمَارِ، الْكَرِيمَةِ الْحَشَا^(١٤)، فِي كَرَمٍ غُرِسَتْ، وَفِي حَرَمٍ أُسِّبَتْ، وَفِيهِ تَشَجَّبَتْ وَأُثْمِرَتْ وَعَزَّتْ وَامْتَنَعَتْ فَسَمَتْ بِهِ، وَشَمَخَتْ حَتَّى أَكْرَمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالرُّوحِ الْأَمِينِ، وَالنُّورِ الْمُنِيرِ^(١٥)، وَالْكِتَابِ الْمُسْتَبِينِ، وَسَحَّرَ لَهُ الْبُرَاقَ، وَصَافَحَتْهُ الْمَلَائِكَةُ، وَأَرْعَبَ بِهِ الْأَبَالِسَ، وَهَدَمَ بِهِ الْأَصْنَامَ وَالْآلِهَةَ الْمَعْبُودَةَ

٨. في العيون: «لا تدركه».

٩. في العيون مع زيادة: «يخلقه ولا زمان يبلية».

١٠. في التوحيد: «ثوابت الصعاب»، وفي العيون: «الرقاب الصعاب».

١١. «أمنع» من منع جاره أي حامى عنه وصانه من أن يضام، أو من منع الحصن أي تعسر الوصول إليه، يقال: مكان منيع، ويقال: امرأة منيعة

كناية عن العفيفة. والذروة بضم الذال وكسرهما وسكون الراء: العلو والمكان المرتفع وأعلى الشيء، ولعله إشارة إلى شرف والدته ﷺ

ومجدها وعلو نسبها وحسبها وقداستها وشدة عفتها. (هامش المطبوع)

١٢. صاغه الله صيغة حسنة: خلقه، راجع لسان العرب.

١٣. الناضر: الأخضر الشديد الخضرة، راجع لسان العرب.

١٤. في العيون: «الكريمة الجنة».

١٥. في التوحيد والعيون: «النور المبين».

دُونَهُ، سُنَّتُهُ الرُّشْدُ، وَسِيرَتُهُ الْعَدْلُ، وَحُكْمُهُ الْحَقُّ، صَدَعَ بِمَا أَمَرَهُ رَبُّهُ، وَبَلَغَ مَا حَمَلَهُ، حَتَّى أَفْصَحَ بِالتَّوْحِيدِ دَعْوَتَهُ، وَأَظْهَرَ فِي الْخَلْقِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. حَتَّى خَلَصَتْ الْوَحْدَانِيَّةُ، وَصَفَتْ الرُّبُوبِيَّةُ، وَأَظْهَرَ اللَّهُ بِالتَّوْحِيدِ حُجَّتَهُ، وَأَعْلَى بِالْإِسْلَامِ دَرَجَتَهُ، وَاخْتَارَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِنَبِيِّهِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الرُّوحِ وَالْدَّرَجَةِ وَالْوَسِيلَةِ، «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الطَّاهِرِينَ».

بيان:

قوله عليه السلام: «ولا من شيء كَوْن ما قد كان» ردّ على من يقول بأنّ كلّ حادث مسبوق بالمادّة. «المستشهد بحدوث الأشياء على أزليّته» الاستشهاد: طلب الشهادة، أي طلب من العقول بما بيّن لها من حدوث الأشياء الشهادة على أزليّته، أو من الأشياء أنفسها بأن جعلها حادثة، فهي بلسان حدوثها تشهد على أزليّته، المعنى على التقديرين: أنّ العقل يحكم بأنّ كلّ حادث يحتاج إلى موجد، وأنّه لا بدّ من أن تنتهي سلسلة الاحتياج إلى من لا يحتاج إلى موجد، فيحكم بأنّ علّة العلل لا بدّ أن يكون أزليّاً، وإلّا لكان محتاجاً إلى موجد آخر بحكم المقدّمة الأولى.

«وبما وسمها به من العجز على قدرته» الوسم: الكيّ، شبه عليه السلام ما أظهر عليها من آثار العجز والإمكان والاحتياج بالسمة التي تكون على العبيد والنعم وتدلّ على كونها مقهورة مملوكة. «وبما اضطرّها إليه من الفناء على دوامه» إذ فناؤها يدلّ على إمكانها وحدوثها، فيدلّ على احتياجها إلى صانع ليس كذلك.

«لم يخل منه مكان فيدرك بأينيّة» أي ليس ذا مكان حتّى يكون في مكان دون مكان كما هو من لوازم المتمكّنات، فيدرك بأنّه ذو أين ومكان، بل نسبة المجرّد إلى جميع الأمكنة على السواء، ولم يخل منه مكان من حيث الإحاطة العلميّة والعلّيّة والحفظ والتربية، أو أنّه لم يخل منه مكان حتّى يكون إدراكه بالوصول إلى مكانه بل آثاره ظاهرة في كلّ شيء. «ولا له شبح مثال فيوصف بكيفيّة» إضافة الشبح بيانيّة، أي ليس له شبح مماثل له، لا في الخارج ولا في الأذهان، فيوصف بأنّه ذو كفيّة من الكيفيّات الجسمانيّة أو الإمكانيّة؛ ويحتمل أن يكون المراد بالكيفيّة: الصورة العلميّة.

«ولم يغب عن شيء فيعلم بحيثيّة» أي لم يغب عن شيء من حيث العلم حتّى يعلم أنّه ذو حيث ومكان، إذ شأن المكانيّات أن يغيبوا عن شيء، فلا يحيطوا به علماً، فيكون كالتأكيد للفقرة السابقة؛ ويحتمل أن يكون «حيث» هنا للزمان؛ قال ابن هشام: قال الأخفش: وقد ترد حيث للزمان. أي لم يغب عن شيء بالعدم ليكون وجوده مخصوصاً بزمان دون زمان، ويحتمل على هذا أن يكون إشارة إلى ما قيل: من أنّه تعالى لمّا كان خارجاً عن الزمان، فجميع الأزمنة حاضرة عنده كخيّط مع ما فيه من الزمانيّات وإنّما يغيب شيء عمّا لم يأت إذا كان داخليّاً في الزمان؛ ويحتمل أن تكون الحيثيّة تعليليّة أي لم يجهل شيئاً فيكون علمه به معللاً بعلّة.

وعلى هذا يمكن أن يقرأ «يعلم» على بناء المعلوم. وفي التوحيد: «لم يغب عن علمه شيء»^(١).
«وممتنع عن الإدراك بما ابتدع من تصريف الذوات» أي أظهر بما أبدع من الذوات المتغيرة المنتقلة من حال إلى حال أنه يمتنع إدراكه، إما لوجوب وجود المانع من حصول حقيقته في الأذهان لما مرّ، أو لأنّ حصوله فيها يستلزم كونه كسائر الذوات الممكنة محلاً للصفات المتغيرة فيحتاج إلى صانع، أو لأنّ العقل يحكم بمباينة الصانع للمصنوع في الصفات، فلا يدرك كما تدرك تلك الذوات؛ ويحتمل أن يكون الظرف متعلقاً بالإدراك أي يمتنع عن أن يدرك بخلقه أي بمشابهتها، أو بالصور العلمية التي هي مخلوقة له.

«من جميع تصرف الحالات» أي الصفات الحادثة المتغيرة. «محرم على بوارع ناقيات الفطن تحديده» البوارع جمع البارعة وهي الفائقة. والنقب: الثقب، ولعلّ المراد بالتحديد العقلي، ويحتمل الأعم. والثاقبات: النافذات أو المضيات. «والتكييف»: إثبات الكيف له أو الإحاطة بكيفية ذاته وصفاته أي كنهها. وكذا «التصوير»: إثبات الصورة، أو تصوّره بالكنه، والأخير فيهما أظهر.

قوله عليه السلام: «لعظمته» أي لكونه أعظم شأنًا من أن يكون محتاجاً إلى المكان. قوله عليه السلام: «لجلاله» أي لكونه أجلّ قدرًا من أن يكون ذا مقدار. قوله عليه السلام: «ولا تقطعه من قطعه» كسمعه أي أبانه، أو من قطع الوادي وقطع المسافة. و«المقائيس» أعم من المقائيس الجسمانية والعقلانية. و«الكنه» بالضم: جوهر الشيء وغايته وقدره ووقته ووجهه، واكتننه وأكناه: بلغ كنهه، ذكره الفيروز آبادي.

قوله عليه السلام: «أن تستغرقه» قال الفيروز آبادي: استغرق: استوعب. وفي التوحيد: «أن تستعرفه» أي تطلب معرفته. قوله عليه السلام: «أن تمتثله» قال الفيروز آبادي: امتثله: تصوّره. وفي التوحيد: «تمثله». قوله عليه السلام: «من استنباط» أي استخراج الإحاطة به وبكنهه. «طوامح العقول» أي العقول الطامحة الرفيعة. وكلّ مرتفع طامح. قوله عليه السلام: «ونضبت» يقال: نضب الماء نضوباً أي غار، أي يبست بحار العلوم قبل أن تشير إلى كنه ذاته، أو تبين غاية صفاته. قوله عليه السلام: «بالصغر» بالضم أي مع الذلّ. و«السمو»: الارتفاع والعلو، ولعلّ إضافة اللطائف إلى الخصوم ليست من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف، بل المراد المناظرات اللطيفة بينهم، أو فكرهم الدقيقة، أو عقولهم ونفوسهم اللطيفة.

قوله عليه السلام: «واحد لا من عدد» أي من غير أن يكون فيه تعدّد، أو من غير أن يكون معه ثان من جنسه. و«الأمَد»: الغاية. و«العمد» بالتحريك: جمع العمود أي ليس قيامه قياماً جسمانياً يكون بالعمد البدنية، أو بالاعتماد على الساقين، أو أنّه قائم باق من غير استناد إلى سبب يعتمد عليه ويقيمه كسائر الموجودات الممكنة. قوله عليه السلام: «ليس بجنس» أي ذا جنس، فيكون ممكناً معادلاً لسائر الممكنات الداخلة تحت جنسه

١. التوحيد، ص ٦٩، باب التوحيد ونفي التشبيه.

أو أجناسها. و«الشبح» بالتحريك: الشخص، وجمعه أشباح. و«المضاربة»: المشابهة. وقال الجزري: «التيتار»: موج البحر ولجّته. انتهى.

و«حصر الرجل» كعلم: تعب، وحصرت صدورهم: ضاقت، وكلّ من امتنع من شيء لم يقدر عليه فقد حصر عنه، ذكرها الجوهرى. و«الاستشعار»: لبس الشعار والثوب الذي يلي الجسد كناية عن ملازمة الوصف؛ ويحتمل أن يكون المراد به هنا طلب العلم والشعور. و«الملكوت»: الملك والعزة والسلطان. قوله عليه السلام: «بالآلاء» أي عليها. و«التملك»: الملك قهراً، وضمن معنى التسلط والاستيلاء وفي بعض نسخ التوحيد: مستملك.

قوله عليه السلام: «يخلقه» من باب الإفعال من الخلق: ضدّ الجديد. و«الراتب»: الثابت. و«الصعب»: نقيض الذلول. و«التخم»: منتهى الشيء، والجمع التخوم بالضم. و«الرصين»: المحكم الثابت. و«أسباب السماء»: مراقبها أو نواحيها أو أبوابها. و«الشاهق»: المرتفع من الجبال والأبنية وغيرها، فرواتب الصعاب إشارة إلى الجبال الشاهقة التي تشبه الإبل الصعاب حيث أثبتتها بعروقها إلى منتهى الأرض؛ ويحتمل أن تكون إشارة إلى جميع الأسباب الأرضية من الأرض والجبال والماء والثور والسمة والصخرة وغيرها حيث أثبت كلاً منها في مقرّها بحيث لا يزول عنه ولا يتزلزل ولا يضطرب، وإنما عبّر عنها بالصعاب إشارة إلى أنّ من شأنها أن تضطرب وتزلزل لو لا أنّ الله أثبتها بقدرته.

و«رواصن الأسباب» إشارة إلى الأسباب السماوية من الأفلاك والكواكب حيث رتبها على نظام لا يختل ولا يتبدّل ولا يختلف، ولذا أورد عليه السلام في الأوّل التخوم وفي الثاني الشواحق، وما بعد ذلك من الفقرات مؤكّدة لما مرّ. والإدراك والإحاطة والإحصاء كلّ منها يحتمل أن يكون بالعلم أو بالقدرة والعليّة والقهر والغلبة، أو بالمعنى الأعمّ أو بالتوزيع.

قوله عليه السلام: «كفى بإتقان الصنع» الباء زائدة أي كفى إحكام صنعه تعالى للأشياء، لكونها آية لوجوده وصفاته الكمالية. و«المركب» مصدر ميمي بمعنى الركوب، أي كفى ركوب الطبائع وغلبتها على الأشياء للدلالة على من جعل الطبائع فيها وجعلها مسخرة لها؛ ويحتمل أن يكون اسم مفعول من التركيب كما يقال: ركّبت الفصّ^(١) في الخاتم أو عليه، أي كفى الطبع الذي ركّب على الأشياء دلالة على مركّبها، وعلى التقديرين ردّ على الطبيعيين المنكرين للصانع بإسناد الأشياء إلى الطبائع. و«الفطر»: الخلق والابتداء والاختراع؛ ويحتمل أن يكون هنا الفطر بكسر الفاء وفتح الطاء على صيغة الجمع أي كفى حدوث الخلق على الأشياء دلالة على قدمه.

١. فصّ الخاتم: ما يركّب فيه من غيره، راجع المصباح المنير.

قوله عليه السلام: «فلا إليه حدّ» أي ليس له حدّ ينسب إليه. قوله عليه السلام: «إيماناً» حال أو مفعول لأجله، وكذا قوله عليه السلام: «خلافاً». قوله عليه السلام: «المقرّ» على صيغة المفعول. و«خير مستقرّ» المراد به إما عالم الأرواح، أو الأصلاب الطاهرة، أو أعلى عليّين بعد الوفاة.

قوله عليه السلام: «المتناسخ» أي المتزاييل والمنتقل. و«المُحتد» بكسر التاء: الأصل، يقال: فلان في محتد صدق، ذكره الجوهري. و«المنبت» بكسر الباء: موضع النبات. و«الأرومة» بفتح الهمزة وضمّ الراء: أصل الشجرة. و«بسق النخل» بسوقاً: طال، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾^(١)، و«اليانع»: النضيج. و«الحشا» واحد أحشاء: البطن، والمراد هنا داخل الشجرة؛ ويحتمل أن يكون من قولهم: أنا في حشاه أي في كنفه وناحيته. وسمت وشمخت كلاهما بمعنى ارتفعت. والباء في قوله عليه السلام: «به» لتعديتهما. والمراد ب«الشجرة»: الإبراهيميّة، ثم القرشيّة، ثم الهاشميّة. و«صدع بالحقّ»: تكلم به جهاراً. و«الإفصاح»: البيان بفصاحة أي أظهر دعوته متلبساً بالتوحيد ويمكن أن تقرأ «دعوته» بالرفع ليكون فاعل الإفصاح، والضمير في قوله: حجّته ودرجته راجع إلى الرسول.

١٥٩٤. التوحيد، عيون أخبار الرضا عليه السلام^(٢): حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْسَنِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ الْوَلِيدِ «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو الْكَاتِبُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي زِيَادٍ الْقُرْمِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي زِيَادٍ الْجُدِّيِّ - صَاحِبِ الصَّلَاةِ بِجَدَّةٍ - قَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ عُمَرَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَكَلَّمُ بِهَذَا الْكَلَامِ عِنْدَ الْمَأْمُونِ فِي التَّوْحِيدِ، قَالَ ابْنُ أَبِي زِيَادٍ: وَرَوَاهُ لِي أَيْضاً أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْعَلَوِيُّ مَوْلَى لَهُمْ وَخَالاً لِبَعْضِهِمْ، عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ أَيُّوبَ الْعَلَوِيِّ: أَنَّ الْمَأْمُونَ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَسْتَعْمَلَ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ جَمَعَ بَنِي هَاشِمٍ فَقَالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْتَعْمَلَ الرِّضَا عَلَى هَذَا الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِي فَحَسَدَهُ بَنُو هَاشِمٍ، وَقَالُوا: تُوَلَّى رَجُلًا جَاهِلًا لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ بِتَدْيِيرِ الْخِلَافَةِ، فَأَبْعَثَ إِلَيْهِ يَأْتِنَا فَنَرَى مِنْ جَهْلِهِ مَا تُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَيْهِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ بَنُو هَاشِمٍ: يَا أَبَا الْحَسَنِ اصْعِدِ الْمُنْبِرَ وَانْصِبْ لَنَا عِلْماً نَعْبُدُ اللَّهَ عَلَيْهِ، فَصَعِدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمُنْبِرَ فَقَعَدَ مَلِيّاً لَا يَتَكَلَّمُ مُطَرِّقاً^(٣)، ثُمَّ انْتَفَضَ انْتِفَاضَةً، وَاسْتَوَى قَائِماً وَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، ثُمَّ قَالَ: أَوَّلُ عِبَادَةِ اللَّهِ مَعْرِفَتُهُ، وَأَصْلُ مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَوْحِيدُهُ، وَنِظَامُ تَوْحِيدِ اللَّهِ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ الْعُقُولِ أَنَّ كُلَّ صِفَةٍ وَمَوْصُوفٍ مَخْلُوقٌ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّ لَهُ خَالِقاً لَيْسَ بِصِفَةٍ وَلَا مَوْصُوفٍ. وَشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ وَمَوْصُوفٍ بِالْإِفْتِرَانِ، وَشَهَادَةِ الْإِفْتِرَانِ بِالْحَدَثِ، وَشَهَادَةِ الْحَدَثِ بِالْإِمْتِنَاعِ مِنَ الْأَزَلِ الْمُتَمَتِّعِ مِنَ الْحَدَثِ، فَلَيْسَ اللَّهُ مَنْ عَرَفَ بِالتَّشْبِيهِ ذَاتَهُ^(٤)، وَلَا إِيَّاهُ وَحَدَّ مِنْ اكْتِنَاهُ، وَلَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مَنْ مَثَّلَهُ،

١. ق/١٠.

٢. التوحيد (للمصدق)، ص ٣٤، ح ٢؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٤٩، ح ٥١؛ الإحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٩٨.

٣. أطرق: أرخى عينيه ينظر إلى الأرض، راجع لسان العرب.

٤. في التوحيد: «فليس الله عرف من عرف بالتشبيه ذاته».

وَلَا بِهِ صَدَقَ مَنْ نَهَا، وَلَا صَمَدَ صَمَدَهُ مَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَلَا إِيَّاهُ عَنَى مَنْ شَبَّهَهُ، وَلَا لَهُ تَذَلَّلَ مَنْ بَعْضَهُ، وَلَا إِيَّاهُ أَرَادَ مَنْ تَوَهَّمَهُ، كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ، وَكُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَغْلُولٌ، يَصْنَعُ اللَّهُ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ، وَبِالْعُقُولِ تُعْتَقَدُ مَعْرِفَتُهُ، وَبِالْفُطْرَةِ تُثَبَّتُ حُجَّتُهُ، خَلَقَهُ اللَّهُ الْخَلْقَ حِجَابَ بَيْنِهِ وَبَيْنَهُمْ^(١)، وَمُبَايَنَتُهُ إِيَّاهُمْ مُفَارَقَتُهُ أَيْنِيَّتُهُمْ^(٢)، وَابْتِدَاؤُهُ إِيَّاهُمْ دَلِيلُهُمْ عَلَى أَنْ لَا ابْتِدَاءَ لَهُ لِعَجْزِ كُلِّ مُبْتَدَأٍ عَنِ ابْتِدَاءِ غَيْرِهِ، وَأَدْوَاهُ إِيَّاهُمْ^(٣) دَلِيلٌ عَلَى أَنْ لَا أَدَاةَ فِيهِ، لِشَهَادَةِ الْأَدَوَاتِ بِفَاقَةِ الْمَادِينِ، فَاسْمَاؤُهُ تَغْيِيرٌ، وَأَفْعَالُهُ تَفْهِيمٌ، وَذَاتُهُ حَقِيقَةٌ، وَكُنْهُهُ تَفْرِيقٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ، وَعَيُورُهُ تَحْدِيدٌ لِمَا سِوَاهُ، فَقَدْ جَهَلَ اللَّهُ مَنْ اسْتَوْصَفَهُ، وَقَدْ تَعَدَّاهُ مَنْ اسْتَمَلَّهُ^(٤)، وَقَدْ أَخْطَاهُ مَنْ اكْتَنَّهُ، وَمَنْ قَالَ: كَيْفَ فَقَدْ شَبَّهَهُ، وَمَنْ قَالَ: لِمَ فَقَدْ عَلَّمَهُ^(٥)، وَمَنْ قَالَ: مَتَى فَقَدْ وَفَّقْتُهُ، وَمَنْ قَالَ: فِيمَ فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ: إِلَامَ فَقَدْ نَهَا، وَمَنْ قَالَ: حَتَامَ فَقَدْ غَيَّاهُ، وَمَنْ غَيَّاهُ فَقَدْ غَايَاهُ، وَمَنْ غَايَاهُ فَقَدْ جَزَّاهُ، وَمَنْ جَزَّاهُ فَقَدْ وَصَفَهُ، وَمَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ أَلْحَدَ فِيهِ، لَا يَتَغَيَّرُ اللَّهُ بِانْغِيَارِ الْمَخْلُوقِ^(٦)، كَمَا لَا يَتَحَدُّ بِتَحْدِيدِ الْمَحْدُودِ^(٧)، أَحَدٌ لَا يَتَأَوَّلُ عَدَدٌ، ظَاهِرٌ لَا يَتَأَوَّلُ الْمُبَاشَرَةُ، مُتَجَلٍّ لَا بِاسْتِهْلَالِ^(٨) رُؤْيِيٍّ، بَاطِنٌ لَا بِمُزَايَلَةٍ، مُبَايِنٌ لَا بِمَسَافَةٍ، قَرِيبٌ لَا بِمُدَانَاةٍ، لَطِيفٌ لَا بِتَجَسُّمٍ، مُوْجُودٌ لَا بِعَدَمٍ، فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَارٍ، مُقَدَّرٌ لَا بِجَوْلٍ فِكْرَةٍ، مُدَبَّرٌ لَا بِحَرَكَةٍ، مُرِيدٌ لَا بِهَمَامَةٍ، شَاءَ لَا بِهَمَّةٍ، مُدْرِكٌ لَا بِمَجَسَّةٍ^(٩)، سَمِيعٌ لَا بِآلَةٍ، بَصِيرٌ لَا بِأَدَاةٍ، لَا تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ، وَلَا تَضُمَّهُ الْأَمَاكِنُ، وَلَا تَأْخُذُهُ السَّنَاتُ، وَلَا تَحْدُهُ الصِّفَاتُ، وَلَا تُفِيدُهُ الْأَدَوَاتُ، سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كُونُهُ، وَالْعَدَمَ وَجُودُهُ، وَالْإِبْتِدَاءَ أَرْزَلُهُ، بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ، وَبِتَجْهِيرِهِ الْجَوَاهِرَ عُرِفَ أَنْ لَا جَوْهَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ، ضَادَّ النُّورِ بِالظُّلْمَةِ^(١٠)، وَالْجَلَالَةَ بِالْبُهْمِ، وَالْجُسُوءَ بِالْبَلَلِ^(١١)، وَالصَّرَدَ بِالْحَرُورِ، مُؤَلَّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا، مُفَرَّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا، دَالَّةٌ بِتَفْرِيقِهَا عَلَى مُفَرَّقِهَا، وَبِتَأْلِيفِهَا عَلَى

١. وفي نسخة: خلق إله الخلق حجاب بينه وبينهم. (هامش المطبوع)

٢. في التوحيد: «أَيْنِيَّتُهُمْ».

٣. في التوحيد والعيون: «وإدواؤه إياهم»، وهو الصحيح.

٤. في نسخة من العيون: وقد تعدَّاه من استمَلَّه. (هامش المطبوع)

٥. في التوحيد والعيون: «فقد علَّمه».

٦. في نسخة من العيون: لا يتغير بتغيير المخلوق. (هامش المطبوع)

٧. في التوحيد والعيون: «لا يتحدد بتحديد المحدود».

٨. في العيون: «لا استقلال».

٩. في العيون: «بِمَحَسَّة».

١٠. **فَقَوْلُ:** الظلمة المطلقة أمر عديمي، ولكن أمثال ظلمة الليل ليست ظلمة مطلقة بل هي في الواقع من قبيل قَلَّةِ النور وتسمى ظلمة لقلَّةِ نوره، ولذا نرى في ظلمة الليل أشياء كثيرة ولا شك أَنَّ القليل والكثير متضادان عرفاً.

١١. جسا جسوءاً أو جسوا كلاهما بمعنى واحد، وفي بعض نسخ العيون: والجف بالبلل. (هامش المطبوع)

مُؤَلِّفَهَا، ذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١) فَفَرَّقَ بِهَا بَيْنَ قَبْلِ وَبَعْدٍ لِيُعْلَمَ أَنَّ قَبْلَ لَهُ وَلَا بَعْدَ، شَاهِدَةٌ بِغَرَائِزِهَا أَلَّا غَرِيزَةً لِمُعَرِّزِهَا، دَالَّةٌ بِتَقَاوُفِهَا أَلَّا تَقَاوُفٌ لِمُفَاوِئِهَا، مُخْبِرَةٌ بِتَوْقِيفِهَا أَلَّا وَقْتُ لِمُوقِّفِهَا، حَاجِبٌ بَعْضَهَا عَنْ بَعْضٍ لِيُعْلَمَ أَنَّ حِجَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا مِنْ غَيْرِهَا، لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ إِذْ لَا مَرْبُوبٌ، وَحَقِيقَةُ الْإِلَهِيَّةِ إِذْ لَا مَالُوهٌ. وَمَعْنَى الْعَالَمِ وَلَا مَعْلُومٌ، وَمَعْنَى الْخَالِقِ وَلَا مَخْلُوقٌ، وَتَأْوِيلُ السَّمْعِ وَلَا مَسْمُوعٌ، لَيْسَ مَذْ خَلَقَ اسْتَحَقَّ مَعْنَى الْخَالِقِ، وَلَا بِإِحْدَاثِهِ الْبَرَايَا اسْتَفَادَ مَعْنَى الْبَارِيَّةِ، كَيْفَ وَلَا تَغْيِيْبُهُ مَذْ، وَلَا تَذْنِيْبُهُ قَدْ، وَلَا يَحْجُبُهُ لَعَلَّ، وَلَا يُوقِّتُهُ مَتَى، وَلَا يَشْتَمِلُهُ حِينَ، وَلَا تَقَارِنُهُ مَعَ، إِنَّمَا تَحُدُّ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتُشِيرُ الْأَلَّةُ إِلَى نَظَائِرِهَا، وَفِي الْأَشْيَاءِ يُوجَدُ أَفْعَالُهَا، مَمْعَنُهَا مَذْ الْقِدْمَةِ، وَحَمَشُهَا قَدْ الْأَرْلِيَّةِ، وَجَبَّتْهَا لَوْ لَا التَّكْمِلَةُ، افْتَرَقَتْ فَدَلَّتْ عَلَى مُفَرَّقِهَا، وَتَبَايَنْتْ فَأَعْرَبَتْ عَنْ مُبَايِنِهَا، بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ^(٢)، وَبِهَا احْتَجَبَ عَنِ الرُّؤْيَةِ، وَإِلَيْهَا تَحَاكَمَ الْأَوْهَامُ، وَفِيهَا أُثْبِتَ غَيْرُهُ، وَمِنْهَا أُبَيِّنَ الدَّلِيلُ، وَبِهَا عَرَفَهَا الْإِقْرَارُ، بِالْعُقُولِ يُعْتَقَدُ التَّصَدِيقُ بِاللَّهِ، وَبِالْإِقْرَارِ يَكْمُلُ الْإِيمَانُ بِهِ، لَا دِيَانَةً إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةٍ، وَلَا مَعْرِفَةَ إِلَّا بِإِخْلَاصٍ، وَلَا إِخْلَاصَ مَعَ التَّشْبِيهِ، وَلَا نَفْيَ مَعَ إِبْثَاتِ الصِّفَاتِ لِلتَّشْبِيهِ، فَكُلُّ مَا فِي الْخَلْقِ لَا يُوجَدُ فِي خَالِقِهِ، وَكُلُّ مَا يُمَكِّنُ فِيهِ يَمْتَنِعُ فِي صَانِعِهِ، لَا تَجْرِي عَلَيْهِ الْحَرَكَةُ وَالسُّكُونُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ، أَوْ يَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ ابْتِدَآءُهُ، إِذَا لَتَفَاوَتْ ذَاتُهُ، وَلَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ، وَلَا مَتَنَ مِنَ الْأَزَلِ مَعْنَاهُ، وَلَمَا كَانَ لِلْبَارِي مَعْنَى غَيْرِ الْمَبْرُوءِ، وَلَوْ حُدَّ لَهُ وَرَاءُ إِذَا حُدَّ لَهُ أَمَامُ، وَلَوْ التَّمَسَّ لَهُ التَّمَامُ إِذَا لَزِمَهُ النُّقْصَانُ، كَيْفَ يَسْتَحِقُّ الْأَزَلَ مَنْ لَا يَمْتَنِعُ مِنَ الْحَدَثِ، وَكَيْفَ يُنْشِئُ الْأَشْيَاءَ مَنْ لَا يَمْتَنِعُ مِنَ الْإِنْشَاءِ، إِذَا لَقَامَتْ فِيهِ آيَةُ الْمَصْنُوعِ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلًا بَعْدَ مَا كَانَ مَدْلُولًا عَلَيْهِ، لَيْسَ فِي مُحَالٍ^(٣) الْقَوْلِ حُجَّةٌ، وَلَا فِي الْمَسْأَلَةِ عَنْهُ جَوَابٌ، وَلَا فِي مَعْنَاهُ لَهُ تَعْظِيمٌ، وَلَا فِي إِبَاتِنِهِ عَنِ الْخَلْقِ ضَيْمٌ، إِلَّا بِامْتِنَاعِ الْأَرْلِيِّ أَنْ يُنْتَى، وَمَا لَا بَدْءَ لَهُ أَنْ يُبْدَأَ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِاللَّهِ وَضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا، وَخَسِرُوا خُسْرَانًا مُبِينًا، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ.

بيان:

«ملياً» أي طويلاً. «والانتفاض»: شبه الارتعاد والاقشعرار. قوله عليه السلام: «أول عبادة الله» أي أشرفها وأقدمها زماناً ورتبة لا اشتراط قبول سائر الطاعات بها، «وأصل المعرفة التوحيد» إذ مع إثبات الشريك أو القول بتركب الذات أو زيادة الصفات يلزم القول بالإمكان فلم يعرف المشرك الواجب ولم يشبته، «ونظام التوحيد وتماحه نفي الصفات» الزائدة الموجودة عنه إذ أول التوحيد نفي الشريك، ثم نفي التركب ثم نفي الصفات الزائدة، فهذا كماله ونظامه، ثم استدلل عليه السلام على نفي زيادة الصفات ويمكن تقريره بوجوه:

١. الذاريات / ٤٩.

٢. وفي نسخة: لما تجلّى صانعها للعقول. (هامش المطبوع)

٣. في العيون: «مجال».

الأول: أن يكون إشارة إلى دليلين: الأول أن كل صفة وموصوف لا بد من أن يكونا مخلوقين إذ الصفة محتاجة إلى الموصوف لقيامها به وهو ظاهر، والموصوف محتاج إلى الصفة في كماله والصفة غيره، وكل محتاج إلى الغير ممكن، فلا يكون شيء منهما واجباً ولا المركب منهما، فثبت احتياجهما إلى علة ثالثة ليس بموصوف ولا صفة وإلا لعاد المحذور.

الثاني: أن الصانع لا بد أن يكون كاملاً أزلاً وأبداً لشهادة جميع العقول به فلا بد من أن تكون الصفات الزائدة مقارنة له غير منفكة عنه، ويجوز قدم الجميع لبطلان تعدد القدماء فيلزم حدوث الذات والصفات معاً فلا يكون شيء منها واجباً، فالمراد بقوله عليه السلام: «شهادة كل موصوف وصفة»^(١) شهادة كل موصوف فرض كونه صانعاً وصفته، أو الصفات اللازمة للذوات.

الوجه الثاني: أن يكون إشارة إلى دليلين على وجه آخر:

الأول: أنه لو كانت له تعالى صفات زائدة لكانت ممكنة لامتناع تعدد الواجب، ولا يجوز أن يكون الواجب موجداً لها، إما لامتناع كون الشيء قابلاً وفاعلاً لشيء واحد، أو لأن تأثير الواجب فيها يتوقف على اتصافه بتلك الصفات إذ لو لم يتوقف التأثير في تلك الصفات التي هي منشأ صدور جميع الممكنات عليها لم يتوقف التأثير في شيء عليها، فلا يثبت له تعالى شيء من الصفات فتكون معلولة لغيره تعالى، ومن كانت جميع صفاته الكمالية من غيره لا يكون واجباً صانعاً لجميع الموجودات بالضرورة.

الثاني: أن التوصيف اقتران خاص يوجب الاحتياج من الجانبين كما مر، والاحتياج موجب للحدوث المنافي للأزلية.

الوجه الثالث: أن يكون راجعاً إلى دليل واحد وتقريره: أنه لو كانت الصفات زائدة لكانت الذات والصفات مخلوقة وهذا خلف، ويبين الملازمة بقوله عليه السلام: «وشهادة كل صفة وموصوف بالاقتران» بنحو ما مر من الاحتياج المستلزم للإمكان.

قوله عليه السلام: «فليس الله من عرف بالتشبيه ذاته» أي ليس من عرف ذاته بالتشبيه بالممكنات واجباً لأنه يكون ممكناً مثلها، ويمكن أن يقرأ «الله» بالرفع والنصب، والأول أظهر. قوله عليه السلام: «من اكتنهن» أي بين كنه ذاته أو طلب الوصول إلى كنهه إذ لو كان يعرف كنهه لكان شريكاً مع الممكنات في التركيب والصفات الإمكانية فهو ينافي التوحيد، أو لأن حصول الكنه في الذهن يستلزم تعدد أفراد الواجب كما قيل.

قوله عليه السلام: «من مثله» أي جعل له شخصاً ومثالاً، أو مثله في ذهنه وجعل الصورة الذهنية مثالاً له، أو المراد: أثبت له مثلاً وشبهه بغيره، قال الفيروز آبادي: مثله له تمثيلاً: صورته له حتى كأنه ينظر إليه، ومثل فلاناً

١. إن ما في الحديث: «شهادة كل صفة وموصوف».

فلاناً، وبه شبهه به. انتهى. وعلى ما ذكره يمكن أن يقرأ بالتخفيف أيضاً. قوله عليه السلام: «(من نهّاه)» بالتشديد أي جعل له حداً ونهاية من النهايات الجسمانية، ومن جعله كذلك فلم يصدق بوجوده بل بممكن غيره، ويحتمل أن يكون المعنى جعله نهاية لفكره وزعم أنه وصل إلى كنهه. قوله عليه السلام: «(ولا صمد صمده)» أي لا قصد نحوه من أشار إليه إشارة حسية أو الأعم منها ومن الوهميّة والعقليّة، وفي المجالس: «(من أشار إليه بشيء من الحواس)»^(١). قوله عليه السلام: «(من بعضه)» أي حكم بأنّ له أجزاء وأبعاضاً فهو في عبادته لم يتدّل لله بل لمن عرفه وهو غيره تعالى. قوله عليه السلام: «(من توهمه)» أي من تخيل له في نفسه صورة أو هيئة وشكلاً، أو المعنى أن كلّ ما يصل إليه عقول العارفين فهو غير كنهه تعالى.

قوله عليه السلام: «كلّ معروف بنفسه مصنوع» أي كلّ ما يعلم وجوده ضرورة بالحواس من غير أن يستدلّ عليه بالآثار فهو مصنوع، أو كلّ ما هو معلوم بكنه الحقيقة إمّا بالحواس أو الأوهام أو العقول فهو مصنوع مخلوق، إمّا لما ذكر أن كنه الشيء إنّما يعلم من جهة أجزائه وكلّ ذي جزء فهو مركّب ممكن، أو لما مرّ من أن الصورة العقلية تكون فرداً لتلك الحقيقة فيلزم التعدّد وهو يستلزم التركّب؛ ويحتمل أن يكون المعنى أن الأشياء إنّما تعلم بصورها الذهنيّة، والمعروف بنفسه هو نفس تلك الصورة وهو حالّ في محلّ حادث ممكن محتاج فكيف يكون كنه حقيقة الباري تعالى شأنه؟ فيكون قوله عليه السلام: «(وكلّ قائم في سواه معلول)» كالدليل عليها، وعلى الأولين يكون نفيّاً لحلوله تعالى في الأشياء وقيامه بها، ويؤيد المعنى الأوّل قوله عليه السلام: «(بصنع الله يستدلّ عليه)».

قوله عليه السلام: «(بالفطرة تثبت حجّته)» أي بأنّ فطرهم وخلقهم خلقة قابلة للتصديق والإذعان والمعرفة والاستدلال، أو بتعريفهم في الميثاق وفطرهم على ذلك التعريف، وقد مرّ بيانه في باب الدين الحنيف^(٢)؛ ويحتمل أن يكون المراد هنا أنّ حجّته تمام على الخلق بما فطر وابتدع من خلقه. قوله عليه السلام: «(خلقة الله الخلق)» أي كونه خالقاً وأنّ الخالق لا يكون بصفة المخلوق ويكون مبايناً له في الصفات، صار سبباً لاحتجابه عن الخلق فلا يدركونه بحواسّهم ولا عقولهم، والحاصل أنّ كماله ونقص مخلوقيه حجاب بينه وبينهم.

قوله عليه السلام: «(ومباينته إيّاهم)» أي مباينته تعالى إيّاهم ليس بحسب المكان حتّى يكون في مكان وغيره في مكان آخر، بل إنّما هي بأنّ فارق أينيتهم فليس له أين و مكان، وهم محبوسون في مطمورة المكان^(٣)، أو المعنى أنّ مباينته لمخلوقيه في الصفات صار سبباً لأنّ ليس له مكان.

١. المجالس (للمفيد)، مجلس الثلاثون، ح ٣، ص ٢٥٤.

٢. كتاب التوحيد، باب ١١، باب الدين الحنيف والفطرة.

٣. المطمورة: حفيرة تحت الأرض أو مكان تحت الأرض قدهيّ خفيّاً، راجع لسان العرب.

قوله ﷺ: «وأدوه إياهم» أي جعلهم ذوي أدوات يحتاجون إليها في الأعمال من الأعضاء والجوارح والقوى وسائر الآلات دليل على أنه ليس فيه شيء منها، لشهادة الأدوات فيما يشاهد في الماديين بفاقتهم واحتياجهم إليها وهو منزّه عن الاحتياج؛ أو المعنى أن الأدوات التي هي أجزاء للماديين تشهد بفاقتهم إلى موجود، لكون كل ذي جزء محتاجاً ممكناً فكيف تكون فيه تعالى؟

قوله ﷺ: «فأسماؤه تعبير» أي ليست عين ذاته وصفاته، بل هي معبرّات عنها؛ «وأفعاله تفهيم» ليعرفوه ويستدلّوا بها على وجوده وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته. قوله ﷺ: «وذاته حقيقة» أي حقيقة مكنونة عالية لا تصل إليها عقول الخلق بأن يكون التنوين للتعظيم والتبهييم^(١)، أو خليفة بأن تتّصف بالكمالات دون غيرها، أو ثابتة واجبة لا يعترئها التغيّر والزوال، فإنّ الحقيقة ترد بتلك المعاني كلّها. وفي بعض نسخ التوحيد: «حقّاقة» أي مثبتة موجدة لسائر الحقائق.

قوله ﷺ: «وكنهه تفريق بينه وبين خلقه» لعلّ الغرض بيان أنّه لا يشترك في ذاتي مع الممكنات بأبلغ وجه أي كنهه يفرق بينه وبينهم لعدم اشتراكه معهم في شيء؛ ويحتمل أن يكون المعنى أن غاية توحيد الموحّدين ومعرفتهم نفي الصفات الممكنات عنه، والحاصل عدم إمكان معرفة كنهه، بل إنّما يعرف بالوجوه التي ترجع إلى نفي النقائص عنه كما مرّ تحقيقه. ويؤيد الأوّل قوله ﷺ: «وغيوره تحديد لما سواه» فالغيور إمّا مصدر أو جمع غير، أي كونه مغايراً له تحديد لما سواه فكلّ ما سواه مغاير له في الكنه؛ ويحتمل أن يكون المراد بالمغايرة: المباينة بحيث لا يكون من توابعه أصلاً لا جزءاً له ولا صفة أي كلّ ما هو غير ذاته فهو سواه، فليس جزءاً له ولا صفة^(٢). قوله ﷺ: «من استوصفه» أي من طلب وصف كنهه، أو سأل عن الأوصاف والكيفيّات الجسمانيّة له فقد جهل عظّمته وتنزّهه.

قوله ﷺ: «وقد تعدّاه» أي تجاوزه. ولم يعرفه «من اشتمله» أي توهمه شاملاً لنفسه محيطاً به من قولهم: اشتمل الثوب إذا تلفّف به، فيكون ردّاً على القائلين بالحلول والاتّحاد، أو من توهم أنّه تعالى محيط بكلّ شيء إحاطة جسمانيّة؛ ويحتمل أن يكون كناية عن نهاية المعرفة به والوصول إلى كنهه، وفي بعض نسخ التوحيد: «أشمله»^(٣) أي جعل شيئاً شاملاً له بأن توهمه محاطاً بمكان، ومثله قوله ﷺ: «من اكتنّه» أي توهم أنّه أصاب كنهه.

١. المقصود من التبهييم هنا إيراد اللفظ مبهماً.

٢. في النسخة المقروءة على المصنف كذا: ويحتمل أن يكون المراد بقوله: «ما سواه» ما لم يكن من توابعه أصلاً، لا جزءاً له ولا صفة أي كل ما هو غير ذاته فهو سواه، فليس له جزء ولا صفة زائدة. (هامش المطبوع)

٣. وفي بعض نسخ العيون: «استمّله» أي تجاوز حقه ولم يعرفه من طلب له مثلاً من خلقه. (هامش المطبوع)

قوله عليه السلام: «ومن قال: كيف»^(١) أي سأل عن الكيفيات الجسمانية فقد شبهه بخلقه؛ ومن قال: لم صار موجوداً، أو لم صار عالماً أو قادراً؟ فقد علّله بعلة، وليس لذاته وصفاته علة. وفي المجالس وأكثر نسخ التوحيد: «علّله»، وهو أظهر؛ ومن قال: متى وجد؟ فقد وقّت أوّل وجوده وليس له أوّل؛ «ومن قال: فيم» أي في أي شيء هو؟ فقد جعله في ضمن شيء، وجعل شيئاً متضمناً له، وهو من خواصّ الجسمانيّات؛ «ومن قال: إلام» أي إلى أي شيء ينتهي شخصه «فقد نهّاه» أي جعل له حدوداً ونهايات جسمانية، وهو تعالى منزّه عنها؛ «ومن قال: حتّام» يكون وجوده؟ «فقد غيّاه» أي جعل لبقائه غاية ونهاية، ومن جعل له غاية «فقد غاياه»، أي حكم باشتراكه مع المخلوقين في الفناء، فيصحّ أن يقال: غايته قبل غاية فلان أو بعده، ومن قال به فقد حكم باشتراكه معهم في الماهية في الجملة فقد حكم بأنّه ذو أجزاء، ومن قال به فقد وصفه بالإمكان والعجز وسائر نقائص الممكنات، ومن حكم به فقد ألحد في ذاته تعالى، ويحتمل أن يكون المعنى أن من جعل لبقائه غاية فقد جعل لذاته أيضاً غايات وحدوداً جسمانية بناء على عدم ثبوت مجرد سوى الله تعالى، وتفرّع التجزّء وما بعده على ذلك ظاهر. ويمكن أن يقال: الغاية في الثاني بمعنى العلة الغائية كما هو المعروف أو الفاعلية، وقد تطلق عليها أيضاً بناء على أن المعلول ينتهي إليها فهي غاية له؛ فعلى الأوّل المعنى: أنّه من حكم بانتهائه فقد علّق وجوده على غاية ومصلحة، كالممكنات التي عند انتهاء المصلحة ينتهي بقاءهم، وعلى الثاني: المراد أنّه لو كان وجوده واجباً لما تطرّق إليه الفناء، فيكون مستنداً إلى علة، وعلى الوجهين فيكون وجوده زائداً على ذاته فاتّصف حينئذ بالصفات الزائدة، وهذا قول بتعدّد الواجب وهو إلحاد فيه؛ وفي المجالس: «ومن قال: حتّام؟ فقد غيّاه، ومن غيّاه فقد حواه»^(٢)، ومن حواه فقد ألحد فيه».

قوله عليه السلام: «لا يتغيّر الله بانغيار المخلوق» أي ليس التغيّرات التي تكون في مخلوقاته موجبة للتغيّر في ذاته وصفاته الحقيقية، بل إنّما التغيّر في الإضافات الاعتبارية كما أن خلقه للمحدودين حدوداً لا يوجب كونه متحدداً بحدود مثلهم؛ ويحتمل أن يكون المراد أنّه لا يتغيّر كتغيّر المخلوقين، ولا يتحدّد كتحدّد المحدودين، وفي المجالس: «لا يتغيّر الله بتغيّر المخلوق، ولا يتحدّد بتحدّد المحدود».

قوله عليه السلام: «أحد لا بتأويل عدد» أي بأن يكون معه ثان من جنسه، أو بأن يكون واحداً مشتملاً على أعداد^(٣)، وقد مرّ تحقيقه مراراً. قوله عليه السلام: «ظاهر لا بتأويل المباشرة» أي ليس ظهوره بأن يباشره حاسة من

١. لأنّ «كيف» يسأل بها عن كيفيات الأجسام، يقال: كيف زيد صحيح أم سقيم؟ والله تعالى متعال عن وقوعه محلاً للعوارض، واتصافه بما يتصف به خلقه. (هامش المطبوع)

٢. حوى الشيء: جمعه وأحرزه، راجع لسان العرب.

٣. بل بمعنى أنّه لا شبيه ولا نظير له في الوجود، ولا يشاركه شيء في الصفات والنعوت، وليس في ذاته كثرة ولا تركيب. (هامش المطبوع)

الحواس، أو ليس ظهوره بأن يكون فوق جسم يباشره، كما يقال: ظهر على السطح، بل هو ظاهر بآثاره غالب على كل شيء بقدرته. قوله عليه السلام: «متجلّ» التجلي: الانكشاف والظهور، ويقال: استهلّ الهلال على المجهول والمعلوم أي ظهر وتبين^(١) أي ظاهر لا بظهور من جهة الرؤية.

قوله عليه السلام: «لا بمزايلة» أي لا بمفارقة مكان بأن انتقل عن مكان إلى مكان حتى خفي عنهم، أو بأن دخل في بواطنهم حتى عرفها بل لخفاء كنهه عن عقولهم، وعلمه ببواطنهم وأسرارهم. قوله عليه السلام: «لا بمسافة» أي ليس مباينته لبعده بحسب المسافة عنهم، بل لغاية كماله ونقصهم باينهم في الذات والصفات. قوله عليه السلام: «لا بمدانة» أي ليس قربه قريباً مكانياً بالدنو من الأشياء، بل بالعلم والعلية والترية والرحمة.

قوله عليه السلام: «لا بتجسّم» أي لطيف لا بكونه جسماً له قوام رقيق أو حجم صغير أو تركيب غريب وصنع عجيب أو لا لون له، بل لخلقه الأشياء اللطيفة وعلمه بها، كما مرّ، أو تجرّده. قوله عليه السلام: «فاعل لا باضطرار» أي هو فاعل مختار ليس بموجب، وفي النهج: «لا باضطراب آلة»^(٢) أي لا بتحريك الآلات والأدوات^(٣). قوله عليه السلام: «لا بجول فكرة» أي ليس في تقديره للأشياء محتاجاً إلى جولان الفكر وحركته، وفي النهج بعد ذلك: «غني لا باستفادة»^(٤). قوله عليه السلام: «لا بحركة» أي حركة ذهنية أو بدنية.

قوله عليه السلام: «لا بهمامة» أي عزم واهتمام وتردد. قوله عليه السلام: «شاء» أي ذو مشيئة «لا بهمة» وقصد وعزم حادث؛ والجسّ المسّ باليد، وموضعه: «المجسّنة». قوله عليه السلام: «لا تصحبه الأوقات» أي دائماً لحدوثها وقدمه، أو ليس بزمني أصلاً. قوله عليه السلام: «ولا تضمّنه» بحذف إحدى التائين؛ و«السنة»: مبدأ النوم. قوله عليه السلام: «ولا تحدّه الصفات» أي لا تحيط به صفات زائدة، أو لا تحدّه توصيفات الخلق. قوله عليه السلام: «ولا تفيدّه الأدوات» أي لا ينتفع ولا يستفيد منها، وفي بعض نسخ التوحيد: «ولا تقيده» - بالقاف - ليس فعله مقيداً مقصوراً على الأدوات لاحتاج إليها، وفي خطبة أمير المؤمنين عليه السلام: «ولا ترفده»، من قولهم: رفدت فلاناً إذا أعنته.

قوله عليه السلام: «كونه» بالرفع أي كان وجوده سابقاً على الأزمنة والأوقات بحسب الزمان الوهمي أو التقديري، وكان علّة لها، أو غلبها فلم يقيد بها. قوله عليه السلام: «والعدم وجوده» بنصب العدم ورفع الوجود أي

١. ويقال: استهلّ القوم الهلال أي نظروا إليه أي أنّه تعالى منكشف وظاهر لخلقه، لا بالانكشاف الحاصل من جهة الإبصار الذي هو الرؤية، لتنزهه عن ذلك، بل بما ظهر لهم من آثار ملكه وسلطانه، ودقائق لطفه وتدييره، فما يرى شيء إلا وهو مرآة لظهوره، ودليل على وجوده ووحديته. (هامش المطبوع)

٢. نهج البلاغة (لصبيح الصالح)، خطبه ١٨٦.

٣. بل بمجرد الإرادة والمشيئة. (هامش المطبوع)

٤. نهج البلاغة (لصبيح الصالح)، خطبه ١٨٦.

وجوده لوجوبه سبق وغلب العدم فلا يعتريه عدم أصلاً؛ وقيل: المراد عدم الممكنات لأنّ عدم العالم قبل وجوده كان مستنداً إلى عدم الداعي إلى إيجاده المستند إلى وجوده، فوجوده سبق عدم الممكنات أيضاً؛ وقيل: أريد به إعدام الممكنات المقارنة لابتداء وجوداتها، فيكون كناية عن أزليّته وعدم ابتداء لوجوده، وفيه بعد. قوله عليه السلام: «والابتداء أزله» أي سبق وجوده الأزليّ كلّ ابتداء، فليس لوجوده ولا شيء من صفاته ابتداء، أو أنّ أزليّته سبق بالعلية كلّ ابتداء ومبتداً.

قوله عليه السلام: «بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له» أي بخلقه المشاعر الإدراكية وإفاضتها على الخلق عرف أن لا مشعر له، إمّا لما مرّ من أنّه تعالى لا يتّصف بخلقه، أو لأنّنا بعد إفاضة المشاعر علمنا احتياجنا في الإدراك إليها، فحكمنا بتنزّهه تعالى عنها لاستحالة احتياجه تعالى إلى شيء، أو لما يحكم العقل به من المبينة بين الخالق والمخلوق في الصفات.

وقال ابن ميثم: لأنّه لو كان له مشاعر لكان وجودها له إمّا من غيره وهو محال، أمّا أولاً: فلأنّه مشعر المشاعر، وأمّا ثانياً: فلأنّه يكون محتاجاً في كماله إلى غيره فهو ناقص بذاته وهذا محال؛ وإمّا منه وهو أيضاً محال لأنّها إن كانت من كمالات ألوهيته كان موجوداً لها من حيث هو فاقد كمالاً، فكان ناقصاً بذاته وهذا محال، وإن لم تكن كمالاً كان إثباتها له نقصاً، لأنّ الزيادة على الكمال نقصان فكان إيجاده لها مستلزماً لنقصانه وهو محال^(١).

واعترض عليه بعض الأفاضل بوجوه: أحدها: بالنقض لأنّه لو تمّ ما ذكره يلزم أن لا يثبت له تعالى على الإطلاق صفة كمالية كالعلم والقدرة ونحوهما؛ وثانيها: بالحلّ باختيار شقّ آخر وهو أن يكون ذلك المشعر عين ذاته سبحانه كالعلم والقدرة؛ وثالثها: بأنّ هذا الكلام على تقدير تمامه استدلال برأسه لم يظهر فيه مدخلية. قوله عليه السلام: «بتشعيره المشاعر» في نفي المشعر عنه تعالى، وإنّما استعمله في إثبات مقدّمة لم تثبت به وقد ثبت بغيره.

ثمّ قال: فالأولى أن يقال: قد تقرّر أنّ الطبيعة الواحدة لا يمكن أن يكون بعض أفرادها علّة لبعض آخر لذاته، فإنّه لو فرض كون نار مثلاً علّة لنار فعلية هذه ومعلولية تلك إمّا لنفس كونهما ناراً فلا رجحان لإحدهما في العلية وللأخرى في المعلولية، بل يلزم أن يكون كلّ نار علّة للأخرى بل علّة لذاتها ومعلولة لذاتها وهو محال، وإن كانت العلية لانضمام شيء آخر فلم يكن ما فرضناه علّة بل العلّة حينئذ ذلك الشيء فقط لعدم الرجحان في إحدهما للشرطية والجزئية أيضاً لاتّحادهما من جهة المعنى المشترك، وكذلك لو فرض المعلولية لأجل ضمنية فقد تبين أنّ جاعل الشيء يستحيل أن يكون مشاركاً لمجعله، وبه

١. شرح نهج البلاغة (لابن ميثم)، ج ٤، ص ١٥٦.

يعرف أن كل كمال وكل أمر وجودي يتحقق في الموجودات الإمكانية فنوعه وجنسه مسلوب عنه تعالى ولكن يوجد له ما هو أعلى وأشرف منه. أمّا الأول: فلتعالیه عن النقص، وكلّ مجعول ناقص وإلا لم يكن مفتقراً إلى جاعل، وكذا ما يساويه في المرتبة كآحاد نوعه وأفراد جنسه، وأمّا الثاني: فلأنّ معطي كل كمال ليس بفاقد له بل هو منبعه ومعدنه، وما في المجعول رشحة وظلّة^(١). انتهى.

وقال ابن أبي الحديد: وذلك لأنّ الجسم لا يصحّ منه فعل الأجسام، وهذا هو الدليل الذي يعوّل عليه المتكلّمون في أنّه تعالى ليس بجسم^(٢).

قوله عليه السلام: «وبتجھيره الجواهر» أي بتحقيق حقائقها وإيجاد ماهياتها عرف أنّها ممكنة وكلّ ممكن محتاج إلى مبداء، فمبدأ المبادي لا يكون حقيقة من هذه الحقائق. قوله عليه السلام: «وبمضادّته بين الأشياء عرف أن لا ضدّ له» المراد بالضدّ إمّا المعنى المصطلح أي موجودان متعاقبان على موضوع أو محلّ واحد، أو المعنى العرفي الذي هو المساوي للشيء في القوّة، فعلى الأول نقول: لمّا خلق الأضداد في محالّها ووجدناها محتاجة إليها علمنا عدم كونه ضدّ الشيء للزوم الحاجة إلى المحلّ المنافية لوجوب الوجود، أو لأنّها لمّا رأينا كلّاً من الضدّين يمنع وجود الآخر ويدفعه ويفنيه فعلنا أنّه تعالى منزّه عن ذلك، أو لأنّ التضادّ إنّما يكون للتحديد بحدود معيّنة لا تجماع غيرها كمراتب الألوان والكيفيات وهو تعالى منزّه عن الحدود، وأيضاً كيف يضادّ الخالق مخلوقه والفائض مفيضه؟ وأمّا على الثاني: فلأنّ المساوي في القوّة للواجب يجب أن يكون واجباً فيلزم تعدّد الواجب وقد مرّ بطلانه.

قوله عليه السلام: «وبمقارنته بين الأمور» أي بجعل بعضها مقارناً لبعض، كالأعراض ومحالّها والتمكّنات وأمكنتها والملزومات ولوازمها، عرف أنّه ليس له قرين مثلها لدلالة كلّ نوع منها على أنواع النقص والعجز والافتقار؛ وقيل: أي جعلها متحدّدة بتحدّات متناسبة موجبة للمقارنة عرف أن لا قرين له، وكيف يناسب المتحدّد بتحدّد خاصّ دون المتحدّد بتحدّد آخر من لا تحدّد له، فإنّ نسبة اللامتحدّد مطلقاً إلى المتحدّدات كلّها سواء. قوله عليه السلام: «ضادّ النور بالظلمة» يدلّ على أنّ الظلمة أمر وجودي كما هو المشهور إن كان التضادّ محمولاً على المعنى المصطلح. و«الجلالية»: الوضوح والظهور. و«البهم»: الخفاء؛ وفي النهج^(٣): «والوضوح بالبهمة»، وفسّرهما الشّراح بالبياض والسواد^(٤) ولا يخفى بعده. وقال الفيروزآبادي: جساً جسوءاً: صلب،

١. شرح أصول الكافي (الصدر المتألّهين)، ج ٤، ص ٧٠ و ٧١.

٢. شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد)، ج ١٣، ص ٧٣.

٣. نهج البلاغة (لصبيحي الصالح)، خطبة ١٨٦.

٤. شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد)، ج ١٣، ص ٧٤؛ شرح نهج البلاغة (لابن ميثم)، ج ٤، ص ١٥٠.

وجسأت الأرض بالضمّ فهي مجسوءة من الجساء، وهو الجلد الخشن، والماء الجامد. و«الصرد» بفتح الراء وسكونها: البرد فارسيّ معرّب. و«الحرور» بالفتح: الريح الحارّة.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مؤلف بين متعادياتها» كما ألف بين العناصر المختلفة الكيفيات، وبين الروح والبدن، وبين القلوب المتشّتتة الأهواء وغير ذلك. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مفرّق بين متدانياتها» كما يفرّق بين أجزاء العناصر وكلّيّاتها للتركيب، وكما يفرّق بين الروح والبدن، وبين أجزاء المركّبات عند انحلالها، والأبدان بعد موتها، وبين القلوب المتناسبة لحكم لا تحصى فدلّ التأليف والتفريق المذكوران الواقعان على خلاف مقتضى الطبائع على قاسر يقسرها^(١) عليهما، وكونهما على غاية الحكمة ونهاية الإحكام على علم القاسر وقدرته وكماله. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ذلك قوله جلّ وعزّ» يحتمل أن يكون استشهاداً لكون المضادة والمقارنة دليلين على عدم اتّصافه بهما كما فسّر بعض المفسّرين الآية بأنّ الله تعالى خلق كلّ جنس من أجناس الموجودات نوعين متقابلين وهما زوجان لأنّ كلّ واحد منهما مزدوج بالآخر كالذكر والأنثى، والسواد والبياض، والسماء والأرض، والنور والظلمة، والليل والنهار، والحارّ والبارد، والرطب واليابس، والشمس والقمر، والثابت والسيّارات، والسهل والجبل، والبحر والبرّ، والصيف والشتاء، والجنّ والإنس، والعلم والجهل، والشجاعة والجبن، والجود والبخل، والإيمان والكفر، والسعادة والشقاوة، والحلاوة والمرارة، والصحة والسقم، والغناء والفقر، والضحك والبكاء، والفرح والحزن، والحياة والموت إلى غير ذلك ممّا لا يحصى، خلقهم كذلك ليتذكّروا أنّ لهم موجداً ليس هو كذلك؛ ويحتمل أن يكون استشهاداً لكون التأليف والتفريق دالّين على الصانع لدلالة خلق الزوجين على المفرّق والمؤلف لهما لأنّه خلق الزوجين من واحد بالنوع، فيحتاج إلى مفرّق يجعلهما متفرّقين وجعلهما مزوجين مؤتلفين ألفة بخصوصهما، فيحتاج إلى مؤلف يجعلهما مؤتلفين؛ وقيل: كلّ موجود دون الله ففيه زوجان اثنان، كالماهيّة والوجود، والوجوب والإمكان، والمادّة والصورة، والجنس والفصل، وأيضاً كلّ ما عداه يوصف بالمتضايقين، كالعليّة والمعلوليّة، والقرب والبعد، والمقارنة والمباينة، والتألف والتفرّق، والمعاداة والموافقة، وغيرها من الأمور الإضافيّة. وقال بعض المفسّرين: المراد بالشيء الجنس، وأقلّ ما يكون تحت الجنس نوعان فمن كلّ جنس نوعان كالجوهر منه المادّي والمجرّد، ومن المادّي الجماد والنامي، ومن النامي النبات والمدرّك، ومن المدرّك الصامت والناطق، وكلّ ذلك يدلّ على أنّه واحد لا كثرة فيه^(٢)، فقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٣) أي تعرفون من اتّصاف كلّ مخلوق بصفة التركيب

١. قسره على الأمر: غلبه وأكرهه عليه، راجع شمس العلوم.

٢. مفاتيح الغيب، ج ٢٨، ص ١٨٨.

٣. الذاريات/٤٩.

والزوجيّة والتضايّف أنّ خالقها واحد أحد لا يوصف بصفاتها.

قوله عليه السلام: «ليعلم أنّ لا قبل له ولا بعد» يدلّ على عدم كونه تعالى زمانياً؛ ويحتمل أن يكون المعنى: عرّفهم معنى القبليّة والبعديّة ليحكموا أن ليس شيء قبله ولا بعده، ويعلم الفقرات التالية بما قدّمنا في الكلمات السابقة. و«الغرائز»: الطبائع. و«مغزها»: موجد غرائزها ومفيضها عليها؛ ويمكن حملها وأمثالها على الجعل البسيط إن كان واقعاً، و«المفاوت» على صيغة اسم الفاعل: من جعل بينها التفاوت. و«توقيتها»: تخصيص حدوث كلّ منها بوقت وبقائها إلى وقت.

قوله عليه السلام: «حجب بعضها عن بعض» أي بالحجب الجسمانيّة أو الأعمّ ليعلم أنّ ذلك نقص وعجز، وهو منزّه عن ذلك بل ليس لهم حجاب عن الربّ إلّا أنفسهم لإمكانهم ونقصهم. قوله عليه السلام: «له معنى الربوبيّة» أي القدرة على التربية إذ هي الكمال. قوله عليه السلام: «إذ لا مألوه» أي من له الإله أي كان مستحقاً للمعبوديّة إذ لا عابد. وإنّما قال عليه السلام: «وتأويل السمع» لأنّه ليس فيه تعالى حقيقة بل مؤوّل بعلمه بالمسموعات. قوله عليه السلام: «ليس مذ خلق استحقّ معنى الخالق» إذ الخالقيّة التي هي كماله هي القدرة على خلق كلّ ما علم أنّه أصلح، ونفس الخلق من آثار تلك الصفة الكماليّة، ولا يتوقّف كماله عليه. «والبرائيّة» بالتشديد: الخلاقيّة.

قوله عليه السلام: «كيف ولا تغيّبه مذ» أي كيف لا يكون مستحقاً لهذه الأسماء في الأزل والحال أنّه لا يصير «مذ» الذي هو لأوّل الزمان سبباً لأن يغيب عنه شيء، فإنّ الممكن إذا كان قبل ذلك المبدأ أو بعده يغيب هذا عنه، والله تعالى جميع الأشياء مع أزمنتها حاضرة في علمه في الأزل، أو أنّه ليس لوجوده زمان حتّى يغيب عن غيره فيقال: مذ كان موجوداً كان كذا. ولمّا لم يكن زمانياً لا تدانيه كلمة «قد» التي هي لتقريب الماضي إلى الحال، أو ليس في علمه شدّة وضعف حتّى تقربه كلمة «قد» التي للتحقيق إلى العلم بحصول شيء. ولا تحجبه كلمة «لعلّ» التي هي لترجّي أمر في المستقبل أي لا يخفى عليه الأمور المستقبلية، أو ليس له شكّ في أمر حتّى يمكن أن يقول: «لعلّ». وليس له وقت أوّل حتّى يقال له: متى وجد؟ أو متى علم؟ أو متى قدر؟ وهكذا، أو مطلق الوقت كما مرّ مراراً. ولا يشتمله حين وزمان، وعلى الاحتمال الثاني تأكيد فيؤيّد الأوّل. ولا تقارنه «مع» بأن يقال: كان شيء معه أزلاً، أو مطلق المعيّة بناء على نفي الزمان، أو الأعمّ من المعيّة الزمانيّة أيضاً، فمن كان كذلك فليس تخلف الخلق عنه عجزاً له ونقصاً في كماله بل هو عين كماله حيث راعى المصلحة في ذلك. ويمكن أن تطبق بعض الفقرات على ما قيل: إنّّه لخروجه عن الزمان كان جميع الزمانيّات حاضرة عنده في الأزل كلّ في وقته، وبذلك وجّهوا نفي التخلف مع الحدوث، لكن في هذا القول إشكالات ليس المقام موضع ذكرها، وليس في المجالس والإحتجاج «كيف» وفيهما: «لا تغيّبه مذ»، فلا يحتاج إلى تكلف.

قوله **عَلَيْهِ**: «إنّما تحدّ الأدوات أنفسها» الأدوات والآلات: الجوارح البدنيّة والقوى الجسمانيّة أي هذه الأعضاء والقوى إنّما تحدّ وتشير إلى جسمانيّ مثلها فالمراد بقوله **عَلَيْهِ**: «أنفسها» أنواعها وأجناسها؛ وقيل: يعني ذوي الأدوات والآلات.

أقول:

لا يبعد أن يكون المراد بالأدوات هذه الحروف والكلمات التي نفاها عنه تعالى سابقاً، فيكون كالتعليل لما سبق، وفي الأشياء الممكنة توجد فعال تلك الآلات والأدوات وآثارها لا فيه تعالى.

قوله **عَلَيْهِ**: «منعتها» في النهج: «منعتها منذ القدمة، وحمتها قد الأزليّة، وجنّبها لولا التكملة، بها تجلّى صانعها للعقول، وبها امتنع عن نظر العيون». وقد روي القدمة والأزليّة والتكملة بالنصب؛ وقيل: كذا كانت في نسخة الرضيّ «رضي الله عنه» بخطّه، فتكون مفعولات ثانية، والمفعولات الأول الضمائر المتّصلة بالأفعال، وتكون «منذ وقد ولولا» في موضع الرفع بالفاعليّة، والمعنى حينئذ: أن إطلاق لفظ «منذ وقد ولولا» على الآلات تمنعها عن كونها أزليّة قديمة كاملة، فلا تكون الآلات محدّدة له سبحانه، مشيرة إليه جلّ شأنه إذ هي لحدوثها ونقصها بعيدة المناسبة عن الكامل المطلق القديم في ذاته؛ أمّا الأولى: فلائها لابتداء الزمان، ولا ريب أن منذ وجدت الآلة تنافي قدمها؛ وأمّا الثانية: فلائها لتقريب الماضي من الحال، فقولك: قد وجدت هذه الآلة تحكم بقربها من الحال وعدم أزليّتها، وقوله **عَلَيْهِ**: «حمتها» أي منعتها؛ وأمّا «لولا» فلائ قولك إلى المستحسنة منها والمتوقّد من الأذهان: ما أحسنها لولا أن فيها كذا، فيدلّ على نقص فيها فيجنّبها عن الكمال المطلق. ويروى أيضاً برفع القدمة والأزليّة والتكملة على الفاعليّة، فتكون الضمائر المتّصلة مفعولات أول، و«قد ومنذ ولولا» مفعولات ثانية، ويكون المعنى أن قدم البارئ سبحانه وأزليّته وكماله المطلق منعت الآلات والأدوات عن إطلاق لفظ «قد ومنذ ولولا» عليه سبحانه لأنّه تعالى قديم كامل، و«قد ومنذ» لا يطلقان إلاّ على محدث و«لولا» لا تطلق إلاّ على ناقص.

أقول:

ويحتمل أن يكون المراد القدمة التقديرية أي لو كانت قديمة لمنعت عن إطلاق «منذ» عليها، وكذا في نظيرها.

قوله **عَلَيْهِ**: «بها تجلّى» أي بمشاعرنا وخلقه إيّاها وتصويره لها تجلّى لعقولنا بالوجود والعلم والقدرة.

قوله **عَلَيْهِ**: «وبها امتنع» أي بمشاعرنا استنبطنا استحالة كونه تعالى مرئياً بالعيون لأنّنا بالمشاعر والحواسّ كملت عقولنا، وبعقولنا استخرجنا الدلالة على أنّه لا تصحّ رؤيته، أو بإيجاد المشاعر مدركة بحاسة البصر ظهر امتناعه عن نظر العيون لأنّ المشاعر إنّما تدرك بالبصر، لأنّها ذات وضع ولون وغيره من شرائط الرؤية

فيها علمنا أنه يمتنع أن يكون محلاً لنظر العيون، أو لمّا رأينا المشاعر إنّما تدرك ما كان ذا وضع بالنسبة إليها علمنا أنه لا يدرك بها لاستحالة الوضع فيه.

ثمّ اعلم أنه على ما في تلك النسخ الفقرتان الأولىان مشتركتان إلّا أنه يحتمل إرجاع الضميرين البارزين في «منعتها» و«حمتها» إلى الأشياء، لا سيّما إذا حملنا الأدوات والآلات على الحروف، وأمّا الثالثة: فالمعنى أنه لو لا أنّ الكلمة أي اللغات والأصوات أو الآراء والعزائم أو المخلوقات فإنّها كلم الربّ لدالتها على وجوده وسائر كمالاته، افرقت واختلفت فدلّت على مفرّق فرّقها، وتباينت فأعربت وأظهرت عن مباينتها أي من جعلها متباينة أو عن صانع هو مباين لها في الصفات، لما تجلّى وظهر صانعها للعقول، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ ... اخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾^(١). وبها أي بالعقول احتجب عن الرؤية لأنّ الحاكم بامتناع رؤيته هو العقل، وإلى العقل تتحاكم الأوهام عند اختلافها.

قوله عليه السلام: «وفيها أثبت غيره» أي كلّ ما يثبت ويرتسم في العقل فهو غيره تعالى؛ ويحتمل أن يكون غيره مصدراً بمعنى المغايرة أي بها يثبت مغايرته الممكنات؛ ويمكن إرجاع الضمير إلى الأوهام أي القول بالشرىك له تعالى فعل الوهم لا العقل لكن فيه تفكيك، ومن العقول يستنبط الدليل على الأشياء، وبالعقول عرّف الله العقول أو ذويها الإقرار به تعالى؛ ويمكن إرجاع الضميرين أيضاً إلى الأوهام أي الأوهام معينة للعقل وآلات في استنباط الدليل، وبالأوهام عرّف الله العقول الإقرار بأنّه ليس من جنسها ومن جنس مدرّكاتها. وبما ذكرنا يظهر جواز إرجاع الضميرين في النهج إلى العقول، كما أنّه يجوز إرجاع جميع الضمائر هنا إلى الآلات والأدوات، ولكنّهما بعيدان، والأخير أبعد.

قوله عليه السلام: «ولا ديانة» الديانة مصدر دان يدين، وفي المصادر الديانة: «ديندار گشتن» أي لا تدين بدين الله، أو من دان بمعنى أطاع وعبد أي لا عبادة إلّا بعد معرفة الله. والإخلاص هو جعل المعرفة خالصة عمّا لا يناسب ذاته المقدّسة من الجسميّة والعرضيّة والصفات الزائدة والعوارض الحادثة، وحمله على الإخلاص في العبادة لا يستقيم إلّا بتكلّف، ولا يتحقّق الإخلاص مع تشبيهه تعالى بخلقه في الذات والصفات؛ وفي بعض النسخ كما في الاحتجاج: «ولا نفى مع إثبات الصفات للتشبيه». وقوله عليه السلام: «للتشبيه» متعلّق بالنفي أي لم ينف التشبيه من أثبت له الصفات الزائدة. وفي أكثر النسخ «للتنبيه»، ولعلّ المراد به الإشارة إلى ما مرّ من أنّه يجب إخراجه تعالى عن حدّ النفي وحدّ التشبيه، أي إذا نفينا عنه التشبيه لا يلزم النفي المطلق مع أنّا تثبت الصفات لتنبيه الخلق على اتّصافه بها على وجه لا يستلزم النقص كما تقول:

عالم لا يعلم العلماء، قادر لا كقدرة القادرين. وإنّما قال: للتنبيه إشارة إلى أنّه لا يمكن تعقّل كنه صفاته تعالى، ثمّ بيّن عليه السلام ذلك بقوله: «فكلّ ما في الخلق» إلخ.

ثمّ استدلّ عليه السلام بعدم جريان الحركة والسكون عليه بوجوه:

الأوّل: أنّه تعالى أجراها على خلقه وأحدثهما فيهما، فكيف يجريان فيه بناء على ما مرّ مراراً من أنّه تعالى لا يتّصف بخلقه ولا يستكمل به؟ واستدلّ عليه بعضهم بأنّ المؤثّر واجب التقدّم بالوجود على الأثر، فذلك الأثر إمّا أن يكون معتبراً في صفات الكمال، فيلزم أن يكون تعالى باعتبار ما هو موجد له ومؤثّر فيه ناقصاً بذاته، مستكملاً بذلك الأثر، والنقص عليه محال؛ وإن لم يكن معتبراً في صفات كماله فله الكمال المطلق بدون ذلك الأثر، فكان إثباته له نقصاً في حقّه لأنّ الزيادة على الكمال المطلق نقصان، وهو عليه تعالى محال، أو لأنّه لو جريا عليه لم ينفك أحدهما عنه، فيدلّ على حدوثه كما استدلّ المتكلّمون على حدوث الأجسام بذلك، والأوّل أظهر لفظاً ومعنى.

الثاني: أنّه يلزم أن تكون ذاته متفاوتة متغيّرة بأن يكون تارة متحرّكاً، وأخرى ساكناً، والواجب لا يكون محلاً للحوادث والتغيّرات، لرجوع التغيّر فيها إلى الذات.

الثالث: أنّه يلزم أن يكون ذاته وكنهه متجزّياً إمّا لأنّ الحركة من لوازم الجسم، أو لأنّ الحركة بأنواعها إنّما تكون في شيء يكون فيه ما بالقوّة وما بالفعل، أو لأنّه يستلزم شركته مع الممكنات، فيلزم تركّبه ممّا به الاشتراك وما به الامتياز. وأمّا قوله عليه السلام: «ولا متنع» إلى قوله: «غير المبروء» كالتعليل لما سبق.

قوله عليه السلام: «ولو حدّ له وراء» أي لو قيل: إنّ له وراء وخلفاً فيكون له أمام أيضاً، فيكون منقسماً إلى شيئين ولو وهماً، فيلزم التجزّي كما مرّ، ثمّ بيّن عليه السلام: أنّه لا يجوز أن يكون الله مستكملاً بغيره، أو يحدث فيه كمال لم يكن فيه، وإلاّ لكان في ذاته ناقصاً، والنقص منفيّ عنه تعالى بإجماع جميع العقلاء، وأيضاً يستلزم الاحتياج إلى الغير في الكمال المنافي لوجوب الوجود كما مرّ، ثمّ أشار عليه السلام إلى أنّ الأزليّ لا يكون إلّا من كان واجباً بالذات، ممتنعاً عن الحدوث، وإلاّ كان ممكناً محتاجاً إلى صانع، فلا يكون أزليّاً إذ كلّ مصنوع حادث؛ ويحتمل أن يكون المراد بامتناع الحدوث امتناع أن يحدث فيه الحوادث وكونه محلاً لها، وبيانه بأنّه ينافي الأزليّة والوجوب.

قوله عليه السلام: «وكيف ينشئ الأشياء» أي جميعها من لا يمتنع من كونه منشئاً إذ هو نفسه ومن أنشأه لا يكونان من منشأته، فكيف يكون منشئاً للجميع؟ أو أنّ منشئ كلّ شيء ومبدعه لا يكون إلّا واجباً كما مرّ في باب «أنّه تعالى خالق كلّ شيء»؛ ويحتمل أن يكون المراد عدم الامتناع من إنشاء شيء فيه إذ لا يجوز أن يكون منشئ تلك الصفة نفسه ولا غيره. ثمّ استدلّ على جميع ما تقدّم بأنّه لو كان فيه تلك الحوادث

والتغيرات وإمكان الحدوث لقامت فيه علامة المصنوع، ولكان دليلاً على وجود صانع آخر غيره كسائر الممكنات، لا شراكه معهم في صفات الإمكان وما يوجب الاحتياج إلى العلة، لا مدلولاً عليه بأنه صانع. قوله عليه السلام: «ليس في محال القول حجة» أي ليس في هذا القول المحال أي إثبات الحوادث والصفات الزائدة له حجة، ولا في السؤال عن هذا القول - لظهور خطئه - جواب، وليس في إثبات معنى هذا القول له تعالى تعظيم بل هو نقص له كما عرفت، وليس في إبانته تعالى عن الخلق - في الاتصاف بتلك الصفات حيث نفيت عنه تعالى وأثبتت فيهم - «ضيم» أي ظلم على الله تعالى، أو على المخلوقين، إلا بأن الأزلي يمتنع من الاثنينية، وإثبات الصفات الزائدة يوجب الاثنينية في الأزلي وبأن ما لا بدأ له - على المصدر - أو بديء له - على فعيل بمعنى مفعول - يمتنع من أن يبدأ ويكون له مبدأ، وما نسبوا إليه تعالى ممّا مرّ مستلزم لكونه تعالى ذا مبدأ وعلة، فالمعنى: أنه لا يتوهم ظلم إلا بهذا الوجه، وهذا ليس بظلم، كما في قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلول^(١) من قراع^(٢) الكتائب^(٣)
«والعادلون بالله» هم الذين يجعلون غيره تعالى معادلاً ومتشابهاً له.

أقول:

قد روي في تحف العقول والنهج مثل هذه الخطبة مع زيادات عن أمير المؤمنين عليه السلام وقد أوردتها في أبواب خطبه عليه السلام.

١٥٩٥. نهج البلاغة، الإحتجاج^(٤): عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ، وَلَا يُخْصِي نِعَمَهُ الْعَادُونَ، وَلَا يُؤَدِّي حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُونَ، الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ بَعْدُ الْهَمَمُ، وَلَا يَنَالُهُ غَوْصُ الْفِطَنِ^(٥)، الَّذِي لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ

١. الفلّة: الثلثة في السيف، وجمعها فلول، راجع لسان العرب.

٢. القراع والمقارعة: المضاربة بالسيوف، راجع لسان العرب.

٣. الكتيبة: القطعة العظيمة من الجيش، والجمع الكتائب، راجع لسان العرب.

٤. نهج البلاغة (لصبيح الصالح)، ص ٣٩، خطبة ١؛ الإحتجاج (للطبرسي)، ج ١، ص ١٩٨.

٥. وغوصها: استغراقها في بحر المعقولات لتلتقط درر الحقيقة، وهي وإن بعدت في الغوص لا تنال حقيقة الذات الأقدس. قال ابن ميثم: إسناد الغوص هاهنا إلى الفطن على سبيل الاستعارة، إذ الحقيقة إسناده إلى الحيوان بالنسبة إلى الماء، وهو مستلزم لتشبيه المعقولات بالماء، ووجه الاستعارة هاهنا أن صفات الجلال ونعوت الكمال لما كانت في عدم تنهايتها والوقوف على حقائقها وأغوارها تشبه البحر الخضم الذي لا يصل السائح له إلى ساحل، ولا ينتهي الغائص فيه إلى قرار، وكان السائح لذلك البحر والخائض في تياره هي الفطن الثاقبة لا جرم كانت الفطنة شبيهة بالغائص في البحر، فأسند الغوص إليها، وفي معناه الغوص إلى الفكر، ويقرب منه إسناد الإدراك إلى بعد الهمم، إذ كان الإدراك حقيقة في لحوق الجسم لجسم آخر. وإضافة الغوص إلى الفطن والبعد إلى الهمم إضافة لمعنى الصفة بلفظ المصدر إلى الموصوف، والتقدير: لا تناله الفطن الغائصة، ولا تدركه الهمم البعيدة. ووجه الحسن في هذه الإضافة وتقديم الصفة أن المقصود لما كان هو المبالغة في عدم إصابة

مَحْدُودٌ، وَلَا نَعْتُ مَوْجُودٌ، وَلَا وَقْتُ مَعْدُودٌ، وَلَا أَجَلٌ مَمْدُودٌ، فَطَرَّ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَشَرَّ الرِّيحَ بِرَحْمَتِهِ، وَتَدَّ بِالصُّخُورِ مِيدَانَ أَرْضِهِ، أَوَّلَ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالَ مَعْرِفَتِهِ التَّصَدِيقُ بِهِ، وَكَمَالَ التَّصَدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالَ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلَاصُ لَهُ، وَكَمَالَ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَاهُ، وَمَنْ ثَنَاهُ فَقَدْ جَزَّاهُ، وَمَنْ جَزَّاهُ فَقَدْ جَهَلَهُ^(١)، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَالَ: فِيمَ فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ: عَلَامَ فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ. كَائِنٌ لَا عَنْ حَدَثٍ، مَوْجُودٌ لَا عَنْ عَدَمٍ، مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُقَارَنَةٍ، وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُزَايَلَةٍ، فَاعِلٌ لَا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالْأَلَّةِ، بَصِيرٌ إِذْ لَا مَنظُورٌ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لَا سَكَنٌ يَسْتَأْنِسُ بِهِ وَلَا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ، أَنشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً^(٢)، وَابْتَدَأَهُ ابْتِدَاءً بِلَا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا، وَلَا تَجَرِبَةٍ اسْتَفَادَهَا، وَلَا حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا، وَلَا هَمَامَةَ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا، أَجَلَ الْأَشْيَاءِ لِأَوْقَاتِهَا^(٣)، وَلَاءَمَ بَيْنَ مُحْتَملَاتِهَا، وَغَرَزَ غَرَائِزَهَا، وَأَلَزَمَهَا أَشْبَاحَهَا، عَالِمًا بِهَا قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، مُحِيطًا بِحُدُودِهَا وَانْتِهَائِهَا، عَارِفًا بِقَرَائِنِهَا وَأَحْثَانِهَا.

بيان:

الفقرة الأولى إقرار بالعجز عن الحمد باللسان، كما أنَّ الثانية اعتراف بالقصور عن الشكر بالجانان، والثالثة عن العمل بالأركان. والهمة: القصد والإرادة، وبعدها: علوها وتعلقها بالأُمور العالية أي لا تدركه الهمم العالية المتعرضة لصعاب الأُمور الطائفة إلى إدراك عوالي الأُمور. و«الظن» بكسر الفاء وفتح الطاء، جمع فطنة بالكسر: الحذق وجودة استعداد الذهن لتصور ما يرد عليه، أي لا يصل إلى كنه حقيقته الظن الغائصة في بحار الأفكار.

قوله عليه السلام: «الذي ليس لصفته» أي لا يدخل في صفاته الحقيقية حدّ محدود من الحدود والنهايات الجسمانية؛ ويحتمل أن يكون الصفة بمعنى التوصيف أي لا يمكن توصيفه بحدّ، ووصف الحدّ بالمحدود إمّا لأنّ كلّ حدّ من الحدود الجسمانية فله حدّ أيضاً كالسطح ينتهي إلى الخطو مثلاً، أو على المبالغة كقولهم: شعر شاعر؛ ويمكن أن يقرأ على الإضافة وإن كان خلاف ما هو المضبوط؛ ويمكن أن يكون المعنى: أنّه ليس لتوصيفه تعالى بصفات كماله حدّ ينتهي إليه بل محامده أكثر من أن تحصى^(٤)، ولا يوصف أيضاً بنعت موجود

→ ذاته تعالى بالظنّة من حيث هي ذات غوص وبالهمة من حيث هي بعيدة كانت تلك الحيثية مقصودة بالقصد الأول، والبلاغة تقتضي تقديم

الأهم. (هامش المطبوع)

١. ورد في نهج البلاغة مع زيادة: «ومن جهله فقد أشار إليه».

٢. وفي نسخة: أنشأ الخلق إنشَاءً واحداً. (هامش المطبوع)

٣. في النهج والإحتجاج: «أحوال الأشياء لأوقاتها».

٤. أو كان المعنى - كما حكى عن أبي الحسن الكندري - بأن يؤوّل حدّ محدود على ما يؤوّل به كلام العرب: ولا يرى الضبّ بها ينحجر، أي

أي بالصفات الزائدة رداً على الأشعري، وإنما قيد بقوله عليه السلام: «موجود» إذ لا خير في توصيفه بالصفات الاعتبارية والإضافية؛ ويحتمل أن يكون المراد نعت موجود في المخلوقين، أو يكون الموجود من الوجدان أي نعت يحيط به العقل، واحتمال الإضافة فيها وفي قرينتها باق مع بعده، ولا يمكن وصفه أيضاً بالوقت والأجل، والفرق بينهما باعتبار الابتداء والانتهاء أي ليس له وقت محدود من جهة الأزل، ولا أجل مؤجل ممدود من جهة الأبد؛ وقال ابن أبي الحديد: يعني بصفته هاهنا كنهه وحقيقته، يقول: ليس لكنّه حدّ فيعرف بذلك الحدّ قياساً على الأشياء المحدودة لأنّه ليس بمركّب وكلّ محدود مركّب.

ثم قال عليه السلام: «ولا نعت موجود» أي لا يدرك بالرسم كما يدرك الأشياء برسومها وهو أن يعرف بلازم من لوازمها وصفة من صفاتها. ثم قال عليه السلام: «ولا وقت محدود ولا أجل ممدود» وفيه إشارة إلى الردّ على من قال: إنّنا نعلم كنه الباري تعالى لا في هذه الدنيا بل في الآخرة^(١).

وقال ابن ميثم: المراد أنّه ليس لمطلق ما يعتبره عقولنا له من الصفات السلبية والإضافية نهاية معقولة تقف عندها فيكون حدّاً له، وليس لمطلق ما يوصف به أيضاً وصف موجود يجمعه فيكون نعتاً له ومنحصرّاً فيه. ثم قال عليه السلام: «ليس لصفته حدّ» أي ليس لها غاية بالنسبة إلى متعلقاتها كالعلم بالنسبة إلى المعلومات، والقدرة إلى المقدورات^(٢). انتهى. ولا يخفى بعد تلك الوجوه.

والفطر: الابتداع. و«الخلاّق» جمع خليفة بمعنى المخلوق أو الطبيعة، والأوّل أظهر، «ونشر الرياح»^(٣) أي بسطها «برحمته» أي بسبب المطر أو الأعمّ، ويؤيد الأوّل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾^(٤). «وتد بالصخور» يقال: وتد أي ضرب الوتد في حائط أو غيره، والصخور: الحجارة العظام. والميدان بالتحريك: الحركة بتمائل هو الاسم من ماد يميم ميّداً، وهو من إضافة الصفة إلى موصوفها،

→ ليس بها ضبّ فينجح، حتى يكون المراد أنّه ليس له صفة فتحد، إذ هو تعالى واحد من كل وجه، منزّه عن الكثرة بوجه ما، فيمتنع أن يكون له صفة تزيد على ذاته، كما في سائر الممكنات، وصفاته المعلومة ليست من ذلك في شيء، إنّما هي نسب وإضافات لا يوجب وصفه بها كثرة في ذاته، قال: ومما يؤكد هذا التأويل قوله بعد ذلك: «فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه». (هامش المطبوع)

١. شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد)، ج ١، ص ٦٠.

٢. شرح نهج البلاغة (لابن ميثم)، ج ١، ص ١١٥.

٣. قال ابن ميثم: إنّ نشر الرياح وبسطها لما كان سبباً عظيماً من أسباب بقاء أنواع الحيوان والنبات واستعدادات الأمزجة للصحة والنمو وغيرها حتى قال كثير من الأطباء: إنّها تستحيل روحاً حيوانياً، وكانت عناية الله سبحانه وتعالى وعموم رحمته شاملة لهذا العالم وهي مستند كل موجود لا جرم كان نشرها برحمته، ومن أظهر آثار الرحمة الإلهية بنشر الرياح حملها للسحاب المقرع بالماء وإثارتها له على وفق الحكمة ليصيب الأرض الميتة، فينبت بها الزرع ويملاّ الضرع. شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ١١٦.

٤. الأعراف/٥٧.

والتقدير: وتَدُّ بالصخور أرضه المائدة، وإنَّما أُسند إلى الصفة لأنَّها العلة في إيجاد الجبال كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾^(١) وقال: ﴿وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا﴾^(٢).

ثمَّ اعلم أنَّهم اختلفوا في أنَّه لم صارت الجبال سبباً لسكون الأرض على أقوال: الأول: أنَّ السفينة إذا أُلقيت على وجه الماء فإنَّها تميل فإذا وضعت فيها أجرام ثقيلة استقرَّت، ولعلَّ غرضهم أنَّ الأرض إذا لم توتد بالجبال لأمكن أن تتحرَّك بتموج الهواء، ونحوه حركة قسريَّة.

الثاني: ما ذكره الفخر الرازي حيث قال: قد ثبت أنَّ الأرض كرة، وأنَّ هذه الجبال بمنزلة خشونات وتضريسات^(٣) على وجه الكرة فلو فرضنا أنَّ الأرض كانت كرة حقيقة لتحركت بالاستدارة بأدنى سبب لأنَّ الجرم البسيط المستدير يجب كونه متحرِّكاً على نفسه بأدنى سبب وإن لم تجب حركته بنفسه عقلاً؛ أمَّا إذا حصل على سطحها هذه الجبال فكلُّ واحدٍ إنَّما يتوجَّه بطبعه إلى المركز فيكون بمنزلة الأوتاد^(٤). ولا يخفى ما فيه من التشويش والفساد.

الثالث: ما يخطر بالبال وهو أن يكون مدخليَّة الجبال لعدم اضطراب الأرض بسبب اشتباكها واتِّصال بعضها ببعض في أعماق الأرض بحيث تمنعها عن تفتُّت^(٥) أجزائها وتفرُّقها فهي بمنزلة الأوتاد المغروزة^(٦) المثبتة في الأبواب المركَّبة من قطع الخشب الكثيرة بحيث تصير سبباً لالتصاق بعضها ببعض وعدم تفرُّقها، وهذا معلوم ظاهر لمن حفر الآبار في الأرض، فإنَّها تنتهي عند المبالغة في حفرها إلى الأحجار الصلبة.

الرابع: ما أوَّل بعضهم الآية به، وهو أنَّ المراد بالأوتاد الأنبياء والعلماء، وبالأرض الدنيا فإنَّهم سبب استقرار الدنيا، ولا يخفى أنَّه لو استقام هذا الوجه في الآية لا يجري في كلامه عَلَيْهَا إلا بتكلُّف لا يرتضيه عاقل.

الخامس: أن يقال: المراد بالأرض قطعاتها وبقاعها لا مجموع كرة الأرض، ويكون الجبال أوتاداً لها أنَّها حافظة لها عن الميدان والاضطراب بالزلزلة ونحوها، إمَّا لحركة البخارات المحتقنة في داخلها بإذن الله تعالى، أو لغير ذلك من الأسباب التي يعلمها مبدعها ومنشؤها. ويؤيِّده ما سيأتي من خبر ذي القرنين^(٧).

١. النحل/١٥.

٢. النبأ/٧.

٣. تضاريس الأرض: ما برز عليها كالأضراس. (هامش المطبوع)

٤. مفاتيح الغيب، ج ٢٠، ص ١٩٠.

٥. التفتت: التكرَّر، راجع لسان العرب.

٦. غرز الشيء في الشيء: إذا أثبتته فيه، راجع شمس العلوم.

٧. كتاب النبوة، أبواب قصص إبراهيم عليه السلام، باب ٨، قصص ذي القرنين.

وسياًتي تمام القول في ذلك في كتاب السماء والعالم.

قوله عليه السلام: «وكمال معرفته التصديق به» الفرق بينهما إما بحمل المعرفة على الإذعان بثبوت صانع في الجملة، والتصديق على الإذعان بكونه واجب الوجود، أو مع سائر الصفات الكمالية؛ أو بحمل الأول على المعرفة الفطرية، والثاني على الإذعان الحاصل بالدليل؛ أو الأول على المعرفة الناقصة، والثاني على التامة التي وصلت حدّ اليقين. وإنما قال عليه السلام: «وكمال التصديق به توحيده» لأنّ من لم يوحدّه وأثبت له شريكاً فقد حكم بما يستلزم إمكانه، فلم يصدق به بل بممكن غيره^(١). «فمن وصف الله» أي بالصفات الزائدة «فقد قرنه» أي جعل له شيئاً يقارنه دائماً. ومن حكم بذلك «فقد ثناه» أي حكم باثنيّة الواجب، إذ القديم لا يكون ممكناً، ومن حكم بذلك فقد حكم بأنّه ذو أجزاء لتركبه ممّا به الاشتراك وما به الامتياز، أو لأنّ التوصيف بالأوصاف الزائدة الموجودة المتغايرة لا يكون إلاّ بسبب الأجزاء المتغايرة المختلفة، أو لأنّ إله العالم ومبدعه إمّا أن يكون ذاته تعالى فقط مع قطع النظر عن هذه الصفات أو ذاته معها، والأوّل باطل لأنّ الذات الخالية عنها لا تصلح للإلهيّة، وكذا الثاني لأنّ واجب الوجود إذاً يصير عبارة عن كثرة مجتمعة من أمور موجودة فكان مركّباً فكان ممكناً.

١. قوله عليه السلام: «وكمال توحيده الإخلاص له» أي وكمال توحيده جعله مختاراً خالصاً من الدنس، وتنزيهه عن شوائب العجز والنقص، وتقديسه عما يلحق الممكنات ويعرضها من التجسم والتركيب وغيرهما من الصفات السلبية. وأمّا قوله عليه السلام: «وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه» يحتمل أن يكون المراد به نفي المعاني والأحوال. قال ابن ميثم: «وكمال توحيده الإخلاص له» ففيها إشارة إلى أن التوحيد المطلق للعارف إنّما يتم بالإخلاص له وهو الزهد الحقيقي الذي هو عبارة عن تنحية كل ما سوى الحق الأول عن سنن الإيثار، وبيان ذلك أنّه ثبت في علم السلوك أن العارف ما دام يلتفت مع ملاحظة جلال الله وعظمته إلى شيء سواه، فهو بعد واقف دون مقام الوصول، جاعل مع الله غيراً، حتى أن أهل الإخلاص ليعدون ذلك شركاً خفياً، كما قال بعضهم:

من كان في قلبه مشقال خردلة سوى جلالك فاعلم أنّه مرض

أقول: ما قلناه أظهر وأنسب، وسياق الكلام تشهد بذلك. وقال في شرح قوله: نفي الصفات عنه بعد احتمال ما ذكرنا: قلت: قد تقرر في مباحث القوم بيان أن كل ما يوصف به تعالى من الصفات الحقيقية والسلبية والإضافية اعتبارات تحدثها عقولنا عند مقايضة ذاته سبحانه إلى غيرها، ولا يلزم تركيب في ذاته ولا كثرة، فيكون وصفه تعالى بها أمراً معلوماً من الدين ليعم التوحيد والتنزيه كل طبقة من الناس، ولما كانت عقول الخلق على مراتب من التفاوت كان الإخلاص الذي ذكره عليه السلام أقصى ما تنتهي إليه القوى البشريّة عند غرقها في أنوار كبرياء الله، وهو أن تعتبره فقط من غير ملاحظة شيء آخر، وكان إثباته عليه السلام الصفة في موضع آخر وصفه في الكتاب العزيز وسنن النبويّة إشارة إلى الاعتبارات التي ذكرناها، إذ كان من هو دون درجة الإخلاص يمكن أن يعرف الله سبحانه بدونها. انتهى.

وقال صدر المتألهين في شرح قوله عليه السلام: «ذلك»: أراد به نفي الصفات التي وجودها غير وجود الذات، وإلاّ فذاته بذاته مصدّق لجميع النعوت الكمالية والأوصاف الإلهيّة من دون قيام أمر زائد بذاته تعالى فرض أنّه صفة كمالية له، فعلمه وقدرته وإرادته وحياته وسمعه وبصره كلها موجودة بوجود ذاته الأحديّة، مع أنّه مفهوماتها متغايرة ومعانيها متخالفة فإنّ كمال الحقيقة الوجودية في جامعيتها للمعاني الكثيرة الكمالية مع وحدة الوجود. (هامش المطبوع)

قوله عليه السلام: «ومن أشار إليه» أي بالإشارة الحسيّة «فقد حدّه» بالحدود الجسمانيّة أو بالإشارة العقليّة فقد حدّه بالحدود العقلانيّة. «ومن حدّه فقد عدّه» أي جعله ذا عدد وأجزاء؛ وقيل: عدّه من الممكنات ولا يخفى بعده.

قوله عليه السلام: «ولا يستوحش» كأن كلمة «لا» تأكيد للنفي السابق أي ولا سكن يستوحش لفقده^(١)، أو زائدة كما في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ﴾^(٢)؛ ويحتمل كون الجملة حالية.

قوله عليه السلام: «وألزمها أشباحها» الضمير المنصوب في قوله عليه السلام: «ألزمها» إمّا راجع إلى الغرائز أو إلى الأشياء، فعلى الأوّل المراد بالأشباح الأشخاص أي جعل الغرائز والطبائع لازمة لها، وعلى الثاني فالمراد بها إمّا الأشخاص أي ألزم الأشياء بعد كونها كليّة أشخاصها، أو الأرواح إذ يطلق على عالمها في الأخبار عالم الأشباح؛ وفي بعض النسخ: «أسناخها» أي أصولها. قوله عليه السلام: «بقرائنها» أي بما يقتدرن بها. والأحناء جمع حنو وهو الجانب والناحية^(٣).

١٥٩٦. الإحتجاج^(٤): فِي خُطْبَةٍ أُخْرَى لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَوَّلُ عِبَادَةِ اللَّهِ مَعْرِفَتُهُ، وَأَصْلُ مَعْرِفَتِهِ تَوْحِيدُهُ، وَنِظَامُ تَوْحِيدِهِ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ^(٥)، جَلَّ أَنْ تَحُلَّهُ الصِّفَاتُ لِشَهَادَةِ الْعُقُولِ أَنَّ كُلَّ مَنْ حَلَّتْهُ الصِّفَاتُ مَصْنُوعٌ، وَشَهَادَةِ الْعُقُولِ أَنَّهُ جَلَّ جَلَّالُهُ صَانِعٌ لَيْسَ بِمَصْنُوعٍ، فَصَنَعَ اللَّهُ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ، وَبِالْعُقُولِ يُعْقَدُ مَعْرِفَتُهُ، وَبِالْفِكْرِ^(٦) تَثْبُتُ حُجَّتُهُ، جَعَلَ الْخَلْقَ دَلِيلًا عَلَيْهِ فَكَشَفَ بِهِ عَنْ رُبُوبِيَّتِهِ، هُوَ الْوَاحِدُ الْفَرْدُ فِي أَرْبَابِيَّتِهِ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي إِلَهِيَّتِهِ، وَلَا نَدَّ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، بِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ الْمُتَضَادَّةِ عِلْمٌ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ الْمُقْتَرَنَةِ عِلْمٌ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ^(٧).

١٥٩٧. الإحتجاج^(٨): وَقَالَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي خُطْبَةٍ أُخْرَى: دَلِيلُهُ آيَاتُهُ، وَوُجُودُهُ إِبْتِئَاتُهُ، وَمَعْرِفَتُهُ تَوْحِيدُهُ،

١. أراد عليه السلام أنه تعالى متوحد بذاته ومتفرد بوحديته، لأنه انفرد عن مثل له، إذا المتعارف من استعمال لفظة «متوحد» إطلاقها على من كان له من يستأنس بقربه، ويستوحش لبعده. (هامش المطبوع)

٢. الأعراف/١٢.

٣. وكل ما فيه اعوجاج من البدن كالضلع، أو من غير البدن وهو كناية عما خفى، أو من قولهم أحناء الأمور أي مشتبهاتها. والقرائن: ما يقتدرن بها على وجه التركيب أو المجاورة أو العروض أو ما يصدر عنها من الأفعال. وقال ابن أبي الحديد: القرائن: جمع قرونة وهي النفس. (هامش المطبوع)

٤. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ١، ص ٢٠٠؛ الإرشاد (للمفيد)، ج ١، ص ٢٢٣.

٥. في الإرشاد: «نفي التشبيه عنه».

٦. في الإرشاد: «وبالنظر».

٧. **فقول:** والسرّ في ذلك أنه تعالى ليس كمثله شيء ولا يعرضه صفات الممكنات، وهو وجود لا نهاية له من جميع الجهات، فلا ضد له ولا مثل ولا قرين له.

٨. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ١، ص ٢٠١.

وَتَوْحِيدُهُ تَمَيُّزُهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَحُكْمُ التَّمْيِيزِ بَيْنُونَةُ صِفَةٍ لَا يَبْنُونَةُ عَزَلَةٍ، إِنَّهُ رَبُّ خَالِقٍ، غَيْرُ مَرْبُوبٍ مَخْلُوقٍ، مَا تُصَوِّرُ فَهُوَ بِخِلَافِهِ. ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: لَيْسَ بِإِلَهِ مَنْ عَرَفَ بِنَفْسِهِ، هُوَ الدَّلَالُ بِالذَّلِيلِ عَلَيْهِ، وَالْمُؤَدِّي بِالْمَعْرِفَةِ إِلَيْهِ.

إيضاح:

قوله عليه السلام: «وجوده إثباته» لعلّ الوجود مصدر بمعنى الوجدان، يقال: وجده وجوداً ووجداناً، أي أدركه، أي ليس يمكن من وجدان كنه ذاته إلا إثباته؛ ويحتمل أن يكون الحمل على المبالغة أي وجوده ظاهر مستلزم للإثبات.

قوله عليه السلام: «بينونة صفة» أي تميّزه عن الخلق بمباينته لهم في الصفات لا باعتزاله عنهم في المكان. و«المؤدّي» على اسم الفاعل، ويحتمل اسم المفعول.

١٥٩٨. الإحتجاج (١): وَقَالَ عليه السلام فِي خُطْبَةٍ أُخْرَى: لَا يَشْمَلُ بَحْدٌ، وَلَا يُخَسِبُ بَعْدٌ، وَإِنَّمَا تَحْدُ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا، وَتَشِيرُ الْأَلَاتُ إِلَى نَظَائِرِهَا، مَنَعَتْهَا مِنْذُ الْقِدَمَةِ، وَحَمَّتْهَا قَدَ الْأَزَلِيَّةِ، وَجَنَّبَتْهَا لَوْلَا التَّكْمِلَةُ، بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ (٢)، وَبِهَا أَمْتَعَ مِنْ نَظَرِ الْعُيُونِ (٣)، لَا تَجْرِي عَلَيْهِ الْحَرَكَةُ وَالسُّكُونُ، وَكَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ؟ وَيَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ؟ وَيَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَخَذَتْهُ إِذَا لَتَفَاوَتْ ذَاتُهُ، وَلَجَزَّأً (٤) كُنْهَهُ، وَلَا مَمْتَنَعٌ مِنَ الْأَزَلِ مَعْنَاهُ، وَلَكَانَ لَهُ وَرَاءُ إِذَا وَجَدَ لَهُ أَمَامَ، وَلَا لَتَمَسَ التَّمَامَ إِذَا لِمَ التَّقْصَانُ، وَإِذَا لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ، وَلَتَحَوَّلَ دَلِيلًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولًا عَلَيْهِ، وَخَرَجَ بِسُلْطَانِ الْإِمْتِنَاعِ (٥) مِنْ أَنْ يُؤَثَّرَ فِيهِ مَا فِي غَيْرِهِ، الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْأَقُولُ، لَمْ يَلِدْ فَيَكُونُ مَوْلُودًا، وَلَمْ يُولَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُودًا، جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَبْنَاءِ، وَطَهَّرَ عَنِ مُلَامَسَةِ النِّسَاءِ، لَا تَنَالُهُ الْأَوْهَامُ فَتَقْدَّرُهُ، وَلَا تَتَوَهَّمُهُ الْفُطُنُ فَتُصَوَّرُهُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْحَوَاسُّ فَتُحِسَّهُ، وَلَا تَلْمَسُهُ الْأَيْدِي فَتَمَسَّهُ، وَلَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ، وَلَا يَتَبَدَّلُ بِالْأَحْوَالِ، وَلَا تُبْلِيهِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ، وَلَا يَغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَالظُّلَامُ، وَلَا يوصِفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ، وَلَا بِعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ، وَلَا بِالْغَيْرِيَّةِ وَالْأَبْعَاضِ، وَلَا يَقَالُ: لَهُ حَدٌّ وَلَا نِهَايَةٌ، وَلَا انْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةٌ، وَلَا أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فَقِيلَ أَوْ تُهْوِيهِ (٦)، وَلَا أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَحْمِلُهُ فَيَمِيلُهُ أَوْ يُعَدِّلُهُ، لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ بِوَالِحٍ (٧)، وَلَا عَنْهَا بِخَارِجٍ،

١. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ١، ص ٢٠١؛ نهج البلاغة (لصبيح الصالح)، ص ٢٧٣، خطبة ١٨٦؛ أعلام الدين، ص ٥٩.

٢. أي بوجود هذه الآلات ظهر وجوده تعالى للعقول، لاستلزام وجودها لوجود صانعها بالضرورة، وشهادة إحكامها وإتقانها بعلمه وحكمته وإرادته، فيكون ما شهد به وجود هذه الآلات من وجود صانعها أجلى وأوضح من أن يقع فيه شك أو يلحقه شبهة. (هامش المطبوع)

٣. يمكن رجوع الضمير إلى الآلات وإلى العقول. (هامش المطبوع)

٤. في المصدر والتهج والأعلام والطبع الحجري: «ولتجزأ».

٥. أي سلطان العزة الأزليّة الممتنعة عن لوازم الإمكان وسمات الحدوث. وقوله عليه السلام: «وخرج» عطف على قوله عليه السلام: «لا يجري عليه السكون». (هامش المطبوع)

٦. هوي: سقط، راجع لسان العرب.

٧. الولوج: الدخول، راجع لسان العرب.

يُخْبِرُ لَا بِلِسَانٍ وَلَهَوَاتٍ، وَيَسْمَعُ لَا بِخُرُوقٍ وَأَدَوَاتٍ، يَقُولُ وَلَا يَلْفِظُ، وَيَحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظُ، وَيُرِيدُ وَلَا يُضْمِرُ، يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ، وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ، يَقُولُ لِمَا أَرَادَ كَوْنُهُ: كُنْ، فَيَكُونُ، لَا بِصَوْتٍ يَسْقُرُ، وَلَا نِدَاءٍ يُسْمَعُ، وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَلُهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِنًا، وَلَوْ كَانَ قَدِيمًا لَكَانَ إِلَهَا ثَانِيًا، لَا يَقَالُ لَهُ: كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ فَتَجَرِّي عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ، وَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَضْلٌ^(١)، وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ فَيَسْتَوِي الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ، وَيَتَكَافَأُ^(٢) الْمُتَبَدِّعُ وَالْبَدِيعُ، خَلَقَ الْخَلَائِقَ مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ^(٣) خَلَا مِنْ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَأَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اشْتِغَالٍ، وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ، وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمٍ، وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمٍ، وَحَصَّنَهَا مِنَ الْأَوْدِ وَالْإِعْوَاجِ، وَمَنَعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ وَالْإِنْفِرَاجِ، أَرْسَى أَوْتَادَهَا، وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا، وَاسْتَفَاضَ عُيُونَهَا، وَحَدَّ أَوْدِيَّتَهَا، فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ، وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ، وَهُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَالْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ^(٤)، وَالْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلَالِهِ وَعِزَّتِهِ، لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبُهُ، وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيْغْلِبُهُ، وَلَا يَفُوتُهُ السَّرِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقُهُ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيَرْزُقُهُ، خَضَعَتِ الْأَشْيَاءُ لَهُ فَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لَا تَسْتَطِيعُ الْهَرَبُ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَضَرَرِهِ، وَلَا كُفُوٌ لَهُ فَيَكْفِيهِ، وَلَا نَظِيرٌ لَهُ فَيَسَاوِيهِ، هُوَ الْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَقْضُودِهَا، وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ابْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَاخْتِرَاعِهَا، كَيْفَ وَلَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَسَائِمِهَا وَأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدَةِ أُمَمِهَا وَأَكْيَاسِهَا عَلَى إِحْدَاثِ بَعْضَةٍ مَا قَدَرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا، وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى إِيجَادِهَا، وَلَتَحَيَّرَتْ عَقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ^(٥) وَعَجَزَتْ قُوَاهَا، وَتَنَاهَتْ^(٦) وَرَجَعَتْ حَاسِئَةً حَسِيرَةً عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقَرَّةٌ بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا، مُدْعِنَةٌ بِالضَّعْفِ عَنْ إِنْفَائِهَا، وَإِنَّهُ يَعُودُ سُبْحَانَهُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحُدَّةِ لَا شَيْءَ مَعَهُ كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ وَلَا حِينٍ وَلَا زَمَانٍ، عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الْآجَالُ وَالْأَوْقَاتُ، وَزَالَتِ السُّنُونُ وَالسَّاعَاتُ، فَلَا شَيْءَ إِلَّا الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الْأُمُورِ، بِلَا قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وَبِغَيْرِ امْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا، وَلَوْ قَدَرَتْ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا، لَمْ يَتَكَأَدْهُ صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ، وَلَمْ يُوَدِّهِ مِنْهَا خَلْقٌ مَا بَرَّاهُ وَخَلَقَهُ، وَلَمْ يَكُونْهَا لِتَشْدِيدِ

١. عطف على قوله: فتجري. (هامش المطبوع)

٢. تكافأ الشيطان: تماثلا، راجع لسان العرب.

٣. وفي نسخة: على غير مثال. (هامش المطبوع)

٤. قيد الظهور بالسلطان والعظمة احترازا من الظهور الحسي الإمكانى، وكذا البطون بالعلم والمعرفة تنزيها عن خفائه كذلك. (هامش المطبوع)

٥. تاه: إذا تحير وضل، راجع النهاية.

٦. تناهى الشيء: بلغ نهايته، راجع لسان العرب.

سُلْطَانٍ، وَلَا لِحَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَتُقْصَانٍ، وَلَا لِلاِسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نِدِّ مُكَاثِرٍ، وَلَا لِلاِخْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدِّ مُشَاوِرٍ^(١)، وَلَا لِلْإِزْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ، وَلَا لِمُكَاثَرَةِ شَرِيكِ فِي شَرِكِهِ، وَلَا لَوْحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا، ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا لَا لِسَامٍ^(٢) دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَضْرِيْفِهَا وَتَذْيِيرِهَا، وَلَا لِرَاحَةِ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ، وَلَا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ، لَا يُمِلُّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا، لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وَأَتَقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلَا لِانْصِرَافٍ مِنْ حَالٍ وَحْشَةٍ إِلَى حَالٍ اسْتَيْنَاسٍ، وَلَا مِنْ حَالٍ جَهْلٍ وَعَمَى إِلَى حَالٍ عِلْمٍ وَاتِّمَاسٍ، وَلَا مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إِلَى غِنَى وَكَثْرَةٍ، وَلَا مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ^(٣) إِلَى عِزٍّ وَقُدْرَةٍ.

تيان:

«لا يشمل بحدٍّ» أي بالحدود والنهايات الجسمانية، أو بالحدّ العقلي المركّب من الجنس والفصل. «ولا يحسب بعدٍّ» أي بالأجزاء والصفات الزائدة المعدودة، وقال ابن أبي الحديد: يحتمل أن يريد لا يحسب أزيلته بعدّ أي لا يقال له: منذ وجد كذا وكذا كما يقال للأشياء المتقدّمة العهد؛ ويحتمل أن يريد به أنّه ليس بمماثل للأشياء فيدخل تحت العدد كما تعدّ الجواهر وكما تعدّ الأمور المحسوسة^(٤).

أقول: وقد مرّ تفسير كثير من الفقرات.

قوله **عَلَيْهَا**: «إذا وجد له أمام» أي لو جرت عليه الحركة لكان له أمام يتحرّك إليه، وحينئذ يستلزم أن يكون له وراء لأنّهما إضافتان لا تنفك إحداهما عن الأخرى وذلك محال لأنّ كلّ ذي وجهين فهو منقسم، وكلّ منقسم ممكن؛ ويحتمل أن يكونا كنايةتين عمّا بالقوّة وما بالفعل، ليشمل سائر أنواع الحركة كما أوّمانا إليه سابقاً. قوله **عَلَيْهَا**: «ولا لتمس التمام» أي الحركة إنّما تكون لتحصيل أمر بالقوّة فمع عدمه ناقص، والناقص عليه محال.

قوله **عَلَيْهَا**: «وخرج بسلطان الامتناع» قيل: هو معطوف على «كان مدلولاً عليه»، وسلطان الامتناع: وجوب الوجود والتجرّد وكونه ليس بمتحرّز ولا حال في المتحرّز؛ وقيل: هو معطوف على قوله **عَلَيْهَا**: «بها امتنع عن نظر العيون» يعني بها امتنع عن نظر العيون وخرج بسلطان ذلك الامتناع أي امتناع أن يكون مثلها في كونها مرئية للعيون عن أن يؤثر فيه ما يؤثر في غيره من المراتيات، وهي الأجسام والجسمانيّات؛ وقيل: إنّهُ معطوف على قوله **عَلَيْهَا**: «بها تجلّى» أي بها تجلّى للعقول وخرج بسلطان امتناع كونه مثلاً لها أي بكونه واجب الوجود ممتنع العدم عن أن يكون ممكناً فيقبل أثراً كما يقبل الممكنات.

١. في المصدر: «مساور»، وفي النهج والأعلام: «مثارور»، فبناء على ما فسّره العلامة في البيان، كلاهما صحيحان.

٢. السّامة: المَلَل والضجر، راجع لسان العرب.

٣. الضعة: الذلّ والهوان والدنائة، راجع لسان العرب.

٤. شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد)، ج ١٣، ص ٧٥.

أقول:

الأظهر عطفه على قوله عليه السلام: «لا يجري عليه الحركة والسكون» لكون ما بعدها من الفقرات دليلاً عليها ومن توابعها، وسلطان الامتناع وجوب الوجود المقتضي للامتناع عن الاشتراك مع الممكنات، وأمّا العطف على الفقرات السابقة مع تخلّل الفقرات الأجنبية فلا يخفى بعده.

قوله عليه السلام: «لا يحول» أي لا يتغيّر، وقال الفيروزآبادي: كلّ ما تحرّك أو تغيّر من الاستواء إلى العوج فقد حال، و«الأفول»: الغيبة. قوله عليه السلام: «فيكون مولوداً» أي من جنسه ونوعه، لأنّ الوالد والولد يتشاركان في النوع والصنف والعوارض فيكون جسماً مركّباً محتاجاً؛ ويحتمل أن يكون المراد بالمولود المخلوق أي فيكون مخلوقاً.

وقال ابن أبي الحديد: المراد: أنّه يلزم من فرض صحّة كونه والدّاً صحّة كونه مولوداً على التفسير المفهوم من الوالديّة وهو أن يتصوّر من بعض أجزائه حيّ آخر من نوعه على سبيل الاستحالة لذلك الجزء كما في النطفة فصحّ أن يكون مولوداً من والد آخر لأنّ الأجسام متماثلة في الجسميّة وقد ثبت ذلك في موضعه، وأمّا أنّه لا يصحّ كونه مولوداً فلأنّ كلّ مولود متأخّر عن والده بالزمان فيكون محدثاً^(١).

وقال ابن ميثم: يمكن أن يكون خطابياً غايته الإقناع، ويمكن أن يكون المراد بالوالديّة والمولوديّة ما هو أعمّ من المعنى المشهور فإنّ الملازمة على المعنى المشهور غير واجب كما في أصول الحيوان الحادثة، وحينئذ فبيانها أنّ مفهوم الولد هو الذي يتولّد وينفصل عن آخر مثله من نوعه لكنّ أشخاص النوع الواحد لا تتعيّن إلاّ بواسطة المادّة وعلائقها كما علم في مظانّه من الحكمة، وكلّ ما كان مادّياً فهو متولّد عن مادّته وصورته وأسباب وجوده وتركيبه، ولو كان مولوداً بذلك المعنى لكان منتهياً إلى حدوده وهي أجزاؤه التي تقف عندها وتنتهي في التحليل إليها، ولكان محاطاً ومحدوداً بالمحلّ الذي تولّد منه^(٢). انتهى.

قوله عليه السلام: «فتقدّره» أي بمقدار وشكل وكيف. والفطنة: سرعة الفهم. قوله عليه السلام: «فتصوّره» أي بصورة خياليّة أو عقليّة. قوله عليه السلام: «فتحسّسه» أي تدركه بنحو الإحساس الموقوف على مباشرة ووضع خاصّ رداً على من زعم أنّه يمكن أن يدرك بالحواسّ بدون مقارنة ومحاذاة؛ كذا ينبغي أن يفهم لا كما ذكره الفاضل البحرانيّ حيث قال: أي لو أدركته الحواسّ لصدق أنّها أحسّته أي لصدق هذا الاسم فيلزم أن يصدق عليه تعالى كونه محسوساً، وإنّما ألزم عليه السلام ذلك لكون الإحساس أشهر وأبين في استحالته على الله سبحانه؛ وقال في الفقرة التالية: أي لو صدق أنّها تلمسه لصدق أنّها تمسّه، وهو ظاهر إذ كان المسّ أعمّ من اللمس، وكلاهما

١. شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد)، ج ١٣، ص ٨١.

٢. شرح نهج البلاغة (لابن ميثم)، ج ٤، ص ١٦٣.

ممتنعان عليه لاستلزامهما الجسميّة^(١). انتهى.

أقول:

في الأعميّة نظر، والأظهر أن يقال - على نحو ما سبق -: إنّ المراد باللمس الإحساس بحاسّة اللمس، وبالمسّ: المماسّة والمقارنة المخصوصة.

قوله عليه السلام: «بحال» أي أبداً أو بسبب حدوث حال. قوله عليه السلام: «بالغيريّة والأبعاض» أي ليس له أبعاض يغاير بعضها بعضاً؛ والنهاية تأكيد للحدّ كما أنّ الغاية تأكيد للانقطاع؛ أو المراد بالحدّ: الحدود العارضة، وبالنهاية: نهاية المكان الذي هو تعالى فيه، وبالنقطة: ما هو من جانب الأزل، وبالغاية: ما هو من جانب الأبد؛ أو يقال: المراد بالنقطة: انقطاع وجوده، وبالغاية: الزمان الذي ينقطع فيه فيكون كالتأكيد له.

قوله عليه السلام: «فتقلّه» بالنصب بإضمار «أن» في جواب النفي، أو بالرفع على العطف أي ليس بذي مكان يحويه فيرتفع بارتفاعه، وينخفض بانخفاضه، وكذا ليس محمولاً على شيء فيميله إلى جانب أو يعدله على ظهره من غير ميل. قوله عليه السلام: «ولا عنها بخارج» خروجاً مكاتياً بأن يكون في مكان آخر سوى أمكنتها، أو ليس عنها بخارج علماً وقدرة وتربية. واللهوات: هي اللحامات في سقف أقصى الفم.

قوله عليه السلام: «ولا يلفظ» يدلّ على أنّ التلقّظ صريح في إخراج الحروف من آلة النطق بخلاف القول والكلام. قوله عليه السلام: «يحفظ» أي يعلم الأشياء ويحصيها. و«لا يتحفّظ» أي لا يتكلّف ذلك كالواحد ممّا يتحفّظ الدرس ليحفظه؛ ويحتمل أن يكون المراد بالتحفّظ الانتقاش في الحافظة؛ وقيل: أي يحفظ العباد ويحرسهم، ولا يحرز ولا يشفق على نفسه خوفاً من أن يبدره بادرة، ولا يخفى بعده عن السياق. قوله عليه السلام: «من غير مشقّة» أي البغض والغضب في المخلوق يستلزمان ثوران^(٢) دم القلب واضطرابه وانزعاجه، وكلّ ذلك مشقّة والله منزّه عنها.

وقوله عليه السلام: «يقول لما أراد» لعلّ غرضه بيان معنى الآية وأنّه ليس مراده تعالى التكلّم الحقيقيّ بأن يكون له صوت يقرع الأسماع، ونداء يسمعه الآذان، بل ليس له إلّا تعلّق إرادته تعالى، وإنّما هذا الكلام الذي عبّر عن الإرادة به فعله تعالى وخلق الأشياء وتمثيلها وتصويرها، وليست الإرادة قديمة وإلّا لكان إلهاً ثانياً فيكون موافقاً للأخبار الدالة على حدوث الإرادة، وقد مرّ شرحها؛ ويحتمل أن يكون «إنّما كلامه» إشارة إلى الكلام الحقيقيّ، وبياناً لكيفيّة صدوره وكونه حادثاً لا قديماً. وقال ابن ميثم: «لا بصوت يقرع» أي ليس بذي حاسّة للسمع فيقرعها الصوت، «ولا نداء يسمع» أي لا يخرج منه الصوت. وقوله عليه السلام: «أنشأه» أي أوجده

١. شرح نهج البلاغة (لابن ميثم)، ج ٤، ص ١٦٥.

٢. الثّوران: الهيجان، راجع مجمع البحرين.

في لسان النبي ﷺ. و«مثله» أي سوى مثاله في ذهنه؛ وقيل: المعنى مثله لجبرئيل عليه السلام في اللوح^(١).

أقول:

على التقادير يدل على أن القدم ينافي الإمكان، وأن القول يقدم العالم شرك. قوله عليه السلام: «الصفات المحدثات» في أكثر نسخ الإحتجاج والنهج الصفات معرفة باللام، وفي بعضها بدونها، وهو أظهر ليعود الضمير في قوله عليه السلام: «بينها» إلى ذوات المحدثات لا صفاتها، وعلى التقدير الآخر يمكن أن يرتكب فيه شبه استخدام. قوله عليه السلام: «خلا من غيره» أي مضى وسبق، والمعنى: أنه لم يحتد في صنعته حذو غيره كالواحد منا. قوله عليه السلام: «من غير اشتغال» أي بامساكها عن غيره من الأمور. قوله عليه السلام: «وأرساها» أي أثبتها على غير قرار أي مقرّ يتمكّن عليه، بل قامت بأمره. و«الاعوجاج»: عطف تفسيري للأود بالتحريك. و«التهافت»: التساقط قطعة قطعة؛ والأسداد إمّا جمع السدّ بمعنى الجبل، أو بمعنى الحاجز أي التي تحجز بين بقاعها وبلادها، والسدّ بالضم أيضاً السحاب الأسود. و«استفاض» بمعنى أفاض. و«خد» أي شق. والاستكانة: الخضوع. قوله عليه السلام: «من نفعه» أي أنفة واستغناء بالغير، ويمكن أن يكون ذكره على الاستطراد والاستتباع. قوله عليه السلام: «فيكافئه» أي يساويه في وجوب الوجود وسائر الكمالات، أو يقابله ويفعل مثل فعله ويعارضه.

قوله عليه السلام: «من مراحتها» قال ابن أبي الحديد: المراح بالضمّ النعم تردّ إلى المراح بالضمّ أيضاً، وهو الموضع الذي تأوي إليه النعم، وليس المراح ضدّ السائم على ما يظنّه بعضهم، ويقول: إنّه من عطف المختلف أو المتضادّ، بل أحدهما هو الآخر، وضدّهما المعلوفة، ومثل هذا العطف كثير^(٢). انتهى.

أقول:

كونه من قبيل عطف الضدّين ليس ببعيد، إمّا باعتبار الوصفين والحالتين أو بأن يكون المراد بسائهما ما لا ترجع إلى مراح. و«أسناخها»: أصولها^(٣)؛ وفي بعض النسخ: «أشباحها» أي أشخاصها؛ و«المتبلدة»: ذو البلادة، ضدّ الأكياس. و«الخاصي»: الذليل الصاغر. و«الحسير»: الكال المعبي.

قوله عليه السلام: «عن إفنائها» أي إعدامها بالمرّة، وقال ابن ميثم: فإن قلت: كيف تقرّ العقول بالعجز عن إفناء البعوضة مع سهولته؟ قلت: العبد إذا نظر إلى نفسه وجدها عاجزة عن كلّ شيء إلا بإقدار إلهي، وأنّه ليس له إلا الإعداد، لحدوث ما ينسب إليه من الآثار، وأيضاً فإنّ الله سبحانه كما أقدر العبد كذلك أقدر البعوضة على

١. شرح نهج البلاغة (لابن ميثم)، ج ٤، ص ١٧٢.

٢. شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد)، ج ١٣، ص ٨٩.

٣. والمراد منها الأنواع، أي أصناف الداخلة في أنواعها. (هامش المطبوع)

الهرب والامتناع بالطيران وغيره بل على أن تؤذيه ولا يتمكن من دفعها عن نفسه. انتهى^(١).
ثم إن كلامه عليه السلام: يدل على أنه تعالى يفني جميع الأشياء حتى النفوس والأرواح والملائكة، وسيأتي القول فيه في كتاب العدل والمعاد.
قوله عليه السلام: «لم يتكأده» بالمد أي لم يشق عليه، ويجوز يتكأده بالتشديد والهمزة؛ «ولم يؤذه» أي لم ينقله. و«الند»: المثل والنظير. و«المكاثرة»: المغالبة بالكثرة. و«المشاورة»^(٢): المواثبة.

١٥٩٩. الإحتجاج^(٣): وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ، وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ، وَلَا تَرَاهُ النَّوَاطِرُ، وَلَا تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، الدَّالُّ عَلَى قِدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ، وَبِحُدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى وُجُودِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ، الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ، وَارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ، وَعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ، مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَرْبَعِيَّتِهِ، وَبِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْرِ عَلَى قُدْرَتِهِ، وَبِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ، وَاحِدٌ لَا يَعْزُبُ وَدَائِمٌ لَا يَأْمَدُ، وَقَائِمٌ لَا يَعْمَدُ، تَتَلَقَّاهُ الْأَذْهَانُ لَا بِمُشَاعَرَةٍ، وَتَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي لَا بِمُحَاضَرَةٍ، لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهَامُ بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا، وَبِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا حَاكَمَهَا، لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ امْتَدَّتْ بِهِ النِّهَايَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيمًا، وَلَا بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيدًا، بَلْ كَبُرَ شَأْنًا وَعَظُمَ سُلْطَانًا.

إيضاح:

«الشواهد»: الحواس من قولهم: شهد فلان كذا: إذا حضره، أو لأنها تشهد على ما تدركه وتثبتته عند العقل.
و«المشاهد»: المجالس. قوله عليه السلام: «لا بمشاعرة» أي لا من طريق المشاعر والحواس. و«المرائي»: جمع مرآة بفتح الميم من قولهم: هو حسن في مرآة عيني، يعني أن الرؤية تشهد بوجوده تعالى من غير محاضرة منه للحواس؛ ويحتمل أن يكون جمع مرئي أي المرئيات تشهد بوجوده وصفاته الكمالية، من غير أن يكون حاضراً عندها محسوساً معها.

قوله عليه السلام: «لم تحط به الأوهام» قيل: الأوهام هاهنا هي العقول أي أنه سبحانه لم تحط به العقول ولم تتصور كنه ذاته، ولكنه تجلّى للعقول بالعقول، وتجليه هاهنا هو كشف ما يمكن أن تصل إليه العقول من صفاته الإضافية والسلبية وما يمكن الوصول إليه من أسرار مخلوقاته. وقوله عليه السلام: «وبالعقول امتنع من العقول»^(٤) أي بالعقول وبالنظر علمنا أنه تعالى يمتنع أن تدركه العقول. وقوله عليه السلام: «وإلى العقول حاكم

١. شرح نهج البلاغة (لابن ميثم)، ج ٤، ص ١٧٨.

٢. مر الكلام فيها.

٣. الإحتجاج (للطبرسي)، ج ١، ص ٢٠٤؛ نهج البلاغة (الصبحي الصالح)، ص ٢٦٩، خطبة ١٨٥؛ أعلام الدين، ص ٧٦؛ قد ورد في هذه المصادر صدر خطبة.

٤. هذه العبارة تفسير لقوله عليه السلام: «وبها امتنع منها».

العقول»^(١) أي جعل العقول المدّعية أنّها أحاطت به وأدركته كالخصم له سبحانه، ثمّ حاكمها إلى العقول السليمة الصحيحة فحكمت له سبحانه على العقول بأنّها ليست أهلاً لذلك^(٢).

وقيل: الأوهام بمعناها، ولما كانت اعتبارها لأحوال أنفسها من وجوداتها والتغيّرات اللاحقة لها شاهدة لحاجتها إلى موجد ومقيم ومساعدة للعقول على ذلك و كان إدراكها لذلك في أنفسها على وجه جزئيّ مخالف لإدراك العقول فكانت مشاهدة له بحسب ما طبعت عليه وبقدر إمكانها، وهو متجلّ لها كذلك. و«الباء» في «بها» للسببيّة إذ وجودها هو السبب المادّي في تجلّيها؛ ويحتمل أن تكون بمعنى «في» أي تجلّى لها في وجودها. و«بل» للإضراب عن الإحاطة به^(٣).

وقوله عليه السلام: «وبها امتنع منها» أي لما خلقت قاصرة عن إدراك المعاني الكلّيّة وعن التعلّق بالمجرّدات كانت بذلك مبدأً لامتناعه عن إدراكها له، وإن كانت لذلك الامتناع أسباب أخرى؛ ويحتمل أن يكون المراد أنّه تعالى باعترافها امتنع منها لأنّها عند طلبها لمعرفته تعالى بالكنه اعترفت بالعجز عن إدراكها له. قوله عليه السلام: «وإليها حاكمها» أي جعلها حكماً بينها وبينه عند رجوعها من طلبه خاصّة حسيرة معترفة بأنّه لا ينال كنه معرفته، وإسناد المحاكمة إليها مجاز.

وقيل: يحتمل أن يكون أحد الضميرين في كلّ من الفقرات الثلاث راجعاً إلى الأوهام، والآخر إلى الأذهان، فيكون المعنى أنّ بالأوهام وخلقه تعالى لها وإحكامها أو بإدراك الأوهام آثار صنعته وحكمته تجلّى للعقول، وبالعقول وحكمها بأنّه تعالى لا يدرك بالأوهام امتنع من الأوهام، وإلى العقول حاكم الأوهام لو ادّعت معرفته حتّى تحكم العقول بعجزها عن إدراك جلاله. ويؤيّد ما مرّ في الخطبة الكبيرة من بعض الفقرات على بعض الوجوه.

أقول:

ويحتمل أن يكون الأوهام أعمّ منها ومن العقول، وهذا الإطلاق شائع، فالمراد: تجلّى الله لبعض الأوهام أي العقول ببعض الحواسّ، وهكذا على سياق ما مرّ. قوله عليه السلام: «النهايات» أي السطوح المحيطة به. ١٦٠٠. عيون أخبار الرضا عليه السلام^(٤): وَجَدْتُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ نُسْخَةَ كِتَابِ الْحَبَاءِ وَالشَّرْطِ مِنَ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْعَمَالِ فِي شَأْنِ الْفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ وَأَخِيهِ، وَلَمْ أَرَوْ ذَٰلِكَ عَنْ أَحَدٍ أَمَّا بَعْدُ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْبَدِيِّ^(٥) الْبَدِيعِ الْقَادِرِ الْقَاهِرِ، الرَّقِيبِ

١. هذه العبارة تفسير لقوله عليه السلام: «وإليها حاكمها».

٢. شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد)، ج ١٣، ص ٤٩.

٣. شرح نهج البلاغة (لابن ميثم)، ج ٤، ص ١٢٥.

٤. قد ورد في عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ١٥٤، ح ٢٣، صدر رواية.

٥. البديء: الأول، راجع لسان العرب.

عَلَى عِبَادِهِ، الْمُقَيَّتِ^(١) عَلَى خَلْقِهِ، الَّذِي خَضَعَ كُلُّ شَيْءٍ لِمَلَكَّتِهِ، وَذَلَّ كُلُّ شَيْءٍ لِعِزَّتِهِ، وَاسْتَسْلَمَ كُلُّ شَيْءٍ لِقُدْرَتِهِ، وَتَوَاضَعَ كُلُّ شَيْءٍ لِسُلْطَانِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَأَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ، وَأَخَصَى عَدَدَهُ، فَلَا يُوَدُّهُ كَبِيرٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ^(٢) صَغِيرٌ، الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ أَبْصَارُ النَّاطِرِينَ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ صِفَةُ الْوَاصِفِينَ، لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ وَالْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ.

بيان:

«المثل» بالتحريك: الحجة أو الصفة وما يتمثل به و يضرب من الأمثال أي له تعالى الحجة الأعلى والصفة العليا، وهي الوجوب الذاتي، والغنى المطلق، والنزاهة عن صفات المخلوقين، أو الأمثال الحسنة التي يضربها لفهام الخلق، ولا ينافي ذلك النهي عن ضرب الأمثال لغيره تعالى في قوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾^(٣) لأن عقولهم قاصرة عن ذكر ما يناسب علو ذاته تعالى؛ على أنه يحتمل أن يكون المراد بالأمثال الأشباه.

١٦٠١. علل الشرائع^(٤): مَا جِيلَوْنِي، عَنْ مُحَمَّدٍ الْعَطَّارِ، عَنْ سَهْلٍ^(٥)، عَنِ ابْنِ بَرِيعٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: جِئْتُ إِلَى الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْأَلُهُ عَنِ التَّوْحِيدِ فَأَمْلَى عَلَيَّ: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ الْأَشْيَاءِ إِنْشَاءً، وَمُبْتَدِعِهَا ابْتِدَاءً بِقُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ، لَا مِنْ شَيْءٍ فَيَبْتَطِلُ الْإِخْتِرَاعُ، وَلَا لِعِلَّةٍ فَلَا يَصِحُّ الْإِبْتِدَاعُ، خَلَقَ مَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ، مُتَوَحِّدًا بِذَلِكَ لِإِظْهَارِ حِكْمَتِهِ وَحَقِيقَةِ رُبُوبِيَّتِهِ تَضْيِطُهُ الْعُقُولُ، وَلَا تَبْلُغُهُ الْأَوْهَامُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ مَقْدَارٌ، عَجَزَتْ دُونَهُ الْعِبَارَةُ، وَكَلَّتْ^(٦) دُونَهُ الْأَبْصَارُ، وَضَلَّ فِيهِ تَصَارِيفُ الصِّفَاتِ، اخْتَجَبَ بِغَيْرِ حِجَابٍ مَحْجُوبٌ، وَاسْتَسَرَّ بِغَيْرِ سِتْرٍ مَسْتُورٌ، عُرِفَ بِغَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَوُصِفَ بِغَيْرِ صُورَةٍ، وَنُعِتَ بِغَيْرِ جِسْمٍ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ.

١٦٠٢. معاني الأخبار^(٧): حَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عِيسَى بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عِيسَى بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَهْبَاطٍ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ زِيَادِ الْقَطَّانِ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ عِيسَى بْنِ جَعْفَرٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عُمَرَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَنْ آبَائِهِ، عَنْ عُمَرَ بْنِ عَلِيٍّ، عَنْ أَبِيهِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: التَّوْحِيدُ ظَاهِرُهُ فِي بَاطِنِهِ،

١. المقيت: هو الذي يعطي أقوات الخلائق، من أسماء الله تعالى، راجع لسان العرب.

٢. لا يعزب عنه: لا يغيب عن علمه شيء، راجع لسان العرب.

٣. النحل/٧٤.

٤. علل الشرائع، ج ١، ص ٩، ح ٣؛ الكافي، ج ١، باب النهي عن الجسم والصورة، ص ١٠٥، ح ٣؛ التوحيد (للصدوق)، ص ٩٨، ح ٥.

٥. في الكافي: «محمد بن الحسن، عن سهل، ...»، وفي التوحيد: «ابن الوليد، عن الصفار، عن سهل، ...».

٦. كل: تعب وأعياء (عجز)، راجع المصباح المنير.

٧. معاني الأخبار، ص ١٠، ح ١؛ متشابه القرآن ومختلفه (لابن شهر آشوب)، ج ١، ص ١٠٥؛ شرح أصول الكافي (للصدرا)، ج ٣، ص ٤١٠.

وَبَاطِنُهُ فِي ظَاهِرِهِ، ظَاهِرُهُ مَوْصُوفٌ لَا يُرَى، وَبَاطِنُهُ مَوْجُودٌ لَا يَخْفَى، يُطْلَبُ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَلَمْ يَخْلُ عَنْهُ مَكَانٌ طُرْفَةً عَيْنٍ، حَاضِرٌ غَيْرٌ مَحْدُودٍ، غَائِبٌ غَيْرٌ مَفْقُودٍ^(١).

بيان:

لعلّ المراد به أنّ كلّ ما يتعلّق بالتوحيد من وجود البارئ تعالى وصفاته ظاهره مقرون بباطنه أي كلّ ما كان ظاهراً منه بوجه فهو باطن ومخفي بوجه آخر، وكذا العكس. ثمّ بيّن صلى الله عليه وآله ذلك بأنّ ظاهره أنّه موصوف بالوجود وسائر الكمالات بما أظهر من الآثار في الممكنات، ولكنّه لا يرى فهو باطن عن الحواس، وباطنه أنّه موجود خاصّ لا كالموجودات، ولكنّه لا يخفى من حيث الآثار، ويمكن أن يقال: فسر صلى الله عليه وآله كلاهما بما يناسب ضده لبيان تلازمهما؛ ويحتمل أيضاً أن يكون المراد بالظاهر مجمل التوحيد، أو ما يكتفي به العوام، وبالباطن مفصله، أو ما يجب أن يعرفه الخواصّ، فالمقصود بقوله: ظاهره في باطنه أنّ كلاهما لا ينافي الآخر، وإنّما الفرق بينهما بالإجمال والتفصيل، وما ذكر بعد قوله صلى الله عليه وآله: «وباطنه» إلى آخر الخبر، تفسير لباطن التوحيد، وعلى الأولين قوله صلى الله عليه وآله: «يطلب» إلى آخره، توضيح لما ادّعى أولاً من التلازم والله يعلم.

١٦٠٣. التوحيد، معاني الأخبار^(٢): مُحْتَمِلُ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ عَزِيزِ السَّمَرَقَنْدِيِّ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ الزَّاهِدِ السَّمَرَقَنْدِيِّ^(٣) بِإِسْنَادٍ رَفَعَهُ إِلَى الصَّادِقِ عليه السلام أَنَّهُ سَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ: إِنَّ أَسَاسَ الدِّينِ التَّوْحِيدَ وَالْعَدْلَ، وَعِلْمُهُ كَثِيرٌ، وَلَا بَدَّ لِعَاقِلٍ مِنْهُ، فَأَذْكُرُ مَا يَسْهُلُ الْوُقُوفُ عَلَيْهِ، وَيَنْهَيَا حِفْظَهُ، فَقَالَ: أَمَّا التَّوْحِيدُ فَأَنْ لَا تُجَوِّزَ عَلَى رَبِّكَ مَا جَازَ عَلَيْكَ، وَأَمَّا الْعَدْلُ فَأَنْ لَا تَنْسُبَ إِلَى خَالِقِكَ مَا لَمْ يَكَمْ عَلَيْهِ.

١٦٠٤. التوحيد^(٤): أَبِي، عَنْ سَعْدٍ، عَنْ الْبَرْقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَحْمَدَ بْنِ النَّضْرِ وَغَيْرِهِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ ثَابِتٍ، عَنْ رَجُلٍ سَمَّاهُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ السَّبِيْعِيِّ، عَنْ الْحَارِثِ الْأَعْوَرِ قَالَ: خَطَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام يَوْمَاً خُطْبَةً بَعْدَ الْعَصْرِ، فَعَجَبَ النَّاسُ مِنْ حُسْنِ صِفَتِهِ وَمَا ذَكَرَ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ. قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: فَقُلْتُ لِلْحَارِثِ: أَوْ مَا حَفِظْتَهَا؟ قَالَ: قَدْ كَتَبْتُهَا، فَأَمْلَاهَا عَلَيْنَا مِنْ كِتَابِهِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، لِأَنَّهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي شَأْنٍ، مِنْ إِحْدَاثٍ بَدِيعٍ لَمْ يَكُنْ، الَّذِي لَمْ يُولَدْ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارِكاً، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثاً هَالِكاً^(٥)، وَلَمْ تَفْعَ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ فَتَقْدِرُهُ شَيْحاً مَائِلاً، وَلَمْ تُدْرِكْهُ الْأَبْصَارُ فَيَكُونَ بَعْدَ انْتِقَالِهَا حَائِلاً، الَّذِي لَيْسَتْ لَهُ فِي أَوَّلِيَّتِهِ نَهَايَةٌ، وَلَا فِي آخِرِيَّتِهِ حَدٌّ وَلَا غَايَةٌ، الَّذِي لَمْ يَسْبِقْهُ وَقْتُ، وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ زَمَانٌ، وَلَمْ يَتَعَاوَزْهُ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ، وَلَمْ يُوصَفْ بِأَيِّ

١. في المتشابه: «... باطنه موجود لا يخفى، لا تخلو منه مكان ولا يخفى عليه شيء ظاهراً غير محدود وباطن غير مفقود».

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٩٦، ح ١؛ معاني الأخبار، ص ١١، ح ٢؛ مشكاة الأنوار، ص ٩.

٣. في التوحيد: «أبو أحمد محمد بن محمد الزاهد السمرقندي».

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ٣١، ح ١؛ الكافي، ج ١، باب جوامع التوحيد، ص ١٤١، ح ٧.

٥. في الكافي: «لم يلد فيكون في العزّ مشاركا، ولم يولد فيكون موروثاً هالكا».

وَلَا بِمَا^(١) الَّذِي بَطَنَ مِنْ حَقَائِقِ الْأُمُورِ، وَظَهَرَ فِي الْعُقُولِ بِمَا يُرَى فِي خَلْقِهِ مِنْ عِلَامَاتِ التَّدْبِيرِ، الَّذِي سَأَلَتِ الْأَنْبِيَاءُ عَنْهُ فَلَمْ تَصِفْهُ بِحَدٍّ وَلَا بِبَعْضٍ^(٢)، بَلْ وَصَفَتْهُ بِأَفْعَالِهِ، وَدَكَّتْ عَلَيْهِ بَيَاتِهِ، لَا تَسْتَطِيعُ عُقُولُ الْمُتَفَكِّرِينَ جَحْدَهُ، لِأَنَّ مَنْ كَانَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ فِطْرَتُهُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ هُوَ الصَّانِعُ لَهُنَّ فَلَا مَدْفَعَ لِقُدْرَتِهِ، الَّذِي بَانَ^(٣) مِنَ الْخَلْقِ فَلَا شَيْءَ كَمِثْلِهِ، الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ، أَقْدَرَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِ بِمَا جَعَلَ فِيهِمْ، وَقَطَعَ عِزَّهُمْ بِالْحُجَجِ، فَعَنَ بَيِّنَتِهِ هَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَعَنَ بَيِّنَتِهِ نَجَا مَنْ نَجَا، وَلِلَّهِ الْفَضْلُ مُبْدِئاً وَمُعِيداً، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ - وَلَهُ الْحَمْدُ - افْتَتَحَ الْكِتَابَ بِالْحَمْدِ لِنَفْسِهِ، وَخَتَمَ أَمْرَ الدُّنْيَا وَمَجِيءَ الْآخِرَةِ^(٤) بِالْحَمْدِ لِنَفْسِهِ فَقَالَ: ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٥).

الْحَمْدُ لِلَّهِ اللَّاسِ الْكِبَرِيَاءِ بِمَا تَجَسَّدَ، وَالْمُرْتَدِي بِالْجَلَالِ بِمَا تَنَبَّهَ، وَالْمُسْتَوِي عَلَى الْعَرْشِ بِمَا زَوَالَ، وَالْمُتَعَالِي عَنِ الْخَلْقِ بِمَا تَبَاعَدَ، الْقَرِيبَ مِنْهُمْ بِمَا مَلَأَ مَسَاحَتَهُ مِنْهُمْ، وَلَيْسَ لَهُ حَدٌّ يُنْتَهَى إِلَى حَدِّهِ، وَلَا لَهُ مِثْلٌ فَيُعْرِفُ بِمِثْلِهِ، ذَلِكَ مَنْ تَجَبَّرَ عَنْهُ، وَصَغُرَ مَنْ تَكَبَّرَ دُونَهُ، وَتَوَاضَعَتِ الْأَشْيَاءُ لِعَظَمَتِهِ، وَانْقَادَتِ لِسُلْطَانِهِ وَعِزَّتِهِ، وَكَلَّتْ عَنْ إِدْرَاكِهِ طُرُوفُ الْعُيُونِ، وَقَصُرَتْ دُونَ ثُلُوحِ صِفَتِهِ أَوْهَامُ الْخَلَائِقِ، الْأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَالْآخِرُ بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يَسْغُدُ لَهُ شَيْءٌ^(٦)، الظَّاهِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، بِالْقَهْرِ لَهُ، وَالْمُشَاهِدُ لِجَمِيعِ الْأَمَاكِينِ بِمَا انْتَقَلَ إِلَيْهَا، وَلَا تَلْمُسُهُ لَامِسَةٌ، وَلَا تُحَسُّهُ حَاسَّةٌ، وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ، أَتَقَنَ مَا أَرَادَ خَلْقَهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا بِمَا مِثَالِ سَبَقَ إِلَيْهِ^(٧)، وَلَا تُغُوبُ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي خَلْقِ مَا خَلَقَ لَدَيْهِ، ابْتَدَأَ مَا أَرَادَ ابْتِدَاءَهُ، وَأَنْشَأَ مَا أَرَادَ إِنْشَاءَهُ، عَلَى مَا أَرَادَ مِنَ الثَّقَلَيْنِ: الْحِجْنَ وَالْإِنْسِ لَتُعْرِفَ بِذَلِكَ رُبُوبِيَّتَهُ، وَيُمْكِنَ فِيهِمْ طَوَاعِيَّتُهُ^(٨).

نَحْمَدُهُ بِجَمِيعِ مَحَامِدِهِ كُلِّهَا عَلَى جَمِيعِ نِعَمَائِهِ كُلِّهَا، وَنَسْتَعِذُّ بِهِ لِمَرَاشِدِ أُمُورِنَا، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، وَنَسْتَغْفِرُهُ لِلذُّنُوبِ الَّتِي سَلَفَتْ مِنَّا، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، بَعَثَهُ بِالْحَقِّ دَالًّا عَلَيْهِ، وَهَادِيًّا إِلَيْهِ، فَهَدَانَا بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَاسْتَنْقَذَنَا بِهِ مِنَ الْجَهَالَةِ، مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا، وَنَالَ ثَوَابًا كَرِيمًا^(٩).

١. لم يرد في التوحيد: «ولا بما».

٢. في نسخة: ولا بنقص، وفي أخرى: ولا بنقص. (هامش المطبوع)

٣. في الكافي: «الذي نأى».

٤. في الكافي: «ومحل الآخرة».

٥. الزمر/ ٧٥.

٦. في الكافي: «الأول قبل كل شيء ولا قبل له، والآخر بعد كل شيء ولا بعد له».

٧. في الكافي: «أتقن ما أراد من خلقه من الأشباح كلها لا بمثال سبق إليه».

٨. في الكافي: «طاعته».

٩. في الكافي: «ثوابا جزيلا».

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا، وَاسْتَحَقَّ عَذَابًا أَلِيمًا، فَانْجِعُوا بِمَا يَحِقُّ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِخْلَاصِ النَّصِيحَةِ، وَحُسْنِ الْمُوَاظَرَةِ، وَأَعِينُوا أَنْفُسَكُمْ بِلُزُومِ الطَّرِيقَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، وَهَجْرِ الْأُمُورِ الْمَكْرُوهَةِ، وَتَعَاطُوا الْحَقَّ بَيْنَكُمْ، وَتَعَاوَنُوا عَلَيْهِ^(١)، وَخُذُوا عَلَى يَدَيِ الظَّالِمِ السَّفِيهِ، مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَاعْرِفُوا لِذَوِي الْفَضْلِ فَضْلَهُمْ، عَصَمَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ بِالْهُدَى، وَتَبَيَّنَّا وَإِيَّاكُمْ عَلَى التَّقْوَى، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ.

بيان:

قوله عليه السلام: «ولا تنقضي عجائبه» أي كلما تأمل الإنسان يجد من آثار قدرته وعجائب صنعته ما لم يكن وجده قبل ذلك ولا ينتهي إلى حدٍّ، وأنه كل يوم يظهر من آثار صنعه خلق عجيب وطور غريب يحار فيه العقول والأفهام.

قوله عليه السلام: «فيكون في العزّ مشاركا» كمشراكة الولد لوالده في العزّ واستحقاق التعظيم. قوله عليه السلام: «موروثا» أي يرثه ولده بعد موته كما هو شأن كل والد، والحاصل أن كل والد حادث هالك موروث. قوله عليه السلام: «شبحاً ماثلاً» أي قائماً أو مماثلاً ومشابهاً للممكنات.

قوله عليه السلام: «حائلاً» أي متغيّراً من حال الشيء يحول إذا تغيّر أي لا تدركه الأبصار، وإلا لكان بعد انتقالها عنه متغيّراً ومنقلباً عن الحالة التي كانت له عند الإبصار من المقابلة والمحاذاة والوضع الخاص وغير ذلك، أو عن حلوله في الباصرة بزوال صورته الموافقة له في الحقيقة عنها. وبعض الأفاضل قرأ «بعد» مضمومة الباء، مرفوعة الإعراب على أن يكون اسم كان، والحائل بمعنى الحاجز أي كان بعد انتقال الأبصار إليه حائلاً من رؤيته، ومنهم من قرأه «خائلاً» بالخاء المعجمة أي ذا خيال وصورة متمثلة في المدرك. والتعاور: الورد على التناوب.

قوله عليه السلام: «ولا بما» إذ ليست له ماهية يمكن أن تعرف حتى يسأل عنها بما هو. قوله عليه السلام: «بطن من خفيات الأمور» أي أدرك الباطن من خفيات الأمور ونفذ علمه في بواطنها، أو المراد أن كنهه تعالى أبطن وأخفى من خفيات الأمور.

قوله عليه السلام: «بما جعل فيهم» أي من الأعضاء والجوارح والقوّة والاستطاعة. قوله عليه السلام: «بالحجج» أي الباطنة وهي العقول، والظاهرة وهي الأنبياء والأوصياء. قوله عليه السلام: «فعن بيّنة» أي بسبب بيّنة واضحة، أو معرضاً ومجاوزاً عنها، أو «عن» بمعنى «بعد» أي بعد وضوح بيّنة، والثاني لا يجري في الثاني؛ وفي الكافي: «وبمنه نجا من نجا».

قوله عليه السلام: «مبدئاً ومعيداً» أي حال إبداء الخلق وإيجاده في الدنيا وحال إرجاعهم وإعادةتهم بعد الفناء، أو

١. في الكافي: «وتعاونوا به دوني».

مبدئاً حيث بدأ العباد مفطورين على معرفته، قادرين على طاعته، ومعيداً حيث لطف بهم، ومنّ عليهم بالرسول والأئمة الهداة عليهم السلام. قوله عليه السلام: «وله الحمد» الجملة اعتراضية.

قوله عليه السلام: «افتتح الكتاب» في الكافي: «افتتح الحمد لنفسه» أي في التنزيل الكريم، أو في بدء الإيجاد بإيجاد الحمد، أو ما يستحقّ الحمد عليه، وما هنا يؤيدّ الأول.

قوله عليه السلام: «ومجيء الآخرة» أي ختم أول أحوال الآخرة، وهو الحشر والحساب، ويمكن أن يقدر فعل آخر يناسبه أي بدء مجيء الآخرة. قوله عليه السلام: «وقضي بينهم» أي بإدخال بعضهم الجنة وبعضهم النار، ويظهر من الخبر أنّ القائل هو الله؛ ويحتمل أن يكون الملائكة بأمره تعالى.

قوله عليه السلام: «بلا تمثيل» أي بمثال جسماني. قوله عليه السلام: «بلا زوال» أي بغير استواء جسماني يلزمه إمكان الزوال، أو لا يزول اقتداره واستيلاؤه أبداً. قوله عليه السلام: «من تجبّر عنه» في الكافي مكان «عنه» «غيره»، فهو حال عن الفاعل، وكذا قوله عليه السلام: «دونه». قوله عليه السلام: «لعظمته» أي عند عظمته، أو عنده بسبب عظمته، والاحتمالان جاريان فيما بعده. قوله عليه السلام: «بلا مثال» أي لا في الخارج ولا في الذهن.

قوله عليه السلام: «ولا لغوب» أي تعب ويمكن إرجاع ضمير «لديه» إليه تعالى وإلى الخلق، فالظرف على الأول متعلّق بخلق، وعلى الثاني بدخل. قوله عليه السلام: «ويمكن» على التفعيل. و«الطوعية»: الطاعة؛ وفي الكافي: «طاعته». وقال الفيروز آبادي: المرشد: مقاصد الطرق.

قوله عليه السلام: «فانجعوا» في بعض النسخ بالنون والجرم من قولهم: أنجع أي أفلح أي أفلحوا بما يجب عليكم من الأخذ سمعاً وطاعة، أو من النجعة بالضمّ وهي طلب الكلال من موضعه، وفي بعضها بالباء الموحدة فالخاء المعجمة قال الجزري: فيه: أتاكم أهل اليمن هم أرقّ قلوباً وأبضع طاعة. أي أبلغ وأنصح في الطاعة من غيرهم، كأنهم بالغوا في بخع أنفسهم أي قهرها وإذلالها بالطاعة. وقال الزمخشري في الفائق: أي أبلغ طاعة من بخع الذبيحة: إذا بالغ في ذبحها، وهو يقطع عظم رقبتها، هذا أصله ثم كثر حتى استعمل في كلّ مبالغة فقليل: بخعت له نصحي وجهدي وطاعتي.

قوله عليه السلام: «وإخلاص النصيحة» أي لله ولكتابه ولرسوله صلّى الله عليه وآله ولأئمة عليهم السلام ولعامة المسلمين؛ و«الموازرة»: المعاونة. قوله عليه السلام: «وأعينوا أنفسكم» أي على الشيطان؛ وفي الكافي: «على أنفسكم» أي النفس الأمّارة بالسوء. قوله عليه السلام: «وتعاطوا الحق» أي تناولوه بأن يأخذه بعضهم من بعض ليظهر ولا يضيع.

١٦٠٥. التوحيد^(١): الدقائي، عَنْ مُحَمَّدٍ الْأَسَدِيِّ وَابْنِ زَكَرِيَّا الْقُطَّانِ، عَنْ ابْنِ حَبِيبٍ، عَنْ ابْنِ بُهْلُولٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ، عَنْ الْحَصِينِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ؛ وَحَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الصَّقْرِ الصَّائِغُ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٤١، ح ٣؛ الكافي، ج ١، باب جوامع التوحيد، ص ١٣٤، ح ١.

بَسَامٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْبَصْرِيِّ، عَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ أَوْسٍ قَالَتْ: حَدَّثَنِي جَدِّي الْحَصِينُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الصَّادِقِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ اسْتَنْهَضَ النَّاسَ فِي حَزْبِ مُعَاوِيَةَ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ، فَلَمَّا حَشَدَ النَّاسُ قَامَ خَطِيباً، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ الصَّمَدِ الْمُتَفَرِّدِ الَّذِي لَا مِنْ شَيْءٍ كَانَ، وَلَا مِنْ شَيْءٍ خَلَقَ مَا كَانَ، قُدْرَتُهُ بَانَ بِهَا مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَبَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ، فَلَيْسَتْ لَهُ صِفَةٌ تُتَالُ، وَلَا حَدٌّ يُضْرَبُ لَهُ فِيهِ الْأَمْثَالُ، كُلُّ دُونَ صِفَاتِهِ تَخْيِيرُ اللُّغَاتِ، وَضَلَّ هُنَالِكَ تَصَارِيفُ الصِّفَاتِ، وَحَارَ فِي مَلَكُوتِهِ عَمِيقَاتُ مَذَاهِبِ التَّفَكِيرِ، وَانْقَطَعَ دُونَ الرُّشُوحِ فِي عِلْمِهِ جَوَامِعُ التَّفْسِيرِ، وَحَالَ دُونَ غَيْبِهِ الْمَكُونِ حُجُبٌ مِنَ الْغُيُوبِ، وَتَاهَتْ فِي أَدْنَى أَذَانِهَا طَامِحَاتُ الْعُقُولِ فِي لَطِيفَاتِ الْأُمُورِ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي لَا يَبْلُغُهُ بَعْدُ الْهَمَمُ، وَلَا يَنَالُهُ غَوْصُ الْفِطَنِ، وَتَعَالَى الَّذِي لَيْسَ لَهُ وَقْتُ مَعْدُودٍ، وَلَا أَجَلٌ مَمْدُودٌ، وَلَا نَعْتُ مَحْدُودٌ، وَسُبْحَانَ الَّذِي لَيْسَ لَهُ أَوَّلٌ مُبْتَدَأٌ، وَلَا غَايَةٌ مُنْتَهَى، وَلَا آخِرٌ يُقْنَى، سُبْحَانَهُ هُوَ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، وَالْوَاصِفُونَ لَا يَبْلُغُونَ نَعْتَهُ، حَدَّ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا عِنْدَ خَلْقِهِ إِثَابَهَا، إِبَانَةً لَهَا مِنْ شَبَهِهِ، وَإِبَانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِهَا، فَلَمْ يَخْلُلْ فِيهَا فَيَقَالَ: هُوَ فِيهَا كَائِنٌ، وَلَمْ يَنَأَ عَنْهَا فَيَقَالَ: هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْهَا فَيَقَالَ لَهُ: أَيْنَ، لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَحَاطَ بِهَا عِلْمُهُ، وَاتَّقَنَهَا صُنْعُهُ، وَأَخْصَاهَا حِفْظُهُ، لَمْ يَغْرُبْ عَنْهُ حَفِيقَاتُ غُيُوبِ الْهَوَاءِ، وَلَا غَوَامِضُ مَكُونِ ظَلَمِ الدُّجَى، وَلَا مَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى وَالْأَرْضِينَ السُّفْلَى، لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا حَافِظٌ وَرَقِيبٌ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْهَا بِشَيْءٍ مُحِيطٌ، وَالْمُحِيطُ بِمَا أَحَاطَ مِنْهَا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ تُغَيِّرْهُ صُرُوفُ الْأَرْمَانِ وَلَمْ يَتَكَادَهُ صُنْعُ شَيْءٍ كَانَ، إِنَّمَا قَالَ لِمَا شَاءَ أَنْ يَكُونَ: «كُنْ» فَكَانَ، ابْتَدَعَ مَا خَلَقَ بِلا مِثَالٍ سَبَقَ، وَلَا تَعَبٍ وَلَا نَصَبٍ، وَكُلُّ صَانِعِ شَيْءٍ فَمِنْ شَيْءٍ صَنَعَ، وَاللَّهُ لَا مِنْ شَيْءٍ صَنَعَ مَا خَلَقَ، وَكُلُّ عَالِمٍ فَمِنْ بَعْدِ جَهْلٍ تَعَلَّمَ، وَاللَّهُ لَمْ يَجْهَلْ وَلَمْ يَتَعَلَّمْ، أَحَاطَ بِالْأَشْيَاءِ عِلْماً قَبْلَ كَوْنِهَا فَلَمْ يَزِدْ بِكَوْنِهَا عِلْماً، عِلْمُهُ بِهَا قَبْلَ أَنْ يُكُونَهَا كَعِلْمِهِ بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لَمْ يَكُونْهَا لِشِدَّةِ سُلْطَانٍ وَلَا خَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَلَا نُقْصَانٍ، وَلَا اسْتِعَانَةٍ عَلَى ضِدِّ مُسَاوِرٍ^(١)، وَلَا نِدٍّ مُكَاتِرٍ، وَلَا شَرِيكِ مُكَائِدٍ، لَكِنْ خَلَقَ مَرْبُوبُونَ^(٢)، وَعِبَادٌ دَاخِرُونَ فَسُبْحَانَ الَّذِي لَا يُؤُودُهُ خَلْقُ مَا ابْتَدَأَ، وَلَا تَذْيِيرُ مَا بَرَأَ، وَلَا مِنْ عَجْزٍ وَلَا مِنْ فِتْرَةٍ بِمَا خَلَقَ اكْتَفَى، عِلْمَ مَا خَلَقَ، وَخَلَقَ مَا عِلْمَ، لَا بِالتَّفَكِيرِ وَلَا بِعِلْمِ حَادِثٍ أَصَابَ مَا خَلَقَ^(٣)، وَلَا شُبْهَةً دَخَلَتْ عَلَيْهِ فِيمَا لَمْ يَخْلُقْ، لَكِنْ قَضَاءٌ مُبْرَمٌ، وَعِلْمٌ مُحْكَمٌ، وَأَمْرٌ مُتَقَنٌ، تَوَحَّدَ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَخَصَّ نَفْسَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَاسْتَخْلَصَ الْمَجْدَ وَالثَّنَاءَ فَتَحَمَّدَ بِالتَّحْمِيدِ^(٤)، وَتَمَجَّدَ بِالتَّمْجِيدِ، وَعَلَا عَنْ اتِّخَاذِ الْأَنْبَاءِ، وَتَطَهَّرَ وَتَقَدَّسَ عَنْ مَلَامَسَةِ النِّسَاءِ، وَعَزَّ وَجَلَّ عَنْ مُجَاوَرَةِ الشُّرَكَاءِ، فَلَيْسَ

١. ساوره: واثبه، راجع لسان العرب.

٢. في المصدر: «ولا استعانة على ضد مثاور»، وفي الكافي: «ضد مناو».

٣. مربوبون: مملوكون، راجع لسان العرب.

٤. في الكافي: «لا بالتفكير في علم حادث أصاب ما خلق».

٥. في الكافي: «واستخلص بالمجد والثناء وتفرّد بالتوحيد والمجد والثناء، وتوحد بالتحميد».

لَهُ فِيمَا خَلَقَ ضِدُّ، وَلَا فِيمَا مَلَكَ نَدُّ، وَلَمْ يَشْرِكْ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، الصَّمَدُ الْمُبِيدُ لِلْأَبَدِ^(١)، وَالْوَارِثُ لِلْأَمَدِ، الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ وَخَدَانِيًّا أَرْلِيًّا قَبْلَ بَدْءِ الدُّهُورِ، وَبَعْدَ صَرْفِ الْأُمُورِ، الَّذِي لَا يَبِيدُ وَلَا يُفْقَدُ^(٢)، بِذَلِكَ أَصِفُ رَبِّي، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِنْ عَظِيمٍ مَا أَعْظَمَهُ، وَجَلِيلٍ مَا أَجَلَّهُ، وَعَزِيزٍ مَا أَعَزَّهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلوًّا كَبِيرًا.

توضيح:

قوله **عَلَيْهِ السَّلَام**: «حشد» أي جمع. قوله **عَلَيْهِ السَّلَام**: «المتفرد» أي في الخلق والتدبير، أو بسائر الكمالات. قوله **عَلَيْهِ السَّلَام**: «قدرته» مبتدأ و«بان بها» خبره، أو خبره كافية فكانت جملة استثنائية، فكان سائلاً سأل وقال: فكيف خلق لا من شيء؟ فأجاب: بأن قدرته كافية، وفي الكافي: «قدرة»، أي له قدرة، أو هو عين القدرة بناء على عينية الصفات؛ وقيل: نصب على التمييز، أو على أنه منزوع الخافض أي ولكن خلق الأشياء قدرة أو بقدرة. قوله **عَلَيْهِ السَّلَام**: «ولا حد» أي جسماني أو عقلي، أو ليس لمعرفة ذاته وصفاته تعالى حد ونهاية حتى يضرب له فيه الأمثال إذ الأمثال إنما تصح إذا كان له مشابهة بالممكنات بأحد هذه الوجوه. والكلال: العجز والإعياء. والتحبير: التحسين أي أعيا قبل الوصول إلى بيان صفاته، أو عند تزيين الكلام باللغات البديعة الغريبة. قوله **عَلَيْهِ السَّلَام**: «وضل هنالك» أي في ذاته تعالى، أو في توصيفه بصفاته تصاريف صفات الواصفين، وأنحاء تعبيرات العارفين، أو ضل وضاع في ذاته الصفات المتغيرة الحادثة فيكون نفيًا للصفات الحادثة عنه تعالى، أو مطلق الصفات أي ليس في ذاته التغيرات الحاصلة من عروض الصفات المتغيرة فيكون نفيًا لزيادة الصفات مطلقاً؛ كل ذلك أفاده الوالد العلامة «قدس الله روحه».

قوله **عَلَيْهِ السَّلَام**: «في ملكوته» فعلوت من الملك، وقد يخص بعالم الغيب وعالم المجردات، والملك بعالم الشهادة وعالم الماديات. وأفكر في الشيء وفكر فيه وتفكر بمعنى أي تحير في إدراك حقائق ملكوته وخواصها وآثارها وكيفية نظامها وصدورها عنه تعالى الأفكار العميقة الواقعة في مذاهب التفكير، أو مذاهب التفكير العميقة فيكون إسناد الحيرة إليها إسناداً مجازياً.

قوله **عَلَيْهِ السَّلَام**: «دون الرسوخ في علمه» الرسوخ: الثبوت أي انقطع جوامع تفسيرات المفسرين قبل الثبوت في علمه أو عنده، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾^(٣) وقد مرّت الإشارة إلى توجيهه في باب النهي عن التفكير في ذاته تعالى.

قوله **عَلَيْهِ السَّلَام**: «و حال دون غيبه المكنون» المكنون: المستور، والمراد به معرفة ذاته وصفاته، فالمراد

١. في نسخة: المبدأ للأبد. (هامش المطبوع)

٢. في الكافي: «لا ينفد».

٣. آل عمران/٧.

بالحجب الحجب النورانية والظلمانية المعنوية من كماله تعالى ونقص مخلوقاته، أو الأعمّ منها ومن سائر العلوم المغيبة فالحجب أيضاً أعمّ، أو المراد أسرار الملكوت الأعلى من العرش والكرسي والملائكة الحافين بهما وسائر ما هو مستور عن حواسنا بالحجب الجسمانية. والتهيه: التحير. و«الأدنى»: الأقرب. و«الأداني»: جمع الدني وهو القريب. والإضافة في «طامحات العقول» و«لطيفات الأمور» من إضافة الصفة إلى الموصوف؛ والطامح: المرتفع. والظرف في قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «في لطيفات» متعلق «بالطامحات» بأن يكون «في» بمعنى «إلى»، أو حال منه.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فتبارك» إمّا مشتق من البروك بمعنى الثبات والبقاء، أو من البركة وهي الزيادة. و«الهمّة»: العزم، ويقال: فلان بعيد الهمّة: إذا كانت إرادته تتعلق بالأمر العالية. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولا نعت محدود» أي الحدود الجسمانية أو العقلانية بأن يحاط بنعته. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولا آخر يفنى» أي بعده. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كما وصف نفسه» أي في كتبه، وعلى السنة رسله وحججه، وبقلم صنعه على دفاتر الآفاق والأنفس.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «حدّ الأشياء كلّها» أي جعل للأشياء حدوداً ونهايات، أو أجزاءً وذاتيات، ليعلم بها أنّها من صفات المخلوقين، والخالق منزّه عن صفاتهم، أو خلق الممكنات التي من شأنها المحدودية ليعلم بذلك أنّه ليس كذلك، كما قال تعالى: فخلقت الخلق لأعرف، أو خلقها محدودة لأنّها لم يكن يمكن أن تكون غير محدودة لامتناع مشابهة الممكن الواجب في تلك الصفات التي هي من لوازم وجوب الوجود، ولعلّ الأوسط أظهر.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولم يخل منها» أي بالخلوّ الذي هو بمعنى عدم الملكة بقرينة التفرع أي كخلوّ المحلّ عن الحالّ والمكان عن المتمكّن. و«الدجى» جمع دُجبة بالضم وهي الظلمة.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لكلّ شيء منها حافظ ورقيب» الظرف خبر لقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «حافظ ورقيب» أو متعلق بكلّ منهما والمبتدأ محذوف، أي هو لكلّ شيء منها حافظ ورقيب، والأوّل أظهر، فيكون إشارة إلى الملائكة الموكّلين بالعرش والكرسي، والسموات والأرضين والبحار والجبال وسائر الخلق. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وكلّ شيء منها» أي من السموات والأرض وما بينهما محيط بشيء منها إحاطة علم وتديير فيكون مؤكّداً للسابق على أحد الوجهين، أو إحاطة جسميّة والمحيط بكلّ من تلك المحيطات علماً وقدرة وتدييراً هو الله الواحد. والدخور: الصغار والذلّ. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولا من عجز» أي لم يكتف بخلق ما خلق لعجز ولا فتور، بل لعدم كون الحكمة في أزيد من ذلك، ثمّ أكّد عَلَيْهِ السَّلَامُ ذلك بقوله: «علم ما خلق وخلق ما علم» أي ما علم أنّ الصلاح في خلقه؛ ويقال: «استخلصه» لنفسه أي استخصّه.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فتحمدّ بالتحميد» يقال: هو يتحمّد عليّ أي يمتنّ أي أنعم علينا واستحقّق الحمد والثناء بأن

رخص لنا في تحميده، أو بأن حمد نفسه ولم يكل حمده إلينا، وفي الكافي: «توحد بالتوحيد»، فالتوحيد يحتمل الوجهين أيضاً. والتمجد: إظهار المجد والعظمة، والتمجيد يحتمل الوجهين أيضاً. قوله عليه السلام: «المبيد للأبد» أي الملك المفني للدهر والزمان الزمانيات. و«الوارث للأمد» أي الباقي بعد فناء الأمد أي الغاية والنهاية، أو امتداد الزمان. قوله عليه السلام: «وبعد صرف الأمور» أي تغييرها وفنائها، وهذا ناظر إلى قوله عليه السلام: «لا يزال» كما أن ما قبله ناظر إلى قوله عليه السلام: «لم يزل»، وفي الكافي: «صروف الأمور».

أقول:

رواه إبراهيم بن محمد الثَّقَفِيُّ في كتاب الغارات^(١) بإسناده عن إبراهيم بن إسماعيل الشُّكْرِيُّ قال - وكان ثقةً - : أن علياً عليه السلام سئل عن صفة الرب سبحانه وتعالى فقال - وذكر نحو ما مرَّ بأدنى تغييرٍ إلى قوله - : كذلك الله الواحد الأحد الصمد، المبيد للأمد، والوارث للأبد، الذي لا يبيد ولا ينفد، فتعالى الله العليُّ الأعلى، عالم كل خفية وشاهد كل نجوى، لا كمُشاهدة شيء من الأشياء، مَلَكاً^(٢) السماوات العلى إلى الأرضين السفلى، وأحاط بجميع الأشياء علماً، فعلاً الذي دنا، ودنا الذي علا، له المثل الأعلى، والأسماء الحُسنى تبارك وتعالى.

١٦٠٦. (٣) التوحيد^(٤): الدقاق، عن الأسدي، عن البرمكي، عن علي بن العباس، عن إسماعيل بن مهزيان، عن إسماعيل بن إسحاق الجهمي، عن فرج بن فروة، عن مسعدة بن صدقة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: بينما أمير المؤمنين عليه السلام يخطب على المنبر بالكوفة إذ قام إليه رجلٌ فقال: يا أمير المؤمنين صف لنا ربك تبارك وتعالى، لتزداد له حباً وبه معرفة، فعضب أمير المؤمنين عليه السلام ونادى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس حتى غص المسجد بأهلِهِ ثم قام متغير اللون، فقال عليه السلام: الحمد لله الذي لا يفره المنع، ولا يكديه الإغطاء، إذ كلُّ مُعطٍ مُنتقص سواه، المليء بفوائد النعم وعوائد المزيد، وبجوده ضمن عياله الخلق، فأنهَج سبيل الطلب للراغبين إليه، فليس بما سئل أجود منه بما لم يُسأل، وما اختلفَ عليه دهرٌ فتختلف منه الحال، ولو وهب ما تنفست عنه معادن الجبال وصحكت عنه أصداف البحار، من فلز اللجين، وسبائك^(٥) العقبان، ونضائد المرجان لبعض عبيده لما أثر ذلك

١. الغارات، ج ١، ص ١٧٠.

٢. في المصدر: «علا».

٣. الظاهر من اتحاد بعض فقرات الحديث وتشابه مضمونه مع ما في نهج البلاغة أنه جملة من خطبة الأشباح التي هي من جلائل خطبه عليه السلام، ولكنه يخالفها بكثير من التقديم والتأخير والإسقاط والزيادة، ولا يسعنا ضبط موارد اختلافهما، لافضاء ذلك إلى الخروج من وضع التعليقة، فعلى الباحث أن يراجعها. (هامش المطبوع)

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ٤٨، ح ١٣؛ وقد ورد في نهج البلاغة (لصبيحي الصالح)، ص ١٢٤، خطبة ٩١، مع اختلاف العبارات.

٥. السبيكة: القطعة المذوبة، والجمع السبائك، راجع لسان العرب.

فِي جُودِهِ^(١)، وَلَا أَنْفَدَ سَعَةً مَا عِنْدَهُ، وَلَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ دَخَائِرِ الْإِفْضَالِ مَا لَا يَنْفَدُهُ مَطَالِبُ السُّؤَالِ، وَلَا يَخْطُرُ لِكَثْرَتِهِ عَلَى بَالٍ لِأَنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لَا تَنْقُصُهُ الْمَوَاهِبُ^(٢)، وَلَا يَبْخُلُهُ^(٣) الْإِحَاحُ الْمُلْحِنُ، وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الَّذِي عَجَزَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى قُرْبِهِمْ مِنْ كُرْسِيِّ كَرَامَتِهِ، وَطُولِ وَلَهْمِهِ إِلَيْهِ، وَتَعْظِيمِ جَلَالِ عِزِّهِ، وَقُرْبِهِمْ مِنْ غَيْبِ مَلَكُوتِهِ أَنْ يَعْلَمُوا مِنْ أَمْرِهِ إِلَّا مَا أَعْلَمَهُمْ، وَهُمْ مِنْ مَلَكُوتِ الْقُدُسِ بِحَيْثُ هُمْ، وَمِنْ مَعْرِفَتِهِ عَلَى مَا فَطَرَهُمْ عَلَيْهِ أَنْ قَالُوا: سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

فَمَا ظَنُّكَ أَيُّهَا السَّائِلُ بِمَنْ هُوَ هَكَذَا؟ سُبْحَانَهُ بِحَمْدِهِ لَمْ يُحْدَثْ فِيمَكِنْ فِيهِ التَّغْيِيرُ وَالِانْتِقَالُ، وَلَمْ يُتَصَرَّفْ فِي ذَاتِهِ بِكُرُورِ الْأَحْوَالِ، وَلَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيْهِ حُقُبُ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ، الَّذِي ابْتَدَعَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ امْتَنَلَهُ، وَلَا مِقْدَارٍ اخْتَذَى^(٤) عَلَيْهِ مِنْ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَهُ، وَلَمْ تُحِطْ بِهِ الصِّفَاتُ فَيَكُونُ بِإِدْرَاكِهَا إِيَّاهُ بِالْحُدُودِ مُتَنَاهِيًا، وَمَا زَالَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ عَنْ صِفَةِ الْمَخْلُوقِينَ مُتَعَالِيًا، وَانْحَسَرَتِ الْأَبْصَارُ عَنْ أَنْ تَنَالَهُ فَيَكُونُ بِالْعِيَانِ مَوْصُوفًا، وَبِالذَّاتِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ عِنْدَ خَلْقِهِ مَعْرُوفًا، وَقَاتٍ لِعُلُوِّهِ عَلَى الْأَشْيَاءِ مَوَاقِعَ رَجَمِ الْمُتَوَهِّمِينَ، وَارْتَفَعَ عَنْ أَنْ تَحْوِيَ كُنْهَ عَظَمَتِهِ فَهَاهُنَا رَوِيَّاتِ الْمُتَفَكِّرِينَ، فَلَيْسَ لَهُ مِثْلٌ فَيَكُونُ مَا يَخْلُقُ مُشَبَّهًا بِهِ، وَمَا زَالَ عِنْدَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِهِ عَنِ الْأَشْبَاهِ وَالْأَضْدَادِ مُنْزَهًا، كَذَبِ الْعَادِلُونَ بِاللَّهِ إِذْ شَبَّهُوهُ بِمِثْلِ أَصْنَافِهِمْ، وَحَلَّوْهُ حَلِيَّةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ، وَجَزَّوْهُ بِتَقْدِيرٍ مُنْتَجٍ مِنْ خَوَاطِرِ هِمَمِهِمْ^(٥)، وَقَدَّرُوهُ عَلَى الْخَلْقِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقُوَى بِقَرَائِحِ عُقُولِهِمْ، وَكَيْفَ يَكُونُ مَنْ لَا يَقْدَرُ قَدْرُهُ مُقَدَّرًا فِي رَوِيَّاتِ الْأَوْهَامِ وَقَدْ ضَلَّتْ فِي إِدْرَاكِ كُنْهِهِ هَوَاجِسُ الْأَحْلَامِ^(٦)؟ لِأَنَّهُ أَجَلٌ مِنْ أَنْ تَحْدَهُ الْبَابُ الْبَشَرِ بِالتَّفَكُّيرِ، أَوْ تُحِيطَ بِهِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى قُرْبِهِمْ مِنْ مَلَكُوتِ عِزَّتِهِ بِتَقْدِيرِ، تَعَالَى عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ كُفُوٌ فَيَشَبَّهُ بِهِ، لِأَنَّهُ اللَّطِيفُ الَّذِي إِذَا أَرَادَتْ الْأَوْهَامُ أَنْ تَفَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبٍ مُلْكِهِ، وَحَاوَلَتْ الْفِكَرُ الْمُبَرَّاتُ مِنْ خَطَرِ الْوَسْوَاسِ إِدْرَاكَ عِلْمِ ذَاتِهِ، وَتَوَلَّهَتْ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ لِتَحْوِيَ مِنْهُ مَكَيِّفًا فِي صِفَاتِهِ، وَغَمَضَتْ مَدَاخِلُ الْعُقُولِ مِنْ حَيْثُ لَا تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَنَالَ عِلْمَ إِلَهِيَّتِهِ، رُدِعَتْ خَاسِئَةً وَهِيَ تَجُوبُ مَهَاوِي سَدَفِ الْغُيُوبِ مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ، رَجَعَتْ إِذْ جَبِهَتْ مُعْرِفَةً بِأَنَّهُ لَا يُنَالُ بِجَوْرِ^(٧) الْإِعْتِسَافِ كُنْهَ مَعْرِفَتِهِ، وَلَا يَخْطُرُ بِبَالٍ أُولِي الرِّوَايَاتِ خَاطِرَةٌ مِنْ تَقْدِيرِ جَلَالِ عِزَّتِهِ، لِبُعْدِهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي قُوَى الْمَحْدُودِينَ لِأَنَّهُ

١. في النهج: من فلز اللجين والعقيان، ونشارة الدرّ وحصيد المرجان ما أثير ذلك في جوده. أقول: حصيد المرجان: محصوده، وفيه إشارة إلى ما

حققته كاشفات الفنون جديدها وقديمها من أنّ المرجان نبات. (هامش المطبوع)

٢. في النهج: لأنه الجواد الذي لا يغيضه سؤال السائلين؛ أقول: لا يغيضه أي لا ينقصه. (هامش المطبوع)

٣. في المصدر: «ولا يبخله».

٤. احتذى مثاله: اقتدى به، راجع شمس العلوم.

٥. في التوحيد المطبوع ونسخة من الكتاب: وخواطرهم. (هامش المطبوع)

٦. الجلم: العقل، وجمعه أحلام، راجع لسان العرب.

٧. في المصدر: «بجوب».

خِلَافَ خَلْقِهِ، فَلَا شَبَهَ لَهُ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، وَإِنَّمَا يُشَبَّهُ الشَّيْءُ بِعَدِيلِهِ، فَأَمَّا مَا لَا عَدِيلَ لَهُ فَكَيْفَ يُشَبَّهُ بِغَيْرِ مِثَالِهِ، وَهُوَ الْبَدِيُّ الَّذِي لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَالْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ شَيْءٌ بَعْدَهُ، لَا تَنَالُهُ الْأَبْصَارُ فِي مَجْدِ جَبْرُوتِهِ^(١)، إِذْ حَجَبَهَا بِحُجُبٍ لَا تَنفُذُ فِي ثَخَنِ كَثَافَتِهِ. وَلَا تَخْرُقُ إِلَى ذِي الْعَرْشِ مَتَانَةَ خَصَائِصِ سُرَّتَاتِهِ، الَّذِي صَدَرَتْ الْأُمُورُ عَنْ مَشِيئَتِهِ، وَتَصَاغَرَتْ عِزُّهُ الْمُتَجَبَّرِينَ دُونَ جَلَالِ عَظَمَتِهِ، وَخَضَعَتْ لَهُ الرُّقَابُ، وَعَنَتْ لَهُ الْوُجُوهُ مِنْ مَخَافَتِهِ، وَظَهَرَتْ فِي بَدَائِعِ الَّذِي أَخَذَهَا آثَارُ حِكْمَتِهِ، وَصَارَ كُلُّ شَيْءٍ خَلَقَ حُجَّةً لَهُ وَمُتَسَبِّبًا إِلَيْهِ، فَإِنْ كَانَ خَلْقًا صَامِتًا فَحُجَّتُهُ بِالتَّدْبِيرِ نَاطِقَةً فِيهِ، فَقَدَّرَ مَا خَلَقَ فَأَحْكَمَ تَقْدِيرَهُ، وَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ بِلُطْفٍ تَدْبِيرِهِ مَوْضِعَهُ، وَوَجَّهَهُ بِجَهَةِ فَلَمْ يَبْلُغْ مِنْهُ شَيْءٌ مَخْدُودٌ مِثْلَتَهُ^(٢)، وَلَمْ يَقْصُرْ دُونَ الْإِنْتِهَاءِ إِلَى مَشِيئَتِهِ، وَلَمْ يَسْتَصْعِبْ إِذْ أُمِرَ بِالْمُضِيِّ إِلَى إِرَادَتِهِ، بَلَا مُعَانَاةٍ لِلْعُوبِ مَسَّهُ، وَلَا مَكَادَّةٍ^(٣) لِمُخَالِفٍ لَهُ عَلَى أَمْرِهِ، فَتَمَّ خَلْقُهُ وَأَدْعَنَ لِبَطَاعَتِهِ، وَوَفَّى الْوَقْتَ الَّذِي أَخْرَجَهُ إِلَيْهِ، إِجَابَةً لَمْ يَغْتَرِضْ دُونَهَا رَيْثُ الْمُبْطِطِ، وَلَا أَنَاةُ الْمُتَلَكِّيِّ فَأَقَامَ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَوْدَهَا، وَنَهَى مَعَالِمَ حُدُودِهَا، وَلَاءَمَ بِقُدْرَتِهِ بَيْنَ مُتَصَادِفَاتِهَا، وَوَصَلَ أَسْبَابَ قَرَائِنِهَا، وَخَالَفَ بَيْنَ الْإِنَانِهَا، وَفَرَّقَهَا أَجْنَسًا مُحْتَخِلَاتٍ فِي الْأَقْدَارِ وَالْعَرَائِزِ وَالْهَيْئَاتِ، بَدَايَا خَلَائِقٍ أَحْكَمَ صُنْعَهَا، وَفَطَرَهَا عَلَى مَا أَرَادَ وَابْتَدَعَهَا^(٤)، انْتِظَمَ عِلْمُهُ صُوفَ ذُرِّيَّاتِهَا^(٥)، وَأَذْرَكَ تَدْبِيرَهُ حُسْنَ تَقْدِيرِهَا.

أَيُّهَا السَّائِلُ اعْلَمْ أَنَّ مَنْ شَبَّهَ رَبَّنَا الْجَلِيلَ بِتَبَائِنِ أَعْضَاءِ خَلْقِهِ، وَبِتَلَاحُمِ أَحْقَاقِ^(٦) مَفَاصِلِهِمُ الْمُحْتَجِبَةِ بِتَدْبِيرِ حِكْمَتِهِ^(٧) أَنَّهُ لَمْ يَقْعُدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِهِ، وَلَمْ يُشَاهِدْ قَلْبُهُ الْيَقِينَ بِأَنَّهُ لَا يَدَّ لَهُ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ بِتَبَرِّيِ التَّابِعِينَ مِنَ الْمُتَبُوعِينَ وَهُمْ يَقُولُونَ: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٨) فَمَنْ سَاوَى رَبَّنَا بِشَيْءٍ فَقَدْ عَدَلَ بِهِ، وَالْعَادِلُ بِهِ كَافِرٌ بِمَا نَزَلَتْ بِهِ مُحْكَمَاتُ آيَاتِهِ، وَنَطَقَتْ بِهِ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِهِ، لِأَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَنْتَاهِ فِي الْعُقُولِ فَيَكُونُ فِي مَهَبٍّ فِكْرُهَا مُكَيِّفًا، وَفِي حَوَاصِلِ^(٩) رَوِيَّاتِ^(١٠) هِمَمِ النَّفُوسِ مَخْدُودًا مُصَرِّفًا، الْمُنْشِئُ

١. وفي نسخة: من مجد جبروته، والجبروت صيغة مبالغة بمعنى القدرة والسلطة والعظمة. (هامش المطبوع)

٢. في المصدر: «حدود منزلته».

٣. في بعض النسخ: المكابدة، وفي التوحيد المطبوع: المكابرة. (هامش المطبوع)

٤. في نسخة: وفطرها على ما أراد إذ ابتدعها. (هامش المطبوع)

٥. ذرأ الله الخلق: خلقهم، راجع لسان العرب.

٦. وفي نسخة: حقائق. (هامش المطبوع)

٧. قال ابن ميثم: والذي يقال من وجه الحكمة في احتجاب المفاصل: هو أنها لو خلقت ظاهرة عريّة عن الأغشية لبيست رطوباتها وقست فيتعذر تصرف الحيوان بها كما هو الآن، وأنها كانت معرضة للآفات المفسدة لها وغير ذلك من خفيّ تدبيره ولطيف حكمته. شرح نهج البلاغة.

ج ٢، ص ٣٣٩.

٨. الشعراء ٩٧ و ٩٨.

٩. الحوصلة: هي من الطائر بمنزلة المعدة من الإنسان، راجع لسان العرب.

١٠. الرويّة: التفكير في الأمر، راجع لسان العرب.

أَصْنَافَ الْأَشْيَاءِ بِلَا رَوِيَّةٍ اخْتِاجَ إِلَيْهَا، وَلَا قَرِيحَةَ غَرِيْزَةٍ أَضْمَرَ عَلَيْهَا وَلَا تَجَرِبَةَ أَفَادَهَا مِنْ مَرٍّ حَوَادِثِ الدُّهُورِ، وَلَا شَرِيكَ أَعَانَهُ عَلَى ابْتِدَاعِ عَجَائِبِ الْأُمُورِ، الَّذِي لَمَّا شَبَّهَهُ الْعَادِلُونَ بِالْخَلْقِ الْمُبْعَضِ الْمَحْدُودِ فِي صِفَاتِهِ، ذِي الْأَفْطَارِ وَالنَّوَاجِي الْمُخْتَلِفَةِ فِي طَبَقَاتِهِ، وَكَانَ عَزَّ وَجَلَّ الْمَوْجُودَ بِنَفْسِهِ لَا بِأَدَاتِهِ، انْتَفَى أَنْ يَكُونَ قَدْرُوهُ حَقَّ قَدْرِهِ، فَقَالَ تَنْزِيهَاً لِنَفْسِهِ عَنْ مُشَارَكَةِ الْأَنْدَادِ، وَازْتِفَاعاً عَنْ قِيَاسِ الْمُقَدَّرِينَ لَهُ بِالْحُدُودِ مِنْ كَفَرَةِ الْعِبَادِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١) فَمَا ذَلِكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَاتَّبِعْهُ لِيُوصَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مَعْرِفَتِهِ، وَائْتَمَّ بِهِ وَاسْتَضَى بِنُورِ هِدَايَتِهِ، فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ وَحِكْمَةٌ أَوْتِيَتْهُمَا، فَخُذْ مَا أُوْتِيَتْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ؛ وَمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِ مِمَّا لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ عَلَيْكَ فَرَضُهُ، وَلَا فِي سُنَّةِ الرَّسُولِ وَائْتِمَّ الْهُدَى أَثَرُهُ فَكُلْ عِلْمُهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ اللَّهِ عَلَيْكَ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الرَّاغِبِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ عَنِ الْإِفْتِحَامِ فِي السَّدِّ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ، فَلَزِمُوا الْإِفْرَارَ بِجُمْلَةِ مَا جَهِلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَخْجُوبِ، فَقَالُوا: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾^(٢) فَمَدَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنِ تَنَاوُلِ مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْماً، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفْهُمْ الْبَحْثَ عَنْهُ مِنْهُمْ رُسُخاً، فَاقْتَصَرَ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا تُقَدِّرْ عَظَمَةَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ^(٣).

تبيان:

قوله: «فغضب» لعل غضبه ﷺ لأنَّ السائل سأل عن الصفات الجسمانيَّة والسماوات الإمكانية، أو لأنَّه ظنَّ أنه يمكن الوصول إلى كنه صفته.

وقوله ﷺ: «الصلاة» منصوب بفعل مقدَّر أي احضروا الصلاة أو أقيموها؛ و«جامعة» منصوب على الحال من الصلاة؛ ويحتمل رفعهما بالابتدائية والخبرية. و«غصَّ المسجد» بفتح الغين أي امتلاً. قوله ﷺ: «لا يفره» أي لا يزيده في ماله، يقال: وفرت الشيء وفرأ ووفر الشيء نفسه وفوراً، يتعدَّى ولا يتعدَّى. قوله ﷺ: «ولا يكديه» أي لا يفقره. قوله ﷺ: «منتقص» على صيغة المفعول أي منقوص، ويكون الانتقاص متعدياً ولازماً كالنقص. وقال الجزري: «المليء» بالهمزة: الثقة الغني. و«العائدة» المعروف.

قوله ﷺ: «عيالة الخلق» أي كونهم عياله يعولهم ويرزقهم، ومن قولهم: عال الرجل عياله أي كثر عياله؛ وفي النهج: «عياله الخلائق ضمن أرزاقهم». قوله ﷺ: «فليس بما سئل» فإنَّ جوده لا يتوقَّف على شيء

١. الزمر/٦٧.

٢. آل عمران/٧.

٣. روى العياشي ذيل الحديث عن مسعدة بن صدقة باختلاف في ألفاظه، وأخرجه المصنَّف في أول باب النهي عن التفكُّر في ذات الله سابقاً مع بيان فراجع. (هامش المطبوع)

سوى الاستحقاق والاستعداد، وهذا لا ينافي الحث على الدعاء والأمر بالسؤال، فإن الدعاء من متممات الاستعداد، وفيه تنزيه له تعالى عن صفة المخلوقين، لأن السؤال محرّك لجودهم، والله تعالى منزّه عن أن يكون فيه تغير أو اختلاف، وإنما التغير في الممكن القابل للفيض والجود بحسب استعداده واستياله^(١).

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وما اختلف عليه دهر» إشارة إلى ما قالوا: من أن الزمان ظرف المتغيرات، ولما لم يكن فيه تعالى تغير لا تختلف عليه الدهور والأزمان؛ ويحتمل أن يكون المراد نفي اختلاف الأزمنة بالنسبة إليه بأن يكون موجوداً في زمان، معدوماً في زمان آخر، أو عالمياً في زمان، جاهلاً في زمان آخر وهكذا، والأوّل أظهر.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما تنفّست عنه» لا يخفى مناسبتة لما قيل: من أن المعادن تتولّد من بخارات الأرض، ولا يخفى أيضاً لطف تشبيه الصدف بالفم، والدرّ بالسنّ، واللحمة التي في الصدف في رقّة طرفها ولطافتها باللسان؛ و«الفلزّ»: اسم الأجسام الذائبة كالذهب والفضة والرصاص. و«اللجين»: مصغراً اسم الفضة. و«العقيان»: الذهب الخالص. و«النضد»: وضع الأشياء بعضها فوق بعض، ولا يبعد أن يكون المراد بالمرجان هنا صغار اللؤلؤ كما فسّر به في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾^(٢).

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لا يبخّله» على بناء التفعيل أي لا يصيّر به خيلاً، أو على بناء الإفعال من قولهم: أبخله: إذا وجده بخيلاً^(٣).

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أن قالوا» كلمة «أن» إمّا مفسّرة لبيان كيفة عجزهم، أو مقدّر قبلها كلمة «إلى» أي إلى أن قالوا، أو «اللام» التعليلية أي لأنّهم قالوا، أو هي بمعنى إذ، كما قيل في قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾^(٤) و«الحقب» بالضمّ وبضمّتين: ثمانون سنة أو أكثر، والدهر، والسنة، أو السنون.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «على غير مثال امتثله» أي لم يمثّل لنفسه مثلاً قبل خلق العالم ليخلقها على هيئة ذلك المثال كما هو دأب المخلوقين في أبنيتهم وصنائعهم، أو لم يمثّل له فاعل آخر قبله مثلاً اتّبعه، أو المراد بالمثال ما يرسم في الخيال كما مرّ.

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولم تحط به الصفات» أي الصفات الجسمانيّة فيكون بإدراك الصفات له أي بلحوقها وعروضها له متناهيّاً بالحدود، أو لم تحط به توصيفات الواصفين فيكون بإدراكها إيّاه متناهيّاً محدوداً

١. الاستياله: الإستحقاق.

٢. الرحمن/ ٢٢.

٣. الأظهر الثاني، لأنّ التبخيل معناه النسبة إلى البخل وهو لا يناسب المقام. (هامش المطبوع)

٤. ق/ ٢.

بالحدود العقلانية، وتنتهي العقول إلى غاية معرفته. قوله عليه السلام: «متعالياً» خبر بعد خبر، وقوله عليه السلام: «عن صفة» متعلق به.

قوله عليه السلام: «رجم المتوهمين» الرجم: الضن، وكلام مرجم كمعظم لا يوقف على حقيقته أي فات عن مواقع ظنون المتوهمين، فلم تدركه في كل ما وقعت عليه، لكونه أعلى من كل ما توهمت الأوهام، وأنه أعلى الأشياء قدراً ورتبة وكمالاً ورفعة، ولا يبعد أن يكون «فات» تصحيف فاق. و«الفهاة»: العي وهي إمّا كناية عن غاية روياتهم وأفكارهم بحيث انتهت أفكارهم وعرض لهم الإعياء، أو إشارة إلى ضعف روياتهم وقصورها أي روياتهم الفهّة الكالّة، وقال الجزري: قد عدلنا بالله أي أشركنا به وجعلنا له مثلاً ومنه قول علي عليه السلام: «كذب العادلون بك إذ شبّهوك بأصنامهم».

قوله عليه السلام: «خاطر همهم» الهمّة العزم أي قدره تعالى بتقدير هو نتيجة العزمات الباطلة التي خطرت ببالهم من التصدي لمعرفة تعالي بعقولهم فلزمهم كونه تعالى ذا أجزاء؛ وفي بعض النسخ «بخواطرهم». والقرائح جمع قريحة، وهي القوة التي يستنبط بها المعقولات. قوله عليه السلام: «من لا يقدر قدره» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(١) أي ما عرفوا الله حق معرفته، أو ما عظموا الله حق تعظيمه؛ والهواجس: الخواطر والوساوس.

قوله عليه السلام: «في عميقات غيوب ملكه» أي إذا أرادت الأوهام أن تثبته في منتهى ملكه المغيب عن الأبصار كفوق العرش مثلاً، أو إذا أرادت أن تصل إلى حقيقته بسبب التفكرات العميقة في أسرار ملكه أي خلقه أو سلطنته^(٢). و«خطر الوسواس» بتسكين الطاء مصدر خطر له خاطر أي عرض في قلبه. «وتولّيت إليه» أي اشتدّ عشقها حتى أصابه الوله وهو الحيرة.

قوله عليه السلام: «وغمضت مداخل العقول» أي غمض دخولها ودق في الأقطار العميقة التي لا تبلغها التوصيفات^(٣). والردع: الكف والمنع. و«ردعت» على بناء المجهول أي كل من الأوهام والفكر والقلوب. والخاسي: المبعد والصاغر. وقوله عليه السلام: «تجوب» أي تقطع. والمهاوي المهالك، الواحدة مهواة، وهي ما بين حبلين أو حائطين أو نحو ذلك. والسدف: جمع سدف وهي الظلمة والقطعة من الليل المظلم. و«جبهت» أي ردّت من جبهته، أي صككت جبهته. والجور: العدول عن الطريق. و«الاعتساف»: قطع المسافة على غير جادة معلومة. وقوله عليه السلام: «وهي تجوب» في موضع الحال، والعامل «ردعت». و«متخلّصة» أيضاً حال،

١. الأنعام/٩١.

٢. وفي نسخة: أو سلطانه. (هامش المطبوع)

٣. أو المعنى: خفيت طرق الفكر ودقّت، وبلغت في الخفاء والدقة إلى حدّ لا يبلغه الوصف. (هامش المطبوع)

والعامل إمّا تجوب أو ردعت. وتخلصها إليه: توجّهها بكلّيّتها في طلب إدراكه سبحانه، والحاصل أنّ جلاله تعالى يردع تلك العقول والأوهام في حال قطعها مهالك ظلم الجهالات والمغيبات، وتخلصها وتوجّهها التام إلى معرفته فترجع بعد ذلك معترفة بأنّه لا ينال كنه معرفته بالعقل الذي شأنه الجور والاعتساف، وبأنّه «لا يخطر ببال أولي الرويات» أي أصحاب الفكر. «خاطرة» أي صورة مطابقة من «تقدير جلال عزّته» لما قد مرّ مراراً أنّه منزّه من أن يكون في قوى المحدودين كنه ذاته وصفاته لأنّ تلك الصورة مخلوقة له، وهو لا يشابه خلقه، فكيف يوافقه في الحقيقة أو يشبهه، «وإنّما يشبّه الشيء بعديله» فيلزم أن تكون تلك الصورة عديلاً له، أو المراد أنّ العقل والوهم والخيال إنّما تحيط بما جانسها وشابهها وبما شاهد أمثاله من الممكنات وهو تعالى ليس له شبيه ولا عديل فكيف تحيط به.

قوله عليه السلام: «في مجد جبروته» أي بسببه أو كائنات فيه، والحاصل أنّ عظمة جبروته وجلاله تمنع عن نفوذ الأبصار فيه. قوله عليه السلام: «إذ حجبها» أي الأبصار، وإرجاع الضمير إلى الجبروت بعيد أي حجب الأبصار عنه بحجب لا تنفذ الأبصار «في ثخن كثافته» أي غلظته، والأظهر «كثافتها» لرجوع الضمير إلى الحجب، ولعلّ الأفراد لأخذ الحجب كلّها بمنزلة حجاب واحد، أو يقال: إنّ الضمير راجع إلى الحجاب المذكور في ضمن الحجب، أي لا تنفذ في واحد منها فكيف في جميعها، والمراد بالحجب الحجب المعنويّة الراجعة إلى تقدّسه تعالى ونقص الممكنات.

قوله عليه السلام: «ولا تخرق» أي الأبصار متوجّهات «إلى ذي العرش متانة ستراته» الخصيصة به تعالى. والمتانة: الاستحكام، وإنّما نسب الخرق إليها مجازاً أي ستراته المتينة؛ ويمكن أن يقرأ تخرق على بناء المجهول، و«متانة» بالنصب بنزع الخافض أي لمتانة؛ وفي بعض النسخ: «مباثة» بالباء الموحدة ثمّ الثاء المثناة من باث الشيء يبوّث بوّثاً، أي بحث عنه، فيكون فاعلاً للخرق أي لا تخرق الحجب إلى ذي العرش البحث عن خصائص ستراته، ويقال: «تصاغرت» إليه نفسه أي تحاقرت. «وعنت الوجوه» أي خضعت وذلت.

قوله عليه السلام: «فوجّهه بجهة» أي وجّه كلّ شيء إلى جهة، و غاية خلقه لها، كالخيل للركوب، والفلك للدوران، وأصناف الإنسان للعلم والمعرفة وسائر الصنائع والحرف، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾^(١)، وقال النبي ﷺ: كُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ.

قوله عليه السلام: «فلم يبلغ منه شيء محدود منزلته» أي منزلة الربّ تعالى، أو أنّ كلّاً منهم في مرتبة التقصير عمّا خلق له وعمّا هيئ له من الكمال، والأظهر: فلم يتعدّ، ولعلّه صحّف أي لا يمكن لأحد التعدي والتجاوز عمّا قدّر له من الكمال والاستعداد، ويؤيده ما في النهج: «قدّر ما خلق، فأحكم تقديره، ودبّره فألطف تدبيره،

ووجهه لوجهته فلم يتعدّ حدود منزلته، ولم يقصّر دون الانتهاء إلى غايته».

قوله عليه السلام: «ولم يستصعب» أي لم يمتنع. قوله عليه السلام: «بلا معاناة» أي مقاساة شدة. واللغوب: التعب والإعياء أي لم يكن له تعالى في خلق الأشياء وتدبيرها على ما ذكر معاناة ولا لغوب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾^(١). و«المكايدة» في بعض النسخ بالباء الموحدة من قولهم: كابدت الأمر إذا قاسيت شدته، وفي بعضها «بالباء المثناة من تحت» من الكيد.

قوله عليه السلام: «ووافى الوقت» أي لم يتأخر عن الوقت الذي أراد وجوده فيه. و«إجابة» مفعول لأجله. قوله عليه السلام: «لم يعترض»^(٢) أي لم يعرض للأشياء في إجابة دعوته سبحانه بطؤ ولا تأخير، أو لم يعرض له تعالى من جهة ما هو فاعل شيء من تلك الكيفيات. و«الريث»: البطؤ. و«الأناء»: التأني. و«المتلكي»: المتأخر والمتوقّف. والأود بالتحريك: الاعوجاج.

قوله عليه السلام: «ونهى» أي أنهى وأعلم وبينّ المعالم التي وضع على الحدود التي لا ينبغي لها التجاوز عنها في غاياتها التي مرّت الإشارة إليها، أو من النهاية أي وضع معالم الحدود في نهاية ما قرّر لهم من امتدادات المسافات المعنوية التي لا ينبغي لهم أن يخرجوا عنها، ويقال: «لائم» بين كذا وكذا أي جمع. قوله عليه السلام: «ووصل أسباب قرائنها» إشارة إلى أنّ الموجودات لا تنفك عن أشياء تقترب بها من الهيئات والأشكال والغرائز وغيرها، واقترب الشئيين مستلزم لاقترب أسبابهما واتصالها، وذلك الوصل مستند إليه تعالى لأنّه مسبب الأسباب؛ وقيل: المراد بالقرائن النفوس المقرونة بالأبدان، واعتدال المزاج سبب بقاء الروح أي وصل أسباب أنفسها بتعديل أمزجتها؛ وقيل: المراد هدايتها لما هو الأليق بها في معاشها ومعادها من قول القائل: وصل الملك أسباب فلان، إذا علّقه عليه ووصله ببرّه وإنعامه، ثمّ المراد بالأجناس أعمّ ممّا هو مصطلح المنطقيين. وقوله عليه السلام: «بدايا» خبر مبتدأ محذوف أي هي بدايا مخلوقات، وبدايا هاهنا جمع بديئة، وهي الحالة العجيبة، يقال: أبدى الرجل، إذا جاء بالأمر المعجب البديء، والبديئة أيضاً: الحالة المبتدأة المبتكرة، ومنه قولهم: فعله باديء بديء على فاعل أي أول كلّ شيء.

قوله عليه السلام: «انتظم علمه» لعلّه بمعنى نظم وإن لم يرد فيما عندنا من كتب اللغة، أو علمه منصوب بنزع الخافض أي بعلمه، أو في علمه أي انتظم في علمه تعالى جميع أصناف الخلق وأحوالها، فكان علمه تعالى سلك نظم جميع الأشياء فيه؛ ويحتمل أن يكون من قولهم: انتظمه بالرمح: إذا اختلّه وجعله فيه كما مرّ.

١. ق/٣٨.

٢. اعترض دون الشيء: حال دونه، أي لم يحلّ دون اجابته بطؤ المبطئ وتناقله، ولا تأتي المتعلل وإناته، بل أجابوا كلهم ربهم طائعين

مقهورين بلا تأخير ولا توقف. (هامش المطبوع)

قوله عليه السلام: «وبتلاحم» التلاحم: الالتصاق. «والحقّة» بالضم: رأس الورك الذي فيها عظم الفخذ، ورأس العضد الذي فيه الوابله، والجمع أحقاق وحقاق بالكسر أي من شبهه بخلقه في ربط مفاصلهم، ودخول بعضها في بعض، وشدة ارتباطها واستحكامها، وكون المفاصل محتاجة بما يسترها ويكتنفها من اللحم والجلد، وكل ذلك بتدبير حكمته، فمن حكم بهذا التشبيه فإنه «لم يعقد غيب ضميره» أي ما غيب في ضميره أو ضميره المغيب عن الخلق على معرفته تعالى؛ ويمكن أن يقرأ يعقد على المعلوم وغيب بالنصب، وعلى المجهول وغيب بالرفع.

قوله عليه السلام: «لم يتناه في العقول» أي لم تصل العقول إلى نهاية معرفته بالوصول إلى كنه ذاته وصفته، أو ليس في العقول ذنوايات؛ «وكونه في مهبّ الفكر» أي محلّها «مكثفاً» على الوجهين ظاهر بنحو ما مرّ تقريره مراراً، وكذا كونه محدوداً بالحدود الجسمانيّة أو العقلانيّة، وكونه مصرّفاً أي متغيّراً، ولا يخفى ما في تشبيه الرويات أو محلّها بالحواصل من اللطف. وإضافة الرويات إلى الهمم لامية أي الرويات نشأت من همم النفوس وعزماؤها؛ ويحتمل أن تكون بيانيّة بأن يكون المراد بهم النفوس خواطرها.

قوله عليه السلام: «أضمر عليها» الضمير راجع إلى «القريحة»، ولعلّ «على» تعليليّة؛ ويحتمل أن يراد «بالقريحة» نفس الفكر مجازاً. قوله عليه السلام: «أفادها» أي استفادها؛ «والسدّد» جمع السدّة وهي الباب المغلق، وقد مرّ الكلام في آخر الخطبة في باب النهي عن التفكير.

١٦٠٧. التوحيد^(١): الدقاق، عن الأَسَدِيِّ، عَنِ الْبَرْمَكِيِّ، عَنِ عَلِيِّ بْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأَشْعَرِيِّ، عَنْ فَتْحِ بْنِ يَزِيدَ الْجُرْجَانِيِّ قَالَ: كَتَبْتُ إِلَى أَبِي الْحَسَنِ الرُّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ التَّوْحِيدِ، فَكَتَبَ إِلَيَّ بِخَطِّهِ - قَالَ جَعْفَرٌ: وَإِنَّ فَتْحًا أَخْرَجَ إِلَيَّ الْكِتَابَ فَقَرَأْتُهُ بِخَطِّ أَبِي الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ - : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُلْهِمِ عِبَادَةَ الْحَمْدِ، وَقَاطِرِهِمْ عَلَى مَعْرِفَةِ رُبُوبِيَّتِهِ، الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَيَحْدُوثِ خَلْقِهِ عَلَى أَرْزَلِيَّتِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شِبْهَ لَهُ^(٣)، الْمُسْتَشْهِدِ بِآيَاتِهِ عَلَى قُدْرَتِهِ، الْمُتَمَتِّعِ مِنَ الصِّفَاتِ ذَاتُهُ، وَمِنَ الْأَبْصَارِ رُؤْيَتُهُ، وَمِنَ الْأَوْهَامِ الْإِحَاطَةُ بِهِ، لَا أَمَدَ لِكَوْنِهِ،

١. أخرجه الكليني في الكافي عن محمد بن الحسين، عن صالح بن حمزة، عن فتح بن عبد الله مولى بني هاشم قال: كتبت إلى أبي إبراهيم عليه السلام أسأله عن شيء من التوحيد - إلى آخر الحديث - وعن علي بن محمد، عن سهل بن زياد، عن شباب الصيرفي واسمه محمد بن الوليد، عن علي بن سيف بن عميرة، قال: حدّثني إسماعيل بن قتيبة قال: دخلت أنا وعيسى بن شلقان على أبي عبد الله عليه السلام فابتدأنا فقال: عجباً لأقوام يدعون على أمير المؤمنين عليه السلام ما لا يتكلم به قط. خطب أمير المؤمنين عليه السلام الناس بالكوفة فقال: الحمد لله الملهم. ثم ذكر مثل الحديث إلا أنّ في آخره اختلافاً واختصاراً، ورواه الرضا «رحمه الله» في النهج باختلاف في صدره وذيله. (هامش المطبوع)

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٥٦، ج ٤؛ الكافي، ج ١، باب جوامع التوحيد، ص ١٣٩، ح ٥ و ٦؛ نهج البلاغة (لصحي الصالح)، ص ٢١١، خطبة ١٥٢.

٣. في نسخة: وبأشباههم على أن لا شبه له. (هامش المطبوع) وكذا في المصدر.

وَلَا غَايَةَ لِتَقَاتِهِ، لَا تَشْمَلُهُ الْمَشَاعِرُ^(١)، وَلَا تَحْجُبُهُ الْحِجَابُ، فَالْحِجَابُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ^(٢) لَا مُمْتَنَاعٍ مِمَّا يُمَكِّنُ فِي دَوَاتِهِمْ، وَلَا مَكَانَ دَوَاتِهِمْ مِمَّا يَمْتَنِعُ مِنْهُ دَاتُهُ، وَلَا فِتْرَاقَ الصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ، وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ، وَالْحَادِّ وَالْمَحْدُودِ، أَحَدٍ لَا يَتَأَوَّلُ عَدَدَ، الْخَالِقِ لَا يَمْنَى^(٣) حَرَكَهَ، السَّمِيعِ لَا يَأْدَاةَ، الْبَصِيرِ لَا يَتَفَرِّقُ آلَةً، الشَّاهِدِ لَا بِمُاسَّةٍ، الْبَائِنِ لَا بِبِرَاحٍ مَسَافَةٍ، الْبَاطِنِ لَا بِاجْتِنَانٍ، الظَّاهِرِ لَا بِمُحَادٍ، الَّذِي قَدْ حَسَرَتْ دُونَ كُنْهِهِ نَوَافِدُ الْأَبْصَارِ، وَأَقْمَعَ وَجُودُهُ^(٤) جَوَائِلَ الْأَوْهَامِ، أَوَّلُ الدِّيَانَةِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ الْمَعْرِفَةِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ التَّوْحِيدِ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمُوصُوفِ، وَشَهَادَةِ الْمُوصُوفِ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، وَشَهَادَتُهُمَا جَمِيعاً عَلَى أَنْفُسِهِمَا بِالْبَيِّنَةِ، الْمُتَمَتِّنِ مِنْهَا الْأَزَلُّ، فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ فَقَدْ حَدَّهُ^(٥)، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزْلَهُ، وَمَنْ قَالَ كَيْفَ فَقَدْ اسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ عَلامَ فَقَدْ حَمَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: أَيْنَ فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ، وَمَنْ قَالَ: إِلَامَ فَقَدْ وَقَّتَهُ، عَالِمٌ إِذْ لَا مَعْلُومَ، وَخَالِقٌ إِذْ لَا مَخْلُوقَ، وَرَبٌّ إِذْ لَا مَرْبُوبَ، وَإِلَهُ إِذْ لَا مَالُوهَ، وَكَذَلِكَ يُوصَفُ رَبُّنَا وَهُوَ فَوْقَ مَا يَصِفُهُ الْوَاصِفُونَ.

توضيح:

«لا أمد» أي أزلاً. «ولا غاية» أي أبداً. قوله عليه السلام: «وبين خلقه» وفي الكافي بعد ذلك: «خلقهم إياهم لا ممتناعه» وهو أظهر، والمعنى على ما في الكتاب: أن ليس احتجابه إلا لهذه الوجوه، وقد مرَّ تحقيقها مراراً^(٦). قوله عليه السلام: «مما يمتنع» كلمة «من» صلة أو تبعيضية.

قوله عليه السلام: «لا بتفريق آله» أي بفتح العين أو بعث الأشعة وتوزيعها على المبصرات على القول بالشعاع، أو تقليب الحدقة وتوجيهها مرة إلى هذا المبصر ومرة إلى ذاك، كما يقال: فلان مفرّق الهمة والخاطر إذا وزّع فكره على حفظ أشياء متباينة ومراعاتها «والبراح» الزوال عن المكان. وفي النهج والكافي: «لا بتراخي مسافة».

قوله عليه السلام: «لا باجتنان» الاجتنان: الاستتار أي إنه باطن، بمعنى أن العقول والأفهام لا تصل إلى كنهه لا باستتاره بستر وحجاب، أو علم البواطن لا بالدخول فيها والاستتار بها. قوله عليه السلام: «لا بمحاذ» أي لا بأن

١. في نهج البلاغة: «لا تستلمه المشاعر».

٢. في الكافي: «لا تحجبه الحجب، والحجاب بينه وبين خلقه خلقه إياهم»، وفي نهج البلاغة: «لا تحجبه السواتر».

٣. في المصدر والكافي والنهج: «لا بمعنى».

٤. في المصدر: «نوافذ الأبصار وامتنع وجوده».

٥. في الكافي: «الشاهد لا بمماسّة والباطن لا باجتنان والظاهر البائن لا بتراخي مسافة، أزاله نهية لمجاول الأفكار، ودوامه ردع لطامحات العقول، قد حسر كنهه نوافذ الأبصار، وقمع وجوده جوائل الأوهام فمن وصف الله فقد حدّه».

٦. بأنه خالق بريء عن الإمكان ولوازمه وأنهم مخلوقة ممكنة، قاصرة عن نيل الوصول إلى ذاته وصفاته فالحجاب بينه وبين خلقه قصورهم وكماله. (هامش المطبوع)

يحاذيه شيء فيراه، وليست هذه الكلمة في بعض النسخ، وفيها: «الظاهر الذي قد حسرت». وقمعه كمنعه: ضربه بالمقمة^(١)، وقهره وذلك كأقمعه^(٢)، وأقمعته: طلع عليّ فردته. والوجود: يحتمل أن يكون هنا بمعنى الوجدان. و«جوائل الأوهام»: الأوهام الجائلة المترددة في أنواع دقائق المعاني. قوله عليه السلام: «بالبينة» أي المبينة للآخر؛ وفي الكافي: «بالتثنية» وهي أظهر؛ وقد مرّ شرح سائر الفقرات.

١٦٠٨. التوحيد^(٣): الدَّقَائِقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ الْبَرْمَكِيِّ، عَنِ عَلِيِّ بْنِ الْعَبَّاسِ، عَنِ ابْنِ مَحْبُوبٍ^(٤)، عَنْ حَمَادِ بْنِ عَمْرِو النَّصِيبِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عليه السلام عَنِ التَّوْحِيدِ فَقَالَ: وَاحِدٌ، صَمَدٌ، أَزَلِيٌّ، صَمَدِيٌّ^(٥) لَا ظِلَّ لَهُ يُمَسِّكُهُ وَهُوَ يُمَسِّكُ الْأَشْيَاءَ بِأَظْلَتِهَا، عَارِفٌ بِالْمَجْهُولِ، مَعْرُوفٌ عِنْدَ كُلِّ جَاهِلٍ، فَرْدَانِيٌّ لَا خَلْقَ فِيهِ وَلَا هُوَ فِي خَلْقِهِ، غَيْرُ مَحْسُوسٍ وَلَا مَجْسُوسٍ^(٦)، لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ، عَلَا فَقَرَبَ، وَدَنَا فَبَعَدَ، وَعَصِي فَغَفَرَ، وَأَطِيعَ فَشَكَرَ، لَا تَحْوِيهِ أَرْضُهُ، وَلَا تُقَلِّهُ^(٧) سَمَواتُهُ، وَإِنَّهُ حَامِلُ الْأَشْيَاءِ بِقُدْرَتِهِ، دَيُّومِيٌّ أَزَلِيٌّ، لَا يَنْسَى وَلَا يَلْهُو، وَلَا يَغْلُظُ وَلَا يَلْعَبُ، وَلَا لِإِرَادَتِهِ فَضْلٌ، وَفَضْلُهُ جَزَاءٌ، وَأَمْرُهُ وَاقِعٌ، لَمْ يَلِدْ فَيُورَثَ، وَلَمْ يُولَدْ فَيُشَارَكَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْوًا أَحَدٌ.

بيان:

«صمدي» النسبة للمبالغة كالأحمري. قوله عليه السلام: «لا ظلّ له» الظلّ من كلّ شيء شخصه أو وقاؤه أو ستره أي لا شخص ولا شبح له يمسكه كالبدن للنفس، والفرد الماديّ للحصّة^(٨) أو لا وافي له يقيه^(٩)، ومنهم من حمل الظلال على المثل الأفلاطونية^(١٠)؛ وقيل: المراد بالظلّ الكنف^(١١)، يقال: فلان في ظلّ فلان أي كنفه.

١. المِقْمَعَةُ: خشبة يضرب بها الإنسان على رأسه، راجع القاموس المحيط.

٢. أقمعه: قهره وذلك، راجع لسان العرب.

٣. التوحيد (للمصدق)، ص ٥٧، ح ١٥؛ الكافي، ج ١، باب النسبة، ص ٩١، ح ٢؛ تفسير البرهان، ج ٥، ص ٨٠٠، ح ١٢٠٢١.

٤. في الكافي والبرهان: «محمد بن يحيى، عن ابن عيسى ومحمد بن الحسين، عن ابن محبوب، ...».

٥. في الكافي والبرهان: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال عليه السلام: نسبة الله إلى خلقه أحداً صمداً أزلياً صمداً».

٦. الجسّ: المسّ باليد، راجع القاموس المحيط.

٧. تُقَلِّ: ترفع وتحمل، راجع النهاية.

٨. الحصّة: النصيب، راجع لسان العرب.

٩. الحاشية على أصول الكافي (لمحمد بن حيدر النائيني)، ص ٣٠٩.

١٠. ينسب هذا المذهب (المثل الأفلاطونية) إلى أفلاطون، قال: إن بين العالم المحسوس - أي الخارجي - والعالم المعقول عالماً آخر، يسمى (عالم المثال)، ليس في تجرّد المجرّدات، ولا في مقارنة الماديّات، وكل كلي وكل جزئي من الخارجيّات فله صورة تحاكيه من ذلك العالم. بحيث يصحّ أن يقال: إنّه هو كأنّ الشيء واحد، عوالمه مختلفة، (التعليقات على شرح العقائد العنصرية، ص ٣٧١).

١١. الحاشية على أصول الكافي (للعلي العاملي)، ص ٢٤٤.

أقول:

ويحتمل أن يكون المراد بالظلّ الروح، إذ كثيراً ما يطلق عالم الظلال على عالم الأرواح، أو الأبنية التي يكون الخلق عليها أو تحتها، وهو يمسك الأشياء بأظلفتها أي بأشخاصها وأشباحها، أو بوقاياتها أو بمثلها أو أرواحها أو بالأبنية التي تقلّها وتظلّها، و«الباء» للسببية أو بمعنى «مع».

قوله عليه السلام: «ولا لإرادته فصل» أي لا فصل بينها وبين المراد أي لا يتأخّر ولا ينفصل مراده عن إرادته، أو لا تنقطع إرادته بل هو كلّ يوم في شأن أبد الدهر، أو لا قاطع لإرادته يمنعها عن تعلّقها بالمراد؛ وقيل: أي ليست إرادته فاصلة بين شيء وشيء، بل تتعلّق بكلّ شيء^(١)؛ وقيل: ليس لإرادته فصل أي شيء يداخله فيكون به راضياً أو سائطاً إنّما كونه راضياً أو سائطاً بالاثابة والعقاب كما قال عليه السلام: «وفصله جزاء»، أو المعنى أنّه لا يكون لإرادته في فعل العبد قطع بالمراد فيتعيّن وقوعه، إنّما قطعه في المراد من العبد الجزاء^(٢).

أقول:

على الوجوه الأولى المراد بقوله عليه السلام: «وفصله جزاء» أنّ فصله بين عباده المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٣) جزاء لهم، وهو غير جائز فيه؛ ويحتمل أن يكون الفصل في الأوّل القضاء بالحقّ بين الحقّ والباطل أي لا يقضي في إرادته أحد، بل هو الفاصل بينهم في الآخرة بمجازاتهم، وفي بعض النسخ: «وفصله» بالضادّ المعجمة أي سمّي ما ينفصل به عليهم جزاء ولا يستحقّ أحد عليه شيئاً.

١٦٠٩. التوحيد^(٤): ابن الوليد، عن الصفّار وسعدٍ معاً، عن ابن عيسى والنّهديّ وابن أبي الخطّاب كلّهم، عن ابن محبوب، عن عمرو بن أبي المقدام^(٥)، عن إسحاق بن غالب، عن أبي عبد الله عليه السلام، عن آباءه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ في بعض خطبه: الحمد لله الذي كان في أوليّته وخدانيّته، وفي أزليّته متّعظاً بالآلهيّة، متكبّراً بكبريائه وجبروته، ابتدأ ما ابتدع وأنشأ ما خلق على غير مثال كان سبق لشيء مما خلق، ربّنا القديم بلطف ربوبيّته، وبعلم خبره^(٦) فتق، وإحكام^(٧) قدرته خلق جميع ما خلق، ونور الإصباح^(٨) فلق، فلا مبدل لخلقّه، ولا مغيّر لصنعه،

١. الحاشية على أصول الكافي (لعلوي العاملي)، ص ٢٤٦.

٢. الحاشية على أصول الكافي (لمحمد بن حيدر النائيني)، ص ٣١٢.

٣. الحجّ/١٧.

٤. التوحيد (للصدوق)، ص ٤٤، ح ٤؛ علل الشرائع، ج ١، ص ١١٩، ح ١؛ كفاية الأثر، ج ١، ص ١٦٠.

٥. في العلل: «ابن الوليد، عن الصفّار، عن ابن عيسى، عن الحسين بن علي، عن عمرو بن أبي المقدام،...».

٦. الخبر: العلم بالشيء، راجع لسان العرب.

٧. أحكمه إحكاماً: أتقنه، راجع تاج العروس.

٨. الإصباح: هو أوّل النهار، والفجر، راجع لسان العرب.

وَلَا مُعَقَّبٌ لِحُكْمِهِ^(١) وَلَا رَادٌّ لِأَمْرِهِ، وَلَا مُسْتَرَاخٌ عَنْ دَعْوَتِهِ، وَلَا زَوَالٌ لِمُلْكِهِ، وَلَا انْقِطَاعٌ لِمُدَّتِهِ، وَهُوَ الْكَئِنُونُ أَوْلاً، وَالْدَّيْمُومُ أَبَداً، الْمُحْتَجَّبُ بِنُورِهِ دُونَ خَلْقِهِ^(٢)، فِي الْأَفْقِ الطَّامِحِ، وَالْعِزُّ الشَّامِخِ، وَالْمُلْكُ الْبَازِخِ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ عَلا، وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ دَنَا، فَتَجَلَّى لِحَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ يُرَى، وَهُوَ بِالْمَنْظَرِ الْأَعْلَى، فَأَحَبُّ الْإِخْتِصَاصِ بِالتَّوْحِيدِ إِذَا اخْتَجَبَ بِنُورِهِ، وَسَمَّا^(٣) فِي عُلوِّهِ، وَاسْتَرَّ عَنْ خَلْقِهِ، وَبَعَثَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ لِتَكُونَ لَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَى خَلْقِهِ، وَيَكُونَ رُسُلُهُ إِلَيْهِمْ شُهَدَاءَ عَلَيْهِمْ، وَابْتَعَثَ فِيهِمُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَلِيَقْلِلَ الْعِبَادُ عَنْ رَبِّهِمْ مَا جَهِلُوا، فَيَعْرِفُوهُ بِرُبُوبِيَّتِهِ بَعْدَ مَا أَنْكَرُوا، وَيُوحِّدُوهُ بِالْإِلَهِيَّةِ بَعْدَ مَا عَنَدُوا^(٤).

بيان:

قوله ﷻ: «متعظماً» أي مستحقاً للتعظيم أو عظيماً في غاية العظمة، وكذا قوله ﷻ: «متكبراً»؛ والغرض أنه لم يكن عظمته وكبريائه وإلهيته متوقفة على إيجاد خلقه، وقوله ﷻ: «ربنا» مبتدأ و«فتق» خبره، والظرفان متعلقان بفتق، وإضافة العلم إلى الخبر للتأكيد، وفي بعض النسخ بالجيم، قوله ﷻ: «فلق» أي ظلمة الليل، وهو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْأَصْبَاحِ﴾^(٥).

قوله ﷻ: «لا معقب لحكمه» أي لا راد له، وحقيقته الذي يعقب الشيء بالإبطال. «والمستراح»: محل الاستراحة أي لا مفر عن دعوته. و«الكينون» و«الديموم» مبالغتان في الكائن والدائم. قوله ﷻ: «المحتجب بنوره» أي ليس حجاب به إلا نوريته أي تجرّده وكماله ورفعته وجلاله. «والطامح»: المرتفع كالشامخ والباذخ، يقال: جبل شامخ أي شاهق، وشرف باذخ أي عال.

قوله ﷻ: «وهو بالمنظر الأعلى» المنظر: الموضع المرتفع الذي ينظر إليه أي موضعه أرفع من أن ينظر إليه بالأبصار والأوهام والعقول، أو المراد بالمنظر المدارك والمشاعر أي هو أعلى وأرفع من أن يكون في مشاعر الخلق؛ ويحتمل أن يكون كناية عن علمه بكل شيء أي الموضع الذي ينظر فيه^(٦) أعلى من كل شيء، إذ الأعلى ينظر إلى الأسفل غالباً بسهولة.

قوله ﷻ: «فأحب الاختصاص بالتوحيد» أي بكونه موحداً أي لا يوحدّه ولا يعرفه غيره كما هو، إذ هو

١. لا معقب لحكمه: لا أحد يتعقبه ويبحث عن فعله، من قولهم: عقّب الحاكم على حكم من قبله: إذا تتبّعه، ويجوز أن يكون ذلك نهياً للناس أن يخوضوا في البحث عن حكمه وحكمته إذا خفيت عليهم، ويكون ذلك من نحو النهي عن الخوض في سرّ القدر، راجع مفردات ألفاظ القرآن.

٢. في العلل تبدأ الرواية بهذه العبارة: «الحمد لله المتعجب بالنور دون خلقه...».

٣. سما: ارتفع، راجع لسان العرب.

٤. في المصدر: «ما عضدوا».

٥. الأنعام/٩٦.

٦. وفي نسخة: ينظر منه. (هامش المطبوع)

محتجب عنهم، أو أحب أن يوحدوه فقط دون غيره، إذ لو كان ظاهراً للعقول والحواس كان مشاركاً للممكنات في الوحدة الاعتبارية فلا تكون الوحدة الصادقة عليه مختصة به، وعلى هذا فالمحبة مؤولة باقتضاء ذاته تعالى من حيث كماله ذلك، وكذا على الأول، إلا أن يقال: إن المراد أنه حجب عنهم أولاً ما يمكنهم من معرفته ثم أفاض معرفته عليهم بتوسط الأنبياء والرسل عليهم السلام، وبما يحصل لهم من القربات بالطاعات ليعلموا أن ليس توحيدهم له إلا بتوفيقه وهدايته تعالى، ويؤيده ما بعده، لا سيما قوله عليه السلام: «وليعقل العباد».

١٦١٠. التوحيد^(١): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنْ مُحَمَّدٍ الْعَطَّارِ وَأَحْمَدَ بْنِ إِدْرِيسَ، عَنِ الْأَشْعَرِيِّ، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ رَفَعَهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ صِفْ لِي رَبَّكَ حَتَّى كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَأَطْرَقَ^(٢) الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام مَلِيًّا^(٣) ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ أَوَّلٌ مَعْلُومٌ، وَلَا آخِرٌ مُتَنَاهٍ، وَلَا قَبْلُ مُدْرَكٌ، وَلَا بَعْدُ مَحْدُودٌ، وَلَا أَمَدٌ^(٤) بِحَتَّى، وَلَا شَخْصٌ فَيَتَجَزَّأُ، وَلَا اخْتِلَافٌ صِفَةٍ فَيَتَنَاهَى، فَلَا تُدْرِكُ الْعُقُولُ وَأَوْهَامُهَا، وَلَا الْفِكَرُ وَخَطَرَاتُهَا، وَلَا الْأَلْبَابُ وَأَذْهَانُهَا صِفَتَهُ فَيَقُولُ: مَتَى^(٥)؟ وَلَا بُدْءٌ مِمَّا، وَلَا ظَاهِرٌ عَلَى مَا، وَلَا بَاطِنٌ فِيهَا، وَلَا تَارِكٌ فَهَلَا، خَلَقَ الْخَلْقَ فَكَانَ بَدِئًا بَدِيعًا، ابْتَدَأَ مَا ابْتَدَعَ، وَابْتَدَعَ مَا ابْتَدَأَ، وَفَعَلَ مَا أَرَادَ، وَأَرَادَ مَا اسْتَزَادَ، ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ^(٦).

بيان:

قوله عليه السلام: «معلوم» هذه الصفة والصفات التي بعدها موضحات مؤكدات، إذ لو كان له أول لكان معلوماً، وهكذا قوله عليه السلام: «فيتناهى» أي اختلاف الصفات ينافي الأزلية والأبدية كما مرّ مراراً^(٧). قوله عليه السلام: «فتقول: متى» أي لو كانت العقول تبلغ صفته لكان كسائر الممكنات فكان يصح أن يقال: متى وجد؟ ومن أي شيء بدئ؟ على المجهول، أو بدأ الأشياء بأن يقرأ على الفعل المعلوم أو على فعل، وعلى أي شيء علا فهو ظاهر، وفي أي شيء بطن حتى يقال: إنّه باطن، أو يقال لشيء ترك: هلاً فعل تحضيضاً وتحريضاً على الفعل أو توبيخاً على تركه؛ والابتداع: إيجاد بلا مادة أو بلا مثال.

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٤٥، ح ٥.

٢. أطرق: إذا سكت فلم يتكلم وأرعى عينيه ينظر إلى الأرض، راجع لسان العرب.

٣. ملياً: طويلاً، راجع لسان العرب.

٤. الأمد: الغاية ومنتهى الأجل، راجع لسان العرب.

٥. في المصدر: «فتقول: متى».

٦. وفي نسخة: ذلكم الله ربّي رب العالمين. (هامش المطبوع)

٧. تتمّة كتاب التوحيد، أبواب أسمائه تعالى، باب ٤، جوامع التوحيد.

١٦١١. التوحيد^(١): الدَّقَاقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ الْبَرْمَكِيِّ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ بُرْدَةَ، عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَمْرِو الْقُتَيْبِيِّ، عَنِ أَبِي الْقَاسِمِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْعُلَوِيِّ، عَنِ فَتْحِ بْنِ يَزِيدَ الْجُرْجَانِيِّ^(٢) قَالَ: لَقِيْتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٣) عَلَى الطَّرِيقِ عِنْدَ مُنْصَرَفِي عَنْ مَكَّةَ إِلَى خُرَاسَانَ، وَهُوَ سَائِرٌ إِلَى الْعِرَاقِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَنْ اتَّقَى اللَّهَ يَتَّقَى، وَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ يُطَاعُ. فَتَلَطَّفْتُ^(٤) فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ فَوَصَلْتُ، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: يَا فَتْحُ، مَنْ أَرْضَى الْخَالِقَ لَمْ يُبَالِ بِسَخَطِ الْمَخْلُوقِ، وَمَنْ أَسَخَطَ الْخَالِقَ فَقَمَنْ أَنْ يُسَلِّطَ عَلَيْهِ سَخَطَ الْمَخْلُوقِ، وَإِنَّ الْخَالِقَ لَا يُوصَفُ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسُهُ، وَأَنْتَى يُوصَفُ الَّذِي تَعْجِزُ الْخَوَاسِ أَنْ تُدْرِكَهُ، وَالْأَوْهَامُ أَنْ تَنَالَهُ، وَالْخَطَرَاتُ أَنْ تَحُدَّهُ، وَالْأَبْصَارُ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِهِ، جَلَّ عَمَّا وَصَفَهُ الْوَاصِفُونَ، وَتَعَالَى عَمَّا يَنْعَتُهُ النَّاعِتُونَ، نَأَى^(٥) فِي قُرْبِهِ، وَقُرْبُ فِي نَأْيِهِ، فَهُوَ فِي نَأْيِهِ^(٦) قَرِيبٌ، وَفِي قُرْبِهِ بَعِيدٌ^(٧)، كَيْفَ الْكَيْفَ فَلَا يَقَالُ لَهُ: كَيْفَ، وَأَيُّنَ الْأَيُّنَ فَلَا يَقَالُ لَهُ: أَيْنَ، إِذْ هُوَ مُبْدِعُ الْكَيْفُوفِيَّةِ وَالْأَيُّونِيَّةِ.

يَا فَتْحُ، كُلُّ جِسْمٍ مُعَدَّى بِغِذَاءٍ إِلَّا الْخَالِقَ الرَّازِقَ، فَإِنَّهُ جَسَمَ الْأَجْسَامِ وَهُوَ لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا صُورَةٍ، لَمْ يَنْجَزْهُ وَلَمْ يَنْتَاهِ، وَلَمْ يَنْزَايِدْ وَلَمْ يَنْقَاصْ، مُبَرَّأٌ مِنْ ذَاتٍ مَا رَكَّبَ فِي ذَاتٍ مِنْ جَسَمِهِ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْوًا أَحَدٌ، مُنْشِئُ الْأَشْيَاءِ وَمَجَسِّمُ الْأَجْسَامِ، وَمُصَوِّرُ الصُّورِ، لَوْ كَانَ كَمَا تَقُولُ الْمُشَبِّهَةُ لَمْ يُعْرِفِ الْخَالِقُ مِنَ الْمَخْلُوقِ، وَلَا الرَّازِقُ مِنَ الْمَرْزُوقِ، وَلَا الْمُنْشِئُ مِنَ الْمُنْشَأِ؛ لَكِنَّهُ الْمُنْشِئُ فَرَّقُ بَيْنَ مَنْ جَسَمَهُ وَصُورَهُ وَشَيْئَاهُ وَبَيْنَهُ إِذْ كَانَ لَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ.

١. التوحيد (للمصدق)، ص ٦٠، ح ١٨؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب جوامع التوحيد، ص ١٣٧، ح ٣، وباب آخر من معاني الأسماء، ص ١١٨، ح ١، مقطوعاً مع اختلاف العبارات؛ وجاء في عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ١، ص ١٢٧، ح ٢٣، مع نقصان.

٢. في الكافي بهذا الإسناد: «علي بن إبراهيم، عن المختار بن محمد بن المختار ومحمد بن الحسن، عن عبد الله بن الحسن العلوي جميعاً عن الفتح بن يزيد الجرجاني، عن أبي الحسن عليه السلام، وفي العيون: «ما جيلويه، عن علي بن إبراهيم، عن المختار بن محمد بن المختار، عن الجرجاني، عن أبي الحسن عليه السلام».

٣. أقول: الضمير يرجع إلى أبي الحسن عليه السلام كما في الكافي حيث قال في صدر الحديث بعد ذكر إسناد: «الفتح بن يزيد الجرجاني قال: ضمني وأبا الحسن عليه السلام الطريق في منصرفي من مكة إلى خراسان». والمراد من أبي الحسن هو أبو الحسن الثاني الرضا عليه السلام كما تقدم قبل ذلك، أو أبو الحسن الثالث عليه السلام كما حكى عن كشف الغمّة، ولعل الطبقة لا يأبى صلاحيته للرواية عنهما عليه السلام، فحيث أطلق أبا الحسن ولم يقيده بالثاني أو الثالث فيحتاج تعيينه إلى قرينة، والأمر سهل. (هامش المطبوع)

٤. تلطف في الأمر: ترفق، راجع أساس البلاغة.

٥. نأى: بُعد، راجع لسان العرب.

٦. في المصدر: «في بعده».

٧. إشارة إلى أن قربه بالأشياء وبعده عنها ليس بالاتصاف والافتراق، إذ لو كان كذلك لامتنع أن يكون قريباً في حال بعده، وبعيداً في حال قربه، بل يكون قريباً باعتبار إحاطته علماً بالأشياء، وقهره قدرة عليها، وبعيداً عنهم باعتبار عدم مجانسته ومشايعته عنهم، وعن عقولهم وإدراكاتهم باعتبار أنها لا يمكنها أن تحوم حول حمى ذاته وصفاته. (هامش المطبوع)

قُلْتُ: قَالَهُ وَاحِدٌ وَالْإِنْسَانُ وَاحِدٌ، فَلَيْسَ قَدْ تَشَابَهَتِ الْوَحْدَانِيَّةُ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَحَلَّتْ^(١) تَبَنُّكَ اللَّهُ إِنَّمَا التَّشْبِيهُ فِي الْمَعْنَى، وَأَمَّا فِي الْأَسْمَاءِ فَهِيَ وَاحِدَةٌ، وَهِيَ دَلَالَةٌ عَلَى الْمُسَمَّى، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ وَإِنْ قِيلَ وَاحِدٌ فَإِنَّهُ يُخْبِرُ أَنَّهُ جُثَّةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَيْسَ بِاثْنَيْنِ، وَالْإِنْسَانُ نَفْسُهُ لَيْسَ بِوَاحِدٍ لِأَنَّ أَعْضَاءَهُ مُخْتَلِفَةٌ، وَالْوَانَةُ مُخْتَلِفَةٌ غَيْرُ وَاحِدَةٍ، وَهُوَ أَجْزَاءٌ مُجَزَّئِي، لَيْسَ سِوَاهُ^(٢)، دَمُهُ غَيْرُ لَحْمِهِ، وَلَحْمُهُ غَيْرُ دَمِهِ، وَعَصَبُهُ غَيْرُ عُرْوَقِهِ، وَشَعْرُهُ غَيْرُ بَشَرِهِ، وَسَوَادُهُ غَيْرُ بَيَاضِهِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ جَمِيعِ الْخَلْقِ، فَالْإِنْسَانُ وَاحِدٌ فِي الْأِسْمِ لَا وَاحِدٌ فِي الْمَعْنَى، وَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَاحِدٌ لَا وَاحِدَ غَيْرُهُ، وَلَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا تَفَاوُتَ، وَلَا زِيَادَةَ وَلَا نُقْصَانَ، فَأَمَّا الْإِنْسَانُ الْمَخْلُوقُ الْمَصْنُوعُ الْمُؤَلَّفُ فَمِنْ أَجْزَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَجَوَاهِرِ شَتَّى، غَيْرَ أَنَّهُ بِالْاجْتِمَاعِ شَيْءٌ وَاحِدٌ.

قُلْتُ: فَقَوْلُكَ: اللَّطِيفُ فَسَّرَهُ لِي، فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّ لُطْفَهُ خِلَافُ لُطْفِ غَيْرِهِ لِفَقْصِ غَيْرِ أَتَى أَحَبُّ أَنْ تَشْرَحَ لِي، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا فَتْحُ، إِنَّمَا قُلْتُ: اللَّطِيفُ لِلْخَلْقِ اللَّطِيفِ وَلِعِلْمِهِ بِالشَّيْءِ اللَّطِيفِ، أَلَا تَرَى إِلَى أَثَرِ صُنْعِهِ فِي النَّبَاتِ اللَّطِيفِ وَغَيْرِ اللَّطِيفِ وَفِي الْخَلْقِ اللَّطِيفِ مِنْ أَجْسَامِ الْحَيَوَانِ مِنَ الْجَرَجِسِ^(٣) وَالْبَعُوضِ وَمَا هُوَ أَصْغَرُ مِنْهُمَا مِمَّا لَا يَكَادُ تَسْتَبِينُهُ الْعُيُونُ، بَلْ لَا يَكَادُ يُسْتَبَانُ لِصِغَرِهِ الذِّكْرُ مِنَ الْأُنْثَى، وَالْمَوْلُودُ مِنَ الْقَدِيمِ، فَلَمَّا رَأَيْنَا صِغَرَ ذَلِكَ فِي لُطْفِهِ وَاهْتِدَاءَهُ لِلْسَفَادِ^(٤)، وَالْهَرَبَ مِنَ الْمَوْتِ، وَالْجَمْعَ لِمَا يُصْلِحُهُ مِمَّا فِي لُجَجِ الْبِحَارِ، وَمَا فِي لِحَاءِ الْأَشْجَارِ وَالْمَفَاوِزِ^(٥) وَالْقَفَارِ^(٦)، وَإِقْهَامَ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضِ مَنْطِقِهَا، وَمَا تَفَهَّمُ بِهِ أَوْلَادُهَا عَنْهَا، وَتَقْلَهَا الْغِذَاءَ إِلَيْهَا، ثُمَّ تَأْلِفُ أَلْوَانَهَا حُمْرَةً مَعَ صُفْرَةٍ، وَبَيَاضاً مَعَ حُمْرَةٍ عَلِمْنَا أَنَّ خَالِقَ هَذَا الْخَلْقِ لَطِيفٌ، وَأَنَّ كُلَّ صَانِعٍ شَيْءٍ فَمِنْ شَيْءٍ صَنَعَ، وَاللَّهُ الْخَالِقُ اللَّطِيفُ الْجَلِيلُ خَلَقَ وَصَنَعَ لَا مِنْ شَيْءٍ.

قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ وَغَيْرِ الْخَالِقِ الْجَلِيلِ خَالِقٍ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٧) فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ فِي عِبَادِهِ خَالِقِينَ وَغَيْرِ خَالِقِينَ، مِنْهُمْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلَقَ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِ اللَّهِ، فَفَتَحَ فِيهِ فَصَارَ طَائِراً بِإِذْنِ اللَّهِ، وَالسَّامِرِيُّ خَلَقَ لَهُمْ عَجَلاً جَسَداً لَهُ خُوراً^(٨).^(٩)

١. أحال الرجل: أتى بالمُحال وتكلم به، راجع لسان العرب.

٢. في الكافي: ليست بسواء.

٣. الجرّجس: البقّ والبعوض الصغار، راجع تاج العروس.

٤. السفاد: نزو الذكر على الأنثى، راجع لسان العرب.

٥. المفاوز: جمع المفازة، وهي البريّة القفر، راجع لسان العرب.

٦. القفر: الأرض الخالية التي لا نبات ولا ماء بها، وجمعه: قفار، راجع النهاية.

٧. المؤمنون / ١٤.

٨. الخوار: صوت الثور، راجع لسان العرب.

٩. في هذه الرواية فائدة، نثبتها عليها في ذيل ح ١٥٥٨.

قُلْتُ: إِنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلَقَ مِنَ الطِّينِ طَيْرًا دَلِيلًا عَلَى نُبُوتِهِ، وَالسَّامِرِيُّ خَلَقَ عِجْلًا جَسَدًا لِنَقْضِ نُبُوتِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَذَلِكَ؟ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْعَجَبُ! فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَيْحَكَ يَا فَتْحُ، إِنَّ لِلَّهِ إِرَادَتَيْنِ وَمَشِيتَيْنِ: إِرَادَةٌ حَتْمٌ، وَإِرَادَةٌ عَزْمٌ، يَنْهَى وَهُوَ يَشَاءُ، وَيَأْمُرُ وَهُوَ لَا يَشَاءُ، أَوْ مَا رَأَيْتَ أَنَّهُ نَهَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَزَوَّجَتْهُ عَنْ أَنْ يَأْكُلَا مِنَ الشَّجَرَةِ وَهُوَ شَاءَ ذَلِكَ؟ وَلَوْ لَمْ يَشَأْ لَمْ يَأْكُلَا، وَلَوْ أَكَلَا لَغَلَبَتْ مَشِيتُهُمَا مَشِيتَةَ اللَّهِ^(١)، وَأَمَرَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَبْحِ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَشَاءَ أَنْ لَا يَذْبَحَهُ وَلَوْ لَمْ يَشَأْ أَنْ لَا يَذْبَحَهُ لَغَلَبَتْ مَشِيتَةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَشِيتَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٢).

قُلْتُ: فَرَجَّتْ عَنِّي فَرَجَ اللَّهِ عَنْكَ غَيْرَ أَنَّكَ قُلْتَ: السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، سَمِيعٌ بِأَذُنٍ، وَبَصِيرٌ بِالْعَيْنِ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهُ يَسْمَعُ بِمَا يُبْصِرُ وَيَرَى بِمَا يَسْمَعُ، بَصِيرٌ لَا بِعَيْنٍ مِثْلَ عَيْنِ الْمَخْلُوقِينَ، وَسَمِيعٌ لَا بِمِثْلِ سَمْعِ السَّامِعِينَ، لَكِنْ لَمَّا لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ^(٣) مِنْ أَثَرِ الذَّرَّةِ السُّودَاءِ عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ^(٤) فِي اللَّيْلَةِ الظُّلُمَاءِ تَحْتَ الثَّرَى وَالْبَحَارِ، قُلْنَا: بَصِيرٌ لَا بِمِثْلِ عَيْنِ الْمَخْلُوقِينَ، وَسَمِيعٌ بِمَا لَمْ تَشْتَبِهْ عَلَيْهِ ضُرُوبُ اللُّغَاتِ^(٥)، وَلَمْ يَشْغَلْهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ، قُلْنَا: سَمِيعٌ لَا بِمِثْلِ السَّامِعِينَ.

قُلْتُ: جُعِلَتْ فِدَاكَ قَدْ بَقِيتَ مَسْأَلَةً، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هَاتِ لِلَّهِ أَبُوكَ. قُلْتُ: يَغْلُمُ الْقَدِيمُ الشَّيْءَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ أَنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَيْحَكَ إِنَّ مَسَائِلَكَ لَصَعْبَةٌ، أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٦) وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٧) وَقَالَ - يَخْكِي قَوْلَ أَهْلِ النَّارِ - : ﴿أَخْرَجْنَا نَعْمَلُ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾^(٨) وَقَالَ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾^(٩) فَقَدْ عَلِمَ الشَّيْءَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ أَنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ؛ فَقُمْتُ لِأَقْبَلَ يَدَهُ وَرَجَلَهُ فَأَدْنَى رَأْسَهُ فَقَبَّلْتُ وَجْهَهُ وَرَأْسَهُ فَخَرَجْتُ وَبَيَّ مِنَ الشُّرُورِ وَالْفَرَحِ مَا أَعْجَزُ عَنْ وَصْفِهِ لِمَا تَبَيَّنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَالْحَظِّ.

بيان:

«قمن» بالتحريك وكسر الميم أيضاً أي خليك وجدير. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مغذّي بغذاء» أي كلّ جسم ذي روح له غذاء يقويه ولو كان التسبيح والتقديس؛ ويحتمل أن يكون الغذاء شاملاً لكلّ شيء يقوي الجسم ويربّيه

١. وفي نسخة: ولو لم يشأ أن يأكلا لغلبيت مشيتهما مشية الله. (هامش المطبوع)

٢. في هذه الرواية فائدة، تنبها عليها في ذيل ح ١٥٤٣.

٣. في المصدر: «لكن لَمَّا لم يخف عليه خافية».

٤. الصماء: الصخرة التي ليس فيها خرق ولا صدع، راجع لسان العرب.

٥. في المصدر: «بصير لا بمثل عين المخلوقين ولَمَّا لم يشتبه عليه ضروب اللغات».

٦. الأنبياء/٢٢.

٧. المؤمنون/٩١.

٨. فاطر/٢٧.

٩. الأنعام/٢٨.

ويبقية فلا حاجة إلى تخصيص الجسم. قوله عليه السلام: «من ذات ما ركب» أي هو مبرراً من كل حقيقة وماهية وعارض ركب في ذوات الأجسام.

قوله عليه السلام: «وبينه» يحتمل التشديد والتخفيف فلا تغفل^(١). «واللحاء» بكسر اللام ممدوداً قشر الشجر. قوله عليه السلام: «لله أبوك» قال الجزري: إذا أضيف الشيء إلى عظيم شريف اكتسب عظماً وشرفاً، كما قيل: بيت الله، وناقته الله، فإذا وجد من الولد ما يحسن موقعه ويحمد قيل: لله أبوك في معرض المدح والتعجب أي أبوك لله خالصاً حيث أنجب بك وأتى بمثلك. انتهى.

وقد مضى شرح أكثر أجزاء الخبر، وسيأتي شرح بعضها في كتاب العدل إن شاء الله تعالى.

١٦١٢. التوحيد^(٢): أَخْبَرَنِي أَبُو الْعَبَّاسِ الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ الْكِنْدِيُّ - فِيمَا أَجَارَهُ لِي بِهِمَدَانُ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ - قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَهْلٍ - يَغْنِي الْعَطَّارُ الْبُعْدَادِيُّ لَفْظاً مِنْ كِتَابِهِ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَلَاثِمِائَةٍ - قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَلَوِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا عُمَارَةُ بْنُ زَيْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَلَاءِ^(٣)، قَالَ: حَدَّثَنِي صَالِحُ بْنُ سُبَيْعٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ صَعَصَعَةَ بْنِ صُوحَانَ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ أَبِي الْمُعْتَمِرِ مُسْلِمِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: حَضَرْتُ مَجْلِسَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فِي جَامِعِ الْكُوفَةِ فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مُصَفَّرُ اللَّوْنِ كَأَنَّهُ مِنْ مَثَوْدَةٍ^(٤)، أَلَيْمَنَ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صِفْ لَنَا خَالِقَكَ وَانْعُهُ لَنَا كَأَنَّا نَرَاهُ وَنَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَسَبَّحَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَبَّهُ وَعَظَّمَهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ لَا بَدِيءٍ مِمَّا، وَلَا بَاطِنٍ فِيمَا، وَلَا يَزَالُ مَهْمًا، وَلَا مُمَارِجٌ مَعَ مَا، وَلَا خِيَالٌ وَهْمًا، لَيْسَ بِشَيْخٍ فَيَرَى، وَلَا بِجِسْمٍ فَيَتَجَزَّأُ، وَلَا بِذِي غَايَةٍ فَيَتَنَاهَى، وَلَا بِمُحَدَّثٍ فَيُبْصَرُ، وَلَا بِمُسْتَتَرٍ فَيُكْشَفُ، وَلَا بِذِي حُجُبٍ فَيُخَوَى، كَانَ وَلَا أَمَاكِنُ تَحْمِلُهُ أَكْنَافُهَا، وَلَا حَمَلَةٌ^(٥) تَرْفَعُهُ بِقُوَّتِهَا^(٦)، وَلَا كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، بَلْ حَارَتِ الْأَوْهَامُ أَنْ يُكَيَّفَ الْمُكَيَّفَ لِلْأَشْيَاءِ، وَمَنْ لَمْ يَزَلْ بِلَا مَكَانٍ وَلَا يَزُولُ بِاخْتِلَافِ الْأَرْمَانِ، وَلَا يَنْقَلِبُ شَأْنًا بَعْدَ شَأْنٍ، الْبَعِيدُ مِنْ حَدْسِ الْقُلُوبِ، الْمُتَعَالِي عَنِ الْأَشْبَاهِ^(٧) وَالضُّرُوبِ، الْوُثْرُ عَلَامُ الْغُيُوبِ، فَمَعَانِي الْخَلْقِ عَنْهُ مَنْفِيَّةٌ، وَسَرَائِرُهُمْ عَلَيْهِ غَيْرُ خَفِيَّةٍ، الْمَعْرُوفُ بِغَيْرِ كَيْفِيَّةٍ، لَا يَدْرُكُ

١. فعلى التخفيف يكون مصدر بان يبين أي انقطع، ومبتدأ لقوله: إذا كان لا يشبهه شيء. أي انقطاعه عن الخلق وبينوته عنهم يثبت إذا لم يكن يشبهه شيء. (هامش المطبوع)

٢. التوحيد (للمصدق)، ص ٧٧، ح ٣٤.

٣. في المصدر: «عبد الله بن العلاء».

٤. هوّده: حوّله يهودياً، راجع الطراز الأول.

٥. حملة: جمع الحامل، يقال: هم حملة العرش وحملة القرآن، راجع لسان العرب.

٦. إيعاز إلى بطلان مقالة التجسيم والتشبيه، وأنه سبحانه مقدّس عن ذلك، وأن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وقوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ ليسا محمولين على ظاهرهما. (هامش المطبوع)

٧. في المصدر: «عن الأشياء».

بِالْحَوَاسِّ، وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ، وَلَا تُحِيطُهُ الْأَفْكَارُ^(١)، وَلَا تُقَدَّرُهُ الْعُقُولُ، وَلَا تَقَعُ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ، فَكُلُّ مَا قَدَّرَهُ عَقْلٌ أَوْ عَرَفَ لَهُ مِثْلٌ فَهُوَ مَحْدُودٌ، وَكَيْفَ يُوصَفُ بِالْأَشْبَاحِ، وَيُنَعْتُ بِالْأَلْسِنِ الْفَصَاحِ مَنْ لَمْ يَخْلُ فِي الْأَشْيَاءِ فَيَقَالَ: هُوَ فِيهَا كَائِنٌ، وَلَمْ يَنَأْ عَنْهَا فَيَقَالَ: هُوَ عَنْهَا بَائِنٌ، وَلَمْ يَخُلْ مِنْهَا فَيَقَالَ: أَيْنَ، وَلَمْ يَقْرُبْ مِنْهَا بِالْإِلْتِرَاقِ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِالْإِفْتِرَاقِ، بَلْ هُوَ فِي الْأَشْيَاءِ بِلاَ كَيْفِيَّةٍ، وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْنَا مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وَأَبْعَدُ مِنَ الشُّبْهَةِ^(٢) مِنْ كُلِّ بَعِيدٍ، لَمْ يَخْلُقِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أُصُولٍ أَرْلِيَّةٍ، وَلَا مِنْ أَوَائِلٍ كَانَتْ قَبْلَهُ بِدِيَّةٍ، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ وَأَثَقَنَ خَلْقَهُ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ، فَسُبْحَانَ مَنْ تَوَحَّدَ فِي عُلُوِّهِ فَلَيْسَ لَشَيْءٍ مِنْهُ امْتِنَاعٌ، وَلَا لَهُ بِطَاعَةِ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ انْتِقَامٌ^(٣)، إِجَابَتُهُ لِلدَّاعِينَ سَرِيعَةً، وَالْمَلَائِكَةُ لَهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مُطِيعَةٌ، كُلَّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا بِلاَ جَوَارِحٍ وَأَدْوَاتٍ وَلَا شَفَعَةٍ وَلَا لَهَوَاتٍ^(٤)، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الصِّفَاتِ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ إِلَهَ الْخَلْقِ مَحْدُودٌ فَقَدْ جَهِلَ الْخَالِقَ الْمُعْبُودَ. والخطبة طويلة أخذنا منها موضع الحاجة.

بيان:

قوله عليه السلام: «لا بديء» على فاعل أي لا يقال: بدأ الأشياء ممّا، إذ لم يخلقها من شيء، وكونه فعلاً بمعنى المفعول أو فعلاً على بناء المجهول بعيد. قوله عليه السلام: «ولا يزال مهما» كلمة مهما هنا ظرف زمان جيء بها لتعميم الأزمان أي لا يزول أبداً؛ ويحتمل أن يكون حرف نفي آخر مقدراً، أو يكون معطوفاً على المنفي سابقاً أي ليس لا يزال مقيداً بمهما يكن كذا؛ ويمكن أن يكون سقوط أحدهما من النسخ لتوهم التكرار. «ولا ممازج مع ما» أي لا يمكن أن يقال: مع أي شيء ممازج.

قوله عليه السلام: «ولا خيال وهما» أي غير متخيّل بالوهم. قوله عليه السلام: «ليس بشبح» أي شخص. قوله عليه السلام: «ولا بمحدث فيبصر» أي لو كان مبصراً لكان محدثاً، فلا يتوهم منه أن كلّ محدث مبصر. قوله عليه السلام: «فيحوى» أن تكون الحجب حاوية له أو يكون جسماً محوياً بالحدود والنهايات. قوله عليه السلام: «والضروب» وهي جمع الضرب بمعنى المثل، أو المراد ضرب الأمثال. قوله عليه السلام: «بالأشباح» أي الصور الخيالية والعقلية، أو بصفات الأشخاص.

قوله عليه السلام: «من أصول أزلية» ردّ على الفلاسفة القائلين بالعقول والهيولى القديمة^(٥). قوله عليه السلام: «كانت

١. في المصدر: «ولا تحيط به الأفكار».

٢. في المصدر: «وأبعد من الشبه».

٣. في المصدر: «انتفاع».

٤. اللهاة من كلّ ذي خلق: اللحمة المشرفة على الحلق، والجمع: لهوات، راجع لسان العرب.

٥. الكلام يصلح رداً على المادة الثابتة القديمة وعلى القائلين بتركيب الخلقة من النور والظلمة وأمثال ذلك، وأمّا العقول المجردة التي قيل بها

قبله» أي قبل خلق هذا العالم أي لم يكن خلق هذا العالم على مثال علم آخر كانت بديّة أي مبتدأة مخلوقة قبله، أو مبتدأة بنفسه من غير علّة، «بل خلق ما خلق» ابتداء من غير أصل مع غاية الاتقان والإحكام، «وصور ما صور» بعلمه من غير مثال على نهاية الحسن.

قوله عليه السلام: «انتقام» أي لا يحتاج في الانتقام عن العاصين إلى طاعة أحد من خلقه بل قدرته كافية، أو لا ينتقم مع الطاعة فيكون ظالماً، والأظهر أنّه تصحيف «انتفاع» كما سيأتي ممّا سننقله من النهج^(١).

١٦١٣. التوحيد^(٢): أَبِي وَابْنُ عُبدُوسٍ، عَنِ ابْنِ قُتَيْبَةَ، عَنِ الْفَضْلِ بْنِ شاذَانَ، عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى سَيِّدِي مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقُلْتُ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَّمَنِي التَّوْحِيدَ، فَقَالَ: يَا أَبَا أَحْمَدَ، لَا تَتَجَاوَزْ فِي التَّوْحِيدِ^(٣) مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرَهُ فِي كِتَابِهِ فَتَهْلِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَاحِدٌ أَحَدٌ صَمَدٌ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ فَيُشَارَكَ، وَلَمْ يَتَّخِذْ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا وَلَا شَرِيكًا، وَأَنَّهُ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْقَادِرُ الَّذِي لَا يَعْجزُ، وَالْقَاهِرُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ، وَالْحَلِيمُ الَّذِي لَا يَعْجَلُ، وَالِدَائِمُ الَّذِي لَا يَبِيدُ، وَالْبَاقِي الَّذِي لَا يَفْنَى، وَالثَّابِتُ الَّذِي لَا يَزُولُ، وَالْغَنِيُّ الَّذِي لَا يَفْتَقِرُ، وَالْعَزِيزُ الَّذِي لَا يَذَلُّ، وَالْعَالِمُ الَّذِي لَا يَجْهَلُ، وَالْعَدْلُ الَّذِي لَا يَجُورُ، وَالْجَوَادُ الَّذِي لَا يَبْخُلُ، وَأَنَّهُ لَا تُقَدَّرُهُ الْعُقُولُ، وَلَا تَعُوقُ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْأَقْطَارُ^(٤)، وَلَا يَخُويهِ مَكَانٌ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَذْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا، وَهُوَ الْأَوَّلُ الَّذِي لَا شَيْءَ قَبْلَهُ، وَالْآخِرُ الَّذِي لَا شَيْءَ بَعْدَهُ، وَهُوَ الْقَدِيمُ وَمَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ مُخَدَّثٌ، تَعَالَى عَنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

١٦١٤. التوحيد^(٥): الطَّائِقَانِي، عَنِ الْجَلُودِيِّ، عَنِ الْجَوْهَرِيِّ، عَنِ الضَّبِّيِّ، عَنِ أَبِي بَكْرٍ الْهَذَلِيِّ، عَنِ عِكْرَمَةَ قَالَ: بَيْنَمَا ابْنُ عَبَّاسٍ يُحَدِّثُ النَّاسَ إِذْ قَامَ إِلَيْهِ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ فَقَالَ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ تُثْنِي فِي النَّمْلَةِ وَالْقَمْلَةِ^(٦)، صِفْ لَنَا إِلَهَكَ الَّذِي تَعْبُدُهُ، فَطَرَّقَ ابْنُ عَبَّاسٍ إِعْظَامًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَانَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَالِسًا نَاحِيَةً فَقَالَ: إِلَهِي يَا ابْنَ

→ فلا يشملها لأن كلمة «من» نشوئية تدل على المادية، ولا يقال: إن الأشياء خلقت من العقول. وأمّا التوسط في السببية فالكلام لا يشمل نفي الأسباب من الوجود بلا شبهة. (هامش المطبوع نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»)

١. تتمّة كتاب التوحيد، أبواب أسمائه تعالى، باب ٤ جوامع التوحيد.

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ٧٦، ح ٣٢؛ روضة الواعظين، ج ١، ص ٣٥.

٣. وفي نسخة: لا تتجاوز في التوحيد. (هامش المطبوع)

٤. الأقطار: جمع القطر وهو الناحية والجانب، راجع لسان العرب.

٥. التوحيد (للصدوق)، ص ٧٩، ح ٣٥؛ وقد ورد في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، ص ٥١، مروياً عن الرضا عليه السلام بهذا

المضمون: روضة الواعظين، ج ١، ص ٣٤.

٦. القملة: صغار الذرّ والذبي، راجع لسان العرب.

الْأَزْرَقِ، فَقَالَ: لَسْتُ بِإِيَّاكَ أَسْأَلُ! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَا ابْنَ الْأَزْرَقِ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ النَّبُوَّةِ وَهُمْ وَرَثَةُ الْعِلْمِ، فَأَقْبَلَ نَافِعُ بْنُ الْأَزْرَقِ نَحْوَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا نَافِعُ، إِنَّ مَنْ وَضَعَ دِينَهِ عَلَى الْقِيَاسِ لَمْ يَزَلِ الدَّهْرَ فِي الْإِزْتِمَاسِ^(١)، مَاثِلًا عَنِ الْمُنْهَاجِ، ظَاعِنًا^(٢) فِي الْإِعْوَاجِ، ضَالًّا عَنِ السَّبِيلِ، قَائِلًا غَيْرَ الْجَمِيلِ. يَا ابْنَ الْأَزْرَقِ أَصِفْ إِلَهِي بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسُهُ، وَأَعْرِفْهُ بِمَا عَرَفَ بِهِ نَفْسُهُ، لَا يَذْرُكُ بِالْحَوَاسِّ، وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ، فَهُوَ غَرِيبٌ^(٤) غَيْرُ مُلْتَصِقٍ، وَبَعِيدٌ غَيْرُ مُتَقَصِّصٍ^(٥)، يُوَحِّدُ وَلَا يُبْعَضُ، مَعْرُوفٌ بِالْآيَاتِ، مُوصُوفٌ بِالْعَلَامَاتِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ.

بيان:

«على القياس» أي مقايضة الرب تعالى بالخلق، أو الأعم أي الحكم بالعقل في الله تعالى ودينه. والتقضي: غاية البعد.

١٦١٥. التوحيد^(٦): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنِ الصَّقَّارِ، عَنِ ابْنِ عِيْسَى، عَنْ عَلِيِّ بْنِ سَيْفٍ بْنِ عَمِيرَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى الرُّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لِي: قُلْ لِلْعَبَّاسِيِّ: يَكْفُ عَنْ الْكَلَامِ فِي التَّوْحِيدِ وَغَيْرِهِ، وَيَكَلِّمُ النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، وَيَكْفُ عَمَّا يُنْكِرُونَ، وَإِذَا سَأَلُوكَ عَنِ التَّوْحِيدِ فَقُلْ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٧) وَإِذَا سَأَلُوكَ عَنِ الْكَيْفِيَّةِ فَقُلْ: كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٨) وَإِذَا سَأَلُوكَ عَنِ السَّمْعِ فَقُلْ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٩) كَلَّمَ النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ^(١٠).

١٦١٦. التوحيد^(١١): ابْنُ عِصَامٍ، عَنِ الْكَلْبِيِّ، عَنْ عَلَّانٍ، عَنْ سَهْلٍ وَغَيْرِهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْجَعْفَرِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سِنَانٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَظِيمٌ رَفِيعٌ لَا يَقْدِرُ الْعِبَادُ عَلَى صِفَتِهِ، وَلَا يَبْلُغُونَ كُنْهَ عَظَمَتِهِ، لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، وَلَا يُوصَفُ بِكَيْفٍ وَلَا أَيْنٍ وَلَا حَيْثٍ، وَكَيْفَ أَصْفُهُ بِكَيْفٍ وَهُوَ الَّذِي كَيْفَ الْكَيْفِ حَتَّى صَارَ كَيْفًا فَعَرَفْتُ الْكَيْفَ بِمَا كَيْفَ لَنَا مِنَ الْكَيْفِ؛ أَمْ كَيْفَ

١. لم يزل دهره في ارتماس: لا يزال دهره منغمساً في الضلال والعمى عن الحق، راجع مجمع البحرين.

٢. في الروضة: «في التباس».

٣. ظعن: ذهب وسار، راجع لسان العرب.

٤. في المصدر والروضة: «فهو قريب».

٥. في الروضة: «غير منفصل».

٦. التوحيد (للصدوق)، ص ٩٥، ح ١٤؛ إثبات الهداة، ج ١، ص ٨٢، ح ٢٠.

٧. الإخلاص / ١-٤.

٨. الشورى / ١١.

٩. البقرة / ١٣٧.

١٠. أورده أيضاً في باب التوحيد ونفي الشريك. (هامش المطبوع)

١١. التوحيد (للصدوق)، ص ١١٥، ح ١٤؛ الكافي، ج ١، باب النهي عن الصفة، ص ١٠٣، ح ١٢.

أَصِفُهُ بِأَيْنٍ وَهُوَ الَّذِي أَتَيْنَ الْأَيْنَ حَتَّى صَارَ أَيْنٌ^(١) فَعَرَفْتُ الْأَيْنَ بِمَا أَتَيْنَ لَنَا مِنَ الْأَيْنِ؛ أَمْ كَيْفَ أَصِفُهُ بِحَيْثٍ وَهُوَ الَّذِي حَيْثَ الْحَيْثُ حَتَّى صَارَ الْحَيْثُ فَعَرَفْتُ الْحَيْثَ بِمَا حَيْثَ لَنَا مِنَ الْحَيْثِ؛ فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى دَاخِلٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَخَارِجٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

بيان:

«الحيث»: تأكيد للأَيْن، أو هو بمعنى الجهة، أو الزمان كما مرّ سابقاً.

١٦١٧. التوحيد^(٢): ابْنُ الْوَلِيدِ، عَنْ مُحَمَّدٍ الْعَطَّارِ، عَنْ ابْنِ أَبِي، عَنْ ابْنِ أَوْرَمَةَ، عَنْ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ، عَنْ عَبْدِ الْأَعْلَى، عَنْ الْعَبْدِ الصَّالِحِ - يَعْنِي مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ -^(٣) قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كَانَ حَيًّا بِلَا كَيْفٍ وَلَا أَيْنَ، وَلَا كَانَ فِي شَيْءٍ، وَلَا كَانَ عَلَى شَيْءٍ، وَلَا ابْتَدَعَ لِمَكَانِهِ مَكَانًا^(٤)، وَلَا قَوِيَ بَعْدَ مَا كَوْنَ الْأَشْيَاءُ، وَلَا يُشَبِّهُهُ شَيْءٌ، مُكُونٌ^(٥)، وَلَا كَانَ خِلَافًا مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْمُلْكِ قَبْلَ انْشَاءِهِ، وَلَا يَكُونُ خِلَافًا مِنَ الْقُدْرَةِ بَعْدَ ذَهَابِهِ، كَانَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَهًا حَيًّا بِلَا حَيَاةٍ حَادِثَةٍ، مَلِكًا قَبْلَ أَنْ يُنْشَأَ شَيْئًا، وَمَالِكًا بَعْدَ انْشَاءِهِ، وَلَيْسَ لِلَّهِ حَدٌّ، وَلَا يُعْرَفُ بِشَيْءٍ يُشَبِّهُهُ، وَلَا يَهْرَمُ^(٦) لِلْبَقَاءِ، وَلَا يَصْعَقُ لِدُعْوَةِ شَيْءٍ^(٧)، وَلِخَوْفِهِ تَصْعَقُ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا، فَكَانَ اللَّهُ حَيًّا بِلَا حَيَاةٍ حَادِثَةٍ، وَلَا كَوْنٍ مَوْصُوفٍ، وَلَا كَيْفٍ مَحْدُودٍ، وَلَا أَيْنَ مَوْقُوفٍ، وَلَا مَكَانٍ سَاكِنٍ، بَلْ حَيٌّ لِنَفْسِهِ، وَمَالِكٌ لَمْ تَزَلْ لَهُ الْقُدْرَةُ، أَنْشَأَ مَا شَاءَ حِينَ شَاءَ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، كَانَ أَوَّلًا بِلَا كَيْفٍ، وَيَكُونُ آخِرًا بِلَا أَيْنٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

بيان:

«الذعر» بالضم: الخوف. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَلَا أَيْنَ مَوْقُوفٍ» أي موقوف عليه كما في الكافي أي أين استقرّ الربّ تعالى عليه، أو المعنى أنّه لو كان له أين لكان وجوده متوقفاً عليه محتاجاً إليه؛ ويحتمل على ما في الكتاب أن يكون الموقوف بمعنى الساكن، وتقييد المكان بالساكن مبني على المتعارف الغالب من كون المكان المستقرّ عليه ساكناً. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَهُ الْخَلْقُ» أي خلق الممكنات مطلقاً، «وَالْأَمْرُ» أي الأمر التكليفي؛

١. في التوحيد والكافي: «أيناً».

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ١٤١، ح ٦؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب الكون والمكان، ص ٨٨، ح ٣، بهذا المضمون.

٣. في الكافي بهذا الإسناد: «محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن الحسين بن سعيد، عن القاسم بن محمد، عن علي بن أبي حمزة، عن أبي بصير، عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ».

٤. في نسخة: ولا ابتدع لكائه مكاناً. وسيأتي ذيل الخبر الآتي بيان من المصنّف يناسب ذلك. (هامش المطبوع)

٥. في المصدر: «يكون».

٦. الهَرَم: كَثُرَ السِّنُّ، راجع الصحاح.

٧. في المصدر: «لدعوة شيء».

وقيل: المراد بالخلق عالم الأجسام والماديات أو الموجودات العينية، وبالأمر عالم المجردات أو الموجودات العلمية^(١).

١٦١٨. التوحيد^(٢): الْعَطَّارُ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ ابْنِ عِيسَى، عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي حَمَزَةَ، عَنْ أَبِي بصيرٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا جَعْفَرٍ أَخْبِرْنِي عَنْ رَبِّكَ مَتَى كَانَ؟ فَقَالَ: وَيْلَكَ إِنَّمَا يُقَالُ لَشَيْءٍ لَمْ يَكُنْ فَكَانَ: مَتَى كَانَ؟ إِنَّ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَانَ لَمْ يَزَلْ حَيًّا بِلاَ كَيْفٍ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كَانَ، وَلَا كَانَ لِكُونِهِ كَيْفٌ وَلَا كَانَ لَهُ أَيْنٌ، وَلَا كَانَ فِي شَيْءٍ، وَلَا كَانَ عَلَى شَيْءٍ، وَلَا ابْتَدَعَ لِكَانِهِ^(٣) مَكَانًا، وَلَا قَوِيَ بَعْدَ مَا كَوَّنَ شَيْئًا، وَلَا كَانَ ضَعِيفًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ شَيْئًا، وَلَا كَانَ مُسْتَوْحِشًا قَبْلَ أَنْ يُبْدَعَ^(٤) شَيْئًا، وَلَا يُشَبِّهُ شَيْئًا مُكَوَّنًا^(٥)، وَلَا كَانَ خُلُوعًا مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْمُلْكِ قَبْلَ انْشَاءِهِ^(٦)، وَيَكُونُ مِنْهُ خُلُوعًا بَعْدَ ذَهَابِهِ، لَمْ يَزَلْ حَيًّا بِلاَ حَيَاةٍ، وَمَلِكًا قَادِرًا قَبْلَ أَنْ يُشْئَى شَيْئًا^(٧)، وَمَلِكًا جَبَّارًا بَعْدَ انْشَاءِهِ لِلْكُونِ، فَلَيْسَ لِكُونِهِ كَيْفٌ، وَلَا لَهُ أَيْنٌ، وَلَا لَهُ حَدٌّ، وَلَا يُعْرَفُ بِشَيْءٍ يُشَبِّهُهُ، وَلَا يَهْرَمُ لَطُولِ الْبَقَاءِ، وَلَا يَضَعُ لَشَيْءٍ، وَلَا يُخَوِّفُهُ شَيْءٌ، تَضَعُ الْأَشْيَاءُ كُلَّهَا مِنْ خِفَّتِهِ، كَانَ حَيًّا بِلاَ حَيَاةٍ حَادِثَةٍ^(٨)، وَلَا كَوْنٍ مَوْصُوفٍ، وَلَا كَيْفٍ مَحْدُودٍ، وَلَا أَثَرٍ مَقْفُودٍ^(٩)^(١٠)، وَلَا مَكَانٍ جَاوَرَ شَيْئًا، بَلْ حَيٌّ يُعْرَفُ، وَمَلِكٌ لَمْ يَزَلْ لَهُ الْقُدْرَةُ وَالْمُلْكُ، أَنْشَأَ مَا شَاءَ^(١١) بِمَشِيئَتِهِ، لَا يُحَدُّ وَلَا يُبْعَضُ وَلَا يَفْنَى، كَانَ أَوَّلًا بِلاَ كَيْفٍ، وَيَكُونُ آخِرًا بِلاَ أَيْنٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ، لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَيْلَكَ أَيُّهَا السَّائِلُ إِنَّ رَبِّي لَا تَغْشَاهُ الْأَوْهَامُ^(١٢)، وَلَا تَنْزِلُ بِهِ الشُّبُهَاتُ وَلَا يُجَارُّ مِنْ شَيْءٍ^(١٣)، وَلَا يُجَاوِرُهُ شَيْءٌ^(١٤)، وَلَا تَنْزِلُ بِهِ الْأَحْدَاثُ^(١٥)، وَلَا يُسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ يَفْعَلُهُ،

١. الحاشية على أصول الكافي (المحمد بن حيدر النائيني)، ص ٢٩٩.

٢. التوحيد (للصدوق)، ص ١٧٣، ح ٢؛ الكافي، ج ١، باب الكون والمكان، ص ٨٨، ح ٣.

٣. في المصدر: «لكونه»، وفي الكافي: «لمكانه».

٤. في المصدر والكافي: «أن يبتدع».

٥. في الكافي: «مذكور».

٦. في الكافي: «ولا كان خلوا من الملك قبل انشاءه».

٧. أي ملكاً قاهراً مسلطاً على منشأته، قادراً على إبقائها وإفنائها. (هامش المطبوع)

٨. في المصدر: «عارية».

٩. قفا أثره: تبعه، راجع لسان العرب.

١٠. في الكافي: «ولا أين موقوف عليه».

١١. في المصدر: «أنشأ ما شاء كيف شاء بمشيئته»، وفي الكافي: «أنشأ ما شاء حين شاء بمشيئته».

١٢. لا تغشاه الأوهام: لا تباشره ولا تلابسه، راجع مجمع البحرين.

١٣. في نسخة من التوحيد: «ولا يحاذر»، وفي نسخة من الكتاب: «لا يحار من شيء ولا يحاوره شيء». (هامش المطبوع)

١٤. في التوحيد المطبوع ونسخة من الكافي: لا يجاوزه أي لا يخرج من حكمه ومشيئته شيء. (هامش المطبوع)

١٥. أحداث الدهر: نواتبه. (هامش المطبوع)

وَلَا يَقَعُ^(١) عَلَى شَيْءٍ، وَلَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى.

بيان:

قوله عليه السلام: «بلا كيف» أي بلا حياة زائدة ولا كيفيات تعدّ من لوازم الحياة في الممكنات. قوله عليه السلام: «لم يكن له كان» الظاهر أنّ «كان» اسم لم يكن، لأنّه عليه السلام لما قال: «كان» أوهمت العبارة أنّ له زماناً فنفي عليه السلام ذلك بأنّه كان بلا زمان، والتعبير بكان لضيق العبارة؛ وقيل: «كان» اسم بمعنى الكون أي ليس له وجود زائد، ولم نظفر به في اللغة، لكن نقل عن بعض أهل العربية قلب الواو والياء ألفاً مع انفتاح ما قبلهما مطلقاً؛ وقيل: أي لم يتحقّق كون شيء له من الصفات الزائدة.

وقوله عليه السلام: «ولا كان لكونه كيف» أي لم يكن وجوده زائداً ليكون اتّصافه به مكيفاً بكيف، أو لم يكن وجوده مقروناً بالكيفيات؛ ومنهم من فصل «ولم يكن له» عن «كان» أي لم يكن كيف ثابتاً له بأن يكون الواو للعطف التفسيري أو للحال، وكان ابتداء كلام وهي تامّة، والتي بعدها ناقصة حالاً عن اسم كان أي كان أزلاً والحال أنّه ليس له كيف. قوله عليه السلام: «ولا ابتدع لكانه» لعلّ إضافته إلى الضمير بتأويل، أو أنّه اسم بمعنى الكون؛ وفي بعض النسخ: «لمكانه» كما في الكافي أي ليكون مكاناً له.

قوله عليه السلام: «ولا يصعق» أي لا يفزع أو لا يغشى عليه للخوف من شيء. قوله عليه السلام: «كون موصوف» أي يمكن أن يوصف، أو زائد، أو موصوف بكونه في زمان أو مكان؛ وقيل: المراد بالكون الموصوف الوجود المتّصف بالتغيّر أو عدمه عمّا من شأنه التغيّر المعبر عنهما بالحركة والسكون^(٢). قوله عليه السلام: «يعرف» أي أنّه حيّ بإدراك آثار يعدّ من آثار الحياة. قوله عليه السلام: «ولا يحار» بالحاء المهملة من الحيرة، أو بالجيم على بناء المجهول أي لا يجيره أحد من شيء.

١٦١٩. تحف العقول^(٣): عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا»: أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَؤُلَاءِ الْمَارِقَةَ^(٤) الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بِأَنْفُسِهِمْ، يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، بَلْ هُوَ اللَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، اسْتَخْلَصَ الْوَحْدَانِيَّةَ وَالْجَبْرُوتَ، وَأَمَصَى الْمَشِيَّةَ وَالْإِرَادَةَ وَالْقُدْرَةَ وَالْعِلْمَ بِمَا هُوَ كَاتِنٌ، لَا مَنَازِعَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَلَا كُفُوَ لَهُ يُعَادِلُهُ، وَلَا ضِدَّ لَهُ يَنَازِعُهُ، وَلَا سَمِيَّ لَهُ^(٥)

١. في الكافي: «ولا يندم».

٢. الحاشية على أصول الكافي (لمحمد بن حيدر النائي)، ص ٢٩٧.

٣. ورد في تحف العقول، ص ٢٤٤، ضمن رواية.

٤. مرق من الدين: خرج منه، راجع شمس العلوم.

٥. سَمِيَّك: من اسمه اسمك ونظيرك، راجع القاموس المحيط.

يُشَابِهُهُ، وَلَا مِثْلَ لَهُ يُشَاكِكُهُ، لَا تَتَدَاوُلُهُ الْأُمُورُ، وَلَا تَجْرِي عَلَيْهِ الْأَحْوَالُ، وَلَا تَنْزِلُ عَلَيْهِ الْأَحْدَاثُ، وَلَا يَقْدِرُ الْوَاصِفُونَ كُنْهَ عَظَمَتِهِ، وَلَا يَخْطُرُ عَلَى الْقُلُوبِ مَبْلَغُ جَبَرُوتِهِ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي الْأَشْيَاءِ عَدِيلٌ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْعُلَمَاءُ بِأَلْبَابِهَا، وَلَا أَهْلُ التَّفَكِيرِ بِتَفَكِيرِهِمْ، إِلَّا بِالْحَقِيقِ إِبْقَانًا بِالْغَيْبِ لِأَنَّهُ لَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ، مَا تُصَوِّرُ فِي الْأَوْهَامِ فَهُوَ خِلَافُهُ، لَيْسَ بِرَبٍّ مِنْ طَرَحٍ تَحْتَ الْبَلَاغِ^(١)، وَمَعْبُودٍ مِنْ وَجَدٍ فِي هَوَاءٍ أَوْ غَيْرِ هَوَاءٍ، هُوَ فِي الْأَشْيَاءِ كَأَنَّ لَا كَيْنُونَةَ مَحْظُورٍ بِهَا عَلَيْهِ، وَمِنْ الْأَشْيَاءِ بَائِنٌ لَا بَيْنُونَةَ غَائِبٍ عَنْهَا، لَيْسَ بِقَادِرٍ مَنْ قَارَنَهُ ضِدٌّ، أَوْ سَاوَاهُ نِدٌّ، لَيْسَ عَنِ الدَّهْرِ قَدَمُهُ، وَلَا بِالنَّاحِيَةِ أُمَمُهُ، اخْتَجَبَ عَنِ الْعُقُولِ كَمَا اخْتَجَبَ عَنِ الْأَبْصَارِ، وَعَمَّنْ فِي السَّمَاءِ اخْتِجَابُهُ عَمَّنْ فِي الْأَرْضِ، قُرْبُهُ كَرَامَتُهُ، وَبُعْدُهُ إِهَانَتُهُ، لَا يُحِلُّهُ فِي، وَلَا تَوَقُّتُهُ إِذْ، وَلَا تَوَامُرُهُ إِنْ، عُلُوُّهُ مِنْ غَيْرِ نَوْقَلٍ^(٢)، وَمَجِيئُهُ مِنْ غَيْرِ تَنْقُلٍ، يُوجَدُ الْمَفْقُودُ، وَيُفْقَدُ الْمَوْجُودُ، وَلَا تَجْتَمِعُ لِغَيْرِهِ الصِّفَتَانِ فِي وَقْتٍ، يُصِيبُ الْفِكْرُ مِنْهُ الْإِيمَانُ بِهِ مَوْجُوداً وَوُجُودَ الْإِيمَانِ لَا وَجُودَ صِفَةٍ، بِهِ تُوصَفُ الصِّفَاتُ لَا بِهَا يُوصَفُ، وَبِهِ تُعْرَفُ الْمَعَارِفُ لَا بِهَا يُعْرَفُ، فَذَلِكَ اللَّهُ لَا سَمِيَّ لَهُ سُبْحَانَهُ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

بيان:

«استخلص الوجدانية» أي جعلها خالصة لنفسه لا يشاركه فيها غيره. و«التحقيق»: التصديق، والاستثناء منقطع أي ولكن يدرك بالتصديق بما أخبر عنه الأنبياء والحجج إيماناً بالغيب. قوله **عَالِيَالاً**: «تحت البلاغ» لعل المعنى أنه يكون محتاجاً إلى أن يبلغ إليه الأمور، أو يكون تحت ثوب يكون قدر كفايته محيطاً به؛ ويحتمل أن يكون تصحيف «التلاع» جمع التلعة^(٣) فإن الأصنام تنحت من الأحجار المطروحة تحتها، أو اليراع وهو شيء كالبعوض يغشى الوجه، أو «النقاع» جمع النقع بالكسر وهو الغبار أو السماء أو البلاء أو البناء بقريته قرينتها وهي الهواء.

قوله **عَالِيَالاً**: «محظور بها عليه» أي بأن يكون داخلها فيها فتحيط الأشياء به كالحظيرة وهي ما تحيط بالشيء خشباً أو قصباً. قوله **عَالِيَالاً**: «ليس عن الدهر قدمه» أي ليس قدمه قدماً زمانياً يقارنه الزمان دائماً^(٤).

١. البلاغ بفتح الباء: ما يبلغ. الوصول إلى الشيء، ولعل المعنى: ليس برّب من طرح تحت بلوغ الأفكار، ورمى تحت وصول الأوهام. (هامش المطبوع)

٢. في التحف المطبوع: علوه من غير توقّل، وهو الصحيح، من قولهم: توقّل في الجبل: سعد فيه. (هامش المطبوع)

٣. التلعة: أرض مرتفعة غليظة يتردّد فيها السيل، راجع لسان العرب.

٤. الجملة من جوامع الكلم، بها يفسّر موارد كثيرة من الخطب والروايات الدالة على تقدمه تعالى على الكل وتأخره عن الكل وإحاطته بالكل وأن ليس معه في أزلية ذاته قديم آخر وإلا كان إلهاً مثله - تعالى عن ذلك - وأنه أزلي أبدي كل ذلك من غير تطبيق على امتداد غير متناه زمني وإلا لكان زمانياً فهو محيط بالجميع بعين إحاطته بكل جزء منه، فلو فرض قديم زمانيّ كنفس الزمان كان تعالى قبله ومتقدماً عليه بعين تقدّمه على أجزائه، فتأمل وتبصر في موارد كثيرة تكرر عليك. (هامش المطبوع نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»).

والأهم بالتحريك: القصد أي ليس قصده بأن يتوجه إلى ناحية مخصوصة فيوجد فيه، بل أينما تَوَلَّوْا فَشَمَّ وَجْهَ اللَّهِ.

قوله عليه السلام: «ولا تؤامرهُ إن» أي ليست كلمة «إن» التي يستعملها المخلوقون عند ترددهم بقولهم: إن كان كذا فأني شيء يكون سبباً لمشاورته ومؤامراته في الأمور. ونوقل فوعل من النقل، ولم أجده فيما حضر عندي من كتب اللغة^(١). قوله عليه السلام: «في وقت» أي في وقت من الأوقات والتقييد بالاجتماع لعله وقع تنزلاً لما يتوهم من أن الأعدام يتأتى من غيره تعالى.

قوله عليه السلام: «يصيب الفكر» أي لا يصيب منه تعالى التفكير فيه إلا أن يؤمن بأنه موجود، وأن يجد صفة الإيمان ويتصف به لا أن ينال منه وجود صفة أي كنه صفة، أو صفة موجودة زائدة. فقوله عليه السلام: «وجود» معطوف على الإيمان. وقوله عليه السلام: «لا وجود» أي لا يصيب وجود، والأصوب أن العاطف في قوله عليه السلام: «وجود» زائد فيستقيم الكلام. قوله عليه السلام: «به توصف الصفات» أي هو موجد للصفات وجاعل الأشياء متصفة بها، فكيف يوصف نفسه بها، وبإفاضته تعرف المعارف فلا يعرف هو بها، إذ لا يعرف الله بمخلوقه كما مر^(٢).

١٦٢٠. تحف العقول^(٣): عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الثَّالثِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُوصَفُ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَأَنَّى يُوصَفُ الَّذِي تَعَجَّرُ الْحَوَاسُّ أَنْ تُدْرِكَهُ، وَالْأَوْهَامُ أَنْ تَنَالَهُ، وَالْخَطَرَاتُ أَنْ تَحْدَهُ، وَالْأَبْصَارُ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِهِ^(٤)؟ نَأَى فِي قُرْبِهِ، وَقَرُبَ فِي نَائِهِ^(٥)، كَيْفَ الْكَيْفَ بَعِيرٍ أَنْ يُقَالَ: كَيْفَ، وَأَيْنَ الْأَيْنَ بِلَا أَنْ يُقَالَ: أَيْنَ، هُوَ مُنْقَطِعُ الْكَيْفِيَّةِ وَالْأَيْنِيَّةِ، الْوَاحِدُ الْأَحَدُ^(٦)، جَلَّ جَلَالُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ.

١٦٢١. تفسير الإمام عليه السلام^(٧): عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ عَنْ آبَائِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا تَتَجَاوَزُوا بِنَا الْعُبُودِيَّةَ ثُمَّ قُولُوا مَا شِئْتُمْ وَلَا تَغْلُوا، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوكَ الْغُلُوكَ النَّصَارَى، فَإِنِّي بَرِيءٌ مِنَ الْغَالِينَ. قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ صِفْ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّ مَنْ قَبْلَنَا قَدْ اخْتَلَفُوا عَلَيْنَا، فَقَالَ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهُ مَنْ يَصِفُ رَبَّهُ بِأَلْقَابِ لَا يَزَالُ الدَّهْرُ

١. قد عرفت صحيحه وهو التوقُّل. (هامش المطبوع)

٢. تتمه كتاب التوحيد، أبواب أسمائه تعالى، باب ٤، جوامع التوحيد.

٣. تحف العقول، ص ٤٨٢؛ وقد ورد في الكافي، ج ١، باب جوامع التوحيد، ص ١٣٧، ح ٣، مع اختلاف العبارات؛ وجاء في كفاية الأثر، ص ١١، عن رسول الله ﷺ، ضمن رواية.

٤. في الكافي مع زيادة: «جَلَّ عَمَّا وصفه الواصفون، وتعالى عَمَّا ينعته الناعتون»، وفي الكفاية: «جَلَّ عَمَّا يصفه الواصفون».

٥. في الكافي مع زيادة: «فهو في نأيه قريب، وفي قربه بعيد».

٦. قد تمت الرواية في الكافي بهذه العبارة: «إذ هو منقطع الكيفية والأينونية»، وفي الكفاية: «هو منقطع الكيفية فيه والأينونية فهو الأحَد».

٧. ورد في تفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام، ص ٥٠، ح ٢٤، ضمن رواية؛ وجاء في التوحيد، ص ٤٧، ح ٩، مع اختلاف يسير.

فِي الْإِنْتِبَاسِ، مَاثِلًا عَنِ الْمُنْهَاجِ، ظَاغِنًا^(١) فِي الْإِعْوَاجِ، ضَالًّا عَنِ السَّبِيلِ، قَائِلًا غَيْرَ الْجَمِيلِ.
ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَعَرَفُهُ بِمَا عَرَفَ بِهِ نَفْسُهُ، أَعَرَفُهُ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، وَأَصِفُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ غَيْرِ صُورَةٍ، لَا يَدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ، وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ، مَعْرُوفٌ بِالْآيَاتِ، بَعِيدٌ بِغَيْرِ تَشْبِيهِ، وَمُتَدَانٌ فِي بُعْدِهِ لَا بِنَظِيرٍ، لَا يُتَوَهَّمُ دَيْمُومَتُهُ، وَلَا يُمَثَّلُ بِخَلْقِهِ، وَلَا يَجُوزُ فِي قَضِيَّتِهِ، الْخَلْقُ لِمَا عَلِمَ مِنْهُ مُتَقَادُونَ، وَعَلَى مَا سَطَرَ^(٢) فِي الْمَكْنُونِ مِنْ كِتَابِهِ مَاضُونَ، لَا يَعْلَمُونَ بِخِلَافِ مَا عَلِمَ مِنْهُمْ وَلَا غَيْرُهُ يُرِيدُونَ، فَهُوَ قَرِيبٌ غَيْرُ مُلْتَزِقٍ^(٣)، وَبَعِيدٌ غَيْرُ مُتَقَصِّصٍ^(٤)، يُحَقِّقُ وَلَا يُمَثِّلُ^(٥)، وَيُوَحِّدُ وَلَا يُبَعِّضُ، يُعَرِّفُ بِالْآيَاتِ، وَيُثَبِّتُ بِالْعَلَامَاتِ، فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ.

ثُمَّ قَالَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ جَدِّي عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: مَا عَرَفَ اللَّهُ مِنْ شَبَهِهِ بِخَلْقِهِ، وَلَا عَدَّلَهُ مَنْ نَسَبَ إِلَيْهِ ذُنُوبَ عِبَادِهِ.

١٦٢٢. جامع الأخبار^(٦): سئل أمير المؤمنين عليه السلام بم عرفتك ربك؟ قال عليه السلام: بما عرفني نفسه، لا يشبهه صورة، ولا يقاس بالناس، قريب في بعده، بعيد في قربه، فوق كل شيء ولا يقال: شيء تحت^(٧)، وتحت كل شيء، ولا يقال: شيء فوقه^(٨)، أمام كل شيء، ولا يقال: شيء خلفه، وخلف كل، ولا يقال: شيء أمامه، داخل في الأشياء لا كشيء في شيء، سبحانه من هو هكذا لا هكذا غيره^(٩).

١٦٢٣. جامع الأخبار^(١٠): دخل علي بن الحسين عليه السلام مسجد المدينة فرأى قوماً يختصمون، فقال لهم: فيما تختصمون؟ قالوا في التوحيد. قال: أغرضوا علي مقالتيكم. قال بعض القوم: إن الله يعرف بخلقه^(١١) سماواته وأرضه، وهو في كل مكان. قال علي بن الحسين عليه السلام: قولوا: نور لا ظلام فيه، وحياة لا موت فيه^(١٢)، وصمد لا مدخل فيه. ثم قال: من كان ليس كمثله شيء وهو السميع البصير كان نعته لا يشبه نعت شيء فهو ذاك.

١. في المصدر: «طاغيا».

٢. سطر: كتب، راجع لسان العرب.

٣. التزق: لصق به، راجع مجمع البحرين.

٤. تقصص: بلغ الغاية، راجع القاموس المحيط.

٥. أي يحقق ويثبت وجوده ولكن لا يشبه بمخلوقاته، أو لا يعتدل مثاله في الحاسة، ولا يتصور له مثالا وهميا في الواهمة. (هامش المطبوع)

٦. جامع الأخبار (للشعيري)، ص ٥؛ الكافي، ج ١، باب أنه لا يعرف إلا به، ص ٨٥، ح ٢.

٧. في الكافي: «فوقه».

٨. لم يرد في الكافي: «تحت كل شيء ولا يقال: شيء فوقه».

٩. في الكافي مع زيادة: «وخارج من الأشياء لا كشيء خارج من شيء، سبحانه من هو هكذا ولا هكذا غيره ولكل شيء مبتدأ».

١٠. ورد في جامع الأخبار (للشعيري)، ص ٦، مع زيادة في صدره.

١١. في المصدر: «بخلق».

١٢. في المصدر: «قولوا: نور وحياة لا موت فيه».

١٦٢٤. التوحيد^(١): الدَّقَاقُ، عَنِ الْأَسَدِيِّ، عَنِ الْبَرْمَكِيِّ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحَسَنِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ ذَاهِرٍ، عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ يَحْيَى الْكُوفِيِّ، عَنْ قُتَيْبِ بْنِ قَتَادَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُونُسَ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢) قَالَ: بَيْنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَخْطُبُ عَلَى مَنبَرِ الْكُوفَةِ، إِذْ قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: ذِعْلَبُ ذَرْبِ اللِّسَانِ، بَلِغٌ فِي الْخُطَابِ، شُجَاعُ الْقُلُوبِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: وَيْلَكَ يَا ذِعْلَبُ! مَا كُنْتُ أَعْبُدُ رَبًّا لَمْ أَرَهُ. قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَيْفَ رَأَيْتَهُ؟ قَالَ: يَا ذِعْلَبُ لَمْ تَرَهُ الْغُيُوبُ بِمُشَاهَدَةِ الْأَبْصَارِ وَلَكِنْ رَأَتْهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ. وَيْلَكَ يَا ذِعْلَبُ! إِنَّ رَبِّي لَطِيفُ اللَّطَافَةِ فَلَا يُوصَفُ بِاللُّطْفِ، عَظِيمُ الْعَظَمَةِ لَا يُوصَفُ بِالْعِظَمِ، كَبِيرُ الْكِبَرِيَاءِ لَا يُوصَفُ بِالْكِبَرِ، جَلِيلُ الْجَلَالَةِ لَا يُوصَفُ بِالْغَلِظِ، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ لَا يُقَالُ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ لَا يُقَالُ لَهُ بَعْدُ^(٣)، شَاءَ الْأَشْيَاءِ لَا يَهْمَتُهُ، ذَرَأُكَ لَا بِخَدِيعَةٍ^(٤)، هُوَ فِي الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا غَيْرُ مُتَمَازِجٍ بِهَا وَلَا بَائِنٌ عَنْهَا، ظَاهِرٌ لَا يَتَأَوَّلُ الْمُبَاشَرَةَ، مُتَجَلٍّ لَا بِاسْتِهْلَالِ رُؤْيَاهُ، بَائِنٌ^(٥) لَا بِمَسَافَةٍ^(٦)، قَرِيبٌ لَا بِمُدَانَةٍ^(٧)، لَطِيفٌ لَا يَتَجَسَّمُ، مُوجُودٌ لَا بَعْدَ عَدَمٍ، فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَارٍ، مُقَدَّرٌ لَا بِحَرَكَةٍ، مُرِيدٌ لَا بِهَمَامَةٍ^(٨)، سَمِيعٌ لَا بِأَلَةٍ، بَصِيرٌ لَا بِأَدَاةٍ، لَا تَحْوِيهِ الْأَمَاكِنُ، وَلَا تَصْغِيهِ الْأَوْقَاتُ^(٩)، وَلَا تَحْدُهُ الصِّفَاتُ، وَلَا تَأْخُذُهُ السَّنَاتُ^(١٠)، سَبَقَ الْأَوْقَاتَ كَوْنُهُ، وَالْعَدَمَ وَجُودُهُ، وَالْإِبْتِدَاءَ أَرْؤُهُ، بِتَشْغِيرِهِ الْمَسَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ، وَبِتَجْهِيرِهِ الْجَوَاهِرَ عُرِفَ أَنْ لَا جَوْهَرَ لَهُ، وَبِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ، وَبِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ، ضَادَّ النُّورِ بِالظُّلْمَةِ^(١١)، وَالْجُسُوءِ^(١٢) بِالْبَلَلِ^(١٣)، وَالصَّرْدَ بِالْحُرُورِ، مُؤَلَّفٌ بَيْنَ مُعْتَادِيَاتِهَا، مُفَرَّقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا، دَالَّةٌ بِتَفْرِيقِهَا عَلَى مُفَرَّقِهَا، وَتَأْلِيفِهَا عَلَى مُؤَلَّفِهَا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١٤)

١. التوحيد (للصدوق)، ص ٣٠٨، ح ٢؛ في الكافي، ج ١، باب جوامع التوحيد، ص ١٣٨، ح ٤؛ وقد ورد في روضة الواعظين، ج ١، ص ٣٢، مع نقصان.

٢. في الكافي بهذا الإسناد: «محمد بن أبي عبد الله رفعه عن أبي عبد الله عليه السلام».

٣. في المصدر: «فلا يقال: شيء بعده».

٤. لا بمكر وحيلة يتوسل بهما إلى مدركاته كما هو شأن بعض الناس، بل يعلم وإحاطة على عالم الوجود والنفوس. (هامش المطبوع)

٥. بان الشيء: إذا انفصل فهو بائن، راجع المصباح المنير.

٦. في الكافي: «ناء لا بمسافة».

٧. دانيت الأمر: قاربت، راجع لسان العرب.

٨. الهمامة: يجيء مصدراً من هممت بالشيء إذا قصدته، أو مشتقة من أهمني الأمر، إذا أفلقك وحزنك.

٩. أي لا يلازمه الأوقات ولا تكون معه سبحانه. وفي الكافي: «لا تضمنه الأوقات» أي لا تشتمل عليه. (هامش المطبوع)

١٠. السينات: جمع السنة، وهي فتور يتقدم النوم، راجع مجمع البحرين.

١١. في هذه الرواية فائدة، نتهنا عليها في ذيل ح ١٥٩٤.

١٢. الجُسُوء: اليبس، راجع لسان العرب.

١٣. في الكافي: «واليبس بالبلل، والخشن باللين، والصرد بالحُرور».

١٤. الذاريات ٤٩/.

فَفَرَّقَ بَهَا بَيْنَ قَبْلِ وَبَعْدِ لِيُعْلَمَ أَنَّ لَا قَبْلَ لَهُ وَلَا بَعْدَ، شَاهِدَةٌ بِغَرَائِزِهَا أَنَّ لَا غَرِيزَةَ لِمُعَرِّزِهَا، مُحْبِرَةٌ بِتَوْقِيتِهَا أَنَّ لَا وَقْتَ لِمُوقِّتِهَا، حَجَبَ بَعْضَهَا عَنْ بَعْضٍ لِيُعْلَمَ أَنَّ لَا حِجَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ غَيْرُ خَلْقِهِ، كَانَ رَبًّا وَلَا مَرْبُوبٌ، وَإِلَهَا وَلَا مَأْلُوهٌ^(١)، وَعَالِمًا إِذْ لَا مَعْلُومٌ، وَسَمِيعًا إِذْ لَا مَسْمُوعٌ^(٢)، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ^(٣):

وَلَمْ يَزَلْ سَيِّدِي بِالْحَمْدِ مَعْرُوفًا وَلَمْ يَزَلْ سَيِّدِي بِالْجُودِ مَوْصُوفًا
وَكَانَ إِذْ لَيْسَ نُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ وَلَا ظَلَامٌ عَلَى الْأَفَاقِ مَعْكُوفًا
فَرُبُّنَا بِخِلَافِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ وَكُلٌّ مَا كَانَ فِي الْأَوْهَامِ مَوْصُوفًا
وَمَنْ يُرِدْهُ عَلَى التَّشْبِيهِ مُمْتَلَأٌ يَرْجِعْ أَخَا حَصْرٍ بِالْعَجْزِ مَكْتُوفًا
وَفِي الْمَعَارِجِ يَلْقَى مَوْجُ قُدْرَتِهِ مَوْجًا يُعَارِضُ طَرْفَ الرُّوحِ مَكْفُوفًا
فَاتْرُكْ أَخَا جَدَلٍ فِي الدِّينِ مُنْعِمًا قَدْ بَاشَرَ الشَّكَّ فِيهِ الرَّأْيَ مَأْوُوفًا
وَاصْحَبْ أَخَا ثِقَةٍ حُبًّا لِسَيِّدِهِ وَبِالْكَرَامَاتِ مِنْ مَوْلَاهُ مَخْهُوفًا
أَمْسَى دَلِيلُ الْهُدَى فِي الْأَرْضِ مُبْتَسِمًا^(٤) وَفِي السَّمَاءِ جَمِيلُ الْحَالِ مَعْرُوفًا

قَالَ: فَخَرَّ ذِعْلِبُ مَعْشِيًّا عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ وَقَالَ: مَا سَمِعْتُ بِهَذَا الْكَلَامِ، وَلَا أَعُودُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.
قال الصدوق «رحمه الله»: في هذا الخبر الفاظ قد ذكرها الرضا عليه السلام في خطبته، وهذا تصديق قولنا في الأئمة عليهم السلام: إِنَّ عِلْمَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا خُذَ عَنْ أَبِيهِ حَتَّى يَتَّصِلَ ذَلِكَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بيان:

«ذرب اللسان»: حدّته. قوله عليه السلام: «معكوفاً» أي محبوساً. «أخا حصر» أي مصاحباً للعجز والعجز. وكتفت الرجل أي شددت يديه إلى خلفه بالكتاف وهو حبل. و«الطرف»: العين. و«مكفوفاً»: حال منه أي يجعل عين الروح عمياء. قوله عليه السلام: «مأووفاً»^(٥) حال عن الرأي؛ ويمكن أن يقرأ على الأصل بالواووين لضرورة الشعر، أو بإشباع فتحة الميم.

قوله عليه السلام: «حُبًّا لِسَيِّدِهِ» الحبّ بالكسر المحبوب؛ ويمكن أن يقرأ بالضم أيضاً بأن يكون مصدراً مؤوَّلاً

١. في المصدر والكافي: «كان ربّاً إذ لا مريبوب، وإلها إذ لا مألوه».

٢. إلى هنا تمت الرواية في الكافي.

٣. الأشعار من أحسن الدليل على أن الخلقة غير منقطعة من حيث أولها كما أنها كذلك من حيث آخرها. (هامش المطبوع نقلاً عن العلامة الطباطبائي «رحمه الله»).

٤. في نسخة من الكتاب والتوحيد المطبوع: في الأرض منتشراً. (هامش المطبوع)

٥. طعام مأووف: أصابته آفة، راجع لسان العرب.

بمعنى المفعول؛ ويمكن أن يكون مفعولاً لأجله لكن عطف قوله عليه السلام: «وبالكرامات» يحتاج إلى تكلف أي ولكونه محفوفاً. وقوله عليه السلام: «دليل الهدى» بالرفع؛ ويحتمل النصب بالخبرية، فيكون الاسم ضميراً راجعاً إلى الأخ، ولعله نظراً إلى المصرع الثاني أظهر.

١٦٢٥. نهج البلاغة^(١): وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الْعِبَادِ، وَسَاطِحِ الْمِهَادِ، وَمُسِيلِ الْوَهَادِ، وَمُخْصِبِ النَّجَادِ، لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ، وَلَا لِآخِرِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ، هُوَ الْأَوَّلُ لَمْ يَزَلْ، وَالْبَاقِي بِلَا أَجَلٍ، خَرَّتْ لَهُ الْجَبَاهُ، وَوَحَّدَتْهُ الشَّفَاهُ، حَدَّ الْأَشْيَاءِ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةٌ لَهُ مِنْ شَبْهَاتِهَا^(٢)، لَا تُقَدَّرُهُ الْأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ وَالْحَرَكَاتِ، وَلَا بِالْجَوَارِحِ وَالْأَدْوَاتِ^(٣)، لَا يُقَالُ لَهُ: مَتَى، وَلَا يُضْرَبُ لَهُ أَمَدٌ يَحْتَى، الظَّاهِرُ لَا يُقَالُ: مِمَّا، وَالْبَاطِنُ لَا يُقَالُ: فِيمَا، لَا شَيْخُ فَيَنْقُضِي^(٤)، وَلَا مَحْجُوبٌ فَيُحْوَى، لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالتَّصَاقِ، وَلَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِافْتِرَاقٍ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شَخُوصٌ لِحُظَةٍ، وَلَا كُرُورٌ لَلْفُظَةِ، وَلَا اِزْدِلَافٌ رُبُوعٍ، وَلَا انْبِسَاطٌ خُطْوَةٍ فِي لَيْلٍ دَاجٍ وَلَا غَسَقٍ سَاجٍ، يَتَغَيَّبُ عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ، وَتَعَقُّبُهُ الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِي الْأَفْوَلِ وَالْكُرُورِ، وَتَقْلِبُ^(٥) الْأَزْمَنَةَ وَالذُّهُورِ، مِنْ إِقْبَالٍ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَإِدْبَارٍ نَهَارٍ مُدْبِرٍ، قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّةٍ، وَكُلِّ إِحْصَاءٍ وَعَدَةٍ، تَعَالَى عَمَّا يَنْحَلُّهُ الْمُحَدِّثُونَ مِنْ صِفَاتِ الْأَقْدَارِ، وَنَهَايَاتِ الْأَقْطَارِ، وَتَأْتِلِ الْمَسَاكِينِ، وَتَمَكِّنِ الْأَمَاكِينِ؛ فَالْحَدُّ لِحُلُقِهِ مَضْرُوبٌ، وَإِلَى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ، لَمْ يَخْلُقِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أَصُولٍ أَرْزَلِيَّةٍ، وَلَا مِنْ أَوَائِلٍ أَبَدِيَّةٍ، بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَأَقَامَ حَدَّهُ، وَصَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ، لَيْسَ لَشَيْءٍ مِنْهُ امْتِنَاعٌ، وَلَا لَهُ بِطَاعَةٍ شَيْءٌ انْتِفَاعٌ، عِلْمُهُ بِالْأَمْوَاتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالْأَحْيَاءِ الْبَاقِينَ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ أَعْلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى.

إيضاح:

«ساطح المهاد» أي باسط الأرض التي هي بمنزلة الفراش للخلق. والوهد: المكان المنخفض. و«النجاد»: ما ارتفع من الأرض أي مجري السيول في الوهاد، ومنبت العُشب^(٦) والنبات والأشجار في النجاد. قوله عليه السلام: «انقضاء» أي في طرف الأبد؛ ويحتمل أن يكون المراد بالأولوية العلية أي ليست له علة، وليس لوجوده في الأزل انقضاء، والأول أوفق بالفكرتين الآتيتين لفاً ونشراً. و«شخوص اللحظة»: مدّ البصر بلا حركة جفن. و«كرور اللفظة»: رجوعها؛ وقيل: ازدلاف الربوة صعود إنسان أو حيوان ربوة من الأرض، وهي

١. ورد في نهج البلاغة (لصبي الصالح)، ص ٢٣٢، خطبة ١٦٣، مع زيادة: الذريعة (شرح أصول الكافي للجيلاني)، ج ١، ص ٤٠١.

٢. أي حد الأشياء تنزيها لذاته عن مماثلتها، وتمييزاً له عن مشابهتها. (هامش المطبوع)

٣. في الذريعة تبدأ الخطبة من هنا.

٤. أي ليس بجسم فيفني بالانحلال. (هامش المطبوع)

٥. في المصدر: «فيتقضى».

٦. في المصدر: «تقلب».

٧. العشب: الكلا الرطب، راجع لسان العرب.

الموضع المرتفع^(١)؛ وقيل: ازدلاف الربوة تقدّمها في النظر، فإنّ الربوة أوّل ما يقع في العين من الأرض عند مدّ البصر^(٢) من الزلف بمعنى القرب.

قوله عليه السلام: «داج» أي مظلم، والغسق محرّكة: ظلمة أوّل الليل؛ وقوله عليه السلام: «ساج» أي ساكن، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾^(٣) أي سكن أهله، أو ركذ ظلامه من سجي البحر سجواً إذا سكنت أمواجه. قوله عليه السلام: «يتفياً» هذا من صفات الغسق ومن تتمّة نعته، ومعنى يتفياً عليه: يتقلّب ذاهباً وجائياً في حالتي أخذه في الضوء إلى التبدّر، وأخذه في النقص إلى المحاق^(٤) والضمير في عليه للغسق.

وقوله عليه السلام: «وتعقبه» أي تتعقبه فحذف إحدى التائين، والضمير فيه للقمر. وقوله عليه السلام: «من إقبال ليل» متعلّق بتقليب، والمعنى أنّ الشمس تعاقب القمر فتطلع عند أفوله، ويطلع عند أفولها. قوله عليه السلام: «قبل كلّ غاية» أي هو سبحانه قبل كلّ غاية. قوله عليه السلام: «عمّا ينحله» أي ينسبه إليه.

قوله عليه السلام: «وتأثّل المساكن» يقال: مجد مؤثّل أي أصيل، وبيت مؤثّل أي معمور، وأثّل ملكه: عظّمه، وتأثّل: عظم. «وتمكّن الأماكن» ثبوتها واستقرارها. أقول: يحتمل أن يكون المعنى التأثّل في المساكن والتمكّن في الأماكن. قوله عليه السلام: «ولا من أوائل أبدية»، أقول: على هذه النسخة الأصول الأزلية هي الأوائل الأبدية، إذ ما ثبت قدمه امتنع عدمه. قوله عليه السلام: «فأقام حدّه» أي اتقن حدود الأشياء على وفق الحكمة الإلهية من المقادير والأشكال والنهايات والآجال.

١٦٢٦. نهج البلاغة^(٥): مِنْ حُطْبَةٍ لَهُ عليه السلام: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَطَنَ حَفِيَّاتِ الْأُمُورِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُورِ، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ^(٦)، فَلَا عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ، وَلَا قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ، سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ، وَقَرُبَ فِي الدُّنُوِّ فَلَا شَيْءَ أَقْرَبَ مِنْهُ، فَلَا اسْتِعْلَاؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَا قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِهِ، لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ^(٧)، فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلَامُ الْوُجُودِ عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُودِ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ وَالْجَاوِدُونَ لَهُ عُلُوًّا كَبِيرًا.

١. شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد)، ج ٩، ص ٢٥٥.

٢. شرح نهج البلاغة (لابن ميثم)، ج ٣، ص ٢٩٩.

٣. الضحى/٢.

٤. المحاق: أن يستسرّ القمر ليلتين في آخر الشهر فلا يرى غدوة ولا عشية، راجع لسان العرب.

٥. نهج البلاغة (الصباحي الصالح)، ص ٨٧، خطبة ٤٩؛ شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار عليهم السلام، ج ٢، ص ٣١١، ح ٦٤٠؛ وقد ورد في أعلام الدين، ص ٦٣، مع زيادة في صدره.

٦. في شرح الأخبار: «واستتر بلطفه عن عين البصيرة».

٧. في شرح الأخبار: «ولم يحجبها السواتر عن يقين معرفته».

بيان:

«بطن خفيّات الأمور» أي علم بواطنها؛ وقيل: أي دخل بواطن الأمور الخفيّة، أي هو أخفى عند العقول منها. قوله عليه السلام: «فلا عين من لم يره» أي لا تنكر وجوده عين من لم يره لشهادة فطرته على ظهور وجوده، أو أنّه لا سبيل من جهة عدم إبطاره إلى إنكاره، إذ كان حظّ العين إدراك ما صحّ إدراكه بها لا مطلقاً. قوله عليه السلام: «يبصره» أي يحيط بكنهه. قوله عليه السلام: «على إقرار» أي تشهد أعلام وجوده لغاية ظهورها ووضوحها على أن الجاحد إنّما يجحد بلسانه لا بقلبه كما مرّ مراراً^(١).

١٦٢٧. نهج البلاغة^(٢): مِنْ حُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ تَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالًا فَيَكُونُ أَوَّلًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِرًا، وَيَكُونُ ظَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِنًا، كُلُّ مُسَمًّى بِالْوَحْدَةِ غَيْرُهُ قَلِيلٌ، وَكُلُّ عَزِيزٍ غَيْرُهُ ذَلِيلٌ، وَكُلُّ قَوِيٍّ غَيْرُهُ ضَعِيفٌ، وَكُلُّ مَالِكٍ غَيْرُهُ مَمْلُوكٌ، وَكُلُّ عَالِمٍ غَيْرُهُ مُتَعَلِّمٌ، وَكُلُّ قَادِرٍ غَيْرُهُ يَقْدِرُ وَيَعْجِزُ^(٣)، وَكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرُهُ يَسْمَعُ^(٤) عَنْ لَطِيفِ الْأَصْوَاتِ وَيَصْمُهُ كَبِيرُهَا، وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعْدَ مِنْهَا، وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرُهُ يَعْمَى عَنْ خَفِيِّ الْأَلْوَانِ وَلَطِيفِ الْأَجْسَامِ، وَكُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرُهُ غَيْرُ بَاطِنٍ، وَكُلُّ بَاطِنٍ غَيْرُهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ^(٥)، لَمْ يَخْلُقْ مَا خَلَقَهُ لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلَا تَخَوُّفٍ مِنْ عَوَاقِبِ زَمَانٍ، وَلَا اسْتِعَانَةٍ عَلَى نِدٍّ مَثَاوِرٍ^(٦)، وَلَا شَرِيكَ مُكَاشِّرٍ، وَلَا ضِدَّ مُنَافِرٍ، وَلَكِنْ خَلَائِقُ مَرْبُوبُونَ، وَعِبَادٌ دَاخِرُونَ^(٧)، لَمْ يَخْلُقْ فِي الْأَشْيَاءِ قَبِيلًا: هُوَ فِيهَا كَائِنٌ، وَلَمْ يَنْأَ عَنْهَا فَيْقَال: هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ^(٨)، لَمْ يُوَدِّهِ خَلْقٌ مَا ابْتَدَأَ، وَلَا تَذِيرٌ مَا ذَرَأَ^(٩)، وَلَا وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمَّا خَلَقَ، وَلَا وَلَجَتْ^(١٠) عَلَيْهِ شُبُهَةٌ فِيمَا قَضَى وَقَدَّرَ، بَلْ قَضَاءٌ مُتَقَنٌّ، وَعِلْمٌ مُحْكَمٌ، وَأَمْرٌ مُبْرَمٌ، الْمَأْمُولُ مَعَ النَّعْمِ، الْمَرْهُوبُ مَعَ النَّعْمِ.

بيان:

قوله عليه السلام: «لم تسبق له حال حالاً» إمّا مبني على ما مرّ^(١١) من عدم كونه تعالى زمانياً، فإنّ السبق والتقدّم

١. كتاب التوحيد، باب ٣، إثبات الصانع.

٢. نهج البلاغة (لصبي الصالح)، ص ٩٦، خطبة ٦٥؛ إرشاد القلوب (للدلمي)، ج ١، ص ١٦٧؛ أعلام الدين، ص ٦٥؛ وقد ورد في الأخيرين مع زيادة.

٣. في الإرشاد: «كل قادر غيره عاجز».

٤. الصمم: إنسداد الأذن وثقل السمع، راجع لسان العرب.

٥. في المصدر: «كلّ ظاهر غيره باطن، وكلّ باطن غيره غير ظاهر»، وفي الإرشاد: «كلّ ظاهر غيره باطن، وكلّ باطن غيره ظاهر».

٦. الماثورة: الموائبة، راجع لسان العرب.

٧. داخرون: صاغرون، راجع لسان العرب.

٨. في الإرشاد: «منها كائن».

٩. ذراً: خلق، راجع القاموس المحيط.

١٠. ولج: دخل، راجع لسان العرب.

١١. تنمة كتاب التوحيد، أبواب أسمائه تعالى، باب ٤، جوامع التوحيد.

والتأخر إنما تلحق الزمانيات المتغيرات، وهو تعالى خارج عن الزمان، أو المعنى أنه ليس فيه تبدل حال وتغير صفة، بل كل ما يستحقه من الصفات الذاتية الكمالية يستحقها أولاً وأبداً، فلا يمكن أن يقال: كان استحقاقه للأولية قبل استحقاقه للآخريّة، أو كان ظاهراً ثم صار باطناً، بل كان أولاً متصفاً بجميع ما يستحقه من الكمالات، وليس محلاً للحوادث والتغيرات أو أنه لا يتوقف اتصافه بصفة على اتصافه بأخرى، بل كلها ثابتة لذاته بذاته من غير ترتيب بينها ولعل الأوسط أظهر.

قوله عليه السلام: «كلّ مسمّى بالوحدة غيره قليل» قيل: المعنى أنه تعالى لا يوصف بالقلّة وإن كان واحداً إذ المشهور من معنى الواحد كون الشيء مبدءاً لكثرة يكون عاداً لها ومكياً، وهو الذي تلحقه القلّة والكثرة الإضافيتان، فإنّ كلّ واحد بهذا المعنى هو قليل بالنسبة إلى الكثرة التي تصلح أن تكون مبدءاً لها، ولما كان تعالى منزهاً عن الوصف بالقلّة والكثرة لما يستلزمه من الحاجة والنقصان اللازمين لطبيعة الإمكان أثبت القلّة لكلّ ما سواه فاستلزم إثباتها لغيره في معرض المدح له نفياً عنه^(١)؛ وقيل: إنّ المراد بالقليل الحقير^(٢) لأنّ أهل العرف يحقرون القليل ويستعظمون الكثير.

أقول:

الأظهر أنّ المراد أنّ الوحدة الحقيقية مخصوصة به تعالى، وإنّما يطلق على غيره بمعنى مجازي مؤوّل بقلّة معاني الكثرة، فإنّ للكثرة معاني مختلفة: الكثرة بحسب الأجناس أو الأنواع أو الأصناف أو الأفراد والأشخاص أو الأعضاء أو الأجزاء الخارجية أو العقلية أو الصفات العارضة، فيقال للجنس: جنس واحد مع اشتماله على جميع أنواع التكثرات لكون كثرته أقلّ ممّا اشتمل على التكثر الجنسي أيضاً وهكذا، فظهر أنّ معنى الواحد في غيره تعالى يرجع إلى القليل، ولذا قال عليه السلام: «كلّ مسمّى بالوحدة» إشارة إلى أنّ غيره تعالى ليس بواحد حقيقة، هذا ما خطر بالبال والله يعلم. وقد مرّ تفسير سائر الفقرات ونظائرها مراراً^(٣).

١٦٢٨. نهج البلاغة^(٤): «مِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ^(٥)، وَالْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ رَوْيَةٍ، الَّذِي لَمْ يَزَلْ قَائِمًا دَائِمًا، إِذْ لَا سَمَاءَ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَلَا حُجُبَ ذَاتُ إِزْتَاكِجٍ، وَلَا لَيْلٌ دَاجٍ، وَلَا بَحْرٌ سَاجٍ، وَلَا جَبَلٌ ذُو فَجَاجٍ، وَلَا فَجٌّ ذُو اغْوَجَاجٍ، وَلَا أَرْضٌ ذَاتُ مِهَادٍ، وَلَا خَلْقٌ ذُو اعْتِمَادٍ، ذَلِكَ مُبْتَدِعُ الْخَلْقِ وَوَارِثُهُ، وَإِلَهُ الْخَلْقِ وَرَازِقُهُ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ، يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَيَقْرَبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ، قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ وَأَخْصَى آثَارَهُمْ وَأَعْمَالَهُمْ، وَعَدَدَ أَنْفَاسِهِمْ،

١. شرح نهج البلاغة (لابن ميثم)، ج ٢، ص ١٦٩.

٢. المصدر السابق.

٣. تنمة كتاب التوحيد أبواب أسمائه تعالى، باب ٤، جوامع التوحيد.

٤. نهج البلاغة (لصبيح الصالح)، ص ١٢٢، خطبة ٩٠.

٥. في المصدر: «الحمد لله المعروف من غير رؤية».

وَحَائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ، وَمُسْتَقَرَّهُمْ وَمُسْتَوْدَعُهُمْ مِنَ الْأَرْحَامِ وَالظُّهُورِ، إِلَى أَنْ تَتَنَاهَى بِهِمُ الْغَايَاتُ، هُوَ الَّذِي اشْتَدَّتْ نِقْمَتُهُ عَلَى أَعْدَائِهِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَاتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي شِدَّةِ نِقْمَتِهِ، قَاهِرٌ مَنْ عَارَاهُ، وَمُدَمِّرٌ مَنْ شَاقَّاهُ، وَمُذِلٌّ مَنْ نَاوَاهُ^(١)، وَغَالِبٌ مَنْ عَادَاهُ، مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ، وَمَنْ سَأَلَهُ أَعْطَاهُ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ قَضَاهُ، وَمَنْ شَكَرَهُ جَزَاهُ. عِبَادَ اللَّهِ زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوزَنُوا، وَحَاسِبُوا مَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَتَفَقَّسُوا قَبْلَ ضَيْقِ الْخِنَاقِ، وَانْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السِّيَاقِ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَعْنِ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا زَاجِرٌ وَلَا وَاعِظٌ.

بيان:

«الروية»: التفكير. و«القائم» في صفاته تعالى بمعنى الدائم الثابت الذي لا يزول، أو العالم بالخلق الضابط لأحوالهم أينما كانوا، أو قيامه توكيله الحفظة عليهم، أو حفظه للخلق وتدييره لأُمُورهم، أو مجازاته بالأعمال، أو قهره لعباده واقتداره عليهم. و«الأبراج» قيل: هو جمع البرج بالضم بمعنى الركن، وأركانها أجزاءها وتداويرها وخوارجها وامتّماتها، أو البرج بالمعنى المصطلح أي البروج الاثني عشر، والأظهر عندي أنه جمع البرج بالتحريك أي الكواكب؛ قال الفيروزآبادي: البرج الجميل: الحسن الوجه، أو المضيء البين المعلوم، والجمع أبراج.

قوله عَلَيْهِ السَّلَام: «ذات ارتاج» إمّا بالكسر مصدر ارتج أي أغلق، أو بالفتح جمع الرتاج وهو الباب المغلق، وفيه: أنه قلما يجمع فعال على أفعال. وروي ذات رتاج على المفرد. و«الداجي»: المظلم. و«الساجي»: الساكن. و«الفجاج» بالكسر: جمع فجّ بالفتح وهو الطريق الواسع بين الجبلين. و«المهاد»: الفراش أي أرض مبسوطة ممكنة للتعيش عليها كالمهاد.

قوله عَلَيْهِ السَّلَام: «ذو اعتماد» أي ذو قوة وبطش، أو يسعى برجلين فيعتمد عليهما. ودأب في عمله أي جدّ وتعب، «والشمس والقمر دائبان» لتعاقبهما على حالة واحدة لا يفتران ولا يسكنان، وروي «دائبين» بالنصب على الحال، ويكون خبر المبتدأ ييليان.

قوله عَلَيْهِ السَّلَام: «وأحصى آثارهم» أي آثار أقدامهم ووطئهم في الأرض، أو حركاتهم وتصرفاتهم، أو ما يبقى بعدهم من سنة حسنة أو سيئة، كما فسّر به قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾^(٢) وروي «عدد أنفسهم» على الإضافة^(٣). و«خائنة الأعين»: ما يسارق من النظر إلى ما لا يحلّ، أو أن ينظر نظرة بريية.

١. ناواه: عاداه، راجع لسان العرب.

٢. يس/١٢.

٣. شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد)، ج ٦، ص ٣٩٥.

قوله ﷺ: «من الأرحام» متعلّقة بمستقرّهم ومستودعهم بياناً لهما على اللَّفّ والنشر، ولما كان تحقّق الغرض وكمال الذات وحلول الروح في الرحم عبّر عنه بالمستقرّ وعن الظاهر بالمستودع، ويكون الظرف أعني قوله ﷺ: «إلى أن تنأهى» متعلّقا بالأفعال السابقة أي قسّم وأحصى وعدّد، وتكون تنأهى الغاية بهم كناية عن موتهم؛ ويحتمل أن يكون المراد: مستقرّهم ومأواهم على ظهر الأرض ومستودعهم في بطنها بعد الموت، ويكون «من» بمعنى «مذ» أي مذ زمان كونهم في الأرحام والظهور، إلى أن تنأهى الغاية أي إلى أن يحشروا في القيامة وصاروا إلى النعيم أو إلى الجحيم؛ ويحتمل أن يكون المراد بالمستقرّ والمستودع من استقرّ فيه الإيمان ومن استودع الإيمان، ثمّ يسلب كما دلّت عليه الأخبار الكثيرة، وتوجيه الظرفين بعد ما مرّ غير خفيّ.

قوله ﷺ: «في سعة رحمته» أي في حال سعة رحمته على أوليائه، «واتّسعت رحمته لأوليائه» في حال شدّة نقمته على أعدائه، فالمراد تنزيهه تعالى عن صفة المخلوقين فإنّ رحمته لا تكون في حال غضبهم وبالعكس، أو اشتدّت نقمته على أعدائه في حال سعة رحمته عليهم فإنّ رحمته تعالى شاملة لهم في دنياهم، وهم فيها يستعدّون للنقمة الشديدة، ولا يخفى بعده. والمعازة: المغالبة. والمدمر: المهلك. والمشاقة: المعادة والمنازعة.

قوله ﷺ: «وتنفّسوا قبل ضيق الخناق» استعار لفظ التنفّس لتحصيل الراحة والبهجة في الجنّة بالأعمال الصالحة في الدنيا، واستعار لفظ الخناق من الحبل المخصوص للموت أي انتهزوا الفرصة للعمل قبل تعذّره بزوال وقته.

قوله ﷺ: «قبل عنف السياق» أي السوق العنيف عند قبض الروح، أو في القيامة إلى الحساب.

قوله ﷺ: «من لم يعن» على بناء المجهول أي لم يعنه الله على نفسه حتّى يجعل له منها واعظاً وزاجراً لم يمنعه المنع والزجر من غيرها، أو على بناء المعلوم كما روي أيضاً أي من لم يعن الواعظين له والمندرين على نفسه لم ينتفع بالوعظ والزجر لأنّ هوى نفسه يغلب وعظ كلّ واعظ^(١).

١٦٢٩. نهج البلاغة^(٢): وَمِنْ خُطْبَةٍ لَهُ ﷺ: لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلَا يُعَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَلَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ، وَلَا يَصِفُهُ لِسَانٌ، وَلَا يَغْزُبُ^(٣) عَنْهُ قَطْرُ الْمَاءِ^(٤)، وَلَا نُجُومُ السَّمَاءِ، وَلَا سَوَافِي^(٥) الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ، وَلَا دَيْبٌ^(٦) النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا.

١. شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد)، ج ٦، ص ٣٩٧.

٢. نهج البلاغة (لصبيح الصالح)، ص ٢٥٦، صدر خطبة ١٧٨.

٣. لا يعزب: لا يغيب عن علمه شيء، راجع لسان العرب.

٤. في المصدر: «عدد قطر الماء».

٥. السافي: التراب الذي تحمله الريح، راجع شمس العلوم.

٦. الديب: مشي خفيف، راجع مفردات ألفاظ القرآن.

وَلَا مَقِيلُ الذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ، يَعْلَمُ مَسَاقِطَ الْأُورَاقِ، وَخَفِيَ طَرْفِ الْأَحْدَاقِ^(١).

بيان:

«مقيل الذر» أي نومها أو محل نومها^(٢).

١٦٣٠. نهج البلاغة^(٣): رُوِيَ عَنْ نَوْفِ الْبِكَالِيِّ قَالَ: خَطَبْنَا بِهَذِهِ الْخُطْبَةِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى حِجَارَةٍ نَصَبَهَا لَهُ جَعْدَةُ بْنُ هُبَيْرَةَ الْمَخْزُومِيَّةُ وَعَلَيْهِ مِدْرَعَةٌ^(٤) مِنْ صُوفٍ وَحَمَائِلُ سَيْفِهِ لَيْفٌ^(٥)، وَفِي رِجْلَيْهِ نَعْلَانِ مِنْ لَيْفٍ، وَكَأَنَّ جَبِينَهُ تَفَنَّهُ بَعِيرٌ - فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ وَعَوَاقِبُ الْأَمْرِ، نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ وَنَبِيرِ بُرْهَانِهِ، وَنَوَامِي^(٦) فَضْلِهِ وَامْتِنَانِهِ، حَمْدًا يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً وَلِشُكْرِهِ أَدَاءً، وَإِلَى ثَوَابِهِ مُقَرَّبًا، وَلِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِبًا؛ وَتَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَةً رَاجٍ لِفَضْلِهِ، مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ، وَاثِقٍ بِدَفْعِهِ، مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ^(٧)، مُذْعِنٍ لَهُ بِالْعَمَلِ وَالْقَوْلِ، وَتَوْمِنٍ بِهِ إِيْمَانٍ مَنْ رَجَاهُ مُوقِنًا، وَأَنَابَ إِلَيْهِ مُؤْمِنًا، وَخَنَعَ لَهُ مُذْعِنًا، وَأَخْلَصَ لَهُ مُوحِدًا، وَعَظَّمَهُ مُمَجِّدًا، وَلَا ذَهَبَ بِهِ رَاغِبًا مُجْتَهِدًا، لَمْ يُولَدْ سُبْحَانَهُ فَيَكُونَ فِي الْعِزِّ مُشَارِكًا، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْرُوثًا هَالِكًا، وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتُ وَلَا زَمَانٌ، وَلَمْ يَتَعَاوَزْهُ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ، بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عِلَامَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتَقِنِ، وَالْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ، فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ مُوْطَدَاتٍ بِلَا عَمَدٍ، قَائِمَاتٍ بِلَا سَنَدٍ، دَعَاهُنَّ فَاجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعِنَاتٍ، غَيْرِ مُتَلَكِّئَاتٍ^(٨) وَلَا مُبْطِئَاتٍ، وَلَوْ لَا إِفْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَإِدْعَائُهُنَّ بِالطَّوَاعِيَةِ لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعًا لِعَرْشِهِ، وَلَا مَسْكَنًا لِمَلَائِكَتِهِ، وَلَا مَضْعَدًا لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ، جَعَلَ نَجْمُهَا أَغْلَامًا يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجَاجٍ^(٩) الْأَقْطَارِ، لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءُ نُورِهَا أَدْلِهَامَ سَجْفِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، وَلَا اسْتِطَاعَتْ جَلَابِيبُ^(١٠) سَوَادِ الْحَنَادِسِ أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ تَلَاُلٍ نُورِ الْقَمَرِ، فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ غَسَقٍ دَاجٍ، وَلَا لَيْلٍ سَاجٍ فِي بَقَاعِ الْأَرْضِينَ الْمُتَطَاطِئَاتِ، وَلَا فِي يَفَاعِ السُّفْعِ الْمُتَجَاوِرَاتِ، وَمَا يَتَجَلَّجَلُ بِهِ الرَّعْدُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ، وَمَا تَلَاشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْغَمَامِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُهَا عَنْ

١. الأحداق: جمع الحديقة، وهي السواد المستدير وسط العين، راجع لسان العرب.

٢. راجع لسان العرب.

٣. نهج البلاغة (لصباحي الصالح)، ص ٢٦٠، صدر خطبة ١٨٢.

٤. المدرعة: ضرب من الثياب التي تلبس ولا تكون إلا من الصوف خاصة، راجع لسان العرب.

٥. ليف: ليف النخل معروف، راجع لسان العرب.

٦. نوامي: واحدتها نامية من النماء: الزيادة، راجع لسان العرب.

٧. الطول: الفضل، راجع لسان العرب.

٨. تَلَكَّأَ عَنْ الْأَمْرِ: تباطأ عنه وتوقف، راجع لسان العرب.

٩. فِجَاج: جمع فِجْ، وهو الطريق الواسع، راجع لسان العرب.

١٠. جلابيب: جمع جلباب، وهو ثوب واسع، أوسع من الخمار ودون الرداء، تكويه المرأة على رأسها وتبقي منه ما ترسله على صدرها، راجع مجمع البحرين.

مَسْقَطُهَا عَوَاصِفُ الْأَنْوَاءِ وَانْهِيَالُ السَّمَاءِ، وَيَعْلَمُ مَسْقَطُ الْقَطْرَةِ وَمَقَرَّهَا، وَمَسْحَبُ الذَّرَّةِ وَمَجَرَّهَا، وَمَا يَكْفِي الْبُعُوضَةَ مِنْ قُوَّتِهَا، وَمَا تَحْمِلُ الْأُنْثَى فِي بَطْنِهَا.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيُّ أَوْ عَرْشُ أَوْ سَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ أَوْ جَانٌّ أَوْ إِنْسٌ، لَا يُدْرِكُ بِهِمْ، وَلَا يُقَدَّرُ بِهِمْ، وَلَا يَشْغَلُهُ سَائِلٌ، وَلَا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ، وَلَا يَنْظُرُ بَعَيْنٌ، وَلَا يَحْدُ بِأَيْنٍ، وَلَا يُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ، وَلَا يَخْلُقُ بِعِلَاجٍ، وَلَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ، وَلَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ، الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيمًا، وَأَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيمًا، بِلَا جَوَارِحٍ وَلَا أَدَوَاتٍ، وَلَا نُطْقٍ وَلَا لَهَوَاتٍ^(١)، بَلْ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ لَوْصِفِ رَبَّكَ فَصِفْ جَبْرِيْلَ وَمِيكَائِيْلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَجُودَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ فِي حُجَرَاتِ الْقُدُسِ مُرَجَّحِينَ، مُتَوَلِّهَةً^(٢) عَقُولُهُمْ أَنْ يَحْدُوا حُسْنَ الْخَالِقِينَ^(٣)، وَإِنَّمَا يُدْرِكُ بِالصِّفَاتِ ذَوُو الْهَيْئَاتِ وَالْأَدَوَاتِ، وَمَنْ يَنْقُضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَنَاءِ فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلَامٍ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ.

بيان:

«البكالي» بفتح الباء وتخفيف الكاف: منسوب إلى بكال قبيلة، كذا ذكره الجوهري. وقال الراوندي «رحمه الله»: منسوب إلى بكالة، وهو اسم حي من همدان^(٤). وقال ابن أبي الحديد: إنما هو بكال بكسر الباء اسم حي من حمير^(٥). والثفنة بكسر الفاء من البعير: الركبة. المصاير: جمع المصير وهو مصدر صار إلى كذا ومعناه المرجع، قال تعالى: ﴿وَالِإِلَهِ الْمَصِيرُ﴾^(٦).

قوله عليه السلام: «مذعن له» من أذعن له أي خضع وذل. والخنوع: أيضاً الخضوع والذل. قوله عليه السلام: «ولا زمان» تأكيد للوقت؛ وقيل: الوقت جزء الزمان، ويمكن حمل أحدهما على الوجود والآخر على الموهوم. والتعاور: التناوب. ويقال: «أبرم الأمر» أي أحكمه. قوله عليه السلام: «موطّات» أي مثبتات.

قوله عليه السلام: «ولو لا إقرارهن» قيل: إقرارهنّ له بالربوبية راجع إلى شهادة حالهنّ بالإمكان والحاجة إلى الربّ والافتقار لحكم قدرته، وظاهر أنّه لو لا إمكانها وانفعالها عن قدرته وتديبره لم يكن فيها عرش ولم يكن أهلاً لسكنى الملائكة، وصعود الكلم الطيب والأعمال الصالحة، ولفظ الدعاء والإقرار والإذعان مستعارة. وربما يقال: إنّها محمولة على الحقيقة نظراً إلى أنّ لها أرواحاً^(٧). و«الادلهمام»: شدة ظلمة الليل.

١. لهوات: جمع لهاة، وهي من كلّ ذي حلق: اللحمية المشرفة على الحلق، راجع لسان العرب.

٢. متولّهة: أي متحيّرة، راجع لسان العرب.

٣. في المصدر: «أحسن الخالقين».

٤. منهاج البراعة (للاوندي)، ج ٢، ص ١٨١.

٥. شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد)، ج ١٠، ص ٧٧.

٦. آل عمران/٢٨.

٧. شرح نهج البلاغة (لابن ميثم)، ج ٣، ص ٣٨٥.

و«السجف»: الستر. والهندس من الليل: الشديد الظلمة. والمتطأطئ: المنخفض. و«اليفاع»: ما ارتفع من الأرض. و«السفع»: الجبال، وسمّاها سفعاً لأنّ السفعة سواد مشرب حمرة، وكذلك لونها في الأكثر. والتجلجل: صوت الرعد.

قوله عليه السلام: «وما تلاشت عنه» قال ابن أبي الحديد: قال ابن الأعرابي: لشأ الرجل، إذا اتّضع وخسّ بعد رفعه، وإذا صحّ أصلها صحّ استعمال الناس، تلاشى بمعنى اضمحل^(١). وقال القطب الراوندي: تلاشى مركّب من لا شيء^(٢)، ولم يقف على أصل الكلمة أي يعلم ما يصوت به الرعد، ويعلم ما يضمحلّ عنه البرق. فإن قلت: هو سبحانه عالم بما يضيئه البرق وبما لا يضيئه، فلم خصّ عليه السلام ما يتلاشى عنه البرق؟ قلت: لأنّ علمه بما ليس يضيء أعجب وأغرب لأنّ ما يضيئه البرق يمكن أن يعلمه أولوا الأبصار الصحيحة.

قوله عليه السلام: «عواصف الأنواء» الأنواء جمع نوء وهو سقوط نجم من منازل القمر الثمانية والعشرين في المغرب مع الفجر، وطلوع رقيبته من المشرق مقابلاً له من ساعته، ومدة النوء ثلاثة عشر يوماً إلاّ الجبهة، فإنّ لها أربعة عشر يوماً^(٣)، وإنّما سمّي نوءاً لأنّه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالشرق أي نهض وطلع؛ وقيل: أراد بالنوء الغروب وهو من الأضداد. قال أبو عبيدة: ولم يسمع في النوء أنّه السقوط إلاّ في هذا الموضع. وإنّما أضاف العواصف إليها لأنّ العرب تضيف الرياح والأمطار والحرّ والبرد إلى الساقط منها، أو لأنّ أكثر ما يكون عصفاً فيها. و«الانهطال»: الانصباب^(٤). و«سحبه» كمنعه: جرّه على وجه الأرض، وأكل وشرب أكلاً وشرباً شديداً.

قوله عليه السلام: «ولا يشغله سائل» أي عن سائل آخر. و«النائل»: العطاء أي لا ينقص خزائنه عطاء. قوله عليه السلام: «لا يوصف بالأزواج» أي بالأمثال أو الأضداد أو بصفات الأزواج، أو ليس فيه تركّب وازدواج أمرين كما مرّ تحقيقه، أو بأنّ له صاحبة.

قوله عليه السلام: «تكليماً» مصدر للتأكيد لإزالة توهم السامع التجوّز في كلامه تعالى. والمراد بالآيات إمّا الآيات التسع أو الآيات التي ظهرت عند التكليم من سماع الصوت من الجهات الستّ وغيره؛ ويؤيّد الثاني قوله عليه السلام: «بلا جوارح» إلى قوله: «ولا لهوات»، إذ الظاهر تعلّقه بالتكليم؛ ويحتمل تعلّقه بالجميع على اللفّ والنشر غير المرتّب.

١. شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد)، ج ١٠، ص ٨٧.

٢. منهاج البراعة (للراوندي)، ج ٢، ص ١٨٩.

٣. شرح نهج البلاغة (لابن ميثم)، ج ٣، ص ٣٨٤.

٤. منهاج البراعة (للراوندي)، ج ٢، ص ١٩٠.

قوله عليه السلام: «مرجحين» أي مائلين إلى جهة التحت خضوعاً لجلال البارئ عز سلطانه؛ ويحتمل أن يكون كناية عن عظمة شأنهم ورزانه^(١) قدرهم، أو عن نزولهم وقتاً بعد وقت بأمره تعالى، قال الجزري: ارجحن الشيء: إذا مال من ثقله وتحرك. قوله عليه السلام: «أمد حده» الإضافة ببيانته، وحمل الحد على النهايات والأطراف بعيد جداً.

قوله عليه السلام: «أضاء بنوره كل ظلام» الظلام إما محسوس فإضاءته بأنوار الكواكب والنيرين، أو معقول وهو ظلام الجهل فإضاءته بأنوار العلم والشرائع. قوله عليه السلام: «وأظلم بظلمته كل نور» إذ جميع الأنوار المحسوسة أو المعقولة مضمحلة في نور علمه، وظلام بالنسبة إلى نور براهينه في جميع مخلوقاته الكاشفة عن وجوده. وقال ابن أبي الحديد تحت قوله عليه السلام: معنى دقيق وسر خفي وهو أن كل رذيلة في الخلق البشري غير مخرج عن حد الإيمان مع معرفته بالأدلة البرهانية غير مؤثرة، نحو أن يكون العارف بخيلاً أو جباناً، وكل فضيلة مع الجهل به سبحانه ليست بفضيلة في الحقيقة، لأن الجهل به يكشف تلك الأنوار، نحو أن يكون الجاهل به جواداً أو شجاعاً^(٢). ويمكن أن يكون الظلام والنور كنايةتين عن الوجود والعدم؛ ويحتمل على بعد أن يكون الضمير في قوله عليه السلام: «بظلمته» راجعاً إلى كل نور لتقدمه رتبة، فيرجع حاصل الفقرتين حينئذ إلى أن النور هو ما ينسب إليه تعالى فبتلك الجهة نور، وأما الجهات الراجعة إلى الممكنات فكلها ظلمة.

١٦٣١. نهج البلاغة^(٣): فِي وَصِيَّتِهِ لِلْحَسَنِ الْمُجْتَبَى «صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا»: وَأَعْلَمَ يَا بَنِيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكَ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَعْمَالَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ، لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، وَلَا يَزُولُ أَبَدًا، وَلَمْ يَزَلْ أَوَّلًا قَبْلَ الْأَشْيَاءِ بِلَا أَوَّلِيَّةٍ، وَآخِرًا بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَآيَةٍ^(٤)، عَظُمَ عَنْ أَنْ تَشُبَّتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ.

١٦٣٢. نهج البلاغة^(٥): مِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عليه السلام: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْحَسَرَتْ^(٦) الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغًا^(٧) إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ، هُوَ اللَّهُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَاهُ الْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ

١. الرزاة: الثقل، راجع النهاية.

٢. شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد)، ج ١٠، ص ٩١.

٣. نهج البلاغة (لصبيح الصالح)، ص ٣٩٦، وصية ٣١؛ وقد ورد في تحف العقول، ص ٧٢، مع اختلاف يسير؛ كشف المحجة لثمرة المهجة، ص ٢٢٥.

٤. في نسخة: أول قبل الأشياء بلا أولية، وآخر بعد الأشياء بلا نهاية. (هامش المطبوع)

٥. ورد في نهج البلاغة (لصبيح الصالح)، ص ٢١٦، صدر خطبة ١٥٥.

٦. حسر: إذا أعيا (عجز)، راجع لسان العرب.

٧. لا أجد له مساعاً: جوازاً أو مدخلاً، راجع تاج العروس.

بِتَخْدِيدٍ فَيَكُونُ مُشَبَّهًا، وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونُ مُمَثَّلًا، خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمْثِيلٍ وَلَا مَشُورَةٍ مُشِيرٍ، وَمَعُونَةٍ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَدْعَنَ لِبَطَاعَتِهِ فَأَجَابَ وَلَمْ يَدَافِعْ، وَانْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ.

١٦٣٣. نهج البلاغة^(١): مِنْ حُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: كُلُّ شَيْءٍ خَاشِعٌ لَهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ، غِنَى كُلِّ فَقِيرٍ، وَعِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ، وَقُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ، وَمَفْرَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ^(٢)، مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نُطْقَهُ، وَمَنْ سَكَتَ عَلِمَ سِرَّهُ، وَمَنْ عَاشَ فَعَلِيهِ رِزْقُهُ، وَمَنْ مَاتَ فَالَيْهِ مُنْقَلَبُهُ، لَمْ تَرَكَ الْغُيُوثُ فَتُخْبِرَ عَنْكَ بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ، لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لِرُوحَتِهِ، وَلَا اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ، وَلَا يَسْبِقُكَ مَنْ طَلَبْتَ، وَلَا يُفْلِتُكَ^(٣) مَنْ أَخَذْتَ، وَلَا يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ، وَلَا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ، وَلَا يَرُدُّ أَمْرَكَ مَنْ سَخِطَ قَضَاءَكَ، وَلَا يَسْتَعْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى عَنْ أَمْرِكَ، كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلَانِيَةٌ، وَكُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ، أَنْتَ الْأَبَدُ لَا أَمَدَ لَكَ، وَأَنْتَ الْمُتَنَهَى لَا مَحِيصَ عَنْكَ، وَأَنْتَ الْمُوعَدُ لَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، بِيَدِكَ نَاصِيَةُ^(٤) كُلِّ دَابَّةٍ، وَإِلَيْكَ مَصِيرُ كُلِّ نَسَمَةٍ، سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَمَا أَصْغَرَ عَظَمَةً فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ^(٥)، وَمَا أَهْوَلَ^(٦) مَا نَرَى مِنْ مَلَكُوتِكَ، وَمَا أَخْفَرَ ذَلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ، وَمَا أَسْبَغَ^(٧) نِعْمَتَكَ فِي الدُّنْيَا، وَمَا أَصْغَرَهَا فِي نَعَمِ الْآخِرَةِ.

بيان:

قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فإليه منقلبه» أي انقلابه. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بل كنت قبل الواصفين» قيل: أي لما كان سبحانه قبل الموجودات قديماً أزلياً لم يكن جسماً ولا جسمانياً فاستحال رؤيته^(٨)، وقال بعض الأفاضل: يحتمل أن يكون المراد أن العلم بوجودك ليس من جهة إخبار العيون، بل من جهة أنك قبل الأشياء ومبدأ الممكنات. أقول: يمكن أن يكون المعنى أنه لو كان العلم بوجودك من جهة الرؤية لما علم تقدمك على الواصفين، إذ الرؤية إنما تفيد العلم بوجود المرئي حين الرؤية. فلا تفيد للرائين الواصفين العلم بكونه موجوداً قبلهم. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولا يسبقك» أي لا يفوتك هرباً. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولا يفلتك» أي لا يفلت منك فإن أفلت لازم. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أمرك» أي قدرك الذي قدرت. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «عن أمرك» أي الأمر التكليفي. قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وأنت المنتهى» أي في العلوية، أو ينتهي إليك أخبارهم وأعمالهم، أو ينتهون إليك بعد الحشر. وقال الجزري: كل دابة فيها روح فهي نسمة، وقد يراد بها الإنسان.

١. ورد في نهج البلاغة (الصبحي الصالح)، ص ١٥٨، صدر خطبة ١٠٩.

٢. الملهوف: المظلوم ينادى ويستغيث، راجع لسان العرب.

٣. لم يفلته أحد: لم يخلصه شيء، (راجع لسان العرب)؛ ولا يفلتك: لا يخرج من تحت يدك.

٤. الناصية: فُصَاص الشعر في مقدّم الرأس، راجع لسان العرب.

٥. في المصدر: «سبحانك ما أعظم شأنك، سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك وما أصغر كل عظمة في جنب قدرتك».

٦. الهول: المخافة من الأمر، راجع لسان العرب.

٧. أسبغ الله عليه النعمة: أكملها وأتمها وسعها، راجع لسان العرب.

٨. شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد)، ج ٧، ص ١٩٧.

١٦٣٤. الأماي للشيخ الطوسي^(١): أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الصَّلْتِ، عَنِ ابْنِ عُقْدَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَيْسَى بْنِ هَارُونَ الضَّرِيرِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زَكَرِيَّا الْمَكِّيِّ، عَنْ كَثِيرِ بْنِ طَارِقٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ، عَنْ أَبِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: خَطَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الْخُطْبَةِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَوَحِّدِ بِالْقَدَمِ وَالْأَوَّلِيَّةِ^(٢)، الَّذِي لَيْسَ لَهُ غَايَةٌ فِي دَوَامِهِ، وَلَا لَهُ أَوَّلِيَّةٌ، أَنْشَأَ صُوفَ الْبَرِيَّةِ^(٣) لَا مِنْ أَصُولٍ كَانَتْ بَدِيَّةً، وَارْتَفَعَ عَنْ مُشَارَكَةِ الْأَنْدَادِ، وَتَعَالَى عَنِ اتِّخَاذِ صَاحِبَةٍ وَأَوْلَادٍ، هُوَ الْبَاقِي بِغَيْرِ مُدَّةٍ، وَالْمُنْشِئُ لَا بِأَعْوَانٍ وَلَا بِآلَةٍ، فَطَنَ^(٤) وَلَا بِجَوَارِحَ صَرَفَ مَا خَلَقَ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى مُحَاوَلَةِ التَّفَكُّيرِ، وَلَا مَرَاوَلَةٍ مِثَالٍ وَلَا تَقْدِيرٍ، أَخَذَتْهُمْ عَلَى صُوفٍ مِنَ التَّخْطِيطِ وَالتَّصْوِيرِ، لَا بِرَوِيَّةٍ وَلَا ضَمِيرٍ، سَبَقَ عِلْمُهُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ، وَنَفَذَتْ مَشِيئَتُهُ فِي كُلِّ مَا يُرِيدُ مِنَ الْأَرْمَنِ وَالذُّهُورِ، انْفَرَدَ بِصُنْعَةِ الْأَشْيَاءِ فَاتَّقَنَهَا بِلَطَائِفِ التَّدْبِيرِ، سُبْحَانَهُ مِنْ لَطِيفٍ خَيْرٍ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

١٦٣٥. نهج البلاغة^(٥): مِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، الْأَوَّلُ لَا شَيْءَ قَبْلَهُ، وَالْآخِرُ لَا غَايَةَ لَهُ، لَا تَفْعُ الْأَوْهَامَ لَهُ عَلَى صِفَةٍ، وَلَا تُعْقِدُ الْقُلُوبَ مِنْهُ عَلَى كَيْفِيَّةٍ، وَلَا تَنَالُهُ التَّجَزُّؤُةُ وَالتَّبَعِيضُ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْأَبْصَارُ وَالْقُلُوبُ.

١٦٣٦. نهج البلاغة^(٦): وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ وَخَبَرَ الضَّمَائِرَ، لَهُ الْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْغَلْبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.

١٦٣٧. نهج البلاغة^(٧): وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ عَنِ شَبَهِ الْمَخْلُوقِينَ، الْغَالِبِ لِمَقَالِ الْوَاصِفِينَ، الظَّاهِرِ بِعَجَائِبِ تَدْبِيرِهِ لِلنَّاطِرِينَ، وَالْبَاطِنِ بِجَلَالِ عِزَّتِهِ عَنْ فِكْرِ الْمُتَوَهِّمِينَ، الْعَالِمِ بِلَا اكْتِسَابٍ وَلَا اِزْدِيَادٍ وَلَا عِلْمٍ مُسْتَفَادٍ، الْمُقَدَّرِ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ بِلَا رَوِيَّةٍ وَلَا ضَمِيرٍ، الَّذِي لَا تَغْشَاهُ الظُّلُمُ، وَلَا يَسْتَضِيءُ بِالْأَنْوَارِ، وَلَا يُرْهِقُهُ^(٨) لَيْلٌ، وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ نَهَارٌ، لَيْسَ إِدْرَاكُهُ بِالْأَبْصَارِ، وَلَا عِلْمُهُ بِالْإِخْبَارِ.

١. الأماي (للطوسي)، ص ٧٠٤، ح ١٥٠٩؛ فضائل أمير المؤمنين عليه السلام (لابن عقدة)، ص ١٢١، ح ١١٦؛ وقد ورد في مجموعة ورام، ج ٢، ص ٨٨، مع نقصان.

٢. في المصدر: «بالقدم والأزليَّة»، وفي مجموعة ورام: «بالقدم الأزلي».

٣. البرية: الخلق، راجع لسان العرب.

٤. في المصدر: «فطر».

٥. نهج البلاغة (لصبيحي الصالح)، ص ١١٥، صدر خطبة ٨٥.

٦. نهج البلاغة (لصبيحي الصالح)، ص ١١٦، صدر خطبة ٨٦.

٧. نهج البلاغة (لصبيحي الصالح)، ص ٣٢٩، خطبة ٢١٣.

٨. لا يرهقه ليل: لا يدنو منه ولا يغشاه، راجع لسان العرب.

﴿باب ٥﴾

«إبطال التناسخ»^(١)

١٦٣٨. عيون أخبار الرضا عليه السلام^(٢): تميم القرشي، عن أبيه، عن أحمد بن علي الأنصاري، عن الحسن بن الجهم قال: قال المؤمن للرضا عليه السلام: يا أبا الحسن ما تقول في القائلين بالتناسخ؟ فقال الرضا عليه السلام: من قال بالتناسخ فهو كافر بالله العظيم، يكذب بالجنة والنار.

١٦٣٩. عيون أخبار الرضا عليه السلام^(٣): ابن المتوكل، عن علي، عن أبيه، عن علي بن معبد، عن الحسين بن خالد قال: قال أبو الحسن عليه السلام^(٤) من قال بالتناسخ فهو كافر.

١٦٤٠. الاحتجاج^(٥): عن هشام بن الحكم أنه سأل الزنديق أبا عبد الله عليه السلام^(٦) فقال: أخبرني عن من قال بالتناسخ الأرواح من أي شيء قالوا ذلك؟ وبأي حجة قاموا على مذاهبيهم؟ قال: إن أصحاب التناسخ قد خلفوا وراءهم منهاج الدين، ورَبُّوا لأنفسهم الضلالات وأمرجوا^(٧) أنفسهم في الشهوات، وزعموا أن السماء حاوية^(٨) ما فيها شيء مما يوصف وأن مدبر هذا العالم في صورة المخلوقين؛ بحجة من روى: أن الله عز وجل خلق آدم على صورته، وأنه لا جنة ولا نار، ولا بعث ولا نشور، والقيامة عندهم خروج الروح من قاليه ولوجه في قالب آخر، إن كان محسناً في

١. التناسخ: انتقال النفس الناطقة من بدن إلى بدن آخر، والذين يعتقدون ذلك يسمون «التناسخية». (هامش المطبوع)

٢. ورد في عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٢٠٢، ح ١، ضمن رواية؛ وسائل الشيعة، ج ٢٨، ص ٣٤١، ح ٣٤٩٠٩.

٣. ورد في عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ٢٠٢، ح ٢، مع زيادة؛ وسائل الشيعة، ج ٢٨، ص ٣٤١، ح ٣٤٩١٠.

٤. الظاهر أنه الرضا عليه السلام. (هامش المطبوع)

٥. ورد في الاحتجاج (للطبرسي)، ج ٢، ص ٣٤٤، ضمن رواية؛ الفصول المهمة، ج ١، ص ٢٦٠، ح ٢٧٠.

٦. في المصدر: «عن عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام».

٧. من قولهم: أمرجوا الدابة أي أرسلوها ترعى في المرح أي الأرض الواسعة فيها نبت كثير، تمرج فيها الدواب. (هامش المطبوع)

٨. خوى البيت: سقط وتهدم. فرغ وخلا. وفي نسخة: خالية. (هامش المطبوع)

الْقَالِبِ الْأَوَّلِ أُعِيدَ فِي قَالِبٍ أَفْضَلَ مِنْهُ حُسْنًا فِي أَعْلَى دَرَجَةِ الدُّنْيَا، وَإِنْ كَانَ مُسِيئًا أَوْ غَيْرَ عَارِفٍ صَارَ فِي بَعْضِ الدَّوَابِّ الْمُتَعَبَةِ فِي الدُّنْيَا، أَوْ هَوَامٍّ^(١) مُشَوَّهَةِ الْخَلْقَةِ^(٢) وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ صَوْمٌ وَلَا صَلَاةٌ وَلَا شَيْءٌ مِنَ الْعِبَادَةِ أَكْثَرَ مِنْ مَعْرِفَةٍ مَنْ تَجِبُ عَلَيْهِمْ مَعْرِفَتُهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا مُبَاحٌ لَهُمْ مِنْ فُرُوجِ النِّسَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ نِكَاحِ الْأَخَوَاتِ وَالنِّبَاتِ وَالْخَالَاتِ وَذَوَاتِ الْبُعُولَةِ، وَكَذَلِكَ الْمَيْتَةُ وَالْخَمْرُ وَالْدَّمُ فَاسْتَقْبَحَ مَقَالَتَهُمْ كُلُّ الْفَرَقِ، وَلَعَنَهُمْ كُلُّ الْأُمَمِ، فَلَمَّا سَأَلُوا الْحُجَّةَ زَاغُوا^(٣) وَحَادُوا^(٤)، فَكَذَّبَ مَقَالَتَهُمُ التَّوْرَةُ، وَلَعَنَهُمُ الْفُرْقَانُ، وَزَعَمُوا مَعَ ذَلِكَ أَنَّ إِلَهُهُمْ يَنْتَقِلُ مِنْ قَالِبٍ إِلَى قَالِبٍ، وَأَنَّ الْأَرْوَاحَ الْأَرَلِيَّةَ هِيَ الَّتِي كَانَتْ فِي آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ هَلُمَّ جَرًّا تَجْرِي إِلَى يَوْمِنَا هَذَا فِي وَاحِدٍ بَعْدَ آخَرٍ فَإِذَا كَانَ الْخَالِقُ فِي صُورَةِ الْمَخْلُوقِ فِيمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى أَنَّ أَحَدَهُمَا خَالِقُ صَاحِبِهِ؟ وَقَالُوا: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ مِنْ وَلَدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كُلُّ مَنْ صَارَ فِي أَعْلَى دَرَجَةٍ مِنْ دِينِهِمْ خَرَجَ مِنْ مَنَزِلَةِ الْإِمْتِحَانِ وَالتَّصْفِيَةِ فَهُوَ مَلَكٌ، فَطَوْرًا تَخَالَهُمْ نَصَارَى فِي أَشْيَاءَ، وَطَوْرًا دَهْرِيَّةٌ يَقُولُونَ إِنَّ الْأَشْيَاءَ عَلَى غَيْرِ الْحَقِيقَةِ، فَقَدْ كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَأْكُلُوا شَيْئًا مِنَ اللَّحْمَانِ لِأَنَّ الدَّوَابَّ عِنْدَهُمْ كُلُّهَا مِنْ وَلَدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَوَّلُوا فِي صُورِهِمْ فَلَا يَجُوزُ أَكْلُ لُحُومِ الْقُرْبَاتِ.

بيان:

قوله عليه السلام: «إِنَّ إِلَهُهُمْ يَنْتَقِلُ» أي الطبيعة، ولذا قال عليه السلام: «فَطَوْرًا تَخَالَهُمْ نَصَارَى» للقول بحلول إلههم في المخلوق، «وَطَوْرًا دَهْرِيَّةٌ» لأنَّ الطبيعة ليست بآله، فهم نافون للصانع حيث يقولون: «إِنَّ الْأَشْيَاءَ عَلَى غَيْرِ الْحَقِيقَةِ» أي خلقت بالإهمال من غير أن يكون لها صانع راعى الحكمة في خلقها.

١٦٤١. رجال الكشي^(٥): طَاهِرُ بْنُ عَيْسَى، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنِ الشُّجَاعِيِّ، عَنِ الْحَمَّادِيِّ رَفَعَهُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: سَأَلَ عَنِ التَّنَاسُخِ قَالَ: فَمَنْ نَسَخَ الْأَوَّلَ؟

بيان:

لعله مبني على حدوث العالم واستحالة غير المتناهي، والحاصل أن قولهم بالتناسخ إذا كان لعدم القول بالصانع فلا ينفعهم إذ لا بدَّ لهم من القول ببدن أول، لبطلان لا تناهي الأفراد المترتبة، فيلزمهم القول بصانع للروح والبدن الأول فهذا الكلام لدفع ما هو مبني قولهم بالتناسخ حيث يزعمون أنه ينفعهم القول به لعدم القول بالصانع.

١. الهوام: حشرات الأرض، راجع مفردات ألفاظ القرآن.

٢. المشوّه: القبيح الشكل الذي لا يوافق بعضه بعضاً، راجع تاج العروس.

٣. زاغ: مال، راجع لسان العرب.

٤. حادوا: من المحادة: المعادة والمخالفة والمنازعة، راجع لسان العرب.

٥. رجال الكشي، ص ٢٩١، ح ٥١٤؛ الفصول المهمة، ج ١، ص ٢١٦، ح ٢٧١.

وقال السيّد الداماد «قدّس الله روحه»: هذا إشارة إلى برهان إبطال التناسخ على القوانين الحكيمية^(١) والأصول البرهانية، تقريره: أنّ القول بالتناسخ إنّما يستطبّ لو قيل بأزليّة النفس المدبّرة للأجساد المختلفة المتعاقبة على التناقل والتناسخ، وبلا تناهي تلك الأجساد المتناسخة بالعدد في جهة الأزل كما هو المشهور من مذهب الذاهبين إليه، والبراهين الناهضة على استحالة اللانهاية العدديّة بالفعل مع تحقّق الترتّب والاجتماع في الوجود قائمة هناك بالقسط بحسب متن الواقع المعبر عنه بوعاء الزمان أعني الدهر وإن لم يتصحّح إلّا الحصول التعاقبيّ بحسب ظرف السيلان والتدرّيج والفوت واللاحق أعني الزمان، وقد استبان ذلك في الأفق المبين، والصراط المستقيم، وتقويم الإيمان، وقبسات حقّ اليقين وغيرها من كتبنا وصحفنا فإذن لا محيص لسلسلة الأجساد المترتبة من مبدأ متعّين هو الجسد الأوّل في جهة الأزل، يستحقّ باستعداده المزاجيّ أن تتعلّق به نفس مجردة تعلّق التدبير والتصرّف فيكون ذلك مناط حدوث فيضانها عن جود المفيض الفيّاض الحقّ جلّ سلطانه، وإذا انكشف ذلك فقد انصرح أن كلّ جسد هيولانيّ، بخصوصيّة مزاجه الجسمانيّ واستحقاقه الاستعداديّ يكون مستحقّاً لجوهر مجرد بخصوصه يدبّره ويتعلّق به ويتصرّف فيه ويتسلّط عليه، فليثبت.

١. رجال الكشي (مع تعليقات ميرداماد الأسترآبادي)، ج ٢، ص ٥٧٨.

﴿باب ٦﴾

«نادر»

١٦٤٢. رجال الكشي^(١): حَمْدَوِيَّه، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عِيْسَى، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ عِيْسَى، عَنْ عَلِيِّ بْنِ يُونُسَ بْنِ بَهْمَنَ قَالَ: قُلْتُ لِلرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنَّ أَصْحَابَنَا قَدْ اخْتَلَفُوا، فَقَالَ: فِي أَيِّ شَيْءٍ اخْتَلَفُوا؟ فَتَدَاخَلْنِي مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ فَلَمْ يَحْضُرْنِي إِلَّا مَا قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ زُرَّارَةُ وَهَشَامُ بْنُ الْحَكَمِ، فَقَالَ زُرَّارَةُ: النَّفْيُ^(٢) لَيْسَ بِشَيْءٍ وَلَيْسَ بِمَخْلُوقٍ، وَقَالَ هَشَامُ: إِنَّ النَّفْيَ شَيْءٌ مَخْلُوقٌ، فَقَالَ لِي: قُلْ فِي هَذَا بِقَوْلِ هَشَامٍ وَلَا تَقُلْ بِقَوْلِ زُرَّارَةَ.

قد تمّ المجلد الثاني من كتاب بحار الأنوار على يد مؤلفه «ختم الله له بالحسن» في غرة شهر ربيع الثاني من شهور سنة سبع وسبعين بعد الألف من الهجرة المقدسة النبوية «على هاجرها وآله الطاهرين ألف ألف صلاة وتحيّة».

١. رجال الكشي، ص ٢٦٧، ح ٤٨٢.

٢. في المصدر: «إِنَّ الهَوَاءَ» بدل «النفى»، وكذا في الجملة التالية.

الفهرس

المقدمات	٥
كلمة المشرف العام سماحة المرجع الديني الشيخ ناصر مكارم الشيرازي	٥
مراحل تأليف هذا الكتاب	٩
المجلد الثاني: «كتاب التوحيد»	١١
باب ١: «ثواب الموحدين والعارفين، وبيان وجوب المعرفة وعلته وبيان ما هو حق معرفته تعالى»	١٢
باب ٢: «علّة احتجاج الله عزّ وجلّ عن خلقه»	٢٥
باب ٣: «إثبات الصانع والاستدلال بعجائب صنعه على وجوده وعلمه وقدرته وسائر صفاته»	٢٧
باب ٤: الخبر المشتهر بتوحيد المفضل بن عمر»	٧١
باب ٥: «الخبر المروي عن المفضل بن عمر في التوحيد المشتهر بالإهليلجة»	١٥٦
باب ٦: «التوحيد ونفي الشريك ومعنى الواحد والأحد والصمد وتفسير سورة التوحيد»	١٩٥
باب ٧: «عبادة الأصنام والكواكب والأشجار والنيران وعلّة حدوثها وعقاب من عبدها أو قرب إليها قرباناً»	٢٣٨
باب ٨: «نفي الولد والصاحبة»	٢٤٩
باب ٩: «النهي عن التفكير في ذات الله تعالى، والخوض في مسائل التوحيد وإطلاق القول بأنه شيء»	٢٥٤
باب ١٠: «أدنى ما يجزي من المعرفة في التوحيد، وأنه لا يعرف الله إلا به»	٢٦٤
باب ١١: «الدين الحنيف والفطرة وصبغة الله والتعريف في الميثاق»	٢٧٢
باب ١٢: «إثبات قدمه تعالى وامتناع الزوال عليه»	٢٧٩
باب ١٣: «نفي الجسم والصورة والتشبيه والحلول والاتحاد وأنه لا يدرك بالحواس والأوهام والعقول والأفهام»	٢٨٣
باب ١٤: «نفي الزمان والمكان والحركة والانتقال عنه تعالى وتأويل الآيات والأخبار في ذلك»	٣٠٢

- * أبواب تأويل الآيات والأخبار الموهمة لخلاف ما سبق * ٣٣٠
- باب ١: «تأويل قوله تعالى: (خَلَقْتُ يَدَيَّ) و(جَنَّبَ اللَّهُ) و(وَجْهَ اللَّهِ) و(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ) وأمثالها» ... ٣٣٠
- باب ٢: «تأويل قوله تعالى: (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) (وَرُوحٌ مِنْهُ) وقوله ﷺ: خلق الله آدم على صورته» .. ٣٤٢
- باب ٣: «تأويل آية النور» ٣٤٦
- باب ٤: «معنى حجرة الله عز وجل» ٣٥٥
- باب ٥: «نفي الرؤية وتأويل الآيات فيها» ٣٥٧
- * أبواب الصفات * ٣٨٨
- باب ١: «نفي التركيب واختلاف المعاني والصفات، وأنه ليس محلاً للحوادث والتغيرات، وتأويل الآيات فيها، والفرق بين صفات الذات وصفات الأفعال» ٣٨٨
- باب ٢: «العلم وكيفيته والآيات الواردة فيه» ٣٩٨
- باب ٣: «البدء والنسخ» ٤١٨
- باب ٤: «القدرة والإرادة» ٤٥٦
- باب ٥: «أنه تعالى خالق كل شيء، وليس الموجد والمعدم إلا الله تعالى، وأن ما سواه مخلوق» ٤٧٠
- باب ٦: «كلامه تعالى ومعنى قوله تعالى: (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً) الآية» ٤٧٤
- * أبواب أسمائه تعالى وحقائقها وصفاتها ومعانيها * ٤٧٧
- باب ١: «المغايرة بين الاسم والمعنى، وأن المعبود هو المعنى، والاسم حادث» ٤٧٧
- باب ٢: «معاني الأسماء واشتقاقها وما يجوز إطلاقه عليه تعالى وما لا يجوز» ٤٩٤
- باب ٣: «عدد أسماء الله تعالى وفضل إحصائها وشرحها» ٥٠٤
- باب ٤: «جوامع التوحيد» ٥٣١
- باب ٥: «إبطال التناسخ» ٦٢٨
- باب ٦: «نادر» ٦٣١
- * الفهرس * ٦٣٣

المآخذ والمنابع

١. القرآن الكريم.
٢. إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات / الحرّ العاملي، محمد بن الحسن (م ١١٠٤ ق) / الأعلمي / بيروت - لبنان / ١٤٢٥ ق / ط: الأولى.
٣. إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) / المسعودي، علي بن الحسين (م ٣٤٦ ق) / مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر / قم - إيران / ١٤٢٦ ق / ط: الثالثة.
٤. الإحتجاج على أهل اللجاج / الطبرسي، أحمد بن علي (م ٥٨٨ ق) / منشورات الشريف المرتضى / مشهد - إيران / ١٤٠٣ ق / ط: الأولى.
٥. الإختصاص / المفيد، محمد بن محمد (م ٤١٣ ق) / المؤتمر العالمي للشيخ المفيد / قم - إيران / ١٤١٣ ق / ط: الأولى.
٦. الإرادة / المفيد، محمد بن محمد (م ٤١٣ ق) / المؤتمر العالمي للشيخ المفيد / قم - إيران / ١٤١٣ ق / ط: الأولى.
٧. الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد / المفيد، محمد بن محمد (م ٤١٣ ق) / المؤتمر العالمي للشيخ المفيد / قم - إيران / ١٤١٣ ق / ط: الأولى.
٨. إرشاد القلوب إلى الصواب / الديلمي، الحسن بن محمد (م ٨٤١ ق) / منشورات الشريف الرضي / قم - إيران / ١٤١٢ ق / ط: الأولى.
٩. أساس البلاغة / الزمخشري، محمود بن عمر (م ٥٣٨ ق) / دار صادر / بيروت - لبنان / ١٩٧٩ م / ط: الأولى.
١٠. الأسفار الأربعة (الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة) / صدر المتألهين، صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي (م ١٠٥٠ ق) / مكتبة المصطفوي / قم - إيران / ١٣٦٨ ش / ط: الثانية.
١١. الأصول الستة عشر / ثلثة من العلماء (م قرن ٣ ق) / مؤسّسة دار الحديث الثقافية / قم - إيران / ١٤٢٣ ق / ط: الأولى.
١٢. أعلام الدين في صفات المؤمنين / الديلمي، الحسن بن محمد (م ٨٤١ ق) / مؤسّسة آل البيت (عليه السلام) لإحياء التراث / قم - إيران / ١٤٠٨ ق / ط: الأولى.
١٣. الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرّة في السنة / ابن طاووس، علي بن موسى (م ٦٦٤ ق) / مركز النشر مكتب الإعلام الإسلامي / قم - إيران / ١٣٧٦ ش / ط: الأولى.
١٤. إكمال الدين وتمام النعمة (كمال الدين وتمام النعمة) / ابن بابويه، محمد بن علي الصدوق (م ٣٨١ ق) / دار الكتب الإسلامية / طهران - إيران / ١٣٩٥ ق / ط: الثانية.
١٥. الأمالي / ابن بابويه، محمد بن علي الصدوق (م ٣٨١ ق) / مكتبة الكتابجي / طهران - إيران / ١٣٧٦ ش / ط: السادسة.
١٦. الأمالي / الطوسي، محمد بن الحسن (م ٤٦٠ ق) / دار الثقافة / قم - إيران / ١٤١٤ ق / ط: الأولى.
١٧. أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) / علم الهدى، علي بن الحسين (م ٤٣٦ ق) / دار الفكر العربي / القاهرة - مصر / ١٩٩٨ م.
١٨. الإمامة و التبصرة من الحيرة / ابن بابويه، علي بن الحسين (م ٣٢٩ ق) / مدرسة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) / قم - إيران / ١٤٠٤ ق / ط: الأولى.
١٩. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل / مكارم الشيرازي، ناصر / دار نشر الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) / قم - إيران / ١٤٢١ ق / ط: الأولى.
٢٠. أنوار التنزيل وأسرار التأويل / البيضاوي عبد الله بن عمر (م ٦٨٥ ق) / دار إحياء التراث العربي / بيروت - لبنان / ١٤١٥ ق / ط: الأولى.

الدين الحسيني الأفغاني (الأسد آبادي) (م ١٣١٤ ق) / مركز التحقيقات الحاسوبية للعلوم الإسلامية «نور».

٣٢. تفسير الصافي / الفيض الكاشاني، محمد محسن بن شاه مرتضى (م ١٠٩١ ق) / مكتبة الصدر / طهران - إيران / ١٤١٥ ق / ط: الثانية.

٣٣. تفسير العياشي / العياشي، محمد بن مسعود (م ٣٢٠ ق) / المطبعة العلمية / طهران - إيران / ١٣٨٠ ق / ط: الأولى.

٣٤. تفسير فرات الكوفي / الكوفي، فرات بن إبراهيم (م ٣٠٧ ق) / مؤسسة الطبع والنشر في وزارة الإرشاد الإسلامي / طهران - إيران / ١٤١٠ ق / ط: الأولى.

٣٥. تفسير القمي / القمي، علي بن إبراهيم (م قرن ٤ ق) / دار الكتاب / قم - إيران / ١٤٠٤ ق / ط: الثانية.

٣٦. التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام / الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام / مدرسة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) / قم - إيران / ١٤٠٩ ق / ط: الأولى.

٣٧. تلخيص البيان عن مجازات القرآن / الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن الحسين (م ٤٠٦ ق) / دار إحياء الكتب العربية / القاهرة - مصر / ١٣٧٤ ق / ط: الأولى.

٣٨. التوحيد / ابن بابويه، محمد بن علي الصدوق (م ٣٨١ ق) / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة / قم - إيران / ١٣٩٨ ق / ط: الأولى.

٣٩. توحيد المفضل (كتاب فكر) / المفضل بن عمر الجعفي (م ١٤٨ ق) / منشورات دليل ما / قم - إيران / ١٤٢٧ ق / ط: الأولى.

٤٠. الثاقب في المناقب / ابن حمزة الطوسي، محمد بن علي (م ٥٦٦ ق) / مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر / قم - إيران / ١٤١٩ ق / ط: الثالثة.

٤١. ثواب الأعمال و عقاب الأعمال / ابن بابويه، محمد بن علي الصدوق (م ٣٨١ ق) / منشورات الشريف الرضي / قم - إيران / ١٤٠٦ ق / ط: الثانية.

٤٢. جامع الأخبار / الشعيري، محمد بن محمد (م قرن ٦ ق) / منشورات مكتبة الحيدرية / النجف الأشرف - العراق / ط: الأولى.

٢١. الإلهيلجة / الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام / منشورات دليل ما / قم - إيران / ١٤٢٧ ق / ط: الأولى.

٢٢. بحر الجواهر (معجم الطب الطبيعي) / الهروي، محمد بن يوسف (م ٩٣٨ ق) / نشر جلال الدين / قم - إيران / ١٣٨٧ ق / ط: الأولى.

٢٣. البرهان في تفسير القرآن / البحراني، السيد هاشم بن سليمان (م ١١٠٧ ق) / مؤسسة البعثة / قم - إيران / ١٣٧٤ ق / ط: الأولى.

٢٤. بشارة المصطفى لشريعة المرتضى / الطبري الآملي، عماد الدين أبي جعفر محمد بن أبي القاسم (م ٥٥٣ ق) / منشورات المكتبة الحيدرية / النجف الأشرف - العراق / ١٣٨٣ ق / ط: الثانية.

٢٥. بصائر الدرجات في فضائل آل محمد عليه السلام / الصفار، محمد بن الحسن (م ٢٩٠ ق) / مكتبة آية الله المرعشي النجفي / قم - إيران / ١٤٠٤ ق / ط: الثانية.

٢٦. تاج العروس من جواهر القاموس / الحسيني الزبيدي، محمد مرتضى (م ١٢٠٥ ق) / دار الفكر / بيروت - لبنان / ١٤١٤ ق / ط: الأولى.

٢٧. تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة عليه السلام / الحسيني الأسترآبادي، السيد شرف الدين علي (م ٩٤٠ ق) / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة / قم - إيران / ١٤٠٩ ق / ط: الأولى.

٢٨. التبيان في تفسير القرآن / الطوسي، محمد بن الحسن (م ٤٦٠ ق) / دار إحياء التراث العربي / بيروت - لبنان.

٢٩. تحف العقول عن آل الرسول عليه السلام / ابن شعبه الحراني، الحسن بن علي (م قرن ٤ ق) / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة / قم - إيران / ١٤٠٤ ق / ط: الثانية.

٣٠. تصحيح إعتقادات الإمامية / المفيد، محمد بن محمد (م ٤١٣ ق) / المؤتمر العالمي للشيخ المفيد / قم - إيران / ١٤١٣ ق / ط: الأولى.

٣١. التعليقات على شرح العقائد العضدية / السيد جمال

أبو الحسين، أحمد بن علي بن أحمد (م ٣٧٢ ق) / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة / قم - إيران / ١٤٠٧ ق / ط: السادسة.

٥٥. روضة الواعظين و بصيرة المتعظين / الفتال النيشابوري، محمد بن أحمد (م ٥٠٨ ق) / منشورات الشريف الرضي / قم - إيران / ١٣٧٥ ش / ط: الأولى.

٥٦. السرائر الحاوي لتحرير الفتاوي (والمستطرفات) / ابن إدريس، محمد بن منصور (م ٥٩٨ ق) / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة / قم - إيران / ١٤١٠ ق / ط: الثانية.

٥٧. الشافي في الإمامة / علم الهدى، علي بن الحسين (م ٤٣٦ ق) / مؤسسة الصادق عليه السلام / طهران - إيران / ١٤١٠ ق / ط: الثانية.

٥٨. شرح الكافي - الأصول و الروضة / المازندراني، محمد صالح بن أحمد (م ١٠٨١ ق) / المكتبة الإسلامية / طهران - إيران / ١٣٨٢ ق / ط: الأولى.

٥٩. شرح المقاصد / سعد الدين التفتازاني، مسعود بن عمر بن عبد الله (م ٧٩٣ ق) / منشورات الشريف الرضي / قم - إيران / ١٤٠٩ ق / ط: الأولى.

٦٠. شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله (م ٦٥٦ ق) / مكتبة آية الله المرعشي النجفي / قم - إيران / ١٤٠٤ ق / ط: الأولى.

٦١. شرح نهج البلاغة / ابن ميثم، ميثم بن علي بن ميثم البحراني (م ٦٧٨ ق) / دار الكتاب للنشر / ١٤٠٤ ق / ط: الثانية.

٦٢. شمس العلوم و دواء كلام العرب من الكلام / الحميري، نشوان بن سعيد (م ٥٧٣ ق) / دار الفكر المعاصر / بيروت - لبنان / ١٤٢٠ ق / ط: الأولى.

٦٣. الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربي) / الجوهري، إسماعيل بن حماد (م ٣٩٣ ق) / دار العلم للملايين / بيروت - لبنان / ١٤١٠ ق / ط: الأولى.

٦٤. صحيح البخاري / البخاري، محمد بن إسماعيل (م ٢٥٦ ق) / دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع / بيروت - لبنان / ١٤٠١ ق.

٤٣. الجعفریات / ابن الأشعث، محمد بن محمد (م قرن ٤ ق) / مكتبة النينوى الحديثة / طهران - إيران / ط: الأولى.

٤٤. جمهرة اللغة / ابن دريد، محمد بن الحسن (م ٣٢١ ق) / دار العلم للملايين / بيروت - لبنان / ط: الأولى.

٤٥. الحاشية على أصول الكافي / النائي، محمد بن حيدر (م ١٠٨٢ ق) / دار الحديث / قم - إيران / ١٤٢٤ ق / ط: الأولى.

٤٦. حلية الأبرار في أحوال محمد وآله الأطهار عليهم السلام / البحراني، السيد هاشم بن سليمان (م ١١٠٧ ق) / مؤسسة المعارف الإسلامية / قم - إيران / ١٤١١ ق / ط: الأولى.

٤٧. حياة الحيوان الكبرى / الدميري، كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى (م ٨٠٨ ق) / دار الكتب العلمية / بيروت - لبنان / ١٤٢٤ ق / ط: الأولى.

٤٨. الخرائج والجرائح / قطب الدين الراوندي، سعيد بن هبة الله (م ٥٧٣ ق) / مؤسسة الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) / قم - إيران / ١٤٠٩ ق / ط: الأولى.

٤٩. خصائص الأئمة عليهم السلام / الشريف الرضي، أبو الحسن محمد بن الحسين (م ٤٠٦ ق) / الآستانة الرضوية المقدسة، مجمع البحوث الإسلامية / مشهد - إيران / ١٤٠٦ ق / ط: الأولى.

٥٠. الخصال / ابن بابويه، محمد بن علي الصدوق (م ٣٨١ ق) / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة / قم - إيران / ١٣٦٢ ش / ط: الأولى.

٥١. الدرّ النظيم في مناقب الأئمة اللهايم / الشامي، يوسف بن حاتم (م قرن ٧ ق) / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة / قم - إيران / ط: الأولى.

٥٢. الذريعة إلى حافظ الشريعة / الجيلاني، رفيع الدين محمد بن محمد مؤمن (م قرن ١١ ق) / دار الحديث / قم - إيران / ١٤٢٩ ق / ط: الأولى.

٥٣. رجال الكشي (اختيار معرفة الرجال) / الكشي، محمد بن عمر (م قرن ٤ ق) / مؤسسة جامعة مشهد للنشر / مشهد - إيران / ١٤٠٩ ق / ط: الأولى.

٥٤. رجال النجاشي (فهرست أسماء مصنفی الشيعة) / النجاشي،

الأطهار عليه السلام / الديلمي، الحسن بن محمد (م ٨٤١ ق) / منشورات دليل ما / قم - إيران / ١٤٢٧ ق / ط: الأولى.

٧٧. الغيبة / النعماني، محمد بن إبراهيم (م قرن ٤ ق) / منشورات الصدوق / طهران - إيران / ١٣٩٧ ق / ط: الأولى.

٧٨. الغيبة (إثبات الغيبة) / الطوسي، محمد بن الحسين (م ٤٦٠ ق) / مؤسسة المعارف الإسلامية / قم - إيران / ١٤١١ ق / ط: الأولى.

٧٩. فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم (فرج المهموم في معرفة نهج الحلال من علم النجوم) / ابن طاووس، علي بن موسى (م ٦٦٤ ق) / دار الذخائر للطبوعات / قم - إيران / ١٣٦٨ ق / ط: الأولى.

٨٠. الفصول المهمة في أصول الأئمة عليهم السلام (تكملة الوسائل) / الحر العاملي، محمد بن الحسن (م ١١٠٤ ق) / مؤسسة الإمام الرضا عليه السلام في معارف الإسلامية / قم - إيران / ١٤١٨ ق / ط: الأولى.

٨١. فضائل أمير المؤمنين عليه السلام / ابن عقدة الكوفي، أحمد بن محمد (م ٣٣٢ ق) / منشورات دليل ما / قم - إيران / ١٤٢٤ ق / ط: الأولى.

٨٢. فقه اللغة / الثعالبي، عبد الملك بن محمد (م ٤٢٩ ق) / دار الكتب العلمية / بيروت - لبنان / ١٤١٤ ق / ط: الأولى.

٨٣. الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام / الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام / مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث / مشهد - إيران / ١٤٠٦ ق / ط: الأولى.

٨٤. القاموس المحيط / الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب (م ٨١٧ ق) / دار الكتب العلمية / بيروت - لبنان / ط: الأولى.

٨٥. قرب الإسناد / الحميري، عبد الله بن جعفر (م قرن ٣ ق) / مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث / قم - إيران / ١٤١٣ ق / ط: الأولى.

٨٦. قصص الأنبياء عليهم السلام / قطب الدين الراوندي، سعيد بن هبة الله (م ٥٧٣ ق) / الآستانة الرضوية المقدسة، مجمع بحوث الإسلامية / مشهد - إيران / ١٤٠٩ ق / ط: الأولى.

٨٧. القواعد والفوائد / الشهيد الأول، أبي عبد الله محمد ابن

٦٥. صحيح مسلم (الجامع الصحيح) / النيسابوري، مسلم بن الحجاج (م ٢٦١ ق) / دار الفكر / بيروت - لبنان.

٦٦. صحيفة الرضا عليه السلام / الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام / المؤتمر الإمام الرضا عليه السلام / مشهد - إيران / ١٤٠٦ ق / ط: الأولى.

٦٧. صفات الشيعة / ابن بابويه، محمد بن علي الصدوق (م ٣٨١ ق) / الأعلمي / طهران - إيران / ١٣٦٢ ش / ط: الأولى.

٦٨. طراز الأول و الكناز لما عليه من لغة العرب المعول / الكبير المدني الشيرازي، السيد علي خان بن أحمد (م ١٢٠١ ق) / مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث / مشهد - إيران / ١٣٨٤ ش / ط: الأولى.

٦٩. عدة الداعي و نجاح الساعي / ابن فهد الحلبي، أحمد بن محمد (م ٨٤١ ق) / دار الكتب الإسلامية / ١٤٠٧ ق / ط: الأولى.

٧٠. العدد القوي لدفع المخاوف اليومية / الحلبي، رضي الدين علي بن يوسف بن المطهر (م ٧٠٣ ق) / مكتبة آية الله المرعشي النجفي / قم - إيران / ١٤٠٨ ق / ط: الأولى.

٧١. علل الشرائع / ابن بابويه، محمد بن علي الصدوق (م ٣٨١ ق) / مكتبة الداوري / قم - إيران / ١٣٨٥ ش / ط: الأولى.

٧٢. عوالي اللئالي العززية في الأحاديث الدينية / ابن أبي جمهور، محمد بن زين الدين (كان حيًا سنة ٩٠١ ق) / دار سيد الشهداء للنشر / قم - إيران / ١٤٠٥ ق / ط: الأولى.

٧٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام / ابن بابويه، محمد بن علي الصدوق (م ٣٨١ ق) / منشورات جهان للنشر / طهران - إيران / ١٣٧٨ ق / ط: الأولى.

٧٤. عيون المعجزات / الحسين بن عبد الوهاب (م قرن ٥ ق) / المكتبة الداوري / قم - إيران.

٧٥. الغارات أو الاستغفار والغارات / الثقفني، إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال (م ٢٨٣ ق) / مجمع الآثار الملية / طهران - إيران / ١٣٩٥ ق / ط: الأولى.

٧٦. غرر الأخبار و درر الآثار في مناقب أبي الأئمة

الحسن (م ٥٤٨ ق) / منشورات ناصر خسرو / طهران - إيران / ١٣٧٢ ش / ط: الثانية.

١٠٠. **مجموعة وزّام** (تنبيه الخواطر ونزهة النواظر) / وزّام بن أبي فراس، مسعود بن عيسى (م ٦٠٥ ق) / مكتبة الفقيه / قم - إيران / ١٤١٠ ق / ط: الأولى.

١٠١. **المحاسن** / البرقيّ، أحمد بن محمد بن خالد (م ٢٧٤ ق أو ٢٨٠ ق) / دار الكتب الإسلامية / قم - إيران / ١٣٧١ ق / ط: الثانية.

١٠٢. **المحصل** / فخر الدين الرازيّ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين (م ٦٠٦ ق) / دار الرازيّ / عمان / ١٤١١ ق / ط: الأولى.

١٠٣. **المحيط في اللغة** / صاحب، إسماعيل بن عبّاد (م ٣٨٥ ق) / عالم الكتب / بيروت - لبنان / ١٤١٤ ق / ط: الأولى.

١٠٤. **مختصر البصائر** / الحلّيّ، الحسن بن سليمان بن محمد (مقرن ٨ ق) / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المقدّسة / قم - إيران / ١٤٢١ ق / ط: الأولى.

١٠٥. **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول** / المجلسيّ، محمد باقر بن محمد تقّي (م ١١١٠ ق) / دار الكتب الإسلامية / طهران - إيران / ١٤٠٤ ق / ط: الثانية.

١٠٦. **مسند أحمد** / أحمد بن حنبل (م ٢٤١ ق) / دار صادر / بيروت - لبنان.

١٠٧. **مشكاة الأنوار في غرر الأخبار** / الطبرسيّ، عليّ بن الحسن (م ٦٠٠ ق) / منشورات المكتبة الحيدريّة / النجف الأشرف - العراق / ١٣٨٥ ق / ط: الثانية.

١٠٨. **المصباح** (جُنة الأمان الواقية وجُنة الإيمان الباقية) / الكفعميّ، إبراهيم بن عليّ العامليّ (م ٩٠٥ ق) / دار الرضويّ الزاهديّ / قم - إيران / ١٤٠٥ ق / ط: الثانية.

١٠٩. **مصباح الشريعة** / المنسوب إلى جعفر بن محمد الصادق عليه السلام / الأعلميّ / بيروت - لبنان / ١٤٠٠ ق / ط: الأولى.

١١٠. **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير** / المقرّيّ الفيوميّ، أحمد بن محمد (م ٧٧٠ ق) / مؤسسة دار الهجرة / قم - إيران / ١٤١٤ ق / ط: الثانية.

مكيّ العامليّ (م ٧٨٦ ق) / منشورات مكتبة المفيد / قم - إيران / ط: الأولى.

٨٨. **الكافي** / الكلينيّ، محمد بن يعقوب (م ٣٢٩ ق) / دار الكتب الإسلامية / طهران - إيران / ١٤٠٧ ق / ط: الرابعة.

٨٩. **الكامل في التاريخ** / ابن الأثير، عزّ الدين عليّ بن أبي الكرم (م ٦٣٠ ق) / دار صادر / بيروت - لبنان / ١٣٨٥ ق.

٩٠. **كتاب الماء** / الأزديّ، عبد الله بن محمد (م ٤٦٦ ق) / مؤسسة المطالعات التاريخيّة للطبّ الإسلاميّ والطبّ التكميليّ / طهران - إيران / ١٣٨٧ ش / ط: الأولى.

٩١. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل** / الزمخشريّ، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر (م ٥٣٨ ق) / دار الكتاب العربيّ / بيروت - لبنان / ١٤٠٧ ق / ط: الثالثة.

٩٢. **كشف الغمّة في معرفة الأنظمة** / الإربليّ، عليّ بن عيسى (م ٦٩٢ ق) / منشورات بني هاشميّ / تبريز - إيران / ١٣٨١ ق / ط: الأولى.

٩٣. **كشف المحجّة لثمره المهجة** / ابن طاووس، عليّ بن موسى (م ٦٦٤ ق) / مركز النشر مكتب الإعلام الإسلاميّ / قم - إيران / ١٣٧٥ ش / ط: الثانية.

٩٤. **كفاية الأثر في النص على الأنظمة الاثني عشر** / الخزّاز الرازيّ، عليّ بن محمد (م قرن ٤ ق) / دار بيدار للنشر / قم - إيران / ١٤٠١ ق.

٩٥. **كنز الفوائد** / الكراجكيّ، محمد بن عليّ (م ٤٤٩ ق) / دار الذخائر للمطبوعات / قم - إيران / ١٤١٠ ق / ط: الأولى.

٩٦. **لسان العرب** / ابن منظور، محمد بن مكرم (م ٧١١ ق) / دار صادر / بيروت - لبنان / ط: الثالثة.

٩٧. **متشابه القرآن ومختلفه** / ابن شهر آشوب المازندرانيّ، محمد بن عليّ (م ٥٨٨ ق) / دار بيدار للنشر / قم - إيران / ١٣٦٩ ق / ط: الأولى.

٩٨. **مجمع البحرين** / الطريحيّ، فخر الدين بن محمد (م ١٠٨٥ ق) / مكتبة المرتضويّة لإحياء الآثار الجعفريّة / طهران - إيران / ١٣٧٥ ش / ط: الثالثة.

٩٩. **مجمع البيان في تفسير القرآن** / الطبرسيّ، الفضل بن

١١١. معالم التنزيل في تفسير القرآن / البغوي، الحسين بن مسعود (م قرن ٦ ق) / دار إحياء التراث العربي / بيروت - لبنان / ١٤٢٠ ق / ط: الأولى.
١١٢. معاني الأخبار / ابن بابويه، محمد بن علي الصدوق (م ٣٨١ ق) / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة / قم - إيران / ١٤٠٣ ق / ط: الأولى.
١١٣. معجم البلدان / الحموي، ياقوت بن عبد الله (م ٦٢٦ ق) / دار صادر / بيروت - لبنان / ١٩٩٥ م / ط: الثانية.
١١٤. معجم مقاييس اللغة / ابن فارس، أحمد بن فارس (م ٣٩٥ ق) / مركز النشر مكتب الإعلام الإسلامي / قم - إيران / ١٤٠٤ ق / ط: الأولى.
١١٥. المغرب في ترتيب المعرب / الخوارزمي المطرزي، ناصر بن عبد السيد أبي المكارم ابن علي (م ٦١٠ ق) / مكتبة أسامة بن زيد / حلب - سورية / ط: الأولى.
١١٦. مفاتيح الغيب / فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين (م ٦٠٦ ق) / دار إحياء التراث العربي / بيروت - لبنان / ١٤٢٠ ق / ط: الثالثة.
١١٧. مفردات ألفاظ القرآن / الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد (م ٥٠٢ ق) / دار القلم / بيروت - لبنان / دار الشامية / دمشق - سورية / ١٤١٢ ق / ط: الأولى.
١١٨. مقدمة الأدب / الزمخشري، محمود بن عمر (م ٥٣٨ ق) / مؤسسة المطالعات الإسلامية / طهران - إيران / ١٣٨٦ ش / ط: الأولى.
١١٩. المقنعة / المفيد، محمد بن محمد (م ٤١٣ ق) / المؤتمر العالمي للشيخ المفيد / قم - إيران / ١٤١٣ ق / ط: الأولى.
١٢٠. الملل والنحل / الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم (م ٥٤٨ ق) / منشورات الشريف الرضي / قم - إيران / ١٣٦٤ ش / ط: الثالثة.
١٢١. مناقب آل أبي طالب عليه السلام / ابن شهر آشوب المازندراني، محمد بن علي بن الحسين (م قرن ٥ ق) / منشورات دليل ما / قم - إيران / ١٤٢٨ ق / ط: الأولى.
١٢٢. من لا يحضره الفقيه / ابن بابويه، محمد بن علي الصدوق (م ٣٨١ ق) / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة / قم - إيران / ١٤٠٣ ق / ط: الأولى.
١٢٣. منهاج البراعة / قطب الدين الراوندي، سعيد بن هبة الله (م ٥٣٧ ق) / مكتبة آية الله المرعشي النجفي / قم - إيران / ١٣٦٤ ش.
١٢٤. منية المريد / الشهيد الثاني، زين الدين بن علي (م ٩٦٦ ق) / مركز النشر مكتب الإعلام الإسلامي / قم - إيران / ١٤٠٩ ق / ط: الأولى.
١٢٥. نبراس الضياء / الداماد، مير محمد باقر (م ١٠٤١ ق) / الهجرة والميراث المكتوب / قم - إيران / ١٣٧٤ ش / ط: الأولى.
١٢٦. النهاية في غريب الحديث والأثر / ابن الأثير الجزري، مبارك بن محمد (م ٦٠٦ ق) / مؤسسة إسماعيليان / قم - إيران / ١٣٦٧ ش / ط: الرابعة.
١٢٧. نهج البلاغة (الصبحي الصالح) / الشريف الرضي، أبو الحسن محمد الحسين (م ٤٠٦ ق) / منشورات دار الهجرة / قم - إيران / ١٤١٤ ق / ط: الأولى.
١٢٨. نوادر الأخبار فيما يتعلق بأصول الدين / الفيض الكاشاني، محمد محسن بن شاه مرتضى (م ١٠٩١ ق) / مؤسسة الدراسات والبحوث الشافعية / طهران - إيران / ١٣٧١ ش / ط: الأولى.
١٢٩. نوادر المعجزات في مناقب الأئمة الهداة عليهم السلام / الطبري الأملي الصغير، محمد بن جرير بن رستم (قرن ٥ ق) / منشورات دليل ما / قم - إيران / ١٤٢٧ ق / ط: الأولى.
١٣٠. الهداية الكبرى / الخصب، الحسين بن حمدان (م ٣٣٤ ق) / البلاغ / بيروت - لبنان / ١٤١٩ ق.
١٣١. الوافي / الفيض الكاشاني، محمد محسن بن شاه مرتضى (م ١٠٩١ ق) / مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام العامة / إصفهان - إيران / ١٤٠٦ ق / ط: الأولى.
١٣٢. وسائل الشيعة (تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة) / الحر العاملي، محمد بن الحسن (م ١١٠٤ ق) / مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث / قم - إيران / ١٤٠٩ ق / ط: الأولى.

١١١. معالم التنزيل في تفسير القرآن / البغوي، الحسين بن مسعود (م قرن ٦ ق) / دار إحياء التراث العربي / بيروت - لبنان / ١٤٢٠ ق / ط: الأولى.
١١٢. معاني الأخبار / ابن بابويه، محمد بن علي الصدوق (م ٣٨١ ق) / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة / قم - إيران / ١٤٠٣ ق / ط: الأولى.
١١٣. معجم البلدان / الحموي، ياقوت بن عبد الله (م ٦٢٦ ق) / دار صادر / بيروت - لبنان / ١٩٩٥ م / ط: الثانية.
١١٤. معجم مقاييس اللغة / ابن فارس، أحمد بن فارس (م ٣٩٥ ق) / مركز النشر مكتب الإعلام الإسلامي / قم - إيران / ١٤٠٤ ق / ط: الأولى.
١١٥. المغرب في ترتيب المعرب / الخوارزمي المطرزي، ناصر بن عبد السيد أبي المكارم ابن علي (م ٦١٠ ق) / مكتبة أسامة بن زيد / حلب - سورية / ط: الأولى.
١١٦. مفاتيح الغيب / فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين (م ٦٠٦ ق) / دار إحياء التراث العربي / بيروت - لبنان / ١٤٢٠ ق / ط: الثالثة.
١١٧. مفردات ألفاظ القرآن / الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد (م ٥٠٢ ق) / دار القلم / بيروت - لبنان / دار الشامية / دمشق - سورية / ١٤١٢ ق / ط: الأولى.
١١٨. مقدمة الأدب / الزمخشري، محمود بن عمر (م ٥٣٨ ق) / مؤسسة المطالعات الإسلامية / طهران - إيران / ١٣٨٦ ش / ط: الأولى.
١١٩. المقنعة / المفيد، محمد بن محمد (م ٤١٣ ق) / المؤتمر العالمي للشيخ المفيد / قم - إيران / ١٤١٣ ق / ط: الأولى.
١٢٠. الملل والنحل / الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم (م ٥٤٨ ق) / منشورات الشريف الرضي / قم - إيران / ١٣٦٤ ش / ط: الثالثة.
١٢١. مناقب آل أبي طالب عليه السلام / ابن شهر آشوب المازندراني، محمد بن علي بن الحسين (م قرن ٥ ق) / منشورات دليل ما / قم - إيران / ١٤٢٨ ق / ط: الأولى.
١٢٢. من لا يحضره الفقيه / ابن بابويه، محمد بن علي الصدوق (م ٣٨١ ق) / مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة / قم - إيران / ١٤٠٣ ق / ط: الأولى.